

تراجم نشرت في مجلة «حضارة الإسلام» مع إضافات

جمعها ورتبها وقدم لها وعلق عليها
مجد مكي

الجزء الأول

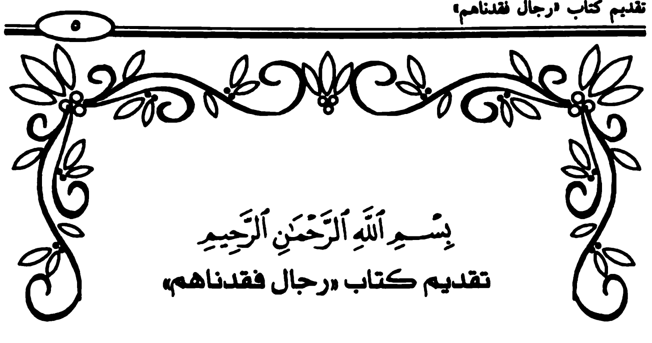
دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

ISBN 978-614-416-250-7

دار ابن حزم
بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366
هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)
البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb
الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم كتاب «رجال فقدناهم»

الحمد لله حقَّ حمده، والصَّلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، ورضي الله على آله وصحبه، وبعد:

«فالأمة الناهضة تُقدِّر رجالها أحياءً وأمواتاً، فلا تُهمل تراجمهم بعد وفاتهم، عرفاناً بجميلهم، وإسداءً إليهم ما يستحقونه من حسن الأحدوثة على أعمالهم، وحضاً للأحياء على اتِّخاذ هؤلاء أسوة حسنة في خدمة الأمة من شتَّى النواحي.

بل إنَّ دراسة تراجم رجال كل أمة في كل عصر، حقُّ الدراسة هي المرآة الصادقة في تحديد مركز تلك الأمة في ذلك العصر نهوضاً، وخموداً، وتدهوراً.

ففي تراجم الرجال تتمثَّل حضارة الأمة وثقافتها وتقدُّمها وتأخُّرها، فإذن هي معيار صادق العيار، يرجو الصَّادقون في خدمة الأمة إنصافها لهم، ويخاف المقصِّرون حكمها عليهم. فإذا لم يُترجم لهؤلاء[1] وهؤلاء[2] تضيع مواضع الأسوة الحسنة وسوء الأحدوثة من التاريخ، فيصبح الخادم والهادم

(١) أي: الصَّادقون.

(٢) أي: المقصِّرون.

على حدٍّ سواء»[١].

وسعياً منّي لتقدير هؤلاء الرجال، ونشراً لمآثرهم، وتعريفاً بجهودهم، قمتُ بجمع هذه التراجم التي نُشرت في مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقية، في ركن «رجل فقدناه»؛ لئلا تبقى حبيسة صفحات مجلة لم يعد من الميسور الوصول إليها، والاطلاع عليها.

وسيجد القارئ بعد هذه المقدمة تعريفاً بمجلة «حضارة الإسلام»[٢]، وبركن: «رجل فقدناه».

عملي في هذا الكتاب:

١ ـ قدّمت مقدمة وافية تُعرِّف بمجلة «حضارة الإسلام»، وتُلقي الضوء على أهم أركانها، وتُعرِّف بهذا الركن «رجل فقدناه» الذي جمعت منه هذه التراجم[٣].

٢ ـ استَقْصَيْتُ في جمع التراجم الواردة في ركن «رجل فقدناه»،

---

(١) تقديم العلامة الكوثري لكتاب: «الأعلام الشرقية » ١ : ٥ للأستاذ زكي مجاهد.

(٢) هذه الكلمات التي ستأتي حول المجلّة، هي لمحات عنها، وأما الحديث التفصيلي عن المجلّة وأركانها وكتّابها، وجَوْلاتها الفكريّة، وميادينها التربويّة، ودورها الإعلاميّ فإنه يحتاج إلى دراسة مفصّلة تقدّم فيها رسالة جامعيّة. وما سأكتبه حول المجلّة، إنما هي كلماتٌ وقفتُ عليها خلال جمعي للمادّة العلميّة لهذا الكتاب، وليست المجلّة بين يديّ لأستقرئ الكثير من الجوانب التي تحتاج إلى بحثٍ وتفصيل.

(٣) قد يجد القارئ حديثاً مسهباً عن مجلة «حضارة الإسلام» في الصفحات التالية، وكنت أود أن أكتب كلمات حول موضوع القدوة في سير الرجال وأخبارهم، وكيف أنها تعلّم علو الهمة وتحقق النموذج المربّي والقدوة الصالحة. لاسيما أن المترجمين من أبناء القرن الرابع والخامس عشر الهجري، وزمنهم قريب منا، ونحن عندما نتحدّث عن السلف في القرون الأولى يرى بعض الناس أنهم أمة قد خلت؛ وأن اللحاق بهم شأن بعيد المنال لا يمكن تحقيقه. وعندما نقدم نماذج قريبة العهد فإنما نقدّم أنموذجاً يمكن تطبيقه في واقعنا وحياتنا.

وأضفتُ إليه من تقدَّمت وفاتهم ممَّن نُشرت تراجمهم وهم ستة أعلام[(١)]، كما استقصيت تراجم كثيرة واردة في المجلة في غير الركن المذكور.

٣ ـ رتَّبت التراجم حسب تسلسلها الزمني في المجلة (١٣٨٠ ـ ١٤٠٠هـ)، وأضفتُ إلى التراجم الواردة في خلال هذه المرحلة الزمنيّة اثنتي عشرة ترجمة[(٢)].

٤ ـ أضفتُ عدداً من التراجم على الكتاب، ويبدأ من بعد سنة ١٤٠٠ إلى سنة ١٤٣٠، ويبلغ عددهم أربعاً وعشرين ترجمة[(٣)].

٥ ـ عُنيتُ بتصحيح الكتاب وترقيمه وخدمته.

٦ ـ كتبتُ عناوين جانبيَّة تُضيء أمام القارئ، وتكون بمثابة علامات إرشاديَّة، وخرَّجت الأحاديث الواردة، وأضفتُ فوائد متنوِّعة على التراجم الواردة فيه.

٧ ـ حَرَصتُ على نشر صُوَر المُترجَمين الذين نُشرت صورهم في مجلة «حضارة الإسلام»، وبذلت الجهد في إخراج الصُّورة بوضوح ونقاء، وأضفتُ صوراً متعدِّدة نادرة، كما حرصت على إعادة الخطوط التي كُتبت بها أسماء المُتَرْجَمين ولاسيما أنَّ بعضها بخط الخطاط الشهير بدوي الديراني، وبعضها بخط الخطاط عثمان طه.

وبعد، فهذا عملي الذي قمتُ به، والذي حرصتُ فيه على الإتقان والإحسان، أسأل المولى سبحانه أن يتقبَّله مني بقَبول حَسَن، وأن يُسبْغ واسع رحمته وجزيل إحسانه على هؤلاء الرجال الذين خدموا العلم والدين وأمة الإسلام، وأرجو أن يجد فيه القراء الفائدة والنفع كما أسأله سبحانه أن

---

(١) وهم حسب وفياتهم: محمد بدر الدين الحسني، وعز الدين القسام، وعبدالحميد بن باديس، وقاسم القيسي، وعبدالقادر المغربي، ومحمد الخضر حسين.

(٢) تنظر أسماؤهم ص٤٠ ـ ٤٢.

(٣) تنظر أسماؤهم ص٤٣ ـ ٤٦.

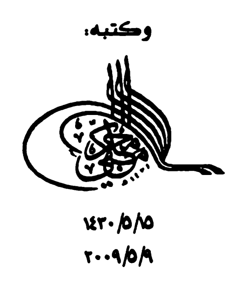
يبارك لي في الوقت والصحة والعلم والعمل لأنشر في وقت قريب التراجم التي نُشرت في موقع «الإسلام في سورية» وما تجمّع لديَّ من تراجم نادرة.

اللهمّ إني أسألك علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، ورزقاً طيباً.

اللهمّ اجْعل ثوابَ هذا العمل في صحيفة والديَّ اللذين أحسنا إليَّ، وتَعَهَّداني بتربيتهما ورعايتهما، ربِّ اغفر لي ولوالدي ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

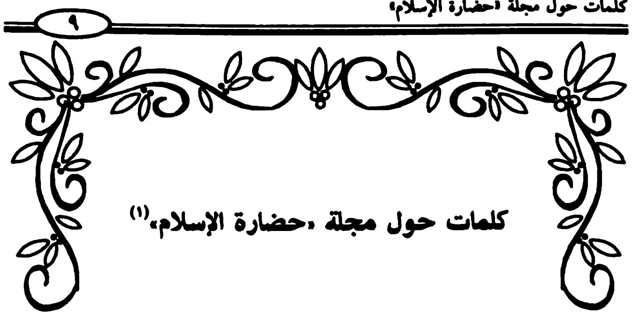
وكتبه:



١٤٣٠/٥/١٥

٢٠٠٩/٥/٩





كلمات حول مجلة «حضارة الإسلام»[1]

مجلة «حضارة الإسلام» ودَوْرُ مُؤَسِّسها في الصحافة الإسلامية:

هذه المجلة الفكرية الجامعة، أنشأها الأستاذ المجاهد الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، وقد صدر العدد الأول منها في شَهْري المحرم وصفر من عام ١٣٨٠هـ، الموافق تموز وآب ١٩٦٠م، واستمرت بعد ذلك في الصدور حتى عام ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

والأستاذ السباعي كان من الدعاة الأفذاذ الذين بُوركت أعمارهم، وتنوّعت اهتماماتهم، وقد أدرك أهمية الإعلام والتواصل مع الجماهير، فأعطى الصحافة الكثير من وقته وجهده في الذود عن حمى الإسلام، في فترة مبكرة منذ سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م، إذ كتب في مجلة «الفتح» التي كان يصدرها الأديب الأستاذ محب الدين الخطيب، ثم تابع معركة الذود عن الإسلام فأصدر جريدة «المنار» الدمشقية اليوميّة عام ١٩٤٧م «لساناً للدعوة الحق والقوة والحرية»، وكان يطالع الجماهير المسلمة كل صباح بافتتاحيته اليومية فيها حتى عام ١٩٤٩م. ثم أسّس جريدة «الشهاب» الأسبوعية عام ١٩٥٥م، لتكون لسانَ حال الدعوة الإسلامية في سورية، تُترجم عن

---

(١) سيجد القارئ الكريم ـ كما تقدم ـ إطالة في التعريف بالمجلّة وأبوابها؛ لأن أكثر التراجم الواردة في هذا الكتاب مأخوذة من تلك المجلّة. ولم أقفْ على دراسة تُعرِّف بها وتذكر أثرها الإعلاميّ، ودورها التربويّ والدعويّ فمعذرة للإطالة والاقتباسات المطوّلة.

مواقفها، وتنشر آراءها وأفكارها. وفي عام ١٩٥٥م حصل السباعي على امتياز بإصدار مجلة: «المسلمون» الشهرية، التي كان يصدرها الداعية الإسلامي سعيد رمضان في مصر ثم احتجبت[1]، وظلت المجلة تصدر بإدارته حتى عام ١٩٥٨م، وكانت مجلة ثقافية علمية تلتقي فيها أقلام أعلام الفكر من أمثال سيد قطب، ومحمد أبو زهرة، ومحمود شاكر، وأبي الأعلى المودودي، وأبي الحسن الندوي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، رحمهم الله جميعاً.

وآخر ما أصدره ـ في عمره القصير المبارك ـ مجلة «الحضارة»التي أعطاها من جهده وفكره ما جعلها تشقُّ طريقها مدرسة للفكر الإسلامي المعاصر، تُوضِّح معالمه، وتعكس حقيقته ناصعة مشرقة.

«لقد كانت الصحافة الإسلامية التي أسَّسها مصطفى السباعي متكاملةً في أداء دورها، قائمةً على المنهج الإسلامي في تنوُّعه وسَعَته.

فإذا كانت «المنار» و«الشهاب» مثلاً قد غلب عليهما الطابع السياسي للدعوة الإسلامية المعاصرة، فقد كانت مجلتا «المسلمون» و«حضارة الإسلام» خالصتين لنشر الفكر الإسلامي ومعالجة قضاياه في موضوعات

---

(١) قال الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله تعالى في تقديم العدد الأول من المجلد التاسع من مجلة «المسلمون»: (ربيع الأول ١٣٨٤هـ = تموز ١٩٥٤م) بعنوان: «بين عامين»: «لقد صدر العدد الأول من هذه المجلة مع غرة ربيع الأول سنة ١٣٧٢هـ= تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٩٥١م، حين كانت إدارتها في منيل الروضة (بالقاهرة)، وظلت تصدر من هنالك ثلاثة أعوام، ثم انتقل مقرّ إصدارها إلى (دمشق)، حيث استمرّ صدورها ثلاثة أعوام أخر، ثم كانت بعد ذلك هجرتها إلى (جنيف)، حيث صدرت أعداد عاميها الأخيرين، وتميَّزت في عنوانها منذ هاجرت هجرتها الأخيرة بأنها غدت مجلة (المركز الإسلامي) الناطقة باسمه والحاملة لرسالته إلى الشرق والغرب، وإنما كان هذا (المركز) ثمرة الطاقة الإسلامية الميمونة التي أثمرت (المسلمون) بادي الرأي، فلا غرو أن جمعتهما أصالة النبع ووحدة الفكرة والطريق»، ثم تكلَّم الأستاذ سعيد رمضان عن خطّة المجلة وسمتها وروحها، وذكر ثلاثة أمور: **أولها**: أنها مجلة «دعوة»، **وثانيها**: أنها مجلة «رسالة هادفة»، **وثالثها**: أنها مجلة «ثابتة الملامح» وأفاض في الحديث عن هذه الأمور الثلاثة ص ٢ ـ ٩.

يكتبها علماء مختصُّون، وفقهاء وأدباء في أناةٍ ورَوِيَّة، تنسجم مع إصدارها الشهري»[١].

ومن أبرز كُتَّابها في سنواتها الأولى: محمد أبو زهرة، ومصطفى الزرقا، وعلي الطنطاوي، ومعروف الدواليبي، ومحمد المبارك، ومحمد زكي عبدالبر، ومالك بن نبي، ومحب الدين الخطيب، وعمر عودة الخطيب، وعمر الحكيم، ومحمد المنتصر الكتاني، وعبدالقادر السبسبي، وعبدالفتاح أبو غدة، ومحمد صالح الأشتر، ومحمد عبدالله العربي، عميد كلية الحقوق، بجامعة القاهرة، وعلي الخفيف، وعلي عبدالواحد وافي، ويوسف العش، وصبحي الصالح، ومحمد سعيد رمضان البوطي، وعدنان زرزور، وعبداللطيف الصباغ، ومن شعراء الشباب آنذاك: محمد الحسناوي، ومحمد منلا غزيل.

كلمة الأستاذ السباعي في افتتاحية العدد الأول من «حضارة الإسلام»

وقد كتب الأستاذ السباعي في افتتاحية العدد الأول[٢] تحت عنوان:

المجلة في عامها الجديد

«تعيشُ أمتنا في عهد جديد تَتطلَّع فيه إلى آفاق حضاريَّة جديدة، تتَّسم بالذاتيَّة والاستقلال والكرامة، وإذا كانت نَسَمات الحرية قد هبت على جميع شعوب الشرق فأيقظتها من غفلتها، وبعثت فيها حنيناً إلى حياة الاستقلال والنهوض، فإنَّ أمتنا لا تمتلكها هذه الروح من جديد لأول مرة في تاريخها الطويل، ولا تحاول أن تُجاري الأمم الناهضة في تطلُّعها إلى الحرية،

---

(١) مصطفى السباعي: رائد أمة... وقائد دعوة. للدكتور محمد عادل الهاشمي ص٣٩٥.

(٢) قمت بجمع جميع مقدِّمات «حضارة الإسلام»، للدكتور السباعي، وقدمتها لابنه الصديق الفاضل الأستاذ محمد السباعي، ونشرها في كتاب بعنوان: «مقدمات حضارة الإسلام»، كما قدَّمت له جميع مقالات الأستاذ السباعي في مجلة «الفتح»، ونشرها بعنوان: «آلام وآمال». ولكن إعادة طبع هذه الافتتاحيات والمقالات يستلزم التعليق عليها أو التقديم لها بما يضعها في ظروفها ومناسبتها وإطارها الزمني.

وعملها في سبيلها، بل إنَّ لها تاريخاً حافلاً لعبت فيه دوراً حضارياً خالداً، ولها أياد بيضاء في تحرير الشعوب والسير بها نحو الحياة السعيدة الرغدة، بخطىً واسعة، فلا عجب إذا انبعثت فيها من جديد «روح الحضارة» تحثُّ خطاها نحو البناء، وتدفعها حثيثاً نحو النور.

نحن أمةٌ لها ماض، وعندها تراث، وبين يديها بناء، وفي عقولها فلسفةٌ ورسالة، وفي عيونها سَناء ونور، وفي قلوبها إيمانٌ ويقين، وفي أخلاقها نُبل وشرف، وفي نفوسها تُقى وصلاح، فلنا من بين هذه الأمم الناهضة كلها شأنٌ غير شأنها، ومن ثمة كانت علينا واجباتٌ أكبر من واجباتها.

والأمم الغنية لا تستجدي بل تُعطي، والأمم البصيرة لا تُقاد بل تقود، والأمم القويّة لا تُدفع بل تَدفع، والأمم المفكرة لا تهدم بل تبني.

والقوى الموجبة تعمل ولا تفر، وحَمَلة الرسالات يُوجِّهون ولا يُوجَّهون، ورافعو المشاعل يضيئون ولا يطفئون الأنوار!...

وإذا كنا أمةً حضاريةً قد أسهمنا في بناء الصَرْح الحضاري بأنظف يد، وأكمل عقل، وأسلم قلب، وأكرم خُلق، وأقوى مادة، فإنَّ تراثنا الحضاري، لا يزال حياً تحتاج إليه هذه الإنسانية التي تعيش اليوم قلقة مُعذَّبة: تطعم وهي تشكو الجوع، وتشرب وهي تعاني الظمأ، وتدل على السعادة وهي تتيه في الشقاء، وتتعرف إلى الصحة وهي تئنُّ من وطأة المرض!...

وتراثنا الحضاري الحي مُتنوِّع فيه اللذة والغناء، والقوة والصفاء، ولكنه يشكو الإهمال والإعراض، وينتظر من ينصفه من أبنائه كما بدأ ينصفه بعض أعدائه، وأجدر وقت بإحيائه وإنصافه هو هذا الوقت الذي تثبُ فيه أمتنا في خطوة ما لم تكن تَثِبُه قبل قليل بعشرات الخطى، وتبني في ساعة ما كانت لا تقيم صرحه بعشرات السنين، وأجدر الأجيال بحَمْل هذا التراث وحَمْل أعبائه الجسام هو هذا الجيل، الذي أدرك قيمة ذاته، وحمل من أعباء المجد ما لم يحمل غيره من عشرات الأجيال، والذي أجبر العالم على أن ينظر إليه نظر الاحترام بعد أن ظل مئات السنين لا ينظر إليه إلا نظر الازدراء والإهمال...

تسمية المجلة «حضارة الإسلام» بدلاً من «المسلمون»:

من أجل هذا كله، قرّرت مجلتنا أن تُسهم في بناء مجْدنا الحضاري الحديث، بعرض الصورة الحيّة المثيرة المفيدة من تراثنا الحضاري وتفكيرنا العلمي، وأن يكون اسمها بعد الآن: «حضارة الإسلام» بدلاً من «المسلمون»[١]، وأن تكون مُنوّعة المادة، غزيرةَ الفائدة، كغزارة الفكرة التي تحملها، والبناء الذي تُسهم فيه، وأن تستكتب من أقطاب العلم، وأساطين الفكر، وأعلام الأدب، ما يتّفق مع عظمة الرسالة التي تحملها والغاية التي تهدف إليها.

وهذا الجزء الأول من عامنا الجديد، لن يكون مثالاً لما نريد من تجديدٍ في المادة وتنوّع في الأبحاث وتعدّد في الثقافة، فقد اضطرتنا ظروف قاهرة إلى إخراجه بهذا الشكل الموجز، على أن نبدأ منذ العدد القادم بحول الله بإخراج المجلة كما نحب ويتفق مع منهجها الجديد.

مهمة المجلة الرئيسية:

ونريد أن نؤكد لقرائنا الأعزاء أننا لا نزال نعتبر مهمة المجلة الرئيسية هي التوجيه الصّادق السليم، نحو بناء ثقافي مستقيم، ثابت غير منحرف، جميل غير مُشوَّه، قويّ غير مُضْطرب، نستلهمه من عقيدة هذه الأمة وتراثها الغني العظيم، ورسالتها التي كانت رحمة للعالمين.

وهذا عهد نريد أن نُجدّده لقرائنا في مستهل العام الجديد لمجلتهم التي منحوها حبّهم وتأييدهم، وهي تنتظر منهم في ثوبها الجديد، المزيد من ذلك الحبّ والتأييد.

---

(١) يقول الدكتور عدنان زرزور في كتابه «مصطفى السباعي الداعية المجاهد...» ص٤٢٤: «إنّ تحويل اسم المجلة من (المسلمون) إلى (حضارة الإسلام) ليس عملاً عابراً في هذا السياق لأننا ما نزال نقف على أهميته وفلسفته عاماً بعد عام... حتى وصلنا اليوم إلى عصر (نهاية التاريخ) وصدام الحضارات الذي يتحدث عنه الآخرون».

ومن الله نستمدُّ العونَ والهداية، وعلى هدي رسوله محمد ﷺ نسير، وإلى خير أمتنا نسعى، وفي سبيل الله نحيا، ولرضاه وثوابه نعمل، وهو أرحم الراحمين» انتهى.

وقد استمرَّ إشراف الأستاذ السباعي على تحرير هذه المجلة ورئاستها، حتى آخر يوم من حياته[١]، أي: مدة تقرب من خمسة أعوام. «وقد كتب فيها عشرات الافتتاحيات - ما يقرب من أربعين - وكانت الافتتاحية تتراوح بين ثلاث وخمس صفحات، وتتناول أهم أحداث الساعة فكرياً وثقافياً وسياسياً، وتمتاز هذه الافتتاحيات بقوَّة الرَّبْط وعُمْقِ التحليل.. إلى جانب الرؤية الحضارية الشاملة الأمر الذي يجعل جمعها وإعادة طبعها من جديد عملاً علمياً دعوياً مهماً»[٢]، ولم تكن هذه الافتتاحيات كلَّ مشاركته في تحرير المجلة، فقد كانت له بعض المقالات، والكثير من الردود والمناقشات والتعليقات، إلى جانب التعريف العلمي ببعض الكتب والإصدارات، وكتابة تراجم بعض العلماء والشخصيات الذين كان يفتقدهم الوطن أو الأمة، وتمتاز هذه التراجم بالإحاطة والنفاذ»[٣].

وها هو يقول في افتتاحية العدد الأول من السنة الرابعة: (ربيع الأول ١٣٨٣، الموافق آب ١٩٦٣) تحت عنوان:

---

(١) وكانت افتتاحيته الأخيرة في مجلة «حضارة الإسلام» بعنوان: «الطريق الصحيح لحلّ مشكلاتنا»، ذكر فيها ملاحظاته على مؤتمر القمة العربي الثاني، ومقالته الأخيرة بعنوان: «رحلة إلى الله ورسوله» في العدد الثالث من السنة الخامسة: جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، الموافق أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤م، وتوفي الأستاذ السباعي ظهر يوم السبت الواقع في السابع والعشرين من جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، الموافق للثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤م، رحمه الله تعالى.

(٢) مصطفى السباعي، الداعية المجاهد والفقيه المجدِّد، للدكتور عدنان زرزور ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٣) المصدر السابق ص٤٣١.

نحن وكلمة الحق في عامنا الجديد

«باسم الله تفتتح هذه المجلة عامها الرابع، وإنَّ لها في ذكرى كلِّ من الهجرة والمولد أبرع استهلال، وعلى هدى من الله تعود هذه الصفحات إلى بثِّ كلمة الحق ونشر دعوة الإسلام، وإنَّ لها في سيرة رسول الحق خير قَبَسٍ ينير السبيل ويُحدِّد معالم الطريق.

باسم الله نعودُ إلى قُرَّائنا في مستهل عام جديد، لِنُعاهدهم على النُّطق بكلمة الإسلام ما دامت في أفواهنا ألسنة تتكلم، وعلى كتابة الحق الصُّراح ما دامت في أيدينا أقلام تخط... ننطق ونكتب ضمن صراطٍ من الحكمة والرفق، وعلى صعيدٍ من الإخاء والتوادّ والنصح.

دعوة الحق وظيفة كل مسلم:

نعِدُ قُرَّاءنا بهذا ونحن نعلم أنَّ دعوة الحق هي وظيفة كل مسلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سرُّ حياة كل مؤمن، على هذا تمَّ العقد بين الله عزَّ وجل وعباده المؤمنين في كل عصر وحالة وتاريخ... وبهذا شهد ملكوت الله من ملائكة وسماوات وأرضين، وبمُوجب هذا نطق بيان الله في كتابه العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: ١١١].

إنه لعهدٌ عظيمٌ وخطير!...

عهد لا يخصُّ طبقة دون أخرى، ولا رجلاً دون امرأة، ولا شاباً دون شيخ، إنما هو عهد الله على جميع عباده الذين وقعوا تحت نصِّ هذا البيان، أولئك هم الذين شهدوا بوحدانيَّة الله ونُبوَّة رسوله، وأيقنوا أنَّ يوم الفصْل ميقات لا ريب فيه يقوم فيه الناس لرب العالمين.

الجهاد بالكلمة الصادقة:

ذلك هو عهد الجهاد بالكلمة الصادقة، والقلم الجريء، والدعوة المخلصة.

عهد قطعناه على أنفسنا يوم آمنا بالله. ومن الخيانة أن ننبذه وراء ظهورنا يوم أن قام بيننا وبينه دعة النعيم وزخرف الحياة الدنيا.

لقد أكد الصحابة على أنفسهم حقَّ هذا العهد يوم أن مدوا أيديهم إلى يد رسول الله ﷺ عند العقبة وتحت الشجرة - وهم لا يشكُون أنهم إنما يمدون أيديهم إلى الله - ثم راحوا يبايعونه في إصرار خاشع على السمع والطاعة في العُسْر واليُسْر، والمنشط والمكره، والغضب والرضا.

ثم أكد التابعون من بعدهم تمسُّكهم بهذا العهد يوم أن بايعوا الصحابة على ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، ثم تفرَّقوا بين سمع الدنيا وبصرها يُجاهدون بنشر العلم وبثِّ الدعوة وحَمْل السلاح وصَيْحة الحق.

ويؤكِّد المسلمون اليوم من بعدهم نفس هذا العهد والحق كلما احتشد منهم حشْدٌ عند العقبة أو حول ذرى عرفات، حيث بايع رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً أول جيل من دُعاة الإسلام على الإصرار في حفظ حِمى الإسلام والجهاد في نشر مبادئه وأحكامه، هنالك يجدِّد المسلمون هذا العهد على أنفسهم في كل عام... وهنالك تتعاقب أجيال المسلمين على مد يد البيعة إلى رسول الله ﷺ أن يكونوا أمناء على الحق الذي تركه بين أيديهم، وعلى آخر وصيَّة وجَّهها عبر التاريخ والأجيال إلى سمع الزمن كله متمثلاً في هذه الأجيال المتعاقبة لهذه الأمة.

ولقد وفَّى الرعيل الأول بما عاهد الله عليه، فوفَّى لهم بالنصر الذي وعدهم إيَّاه، والسعادة التي منَّاهم بها، لم يبالوا في سبيل الله بمال يذهب ولا بحياة تزول، لأنَّ المال لم يعد مالهم والحياة لم تعد حياتهم بعد أن اشتروا بهما جنَّة الله ومرضاته، لم يَصْطنعوا الدعوة إلى الحقِّ للتجارة بالمال أو الشُّهرة، ولم ينافقوا أمام الشر للمقامرة ابتغاء غَرَض أو قصْد، لأنهم لم يكذبوا على الله في جهر ولا سر، ولم يدخلوا الإسلام لاقتناص الجاه

الزائل أو المنفعة العارضة، فكان جزاؤهم أن ظلّ التاريخ ساجداً لهم إلى هذا اليوم، يُرتّل مآثرهم على سَمْع الدنيا وعبر الأزمنة والقرون.

ولقد مضى أولئك القوم وإنْ أعينهم تتطلّع من خلال الزمن إلى مَنْ وراءهم من المسلمين: ما الذي سيكون من شأنهم تجاه بيعة الإسلام في أعناقهم وعهد الله في ذممهم؟

غير أنه خَلَف من بعدهم خَلْف ـ واأسفاه ـ وُجد فيهم من يقذف بكلمة الحق كما يقذف الصيّاد بشبكته إلى البحر ليستجرّ بها صَيْداً يتاجر به أو يملأ منه بطنه. . وَوُجد فيهم من أيقن بهذه البيعة كلاماً وكفر بها عملاً ودعوةً وجهاداً. . . وَوُجد فيهم من يزعم أنّ عهد الدعوة الإسلامية إنما أخذه الله على من يسمُّونهم (رجال الدين) كأنما صنّف الله المسلمين إلى فريق يبني وآخر يهدم، فلا هذا يُلام على هدمه وإفساده، ولا ذاك يُعان على أمره وجهاده!. . .

غير أن الحق سيظلّ غلاّباً في كلّ عصر وعلى أيّ حال، وإن غلب على أمر بعض دعاته في بعض الأحيان، ذلك لأنّ الله لم يُجنّد له عباده من أجل حاجة به إلى ألسنتهم وجهادهم، بل من أجل اختبارهم وابتلائهم فيما خلقهم من أجله وأوجدهم لسببه.

فإن وفوا بالحق الذي أمروا به، نالوا على ذلك مَرْضَاة الله وإحسانه، وإن خانوا الأمانة والعهد استحقُّوا بذلك عقوبته وعذابه، والحقُّ في كلا الحالين غنيٌّ عنهم بحفظ الله العلي القدير.

ومهما نُكِبَ الإسلامُ ببعض دعاته، أو تستَّر بقوته بعض الضعفاء ممن لا يهمهم أمره، فسوف لا يزال طائفة من أمة محمد ﷺ ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يقوم أمر الله وهم غالبون» انتهى.

الدفاع عن قضايا العالم الإسلامي الكبير:

لقد أراد السباعي رحمه الله تعالى كما يقول الأستاذ محمد بسام الأسطواني، مدير تحرير المجلة: «أن يجعل من «حضارة الإسلام» منبراً للدفاع عن كل قضية من قضايا العالم الإسلامي الكبير، ولقد خصّ أهم

قضايا الوطن العربي والإسلامي باهتمام زائد، فأفرد للقضية الفلسطينية باباً باسم **«الدرة المغتصبة»** لمتابعة تطوُّزاتها ومراحلها، وآخر باسم **«أرض البطولات»** لمتابعة تطورات القضية الجزائرية وثورتها حين كانت قائمة، وأُلغي هذا الباب بعد أن أدى واجبه، واستنْفد أغراضه إثر انتصار الثورة الجزائرية، في «أرض البطولات» كما أحدث باباً جديداً لمتابعة القضية العُمانية والانتصار لها وتوعية القراء بأهدافها وحقيقتها وسمَّاه: **«ثورات إسلامية ـ عمان الثائرة في طريق التحرر»**. ولم يكتف بذلك، بل عمل رحمه الله تعالى على إصدار عدد ممتاز عن الجزائر وثورتها وجهادها. وذلك من السنة الأولى للمجلة. وفي السنة الثانية خصَّ **القضية الفلسطينية** بعدد خاص ممتاز.

وكلٌ من هذين العددين يُعتبر مرجعاً هاماً للقضيتين من أهم المراجع التاريخية العلمية لما احتوياه من وثائق وحقائق وأرقام ووقائع لم يجمعها مصدر آخر»[١].

من أبواب المجلة:

ومن أهم أركان المجلة: ركن فرائد الفوائد، للأستاذ السباعي، ومكتبة المجلة، وعالم الكتب (نقد وتعريف)، وشؤون العالم الإسلامي، واعرف وطنك أيها المسلم، وباب الأدب والنقد الذي كان يشرف عليه الأستاذ عصام العطار، وسؤال وفتوى[٢].

وجاء في العدد العاشر من السنة الأولى: (شوال ١٣٨٠هـ = نيسان ١٩٦١) تحت عنوان: **بيننا وبين القرّاء**:

---

(١) حضارة الإسلام العدد الممتاز: «تاريخ دعوة في حياة رجل» ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦.

(٢) وقد كانت أكثر الفتاوى يحرّرها الأستاذ الزرقا، وكان جمع فتاويه من هذه المجلة، نواة لجمع فتاويه الأخرى التي صدرت بعنايتي في مجلد كبير بعنوان: «فتاوى مصطفى الزرقا»، وطبع ثلاث طبعات، وسيصدر الجزء الثاني من «الفتاوى» في وقت قريب بعون الله وتوفيقه.

«أخي القارئ: بهذا العدد الذي تطالعه تختم المجلة سنتها الأولى، بعد أن حرصت غاية جهدها أن تجعل من هذه المجلة مرآة صادقة يتجلى فيها البحث الإسلامي العميق، والموضوع الفكري الدقيق، إلى طائفة من الأبواب فيها الفوائد الفريدة، والأدب الأصيل، والصور الحية لعظماء حضارتنا ووقائعها الرائعة...

في ميدان الأخبار:

وفي ميدان الأخبار حرصت على أن تقدّم في كل عدد أهم الأنباء وأكثرها صلة بكفاح الأمة العربية والإسلامية وثقافتها الأصيلة، كما أفردت لقضية فلسطين (درتنا المغتصبة)، ولقضية الجزائر (أرض بطولاتنا) بابين خاصين بالإضافة إلى عدد ممتاز عن قضية الجزائر بمناسبة الذكرى السابعة لهذه الثورة المجيدة، وكان الهدف من ذلك أن يكون القارئ على اتّصال دائم بهاتين القضيتين اللتين يعتبرهما كل عربي ومسلم حديث يومه، ومناط آماله لما في حلّهما الحل العادل من إعادة الحقّ إلى نصابه، وتحطيم نيْر الاستعمار البغيض، ورفع راية الحرية والاستقلال...

والمجلة: لا تدّعي أنها أوْفت على الغاية، ووَصَلت إلى ما تهدف إليه من تقدّم.. لأنها إن رضيت بما وصلت إليه فقد جمدت، والجمود في ميدان البناء الفكري السليم موت بطيء... وهي شديدة الحرص على الحياة.. حياة الفكر الإسلامي النيّر، والحضارة الإسلامية الخالدة..

وبمثل هذا الحب والتأييد والتعاون الصادق المثمر الذي منحه لها قراؤها تسير - إن شاء الله - خطى أكبر «نحو بناء ثقافي مستقيم، ثابت غير منحرف، جميل غير مشوّه، قوي غير مُضطرب، يستلهم من عقيدة هذه الأمة وتراثها الغني العظيم، ورسالتها التي كانت رحمة للعالمين...».

كلمة مدير تحرير المجلة في ختام السنة الرابعة:

وقد كتب الأستاذ محمد بسام الأسطواني أيضاً في العدد العاشر من السنة الرابعة: (ذي الحجة ١٣٨٣ = ١٩٦٤) رسالة إلى قرّاء المجلة وأصدقائها تحت عنوان: «كلمتنا مع ختام السنة الرابعة»: بيّن فيها أهداف المجلة، وما

أخذت على عاتقها من عرض الفكرة الإسلامية، ومعالجة مشكلات العالم الإسلامي، والانتصار لقضاياه، وفي هذه الرسالة إجابة عن الغاية من بعض الأبواب الدائمة في المجلة: ولاسيما بابي (وقائع الحضارة الإسلامية) و(من وقائع الحضارة الغربية). وهذه كلمته الضافية تحت هذا العنوان:

كلمتنا مع ختام السنة الرابعة

«يطيب لي مع صدور هذا العدد الذي تختتم به المجلة سنتها الرابعة، أن أبعث باسم رئيس وأسرة تحرير المجلة إلى الإخوة المشتركين والقراء الذين هم أسرة المجلة الكبيرة المنتشرة في جميع بلدان العالم، أطيب التحيّات وأصدق الشكر على ما لقيته المجلة في عامها الرابع والأعوام السابقة من تشجيعهم المستمر بإقبالهم عليها إقبالاً متزايداً، وتجاوبهم معها تجاوباً ملحوظاً. مما كان له أكبر الأثر في قدرتنا على الوفاء ببعض عهودنا ووعودنا التي ألزمنا بها أنفسنا منذ العام الأول للمجلة بأن نعمل وسعنا، وأن نبذل جهدنا للسَّيْر بها قُدماً نحو المستوى الرفيع اللائق الذي ننشده لها، لتكون المنار الهادي للأجيال الإسلامية الصّاعدة، تُنير لهم طريقَ النجاة القويم، وتأخذ بأيديهم برفق وعزْم لتدلّهم على النّبع الصافي المعطاء الذي يروي ظمأهم الروحي والفكري والنفسي، والذي يروي شجرة المعرفة الطيّبة التي باركها الله فثبّت أصلها في الأرض الخِصْبة بالحق، ومدَّ فرعها على السماء حيث يستلهم الحق.. وألقى ظلالها الوارفة على المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، ليفيئوا إليها من الجهالة والخُرافة والضلالة، والتخبُّط والاضطراب، وأينع ثمارها الطيّبة الزكيّة لتتغذّى بها العقول والأرواح والنفوس...

من أهداف المجلة:

وإنَّ مجلة «حضارة الإسلام» ترجُو أن تكون كهذه الشجرة الطيّبة تمدُّ بأغصانها الثمار اليانعة إلى قرائها في كافّة أنحاء المعمورة لتربطهم بالأصل،

وتصلهم بالنبع، فَتُوحِّد تفكيرهم، وثقافتهم، وتُحقِّق الوحدة والانسجام والتماسك بين العاملين للفكرة الإسلامية التي ما ضرّها أمر كتعدُّد طرق التوعية والتوجيه، واختلاف مناهج التفكير وأساليب الدعوة[١].

ونحن عندما نسعى لذلك لا نزعم لطريقتنا العصمة والكمال، وحَسْبنا أن نبذل الجهد لبلوغ الكمال الممكن مستفيدين من نصائح الناصحين المُخْلصين، واقتراحات وملاحظات الإخوة القراء التي لها عندنا المقام الأول، وحسْبنا قبل كل شيء وبعد كل شيء صدق النية وإخلاص القصد وبذل الجهد.

وإنَّ المجلة بإذن الله وعونه مستمرة في عطائها ما دامت تجد في قرائها التجاوب والعون والتشجيع، وهي بإذن الله وعونه ماضية في طريقها بعَزْم وثبات، مستعينة بالله على الصعوبات والعقبات لتحقيق أهدافها وغاياتها في نشر الثقافة الإسلامية وتوحيد النهج الفكري لها.

عرض الفكرة الإسلامية:

من أجل ذلك أخذت المجلة على عاتقها مهمة عرض الفكرة الإسلامية عرضاً سليماً واضحاً مشرقاً لا جمود فيه ولا تعسُّف، هادفة إلى تكوين مدرسة فكرية إسلامية، تُوضِّح معالم الطريق، وتُزَوِّد الشباب الإسلامي بالفكرة والثقافة والوعي المُوحَّد، وتُجَنِّبهم التخبُّط والانحراف، وتُحصِّنهم ضدَّ الغزو الفكري والأخلاقي الذي تهب رياحه من الشرق ومن الغرب المتآمرين على الإسلام ودعاته.

معالجة مشكلات العالم الإسلامي:

وإلى جانب ذلك أخذت المجلة على عاتقها معالجة مشكلات العالم

(١) في كلام الأستاذ الأسطواني نظر، فتعدُّد طرق التوعية واختلاف مناهج التفكير وأساليب الدعوة يُثْري العمل الإسلامي، ما دام الاختلاف اختلاف تنوع لا تَضاد، وما رُوعيت في طرق الدعوة ومناهج التفكير ومسائل العلم والدين آداب الاختلاف.

الإسلامي، والانتصار لقضاياه، وتأييد شعوبه في معاركه ضد الاستعمار والظلم والطغيان، وفي معاركه أيضاً ضد التخلّف والانحلال، والمبادئ الهدامة والمؤامرات الاستعمارية والصهيونية والشيوعية المتحالفة كلها لحرب الإسلام وتشويه حقائقه وإضعاف قوته متوسّلة لذلك بشتى الأساليب والوسائل الخبيثة، هادفة القضاء على أصالة أمتنا وتحويلها عن طريق المجد والعزة والكرامة إلى طريق التبعية الذليل. . .

والمجلة في معالجتها لهذا الجانب، واضطلاعها بهذا الواجب، تعترف بأنها ما تزال مُقصِّرة، وما ذلك إلا لضعف وسائلها في تقصّي أخبار العالم الإسلامي، والإحاطة بجميع مشكلاته، وإنها لتأمل أن تجد في قرائها في كل بلد إسلامي العون الذي يساعدها على سدّ هذا النقص، ويساعدها على أداء هذا الواجب، وذلك بأن يُزودوها بما يصل إليهم من أخبار ومعلومات تتّصل بشؤون العالم الإسلامي بالتعريف ببلادهم ومشكلاتها وأحوالها، وبالنشاط الإسلامي فيها ليكون كل مسلم على اطّلاع كاف على أحوال إخوانه في كل مكان، فيتّسع بذلك نطاق التعاون، ونحقق قول الله تبارك وتعالى فينا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

وإنّ المجلة لتفتح صدرها بكل رحابة وترحيب لمثل هذا التعاون، وهي تؤكد أنها لجميع المسلمين، وأنها منهم وإليهم، تزوّدهم بالثقافة الأصيلة، وتهتم بمشكلاتهم، وتُحارب أعداءهم، ولا تخشى في الله لومة لائم، رائدها الحق، وغايتها رضاء الله، وخدمة الفكرة الإسلامية. .

«من وقائع الحضارة الإسلامية» و«من وقائع الحضارة الغربية»:

وفي معرض الإجابة على سؤال يتعلق ببابي: «من وقائع الحضارة الإسلامية» و«من وقائع الحضارة الغربية».

أقول: إنّ الغاية من الباب الأول: تعريف القارئ بالحقائق الرائعة التي تجسّدت بالواقع التاريخي للإسلام مما يجهله كثير من الناس لبُعدهم عن المصادر التاريخية الصحيحة للإسلام، أو بالأصح لإبعادهم عنها وَفْق الخطة الاستعمارية الصهيونية التي نسجت خيوطها في أعقاب الغزوات الصليبية على

الشرق الإسلامي، وبدأ بتنفيذها بالغزوات التبشيرية في بلادنا وجميع البلدان الإسلامية هادفة تحويل أجيالنا عن الإسلام بتشويه حقائقه، والافتراء على تاريخه، وتزوير وقائعه، ولقد أثمرت هذه السياسة أيام الانتداب الفرنسي في بلادنا، والتسلُّط الاستعماري في جميع بلدان العالم الإسلامي، ونشأت أجيال في ظلاله لا تعرف عن الإسلام إلا ما لقَّنتهم إيَّاه مدارس التبشير والاستعمار من شُبهات وأضاليل حوله، كما عملت على إشباعهم الإعجاب بالحضارة الغربية إلى حدِّ الفتنة بها، وصوَّرت لهم أنَّ هذه الحضارة هي المنبع الوحيد للعلوم والرقيِّ والتقدُّم والخير... كما تمكَّنت بوسائلها الإغرائية التَّضليليَّة أن تجعل من بعض أبنائنا من يَزْدري حضارتنا وأمجادنا وديننا، بل ينكر أن تكون لنا في الأصل حضارة وأمجاد... ومن هنا يتَّضح هَوْل الجريمة التي صنعتها هذه السياسة التي وإن أفلحت في التأثير على كثير من أبنائنا، إلا أنها لم تستطع أن تؤثر على الجميع بالرغم من قواها ووسائلها وجهودها، ذلك لأنَّ قوة الإسلام الذاتية كانت أقوى بكثير من كل محاولة من هذه المحاولات.. فقام في الشرق الإسلامي أفراد وجماعات ممَّن فهموا الإسلام على حقيقته الناصعة وعزَّ عليهم أن يُحارب الإسلام في عقر داره، ولا ينبري أحد لردِّ العدوان الظالم عنه، فأخذوا على عاتقهم هذه المهمة الكبيرة، وقاموا بنشاط عظيم لبيان حقيقة الإسلام المُفْتَرى عليه، ورد الشبهات الكثيرة التي أثارها أعداؤه التقليديون عليه، وهم الاستعمار والصهيونية والشيوعية الذين بهتوا، للنجاح العظيم الذي أحرزه دعاة الإسلام بالرغم من ضعف وسائلهم في الدفاع عن دينهم.

مزايا الحضارة الإسلامية ومساوئ الحضارة الغربية:

وجاءت مجلة «حضارة الإسلام» كقوة جديدة للدفاع عن الإسلام، فساهمت في هذا الميدان، وجعلت من أهدافها الرئيسية: بيان مزايا الحضارة الإسلامية، والكشف عن مساوئ الحضارة الغربية بذكر وقائع الحضارتين في صفحتين متقابلتين، تقارن بينهما بالوقائع، كل من مصادرها الأصلية، وعلى لسان أصحابها وصُنَّاعها، لأن المقارنة بالوقائع الملموسة هي أقوى وسائل

البرهنة التي تدمغ المكابرين والمعاندين وتفضح المزورين... ولقد دعمنا هذين البابين، ببابين آخرين هما: **«أزمة الحضارة الغربية»** و**«المرأة في الحضارة الغربية»**.

الجانب العلمي من الحضارة الغربية:

ونحن عندما نُسجِّل على الحضارة الغربية مساوئها الاجتماعية والأخلاقية لا يفوتنا أن نفرِّق بين جانبين لهذه الحضارة: الأول: علمي، والثاني: اجتماعي، أما الجانب العلمي فلا شك أنه قد تقدَّم تقدُّماً مدهشاً رائعاً، لا ينكره أحد، ولا نستنكف عن الاستفادة من خيراته، بل إنَّ ديننا وعقيدتنا ليدعواننا إلى الاستفادة من الثمار العلمية لهذه الحضارة، على أنه ليس للغرب أن يَمُنَّ ويستعلي ويباهي بهذه النتائج على الشرق لأن بذور نهضته العلمية إنما هي من ثمار حضارتنا الإسلامية، وما نأخذه اليوم من الغرب هو نظير ما أسلفناه فيما مضى... والحضارة العلمية على كل حال ليست صنيع أمة أو جيل، وإنما هي ثمرة جهود البشرية عبر عصور طويلة بغضِّ النظر عن اختلاف الأجناس والأزمان والأديان، فالحضارة العلمية الغربية أخذت عن الإسلامية التي أخذت هي أيضاً عمَّن سبقها.

قيمة الحضارة الإسلامية:

وبهذا أكون وضَّحت للسائل أنَّ الهدف من هذه الأبواب في المجلة ليس الطعن بالحضارة الغربية إطلاقاً كما ظن وإنما بالجانب الاجتماعي والأخلاقي منها فقط، وقيمة الحضارة في النظر الصائب فيما تقدِّمه لأبنائها وللإنسانية من أمن روحيّ وسلام نفسيّ واجتماعيّ، وقيم ومُثُل أخلاقية، تربط المجتمعات ربطاً أساسه الحب والتعاون، وهذا ما امتازت وتفرَّدت به الحضارة الإسلامية دون سواها إلى جانب التقدُّم العلمي والفكري والعمراني. أما الحضارة الغربية فهي في هذا الجانب قد فشلت كل الفشل في تحقيق شيء من ذلك لأبنائها فضلاً عن غيرهم.

الحضارة الغربية في جانبها الاجتماعي والأخلاقي:

ونحن نحترم وندعو لحضارة العلم والمعرفة والعمران، أياً كان مصدرها، ونُحارب ونزدري حضارة الانحلال الخلقي وانهيار الأسرة، وازدياد حوادث الطلاق، وارتفاع نسبة الأطفال غير الشرعيين ارتفاعاً رهيباً عجيباً، وتكاثر جرائم الأحداث والمُشرَّدين تكاثراً حيَّر رجال القانون والقضاء والاجتماع!! حضارة الإباحية والفجور والمخدرات والرقيق الأبيض والشذوذ الجنسي، والفضائح الأخلاقية السياسيَّة من نمط (بروفوميو وكريستين)!! حضارة التمييز العنصري، والتعصُّب الديني، والاستعمار الوحشي!! حضارة الربا والاحتكار والاستغلال واللصوصية على أحدث الطرق الفنية!! حضارة المادة الظالمة، والأنانية الفردية، والأمراض النفسية، حضارة الوجوديَّة والفوضويَّة والعدميَّة ونوادي العراة وتبادل الزوجات!!! حضارة القلق النفسي، والانتحار والتفكك الاجتماعي!!...

هذه هي الحضارة الغربية في جانبها الاجتماعي والأخلاقي كما تنشر وقائعها صحف الغرب ومجلاته وكتبه وأفلامه، وهذه هي الحضارة التي نعيبها ونحاربها ونخشى من عدواها، نذكرها بوقائعها، من مصادرها، وعلى لسان أصحابها وأبنائها الذين ضاقوا بها ذرعاً، وأكثروا نقدها وتجريحها، وبدأوا يتلمَّسون طريقاً للنجاة من الهاوية التي تقودهم حضارتهم إليها... طريقاً يجدون فيه الأمن والسلام لأرواحهم ونفوسهم وأسرهم ومجتمعاتهم، وإن الطريق الذي يبحثون عنه موجود، معروف، مُعبَّد مفروش يُشعُّ بالنور، إنه طريق الإسلام وحده، ولكن أين المُبْصرون؟! إنَّ الغشاوة التي أعمت عيون الغربيين والشرقيين على حدٍّ سواء كثيفة لا جلاء لها إلا أن يدخل نور الإسلام إلى القلوب ليُبدِّد فيها حالك الظلام ويهديها إلى سواء السبيل.

وبعد؛ فهذا عرضٌ سريع لأهداف المجلة وجهودها في سبيل هذه الأهداف، نختتم به العام الرابع للمجلة، شاكرين الله تبارك وتعالى على ما أولانا به من رعاية وعناية وتوفيق، مستمدين منه تعالى القوة والعون لمتابعة الطريق الذي بدأناه لتحقيق ما نرجوه من تقدُّم مستمر لخدمة الفكر الإسلامي

والأجيال الإسلامية، معترفين بحقيقة قصورنا عن بلوغ الغاية التي كنا نرجوها ونعمل لها، وحسبنا أننا لم نقصر في بذل الجهد وإخلاص القصد.

ولا يسعنا في الختام إلا أن نتوجَّه بالشكر إلى جميع الإخوة القراء الذين أرسلوا برسائلهم الكثيرة التي تحمل من الثناء والتقدير والإعجاب بالمجلة ما يشجِّعنا على المُضيّ في طريقنا وبذل المزيد من الجهد لتطوير المجلة ودفعها إلى الأمام دفعاً مستمراً نحو الكمال المنشود لنقدِّم جديداً في كل عام وفي كل عدد إذا أمكن، مستفيدين من كل اقتراح أو نصيحة أو جهد». انتهى.

كلمة مدير تحرير المجلة في أول العام الخامس:

وفي أول العام الخامس (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤) من عمر المجلة، كتب أيضاً مدير تحريرها الأستاذ محمد بسام الأسطواني كلمةً وتحيةً وجَّهها إلى قراء المجلة وأصدقائها، وفيها بيان ما قدَّمت المجلة من أبواب جديدة **(مع العلماء الأولياء)**، و**(قالوا في الحضارة الإسلامية)**، و**(قالوا في الحضارة الغربية)**، و**(ضيف الحضارة)**، و**(صوت الصحافة في الشرق والغرب)**، وأنقل هذه الكلمة أيضاً لأنها تُعرِّف بتلك الأبواب الجديدة المتنوِّعة، وما قدَّمت فيها من مادة جديدة نافعة.

قال الأستاذ محمد بسام الأسطواني تحت عنوان:

تحيّة العام الجديد

«ها نحن أُولاء نعود إلى قرائنا الأعزاء بعد انتهاء عطلة المجلة السنويَّة لنُجدِّد معهم الصِّلة على نفس الأسس الواضحة التي أقمناها عليها في السنوات الأربع الماضية، نعود لنتابع سَيْرنا على نفس الطريق القويم الذي انتهجناه، ونمضي في أداء رسالتنا لبثّ الوعي الإسلامي الصحيح، وتزويد الشباب الإسلامي بالثقافة الأصيلة، والتوجيه السليم، والمعرفة النافعة، نعود لنمضي في تحقيق الأهداف والغايات التي أوْضَحناها في كلمتنا مع ختام

السنة الرابعة بعزيمة أمضى، وتصميم أقوى، واستعدادٍ أكمل، نتجاوز في سبيلها العقبات مهما عَظُمت، مُستمدِّين العون والقوة والتأييد من الله العلي القدير.

ولا يسعنا في مطلع العام الخامس للمجلة إلا أن نتوجّه إلى الإخوة القراء والأصدقاء بتحية الإسلام الذي جمعنا على طريقه الواضح القويم، لنتابع معهم السَّيْر فيه برعاية الله نحو الأهداف النبيلة التي ننشدها..

وأول هذه الأهداف وآخرها رضاء الله جل وعلا، كما نسجل للإخوة القراء بقلم الشكر تجاوبهم معنا، وتشجيعهم لخطَّتنا، بإقبالهم على مجلتنا إقبالاً متزايداً مما كان له أكبر الأثر في قدرتنا على الانطلاق في طريقنا انطلاقاً محموداً، والتقدُّم بجهودنا تقدُّماً مستمراً، وإننا بعون الله ماضُون في مُضاعَفة الجهد ما دمنا نلقى منهم هذا التجاوب والتشجيع، ومن الله الرعاية والتأييد.

أبواب جديدة متنوِّعة:

وبعد فقد رأينا أن ندعم أهداف المجلة بأبواب جديدة متنوِّعة، نُقدِّم فيها مادة جديدة نافعة، فَلْنطُف مع هذه الأبواب مُوضِّحين الغاية منها:

مع العلماء الأولياء:

أما الباب الأول، فهو: «**مع العلماء الأولياء**»، وهم النخبة الممتازة من سلفنا الصَّالح لنعيش معهم في مواقفهم الجريئة الرائعة في وجه الباطل والظلم والطغيان والانحراف، فنرى كيف كانوا يقولون كلمة الحق لوجه الحق، ولا يخشون في الله لومة لائم، ولا يحسبون لغير الله حساباً، نذكر هذه المواقف الخالدة لنشحن عزائمنا منها بشحنة جديدة من قوة الروح التي دفعت أولئك الروَّاد من رجال الإسلام في طريق الحق، وليكونوا قدوة لنا في كفاحنا ضد الباطل.

وبذلك يتَّضح أنَّ مادة هذا الباب الجديد تختلف عن مادة الباب القديم «**هكذا يُعلِّم الربَّانيون**» الذي رأينا إبقاءه مع الباب الجديد، ليُتمِّم

الثاني الأول، ففي الأول نُقدّم أقوالاً ونصائح ومواعظ قالها أولئك النُخبة من سلفنا الصالح ممّن أطلقنا عليهم اسم «الربانيون» لأنهم تخلّقوا بالأخلاق الربّانية وتمثّلوها تمثّلاً صادقاً، وفي الثاني نُقدّم مواقفهم التي هي الترجمة العملية المجسّدة لتلك الأقوال والعظات، نقدّم هذه وتلك لتربيةِ الروح وتقويتها لأنّ الروح القويّة الصّالحة أساس الرجل القوي الصالح.

قالوا في الحضارة الإسلامية، وقالوا في الحضارة الغربية:

أما الباب الثاني، فهو **«قالوا في الحضارة الإسلامية»**، و**«قالوا في الحضارة الغربية»** نُقدّمه في صفحتين متقابلتين، نُسَجّل في الأولى أقوال مفكري وعلماء الغرب في حضارتنا الإسلامية، فنُسجّل بذلك شهادة الإعجاب على لسان الخصوم. وأقوى الشهادة ما شهد به الخصم لأنه لا يمكن أن يُتّهم بالتعصُّب لحضارة ليست بحضارته، ولمبادئ ليست بمبادئه، ودين ليس بدينه، فتكون شهادته خالصةً لوجه الحق، وإعجابه عن فهم ودراسةٍ وتمحيص. ونُسجّل في الثانية أقوال مُفكّري وعلماء الغرب أيضاً في حضارتهم الغربية، فهم أبناؤها وصُنّاعها، وهم الذين بَلَوْها واختبروها وحَصَدوا ثمارها، فلابدّ أن نسمع رأيهم فيها، بعد أن سمعنا أنينهم منها، هذا بالإضافة إلى أنّ بعضاً ممّن فتنتهم حضارة الغرب ببريقها الذي أخفى عنهم زَيْفها، لا يمكن أن يقتنعوا إلا بهذا الأسلوب الذي يدمغ المكابرين مهما عتوا في عنادهم ولجُوا في جدالهم، وبهذا الأسلوب وحده نضع حداً لحَيْرة المُتردّدين وشكوكهم، كما نضع حداً لادّعاء الجهلاء والمُزوّرين والمضلّلين... ونعلن الحقّ وندمَغُ الباطل، ونقول بملء أفواهنا وعلى مَسْمَع الدنيا: هذه هي حضارتنا نباهي بها، وهذه هي حضارتهم يئنُّون منها بعد أن ظهر زيفها وذاقوا مُرُّها.

وبذلك يتضح أيضاً أن مادة هذا الباب الجديد تختلف عن مادة الباب القديم **«من وقائع الحضارة الإسلامية»**، و**«من وقائع الحضارة الغربية»** الذي رأينا إبقاءه أيضاً ليُتمّم الثاني الأول، فنذكر في الأول الوقائع والحوادث التي هي ثمار الحضارة الغربية، في جانبها الاجتماعي والأخلاقي فقط كما بيّنا

ذلك في كلمتنا مع ختام السنة الرابعة، ونذكر في الثاني الأقوال والأحكام التي أصدرها علماء الغرب ومفكّروه بعد التجربة والاختبار...

نجاح الحضارة الإسلامية:

وهدفنا من كل ذلك أن نؤكّد حقيقة لا يتجاهلها إلا أحمق، وهي أنّ الحضارة الإسلامية نجحت في خلق المجتمع الفاضل الذي أقامته على أساسٍ من الحب والإخاء، وشيّدته على أُسس أخلاقية وقيم ومُثل عُليا هي قوام المجتمع الإنساني الفاضل المنشود، كما نَجحت في تحقيق السعادة والرفاه والأمن والسلام لبني الإنسان... أما الحضارة الغربية فقد فشلت في ذلك الجانب الاجتماعي والأخلاقي، فكانت حضارة مادة بلا روح. أما حضارتنا فقد كانت حضارة المادة والروح معاً.

ضيف الحضارة:

أما الباب الثالث، فهو «ضيف الحضارة»، حيث نقدّم لقرائنا في كل عدد إن أمكن أحد رجال الفكر والأدب والدعوة في الإسلام، لنزيد من معرفة القرّاء بهؤلاء الرجال.

صوت الصحافة في الشرق والغرب:

أما الباب الرابع: «صوت الصحافة في الشرق والغرب» فهو باب شاع تقديمه في أغلب المجلات الأدبية والفكرية والثقافية، وقد رأينا أن لا يُحرم قراء (الحضارة) من الاستفادة والاطّلاع على جهد المجلات الإسلامية الأخرى العاملة في خدمة الإسلام، فنختار منها مقتطفات مما يتناسب مع أهداف المجلة، لنُعرّف القارئ بها، ولكننا لا نقتصر في مختاراتنا على المجلات الإسلامية وحدَها، بل نتوسّع بقدر الإمكان لنعرض أهم ما يكتب في صحافة الشرق والغرب عن الإسلام وما يتصل بقضايا العالم الإسلامي.

أما الأبواب الأخرى فهي واضحة الهدف ولا تحتاج إلى بيان،

ومراميها لا تخفى على قارئنا اللبيب، والذي نرجوه أن نكون قد وفينا ببعض عهودنا بالتجديد الذي وعدنا به، كما نرجو أن يجد قراؤنا مادة نافعة مفيدة في هذه الأبواب قديمها وحديثها، وإننا نتقبل بكل سرور وامتنان كل نقد ونصح واقتراح حول هذه الأبواب وغيرها، فالمجلة لقرائها، منهم وإليهم، وبهم تستمر وبهم تتقدم، ولهم تعمل، والله من وراء القصد» انتهى كلام مدير التحرير الأسطواني.

الدكتور محمد أديب الصالح رئيس تحرير المجلة:

وبعد وفاة الدكتور السباعي (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م) رحمه الله تعالى تولّى الدكتور محمد أديب الصالح رئاسة تحرير المجلة، وكتب في العدد الخاص برثاء السباعي، الأعداد (٤ ـ ٥ ـ ٦) من السنة الخامسة: (جمادى الآخرة ورجب وشعبان ١٣٨٤، الموافق تشرين الأول والثاني وكانون الأول ١٩٦٤) تحت عنوان:

عهد ووفاء

«على مثل جمْر الغَضى يُمْسكني القدر المحتوم لأخطَّ هذه السطور المتواضعة في مفتتح العدد الحزين الباكي من مجلة «حضارة الإسلام».

وتأتي تلكم الكلمات بعد معذرة وعلى استحياء لتشعر بمسؤولية الوفاء بمتابعة الطريق، طريق الأستاذ الرائد، والعالم الصابر المجاهد، الدكتور مصطفى السباعي صاحب هذه المجلة.

فلقد كانت الأعداد الماضية ـ وليتها لم تنقطع عن الأمة أسبابها ـ يُزيِّنها ـ وهي في حرارتها ومضائها ـ فكرُه المؤمن المستنير، وقلمُه الصّادق المعبِّر، وأسلوبه البارع المُوَجِّه.

أما هذا العدد فيُوشحه سَوَادُ الألم، وتُبلِّله دموع اللوعة، وتُحرِّكه خَفقات القلوب، القلوب التي هزَّتها يد الفاجعة، فحرَّكت كوامنها واعتصرتها حتى الثمالة.

ومَنْ ذا الذي يزعم لنفسه أنَّ الفراغ الذي تركه مصطفى السباعي في هذه الساحة يمكن أن تملأه كلمات تُكتب كل شهر، وقول يدفع إلى المطبعة بين الحين والحين.

ولعل خير ما يذكر أمام هذه الحقيقة قول رسولنا الكريم ﷺ: «**إنما الناس كالإبل لا يوجد فيها راحلة**»[1].

ولكنه الحرص الصّادق على أن تستمرَّ هذه المجلة فلا تتوقّف، وأن يتّصل حبلها بأسرتها الكبيرة من القرّاء فلا ينقطع، أداءً لرسالة الإسلام والمعرفة، ووقوفاً عند أمر الله في أن يؤدّي العالم الأمانة ولا يكتم ما أنزل الله.

ولقد كنتُ وما زلتُ أعتقد أنَّ هذه الطريق التي رَسَم معالمها مصطفى السباعي، وغذّاها بروحه وأعصابه، وأثمن ما لديه من مواهب وطاقات تفتقر - بعد الاستعانة بالله - إلى تعاون القلوب المؤمنة، والعقول الواعية، والنفوس المُدْركة، وإنَّ عناية الله معنا إذا كنا أمناء على متابعة السير بوعي صادق وإدراك سليم.

لقد علَّمتنا عقيدة الإسلام أنَّ البقاء لله عزَّ وجل، وأنَّ كلَّ مَنْ عليها فان، وإنَّ كتاب الله لَيَعِدُ بحُسْن الصبر عمَّن نفقد حُسْنَ العوض منه، وإنا لنستنجز الله وعده أن يهبنا - ونحن الضعفاء - قوةً من عنده ورحمةً من لدنه.

أعلام الأمة المنار الهادي:

ألا وإنَّ أعلام الأمة امتحانٌ لأبناء الأمة، وحُجَّة الله على عباده في مقدار استمساكهم بحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكل واحد من هؤلاء الأعلام بشر من البشر، ولكنه تَعَالى على حطام الدنيا، وارتفع فوق ترابها وشهواتها فكان المنار الهادي والقدوة الأمين.

وما أبو حسان - طيَّب الله ثراه - إلا واحداً من هؤلاء الأفذاذ، فقد

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٨) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

حَمَل راية العلم والجهاد صادقاً مخلصاً، وصَبر على البلاء وصابر حتى اختار الله له ما عنده، وقبضه إلى رحمته.

وإذا كانت هذه المجلة في المقام الأول من الاهتمام عند الفقيد، يوم كان بيننا، فهو بها حفيٌ أكثر من المال والولد، فإنَّ الوفاء يقتضينا أن نُجدِّد العهد على أن تُتابع المجلة طريقها بالفكرة الواعية والكلمة الطيبة على هديِ المعالم التي رسمها الأستاذ السباعي رحمه الله تعالى لخدمة دعوة الإسلام في رسالته الإنسانية المثلى.

فاللهمَّ أمطر فقيدنا العظيم وابل رحمتك ورضوانك، وأنزل السكينة في قلوبنا حتى نُبصر المعالم فلا نَتعثَّر، وهَبْنا من فضلك وعنايتك حتى تقوى سواعدنا على حَمْل الأمانة. وارزقنا إخلاصاً في العمل، وصبراً على وعورة الطريق، واجعلنا في مرضاتك على كلِّ حال، والحمد لله رب العالمين» انتهى.

كلمة مدير تحرير المجلة في ختام السنة الخامسة:

وفي ختام السنة الخامسة (١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م) كتب مساعد رئيس التحرير ومدير المجلة الأستاذ محمد بسام الأسطواني كلمته التالية:

أخي القارئ الكريم:

بوصول هذا العدد إليك، تتمُّ مجلتك «حضارة الإسلام» عامها الخامس الذي عانت فيه بعض الأزمات والمتاعب التي لم تنل على كل حال من مستواها الفكري الذي حمده القراء خلال هذه الأعوام الخمسة،والذي نبذل من أجل الارتفاع المستمر به كل عزم وجهد مُتطلِّعين دوماً إلى المزيد من التقدُّم والارتفاع، غير قانعين بما وصلنا إليه رغم إطراء القراء وثنائهم لما حقَّقته المجلة من تقدُّم، لأن القناعة تعني الجمود، والجمود في ميدان البناء الفكري السليم موتٌ بطيء، ونحن حريصون على الحياة، حياة الفكر الإسلامي النيِّر، وحياة «حضارة الإسلام» الزاهرة.

الأمانة الغالية:

وأخيراً نُجدِّد العهد على حمْل الأمانة الغالية التي تركها لنا أستاذنا الكبير عليه رضوان الله، والاستمرار بها خدمةً للفكرِ الإسلامي، والأجيال المؤمنة مهما كانت العقبات وغلت التضحيات، مستعينين على ذلك بالله عزّ وجل، فاللهمّ سدِّد خطانا، وقوِّ عزائمنا، واجعل عملنا خالصاً لوجهك الكريم وتقبّله منا بالقبول الحسن، وإلى اللقاء مع العام الجديد وكل عام وأنتم بخير».

واستمرت المجلة في صدورها وعطائها وأداء رسالتها بأمانة ووعي.

ومع بداية السنة الثامنة عشرة للمجلة (١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م) كُتبت تلك الكلمة:

كلمة المجلة في بداية السنة الثامنة عشرة

«أخي القارئ الكريم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

في عام المجلة الثامن عشر نُحيِّيك بتحيَّة الإسلام، ونرجُو الله أن يمُدّنا بعوْنه، كي نتمكّن من التقدُّم أشواطاً جديدة، في رفع سَويَّة المجلة، وجعْلها كما أردنا مدرسةً فكريَّة إسلاميةً، جامعةً، نُقدِّم فيها خيرَ زاد الروح والفكر والأدب بأسلوب علميّ مُحبّب، يُنمّي في القارئ ثقافةً إسلاميةً رفيعةً مُتنوِّعة، ويُطْلعه على آفاق رَحْبة في ميادين الفقه والفكر والتاريخ والأدب، والاجتماع والتوجيه والإرشاد.

واعلم يا أخي: أنّ هذه المجلة هي مجلة كلّ مسلم فانشط في توسيع انتشارها وإيصالها إلى كلّ يد لتعمَّ الفائدة، فهي أحد أصوات الدعوة الإسلامية المتنقِّلة، فاحرص على أن يصل هذا الصوت إلى كلّ أذن، ونُحبُّ أن يكون معلوماً أنه بقدر نشاط قُرّاء المجلة وانتشارها وزيادة عدد مشتركيها

بقدر ما نُساهم في تقدُمها المستمر لتؤدي رسالتها على خير وجه.

وأخيراً: نُجدّد العهد على حَمْل الأمانة الغالية التي تركها لنا مؤسّس هذه المجلة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى والاستمرار بها خدمة للفكر الإسلامي، والأجيال المؤمنة مهما كانت العقبات، وغلَت التضحيات، مستعينين على ذلك بالله عزَّ وجل، فاللهمَّ سَدِّد خُطانا، وقوِّ عزائمنا، واجْعَل عملنا خالصاً لوجهك الكريم، وتقبَّله منا بالقَبول الحسن. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» اهـ.

ومع بداية السنة التاسعة عشرة للمجلة تكرّرت الكلمة نفسها.

واستمرت المجلة في الصدور إلى أن توقّفت في بداية أحداث سنة ١٤٠١هـ، الموافق لسنة ١٩٨١م.

وأنتقل بعد هذا الحديث عن مجلة «الحضارة»، والتعريف بأهم أبوابها، للحديث عن باب «رجل فقدناه».





ركن «رجل فقدناه»

هذا الركن «رجل فقدناه» من أركان مجلة «حضارة الإسلام»، وقد بلغ عدد المترجَم لهم فيه ثمانية وخمسين رجلاً خلال عشرين عاماً (١٣٨٠ - ١٤٠٠هـ)، ابتداءً من العدد الرابع من السنة الأولى: (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م) في المجلة، وقد افتتح هذا الركن بترجمة الأستاذ أنيس الملوحي (١٩٠٠ - ١٩٦٠م) بقلم: نهاد القاسم، وانتهاءً بترجمة الشيخ خيرو ياسين المتوفَّى سنة ١٤٠٠ بقلم: محمد عيد البغا رحمهما الله تعالى.

عناية الأستاذ السباعي بهذا الركن من المجلة:

وقد أَوْلى الأستاذ السباعي هذا الركن عنايته واهتمامه، وقد ترجم فيه لبعض العلماء والشخصيات الذين كان يفتقدهم الوطن أو الأمة، ومنهم: الرئيس هاشم الأتاسي (١٢٩٢ - ١٣٨٠هـ)، ووالده الشيخ حسني السباعي (١٣٠٦ - ١٣٨١هـ)، والشيخ أحمد الحارون (١٣١٥ - ١٣٨٢هـ)، وشيخ المُعمَّرين في بلاد الشام العلامة الشيخ عبدالمحسن الأسطواني (١٢٧٥ - ١٣٨٣هـ) رحمهم الله تعالى.

تراجم علماء سورية:

ويغلب على التراجم الواردة في هذا الركن: تراجم علماء سورية، ومنهم الدمشقيون، وهم حسب وفَيَاتهم: أبو الخير الميداني (١٢٩٠ - ١٣٨٠هـ)، وأحمد الحارون (١٣١٥ - ١٣٨٢هـ)، ومحمد الحمَوي

(..... ـ ١٣٨٣هـ)، وعبدالمحسن الأسطواني (١٢٧٥ ـ ١٣٨٣هـ)، ومحمد خير جلّاد (١٣٣١ ـ ١٣٨٥هـ)، وعبدالرحمٰن الزُّعبي (١٣٢٠ ـ ١٣٨٩هـ)، وعبدالوهاب الحافظ (دبس وزيت) (١٣١١ ـ ١٣٨٩)، وصالح العقاد (١٣١٠ ـ ١٣٩٠هـ)، ومحمد السيِّد (١٣١٨ ـ ١٣٩٠هـ)، وعبدالكريم الرفاعي (١٣٢٢ ـ ١٣٩٣هـ)، وخالد الرفاعي (١٣٥١ ـ ١٣٩٣هـ)، والسيد محمد المكي الكتاني (١٣١٢ ـ ١٣٩٣هـ)، وإبراهيم أبا زيد (١٣٦٣ ـ ١٣٩٤هـ)، ومحمد سعدي الياسين (١٣١٩ ـ ١٣٩٦هـ)، ومحمد بهجة البيطار (١٣١١ ـ ١٣٩٦هـ)، وأحمد الدقر (١٣٢٥ ـ ١٣٩٧هـ)، وزين العابدين التونسي ثم الدمشقي (١٣٠٦ ـ ١٣٩٧هـ)، وحسن حبنكة الميداني (١٣٢٦ ـ ١٣٩٨هـ)، وخيرو ياسين (١٣٣٤ ـ ١٤٠٠هـ).

ومنهم الحلبيون، ومن يلحق بهم: محمد معدّل (١٣٢٤ ـ ١٣٨٢هـ)، ونجيب باقي (١٢٩٦ ـ ١٣٨٣هـ)، ومحمد حريري (١٣٣٠ ـ ١٣٨٤هـ)، ويونس عبدالغني (١٣٢١ ـ ١٣٨٦هـ)، ومحمد نجيب خياطة (١٣٢١ ـ ١٣٨٧هـ)، وعبدالقادر السبسبي (١٣٠٤ ـ ١٣٩٣هـ)، وعبدالباسط عباس (١٣٥٢ ـ ١٣٩٤هـ)، وجلال حسُّون (١٣٤٨ ـ ١٣٩٥هـ)، وأحمد عز الدين البيانوني (١٣٢٩ ـ ١٣٩٥هـ)، ومحمد سعيد مسعود (١٣٢٦ ـ ١٣٩٧هـ)، وبكري رجب (١٣٣١ ـ ١٣٩٩هـ).

ومنهم الحمصيُّون: أنيس الملوحي (١٣١٧ ـ ١٣٨٠هـ)، وهاشم الأتاسي (١٢٩٢ ـ ١٣٨٠هـ)، وحسني السباعي (١٣٠٦ ـ ١٣٨١هـ)، ومصطفى السباعي (١٣٣٤ ـ ١٣٨٤هـ)، وعمر الحكيم (١٣٣٦ ـ ١٣٩٣هـ)، ومحمد علي الدعاس (..... ـ ١٣٩٥هـ)، وعبدالعزيز عيون السود (١٣٣٥ ـ ١٣٩٩هـ).

ومنهم الحَمَويُّون: الشيخ محمد الحامد (١٣٢٨ ـ ١٣٨٩هـ)، والدكتور عبدالكريم عثمان (١٣٤٧ ـ ١٣٩٢هـ)، ومحمد غسان المراد (١٣٦٥ ـ ١٣٩٧هـ)، ومحمد سيادي المراد (١٣٢٨ ـ ١٣٩٧هـ).

ومنهم من علماء السَّاحل وجِسْرُ الشُّغُور: مصطفى الأعسر (١٣٥٠ - ١٣٨٨هـ)، والقاضي محمد أديب الأهدلي (١٣١٢ - ١٣٩٢هـ).

ومنهم من علماء الدير والميادين: صالح زركان (. . . . . . - ١٣٨٥هـ)، وتيسير رمضان الحصاد (١٣٦٥ - ١٣٩٧هـ).

ومن علماء فلسطين: عبدالله التل (١٣٣٧ - ١٣٩٣هـ)، ومحمد أمين الحُسيني (١٣١١ - ١٣٩٤هـ).

ومن علماء مصر: عباس محمود العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣هـ)، وعبدالحليم نجار (. . . . . . - ١٣٨٣هـ)، ومحمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٤هـ).

ومن علماء العراق: محمد فؤاد الآلوسي (١٣٢١ - ١٣٨٢هـ)[1]، بقلم تلميذه العالم الشهيد عبدالعزيز البدري.

ومن علماء المغرب وتونس والجزائر: محمد عبدالكريم الخطَّابي (١٢٩٩ - ١٣٨٢هـ)، ومحمد البشير الإبراهيمي (١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ)، ومالك بن نبي (١٣٢٣ - ١٣٩٣هـ).

ومن علماء الحجاز: الشيخ محمد إبراهيم الختني (١٣١٤ - ١٣٨٩هـ).

ومن علماء نجد: الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣١١ - ١٣٨٩هـ).

ومن علماء الهند وباكستان: السيد عبدالعلي الحسني (١٣١١ - ١٣٨٠هـ)، وعبدالقادر الرائي بوري (. . . . . . - ١٣٨٢هـ)، وحفظ الرحمٰن السيوهاروي (١٣١٨ - ١٣٨٢هـ)، وإبراهيم أحمد المظاهري (١٣٣٢ -

---

(١) وألحقت بعلماء العراق ترجمة الشيخ قاسم القيسي، المتوفى سنة ١٣٧٥هـ، بقلم اللواء: محمود شيت خطاب، المنشورة في مجلة (الحضارة) في العدد الثامن السنة السابعة: (١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م).

١٣٨٣هـ)، والشاعر محمد وحيد الدين الحيدر آبادي[١]، وأبو الأعلى المودودي (١٣٢١ ـ ١٣٩٩هـ).

المترجمون أكثر من مرّة:

وهناك بعض التراجم التي كُتب فيها عددٌ من العلماء مثل ترجمة عباس محمود العقاد، ومحمد البشير الإبراهيمي، وصالح الزِّركان، وصالح العقاد، وعبدالكريم الرفاعي، وعمر الحكيم، وعبدالقادر السبسبي، ومالك بن نبي، ومحمد بهجة البيطار، وحسن حبنكة الميداني. فقد أوردت هذه التراجم المكرَّرة لما في كل مقالة من مزيّة ليست في الأخرى.

ترجمة الدكتور مصطفى السباعي:

وقد أُفرد عددٌ خاصٌ في المجلة بمناسبة وفاة الدكتور السباعي (١٣٣٤ ـ ١٣٨٤هـ) رحمه الله تعالى، وكتب فيه عددٌ كبير من إخوانه ومحبيه[٢]، كما تكرَّرت ترجمته بمناسبة ذكرى وفاته في السنوات التالية، وتردَّدت في ذكر ترجمته من بين هذا الحشد الهائل من المقالات والتي جمعت في كتاب، ثم رأيت أن لا أغفل الكتاب من ترجمته، وقد اخترت من العدد الخاص كلمة الأستاذ محمد بسام الأسطواني لعمومها وشمولها.

كما اخترت من الأعداد الأخرى ـ سوى العدد الخاص ـ كلمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي بعنوان: «خصائص في حياة السباعي».

ترجمة العلامة الشيخ محمد الحامد:

كما أُفرد عدد خاصٌ بمناسبة وفاة العلامة الشيخ محمد الحامد، وكتب

---

(١) لم ترد ترجمته في ركن «رجل فقدناه»، وتقدَّمت وفاته عن سياق أقرانه، إذ توفي سنة ١٣٢٢هـ، واستحسنتُ إيراد ترجمته لورودها في هذه المجلة، ولنُدرتها وأهميتها.

(٢) قام نجل الأستاذ السباعي الأخ الكريم محمد بجمع هذه المقالات مع إضافات أخرى عليها وصور متنوعة، ونشرها في كتاب حافل بعنوان «مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه»، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، الرياض (٢٠٠٠).

فيه عدد من إخوانه وأحبابه، وقد اخترت من العدد الخاص كلمتَيْ الدكتور محمد أديب الصالح: الأولى: «حين تعرف الأمّة رجالها»، والثانية: «مع الرجل العظيم الداعية الشيخ محمد الحامد»، ومقالة شقيقه عبدالغني بعنوان: «أخي كما عرفته»، كما اخترت كلمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي بعنوان: «حماة وعالمها الراحل». لما تتميّز به من موضوعيّة وصدق نحو هذا العالم الجليل، ولأنَّ الدكتور لم ينشر هذه الترجمة في كتابه «شخصيات استوقفتني». كما استحسنتُ أن أورد الحوار الذي أجرته مجلة الحضارة مع العلامة الحامد في ركن «ضيف الحضارة» ففيه إبرازٌ لجوانب مهمة من حياته العلمية والدعوية رحمه الله تعالى[١].

التراجم التي أضفتها إلى الكتاب:

وأما التراجم التي أضفتها إلى الكتاب، فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: تراجم وردت في مجلة «حضارة الإسلام» قبل النطاق الزمني الذي صدرت فيه المجلة؛ أي: قبل سنة (١٣٨٠)، وفي غير الركن السابق ذكره (رجل فقدناه)، وقد أوردتهم حَسَب وفَيَاتِهم، وفي مقدّمتهم: ترجمة العلامة محدّث الديار الشامية الأكبر محمد بدر الدين الحَسَني (١٢٦٧ - ١٣٥٤هـ) رحمه الله تعالى التي كتبها تلميذه الأستاذ محمد المبارك في العددين السادس والثامن من السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م).

وافتتحت بهذه الترجمة الكتاب لما للشيخ بدر الدين من أثر علميّ وتربويّ ومكانة كبيرة في بلاد الشام، ولما لكاتب هذه الترجمة الأستاذ المبارك من منزلة وصلة بالشيخ بدر الدين، ولما نثر في ترجمته لشيخه من الفوائد العلميّة والتوجيهات التربويّة.

---

(١) لتلميذ العلامة المجاهد محمد الحامد الأستاذ الفاضل الشيخ عبدالحميد طهماز ـ رحمه الله ـ كتاب حافل في ترجمته، ونشر في سلسلة «أعلام المسلمين»، وقد قام ابنه الكبير الأستاذ الشيخ محمود الحامد بكتابة ترجمة نافعة مختصرة بعنوان: «أبي كما عرفته»، وصدرت الطبعة الأولى عن دار السلام بالقاهرة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

ثم أوردت ترجمة الشهيد عز الدين القسّام (١٣٠٠ ـ ١٣٥٤هـ) المنشورة في العدد العاشر من السنة التاسعة: (١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م).

ثم سُقتُ ثالثاً ترجمة الشيخ عبدالحميد بن باديس (١٣٠٦ ـ ١٣٥٩هـ) المنشورة في العدد الأول من السنة الخامسة: (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م).

ثم ذكرتُ رابعاً ترجمة الشيخ قاسم القيسي (١٢٩٣ ـ ١٣٧٥هـ) المنشورة في العدد الثامن من السنة السابعة: (١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م).

وأوردت خامساً ترجمة العلامة اللغوي عبدالقادر المغربي (١٢٨٤ ـ ١٣٧٥هـ) المنشورة في العددين الثامن والتاسع، من السنة الأولى: (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م).

ثم ختمتُ هذه التراجم المتقدّمة وفياتهم على ركن «رجال فقدناه» بترجمة العلامة الشيخ محمد الخضر حسين (١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ) المنشورة في العدد الرابع من السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م).

ثانياً: تراجم في النطاق الزمني الذي صدرت فيه مجلة «حضارة الإسلام» (١٣٨٠ ـ ١٤٠٠هـ).

وهذا القسم ينقسم إلى نوعين:

الأول: تراجم مكرّرة أضفْتُها على ما سبق نشره من تراجم بعض العلماء في مجلة «الحضارة» لما لهؤلاء العلماء من أثر علميّ أو دعويّ كبير في محيطهم زماناً ومكاناً، وقد أخذتُ هذه التراجم من مجلات مُتنوّعة، ومَصادر مُتعدّدة، لأنني رأيت تلك التراجم أكثر استيفاءً في بعض المواطن، وهي في مصادر يصعب الوصول إليها، كما أنّ فيها إضافات مهمة تتعلق أحياناً بكاتب الترجمة وصلته بالمترجم.

والتراجم التي أضفتها لمن وَرَدت لهم ترجمة من قبل في مجلة «الحضارة» هم:

١ ـ ترجمة محمد حفظ الرحمٰن السيوهاروي (١٣١٩ ـ ١٣٨٢هـ)، من زعماء المسلمين بالهند، بقلم الأستاذ عبدالمنعم النمر.

٢ ـ وترجمة العلامة المحدِّث محمد إبراهيم الختني (١٣١٤ ـ ١٣٨٩هـ)، من كبار علماء المدينة المنورة، بقلم محمد سعيد الدفتردار.

٣ ـ وترجمة العلامة محمد الفاضل بن عاشور (١٣٢٧ ـ ١٣٩٠هـ)، للدكتور محمد الدسوقي.

٤ ـ ورثاء القاضي محمد أديب الأهدلي (١٣١٢ ـ ١٣٩٢هـ)، للأستاذ الشاعر الأديب محمد الحسناوي رحمهما الله تعالى.

٥ ـ وترجمة العلامة الفقيه محمد أبو زهرة (١٣١٦ ـ ١٣٩٤هـ)، للدكتور وهبة الزحيلي.

٦ ـ وترجمة العالم الشيخ بكري رجب (١٣٢٨ ـ ١٣٩٩هـ)، للأخ الأستاذ فياض عبسو.

والنوع الثاني: تراجم جديدة ضمن النطاق الزمني الذي صدرت فيه المجلة. فقد استحسنت إضافة بعض التراجم لبعض العلماء الذين لم ترد ترجمتهم في تلك الفترة الزمنية.

وهذه أسماء هؤلاء العلماء الذين أضفتهم في نطاق تلك المرحلة: (١٣٨٠ ـ ١٤٠٠هـ).

١ ـ الشيخ عبدالله هارون (١٣٤١ ـ ١٣٨٩هـ) شهيد جنوب أفريقيا، بقلم الأستاذ علي الخطيب، وترجمة أخرى له بقلم ابنه، خصَّني بها الأخ الأستاذ شعيب أحمد.

٢ ـ الشيخ نُعيم النعيمي الجزائري (١٣٢٧ ـ ١٣٩٣هـ) بقلم: بلقاسم النعيمي.

٣ ـ والأستاذ محب الدين الخطيب (١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ) بقلم: الأستاذ أبي الوفا المراغي.

٤ ـ وعلال الفاسي (١٣٢٦ ـ ١٣٩٤هـ)، بقلم: الشاعر عمر بهاء الدين الأميري.

٥ ـ والدكتور محمد أمين المصري (١٣٣٣ ـ ١٣٩٧هـ)، بقلمي.

٦ ـ ومحمد يوسف البنُوري وجهوده العلمية (١٣٢٦ ـ ١٣٩٨هـ)، للأستاذ عبدالعزيز عبدالجليل، وترجمة أخرى له كتبها الأخ الدكتور محمد يحيى بلال منيار.

ولم يكن في منهج المجلة أن تستقصي تراجم العلماء ـ حتى ضمن بلاد الشام ـ وكانت تنشر ما يُرسل إليها، ممَّن ينهض لكتابة الترجمة لعالم أو داعية... ولكن الكثير من التلاميذ يُقصِّرون في الكتابة عن شيوخهم، فتضيع تراجمهم، ولا يمكن الوصول إليها ولا معرفة تاريخ وفاة صاحبها إلا بشقِّ الأنفس.

ومن تتبُّع تراجم علماء دمشق ـ على سبيل المثال ـ في تلك المرحلة، نرى غياب تراجم عدد من العلماء في ذلك النطاق، وأذكر منهم على سبيل المثال:

العالم المجاهد محمد الأشمر (١٣١٠ ـ ١٣٨٠هـ)، والعلامة المُعمَّر الفقيه محمد الكافي (١٢٧٨ ـ ١٣٨٠هـ)، والعالم المُربِّي محمد الهاشمي (١٢٩٨ ـ ١٣٨١هـ)، والقاضي حسن الشطِّي مدير الكلية الشرعية، (١٢٩٧ ـ ١٣٨٢هـ)، وشيخ القراء العالم الفقيه أحمد الحلواني (١٣٢١ ـ ١٣٨٤هـ)، والعالم الفقيه القارئ ياسين الجويجاتي (١٣٠١ ـ ١٣٨٤هـ)، والفقيه القارئ الجامع محمود فائز الديرعطاني (١٣١٢ ـ ١٣٨٥هـ)، والعالم الفقيه الأصولي المربِّي محمد سعيد البرهاني (١٣١١ ـ ١٣٨٦هـ)، ومفتي الشام المرشد

الخطيب عبدالرزاق الحمصي (١٣٢٢ ـ ١٣٨٨هـ)، وشيخ القراء الطبيب محمد سعيد الحلواني (١٣٣٠ ـ ١٣٨٩هـ)، والعالم المجاهد صلاح الدين الزعيم (١٣٠٠ ـ ١٣٩٠هـ).

ومن علماء حلب أيضاً الذين لم يترجم لهم:

العالم الفقيه الشيخ محمد مهدي الكردي (١٣٣٤ ـ ١٣٨٥هـ)، والعالم الداعية الأديب الشاعر الشيخ محمد جميل عقاد (١٣١٦ ـ ١٣٨٧هـ)، والعالم النحوي الشيخ عبدالله حمّاد (١٣٠٨ ـ ١٣٨٩هـ)، ومفتي الشافعية الشيخ محمد أسعد عبجي (١٣٠٥ ـ ١٣٩٣هـ)، والعالم الداعية الخطيب الجريء محمد أبو الخير زين العابدين (١٣٣٥ ـ ١٣٩٣هـ)، والشيخ المربّي المرشد محمد النبهان (١٣١٨ ـ ١٣٩٤هـ)، ونجد أمثال هؤلاء ممن لم يترجم لهم في حمص وحماة وبقية المدن السورية[1].

تتمة تراجم «حضارة الإسلام»:

وأما القسم الثالث فهو تكملة لتراجم «حضارة الإسلام»، ويبدأ من بعد سنة ١٤٠٠ إلى تاريخ تقديمي الكتاب للطباعة، وكتابة هذه المقدمة.

وأكثر هذه التراجم المضافة بقلمي، وأغلبها نُشِرَ في بعض المجلات، وفي موقع «الإسلام في سورية» الذي أشرف عليه.

وهذه أسماء التراجم الذين اخترت إضافتهم إلى هذا الكتاب:

١ ـ الأستاذ العالم المفكر محمد المبارك (١٣٣١ ـ ١٤١٣هـ)، بقلم الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا.

---

(١) وقد استوفيت أكثر هذه التراجم وأمثالها في ركن التراجم في الموقع الذي أشرف عليه: الإسلام في سورية: www.islamsyria.com، الناطق باسم رابطة العلماء السوريين، وستصدر ـ بعون الله تعالى ـ بعنايتي في كتاب يتلو هذا الكتاب.

٢ ـ والعلامة الشيخ محمد صالح الفرفور (١٣١٨ ـ ١٤٠٧هـ) بقلمي.

٣ ـ والعالم المؤرخ النسَّابة محمد أبو الفرج الخطيب الحسني (١٣٣٧ ـ ١٤٠٧هـ) بقلمي.

٤ ـ والعالم الداعية المربِّي الشيخ عبدالله علوان (١٣٤٧ ـ ١٤٠٨هـ) بقلمي.

٥ ـ والداعية الشاعر الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري (١٣٣٧ ـ ١٤١٣هـ)، للأستاذ باسل الرفاعي.

٦ ـ والعلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة (١٣٣٦ ـ ١٤١٧هـ) بقلمي، وترجمة أخرى للأخ الكريم العالم الداعية الشيخ حسن قاطرجي.

٧ ـ والعالم الداعية المربِّي الشاعر عبدالرحمٰن الصوفي (١٣٤٤ ـ ١٤١٩هـ) بقلم الدكتور نبيل طويل، وأخرى بقلم الأخ الكريم الداعية الدكتور عبداللطيف بن محمد علي الهاشمي.

٨ ـ والعلامة الفقيه الأديب الشيخ علي الطنطاوي (١٣٢٧ ـ ١٤٢٠هـ) بقلمي.

٩ ـ والعلامة الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا (١٣٢٤ ـ ١٤٢٠هـ) بقلم تلميذه العلامة الفقيه الدكتور أحمد الحجي الكردي، وترجمة أخرى بقلمي.

١٠ ـ والعلامة المفسِّر الفقيه الواعظ الشيخ عطية سالم (١٣٤٦ ـ ١٤٢٠هـ) بقلمي.

١١ ـ والعلامة الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي (١٣٣٣ ـ ١٤٢٠هـ) بقلم الأخ الكريم العالم الداعية الشيخ حسن قاطرجي.

١٢ ـ والعالم الداعية المجاهد محمد مجاهد شعبان (١٣٦٨ ـ ١٤٢١هـ) بقلم زوجته السيدة عائشة بنت الشيخ عمر خياطة.

١٣ ـ والعلامة الربّاني المُربّي الشيخ عبدالله سراج الدين (١٣٤٢ ـ ١٤٢٢هـ) بقلم تلميذه العلامة المحدث المحقق الشيخ محمد عوامة، وأخرى بقلم الدكتور بكري شيخ أمين.

١٤ ـ والعلامة النَّحوي الأديب عبدالغني الدقر (١٣٣٥ ـ ١٤٢٣هـ) بقلمي.

١٥ ـ والعلامة الفقيه الكبير أحمد فهمي أبو سنة (١٣٢٧ ـ ١٤٢٤هـ) ترجمة ذاتية له، وأخرى بقلم الأستاذة وفاء سعداوي.

١٦ ـ والعلامة المفكر المفسّر الشيخ عبدالرحمٰن حبنكة الميداني (١٣٤٥ ـ ١٤٢٥هـ) بقلمي.

١٧ ـ والعالم الفقيه الشيخ ناجي عجم (١٣٦٠ ـ ١٤٢٧هـ) بقلمي.

١٨ ـ والعلامة الأصولي الفقيه الشيخ مصطفى الخن (١٣٤١ ـ ١٤٢٨هـ) بقلمي.

١٩ ـ والعالم العامل العابد الزاهد الشيخ محمد الحجار (١٣٣٨ ـ ١٤٢٨هـ) بقلمي.

٢٠ ـ والشاعر الإسلامي الأديب المفسّر الأستاذ محمد الحسناوي (١٣٥٧ ـ ١٤٢٨هـ) بقلمي.

٢١ ـ والعلامة الشيخ صادق حبنكة الميداني (١٣٣٨ ـ ١٤٢٨هـ) بقلمي.

٢٢ ـ والعلامة الفقيه النحوي الشيخ أحمد قلاش (١٣٢٨ ـ ١٤٢٩هـ) بقلمي.

٢٣ ـ والبحاثة الداعية الأديب هاني الطابع (١٣٥٥ ـ ١٤٣٠هـ) بقلمي. وأخرى بقلم الدكتور عدنان زرزور.

٢٤ ـ والعالم الصالح المقرئ الشيخ عبدالغفار الدروبي (١٣٣٨ ـ ١٤٣٠هـ) بقلمي، وأخرى بقلم الأخ الكريم الدكتور الشيخ محمد ياسر المسدي.

وهذه المرحلة الزمنية المشتملة على ثلث قرن (١٤٠٠ ـ ١٤٣٠هـ) حفلت بالعديد من الوفيات والرجال الذين فقدناهم.

وليس من منهجي في هذا الكتاب استيعابهم، وإنما هي اختيارات لبعض التراجم التي كتبتُ أكثرها بقلمي، واخترت بعضاً مما رأيته منتظماً مع نهج التراجم المنشورة سابقاً في ركن «رجل فقدناه» من مجلة «حضارة الإسلام».

وقد حفلت هذه الفترة بعدد من الكتب المفردة بالتراجم أذكر منها: «إتمام الأعلام للزركلي»، للأستاذين رياض المالح، ونزار أباظة. و«تتمة الأعلام» للأستاذ محمد خير رمضان يوسف، و«ذيل الأعلام» للأستاذ أحمد العلاونة، ومنها كتاب الأستاذ الداعية الفاضل عبدالله عقيل: «من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة»... وغيرها من الكتب والمقالات[1].

صدى تراجم «حضارة الإسلام»:

لقد كانت الكثير من التراجم المنشورة في مجلة «حضارة الإسلام» هي المرجع لصياغة بعض تراجم كتاب «الأعلام» للزركلي، وأذكر من تلك

---

(١) لديّ أعمال أخرى تُتمّم هذا العمل في تراجم أعيان القرن الرابع عشر الهجري والثلث الأول من الخامس عشر الهجري، ومنها: التراجم الواردة في مجلة «الإسلام» القاهرية، والتراجم الواردة في مجلة «الشبان المسلمين»، والتراجم الواردة في مجلة «الأزهر» وغيرها من الدوريات والمجلات، وكذلك التراجم التي نشرتُها في موقع «الإسلام في سورية» وتضم أكثر من ٢٠٠ ترجمة، ولعلّ الله سبحانه يُيسّر لي إصدارها في وقت قريب. وممّا يتصل بذلك كتاب «أعلام وعلماء» الذي ضمّ التراجم المفردة التي كتبها الأستاذ محمد أبو زهرة، لبعض الأعلام المتقدمين والعلماء المعاصرين، وقد صدر سنة ١٤٣٠ عن دار الفتح بعمان.

التراجم التي رجع فيها إلى مجلة «الحضارة» ترجمة الدكتور مصطفى السباعي (١٣٣٤ ـ ١٣٨٤هـ)، فقد اعتمد على العدد الخاصّ (جمادى الآخرة، رجب، شعبان) من السنة الخامسة (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م)، ينظر: الأعلام ٧: ٢٣٢.

وترجمة القاضي محمد أديب الأهدلي (١٣١٢ ـ ١٣٩٢هـ) ٦: ٢٨، وترجمة الدكتور عبدالكريم عثمان (١٣٤٧ ـ ١٣٩٢هـ) ٤: ٥٣، وترجمة الأستاذ عمر الحكيم (١٣٣٦ ـ ١٣٩٣هـ)، وترجمة الأستاذ عبدالقادر السُّبسبي (١٣٠٤ ـ ١٣٩٣هـ)، وترجمة العلامة الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦ ـ ١٣٩٤هـ) ٦: ٢٦، وأكثر هذه التراجم كان مصدره الوحيد فيها مجلة «حضارة الإسلام».

كما اعتمد الأستاذان محمد مطيع الحافظ ومحمد نزار أباظة، في كتاب «علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري» على تلك التراجم المنشورة في المجلة، وأحالوا إليها في مصادرهم، وأذكر على سبيل المثال: ترجمة الشيخ محمد بدر الدين الحسني (١٢٦٧ ـ ١٣٥٤هـ) ١: ٤٧٣ ـ ٤٩٣، والشيخ محمد أبو الخير الميداني (١٢٩٣ ـ ١٣٨٠هـ) ٢: ٧٢٠ ـ ٧٣٢، والشيخ أحمد الحارون (١٣١٥ ـ ١٣٨٢هـ)، ٢: ٧٥٣ ـ ٧٦٢، والشيخ عبدالمحسن الأسطواني (١٢٧٥ ـ ١٣٨٣هـ) ٢: ٧٧٠ ـ ٧٧٦، والشيخ عبدالرحمٰن الزعبي (١٣٢٠ ـ ١٣٨٩هـ) ٢: ٨٢٢ ـ ٨٢٨، والشيخ محمد إبراهيم الختني[1] (١٣١٤ ـ ١٣٨٩هـ) ٢: ٨٦٣ ـ ٨٦٦، والشيخ محمد صالح العقاد (١٣١٠ ـ ١٣٩٠هـ) ٢: ٨٩٤ ـ ٨٩٦، والشيخ عبدالعزيز عيون السود[2] (١٣٣٥ ـ ١٣٩٩هـ)، ٢: ٩٤٢ ـ ٩٤٥.

ومن العلماء الذين وردت تراجمهم في «حضارة الإسلام» ولم يشر في

---

(١) ترجموا له باعتبار زيارته للشام، وصلته القوية، بعلمائها: كما أن الكثيرين من العلماء في سورية تلقوا عنه.

(٢) ترجموا له باعتباره تلقّى العلم في دمشق وأكثر التردُّد إليها، ولاتّصاله الوثيق بعلمائها، ورغبته في الانتقال إليها آخر حياته رحمه الله تعالى.

مصادر الترجمة إليها: الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت، ومحمد بهجة البيطار، وأحمد الدقر، وزين العابدين التونسي، وخيرو ياسين.

كما استفاد الأخ الكريم الأستاذ محمد عدنان كاتبي في كتابه «**علماء من حلب في القرن الرابع عشر**» من تراجم «حضارة الإسلام»، وعزا إليها في بعض التراجم التي أوردها. وأذكر منها: الشيخ محمد المعدّل (١٣٣١ ـ ١٣٨٣هـ) ص٢٧١ ـ ٢٧٤، والشيخ بكري رجب (١٣٣١ ـ ١٣٩٩هـ) ص٣٦٦ ـ ٣٧١.

وفي ختام كلامي عن هذا الركن من مجلة «حضارة الإسلام» الذي يضمُّ تراجم نخبة من علماء الأمة وقادتها الحقيقيين الصادقين، أحببتُ أن أوردَ كلمة كتبها الدكتور محمد أديب الصالح بعنوان: «إذا مات العالِمُ»، يجدُها القارئ في الصفحات الآتية.



إذا مات العالم[1]

بقلم الدكتور: محمد أديب الصالح

كلّما قرأتُ قولَ الرسول الكريم ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[2] تَفَاقَمَ إدراكي لخطر النكبة التي أصابت أمتنا بفقد الأستاذ الرائد مصطفى السباعي.

ففي هذا الهدي النبوي الكريم، ملامح لمنزلة العالم في كيان الأمة المسلمة، وتحديد لرسالته في صنع تاريخها العظيم، وذلك من حيث البيان والتبليغ، ثم من حيث أداء الأمانة في الحفاظ على معالم النور التي رسمتها يد النبوة.

فالعالم **أولاً**: مَثَل صادق معبّر عن المكان الطبيعي للمعرفة في بناء الفكر الإسلامي.

وهو ثانياً: الحارس الأمين للمبادئ الخيّرة التي نادى بها الوحي قرآناً عربياً، ثم تناولها بالبيان من قلّده الله أمانة البيان محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) حضارة الإسلام العدد السابع من السنة الخامسة: (رمضان ١٣٨٤ ـ كانون الثاني ١٩٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وما من شك في أنَّ الدلالة على العلم في بناء الفكر الإسلامي، والحراسة الأمينة لهذا الفكر جهاداً وعملاً، إنما تقدرهما حقّ قدرهما الأمة الواعية التي تُدرك ذاتها، وتعلم أين مكانها من السَّيْر الحضاري للتاريخ، وأين موطنها من مواقع الهداية الإنسانية عبر القرون.

كما تدرك أي رسالة حملتها يوم تابعت الطريق على وقع الخُطا لأولئك الأبطال الأوّلين الذين بايعوا محمداً على الإسلام.

والعلم في حدوده وأبعاده الإسلامية يشمل كل ما له علاقة بشؤون العقيدة وخدمتها والتوفُّر على ترسيخها وتعميق جذورها في القلب، ويشمل كذلك كل ماله علاقة بالتشريع والأحكام التي تنتظم حياة الفرد والجماعة والأمة كما يمتد رواؤه بعد ذلك كله إلى سائر المعارف الإنسانية التي تعودُ على الأمة بالخير في دُنياها وعاقبة أمرها.

وإنَّ أمتنا بما لها من تَطَلُّع دائم إلى النقطة التي انطلقت منها، وهي الإيمان والعمل، الأمر الذي كان من آثاره مراقبة الله عزَّ وجل، وإيضاح الطريق ليستبين الحلال من الحرام، جعلت من العلم ما هو فرض عين لا يُعْذر مكلَّف بتركه، كالذي يلاحظ في أمور الدين الأساسية والقدر الذي يخدمها من العربية، وما هو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وإذا لم يقم به أحد فالكل آثمون كالذي يرى في أيِّ نوعٍ من أنواع المعرفة التي تعود على الجماعة بالخير المادي أو المعنوي في حفظ كيانها وفكرها ووطنها وما يتعلق بذلك من شؤون.

في هذه الرِّحاب المتَّسعة من آفاق الفكر يقف العالم المسلم ليؤدِّي حقَّ الله في المعرفة والقيام على حراستها والذود عن حياضها بأمانة وإخلاص متطلعاً إلى منافذ الحياة ذاكراً ما لأمته في عنقه من حقٍّ أكيد، مراقباً ربَّه عزَّ وجل في كل ما يأخذ وفي كل ما يَدَع.

وإذا كان الأمر كذلك: فليس عجيباً أن يتقدَّس مداد العلماء فيوزن يوم

القيامة بدم الشهداء[1]، وإنه إذا جاء الموتُ طالب العلم وهو على حاله مات شهيداً.

هذا مداد العالم وذاك دم الشهيد كلاهما يضيء الطريق، وينير الحوالك، ويرقى بالأمة إلى حيث الجدارة بأن تكون خير أمّة أُخرجت للناس.

ولم يكن أمراً عادياً أن يثني الله على العلماء بأنهم أهل الخشية منه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. أو أن العالم في خشيته لله تعالى وصدق إخلاصه وحُسْن اتّجاهه يُمثّل القدوة الرائعة لمن وراءه، ويُعطي المثلَ الطيّب لأولئك الذين أخذ العهد عليهم أن لا يكتموا ما أنزل الله من البيان والهدى، وأن يكونوا أمناء على دينه الذي جاء به المرسلون.

ولقد يكون من الخير أن نسمح لأنفسنا بشيء من التطواف في مرابعنا الخيّرة الباقية على الزمن لنذكر أنَّ النصيب الأوفى في تحديد موطن أمتنا على طريق القيادة في العالمين عقيدة وفكراً وجهاداً في سبيل الإنسانية والحق إنما دلَّ عليه وحمل الكثير من عبئه العلماء.

ولولا مواقف لسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وأحمد بن حنبل، والعز بن عبدالسلام، وأمثالهم من العلماء العاملين لتغيَّرت ملامح كثير من قضايانا الكبرى على دروب التاريخ.

وما أحسبني مغالياً حين أقرّر هذه الحقيقة: ما دام العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لا يورثون درهماً ولا ديناراً، ولكن يورثون العلم والحكمة والهداية إلى الخير.

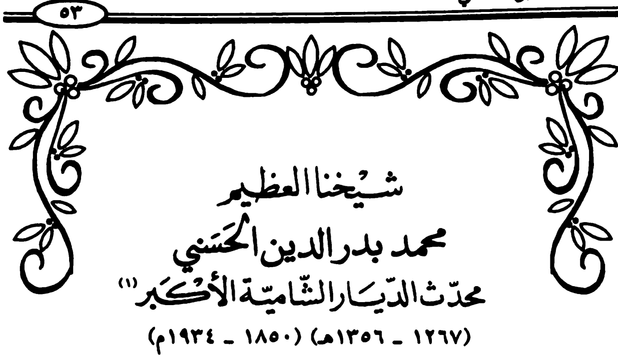
---

(١) يشير إلى الأثر المروي عن أنس: «إذا كان يومُ القيامة يوزن دماء الشهداء بمداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»، عزاه المناوي في «فيض القدير» ٦:٤٦٦ للشيرازي في الألقاب. وقال الزين العراقي: سنده ضعيف، والراجح أنه من كلام الحسن البصري. وينظر: المقاصد الحسنة.

أو لم يكف الذين يعملون تحت هذه الراية أنَّ الله طوَّقهم كرامة حراستها، وأقام منهم مدافعين عن شرف الكلمة ونقاء الغرض وسلامة الاتجاه، ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن أن يدركنا ذلك اليوم الذي يصدق علينا فيه قولُ النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتَّخذ الناسُ رؤوساً جهَّالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1] ألا إنَّها النبوَّة لو كانت هنالك نبوَّة، فَسَلامٌ على أنبياء الله أجمعين، وسلامٌ على العلماء العاملين ورثة الأنبياء في الخالدين» انتهى.

□ □ □ □ □

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبدالله بن عمرو.



شيخنا العظيم
محمد بدر الدين الحسني
محدث الديار الشامية الأكبر[1]

(١٢٦٧ ـ ١٣٥٦هـ) (١٨٥٠ ـ ١٩٣٤م)

للأستاذ محمد المبارك
عضو المجمع العلمي بدمشق

هذه صفحةٌ من الماضي القريب فيها جوانب من حياةِ رجل عظيم بلغ بعلمه وصلاحه وسلوكه المثالي منزلةً لم ينلها أحد في عصره فكان أكبر حاكم في البلاد منذ أيام الأتراك حتى عام وفاته ١٩٣٤ وأشدهم جبروتاً وطغياناً يأتيَ إليه ويجثو أمامه على ركبتيه، والشيخ في ركن زاويته المتواضعة في هيبة دونها هيبة الملوك، وكان هو لا يزور الحكام، بل يرسل إليهم رسولاً في كل أمر يهم المسلمين، ولكنه كان يزور الفقراء والبسطاء، بل السجناء ويأنس بلقاء المساكين، ذلك هو الشيخ محمد بدر الدين البيباني المغربي الحسني الذي كان لي شرف ملازمته والقراءة عليه سنوات من حياتي كان لها أعظم الأثر في نفسي.

هذه صفحاتٌ من حياته كتبتُها إثر وفاته عام ١٩٣٤ ولم تُنشر، وأحببتُ أن أنشرها اليوم كما هي دون تغيير على أن أحاول أن أكتب عنه من جديد جوانب أخرى عظيمة من حياته، لتكون عبرة وعظة للجيل الجديد، يَرَوْنَ فيها أنَّ في الجيل الماضي المنصرم مُثلاً عليا مقتبسة من ذلك المثل الإنساني الأعلى رسول الله الذي أرسل رحمة للعالمين صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد السادس، السنة الرابعة، (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).



المغفور له العلامة الشيخ محمد بدر الدين الحسني

ثقافته العلميّة:

كان الشيخ رحمه الله عظيماً في نواحٍ كثيرة، تُغْنينا عن تصفُّح كثير من أخبار رجالات المسلمين في الأعصر الغابرة، وهو عدا ذلك نموذج قريب العهد بنا أدركناه حياً وعرفناه وسمعنا منه.

فلعلّي أستطيع الآن أن أُوضّح ناحيةً من نواحي الشيخ، ولعل هذه الناحية أطرف نواحي هذا العظيم وأبرزها لعظمته، وأبعدها عن معرفة عامة الناس، فسأوضح على قدر استطاعتي في كلمتي هذه ناحية من نواحي ثقافته العلمية، وأذكر فيها بعض خصائصه ومميزاته العلميّة، وطرفاً من معلوماته في الرياضيات والطبيعيات وطرائقه المختلفة في التدريس مُستنداً فيما أقوله على اطلاعي الشخصي وخبرتي الخاصّة.

محافظته على نظام عمله وترتيب أوقاته:

لقد انكبَّ الشيخ على المطالعة وأُولع بها كثيراً منذ كان صغيراً جداً، وساعده على ذلك: تجنُّبه كثرة الاختلاط بالناس، وابتعاده عن فضول الأمور، فكان لا يتكلّم إلا بما لا بدَّ منه من الكلام، وربما اكتفى بشطر كلمة، واستعان على مُراده بالإشارة، وكانت زيارته إذا زار أحداً لا تستغرق أكثر من بضع دقائق، وربما دخل وخرج ولم يجلس، وكان لا يغادر المدينة إلا نادراً، صائم الدهر لا يفطر، يحافظ على نظام عمله وترتيب أوقاته لا يغيّر منها شيئاً ولا يقدّم فيها ولا يؤخّر، فكان من الممكن معرفة الوقت الذي يمرُّ به من الطريق الفلاني، والوقت الذي ينزل فيه من غرفته في أثناء النهار، وهكذا سائر أوقاته.

اختلاؤه عن الناس في بداية طلبه للعلم:

ومما ساعده أيضاً على حياته العلمية المُشْبَعة: اختلاؤه نحو تسع سنين ما بين الثالثة عشرة والعشرين من سنه في غرفته في مدرسة دار الحديث، لا يخرج منها مطلقاً لأيّ أمر من الأمور، فكانت تلك الخلوة خيرَ مِعْوان له

على هدفه ومقصده، وساعدته على التملُّص من كثير من آثار البيئة التي هو فيها، والعصر الذي عاش فيه، وفي هذه الخلوة على ما يظهر كتب آثاره ومؤلفاته، فكان ـ على ما أظن ـ إذا انتهى من دراسة كتاب من الكتب المهمة أو علم من العلوم دوَّن بعض ما خطر له في ذلك العلم أو وضع لذلك الكتاب شرحاً أو علق عليه تعليقات جمعها وأفردها في كتاب، وقد رأيت نحو خمسة من آثاره هذه، ونظرت فيها وتصفَّحتها، **أحدها**: حاشيته على تفسير الجلالين رأيت منه المجلد الأول، وكتباً أخرى في التوحيد والفرائض، وهي مؤرَّخة بتواريخ مختلفة، ترجع كلها إلى ما قبل العشرين من عمره، فهذه الخلوة الطويلة التي اختلاها، وتلك الأمور الأخرى التي ذكرتها مع ما يضاف إليها من ذكاء فطري، وقوة في التفكير أعانت الشيخ كثيراً على متابعة دراسته ومكَّنته من أن يجمع من العلوم والمعارف ما نَدَر أن يجمعه رجل واحد.

ولوعه بِجَمْع الكتب واقتنائها:

وقد أورثه شغفه في البحث وتطلُّعه إلى معرفة ما دوَّن الأوائل ولوعاً في جمع الكتب على اختلاف أنواعها ومواضيعها، ومغالاة في شرائها واقتنائها حتى إنه كان يدفع في الكتب النادرة أثماناً عالية، وقد بلغنا أنه اشترى كتاباً مخطوطاً بخمسمائة دينار ذهبي، ولم يكن ولوعه هذا ليجمع الكتب ويجعل منها مكتبة نفيسة كما يصنع كثير من الناس، ولكن ليدرسها وليقرأها ويستخرج ما فيها، فخرج الشيخ من ذلك كله بمجموعة عظيمة من العلوم والمعارف منقطعة النظير، فلم يترك علماً من العلوم المعروفة في المدنية الإسلامية إلا درسه وتوغَّل فيه.

تدريسه للعلوم الرياضية:

ولكن الأمر الذي ربما يجد فيه الناس غرابة وطرافة هو أن هذا المحدِّث الكبير كان يدرس في دار الحديث العلوم الرياضية على اختلاف فروعها، فكنتَ تجده يدرس عمليات الحساب، ونظريات الهندسة،

ومعادلات الجبر، كما كان يدرس الحديث والتفسير وغيرهما، وكنت ترى أمامه إلى جانب تلك الأسفار الضخمة المختلفة أشكال الهندسة من كرة وأسطوانة ومخروط وهرم وموشور.

وقد قرأت عليه قسماً كبيراً من نظريات الحساب مقرونة بإثباتاتها وتعليلاتها في كتاب «**خلاصة الحساب**» لبهاء الدين العاملي، وهو كتاب من أنفس الكتب في موضوعه، وله شروح كثيرة جيدة، ويحتوي على ثلاثة أقسام: **الأول**: في الحساب العملي والنظري، **والثاني**: في المساحة وتخطيط الأراضي، **والثالث**: في الجبر وقواعده ومعادلاته.

ودرست عليه جزءاً كبيراً من نظريات الهندسة المسطَّحة والمجسَّمة مما لا يختلف عمَّا يدرس اليوم في المدارس الثانوية في شيء سواء في شكل النظريات أو في إثباتها، وذلك في كتاب «إقليدس» المشهور الذي يُطلق عليه الفرنجة Yes éléueuis Cgueliole، والذي حرَّره وهذَّبه نصير الدين الطوسي أحد كبار الرياضيين الذين أنجبتهم المدنية الإسلامية في عصورها الزاهية، ويحتوي الكتاب على (٤٦٨) نظرية في الهندسة المسطحة والنسبية والفراغية (المجسمة) والحساب النظري.

طريقته في تدريس العلوم الرياضية:

فكان الشيخ يتلو علينا النظرية أولاً فنرسم شكلها على الورق، ثم يشرع في سَرْد إثباتها، ونحن في أثناء ذلك نُطبِّق الإثبات على الشكل، ونناقش الشيخ أحياناً في بعض الأمور التي تعرض لنا، فيناقشنا فيها، وربما يتردَّد في قبول ما جاء في الكتاب، فيحاكم المسألة طويلاً إلى أن يصل إلى شيء يستقر عليه رأيه.

وكذلك كان شأننا في دراسة الجبر، فقد درسنا عليه حل المعادلات الجبرية من الدرجة الأولى والثانية مع براهينها، وقواعد الجبر في الجذر والرفع وغيرها من الأعمال على الطريقة العربية القديمة التي تختلف في هذا الموضوع عن الطريقة الحديثة في رموزها وإشاراتها.

وربما اختبر الشيخ فهمنا في بعض الأيام بأن يُلقي علينا مسائل في الحساب أو الجبر من كتب خطيّة قديمة لديه فنحلها ونُدلي إليه الجواب، فإذا أخطأنا فيه سألنا: كيف حللنا المسألة، وأرجعنا إلى الصواب فيها.

مرونته العلمية وسَعَة إدراكه وجودة تحقيقه:

وكنا ندخل أحياناً على شيخنا رحمه الله، فنجده قد أعدَّ لنا بعض مباحث في الكيمياء وتجارب الطبيعة من بعض الكتب القديمة، فيتلوها علينا، وربما أدلينا برأينا فيها، وكنت أجد في الشيخ مرونة علمية غريبة في هذا الموضوع، فقد كنت أحياناً أذكر له بعض النظريات الحديثة في الكيمياء والطبيعة، فكان يُصْغي إليّ ويستوضحني عن بعض ما أذكره له، ويتحقق من أمور تدل على سَعَة إدراكه العلمي، وجودة تحقيقه ومحاكمته.

فمن ذلك: أني ذكرت له مرة أن مما هو ثابت اليوم أن الماء جسم من الأجسام المركبة وليس بسيطاً كما كان يظن الأقدمون، فهو مركب من عنصرين لهما خواص مختلفة، وأعقبت ذلك بذكر الأسس التي تبنى عليها الكيمياء الحديثة. فسألني: كيف ثبت أن الماء مركب، وهل يمكن تحليله إلى عنصريه، وهل يمكن رؤيتهما، وكيف يمكن التحقق من اختلافهما؟! وبعد أن أجبته عن تلك المسائل قال لي: وهل رأيت أنت مثل هذا التحليل، وكيف كان ذلك؟ فأجبته عن ذلك أيضاً. فأطرق قليلاً وهو يفكر، وكان يتلقّى أجوبتي بهدوء وسكون ممزوجَيْن بالتأمُّل والتفكير.

نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة في العلوم الرياضية:

ولديه من نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة في الحساب والهندسة والجبر ما نَدَر أن يوجَد مثله في مكتبة من المكاتب. ولا أعرف أنه اقتنى كتباً حديثة أو اتَّصل بكتب مترجمة عن اللغات الأجنبية في غير المواضيع الرياضية، أما في هذه المواضيع فقد رأيتُ عنده كتباً مترجمة عن الإفرنسية ممَّا تُرجم في أوائل النهضة المصرية على ما يظهر. أذكر منها «هندسة

لوجاندار» ترجمة محمد أفندي عصمت، وكتاب «كشف السر المصون في تطبيق الهندسة على الفنون» تعريب عيسوي أفندي زهران.

أما ما كان من تدريس الشيخ رحمه الله لبعض مباحث الكيمياء والطبيعة فأترك بحثه لصديق لي قرأ عليه في هذا الموضوع أكثر مما قرأت، فإني لم أقرأ عليه في هذا العلم سوى تجربة في كثافة الأجسام كنت نشرتها بنصها وشرحتُها في مجلة الرسالة في العدد (٤٢) وشيء من مقدمات الكيمياء القديمة.

وعلى كلٍّ فإنَّ من الغرابة بمكان أن ينصرف إلى هذه المباحث من هو مشتغل في علم الحديث والتفسير وأصول الفقه والتوحيد والعربية وغيرها، ولا يغرب عن بالنا أن الشيخ كان في هذا الموضوع أستاذ نفسه كما كان رحمه الله في أكثر علومه.

طريقة تدريسه:

ولننتقل بعد هذا إلى البحث عن طريقة تدريسه وبعض خصائصه العلمية.

أما طريقته في التدريس: فكانت على ثلاثة أشكال مختلفة، لكلٍّ منها موضع خاص بها.

درسه الخاصّ في دار الحديث:

فأما الشكل الأول: فهو الذي يتّبعه في تدريسه الخاص في غرفته في دار الحديث التي كان يؤمُّها مَنْ يقصد دراسة كتاب خاص أو علم خاص على الشيخ من طلاب العلم على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم، فكان يجتمع في الدرس الطالب والطالبان إلى العشرة، ولا تخرج جماعة إلا وتدخل جماعة أخرى غيرها من بعد طلوع الشمس إلى ما بعد العصر، وكانت طريقته في هذه الدروس أن يقرأ الطالب في الكتاب الذي يدرسه، وربما قرأ الشيخ نفسه على قلة، وكلما انتهى من قراءة مسألة من المسائل أو قضية من القضايا أعاد الشيخ تقريرها ووضّحها وحلّ مشكلاتها، وربما توسّع

في شرحها، وأفاض أو اختصر وأوجز، وقد يسأل الطالب بعد ذلك عما فهمه، ويطلب إليه تقريرها إذا ظهر له أنه لم يفهمها وسكت استحياءً.

ويكون الشيخ قد أعدَّ قبل أن تأتي كل جماعة من تلك الجماعات الكتب التي لها علاقة بما يدرسونه حتى إذا ما وُجد نقصاً أو قصوراً في الكتاب الذي يقرؤونه تبسَّط في الشروح التي تكون بين يديه، وهكذا يستمرون في قراءة وشرح وتقرير ومناقشة إلى أن يقرب وقت انتهاء الدرس فيشير إليهم الشيخ بانتهاء الوقت فيخرجون.

درسه في مسجد بني أمية تحت قبة النَّسر:

وأما الشكل الثاني من تدريسه: فهو درسه في مسجد بني أمية تحت قبة النسر كل يوم جمعة من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، وقد كان هذا الدرس آية الآيات، وموضع الإعجاب في تنوُّع مواضيعه وتشعُّب أغراضه، وتسلسل أحاديثه، وغزارة مادته، وجليل فوائده.

كان الشيخ يستفتحه بحديث من الأحاديث النبوية ينبئ عن الموضوع العام للدرس، وربما يكون سلسلة من موضوعات الدروس السابقة، وبعد أن ينتهي من سَرْد الحديث بلفظه وسنده، يأخذ في شرحه وبيان مَرْماه وهدفه، وما يُستنبط منه من الأحكام، وما يتَّصل به من شتَّى المواضيع مُستنداً في كلِّ ما يُورده من المعاني والأحكام إلى الأحاديث التي يعزوها إلى مراجعها مع ذكر سندها ورواتها، وهو في كل ذلك لا يستند إلى ورقة أو كتاب مع فصاحة لهجة وحُسْن بيان.

ودرسه هذا مع تشعُّب مواضيعه وكثرة استطراداته مرتبط الأجزاء، متسلسل الأفكار، تربطه وحدة في الموضوع، بحيث لو كُتب وجُمع لخرجت منه أبحاث طليَّة متسلسلة في مختلف المواضيع، وقد عُني بعضهم بجمع قسم من هذه الدروس وجمع منها بضعة مجلدات[1].

---

(١) وهو الأستاذ الشيخ محمد سهيل الخطيب المتوفى سنة ١٤٠٢ رحمه الله تعالى.

قوة ذاكرته:

من أظهر خصائص الشيخ في هذا الدرس وأعظمها: قوة ذاكرته فقد كان ينتقل من بحث إلى بحث، مُبتعداً عن الموضوع الأصلي، ثم لا يزال في استطراده حتى يعود إلى موضوعه الأول، مع حُسن انتقال وسلاسة واستمرار في الحديث، كانحدار السَّيْل بلا تلكؤ ولا تلَجْلُج ولا انقطاع، لا يقاطعه في أثناء ذلك أحد، ولا يسأله، وكان ينتخب موضوع الدرس مما له علاقة بحالة الناس في ذلك الوقت، ويستطرد فيما يرى أنه تهمُّ الناس معرفته، أو يرى وجوب تنبيههم إليه.

تفرُّسه في وجوه الحاضرين:

وكان الشيخ في أثناء إلقائه يتفرَّس وجوه الحاضرين جميعاً، ويلتفت بحركة لطيفة إلى يمينه ويساره وخلفه، حتى يجعل موضوع درسه مناسباً لأولئك الحاضرين، بحسب ما تُوحيه إليه فراسته ويُلهمه ذكاؤه ونظره، وهذا الدرس يرتفع عن طبقة العوام وإن كان أغلبه مفهوماً لديهم، ويستطيع أن يستفيد منه العوام والخواص بآن واحد.

وبالجملة فقد كانت هذه المحاضرة الجمعية آية باهرة، وطُرفة نفيسة رائعة، تظهر فيها قوة الشيخ رحمه الله وبلاغته وحُسْن تصرُّفه وغزارة علمه وسَعَة إدراكه ودقة انتباهه.

دروسه في داره بعد صلاة المغرب:

وأما الشكل الثالث من طريقة تدريسه: فهو الذي يتبعه في دروسه في داره التي تفتح للوافدين من بعد صلاة المغرب، يدخلها مَنْ شاء، ويجلس أنى شاء، فإذا حان وقت ابتداء الدرس دلف الشيخ إلى الجماعة وسلَّم، وجلس إلى جانب الباب من غير أن يقوم له أحد ويُحيّه بغير رد السلام فيشرع المعيد في القراءة، ويظل مستمراً حتى يومئ له الشيخ بالوقوف، أو تعرض له مسألة تُشكل عليه أو على أحد من الناس، فيقف منتظراً جواب الشيخ، ويجيب الشيخ على ذلك إما موجزاً وإما مُتبسّطاً، وربما أخذ في

الشرح وأفاض في الكلام برهة طويلة، وقد تتوارد عليه الأسئلة حينئذ، وينتهز الناس على اختلاف درجاتهم فرصة انشراحه إلى الكلام فيوجّه إليه كل واحد منهم بما يخطر على باله من الأسئلة التي لها علاقة ولو يسيرة بالموضوع الذي يدور حوله البحث، ويجيب الشيخ على تلك الأسئلة، وربما أعرض عن بعضها ولم يُجب، وربما أجاب بقوله: لا علم لي، وهذه من أعظم ميزاته وأدل الأشياء على صراحته وتواضعه.

سبب إعراضه عن الإجابة على بعض الأسئلة:

وههنا تعرض لنا قضية من أهم القضايا في البحث عن الشيخ رحمه الله، وهي عدم إجابته على بعض الأسئلة أحياناً وإعراضه عنها، فيذهب الناس في تأويل ذلك وتعليله مذاهب شتى، فيذهب بعضهم إلى أنه يكره الأسئلة ولا يحبها، ويذهب غيرهم إلى أنه ينهج في ذلك منهج بعض السلف في التورُّع من الإفتاء. والحقيقة غير ذلك، فمن لازم الشيخ في حياته مدة من الزمن، ودقّق في أحواله، وعرف مزاجه وطبعه، وانتبه إلى المواطن التي لا يجيب فيها وَجَدَها لا تعدُو في الغالب الأحوال الآتية:

١ ـ إذا كان السؤال خارجاً عن صدد الموضوع الذي يكون البحث فيه وتكون الإجابة حينئذ على ذلك السؤال خروجاً عن البحث وقطعاً لسلسلة الكلام.

٢ ـ إذا كان السؤال يعلُو عن طبقة السائل فلا يستطيع إذا أعطى الجواب أن يفهمه أو يستفيد منه شيئاً، وربما أضرَّ به سوء فهمه له وأوقعه في مشاكل لا يستطيع التخلص منها وأبحاث نظرية لا يطيق الخوْض فيها.

٣ ـ إذا ظهرت على السائل إمارات تدلُّ على أنه يقصد اختبار الشيخ وامتحانه. وهنا تبدو على الشيخ علائم الإعراض، وربما أجاب بعدم العلم مع أنَّ القضية من أبسط القضايا ومما يكثر ترداده على لسانه في كلامه ودروسه.

٤ ـ إذا كان إيراد السؤال بصورة تدلُّ على أنَّ السائل قصد بسؤاله بيان علم نفسه والإدلال على معرفته، وعلو كعبه وسَعَة اطلاعه ولم يقصد أخذ الجواب والاستفادة.

هذا وإن بعض الأسئلة الفقهية الخاصَّة قد لا يُجيب الشيخ عليها فيُحيلها على بعض المُتفقِّهين من تلامذته أو غير تلامذته.

وبالجملة فإذا كان السؤال في موضعه وقُصِدَ به مجرَّد الفائدة والتعلُّم، فإنَّ الشيخ لا يتأخَّر عن الإجابة عنه.

وقد كنت أسأله في كثير من الأحيان بعد انتهاء الدرس أسئلة خاصَّة لا علاقة لها بموضوع الدرس فكان يجيبني ويفيدني.

جوابه عن حكم نشر الدعاية الإسلامية في البلاد الأوروبية:

أذكر أني سألته في صيف العام الماضي عن حكم نشر الدعاية الإسلامية في البلاد الأوروبية؟ فقال لي بلهجة المستغرب لهذا السؤال كأن الجواب عليه بديهي ظاهر: هذا فرض على المسلمين، وإنما شُرع الجهاد لهذا الغرض.

جوابه عن حكم تعلم اللغات الأجنبية:

وسئل مرة من بعض المراجع الرسمية عن حكم تعلم اللغات الأجنبية فأجاب بقوله: «تعلم اللغات الأجنبية يكون فرضاً لأجل الترجمة ونصيحة العباد بتعليمهم ما ينفعهم»، ثم أعقب ذلك بما يُؤيِّد هذا الكلام من الحديث النبويّ من صحيح البخاري وغيره، وذكر بعد ذلك لزوم الترجمان في القضاء إذا لم يعرف الحاكم لسان أحد الخصمَيْن وحكم أئمة المذاهب الأربعة في الاكتفاء بترجمان واحد لأجل الترجمة أو لزوم ترجمانين اثنين لذلك باعتباره شاهداً. ولا يزال نصُّ هذا الجواب عندي نقلته من خطه وقد كان أمرني بنقله.

طبائعه وأوضاعه الخاصَّة:

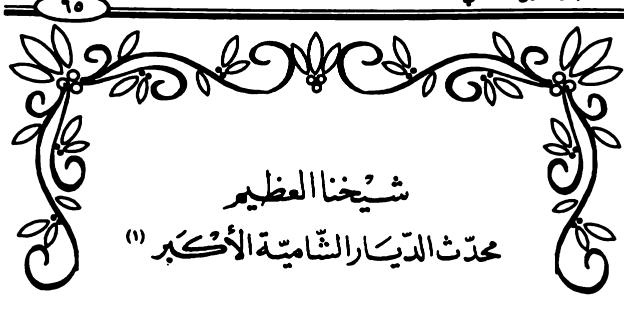
هذا وإن للشيخ رحمه الله في جميع أحواله ونواحي حياته طبائع وأوضاعاً خاصّة يجب على مَنْ كان يودُّ الاستفادة منه والأخذ عنه أن يُراعيها ويُقدِّرها فلم يكن مثلاً يحب كثرة الكلام ولا الثرثرة والتشدُّق ولا إضاعة الوقت فيما لا فائدة فيه، ولا يحبُّ التكلُّف والتصنُّع في أمر من الأمور، ولا قص القصص الفارغة وسَرْد الأخبار التافهة والحوادث اليومية التي تجري مع الناس إذا لم يكن في ذلك فائدة تُرتجى أو غاية حقيقية نافعة يرمى إليها.

وكان يُحبُّ الذكيَّ السريعَ الفهم، ويضيقُ ذَرْعاً بالبليد ولا يتحمّله وليس معنى هذا أنه كان لا يجالس العوام وبسطاء الناس فكثيراً ما كان يُحادث بسطاء الناس وسُذَّج الفلاحين الذين يفدون عليه من قراهم النائية ويُؤنسهم بكلامه ويمازحهم بمزاح لطيف فيه شيء كثير من المباسطة.

صورة من صور العهد الماضي:

هذه صفحة من صفحات الشيخ بدر الدين، بل صفحة منطوية من صفحات العهد الماضي تمثّل لنا شيئاً كثيراً من صور الماضي الجميلة لا بدَّ لنا من إثباتها وتدوينها ليكون لنا في شيخنا العظيم رحمه الله أسوة حسنة في الحرص على نفع المجتمع والإعراض عن صرف الأوقات فيما لا فائدة فيه ولا جدوى، واستغلال ساعات العمر، واستثمار لحظات الحياة، وتنظيم الأعمال وترتيبها، وتقسيم الأوقات وتخصيصها، ومراقبة هواجس النفس وخواطرها، وملاحظة كل خطوة نخطوها، وكل كلمة نفوه بها، وكل سطر نخطُّه حتى تُشرق النفوس، وتمتلأ الحياة تأمُّلاً وتفكيراً، فقد كان الشيخ قدوةً ومثلاً عالياً في كلِّ هذه الأمور رحمه الله وأجزل ثوابه.





شيخنا العظيم
محدث الديار الشامية الأكبر (١)

- ٢ -

للأستاذ محمد المبارك
عضو المجمع اللغوي بدمشق

رغب إليَّ بعضُ الأصدقاء حين قرؤوا مقالي القديم عن أستاذنا الكبير العلامة الشيخ محمد بدر الدين رحمه الله الذي نُشر في العدد الماضي من المجلة في الكتابة عنه والاستزادة من أخباره وأحواله إحياءً لشخصيَّة كان لها في عصرها منزلة عالية وتقدير عظيم في النفوس، كانت تتجاوز حدود تلاميذه ومُريديه وأهل مدينته وبلده، بل كانت لا تختص بالمسلمين وحدهم، بل تعمُّ المواطنين من جميع الأديان لما عُرِفَ به من حُسْنِ المعاملة والبر بالناس أجمعين.

ابتداء صلة الأستاذ المبارك بالشيخ:

كانت صلتي بالشيخ رحمه الله وقد قارب الثمانين من عمره، وبلغ أوْجَ الشهرة والمَجْد، وهو عظيم في تواضعه وعبوديته لله، وبساطة حياته،

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

وشدَّة يقظته في ضبط سلوكه في كلّ حركة من حركاته، وابتدأت يومئذ وأنا في نحو الثالثة عشرة من عمري بحضور دروسه العامة التي كان يُلقيها كل يوم في داره مساء من بعد المغرب إلى ما بعد العشاء بقليل في قاعة كبيرة تتّسع لما يزيد على المئة كانت مُخصَّصة لذلك.

دروسه الخاصَّة:

واستمرَّت صلتي كذلك سنوات، ثم أُتيح لي كذلك خلال عدة سنوات حضور دروسه الخاصَّة التي كان يلقيها في مدرسة دار الحديث، ويحضرها الخاصَّة دون العامة، ويتراوح عدد الحضور فيها من اثنين أو ثلاثة حتى العشرة في غرفته الخاصَّة التي كانت تتّسع لأكثر من هذا العدد، وأما موضوعات هذه الدروس الخاصَّة فقد كانت متنوِّعة في النحو والصرف والبلاغة والحديث والمصطلح وأصول الفقه وعلم الكلام والفرائض والحساب والجبر والهندسة والفلك.

الكتب التي كان يُدرِّسها في حلقته الخاصَّة:

وأذكر فيما أذكر من الكتب التي كانت تدرس في هذه الحلقات وحضرت قسماً منها، وتابعت بعضها الآخر متابعة كاملة: شرح «جمع الجوامع» في أصول الفقه، و«شرح المواقف» في الفلسفة والكلام، و«شرح السراجية» في الفرائض، و«شرح نخبة الفكر» في مصطلح الحديث، و«شرح التلخيص» للتفتازاني في البلاغة، و«شرح الكافية» لابن الحاجب في النحو، و«شرح خلاصة الحساب» في الحساب والجبر لبهاء الدين العاملي، و«أصول إقليدس» في الهندسة من تحرير نصير الدين الطوسي.

وكان موعد هذه الدروس ما بين الضحى والظهر، وما بين الظهر والعصر، وكان بعض الدارسين في هذه الحلقات من علماء البلد المعروفين، ومن كبار الشيوخ كما كان يحضر بعضها كذلك شبّان من طلبة العلم وروّاد المعرفة.

ينابيع الثقافة الإسلامية:

ولقد كانت هذه الفترة من حياتي عظيمة الأثر غزيرة الفائدة، وهي التي وصلتني بينابيع الثقافة الإسلامية في مصادرها الأصلية، وأطلعتني على ما في تراثنا العظيم من كنوز المعرفة وآفاق العلم، وعلى معالم الإسلام إلى جانب دراستي التي كنتُ أتابعها في المدارس الرسمية، ومن أجل هذا كان فضل الشيخ رحمه الله عليَّ كبيراً لم أنسه ولن أنساه أبداً.

سلوك الشيخ وحياته الخاصّة:

ولم يكن تأثير الشيخ فيمن حَوْله وما له من هَيْبة ومنزلة في النفوس عامة بسبب علمه الغزير وثقافته الواسعة فحسب، وإنما كان بوجه خاص بسبب سلوكه وسيرته. ذلك أنَّ للشيخ رحمه الله نظاماً خاصاً في حياته كان فيه بالنسبة لأهل عصره نسيج وحده.

عبادته:

فقد كانت ساعات ليله ونهاره مقسمة تقسيماً دقيقاً لا يتغيّر ولا يتبدّل على العبادة والعلم، فقد كان يستيقظ قبل الفجر بوقت طويل، ويقضي وقته هذا حتى الفجر بين التهجُّد والصلاة والمطالعة في غرفته الخاصّة في داره، ثم يتسحَّر سحوراً خفيفاً استعداداً للصوم لأنه كان صائماً دائماً، ولا أدري لعله يقطع هذا الصوم بإفطار بعض الأيام دون أن نشعر بإفطاره خروجاً من النهي الوارد عن صوم الدهر أم أن له رأياً آخر في الموضوع. ثم يتهيَّأ لصلاة الفجر في المسجد الأموي مع الإمام، وكانت داره قريبة من المسجد، فإذا ما صلّى وتلا أوراده وأذكاره خَرَج من المسجد مُتوجِّهاً إلى غرفته في دار الحديث، والمسافة بينهما قريبة كذلك، وكان يرافقه في هذا السير واحد أو اثنان من تلاميذه.

غرفته في دار الحديث:

وكانت غرفته في دار الحديث في الطابق الأول في أقْصى الجهة الشمالية الشرقية، وهي غرفة صغيرة ملأى بالكتب في أرضها وجدرانها، وله فيها مكان يجلس عليه فوق وسادة أو جلد، وأمامه منضدة مستطيلة، يصفّ عليها الكتب ويركمها فوقها.

مطالعته ودروسه:

وكان يقضي وقته هذا بعد صلاة الفجر بالمطالعة الشخصيّة فلا ينام ولا يقابل أو يُجالس أحداً، فإذا ما طلعت الشمس وارتفعت ابتدأت الدروس الخاصّة وتوالت، وقد يغفو الشيخ في هذا الوقت قبل الدروس إغفاءة قليلة لا تتجاوز على الأكثر مقدار نصف ساعة، ثم تتوالى الدروس طول النهار لا تقطعهما إلا صلاة الظهر إذ يستعد الشيخ لأداء الصلاة مع إمام المسجد، ويعود بعد فترة قليلة إلى ما كان فيه، فإذا أدى صلاة العصر عاد إلى داره واستعدّ لصلاة المغرب، ويبقى باب الدار مفتوحاً للراغبين في الصلاة معه، ويؤمُّه أحد الحاضرين، ذلك أنه لا يصلي إلا مُقْتدياً ولم يُرَ مرة إماماً لجماعة، ولعل ذلك كان عن مبالغة في الورع أو التواضع، ثم يخرج الشيخ للإفطار ويبقى الباب مفتوحاً ويتوافد الراغبون في حضور الدرس الذي يلقيه الشيخ على الجمهور بعد صلاة المغرب في قاعة كبيرة في القسم الخارجي (البراني) من داره.

درسه العام في داره الواسعة:

وكانت له دار واسعة كبيرة لها قسمان: براني وجواني، ولكلٍّ منهما باب مستقل فإذا انقضى على صلاة المغرب نحو ثلاثة أرباع الساعة، نزل الشيخ من غرفته، ودخل على الجماعة المنتظرين لحضوره والمتطلّعين إليه، والمتشوّقين لسماع كلماته ومواعظه، فإذا دخل وألقى السلام على الجماعة ردُّوا عليه دون أن يقوم أحد منهم من مكانه لأنه كان يكره ذلك، ثم يجلس في مكان مُعدٍّ له إلى جانب الباب لا يقبل أن يُبدِّله مع أن ذلك كان يؤذيه

في أيام الشتاء، فلا يقبل أن يتّخذ له مكان في صدر القاعة، وكان يجلس على الأرض، ويضع تحته طنفسة في الصيف أو وسادة محشوة في الشتاء، ويجلس الناس على الأرض وعلى المقاعد الموضوعة في أركان القاعة الأربعة، وكان للدرس معيد يقرأ في كتاب ويستوقفه الشيخ بين حين وآخر ليبسط ما يرى بسطه للناس، وكان معيد الدرس يومئذ الأستاذ الشيخ عارف الجويجاتي[١] حفظه الله، كما تولى هذا العمل أيضاً الأستاذان الشيخ راشد القوتلي[٢]، والشيخ عارف الدوجي[٣] رحمهما الله، وكان الدرس ينتهي بعد العشاء بنحو نصف ساعة أو تزيد قليلاً.

امتناعه عن الكلام ولقاء الناس بعد صلاة العشاء:

فإذا أدّى الشيخ صلاة العشاء مع الجماعة امتنع من الكلام ولقاء الناس حتى تُشرق الشمس. وكان يصادف فيما أعلم أن يرسل إليه الحكام يرجون مقابلته في ذلك الوقت، فيعتذر عن المقابلة، وكان ينام من الليل عدداً قليلاً من الساعات.

هذه كانت سيرته اليومية الرتيبة في الصيف والشتاء، تنقضي كلها في العبادة والعلم، لا يقطعها إلا ما يتخللها أحياناً من بعض الزيارات الخفيفة لبعض الأشخاص أو لبعض المؤسسات العامة.

زيارات الشيخ:

كان الشيخ يتفقّد أحياناً بعض أصدقائه ومعارفه القُدامى ممّن لا يعرف الناس صلته بهم أو بعض أرحامه، وأكثر ما يزور من الناس البسطاء، وقد يزور غيرهم كما كان يتفقّد بزياراته بعض أهل الملل الأخرى، وقد اشتهرت زيارته لحيّ النصارى في أيام الثورة في وقت شاعت فيه شائعة خبيثة،

---

(١) الشيخ محمد عارف بن محمد وحيد الجويجاتي، المتوفى سنة ١٣٩٥ رحمه الله تعالى.
(٢) الشيخ محمد راشد بن محمد رشيد القوتلي، المتوفى سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالى.
(٣) عارف بن رشيد الدوجي، المتوفى سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالى.

روّجها دعاة السوء وأبواق الفرنسيين، وهي أنّ الثوار يريدون الاعتداء على الحي، فكان لزيارته معنى رائع عظيم، وهو التضامن بين المسلمين والمسيحيين في محاربة الفرنسيين المستعمرين.

وكان الشيخ يزور أحياناً بعض المدارس الرسمية والخاصّة، وأذكر أنه زار مرة مدرسة التجهيز (الثانوية) ولم يكن يومئذ في دمشق مدرسة ثانوية غيرها. وكنت طالباً فيها، ودخل قاعات الدرس، فكان يسأل الأستاذ عن موضوع الدرس، ويستمع إلى الأستاذ، ويناقش بعض القضايا المتعلقة بذلك، ويطرح بعض الأسئلة.

وكان يزور كذلك السجن ويتفقّد المسجونين، ويتحدّث معهم، ويسألهم عن سبب سجنهم.

وهكذا كان لزيارات الشيخ رحمه الله معانٍ وأهداف اجتماعيّة إلى جانب الزيارات ذات الصفة الشخصية.

لباسه:

كان الشيخ رحمه الله جارياً على عادات أهل زمانه كما كان متحرّزاً من كثير منها، فقد كان يلبس من الثياب الجيد النظيف، ولا يلبس الرفيع الذي يتميّز به على غيره.

كان يلبس ثوباً من القطن، كان يُعرف بالديما أو الصّاية من الديما، ويشدُّ عليه نطاقاً من الشال الخفيف العادي، ولا يزرره عند رقبته، بل يتركه سائباً ليفسح المجال ليضع في صدره بين ثنتي الثوب منديلاً، وعلى الثوب جبة من الجوخ الأسود الجيد، وكلاهما لا يتجاوز أنصاف ساقيه في الطول اتّباعاً للسنة خلافاً لما جرت عليه العادة من إطالة الجبة والثوب، وخروجاً من النهي الوارد في الحديث.

وكان يضع على رأسه عمامة كبيرة صفراء مُطرّزة من النوع المعروف في بلاد الشام، يكوّرها فوق طربوش تكويراً عادياً لا تصنُّع فيه، وكانت

ثيابه مثالاً للنظافة البالغة، وكان يلبس جوربين سميكين لونهما أبيض، ويتخذ بابوجاً أصفر.

تحرُّره من عادات الناس اليوميَّة:

كان الشيخ مُتحرِّراً من عادات الناس اليومية، فلم يُعرف عنه أنه شرب الشاي أو القهوة أو جلس يستمع إلى أحاديث الناس العادية أو يتحدث بمثلها، ويمكنك أن تحصي عليه كلماته التي يقولها في يومه وليلته فلم يكن له فيما عدا كلامه في العلم وذكره لربه الذي كان لا يَفْتُر عنه لسانه من الكلام إلا ما اضطرته إليه الحاجة، وعلى غايةٍ من الإيجاز ومع الاستعانة بالإشارة أو ما كانت تدعو إليه الحال حين لقاء إنسان بَعُدَ العهد بلقائه كسؤاله عن أهله وولده أو أهل بلده، وأما ما سوى ذلك من أنواع الكلام المباح فكان يمنع جلساءه من الخَوْض فيه فَضْلاً عن أن يخوض فيه.

لقد كان كلامه العادي قابلاً للعدّ والإحصاء، أما ذكره لله وصلاته على النبي ﷺ فلا يُحصى لأنه لم يكن يَفْتُر عن ذكر الله.

لقد كان قليلَ المشاركة جداً في الولائم والدعوات، وإذا اتَّفق أن قَبِلَ الدعوة وحضرها، وكانت دعوة إفطار في المساء، تناول من الطعام قليلاً ثم أمسك. وهو ـ كما سبق أن بيَّنت ـ صائم أبداً إلا في الأيام التي يحرم فيها الصوم، ولكنه مع ذلك ما كان يغيِّر فيها ما اعتاده في سائر الأيام. أما طعامه في بيته فكان يتناول أجود الطعام مع الإقلال.

سَعَة رزقه وصدقاته:

إنَّ هذه الخطة القاسية التي أخذ بها الشيخ نفسه لم تكن عن ضيق ذات اليد، وإنما كانت عن اختيار وعزيمة، فقد كان الشيخ رضي الله عنه ميسور الحال، فقد ترك له والده ثروة حسنة، فكان يملك داراً كبيرة واسعة في حي القيمرية، وكان يملك بضع عقارات في سوق الحميدية، وكان يشارك أحياناً بعض الناس في تجارة الأغنام، وكان له راتب تدريس. ولو شاء أن يعيش معيشة ناعمة مُتْرفة لكان له ذلك، ولكنه كان يعيش في عالم آخر.

وكان للشيخ رحمه الله صدقات خفيّة لا يعلمها إلا نفرٌ قليل ممّن حوله. فكثيراً ما كان يُرسل المؤونة إلى أسر مخصوصة، ولا يعلم ذلك إلا مَنْ يُكلّفه بإيصالها إليهم.

هيبته العظيمة:

إنَّ استغراق الشيخ في العبادة وذكر الله، وفي العلم دراسةً وتدريساً، والتزامه هذه الطريقة الشديدة المتقشفة المنظّمة الدقيقة وتحرُّره من كثير من عادات الناس بعيداً عن متع الحياة وملذاتها، والتزامه للشرع وحدوده، والسنة وآدابها سنين طويلة جداً، وجرأته على الحكام وترفُّعه عنهم كما سيتبيَّن بعد قليل، إن ذلك كله ألبس الشيخ رحمه الله ثوباً من الهيْبة في أعين الناس لا تُماثلها هيبة، بل لا يُضاهيه فيها أحد من العلماء أو الزهّاد أو العباد أو غيرهم.

لقد كان للشيخ رحمه الله هيبة عظيمة ما عُرفت لغيره فكان إذا مرَّ في طريق أشار الناس إليه وتهامسوا وأطلَّ الناس من النوافذ للنظر إليه وقالوا: هذا هو الشيخ بدر الدين، وإذا مرَّ في سوق من أسواق المدينة ولمحه الناس من بعيد رأيتهم يستعدُّون للقيام له - رغم كراهته لذلك - والسلام عليه سواء في ذلك المسلمون والنصارى، وربما تراكضوا حوله وخفُّوا للسلام عليه حُبّاً له وتقديراً وإعجاباً وتبركاً بلقائه أو السلام عليه، وكان يقف للصبي الصغير وللمرأة وللفقير السائل ولمن يتعرَّضون له ويستوقفونه.

وكان إذا دَخَلَ المجلس أو قاعة الدرس في داره أو أقبل على الحلقة الكبيرة في مسجد بني أميّة يوم الجمعة ليُلقي درسه الأسبوعي، وانفرجت له الصفوف، وجدت أعين الناس تتطلّع إليه، وتتمتّع بمرآه البهي ومنظره المَهيب لا تغادره ولا تتزحزح عنه حتى يستقر في مكانه، ومع أن هذا المشهد كان يتكرَّر عليهم كل يوم أو كل أسبوع فإنَّ شعورهم هذا يتجدَّد ولا يتطرَّق إليه الابتذال بالاعتياد والتكرار.

تواضعه والتزامه للسنة وموقفه من تقبيل اليد والقيام:

وكان مما تميّز به الشيخ رضي الله عنه أنه ما كان يُمكّن أحداً من تقبيل يده، وربما أدّى ذلك إلى أن يَجْذب يده جَذْباً شديداً ممّن يحاول تقبيلها، وربما كان الدافع إلى ذلك التواضع من جهة، والتزام ما كان عليه الرسول ﷺ مع أصحابه، فلم يُعرف أنهم كانوا يقبّلون يده كلما التقوا به أو أنهم اتّخذوا ذلك عادة. فأين ما كان عليه شيخ المُحدّثين وعلامة الديار الشامية رحمه الله ممّا يفعله بعض مَنْ نصبوا أنفسهم للوعظ والإرشاد والتعليم من مدّ يدهم سَلَفاً لِلمُسَلِّم عليهم، كأنهم بذلك يريدون إلزامه بتقبيلها، وربما قرّبوها من وجهه وفمه، لينالوا بذلك تعظيم العامة لهم؟![1].

كراهته لقيام الناس له:

وكان الشيخ رحمه الله يكره أن يقوم الناس له في مجلسهم، وينهاهم عن ذلك نهياً شديداً، ويغضب إذا خالفوا رأيه في ذلك، وقاموا له، فكان إذا دخل غرفته وفيها بعض تلاميذه أو دخل قاعة الدرس في داره، وفيها الكثير من الحاضرين، لا يقوم له أحد منهم إلا إذا كان حديث العهد بحضور مجلس الشيخ فيُنَبّهه مَنْ حَوْله إلى ذلك لئلا يغضب الشيخ، ولا يقوم هو كذلك للداخلين عليه، وإذا جاءه زوار غرباء من الأجانب أو الحكام أدخلهم تلاميذه إلى غرفة استقبال خاصّة، ثم يدخل الشيخ، لئلا تحدث المشكلة إذا دخلوا ولم يقم الشيخ لهم فيظنون أنّ الشيخ أراد انتقاصهم وهم لا يعرفون عادة الشيخ هذه والمجال غير مُتّسع لشرحها. فأين هذا ممّن يقوم الناس لهم في بيوت الله فَضْلاً عن القيام لهم في غيرها، وربما كان أحدهم متوجّهاً إلى القبلة يذكر الله أو يستعدُّ للصلاة، فينصرف عن الله بوجهه، ويقوم تعظيماً للشيخ. وهذا في رأينا من أعظم المنكرات

---

(١) تنظر: فتوى العلامة الشيخ محمد صالح العقاد في حكم تقبيل اليد في ترجمته الواردة في هذا الكتاب ص٤٧٣ ـ ٤٧٤.

وأشدها وأشنعها ولا يكون السكوت عنها إلا عن غلبة الشيطان ومُجاراة الهوى أو عن جهل بأسس الشريعة وقواعد الإسلام. على أن الشيخ أعلى الله في الجنة مقامه لم يكن يرى حُرمة القيام فقد كان يقوم في أحوالٍ نادرةٍ فقد شهدته قام لرجلٍ من آل البيت له وَجاهةٌ ومكانة.

تباسطه في الكلام مع بسطاء الناس:

وكان رحمه الله يتباسط في الكلام مع بُسطاء الناس، فقد رأيته مرة وقد دخل عليه فلاح من حوران، وكان في غرفته في دار الحديث وعنده تلاميذه يقرؤون عليه فسلَّم عليه وردَّ الشيخ السلام، ثم قال الرجل: عندي امرأة. فقال الشيخ: بارك الله لك فيها، فقال: لو أنك وضعت يدك المباركة عليها وقرأت لها شيئاً فإنها عندي منذ كذا من السنين، ولم تُنجب لي ولداً. فقال الشيخ مُداعباً: وهل تدعونا إلى قريتك؟ فهشَّ الرجل وبش وقال: أهلاً بك ضيفاً عندي ثلاثة أيام. فقال الشيخ ضاحكاً: ثلاثة أيام فقط. فقال الرجل: ابق عندنا المدة التي تريدها، ثم دخلت المرأة وقرأ لها الشيخ ثم خرجا وقلما كان الشيخ يرقي أحداً.

طريقته الإصلاحيَّة ونظرته الاجتماعيَّة:

وكان شيخنا رحمه الله يَسْلك طريق الحكمة في إصلاح النفوس، ويتجنَّب طريق العنف والقسوة، ويُعنى بالمهم من أمور الدين قبل العناية بالجزئيَّات والثانويات، فيكتفي ببيان الحكم العام في الأمر الذي يُريد النصح به، ولم يكن يشترط لحضور دروسه وملازمته شروطاً خاصَّة، وإنما ينتهز الفرص والمناسبات، ويترك المجال للزمن ويرى أن إعطاء الأسوة من نفسه من أفضل طرق النصح، وأنَّ القدوة ولسان الحال من أحسن الوسائل للتأثير.

كان بعض العلماء المرشدين ممَّن عاصروه، وهم في منزلة تلاميذه لا يقبلون طالب العلم عندهم إلا إذا أعفى لحيته، وربما اشتدُّوا بقوارع الكلام على مَنْ يحضر دروسهم العامَّة ممَّن يحلقون لحاهم. ولم يُعرف مثل هذا عن شيخنا رحمه الله وإنما كان يكتفي ببيان الحكم الشرعي في المناسبات

التي تعرض، فالتفَّ حوله وداوم على دروسه عدد من الشبان وطلاب المدارس وغيرهم من مختلف الطبقات.

وكان كثير التشجيع للشبان الذين يتوسَّم فيهم الاستعداد العلمي، يُوسِّع لهم في المكان إذا دخلوا، ويشير إلى من حوله ليفسحوا لهم المجال، ويُوصي بهم خيراً، ويُشعرهم بعطفه وعنايته.

وقد يتَّفق أن يستأذن بعض الأجانب من غير المسلمين أو بعض المسيحيين من المواطنين في حضور درسه، فيأذن لهم ويُرحِّب بهم، وربما التقى ببعض مَنْ يعرفه منهم فسلَّم عليه وحيَّاه، وقد يطلب منه الدعاء له. وقد سأله مرة أحد السامعين فقال: وكيف تطلب يا سيدي الدعاء من غير مسلم؟ فقال له: هل تدري بِمَ يُختم له؟!

حادثة عجيبة:

ومن أغرب ما سمعت من تصرُّفه وطرائق إصلاحه، حادثة عجيبة سمعتها ممَّن وقعت له مع الشيخ رحمه الله، ذلك أنه استدعى أحد أصحابه ـ وهو الذي حدثني بالقصة ـ وكان شيخاً في نحو الستين من عمره ذا لحية كبيرة وعمامة من هذه العمائم التي يتَّخذها عامَّة الناس من أهل الشام من التجار وأهل الحرف، ثم قال له: تذهب إلى محل البغاء، وتسأل عن الكبيرة التي تدير شؤون البغايا وتعطيها هذه الدنانير الذهبية العشرة، وتقول لها: إن الشيخ يطلب منك أن تأمري من عندك من البنات أن يغتسلن، ثم تُعطي كل واحدة منهنَّ ديناراً ذهبياً، وتطلبي إليها أن تدعو للشيخ. فحار الرجل في أمره كيف يذهب بهيئته هذه إلى مثل هذا المحل، ثم لم يجد مناصاً بعد أن أمره الشيخ من تنفيذ ما أمره به. قال لي: وقد نفذت ما قال لي، ولم أخرج حتى سمعت بكاءهنَّ ونحيبهنَّ ولا أشك أنَّ أكثرهنَّ وربما كلهنَّ قد تبن ممَّا كُنَّ فيه وغيَّرن حياتهنَّ، وعُدنَ إلى الحياة الشريفة المستقيمة.

دعوته إلى تعلُّم الثقافة الحديثة:

وكان الشيخ يدعُو إلى العلم والتعلُّم في عهدٍ كانت الثقافة الحديثة

والعلوم تأتينا من الغرب، وكان الشرق الإسلامي ينظر إلى كل ما يأتي من الغرب نظرة ريبة، ويرى فيها كفراً أو ضلالاً، فكان رحمه الله يزور المدارس الرسمية، ويحضر بعض دروسها في الطبيعيات والفلسفة وغيرها، ويسأل الطلاب ويناقش الأساتذة فكان في ذلك مُشجعاً لتعلم العلوم الحديثة.

وقد سألته مرة: عن حكم السفر إلى أوروبا للدراسة بقصد تعلم ما ينفع المسلمين أو بقصد نشر الإسلام؟ فأجابني بأنَّ هذا السفر إذا كان لهذا القصد فهو واجب. وبعد انقضاء سنة على سماعي لجوابه هذا الذي أجابني به أتيح لي السفر إلى فرنسا للدراسة، وقد توفي رحمه الله قبل سفري فشيَّعته باكياً حزيناً، ثم تهيأت للسفر إلى باريس بعد أن ترك الشيخ رضي الله عنه في نفسي من الأثر العميق ما لم تنل منه باريس بثقافتها التي سَعَيْتُ للأخذ منها ومجتمعها الذي عشتُ فيه ثلاث سنين مختبراً ودارساً ومعتبراً.

موقفه من الحكام:

كان شيخنا رحمه الله لا يزور الحكام ولا يذهب إليهم، وإنما كانوا هم الذين يزورونه، وإذا أراد أن يبلغهم أمراً يتعلَّق بمصلحة عامة أو بشفاعة خاصَّة أرسل بعض تلاميذه إليهم يُبلِّغهم رسالة الشيخ وكلامه، وكانوا يتلقون ذلك بالقبول والاحترام، وكانت له عندهم حرمة كبيرة وهيبة عظيمة حتى إن جمال باشا الطاغية المعروف كان حينما يزوره في غرفته يجلس على الأرض على ركبتيه مُطرقاً برأسه، وكان يُسمعه الشيخ مواعظه القوية ويُنَبِّهُه إلى ما يجبُ على الحكام من العدل والبُعد عن الظلم.

تحريضه على الجهاد وصلته برجال الثورة:

أما في زمن الفرنسيين فكان يُحدِّث الناس في مسجد بني أميَّة في الدرس العام وفي درسه المسائي في داره عن وجوب الجهاد على الناس جميعاً، وخاصَّة حينما قامت الثورة السورية، فكان يُبيِّن فضل الجهاد ووجوبه على جميع الناس حتى النساء والصغار، وكان لكثير من رجال

الثورة صلة به، وشارك بعض تلاميذه في الثورة، وكانت حملاته على الكفار المستولين على بلاد الإسلام مستمرة أيام وجود الفرنسيين، وسمعته يقول يومئذ: إن أموال هؤلاء الأعداء والأموال التي استولوا عليها يجوز أخذها منهم بأيِّ طريقة كما سمعته يقول: إذا كانت البواخر التي تنقل الحجاج تابعة لهؤلاء الكفار، وهم يتقوون علينا بما يأخذونه من أموالنا ولا سبيل إلى الحج إلا عن طريقها فإنه تسقط فرضيَّة الحج في هذه الحال.

مشاركة تلاميذه في الحركة الوطنية:

وحينما تولَّى ابنه الشيخ تاج الدين رياسة الوزارة في المرة الأولى، جاء لزيارة أبيه فوجده غير راضٍ لتولِّيه الحكم؛ لأنه حكم غير إسلامي، ولا تُقام فيه حدود الشريعة، ثم لم يجتمع الشيخ بابنه، ولا زاره في أثناء وجوده في الحكم في المرتين الأولى والثانية، حتى إنَّ فريقاً كبيراً من أتباع الشيخ رحمه الله، وهم الذين يمارسون النشاط السياسي، كان متنكِّراً لابنه تاج الدين، مُعارضاً له في سياسته، يشاركون في الحركة الوطنية التي كانت تقوم على قيادتها الكتلة الوطنية يومئذ، وكان الشيخ على صلة حَسَنة مع هذا الفريق من تلاميذه وأصحابه.

رِفْعة مكانته في أعين الناس:

إنَّ موقف شيخنا رحمه الله من الحكام وترفُّعه عنهم ووقوفه منهم موقف الواعظ المرشد الناصح أو موقف المُحرِّض على دفع ظلمهم زاد من رِفْعَةِ مكانته في أعين الناس، حتى أصبح فوق الحكام لأنه يقول كلمة الشرع، ويُبلِّغ رسالة الدين، ولا يخضع إلا لله. فأين هذا الشيخ العظيم ممَّن يترددون على أبواب الحكام، ويتزلفون إليهم، ولا يتحدَّثون إلا بما يرضون عنه، ويقفون منهم موقف الطالب لا المطلوب، ويا ليته موقف المطالب بحقٍّ عام، أو بتصحيح معوج، أو إزالة منكر، ولكنها المطالب الخاصَّة والمصالح الدنيوية، فيضعهم الناس حيث وضعوا أنفسهم.

منزلته العظيمة:

رَحِمَ الله شيخنا العظيم، وأعلى في فراديس الجنان مقامه، وألحقنا به في الصّالحين، فقد كان روحاً يمشي على الأرض، وإنساناً ولكنه حَكّم كتاب الله وسُنّة نبيّه في عمله وتصرُّفاته، فتحت له الدنيا أبوابها فأعرض عنها وتوجَّه إلى الله، لم يتحرَّك لسانه ولا قدمه إلا حيث تكون طاعة الله.

لقد تواضع غاية التواضع فرفعه الله في حياته وبعد موته.

لقد خضع لله وخشع له ولم يخف حاكماً أو ظالماً فأوقع هيبته في قلوب الناس وفي نفوس الحكام.

لم يتّخذ من علمه الواسع ولا من مقامه في إرشاد الناس وتوجيههم وسيلة للاستعلاء عليهم أو كسب المال ونَيْل الغنى عن طريقهم، ولا لنيل الحظوة عند الحكام، فقد كان أعلى من ذلك كله وأرفع.

لقد كانت منزلته العظيمة في عبوديته لله، وفي أداء الأمانة النبويّة التي حملها بحق وارثاً محمدياً ومصلحاً إسلامياً فأداها أحسن الأداء، ثم انتقل بعد أن تجاوز الخامسة والثمانين راضياً مرضياً رحمه الله رحمة واسعة، وأنزله منازل الصدّيقين، وجعلنا ونحن من مُحبيه والمعجبين بدينه وخلقه وسيرته، والمنتفعين بعلمه ممَّن يلحقون به ويُحشرون معه، وغفر لنا ذنوبنا الكثيرة بفضله العظيم ورحمته التي وسعت كلّ شيء إنه سميع مجيب.



الشيخ عز الدين القسّام
إمام الشهداء وفخر المجاهدين[(١)]
(١٣٠٠ ـ ١٣٥٤هـ)
(١٨٨٢ ـ ١٩٣٥م)



بطلٌ مجاهد من سورية، نَبَتْ به الدار، وتعقَّبه المستعمرون الأشرار للبطش به، لاشتراكه في الثورة عليهم، ومطالبته باستقلال وطنه وحريته، فخرج منها يترقَّب، واستهوته القدس بروحانيتها وقداستها، وفلسطين بجلال تاريخها وعظيم مأساتها فحطَّ رحلَه فيها إلى أجل مُسمًّى، ولكلِّ أجل كتاب، ثم جاد بدمه الزكي في سبيلها، ولفظ أنفاسه الطاهرة في ميادين جهادها.

قداسة فلسطين تستهوي القسام:

استهوته فلسطين ولا عجب، ففلسطين ما انفكَّت تَسْتهوي المجاهدين

---

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة التاسعة: (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م) نقلاً عن مقال في مجلة «فلسطين» العدد (٩٤).

الأبرار، والمرابطين الأخيار، قديماً وحديثاً، بما اشتملت عليه من رَوْعة القداسة، وطهارة الرسالة، وفيض النور الربّاني على البلد المقدس الذي أسري إليه بمحمد الرسول الأمين، ومنه كان معراجه الشريف إلى السموات العلى. البلد الذي جاءه السيد المسيح عليه السلام مرشداً ومعلماً، وداعياً إلى الخير والحق والسلام، والذي تقع مسيرة أميال ممدودات منه مدينة «الخليل» مثوى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي يمَّم بوجهه شطر فلسطين مهاجراً إلى ربه بدينه وروحه.

وكما كانت فلسطين موطن الأنبياء والمرسلين، فهي مأوى الصدِّيقين والمجاهدين، ومثوى الشهداء الغر الميامين. فتحْتَ كلِّ حجر منها يثوي مرابط أو شهيد، وسيظل هذا شأنها إلى أن يأذن الله بالفتح أو أمر من عنده، وإلى أن يرث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

مولده ونشأته:

ولد الشهيد الشيخ عز الدين القسام في مدينة «جبلة» من محافظة اللاذقية، وهبط «فلسطين» في شهر شباط من عام ١٩٢٢ مهاجراً إليها عندما صدر حكم عليه بالإعدام من سلطات الانتداب الفرنسي، في تهمة اشتراكه في الثورة التي نشبت ضدها في سورية، واستقرَّ بمدينة حيفا، فلقي فيها وفي سائر فلسطين أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان. فما لبث حتى عُيِّن مدرساً في المدرسة الإسلامية التي أسستها الجمعية الإسلامية في حيفا، وقد كانت مدرسة خاصّة غير تابعة لإدارة المعارف، التي كان مديرها في عهد الانتداب البريطاني إنكليزي هو «بومان» الذي تدرب على الأساليب الاستعمارية على غرار زميله وأستاذه الأكبر «دنلوب» الذي وجَّه التعليم في مصر والسودان وجهة استعمارية محضة لصالح الحكم البريطاني.

وكانت عندئذ في فلسطين مدارس خاصّة تُوجِّه التعليم وجهة صحيحة مثل كلية «روضة المعارف» بالقدس، وكلية النجاح بنابلس، وهذه الأخيرة ما تزال قائمة، لكن كلية الروضة احتلها الجيش البريطاني خلال ثورة

فلسطين عام ١٩٣٧، وشتّت شمل أساتذتها وطلابها، لوقوعها داخل القدس القديمة في منطقة استفحلت فيها الثورة واتخذ المجاهدون الفلسطينيون منها مكامن لهم لاقتناص الجنود الإنكليز، ولوقوعها على ربوة مشرفة على الحرم القدسي الشريف بكامله وعلى معظم أقسام المدينة المقدسة.

على أنّ الفلسطينيين كثيراً ما كانوا يتمرّدون على سياسة التعليم البريطانية، كما كان كثير من الأساتذة يُلقّنون طلابهم المبادئ والأهداف الوطنية إلى جانب برامج التعليم المقررة.

مدرس وإمام ومأذون شرعي:

واتّخذ الشهيد القسام من المدرسة الإسلامية بحيفا داراً صالحة لبثّ المبادئ الإسلامية والأخلاق الفاضلة في الناشئة الفلسطينية، ثم انضمّ إلى جمعية الشبان المسلمين. ولم يلبث أن عيّنه السيد محمد أمين الحسيني رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى الذي كان يتولى إدارة الأوقاف والمحاكم الشرعية الإسلامية بفلسطين، إماماً ومدرساً لجامع الاستقلال في حيفا ومأذوناً شرعياً. وهكذا تمّ للقسام الاتصال بالطلاب والشبان ومختلف الأسر والجماعات في المدن والقرى واتّسع مجال العمل أمامه في جميع النواحي.

جامع الاستقلال في حيفا مدرسة للوطنية:

وكانت خطب الشيخ عز الدين من منبر جامع الاستقلال، ودروسه التي يلقيها على المُتفقّهين في الدين، تفعل فعلها في نفوس المصلين والمستمعين، وكذلك دروسه في المدرسة الإسلامية تتوخى نفس الغاية والهدف، فاستطاع أن يكوّن «مدرسة» صالحة قوامها المبادئ الوطنية والخلقية والتنديد بالحكم الأجنبي القائم على أُسس الاستعمار والاستغلال والظلم وحرمان أهل البلاد من حقوقهم المشروعة ومن حريتهم واستقلالهم.

الثورة على ظلم الانتداب البريطاني:

وتحت سيماء الوقار وملامح الوداعة البادية على مظهر الشيخ القسّام، كانت تَتَأجج بين جوانحه نار الثورة على الظلم والعدوان، ويغمر ضميره وأعماق نفسه روح الحرية وحُب الوطن وبغض الأجنبي. فالرجل الذي ثار على ظلم المستعمرين الفرنسيين في سورية لن يستطيع الصبر طويلاً على ظلم المستعمرين البريطانيين في فلسطين، الذي هو أمرّ وأدهى، وأخطر وأنكى. وهو يرى فلسطين بأسرها وفيها أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، صائرة إلى أيدي الصهيونيين، وشذاذ الآفاق من يهود العالم يفدون بالمئات والألوف على فلسطين، تقلهم البواخر وهم من كل حدب ينسلون، وقد فتحت لهم السلطات البريطانية أبواب فلسطين على مصاريعها قائلة لهم: ادخلوها بسلام آمنين.. وها هم شذاذ الآفاق وآفة القيم الدينية والأخلاق يهرعون إلى فلسطين تحت حماية الحراب البريطانية، فيكاثرون العرب أهل البلاد من عهد عاد، وينشئون مستعمراتهم على أنقاض الشعب الفلسطيني، الذي تعمل السلطات البريطانية جاهدة على انتزاع أرضه وجلاء أهله، ويُؤسّسون المصانع والمعامل مستفيدين من الحماية الجمركية لما ينتجون ويصنعون، ويستولون على الوظائف الحكومية، وتمنح لهم أراضي الدولة الأميرية بالمجان، وتحميهم القوانين والأحكام التي شرعتها وسنّتها السلطات البريطانية لهم خصيصاً بمقتضى صك الانتداب البريطاني على فلسطين لتساعد على جعل فلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي.

ثورات الشعب الفلسطيني:

ولم تكن لتخفى على القسام مرامي سياسة «وعد بلفور» الجائرة الغادرة، وإنّ الوطن القومي اليهودي ليس إلا مرحلةً من مراحل تهويد فلسطين وجعلها دولة يهودية لحماً ودماً، وقلباً وقالباً. وهو لا شك قرأ وسمع ما كان يعلنه زعماء الصهيونية، من وايزمن وألفرد موند، إلى سوكولوف وكيش وايدر، وكوك، وأوسشكن، وبنتويش وغيرهم من ساسة اليهود وحاخاميهم من أنهم يعنون بالوطن القومي اليهودي أن تكون فلسطين

يهودية كما أن إنكلترا إنكليزية وأميركا أميركية! ولذلك لم يكن بد من أن تشقَّ المقاومة المسلحة طريقها في فلسطين لمنع هذا الخطر الصهيوني الجارف من أن يجد سبيله للسيطرة على فلسطين العربية سهلة مُمَهَّدة، ولا سيما أنَّ الفلسطينيين لم يكن ينقصهم الاستعداد للثورة على سياسة الظلم والعدوان.

وقد سبق لهم أن قاموا بثورات داميات على السياسة الاستعمارية الصهيونية، نشبت الأولى منها يوم ٤ نيسان ١٩٢٠ في القدس، واستمرت أربعة أيام، استشهد خلالها ١٤ عربياً كانوا طليعة شهداء فلسطين وأبطالهم وجُرح كثيرون، وقُتل من اليهود والجنود الإنكليز ٩ وجرح ٢٥٠. (هذه الأرقام مأخوذة من تقرير سري رفعته في حينها الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين إلى الحكومة البريطانية).

ونشبت الثورة الثانية يوم أول أيار ـ مايو ـ من عام ١٩٢١ في يافا، واستمرت نحو أسبوعين، امتدت خلالهما إلى القدس ومناطق فلسطينية أخرى، وكانت حصيلتها ١٥٧ شهيداً ونحو ٧٠٠ جريح عربي، سقط أكثرهم برصاص الجنود الإنكليز، وهلك من اليهود والقوات المسلحة للدولة المستعمرة ٤٧ وجرح ١٤٦.

وكانت الثالثة ثورة البراق الشهيرة عام ١٩٢٩، التي ابتدأت بالقدس يوم ٢٣ أغسطس من المسجد الأقصى، واستمرّت أسبوعاً كاملاً، شملت خلاله سائر فلسطين، واضطرت السلطات البريطانية لإحضار نجدات عسكرية إنكليزية بالطائرات من مصر وشرقي الأردن، وبلغت خسائر العرب فيها ٣٥١ شهيداً ونحو ١٥٠٠ جريح، وخسائر اليهود والقوات المسلحة ١٣٢ قتيلاً و٣٤١ جريحاً، ونشبت خلال ذلك ثورات وانتفاضات متعدّدة في مختلف المدن الفلسطينية، سقط فيها جَرحى وقَتلى من الطرفين، خلال المظاهرات احتجاجاً على وعد بلفور وعلى الهجرة اليهودية، وغير ذلك من المناسبات.

حركة القسام السريّة:

بدأ القسّام حركته بالاتصال بجمهور الشعب عن طريق الخطابة والوعظ والتدريس في المسجد كما أسلفنا، ثم عن طريق التدريس في المدرسة الإسلامية والاختلاط بالناس على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم. فكان يقوم بالتوعية الدينية والوطنية، ثم يستخلص من مستمعيه وطلابه من يجد فيه الجدارة للنضال والاستعداد للقتال، واستطاع بعد صبر وجَلد أن يؤسّس حركة سريّة قوامها أولئك الذين اصطفاهم من الناس، للقيام بالعمل المسلح ضد السلطات البريطانية، وتمكّن بمساعدة إخوانه ورفاق جهاده من الحصول على بعض السلاح وبعض المال، ليبدأ بهما المقاومة المسلحة. وقد كَتَمَ حركته فلم يعلم بها إلا عدد قليل من الناس.

استنكار السياسة البريطانية المتواطئة:

وكان الجو السياسي في فلسطين قد بلغ ذروة التوتر، والمظاهرات الصاخبة تَجْتاح البلاد بين حين وآخر، احتجاجاً على سياسة بريطانيا في تسهيل سبل الهجرة لعشرات الألوف من اليهود كل عام، واستنكاراً لوسائل القمْع والإرهاب التي تُمارسها حكومة الانتداب لإرغام الشعب الفلسطيني على الرضوخ والخضوع بطرق وحشية. وكثيراً ما كانت الاصطدامات تقع بين الثائرين العرب من جهة والقوات البريطانية والقوات الصهيونية المسلّحة من جهة أخرى.

القسّام يخرج إلى الجهاد:

فوجَدَ القسّام الظرف ملائماً للشروع في حركته التي أعدّ لها العدة وهيأ لها أفراداً اختارهم وبثّهم في نقاط معينة من البلاد.

وفي ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٥، أنذر القسام رفاقه بأنه قرّر الخروج إلى الجهاد في تلك الليلة، ثم خرج على رأس عشرة من المجاهدين إلى المنطقة الجبلية في قضاء جنين، ووزّع رجاله على بعض قرى تلك المنطقة،

وهي: يعبد وكفردان وفقوعة وقباطية وصندلة لتوعية أهليها، وشرح أهداف الحركة لهم، ولاتخاذ بعض المراكز الملائمة فيها.

رفاق القسام الأوائل:

وكان المجاهدون العشرة الذين اختارهم القسام لمرافقته عند خروجه إلى منطقة حراج يعبد هم: الشيخ محمد حنفي أحمد، والشيخ يوسف الزيباوي من الزيب، والشيخ نمر السعدي من شفا عمرو، والشيخ حسن البابر من برقين، وأحمد عبدالرحمٰن جابر من عنبتا، والشيخ أسعد المفلح من أم الفحم، وعربي البدوي من قبلان، ومحمد يوسف من سبسطية، والشيخ ناجي أبو زيد، ومحمد الحلحولي من يَعْبَد.

استشهاد الشيخ القسام وبعض رفاقه:

وقد تسرَّع أحد المجاهدين الذين وزَّعهم القسام على القرى، وهو المرحوم محمود سالم، الذي كان يقوم بالحراسة قرب قرية فقوعة، فأطلق النار على دورية من البوليس كانت قادمة من مستعمرة عين حارود، فقتل عريفها اليهودي وفرَّ زميله فأبلغ مركز البوليس بالحادث، وعلى الإثر قامت قوات كبيرة من الجند والبوليس بتطويق المنطقة، واشتبك بعض أفرادها في قرية البارد ببعض المجاهدين القسّاميين، فاستشهد المجاهد محمود الحلحولي وقتل اثنان من البوليس البريطاني. وهذا ما دَعَا السلطات البريطانية إلى زيادة عدد قواتها المحاصرة للمنطقة، ولم تلبث أن وافاها رجال مخابراتها بأن الشيخ القسّام يقود ثورة مسلحة، وأنه متمركز في حراج يعبد، فأحكمت الطوق على المنطقة واشتبكت بالقسّام ورفاقه في معركة ضارية غير متكافئة، استمرت بضع ساعات، وذلك صباح يوم ٢٢ تشرين الثاني، وانتهت باستشهاد الشيخ القسام واثنين من رفاقه هما الشيخ يوسف الزيباوي والشيخ محمد الحنفي أحمد، وجرح ثلاثة آخرون هم عربي البدوي، وأحمد جابر، ومحمد يوسف، ووقعوا في أسر القوات البريطانية، واستطاع الآخرون اختراق الطوق والنجاة بأنفسهم.

دفن الشهيد في حيفا:

كان لمصرع الشيخ القسام ورفاقه رحمهم الله صدًى عظيم الأثر في البلاد الفلسطينية، ونقل جثمان الشهيد إلى مدينة حيفا حيث دفن فيها وسط مظاهر الحزن والتكريم، وتوافدت جموع غفيرة من الناس للاشتراك في تشييع جثمان الشهيد البطل. وفي يوم الأربعين من وفاته أقيم احتفال عظيم شهدته الأحزاب والجماعات الفلسطينية، وشاركت فيه مئات المدن والقرى، ولم يلبث الموكب أن تفجَّر غضباً على الإنكليز واليهود، فهاجمت الجموع بعض مراكز البوليس ودوائر الحكومة، وأعملت فيها يد التخريب، وقذفت بالحجارة كل من صادفها من الإنكليز واليهود.

أثر ثورة القسام:

لم تدم ثورة القسام طويلاً، وانتهت بمعركة واحدة، ولكنها تركت أثراً مدوياً في البلاد، ولم تلبث أن تلتها المعارك الفلسطينية الكبرى.

وترك القسام وراءه كثيرين من مُحبيه ومريديه الذين كان لهم شأن كبير في تلك المعارك.

استشهاد القسام في التقرير السنوي البريطاني:

ومما يُعطي صورة واضحة عن الأثر الذي أحدثه استشهاد الشيخ القسام في البلاد ما جاء في التقرير السنوي لحكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، إلى لجنة الانتداب في جنيف عن وقائع عام ١٩٣٥، وهذه ترجمته:

(انتشرت في الجو إشاعات عن عصابة للإرهاب، تألفت بوحي من عوامل سياسية ودينية. وفي يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٣٥ كان جاويش ونفر من البوليس يقْتفيان أثر سرقة في هضاب قضاء الناصرة، فأطلق مجهولان النار فقتلوا الشاويش... وسرعان ما أدى هذا الحادث إلى اكتشاف عصابة كانت في ذلك الجوار تحت قيادة عز الدين القسام، وهو لاجئ سياسي من

سوريا، وهو ذو مكانة ليست بالقليلة كرجل من رجال الدين، وقد اشتبه به اشتباه قوي قبل ذلك ببضع سنوات، وقيل إن له ضلعاً في أعمال إرهابية.

لقد حضر جنازة الشيخ القسام في حيفا جمع غفير جداً من الخلق، وبالرغم من الجهود التي بذلها كبار المسلمين في توطيد النظام أثناء الجنازة، إلا أنه وقعت مظاهرات وقذف أحجار.

وبعثت وفاة القسام بموجة قوية من الشعور في الدوائر السياسيّة وغيرها في البلاد، واتفقت آراء الصحف العربية على تسميته بالشهيد فيما كتبته عنه من المقالات الوطنية).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.



رواد الإصلاح الإسلامي الحديث

عبد الحميد بن باديس[1]

(١٣٠٦ - ١٣٥٩هـ)

(١٨٨٩ - ١٩٤٠م)



بقلم: حمزة بوكوشة

جديرٌ بنا أن نذكر عبدالحميد بن باديس كلما أظلنا يوم ١٦ أفريل (نيسان) فلقد كان رحمه الله أمة وحده، عاملاً على نشر العربية والإسلام وجميع مقوّمات الشخصية الجزائرية، ولقي في سبيل ذلك جفاء الأقربين، وحرب الأبعدين، فما كلّ ولا ملّ ولا استسلم حتى فارق الحياة. لهذا أرى من واجب الوفاء تجديد ذكراه وتقديمَ لمحاتٍ من حياته، للجيل الصاعد المعتز بالعروبة والإسلام، عساه أن يتخذ من حياة هذا الرجل العظيم مثال احتذاء، ومنار اقتداء.

ولادته ونشاته:

ولد في ١٨٨٩/١٢/٥ بقسنطينة في أسرة لها تالد من علم وفضل يشهد به تاريخ الجزائر من عهد المعز بن باديس الصنهاجي، إلى العهد العثماني،

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الخامسة: (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م)، وجاء في الحاشية: نُقدّم هذا المقال القيّم لقرائنا نقلاً عن مجلة (المعرفة) الجزائرية تعميماً للفائدة، ولما لهذا الرجل العظيم من مكانةٍ هامة في تاريخنا الإسلامي الحديث (الحضارة).

حيث كان أبو العباس أحميدة بن باديس، من أشهر قضاة قسنطينة وأفاضل علمائها، غير أنَّ العصور المظلمة قَضت على ما كانت تتمتّع به هذه الأسرة وغيرها من الأسر الجزائرية من علم ومجد وبطولة ورجولة، وكمنت تلك الخصائص والمميزات إلى أن تجلَّت في عبدالحميد فكان همزة وصل ربط الأواخر بالأوائل، وجدَّد أمجاد الجزائر، وأزال عنها غبار الخمول والنسيان.

تعلُّمه:

حفظ القرآن على الشيخ محمد بن الماداسي، وتلقَّى مبادئ العلوم على الشيخ حمدان الونيسي بجامع سيدي محمد بن النجار بقسنطينة، وقد أخذ عليه عهداً بأن لا يعمل عملاً للحكومة، ولا ينخرط في وظائفها، ووفَّى عبدالحميد بهذا العهد، وأخذه على بعض تلامذته الذين توسَّم فيهم خدمة الصالح العام.

هجرته في طلب العلم:

هاجر شيخه حمدان إلى الحجاز، فتاقت نفس عبدالحميد إلى جامع الزيتونة فذهب إليه سنة ١٩٠٨ فتلقى العلم على علمائه حتى أحرز على شهادة التطويع في العلوم، وهي من أكبر الشهادات العلمية في ذلك العهد، وكان من شيوخه الذين لهم أثر في توجيهه العلمي: الشيخ محمد النخلي رحمه الله، والشيخ الطاهر بن عاشور حفظه الله.

سفره إلى الشرق:

ما كاد يستقر بقسنطينة بعد عودته من تونس سنة ١٩١٢ حتى تحرَّكت في نفسه دواعي الشوق إلى البقاع المقدسة فحج واعتمر وجدَّد العهد بشيخه حمدان وزوده هذا برسالة إلى الشيخ محمد بخيت المطيعي أحد علماء عصره في مصر، فاتَّصل به وبكبار الشيوخ، ورجع من هنالك بإجازات وأسانيد.

مباشرته للتدريس:

عاد إلى قسنطينة ورابط بمسجد سيدي قموش يقضي بياض يومه في تعليم الشبان مبادئ العلوم والإسلام الصحيح، ويُوجِّههم التوجيه الحسن، وعند إقبال

الليل يلتفت إلى الكهول والشيوخ الملتفين حوله بالجامع الأخضر، يدعوهم إلى الله على بصيرة ويذكرهم بأيام الله. فكانت مجالس دروسه كثيرة الزحام، تخرّجت عليه طبقة من العلماء والأدباء امتازوا بعمق التفكير، وصدق التعبير فكانوا بحق رواد النهضة الجزائرية في العلم والأدب والوطنية.

اشتغاله بالصحافة:

كان من مؤسّسي جريدة النجاح ثم تخلى عنها، وأسس سنة ١٩٢٥ جريدة المنتقد، وتولى رئاسة تحريرها، وأسند إدارتها للشهيد أحمد بوشمال، وكان من كتابها الشيخ مبارك الميلي، والشيخ الطيب العقبي رحمهما الله، وقد نشرت في عددها السادس مقالاً للميلي تحت عنوان «العقل الجزائري في خطر» كما نشرت في عددها الثامن قصيدة للعقبي تحت عنوان: إلى الدين الخالص، ومثل هذه القصيدة وذلك المقال يعدُّ جراءة كبرى في ذلك العهد، لتناولهما العادات المألوفة بالنقد والتجريح، وسارت على خطتها حتى عطلت بقرار بعدما برز منها ثمانية عشر عدداً. فأصدر بعد ذلك جريدة الشهاب على خطة المنتقد ومباديه، فلاقت في سبيل ذلك ما لاقت من العناء والصعوبات، فلم تلن قناتها لغامز، وتحالفت قوى الرجعية وكل هامز لامز على عبدالحميد حتى أصبح مهدداً في حياته.

محاولة اغتياله:

ففي سنة ١٩٢٧ بينما هو متوجّه إلى سكنه بعد خروجه من درس التفسير ليلاً، إذا بأحد الجناة يحاول اغتياله، فاستغاث الشيخ، فألقى الناس القبض على الجاني قبل إتمام الجريمة. فهنأ الشعراء الشيخ بالنجاة وما زلت أذكر، طالع قصيدة محمد العيد:

حَمَتْك يد المولى وكنت بها أولى　　فيا لك من شيخ حَمَتْهُ يد المولى

مكانة الشهاب:

للشهاب مكانة مرموقة في الشمال الأفريقي، فما زلت أذكر أن الشيخ مصطفى بن شعبان بتونس رحمه الله كان يكتب في جريدة الشهاب ويعمل

على نشرها، كما كان يكتب فيها من المغرب الأقصى ويعمل على نشرها الأستاذ علال الفاسي والفقيه غازي وغيرهم من شباب الأمس وشيوخ اليوم، وأذكر أن مما نشرته «الشهاب» إذ ذاك للشاب السيد علال قصيدة طالعها:

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب

وذلك في سنة ١٩٢٧، وقد استحالت الشهاب من جريدة أسبوعية إلى مجلة شهرية فكانت سجلاً لتاريخ الجزائر العلمي والسياسي في عصر الانبعاث أو في الفترة التي كانت بين الحربين الحرب الكبرى والحرب الأخيرة، وكان يحرر فيها فصل: (في المجتمع الجزائري) أحمد توفيق المدني غالباً، ويحرر فصل: (الشهر السياسي) دائماً، ويحرر عبدالحميد القسم الديني والقسم العلمي من المجلة وأهمها: مجالس التذكير التي تسعى وزارة الأوقاف حالياً في جمعها ونشرها كما تولت طبع ونشر مجموعة دروسه في علم التوحيد على الطريقة السلفية.

عبدالحميد ونادي الترقّي:

في سنة ١٩٢٧ أسس السادة: الحاج مماد المنصالي، محمود بن ونيش، عمر الموهوب، أحمد توفيق المدني، وبعض الإخوان، نادي الترقي فكان هذا النادي ملتقى النخبة المفكرة سواء من كان منهم مقيماً بالعاصمة، أو من كان وافداً عليها من الخارج. وكانت تلقى فيه المحاضرات والمسامرات، وتقام فيه الحفلات، فكان عبدالحميد كلما جاء إلى الجزائر يحاضر فيه أو يسامر أو يجتمع فيه بالشباب الناهض المتوثب من طلبة العلم والمفكرين. فكان النادي بذرة صالحة للنهضة الجزائرية.

ولقد تكوّنت لجنة تحضيريّة فيه انبثقت عنها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان كاتب اللجنة الشيخ أحمد توفيق المدني، ورئيسها السيد عمر إسماعيل رحمه الله.

عبدالحميد رئيس جمعية العلماء:

تأسست جمعية العلماء بعد الاحتفال بمضي قرن على احتلال الجزائر فكان ذلك رداً عملياً على المحتفلين الذين كانت أصواتهم تردد الجزائر فرنسية، وكان شعار العلماء المصلحين: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا. وقد ظهر هذا الشعار أول ما ظهر مكتوباً على كتاب الجزائر للشيخ أحمد توفيق، ثم تناولته الألسنة والأقلام، ولقن للتلامذة في المدارس، وذلك سنة ١٩٣١.

وفي ٥ ماي من هذه السنة اجتمع علماء القطر الجزائري بنادي الترقي فأسسوا جمعية العلماء، وأسندوا رئاستها إلى عبدالحميد بن باديس بإجماع، وكان غائباً حيث لم يحضر معهم في اليوم الأول ولا في اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث جاء إلى الاجتماع وألقى كلمة جاء فيها:

«إخواني إنني قد تخلفت عن جمعكم العظيم اليوم الأول والثاني فحُرمت خيراً كثيراً، وتحمَّلت إثماً كبيراً. ولعلكم تعذرونني لما لحقت في اليوم الثالث، وأذكر لحضراتكم ما تعلمونه من قصة أبي خيثمة الأنصاري لما تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ثم لحقه فقال الناس: هذا راكب يرفعه الإبل ويضعه، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: هو أبو خيثمة فاعتذر إلى النبيّ ﷺ فقبل عذره ودعا له بخير، ومثلكم من كان له في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة». هكذا كان يستلهم أقواله وأفعاله من السنة النبوية.

وألقى خطاباً آخر في ذلك الاجتماع عندما باشر مهام الرئاسة هذا نصُّه:

«الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومَنْ والاه إخواني: إنني ما كنت أعد نفسي أهلاً للرئاسة لو كنت حاضراً يوم الاجتماع الأول فكيف تخطر لي بالبال وأنا غائب لكنكم بتواضعكم وسلامة صدوركم وسمو أنظاركم جئتم بخلاف اعتقادي في الأمرين فانتخبتموني للرئاسة.

إخواني: كنت أعد نفسي ملكاً للجزائر أما اليوم فقد زدتم في عنقي ملكية أخرى فالله أسأل أن يقدرني على القيام بالحق الواجب.

إخواني: إنني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي، وإنما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضعيف هذا: **الأول**: أنني قصرت وقتي على التعليم فلا شغل لي سواه فأردتم أن ترمزوا إلى تكريم التعليم إظهاراً لمقصد من أعظم مقاصد الجمعية وحثاً لجميع الأعضاء على العناية به كل بجهده، **الثاني**: أن هذا العبد له فكرة معروفة، وهو لن يحيد عنها ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن، فمن قبلها فهو أخ في الله، ومَنْ ردَّها فهو أخ في الله. فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى هذا الأصل وهو أن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام».

هذا مبدأ عبدالحميد في الحياة، فالرجل قرآنيٌ وربَّاني استمدَّ هذا من قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وهذه الطريقة كان يسلكها مع جميع الناس سواء أكانوا من تلامذته ومريديه، أم من خصوم فكرته ومناوئيه، ورغم هذا فلم تمض سنة على تأسيس جمعية العلماء حتى دخلت في معارك حامية مع أذناب الاستعمار ومع أصحاب البدع والخرافات، وأخذت تؤسس المدارس الابتدائية لتعليم الدين واللغة، وترسل وفود الوعاظ يجولون المدن والقرى، وكان عبدالحميد أسس بقسنطينة مدرسة التربية والتعليم، وجعل لها فروعاً في القطاع القسنطيني، وكاد التعليم يعم المداشر والقرى، فأوْجست الحكومة الفرنسية خيفةً في نفسها، فعطلت غالبية المدارس، وزجَّت ببعض المعلمين في السجون وحاكمتهم محاكمة المجرمين، فكان عبدالحميد يشجع أبناءه المعلمين على المقاومة ويثير حماس الجماهير، ويحتج على هذه المعاملة.

طريقته في الاحتجاج على الحكومة:

له في الاحتجاج طريقتان: الأولى: باسمه رئيس جمعية العلماء، وهي الاحتجاجات التي لا تخرج عن دائرة القانون. الثانية: باسمه الخاص، وهي الاحتجاجات اللاذعة التي يصف فيها الاستعمار بكل نقيصة، ويفضح فيها مكايده ويكشف مخازيه، وسألناه مرة: لماذا هذه التفرقة في الاحتجاجات؟ فقال: الاحتجاجات التي أمضيها باسم جمعية العلماء أحافظ فيها على

الجمعية، والاحتجاجات التي أمضيها باسمي لا أحافظ فيها على شخصي. ولمح إلى هذا في خطاب ألقاه في ٢٧ سبتامبر ١٩٣٦ إثر اجتماع الجمعية العامة حيث قال:

«إن هذا العبد الضعيف يقدّم بلسان العجز الشكر لأعضاء الإدارة إخوانه أن قدّموه للرئاسة وجدّدوا له ثقتهم به هذا مع علمه بعبء الرئاسة الثقيل وما يلزم لها من التضحية التي هي أول شروط الرئاسة. ولقد قال الهذلي:

فإن رئاسة الأقوام فاعلم　　　لها صعداء مطلعها طويل

وإنَّ هذا العبد الضعيف لثقته في الله وقوته بالله واعتزازه بقومه واعتماده بعد الله على إخوانه لمستعدٌ لهذه الصعداء وإن طال مطلعها وطال».

ثم قال: «إن ميدان العمل في هذه الجمعية لميدان واسع، وهنالك للعمل ميادين أخرى لا أدخلها باسمها. ولكن (إن كان فيها منفعة) أدخلها باسمي إن كان عند قومي قيمة لاسمي، وأرجو أن يعينني الله عليها.

أيها الإخوان!

إنَّ على كل رئيس حقاً. وقد قال الأحنف بن قيس:

إن على كل رئيس حقاً　　　أن يخضب الصعدة أو تندقا

والصعدة هي الرمح يُريد أنها تخضب بالدماء أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته الأعداء. ولكن صعدتنا نحن التي نخضبها هي القلم (وخضابه الحبر)، ولكنه لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل.

وإن من الحق أن نتأدّب بالأدب النبوي، ومنه: أن لا نتمنى لقاء العدو فإذا لقيناهم فلنصبر والله معنا».

عبدالحميد بن باديس والمؤتمر الإسلامي:

تهافت كثير من رجال السياسة على الاندماج، ورأوا أنه الطريقة الوحيدة التي تصل بها الجزائر إلى حقوقها المسلوبة، ومن بين هؤلاء نواب

يرون أن لا حق لأحد أن يتكلم في السياسة الجزائرية سواهم، وأن لهم البتّ في مصير الأمة، والأمة غائبة عن الميدان. فنشر عبدالحميد آراء له في السياسة الجزائرية في جريدة (لادفانس) الدفاع التي كان يصدرها الأستاذ العمودي رحمه الله باللسان الفرنسي، وذلك في عدد ٢ جانفي ١٩٣٦، وكان من تلك الآراء عقد مؤتمر إسلامي جزائري، لأن المرجع في مسائل الأمة هو الأمة، والواسطة لذلك هي المؤتمرات، فبقيت الفكرة تتردّد في النوادي حتى فازت الجبهة الشعبية بفرنسا في الانتخابات، فتأسس المؤتمر الإسلامي الجزائري يوم ٧ جوان سنة ١٩٣٦، وكان غالبية من به من دعاة الاندماج وأنصار مشروع بلوم فيوليت. وقرّر العلماء أن يشارك فيه الشيوخ عبدالحميد بن باديس، الطيب العقبي، البشير الإبراهيمي، محمد خير الدين، وغيرهم من العلماء باسمهم الخاص، وقد كان لمشاركة هؤلاء العلماء أثر فعّال في تعطيل الاندماج وإبراز الذاتية الإسلامية العربية الجزائرية، حيث جاء في مطالب المؤتمر ما يلي:

ـ المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية مع إصلاح هيئة المحاكم الشرعيّة بصفة حقيقية ومطابقة لروح القانون الإسلامي.

ـ فصل الدين عن الدولة بصفة تامة وتنفيذ هذا القانون حسب مفهومه ومنطوقه[١].

---

(١) جاء في التعليق على هذا المطلب من مطالب المؤتمر في ندوة القراء بمجلة «حضارة الإسلام»: التبس على بعض القراء ما وَرَدَ في المقال المنشور في العدد الأول من هذه السنة عن الشيخ عبدالحميد بن باديس، وقد وقع هذا الالتباس بسبب أحد مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد سنة ١٩٣٦ لمحاربة مشروع اندماج الجزائر بفرنسا، فقد ورد في جملة هذه المطالب ـ فصل الدين عن الدولة. . ـ.
وواضحٌ كل الوضح من سياق الحوادث المعروضة في المقال أنّ فرنسا كانت تحاول إدماج الجزائر في المجموعة الفرنسية إدماجاً تاماً، وكانت فرنسا المستعمرة تسيطر في ذلك الوقت على أوقاف المسلمين ومساجدهم وتتدخّل في شؤونهم الدينية، فطالب العلماء يومئذ وفي ذلك الجو بفصل الدين عن إدارة الدولة المستعمرة الكافرة التي=

- إرجاع سائر المعاهد الدينية إلى الجماعة الإسلامية تتصرَّف فيها بواسطة جمعيات دينية مؤسسة تأسيساً صحيحاً.

- إرجاع أموال الأوقاف لجماعة المسلمين ليمكن بواسطتها القيام بأمور المساجد والمعاهد الدينية والذين يقومون بها.

- إلغاء كل ما اتُّخذ ضد اللغة العربية من وسائل استثنائية وإلغاء اعتبارها لغة أجنبية.

- الحرية التامّة في تعلم اللغة العربية، وبهذا أخفق المؤتمر الإسلامي، ومرجع إخفاقه إلى مشاركة العلماء فيه، فلجنة قسنطينة طلبت من عبدالحميد أن يضع لها من المطالب ما لا ينافي الإسلام فوضع مطالب منها: «المساواة في الحقوق السياسيَّة، مع المحافظة على جميع الذاتية»، وهذا الذي أقره المؤتمر بإجماع، وبه سقطت جميع المشاريع «الأبروجيات» كما قال عبدالحميد رحمه الله.

حينئذ علم دعاة الاندماج أنهم أُخذوا على غرة، وأن هذه المطالب التي قدّمها العلماء وأيدها الشعب قد أفسدت عليهم تدبيرهم. وقالوا: العلماء يجهلون السياسة فما معنى مشاركتهم فيها إنهم لرجعيون وو... فأجابهم الأستاذ الإبراهيمي - حفظه الله - إذ ذاك على صفحات الشهاب، وكان ممّا قاله لهم:

«فويحكم.. إنَّ العلماء الذين تعنونهم من الأمة في الواقع والحقيقة في حال أنكم لا تعدون منها إلا على الزعم والدعوى، وإن العلماء يمثلون الوصف الذي ما كانت الأمة أمة إلا به، وهو الإسلام ولسانه.

= كانت تفرض تدخلها بروح صليبية محاولةً تشويه حقائق الدين الإسلامي والإساءة للمسلمين فيما يتعلق بشؤونهم الدينية.

وهدف هذا المطلب تحقيق استقلال المسلمين بشؤونهم الدينية عندما كانت فرنسا تُدير شؤون الجزائر إدارة مباشرة، فالدولة هي فرنسا والدين هو الإسلام فكان الطلب فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية المستعمرة التي كانت تتدخَّل في شؤونه دون حق، وهذا هو المقصود بما وَرَدَ في المقال ولا مجال للالتباس.

وإن مطالب الأمة التي رفعت صوتها بها في المؤتمر ترجع إلى أصول أربعة: الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد، وإن لكلِّ مطلب من هذه المطالب فروعاً متشابكة، وإنَّ كل أصل من هذه الأصول يحتاج إلى بحوث ودراسات تفتقر إلى كفايات واختصاصات، وإذا كان في نواب الأمة ومفكريها مَنْ فيه الكفاءة والمُؤهِّلات لدراسة المطالب السياسيَّة وَوَصْل مقدماتها بنتائجها، وإعطاء رأي ناضج فيها، أو كان في فلاحينا وتجارنا من نعتمد عليه وعلى رأيه في المطالب الاقتصادية مثلاً، فمن للمطالب الدينية وما يتبعها من اللغة العربية غير العلماء؟».

وفد المؤتمر إلى باريس:

شكَّل المؤتمر وفداً إلى فرنسا لتقديم المطالب إلى الحكومة الفرنسية، وكان عبدالحميد من أعضاء الوفد، ذهب الوفد يوم ١٨ جوليت ١٩٣٦ وشرح القضية في النوادي السياسيَّة واتصل بالوزراء ورؤساء الأحزاب، وصارحه م.دالادي وزير الحربية إذ ذاك أنه لا يمكنه أن يوافق على إعطاء المسلمين الجزائريين النيابة في البرلمان مع محافظتهم على الشريعة الإسلامية في الحقوق الشخصية، وقال لهم: إن فرنسا معها مدافع، فقال له عبدالحميد: والجزائر معها الله، فقفل الوفد إلى الجزائر وهو بين اليأس والرجاء، بل هو إلى اليأس أقرب. وكتب عبدالحميد مقالاً في الشهاب وصف فيه تلك المقابلات ختمه بقول الشاعر:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

شبح الحرب الأخيرة، وأثره في نفس عبدالحميد:

في سنة ١٩٣٧ تكاثفت السحب في سماء السياسة العالمية فظن الناس أنهم من الحرب قاب قوسين أو أدنى. فبَعَثَتْ جماعة الميعاد الخيري «هيئة متكوِّنة من الأغوات والقياد»، وبعثت جماعة اتحاد الزوايا وغيرهما من الهيئات برقية ولاء وتأييد للحكومة الفرنسية، وشذَّت جمعية العلماء عن

ذلك فكبر ذاك على الإفرنسيين، فأوعزوا إلى من يعد العلماء ويمنيهم ويرغب منهم إرسال برقية ولاء ليظهر المسلمون الجزائريون مظهر اتحاد ووفاق في موالاة فرنسا، وخاطبوا في ذلك الشيخ الطيب العقبي رحمه الله فعرض القضية على الشيخ عبدالحميد فقال: سينعقد الاجتماع العام للجمعية في هذه الأيام، وطبعاً يتقدم ذلك اجتماع المجلس الإداري، وسأضع هذا الاقتراح في اجتماعه ليقول الأعضاء الإداريون كلمتهم.

وفي الاجتماع الإداري طرح عبدالحميد القضية بهدوء، وطلب من الأعضاء إبداء آرائهم فكانت غالبية الآراء ضدُّ كتابة البرقية، واستصوب العقبي إرسالها، وقال: الحرب على الأبواب وإرسال البرقية يُخفّف من حدّة الفرنسيين فتسلم لنا مدارسنا ونوادينا ومشاريعنا الخيرية، ونبقى على اتصال بأمتنا ولو في زمن الحرب، وأخذ يدافع عن نظريته، فعارضه كثير من الأعضاء. وعبدالحميد معتصم بالسكوت. ولما طالت المناقشة طلب عبدالحميد من الأعضاء التصويت برفع الأيدي، فكانت النتيجة أربعة أصوات منهم العقبي يقولون بإرسالها. واثنى عشر يقولون بعدم إرسالها، واحتفظ عبدالحميد بصوته، ولما انتهت المناقشة، حمد الله وأثنى عليه، وكان مما قاله:

«لو كانت أغلبيتكم تؤيد إرسال البرقية ما كنتم ترونني في مجلسكم هذا بعد اليوم».

وانتقلت القضية من الاجتماع الإداري الخاص بالأعضاء الإداريين إلى الاجتماع العام الذي تحضره الجماهير، فقال عبدالحميد على رؤوس الملأ: «أقول صراحة - واجتماعنا هذا لا يخلو من جواسيس رسميين أو غير رسميين - أني لن أمضي البرقية ولن أرسلها ولو قطعوا رأسي، وماذا تستطيع فرنسا أن تعمله؟ إن لنا حياتين حياة مادية وحياة أدبية روحية فتستطيع القضاء على حياتنا المادية بقتلنا ونفينا وسجننا وتشريدنا، ولن تستطيع القضاء على عقيدتنا وسمعتنا وشرفنا فتحشرنا في زمرة المتملقين، إننا قررنا السكوت.

نتج عن هذه الحادثة استعفاء الشيخ الطيب العقبي من العضوية الإدارية لجمعية العلماء. وقال المسؤولون من الفرنسيين: ما معنى السكوت؟

السكوت دعوة صارخة إلى عدم التأييد. وقال الخصوم: هل أصبح العلماء دولة فهم محايدون؟ وغير ذلك من عبارات التهكُّم والتحريش.

فاشتدَّت معاكستهم للجمعية وحربهم لها حتى اندلعت نار الحرب الثانية، وبعد أسبوعين من اندلاعها فرضت الإدارة الإقامة الجبريّة على عبدالحميد في (قسنطينة) ومنعوه من مغادرتها.

تفكيره في الثورة:

أيام اشتعال الحرب، اجتمعتُ به لآخر مرة بنادي الترقّي وكان حاضر الاجتماع تلميذه الشيخ محمد بن الصادق الملياني ليس غير. وبعدما تحادثنا معه في مواضيع خاصة وعامة انتفض رحمه الله وقال: هل لكم أن تعاهدوني؟ فقال له الشيخ محمد الملياني: لا أستطيع قبل أن أعرف، ثم توجّه إليَّ وقال: وأنت؟ فقلت: إذا كان على شيء أنت فيه معي فإني أعاهدك، قال: طبعاً أنا لا أكلِّف غيري بما لا أكلف به نفسي. فمددت يدي وصافحته، وقلت: إني أعاهدك ولكن على ماذا؟ قال: إني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها إيطاليا الحرب. ثم افترقنا ولم يعد بعدها إلى الجزائر، وهكذا كانت نيته. ولست أدري كيف تكون الحالة لو عاش فينا إلى ذلك الحين.

طريقته في العمل:

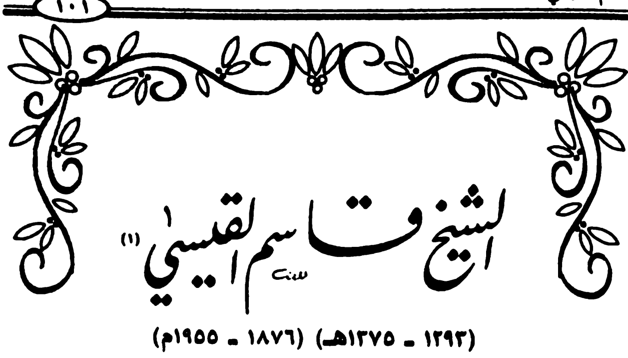
كان يطوف ببعض أنحاء الجزائر للوعظ والتذكير وتفقُّد الرفقاء وتوجيههم كل أسبوع. والنظام الذي كان يسير عليه هو: أن دروسه تبتدئ صباح السبت وتنتهي مساء الأربعاء، وفي ذلك المساء يغادر (قسنطينة) وما يعود إليها إلا صباح السبت حيث يستأنف التدريس، فتارة يقضي يومي عطلة الأسبوع بالجزائر، وتارة بتلمسان وتارة ببسكرة أو غيرها من البلدان. فكانت أيام الأسبوع بالنسبة إليه أيام عمل لا تخلو من مفيد أو جديد، بالإضافة إلى

ما يقوم به من مشاركة أعضاء جمعية العلماء في تحرير الجريدة التي تصدرها الجمعية بلسانها.

صموده وثباته إلى أن مات:

حاول الفرنسيون أيام الحرب أخذ مدرسة التربية والتعليم وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل اللغة العربية فقال لهم: لا أسمح بهذا حتى أموت دونه فحاولوا الحصول منه على كلمة يشم منها رائحة تأييد في حربهم مع الألمان فما استطاعوا. حتى أسلم الروح لباريها يوم ١٦ أفريل ١٩٤٠ إثر مرض لازم فيه الفراش أياماً معدودات، وحامت الأقاويل حول موته. فمن قائل: مات مسموماً، ومن قائل: إنه مات موتة طبيعية ـ ولا يعلم الحقيقة إلا الله ـ وذلك شأن الناس عند موت كل عظيم.





الشيخ قاسم القيسي

(١٢٩٣ ـ ١٣٧٥هـ) (١٨٧٦ ـ ١٩٥٥م)

للواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العراقي

١ ـ مولده ونشأته ودراسته وشيوخه:

ولد المغفور له الشيخ قاسم القيسي سنة (ألف ومائتين وثلاث وتسعين) للهجرة، الموافق سنة (ألف وثمانمائة وست وسبعين) الميلادية.

ولما بلغ (السابعة) من عمره، سلّمه والده إلى مدرسة أهلية لقراءة كتاب الله المجيد، ولتعلم الكتابة العربية، فختم القرآن الكريم وتعلّم الكتابة العربية بسرعة، وذلك بتثقيف والده ورعايته له مع معلمه، حتى برع في الكتابة وحسن الخط..

وانتقل بعد ذلك إلى مدرسة أهليّة أخرى ليدرس فيها اللغة التركية والفارسية، وذلك عند (منيف أفندي) أحد أرباب القلم المشهورين في شارع

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن من السنة السابعة: (١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م). وتنظر ترجمته في: «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري» ص٥٤٤ ـ ٥٤٥.

الميدان من بغداد، وبقي في هذه المدرسة بضع سنين كان يدرس في الخارج بعض المقدمات العربية.

وفي سنة (ألف وثلاثمائة وثلاث) هجرية، تجرّد لطلب العلم على علماء بغداد المشهورين، فدرس الخط والنصيب على الشيخ **(عبدالمحسن الطائي)** مدرس الحيدرية، فتوجّه إليه شيخه بكليته، ولم يأل جهداً في تربيته، فكان يخرج إليه لتدريسه قبل الفجر بساعة في البرد الشديد من ليالي الشتاء لما توسّم فيه من الخير المقبل، وكان درس الأستاذ يستغرق ثلاث ساعات، فلا ينتهي الدرس إلا والشمس مرتفعة.

وكان ممّا قرأه على الشيخ المومى إليه: علم (الصرف) بأجمعه من المتون والشروح، وعلم (المنطق) متونه وشروحه وحواشيه، وقسماً من علم (النحو)، وعلم (الكلام) و(التصوف).

ثم شرع في القراءة على الشيخ المغفور له **(عبدالوهاب النائب)**، رئيس محكمة التمييز الشرعي في العراق، فابتدأ بكتاب (مغني اللبيب)، وبالرسائل المتعلّقة بـ(الجادة) من علم (الوضع والبيان)، وعلم (المناظرة) وعلم (المعاني) بمختصر (المطوّل)، و(المطوّل) وحواشيه. وقرأ عليه أيضاً (الدرّ) و(الدرّ المختار)، ومن أصول الفقه قرأ شرح (ابن ملك على المنار) و(التلويح والتوضيح)، و(جمع الجوامع)، و(مختصر المنتهى).

ومن شيوخه: العلامة (غلام رسول)، فقد قرأ عليه: (خلاصة الحساب)، و(أشكال التأسيس)، و(إقليدس) في الهندسة، وشرح (النسفية) مع حاشية (الخيالي) و(عبدالحكيم)، و(المواقف) من علم الكلام، و(تشريح الأفلاك) و(الحفيني) من علم الهيئة.

وقرأ على غير هؤلاء الشيوخ، ممّا يطول ذكره.

وقد حفظ المتون من سائر الفنون، فكان القارئ عليه في أيّ علم يجد فيه الكفاية والتحقيق للغاية لما فيه من الاختصاص. ومنذ قراءته على مشايخه حتى مفارقته الحياة الدنيا، تجده مقصد الطلاب، فاتحاً أبوابه لهم، شفيقاً على طلبة العلم، عاكفاً على مطالعة الأسفار، لا يسأم من الدرس والتدريس.

وقد أُجيز الشيخ القيسي من شيخه الأستاذ عبدالوهاب النائب بإجازة خاصّة في الحديث وعامّة. وكذلك أجازَهُ مدرّس الحضرة القادرية له الشيخ عبدالسلام الشوّاف بإجازة خاصّة وعامّة، وله إجازات أخرى من مشايخ آخرين في العلوم العقلية والنقلية.

٢ ـ مناصبه:

عُيّن الشيخ القيسي في سنة (١٣١٧) للهجرة مدرّساً لقضاء (خانقين)، بعد أن نجح بتفوق على إخوانه في الامتحان، فبقي في ذلك القضاء نحو سنة مدرساً وواعظاً ومرشداً ومفتياً في البلدة المذكورة ولمَنْ حولها من المدن والقرى.

وعاد بعد ذلك إلى بغداد، وأخذ يُدرّس تلاميذه مبادئ العلوم، وكان من تلاميذه حينذاك: الشيخ عطاء الله الخطيب، والشيخ حسن النائب، والشيخ علاء الدين النائب.

وفي سنة (١٣١٩) للهجرة، عُيّن لقضاء (الصويرة). وفي سنة ١٣٢٦ للهجرة، طلبه والي بغداد برقياً للقدوم إلى بغداد أيام تنسيق الحكام، وكلّفه لجنة التنسيقات بقبول (نيابة الباب) في بغداد، فلم يقبل ذلك معتذراً، غير أن لجنة التنسيقات رَجَتْه مرة ثانية بأن يقبل هذا المنصب، فقبل ذلك كرهاً لمدة مؤقتة، لأنه كان لا يميل إلى القضاء، ولكنه ما زال يسأل إعفاءه من ذلك المنصب، إلى أن عيّن غيره في مكانه.

وفي سنة (١٣٢٧) للهجرة، عُيّن عضواً في (مجلس المعارف) في بغداد، فبقي مدة قليلة، وطلب إعفاءه من هذه الوظيفة أيضاً، لاشتغاله بما هو أولى وأهم من ذلك: التدريس، وبث العلم، وقد عُيّن (للمجلس العلمي) في الأوقاف، وذلك في زمن مديرية المفتي المغفور له (سعيد الزهاوي) وبترغيب منه، مع رفقة أمجاد، كالمغفور له الشيخ إبراهيم الراوي، والشيخ شمس الدين الآلوسي، فبقي في هذه الوظيفة عدّة سنين.

ثم عُيّن مدرساً لتدريس (الولاية) في بغداد، وعُيّن أيضاً بإلحاح وترغيب شيخه النائب والعلامة شكري الآلوسي والحاج علي الآلوسي مدرساً

لدار المعلمين، ولكنه طلب إعفاءه من هذا المنصب بعد أن بقي فيه تسعة أشهر، فأُجيب إلى طلبه.

ثم عُيّن عضواً في (مجلس التمييز الشرعي) فلم يرق له هذا التعيين، حيث طلبوا منه الاستقالة من عضوية المجلس العلمي، فاختار البقاء في المجلس العلمي في الأوقاف.

وفي سنة ١٩٢٢م طلب منه مرة ثانية قبول عضوية مجلس التمييز الشرعي، فقبل ذلك، وبقي مواظباً على وظيفته حتى سنة ١٩٢٨م، مع بثه الإرشاد بين الناس، وتدريسه لطلبة العلوم التي هي ديدنه وسيرته.

وحين توفاه الله كان الشيخ القيسي مفتياً لبغداد، وخطيباً للحضرة الكيلانية، ورئيساً لجمعية الهداية الإسلامية.

٣ ـ تحصيله العلوم:

كان المغفور له حريصاً على العلم، وكان في بَدْء أمره يجتهد عند أهله في البيت، فكان والده يأمره بالنوم ولا يحبُّ له السهر الكثير شفقة عليه، فكان الشيخ القيسي يأبى إلا السهر الطويل المتواصل مجتهداً باحثاً، فعاتبه أبوه ولامه، لذلك انحاز الشيخ القيسي إلى جامع الفضل اختياراً للتفرغ الكامل للعلم وحده، وحرصاً على الاستزادة من العلم دون تقيد.

وكان في أيام تحصيله العلوم يدأب على حفظ المتون ويؤلف بعض الكتب ويدرّس الطلاب، فكان له طلاب كثيرون بمقدار طلاب شيوخه، يميلون للدرس عليه لشفقته وسَعَة صدره وحُسن تربيته، وصبره الجميل، وربما قضى في تدريس الدرس الواحد من بعد صلاة العصر إلى المغرب، وكان لا ينام غالباً إلا إذا أنهكه السهر، وربما وقع الكتاب من يده وهو في إغفاءة قصيرة.

كان الشيخ القيسي يذهب إلى دار شيخه النائب بأمر منه في زمن الشتاء، حتى يخرج به إلى مدرسة (منورة خاتون) وقت السحر، ويقرأ عليه

الدرس ويتمّه ويرجع لصلاة الفجر في جامع (محمد الفضل)، وهذا علامة النشاط من الشيخ وتلميذه.

وكان شيخه يعتمد عليه كثيراً، وكانت له عند شيخه منزلة كبيرة لعلمه وحُسن أخلاقه، حتى إنَّ شيخه أودع جميع أنجاله إليه لتدريسهم.

وقد وعظ الشيخ القيسي سنتين في حياة المرحوم الشيخ محمد سعيد النائب في جامع (الفضل) امتثالاً لطلب الشيخ محمد سعيد ورغبة في بره، فكان المغفور لهما عبدالوهاب النائب وشقيقه محمد سعيد النائب يجلسان لاستماع موعظته، كما أنهما رغبا إليه للخطابة في (التكية الخالدية) ليصغيا لخطبته، ولما سئل أحد مشايخه سؤالاً علمياً فأحال الجواب إليه.

وقد اعتنى والده المرحوم أحمد الفرضي بما ينشطه في السعي والاجتهاد وطلب العلم، فجلب له الكتب النفيسة من أقصى البلاد البعيدة عن بغداد: من الشام ومصر والهند والآستانة، كما مهَّد له موجبات التفرغ للعلم وحده من النفقة واللباس، كما أن والده درّسه الفقه والحديث والتفسير، وحفَّظه الأربعين النووية، ومتن الرحبية في الفرائض والسراجية، فصار إماماً في الفرائض والحساب، حتى إذا حدثت قضية فرضية ووقع الاختلاف فيها، بعث إليه الشيخ علي المدرس وأمين الفتوى في بغداد يستفتيه عن المسألة ليرى الرأي القاطع فيها، وفي بعض الأحيان بعد السؤال منه يستفتي من المشيخة الإسلامية في الآستانة، فيرجع الجواب بعين ما أجاب.

وكثيراً ما كان يرسل إليه المغفور له الشيخ عبدالوهاب النائب من المحكمة الشرعية لبعض الدعاوى المهمة ليرى رأيه فيها، مع أن الشيخ النائب كان شيخ أهل العلم، وما ذاك إلا اعتماداً على الشيخ القيسي لما له من مزيد الاختصاص في هذا العلم، حتى صار مشهوراً في بغداد وخارجها، وكان يُقصَد من سائر النواحي والجهات لأخذ رأيه في قسمة التركات.

وكانت له قابلية فذّة في فهم وتفهيم أخفى المسائل العلمية.

٤ ـ نثره وشعره:

لعل خير ما يُمثّل نثر الشيخ القيسي، كتبه التي تبلور فيها أسلوبه النثري، فأصبح واضحاً سهلاً ممتنعاً بعيداً عن التكلف والمُحسنات اللفظية التي كانت شائعة في أيامه.

أما شعره، فمن الأمثلة عليه، ما نظمه مخاطباً شيخه عبدالوهاب النائب، فقال:

أيا علامة الآفاق يا مَنْ   جلا بعلومه أخفى المسائل
ويا رَوْض الأماني دون ريب   ويا بحر المعاني دون ساحل
ويا من كان للعافين غيثا   يسحُ عليهم درر المسائل
يراعك إن جرى يوماً بفنٍ   أرى السحر الحلال بأرض بابل
فما قسُّ بن ساعدة الأيادي   وما قيس وما سحبان وائل

وكتب إليه الرصافي ذاكراً عهوداً خلت مع الشيخ القيسي، فقال:

إذا قاسم القيسي مرَّ بخاطري   تذكَّرت عهداً في الصبا مرّ كالحلم
تذكَّرت إذ قد كنت للعلم طالباً   بفكر وسعيٍ مجهد النفس والجسم
فقد كنت أحياناً أزور فناءه   وأنتابه للرشف من منهل العلم
وكم زرته في جامع الفضل راجياً   شفاء لما في مدنف الفهم من سقم
إذا جئته يوماً نثلت كنانتي   فثقف منها كل ما اعوج من سهم
وعدتُ صحيح الفهم منه قد انجلت   بلقياه عني غمة الغرم بالغنم
هو العالم الحَبْر الذي مَنْ يَلُذ به   يكن فائزاً بالعلم والأدب الجمّ
بما شاء في التوضيح من واقد الذكا   وما شاء في التقرير من صادق الحكم
وما شاء من نصحٍ بليغٍ ومن هدى   وما شاء من خلق نزيه ومن حكم
بقية أعلام مضوا وكفى به   من العلم طوداً فوق أطواده الشمّ
له نظر في غامض العلم نافذ   ورأي سديد لا يحوم على الوهم

إذا ما نحى في العلم قتل عويصة　　رماها بسهم من فطانته مصمِ
نماه أبوه الشهم أحمد للعلى　　فبورك في الآباء من والد شهم
وكان بتقسيم المواريث بارعاً　　ينيف بها رأياً على ثاقب النجم

فأجابه الشيخ القيسي من ذلك البحر والرويّ بقوله:

لقد طرقت سمعي على حين غفلة　　ألوكة نظم زلزلت جحفل الفم
وكنت عليل الفكر منتهك القوى　　فصرت بها جذلان لم أشك من سقم
لأفصح أهل الشعر حقاً ومن غدت　　له الشهرة العظمى لدى العرب والعجم
ومَنْ قد حوى من كل مجدٍ لبابه　　وفاق على مَنْ فاق في النثر والنظم

وهي في ثماني عشرة بيتاً.

وله قصائد كثيرة أكثرها من شعر المناسبات.

٥ ـ مؤلفاته ورسائله وتعليقاته:

ألف الشيخ القيسي عدداً من الكتب العلمية الثمينة، وقد طبع منها أثناء حياته الكتب التالية:

١ ـ الحديقة الندية في المواضيع التفسيرية.

٢ ـ رسالة في مصطلح الحديث.

٣ ـ النزهة البهيّة في شرح الأربعين النووية.

٤ ـ الزهر اللطيف في مسالك التأليف.

٥ ـ تحفة الأدباء في الخط والإملاء.

أما الكتب والرسائل التي لم تطبع بعد فهي:

١ ـ السراج المنير في أصول التفسير (تجاوز ٦٠٠ صحيفة).

٢ ـ تاريخ التفسير الذي قرّر المجمع العراقي طبعه وعهد إليّ الإشراف على إخراجه للناس.

٣ ـ الأقوال الشارحة لسورة الفاتحة (تجاوز ١٤٠ صحيفة).

٤ ـ إتحاف الألباء في قضايا الإفتاء.

٥ ـ الروض النَّضِر في مناقب سيدي أبي العباس الخَضِر (عليه السلام).

٦ ـ رسالة في آية الوضوء.

٧ ـ القول المبرم في عيسى ابن مريم.

٨ ـ الغيث النافع في حقيقة التابع.

٩ ـ الإتحاف في مواد الأوقاف.

١٠ ـ رسالة في معرفة الخصوم.

١١ ـ رسالة في تناقض الدعوى.

١٢ ـ رسالة في الاعتدال في مسائل الاستبدال.

١٣ ـ رسالة في المخرجين للأحاديث.

١٤ ـ مرشد الإخوان إلى تربية الصبيان.

١٥ ـ يانع الغصن في تفسير سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ (سورة البينة).

١٦ ـ الشراب السَّلسل في نحل العسل.

١٧ ـ رسالة في صوم رمضان.

١٨ ـ رسالة في الحج ومتعلقاته.

١٩ ـ رسالة في الزكاة وأبحاثها.

٢٠ ـ رسالة في صدقة الفطر.

٢١ ـ رسالة في تفسير: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾.

٢٢ ـ رسالة في تفسير: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ و(الأضحية).

٢٣ ـ رسالة في تفسير: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾.

٢٤ ـ رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، بحث في الاستقامة.

٢٥ ـ رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ﴾ (الأمة المحمدية).

٢٦ ـ رسالة في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾(١).

٢٧ ـ رسالة في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأمر بالمعروف).

٢٨ ـ رسالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

٢٩ ـ رسالة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾.

٣٠ ـ رسالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ (في الأمانة والعدل ورد الظلم).

٣١ ـ رسالة في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ﴾ (الوصية بالنساء).

٣٢ ـ رسالة في تفسير الحديث الشريف: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً».

٣٣ ـ رسالة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

---

(١) تقدمت برقم (٦)، والله أعلم.

٣٤ ـ رسالة في الماهية البسيطة والمركبة.

٣٥ ـ رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

٣٦ ـ رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ . . .﴾ السورة.

٣٧ ـ رسالة في ضبط الكلمات والحروف.

٣٨ ـ رسالة (الاحتساء في رَضْد سورة النساء)، تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ . . .﴾ الآية.

٣٩ ـ رسالة (نشر الزهر في معرفة الفجر).

٤٠ ـ رسالة في وفاة النبيِّ ﷺ.

٦ ـ وفاته وتشييع جثمانه:

تُوفي الشيخ القيسي في الساعات الأولى من صبيحة يوم الأحد ١١ أيلول ١٩٥٥م، الموافق ٢٣ محرم الحرام ١٣٧٥هـ، فكان لنعيه رنّة حُزن وأسًى ليس في العراق فحسب بل في كل بلاد العرب وديار الإسلام.

وكان يوم تشييع جثمانه الطاهر في بغداد يوماً مشهوداً، فقد استفاقت العاصمة يوم الأحد ١٩٥٥/٩/١١ على نعي الشيخ القيسي مُذاعاً من محطة إذاعة بغداد، فطفقت الجموع تَتحاشد على دار الفقيد في الأعظمية، وتوقفت دار الإذاعة عن إذاعة برامجها، واقتصرت على إذاعة القرآن الكريم والتواشيح الدينية والأحاديث.

وما أن علمت الجماهير بأن موعد تشييع الجثمان سيكون في الساعة الخامسة مساء من يوم الأحد ١٩٥٥/٩/١١، حتى سارعت إلى داره، من مسؤولين ووفود المحلات، وهي تحمل الأعلام والرايات والدفوف مهللة مكبرة مجهشة بالدمع. وما أن حانت ساعة تشييعه، حتى تلقفت الجماهير

النعش وأبت أن ينقل إلا على الأعناق. ومع شدّة الحر وطول المسافة بين بيت الفقيد في الأعظمية ومقره الأخير في الحضرة الكيلانية، إلا أن الجماهير أصرّت على نقله مشياً على الأقدام، فكان للجماهير ما أرادت.

وسارت بالنعش يتقدمها رجال الدين مخترقة شارع الإمام الأعظم، حتى وصلوا إلى جامع الإمام الأعظم، حيث صلت الجماهير على الفقيد، ثم سارت صَوْب باب المعظم، وظلت الجماهير تتكاثر كلما قطع المشيعون قسماً من أقسام الشوارع التي تصل الأعظمية ببغداد. وما إن وصل المشيّعون إلى باب المعظّم حتى اشتركت معهم الجموع الحاشدة التي كانت تنتظر النعش هناك، فأغلقت المقاهي والحوانيت، وقطع الناس أعمالهم للاشتراك في هذا التشييع. أما وسائط النقل فقد حال ازدحام الشارع بجمهور المشيّعين دون تدفقها، وكانت الجماهير تردد في سيرها شتى الترانيم والأهازيج الدينية، وقد استغرق الموكب من الأعظمية إلى الشارع المؤدي إلى الحضرة الكيلانية أكثر من ثلاث ساعات.

وفي الحضرة الكيلانية تتابع قادة الفكر لتأبينه، ثم نُقل النعش إلى المقبرة حيث وُوري في التراب بين الحسرات والدموع.

وأُقيمت الفواتح عليه في مختلف الأماكن[١]، كما أقامت جمعية الهداية الإسلامية حفلة تأبينية كبرى بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته. كما أبّنه كثير من الشعراء والأدباء شعراً ونثراً.

لقد كان موت الشيخ القيسي خسارة كبيرة لا تعوض للعلم والعلماء، وقد عبّر الشعب عن لوعته في تشييعه إلى مقره الأخير بشكل لم يسبق له

---

(١) من تلك الفواتح: فاتحة جمعية الهداية الإسلامية، وجمعية رابطة العلماء، وجامع الوشاش، وجمعية الآداب الإسلامية، وشباب باب الشيخ، وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الآداب الإسلامية فرع قمبر علي، وجامع ملا حمادي، وجامع الإمام أبي يوسف، ومحلة الرحمانية، وجامع الشابندر بمدينة بعقوبة، والجامع الكبير في المقدادية، وجامع أهالي العزيزية، وجامع محمد الفضل في بغداد،... الخ (الخطاب).

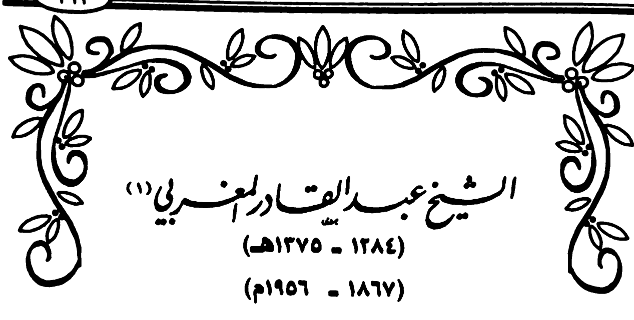
مثيل حتى لذي الجاه والسلطان، كما عبّر عن لوعته بلسان شعرائه وكتّابه وصحافته، لأن الرجل كان ذا مكانة مرموقة بين الناس استحقها بما بذله من جهد مشكور وسعي حميد في سبيل العلم، ولما كان يتحلى به من خُلق كريم وتديُّن وورع.

لقد كان بارعاً في علم الفرائض والأصول، بكل ما يتعلق بأصول الفقه، معنياً كل العناية بالحديث والتفسير وبالأدب واللغة والشعر.

وبالرغم من انصرافه إلى التدريس والإرشاد، فإنه لم يتوان عن خدمة الدين الحنيف بالمشاركة في تأسيس عدد من الجمعيات الدينية وبخاصة جمعية الهداية الإسلامية الذي كان يتولى رئاستها بأسلوبه الحكيم وإرادته المتينة.

وإذا كان الشيخ القيسي قد فارق الحياة، فإنّ مؤلفاته ستبقى حيّة إلى الأبد مفيدة للعلماء والطلاب، مُوجِّهة للخير، مُقوِّمة للأخلاق، داعية إلى الله.





الشيخ عبدالقادر المغربي[1]

(١٢٨٤ - ١٣٧٥هـ)

(١٨٦٧ - ١٩٥٦م)

للدكتور عدنان الخطيب

كلمة مجلة «حضارة الإسلام»:

دعا رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي العربي) جمهرة كبيرة من العلماء والأدباء لحضور الجلسة التي عقدها المجمع لاستقبال العضو الجديد الدكتور عدنان الخطيب، وذلك مساء يوم الخميس في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠هـ الموافق لـ١ كانون الأول ١٩٦٠م.

وكان الدكتور الخطيب انتخب في جلسة المجمع المنعقدة بتاريخ ٢ ذي الحجة سنة ١٣٧٩هـ الموافق لـ ٢٨ أيار ١٩٦٠م عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي خلفاً للعضو الراحل الشيخ عبدالقادر المغربي نائب رئيس المجمع.

افتتح جلسة الاستقبال الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع، وأعلن أن الكلمة لأمين سر المجمع الأمير جعفر الحسني الذي ألقى خطاب الترحيب بالعضو الجديد مُعدِّداً مزاياه مُسْتَشهداً لها ببعض أقوال شاعر العربية المرحوم الأستاذ محمد البزم. ثم أعطيت الكلمة للعضو الجديد، فألقى الخطاب المجمعي التقليدي متحدثاً فيه عن حياة سلفه الشيخ المغربي وآثاره ونحن ننشره بنصه بعد شكر أعضاء المجمع ورئيسه:

(١) حضارة الإسلام، العددان (٨ و٩)، السنة الأولى: (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م).

- ١ -

تأسيس المجمع العلمي العربي:

سادتـي: في الثامن من شهر حزيران سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف للميلاد، أنشىء في دمشق، عاصمة الدولة العربية في بلاد الشام، المجمع العلمي العربي، وكان من أعضائه، شيخ في العقد الخامس من عمره، يكوّر عمامته تكويراً يميِّزها عن عمائم أهل دمشق.

صفات المغربي الخَلقيّة والخُلقية:

كان الشيخ رَبْعَة في الرجال، حسن السَّمْت، جميل الطَّلعة، حلو المُحيَّا، وجهه كصباح الربيع، غضٌّ رطيب، أبيض مُشْرَبٌ بحُمرة، تزيِّنه لحية اقتصد في إرسالها، وخطها الشيب، فاستكانت إلى الشيب خليطاً غير قَنِع.

وكان عالي الهمة، دؤوباً على العمل، تبدو الحيويّة في كل حركة من حركاته كما يبدو النشاط في كلّ خطوة من خطواته، يُحبُّ المشي رياضة يومية، يغدو إلى عمله ويروح ماشياً، ويترك البيت كلما ضاق بما في البيت من كتب مرصوصة، وأوراق مكدَّسة، ليجد السلوى في المشي بين بساتين الصالحية والربوة، يستمتع بجمال مسالكها ودفء الشمس ينسلُّ من أشجارها الظليلة، يستنشق عبير الآس في جَنَباتها، وأرج الريحان في مغانيها، وحيداً حيناً، ومع بعض مَنْ يصْطفيهم من الخلاّن والأصدقاء حيناً آخر، وهو دائماً يمشي خطاه الثابتة، غير متوانٍ ولا متخاذل.

كان الشيخ حاضرَ البديهة، بحديث كأنه قطع الروض، يحمل في طيّاته النكتة البارعة، والشاهد البليغ، كأنما وعى عيون الأخبار وروائع الآثار. يحب معاشرة الناس، عظيم الوفاء لمن صادق منهم، كأنما حبّه دين. ليِّن العريكة، لطيف الشمائل مع صبر شديد على تحمُّل المكاره، على أنه مع ذلك كان عصبيَّ المزاج، يُسرع الغضب إليه، فيطير الشرر من عينيه، وتتواثب الكلمات من شدقيه، ولكنه يظل خفيف الظل، مُهذَّب اللفظ، سهل الاسترضاء.

لغة الشيخ:

كانت لغة الشيخ فصيحة في كلماتها، سهلة في تراكيبها، واضحة في مقاصدها تعتمد حروفه، إذا نطق، على مخارج يبين جرسها عن حقيقته، فهو ليس من أبناء دمشق ولا فيها ولد، ولو مرَّ في حيٍّ من أحيائها القديمة، وكان هنالك مَنْ يتهامس به، ويقول عنه: «صاحب العِمامة هذا، يُسفِّه آراء الشيوخ.. ويدعو إلى السفور». لكانت هذه القالة مثيرة للرعب، باعثةً على الفزع، خوفاً على الشيخ من تجمُّع الناس، وهم ينكرون ما سمعوا عنه وما قيل فيه، ولكن الشيخ ما يكاد يلقي على الناس من حوله السلام، حتى يهدأ الروع، وتطمئن النفس، لأن أهل دمشق قد ارتضوا من أخلاق الشيخ البدء بالتحية، فإذا هم يردون عليه بأحسن منها.

نزوله دمشق وحبه لها:

كان الشيخ قد نزل دمشق، منذ سنوات (نزولاً حسبه لماماً، فإذا هو قد استَتْلى شهوراً وأعواماً). وإذا بفؤاده يخفق بحبها، فألقى فيها عصا التَّرحال، وسكن ما بين النَّيربين من مرابعها الخضر، مسحوراً بجمال أزهارها، مفتوناً بنسيم ربيعها، يطرب لخرير الماء يجري في مقمرات صيفها ولحفيف أوراق الحور، ينثرها الخريف ذهباً على أرضها، يعشق رائحة التراب، أصابه طلّ يبشر بشتائها، ويأنس بالديمة السمحة السكوب تسقي رياضها، وتروي جناتها.

أحبَّ الشيخُ دمشقَ، وأخلص في حُبِّه لها، فأقام فيها عمره، واستودعها أهله وفلذات كبده، واختار ترابها لمثواه، وكأنه من أبنائها كابراً عن كابر.

ولادته ونشأته:

سادتي: هذه نهاية قصة الشيخ، أما بَدأتها، فقد كانت في الرابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٤ للهجرة، وهي سنة عاصرت سنة ١٨٦٧ للميلاد. في ذلك اليوم وُلِدَ في بيت من بيوت اللاذقية طفل، أبوه موظف

في القضاء، مغربي الأرومة، كان جده الأعلى هاجر، في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة أي في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد، من بلاد تونس الخضراء، في المغرب العربي، واستوطن مدينة طرابلس من ساحل بلاد الشام، وفي هذه المدينة وُلِد أبو الطفل، وفيها تعلم اللغة والفقه والحديث، وفيها تزوَّج، ثم رحل عنها طلباً للرزق والمعاش، حتى إذا ما عَاذَ إليها بعد سنوات من التنقل بين مختلف البلاد، كان معه غلام صغير، ولد له في مدينة اللاذقية.

اتِّصاله بالأفغانيّ ومحمد عبده:

دَرَج الغلام في بيت أبيه وجده، وهو بيت علم ودين، بيت عريق في القضاء والفتيا، فشبَّ وهو يملك ذخراً كبيراً من المعارف، حفظ المتون في الفقه واللغة والأدب، ثم أخذت مَدَاركه بالاتِّساع، وثقافته بالنمو، لتلقيه العلم عن بعض المفكرين من شيوخ عصره، كما بدأت آفاق الرأي فيه تتفتَّح، عندما اتَّصل ببعض العلماء المجدِّدين، والمصلحين الثائرين كالسيد جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، فتفاعلت في نفسه الثقافتان الدينية واللغوية، مع نزعات الإصلاح والتجديد، والثورة على القديم البالي، فجعلت منه شيخاً يدعو إلى ضرورة التطور، واقتباس كلِّ مفيد، ونَبْذ كل فاسد من الأعراف والتقاليد، وكان له من ذخره الكبير في العربية والأدب والتاريخ، السند القوي في امتلاك ناصية البيان، والأخذ من الدعوة بالزمام، فأخذ يكتب وينتقد، ويغمز ويلمز من سوء الإدارة وفساد المجتمع، فضاقت بالشيخ بلدٌ شيوخها له كارهون، وحكامها لا يرتضون النقد من أيِّ وعاء خرج، فترك الشيخ بلده يئنُّ من صَوْلة الحاكم المستبد، ويرزح تحت سلطان الجمود الموروث، ويرين عليه الجهل والفساد.

انتقاله إلى مصر وعمله في الصحافة:

وهبط الشيخ مصر سنة ١٩٠٥ للميلاد، يفتش عن متنفَّس لضيق صدره، وميدان يعلن فيه آراءه وما يجول في نفسه، فإذا بالصحافة تفتح له

صدرها، وتدعوه إلى ميدانها للمشاركة فيه، فكتب المقالات المْدونَة، ودبّج الفصول الممتعة، وكوّن لنفسه من وراء ذلك هالة، جعلت منه بعد زمن قصير كاتباً اجتماعياً معروفاً، ينادي بالإصلاح الديني والسياسي، وكاتباً لغوياً متمكناً، ينادي بالحفاظ على العربية، لغة حية يتّسع أفقها، في شروط وقيود تصون سلامتها من الضياع، وقواعدها من الانهيار، وأساليبها الفصحى من الانحطاط.

عودته إلى دمشق وعمله في تحرير جريدة (الشرق) وعضويته في المجمع:

فلما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ للميلاد، ونعمت البلاد بشيء من الحرية، عاد الشيخ إلى بلده كاتباً مرموقاً، يُحرّر وينتقد، ويدعو إلى نهضة اجتماعية شاملة، على صفحات الجرائد، وفي مختلف المجلات، حتى إذا ما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ للميلاد، طلبت إليه الدولة أن يشترك في تأسيس بعض المعاهد العلمية، ثم لم تلبث أن عهدت إليه بتحرير جريدة عزمت على إصدارها في دمشق.

وهكذا عرفت دمشق، الشيخ عبدالقادر المغربي سنة ست عشرة وتسعمائة وألف للميلاد، مُحرّراً في «**جريدة الشرق**» يتولى الشؤون الاجتماعية فيها، ويدعُو الناس إلى النهوض ونبْذ الأباطيل، ثم عرفته سنة ١٩١٩ للميلاد عضواً من أعضاء المجمع العلمي العربي البارزين.

محاضرة المغربي عن وليمة ابن واسانة في قرية جمرايا:

سادتي: إذا كان الأصمعيّ مات وفي قلبه حَسْرة من «حتى» فإن الشيخ طاهراً الجزائري، أحد مؤسسي هذا المجمع، مات وفي قلبه حسرة من «جمرايا» كما زعم الشيخ عبدالقادر المغربي، في إحدى المحاضرات التي ألقاها في ردهة المجمع هذه، و«جمرايا» قرية من قرى دمشق سكنها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، شاعر يسمى «أبا القاسم

الحسين بن واسانة» نعته الثعالبي، صاحب «يتيمة الدهر» بقوله: «هو أعجوبة الزمان ونادرته، وفريد عصره وباقعته، وهو أحد الفضلاء المُجيدين في الهجاء، وكان في زمانه، كابن الرومي في أوانه»، وفي أحد أيام الربيع استقبل الواساني في بيته بجمرايا، ضيوفاً من دمشق، وكانت وليمة خلّد ذكرها في التاريخ، إذ وصفها صاحبها بقصيدة دوّنها الثعالبي في «يتيمته»، وياقوت في «معجمه»، وشرح ألفاظها وعلّق عليها الشيخ المغربي في «محاضراته».

لقد كان لجمرايا، يوم أقيمت فيها وليمة ابن واسانة، شأن عظيم، ثم عدت عليها صروف الزمن، فضاع اسمها، وصُحّف في بعض كتب اللغة والأدب، وكان أدباء دمشق، يقرؤون وصف الوليمة في كتاب «اليتيمة»، وهم لا يعرفون «جمرايا» ولا موقعها، فتأخذهم الحيرة في ما كان من أمرها ومصيرها، وظلّ الأدباء في حيرتهم هذه، حتى ألقى الشيخ عبدالقادر المغربي، في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٢٨ للميلاد، محاضرته عن وليمة ابن واسانة، وقال: (لما طالعت اليتيمة في شهر مايس - أيار - سنة ست وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد، وقرأت وصف الوليمة الواسانية شاركت الإخوان في حيرتهم، وأخذت أتساءل عن قرية «جمرايا» وأراجع عنها في المظان، وكنت كلما أوغلت في المراجعة ارتطمت في الشُبهة والشكوك).

امتلاك عبدالقادر الخطيب قطعة أرض في «جمرايا»:

(ثم اتفق في أثناء الحرب العامة، أنّ الأستاذ الشيخ عبدالقادر الخطيب خطيب الجامع الأموي، ملك قطعة أرض في مزرعة... فعلم من أكاريها أن اسم مزرعتهم «جمرايا»... وقد بنى الأستاذ ثمة داراً حسنة، وجعل يحدث إخوانه عن «جمرايا» وجمال موقعها، وطيب هوائها، ويدعوهم إلى زيارته، وبهذه الصُورة، نشرت قرية «جمرايا» من مطمورة العدم، وعادت فوُلدت من جديد باسمها الحقيقي، وظهر أنّ محلها وادي بردى، على قيد خطوات من قرية الهامة متنزه أهل دمشق المشهورة)، حتى قال: (... ثم

درى الأستاذ الخطيب، إني أهيىء محاضرة في هذا الموضوع، أريد إلقاءها في ردهة المجمع، فقال لي:

أما وقد عزمت على إحياء ذكر «جمرايا» فإني، أنا أيضاً أريد أن أحيي ذكر وليمة ابن واسانة).

إحياء الأستاذ عبدالقادر الخطيب ذكرى وليمة ابن واسانة:

سادتي: في يوم من أيام الخريف، كان فتى لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره، يقف إلى جانب أبيه، في شرفة بيت ريفي جميل، أقيم على شفا واد من أودية تنتهي إلى نهر بردى، فتؤلف مع مجراه، الوادي الأخضر الكبير يجري فيه الماء إلى دمشق فيحمل إليها الحياة، ويكسبها الفتنة والجمال.

كانت السماء يومئذ صافية، ترصّعها خطوط متقطعة من الغيوم، تناثرت هنا وهناك، وكأنها طلائع الشتاء المبشّرة بالخير العميم، كانت الجبال تحف بالبيت من كل جانب، كأنها الأطواد، شامخة بصخورها الجرداء، زاهية بلونها الضارب إلى حمرة، وعشبها قد آذن وصوّح، وإذا كان نحرها عريان، فساقها كاسية حالية بوشاح من أشجار الزيتون، زاد اخضرارها دكنة، ما علق بها من ثمار نضجت وحان قطافها، أما هذا الوشاح الحلو، فتشدُّه إلى قمم الجبال أخاديد خضراء، تزيده روعة وجمالاً، وكانت أشجار المشمش توشي أطراف الوشاح، بأوراق الخريف الذهبية، وأشجار الحور، تقف في مستقر الوادي، مستعلية برشاقتها، وكأنها عرائس تختال على ما حولها من دلب ودردار، وبردى يتلوى بين أقدامها تلوي الثعبان، يظهر في مكان ويختفي في مكان.

كان الفتى وأبوه في انتظار ضيوف كرام، والأب يحدّث ابنه عن من لا يعرفه منهم، فيهيج عنده الرغبة في لقائهم والترحيب بهم، والفتى دائم الحركة لا يستقر في مكان، وكأنه عين لا تغمض، تراقب طريق دمشق يخترق ملتوي الجبل من بعيد، هابطاً نحو النهر كالظمىء، ليندفع من الجهة

الأخرى من النهر صُعداً إذا ما ارتوى، فلما لاحت للفتى مقدمة سيارة، تهلل وجهه طرباً، ولم تمض دقائق معدودات، حتى كان الفتى من وراء أبيه يستقبل الضيوف، يتقدمهم رئيس المجمع العلمي العربي، وإلى جانبه الشيخ الذي كان الأب يحدث فتاه عنه ويقص عليه شيئاً من القصص، يحبب الاجتماع به، والاستماع إليه.

تحلّق الضيوف حول بركة ماء يُزيِّنها ما يتصعَّد منه نحو السماء، فإذا ارتدّ دونها، انتثر كاللؤلؤ على سطح البركة، ليعود بعد ذلك سيرته الأولى.

وأخذ القوم يتحدثون عن جمال الطبيعة في «جمرايا» وعن (موقع دار الخطيب، وما تشرف عليه من مشهد عجيب).

جولة الأستاذ عدنان الخطيب مع العلامة المغربي في قرية جمرايا:

وكان الشيخ عبدالقادر المغربي، واسطة عِقْد القوم، لا يلقي النكتة يتيمة، ولا ينهي حديثاً إلا ليبدأ قصة، ولا يروي بيتاً من الشعر، إلا ليعلق عليه حتى إذا بلغ سُؤْله، رغب في زيارة القرية، لمعرفة معالمها القائمة، وما بقي من آثار مجدها الغابر، وماضيها المجهول، فأسرع الفتى إلى رفقته دليلاً يحسن الحديث عمّا يعرفه من آثار شارك في اكتشاف بعضها، ويحسن الاستماع للشيخ يتم حديثه عن ابن واسانة، شاعر «جمرايا» الذي لم تبق الأيام من ذكر له فيها، إلا عين ماء تعرف بعين الشاعر.

طالت جولة الشيخ والفتى بضع ساعات، كانا يصعدان جبلاً، ويهبطان وادياً، يجتازان شعاباً ويطلعان ثنايا، يتحاشيان ما استطاعا الوعر والأشواك ويقفزان إذا ما اعترضتهما عيون جارية، وكان الفتى قد ألف اجتياز العقبات، وتمرّس بعراقيب الجبال، فأخذ بين الفينة والفينة، يستحثُّ الشيخ على التقدُّم والإسراع، والشيخ يتمهّله والابتسامة تعلو ثغره، حتى بلغت الجولة منتهاها، وإذا بالفتى يشعر بالتعب يدبُّ في أطرافه، والنصب يستنفدُ ما عنده

من نشاط، ولكنه استحيا من الشيخ فتجلّد، وأخذ في الإياب يُغذّ السير للّحاق به والبقاء إلى جانبه، فلما وصلا البيت، وخاف الرفقة أن يكون الفتى الدليل، قد أتعب الشيخ في تجواله، صاح هذا الفتى، والله إن الشيخ هو الذي أتعبني.

سادتـي: هذا أول لقاء أتيح لي بالشيخ، ولم أكن أدري أنّ الأيام تدور وتدور، لأقف في يوم، أتحدّث عن هذا اللقاء الحبيب.

- ٢ -

استعمال المغربي في مقالاته الصحفيّة للمعرَّب والدخيل:

سادتـي: حدثتكم كيف هبط الشيخ مصر سنة ١٩٠٥ للميلاد، وجديرٌ بي أن أقف قليلاً لأحدثكم عن ثمرة طيّبة من ثمرات هذه الفترة من حياته، فقد نزل إلى ميدان الصحافة، وكانت جريدة «المؤيد» في طليعة الجرائد التي خاض معاركه الإصلاحية فيها، وقد اضطر وهو يكتب للعامة من الناس، إلى استعمال كلمات كثيرة، من المعرَّب والدخيل، فعتب عليه كثيرون من مُحبّي العربية، الراغبين في الحفاظ على سلامتها، ونقده آخرون، فإذا بالجدل ينشط بينه وبينهم (حتى تخطى الجدل القول إلى الكتابة في الصحف، وكان يكتب في المؤيد، ردوداً يحتج بها لنفسه)، وكان لا يرى على حدّ تعبيره، رأي الناقدين له (في أن القليل من كلمات المعرب والدخيل، يفسد المقال الطويل، بعد أن تتوفر فيه سائر صفات الحُسن).

كتاب: «الاشتقاق والتعريب»:

وطال الجدل، وكثر ما كتبه الشيخ دفاعاً عن نفسه، فإذا بصاحب المؤيد، يشير عليه، أن يجمع ما كتبه في هذا الشأن في كتاب مستقل فطلع الشيخ على الناس، سنة ١٩٠٨ للميلاد بكتاب «الاشتقاق والتعريب» ردّ فيه على (الأغراب عن العربية، البعيدين عن معرفة أسرارها، والذين يرمونها

بضيق العطن)، وعلى العاتبين من أنصار العربية (الذين يرفعون أصواتهم بالانتصار للغة، والإعجاب بخصائصها ومزاياها، ثم لا يعملون على إحيائها، بالإفادة من قوّتي الاشتقاق والتّعريب، وتمهيد السبل للانتفاع بهما.. كي يتم إمداد اللغة بالحياة الدائمة والنمو المتواصل) فتصبح لغةً حيّة تصلح لتلقين العلوم والفنون على اختلاف أنواعها.

وكان جلُّ همِّ الشيخ في كتابه، أن يثبت (أنَّ المعرَّب عربي فاستعماله في الكلام الفصيح، لا يحط من قدر فصاحته، ولا يخرج البليغ في بلاغته) على أن الشيخ، وهو في حَوْمة الجدل، كان يندفع أحياناً، في تأييد ما يدعو إليه اندفاعاً فيه شيء من التنكُّر لأصل بعض الكلمات العربية، أو فيه التساهل بتعريب الكلمات الأجنبية، فهو إذ يقول: (والتعريب تحويل طبيعي، أو تغيير تدريجي، يطرأ على اللغة، ويجري بها في ناموس مطرد، وقد خضعت له اللغة العربية بمجموعها، ومن أول نشأتها، كما تخضع له الآن وبعد الآن وأعني بذلك أن اللغة بمجموعها معرّبة ومحولة عن لغة أعجمية) لا يرى عيباً في استعمال كلمات «قومسيونجية» بدلاً من «وسطاء»، و«بالون» بدلاً من «منطاد»، و«بوسطة» بدلاً من «بريد»، لا بل إنه دعا في الفترة الأولى من دفاعه عن الاشتقاق والتعريب، إلى أخذ لفظة «أتومبيل» كما أخذ أسلافنا لفظة «منجنيق» وإلى اشتقاق اسم من لفظه لمن يسوقه، فنقول له: «آتم» أو «تامل» كما سمّى العرب صاحب المنجنيق «ناجق».

كما أنَّ الشيخ، في الفترة المذكورة، لا يبدي أي اعتراض على استعمال كثير من الكلمات الشائعة على ألسنة الناس، مثل: «تلغراف» و«تلفون»، و«فونوغراف»، و«ملاريا»، و«ميكروب» ونحوها مما جاء به نَقَلة العلوم العصرية ومترجموها ولم يروا مندوحة من تعريبه.

مشاركته في ترجمة بعض المصطلحات:

وأصبح الشيخ رحمه الله فيما بعد، من أركان المجامع اللغوية في البلاد العربية، فشارك بنصيب وافر، في ترجمة المصطلحات أو وضعها أو إقرارها، مصطلحات لكثير من الكلمات الأعجمية، التي كان لا يعترض على

استعمالها لشيوعها على ألسنة الناس، كما في كلمات «برقية» و«هاتف»، «حاكي»، و«بُرداء»، و«جُرثومة». وكما هو الحال في الرُّتب العسكرية، التي كان أكثر الجيوش العربية تستخدم ألفاظاً أعجمية للدلالة عليها.

الوعي اللغوي في الأمة العربية:

ثم كان هذا الوعي اللغوي في الأمة العربية، الوعي الذي جاوز آراء الشيخ، وغلّب الناس معه استعمال «السيارة» و«المنطاد» و«البريد» على أتومبيل وبالون وبوسطة، فارتاح الشيخ بادىء ذي بدء، إلى ما رأى وما سمع، ثم أصبح لا يرضى عن التعريب، إلا بالشرائط التي تحفظ للغة سلامتها ورونقها، ولم يعد يكتفي بإطلاق لفظة «سيارة» على المركبة التي تندفع بقوتها الآلية، بل طمع في أن يعرف الناس من السيارة شكلها «قاطرة» كانت أو «مقطورة» أو «صهريجاً»، كما طمع في أن يعرفوا «طرازها» وقوة «محركها» وعدد «أسطواناتها» ومقياس إطار عجلاتها، ومدى صوت مُنبِّهها «ونوع» مكابحها، «وموقع» العادم فيها ينفث فضلات ما تحرقه من وقود. لا بل طمع في رؤية سائق أي سيارة تستعمل «المشيرة» كلما رغب في تبديل وجهة سيره، وينتبه إلى كلّ شاخصة، نصبت في الطريق للتقيُّد بما تحمله من تعليمات شرطة السير، كما طمع في أن لا تترك السيارة إلا في المرآب، ليرأب صاحبه ما فيها من خلل.

وحار الشيخ في أمر «الباص» فلم يدر ما يستبدل به، فارتضاه بهذه الصيغة الأعجمية، وتركه يرد كذلك في نصّ القانون الذي شارك في صياغته، على حين نثرت في مواده كل الكلمات السابقة، في يُسر وسهولة.

وإني لأذكر غَيْرة الشيخ وجرأته في الدفاع عن العربية، يوم أراد صاحب سلطان عارض، تسانده صحافة قوية وكتّاب كثيرون، الاعتداء على تاء «سورية» فصاح الشيخ بملء فيه: إن العرب أعطوا «سورية» حقاً في تاء تلحق بها، فلا يعتدين أحدٌ عليها.

لقد مات الشيخ رحمه الله، ولو مدّ الله في أجله، فرأى عَلَم الوحدة المباركة، يخفق في سماء مصر والشام، نواة للوحدة الكبرى، أحلى أمانيه

لطار فرحاً، ولبلغ به هذا الفرح مبلغه حين يرى «الشرطة» تفوز على «البوليس» في المباراة، ويرى «الأمناء العامين» يأتمرون بكل «سكرتير عام» أو يرى «المقدم والرائد» يحلان محل «البكباشي والصاغ»، و«اللجان الطبية» تستبدل بـ «القومسيونات».

دعوته إلى إنشاء مجمع لغوي:

سادتي: عندما يذكر أيُّ مجمع من المجامع العربية، يذكر معه الفقيد الشيخ عبدالقادر المغربي، لا لأنه كان من أعضائه المؤسِّسين فحسب، بل لأن للشيخ فضل السَّبْق في الدعوة إلى إنشاء المجامع اللغوية، قبل نيف وعشر سنوات، من إنشاء أول مجمع لغوي، مجمع دمشق العلمي، فقد كان يبدي التلهف في كثير مما كتبه قبل سنة ١٩٠٨ للميلاد، لرؤية مجمع لغوي ينظر في الكلمات الدخيلة والأعجمية ويدونها، مشيداً بـ (النهضة العربية العباسية، وخاصة المأمونية، حينما عُقدت المجامع وأنشئت دور الحكمة، فصار يؤمُّها كبار العلماء، لأجل النظر في ما ينقله المترجمون، من الكلمات الأعجمية ونقدها وتدوينها) قائلاً: (وهذا ما نصبو إليه، في هذه الأيام، ونحسبه من أكبر دواعي تقدُّمنا واتِّساع نطاق لغتنا، وانتشار العلوم على أنواعها في ما بيننا).

وكان الشيخ رحمه الله تارة يذكر، والألم يحزُّ في نفسه، الزمن الذي كان يعيش فيه يوم (انتشرت اللغات الأعجمية، ومرنت على النطق بكلماتها الألسنة ولا توجد مجامع لغوية تعنى بنقد الكلمات، وردها إلى أبنية عربية) وتارة كان يضيق ذرعاً بـ(الكلمات الأعجمية الكثيرة، التي تنهال على لغتنا أيما انهيال، وليس من العناية وإنشاء المجامع، ما يقوم بشرط تعريبها، أو إلحاقها بالأوزان العربية).

صعوبة التمييز بين المُولَّد والعامي:

وعلى الرغم، من طول باع الشيخ في علوم اللغة، وجَلَده على البحث والدرس كان يستصعب التمييز بين المُولَّد والعامي، لأن هذه

المهمة، على حدّ تعبيره (تحتاج إلى بحث وتنقيب، وقلما يمكن للفرد أن يستقل بهذا العمل، وتيسر له الإحاطة به، وإنما يتيسّر للمجامع العلمية واللغوية، التي تخدم اللغة وآدابها. وتبحث في موادها وجميع مفرداتها، أصيلة أو دخيلة).

وكثيراً ما كان الشيخ يقول، وفي كلامه ابتهال ورجاء: (كم نحن إذن في حاجة إلى مجمع لغوي، يصُون لغتنا المحبوبة عن هذا الخطر الذي يتهددها، وينتشلها من هذه الهوة التي نخشى أن تواقعها) أو كان يعتذر عن البتّ في رأيٍ جريء تعرض له، فيقول: (ليس لمثلي، أن يبتّ بالرأي فيه، لا سيما وهو يتعلق بحياة اللغة وبثباتها، في هذا الموقف الهائل، الذي تزدحم فيه اللغات الحية. وإنما أكِلُ الحكم فيه إلى المجامع اللغوية، التي تتمخض عنها البلاد ويتحفز إلى إنشائها، من فضلائنا أفراد).

تحقق أمنيته بتأسيس المَجْمَعَيْن اللغويين في دمشق والقاهرة:

كان الشيخ رحمه الله يقول مثل هذه الأقوال، يوم لم تكن العربية دولة، ويوم كان الحديث عن دولة للعربية، تقصر عنه الأحلام، وتجبن أن تخوض فيه الأقلام، فلما رأى الشيخ المجمع العلمي العربي، ينشأ في دمشق سنة ١٩١٩ للميلاد، ثم رأى مجمع اللغة العربية ينشأ في القاهرة سنة ١٩٣٤م صاح بملء فيه والرضا يملأ جوانحه، والإيمان يغمر قلبه (أن الحمد لله، لقد تحققت أمنيتي).

ومما يذكر للشيخ تغمده الله برحمته، أنه عندما كان مندفعاً في الدعوة إلى الإفادة مما كان يسميه «قوتي الاشتقاق والتعريب» احتاط مرة في اندفاعه، وقال: (قد ظهر لك مما تقدَّم، أنَّ الاشتقاق قوة لنموّ اللغة، وتكاثر كلمها، وتشعُّب صيغها، لكنه سماعي مقيَّد بأزمان خاصة، وأشخاص معينين، وليس من مقدورنا نحن، أن نعمل تلك القوة الآن في اللغة فنشتق من مصادرها، ونحول موادها اشتقاقاً، وتحويلاً لم يعرفهما أهل اللغة أنفسهم، اللهمّ إلا إذا طرأ على عمراننا وعقولنا وعلومنا، التي نسميها نقلية

ما يفكها من قيودها القديمة، ويجاوز بها سننها المُتَّبعة. وليس هذا الدور البعيد مما يحسن أن نتكلم عنه الآن).

الاشتقاق من أسماء الأعيان:

فلما أجاز مجمع اللغة العربية في مصر سنة ١٩٣٤م، الاشتقاق من أسماء الأعيان، أي من الاسم الجامد، لنقول: منحس من النُّحاس، ومُبلِر من البَلُّور، ومُكَهْرَب من الكهرباء، واسْتَمَاء البخار، أي: استحال إلى ماء، واستبقر الجاموس، أي: عمل عمل البقر، كما قال العرب في القديم: مُذْهَب اشتقاقاً من الذهب، واستحْجَر الطين اشتقاقاً من الحجر، واستَنْوق الجمل واستَنْسَرَ البغاث اشتقاقاً من الناقة والنَسر، صاح الشيخ فرحاً مسروراً: (لقد صدق حَدْسي وتحقق ما توقعته بعد ست وعشرين سنة).

تفسير «جزء تبارك»:

سادتي: من الآثار الخالدة، التي صنعها الشيخ الفقيد بعد نزوله دمشق تفسيره: «جزء تبارك» من القرآن الكريم، توخّى فيه طريقة أستاذه الإمام محمد عبده، في تفسيره «جزء عم» من حيث (الصحةُ في التعبير، والاقتصار على المفيد من القول... وعدم التنطع بالمُشَاغبات، وإيراد الخلافات والخرافات) إلا أنه، رغم حُبّه لأستاذه الإمام وعظيم وفائه لذكراه، لم يستطع متابعته في أسلوبه، أو التقيُّد بمنهجه، فترك لنفسه هواها، في حُبّ العربية وعلومها، فإذا به (يتوسّع في التعليق والتفسير، والاستشهاد والتنظير - ولا سيما في المباحث اللغوية - بأكثر مما فعله الأستاذ الإمام).

نموذج من تفسيره:

لنستمع إلى الشيخ رحمه الله يفسّر قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: ٣٠]، يقول الفقيد: (غوراً: مصدر غار الماء: نَضَب وذهب في الأرض)، وكان الظاهر أن يقول: إنْ أصبح ماؤكم غائراً لكنه وصف بالمصدر للمبالغة... و«ماء مَعين» أي: جار على وجه الأرض، منظور بالعين، ووزنه «مفعول» من عانه

إذا نظره بعينه، أو «فعيل» من مَعَن الماء في جريه، إذا اطّرد وتسلسل فكان أعون على نقائه وطهارته، وتخليصه من الشوائب).

بل لنستمع إليه كيف ينسج من خيوط اللغة والعلم والأدب، تفسير قول المبدع الكريم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦]، قال: (كِفاتاً: مصدر كَفَت الشيء إلى نفسه: ضمَّه، وهو الذي نصب «أحياءً وأمواتاً» على المفعولية، أما من جعل كِفاتاً، اسماً بمعنى الموضع الذي يُكفَت فيه الشيء، ويُضمّ كالوعاء والصُّوان، فإنَّ «كِفاتاً» حينئذ لا تنصب «أحياء وأمواتاً»، بل ناصبهما فعل محذوف دل عليه «كِفاتاً» كأنه قال: تكفت أحياءً وأمواتاً..).

(ويصحُ أن تكون «أحياءً وأمواتاً» منصوبة على الحال، فإنه قال: تكفتكم حالة كونكم أحياءً وأمواتاً، أما كون الأرض تضمُّ الأموات إلى صدرها، وتكون كفاتاً لهم، فأمره ظاهر، ولكن ما معنى أنها تضم الأحياء إليها؟ وكيف تكون كِفاتاً لهم، وهم منتشرون فوق ظهرها متلفتون إلى كل جانب من جوانبها، ولا حواجز تصدُّهم، ولا سدود تقوم في وجوههم؟ قيل في الجواب: إنَّ المراد يكون الأرض كفاتاً للأحياء، إن منازلها ومساكنها كِفات لهم، تضمُّهم بين جدرانها للبيتوتة والراحة والسكن، كما أن المقابر كِفاتٌ للأموات تضمُّهم بين جوانبها).

وهنا يتابع مفيدنا العظيم، تفسيره برأي أصيل يدلُّ على ثقافة عامة، وتفهُّم للعلوم العصرية، فيقول: (وأرى أن اكتشاف ناموس الجاذبية العام، الذي بموجبه تجذب الأرض إليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء، والذي لولاه لطاروا وتبدّدوا شَذَرَ مَذَر في الفضاء، بسبب حركة الأرض اليومية على نفسها، وحركتها السنوية حول الشمس، بسرعة فائقة الحد، هذا الاكتشاف يُفسّر لنا معنى ما قرّره الكتاب الإلٰهي، من أنَّ الأرض كفات للأحياء، مذ يكونون على ظهرها، فإنها تجذبهم إليها، وتضمُّهم إلى صدرها، كما تفعل الأم الحنون، فلا تدعهم يتفلّتون، وهم بذلك لا يشعرون).

مقال للمغربي في جريدة المؤيد بعنوان: «الإصلاح العملي»:

سادتي: سبق أن عرفنا، كيف لجأ الشيخ المغربي إلى مصر، وكيف عاد إلى بلده، بعد الانقلاب العثماني، وإعلان دستور يكفل للمواطنين الحقوق والحريات الأساسية، وجميل بنا أن نطلع على العدد الصادر يوم العاشر من شباط سنة ١٩٠٨ للميلاد من جريدة «المؤيد» لأنه كان يحمل مقالاً عنوانه: «الإصلاح العملي: ذهب دور القول وجاء دور العمل» كتبه الشيخ عبدالقادر المغربي.

أهم الأسس الإصلاحية التي دعا إليها:

كان الشيخ في مقاله ثائراً يدعو إلى الإصلاح، ومُصلحاً يدعو إلى إقامة مجتمع جديد، وكأنه باصطلاح العصر الذي نعيش فيه «رجل تخطيط» يضع الخطوط الكبرى، ويرسم السُبل التي يجب سلوكها، للوصول إلى الهدف المنشود، لقد كانت أهم الأسس الإصلاحية التي خططها، هي:

أ ـ إصلاح اجتماعي، يشمل الحكومة، بمرافقها العامة، وإداراتها وأنظمتها كما يشمل الأسرة، وخصَّ الشيخُ «المرأة» بنصيبٍ كبير من الدعوة إلى تعليمها ورفع الحجْر الاجتماعي منها.

ب ـ إصلاح ديني، يشمل معاهد العلم، وأساليب التعليم، يعود الدين معه إلى يُسْره وصفائه.

جـ ـ إصلاح لغوي، يتلاءم مع مقْتضيات الزمن، ويجعل من اللغة العربية لغة سياسة وعلم وفن.

وفاته وآثاره:

وظلَّ الشيخ رضوان الله عليه بعد وضعه هذا المخطَّط، وفياً له، يدعو إلى العمل به بقلمه ولسانه، ويجاهد ما استطاع، لتحقيقه وتنفيذه، متفرغاً في أخريات حياته إلى الإصلاح اللغوي وخدمة العربية، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، صباح يوم السابع والعشرين من شوال سنة ١٣٧٥ للهجرة

وَفْقَ السابع من حزيران سنة ١٩٥٦ للميلاد، ففقدت العربية بموته، ركناً من أركان الدفاع عن سلامتها لغة دين وأدب، ورائداً من روّاد الدعوة إلى إحيائها لغة تساير نهضة العلوم والفنون الحديثة، وخسر المجتمع بموته مصلحاً يدعو إلى إقامة مجتمع تسوده الأخلاق الفاضلة، ويعرف كل فرد فيه واجباته وحقوقه، وودّعت الصحافة فيه، عَلَماً من أعلامها الأول، جاهد على صفحاتها بقلمه وفكره، يدعو الناس بقوة وإيمان إلى الخروج من ظلمات الجهل والأعراف البالية، إلى نور المعرفة والارتقاء.

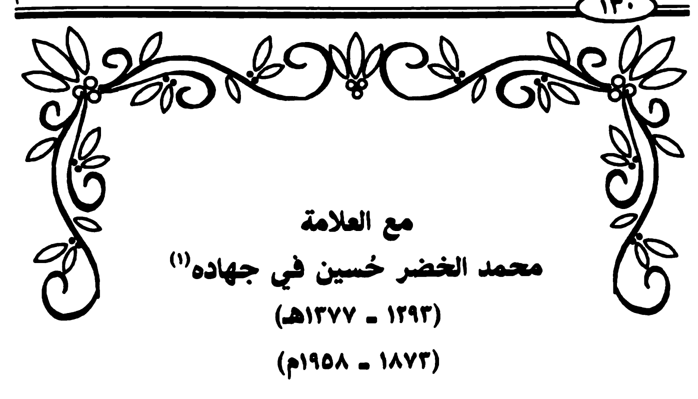
لقد مات المغربي، وترك ثروة خالدة، من الأفكار التي دوّنها، والآراء التي اعتنقها، عَرَفَ الناس الكثير منها، قراءةً في صحيفة أو مجلة أو كتاب، أو سماعاً في درس أو محاضرة أو حديث، وبعضها ما زال محفوظاً، ينتظر من ينشره على الناس.

مكان الشيخ سيظلُّ شاغراً:

سيدي رئيس المجمع، سادتي الأجلاء: لقد أتعبني الشيخ عبدالقادر المغربي، أول يوم عرفته يوم وليمة «جمرايا»، حين كنت أجهد لألحقَ به، أما اليوم، وقد شئتم أن أتبوّأ مقعده في صفوفكم، فقد كُلِّفت أمراً إدّاً، لأنَّ مكان الشيخ بيننا سيظلُّ شاغراً، ولن يَسُدَّ مَسَدَّه أحد، فقد جاد الدهر به يوم ولد، والدهر كأمِّ الصَقر مِقْلاتٌ نزور.

لقد جاد الدهر بالشيخ عبدالقادر المغربي، فكان مِلْءَ السمع، ملء البصر، فسلامٌ عليه يوم ولد، وسلامٌ عليه يوم نزل دمشقَ فأحبَّها وأحبَّته، وسلامٌ عليه يوم حَنَت على رُفاته مخلدةً ذكره ومآثره.





مع العلامة
محمد الخضر حُسين في جهاده[1]
(١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ)
(١٨٧٣ ـ ١٩٥٨م)

للقاضي سعدي أبو جَيْب



صفوة الصفوة من أهل العلم:

من علماء أُمتي من سفح على القرطاس عمره، وعاش في كهف العلم، حتى غدَت الكلمة لا تخرج منه إلا على محفَّة من الكتب، في موكب من الأعلام...

ومنهم مَنْ آتاه الله بَسْطةً في القلب والفكر، فعاش مع العلم، وعاش حياة الأمة، ومتاعبها، وآلامها... حتى غدت لا تبرح ضميره، ولا تفارق فكره.. فهو يقلب طرفه في سماء المجد، والسؤدد، والصلاح يبحث عن أقصر سبيل يوصل أمته إلى كل ذلك..

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م).

هؤلاء هم صفوة الصفوة من أهل العلم، بل هم العلماء الحق في قول علامتنا الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين عليه رحمة الله ورضوانه.. «من وظيفة العالم مراقبة سَيْر الأمة، حتى إذا اعترضها خلل أرشد إلى إصلاحه، أو ضلّت عن حقّ قادها إلى مكانه.. ومن تصدّى لتقويم الخاطئين، ورد جماح المبطلين يلاقي بالطبيعة أذى، ويجد في طريقه عَقَبات لا يقتحمها إلا ذو عزم ثابت، وإقدام لا يتزلزل. وكم من عالم يفوقه أقرانه علماً وألمعية، ولكن ينهض لإحياء سنة، أو إماتة باطل، ويُلاقي في جهاده شدائد فيجتازها بنفس مطمئنة، ولا يلبث أن يرجح وزنه، ويبعد في حلبة السباق شأوه. ولو كشف لنا الغطاء عن حياة العلماء الذين أوذوا في سبيل الدعوة إلى الخير، ولم ينحرفوا عن خطتهم فتيلاً لرأينا كيف ارتفعت منزلتهم، وتجلّى وقارهم في عين مَنْ كان يسومهم سوء الأذيّة، أو يشفي غليل صدره أن يصرعوا في مصارع الاضطهاد..

الرجال الذين أحرزوا هذه المزايا، واستحقُّوا لقب العالم المصلح ليسوا بكثير. فلو قلبت نظرك في السنين الماضية، وصعدت به إلى عهد قريب، رأيت المعاهد العلمية إنما تنبت في العصر الواحد الرجل أو الرجلين...»[1].

هل ترى إمامنا الأكبر من هذه النُّخبة المختارة التي قلما يجود بمثلها الزمان؟..

سنسير معه في درب الحياة، خطوة خطوة، علّنا نهتدي إلى الجواب...

مولده ونشأته:

أدرك علامتنا النور في يوم خير من سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٣م) في بلدة نفطة، واحة النخيل في جنوب تونس، البلدة التي أنبتت عدداً مباركاً من العلماء، حتى وصفوها بالكوفة الصغرى...

(١) الدعوة إلى الإصلاح، ص١٤٦ (سعدي).

ولقد رضع علومه الأولى من بيته، من فكر أمه السيدة حليمة السعدية بنت العلامة الكبير مصطفى بن عزوز رحمة الله عليه التي قامت بتدريسه، مع إخوته العلوم الدينية واللغوية، حتى أنه أخذ عنها كتاب الكفراوي في النحو، وكتاب السفطي في الفقه المالكي...

هكذا الأم، وإلا فلا...!

وحين أشرف هذا الألمعي على المراهقة، انتقلت أسرته إلى مدينة تونس العاصمة، واستقرت بها...

في الزيتونة:

وفي جامعة تونس العتيدة، الزيتونة، الدوحة المباركة بالعلم وأهله، التي لا ينضب نورها الدافق من الإسلام، ترعرع علامتنا الكبير، وزكا فكراً وأدباً، حتى حاز الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية.

ولما أصبح في واحة العلم نخلةً باسقةً ضمَّته الزيتونة أستاذاً ومربياً، وفي أيلول من عام ١٩١٢م، غادر تونس وزيتونتها، وفي نفسه حرقة وفي ضميره ثورة، وفي العين عبرة..

الرحيل:

لماذا يرحل هذا الطود الشامخ من العلم؟.
أملَّه الأهل والأحبة؟ أم ملَّ هو من الأهل والأحبة..؟
لا... كل هذا لم يكن...

لقد لوثت أقدام الغزاة الفرنجة التراب التونسي العبق في يوم حزن من عام ١٨٨١م، كما فعلوا قبل خمسة عقود من السنين في القطر الجزائري الحبيب.

هبَّ عالمنا الكبير للجهاد لا بالسلاح، ولا بالدم، فالاستعمار قد أناخ بكَلْكَله السمج على بلاده الجريحة، وإنما بالقلم والفكر يبعث الروح، والأمل المتشوف إلى فجر مشرق لا بدَّ أن يأتي بعد الليل المدلهم..

ولذلك فقد أصدر مجلة «السعادة العظمى» وأسس بنيانها على العلم، والعقل، وجعل رسالتها الدعوة إلى الدين الحنيف، بتفسير آيات التنزيل العزيز، وشرح الحديث الشريف، وترسيخ العقيدة الصحيحة لردِّ كيد الضالِّين المُضلِّين، وإرساء قواعد التشريع العظيم في الحياة بكلِّ أبعادها، ونشر الأخلاق والفضيلة، .. كل ذلك بلسان عربي مبين[١] ...

كانت هذه المجلة صرخة عنيفة في ضمير الأمة كي تنهض من كبوتها؛ وتُدرك التخلف الذي أدى بها إلى أن تقع مهيضة العزة تحت الاحتلال..

وكانت وَخْزة مُرَّة في جَنْب العدو المستعمر تنخر في حياته، ولا بد أن تأتي عليه..

وزاد في أثر هذه المجلة الغراء أنَّ بيت صاحبها غدا ثورة للفكر والأدب والثقافة والوعي الاجتماعي...

لكل هذا وذاك عمد المحتل الغاشم إلى المجلة فأغلقها بعد أقل من عام من صدورها، وكان العدد الأخير يحمل الرقم الحادي والعشرين، وقد صدر في ذي القعدة ١٣٢٢هـ.

فهل يسكن الثائر المجاهد، ويستكين؟..

ها هو ذا بعد سنتين من وأد المجلة يقف بِشَمَم وإباء في عام ١٣٢٤هـ يلقي محاضرة في تونس بدعوة من جمعية «قدماء تلامذة الصادقية» بعنوان: «الحرية في الإسلام»[٢] قبض فيها قبضة من أثر الدين الخالد، ونثرها على الحاضرين، بل على مجتمعه بأسره؛ جواهر تصف الحرية،

---

(١) مقدمة العدد الأول من المجلة الذي صدر في ١٦ محرم ١٣٢٢هـ. تحدد رسالة المجلة ومنهجها.. وعندي أن هذه المجلة، ومجلة «العروة الوثقى» التي أصدرها في باريس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده قد أحدثتا ثورة فكرية، على قِصَرِ حياتهما، لم تعرفها الصحافة العربية (سعدي).

(٢) محاضرات إسلامية (سعدي).

ومعناها، والمشورة ومَبْناها، والمساواة بين السيد والمسُود، والأمير والمأمور، وتحدَّث عن حُرمة الدماء والأعراض والأموال..

في مستهل كلمته حَمَل على المستعمر، ووصف الأمم التي تبيح لنفسها استعباد الأمم الأخرى، فقال: «الأمم المتوحشة يستهوي بها الاستئثار بالمنافع والنفيس من الفوائد أن ينسل أولو القوة منها نحو أموال الذين استضعفوا، ويصُولوا عليها صيال الوحوش الضارية، ثم ينصرفوا بها إلى مساكنهم غير مُتحرّجين من أوزارها، كأنما انصرفوا بتراث آبائهم وأمهاتهم، أو خصَّهم الله بما خلق في الأرض جميعاً»..

وأخيراً طفح الحقد من قلب المستعمر، وكُلُّ إناء بالذي فيه ينضح، فأحكم التضييق على علامتنا الكبير حتى حمله على الرحيل عن الوطن، وأهداه بعد حين وسام العز الرفيع، حكم الإعدام، الذي يزين عنق المجاهدين..

أعلمتم إذن سبب الرحيل..؟

فإلى أين سيتجه يا ترى..؟

في دمشق:

إنه في دمشق، عاصمة المجد الإسلامي الخالد، لا يعرف أحداً، ولا يعرفه أحد.. ولكن هل تخفى الشمس؟..

وفي عصاميّة عجيبة، انطلق وراء رزقه، ورزق عياله، يعمل في مدارسها، حتى اندفعت إليه نخبة مختارة من كرام أبناء هذه المدينة العتيدة، تنهل من نمير علمه العذب، ومن شخصيته الفذة، ومنهم أستاذي الكبير علامة الشام محمد بهجة البيطار عليه رحمة الله ورضوانه.. ومن حديث شيخي وقعت في نفسي الهمّة الشماء، والعصامية الأبية التي كان يتحلى بها الشيخ الكبير..

ومرّت الأيام.. حتى كان يوم نحس من عام ١٩٢٠م حين دخل

الفرنسيون دمشق على جماجم أبطالنا في ميسلون، إنهم نفْسُ الغُزاة، حَمَلة رائحة الاستعمار والاستعباد التي تُلوِّث جوَّ الكون، الذين احتلوا المغرب العربي وشطراً من أرض الشام..

فإلى أين يذهب العلامة المجاهد..؟ إلى أين..؟

في مصر:

إلى القاهرة يمِّم وجهه، وذلك في عام ١٩٢٢م، كما فعل العديد من كرام رجال الوطن السوري..

وهنا ندخل في طَوْر جديد، وسعيد في حياة الجهاد التي عاشها علامتنا الجليل...

في دنيا العلم أحرز قَصَب السَّبْق، ها هو في الأزهر الشريف يدرِّس الفقه في كلية أصول الدين، ثم يقدِّم رسالة علمية رائعة **«القياس في اللغة العربية»** ينال بها عضوية هيئة كبار العلماء..

اختياره شيخاً للأزهر:

وفي عام ١٩٥٢م تمَّ اختياره شيخاً للأزهر، ولقي وَجْهَ ربِّه سنة ١٩٥٨م.

أما في دنيا الجهاد، التي عنها نتحدَّث، فهل خَبَتْ جذوته في نفسه الكبيرة؟.. وفي القاهرة ما فيها من علوم وعلماء، ومن دراسات وأبحاث، ولا سيما بعد أن أصبح عضواً في المجمع اللغوي فيها، وفي المجمع العربي بدمشق؟

لا.. لن يكلَّ السيف المُشرع تحت راية الجهاد الحق حتى تتحرر بلاده، أو يهلك دون ذلك..

هو في القاهرة، وقلبه يحمل وطنه، وما يُعاني... أتريد أن تلمس

وهج حبِّ تونس في هذا الفؤاد العامر؟ ترنَّم معي إذن بهذه الأبيات التي انتقيتها لك من شعره[١]:

وطني علمتني الحب الذي ... يدع القلب لدى البين عليلا
لا تلمني إنْ نأى بي قدر ... وغدا الشرق من الغرب بديلا
عزمة قد أبرمتها همَّة ... وجدت للمجد في الظعن سبيلا
أنا لا أنسى على طول النَّوى ... وطناً طاب مبيتاً ومقيلا..

بل هو يعجب من شعراء عكفوا على اللهو والمجون، ووطنهم يعاني ما يعاني..

وأنفع الشعر ما هاج الحماسة في ... شعب يقاسي اضطهاد الجائر الأشر
مَنْ ذا يقيم على أرض يظللها ... ضَيْم ويحسن وصف الدل والحور

وتعاوده ذكريات صباه في تونس، فيجد شيئاً من حُلوها، إلا أنه ينقلب علقماً في نفسه حين يرتدُّ إليه طرفه مشمئزاً من صورة جيش الاحتلال، فيقول:

ليالٍ قضيْناها بتونس ليتها ... تعود وجيش الغاصبين طريد

.. نعم.. لقد عاد لتونس أريج الحرية، بفضل الله سبحانه، لأنه أقدرك - يا سيدي العلامة - على النضال الذي كنت تُغذِّي به رجال السياسة والعلم والأدب، حين كانوا يتوافدون إلى دارك العامرة، وإلى رابطة «تعاون جاليات أفريقيا الشمالية» التي أسست، والتي قامت بعقد المؤتمرات والندوات لشرح قضية المغرب العربي للعرب، وللمسلمين، وللعالم[٢] وإلى «جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية» التي لعبت دوراً رائعاً في وحدة النضال عند شباب المغرب العربي الأحرار..

---

(١) ديوان «خواطر الحياة» (سعدي).

(٢) رفع علامتنا الكبير مذكرة إلى دول العالم شرح فيها مساوئ الاحتلال الفرنسي، وقد نشرت في كتاب: «تونس وجامع الزيتونة»، ص١٢٨ (سعدي).

كيف ينسى تونس الخضراء، وهو الذي ألقى المحاضرات، وكتب الدراسات المستفيضة عن الحالة العلميّة في ذلك الوطن، وقدم بأدب وفخر واعتزاز للمجتمع المصري أعلاماً من تونس لم يكن لاسمهم، ولسيرتهم من ذكر في مصر(١) فأيُّ تعبير عن حبّ الوطن، والوفاء له، أصدق من ذلك..

هو في القاهرة، بين إخوته، فعليه إذن أن يؤدّي شرف الأمانة الذي يحمل، وأن يُقدّم لهم كل ما يُمليه عليه ضميره من واجب النصح، والعمل البنّاء.. الهادف..

ولذلك كان المُعلّم الأمين.. وكان المُرشد الصالح، والمُربّي الصدوق..

وَجَدَ في مدارس الدولة تقصيراً في التعليم الديني، فَوَجّه المذكّرات للسلطة لإصلاح ذلك(٢).

وسمع بانحراف بعض أساتذة الجامعة عن أصالة الفكر العربي، فحذّر من ذلك وزارة المعارف، ونبّه على الخطر الذي ينزل بالأمة بسبب التهاون، والتّغاضي عن ذلك.. وصَدَق.. لأن النار من مُسْتَصْغَر الشرر.

* * *

تاسيس جمعية الشبّان المسلمين والهداية الإسلامي:

هو في القاهرة، وما يشغله حبُّ وطنه، ولا خدمة المجتمع الذي يعيش فيه عن خدمة دينه وشريعته..

ولذلك فقد اشترك في تأسيس (جمعية الشبان المسلمين) التي كانت في طليعة الجمعيات الهادفة إلى تربية الشباب المسلم تربية صالحة قويمة..

---

(١) تونس وجامع الزيتونة (سعدي).

(٢) الدعوة إلى الإصلاح، ص١٤٨، ١٥٩ (سعدي).

ومن فكره البناء ولدت (جمعية الهداية الإسلامية)، وكان هدفها «أن تعرض حقائق الدين الحنيف وحكمة تشريعه في صورتها الخالصة النقيّة، وأن تبحث في تاريخ رجال الإسلام من العرب وغير العرب، وأن تُنبّه على ما كان لهم من عبقرية في العلم، أو فضل في البيان، أو شرف في الأخلاق، أو رُشد في السياسة. . .، وأن تعمل على رفع التجافي بين الفرق الإسلامية، ولعلها تستطيع بتأييد الله وبوسيلة مجلتها[1] الضاربة في الشرق يميناً وشمالاً، أن تضع مكان التّجافي إلْفة وسلاماً، وإذ عزّ على زعماء هذه الفرق الوصول إلى تقليل مواقع الاختلاف في الآراء، فلا يعزُّ عليهم أن يخفّفوا وقعه في القلوب ويكفوه عن أن يشيع فيها فاحشة التقاطع والقصد إلى الأذى. . .». .

نقض كتاب «في الشعر الجاهلي»:

وحين طلع على العرب طه حسين بآراء في الشعر الجاهلي؛ استقاها من مدرسة الاستشراق، من مرجليوث واسنتيلانا على وجه الخصوص، وفيها ما فيها من نَيْل يمسُّ الإسلام في كتابه الكريم، هَبَّ علامتنا الكبير للرد على ذلك بعنف، وصدق لهجة، وكذلك فعل أديب العروبة والإسلام مصطفى صادق الرافعي في كتابه الرائع: «تحت راية القرآن» وأكرم بها من راية. .

نقض كتاب «الإسلام وأصول الحكم»:

وحين طلع مصطفى عبدالرازق على العرب بكتاب: «الإسلام وأصول الحكم» وفيه يجعل ديننا الذي اختاره الله سبحانه ليكون نوراً للبشرية في مسيرة حياتها، مجرّد عبادات وأذكار فحسب، نهد أستاذنا الكبير، وهو فارس هذا الميدان، للرد على ذلك، وإظهار ما في هذا الدين الخالد من نظام شامل لشؤون الحياة في السياسة وأصول الحكم،

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية (سعدي).

وفي الفقه والمعاملات، وفي تنظيم أمور المجتمع على أقوم نظام، وأعدل تشريع.

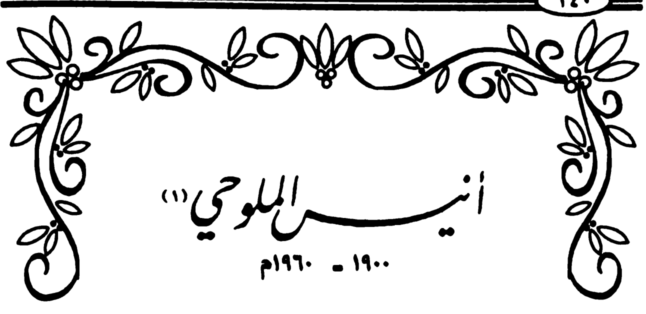
وبعد:

إنها سيرة مجاهد، لتحرير الوطن من العبودية، ولتحرير فكر الأمة من الجهل، والتخلف، ولإعمار ضميرها بالعقيدة الصحيحة، والخلق القويم، والرجولة، والشهامة، ولجعل لسانها عربياً مبيناً لا عوج فيه، ولا أمتاً..

إنها مسيرة عالم عاش في ضمير أمته، وعاشت أمته في ضميره..

أليس كذلك؟

□ □ □ □ □



أنيس الملوحي[1]

١٩٠٠ - ١٩٦٠م

بقلم: نهاد القاسم

كلمة مجلة الحضارة:

«ولد رحمه الله في مدينة حمص من أسرة علمية تحمل رسالة الشريعة إمامةً وتدريساً. وابتدأ حياته العلمية معلماً في مدرسة ابتدائية، ولما شبت نار الثورة السورية ضد المستعمرين الفرنسيين كان من بين مجموعة من الشباب الأبطال الذين أسهموا في الثورة. وكان من نصيبه السجن فترة طويلة، ولما انتهت الثورة ظل مقصياً عن الوظائف عقوبة له على وطنيته. ثم التحق بالقضاء وما زال به خلقه واستقامته يرقيان به حتى وصل إلى أرفع مكان فيه حتى اختاره المجلس النيابي السوري عام ١٩٥٠م، عضواً في المحكمة العليا وهي أعلى محكمة في الدولة يومئذ، ولما وقع انقلاب الشيشكلي المعروف ضد الأوضاع الدستورية في البلاد كان أحد الأعضاء الثلاثة الذين أبوا أن ينكثوا بأيمانهم التي أقسموها يوم تولوا عملهم في المحكمة العليا وهي احترام دستور البلاد وقوانينها، فاستقالوا غير عابئين بتهديد ولا وعيد، ولما عادت الأوضاع الدستورية بعد زوال عهد الشيشكلي أجمع أعضاء البرلمان على إعادته وإخوانه إلى المحكمة العليا، ولما قامت الجمهورية العربية المتحدة اختير وكيلاً لمجلس الدولة، وظلّ فيه حتى توفاه الله مرضياً عن خلقه واستقامته ونقاء ضميره وتقواه وصلابته في الحق ونزاهته، فعاش عمره كله قليل ذات اليد لم يجمع ثروةً ولا مالاً، وإنما خلّف أولاداً رباهم على عينه، فكانوا مثلاً لاستقامة الشباب وحُسن تربيتهم وأخلاقهم.

وقد أقيم له حفلة تأبينية كبرى في مدينة حمص تحت رعاية سيادة وزير العدل التنفيذي، تبارى فيها الأدباء ورجال القضاء في تعداد مناقبه، وبيان الخسارة بفقده رحمه الله، وننشر فيما يلي الكلمة البليغة الرائعة التي ألقاها الأستاذ نهاد القاسم وزير العدل في الإقليم السوري».

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الأولى: (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م). وهذه أول ترجمة وردت في ركن: «رجل فقدناه» في مجلة «حضارة الإسلام».

كلمة الأستاذ نهاد القاسم وزير العدل

كان ـ رحمه الله وعطّر ذكراه ـ رجلاً، وما أقلّ الرجال في مثل هذه الأمم التي خرجت إلى الدنيا تجرُّ أثقال الحديد، وتحمل على كتفيها أعباء الاستعمار، وتتحسّس في يديها مواقع القيد، ويعيش في أسماعها قصف المدافع، وفي عينيها بريق النار، وأطلال المدن المهدمة والقصور المنهوبة، ويدخل اليأس في قلوبها حتى الشغاف، ولا يبين لها من معالم الطريق إلا أضواء خافتة على الأفق البعيد هي إلى السراب أدنى منها إلى النور، وإلى الإنذار بالموت أقرب منها إلى التبشير بالحياة.

رجولة مبكّرة:

أجل، كان ـ يرحمه الله ويُنْدّي مَثْواه ـ رجلاً، استوت له رجولته مبكرة، لم يولد وفي فمه ملعقة ذهب، ولكنما ولد وفي قلبه شعلة من طهر، وصعد سُلَّم الحياة من أدنى درجاته، فكان معلماً في مدرسة ابتدائية، ثم كاتباً في محكمة. . . وقدّر له أن يبدأ خطَّ حياته مستقيماً، وما كان له أن يلتوي بعد ذلك، على عنف الأقدار ومرارة الأكدار وقساوة المراحل، وظلّ يذرع العمر، عينٌ في الأرض تجمُّلاً وحياءً، وعينٌ في السماء تطلعاً وطموحاً، حتى استطاع أن يغادر كاتب الضبط هذا مكتبه في الديوان إلى منصّة القضاء، ليكون هو الذي يُملي الضبط، ولتعيش على شفتيه صولة الحق، ويهدر صوته بمحاربة الباطل، فإذا شفتاه تشرفان أبداً بأنهما لم تنطقا إلا الحق الذي اعتقده، وإذا هذا الشرف بريق في عينيه، وخيلاء على جبهته، وإباء في أنفه. وإذا الباطل يخافه ويخشاه فلا يقع له في طريق.

في القضاء:

وفي القضاء كان يرحمه الله قاضي الجنة. كان قاضي الجنة صلابة

وعزماً، وكان قاضي الجنة رأفة ورحمة، وكان قاضي الجنة الذي لا تعرف إليه الشبهات سبيلاً.

واستطاع الشاب المُعَمَّم الأسمر لا أن يكون قاضياً نزيهاً فحسب، وإنما استطاع أن يكون كذلك قاضياً صاحب رأي، يحكم هذا الرأي ويبرمه ثم يصوغه ويصقله، ثم يقف من دونه مدافعاً عنه، ويشهد الله، ما كان دفاعه عن واحد من أبنائه في مثل دفاعه عن واحد من آرائه... وما أشدَّ ما جرَّ عليه هذا الوقوف دون الرأي في مراحل حياته كلها من أسًى وشدة، ولكنه كان يفجّر في صميم هذه الشدة ألواناً من الفرح، ويحيل الأسى بكيمياء عجيبة، هي كيمياء الضمير الذي لا يزول ولا يذل، مباهج وأفراحاً، ولقد عاش في هذه المباهج والأفراح الخفيَّة التي لا يقع عليها إلا الأقلون طول حياته، وإنك لتعيش فيها - يا أبا سعيد - كذلك اليوم في أنوار الله مع الأتقياء الأنقياء الخالدين.

طرفان متنازعان:

وفي الحياة - أيها السادة - دائماً هذان الطرفان المتناقضان المتنازعان: قد تختلف أسماؤهما، ولكن العلاقة بينهما تظل دائماً هذا النزاع الذي لا يعرف خموداً ولا هدوءاً... إنه في بعض مستوياته نزاع بين الخير والشر، وفي بعض أسمائه نزاع بين الحق والباطل، إنه في نطاق الدين نزاع بين الإيمان والكفر، وفي دنيا القضاء نزاع ما بين الضعيف والقوي، والظالم والمظلوم، وفي الحياة نزاع ما بين اللقمة الحلال واللقمة الحرام، والبطن المنتفخ والبطن الضامر، وتفنَّن ما شئته في أسمائه، فسمّه النزاع بين اليد الدنيا واليد العليا، بين المعدة والضمير، بين العين المُبْصرة التي تُغْضي حياء، والعين العشواء التي تحملق وقحة... ومن منا لم يشهد هذا الصراع؟ أينا الذي لم يخضع له، ولم تزحف به قدماه ذات مرة في الطريق أو في بعض الطريق إليه؟ أينا الذي لم يسمع الشيطان في ألف صوت من هذه الأصوات المحجبة

المقنعة التي تبدو وكأنها ألوان لا حصر لها؟ أينا لم يره في ألف صورة من الصور التي نعهدها في الحياة والتي لا نعهدها؟

وقد كان أنيس ـ كأيٍّ واحد منا ـ هدفاً لهذا الصراع، ولكنه استطاع يرحمه الله، أن يجوز التجربة في نجاح، وأن يخوض المعركة في ظفر... ما أكثر ما مرّت به السنوات العجاف من غير أن يدّخر لهنّ من سبع سمان قبلها، فما عرف السبع السمان في الدنيا وإنما أرجأها إلى الآخرة... ما أقسى ما كان فيه من غير أن يدري به أحد من الأرض إلا خُلّص إخوانه، أما السماء فكانت تبني له قصره في الجنة الذي يعيش فيه، وتأتيكم ذكرياتكم الساعة حوله مضمّخة بعبيره وريحانه.

أجل، لقد كان أنيس ـ آنس الله وحشتك يا أبا سعيد بما قدمت من عمل صالح ـ من هؤلاء الذين آثروا جانب الحرمان، والتزموا في مواقف النزاع الإنساني هذه الجهة الأخرى، التي تنظر وتعف، وترى ولا تمد اليد، وتحرقها الحاجة فتهزأ من الحاجة، وتحرقها هي بنار الصبر، وتجبهها الأيام فلا تزيدها الأيام إلا عزماً، وتمرُّ بالصراط الذي يفصل بين هذين الطرفين المتناقضَين المتنازعَين في الدنيا، الصراط الضيق كأشد ما يكون الضيق، فيخيل إليك أنها تمضي في الطريق اللاحب الواسع، وكأنما تنبت لها أعمالها الصالحة أجنحتها التي تعدو بها في طلاقة ويُسر.

ولم يكن القضاء في مراتبه الأولى هو الذي استطاع أن يجلو أنيس الملوحي، وأن يكشف عن جوهره، وأن يتيح لإلفه أن يملأ قلوبنا إجلالاً وأعيننا تقديراً، وإنما كان القضاء في مراتبه البعيدة محكّاً للجوانب الأخرى للشيخ أنيس.

عضويته في المحكمة العليا:

والمراتب العليا، أيها السادة، قد تُغْري بالمهادنة بعض الذين يبلغونها من أقصر طرقها، وقد تُغْري بالكسل بعض الذين تستنزف المراحل الأولى

ما عندهم من قوة وجهد. . . أما فقيدنا فقد كانت عضويته في المحكمة العليا امتحاناً آخر، وكأنما جمعت له الدنيا أقصى ما عندها من إغراء وما لديها من خداع، وازيَّنت له، ولكنه اعتصم بالله منها واستعانه عليها، وقال لأولئك الذين قاموا بالانقلاب: إنكم خرقتم الدستور. . . ومضى، ولكنه لم يقلها في صوت مهموس، ولم يلق بها إلى واحد من خلاّنه بعد أن التفت عشر مرات يَمْنة ويَسْرة، مخافة أن يكون قد ركِّب للحائط أذنان. . . ولم يبدها خجولة مُتعثِّرة على خجله الحلو، ولا حيية على حيائه الكثير، ولم ينظر إلى الكرسي من تحته، ولا إلى رئيسه من حوله، ولا إلى صاحب السلطان من فوقه. . . وإنما ارتفع بصره إلى أعلى من ذلك. . . إلى الله، ولم يضع يده في يد زميل أو صديق، ولم يتحسَّس جيبه ما فيه وما عنده، وإنما وضع يده على ضميره، ثم قدم مع زميليه ـ رحم الله مَنْ مضى ومدَّ في عمر من بقي ـ استقالته، وليس في جيبه وفر، ولا في حسابه رصيد، ولا بين أولاده كبير، ولا في أسرته غني، وإنما مضى، بين بُرديه عزَّته، وفي رأسه رأيه، وفي قلبه حلاوة الاطمئنان إلى أن يكون للرأي مكانة في مواقف الحياة.

ألسنة الخلق أقلام الحق:

وألسنة الخلق ـ أيها السادة ـ أقلام الحق، وكأنما كانت أقلام الحق في هذه المرة في صفحة أنيس، إجماع النوَّاب على إعادته إلى مكانه بعد أن استعادت الحياة الدستورية سيرتها، وإجماع النوَّاب أو كثرتهم الكاثرة على تأكيد الثقة به، وتجديد التقدير لمكانه من الرأي الحر والعقيدة الواضحة.

ويشاء الله لأنيس أن تكتحل عيناه بأروع أحداث تاريخ العرب المعاصر، بالوحدة بين سورية ومصر، هذه الوحدة التي ستكون أبعد الأشياء أثراً في مستقبل كلّ هؤلاء الذين ينتشرون على هذه البقعة الواسعة من الأرض التي تسود فيها العربية، وتوَّجت الوحدة جهاد أنيس، فجعلت منه مستشاراً، ثم وكيلاً لمجلس الدولة.

أما ما بعد ذلك ـ أيها السادة ـ فاعفوني من ذكره. . . يا ظهر السرير الذي سمع وحده أنّات الألم المكبوتة مدى سنتين، وشهد أنيس يتململ ولا يستطيع، ويتحرّك ولا يملك، وضمّ الرجل المقعد الذي عجزت أن تقعده الأحداث كلها عن أن يقول كلمته، ولكن المرض أقعده. . . وكأنما كان ذلك الابتلاء الأخير الذي ابتلى الله عبده الصالح ليجعل طريقه إلى الجنة أجنحة الملائكة وتحيّات الصدّيقين.

في الحياة ـ أيها السادة ـ ناس تلقاهم مرة أو مرات، فتحس كأنك عشت معهم العمر كله، وتجد في نفسك وكأنما نبتت بينك وبينهم وشائج، أصلها في السماء، ومداها في أعماق النفس، وشُعَبها أجواء الحياة كلها.

وفي الحياة مَنْ تلقاهم كل يوم ولكنك تجد الحاجة إلى أن تزيح ظلالهم لو أمكن أن يُزاح الظل من طريقك حتى تفسح لغيرهم المكان.

ولقد كانت معرفتي بالمغفور له أنيس من هذه المعرفة الأولى، اتّصلنا، ثم فصلت بيننا مراكز العمل، ولكننا كنا نشعر أنه دائماً في نفوسنا.

أقول: كنا نشعر، ومعاذ الله من قولة (كنا) هذه ـ أيها السادة ـ إننا نشعر الآن ـ وسنظل ـ أن أنيساً معنا. . . ألست أنت أيها الروح الذي يرفرف بيننا. . . سلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أبا سعيد، سلام عليك في الخالدين ومع الشهداء الصالحين[1].

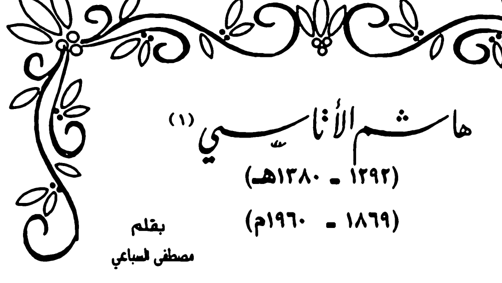


(١) أوردت المجلة بعد هذه الكلمة قصيدتين في رثائه: الأولى لشاعر حمص الأستاذ رضا الصافي، والثانية لشاعر العاصي الأستاذ بدر الدين الحامد.

الفقيد في سطور

* ولد سنة ١٩٠٠م، بمدينة حمص.
* عام ١٩٢١م، تولى رئاسة صندوق الأيتام بدمشق.
* عام ١٩٢٥م، قبض عليه الفرنسيون مع عدد من كرام المجاهدين من بينهم رشيد الملوحي.
* في أيلول ١٩٢٦م، أفرج عنه وعن إخوانه.
* في عام ١٩٢٩م، تخرّج في كلية الحقوق وعيّن قاضياً في دوما.
* في عام ١٩٤٨م، عيّن عضواً في محكمة التمييز.
* في عام ١٩٥٠م، عيّن عضواً في المحكمة العليا.
* في عام ١٩٥٢م، استقال منها على إثر انقلاب الشيشكلي.
* في عام ١٩٥٤م، أُعيد انتخابه للمحكمة العليا.
* عُيّن بعد الوحدة مستشاراً في مجلس الدولة ثم وكيلاً له إلى أن اختاره الله إلى جواره.





هاشم الأتاسي (١)

(١٢٩٢ ـ ١٣٨٠هـ)

(١٨٦٩ ـ ١٩٦٠م)

بقلم
مصطفى السباعي



انطفأت شعلةٌ من شُعَل الجهاد العنيد النبيل الذي أضاء للعرب عامة ولأبناء الإقليم السوري خاصّة، طريقهم إلى الحرية قرابة سبعين عاماً منذ تولى العمل الحكومي بعد تخرّجه من حقوق استانبول عام ١٨٩٤م، إلى أن لقي ربه في الشهر الأخير من عام ١٩٦٠م.

تاريخ أمة، وأمجاد شعب، وعنوان كفاح، ورمز استقامة، ومثل نزاهة... ذلك هو الفقيد العظيم «هاشم الأتاسي».

---

(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الأولى: (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م).

كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي:

قاد هاشم الأتاسي معركة الكفاح ضدَّ الاستعمار الفرنسي في سورية مع عدد من إخوانه في مقدمتهم إبراهيم هنانو، وسعد الله الجابري رحمهما الله، وشكري القوتلي مدّ الله في حياته[1]، في وقت كان فيه الاستعمار يرمي بأثقاله على البلاد، والأمة تغلي غليان المحموم من وطأة الطغاة المستعمرين وأذنابهم، فوجدت فيه القائد الأمين، والربّان الماهر، والزعامة الحكيمة التي لا تضطرب عند اصطراع الأهواء، ولا تجبن عند اشتداد الأنواء.

رئاسته الجمعية التاسيسية ثمَّ رئاسة الجمهورية:

وسلمت إليه برئاسة الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨م، ثم برئاسة الجمهورية عام ١٩٣٦م، فاشتدَّ إيمانها بقيادته وزعامته للقضية الوطنية والحكم الوطني، من حيث تزعزعت ثقتها في كثيرين ممَّن كانوا يتعاونون معه في الكفاح السلبي، ثم في دور البناء الإيجابي، وما كاد يغادر منصَّة رئاسة الجمهورية طائعاً مختاراً عام ١٩٣٩م، بعدما بدا من سوء نوايا الفرنسيين وتصميمهم على جَعْل استقلال سورية أمراً شكلياً يخفي وراءه أبشع مطامع الاستعمار الفرنسي وأخسِّها، حتى أصبح هاشم الأتاسي زعيم الأمة الأمين غير مُنازع، وبطل القضيَّة الوطنية غير متَّهم ولا مغموز في سيرته وإخلاصه..

رئاسته الثانية للجمهورية السورية:

ثم احتاجت إليه البلاد مرة أخرى بعد انقلاب الحناوي على حسني الزعيم، فسلَّمته رئاسة الدولة فرئاسة الجمهورية مرة أخرى عام ١٩٤٩م، يُشرف على توجيه الحكم، ويرعى أمانة الدستور، ويذود عن حقوق الأمة.

فلما حصل انقلاب الشيشكلي غادر رئاسة الجمهورية مرة أخرى،

---

(١) توفي سنة ١٣٨٧هـ الموافق ١٩٦٧م عن ٧٦ عاماً رحمه الله تعالى.

مرفوع الرأس، موفور الكرامة، غير ناكث بيمينه الذي أقسمه على حماية الدستور وكفالة الحريات، ولا وجل من طغيان صاحب الانقلاب وبطشه، وما كان الشيشكلي بالذي يجرؤ أن يقترن من هذا الطود الشامخ فيوهي قرْنَيه، ولا بالذي يستطيع أن يُسَخِّرَهُ لأهوائه وشهواته كما استطاع أن يفعل مع بعض مُحترفي السياسة يومئذ، ممَّن انكشفوا عن وصوليين أنانيين لا يرعون لهذا الوطن إلاً ولا ذمة.

أخلاقه وشمائله:

لقد قُدِّر لي أن أعرف الفقيد العظيم، وما تنطوي عليه نفسه الكبيرة من شَمَم ونقاء خلال السنوات التي انقضت بين وضع الدستور السوري في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩م، وبين انتهاء رئاسته الثانية للجمهورية عام ١٩٥٦م، وشهد الله ما رأيت أنبل منه نفساً، ولا أصفى منه وطنية، ولا أبعد منه بصيرة، ولا أعفَّ منه يداً ولساناً.

ولقد كان حين تشتد الأزمات في الحكم أو في الجمعية التأسيسية أو في المجلس النيابي، يستطلع رأي كل كبير وصغير، وكان وهو يستمع إلى ما نُبْدي من آراء وما نُقدِّم من حلول، يُصغي إلينا ـ ونحن في سنِّ أصغر أبنائه حديثو عهد بالسياسة ومزالقها ـ كما يُصْغي الأخ إلى أخيه، لا يُدِلُّ علينا بماض من جهاد أو رئاسة، ولا يَسْتعلي علينا بفارق من سنّ أو تجربة، وإنما كان يوازن بين الآراء، ويقارن بين المقدِّمات والنتائج، ثم يستخير الله في الأمر يبدو له، فإذا شرح الله صدره أقدم عليه غير متنكر لمن خالفه، ولا مَنَّان على من وافقه..

التزامه حدود الدستور:

ومن أبرز ما كان يتَّصف به من خلُق مكَّن له في قلوب الأمة، أنه لم يكن يتجاوز حدود الدستور، ولا كان يُداري في الحقِّ عظيماً ولا كبيراً، ولا ينحاز في تولية الوظائف، والأعمال العامة إلى قريب أو صديق، ولقد

كان من عائلة كريمة كبيرة في حمص، ولكن أحداً لا يستطيع أن يزعم أنه خلال رئاستيه الأولى والثانية، قَرَّب من أقربائه مَنْ لا يستحقون التقريب، أو أبعد من غيرهم من لا يستحقون الإبعاد، بل كان كلُّ همِّه أن يُقرِّب الصالح للأمر ولو كان من أعدائه، ويبعد الفاسد ولو كان من أقربائه أو أصدقائه، ومع ما كان يبدو عليه في أواخر أيام رئاسته الثانية من ضيق صدر في معالجة بعض الأمور مما يراه غير ملتئم مع المصلحة العامة، فقد كان الجميع يتقبلون منه «حِدَّته» وغضبه أحياناً بالرضى والهدوء، كما يتقبل الابن مثل ذلك من أبيه، غير شاكٍ في إخلاصه وحبه ونصحه.

مَثَلٌ حيّ لما يرجوه الشعب في قائده:

كان هاشم الأتاسي في حياته مثلاً حياً لكلِّ ما يرجوه الشعب في قائده من أمانة واستقامة وحكمة ونزاهة، وكان مما أعانه على ذلك أمران: دين يحمله على أداء شعائره، ويُلجئه عند الشدائد إلى ربِّه وخالقه، ومَنْبتٌ عريق في النُّبل والسماحة ينزع به إلى أخلاق آبائه وأجداده، وما اجتمع هذان الأمران في زعيم إلا أكرماه باستقامة الطريق، ونقاوة الذمة، ويقظة الضمير، وترفُّعا به عن الإسفاف إلى مراتع الأهواء والشهوات.

رحمك الله يا «أبا سرّي»، وأغدق عليك سحائب رضوانه وأنت ـ إن شاء الله ـ في جنات الخلود، فلقد علّمت أجيالاً من شباب هذه الأمة كيف يعيشون في الحياة نبلاء، ويمشون إلى الموت شرفاء، ولقد سجّلت في تاريخنا الحديث صفحات من شرف القيادة، ونبل الزعامة، تكاد تلحق بمثيلاتها في تاريخنا القديم.. وإنا لله وإنا إليه راجعون..



حياة الفقيد العظيم في سطور

* ولد في حمص عام ١٨٦٩م، وهو نجل المرحوم خالد الأتاسي مفتي حمص سابقاً وشارح المجلة.

* متزوج، وله أولاد وأحفاد، يتقن العربية والتركية، ويلمّ بالفرنسية.

* تلقّى علومه الابتدائية في حمص والثانوية والعالية في الآستانة من المكتب الملكي.

* بدأ حياته كمأمور بمعية والي بيروت عام ١٨٩٤م، ثم عيّن قائم مقام في عكا عام ١٨٩٧م، فمتصرفاً في مدينة بيروت عام ١٩١٣م.

* كان عضواً في المؤتمر السوري الأول عام ١٩١٩م، وانتخب رئيساً لهذا المؤتمر عام ١٩٢٠م.

* شكّل الوزارة السورية الأولى عام ١٩٢٠م، وهي الوزارة التي حاربت دخول فرنسا إلى سورية.

* انتخب نائباً عن حمص في الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨م، ثم رئيساً لهذه الجمعية التي قامت بوضع الدستور السوري.

* وفي عام ١٩٣٦م، جُدّد انتخابه نائباً عن حمص، وترأس الوفد السوري الذي سافر إلى باريس للمفاوضة من أجل عقد اتفاقية الاستقلال.

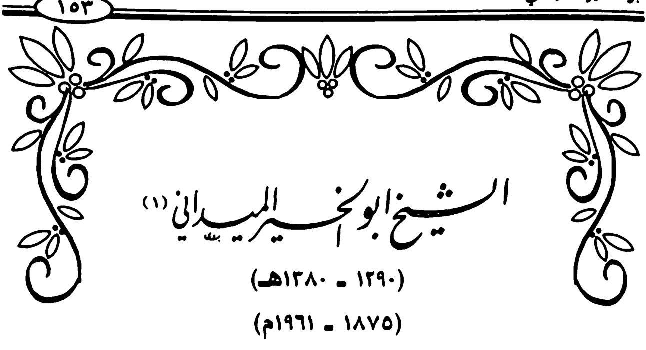
* وفي عام ١٩٣٦م، انتخب رئيساً للجمهورية السورية، وظل بهذا المنصب حتى عام ١٩٣٩م.

* دعي لتأليف الحكومة السورية الانتخابية التي جاءت إلى الحكم عقب الانقلاب الذي قاده سامي الحناوي ضد طغيان حسني الزعيم.

* عقب الانتخابات التي جرت عام ١٩٤٩م، انتخب مرة ثانية رئيساً للجمهورية عام ١٩٤٩م، وظل فيها حتى عام ١٩٥٢م، عندما عطل أديب الشيشكلي الحياة الدستورية في البلاد، فاعتزل الأتاسي الرئاسة ونزل إلى صفوف الشعب يقاوم الطغيان.

* وفي عام ١٩٥٤م، عاد إلى الرئاسة التي قضت على عهد الشيشكلي، وظل فيها حتى مطلع عام ١٩٥٦م، عندما أُعيد انتخاب فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيساً للجمهورية.





الشيخ أبو الخير الميداني[1]

(١٢٩٠ ـ ١٣٨٠هـ)

(١٨٧٥ ـ ١٩٦١م)



بقلم: عمر عودة الخطيب

في يوم السبت السابع عشر من رمضان المبارك عام ١٣٨٠، شيّعت دمشق المسلمة بقلوب خاشعة، وعيون دامعة، عالماً جليلاً، ومُصلحاً كبيراً، جاهد في سبيل الله شاباً وكهلاً، وعمل لرفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الله شيخاً كبيراً. . .

ودمشق المؤمنة سخيَّةٌ في شعورها الصَّادق، تعرفُ قدر الرجال المصلحين، والعلماء العاملين. تُجِلُّهم في حياتهم، فتسمع إنْ أرشدوا، وتُجيب إذا نادوا. . .

تسير من خلفهم لنُصرة الحق إذا ساروا، وتغضب لغضبهم ـ إن ساد الباطل ـ إذا ثاروا. . .

---

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الأولى: (١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م).

تُسْلس قِيادَها لمن ابتلته في الشدائد فإذا هو قويٌّ متين، وتُسلم زمامها لمن استهدف في مَسْعاه رضوان الله فإذا هو مخلص أمين..

هكذا كان شأن دمشق مع فقيدها العظيم الشيخ أبي الخير الميداني في حياته ويوم وفاته...

وكيف لا تكون كذلك والشيخ ـ طيَّب الله ثراه ـ كان سيرة عطرة، يتذاكرها الناس فيتَّعظون، ويتحدَّث بها العلماء فيسترشدون ويُرشدون، وهو سِجِلٌ حيٌّ لما يحب الناس من الفضائل والمَكْرمات، والإيمان والجهاد، والورع والزهد، والجرأة في الحقّ، والإخلاص لله...

ولادته ونشاته:

نشأ أبو الخير في حي العقيبة ـ أحد أحياء دمشق الأصيلة ـ فقيراً، بعد أن رأت عيناه الدنيا سنة ١٨٧٥م، في ذلك البيت الذي أغمض فيه عينيه وودع هذه الحياة منذ أيام من عامنا هذا عام ١٩٦١م، وكان طبيعياً أن يختلف الفتى إلى المدارس كما يختلف إليها أترابه، ولكنه لم يكن كسواه من الطلاب الذين يتعلمون ويلهون ويُبطرهم الغنى ويُقْعدهم الكسل.. بل كان أكثر زملائه جِدّاً، لم يعرف أنه قصّر يوماً في درس، أو توانى عن واجب.. وهو ـ برغم فقره ـ ينال في كلِّ امتحان الدرجة الأولى، ويتفوَّق على غيره في كل علم وفن، حتى نال أعلى الشهادات وأرقى الدرجات.. وأترابه كلهم يُصفونه الود الخالص لما يتمتَّع به من لطف وإيناس، وخُلق رفيع نادر المثال..

متابعة دراسته في إستانبول:

وكانت (إستانبول) في مطلع هذا القرن الميلادي عاصمة الخلافة، ومقر الملك، فيها المدارس العالية، والمعاهد الكبرى.. فكان على مثل ذلك الشاب النابه أبي الخير أن يَشُدَّ الرِّحال إليها، لينهلَ من مَعين العلم فيها، ويعود ـ من بعد ـ إلى دمشق وقد تحقق أمله في أن يكون عالمها الفذ، وأديبها الفريد، ومعلمها الكبير...

واستقبلت (إستانبول) الفتى الذكي، ورعته خير رعاية، وأُعجب به مُعلِّموه، وغذوه بالعلم والمعرفة، وعقدوا عليه ـ لِما رأوا منه ـ كبير الآمال.. ولكن رسالة صغيرة، كُتبت بالدموع جعلت الفتى يجمع متاعه، ويُودِّع معاهد شبابه ومعقد آماله، ويعود لهيف الصدر إلى دمشق.. إنها رسالة الأم الباكية التي استبدّ بها الحنين وهزّها الشوق، فكتبت إليه تدعوه بدموعها، فأسرع يجفف بقبلاته هذه الدموع..

دراسته وتحصيله:

أكبَّ الرجل هنا في دمشق على الدرس والتحصيل، وأقبل على العلم يطلبه، يصل في سبيله الليل بالنهار، في جِدّ دائم، وعزيمة صادقة، فلا يدع حلقة درس تفوته، ولا يترك شيخاً إلا أفاد منه... وتمرُّ الأيام بحُلوها ومُرِّها والرجل في رياض العلم يطوف، ومن ثمرها الطيِّب يَجْني.. ثم إذا هو بصفاء روحه ونقاء سريرته يسير في درب العلماء العاملين، ويتقدم حثيثاً في مدارج السالكين.. ويصبح حديث الشام، يغْدو إليه طلاب العلم من كل مكان، وفي زاوية صغيرة في حي الشيخ (العقيبة) تسمى زاوية (الآجري) كان يجتمع كلَّ يوم من حول الشيخ طلاب العلم فيعلمهم العربية والفقه والقرآن والحديث والأصول والتوحيد، وكل علم فيه نفع في دنيا ودين...

دروسه في جامع التوبة وزاوية الآجري:

وكانت دروسه ـ في التوبة والآجري ـ حديث المجالس والندوات، لأنه ـ رحمه الله ـ كان يتخيَّر دائماً الموعظة الصالحة، والحكمة الناصحة، يعالج بذلك ما بالناس من أدواء، ويصلح ما يسود المجتمع من انحراف، في أسلوب لطيف مؤثر، يهزُّ القلب، ويهذِّب النفس.. ويرق ويلين حتى يلمس أوتار الشعور، ويستدر عبرة الخشوع..

الصورة الصادقة للمسلم الزاهد:

لم يكن الشيخ يتحدَّث بلسانه فحسب، بل كان مؤمناً حاضر القلب،

يُرشدك حاله قبل مقاله، فلا تملك ألا تتأسّى به، وتنهج نهجه.. ذلك أنه ـ رحمه الله ـ إنْ دعا إلى خير كان أسبق الناس إليه، وإن أمر بمعروف كان أشدَّ الناس عملاً به، وإن نهى عن منكر كان أبعد الناس عنه، لا تجد في مجلسه إلا أمراً بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، وإذا ذكر الله وَجِلَ قلبُهُ، وإذا سمع آيات الله زادته إيماناً.. يُوجّه الناس إلى عدم التعلّق بالدنيا وزخارفها فلا تجده إلا منصرفاً عنها، معرضاً عن مغرياتها.. وإذا به حقاً الصورة الصادقة للمسلم الزاهد، في عصر سيطرت فيه المادة حتى طغت وتملكت قلوب الناس، ولم ينج من شرها إلا مَنْ عَصَمَ الله، وسما عن تراب هذه الأرض، ينعم هنالك في أجواء الملأ الأعلى بلذة الخلد ونعيم الأبد..

المرشد الصادق:

كان يجلس إليه العلماء في الشام جلوسهم إلى المرشد الصادق، يقبسون من علمه وهم علماء، ويفيدون من حكمته وهم شيوخ، ويتّعظون بكلماته البسيطة اليسيرة وهم خطباء، ويتعلمون منه وهو ابن التسعين عزيمة المؤمن التي تقصر دونها عزائم الشباب..

دار الشيخ:

كان إذا حَزَبَ الناسَ في الشام أمرٌ، أو اعتدى على دينهم فاجرٌ، أو نال من أخلاقهم فاسقٌ، هُرِع علماؤهم وأهلُ الرأي فيهم إلى دار الشيخ.. وهناك على المقاعد المتواضعة في الغرفة البسيطة يُعقد مؤتمر صغير تقول فيه دمشق كلمتها، وتُعلن رأيها، فإذا الكلمات القليلة التي ينطق بها الشيخ في أناة وهدوء، فتتناقلها الألسنة وتتلقّفها القلوب، صواعق ترتجف لها نفوس الأشرار، وتنهار بها عزائم المفسدين... فيتوارى الباطل وجلاً، وينحسر الشر خزياً.. لأنَّ الحق الذي ينطق به الشيخ باسم الإسلام نور الله الخالد فلا ينطفىء، وأمر الله الغالب فلا يقهر...

إيه دمشق!

ليس عليك أن تبكي أبا الخير الميداني شيخك العظيم، ومصلحك الكبير، ورئيس رابطة العلماء.. فلقد كان ـ طيّب الله ثراه ـ أكبر من كل هذا.. فهو بقية السلف، وشيخ الزاهدين، وقدوة الناسكين.. ومن ورثة الأنبياء الصادقين..

رحمه الله.. وأعلى مقامه في عليين...



الدكتور السيد عبدالعلي الحَسَني مدير ندوة العلماء[1]

١٣١١ ـ ١٣٨٠هـ

للأستاذ السيد أبي الحسن الحسني النَدوي

في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٠هـ السابع من شهر أيار (مايو) سنة ١٩٦١م، فقدنا عَلَماً من أعلام العالم الإسلاميّ، ونادرة من نوادر الأيام في الجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ومحاسن القديم والجديد، هو أخي الكبير الدكتور السيد عبدالعليّ الحَسَني ابن مؤلف الهند الكبير العلامة السيد عبدالحي الحسني، مدير ندوة العلماء الأسبق، وصاحب «نزهة الخواطر»، و«الثقافة الإسلامية في الهند».

ولادته ونشاته:

ولد في سنة ١٣١١هـ، وهي السنة التي وُلِدت فيها حركة ندوة العلماء صاحبة المؤسسة الإسلامية الكبيرة ـ دار العلوم في لكهنؤ (الهند)، ومن الحركات الإسلامية الفكرية الكبيرة في العصر الحاضر، فكان الفقيد تِرْباً لندوة العلماء، وكانا في سنٍّ واحدة، وقد كان وفياً لتربه العظيم، فقد عاش

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الثانية: (١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م). ونشرت هذه المقالة في كتاب: «شخصيات وكتب» ص٦٣ ـ ٧١ للأستاذ الندوي.

متّصلاً به، مساعداً له مديراً لإدارته لأطول مدّة تمتّع بها مدير في تاريخ الندوة يعني من سنة ١٩٣١م، إلى أن لفظ نَفَسه الأخير في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩٦١م.

نشأ في حضانة جده المؤلف العظيم الشيخ فخر الدين، ووالده الكبير السيد عبدالحي. وجوّد الخط وتعلّم اللغة الفارسية ـ على عادة أبناء الأُسَر الشريفة في ذلك العهد ـ وكان لا يزال يتكلم بها بطلاقة وسهولة، وقرأ العلوم الدينية وآداب اللغة العربية على أساتذة دار العلوم التابعة لندوة العلماء البارعين.

وتعلّم المنطق والفلسفة والهيئة والإقليدس والنحو والأدب العربي والفقه وأصول الفقه في جِدّ واجتهاد وفهم وإتقان.

وكان مُتَّسماً من صباه بطول الصّمت والاشتغال بذات النفس، والجد في كلّ شيء، والبُعد عن الهَزْل وسفاسف الأمور.

التحاقه بدار العلوم «ديوبند»:

ثم التحق بالجامعة الإسلامية الدينية المعروفة بدار العلوم «ديوبند»، وانتسب إلى صفّها النهائي المختص بدراسة الحديث الشريف.

وكانت دار العلوم «ديوبند»، تعتبر أعظم مركز لتدريس الحديث، وكان رئيس أساتذتها العالم الربّاني المشهور مولانا محمود حسن المعروف بشيخ الهند، ومكث عاماً يدرس الحديث ويتخصّص فيه، وكان من أساتذته الكبار العلامة الكبير الشيخ أنور شاه الكشميري، وكان مُعجباً بجودة فهمه وحُسْن تقييده للدروس.

دراسته الطب العربي القديم:

وتخرّج في ديوبند في امتياز، ثم رجع إلى لكهنؤ مقر والده، وعكف على دراسة الطب العربي القديم، وقرأ على والده الذي كان من كبار الأطباء، وأتمّ دراسته، ثم سافر إلى دهلي، ولازم الحكيم (أجمل خان) أشهر أطباء الهند، ومن كبار زعماء حركة التحرير، ومن أصدقاء الزعيم غاندي، وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق، واستفاد منه ومن مجالس

الدكتور (مختار أحمد الأنصاري) رئيس المؤتمر الوطني الأسبق، ومن الأطباء البارعين في الطب الجديد، وكان مدة إقامته في دهلي أثيراً عند الحكيم (أجمل خان) وموضع ثقته.

دراسته اللغة الإنجليزية والعلوم العصرية:

وبعدما تخرّج في العلوم الدينية وأتمّ دراسة الطب، بدأ يدرس اللغة الإنجليزية والعلوم الجديدة، وهو شاب، ولم يشعر بذلك والده حتى حصلت له مشاركة فيها، والتحق بالمدارس الحكومية، ثم دخل في كلية لكهنؤ Canning college مركز الثقافة المدنية في العاصمة، وحضر امتحان ليسانس (B.S.C) سنة ١٩١٩م في علوم الطبيعة، وتَخَصَّص في علم النبات Botony وبرز في الامتحان وفذّ أقرانه، وكان المُجلّى[١] في هذه الكلية، والمُصلى[٢] في جامعة إله آباد الكبيرة، ونال وِسَامَيْن، ثمّ التحق بكلية الطب الجديد في لكهنؤ، وقضى فيها خمس سنوات، وأخذ الشهادة النهائية، وقد تُوفي والده أثناء دراسته، وترك أسرةً كان الفقيد كافلها والحامل لأعبائها، وأتمّ دراسته في كلية الطب، وأخذ الشهادة من جامعة لكهنؤ، ثم بدأ حياته المستقلة كطبيب ليكفل أسرته.

وكان زاهداً في الوظائف الحكومية، قانعاً متقشّفاً في حياته الخاصّة، واسع الذراع، رحيبَ الصّدر لأخوته الصغار، وقد أنساهم برّه ورقة عاطفته ألم اليُتم وخسارة فقد الوالد.

إدارته لندوة العلماء:

وانتخب عضواً في لجنة ندوة العلماء التنفيذية عام ١٩٢٣م، وانتخب نائب المدير عام ١٩٢٨م، ومديراً عام ١٩٣١م، وقد قطعت ندوة العلماء ودار العلوم أشواطاً بعيدة زمن إدارته وإشرافه، وفاق عصرُه جميعَ العصور، وأصبحت مؤسسة عالمية لها شُهرتها ومكانتها في العالم الإسلامي.

---

(١) أي: كان ترتيبه الأول.

(٢) أي: جاء ترتيبه الثاني.

وكان عضواً في لجنة دار العلوم ديوبند أيضاً، ولما عقدت جمعية العلماء حفلتها السنوية سنة ١٩٤٩م تحت رئاسة العالم الجليل والزعيم الإسلامي مولانا (حسين أحمد المدني) كان رئيس لجنة الاستقبال، وألقى خطبة فيها وجيزة المباني غزيرة المادة عميقة التفكير.

ممارسته حرفة الطب:

عاش حياته منقطعاً إلى حرفته التي خدم بها الناس في إخلاص وأمانة ونصح وإيثار، وكان همُّه دائماً برء المريض وراحته دون الفائدة المادية، وكان أميناً ناصحاً في آرائه لا يتعصَّب لطب أو طبيب ولا يُصرّ على خطأ، ولا يَسْتحي من قوله: «ما فهمت» إذا لم يتبيَّن له الصواب، وجمع إلى ذلك إدارة ندوة العلماء التي كان يقوم بها متطوّعاً محتسباً.

أخلاقه وسجاياه:

وكان حريصاً على إيصال النفع إلى الناس، والمواساة وصلة الأرحام، مشتغلاً بذات نفسه معتزلاً في بيته، قليل الحديث إلا فيما ينفعه وينفع الناس، زاهداً في الجاه والشهرة والظهور.

مرضه ووفاته:

ولم يزل على ذلك حتى انحرفت صحته في الزمن الأخير، وأصيب بضغط الدم وأمراض القلب، حتى وافاه الأجل المحتوم في ٢١ من ذي القعدة ١٣٨٠هـ (١٧ من مايو ١٩٦١م)، وخلف وراءه ولده الوحيد الأستاذ محمد الحسني منشئ مجلة «البعث الإسلامي» بارك الله في حياته[1] وأخاً

---

(١) استأثرت به رحمه الله تعالى في ١٧ من رجب ١٣٩٩هـ، الموافق (١٢/٦/١٩٧٩م) وهو في الرابعة والأربعين من عمره، وقد نبغ واشتهر ككاتب إسلامي مرموق بالعربية، وأنشأ مجلة «البعث الإسلامي» ورأسها مدّة حياته، وتنظر ترجمته الوافية في مقدمة «الإسلام الممتحن» للأستاذ محمد الحسني بقلم عمّه السيد أبي الحسن الندوي.

أصغر هو كاتب هذه السطور[١]، وأختين وخمس بنات، وصلّى عليه جمْعٌ حاشد يبلغ الآلاف. ونُقل جثمانه إلى وطنه «رائي بريلي»، حيث دُفن بجوار أبيه العظيم وأجداده المشايخ الكبار، والعلماء الأبرار، ورَثَتْهُ الجرائد والمجلات والأوساط الدينية والعلمية، وانهالت رسائل التعازي إلى أخيه الأصغر من جميع أنحاء الهند ومن الخارج، وكلها إعجاب واعتراف بشخصيته الفذة الجامعة وثناءٌ على ديانته وإخلاصه واستقامته[٢].

مثالٌ نادرٌ للمصلحين:

لقد كان الفقيد رحمه الله مثالاً نادراً لما تخيّله المصلحون في الشرق وما تمنوه، وما قامت عليه دعوة ندوة العلماء من الجمع بين القديم والجديد والدين والدنيا، ورسوخ في العقيدة، واستقامة في الدين، وتضلُّع من العلوم القديمة والحديثة، وسَعَة في آفاق العلم والثقافة، وتصلُّب في المبادئ والغايات، وتوسُّع في الوسائل والآلات، واقتباس العلوم النافعة وأخذ بالحديث الأحدث من المعلومات والاكتشافات.

وقد اجتمع فيه حبُّ الواقعية وعدمُ التعصُّب الذي اتَّسمت به العلوم التجريبيَّة الحديثة، والإتقان والتعمُّق اللذان امتاز بهما نظام التعليم القديم.

انتقل إليه من الجيل القديم ومن آبائه وشيوخه حبُّ اتباع السنة، والاستقامة في الحياة، ومن العصر الجديد الذي نشأ فيه روح البحث والاستطلاع، وحب الاختبار والتجربة.

---

(١) توفي الأستاذ الداعية الحكيم الشيخ أبو الحسن الندوي بعد فجر يوم الجمعة ٢٣ رمضان ١٤٢٠ رحمه الله تعالى.

(٢) حضارة الإسلام التي تُقدِّر في الفقيد العظيم مناقبه الفاضلة وعلمه وإخلاصه تتقدم للأستاذ الكبير السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ وهو من تعتزُّ المجلة أن يكون أحد أركان أسرتها الكبيرة ـ بخالص العزاء سائلة الله تعالى أن يُعظم له الأجر وأن يُسبغ على الفقيد الرحمة والرضوان (الحضارة).

وأشهد أنني لم أر فيمن رأيت وعرفت من الشخصيات الكبيرة مثله في التوسُّط بين الجمود والتجدُّد، والاقتصاد والسّداد، بين القديم والجديد.

ولقد رزقه الله سبحانه وتعالى فطرة سليمة بعيدة عن الإفراط والتفريط، وعن التطرُّف والتزمُّت، وقد كان مُتقشّفاً في حياته الشخصية، زاهداً إلى حدٍّ يستدعي العَجَب، ولكنه كان واسعَ النظر، رَحْب الصدر في العلم، والدراسة، وفي الثقافة وفي أفكاره الإصلاحيّة والتعليميّة.

كان عَجَباً في بَساطة معيشته، واتّباع السنة في أحواله الشخصيّة، والبُعْد عن الإسراف، وعن تقليد العادات الهندية في المعاشرة والاجتماع وتزويج البنين والبنات، وبالعكس من ذلك كان مُستعداً لأن يقبل كل جديد مفيد، وكل رأيٍ سديد في العلم والأدب، وفي نظام التعليم ومناهج الدراسة، وفي الاجتماع والسياسة، ولم تكن أفكاره ونظرياته آراءاً سانحة ونظريات مرتجلة تخضع للحوادث المحلية والموقتة، لذلك لم يضطر إلى تغييرها ونسخها شأن كبير من معاصريه، ولم يكن ليتوب عما انتحله من الآراء ودان به من مذاهب وأفكار، كما يفعل كثير من «المفكرين» المتهوِّرين المتحمِّسين.

صلته بالشيخ حسين أحمد المدني:

وقد كان جاداً في كلّ أعماله، مُتقناً لكلّ ما درسه من القديم والجديد، إماماً في مسجد الحيّ، عالماً فقيه النفس، قد بايع العالم الربّاني الجليل مولانا حسين أحمد المدني واختصّ به، وكان بيته مقراً للشيخ كلما مرَّ بلكهنؤ، أو أقام بها مدّة، وقد كان من خاصّة أصحابه، يحبُّه الشيخ ويستأثر به.

وكان يتمتّع بثقافة واسعة واحترام عام، وكانت شخصيته غير منازع فيها، فإذا انعقدت حفلة ذات خطر، وأراد القائمون عليها أن يَتَفَادَوْا الخلاف اختاروه رئيساً لها، ووافق على ذلك الحاضرون من غير اختلاف.

صلته بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

وكان محبَّباً كبير المنزلة عند المشايخ الكبار المخلصين من عباد الله، وكانت له صلة خاصة بالداعية الكبير مولانا محمد زكريا الكاندهلوي منشئ جماعة التبليغ المشهورة، يحبّه ويثني عليه ويحتفي به.

وكان متنوّع الثقافة، مُتخرّجاً في أرقى الجامعات الدينية والمدنية، طبيباً في القديم وفي أحدث النظم الطبية العصرية، فكان بذلك كله مَجمعاً علمياً دينياً في شخصه وثقافته.

وكان من أبرز مزاياه وسماته: حميَّته الإسلامية، واهتمامه بأمور المسلمين، وشدَّة التعلق بالعالم الإسلامي، كأنه كان عاملاً بالحديث النبوي المعروف: «مَنْ لم يهتَمَّ بأمر المسلمين فليس منهم»[1].

وكان شديدَ العطف على قضايا العالم الإسلامي كلِّها، ومُقدِّراً للجهاد أينما كان، حريصاً على المساهمة فيه، شارك في جهاد فلسطين بتبرُّعاته وتبرُّعات أسرته، وكذلك في جهاد الجزائر، فقد جَمَع التبرُّعات من أعضاء أسرته وأولاده وأرسلها إلى مُمَثِّل حكومتها الموقتة في الهند.

تعلُّقه بالحجاز وشدّة تعظيمه للنبيِّ ﷺ وأصحابه وأهل بيته:

وكان شديد التعلُّق بجزيرة العرب والحجاز والحرمين الشريفين بصفة خاصة، عميق الحب، شديد التعظيم للنبيِّ ﷺ وأصحابه وأهل بيته.

حبه للعرب:

وكان شديد الحب للعرب، يسوؤه ويؤلمه ذمُّهم وانتقاصُ حقِّهم وفضلهم، وقد كان مرهفَ الحس في ذلك، وكنا نعرف ذلك في وجهه، مُحباً للشعوب الإسلامية كلها، شديد الكراهة لدولة إسرائيل، وكان لا يُخفي

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» في الرقائق من حديث حذيفة (٧٨٨٩)، ومن حديث ابن مسعود (٧٩٠٢). وهو حديث ضعيف جداً.

استياءه وامتعاضه من ذلك، قدّم له أحد أعضاء الأسرة مجلة «إسرائيل» الإنجليزية، لحبه الاطلاع على شؤون العالم، فتغيّر لونه، وظهرت الكراهة في وجهه وقال: ما لي ولهذه المجلة؟

اطّلاعه على شؤون العالم الإسلامي:

كان واسع الاطّلاع على شؤون العالم الإسلامي، يُعتبر دائرة معارف في هذا الموضوع، وكان مرجعاً لنا جميعاً في هذا الشأن، خبيراً بجغرافية جزيرة العرب، ألّف كتاباً بالعربية في هذا الموضوع في شبابه، وكان يترقّب الفرص لإتمامه والزيادة فيه، ولم تُمهله أشغاله ومسؤولياته.

وقد كان مُتتبّعاً لما يحدث في العالم العربي، وقد بدأ يطالع الصحف العربية والجرائد التي تصدر من عواصم العالم العربي في الزمن الذي لم يكن هذا شائعاً في الهند، فكان من قراء صحيفة «الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب، و«فتى العرب» الدمشقية، و«الجامعة الإسلامية» الفلسطينية، في أيام لم يكن يعرفها كثير من علماء الهند، ولم يزل متّصلاً بالعالم العربي، مُطّلعاً على صُحفه وجرائده إلى آخر أيام حياته، يقرأ ما يصدر من المراكز الثقافية في الشرق العربي من المجلات الإسلامية الرفيعة، والصُحُف السيّارة، ولم ينقطع عن الركب الثقافي مع اعتزاله وشدة اشتغاله بشؤون الحياة.

عنايته بالحديث النبوي الشريف:

وكان كبير الاعتناء، عظيم التقدير للحديث النبويّ الشريف، يرى أنه يملأ فراغاً في الحياة الدينية لا يملؤه غيره، وأنّ من عاش بعيداً عنه عاش في إفراط وتفريط، وأخطأ فهم الدين.

وكان له شَغفٌ واهتمام بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الجليل العلامة ابن قيم الجوزية، وكان كثير المطالعة لـ «زاد المعاد»، حَسَن الاعتقاد، شديد الإجلال لمُصلحي الهند المُجدّدين، كالإمام الربّاني الشيخ أحمد السَرْهندي، وشيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم ولي الله الدهلوي،

والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وخاصَّة الأخير الذي كان له معه صلة القرابة والنسب، وكان شديد الإعجاب به، يعتقد أنَّ شخصيَّته ودعوته من أشبه الشخصيَّات والدعوات بالمنهاج النبويِّ في القرون الأخيرة، وهو الذي حثَّني على تأليف سيرته وترجمة حياته، ووفقني الله لذلك.

عنايته باللغة العربية ونشرها وتعليمها:

وكان شديد العناية باللغة العربية ونشرها وتعليمها في الهند، وكان له سعيٌ مشكور في تغيير منهاج دراستها في دار العلوم، والاستفادة من الأساتذة العرب، وتهيئة الأسباب لأستاذنا العلامة تقي الدين الهلالي المراكشي، وشقيقه الأستاذ محمد العربي، وغيره من الأساتذة الذين تذوَّقوا اللغة، وتشجيعهم في تعليمهم اللغة العربية على الطريقة الصحيحة الموافقة للطبيعة.

أثره في أخيه السيد أبي الحسن:

أما فيما يخصُّني ويتَّصل بي، فقد نشأتُ في حضانته وتحت إشرافه، فقد مات والدي رحمه الله وأنا في التاسعة من عمري، وقد كفلني كفالة الآباء للأبناء، قد كان - رحمه الله وكافأه أفضل مكافأة - عطوفاً رؤوفاً مُربياً حكيماً من أفضل مَنْ عرفت من المُربِّين، وهو الذي رَسَم لي خطة التعليم والثقافة، اتَّبعتها طول حياتي، وطبعني على حُبِّ الاقتصاد والسَّداد والاتِّزان والاعتدال، والجَمْع بين القديم الصَّالح والجديد النافع، وعلى حُبِّ السلف وإجلال السنَّة، وعدم الإفراط والتفريط، وهو الذي هيَّأ الله لي عن طريقه وسائل التعلم والدراسة، وما كتب لي من خدمة العلم والدين والانقطاع إليهما والتفرُّغ من الهموم وتكاليف الحياة.

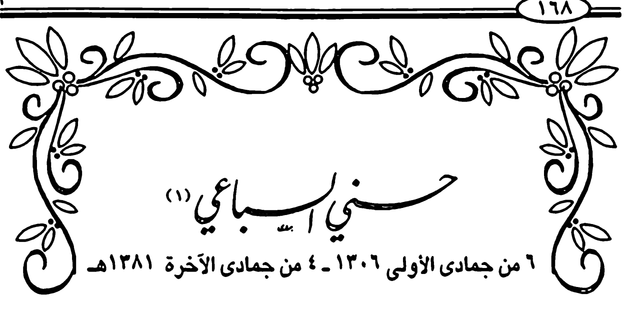
أثر مجالسه الرزينة وتوجيهاته الحكيمة:

وقد كانت مجالسه الرزينة، وتوجيهاته الحكيمة، وتعليقاته الهادئة أنفع لي من مائة كتاب، وقد كان لها فَضْل في فهم فضل تعاليم الإسلام

والحضارة التي تؤسّسها هذه التعاليم، والاطّلاع على مواضع الضعف في الحضارة الغربية وزَيْغ أساسها.

وإذا كان في ثقافتي وما وفَّقني الله له من الدراسة والتأليف والدعوة والتوجيه شيءٌ يستحق الذكر، فالفضل في كلّ ذلك يرجع إليه بحَوْل الله، وبذلك تعظم خسارتي بموته، وحزني على فقده، وألمي بمصابه، ومع ذلك نحتسبه عند الله، ونعتزُّ بهذه الحياة السعيدة التي انقضت في خدمة العلم والدين وصالح المسلمين، ونرجو له من الله المغفرة والرضوان، ولنا الأجر والمثوبة، ومن الإخوان والمحبين في الله صالح الدعوات له ولأسرته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

□□□□□



حسني السباعي(١)

٦ من جمادى الأولى ١٣٠٦ ـ ٤ من جمادى الآخرة ١٣٨١هـ

بقلم ابنه: مصطفى السباعي



ليس في رثاء الابن لأبيه شيءٌ جديد، فقديماً رثى الأبناء آباءهم، وتحدَّثوا عن فضائلهم بعد أن أصبحوا في ذمَّة الله، وأصبحت سيرتهم في يد التاريخ، ومَنْ منا لا يذكر رثاء عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لأبيها الصديق رضي الله عنه إثر وفاته، ذلك الرثاء الذي يمثِّل الوفاء الحزين في حرارة الإيمان وإشراق البيان وصدق اللسان.

ومن حقِّ أبي يرحمه الله وقد فارق الدنيا أن أتحدَّث عن بعض ما أعرف عنه، مما يضيف إلى مآثر التربية الإسلامية مآثر جديدة، عسى أن ينتفع بها أب مسؤول أو ابن مأمول.

---

(١) حضارة الإسلام، العددان السادس والسابع، السنة الثانية: (١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م).

عرفت في أبي رحمه الله خصالاً كثيرة، كان لها أكبر الأثر في حياتي واتجاهي الفكري والاجتماعي، اقتصر منها الآن على أربع:

سليل بيت علمي:

١ ـ فقد كان يرحمه الله سليل بيت علمي منذ مئات السنين، وكان أبوه وأجداده يتولّون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل، وكانت له مع لفيف من فقهاء حمص مجالس علميّة، أذكر منهم الشيوخ الأساتذة: طاهر الرئيس، سعيد الملوحي، فائق الأتاسي، راغب الوفائي، محمد البني، ولم يبق منهم الآن على قيد الحياة ـ يرحمهم الله ـ إلا أستاذنا الجليل الشيخ طاهر الرئيس، بارك الله في حياته وجزاه عن العلم والدين خير الجزاء[1]، كانوا يتدارسون الفقه، ويتناقشون في أدلة مسائله، وكان فيهم الحنفي وفيهم الشافعي، وكان أبي رحمه الله يُحضرني معه هذه الحلقات على صغر سنّي ممّا حَبّب إليّ هذه الأجواء، حتى إذا تهيأت للدراسة العلمية وجّهني إلى دراسة علوم الشريعة، وبخاصّة دراسة الفقه المقارن ومسالك الأئمة في اجتهادهم.

قوة شكيمته ومساندته للحركات الوطنية:

٢ ـ وكان ـ يرحمه الله ـ قويّ الشكيمة مع أعداء البلاد، مسارعاً إلى الجهاد حين يدعوه الداعي وتُمكّنه الفتوة والشباب من ذلك، مؤيّداً للحركات الوطنية قولاً وعملاً، ولا أزال أذكر وأنا ابن ست سنين كيف رأيته مع أكثر علماء حمص وهو أصغرهم سناً، يطوفون في شوارع المدينة وأسواقها، وقد تمنطقوا بأحزمة الرصاص، وبأيديهم البنادق، يمشون على مهل صفوفاً منتظمة مُكبّرين مُهلّلين، داعين الشعب إلى مقاومة الفرنسيين حين اقتربوا من حمص عند احتلالهم لسورية، وقد تقدّمهم الشيخ عبدالغفار عيون السود،

---

(١) هو العلامة محمد طاهر بن عثمان الرئيس الشافعي، المولود سنة ١٣٥٥، والمتوفى سنة ١٣٩٥ رحمه الله تعالى.

ولا تزال ذاكرتي تحفظ منهم: الشيخ أحمد صافي، والشيخ عبدالقادر الخوجة، والشيخ نجم الدين الأتاسي، وخال والدي الشيخ بدوي السباعي، والشيخ جمال الدين الجمالي، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته. فاستجاب الناس إلى دعوتهم للجهاد، واشتروا السلاح والذخيرة، واستعدوا لمقاتلة الجيش الفرنسي الذي كان قادماً من طريق طرابلس، ولا أزال أذكر تلك الليلة التي غاب فيها أبي عن البيت ليخرج مع المجاهدين، وكيف سهرنا الليل كله مع أخي نسمع أزيز الرصاص وطلقات المدافع، وأمي تضمُّني وأخي إلى صدرها وهي تدعو الله أن ينصر المجاهدين.

تعاونه مع المجاهدين في الثورة السورية بحمص:

ولمَّا نَشَبَت الثورة السورية في حمص عام ١٩٢٧م، كان والدي رحمه الله يجتمع بكثير من الثوّار سراً في بعض البيوت ليُسلِّمهم ما جمع لهم من إعانات مع بعض إخوانه، وكان يرسل معي إلى بعضهم جريدة «المقطم» التي كانت تنشر أنباء معارك الثورة بالتفصيل، وكان الفرنسيون قد منعوا دخولها، ولما قتل الثوار محافظ حمص حينذاك اشتدت حملة الفرنسيين عليهم، فلجأوا إلى البساتين المنتشرة على جانبي نهر العاصي بالقرب من حمص، وأذكر أنه صلّى بهم مرة صلاة المغرب، وكان من بينهم المجاهدان البطلان: نظير النشيواتي رحمه الله، ومحمد خيرو الشهلا متَّعه الله بالصحة والقوة.

امتناعه عن حضور صلاة عيد الفطر تضامناً مع الثوار:

ولما قرَّر أهل حمص الإضراب عن صلاة عيد الفطر في الجامع الكبير تضامناً مع الثوار الأبطال ـ وقد كان من عادة الفرنسيين أن يحضروا الصلاة والخطبة في الجامع الكبير بموكبٍ رسمي ـ وكان أبي هو الخطيب في ذلك العيد، فصمَّم على ألا يحضر يومئذ للخطبة والصلاة برغم نصح الناصحين له بأن يحضر خوفاً من إيذاء الفرنسيين له، وقد كانت حمص كلها منطقة عسكرية، فرضت عليها الأحكام العرفية، وامتلأت سجونها بالشباب

الأحرار، وأتى المستشار الفرنسي وأعوانه بموكبهم الرسمي، فوجدوا الجامع مُغلقاً ليس فيه أحد، وكانت مفاجأة مُذهلة وصفعة أليمة لهم، إذ لم يعلموا بها لقلة الجواسيس في عهدهم بحيث كان الناس يعرفونهم بأسمائهم وأعيانهم ويُحاذرون الاجتماع بهم، فلم يصل إلى الفرنسيين نبأ قرار الإضراب عن حضور صلاة العيد في الجامع، ثم سأل المستشار عن أبي بصفته خطيب العيد؟ فقيل له: إنه لم يحضر، فاسْتَشاط المستشار غضباً، وهمَّ بالقبض على أبي وسجنه، ولكن بعض وجهاء حمص ثنوه عن ذلك لما يثيره في الناس من ازدياد نقمة الشعب على الفرنسيين، فاكتفى بتأليف لجنة للتحقيق معه، ورفعت تقريرها للمستشار فأمر بإيقافه عن الخطابة في الجامع الكبير سنة كاملة، وهكذا كانت كل مواقفه الوطنية رحمه الله.

محبّته للخير وإسهامه في تأسيس الجمعيات الخيرية:

٣ ـ وكان محباً للخير والإسهام في تأسيس الجمعيات الخيرية، فهو أحد مؤسّسي الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأت بعد ذلك الميتم الإسلامي بحمص، وكان يقف هو وعدد من إخوانه على باب الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع ليجمعوا من المصلين تبرعاتهم للميتم الإسلامي.

وقد اصْطَحَبني معه مرةً في جولة إلى قرى حمص إبان الموسم الزراعي الصيفي مع بعض من إخوانه أذكر منهم المرحومين: الشيخ عبدالفتاح الدروبي والحاج محمود الطرشة، فكانوا ينتقلون من قرية إلى قرية يطلبون من أصحاب الأراضي التبرُّع للميتم الإسلامي بشيء من محصولهم، ويطلبون إليهم إرسال ما يتبرّعون به إلى الميتم الإسلامي رأساً، وأذكر أنهم سجلوا من التبرعات في يوم واحد ما يزيد على مائة وعشرين قنطاراً من الحنطة (٣٦٠٠ كيلوغرام تقريباً).

ولما حصل الإضراب العام ضد الفرنسيين في سورية عام ١٩٣٦م، واستمرّ ستين أو سبعين يوماً، أصابت العمال منها ضائقة شديدة، فألف لجنة من إخوانه لجمع التبرعات لهم، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة: الشيخ

عبدالفتاح الجمالي، والحاج صادق البني، والحاج عبدالكريم مراد، رحمهم الله، ومنهم السيد الحاج خوري شمسي باشا بارك الله فيه، وقد طافوا على التجار في الأسواق فجمعوا من الأقمشة آلاف الأمتار، ومن الرز والسمن مقادير كبيرة وُزّعت كلها على العمال المتضررين.

محبته لدعوة الإصلاح:

٤ ـ وكان رحمه الله يُحبُّ دعوة الإصلاح، ويُشجِّع عليها، وإني لا أذكر في حياتي التي قمتُ فيها بدعوة الإصلاح ـ وقد بدأت ذلك في سنٍّ مبكرة ـ أنه انتهرني مرة أو ثناني عن طريقي، ولقد كان يستقبل سجني واعتقالي بهدوء.

حدثني أخي الشيخ محمد الحامد ـ بارك الله في حياته ـ أنه قابل أبي بعد اعتقالي في مصر في أوائل الحرب العالمية الثانية ونقلي إلى معسكر صرفند في فلسطين ـ وكان أبي لم يعلم بالخبر بعد ـ أنه أخبر والدي بأمر اعتقالي فتبسّم وقال: لا بأس فالسجن للرجال.

منهجه في محاربة بدعة (خميس المشايخ):

ولما قمت بالدعوة إلى إلغاء (خميس المشايخ)[١] في حمص، وكنت لا أزال في عنفوان الشباب لم أجرّب الحياة ولا عرفت نفسيّات الجماهير، وتألبت عليّ العامة، حتى كان بعضهم يبحث عني ليسفك دمي تقرُّباً ـ في زعمه ـ إلى الله بحُجّة أني كافر أريد القضاء على أمجاد الإسلام وهيبته!..

رأى أبي أني لم أتّبع سبيل الحكمة في محاربة هذه البدعة الضارة فقال لي: يا بُني! إنك على حق فيما تدعو إليه، ولكنك كنت عنيفاً في

(١) هو موسم يقع في نيسان من كل عام، كانت تخرج فيه مواكب مشايخ الطريق بطبولهم وأعلامهم، ويقع فيه من المنكرات والشعوذة باسم الدين ما يخجل منه كل مسلم، وكان الفرنسيون يلتقطون بهذا الموسم أفلاماً يعرضونها في أوروبا لتشويه سمعة الشعب السوري عامة والمسلمين خاصة (السباعي).

محاربة هذه البدعة، أتظنُّ أن بدعة مضى عليها أكثر من خمسة قرون تستطيع أن تقضي عليها نهائياً في بضع خطب ومحاضرات تلقيها؟ أشفق على نفسك وحَسْبك أنك نبَّهت الأذهان إلى أضرارها، ولا بد من أن يحدث ذلك أثره في المستقبل القريب.. وكذلك كان..

موقفه من مشاركة ابنه في الجهاد في فلسطين:

ولما قامت معركة فلسطين بعد قرار التقسيم عام ١٩٤٨م، وهبّت سورية مع البلاد العربية للتطوُّع في الحرب إلى جانب إخواننا أبناء فلسطين، كنت قد مررت بحمص عائداً من محافظات الشمال مع نفر من شباب الإخوان المسلمين بأسلحتهم وذخيرتهم، ونحن في طريقنا إلى دمشق فلم أخبر أبي بعزمي على الجهاد في فلسطين مع هؤلاء الشباب المؤمنين لخوفي من أن يحاول صرفي عن الجهاد معهم لما يعلم فيَّ من مرض (ارتفاع ضغط الدم) قد يؤدي ذهابي إلى فلسطين للقتال فيها إلى تفاقمه وخطره على حياتي، واتفق أن أصرَّ أحد أخوتي الصغار على التطوُّع في هذه القافلة فلم يستطع والدي إقناعه بأنه صغير لا يصلح لذلك، وتابعنا سَيْرنا إلى دمشق، وفي اليوم الثاني قرأ والدي في بعض صحف دمشق أني سأذهب على رأس تلك القافلة إلى فلسطين، فحضر إلى دمشق من حمص، وسألني عن صحة الخبر فأجبته بأنه صحيح، ففكر قليلاً ثم قال: ألا ترى أن سفرك يعرض حياتك للخطر دون أن تقاتل فكيف إذا قاتلت؟ قلت له: أنت تعلم يا أبي إن الآجال بيد الله، ولأن يموت الإنسان شهيداً خير من أن يموت مريضاً، فقال: إنني لا أحاول أن أثنيك عن الجهاد، فوالله لو كنت مستطيعاً القتال لكنت أول من يقاتل معكم، ولكنك تعلم أنَّ أخاك صغير، وأمك لا تتحمَّل أن تذهب أنت وأخوك معاً إلى فلسطين لتقاتلا، فهلاّ نصحت أخاك بالعدول عن السفر معكم؟ قلت له: فعلتُ فلم يستمع، فما تمالك أن فاضت من عينيه دمعتان، ثم قال لي: سَلَّمْتكما إلى الله، والله يحفظك وإخوانك المجاهدين، أيّدكم الله وأعانكم، ثم عاد إلى حمص.

يا أبـي!

لقد أمر الله الأبناء أن يبرُّوا آباءهم في حياتهم وبعد مماتهم، وها أنا قد سلَّمت للتاريخ صفحة مطويَّة من حياتك لم أوفك فيها حقَّك، ولا أدَّيتك فيها دَيْنك، وأنا أشهد أنَّ المرض والهرم أسرعا إليك بسببي، ولكني أعلم أنك لم تعمل ما عملت إلا تقرُّباً إلى الله وخدمة للدين وأداء لواجب الأمانة، فماذا يبلغ ثنائي عليك من ثناء الله ورضوانه؟ وماذا ينفعك أدائي لبعض حقِّك بجانب ما أرجو أن يُكرمك الله به من نعيم مقيم في جنات الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

يا أبـي!

لقد شهدتَ فَجرَ حياتي، وشهدتُ غُروبَ حياتك، وشتَّان ما بين المَشْهَدَيْن؟ أنت استقبلتَ بولادتي ثواباً لا ينقطع إن شاء الله، وأنا ودعت بوفاتك براً كنت أستجيب به لأمر الله ما استطعت، وبركة ـ بدعائك ورضاك ـ كنت أستدفع بها المكاره، وأستجلب بها لطف الله في قضائه وقدره، فأين فرحتك بي من حُزني عليك؟ وأين ما انقطع عني من خير مما دام لك من أجر؟ وهل نافعي بعد اليوم أن أذكر فضلك عليّ إذا لم يجمعني الله معك ومع رسوله ﷺ ومع أحبائه وأصفيائه في جنات النعيم؟

يرحمك الله، ويغفر لك، ويرضى عنك، فقد كنت في حياتك على عبوسها وتجهمها راضياً عنه صابراً: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].





الشيخ عبدالقادر الرائي پوري(١)

١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م

للأستاذ سعيد الأعظمي الندوي

فاجعتان عظيمتان:

فُجِعَت بلاد الهند وباكستان على السواء بحادثتين عظيمتين كان لهما أبلغ الأثر في نفس الشعب المسلم، ألا وهما حادثة وفاة المجاهد الكبير **مولانا حفظ الرحمٰن** - رحمه الله - سكرتير جمعية العلماء العام وعضو البرلمان الهندي، ثم فاجعة وفاة العالم الربَّاني الكبير والعارف بالله الشيخ **عبدالقادر الرائي پوري** رحمة الله عليه، الذي كان عَلَماً من أعلام الهند وباكستان، ونادرة من نوادر العالم الإسلامي كله في علم التصوف والمعرفة، والذي أفاد منه عدد جمٌّ من المسلمين في فنِّ التصوف والتزكية والإرشاد، وتاب على يده عالم لا يحصى، وبايعوه على الإسلام والإيمان.

توفي يوم الخميس ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ، الموافق ١٩ آب ١٩٦٢م، بعد أن عانى مرضاً في قلبه مدة ٥ سنوات.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

ليست خسارة هذا الشيخ العبقري خسارة بلاد أو دولة فقط، وإنما هي خسارة العالم الإسلامي بأجمعه، فقد كان الفقيد من أقطاب الفكر والمعرفة، وفي منزلة عليا من الإحسان والإرشاد.

لقد كان للمغفور له أياد بيض نقيّة - لا تُنسى على مرّ العصور - على آلاف من المسلمين في الهند وباكستان الذين استقوا من ينبوعه الثر، واغترفوا من بحر معرفته علم الإحسان، واكتسبوا منه علماً غزيراً في هذا المجال الواسع، والجانب الحيوي الذي لا يستغني عنه إنسان يريد أن يعيش في الدنيا عيشة العز والكرامة، وينال في الآخرة قسطاً وافراً من الراحة ورخاء البال.

أفاد منه الناس مدة طويلة تقارب خمسين عاماً منذ اشتغاله في الإفادة والتزكية والإرشاد، وذلك بعد وفاة مرشده الكبير العالم الربّاني الشهير المغفور له الشيخ عبدالرحيم الرائي پوري الذي عُرف بعلمه الغزير، ونظره العميق في الإحسان والإرشاد، فكان له أتباع ومريدون في أنحاء هذه القارة العظيمة، وكان فقيدنا الشيخ المعروف بالرائي پوري خليفته بعد وفاته، فأدّى حقّ الخلافة، وأثبت أنه كان هو القمين بهذا المنصب العالي والمنزلة الخطيرة.

زاويته العامرة:

كانت له زاوية عامرة في قرية رائي پور من أعمال سهارنپور، يؤمّها كثير من كبار العلماء والمثقفين والزعماء، ويقضون وقتاً طيباً في جواره، ويرجعون بصفقة رابحة من عنده... أما اليوم فقد تولى الإشراف عليها خليفته الشيخ عبدالعزيز، ونرجو الله تعالى أن يجعل جهوده تثمر وتؤتي أكلها كل حين، وهكذا ستبقى تلك المأثرة العظيمة التي خلفها الشيخ الفقيد رحمه الله وراءه، ويستمر نفعها في المسلمين إن شاء الله تعالى.

وممّا يجدر بالذكر أن أستاذنا الكبير السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي وصديقه الشيخ الكبير مولانا محمد منظور النعماني كليهما من كبار تلاميذ الشيخ وخلفائه[1].

□□□□□

(١) أسرة «حضارة الإسلام» إذ تبتهل إلى الله تعالى أن يتغمّده بغفرانه ويسكنه فسيح جنانه توجّه كلمة التعزية إلى هذين الشيخين الكبيرين وجميع خلفائه ومريديه، وتخص برفع هذه الكلمة شقيقيه وابنيه، وتدعو الله سبحانه أن يلهمنا وإياهم الصبر والسلوان.

وفاة مولانا حفظ الرحمٰن السيوهاروي[١]

(١٣١٩ - ١٣٨٢هـ)

(١٩٠١ - ١٩٦٢م)

للأستاذ رئيس احمد

إنَّ الأسبوع الأول من شهر أغسطس كان أعزَّ الأيام من هذه السنة في أمر المسلمين، فإن الاضطرابات الدموية التي لقي المسلمون فيها خسراناً كبيراً من الأموال والنفوس ربما تكون أقل أهمية من وطأة الفاجعة الكبيرة بوفاة مولانا حفظ الرحمٰن السيوهاروي.

مجاهد سياسي:

فأين نجد مفخرة الهند والشخصية الفذّة التي لا تزال تفخر بها عبر القرون كمجاهد سياسي لتحرير البلاد من سيادة العدو الغاشم، وكعامل مجتهد في بناء صرح الوطن وتشييدها، وكمحام مدافع صادق عن الأمة الإسلامية الهندية؟.

وكيف نجد الآن ذلك المجاهد الذي خاض بنفسه في النار والدم حينما كانت «دلهي» بلدة الوحوش والسباع المفترسة سنة ١٩٤٧م، وصار الدم الإنساني أرخص من الماء، وأصبحت حياته أقلَّ قيمة من حياة نملة..

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

إنه لم يبال بنفسه وخرج كمجاهد باسل لا يريد إلا الشهادة يسعى ويحاول لإنقاذ المسلمين من أيدي السباع والنمور، ويبذل كل جهده لنقل المسلمين من أمكنة ذات خطر إلى بيوت مأمونة محفوظة.

كفاحه السياسي:

أحياناً يقابل «غاندي» ويعرض أمامه أحوال المسلمين. وما كانوا فيه من بلايا وصعوبات، وحيناً يقابل «أبو الكلام آزاد» ويذكر أمامه رزايا المسلمين.. والأمر الجدير بالذكر هنا أن «غاندي» لم يكن يحق لأي رجل أن يخبره عن تلك الأحوال إلا مولانا حفظ الرحمٰن.

هذا كفاحه في أول الأمر حين تحرّرت البلاد... ومضت سنوات وأصبح المسلمون يتخلّفون عن ركب الحياة وفي ميادين العلم والصناعة والتجارة، وصار أكثرهم يعيشون عيشاً لا رغد فيه، ولم يبق لهم مستوى يليق بحياتهم التي عهدوها من قبل، وأصبحت أحزاب متعصّبة من مواطنيهم لا تسوغها إقامة المسلمين بتلك البلاد التي ورثوها، وقد بنوا فيها تاريخاً مجيداً وتركوا فيها كنوزاً من مفاخر ومآثر.

دفاعه عن حقوق المسلمين:

في تلك الظروف القاسية كان يرفع صوته ويزأر كزئير الأسد دفاعاً عن المسلمين وإعطاءً لحقوقهم، فأحياناً يخطب في البرلمان، ولا يخاف من حزب الحكومة الذي يسيطر على البرلمان في مطالبة حقوق المسلمين منها ويأتي في خطبته بأحوال المسلمين، ويستعرض استعراضاً صحيحاً ما بلغوا من الهوان والمشكلات، ثم يطالب بالصراحة والجهر بتلك الحقوق فلا يذهب ذلك الصوت سدى ويأتي بأثر عميق نافع لمستقبل المسلمين في الهند.

مطالبته بجعل لغة (اردو) إحدى لغات الهند الأساسية:

وممّا يجدر بالذكر، بل هو كما أظنُّ صفحة رائعة لتاريخ حياته، وصورة شامخة للبطولة والكفاح والحماسة لزعيم أيّ أمة وقائدها، إن لغة

«أردو» التي هي ليست خاصّة بالمسلمين، ولكن فيها أضخم ثرواتهم الدينية وكنوز علومهم وآدابهم، لذلك يعتزُّون بها، ويسعون لرقيْها وتقدُّمها، فقد أصبح يحسُّ بعض الناس الذين ليست عندهم صدور رحبة، ولا عقلية واسعة إنها تختصُّ بالمسلمين فقط، فبدؤوا يَسْعَوْن لإلغائها، ويأتون بعوائق في سبيل رقيها وتقدمها.

والمنشور الذي أذاعته وزارة المعارف للولاية الشمالية، عيُنت فيه ثلاثة لغات للدراسة والتعليم في الجامعات والكليات الرسمية، وكان المنشور مهماً لا تتضح به مكانة لغة «أردو» بين تلك اللغات الثلاث.

فلما علم مولانا حفظ الرحمٰن أن لغة أردو لم تعتن بها وزارة المعارف والمنشور لا يبيِّن مكانتها واضحة، كتب رسالة إلى رئيس الوزراء للولاية الشمالية، وأخرى إلى «جواهر لال نهرو»، وطالب بصراحة وصرامة أن يمنحوا حقها، ولا يعدلوا في هذا الأمر عن الطريق السوي، مع أنه كان في مرضه الذي توفي فيه كانت حالته الصحية سيئة جداً في إحدى المستشفيات بأميركا، ولم تذهب هذه المطالبة سُدى، بل ظهر أثرها كما صرح عنها «جواهر لال نهرو» وجعلها إحدى اللغات الثلاث يستطيع أي طالب أن يختارها مع اللغة الهندية والإنجليزية أو غيرها من لغات الأقطار الأخرى.

إنَّ هذه المكانة الرفيعة التي بلغ بها مولانا حفظ الرحمٰن في قلوب المسلمين جعلتهم يعتمدون عليه ويثقون به، فكلُّ ما كان يُطالب الحكومة ويجهر صوته به كان تعبيراً عما يريد المسلمون، فكانت تعتني به الحكومة وتفكر فيه بقلب مثلوج.

جهاده ضدّ الإنكليز:

وكلُّ ذلك لم يكن حَصَل له إلا لأنه كان مثالاً رائعاً للكفاح في تحرير البلاد والمناضلة ضد الإنجليز، فكان يقول بكل إيمان وثقة: «إن الإنجليز سَيُضْطرون إلى رفع السيطرة عن الهند، وسيفوز الجهاد في سبيل الحرية

والوطن، فالمسلمون إنْ لم يساهموا في الجهاد فكيف لهم أن يطالبوا بحقوقهم غداً بكل صراحة وصرامة حينما تستقل البلاد»؟!

مآثره السياسيَّة:

وكان قد اختار لنفسه هذا النمط، وسَلَك عليه منذ صِبَاه، فكان يشتغل مُذْ كان طالباً في الأمور السياسيَّة والأعمال العامة، وبعد أن ظهرت حركتا «الخلافة» و«مناديل الحرير»... وهي أن تكتب الرسائل السريَّة على مناديل من حرير أحمر لا تظهر حروفها يتبادلون بها آراءهم، وتكون هي العلامة بينهم، أدى فيهما أعمالاً جليلة مع كبار زعماء الهند ـ ثم انتسب إلى حزب «كانكريس» مع جمعية العلماء، وسعى لتحرير البلاد ـ وله مآثر سياسية لم تنس إذ فوض نيابة الرئيس لحزب «كانكريس» في الولاية الشمالية، وعيِّن عضواً لدار النواب، ثم انتخب عضو البرلمان وألقي عليه عبء الأمانة العامة لجمعية العلماء فواصلها، وأدى ما كان يفرض عليه بكل جدٍّ واجتهاد.

تاسيسه ندوة المصنِّفين بالهند:

إنَّ الكلام الذي جئت به في هذا المقام لاستعراض شخصيته يقدمه أمامكم كرجل السياسة فحسب مع أن الأمر لم يكن كذلك فإنه يتميز ويتفوَّق عن أقرانه بعلومه وما خلَّف من آثار، فالمجمع العلمي المسمَّى بـ«**ندوة المُصَنِّفين**» بدلهي الذي نشر كتباً قيِّمة وله مكانة موقرة بين أصحاب العلم والمعرفة في الهند كل ذلك نتيجة لما بذل له جهده في سبيل تأسيسه ورُقيِّه وتقدُّمه، وكتابه النفيس «**قصص القرآن**» سيظل نوراً للسارين، يستفيد به الطلاب والأساتذة من علوم القرآن ولا ينسون فضله.

شخصيةٌ جامعة:

كانت لمولانا حفظ الرحمٰن شخصية جامعة، فقد كان رجلاً سياسياً في جانب، وعالماً محققاً، ورجلاً متديِّناً بجانب آخر.

ولادته ووفاته:

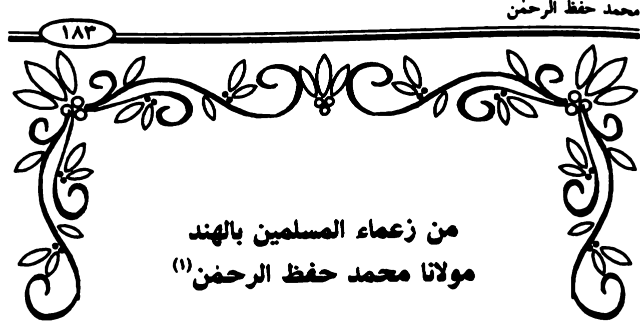
ولد ذلك الرجل العظيم بقرية صغيرة اسمها «سيوهاره» في أعمال «بجنور» بالمقاطعة الشمالية في العاشر من يناير سنة ١٩٠١م، وتوفي إلى رحمة الله في الثاني من أغسطس سنة ١٩٦٢م، ودُفن بدلهي بجانب ضريح شاه ولي الله الدهلوي.

مرضه وسفره للتداوي:

وكان أُصيب قبل وفاته بعدة شهور بالسرطان الرئوي، اضطره أن يسافر إلى أمريكا للتداوي، وعاد إلى الهند قبل أسبوع من وفاته، ولم يبق فيه إلا أثر الضعف، حتى فُوجئنا بخبر وفاته، فإن أسماعنا التي تلقَّت خبر عودته وسلامته من مرضه ببهجة وسرور كان يقرعها صباح أغسطس الثاني نبأ وفاته فنحن قرحى القلوب، جرحى العواطف، طيَّب الله ثراه، وجعل الجنة مثواه، وجزاه بأحسن ما يجزي عباده الصالحين[1].



(١) عن صحيفة الرائد الهندية.



من زعماء المسلمين بالهند
مولانا محمد حفظ الرحمٰن(١)

للأستاذ عبدالمنعم النمر

كان آخر لقاء لي معه في دار جمعية العلماء بدهلي وهو يحمل معه ملفاً ويتأهّب للذهاب إلى البرلمان، وسألته: إلى أين وصلت قضية اللغة الأوردية وتقريرها لغة رسمية ثانية؟ فقال: إنني ذاهب الآن إلى اجتماع لنكمل البحث في هذا الموضوع، وودّعته وأنا أتمنى له النجاح في مهمته وفي كل المهامّ العظيمة التي يُحمّله المسلمون عبئها.

ودّعته ولم تغب عني صورته بجسمه الذي يُغالب المرض، وتبدو عليه ملامح الإرهاق من كثرة العمل، وبشيبته المرسلة وقامته المنصوبة تتحدى المرض والضعف والإرهاق، وكنت كلما تذكرته أشفقت عليه وأشفقت على مصالح المسلمين التي يتحمّلها وينوء بحملها ولا يرحم نفسه في سبيل العمل على تحقيقها بعد أن تجمّعت عليه آمال المسلمين، واتّجهت أنظارهم إليه بعد وفاة شيخ الإسلام مولانا حسين أحمد مدني، ومولانا أبي الكلام أزاد، وكان ركناً عظيماً للمسلمين في الوزارة الهندية.

(١) مجلة الأزهر، العدد الرابع، السنة الرابعة والثلاثون: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م).

ولادته ودراسته وجهاده:

ولد مولانا حفظ الرحمٰن سنة ١٩٠١م. في بلدة (سهورا) بشمال الهند وتلقَّى علومه في دار العلوم (ديوبند) أكبر مدرسة دينية عربية في الهند وتخرج فيها.. وناداه الوطن ليشترك مع المجاهدين من أجل تحريره فلبّى نداءه وتحمَّل نصيبه في عبء الجهاد حتى وصل إلى الصفوف الأولى للمجاهدين، حيث صار عضواً لحزب المؤتمر الهندي سنة ١٩٣٦، وسيق إلى السجون عدة مرات، كان آخرها أثناء الحرب العالمية الثانية مع مولانا أزاد ونهرو وغيرهما من زعماء الهند الذين زجُت بهم حكومة الهند في السجن من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٤م، حيث أطلق سراحهم وبدأ الإنجليز يفاوضونهم للجلاء عن الهند.

السكرتير العام لجمعية علماء الهند:

وكان مولانا حفظ الرحمٰن يشغل منصب السكرتير العام لجمعية علماء الهند، ويمثّل العنصر الحيوي المتحرّك في كل نشاط لها.. عرفه أهل الهند جميعاً - المسلمون والهندوس والسيخ - بجهاده وإخلاصه لقضية حرية الهند ووحدتها فأجلّه الجميع وهابوه، حتى كان يلقي بنفسه وسط المعارك الدامية التي كان يشنُّها الهندوس والسيخ على المسلمين عند التقسيم، ويعملون فيهم التقتيل والتذبيح فلا يجرؤ هندوسي أو سيخي على أن يمسّه بسوء.. ويكون لمواقفه الجريئة هذه أثرها في تخفيف حدة هذه الاعتداءات المتوالية على المسلمين.

حرصه على بقاء المسلمين في الهند:

كان رأيه - كرأي جمعية علماء الهند - ضد التقسيم وضد قيام باكستان، كان يرى أن تبقى الهند كلها دولة واحدة تضمُّ المسلمين والهندوس وغيرهما، ويعمل مع ذلك على تقرير حقوق المسلمين كاملة في الوطن الهندي الكبير، فلما تمَّ التقسيم عمل على أن يبقى المسلمون في الهند في دورهم ومتاجرهم ومزارعهم ومناصبهم فلا يتركوها إلى باكستان

حتى يظل المسلمون عدداً كبيراً وأقلية كبيرة لها صوتها، وحتى يظلوا حزاساً لمساجدهم ومدارسهم وآثارهم الإسلامية التي تملأ الهند وتعدُّ مثار فخر لها بين العالمين.. وحتى يحُولوا دون تحويل هذه المساجد الفخمة إلى معابد هندوسية، واندثار هذه المدارس الدينية وزوال الثقافة الإسلامية من ربوع الهند.

عضويته في البرلمان المركزي:

انتُخب عضواً في البرلمان المركزي منذ إنشائه عن دائرة «مراد أباد» وكان حزب المؤتمر يترك له دائرته فلا يرشح فيها أحداً تقديراً لخدماته ومواقفه الوطنية، ومع ذلك كان ينازله بعض الهندوس والمسلمين في دائرته فيتغلب عليهم بآلاف الأصوات بالرُّغم من أن أكثرية الدائرة من الهندوس...

معركة التجديد في مناهج دار العلوم:

كان يمتاز بعقلية إسلامية متنوِّرة متحرِّرة من التقليد والحرص على القديم لأنه قديم كما يفعل كثير من علماء الهند..

حينما وصلت إلى دار العلوم - ديوبند.. ووقفت على مناهجها وطرق التدريس فيها أحسست أن فيها نقصاً كبيراً وتحتاج إلى تعديل وإدخال بعض المواد الجديدة التي لا غنى عنها لطالب العلم في هذا الزمان.. وبدأت أتحسَّس آراء القائمين على الدار والمدرسين فيها، فوجدت في الكثير منهم جموداً على هذا المنهج الذي ظلَّت الدار عليه نحو ستين سنة وأكثر، وتقتدي بها كل المدارس الدينية في الهند، فلجأت إلى مولانا حفظ الرحمٰن وكان عضواً بارزاً في المجلس الأعلى للدار، وحدثته في هذا الأمر، فوجدتُ عنده تجاوباً كاملاً، وكان هو والأستاذ أبو الحسن الندوي عضو المجلس كذلك.. يقودان معي حركة التجديد في البرامج. وإن شئت فقل: معركة التجديد؛ لأنها كانت معركة فعلاً بين القديم والجديد. حتى قال لي الأستاذ أبو الحسن: إذا نجحت في هذه الحركة فسيكون لها أثرها القوي في

اتّجاه التعليم في المدارس الدينية في كل أنحاء الهند، وسيكون تطوراً لم تشهده هذه المدارس منذ ستين أو سبعين عاماً، واستطعنا بعد جهاد سنتين أن نظفر بالتعديل، وطلبت الدار الكتب الخاصّة بالمواد الجديدة من الأزهر والمؤتمر الإسلامي وللأسف لم تصل لها هذه الكتب للآن...

حماسه لمصالح المسلمين وقضاياهم:

كان خطيباً من الطراز الأول باللغة الأوردية، يشترك في كلّ اجتماع أو حقل إسلامي في أيّ بلد من بلاد الهند على سعتها، ولذلك لم تكن دهلي - مقره - تحظى بوجوده كثيراً فيها.

كان برغم تقدُّم سنه يطغى عليه الحماس لمصالح المسلمين وقضاياهم داخل الهند وخارجها..

أقامت جمعية العلماء مؤتمرها الإسلامي السنوي في أكتوبر سنة ١٩٥٦ في مدينة «سورت» شمالي بومباي، وكنت أمثل الأزهر في هذا الاجتماع، وحضره الأستاذ أمين الخولي، والدكتور محمد عبدالله العربي مندوبين عن المؤتمر الإسلامي.. وأثناء إلقاء كلمتي أخذ الحماس جموع الحاضرين، وأخذوا يهتفون من كل ناحية لمصر والهند ولناصر ونهرو، فتقدَّم هو من الميكروفون في حماس ظاهر وقَّاد، وحينما ألقى كلمته كانت تفيض بالحماس لمصر ولتأميم القناة وتنفجُر بالنقمة على المستعمرين.

وبعد أن وقع العدوان على مصر تحدثت معه فيما يحسن بمسلمي الهند أن يفعلوه تجاه الضحايا من إخوانهم في بور سعيد، فاستجاب سريعاً وعمل على أن يصدر مدير الجمعية وشيخ الإسلام مولانا حسين مدني نداء لأهل الهند مسلمين وغيرهم يهيب بهم أن يناصروا إخوانهم في مصر، ويمدوا لهم يد المعونة في محنتهم. وقامت فروع الجمعية في كل مكان بجمع التبرعات التي تولى السفير المصري الدكتور مصطفى كامل في ذلك الوقت من إرسالها للقاهرة...

قضاء مصالح الناس:

وكنت كلما ذهبت لدار جمعية العلماء ووجدتُ مولانا حفظ الرحمٰن وجدت حوله كثيراً من أصحاب المصالح من المسلمين والهندوس يطلبون منه أن يتوسط لقضاء مصالحهم ورعايتها، وكان لا يرد أحداً بل يمنح الجميع من بره وعطفه ومساعدته ما يستطيع بل وفوق ما يستطيع جسمه الضعيف.

مؤلفاته باللغة الأوردية وإتقانه للغة الإنجليزية:

وبالرغم من كل هذه المشاغل التي كانت تُحيط به فإنه لم ينس واجبه العلمي الديني إذ كان يقتطع من وقته ما يفرغ فيه للكتب، ويعكف على التأليف، فأخرج عدة مؤلفات قيمة باللغة الأوردية منها: «قصص القرآن»، «الأخلاق وفلسفتها»، «النظام الاقتصادي في الإسلام». وكان مع ثقافته الدينية متقناً كذلك للغة الإنجليزية على غير عادة العلماء في الهند.

لقد كان أُمّةً في جهاده وعلمه وبرّه بدينه ووطنه وإخوانه، حتى خلع عليه مواطنوه لقب **«مجاهد الملة»**.

مرضه ووفاته وجنازته:

ذلكم هو مولانا محمد حفظ الرحمٰن الذي كتب إليّ صديقي الأستاذ محيي الدين الألوائي ينعاه إليّ وإلى المسلمين في كلمة مؤثرة تفيض تقديراً ووفاء للراحل الكريم الذي ظلّ يغالب المرض سنين، وسافر إلى أمريكا في محاولة للقضاء عليه، وعاد وقلوب الذين عرفوه وقدّروه تحيط به وترجو له تمام الشفاء ليظل في مكانه حارساً أميناً، وخادماً مخلصاً للإسلام والمسلمين، ولكنه كان على موعد مع قضاء الله الذي وافاه في الثاني من ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ ـ الثاني من أغسطس سنة ١٩٦٢م، وبكته الملايين الذين عرفوه وقدروا له إخلاصه وجهاده الطويل في سبيل دينه ووطنه.

ومشى خلف جنازته أكثر من خمسين ألفاً، في مقدمتهم «نهرو» وجميع رجال الدولة، جاؤوا من جميع أنحاء الهند ليودعوا الرجل الذي ظلّ طول حياته رمز الإخلاص والجهاد، ويُواروه التراب بجانب ضريح المغفور له شيخ الإسلام مولانا شاه ولي الله الدهلوي صاحب الكتب والمؤلفات العديدة التي نعرّف منها هنا «حجة الله البالغة».

ولقد رثاه «نهرو» في كلمات مؤثّرة، وكان قد زاره الزيارة الأخيرة له قبيل وفاته بساعات قليلة.. وقال عنه: «إنه كان زعيماً ممتازاً من زعماء الحركة الوطنية الذين أخلصوا لبلادهم ولحريتها إخلاصاً لا يرقى إليه شك».

وقال رئيس وزراء مقاطعة «أوتربرديش» بالهند: إن الفقيد قدم لوطنه ومواطنيه أعمالاً مجيدة، ولا سيما في سبيل الوحدة الوطنية، وسيظل التاريخ والوطن يحفظها له بالفضل والشكر.

إنني هنا أتصوّر المسلمين هناك يتلفّتون حولهم ليجدوا مَنْ يملأ فراغ هذا الراحل العظيم فيطول تلفّتهم، وعيونهم تفيضُ من الدمع حزناً وقلوبهم تنفطر أسًى وحسرةً.

رحم الله الفقيد، وجزاه خير ما يجزي به المجاهدين المخلصين، ولطف بإخواننا المسلمين في الهند، وهيأ لهم من أمرهم رشداً.



الشيخ أحمد الحارون(١)

(١٣١٥ - ١٣٨٢هـ)

(١٨٩٧ - ١٩٦٣م)

للدكتور مصطفى السباعي

الإسلام نظام وخُلق، ويوم كان المسلمون الأوَّلون يحرصون على تنفيذ نظام الشريعة والتخلُّق بآدابها كانوا من أرقى المجتمعات نظاماً، وأكمل الناس أخلاقاً، ومن أهم أخلاق الإسلام: المحبة، والتسامح، والمراقبة لله، ومحاسبة النفس، والزهد في الدنيا مع العمل لها والتمتع بطيباتها.

ولم يكن السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيه، يفرِّقون بين شطري الإسلام، بل كانوا يحرصون على العلم والعمل، وإقامة نظام الإسلام، والتخلُّق بآدابه، ولم يكن للقسم الأخلاقي والتهذيبي فيه اسمٌ خاص عندهم، ولا أناس مُتخصِّصون فيه، لا يُدلون إلى العلم بسبب، ولا يقيمون وزناً لشرائع الإسلام وأحكامه.

ولما اتَّسعت الحضارة الإسلامية، وآتت ثمارها، أوشكت القلوب أن تشغلها الحضارة وعلومها عن أخلاق الإسلام، فتصدَّى نفرٌ من أجلَّة علمائه يومئذ كالحسن البصري رحمه الله للوعظ والتذكير بالله ومراقبته والترغيب في جنته والترهيب من ناره.

ثم أطلق بعد ذلك على هذا النوع من التذكير والموعظة اسم التصوف، ولم يكن في إطلاقه على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وآدابها ضرر ما، ونشأ

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الخامس، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

في المسلمين أجلّة عظماء يجمعون بين العلم وبين الزهد والتصوف، كالجنيد رحمه الله، فلم يكونوا في زهدهم وتصوفهم خارجين عن حدود الشريعة ولا متجاوزين لأحكامها، ولم يكن التصوف يومئذ يعدو أن يكون تهذيباً للنفس،



العارف بالله الشيخ أحمد الحارون رحمه الله تعالى.

وتنشيطاً للروح، ودعوة إلى مراقبة الله وحُسن المعاملة بين الناس، وكان في هذه الحدود وبهذا المعنى أداة صالحة لتخفيف انغماس الناس في طلب الدنيا وإقبالهم على طيباتها وزينتها، ولتهذيب الأخلاق بما يتفق مع شرائع الإسلام وآدابه.

آفات ثلاث أفسدت صفاء التصوف:

ثم عرض للتصوف آفات ثلاث أفسدت صفاءه، وجعلته أداة من أدواتِ الهدم للمجتمع الإسلامي وللحضارة الإسلامية:

أولها: الأخذ بمفاهيم أعجمية للأخلاق الإسلامية لم يكن يدعو إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولا كان يعرفها صحابته والتابعون، فانقلب الزهد إلى تركٍ للدنيا في الظاهر وتعلُّقٍ بها في الباطن، بعد أن كان صدوفاً عن تعلُّق القلب بمفاتن الدنيا مع الأخذ منها بنصيب وافر، وانقلب التوكل من سعيٍ في الحياة مع الاعتماد في نتيجة هذا السعي على الله جل جلاله إلى أن أصبح كسلاً وتواكلاً وفراراً من العمل والعلم إلى حياة التسوُّل و«الشحاذة»، وهكذا فَسَدت المفاهيم الإسلامية بدخول المفاهيم الأعجمية واعتماد الصوفية عليها.

ثانيها: اعتماد الصوفية على القسم الأخلاقي في الإسلام وإعراضهم عن القسم التشريعي، فغدوا بذلك من أجهل الناس بأحكام الإسلام، وكان كثير منهم يرى أن العناية بهذه الأحكام ـ وقد سموها علم الظاهر ـ يصدُّهم عن علم «الباطن»، فاستُغلَّ هذا أسوأ استغلال من قبل الزنادقة والشعوبيين وأعداء الإسلام، حيث نشروا بين جماهير الصوفية عقائد باطلة يصل بعضها إلى حد الكفر، كالقول بوحدة الوجود، وإسقاط التكاليف الشرعية عمَّن بلغ درجة معينة عندهم.

ونشأ عن ذلك أن جعلوا للتصوف حدوداً ورسوماً وتنظيمات أشبه ما تكون بالتنظيمات الكنسية، وجعلوا الشيخ بمثابة النبيّ، وأحياناً الإلٰه بالنسبة إلى المريد (التلميذ)، حيث حرَّموا عليه أن يشكَّ في كلِّ تصرُّف للشيخ، ولو كان مُخالفاً للشريعة، وأصبح من قواعده عندهم: إذا رأيت الشيخ

متلبّساً بالمعصية فكذّب نظرك، ونزّه شيخك عن أيّ خاطرٍ من خواطر السوء نحوه.

وهذه كهنوتية لا يعرفها الإسلام، ولا يعرفها الصحابة بالنسبة للرسول المعصوم، فقد كانوا يسألونه ويناقشونه، وكان الصحابة ينكر بعضهم على بعض، ويردُّ بعضهم على بعض.

ثالثها: استغلال التصوف للدنيا، واستغلال بعض المشايخ المتصدّين للوعظ والإرشاد باسم التصوف، لجهل مريديهم أو ثقتهم بهم، فأكلوا أموالهم، وأكلوا من أموال الناس والخلفاء والسلاطين، وهم يتظاهرون بالورع ويدعون إلى الزهد، ويتعلّل مشايخهم لذلك، بأنَّ ما يأخذونه من الناس أقل مما يعطونه لهم، فهم يعطونهم هدايةً وإرشاداً يوصلون بهما إلى الجنة فيما يأخذون منهم مالاً يغني، وعرضاً يزول، وقد انطلت هذه الحيلة على كثير من السُذَّج والبسطاء والجاهلين بأحكام الدين.

هذه الآفات الثلاث كانت وحدها كافية لتضلّ الناس عن دين الله كما جاء به رسول ﷺ، ولتعطيل مَلَكات الفهم والنقد بينهم، حتى أصبح من السهل على مريدي أولئك المشايخ المُستغلين اتّهام أي مريد ذكي يتساءل عن أفعال الشيخ، بالكفر والمروق والزندقة، وأقل ما كانوا يقولون عنه: إنه محجوب عن أنوار الحق، غير جدير بالدخول معهم في حظيرة الأُنس التي يوصلهم إليها الشيخ بروحانيته وبركاته.

تخلُّف المجتمع الإسلامي عن ركب الحضارة:

وتبعاً لذلك، ولانتشار التصوف بآفاته الثلاثة في العصور المتأخرة، انهار المجتمعُ الإسلامي، وتخلّف عن مُسايرة ركب الحضارة، فوقع في أنياب المستعمرين الذين كثيراً ما استغلوا أولئك المشايخ الدجّالين لتخدير الجماهير وإقناعهم بالرضوخ للاستعمار، كما يعلم ذلك من تاريخ البلاد الإسلامية في القرنين الأخيرين.

المرشدون الهُداة:

ولكن رحمة الله بعباده تأبى أن ينتشر الضلال والتدجيل باسمه وباسم دينه، فكان في كلِّ عصرٍ يصنع على عينيه رجالاً عظماء يرجعون بالناس إلى شريعة الله، ويعملون على تهذيب النفوس مخلصين لوجه الله لا يريدون جزاءً ولا شكوراً، وبذلك أصبحوا في مجتمعهم جنَّة وارفة الظلال في صحراءَ مُجْدِبةٍ مهلكة، وأعادوا الناس إلى حظيرةِ الحقِّ والخير بعد أن كادوا ييأسون من وجود من يرشدهم إليها.

ولقد أدركنا في صغرنا بعضاً من هؤلاء الهُداة المرشدين، ولكن الله توفَّاهم إلى رحمته قبل أن نستفيد من إرشادهم وروحانيتهم المخلصة النقيَّة.

العارف بالله فقيد الإسلام أحمد الحارون:

وممَّن أدركناهم واستفدنا منهم فائدة نشهدُ بها أمام الله هو: العارف بالله فقيد الإسلام الشيخ أحمد الحارون الحجار الذي اختاره الله لجواره في هذا الشهر[1]، فكانت الفاجعة به أليمة، والخسارة فادحة لنُدرة مثل هذا الطراز من الرجال الذين يُحْيون القلوب، ويُنْعشون الأرواح، ويَلتزمون حدود الشريعة، ويبتعدون عن استغلال التصوف لجمع المال والشهرة.

نشاته الأُميَّة وعمله بقطع الحجارة:

كان شيخنا الحارون رضوان الله عليه في أول أمره أميّاً يشتغل بقطع الأحجار من الجبال ونحتها لتكون صالحة لبناء الدور، وكان أحياناً يعمل من هذه الأحجار أحواضاً للماء توضع في الحمامات في البيوت، وكان من طموح الهمَّة وذكاء البصيرة أن تعلَّم ـ وهو كبير السن ـ مبادىء القراءة والكتابة.

---

(١) توفي الشيخ الحارون ليلة الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٣٨٢، عن ٦٧ سنة رحمه الله تعالى، وولد سنة ١٣١٥.

منار المهتدين:

وكان من قوة الروح بحيث أصبح مناراً للمهتدين، ومُرشداً للضالين، وقد أنقذ بهدايته وروحانيته عدداً من أبناء البيوت المعروفة في دمشق ممَّن كانوا ينغمسون في الترف واللهو، فأصبحوا بعد ذلك من كرام الناس ديناً وأخلاقاً واستقامة، وبذلك أحبُّوه الحبَّ الخالص لله، فلزموا مجالسه، واستفادوا من أخلاقه ومواعظه، واعتبروه الأب الروحي لهم حتى اختاره الله لجواره.

وقد كنتُ أتردَّد عليه قبل مرضي وبعده، وبدأت أمري معه مُختبراً ومراقباً، وانتهيتُ إلى أن أصبحت مُحباً ومُعْجَباً ومُريداً.

تواضعه وزهده وسخاؤه:

كان من أهم ما حبَّبه إليّ تواضعه، وحُسْن خلقه، وتهرُّبه من الشهرة، وزهده في الدنيا مع إقبالها عليه، وسخاؤه الذي لا أعتقد أن له فيه مثيلاً أو قريباً منه، وفهمه للإسلام فهماً صحيحاً صافياً، وإدراكه لمشكلات الحياة التي يحياها المسلمون اليوم.

فهمه الصحيح للإسلام:

قلت له ذات مرة وأنا غارق في القضايا العامة من سياسية ودينية: إنني متألم لحرماني من ساعات فراغ أتهجَّد فيها، أو أخْلو فيها إلى نفسي، أو أقرأ القرآن قراءة تدبُّر وتفهُّم، فكيف السبيل إلى الجَمْع بين التعبُّد وبين العمل السياسي والإصلاحي؟

فأجابني على الفور: وهل يقلُّ أجرُ العمل الذي تقوم به عن أجر العبادة والتهجُّد والخلوة؟ إنَّ ما أنت فيه عبادة من أكثر العبادات ثواباً، فلا تندم على ما أنت عليه.

لم أكن أنتظر من شيخ متصوف مبتعد عن الدنيا وعن الجاه والشهرة، أن يقول لي مثل هذا الجواب، فلما سمعته منه ازددت يقيناً بأنني إزاء رجل

من الهُداة الذين يفهمون الدين حقَّ الفهم، ويفهمون خطورة العمل الذي نؤدِّيه حقَّ الفهم، فازددتُ به إعجاباً، وازددت له حباً وتقديراً.

عطاؤه الروحي والعلمي:

وكنتُ كلما شعرتُ بظمأ روحي إلى كلام الربانيين وهدايتهم أذهب إليه، فأملأ روحي من هدي كلامه، وأملأ عقلي ممَّا أفاض الله عليه في آخر عمره من فهم لمختلف العلوم، بحيث استطاع أن يُصنِّف فيها عشرات المجلدات التي ستظلُّ أبداً ودائماً ناطقة بعظمة هذا الرجل وربَّانيته واستعداده الروحي والعقلي، حتى كان كبار العلماء يعترفون له بذلك، وأذكر منهم على سبيل المثال: المصلح الإسلامي الكبير السيد أبا الحسن الحسني الندوي، فقد اجتمع به أكثر من مرة حين كان يزور دمشق، واطَّلع على بعض مؤلفاته، ونقل منها أشياء، حتى إذا عاد إلى الهند نشر عنه ثلاث مقالات في مجلة «البعث الإسلامي» التي تُصدرها ندوة العلماء في لكهنو باللغة العربية.

ولما مرض شيخنا الحارون مرضه الذي أُصبت بمثله قبله، كنتُ أتردَّد عليه برغم المشقَّة التي تنالني من ذلك، وكنت أراه طريح الفراش يُعاني مثل ما أعاني إلا أنَّ روحه القوية ما كانت تنأى به عن أحاديث العلم في مختلف فروعه، فكان ـ وهو طريح الفراش ـ يناقش ويتكلم ويحضر بعض كتبه لنرى رأينا فيها، مع استمراره على عادته في البشاشة والدعابة التي عُرف بها.

وانقطعت عنه في الفترة الأخيرة لشدَّة المرض عليَّ، وكنت أشعر بأن ابتعادي عنه يحرمني كثيراً من الخير، وكثيراً من العزاء، حتى فوجئت بنعيه إثر مرض جديد أنشب أظفاره فيه رحمه الله.

إنني لأكتب هذه الكلمة وقد كتبت قبلها كلمتين عنه في الصحف اليومية، وأشعر أنني في كلِّ ما كتبت لم أوفهِ حقَّه، ولم أعبِّر عما في نفسي من لوعةٍ لفقده، بعد أن كانت تمتلىء حباً له وإعجاباً وإكباراً.

المثل الصادق لروح الإسلام:

يا شيخ الصالحين الصادقين، ويا مرشد النفوس والأرواح، ويا من كان في حياته مثلاً صادقاً لروح الإسلام، واستمراراً مؤثراً مثمراً لأخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام، يا مَنْ فقدته دمشق وبلاد الشام في وقت هي أشد ما تكون حاجة إليه وإلى هديه وإرشاده.

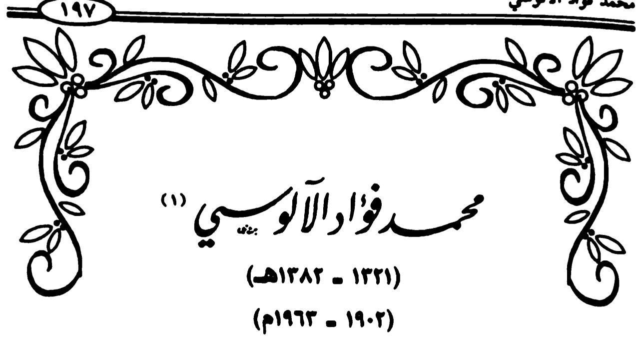
أيها المُربّي الحكيم، والعالم النفسيّ الروحانيّ الكبير، لقد أصبحت - إن شاء الله - في جنّةِ الخلد ترتعُ فيها مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، هنيئاً لك بما تركتَ وراءك من خير، وبما لقيتَ أمامك من ثواب، وعزاءً لنا بما فقدنا فيك من أثرٍ مبارك من آثار النبوة الذي كان يبثُّ الهدى والخير والنور فيما حوله ومَنْ حوله.

يرحمك الله ويسبغ عليك رضوانه، ويجزيك عمّا تركت في نفوس مَنْ عرفوك من طمأنينة تملأ النفوس، ومن هداية تدلُّ على الطريق، ومن موعظة تستولي على العقول، فكنتَ بسيرتك وحياتك مثلاً صادقاً للهداة والمرشدين الذين عزَّ وجودهم مع تطلُّع الناس إليهم..

يا بركة الشام، وروحها الصافية، ونورها المشرق، ومرشدها الصادق الصالح.. رضي الله عنك، لقد أتعبتَ مَنْ وراءك ممَّن يحاولون أن يسلكوا طريق الهداة والمُرشدين..

هيهات! هيهات! إلا أن يكونوا مثلك زهداً وورعاً وعزوفاً عن الدنيا، ورغبةً فيما عند الله.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.





محمد فؤاد الآلوسي (١)

(١٣٢١ - ١٣٨٢هـ)

(١٩٠٢ - ١٩٦٣م)

بقلم الأستاذ: عبدالعزيز البدري(٢)

لقد صدق رسول الله ﷺ حينما قال: «إنَّ الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(٣).

العلماء العاملون:

ومنْ نِعَم الله تعالى على الناس: العُلماء العاملون، لأنَّهم القادة المُصلحون، والأئمة الهادون، بهم تُمْحَق الضلالة من الأفكار والعقول، وتنقشع غيوم الشك من القلوب والنفوس، فيهتدي التائه الضَّال، إلى النور

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

(٢) هو العالم المجاهد الجري، عبدالعزيز بن عبداللطيف البدري، ولد سنة ١٩٣٠، وتوفي شهيداً ١٩٦٩/٦/٢٥، ودفن ببغداد، ينظر: «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري» ص٣٩٤.

(٣) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢)، وابن ماجه (٥٢) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

وإلى الصراط المستقيم، عرف قدرهم الأوّلون، وأدرك منزلتهم الأقدمون، لأنهم كانوا حريصين على الإسلام، وتزاحم على أبوابهم الأمراء والحكام لأنهم آمنوا بقول الرسول الأعظم ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء»(١).

لقد خسرت الأمة الإسلامية شخصية علمية فذّة لها منزلتها السامية، ومكانتها العالية، في نفوس المؤمنين بالإسلام. وفَقَدَ المسلمون عالماً عاملاً جليلاً، تمثّلت به صفات الرجولة الحقّة، في عقليتها المُسْتنيرة، وفكرتها العميقة، ونفسيتها الطاهرة، وسلوكها الطيب المستقيم.

فكانت الخسارة الفادحة والفقد العزيز بموت سماحة شيخنا الجليل العلامة الآلوسي عليه رحمة الله تعالى ورضوان رب العالمين، وإنا على أثره لسائرون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وتلك خسارة لا تُعوَّض، ورزء جَلَلٌ أصاب المسلمين، ولكن المسلم وقّاف عند حدود الله تعالى لا يتخطّاها أبداً، يصبر في شدّة النكبة ولا يجزع من هول الصدمة، ولا يقول إلا كما علمه الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فموته - رحمه الله - مصيبة آلمت النفوس، وأحزنت القلوب، وأدمعت العيون. ولكن المؤمن لا يقول فيها إلا بما يرضي الرب، كما قال سيدنا محمد ﷺ يوم فقد ابنه إبراهيم.

إنَّ قبض العالم العامل، رزيّة العالم والناس، بل «إنَّ موت قبيلة أيسر من موت عالم»(٢) - كما جاء في الحديث - لا سيما في عصرنا هذا، الذي

(١) رواه أحمد (٥: ١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢) كلاهما في العلم، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٠) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وذكر البخاري بعضه معلّقاً في العلم. وقال الحافظ في «الفتح» (١: ١٦٩): له شواهد يتقوّى بها.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» ٢: ٢٦٣ (١٦٩٩)، وابن عساكر ٣٨: ٣١٨ من حديث أبي الدرداء. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١: ٤٧٣: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وفيه عثمان بن أيمن، ولم أر من ذكره، وكذلك إسماعيل بن صالح.

أخذ العلماء فيه يتناقصون تناقصاً ملحوظاً، وبسرعة عجيبة، يعلم الله تعالى وحده حكمتها، بحيث لا نجد مَنْ يسدُّ مكانهم ويشغل وظائفهم العلمية مجرَّد إشغال؟!.

وفاة عالمين في يوم واحد ببغداد:

وإذا علمنا أن بغداد شيِّعت في يوم واحد عالمين جليلين هما صاحبا السماحة: شيخنا الفقيد، والشيخ حامد الملا حُويش خطيب الحضرة الكيلانية، ومدرس نائلة خاتون الدينية، وإمام جامع الحيدر خانة رحمهما الله تعالى. أدركنا جَذب العصر منهم.. وشعرنا بفداحة المصاب بموت العالم العارف بالله، المدرك مهمته في الحياة، العامل للإسلام بعلمه، بصدق وإخلاص وجرأة غير خالط به غيره، ولا مشرك معه سواه، وإنَّ فقيدنا الراحل إلى ربه من هذا النوع من العلماء.

حياة الشيخ الآلوسي العلمية:

بدأ شيخنا الجليل رحمه الله حياته العلمية بالدراسة في المدارس النظامية، فتخرَّج من دار المعلمين معلماً، ولمَّا يبلغ الثامنة عشرة من عمره، لذلك بقي معلماً شهرين في مدرسة باب الشيخ من دون أن يتقاضى راتباً، لأنه لم يبلغ السن القانونية وهي ثماني عشرة سنة.

وبقيَ مُعلِّماً فيها فترة قصيرة، وجد نفسه في نهايتها مُضطراً إلى ترك التعليم النظامي، واتَّجه إلى دراسة العلوم الشرعية، وكان من أسباب تبديل اتجاهه، هو أنه أصغر من تلاميذه، حيث لم تنبت شعرة في وجهه، فكان كما حدثني ـ رحمه الله ـ يطأطئ رأسه حياءً من تلاميذه الذين يكبرونه في السنّ، والعامل الأساسي في تبديل اتِّجاهه، هو حبُّه للدين وتعلُّقه به، إذ هو سليل أسرة علمية محترمة اشتهرت بالفقه والتفسير والحديث والصلاح والتقوى، أمدَّت المسلمين بخمسة وأربعين عالماً، وبه رحمه الله كان مسك الختام، فمنهم والده السيد أحمد شاكر

الآلوسي من أشهر علماء عصره[1] وإخوانه، ومنهم السيد محمد درويش الآلوسي (والد السيد هاشم الآلوسي)، والسيد حسين الآلوسي (والد الأستاذ المحامي محمد الآلوسي)، وحسبنا أن نذكر أنه حفيد للمفسّر الأشهر أبي الثناء صاحب «روح المعاني» رحمهم الله جميعاً.

شيوخه:

وحين اتَّجه إلى علم الشريعة، فتلقَّاه على علماء بغداد الأعلام، فدرس على الشيخ **محمد سعيد الدُوري** خطيب الحضرة الكيلانية، وعلى المرحوم الشيخ **يوسف العَطَا** مفتي بغداد،وعلى المرحوم الشيخ **قاسم القيسي** خطيب الحضرة الكيلانية ومفتي العاصمة، وهو الذي أجازه كما ذكر فقيدنا في إجازته لي.

كما دَرَس على سماحة الشيخ أمجد الزهاوي حفظه الله وأطال عمره[2]، وعلى سماحة الشيخ عبدالقادر الخطيب خطيب جامع الإمام الأعظم حفظه الله تعالى[3]. حتى نبغ من بين طلاب عصره، فتعيَّن مدرساً في جامع الصَاغة ببغداد، وهو يومئذٍ أصغر مدرِّس للعلوم الشرعية في مدارس الجوامع.

تولِّيه الإمامة والخطابة والتدريس:

وحين تولّى الإمامة والخطابة والتدريس، نَذَر نفسه للتعليم والإرشاد ففتح أبواب مدرستيه في جامع مرجان، وفي جامع السيد سلطان علي، للطلاب وروّاد المعرفة، يدرس في الأولى من الصباح حتى الظهر، وفي الثانية من بعد العصر حتى الغروب، وما أن يؤدي صلاة المغرب إماماً في جامع مرجان، إلا وعاد ثانيةً إلى التدريس.

---

(١) وأعمامه، ومنهم عمه الواعظ الشهير العلامة نعمان الآلوسي، وأبناء أعمامه، ومنهم ابن عمه صاحب التصانيف الكثيرة العلامة محمود شكري الآلوسي (البدري).

(٢) توفي العلامة الشيخ أمجد الزهاوي يوم الجمعة ١٤/ شعبان ١٣٨٧.

(٣) توفي العلامة الشيخ عبدالقادر الخطيب يوم الاثنين ٢٦/ جمادى الآخرة ١٣٨٩.

شغفه بالتدريس:

لذلك لم أر مدرساً شُغِفَ بالتدريس، وتعلّق قلبه بالتعليم مثله. وبعد هذا فلا عجب أن قضى نحبه، ولفظ أنفاسه الأخيرة، وهو في حلقة درسه في محراب جامع مرجان بعد أن أدى صلاة المغرب. وتلك حالة أقرب ما يكون العالم إلى ربه، وتلك ميتة الصّدّيقين والعارفين بالله تعالى، حيث لم يشعر بألم ولم يتوجّع من مرض.

برّه بتلاميذه:

كان رحمه الله تعالى، من أبرّ المدرسين بتلاميذه، يتفقّدهم ويُواسيهم في أفراحهم وأتراحهم، يُساعد ضعيفهم ومُعسرهم مادياً، ويُعين الجميع معنوياً، ويُسارع إلى رفع المظالم عنهم، وتلك حقائق لها واقع موجود، إنْ أوجزتها اليوم فسأعود إليها بالتفصيل غداً إن شاء الله إن جعل الله تعالى في العمر بقية.

لقد عهدنا التلاميذ يرون عليهم واجبَ شكر مُدرّسيهم والدعاء لهم، ولكننا عهدناه يشكر تلاميذه على حضور الدرس، ويدعو لهم، ويتفقد أحدهم إن غاب عنه.

علمه الواسع وفهمه العميق:

لقد آتاه الله تعالى علماً واسعاً، وفهماً عميقاً لأحكام الإسلام، وكثيراً ما كانت مغاليق الجمل في أثناء الدرس تفتح على يديه، وكنا نشعر بهذه الفتح حين نرى وجهه يتلألأ بعد صمتة منه لا تتعدّى الدقيقة الواحدة. فهو من المُلهَمين الذين ينظرون بنور الله.

تَتَلْمذ الشيخ البدري عليه خمسة عشر عاماً:

ولقد منّ الله تعالى عليّ وتفضّل، أن جعلني من طلابه ومريديه، فقد صاحبته منذ عام ١٩٤٨م، تلميذاً حتى لقي الله بعد مغرب يوم ١٢ كانون الثاني ١٩٦٣م، وفي أواخر هذه المدة تخرّجت على يديه، ولكني لم أترك

الدراسة عليه في العطل الطويلة، وكان مرجعي فيما لبس عليّ فهمه من أمور الشرع، وما شعرت في يوم من الأيام الخمسة عشر عاماً، التي قضيتُها بصحبته أنه أشعرني بأنه أستاذ وشيخ يجب أن أسمع قوله وآخذ برأيه من دون مناقشة، فكم كانت ملاطفته لي حينما كانت تعتريني غضبة برفع صوتي على صوته من جراء إصراره على رأيه الذي لا أفهم حقيقته لأول وهلة. فكان يتبع الملاطفة بدعاء أن يفتح الله قلبي للفهم...

وحين أعتذر منه يُجبني بأن لا حاجة للاعتذار لأنك لم تفعل شيئاً. وتلك والله من شِيَم علماء الآخرة...

زهده وجرأته في الحق:

كان شيخنا المرحوم، من زهّاد العلماء ومن أئمة الدين الورعين، ذا جرأة فائقة لا يخشى في الحقّ لَوْمة لائم، يعرف ذلك كل من رافقه في ملاقاة المسؤولين، أو مَنْ سمع وعظه في مرجان وخطبته في الجامع العاقولي، لذا كان من العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين يهتمّون بأمر المسلمين، ويتتبّعون أحوالهم، فكان يسمع الإذاعات الإخبارية من مذياع وضعه في غرفته الخاصّة بالجامع، ويقرأ الجرائد اليومية، ويحتفظ بالخبر الهام، وكان الحزن يأخذ نصيبه منه، حين يسمع بما يجري في عالم المسلمين وما يقع فيه، من مصائب وويلات.

آراؤه السياسيّة الناضجة:

وله آراء سياسية ناضجة، وحكمٌ صائب في الحوادث الواقعة، عرفها كلُ مَنْ جالسه وصاحبه، فكان من العلماء الذين يؤمنون بأنّ السياسة حكمٌ شرعيٌ، لأنها تعني رعاية شؤون الأمة والاهتمام بأمرها، أو تعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما دُعِيَ إلى عمل فيه نفع المسلمين إلا وسارع إليه، بل كان في أكثر الأحيان هو صاحب فكرة ذلك العمل، وقد أجمع علماء عصره ومَنْ عرفه على وصفه بثلاث: عالم، جريء، ورع.

طريقته في الوعظ:

كان رحمه الله تعالى، واعظاً مشهوراً يعظ المسلمين في شهر رمضان المبارك، وكان وعظه مركّزاً يتّسم بوحدة الموضوع. وكان يأخذ من الوقت ما لا يقل عن ساعتين، ورغم ذلك فلم يشعر سامعوه الكثيرون بالملل، وكنت تراهم يملؤون حرم الجامع ورواقه، السعيد من جاء مبكِراً ووجد مكاناً قريباً من كرسيّ الوعظ، وكثيراً ما طالبه بعض السامعين بإطالة الوعظ حين يرونه يخرج ساعته لينظر الوقت. والسبب في ذلك أنه كان يعمل كل عامه دارساً وباحثاً لجمع المعلومات لدروس الوعظ وتصنيفها وتبويبها حتى تكون جاهزة في يومها المعلوم، فكان يفيد من آياتِ الله الكريمة، ويتخيَّر من أحاديث رسول الله ﷺ، ويفيد من المثل السائر والشعر الرقيق والقصص الديني والعبرة السائرة، كما يفيد من سِيَر الحوادث في أيامه سياسية كانت أم اجتماعية، ليجعل وعظه فكرياً وروحياً لذيذاً سائغاً للسامعين، ولم يَنْسَ في يومٍ من الأيام نصيحته للحكام التي يقولها مُدويّة صريحة تأخذ بمجامع القلوب والألباب، إنه كان يشعر بثقل المسؤولية واعظاً ومُرشداً، ويبذل كل طاقاته بإخلاص ليكون وقته الذي يقضيه في الوعظ مفيداً للمسلمين. وقد كان كذلك إذ كان يخرج كلامه من قلبه فيستقر في قلوب السامعين ويجد مكانه فيه.

تصوُّفه النَّقيُّ:

وكان صوفياً من الطراز الأول، يفهم التصوف على حقيقته من أنه عمل بالكتاب والسنة، وتصفية القلب من شوائب النفاق والرياء وحب الدنيا والتسابق في الحصول على متعها الزائلة، وتنقية النفس من مهلكاتها المدمرة كالعجب والغيبة.

لذلك كانت دروسه ووعظه (مبروكة) إذ يشعر الدارس والسامع بالروحانية التي تحفُّه والسموُّ الروحي الذي يُصْعِدُه إلى عالم آخر.

أمله بنصر الإسلام:

كان الفقيد ـ عليه رضوان الله تعالى ـ من أولئك الذين لا يقنطون من رحمة الله، وكان يشعر شعوراً عميقاً بأن الله لن يترك دينه، وأن الإسلام سيخرج من معركته منتصراً في النهاية. وكأنه كان يعلم بأنه سيُودّع هذه الدنيا الفانية، وكان لا بدّ من تذكير وموعظة لجلسانه والمسلمين، فأجرى الله تعالى على لسانه تفسير جملة وردت في تقويم باللغة التركية قرأها عليه ابن أخيه السيد هاشم الآلوسي في مجلسه يوم الجمعة ١١ كانون الثاني ١٩٦٣م، تلك التي تضمّنت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، حدّثني بذلك السيد هاشم ونحن في مجلس الفاتحة.

نبأ نعيه وتشييع جنازته:

وبعد ذلك، فإنّ خبر نعيه لم يكد ينتشر بين الناس حتى صُعِقُوا لفداحة المصاب، وهَوْل الصّدمة، فخرجوا آلافاً مُؤلَّفة من الكتل البشرية يُشيِّعونه إلى مثواه الأخير من سائر طبقات الأمة، وفي مقدمتهم جمهرة علماء بغداد والكاظمية وسامراء وطلاب المدارس الدينية. وقد أبوا إلا أن يُحمل الجثمان الطاهر على الرؤوس ومشياً على الأقدام، بين تكبير وتهليل وبكاء على الرّغم من بُعْد الشقّة بين داره في محلة الفضل بالرصافة ومقبرة الشيخ معروف في الكرخ. وكانت أعينهم تفيض من الدمع حزناً على فقده، لقد كان الناس يشعرون أنّ الثغرة التي تركها الفقيد بموته يعزُّ على الزمان أن يسدّها، فمثله في الرجال قليل ومثله في العلماء أندر.

المصيبة بموت العالم العامل:

وإني أشهد الله تعالى أنّ هذه الكلمة لم تَفِ بحق الفقيد العزيز، إذ هي أضواء على جوانب معيّنة من حياته كما أنها لم تعبّر عما في نفس طالب من طلابه، من لَوْعة الفقد وهَوْل النكبة وشدّة المصيبة، إنها والله

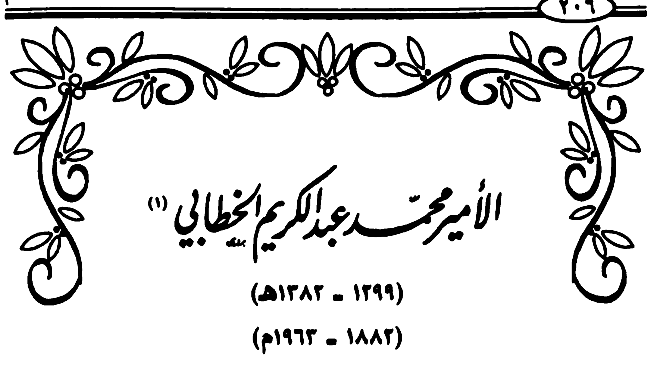
مصيبة ـ كما سمّاها الله تعالى في كتابه(١) ـ إن مات مسلم وكيف إن مات عالم، وكيف لا تكون المصيبة عظيمة إن مات مثل شيخنا العلامة الآلوسي وهو من العلماء الرجال؟!.

مات رحمه الله تعالى، وهو في بداية العقد السابع عن ٦١ عاماً، والمسلمون أحوج ما يكونون إلى تعلم علمه والاقتباس من هديه والائتساء بصلاحه وتقواه.

رحمَ اللّهُ تعالى الفقيهَ، المُحَدِّثَ، المُفسِّرَ، المُدرِّسَ، الواعظَ، الصالحَ، التقيَّ، النقيَّ أبا شاكر السيد الحاج محمد فؤاد بن السيد أحمد شاكر الحسيني الآلوسي. وعوَّض المسلمين عن فقده خيرَ عوض، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله.



(١) في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة: ١٠٦].



الأمير محمد عبدالكريم الخطابي (١)

(١٢٩٩ - ١٣٨٢هـ)

(١٨٨٢ - ١٩٦٣م)

بقلم التحرير

فُوجئ العالم الإسلامي في نهاية العشر الأول من شهر رمضان المبارك بوفاة البطل المجاهد الأمير عبدالكريم الخطابي رحمه الله، الذي قارع الاستعمار الفرنسي والإسباني، وقاد ثورة الريف اللاهبة ببطولة فذّة وشجاعة نادرة، دفاعاً عن دينه ووطنه.

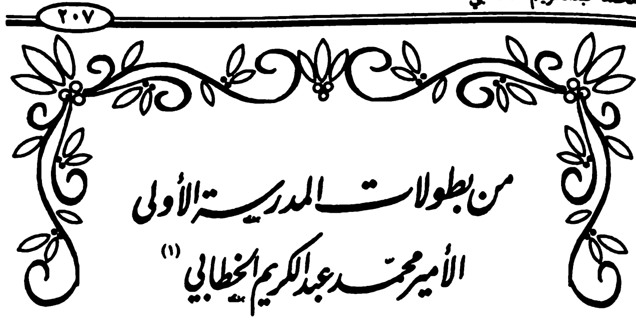


وقد عاش رحمه الله بعد انتهاء الثورة منفياً خارج بلاده مدةً تقرب من أربعين عاماً، اختار مصر في نصفها الثاني وطناً له، وقد كان الفقيد قرَّ عزمه أخيراً على اللحاق بمسقط رأسه في الأيام القريبة، فحالت المنيّة بينه وبين تحقيق أمنيته.. فاستقبله ثرى وطنه راحلاً، كما نزفت عليه دماؤه مجاهداً واستقرّت، وقال: إنه ينصح أبناء الإسلام بقراءة القرآن أولاً وقبل كل شيء... لقد تضمن القرآن كل شيء، إنّ السعادة كل السعادة في كتاب الله المجيد.

رحمك الله يا زعيم المجاهدين المؤمنين.. لقد خفت ربك فخافك أعداؤه، وتلوت كتاب الله، فخرجت تقاتل في سبيله.. وستبقى حياتك نبراساً لشباب الإسلام المكافح في سبيل دينه وعقيدته.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).



للأستاذ: عدنان زرزور

حالُ المسلمين عَقِبَ وفاة النبيّ ﷺ وحالهم في مطلع هذا القرن:

وصفت عائشة رضي الله عنها حال المسلمين عقب وفاة النبيّ ﷺ، فكان مما قالت: «لمَّا قبض رسول الله نَجَم[٢] النفاق، وارتدَّت العرب، وكان المسلمون كالغنم الشَّاردة في الليلة الماطرة»...

ولست أرى صورة وراء هذه الصورة التي ضلَّ فيها النجم، واسودَّت حواشي الأفق، وغاب فيها الكون في سكون عميق تتعثَّر خطاه على وقع المطر الشديد، يمكن أن تُصوِّر حال المسلمين في مطلع هذا القرن، وقد استيقظوا من ليل الجهل، على أصوات الحضارة الغربية وجَلَبتها وأضوائها، تبهر العيون وتقرع الآذان!..

تسلُّم الحضارة الغربية زمام الركب البشري:

لقد سارت الحضارة الغربية في طريقها تتسلَّم زمام الركب البشري

---

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

(٢) نجم: نشأ.

الضارب في صحراء الحياة، بعد أن ضيّع الركب حُداته المسلمون، يوم فقدوا ذاتهم، وأغفوا على أحلام الخرافة والأوهام... والقافلة الإنسانية ـ يا ويحها ـ ماذا جَنت حتى يتسلَّم قيادتها اللصوص؟!..

من ثمار الحضارة الغربية:

لا أريد أن أتحدَّث عن هذه الحضارة الآثمة وحُرّاسها ونتائجها العريضة في الكون، فبحسبي أن أشير إلى ثمرة واحدة من ثمارها الفجّة التي غصَّت بها حلوق الإنسانية بالأمس، ولا تزال تعلك آثارها المرة إلى اليوم.. إنها الحرب! حربان عالميتان في ربع قرن من الزمان، لم يتجرَّع كأس سمها أصحاب هذه الحضارة وحدهم، بل أفرغ هذا الكأس في أفواه الشعوب كلها إفراغاً... وخصوصاً تلك الشعوب المسلمة التي كانت تقود القافلة الإنسانية بالأمس؛ لأن بينها وبين قادة اليوم من العداوة، ما بين حراس القافلة ولصوصها.

اقتسام العالم الإسلامي:

وهكذا خُيِّل لحضارة الغرب الصليبية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، أنه قد خلا لها وجه الحياة على الأرض، فسعت إلى اقتسام ما تبقى من أجزاء العالم الإسلامي غنيمة سمينة باردة!، وكان من بين هذه الأجزاء: المغرب العربي الإسلامي، سَعَت إلى ذلك بخطوات ثقيلة متلاحقة... لكثرة ما حملت على عاتقها من الحديد، وما أتخمت به معدتها من أقوات الشعوب!!، وفكرها المخمور لا يصحو إلا على صورة الأندلس: الفردوس المفقود، تحفزهم وتحثُّهم على «استرجاع» المغرب الإسلامي اليوم، كما «غصبوا» أندلس الإسلام بالأمس.

هذه هي «الحقيقة» التي كانت ماثلة في أذهانهم، يومذاك، وكان كل ما حولهم يؤكِّد لهم أن النصر والغلبة ستكون في جانبهم: القوة المادية بكل صنوفها وغرور النصر ونشوته في أعقاب الحرب، إلى جانب التخلُّف والفقر والضعف المادي في أرجاء المغرب الكبير.

بزوغ سيف الأمير الخطابي:

ليس من شك في أنَّ الجوَّ كان مُكْفهراً يُنذر بالخطر والسُّوء.. ولكن كما يبزغ الفجر من وراء السحب الدكناء فيبدِّد سوادها ويقصم بعموده القوي اللامع ظهر الليل، بزغ سيف الأمير عبدالكريم الخطابي يلمع في سماء المغرب، ليقصم أصلاب الفرنسيين والإسبان، ويعلم الدنيا أن غزوة بدر: مدرسة الجهاد الأولى في الإسلام، لها جندها في كل زمن وحين، وأنها المدرسة التي صمدت للأمواج المتلاطمة، والعواصف الهوج، فأمدَّت العالم الإسلامي في كل فترات حياته بقادة كبار، يجاهدون في سبيل الله، وعلى بركة الله، وكان من هؤلاء الأبطال في عصر قراعنا مع الاستعمار: **عمر المختار، وعبدالقادر الجزائري، وعبدالكريم الخطابي.**

العالم الإسلامي مزرعة الغرب:

منذ مطلع هذا القرن، والغربيون يعتبرون العالم «مزرعة» لهم، ومن يدري؟ فلعل هذا من قواعد حضارتهم!؟ ففي عام ١٩٠٢ اتفقت إيطاليا وفرنسا على أن تطلق يد الأولى في طرابلس الغرب، مقابل حرية العمل في المغرب للثانية، وفي نيسان من عام ١٩٠٤ اتفقت فرنسا وإنكلترا على أن تتعهد الأولى بعدم عرقلة عمل الإنكليز في مصر، مقابل أن تعترف إنجلترا بحق فرنسا المطلق في المغرب، وفي نفس العام تم الاتفاق بعد ذلك بين فرنسا وإسبانيا على الموافقة على اتفاق نيسان، نظير أن يكون لإسبانيا نفوذ في بعض مناطق المغرب!!

وظن بعضهم بألمانيا خيراً حين نزل أمبراطورها عام ١٩٠٥ بمدينة طنجة وقال فيها: «إن زيارتي هذه لسلطان المغرب، الملك المستقل»!! ولكن ما أن اتفقت مصالح ألمانيا وفرنسا على اقتسام «الغنائم» الاستعمارية، حتى أطلقت ألمانيا يد فرنسا في المغرب، نظير ترك الكونغو الإفريقي لألمانيا. وكان ذلك عام ١٩١١، الذي لم يمض عليه أكثر من عام حتى وقع السلطان معاهدة الحماية على البلاد!!

وكان عمر الأمير عبدالكريم يناهز الثلاثين يوم وقعت بلاده تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الإسباني.

ولادة الأمير محمد عبدالكريم ونشأته ودراسته:

فقد ولد الأمير عام ١٣٠١هـ في بلدة «أجدير»، وهي خليج صغير على شاطئ المتوسط بين تطوان ومليلة، ونشأ على حفظ القرآن ودراسة الفقه والتمسُّك بقواعد الإسلام الحنيف ويتصل نسبه بالنبي ﷺ.

تلقى الأمير عبدالكريم دروسه الابتدائية والثانوية في مليلة، ثم التحق بجامعة القرويين ـ أقدم جامعة في العالم ـ بفاس.

وظيفته وقبض الإسبان عليه:

ثم تخرج مدرساً بمليلة، وعمل مُحرراً في بعض الصحف اليومية ثم عين قاضياً بعد ذلك، حيث بدأ خطره يشتد على الإسبان، حتى أنهم قبضوا عليه في عام ١٩١٥ بتهمة الميل للعثمانيين والعمل على الدفاع عن الخلافة وإلهاب الشعور الإسلامي (ضد الصليبيين الجدد)، وقدموه للمحاكمة أمام مجلس حربي عسكري، ظهرت فيه شجاعة الأمير الفائقة وثقته المطلقة بهذا الدين الذي يعتنق.

حواره مع رئيس المجلس العسكري:

التفت إليه الجنرال (أي أسبورو) رئيس المجلس العسكري قائلاً: هل تعمل حقاً ضد الحلفاء؟ فقال: نعم، فسأله: وما هو سبب ذلك؟ يقول الأمير عبدالكريم: فقلت له: «لأن الدولة العثمانية دخلت الحرب باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية، وهي تقف بجانب ألمانيا وأستوريا (النمسا)، وأنا مسلم مراكشي والخليفة نادى بالجهاد ضد الحلفاء لتحرير بلادنا التي تحتلها فرنسا وإسبانيا».

فقال له الجنرال: وما هي علاقتك بالخلافة؟ فأجابه: إنها خلافة المسلمين كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، ولذلك فأنا معهم لنحارب

الحلفاء... فضحك الجنرال ثم قال له: أنا أعلم أنك رجل نبيل ومن أسرة نبيلة معروفة، ولكن ألا تعلم أن دولة إسبانيا ملتزمة الحياد، وأنت قاضي القضاة في منطقة الحماية؟ فقال له الأمير عبدالكريم: هذا لا يمنعني من القيام بواجبي، وأنا أرى كثيراً من ضباطكم يتعاملون مع الألمان الموجودين هنا لتغذية الحرب ضد فرنسا، بجانب تركيا، ثم إذا كانت الوظيفة تمنعني من القيام بالواجب الوطني فأنا مستقيل من هذه الوظيفة منذ الآن، لأتفرغ للقيام بالواجب المحتم عليّ...

محاولة هروبه من السجن:

وزُجّ بالأمير عبدالكريم في السجن، وبدأ كفاحه الدامي ضد الإسبان الواغلين. الذين اعتبروا اعتقاله «رهينة» عن والده، الذي بدأ كفاحه ضد الإسبان في الريف المراكشي، وحاول البطل المجاهد الهروب من السجن، فقام في الساعة الحادية عشرة ليلاً بالقفز من أعلى برج في القلعة إلى الأرض بواسطة حبل معلق على طرف حديدي مربوط به فتدلى مع الحبل. ولكن الحبل لم يصل به إلى الأرض فبقي فترة من الزمن معلقاً في الفضاء، ثم رأى أن يقفز المسافة الباقية، وكانت الريح شديدة عاتية، فسقط على رجله اليسرى نتيجة اختلال توازنه من شدة الريح، فكسرت ساقه وشج رأسه وخرج مفصل يده عن موضعه.

محاولة الضغط على والده:

وأعيد هذه المرة إلى سجنين: سجن القيد وسجن المرض، وعلم والد الأمير عبدالكريم بالأمر في الوقت الذي كان يستعد لشن هجوم كبير على الإسبان، فكتب إلى القائد الإسباني يقول له: لا تعتقدوا أن اعتقال ولدي ووجوده عندكم في السجن يمنعني من العمل ضدكم، فهو وأنا وجميع أفراد العائلة مستعدون دائماً لمواجهة الظالمين بما يستحقون.

وعندما دخل بعض الضباط على الأمير السجين وطلب إليه أن يقنع والده بالكف عن محاربة الإسبان، وهدده بنقله إلى سجن (ملقة) وهو سجن

المجرمين، التفت إليه الأمير قائلاً: إنني لا أستطع أن آمر والدي بشيء! بل هو الذي يأمرني وأنا مطيع له في كل شيء، وأنا مستعد للذهاب إلى سجنكم في ملقة، ولا يهمني ذلك مطلقاً، ولتفعلوا بي ما تشاؤون من اليوم، وأنتم ظالمون على كل حال، ولا تنتظروا مني شيئاً غير هذا. . .

معارك أهل الريف والإسبان:

ولما فات على الإسبان الغرض من سجنه خلوا سبيله بعد ذلك. ودارت بين الإسبان وأهل الريف بقيادة والد الأمير عبدالكريم عدة معارك، وكان الجيش الإسباني يحتل شرق الريف وغربه، والفرنسيون يحتلون جنوب الريف، وتوفي والد الأمير قبل أن يسيِّر الإسبان جيشاً كبيراً من الشرق، بمدافعه وطائراته، يزحف غرباً نحو أرض الريف، ولم يترك شبراً من الأرض إلا قام بتحصينه وبناء القلاع فيه، وتقدم الأمير عبدالكريم بألف من المجاهدين لمقابلة خمسة وعشرين ألف جندي مجهزين بالعتاد والذخيرة، ومن ورائهم مؤخرة وحاميات. . .

استرداد المجاهدين لمركز (أبسران):

وتقدم الجيش الإسباني بقيادة الجنرال سلفستري، فاحتل بلدة أنوال، ثم تقدمت فصيلة منه واحتلت المركز الحصين أبسران، وركز المجاهدون هجوماً معاكساً شديداً استردوا فيه المركز وأفنوا الحامية، وغنموا كل ما فيه، فأقسم الجنرال العلج ليبيدنَّ جيش الحفاة العصاة، صيادي الأسماك!!. .

إبادة الجيش الكبير:

واستظلَّ المجاهدون للمعركة الفاصلة براية محمد ﷺ، وطافت في أذهانهم بطولات بدر. . ألف مجاهد في مقابلة خمسة وعشرين ألف جندي في معركة استمرت خمسة أيام كاملة من عام ١٩٢١، تسفر عن إبادة الجيش الكبير على أيدي الفئة المؤمنة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إننا نتطلع بشوق إلى اليوم الذي تأخذ فيه مذكرات الأمير الخطابي طريقها للنشر، لنعلم من تفاصيل هذه المعركة ما لم نعلم..

أما إسبانيا فقد سقطت حكومتها، وقامت محلها حكومة أخذت على عاتقها تجهيز مائة ألف جندي لتطبق بهم على «أجدير» بلدة الأمير عبدالكريم، من عدة جهات... ولكن فات جميع دول الاستعمار في العالم أن الشرارة التي انقدحت في النفس المسلمة الغافلة فأيقظتها لن تخبو بعد اليوم أبداً، وأن الذي انتصر عليهم اليوم ليسوا أولئك النفر القليل.. ولكنه هذا الإسلام العظيم فلو أن هؤلاء استشهدوا اليوم فسيحمل الراية من بعدهم كثيرون غيرهم.. حتى يكتب الله النصر للمؤمنين..

عناية الأمير بالريف:

وعمل الأمير عبدالكريم بعد ذلك على تنظيم الجيش وإزاحة العقبات التي تقف في طريق نموه، ولم تنسه الأعمال الحربية القيام بالإصلاحات التي تحتاجها البلاد، فنظم مالية البلاد التي لم تقع تحت قبضة المستعمر وأصلح فيها الإدارة ونظم التجارة والزراعة، وعنى بحالة الريف الصحية والتعليمية.

معارك لاهبة متلاحقة:

وتوالى جهاده مع جنوده الذين لم يزيدوا على ألف وستمائة مجاهد، مع إسبانيا في جهة الغرب، وكذلك مع الفرنسيين من الجنوب، في معارك لاهبة متلاحقة، يصيب فيها من الأعداء، ويصيب الأعداء منه، يصيبون من أعدائهم بإيمانهم وسلاحهم، ويصيب منهم الأعداء بـ... الغازات السامة التي استعملها الإسبان أكثر من مرة.

اتفاق القوّتين الفرنسية والإسبانية على محاربته:

ولما اشتدت وطأة الأمير عبدالكريم على الإسبان بعد الهزيمة التي ألحقها بهم في آب من عام ١٩٢٤، لم يسع الديكتاتور الإسباني

«بريمودي ريفيرا» إلا أن يتولى القيادة العسكرية بنفسه ليعمل على إنقاذ جيشه، وتفاوض مع الفرنسيين لكي يقوموا بنجدته، وأثمرت مفاوضاته معهم، فاتفقت القوتان الفرنسية والإسبانية على محاربة عبدالكريم، وكانت فرنسا أقوى دولة برية في العالم، والجيش الإسباني ثالث الجيوش الأوروبية.

هجوم الفرنسيين:

وفي ربيع عام ١٩٢٥ بدأ الفرنسيون هجومهم تحت ستار صد هجوم مفتعل، «وكان الفرنسيون يريدون بفتح الجبهة، التخفيف عن الإسبان ومساعدتهم، وكان فتح الجبهة مفاجئاً، ولم ينته المجاهدون بعد من القضاء على الإسبان، وكانوا شبه محصورين بين البحر في الشمال، وهو في يد الإسبان والفرنسيين، والإسبان من الشرق والغرب، ثم الفرنسيين من الجنوب».

وسار جيش عبدالكريم بقيادة أخيه لمقابلة الفرنسيين الذين توجهوا إلى فاس، وأخذت الحصون تسقط بأيدي الجيش المجاهد، غير عابئ بالغارات الوحشية التي تشن عليه من هنا وهناك، وبالرغم من أن المجاهدين قد فقدوا ميزتهم في حرب الجبال وهم في طريقهم إلى فاس إلا أن قوتهم تضاعفت بسبب ازدياد عدد القبائل المنضمة إليهم، والتقوا مع الإمداد الفرنسية الكبيرة في «مزيان» فهزم الفرنسيون هزيمة منكرة، وأصبح الطريق إلى العاصمة مفتوحاً، فأسرع رئيس وزراء فرنسا إلى ميدان المعركة وعزل القائد الفرنسي المدعو «لوتي» المعروف بالحنكة والبراعة وعين المارشال «بيتان» كبير العسكريين الفرنسيين، وطلبت فرنسا من إسبانيا أن تفتح جبهة رابعة، وغطت الطائرات سماء مراكش، وأخذت تضرب المدنيين على غير هدى، بل إنها تعمدت ضرب الأسواق التجارية ودور العلم والمستشفيات، لتشيع الذعر والخوف، بل لتنفس عن شيء من حقدها الصليبي، وتعمل على تطبيق بند من أهم بنود الحضارة الغربية!!

سقوط المقاومة في (البرانس) واعتقال الأمير:

وأسرع القائد الفرنسي الجديد وشن هجوماً انتزع به أهم معاقل المقاومة «البرانس» بينما كانت إسبانيا تستعد للنزول بأجدير، فتم هذا الأمر في نيسان عام ١٩٢٥ بعد شهر من سقوط «البرانس»، وفي أيار من العام القادم كانت الجيوش الفرنسية والإسبانية تسير مجتمعة تحت قيادة «بيتان» تزحف من جميع الجهات على الأمير عبدالكريم والمجاهدين المغاربة، حين فاوضته وطلبت إليه التسليم، فأبى ذلك عليه دينه ووفاؤه، وفضل الاستشهاد في ساحة المعركة، ولم تلبث قوى الشر والعدوان أن أطبقت على الأمير وجماعته، وقادته أسيراً في ١٠ تشرين أول ١٩٢٦ إلى جزيرة «رينيون» على المحيط الهندي، شرقي مدغشقر.

نفيه إلى جزيرة (رينيون) واعتكافه على العلم والعبادة:

وأمضى المجاهد الأسير مع شقيقه وعمه وأهله عشر سنوات كاملة وراء لجج المحيط يعاني مرارة النفي والوحدة والانقطاع عن العالم، ولكنه إن انقطعت صلاته بالأرض، فإنها موصولة بالسماء بحبل متين..

لقد عكف الأمير رحمه الله على قراءة كتب في التفسير والحديث والعقيدة كان قد اصطحبها معه إلى الجزيرة، وعكف على العبادة والتوجه إلى الله... فأصبح رقيق النفس، مرهف الشعور، يتوجه إلى الله بالدعاء وقد وخط الشيب عارضيه، ووراءه سنوات من الجهاد في سبيل الله وحده.. جهاد في الشباب، وعبادة وعلم وورع في المشيب، وإخلاص لله في كل عمل، ووعد من الله بالجنة للشهداء.. كل ذلك طريق إلى دار الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ويُمضي الأمير في الجزيرة النائية الموحشة أحد عشر عاماً آخر يسمح له فيها بالتنقل في أرجاء الجزيرة الصغيرة وقراءة بعض الصحف والمجلات الفرنسية.

إطلاق سراح بطل الريف:

وفي عام ١٩٤٧ أعلنت فرنسا على العالم نبأ إطلاق سراح بطل الريف الأمير عبدالكريم الخطابي وأقاربه جميعاً، بشرط الإقامة في أحد قصور باريس، الذي أعدّته لهم فرنسا، ووصلت الباخرة المقلّة للأمير إلى بور سعيد في ٢٩ أيار ١٩٤٧، لتتابع طريقها إلى فرنسا.

اللجوء إلى مصر والإقامة فيها:

وتشاء إرادة الله أن يتمكّن الأمير المجاهد من اللجوء إلى مصر، والبقاء فيها.. مثلاً رائعاً من أمثلة الكفاح والفداء والصبر والجهاد، وليعلم كل من يرى الأمير الخطابي أو يقرأ تاريخ حياته الطويل.. أن الإسلام يصنع الرجال.. وأن الرجال يصنعون التاريخ، وأن مدرسة بدر الكبرى باقية ما دام في الدنيا لسان ينطق وشمس تشرق على الأرض.

شهادة عضو مجلس العموم البريطاني:

قال المستر كورتي عضو مجلس العموم البريطاني: «إن عبدالكريم رجل حرب وجلاد، وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد إليه، حتى صار الناس في الهند وبغداد والقاهرة يرون فيه رجلاً يصح أن يكون أميراً للمؤمنين، وحاملاً لسيف الإسلام، فإذا أصبح والحالة هذه في مركز يدعو فيه إلى الجهاد في إفريقية الشمالية وبلاد العرب والأناضول، فإن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تتعرض لأخطار جسيمة، ولا يبعد أن تمس هذه الأخطار دولاً أخرى غير هذه أيضاً».

صدى الصوت الذي أطلقه الأمير محمد عبدالكريم:

ليطمئن سيادة عضو مجلس العموم البريطاني، فإن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تعرضت وتتعرض لأخطار جسيمة، من غير أن يبايع الأمير الخطابي رحمه الله بالخلافة أو إمارة المؤمنين، لأن الصوت الذي أطلقه الأمير الراحل، ما زال يتردد في نفوس شباب الإسلام، وهو يحثهم على طاعة الله

ودراسة القرآن، ولأن الجذوة التي اقتبس منها الأمير ما زالت حية مشتعلة... لا يزيدها ضرب الريح إلا اشتعالاً.. إنها الإسلام الذي لا تزيده المحن إلا كشفاً عن طبيعته الإلهية المتفردة... ولأن المدرسة التي أنبتت خالداً وصلاح الدين، والخطابي والمختار، قائمة خالدة، منذ أن حاربت الملائكة مع المسلمين في يوم بدر.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].





الأستاذ محمد الحموي
(... - ١٣٨٣هـ)

الشيخ محمد الحموي، من أهالي قرية (الكسوة) الواقعة جنوب دمشق في طريق المسافر إلى حوران، بينها وبين دمشق قرابة (١٦ كم).

بدأ طلبه على الشيخ عبدالرزاق الحمصي، حين كان هذا الشيخ إماماً وخطيباً لجامع هذه القرية، ثم قدم به شيخه إلى مدرسة التوجيه الإسلامي في أواخر الثلاثينيات الميلادية، وانقطع للتعلم والدراسة، وجدّ واجتهد، وبَدَت عليه أمارات الذكاء فَنَبغ في الدراسة، وعَقَد حلقاتٍ لتدريس المُستجدِّين من صغار الطلبة.

ثم اختير مع من اختير من المتفوِّقين من طلاب الدفعة الثالثة لتدريس الحلقات التي نُظِّمت تنظيماً مدرسياً متدرِّجاً.

ثم سافر إلى الأزهر، والتحق بكلية الشريعة، وقُبِلَ في السنة الثالثة منها بعد أن اجتاز الاختبارات اللازمة لذلك؛ ونال شهادة هذه الكلية.

وعاد إلى دمشق، وتقدَّم لمسابقة مدرس التربية الإسلامية، فنجح وعُيِّن مدرساً في حلب، وأبدى نشاطاً ملحوظاً وتأثيراً كبيراً.

ثم عُيِّن مديراً للثانوية الشرعية بحلب (الخسروية).

وبينما هو عائد إلى حلب في أحد أسفاره بصحبة الشيخ إبراهيم السلقيني وبسيارتهم، تعرَّضت السيارة لحادث، فكان الشيخ محمد الحموي

هو الضحية، وأنجى الله رفاقه وسلَّمهم، وخرج أعيان أهل حلب في تشييع جنازته، تقديراً لجهوده، رحمه الله رحمة واسعة[١].

* * *

رثاء الأستاذ محمد الحموي[٢]

للأستاذ محمد ضياء الدين الصابوني

مُصَابُك إنه رزء جليلُ ... فما أدري العزاء وما أقول!

جراح في الفؤاد يئنُّ منها ... وليس له إلى السلوى سبيل

وألتمسُ العزاء وأين مني ... وبادي الحزن طاغٍ والدخيل

نعى الناعي إلى الشهبا وفياً ... فدمع العين منهمر يسيل

أأبكي والبكاء له قليل ... أم اصبر والخطوب بنا تصول

وهل يُجدي البُكا فيردُّ خِلاً ... وماذا ينفع الصبر الجميل؟

فلا تلم القلوب تذوب حزناً ... إذا ما لفَّها حزن طويل

وقد نزح البكا من كلِّ عينٍ ... وأضرم في الحَشا هَمٌّ ثقيل

كأنفاس الصَّبا ولّى سريعاً ... وكان لنا به رَوح عليل

فقدنا فيه حُراً ألمعياً ... له في كل معضلة حلول

فقدنا فيه سيفاً يعربياً ... إذا ما أعوز السيف الصَّقيل

فقدنا فيه حراً ألمعياً ... إذا ما أحوج الرأي الأصيل

فقدنا أمة ومنار شعب ... له في كل مكرمة دليل

سنبكي فيك أخلاقاً كراماً ... ويشهد فضلها جيل فجيل

---

(١) من كتاب: «الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني» وقد أورد نجل المؤلف الشيخ عبدالرحمن حبنكة أعيان تلاميذ والده، وعدَّ منهم الشيخ محمد الحموي في أعيان الدفعة الثالثة ص١٢٩.

(٢) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

سَلُوا (الشرعيَّة) الثكلى عليه وقد برزت منابرُها تقول
بهمَّته بلغتُ ذرا المعالي إذا ما قصَّرت فيَّ الفحول
سلوا الشهباء عن رجل المعالي وفي البَيْداء يُفتقد الدليل
سلوا عنه الشباب وقد تغذوا لُبَان الخير واتَّعظ الجهول
بيانك في قلوبهم وفاء وحبُّك لا يزول ولا يحول
ستذكر أيدياً غراً كراماً ويُذكر عندها الفضل الجزيل
عرفتك يا محمدُ خيرَ داع إلى التقوى وقلّ لكم مثيل
عرفتك مخلصاً حراً أبيّاً جريئاً لا يهاب إذا يقول
وقفنا خاشعين اليوم حَيْرى وقد عزَّ المصابُ فما يحول
وقفنا والقلوبُ تسيل دمعاً ويغمرها الكآبة والذهول
نودّع راحلاً شهماً عزيزاً جميلَ الخلق قدوته الرسول
سقىٰ الرحمٰنُ قبراً ضمَّ فيه فقيدَ العلم والخلق النبيل
هنيئاً يا أخي بجنانِ عدنٍ ففيها الأمن والظلُّ الظليل
وألهم أهلَه السلوان دوماً فخير عزائنا: صبر جميل

□□□□□



الأستاذ الشيخ محمد معدل[١]
(١٣٢٤ - ١٣٨٣هـ)
(١٩٠٦ - ١٩٦٣م)



للأستاذ احمد علي زخور

ولد فضيلة الأستاذ الشيخ محمد معدل في قرية (كللي) التابعة لإدلب عام ١٩٠٦م[٢]، وتلقى علومه الأوليّة على يد والده المرحوم الشيخ قاسم المعدل، ثم دخل المدرسة الخسروية بحلب، وتخرّج فيها، فعُيِّن إماماً وخطيباً في جوامع مدينة حلب، وأتاح عمله هذا أمامه فرصة التوسّع في العلوم الشرعية، ولهذا اختير للتدريس في معهد العلوم الشرعية بحلب عندما تمّ تأسيسه وافتتاحه، واستمرّ على تأدية رسالته التوجيهية والتعليمية، حتى وافته المنية فجأة بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٣٨٣هـ، الموافق لـ ٣١ تموز ١٩٦٣م، فدفن في مدينة حلب رحمه الله رحمة واسعة.

حزن يقيم ولوعة وتفجُّعُ ... وأسى يدوم وحسرة وتوجُّعُ
ولواعج تضني وجسمٌ متعبٌ ... والقلبُ كاد لفقده يتقطّع

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

(٢) جاء تحديد ولادته في كتاب «علماء من حلب في القرن الرابع عشر» سنة ١٣٣١هـ الموافق لسنة ١٩١٢م.

في شهر تموز وآخر يومه ... كان الفراق ولم يكن يُتوقع

خَطَف المنونُ حبيبَنا وعزيزنا ... ولفقده انحدرت كسيلٍ أدمع

فلربَّ أوقات قضَيْناها معاً ... كنا بحُسن حديثه نستمتع

في يوم عيد أو بوقت زيارة ... كل الأحبة هكذا تتجمَّع

لما رأيت القوم ساروا خلفه ... والنعش من فوق المناكب يرفع

والحزن بادٍ والعيونُ دوامع ... وبقلبه لله كلٌّ يخشع

ناديتُه هلاً مررت مُودِّعاً ... إذْ كل من ينوي الرحيل يودع

فارقتنا ورحلت عنا فجأةً ... إنَّ الفراق لَمحزنٌ ومروِّع

أحزنتنا لما ذهبت بسرعةٍ ... وتركتنا في حرقة نتوجع

مهلاً أبا يحيى فهل من عودة ... فأجابني لا رجعة لا أرجع

إني رغبت جوار ربي مؤمناً ... بعطائه وأنا بفضل أطمع

فسألته: أين اللقاء؟ فقال لي: ... عند الذي نأوي إليه ونرجع

وهناك تحت لواء أشرف مرسل ... من حوضه نُسقىٰ وفينا يشفع

يا حاملَ العلم الشريف وعاملاً ... بالسنة السمحاء فيك المفجع

الحلمُ طَبْعك فِطْرة وغريزة ... وأصالةٌ وسجيَّة لا تنزع

في كل أسبوع تؤدي خطبة ... في مسجد فيها الصراحة تسطع

تأمُرُ بأمر الله لا مُتزلِّفاً ... لجماعة وهماً تضر وتنفع

وبذلت كلَّ الجهد في تعليم من ... يبغي تلقي العلم كي لا يمنع

فلك المآثرُ والمفاخرُ والتُّقى ... وإليك كان ذوو المشاكل يرجع

فتحل مشكلة وتقضي حاجة ... بتواضع ولسائل لا تصدع

فجزاك ربي خير ما يجزى به ... من كان مثلك للمكارم يصنع

وسلامه يُهدى إليك ورحمة ... ما جنَّ ليلٌ أو صباح يطلع

إني وإن كنت الحزين لفقده ... فكثيرُ مَنْ مثلي به لمولع

إنا نؤبِّنه ونذكر فضله ... ولنجلِهِ يحيى عزاءً نرفع

حلب في ٨ ايلول ١٩٦٣

سماحة العلامة الشيخ عبدالمحسن الأسطواني

شيخ المُعَمَّرين في بلاد الشام(١)

(١٢٧٥ - ١٣٨٣هـ)

(١٨٥٩ - ١٩٦٣م)

للدكتور مصطفى السباعي

فَقَدت البلاد الشاميَّة في الأيام القريبة الماضية عَلَماً من أعلامها البارزين، وعالماً من أكبر علمائها اللامعين، وشيخاً مُعَمَّراً من أكبر شيوخها المُعَمَّرين المعاصرين، ذلك هو العلامة المغفور له الشيخ عبدالمحسن الأسطواني الذي توفَّاه الله عن عمر يقرب من مائة سنة وثمان سنوات هجرية.

ولادته وأسرته:

وُلد الفقيد عام ١٢٧٥هـ ـ ١٨٥٩م، في دمشق من أسرة من أكرم الأُسر الدمشقية وأغناها بالعلم والعلماء، وترجع أرومتها إلى بعض النُّجباء من أبناء فلسطين الذين انتقلوا إلى دمشق أيام إقامة شيخ الإسلام العلامة أحمد بن تيمية فيها، فتَتَلمذوا عليه وأخذوا عنه الفقه الحنبلي، حيث تمذهبت أسرته من بعده بالمذهب الحنبلي إلى قريب من مائة وخمسين عاماً

(١) حضارة الإسلام، العدد الخامس، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م). وتنظر ترجمته في «رجال من التاريخ» لعلي الطنطاوي، و«تاريخ علماء دمشق» ٧٧٠/٢ ـ ٧٧٦.

خلت، ثم تمذهبت بعد ذلك بالمذهب الحنفي، فنشأ فيها علماء أجلاء في الفقه الحنفي كان منهم والد الفقيد العلامة الكبير الشيخ عبدالقادر الأسطواني رحمه الله[1].



(١) ولد سنة ١٢٤٩، واشتغل بطلب العلم، وأخذ عن مشايخ كثيرين، منهم: الشيخ عبدالله الحلبي، والشيخ حسن الشطي، والشيخ عمر الغزي. برع في العربية والحساب والفقه والأصول، وتصدّر للتدريس بين العشاءين في الجامع الأموي. توفي في ٥ شوال سنة ١٣١٤ عن ٦٥ سنة رحمه الله تعالى. كما في ترجمته في «تاريخ علماء دمشق» ٢: ١٣٠.

دراسته وشيوخه:

تلقَّى علومه الأولى على أبيه وعلى كبار علماء دمشق في ذلك الحين، ومنهم الشيخ سليم العطار، والشيخ سعيد الأسطواني، والشيخ محمود الحمزاوي، وغيرهم.

وظائفه العلمية والسياسيَّة:

تقلَّب في الوظائف العلمية والسياسيَّة منذ اكتمال شبابه حتى سنوات خلت، وكانت أول وظيفة عمل فيها هي أمانة الفتوى في دمشق، وعمره حينذاك لم يتجاوز الثلاثين من العمر، وبقي في هذه الوظيفة حتى قبيل الحرب العالمية الأولى، حيث نجح في الانتخابات، وعُيِّن نائباً في مجلس المبعوثان العثماني عام ١٩١٣م، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، اختاره الملك فيصل من بين الشخصيات النابغة لإرساء قواعد حكمه، فاختاره في عام ١٩١٩م، عضواً في مجلس الشورى الذي كانت مهمته تنظيم سياسة البلاد وإدارتها وتأليف حكومتها، ثم عُيِّن رئيساً لهذا المجلس، واستمر في رئاسته حتى عام ١٩٢٤م، حيث حلَّه الفرنسيون بعد أن ضاقوا ذرعاً بوقوفه في وجه سياستهم الغاشمة وقوانينهم الجائرة.

القاضي الشرعي ورئيس محكمة التمييز الشرعية:

ولما اندلعت الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي عام ١٩٢٦م، شدَّدت السلطات الاستعمارية الرقابة عليه وعلى إخوانه من أعضاء مجلس الشورى مما اضطره إلى الإقامة في بيروت، ثم عاد إلى دمشق عام ١٩٢٧م، بعد انتهاء الثورة، فعُيِّن قاضياً شرعياً ممتازاً لدمشق، وبقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٦م، حيث عُيِّن رئيساً لمحكمة التمييز الشرعية مدى الحياة (استثناء من قانون التقاعد) نظراً لغزارة عِلمه وعظيم استقامته وكفاءته.

إحالته إلى التقاعد وعكوفه على المطالعة ومجالس العلم:

ولما حصل انقلاب حسني الزعيم عام ١٩٤٩م، أصدر قراراً بإلغاء جميع الاستثناءات، فأُحيل إلى التقاعد بعد أن خدم الدولة بما يزيد عن

سبعين عاماً، كان فيها مثال العالم الجريء العامل لخير أمته وبلاده، والذي لا يخشى في الله لومة لائم.

ومنذ ذلك الوقت لزم داره وعكف على مطالعة الكتب ومجالس العلم والأدب.

مجلس الشيوخ:

وكان له في أواخر حياته مجلسٌ أسبوعيٌ مع كبار الشخصيات السياسيّة والعلمية في دمشق، منهم الرئيسان الفقيدان: محمد علي العابد وهاشم الآتاسي، والعلامة فارس الخوري، وغيرهم من شيوخ العلم والسياسة والأدب، وقد عُرف مجلسهم هذا بـ «مجلس الشيوخ»، وكنا نتحدث عنه نحن الشبان آنئذٍ، ونتمنى حضور جلسة من جلساته الممتعة لولا ما كنا نتحلّى فيه من «صغر السن»!..

أبرز ما في تاريخ حياته رحمه الله أربعة جوانب رئيسية:

أ ـ حياته العلمية:

عُرف الفقيد رحمه الله بالذكاء والنباهة منذ نعومة أظفاره، وهذا ما أهّله لمنصب أمين الفتوى، وهو لمّا يتجاوز الثلاثين، كان حَسَن الفهم لما يقرأ أو يسمع، حسن الاستيعاب لهما، قويّ الذاكرة، سريعَ البديهة مما جعله محل إعجاب شيوخه وكبار رجال عصره.

درسه في جامع السلطان بإستانبول:

اتفق أن ذهب أثناء الحرب العالمية الأولى مع الهيئة العلمية برئاسة الشيخ أبو الخير عابدين مفتي الديار الشامية آنذاك إلى إستانبول للاطلاع على أحوال الجنود العرب في الجيش التركي المرابط على (الدردنيل)، وهناك طُلب منه إلقاء درس في جامع السلطان بعد صلاة الجمعة على غير استعداد منه، فألقى درساً حضره كبار علماء الإسلام والمشايخ والأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة، وعدد غفير من طلاب العلم وجماهير المصلين في المسجد، استحوذ على إعجابهم جميعاً، فما انتهى من درسه حتى أقبلوا عليه يقبّلون يده، ويبدون له عن عظيم تقديرهم لعلمه وفضله، ثم بعد أيام أقام السلطان

رشاد حفلاً تكريمياً لوفد الهيئة العلمية، فخصَّ فقيدنا الكبير بأكبر قسط من رعايته، وتقدَّم إليه فقبَّل يده أمام كبار رجال الدولة وعلمائها وأمرائها ووزرائها، وهذه أول مرة تقع من سلاطين بني عثمان الأواخر على ما نعلم.

ولما تولَّى رئاسة محكمة التمييز الشرعية ظهرت آثار علمه الغزير وفهمه العميق، فكانت تصدر عنه الأحكام التي لا تزال مرجع الحكام والقضاة في دقتها وصوابها.

وقد شغل منصب أستاذ في معهد الحقوق (كلية الحقوق) منذ تأسيسه عام ١٩٢٣م، فدَرَّس مجلة الأحكام العدلية، وأحكام الأوقاف، وكان مثال العالم المحقِّق الذي يدرس النص من خلال أهداف روح التشريع مما ترك أعمق الأثر في نفوسِ تلاميذه وزملائه أساتذة المعهد.

ب ـ حياته الوطنية:

رأينا كيف كان الفقيد ممن أدوا إلى بلادهم أجلَّ الخدمات إبان العهد الفيصلي باختيار الرجال الأكفاء لإدارة الدولة وإصدار القوانين اللازمة لإشادة بناء الدولة الجديدة، وذلك خلال عضويته ورئاسته لمجلس الشورى، ثم كيف وقف في وجه أطماع الفرنسيين وقوانينهم الجائرة ممَّا حملهم على حلِّ مجلس الشورى والتخلص منهم.

وفي عهد الانتداب الفرنسي، جاءه بعض علماء دمشق، والطائرات الفرنسية تضرب دمشق، يطلبون إليه التوجُّه إلى الجامع الأموي للدعاء على الفرنسيين، فانتهرهم قائلاً: «الدعاء على الأعداء في المساجد صنيع المقْعدين، والعدوُّ بحاجةٍ إلى مقاومة، فإلى السلاح».

وفي عهد الاستقلال عام ١٩٣٦م، زاره في بيته رئيس الجمهورية مع أقطاب الكتلة الوطنية اعترافاً بفضله، وطلباً لنُصحه وإرشاده في فجر الاستقلال، فقال لهم:

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]،

(يقصد الشيخ بذلك التنبيه إلى خطر أولئك الذين كانوا أعوان المستعمر في بطشه وعدوانه)، ثم قال:

وروى البخاري عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ما بعث الله من نبيّ، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتَحُضُّه عليه، فالمعصوم مَنْ عَصَمه الله»[1].

ثم أخذ الشيخ يُوجِّه نصائحه إلى رجال الحكم في عهد الاستقلال فما أتمّ حديثه حتى أهوى الفقيد الكبير سعدالله الجابري (رئيس الوزراء) على يديه فقبّلهما، وكذلك فعل الآخرون.

جـ ـ حياته الأخلاقية:

عُرف الفقيد بدماثة الأخلاق، وصدق الحديث، ونزاهة الحكم، وجرأة الجَنان، والعطف على المُضْطهدين والمظلومين في كلّ دعوى ترفع إليه، فكان يُنصفهم ويحكم بالحق على خصومهم مهما كانت منزلته عالية، واتفق أنّ عالماً كبيراً من علماء دمشق توفي، فطلب ابنه من الشيخ أن يحلّ محل أبيه في وظائفه الدينية، فأبى الشيخ وقال له: أنت لا تصلح لذلك، فغضب ذلك الرجل، وكان يحتل منصباً عالياً في الدولة، وهدّد الشيخ بعزله وقطع راتبه، وتمّ للشيخ ما أراد دون أن يعبأ بتهديد أو وعيد.

نكته ودعابته:

وكان رحمه الله مع شدّته في الحق صاحب نكتة ودعابة، لا تفارقه في أغلب أحواله، وممّا يذكر عنه في ذلك أن أحد تلاميذه توفي، فقام ابنه بتوزيع شراب (العرقسوس) صدقة عن روحه في كل شهر، وأراد الولد أن يعرف رأي الشيخ في صنيعه هذا، فقال له: «رأيتُ والدك في المنام فأخبرني أنّ أهل الجنة قد غرقوا من العرقسوس فغادروها، وبقي أبوك وحده في الجنة، فهلاّ رحمته فأرسلتَ إليه بعض الطعام ليأكل!..».

د ـ تعميره:

عاش الشيخ رحمه الله مائة سنة وثماني سنوات ظلّ إلى آخر لحظة

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٩٨)، والنسائي (٤٢٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

فيها محتفظاً بذاكرته العجيبة ولم يحتبس في البيت إلا في السنتين الأخيرتين من عمره، وقد سُئل عن سرّ طول عمره؟ فأجاب بأنه طوى الفراش منذ الستين (كنايةً عن بُعده عن الحياة الزوجية)، وأنه كان قليل الطعام يأكل كل يوم وجبتين خفيفتين في الصباح والمساء، وبأنه اعتاد أن ينام بعد صلاة العشاء مباشرة في الغالب، ويستيقظ قبل بزوغ الفجر، وأنه كان يقول لأهله: لا تخبروني عن شيء من الأخبار البيتية المزعجة.. هكذا قال رحمه الله، والآجال بيد الله، ولكلّ شيء سببٌ.

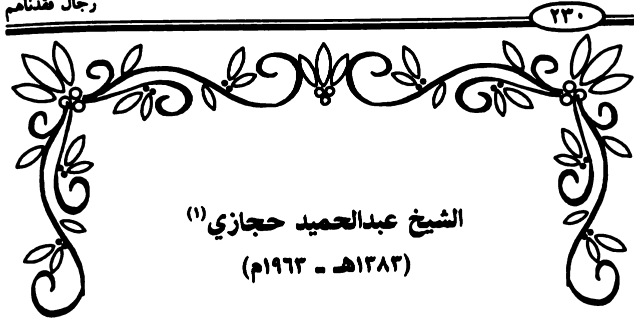
ومن المناسب أن نذكر هنا أن زوجته قد تُوفيت منذ سنتين، وهي تُشرف على التسعين، وأنَّ له شقيقة لا تزال على قيد الحياة قد بلغت أكثر من خمس وتسعين سنة.

وبعد؛ فلقد فقدت دمشق والعالم الإسلامي بوفاة العلامة الكبير الشيخ عبدالمحسن الأسطواني وجهاً كريماً من أكرم وجوه علمائها شدةً في الحق، ونزاهةً في السيرة، وإخلاصاً للعلم، ولئن كان الموت نهاية كل حي فإنَّ جيلنا الذي يعيش أصعب فترات تاريخ أمتنا فتناً ومشكلاتٍ، قد فقد بوفاة الشيخ الكبير تاريخاً حياً حافلاً بالأحداث، تاريخَ قرن كامل شهدت فيه أمتنا من منعطفات التاريخ ما حوّل سَيْرها وكيانها وحياتها الاجتماعية، فالخسارة بالفقيد الكبير خسارة متعدّدة الجوانب، يرحمه الله ويُحسن إليه، ويجعل سيرته في الخالدين.

مناجاة

من قصيدة للفقيد نظمها في أيامه الأخيرة

آمنتُ بالله العظيم جلاله ... والرُّسْلِ والأملاك والقرآن
وبسائر الكتب التي قد أُنزلت ... والبعثِ يوم الحشر والميزان
آمنتُ بالقدر الإلهي خيرِه ... مع شرِّه مِنْ خالق الأكوان
أرجوك يا مولاي نظرة رحمة ... أنجو بها يا واسع الغفران
عهدي بأنك لا تُعذّب شيبةً ... شابت بدين الحق والإيمان
فلئن أسأتُ فإني عبدالمحسن ... والعبدُ أولى الناس بالإحسان
فاختم مَدى أجلي بحُسْن سعادة ... فلك البقاءُ وكلُّ شيء فاني



الشيخ عبدالحميد حجازي[1]

(١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م)

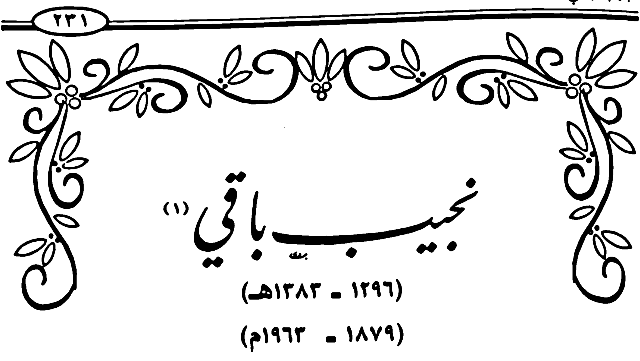
انتقل إلى رحمة الله تعالى المغفور له الأستاذ الشيخ عبدالحميد حجازي مفتي قضاء أزرع، وذلك في اليوم الثامن من هذا الشهر المبارك، وقد شقَّ نعيه على أهله وأصدقائه وتلاميذه الكثُر، لما عُرف عنه رحمه الله من العلم والفضل ونُبل الأخلاق والجرأة في قول الحق في كل مناسبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد عمل فترة طويلة في التدريس، وتخرج على يديه كثير من طلبة العلم، وكان يتنقل بين القرى والأرياف داعياً لله، شارحاً للناس حقائق الإسلام.

رحم الله الفقيد رحمة واسعة، وجعل مثواه الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء، وألهم ذويه وإخوانه الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).



نجيب باقي(١)

(١٢٩٦ ـ ١٣٨٣هـ)

(١٨٧٩ ـ ١٩٦٣م)



فقدت البلاد السورية رجلاً من ألمع رجالها العاملين في الميادين الاجتماعية والاقتصادية هو المرحوم نجيب باقي الذي توفّاه الله في اليوم السابع من تشرين الأول ١٩٦٣م، بعد أن قضى عمراً حافلاً بالأعمال الجليلة والخدمات الوطنية والاجتماعية الكثيرة، ويدعونا داعي الوفاء لأمثال هذا الفقيد

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

الكريم أن نقدّم للقراء الكرام نبذة عن حياته وسيرته وخدماته، عرفاناً بالجميل، وتشجيعاً للاقتداء بالأعمال الصالحة التي قام بها الفقيد الراحل.

ولادته وأسرته ونشاته:

وُلد الفقيد عام ١٨٧٩م، في حلب من أسرة كريمة اشتهرت بالتجارة، وبالرُّغم من أن نشأته الأولى كانت في بيئة تجارية، فقد فضَّل الحياة العلمية والثقافية، حيث ظهرت ميوله العلمية ورغبته في تحصيل العلم في سنٍّ مبكرة، فالتحق في المدارس.

وظائفه وإنشاؤه المدرسة الفاروقية:

وبعد أن أتمّ تحصيله العلمي عُيِّن محاسباً، ثم مفتشاً في مديرية المعارف بحلب، ولقد أتاح له عمله هذا أن يتبيَّن الخطر الذي يَحيق بشباب ذلك العصر من عدم وجود مدارس وطنية عربية، لأنَّ المدارس في ذلك الوقت على قلَّتها كانت حكومية أو أجنبية تهدف إلى نشر الثقافة الأجنبية وبثّ سمومها، وإلى محو الثقافة الإسلامية، وإبعاد الأجيال العربية عن مصدر ثقافتهم الإسلامية الأصيلة، مما حمل الفقيد رحمه الله بدافع من الشعور بالمسؤولية والواجب والغيرة على الثقافة الإسلامية والأجيال الناشئة إلى تأسيس مدرسة كانت الأولى من نوعها في حلب، تدرس فيها العلوم والآداب واللغات (العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية) وقد تخرَّج فيها عدد كبير من رجالات البلد، وكانت مدرسة مثالية في نظامها وتوجيهها الإسلامي التربوي السليم، وكانت هذه المدرسة تحمل اسم (شمس المعارف)، ولقد أُغلقت أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم أُعيد فتحها بعد ذلك باسم جديد، وهو: (المدرسة الفاروقية)، فتنازل الفقيد عنها إلى أساتذتها، وهي لا تزال موجودة حتى الآن.

تاسيسه دار الأيتام الإسلامية بحلب:

وكان الفقيد رحمه الله مُحبّاً لعمل الخير وخدمة مجتمعه، ومذ يد

العون للضعفاء والمحتاجين، ومن ذلك تأسيسه داز الأيتام الإسلامية بحلب عام ١٩١٩م، التي اتسعت فيما بعد بجهوده وجهود إخوانه المخلصين من أبناء حلب حتى استوعبت ٤٠٠ طفل يتيم، تقدّم لهم الدار كل ما يحتاجونه من رعاية وعناية تعوّضهم ما فقدوه من حنان الوالدين وعطفهما ورعايتهما، وما يساعدهم لتأمين مستقبل كريم لائق.

تاسيس الجمعية الخيرية الإسلامية:

ودعماً لهذا المشروع الإنساني النبيل دعا الفقيد عدداً من رجالات البلد لتأسيس جمعية خيرية باسم «الجمعية الخيرية الإسلامية»، ما تزال تعمل حتى الآن، ومهمة هذه الجمعية الإشراف على دار الأيتام الإسلامية والمعهد العربي الإسلامي، وقد تخرّج في هذه المؤسسة ما ينوف على ٤٠٠٠ طالب، يعملون الآن في مختلف الحرف والمهن الشريفة..

تاسيس المعهد العربي الإسلامي:

وفي عام ١٩٤٣م، ساهم الفقيد بقسط وافر لتأسيس المعهد العربي الإسلامي بحلب الذي قدّم في حقل التربية والتعليم خدمات جلّى لشباب البلد..

وفي عام ١٩٦٠م، أسس الفقيد دار الصناعة كَفَرع لدار الأيتام الإسلامية لكي يتعلم فيها الأيتام الذين لم يتمكنوا من إكمال دراستهم بعض الصناعات والحرف.

رئيس اتحاد الجمعيات الخيرية بحلب:

وفي عام ١٩٦١م، انتُخب الفقيد أول رئيس لاتحاد الجمعيات الخيرية بحلب نظراً لما له من باع طويل في الخدمة الاجتماعية وأعمال البر والخير، ولما قدّم لبلده من خدماتٍ جليلة، فجزاه الله عن كل ذلك أحسن الجزاء...

في ميادين الجهاد:

ولم يقتصر نشاط المرحوم نجيب باقي على ميادين الخدمة الاجتماعية وأعمال البر والخير، وإنما كان له نشاط معروف في ميادين الوطنية والجهاد، وله مواقف معروفة أيام الانتداب الفرنسي وقفها ضد المستعمر مع الزعماء الوطنيين أمثال: إبراهيم هنانو، وسعدالله الجابري، وهاشم الأتاسي، وشكري القوتلي؛ حيث اشترك معهم في الجهاد لنيل الاستقلال، وحضر معهم المؤتمرات الوطنية، وقاد كثيراً من المظاهرات ضد الحكم الفرنسي، وحُكِمَ عليه بالسجن عدة مرات، ونُفي إلى خارج البلاد حتى تحقق للبلاد استقلالها وحريتها.

في ميادين الاقتصاد:

فساهم في بناء بلاده ولا سيما في المجالات الاقتصادية، فمنذ عام ١٩١٢م، أنشأ مؤسسة تجارية ما زالت تنمو حتى أصبحت مؤسسة تجارية وصناعية كبرى لا تزال مستمرة في عملها في سورية ولبنان والأردن، وتضمُّ عدداً كبيراً من المهندسين والخبراء والاختصاصيين، ولقد استطاع باستقامته وإخلاصه وجهده أن يكسب سمعة تجارية ممتازة في العالم شهدت بها أكبر الشركات العالمية، وقد مثَّل بلاده أحسن تمثيل لدى جميع المؤسسات الاقتصادية في العالم العربي وفي الخارج، ولقد ساهم الفقيد مساهمة فعَّالة في النهضة الاقتصادية والصناعية في سورية، فاشترك في تأسيس أكثر المصانع والشركات في سورية، كما قدَّمت مؤسَّساته خدمات كثيرة للاقتصاد العربي، ولقد منحته الحكومة السورية عام ١٩٦١ نجمة الاستحقاق السوري، تقديراً لخدماته وجهوده وتضحياته.

رحم الله الفقيد رحمة واسعة، وجزاه الله أحسن الجزاء، وأسكنه فسيح جنَّاته.





الشيخ إبراهيم أحمد المظاهري[1]

(١٣٣٢ـ ١٣٨٣هـ)

(١٩١٤ ـ ١٩٦٤م)

للأستاذ ابي الحسن علي الحسني النّدوي
عضو المجمع اللغوي بدمشق

عالم بورما والزعيم الإسلامي:

كنت أسمع بالشيخ إبراهيم أحمد ـ عالم بورما والزعيم الإسلامي ـ من زمان، وتتفق لي أحياناً مطالعة صحيفة «دور جديد» (العصر الجديد) اليومية التي كان يصدرها من رانجون ـ عاصمة بورما ـ في اللغة الأردوية لغة مسلمي الهند التي كان يُجيدها كأبنائها، ومجلة «استقلال» الشهرية الأردوية كذلك، التي كان يشرف على تحريرها، وكان يعرفني عن طريق مؤلفاتي وكتاباتي، كما كنت أعرفه عن طريق الصحافة الإسلامية اليومية، وكان كلّ منا يحبُّ الآخر، ويتجاوب معه في كثير من أفكاره وأهدافه، ويشعر بانسجام فكريّ، وكلّ ذلك عن ظهر الغيب ومن وراء البحار، فلم ير بعضنا بعضاً ولم تتفق الزيارة والتلاقي.

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م)، ونشرت في المجلة بعنوان: «في رحاب الخالدين».

فلما زرت «رانجون» سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) سعدت بزيارته الأولى في المطار أول ما نزلت وأقمت في العاصمة شهراً، وكان لا يمر يوم إلا ويزورني وأزوره.

أبرز ملامحه ومزاياه:

رأيت فيه رجلاً ملء العين والسمع، وكان من أبرز ملامحه ومزاياه الهدوء الفكري، والاتّزان، فكان في كل ما يعتقده ويقرّره ويكتبه أو يدافع عنه هادئاً متزن الفكر، مقتصداً عميق النظر، وكان يُزيّنه الوقار والرزانة في جميع تصرفاته ومظاهر نشاطه، وسيماً جسيماً، صاحب ذوق في ملبسه ومظهره، عَذْب النغمة في حديثه ومحاضراته، خفيف الروح فَكِهَاً في مجالسه، واثقاً بنفسه، مستقيم السيرة والخُلق، صاحب مبدأ وإيمان في سياسته وقيادته وصحافته، أعلى من أنْ يُساوم معه، وعن أن يُحوَّل عن مركزه وعما يعتقده ويدين به فيما يخصُّ نفسه أو يتّصل بشعبه، عاملاً كثير النشاط والحيوية والإنتاج، دائم الاشتغال بما ينفع أمته ودينه، صريحاً في أفكاره وخواطره، شجاعاً لا يخاف السلطة الرسمية ولا سخط الشعب والرأي العام، صحافياً بارعاً يستحق أن يحتل مركزاً في صفّ الصحافيين الأول، تدل مقالاته الوجيزة التي كان يصدر بها عدد اليوم على مقدرته الصحافية وبُعْد النظر والإنشاء البليغ.

وكان واسع الاطّلاع على ما يُكتب ويُنشر في اللغة الأردوية في شبه القارة الهندية، ومسايراً للركب الثقافي الإسلامي، حريصاً على أن لا يتخلّف عنه، له آراء سديدة ونظرات نافذة في الأدب الأردوي، شغوفاً بمطالعة الجديد المفيد من مؤلفات الكتّاب الإسلاميين باللغة العربية، يتذوّقه ويفيد منه، وكان مُتتبِّعاً لسَيْر الحركة الإسلامية في أكثر الأقطار الإسلامية، يعرف قادتها وأبطالها وعقولها الموجِّهة، وقد كوَّن عن أكثرهم فكرة صائبة بذكائه وألمعيته ودراساته، وعرف مواضع ضعفها إن كانت هنالك مواضع ضعف، وأسرار قوتها وما تحتاج إليه.

رئيس جمعية العلماء في بورما:

وكان رئيس جمعية العلماء في بورما أطول مدة، وقد قادها وأشرف عليها بكياسة ولباقة وجراءة، وبثبات واستقامة، حتى كان لها مركز مرموق وصوت مسموع في البلاد، وأصبحت تُخْشى وتُرْجى في سياسة البلاد وفي دوائر الحكومة، وقد قاوم رحمه الله كل موجة إلحادية تنطلق من الشعب أو موقف مُعَادٍ للشعب الإسلامي من الحكومة، وعاش نزيهاً نقياً لم يتهمه أعداؤه بانتهازية أو استغلال لمركزه أو انتفاع على حساب الإسلام والمسلمين، كما اتُّهم كثير من الزعماء السياسيين وعلماء الدين في كثير من الأقطار.

اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام ونشرها في غير المسلمين:

وعُنيَ بصفةٍ خاصَّة بالدعوة إلى الإسلام ونشرها في غير المسلمين وفي الجهات البعيدة، وأشرف على شؤون المسلمين وقضاياهم الدينية والتعليم الديني ومراكزه في البلاد، وبثَّ الدعاة ونظَّم رحلاتهم، وكان يقوم بنفسه مع زميله العالم الجليل الشيخ **محمود داود يوسف** مفتي بورما الأكبر بجولات في البلاد، كان لها الأثر الطيب في إنعاش الروح الدينية وإثارة الغيرة الإسلامية، وكان رئيس جمعية العلماء إلى آخر يوم من أيام حياته لا يُنازع في ذلك.

تأييده للجماعات الإسلامية والمشاريع الخيرية:

وكان واسع الصدر، رَحْبَ الذراع في تأييد المؤسسات الإسلامية والمشاريع الخيرية، ساعد بعثة ندوة العلماء في سنة ١٣٨٠هـ مساعدة غالية، وكان من أكبر المُشجِّعين، ومن كبار المُؤيِّدين لحركة التبليغ العالمية التي مركزها نظام الدين في دهلي الهند، يحضر حفلاتها ويخطب فيها، لا يضيق صدره عن المساهمة في ما ينفع الإسلام والمسلمين أو الاعتراف بمجهود فرد آخر أو مؤسسة أخرى كما يضيق صدر كثير من العلماء والزعماء الذين يحتضنون فكرة أو يحملون دعوة خاصة.

قصة إسلامه:

وكان وجوده وعلمه من منح الله تبارك وتعالى، فقد ردّه الله إلى الإسلام ووهبه للمسلمين بعدما رُبّي في حِجْر الكفر والجاهلية، وهي قصة عجيبة حكاها لي بنفسه، تدلُّ على قدرة الله ورحمته، وعلى صدق قوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ذكر لي رحمه الله أنَّ والده كان قد تزوَّج سيدة بورمية أسلمت، وبقي أهلها على الكفر (البوذية)، ولدت الشيخ إبراهيم، وتوفي والده على أثر ولادته، ثم ماتت أمه في طفولته، وكفله خاله البورمي البوذي، وكان قد نذر أن يهب أحد أولاده الصومعة البوذية لينشأ على الرهبانية على طريقة البوذيين، ويكون داعياً وراهباً بوذياً، ولم يولد له فاعتبر ابن أخته اليتيم ابنه الوحيد وأسلمه إلى صَوْمعة، وقضى الطفل المسلم مدة في هذه الصومعة لا يعرف عن والده ودينه شيئاً، ونشأ على طقوسهم وشعائرهم، ومن تقاليد الرهبان البوذيين أنهم يخرجون كل يوم في وقت مُعيَّن يمدون أيديهم إلى الناس، ويتكفَّفون ما يسدُّ رمقهم ويقُوتهم، وكذلك فعل هذا الولد الصغير، ولكن فطرته الإسلامية السليمة ثارت على هذا النظام، ومجَّت الطريقة الرهبانية والديانة البوذية، وأبى إبراهيم الصغير أن يعيش في هذا الظلام، وأدركه لطف الله فاشتكى ووجعت رجله فأرسله الرهبان إلى بيت خاله ليتعالج ويعود سريعاً، ووصل إلى بيته، ورفض أن يعود إلى الصومعة مرةً ثانية، وهدَّد خاله بالفرار إن أصرَّ على ذلك.

رفع قضيَّته إلى المحكمة:

واتَّصل الخبر بالمسلم الوجيه الفاضل التاجر الكبير الحاج محمد يوسف من أعيان بورما المسلمين، ومن كبار الصَّالحين المخلصين، فرفع الدعوى إلى المحكمة، وطالب هذا الولد الذي هو ابن صديقه المسلم أحمد الكجراتي، بحُجَّة أنه مسلم يريد أن يعيش مسلماً، وليس لخاله عليه حقٌّ شرعيّ، وتدرَّجت القضية في المحاكم، وصدر الحكم النهائي بتسليمه إلى الشيخ الحاج محمد يوسف.

دراسته في مظاهر العلوم:

وسارع الحاج فأرسله إلى الهند ليدرس في مدرسة مظاهر العلوم في سهارنبو التي اشتهرت بصلاح أساتذتها وتأثيرهم العميق في نفوس الطلبة، وبالجوّ الديني الهادئ الذي يسُودها، وكذلك كان، وقد بقي مولانا إبراهيم أحمد في مظاهر العلوم سنوات عديدة، ينهل من مناهلها الصافية، ويدرس العلوم الدينية، حتى تخرَّج فيها عالماً ضليعاً في سنة ١٩٣٩م، وتسلَّم القيادة الدينية والمركز المرموق الذي كان ينتظره في بلاده عن جدارة وإخلاص.

وفاته وتشييع جنازته:

واستقام على ذلك بحول الله حتى لقي ربه في يوم ٧ من مارس سنة ١٩٦٤م ولم يبلغ الـ٥٠ من عمره وشيَّع جنازته جَمْعٌ حاشد يقدر بعشرة آلاف، ويقول المعمَّرون في (رانجون): إنهم لم يشهدوا مثل هذه الجنازة وموكب التشييع الهائل ولا نصفه في هذا البلد التجاري المشغول في حياتهم الطويلة، وانهالت برقيات التعازي ورسائل الاعتراف والتقدير، وعُقدت حفلات التأبين في جميع أنحاء البلاد.

كان الثناء عليه وعلى مجهوداته وإخلاصه كلمة إجماع، وقضية ليس فيها نزاع، وكل ذلك يدل على القبول الذي وضعه الله في قلوب من عرفوه أو سمعوا به.

رحم الله الراحلَ العظيم وأثابه ورفع درجاته في العاملين المخلصين، ووفَّق وقوَّى صديقه القديم وزميله الدائم الشيخ محمود داود يوسف مفتي بورما الأكبر الذي انتُخب خليفة له، ورئيس جمعية العلماء والمشرف الأعلى على الصحيفة السَّيارة «دور جديد»، وألهم أهله وأصدقاءه وأبناء شعبه الصبر والسلوان.

ومن آثاره الباقية وصدقاته الجارية: دار العَجَزة المسلمين في (رانجون) التي أسَّسها، وكان يسهر عليها، وكان كثير الاعتناء بها.

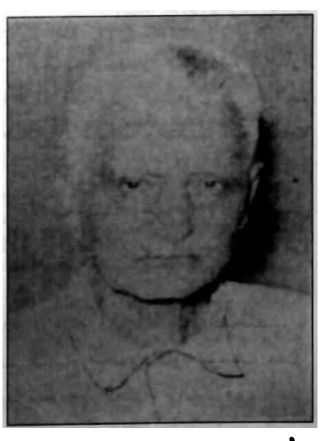




عباس محمود العقاد[1]

(١٣٠٦ ـ ١٣٨٣هـ)

(١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م)



للأستاذ محمد بسام الأسطواني

رَحِمَ الله العقَّاد، المُفكِّر العبقري، والأديب العملاق، والكاتب الفذ، والشاعر الرَّصين، والفيلسوف الباحث، والعصامي الحر، والمؤمن الصَّادق الذي توفَّاه الله ليلة الثاني عشر من آذار ١٩٦٤م، في القاهرة عن (٧٥) عاماً وأكثر من (٨٠) كتاباً قيِّماً، تشكل دائرة معارف من أوسع وأغنى دوائر المعارف المعاصرة، أغنت المكتبة العربية بألوان من الثقافة المتنوعة من دينٍ وأدبٍ وتاريخ وفلسفة واجتماع... من أنفس ما أُلِّف بالعربية، امتازت كلها بأصالة التفكير، وبراعة الأسلوب، ودقة التعبير، وقوة البيان وإشراقِهِ، وعمق البحث وطرافته.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

رثاء طه حسين للعقاد:

لذلك لم يكن كثيراً أن تجزع القلوب لوفاته، وتتعثر الأقلام قبل أن تهتدي لما يصلح للتعبير عن الأسى العميق لفقدانه، الذي كان له وقع المفاجأة التي أذهلت الجميع بالرغم من أن الموت حقٌ على العباد لا مفرَّ منه، ولعل أكثر ما يوضِّح حقيقة هذا الذهول الذي اعترى الكثيرين ما قاله الدكتور طه حسين في كلمته صبيحة وفاته يودِّعه ولا يرثيه ويعتذر بقوله ـ بالرغم مما كان بينه وبين العقاد من خصومة أدبية وسياسية ـ: «ولكني أصبح فإذا النبأ يفجؤني، فيقع عليَّ موقعَ الصاعقة، وأقسم لقد ذهلت له ذهولاً أفقدني الشعور، ولقد احتجت إلى وقت غير قصير وعناية متصلة لأثوب إلى نفسي، أو لتثوب نفسي إليّ، ولقد لبثت ساعات لا أصدِّق هذا النبأ، ولا أطمئن إليه حتى بعد أن رأيته في كلِّ صحف الصباح».

ويتابع طه حسين فيبدي حَيْرته في كيفيَّة رثاء العقاد وكأنها مشكلة يعجز عن حلها فيقول: «وما أدري عن أيِّ جانب من جوانبك يمكن أن يتحدَّث عنك الذين يأخذون في رثائك، وفي الترجمة لك؟! عن نضالك السياسي الذي لم يعرف هوادة ولا ليناً، ولم تصرفك عنه الأحداث ولا الخطوب، ولم يثنك عن المُضيّ فيه رَغَبٌ ولا رَهَب، أم عن تجديدك في الأدب شعراً ونثراً ونقداً، أم عن تعمُّقك للتاريخ الإسلامي وإتقانك تصوير أعلام الإسلام. . . أم. . »؟!!

ثم يحاول أن يتمالك نفسه ويستعيد رشده، فيقول: «أنا أعلم أنَّ الموت حق، وأنَّ كل نفس ذائقة الموت كما يقول الله عزَّ وجل، ولكني لم أكن أنتظر أن تُسرع إليه أو أن يُسرع إليك على هذا النحو، ولكن أمثالك تموت أجسامهم لأن الموت حقٌ على الأحياء جميعاً، ولكن ذكرهم لا يموت. . لأنهم فرضوا أنفسهم على الزمان وعلى الناس فرضاً!».

رثاء أمين نخلة للعقاد:

ولم يكن حظ الآخرين من الذهول والحزن أقل مما أصاب طه حسين، وهذا أمين نخلة يبرق إلى المجمع العلمي في القاهرة بالكلمة

التالية: «وفاة العقاد خسارة كبرى على الأدب العربي، أما البحث في شعره فشيء آخر»، وقال: «العقاد في الطبقات العلى، لا مثيل له في أوروبا أبداً، طه حسين أديب عالمي، ولكنه ليس أعلى من العقاد أبداً».

كلمة ميخائيل نعيمة عن العقاد:

كما أبرق ميخائيل نعيمة إلى المجمع العلمي بالكلمة التالية:

«قلم من أروع أقلام نهضتنا الأدبية، جفَّ مداده بموت عباس محمود العقاد، ولكن ينابيع الطاقات البيانية التي ساعد في تفجيرها ما جفت ولن تجف، لقد أغنى العرب والعربية بآثاره، وسيبقى اسمه من ألمع الأسماء في تلك الكوكبة المباركة التي حركت ما ركد في أعماقنا من الشوق إلى التجديد والإبداع، فأعادت الثقة بأنفسنا وبالأجيال الآتية بعدنا».

العقاد فرض نفسه على الناس بقوة فكره وغزارة علمه:

والحقيقة التي لا ريب فيها، أنَّ العقاد قد فرض نفسه فرضاً على الناس بقوة فكره وقلمه، وغزارة علمه وأدبه، بعد أن أثبت جدارته وتفوّقه بجهده الشخصي وعصاميته الفذَّة، وأن الإنسان يقاس بفكره وجهاده، ولا يقاس بشهاداته الدراسية التي لم يحصل هو منها إلا على الشهادة الابتدائية فقط..

تراجع العقاد أمام الرافعي:

فاستطاع أن ينتزع الإعجاب والاحترام والحب والتقدير حتى من خصومه الذين نالهم من سهامه ما هتك أستارهم خلال معاركه الكثيرة الأدبية والفكرية التي لم يرفع في واحدة منها الراية البيضاء ولا انسحب منها إلا منتصراً إلا ما كان بينه وبين أديب العربية الأكبر المرحوم مصطفى صادق الرافعي، فقد ألقى العقاد السلاح لأول مرة في تاريخه الفكري أمامه دون غيره، وليس ذلك بعجيب ولا يعيب العقاد تراجعه أمام الرافعي، لأنَّ الرافعي كان حُجَّةً في اللغة والأدب، وقمَّةً شاهقة شامخة تجاوزت في

شموخها جميع قمم الأدب واللغة، والرافعي هو الكاتب الوحيد الذي لم يستطع الأب أنستاس الكرملي، وهو حجة في اللغة والأدب العربي أن يعثر في كتبه ومقالاته على كلمة واحدة أو تعبير يخالف اللغة وأسلوبها العربي الفصيح.

تصدِّي العقاد لمفتريات أعداء الإسلام:

ولم تقتصر انتصارات العقاد على خصومه من كتّاب العربية، بل تناولت أولئك المتربِّصين بالإسلام ومن المستشرقين والمبشرين الغربيين الذين تصدوا للإسلام العظيم بمفترياتهم وأباطيلهم هادفين النيل من حقائقه الناصعة لطمسها بدافع الحقد الموروث عن الصليبيين والصهاينة المجرمين، فتصدَّى لهم العقاد بقلمه القوي فتلقَّف مفترياتهم فدَحَضها وكشفَ زيفها، وتتَبَّع آثارهم في الشرق والغرب، فما سمع بكتاب أو مقال ينال من الإسلام إلا وتصدَّى له وفضح زيفه وأغراضه، وتعقَّب أصحابه يكشف عن نواياهم الاستعمارية الخبيثة ويفضح أهدافهم، ويبيِّن جهلهم وكذبهم وتضليلهم، وكتابه الأخير: «ماذا يقال عن الإسلام؟» وقبله: «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» سِجِلٌ حافلٌ يشهد للعقاد بما أدّاه للإسلام من خدماتٍ وما ردَّ عنه من هجوم وعدوان..

لقد وقف العقاد سدّاً منيعاً في وَجْه أعداء الإسلام من غربيين وشرقيين ومحليين، لا يترك مناسبةً إلا ويتصدَّى لهم ولا يدعهم إلا صرعى مخذولين..

دراسات العقاد الإسلامية:

على أنَّ خدمته للفكر الإسلامي لم تقتصر على التصدِّي لمفتريات أعدائه، بل تتجلَّى في العدد الكبير من كتبه التي ألفها عن الإسلام وأبطاله وأعلامه فمن سلسلة: «العبقريات» إلى «الفلسفة القرآنية».. و«الله»، و«الإسلام في القرن العشرين».. إلى: «المرأة في القرآن الكريم».. و«الإنسان في القرآن الكريم» وغيرها كثير.

فترة النضج الفكري والأدبي:

ومن الجدير بالذكر: أن اتّجاه العقاد نحو الدراسات الإسلامية بدأ في فترة النضج الفكري والأدبي من حياته، بعد أن أمضى فترة شبابه الأولى لا يلتفت إلى هذه الدراسات، مشغولاً عنها بالتعمُّق في دراسة الأدب الإنكليزي والثقافة الأجنبية، ومدفوعاً بالعمل السياسي والصحافي الذي جرّه إلى معاداة دعاة الفكرة الإسلامية في فترة من الزمن، ثم لم يلبث أن تبيَّن له فداحة الخطأ الذي يرتكبه البعض في ابتعادهم عن دراسة التراث الإسلامي العظيم الغني بروائع التشريع والعقائد والأخلاق والفكر والأدب، لا سيما وأن هذا التراث هو بالنسبة للعرب تراثهم القومي ومصدر مفاخرهم وأمجادهم وحضارتهم التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في روعتها وإنسانيتها وغناها بالمآثر الخالدة، وكتابه «أثر العرب في الحضارة الغربية» خيرُ دليل على هذا المعنى، وخير توضيح لهذه الحقائق..

ضرباته القاتلة لأعداء اللغة العربية:

وإلى جانب ذلك ـ وما أكثر الجوانب التي أعجز عن تناولها والحديث عنها مما يتعلق بالعقاد ـ فقد وجّه العقاد ضرباتٍ قاتلةً وسهاماً فتاكة إلى فئة الكتّاب الذين يمثّلون المراهقة الفكرية التي عرف بها شباب ومخنثون يحترفون التطاول على مقدّسات اللغة العربية وآدابها، ويستعملون اللهجة العامية في قصصهم المائعة الداعرة، ومنهم أولئك الذين يزعمون التجديد في الشعر بما يكتبون من الشعر المنثور...

مراهقو الأدب والتفكير:

فهؤلاء وأولئك لم يتطاولوا هذا التطاول إلا لتغطية عجزهم عن الاستعداد الثقافي والنضوج الفكري، فجعل العقاد من تطاولهم عواءً تعافه الأسماع، وهراءً تذروه الرياح، وصراخاً لا يتجاوب معه سوى الصبية الصغار في الأزقة والدروب، ولذلك لم يكن غريباً أن نسمع من أولئك النفر من مراهقي الأدب والتفكير الهجوم المحموم والتطاول البليد على العملاق

الكبير الأستاذ العقاد واتهامه بالرجعية والجمود متخذين من هذه الألفاظ الفارغة وسيلةً للنَّيْل منه، زاعمين لأنفسهم التقدمية والتجديد بكل حمق وغرور!!.

آثار العقاد دائرة معارف غنية:

وبعد؛ فإنَّ العقاد سيظل حياً بآثاره الخالدة ومؤلفاته الكثيرة المتنوعة التي تشكل دائرة معارف حية غنية، تمدُّ الأجيال المتعاقبة بزاد طيْب من الثقافة والفكر والأدب لا ينضب على الزمن، حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها، ولئن ماتَ العقاد بجسمه فإنه حيٌّ بذكراه وكتبه التي تتلمذنا عليها وستتلمذ عليها الأجيال جيلاً بعد جيل.

رحم الله العقاد وغفر له وجعل مثواه الجنة، وعوَّض العالَمَيْن العربي والإسلامي والفكر الإنساني خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

□ □ □ □ □



للأستاذ محمد المبارك
عضو المجمع اللغوي بدمشق

من أعلام الفكر والأدب:

طوت هذه الأيام عَلَماً شامخاً من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، استطاع أن يحافظ على موقعه في الطليعة، ومنزلته في الصَدارة، خلال مدةٍ قاربت نصف قرن، مع مُسايرة للإنتاج الفكري العالمي في تطوُّره وتجديده وغزارة في الإنتاج زادت لم تنقص، وتجديد لم ينقطع، وتنوُّع في الثقافة في ميادين الفكر واللغة والأدب والنقد والفن، وعُمْق في التفكير، وجمع بين فهم التراث العربي، وتمثل الثقافة الأجنبية في شتى وجوهها ومذاهبها.

أشهر كُتَّاب العربية:

ولقد كان العقاد قبل عام ١٩٣٥م، من أشهر كتّاب العربية، وكانت كتبه: (مطالعات في الكتب والحياة ١٩٢٤م)، و(ساعات بين الكتب

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

١٩٢٧م)، و(الفصول ١٩٢٢م)، و(مراجعات في الأدب والفنون ١٩٢٥م)، هي الزاد الثقافي الذي كان يجد فيه طلاب الأدب والثقافة من أبناء الجيل مادةً دسمة يتثقفون بها، يجدون فيها كل جديد من مذاهب الفكر ونظرات الفن، ومعالجة لشتّى موضوعات الحياة الاجتماعية والأدبية.

أثر المنفلوطي والرافعي وطه حسين في أبناء الجيل المثقف:

ولئن كانوا يجدون يومئذ في المنفلوطي كاتباً عُرف بسلاسة أسلوبه، وسهولة تعبيره، ويأخذون منه مفردات اللغة الفصيحة السهلة، والتعابير الجميلة، دون أن يكون وراء ذلك فكر عميق أو إبداع.

وكانوا يجدون في الرافعي الأدب العربي الأصيل الذي وصلهم بقرون العربية الزاهرة من ناحيتي الفكر واللغة، إذ حطم لهم أصنام قرون الانحطاط، وأزال عن الأدب العربي ما غشيه من أثواب مُهَلْهَلَة، وران عليه من فكر سقيم، فبدا قوياً ناضجاً ينهل من مناهل العروبة وروحها.

ولئن كانوا وجدوا في طه حسين ثائراً على القديم، أراد أن ينقل من الغرب طريقة الشك في الأفكار والأحكام والقيم، ويطبقها في ميدان تاريخ الأدب من غير تمييز ولا تمحيص بين الحق والباطل والغث والسمين في أسلوب مُحبَّب إلى الجيل الناشىء يومئذ، فاستهواها بثورته هذه، واستغلَّ مَيْل الشباب الطبيعي إلى النقد والمعارضة، وتطلُّع الناس عامة إلى التجديد والتخلُّص من آثار جمود العصر ورواسب عصور الانحطاط، فسار إلى أبعد من ذلك جارّاً وراءه هذا الجيل المتطلّع إلى الثورة والتجديد، إلى غايات أبعد، مستغلاً أسلوبه الذي كان له يومئذ سحره وبريقه.

أثر العقاد في الجيل المثقف:

لئن وجد الجيل المثقف الطالب للمعرفة يومئذ هذا كله في المنفلوطي والرافعي وطه حسين، فإنهم كانوا يجدون في العقاد خلاصة نتاج الفكر الغربي في صوره الإيجابية البنّاءة في شتّى نواحي الحياة، كانوا يجدون فيه

مذاهب الفلسفة المختلفة، وألواناً من أدب الغرب، ونظرات جديدة رصينة في الأدب العربي القديم، ولم يكن يجتمع هذا كله في الأدباء الآخرين، فكان يمثّل الجانب الرصين من تطوُّر الأدب والفكر في العالم العربي، وكان النافذة التي يطل منها أبناء الجيل على آثار الغرب في ألوان تفكيره، وفنون أدبه، قبل أن يترجم من تلك الآثار إلا النّزر اليسير.

دراسة العقاد لابن الرومي نموذج للتحليل الأدبي:

ولقد كانت دراسة العقاد لابن الرومي في ذلك الكتاب الضخم الذي أخرجه للناس منذ أكثر من ربع قرن نموذجاً للتحليل الأدبي لشخصية الأديب ونتاجه الأدبي فيما تضمَّنته من التحليل النفسي والاجتماعي والنظرات الفنية، ولم تكن تقوم على أسلوب النفي والسَّلب والشك ومجرَّد التقويض والتهديم للإعلان والظهور، بل كانت دراسة نموذجية إيجابية اختطَّت للنقاد طريقاً جديداً، تلك كانت الصفحة الأولى من صفحات العقاد رحمه الله والمرحلة الأولى من مراحل حياته وإنتاجه كان فيها أستاذاً لجيل، وصاحب مذهب وطريقة.

الكشف عن تاريخ العرب وحضارة الإسلام:

ثم كانت للعقاد صفحة أولى لا تقل عظمة ولا أثراً عن الأولى، وذلك حين شقَّ طريقاً جديداً في الكشف عن تاريخ العرب وحضارة الإسلام، ولئن كانت المرحلة الأولى تمثّل في تاريخنا الحديث مرحلة النقل والاقتباس بطريقة واعية مبصرة متأنية رصينة لا يستخفها الطيش ولا الثورة السطحية، فإن المرحلة الثانية تمثل الشعور الذاتي، والكشف عن ذاتية الأمة وتراثها وشخصياتها التاريخية التي بلغت قمة الإنسانية ومعالم حضارتها وعقائدها، فقد ابتدأ العقاد رحمه الله هذه السلسلة بـ (عبقرية محمد ﷺ)، ثم كانت بقية حلقاتها: (عبقرية الصِّدِّيق)، و(عبقرية عمر)، و(عبقرية الإمام)، و(أبو الشهداء الحسين بن علي)، و(الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق)، و(عبقرية خالد)، و(بلال مؤذن الرسول)..

كشفه عن حقائق الإسلام:

ثم كان ذلك الإنتاج الضخم العميق الذي استطاع فيه العقاد أن يكشف عن حقائق الإسلام على مستوى من التفكير يضاهي أعلى ما يكتبه كتّاب العالم في طريقة بحثه، ونمط تفكيره، وقام بالمهمة التي ناء بها كثير من المشتغلين بهذه الموضوعات.

وذلك لما أُوتي من ثقافة واسعة في تاريخ الفلسفة، وتاريخ الأديان، وعلم النفس والاجتماع، فاستطاع أن يقارن ويوازن، وينقد ويناقش، وقد جاءت كتبه المتابعة في ميدان الثقافة الإسلامية آية في القوة والعمق، وسعة الأفق، وحُسْن العرض على أعلى المستويات الفكرية.

كتبه المتتابعة في ميدان الثقافة الإسلامية:

وقد وفّق توفيقاً كبيراً إلى عرض نظام الإسلام العام وفلسفته ونظراته ومبادئه في شتى آفاق الحياة، وذلك في كتابه: (الفلسفة القرآنية ١٩٤٧م) الذي اشتمل على مباحث أساسية في العقيدة والأخلاق والتصوف والعبادة والتشريع المتعلّق بالمرأة والزواج والميراث والعقوبات والعلاقات الدولية والعقوبات، وهذا الكتاب على إيجازه من خير ما أنتج العقاد رحمه الله، ثم أخرج كتاباً آخر عظيم القيمة في موضوعه وهو: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٩٥٧م) وفيه مباحث شيّقة، وتحليلاتٍ عميقة، ومقارنات علمية بين الأديان والمذاهب.

وأخرج رحمه الله عدداً من الكتب في هذا المجال منها: (الديمقراطية في الإسلام)، و(أبو الأنبياء إبراهيم الخليل) ويشتمل على تحقيق علمي يستند إلى المراجع اليهودية والمسيحية والوثنية والحفريات الأثرية بالإضافة إلى المراجع الإسلامية، ومنها: (مطلع النور) عن البعثة النبوية، و(المرأة في القرآن)، وآخر ما أخرج في مجال الدراسات الإسلامية (التفكير فريضة إسلامية)، وهذا الكتاب وأمثاله يدلُّ على سَعَة اطلاعٍ على تاريخ الفكر والحضارة، ومذاهب الفلسفة وتاريخ الأديان، كما يدلُّ على اطلاع واسع على النصوص الإسلامية، وهو كتاب قيّم في موضوعه دقيق في أفكاره.

دفاعه عن العربية الفصحى وتراثها:

وللعقاد رحمه الله اتجاه واضح ومواقف حازمة محمودة في الدفاع عن العرب وحضارتهم، وعن العربية الفصحى وتراثها، وقد أخرج في السنوات الأخيرة كتابه: (اللغة الشاعرة أو مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية)، وكتابه: (أشتات مجتمعات)، وكلاهما يدلُّ على تعمُّق في أبحاث فقه اللغة، وتمكُّن من أصول اللغة.

مراحل حياة العقاد الفكرية والأدبية:

وبالجملة: فإن تاريخ حياة العقاد الفكرية أو الأدبية خلال نصف قرن يمثل تاريخ المجتمع العربي خاصة والإسلامي عامة في هذه الحقبة الزمنية نفسها، فقد ابتدأ بمرحلة النقل والاقتباس، وعرض ما عند الغرب من فكر وحضارة، ولكنه نقل على مستوى عال، وهو كذلك نقل واع ليس بمقلد ولا أعمى، فكان رائد قومه في هذه المرحلة، ثم كان في المرحلة الثانية كاشفاً عن ذاتية أمته في خصائصها الأصيلة الفكرية والفنية، باحثاً منقباً في تاريخها، مُستخرجاً لخير ما عندها من تراث النبوات والحضارات، مفصحاً عما في دينها الخالد (الإسلام) من مبادىء إنسانية وتعاليم ربانية وأصول حضارية، باعثاً روح الاعتزاز بهذا الدين وما فيه من القيم الخالدة والمبادىء الصحيحة والعقائد القويمة، ولكنه اعتزازٌ يبنى على العلم والبحث والدليل المقنع لا على مجرَّد العاطفة والعصبية، وهو في ذلك كله قد بعث في أبناء الأمة العربية والناطقين بلغة العرب روح الدفاع عن حضارتهم وكيانهم ولغتهم ودينهم وتراثهم وأشعرهم بذاتيتهم وأصالتهم، واستطاع بما أوتي من بسطة العلم وقوة اللسان، وبما عرف من الثقافات الأجنبية أن يحرِّرهم من التبعيّة الفكرية والنفوذ الثقافي الأجنبي، وكان في كل ذلك رائداً لهم وطليعة لمثقفيهم، ومن أجل هذه الرسالة التي اضطلع بعبئها في إبراز مقومات الحضارة العربية ومعالم الإسلام كان هدف حملات الشعوبيين والماديين من أعداء العرب والعربية، ومن أعداء الإسلام وأعداء الروح الدينية عامة من أولياء الاستعمار وأنصار المادية والمبطنين لمختلف النزعات الإلحادية والشعوبية.

عَلَمٌ شامخٌ من أعلام هذا العصر:

رحم الله عباساً وأعلى في الحياة الأخرى مقامه، فلقد خدم الأمة، ودافع عن دينها، وذاد عن تراثها، وأدى الأمانة خير أداء، وكان عَلَماً شامخاً من أعلام هذا العصر في دنيا العروبة والإسلام، جليل القدر، واسع العلم، عميق الفكر، بليغ اللسان.

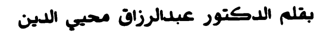
وليست كلمتي هذه إلا كلمة سريعة اقْتَضَتْها المناسبة، مناسبة حكم الله في انتقال العقاد رحمه الله إلى العالم الآخر، بعد أن انقضت في هذه الحياة الدنيا أيامه، والكتابة عنه رحمه الله تقتضي وقتاً طويلاً، ودراسة واسعة، وثقافة متنوّعة، فإنَّ له من الآثار ما قارب التسعين، ولو نثرت على أسلوب بعض الكتّاب المشهورين بأسلوبهم المترسّل من أبناء جيله لبلغت مئات عديدة من المجلدات، ولم يترك باباً من أبواب الأدب والشعر والتاريخ والفكر والدين إلا كتب فيه، ولا فناً من فنون الأدب إلا شارك فيه، فقد كان شاعراً له ديوان ضخم وكتب في القصة.

فلعلَّ عدداً من المفكرين والأدباء ينصرفون إلى دراسة آثاره والوفاء بذكراه وبما له في أعناقنا من حق، وفي ذممنا من دَيْن، أفاضَ الله عليه وابلاً من رحمته وفضْله وإحسانه، وأعلى في الجنان مقامَه، وغَفَر له وجعله مع الصّالحين من عباده.

□□□□□



انطباعات عن العقاد[١]



بقلم الدكتور عبدالرزاق محيي الدين



لست بسبيل دراسةٍ للرجل، وإنما هي انطباعات كوَّنتها من حضور مجلسه وقراءة كتبه، ورَصْد شخصيته الاجتماعية والسياسيَّة في الوسط المصري منذ عام ١٩٣٣م.

والآن والرجل في ذمَّة التاريخ عاد من حقه وواجبي أن أنشر انطباعاتي عنه:

تنوُّع فنون المعرفة:

١ ـ لا أعرف إنساناً عربياً اتَّسع لفنون المعرفة نظير ما اتَّسع لها العقاد، ولقد حفل التاريخ العربي الإسلامي بأعلام مارسوا فنون العلوم وكتبوا فيها، وظهرت لهم موسوعات أو رسائل اتَّسمت بالأصالة، ولكن حظوظهم كانت مختلفة بين كتاب وكتاب وفنّ وفنّ، ولكن العقاد بلغ من كلِّ فن غاية ما بلغه منوعو الثقافات والدراسات.

صناعة التأليف:

٢ ـ لا أعرف إنساناً عربياً امتدَّت به صناعة التأليف، واختلف عليها،

---

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

وحافظ من طلائع مؤلفاته إلى نهاياتها على مستوى موحّد أو متقارب من حيث الدقة الجدية والاستيعاب بمثل ما اتفق لمؤلفات العقاد.

التزامه بالرأي وإصراره عليه:

٣ ـ لا أعرف كاتباً عربياً يرى الرأي ويقيم عليه في غير حيدة أو تحوير منذ شبابه حتى شيخوخته نظير ما أقام «العقاد» على رأيه التزاماً وإصراراً وقناعة.

الحُريَّة الفرديَّة في التفكير والعمل:

٤ ـ كان الرجل يؤمن بالحرية الفردية في التفكير وفي العمل حقاً للفرد ووسيلة لصيانة الجماعة، وكان يؤمن بالحريات الجماعية وبالتنظيم السياسي ما كان تنظيماً مفتوحاً مبصراً، وما اتُّخذ وسيلة لاستثارة طاقات الفرد لخدمة الجماعة، لذلك حارب الشيوعية فلسفة ودولة قبل أن تقوم لها دولة لأنها لا تؤمن بالفرد، وحارب الدكتاتورية نازية وفاشستية لذلك، ولأنها تنظيمٌ أعمى غير مبصر، وظلَّ يطارد الثلاثة قبل وبعد أن تجرَّدت لتعريتها الأقلام.

إيمانه العميق المدرك:

٥ ـ تغيير واحد طرأ على (العقاد)، فعهدي به في الأربعينيات لم يكن على إيمان واثق بالأديان ـ كل الأديان ـ، ولكنه بعدها اقترب منها في يقين على ما يبدو من سيرته وآثاره.

وليس في ذلك كبير عجب، ففهم الدين لمن يأتيه عن إيمان مدرك يَستدعي مزيداً من العلم والنضج والتوفيق، ربما لم يبلغه العقاد في أطْواره الأولى.

شعر العقاد:

٦ ـ ورأيي في شعره أنه شعرٌ جيِّد، أضاف إلى دواوين الشعر العربي نموذجاً جديداً في التفكير وفي التعبير، ولكنه شاعرٌ غير مطبوع ولا مصنوع. وهذا رأيٌ ربما احتاج إلى شرح.

مؤلفات العقاد

وإتماماً لفائدة القارىء وخدمةً لمن يشاء أن يقف على مؤلفات الأستاذ العقاد نُدوّن له هذا الثبت[1]:

مؤلفات ذات موضوعات مختلفة:			
١ ـ خلاصة اليومية	١٩١٢	٢ ـ الشذور	١٩١٥
٣ ـ الفصول	١٩١٥	٤ ـ مطالعات في الكتب والحياة	١٩٢٤
٥ ـ مراجعات في الآداب والفنون	١٩٢٥	٦ ـ ساعات بين الكتب	١٩٢٧
٧ ـ يسألونك	١٩٤٧	٨ ـ بين الكتب والناس	١٩٥٢
٩ ـ على الأثير	١٩٥٣	١٠ ـ مراجعات	١٩٥٦
الكتب ذات الموضوع الواحد:			
١١ ـ الإنسان الثاني	١٩١٢	١٢ ـ مجمع الأحياء	١٩١٦
١٣ ـ الديوان في النقد	١٩٢١	١٤ ـ الحكم المطلق في القرن العشرين	١٩٢٨
١٥ ـ اليد القوية في مصر	١٩٢٨	١٦ ـ ابن الرومي ـ حياته ـ من شعره	١٩٣١
١٧ ـ عبقرية جيتي	١٩٣٢	١٨ ـ رواية قمبيز	١٩٣٢
١٩ ـ سعد زغلول	١٩٣٦	٢٠ ـ شعراء مصر في الجيل الماضي	١٩٣٧
٢١ ـ عالم السدود والقيود	١٩٣٧	٢٢ ـ سارة	١٩٣٨
٢٣ ـ رجعة أبي العلاء	١٩٣٩	٢٤ ـ هتلر في الميزان	١٩٤٠
٢٥ ـ النازية والأديان	١٩٤٠	٢٦ ـ عبقرية محمد	١٩٤٢
٢٧ ـ عبقرية عمر	١٩٤٢	٢٨ ـ شاعر الغزل	١٩٤٣
٢٩ ـ الصدِّيقة بنت الصديق	١٩٤٣	٣٠ ـ عمرو بن العاص	١٩٤٤
٣١ ـ جميل بُثينة	١٩٤٤	٣٢ ـ هذه الشجرة	١٩٤٥
٣٣ ـ أبو الشهداء الحسين	١٩٤٥	٣٤ ـ داعي السماء بلال	١٩٤٥

(١) نقلنا مقال الدكتور عبدالرازق محيي الدين المتقدم مع القائمة بأسماء كتب العقاد عن مجلة (الكتاب) العراقية تعميماً للفائدة (حضارة الإسلام).

٣٥ ـ عرائس وشياطين	١٩٤٥	٣٦ ـ عبقرية خالد	١٩٤٥
٣٧ ـ في بيتي	١٩٤٥	٣٨ ـ فرنسس باكون	١٩٤٥
٣٩ ـ أثر العرب في الحضارة الأوربية	١٩٤٦	٤٠ ـ الشيخ الرئيس ابن سينا	١٩٤٦
٤١ ـ الله	١٩٤٧	٤٢ ـ الفلسفة القرآنية	١٩٤٧
٤٣ ـ روح عظيم (المهاتما غاندي)	١٩٤٨	٤٤ ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين	١٩٤٨
٤٥ ـ عبقرية الإمام	١٩٤٩	٤٦ ـ برنارد شو	١٩٥٠
٤٧ ـ فلاسفة الحكم في العصر الحديث	١٩٥٠	٤٨ ـ عبقرية الصديق	١٩٥١
٤٩ ـ الديمقراطية في الإسلام	١٩٥٢	٥٠ ـ ١١ يوليو ضرب الإسكندرية	١٩٥٢
٥١ ـ القائد الأعظم محمد علي جناح	١٩٥٢	٥٢ ـ سن ياتسن	١٩٥٢
٥٣ ـ عبقرية المسيح	١٩٥٣	٥٤ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون	١٩٥٣
٥٥ ـ ابن رشد	١٩٥٣	٥٦ ـ أبو الأنبياء	١٩٥٣
٥٧ ـ أبو نواس	١٩٥٣	٥٨ ـ ذو النورين عثمان	١٩٥٤
٥٩ ـ ألوان في قصة في الأدب الأمريكي	١٩٥٤	٦٠ ـ مطلع النور طوالع البعثة المحمدية	١٩٥٥
٦١ ـ الشيوعية والإنسانية	١٩٥٥	٦٢ ـ الإسلام في القرن العشرين	١٩٥٥
٦٣ ـ الصهيونية العالمية	١٩٥٥	٦٤ ـ إبليس	١٩٥٥
٦٥ ـ معاوية في الميزان	١٩٥٦	٦٦ ـ جحا الضاحك	١٩٥٦
٦٧ ـ أفيون الشعوب	١٩٥٦	٦٨ ـ بنيامين فرانكلين	١٩٥٦
٦٩ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	١٩٥٧	٧٠ ـ لا شيوعية ولا استعمار	١٩٥٧
٧١ ـ الإسلام والاستعمار	١٩٥٧	٧٢ ـ التفكير فريضة إسلامية	١٩٥٧
٧٣ ـ التعريف بشكسبير	١٩٥٨	٧٤ ـ القرن العشرين ما كان وما سيكون	١٩٥٩
٧٥ ـ المرأة في القرآن الكريم	١٩٥٩	٧٦ ـ الرحالة كاف عبدالرحمٰن الكواكبي	١٩٥٩
٧٧ ـ الثقافة العربية أسبق	١٩٦٠	٧٨ ـ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	١٩٦٠
٧٩ ـ اللغة الشاعرة	١٩٦٠	٨٠ ـ شاعر أندلسي وجائزة عالمية	١٩٦٠
٨١ ـ الإنسان في القرآن	١٩٦١	٨٢ ـ الشيخ محمد عبده	١٩٦١
٨٣ ـ مذهب ذوي العاهات	١٩٦٢	٨٤ ـ رجال عرفتهم	١٩٦٣

يضاف إليها عشرة دواوين، فيكون مجموع ما صَدَر له من مؤلفات حتى يوم وفاته (٩٥) كتاباً، وهناك ثلاثة كتب صدرت حديثاً هي:

٩٦ ـ اليوميات في أربعة أجزاء.

٩٧ ـ الغزالي.

٩٨ ـ ما يقال عن الإسلام.





الدكتور عبدالحليم نجار[1]
(٠٠٠ ـ ١٣٨٣هـ)

للدكتور مازن المبارك

رئيس المركز الإسلامي بواشنطن:

نعت إذاعة القاهرة في الشهر الماضي الأستاذ الكبير الدكتور عبدالحليم النجار، رئيس المركز الإسلامي بواشنطن، وقد توفي وهو على رأس عمله، فصُلّي عليه في مسجد واشنطن، ونُقل جثمانه إلى القاهرة، وأقام له المركز الإسلامي الذي كان يرأسه حفلاً تأبينياً، تكلّم فيه عدد من علماء الشرق والغرب.

مرضهُ ووفاته:

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ على أثر مرض لازمه في السنتين الأخيرتين من حياته حمّله الكثير من الآلام، ولكنه رغم خطورته لم يقعده عن القيام بواجبه في التعليم والتوجيه حتى قضى بعيداً عن الأهل والوطن في سبيل العمل الذي نذر له نفسه.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م).

في ميادين العمل العلمي والإسلامي:

وقد كان أستاذنا النجار ـ رحمه الله ـ واحداً من الرجال الفلائل الذين تضنُّ بأمثالهم الأيام والأجيال إيماناً وإخلاصاً، وخُلقاً وفضلاً، وعلماً وعملاً.

عرفته الجامعات في مصر والعراق، وعرفته ميادين العمل العلمي والإسلامي في أوروبا وأمريكا فعرفت فيه خلق العالم المسلم.

عمله في كتاب «المحتسب» لابن جنِّي:

كان في العلوم الإسلامية واسعَ المعرفة، شديدَ الغَيْرة، كثير التدقيق. وكم من مرة دخلت عليه حين كان يعمل في كتاب (المحتسب) في توجيه القراءات الشاذة لابن جنّي، فإذا هو غارق بين عشرات الكتب من تفاسير وقراءات ولغة ونحو، تمرُّ به المسألة فيطيل فيها فكره، ثم يجيل بصره حتى يأخذ كتاباً، ثم يدعه إلى غيره.. وهكذا يتابع الآراء حتى يصل إلى اليقين الذي يطمئن إليه، فيبتسم ويطيل النفس، وتعلو وجهه بسمة الظفر والرضى.

رسوخه في علوم العربية:

وهو في علوم العربية ذو قدمٍ راسخة وبصرٍ نافذ وحافظةٍ عجيبة، ملمٌ بالأصول والمتون إلى استيعاب عجيب للجزئيات المتفرّقة والآراء المتباينة.

جمعه بين الثقافتين الإسلامية العربية والغربية الحديثة:

لقد استطاع ـ عليه رحمة الله ـ أن يجمع الثقافة الإسلامية العربية الأصيلة ـ يوم كانت ثقافة الأزهر كذلك ـ إلى الثقافة الغربية الحديثة جمعاً واعياً لم تعق الأولى فيه الثانية، ولم تَحُل دونها، ولم تَطْغ فيه الثقافة الغربية على شخصيَّته الإسلامية الأصيلة كما طغت على كثير من العرب (المستغربين) فأفقدتهم أصالتهم وأذابت شخصياتهم.

خلقه الكريم:

وبعد، فلعلَّ أهمَّ ما كان يميِّز أستاذنا النجار ما عرفه أصدقاؤه وطلابه من خلقه الكريم، فلقد كان إلى علمه الواسع ومجتمعه الذي كثُر فيه الأدْعياء والدجل، كثيرَ التواضع جمَّ الأدب. تراه بين العلماء جريء الرأي، مسموع الكلمة، وتراه بين طلابه فإذا هو صديق متواضع كثير التهذيب، وهو يبدي رأيه في الحالين بلطف ولباقة ووضوح، بل لقد رأيته غير مرة يحمرُّ وجهه خجلاً حين يهم بردِّ طالب مخطىء إلى جادَّة الصواب... ولقد سمعته غير مرة يقول لبعض طلابه: لعلَّ الأمر كذا.. فابحث عنه. وهو يعلم أنَّ ما يقوله عين الحقيقة، ولكنها أخلاق المرشد الفاضل.

إنَّ أستاذنا النجار ـ رحمه الله ـ قد علمنا أخلاق العلماء، وأفاض علينا من نُبله وخُلقه بقدر ما أفادنا من علمه وعقله.

مختاراته المترجمة:

ولعلَّ الذين عرفوا الدكتور النجار في مختاراته المترجمة، عرفوا فضله وذوقه واتجاهه، فلقد ترجم عن اللغة الألمانية خير ما كتبه مستشرق عن اللغة العربية، وهو كتاب (العربية) ليوهان فك، وكانت ترجمته تدل على تمكُّنه رحمه الله من اللغتين العربية والألمانية إلى درجة جعلت اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية تعهد إليه بنقل كتاب بروكلمان الضخم «تاريخ آداب اللغة العربية» من الألمانية إلى العربية، وقد بذل في سبيل ذلك جهداً رائعاً جباراً.

ترجمته كتاب بروكلمان «تاريخ آداب اللغة العربية» وتعقيبه عليه:

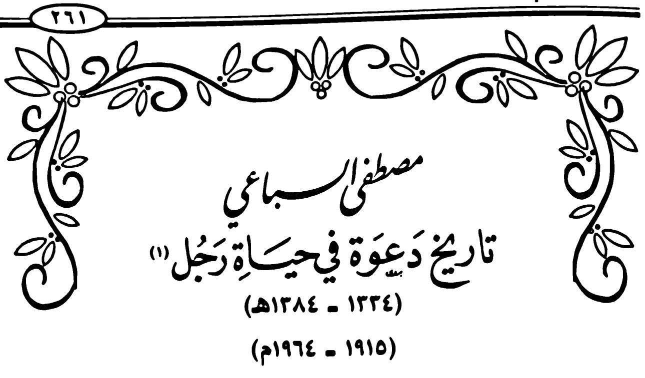
ولست أنسى يوماً زرته فيه فإذا هو كثير الضيق، بادي الحرج، فاستوضحته الأمر فإذا هو حائر بين واجب علمي يقتضي منه أن يصحِّح أو يُعلق على كتاب بروكلمان الذي ينقله إلى العربية، وبين مقتضيات رسمية توجب إخراج النص الأصلي بأقل ما يمكن من التعليق... ولم يخرج من

ضيقه ذاك ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن قرر إخراج جزء خاص يعقب فيه على ما ذكره بروكلمان في أجزاء كتابه وملحقاته.

إنَّ فقدان الأستاذ النجار خسارة لا تُعوّض. فرحمة الله عليه.

وإني لأسأل الله تعالى أن يُحسن إليه بقدر إحسانه إلى دينه ولغة قرآنه. وأسأله أن يُحسن إليه بقدر إحسانه إلى طلابه. وأسأله تعالى أن تسعه رحمته كما وسعنا صدره الرّحب وحِلْمه الواسع، فلطالما والله أزعجناه وضايقناه فما وجدنا لديه إلا بشاشة الوجه وَسَعة الخلق. اللهمَّ ارحمه ثم ارحمه، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله.





مصطفى السباعي
تاريخ دعوة في حياة رجل(١)
(١٣٣٤ - ١٣٨٤هـ)
(١٩١٥ - ١٩٦٤م)

للأستاذ محمد بسام الاسطواني



ولادته ونشأته:

وُلد الفقيدُ عام ١٩١٥م في مدينة حمص من أسرة علمية عريقة هي من أكرم الأسر الحمصيّة وأغناها بالعلم والعلماء منذ مئات السنين، وكان أبوه وأجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل، وقد تأثر في أول نشأته بأبيه العالم الفاضل والمجاهد الثائر والخطيب البليغ الشيخ

(١) حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، من السنة الخامسة: (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) عدد خاص بفقيد الإسلام الدكتور مصطفى السباعي.

حسني السباعي عليهما رحمة الله ورضوانه، فلقد كان لأبيه مواقف مشرفة مع أعداء البلاد، فكان في طليعة العاملين والمؤيدين للحركات الوطنية، وقد ساهم بقسط وافر في المقاومة المسلحة ضد الإفرنسيين، وقيادة المجاهدين الثائرين ضد الاستعمار والمستعمرين والطغاة والمستبدين.. كما كان رحمه الله من مُحبّي الخير مساهماً في تأسيس الجمعيات الخيرية والمشاريع الاجتماعية، مغيثاً للملهوفين، مدافعاً عن المظلومين والبائسين.. فكان لذلك أثر كبير في نشأة فقيدنا الراحل، ولقد رافقت نشأته أيضاً ظروف قاسية كانت تمر بالبلاد فكان لذلك كله أثره في دفعه منذ حداثته في طريق الكفاح الوطني ضد أعداء البلاد من المستعمرين وعملائهم.. وفي طريق الجهاد الديني لإعلاء كلمة الله وحرب أعدائه.. إلا أنَّ هذه الظروف لم تحل دون إقباله - رحمه الله - على العلم وحضور مجالسه، ولقد كان يصحب أباه إلى مجالس العلم التي كان يعقدها مع لفيف من فقهاء حمص وعلمائها الأخيار، نذكر منهم الشيوخ الأساتذة: طاهر الرئيس، سعيد الملوحي، فائق الأتاسي، راغب الوفائي، محمد البني، ولم يبق منهم على قيد الحياة - يرحمهم الله - إلا الشيخ طاهر الرئيس بارك الله في عمره... حيث كانوا يتدارسون الفقه، ويتناقشون في أدلة مسائله، وكان فيهم الحنفي، وفيهم الشافعي، وكان فقيدنا عليه رحمة الله - على صغر سنه - يحضر مع أبيه هذه المجالس مما حَبَّب إليه أجواءها، وكان لها أثرها في تكوينه العلمي، وقد دفعه أبوه بعد ذلك وشجّعه لدراسة علوم الشريعة وبخاصّة دراسة الفقه المقارن، ومسالك الأئمة في اجتهاداتهم، فصار رحمه الله كما أراد له أبوه عالماً فقيهاً من نوادر العلماء الفقهاء..

طلبه العلم:

بدأ بحفظ القرآن الكريم، وتلقّي مبادئ العلوم الشرعية على أبيه حتى بلغ السنّ التي تُخوّله دخول المدرسة الابتدائية، حيث التحق بالمدرسة المسعودية الابتدائية، وبعد أن أتمّ فيها دراسته الابتدائية بتفوّق ظاهر، التحق بالثانوية الشرعية، حيث أتم فيها دراسته عام ١٩٣٠م بنجاح

باهر، لفت أنظار كبار أساتذته الذين كانوا يتوقعون له مستقبلاً علمياً باهراً لما كان يتمتع به من الذكاء المبكر والنباهة المتوقدة والبديهة الحاضرة، والنشاط المتوثّب، فقد كان رحمه الله منذ صغره حركة دائبة لا تعرف الكلل ولا الملل ولا الفتور.. فكان لذلك محط إعجاب أساتذته وأقرانه وجميع معارفه.. ولم يقتصر في دراسته الشرعيّة على المناهج المدرسية وإنما كان إلى جانب ذلك يحضر - كما ذكرنا - مجالس العلم التي كان يعقدها والده مع كبار فقهاء وعلماء حمص، وبالإضافة إلى ذلك كان يتردّد على غيرهم من علماء حمص يتلقى عنهم العلوم الإسلامية المختلفة أمثال العلماء السادة المشايخ طاهر الأتاسي مفتي حمص في ذلك الوقت، وزاهد الأتاسي، ومحمد الياسين عبدالسلام، وأنيس كلاليب وغيرهم.

كما أنه كان مُولعاً بالمطالعة والبحث في كتب الأدب والثقافة المختلفة، وأثناء ذلك كان يلقي خطبة الجمعة في كثير من الأحيان في الجامع الكبير، نيابةً عن أبيه، وهو فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة، ممّا جعله يحتل مكانة مرموقة في بلده، وحاز إعجاب الجماهير التي كانت تَتوقُ لسماع خطبه القوية الحماسية التي طالما ألهب فيها المشاعر، وأيقظ العقول والقلوب بجرأته النادرة وعرضه الجذّاب وأسلوبه المثير وفكرته الواضحة..

متابعة دراسته الشرعية بمصر:

ورأى بعد ذلك أن يتابع دراسته الشرعية فسافر إلى مصر والتحق بالجامعة الأزهرية، وانتسب إلى قسم الفقه، وذلك في عام ١٩٣٣م، فأدهش أساتذته هناك لما أبداه من تفوّق باهر، جعل اسمه على كل لسان بين جميع أساتذته وزملائه، ثم انتسب إلى كلية أصول الدين، ونال إجازتها بتفوق، والتحق بعدها بقسم «الدكتوراه» لنيل شهادتها في التشريع الإسلامي وتاريخه، وقد قدّم أطروحته العلمية وموضوعها «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» التي نالت درجة الامتياز بعد أن ناقشتها لجنة من كبار علماء الأزهر، وكان

ذلك عام ١٩٤٩، وقد أدهش اللجنة بدقته العلمية، واستيعابه للموضوع من كل جوانبه، وما أبداه من آراء ومناقشات، ودفاع دَحَض به شبهات المستشرقين وأعداء السنة النبوية بأدلة علمية دامغة، ولقد أصبح هذا الكتاب القيم من أهم المراجع العلمية في موضوعه، ومن أمضى الأسلحة في الدفاع عن السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لكلِّ باحث وعالم، وطالب علم. . .

مباشرته التدريس والوظائف التي شغلها:

أحبَّ رحمه الله مهنة التدريس رغبةً منه في نشر العلم وتربية النشء على أخلاق الرجولة والفضيلة، وأدرك أهمية التدريس في تكوين هذا النشء وإعداد الأجيال إعداداً يناسب ما ينتظرها من مسؤوليات وأعباء لتحرير البلاد من الاستعمار وآثاره، واستعادة فلسطين التي كانت وكل قضية عربية وإسلامية شغله الشاغل، وليساهموا في بناء مجتمعهم على أسس متينة من العلم والأخلاق والشعور بالمسؤولية، لذلك انخرط في سلك التعليم فكان يدرس اللغة العربية والتربية الدينية في مدارس حمص الثانوية، ثم عندما انتقل إلى دمشق عمل مع فئة من إخوانه على إنشاء مدرسة تحقِّق ما يصبو إليه من أهداف في التربية والتعليم؛ لأنه لم يكن يرى في مناهج المدارس الحكومية ما يحقق الهدف المنشود، فضلاً عن فقدان عنصر التربية السليمة فيها، فأسَّس (المعهد العربي) في دمشق الذي انضمَّت إلى إدارته بعد ذلك جمعية التمدن الإسلامي رغبة في توسيع المشروع ودعمه، فأصبح اسم المعهد (المعهد العربي الإسلامي) الذي ما زال قائماً إلى الآن رغم أنه لم يعد لمؤسسيه أية علاقة به لظروف شتى. . ولم يقتصروا على إنشاء هذا المعهد في دمشق، بل فتحوا له فروعاً في معظم المحافظات، وكان فقيدنا رحمه الله أول مدير لهذا المعهد الذي خرج في زمانه عدداً كبيراً من الطلاب ممَّن شغلوا فيما بعد وظائف تدريسية وغيرها من مختلف الوظائف والأعمال، وكانوا من خيرة ما أنتجته المدارس في بلدنا علماً وخلقاً وشعوراً بالمسؤولية. .

تدريسه في كلية الحقوق بجامعة دمشق:

ولكن مؤهّلاته الفطرية وإمكانياته العلمية، وطاقاته المبدعة، كانت تهيء له مهمة أكبر فوقع عليه الاختيار ليكون أستاذاً في كلية الحقوق بجامعة دمشق، فعيّن فيها منذ عام ١٩٥٠م فكان من ألمع أساتذة الجامعة في فنّ التدريس وخصْب الإنتاج العلمي.. ولكن هذا المنصب الجديد لم يكن ليستوعب إلا جزءاً من نشاطه وطاقاته المُتوثِّبة المتوقّدة.. كما أن طموحه العلمي وشعوره بالمسؤولية نحو دعوته وفكرته وبلاده كان أكبر من أن يقنعه بما وصل إليه، ففكر في إنشاء كلية خاصة مستقلة للشريعة الإسلامية تكون إحدى كليات الجامعة وتعمل على تخريج علماء في الشريعة الإسلامية على أرفع المستويات العلمية والفكرية.. وأراد أن يثبت بذلك جدارة التشريع الإسلامي لتحقيق الخير والتقدم والازدهار لأمتنا ولكل أمة، في عصرنا وفي كل عصر..

تأسيسه كلية الشريعة وتسلُّمه عمادتها:

ولقد نجحت مساعيه رغم العراقيل والصعوبات التي وضعت في طريقه لإخراج هذه الكلية إلى عالم الوجود فكان أن تم تأسيسها عام ١٩٥٥، وكان أول عميد لها إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الحقوق واضطلاعه بكافة المسؤوليات العامة الملقاة على عاتقه كداعية وصاحب فكرة.. ولقد عمل منذ تسلمه عمادة كلية الشريعة بالتعاون مع إخوانه من الأساتذة الجامعيين الذين يؤمنون بفكرته على إرساء دعائم هذه الكلية على أمتن الأسس العلمية والفكرية والأساليب الحديثة لتحقق الهدف المنشود في تخريج أجيال من العلماء الدعاة والفقهاء والمدرسين الجديرين بحمل لواء الفقه الإسلامي ونشره والتمكين له..

والحق أن عملاً مثل هذا العمل لو قامت به جماعة من أصحاب المواهب والإمكانيات لكفاها فخراً ومأثرةً ومجداً وخلوداً.. ولكن السباعي رحمه الله كان طاقة جبّارة لا تعرف الوقوف عند حد.. ولا تعرف القناعة

والاكتفاء بالعمل في ميدان واحد.. والحق كذلك أنَّ السباعي عليه رضوان الله كان أمة حية دائبة النشاط والحركة والتوثُّب والتطلُّع إلى أكبر الأهداف وأسمى الغايات...

إنشاء موسوعة الفقه الإسلامي:

فلم يكتف بالسَّعي لتأسيس كلية الشريعة، وإنما كان يهدف لإحياء التراث الفقهي الإسلامي العظيم، وبعثه بقالب جديد يلائم التطورات الاجتماعية والتشريعية الحديثة، فعمل بالتعاون مع إخوانه الذين شاركوه تأسيس كلية الشريعة على إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي تهدف إلى إحيائه وصياغته صياغة جديدة وتبويبه وتصنيفه على أحدث الأساليب المتَّبعة في أرقى الموسوعات العلمية والقانونية في العالم لتكون مرجعاً لكل فقيه وعالم ولتلبِّي حاجة التشريع عندما تتهيّأ الظروف لإقامة كافة تشريعات بلادنا على أساس الإسلام. وتحقيقاً لذلك ركب كل صعب حتى أخرج المشروع إلى حيِّز الوجود، وكان أول رئيس لهذه الموسوعة التي جمعت خيرة العناصر العلمية والفقهية والقانونية في الجامعة.

وكان رحمه الله بالإضافة إلى ذلك رئيساً لقسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق...

عنايته بمناهج كلية الشريعة:

وكان يرى أن مناهج كلية الشريعة لا يجوز أن تقتصر على تلقين العلوم الجافة، وأن غاية الكلية ليست تخريج العلماء والفقهاء فحسب، وإنما كان يريد أن يكون خريجو الشريعة علماء ودعاة، وللدعوة فن وروح وإذا كان العلم يصنع العلماء فإن التربية والتوجيه يصنع الدعاة، ولذلك عني رحمه الله بمناهج التربية والتوجيه في الكلية.

درسه الأسبوعي «قاعة البحث»:

فبالإضافة إلى الروح التوجيهية التي كان يحرص على بثها في كافة

المناهج العلمية، عمل على توجيه الطلاب توجيهاً مباشراً فأحدث درساً أسبوعياً سماه: «قاعة البحث» وقد تولّى بنفسه إدارة هذه القاعة وإلقاء محاضراتها التوجيهية، وكان رحمه الله حريصاً على عدم الانقطاع عن قاعة البحث لأيِّ عذر أو سبب ولو كان المرض الشديد والآلام المبرحة. . .

همّته العالية وعزيمته الماضية:

وكم كنت أعجب من همته وحيويته وإخلاصه واندفاعه لأداء الواجب رغم ما يعانيه من الآلام التي تنوء بها الجبال الراسيات. . وإني لأذكر عندما كنت أتوسّل إليه وأرجوه بإلحاح أن لا يحمِّل نفسه ما لا تطيق، وكنت أحاول أن أثنيه عن عزمه في كثير من الأحيان كي لا يذهب إلى الجامعة لإلقاء محاضرات «قاعة البحث» إشفاقاً عليه لما أعلمه من شدّة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة واحدة في مرضه الأخير، ونظراً لما كانت هذه المحاضرات تكلّفه من جهد وتعب وإرهاق لا سيما في أيام الشتاء الباردة. . ولكنه رحمه الله لم يكن يُصْغي لذلك، وكان يقول: «خير لي أن أموت وأنا أقوم بواجبي نحو الله من أن أموت على فراشي فالآجال بيد الله، وإنَّ ألمي من حرمان الطلاب من دروس التوجيه أشد وأقسى من آلامي الجسدية، وحسبي الله وعليه الاتّكال» وكنت حين أسمع منه هذا الكلام، وأرى منه هذه العزيمة الماضية، والهمّة الخارقة، وهو مريض يعاني الآلام لا أتمالك نفسي من البكاء والخشوع أمام هذا الدرس البليغ في التضحية والإيثار فرحمة الله عليك يا أستاذنا الجليل، لقد كنت قمة شامخة هيهات هيهات لغيرك أن يدانيها إلا أن يكرم الله الأمة الإسلامية برجل مثلك يحمل ما حملت وينتج ما أنتجت. . .

مناصبه السياسيّة وثقة الأمة به وتكريمها له:

لم يكن السباعي رحمه الله ابن حمص وحدها، ولا ابن مدينة غيرها، ولكنه كان ابن العالم الإسلامي أو على الأصح ابن الإسلام أينما كان وفي كل مكان. فلذلك لم يكن كثيراً أن تمحضه دمشق ثقتَها، وكان لم يمض

على إقامته فيها سوى بضع سنين، فانتخب نائباً عنها، بل نائباً عن الأمة بأسرها في الجمعية التأسيسية التي تحوّلت بعد وضع الدستور إلى برلمان ١٩٤٩ ـ ١٩٥٤م، فكان أهلاً لهذه الثقة، وسرعان ما لمع نجمه كبرلمانيّ شعبيّ متفوّق، إذ كان الصدى الحقيقي المعبر لأماني الشعب وآلامه، والصوت المدوي المجلجل لجماهيره يصدع بالحق ولا يداري، ويقارع الباطل والفساد ولا يهادن، ويترفع عن المكاسب والمغانم ولا يساوم... فاتّجهت إليه الأنظار والتفت حوله القلوب داخل البرلمان وخارجه.. فانتخب نائباً لرئيس المجلس، وأصبح عضواً بارزاً في لجنة الدستور العامة، وأحد الأعضاء التسعة الذين وضعوا مسودة الدستور وقدّموها إلى اللجنة العامة لإقراره بعد أن ضمّنه مواد إسلامية رائعة.

إيثاره العمل الشعبي على المناصب:

وقد بذلت له العروض بإلحاح مُغْر للدخول في الوزارات المتعاقبة فتأبى مُؤثراً العمل الشعبي والبقاء بين الجماهير، يعيش مشكلاتها وقضاياها عن الانشغال عنها بالمناصب والمغانم.. ولو أردنا الحديث عن أعماله وجولاته داخل البرلمان لاحتجنا إلى مجلد كبير يسع نشاطه البرلماني.. وإذا أردنا أن نعرف كيف حصل فقيدنا الراحل عليه رضوان الله على هذه الثقة وهذا الحب فلنرجع إلى بداية كفاحه الوطني وجهاده في سبيل دعوته وبلاده وأمته يوم كان فتى صغيراً.

بداية الكفاح والانطلاق في العمل العام:

كنا ذكرنا أنّ ظروفاً قاسية كانت تمر بالبلاد رافقت نشأة فقيدنا، من استعمار وفساد وتخلف وجهل وبؤس ومظالم اجتماعية وسياسية، فأثرت الظروف على الفتى الصغير، وعملت على تفتيح عينيه على الواقع السيئ الذي تعيشه البلاد.

وبالرّغم من صغر سنّه فقد كان مُتحسّساً هذه المآسي والمظالم، وهذا

الواقع، مستشعراً مسؤوليته كمواطن يريد أن يرى بلاده حرة مستقلة قوية، تنعم بالحرية والرخاء والعدالة.. فهبَّ متمرداً على هذا الواقع السيئ، وقام يجمع أصدقاءه للقيام بعمل لإيقاظ المشاعر العامة وتعبئة القوى ضد أعداء البلاد وضد الانحراف المتفشي بكل ألوانه، فكان تمرده مبكراً وسابقاً لسنه، كما كانت أعماله أكبر من عمره، ولكنها لم تكن أكبر من مواهبه وإمكانياته وتفكيره وهمته، وقد ساعده على ذلك وعْي مبكر للأمور ويقظة وفطنة وإباء ومروءة ورثها عن آبائه وأجداده..

مقاومة مدارس التبشير الأجنبيَّة:

وكان أول عمل قام به تأليف جمعية سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي أنشئت بمساعدة وحماية السلطات الاستعمارية الفرنسية أيام الانتداب، هذه المدارس التي كانت تنفث سمومها الاستعمارية الخبيثة في أبناء (الطبقة الراقية).. وتُحبِّب إلى طلابها الثقافة الغربية والأخلاق والعادات الإفرنجية، وتعمل على إبعادهم عن عقيدتهم وثقافتهم الدينية والعربية. فعمل على محاربتها، وأخذ يكتب المنشورات ويعمل على طبعها سراً، ويتولى مع رفاقه توزيعها على الناس داعياً فيها إلى محاربة الاستعمار ومدارسه ومظالمه وجرائمه.. وكان يعقد لذلك الاجتماعات السريَّة رغم شدَّة وطأة الأحكام العرفية التي كانت مفروضة على البلاد.

إعلانه الحرب على الاستعمار:

ولكن العمل السري لم يكن ليشفي غليله وهو الجريء الذي لا يعرف الخوف إلى قلبه المؤمن سبيلاً.. فقام يعلن الحرب على الاستعمار وجرائمه من فوق المنابر بخطب مثيرة قوية، ويدعو المصلين في كثير من الأحيان إلى التظاهر والمقاومة، وكان يسير على رأس هذه المظاهرات الصاخبة التي كان يقودها غير عابئ بالأحكام العرفية والإرهاب المفروض على البلاد ممَّا أزعج السلطات الاستعمارية والحاكمة التي ضاقت به ذرعاً ولم تر سبيلاً للخلاص منه إلا باعتقاله وزجّه بالسجن، فألقت عليه القبض لأول مرة عام

١٩٣١ بتهمة توزيع نشرات نارية ضدّ سياسة فرنسا في المغرب، ومن هذه المنشورات يتبيَّن لنا أن السباعي رحمه الله لم يكن يقصر اهتمامه على محاربة المستعمرين في بلاده وحدها، وإنما كان يحاربهم في كل مكان، وفي كل جزء من أجزاء الوطن العربي والإسلامي، ذلك أنه بعقيدته الإسلامية لم يكن يفرق بين جزء وجزء من أرض العروبة والإسلام، وإنما كان يرى الوطن العربي وطناً واحداً والعالم الإسلامي أمة واحدة يتتبَّع مشكلاتها في كلّ مكان، ولم يكن ليقبل ما فرضه الاستعمار على أمتنا الإسلامية من حدود وانقسام..

وقد اضطر الإفرنسيون للإفراج عنه تخفيفاً للهياج الشعبي الذي أعقب اعتقاله وهو ابن ستة عشر عاماً، ولكنه رحمه الله ما أن خرج من السجن حتى عاد أشد مما كان حرباً على الاستعمار وبغيه وعدوانه، فعاد لاعتلاء المنابر وإلقاء الخطب الحماسية المثيرة ممَّا ألجأ السلطات الإفرنسية لإعادة اعتقاله عام ١٩٣٢ وإلقائه في السجن، وذلك عقب خطاب مثير ألقاه في خطبة الجمعة بالجامع الكبير في حمص، ألهب فيه الشعور، وأسال العبرات، وهيج الجماهير، واستمر سجنه عدة شهور، وعندما أفرج عنه رأى أن يتابع دراسته وتحصيله العالي فسافر إلى مصر عام ١٩٣٣ والتحق بالأزهر...

متابعة كفاحه الوطني في مصر:

ولم يكن السفر من بلده راحة له من أعباء الكفاح والعمل الوطني، ولكنه انتقال من ميدان إلى ميدان، ولئن ترك في بلاده الاستعمار الفرنسي، فقد وجد في مصر الاستعمار البريطاني الجاثم فوق صدر المصريين، ولما كان الوطن العربي والعالم الإسلامي في عقيدته وحدة لا تتجزأ فقد تزعَّم طلاب الأزهر الذين سرعان ما التفوا حوله مع إخوانهم من طلاب المعاهد الأخرى فقاد مظاهراتهم ضدّ الاحتلال البريطاني ومظالمه ممَّا دعا السلطات الاستعمارية الإنكليزية في مصر إلى إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن، وذلك عام ١٩٣٤.

وفي عام ١٩٤٠ اتهمته القيادة البريطانية في مصر بتأليف جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني، ودعوة الشعب المصري إلى الثورة على الإنكليز، فأمرت بالقبض عليه ثانية، وبعد أن سجن شهرين سلم إلى السلطات الإنكليزية بفلسطين، ولم تفرج عنه إلا بعد أن قضى أربعة أشهر في السجن.

عودته إلى سورية واعتقال الفرنسيين له:

عاد بعدها إلى وطنه سورية، فما كاد يصل إليها في بداية عام ١٩٤١ حتى قبض عليه الفرنسيون خوفاً من أن يثير عليهم الجماهير من جديد، فزجوه في سجون حمص وبيروت، ثم في معتقل «المية ومية» وقلعة راشيا بلبنان مدة سنتين ونصف السنة، ذاق خلالها ألواناً من العذاب الوحشي والتجويع والأشغال انتقاماً لما أشعله في قلوب الجماهير من النقمة على الاستعمار وجرائمه في كل مكان...

كفاحه من أجل القضية الفلسطينية:

لم تكن قضية فلسطين، قضية عادية عند السباعي، ولا كانت على هامش اهتمامه، أو ملهاة يَتسلّى بالحديث عنها في المناسبات تكسُباً للعواطف وتملُقاً لأصحابها.. ومتاجرةً باسمها.. وإنما كانت حيَّة في قلبه يخفق بها.. منسربة في عروقه ينفعل بحرارتها.. شاغلة لعقله يفكر فيها، كانت عنده قضية العقيدة ومقدساتها المهدَّدة.. فكيف تهدأ نفسه، ويطمئن باله، وكانت قضية الحق المغصوب، فكيف يهون أمره أو يفرط به؟! وقضية الوجود للأمة العربية الإسلامية، فكيف ينشغل عنها أو يسلوها.. بل كانت قضية الشرف والكرامة فكيف لا تفور الدماء في عروقه ويستطيب التضحية من أجلها؟!

إنَّ قضية فلسطين كانت بالنسبة للسباعي قضية وجود وحياة أمة يشعر بالخطر مُحدقاً بها وقادتها لاهون فتثور ثائرته، وينطلق يزأر في الآذان

ليوقظها.. ويقذف بالنار واللهب كلمات على لسانه يحرق بها المتخاذلين والمتآمرين والعملاء المأجورين..

ولم يكن ليكتفي بالقول دون العمل فلقد شهدنا وشهدت الدنيا مصداق تحرقه للقضية الفلسطينية، وبذله من أجلها، وتضحيته في سبيلها.. فهو الزعيم القائد الذي قرن القول بالعمل.. أما القول: فكان في الخطب الحماسية النارية المثيرة التي طاف أنحاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها يثير بها الجماهير المؤمنة في كل مكان.. ويفتح لها أبواب الجنة فيلهب حنينها للاستشهاد في سبيل الله.. ويأخذ عليها العهود والمواثيق بأن تبذل لفلسطين الإسلامية كل غال ورخيص... وقد كان ذلك عقب الإفراج عنه سنة ١٩٤٣م بعد اعتقال دام أكثر من سنتين ونصف السنة في سجون «المية ومية» وقلعة راشيا في لبنان، ولقد ضاعفت قسوة التنكيل الذي عاناه من اندفاعه وحماسته وعزمه وتصميمه لمتابعة الجهاد والكفاح من أجل الإسلام وقضايا الحرية والكرامة «قضايا الأمة» التي رأت فيه زعيمها المخلص وقائدها الأمين..

ولقد نشرت صحف دمشق وغيرها من الصحف العربية يومئذ أنباء هذه الجولات والمظاهرات التي كان يقودها عقب كل خطاب في كل مدينة وقرية في أنحاء البلاد السورية.. كما نشرت هذه الصحف محاضراته وخطبه وأحاديثه.. ولم تستطع هذه الصحف إخفاء دهشتها وإكبارها لهذه الخطب والمظاهرات بالنظر لأن البلاد كانت يومذاك تعيش تحت نير الأحكام العرفية.. وكانت الاجتماعات والتجمعات ممنوعة محظورة تحت طائلة أشد العقوبات، ولكن السباعي الذي كان يرى الواجب فوق كل شيء لم يعبأ لهذه الأحكام ولا للتهديد الذي كان يُوجَّه إليه من السلطات الاستعمارية والمتعاونين معها.. ولم يكن يشغله عن قضية فلسطين أي شاغل. فكانت على لسانه في كل حديث، وفي كل مكان، وفي كل مناسبة، وحتى بدون مناسبة وتشهد بذلك مساجد سورية وأنديتها وبرلمانها وصحفها وكل مدينة وكل قرية فيها.. وهذا هو القول.. أما العمل فسيأتي عنه في موضعه من مراحل العرض.

قيادته للمقاومة المسلَّحة ضدَّ الفرنسيين:

في عام ١٩٤٥ وفي شهر أيار، قامت القوات الاستعمارية الفرنسية بحملات العدوان والإرهاب والتدمير والتنكيل بالمواطنين والثوار، وخيَّم شبح الحرب على البلاد.. فهبَّ السباعي يرحمه الله يقود المقاومة المسلحة ضد القوى الفرنسية في حمص، وأطلق الرصاصة الأولى بادئاً هذه المقاومة، وأظهر هو ورجاله بسالة نادرة وشجاعة أذهلت الأعداء الفرنسيين، وأدخلت الهلع على قلوبهم، وكبَّدتهم الخسائر الفادحة في الأرواح والعتاد، وردَّتهم خائبين..

البدء بالدعوة وبعث الفكرة الإسلامية:

لم يكن في البلاد الشامية حتى مطلع القرن العشرين تيار إسلامي واضح المعالم، كما أنه لم يكن للإسلام دعاة وجنود من المثقفين الذين جمعوا إلى جانب الثقافة العصرية الحديثة، ثقافة إسلامية ناضجة، وإنما كانت هناك دعوات دينية وطرق صوفية وجمعيات تقتصر في دعوتها على بعض جوانب الإسلام، مكتفية بالدعوة إلى مكارم الأخلاق والتمسُّك بالعبادات دون اهتمام بالجوانب الأخرى مع الابتعاد عن معالجة مشكلات الجماهير والتحسُّس بها.. ولم تكن تخلو بعض هذه الدعوات والطرق من بدع وخرافات وضلالات مدخولة ومدسوسة على الدين، وهذا ما جعل الإسلام ومن كان يحمل بعض رسالته، في عزلة عن الفئات المثقفة وعن جماهير الشعب ومشكلاته..

وإذا أضفنا إلى ذلك جهود الاستعمار التي بذلها ـ وقد كان مهيمناً على مقدرات الأمور في بلادنا في ذلك الحين ـ لإخماد الروح الإسلامية التي كانت تحرك القوى الشعبية ضده وتدفعها للثورة عليه.. وما بذله أيضاً من جهود استخدم فيها سائر إمكانياته مدفوعاً بالحقد الصليبي الموروث لتشويه حقائق الإسلام بالدسّ والافتراء وتضليل الأفهام والعقول عن طريق تهوين شأنه وتراثه وأمجاده في نظر الناشئة المثقفة وتزيين الثقافة الغربية والأخلاق والعادات الأوروبية، وإيهامهم أن الدين جمود ورجعية، وأنه لا

سبيل للنهوض والانطلاق إلا بترك الدين واتّباع الغرب وتقليده في مختلف شؤون الحياة!!..

وقد فعلت هذه السياسة الصهيونية الاستعمارية الصليبية فعلها فزادت في إبعاد الشباب المثقف عن الإسلام، وزادت من إحكام الحصار حوله ليبقى في عُزلة عن أبنائه، ولكن هيهات هيهات أن يتم لأعداء الإسلام ما يريدون.. فقد كان الله جلّت قدرته لمكايدهم بالمرصاد فهيّأ للشعب المؤمن من يجدّد له دينه، ويقود جماهيره نحو التحرر من سلطان الاستعمار وما خلفه من جهل وفقر وتخلف وانحلال وفرقة وانقسام.. ويعيد للإسلام مجده، ويصل بينه وبين أبنائه من جديد، ويرفع رايته ويعيد بناء ما قد هدمه الاستعمار والصهيونية والشيوعية.. ولا شك أن المهمة كبيرة والنهوض بها شاق عسير يتطلّب نوعاً خاصاً فريداً من الرجال المؤمنين الذين يستلذون التضحية في سبيل الله مهما غلت، ويستسهلون الصعاب وركوب المخاطر لإعلاء كلمته.. وينسون أنفسهم وحظوظهم ليذكروا دينه ويجاهدوا للدفاع عنه وإعلاء رايته..

ولم يكن ذلك المُجدّد الذي أعدَّه الله لحَمْل هذه الأعباء والقيام بهذه المهمة غير مصطفى السباعي الذي نهض بالعبء الثقيل الكبير «وإن العظائم كفؤها العظماء».. وشَعَر السباعي رحمه الله بحاجة الإسلام إلى جماعة تؤمن به إيماناً صادقاً واعياً يدفعها للتضحية في سبيله وتحقيق أهدافه في إقامة ميزان الحق بدل ميزان القوة في الأرض.. فبدأ يدعو الناس إلى الإسلام، ويُبصّرهم بحقائقه ويُعرّفهم بأهدافه وغاياته، وسرعان ما استجابت الجماهير لدعوته والتفّت حوله، ولكن ظروف البلاد في ذلك الوقت التي وضعته في خط الكفاح الأول ضد الاستعمار وعملائه وما لاقاه على أيديهم من اعتقال وسجن وملاحقة وإيذاء لم تدع له الفرصة الكافية لبناء الجماعة التي يشعر بضرورة وجودها.. الجماعة القادرة على إيجاد التيار الإسلامي القوي الذي يشقُّ طريقه في زحمة التيارات الفكرية والاجتماعية المتصارعة، وتحقيق السَّبْق والتفوق عليها.

فساهم في بداية الأمر في تأسيس وقيادة عدد من الجمعيات الإسلامية في حمص، وفي غيرها ومنها: «الرابطة الدينية بحمص، وشباب محمد ﷺ، والشبان المسلمين في دمشق»..

اتصاله بالإمام الشهيد حسن البنا:

وظل يعمل للإسلام عن طريقها إلى أن سافر إلى مصر سنة ١٩٣٣ لمتابعة دراسته العليا هناك، وما أن استقرّ به المقام في القاهرة حتى بادر للاتصال بداعية الإسلام العظيم حسن البنا ـ الإمام الشهيد ـ وكان قد سمع به من قبل، وعرف جهاده في سبيل الإسلام، وكان الإمام البنا عليه رضوان الله، قد فرغ من بناء جماعته التي استطاعت بقيادته الفذة أن توجد في مصر، رغم كل العقبات التيار الإسلامي الذي أثبت وجوده، وأعاد لها وجهها الحقيقي المشرق، بعد أن مسح ما علق به من ضلالات وبدع الفرعونية والتغريب.



الفقيد العظيم مع الإمام الشهيد في مصر عند اللقاء الأول

ولقد أفزع الإمام الشهيد الاستعمار وعملاءه والطغيان وأذنابه والانحراف وأتباعه، فتآمر الاستعمار مع الطغيان والانحراف، وأقدموا بخسة ونذالة على اغتياله عام ١٩٤٨م، وذلك عقب عودته وإخوانه من معارك

فلسطين بعد أن أثبت أنه وجماعته قوة ترهب المستعمرين والطغاة والمنحرفين، وتهدد وجودهم ومصالحهم.

ولم يقتصر التآمر على إمام الجماعة ومرشدها حسن البنا، ولكنه كان يستهدف الحركة التي أسسها فقامت السلطات بحملة واسعة من الاعتقالات استهدفت معظم أعضاء الجماعة وخاصة الأستاذ السباعي الذي لاحقته السلطات ملاحقة شديدة ولكنها لم تظفر به..

ولقد أعجب فقيدنا السباعي بعمل الإمام الشهيد حسن البنا، ورأى فيه بغيته وطريقته، كما رأى أن ما كان ينشده ويفكر به من تنظيم جماعة تنهض بعبء رسالة الإسلام قد تحقق على يدي الإمام البنا، فساهم خلال وجوده في مصر بدفع هذه الحركة وتوسيع نشاطها وتدعيم أسسها فاستفاد من تجربتها وأفادها من خبرته ونشاطه. وبلغ نشاطه حداً أفزع الاستعمار البريطاني وأتباعه في مصر آنذاك فألقي عليه القبض من قبل القيادة البريطانية في مصر بتهمة تحريض الشعب المصري على الثورة ضد الإنكليز وزجّ به في السجن، وبعد شهرين سلم إلى السلطات الإنكليزية بفلسطين فأودع معتقل «صرفند»، وبعد مضي أربعة أشهر أفرج عنه، لتعيد السلطات الإفرنسية في سورية اعتقاله من جديد فور وصوله إليها وزجته في سجون لبنان أكثر من سنتين ونصف، وبعد أن أفرج عنه عاد إلى بلده حمص ثم انتقل إلى دمشق ليتابع نشاطه في الدعوة إلى الإسلام وقيادة الجماهير في طريق الحق والقوة والحرية.. ورأى فقيدنا الكبير أنّ الوقت قد حان لإخراج الحركة الإسلامية من نطاق العمل الشعبي العام إلى نطاق الحركة المنظمة، وبدأ باصطفاء العناصر



المراقب العام للإخوان المسلمين

الطليعية، وانتهى إلى تأسيس الجماعة المنشودة مختاراً لها نفس اسم الحركة الإسلامية في مصر، لإخراج الحركة من النطاق المحلي إلى نطاق الوطن العربي الكبير، فأعلن رحمه الله قيام جماعة «الإخوان المسلمون»، وذلك في عام ١٩٤٥، وقد انتخبته الهيئة التأسيسية للجماعة فيما بعد مراقباً عاماً مدى الحياة وبايعته الجماعة على ذلك، وقاد الجماعة قيادة الحكيم المقدام متجاوزاً بها أحلك الأيام وأشد العقبات حتى استطاع أن يجعل لدعوتها صوتاً مسموعاً مهاباً، وحتى استطاع أن يوجد في سورية التيار الإسلامي الواعي الذي استقطب خيرة الشباب المثقف المؤمن..

واستمرّ السباعي القائد يمنح دعوته وجماعته من شبابه المتوقّد، وحيويته النادرة، وعقله الجبار، وعبقريته الفذة وروحه القوية، وكل ذرة من جهده ووقته حتى سقط من الإرهاق الذي لو سُلّط على جبل كبير لصدعه، ولكن السباعي القائد لم يستسلم للمرض، ولم تَفْتَر همَّته للآلام المبرحة المُضنية فبقي يمد الجماعة ودعوتها بقوة معنوية من قلبه الكبير، وبتوجيه سديد رشيد من عقله الحكيم حتى آخر لحظة من حياته رحمه الله..

إلى ميدان الجهاد وخط النار:

في عام ١٩٤٨ ارتكبت منظمة الأمم المتحدة جريمتها النكراء بإقرارها مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وتدويل القدس.. فأعطت بذلك «إسرائيل» وضعاً شرعياً!! يبرر - في زعمها - اغتصابها للقسم الأكبر والأغنى من فلسطين.. وأمام هذا التحدي لمبادئ الحق والعدالة وتجاهل إرادة الشعب العربي الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره ثارت الشعوب العربية والإسلامية، ودفعت الحكومات العربية لدخول المعركة ضد القوات اليهودية الغاصبة..

وهنا دعا السباعي رحمه الله الأمة إلى الذَّوْد عن كرامتها وحقوقها وحريتها، وانطلق يجوب المدن والقرى السورية من حدود فلسطين في الجنوب إلى حدود تركيا في الشمال، ومن حدود العراق في الشرق إلى الساحل السوري في الغرب يدعو إلى التطوع لإنقاذ فلسطين، ويثير لهفة المؤمنين إلى جنة الرضوان التي فتحت أبوابها خلف نيران المعركة في الأرض المقدسة، واندفع في مقدمة الركب يقود كتائب الشباب المؤمن من جماعة الإخوان المسلمين ممن

رباهم على مبدأ: «والموت في سبيل الله أسمى أمانينا». . فخاض بهم المعارك القاسية في الميدان الذي اختاره مركزاً لانطلاقه وحركاته، وكان في قلب مدينة القدس وأطرافها ليحمي بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وكان القتال يومذاك يدور فيها من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع، فضرب حينذاك وإخوانه أروع نماذج البطولة، وقد تساقط من حوله عشرات الشهداء من المجاهدين الأبرار من شباب الإخوان. . أودع أكثرهم الثرى بجوار المسجد الأقصى، ودفن بعضهم بدمشق[١]. وفي أرض المعركة تمّ لقاء كتائب إخوان سورية بكتائب إخوان مصر والتقى السباعي بالبنا عليهما رحمة الله وتعاون القائدان ووضعا خطة مشتركة للمعركة وتوزعا أماكن القتال، واستمر مجاهدو الإخوان يقاتلون ببسالة وشجاعة نادرتين بقيادة الدكتور السباعي إلى أن توقف القتال بتوقيع الهدنة التي فُرضت على العرب بعد أن كاد يتم لهم النصر على اليهود، فكانت هذه الهدنة المشؤومة بداية القوة لإسرائيل وبداية التقهقر للقضية الفلسطينية. . . وأبعد المجاهدون رغماً عنهم عن أرض المعركة إلى بلادهم. .



(١) راجع مقال الدكتور السباعي بعنوان «الإخوان المسلمون في معارك فلسطين» المنشور في العدد الممتاز الخاص بفلسطين من السنة الثانية لمجلة «حضارة الإسلام».

وعاد السباعي إلى دمشق يحمل جراحات قلبه.. عاد إلى شعبه وإلى جماهيره يروي لهم قصص المأساة الدامية والكارثة الأليمة والنكبة المفجعة.. عاد يطوف المدن والقرى السورية من جديد يشرح للجماهير أسرار المعركة وأسباب الهزيمة المفتعلة التي دُبِّرت بليل مشؤوم، ويبين الأخطار التي تتهدد الأمة العربية من جراء إعطاء اليهود فرصة للتقوِّي والاستعداد، ويدعو لاستئناف القتال قبل أن يتم لهم ذلك...

وعلى مرّ الأيام والسنين لم ينسَ السباعي الذي اكتوى بنار المعركة ونار المؤامرات التي سبَّبت فشلها، القضية الفلسطينية التي أعطاها من اهتمامه الشيء الكثير، فاستمرَّ يذكرها ويذكِّر بها في كل مناسبة، وأراد أن يجعلها قضية حية في ضمير الجماهير حتى لا تفتر روح المقاومة والرغبة في الثأر والشعور بالمسؤولية الكبيرة، فدعا إلى تخصيص أسبوع من كل عام باسم «أسبوع الخطر الصهيوني» تقام فيه المهرجانات الشعبية في سائر أنحاء البلاد، وقد قرن القول بالعمل فبدأ في عام ١٩٥٥ هذا المشروع، ودعا قادة الحركة الإسلامية في الوطن العربي للاشتراك في هذا الأسبوع، وطاف معهم في شتى أنحاء البلاد يتحدثون عن الخطر الصهيوني ويقودون المظاهرات الشعبية لمطالبة الحكومات والمسؤولين بإعداد الشعب للمعركة واتخاذ كافة الاستعدادات لمعركة الثأر..

كما طالب وإخوانه في المجلس النيابي تدريس القضية الفلسطينية كمادة أساسية في مناهج التعليم، وقد أقر هذا الاقتراح ونفذ بالفعل..

وفي عام ١٩٥٥ نفسه ألقى خطبة من مسجد جامعة دمشق بمناسبة أسبوع التسلح، ونقلت الإذاعة هذه الخطبة على جميع محطاتها، وقد علقت الصحف الدمشقية وغيرها في ذلك الوقت على ما كان لهذه الخطبة المثيرة الرائعة من أثر بليغ جعل الناس يقدمون التبرعات السخية التي بلغت بضعة ملايين من الليرات، واستمر كذلك يكتب المقالات في مجلته (حضارة الإسلام) يذكر بالقضية الفلسطينية ويدعو للاستعداد وأحدث لذلك باباً خاصاً في المجلة لمتابعة تطورات القضية ومراحلها هو «الدرة المغتصبة».

كفاحه في ميدان الصحافة:

لقد كان السباعي رحمه الله طاقة جبارة من النشاط المتوقِّد الذي لا

يعرف الملل ولا الفتور.. فليس غريباً أن يخوض الميادين المختلفة، ويكافح في جبهات متعددة.. ثم ينجح ويتفوق في كل هذه الميادين.. وينتصر في كل الجولات..

إنشاء جريدة «المنار»:

ولقد أدرك رحمه الله أهمية الصحافة كسلاح فعَّال في يد الفكرة الإسلامية تستخدمه في توجيه وقيادة الرأي العام وتوعية الجماهير بأهدافها وقضاياها، فأنشأ لذلك جريدة «المنار» من ١٩٤٧ إلى ١٩٤٩ أي إلى قيام انقلاب حسني الزعيم الذي أوقفها، وظلت كذلك إلى أن تملك امتيازها الأستاذ بشير العوف الذي استأنف إصدارها باسمه كجريدة سياسية مستقلة.

ولقد بذل السباعي رحمه الله في فترة إشرافه على تحريرها من الجهود الكبيرة ما جعلها في طليعة الصحف العربية يومذاك، وكان مما يضاعف إقبال الجماهير على قراءتها تلك الافتتاحيات الرائعة المثيرة الجريئة التي كان السباعي يكتبها كل يوم معالجاً فيها أهم مشكلات الأمة وقضاياها ببيان مشرق وأسلوب مثير وصراحة وجرأة نادرتين وتحليل واقعي دقيق.. مما جعل جماهير الشعب تنتظر بلهفة بالغة صدور أعداد الجريدة صباح كل يوم، وكثيراً ما كانت تنفذ جميع نسخ الجريدة في ساعة مبكرة من الصباح، ويرتفع سعر العدد في كثير من المناطق عند بعض الباعة إلى أضعاف أضعاف ثمنه.. ولا غرابة فقد كان السباعي يكتب بقلبه وأعصابه ودمه وفكره، ولقد كان ابن الشعب الذي عاش مشكلاته وعاناها في جميع مراحل حياته وفي مختلف الميادين فاستطاع أن يُجسّد في مقالاته الافتتاحية آلام هذا الشعب وآماله أصدق تجسيد ويعبِّر عنها أبلغ تعبير.. ثم يقدم الحلول الإيجابية العملية لحلِّ مشكلات الأمة وقضاياها.. فلم يكن سلبياً يكتفي بالنقد وتصوير الواقع ومشكلاته فحسب.. وإنما كان يقدِّم لكل مشكلة الحل المناسب لها، ويطالب الحكومات بتنفيذها، ويلاحقها بذلك بدأب وإلحاح..

إنشاء جريدة «الشهاب»:

وفي عام ١٩٥٥، وبعد أن عادت الأوضاع الشرعية والدستورية للبلاد،

عاد السباعي إلى ميدان الصحافة من جديد، فأسس مع إخوانه جريدة «الشهاب» السياسيَّة الإسلامية الأسبوعية، وكان المشرف على تحريرها وسياستها العامة، وقد استمر صدورها حتى قيام الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨، وتوقفت بعدها عن الصدور بعد أن قامت بواجبها نحو قضايا الأمة العربية والإسلامية وقضايا الشعب خلال أكثر من ثلاث سنوات خير قيام، ولقد كان للسباعي فيها مقالات وبحوث روحية وفكرية واجتماعية وتاريخية وسياسية رائعة.

مجلة «حضارة الإسلام»:

وفي نفس العام ١٩٥٥، حصل الدكتور السباعي على امتياز بإصدار مجلة «المسلمون» بعد احتجابها في مصر، وظل رئيساً لتحريرها إلى سنة ١٩٥٨، حيث رأى تغيير اسم المجلة وتجديدها، فاختار لها اسم «حضارة الإسلام» التي أعطاها من جهده وفكره ما جعلها تشقُّ طريقها بقوة ومضاء، ولقد أراد أن يجعل من هذه المجلة مدرسة للفكر الإسلامي الأصيل، توضح معالم الطريق، وتوحّد مناهج التفكير، وتعكس حقيقة الإسلام الناصعة في صورة مشرقة واضحة.. كل ذلك بأسلوب مرن جذاب بعيد عن تعصُّب المتعصبين وجمود الجامدين ودون حَيْدة عن طريق الحق وروح الشريعة الخالدة..

كما أراد رحمه الله أن يجعل من «حضارة الإسلام» منبراً للدفاع عن كل قضية إسلامية من قضايا العالم الإسلامي الكبير، ولقد خصَّ أهم قضايا الوطن العربي والإسلامي باهتمام زائد فأفرد للقضية الفلسطينية باباً باسم «الدرة المغتصبة» لمتابعة تطوراتها ومراحلها، وآخر باسم «أرض البطولات» لمتابعة تطورات القضية الجزائرية وثورتها حين كانت قائمة، وألغي هذا الباب بعد أن أدى واجبه واستنفد أغراضه إثر انتصار الثورة الجزائرية في «أرض البطولات» كما أحدث باباً جديداً لمتابعة القضية العمانية والانتصار لها وتوعية القراء بأهدافها وحقيقتها وسماه «ثورات إسلامية ـ عمان الثائرة في طريق التحرر».

ولم يكتف بذلك، بل عمل رحمه الله على إصدار عدد خاص ممتاز

عن الجزائر وثورتها وجهادها وذلك في السنة الأولى للمجلة، وفي السنة الثانية خص القضية الفلسطينية بعدد خاص ممتاز وكل من هذين العددين يعتبر مرجعاً هاماً للقضيتين من أهم المراجع التاريخية العلمية لما احتوياه من وثائق وحقائق وأرقام ووقائع لم يجمعها مصدر آخر..

ولقد كان السباعي عليه رضوان الله في كل ميادين كفاحه وعمله مخلصاً لله، مستقيماً على الحق، نظيفاً حراً كريماً، وهذا هو سر قوته ونفاذ كلمته عند الجماهير، وهو سر خوف الحكومات وأصحاب المصالح منه، وكذلك سر الحب العظيم الذي خصّته به الأمة..

من مواقف الرجولة والكرامة:

في عام ١٩٥٢ قامت معارك دامية في منطقة قناة السويس في مصر حيث كانت القاعدة البريطانية الكبرى قد فرضت سيطرتها على الشعب المصري وعلى حكامه، مما جعل فئة من الشباب المؤمن في مصر تثور ضد الاحتلال البريطاني وطغيانه فنظموا العصابات المسلحة من الشباب الجامعي المؤمن، وقاموا بالإغارة على المعسكرات البريطانية، وعملوا على نسف مراكزها العسكرية وجسورها وقطارات المؤونة التابعة لها.. فهبّ السباعي رحمه الله يدعو الأمة لمؤازرة الشعب العربي المؤمن في مصر، وقدّم إلى وزير مصر المفوض كتاباً يعرض فيه تطوع آلاف من شباب الإخوان المسلمين للذهاب إلى القتال والمساهمة في معركتها.. ولكن السلطات السورية ألقت القبض عليه وزجّته في سجن (المزة) قرابة أربعة أشهر..

وفي عام ١٩٥٦ وعندما وجُهت دول الاستعمار الثلاثة: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إنذارها لمصر بعد تأميمها قناة السويس، قام السباعي يدعو الشعب للوقوف إلى جانب إخوانه في مصر، وكان له فضل في تحويل الجامعة إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، فانخرط أساتذتها وطلابها في المقاومة الشعبية، وظل فقيدنا أثناء حوادث العدوان يلبس لباس المقاومة الشعبية، وكان يريد أن يجعل من هذا الزي زياً شعبياً لعموم أبناء الشعب.

وفي عهد أديب الشيشكلي أواخر عام ١٩٥٢، تعرّض الدكتور السباعي

لمضايقة السلطة الحاكمة التي فرضت عليه رقابة مزعجة تُحصي عليه حركاته وسكناته.. ولم يكتف الشيشكلي بهذه المضايقات، ولكنه اشتطَّ في ذلك، وطلب من أساتذة الجامعة، وكبار الموظفين أداء قسم الولاء لعهده، والدخول في الحركة التي أسَّسها باسم «حركة التحرير»، ولكن السباعي الذي تعشَّق الحرية وعاش يدافع عنها بلا هوادة رفض الانصياع للأوامر، وتمرَّد عليها، وأبى أداء القسم لعهد غير شرعي، فغضب الشيشكلي لهذا التمرُّد، وأصدر مرسوماً بتسريحه من الجامعة، وأبعده عن البلاد، فاختار رحمه الله لبنان، وبقي فيه حتى أواخر عهد الشيشكلي، وهناك في لبنان التفَّ حوله مئات من الشباب الجامعي المثقف، وأظهروا له استعدادهم لإنشاء حركة إسلامية في لبنان بقيادته، وفعلاً فقد أسَّس معهم هذه الحركة التي استمرت بعد ذلك حتى الآن تسير على النهج الذي رسمه لها السباعي رحمه الله.

محاولة اغتياله:

وفي مطلع عام ١٩٥٦م حاول أحد المجرمين المأجورين الإقدام على اغتياله، ولكن الله ردَّ كيد الآثمين، وفضح مخططهم، وسلم الفقيد من مؤامرتهم، وتمكنت سلطات الأمن من إلقاء القبض على المجرم، ولدى التحقيق تبيَّن أنه أحد أفراد عصابة مأجورة لمصلحة دولة أجنبية، وأن المخطط كان يستهدف عدداً من الشخصيات الإسلامية والوطنية، وأن السبب هو وقوف الفقيد عليه رحمة الله في وجه الأحلاف الغربية، وجرأته في حربها، وكشف نواياها الاستعمارية، ودعوته الصريحة لنبذ الغرب والإعراض عنه، والتعاون مع الاتحاد السوفياتي على أساس من احترام استقلالنا وسيادتنا وعقائدنا، والتزام لمفهوم الحياد الإيجابي. وقد نشرت الصحف المحلية في ذلك الوقت نبأ محاولة الاغتيال بعناوينها الرئيسية.

مؤتمرات ورحلات عالمية:

في عام ١٩٥١م رأس وفد سورية إلى المؤتمر الإسلامي العالمي في الباكستان، فكان من أبرز شخصيات المؤتمر وأكثرها نشاطاً وإنتاجاً.

وفي عام ١٩٥٤ رأس وفد سورية إلى المؤتمر الإسلامي المسيحي المنعقد في بحمدون، وألقى هناك خطابه المشهور عن «الإسلام والشيوعية» فذعرت له الدوائر الاستعمارية، وكان له ولإخوانه فضل إحباط المناورات الاستعمارية الغربية التي كانت تتستَّر وراء المؤتمر. إذ أنَّ هذا المؤتمر تمّ بتنظيم من جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية، ودُعيت إليه وفود من جميع أنحاء البلاد العربية وباكستان وإيران وتركيا وغيرها من بلاد العالم الإسلامي، ولقد تردد الوفد السوري أول الأمر في قبول الدعوة، ثم رأى فقيدنا وبعض إخوانه قبول الدعوة لإحباط ما قد يكون وراء المؤتمر من مناورات سياسية!. وهذا هو الذي وقع.. فقد كان جو المؤتمر، وانتقاء كثير من أعضاء الوفود دليلاً على أن القصد من الدعوة إليه هو إنشاء كتلة عالمية باسم الإسلام والمسيحية ضد الاتحاد السوفياتي، وقد كان يومئذ ينتصر لقضايانا في المحافل الدولية، ولم يكن من مصلحة العرب الانقياد وراء المناورات الغربية لإنشاء هذه الكتلة السياسيّة.

وكان من أبحاث المؤتمر المقررة مقدماً «جواب الإسلام على الشيوعية»، و«جواب المسيحية على الشيوعية» أما جواب المسيحية فقد أعطي لأستاذ من أساتذة الجامعات الأمريكية، وأما جواب الإسلام فقد أعطي لمن لم يحسن مناقشة الموضوع إلا بالسباب والشتائم...

واستاءت الوفود العربية من هذا التصرُّف، فالموضوع جدير بالمناقشة العلمية من جهة، وبالحذر الشديد من أن تستغله الدعاية الغربية لمصلحتها السياسيّة من جهة أخرى، وقد رأت الوفود أن تلزم القائمين على المؤتمر بفسح المجال لإلقاء كلمة عن الشيوعية في نظر الإسلام غير الكلمة التي ألقيت، وقد وقع اختيار الوفود العربية على فقيد الإسلام المغفور له الدكتور السباعي.. فكتب كلمته وترجمت إلى الإنكليزية في بضع ساعات، ثم ألقاها فضيلته فكان لها وقع القنبلة التي حوّلت المؤتمر إلى تظاهرة رائعة للانتصار لفلسطين واللاجئين والقضايا العربية والإسلامية، وقد أعرب جميع أعضاء الوفود العربية والإسلامية عن إعجابهم الشديد بهذا الخطاب الجامع الذي اتصف بالجرأة والدقة العلمية والتاريخية والسياسيّة والبلاغة والبيان

الرائع... أما بقية الوفود وخاصة الداعين للمؤتمر فقد تملكتهم الدهشة والارتباك أمام هذه المفاجأة التي فوتت عليهم أغراضهم وأضاعت عليهم الفرصة المنشودة..

وقد نشر هذا الخطاب الرائع في الصحف والمجلات السورية يومئذ، كما نشر كاملاً في نشرة المؤتمر ضمن الأبحاث والكلمات التي ألقيت فيه. والحق أن الخطاب المذكور يشكل وثيقة تاريخية رائعة تمثل إحدى مواقف فقيدنا الجريئة وتبرهن على أصالة وعمق الوعي السياسي لديه.

زيارة الجامعات الغربية:

وفي عام ١٩٥٦ أوفدته الجامعة السورية إلى ديار الغرب لزيارة الجامعات الغربية والاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية فيها، فزار تركيا وإيطاليا وبريطانيا وإيرلندا وبلجيكا وهولندا والدانمارك والنروج وأسوج وفنلندا وألمانيا والنمسا وسويسرا وفرنسا.. واجتمع في هذه البلاد كلها بالمستشرقين من أساتذة الدراسات الإسلامية والشرقية.

وناقشهم في مؤلفاتهم عن الإسلام، وكشف لهم الأخطاء العلمية والتاريخية التي وقعوا فيها، وبين لهم حقائق الإسلام، بأسلوب علمي فأدهشهم بقوة حجته، وغزارة علمه، وحضور بديهته، وسعة آفاقه، ومرونة أسلوبه.. وقد عاهده فريق منهم على أن لا يكتبوا عن موضوع إسلامي إلا بعد أن يراجعوه في صحة المعلومات التي وصلت إليهم.. أما فريق المستشرقين غير المنصفين والذين تفرغوا للدراسة والكتابة عن الإسلام بأسلوب الدس والافتراء، وتشويه الحقائق.. أما هؤلاء فقد أخافهم السباعي عليه رحمة الله لأنهم رأوا فيه حجة دامغة، وعقبة صعبة التجاوز.. فلقد ناقشهم حتى أفحمهم، وجادلهم حتى أسكتهم، وتتبع دسهم وافتراءاتهم حتى لم يبق عليهم ستراً إلا وهتكه ولا شبهة إلا وكشفها وردها..

كما أنه استفاد من وجوده هناك فألقى المحاضرات في المساجد وفي الجامعات وفي الندوات مدافعاً عن حقوق العرب في فلسطين والجزائر، وعن قضايا الشرق والإسلام، ومن أهم الخطب التي ألقاها في هذه

المواضيع: خطبة الجمعة في مسجد باريس، وصادفت المناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف، فتحدث عن رسالة الإسلام بشكل عام، ثم عن رحمته التي تجلت في فتوحاته وحروبه، ومن هنا انتقل إلى القضية الجزائرية، وندد بالأساليب الوحشية الهمجية التي ترتكبها فرنسا في الجزائر.. وما أن انتهى من الخطبة والصلاة حتى أقبل عليه المصلون يحيونه بحرارة وحب وإعجاب، وكان ممن تعرف إليهم شاب روماني الأصل اسمه «مصطفى فالسان» كان قنصل رومانيا في باريس ثم اعتنق الإسلام وترك العمل الدبلوماسي وهو الآن يتزعم مجموعة من الشباب الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام عن عقيدة وإخلاص.. وقد زوده الدكتور السباعي رحمه الله بعديد من النصائح والتوجيهات.

سفره إلى موسكو:

وفي عام ١٩٥٧ سافر إلى موسكو مع إخوانه عمداء كليات الجامعة بدعوة من جامعة موسكو.. زار خلالها معظم الجامعات الروسية في مختلف الأقاليم، والتقى بأساتذة الدراسات الشرقية والتاريخية والاجتماعية، وناقشهم في أقوالهم وآرائهم في الإسلام، كما ناقش غيرهم من الشخصيات السوفياتية فكشف لهم أخطاءهم ووضح لهم رأيه صريحاً في موقفه من الشيوعية في البلاد العربية كما شرح لهم مواقف الشيوعيين في بلادنا من القضايا الوطنية والاجتماعية وفضح أخلاقهم وأساليبهم، وكان مما قاله للمسؤولين السوفييت: نحن حريصون على صداقتنا للاتحاد السوفياتي كل الحرص، ولكن هذا لن يمنعنا من محاربة الشيوعية في بلادنا.. لأن الشيوعية تريد أن تحرمنا من أقوى أسلحة النصر الفعالة لمقاومة الاستعمار والمظالم الاجتماعية والسياسيّة.. ألا وهي الإيمان بالله وحب الشهادة في سبيله، وشرح لهم فكرة الإسلام الثائر على كل باطل وعلى كل ظلم واستعباد واستعمار وطغيان وفساد كما بيَّن لهم شناعة الجريمة التي يرتكبها الشيوعيون المحليون في بلادنا عندما يحاربون الإسلام، ووضعهم في موقفهم هذا جنباً إلى جنب مع الاستعمار والصهيونية وعملائهما.

كفاحه في ميادين الخدمة الاجتماعية:

١ - تبنّي حركة العمال: لقد حمل الدكتور السباعي رحمه الله عبء الدفاع عن حقوق العمال والمطالبة برفع مستواهم المادي والاجتماعي والأخلاقي، كما تبنّى وإخوانه من نواب الإخوان مطالبهم في المجلس النيابي، وكان له فضل كبير في النص على حقوق العمال في الدستور السوري، كما عمل مع إخوانه على إنشاء مدارس للعمال لتعليمهم ورفع مستواهم الفكري وإخراجهم من نطاق الأمية، وتوجيههم إلى الخير وإفهامهم حقوقهم وواجباتهم.. ولم يقتصر على إنشاء هذه المدارس في دمشق وحدها، بل عمل مع إخوانه على إنشاء مدارس للعمال في جميع المحافظات ومعظم الأقضية والقرى، وقد بلغ عدد العمال الذين يتلقون العلم فيها أكثر من خمسة آلاف عامل يتعلمون بالمجان، وقدمتهم هذه المدارس إلى امتحانات الشهادات الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وتخرّج بعضهم من الجامعة كما أتم بعضهم تحصيله العالي في أوروبا..

٢ - رفع مستوى القرية: وقد وجّه عنايته إلى القرية، فطاف القرى وعاش مع الفلاحين وآكلهم وشاربهم وخالطهم وعرف مشاكلهم، وله مواقف رائعة في المطالبة برفع مستواهم وإنصافهم، وتحقيق العدالة الاجتماعية في محيطهم، وقد رفع صوته بذلك معبراً عن مشاعرهم في المجلس النيابي حيث طالب بإيصال النور والكهرباء إلى جميع القرى النائية وتوفير المياه والمدارس والخدمات الصحية..

ولم يقتصر على دعوة الحكومات للقيام بذلك، بل بادر إلى تأليف لجان من أعضاء الإخوان فيها أطباء وعلماء وموجهون يقومون برحلات أسبوعية إلى القرى، يزورون فيها الفلاحين ويقدمون لهم الخدمات الصحية والتعليمية، ويرشدونهم إلى طريق الخير..

٣ - المدارس الابتدائية والثانوية: ومن أعماله أيضاً مساعيه مع نفر من إخوانه لتأسيس المعهد العربي بدمشق الذي شمل جميع مراحل التعليم من

الحضانة إلى الثانوي للذكور والإناث، وقد أسسوا مثل هذا المعهد في بقية مراكز المحافظات السورية.

٤ ـ **الأندية الرياضية**: وكان يشجع الشباب على ممارسة أنواع الرياضة والفتوة ليكون الشباب قوياً في أخلاقه وقوياً في جسمه وقوياً في روحه، فساهم في تأسيس عدد من الأندية الرياضية في مراكز الإخوان في جميع المحافظات، وأقوى هذه الأندية التي أسسها الفقيد الراحل مع إخوانه نادي فتيان بدر في دمشق لكرة السلة، والنادي الرياضي في باب الجابية، والنادي الرياضي في الميدان، ونادي القادسية في حمص، والنادي الرياضي في اللاذقية وغيرها..

كما عمل على تربية الشباب تربية عسكرية خشنة فأنشأ لهم نظام الفتوة، وقد انتظم الشباب في كتائب وفرق يتعوّدون فيها النظام والخشونة والرجولة ويتدربون على مختلف الألعاب الرياضية ويقومون برحلات وتقام لهم معسكرات سنوية للتعارف وتوثيق صلات الأخوة فيما بينهم.. وقد كان رحمه الله القائد العام لفتوة الإخوان المسلمين إلى أن حلَّ الشيشكلي هذه المنظمات وصادر ممتلكاتها..

٥ ـ **أعمال التعاون الخيري**: وفي هذا المجال ساهم بتأسيس عديد من اللجان لجمع الإعانات والتبرعات من الناس وتوزيعها على المحتاجين من المرضى والعاجزين ومد بعض الأسر الفقيرة التي تتعفَّف عن السؤال والاستجداء كما عمل على تنظيم يوم سنوي باسم «يوم الفقير» تطوف فيه اللجان على التجار والأحياء لجمع الإعانات وتقديمها للفقراء في مواسم الشتاء والأعياد، وساهم في إنشاء عدد من المستوصفات الصحية لتقديم الخدمات الصحية المجانية للفقراء والمحتاجين.

رحلات الحج والعمرة:

كانت أول مرة روى فيها رحمه الله ظمأ قلبه وروحه إلى الأرض المباركة مهد الدعوة الأول ومرتع أبطالها، ومثوى الحبيب الأعظم محمد ﷺ سنة ١٣٦٤هـ حاجاً مؤدياً ما فرضه الله من شعائر الحج والعمرة بالإضافة

إلى زيارة القائد الأول لدعوة الإسلام عليه صلوات الله وسلامه.. ولكن هذا الظمأ القلبي والروحي بقي يهيج حنينه إلى تلك الديار رغم كثرة المشاغل والأعباء المرهقات حتى يسّر الله له الفرصة فزارها حاجاً للمرة الثانية في عام ١٣٧١هـ، أما الزيارة الثالثة فكانت في عام ١٣٧٥هـ مع بعثة من أساتذة كلية الشريعة وطلابها في جامعة دمشق.. ولزمه بعد ذلك الشوق والحنين إلى الديار المقدسة وإلى الرسول الحبيب ﷺ لا سيما بعد أن أصيب بمرضه ١٣٧٧هـ وعانى منه ما عانى مما لا يتحمله إلا رجال من أولي العزم والصبر الذي لا حد له..

وبالرغم من شدّة المرض وقسوة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة من ليل أو نهار فإن حنينه إلى زيارة الرسول القائد ﷺ والبيت العتيق كان يهيج ويزداد حتى لم يبق للصبر مجال، فعزم الأمر وحزم الأمتعة وسافر إلى المدينة المنورة في «رحلة إلى الله ورسوله»، وذلك قبيل موسم الحج الأخير ١٣٨٤هـ ولم يمنعه المرض والألم من أداء شعائر الحج للمرة الثالثة، ولقد كانت هذه الرحلة «حجة الوداع» التي ودّع فيها الديار المقدسة وودّع فيها مثوى الرسول الأعظم قبل أن ترتفع روحه الطاهرة إلى الله في «رحلة إلى الله جل شأنه»[1] فكانت رحلته الأولى مقدمة طيبة لرحلته الأخيرة، ولعل جميع القراء طالعوا أخبار «رحلته إلى الله ورسوله» في مقاله الأخير الذي كتبه قبيل وفاته رحمه الله يحكي فيه قصة هذه الرحلة وما كان فيها من إكرام الله له..

مغالبته لآلام المرض الطويل:

من كلماته الحكيمة رحمه الله كلمة قالها في كتابه «هكذا علمتني الحياة»:

«رأيت الناس بين مريض في جسمه، سليم في قلبه، وبين

(١) هذا هو العنوان الذي كان الفقيد قد اختاره لموضوعه الأخير المنشور في العدد الثالث وقد عدله قبل النشر إلى «رحلة إلى الله ورسوله» (الحضارة).

صحيح في جسمه مريض في قلبه، وقلَّ أن رأيت صحيح الجسم والقلب معاً».

ولقد كان رضوان الله عليه يحمل جسمه وأعصابه من إرهاق العمل المتواصل في سبيل الله ما جعل هذا الجسم على ما يتمتع به من قوة وبأس وحيوية نادرة ينوء بالأثقال التي حملها وحده، وانطلق بها يسابق الزمن ليشيد خلال عمره القصير صرح الدعوة الإسلامية ويعبد الطريق لجنودها ولم يعبأ بنصح الأطباء ولا بأعراض المرض التي كانت تحمل النذير بانهيار هذا الجسم إن لم يرفق به صاحبه، ولكن الشعور بالواجب والمسؤولية كان يتغلب عليه ويصمُّ آذانه عن سماع نصائح الأطباء ونذير الأعراض المرضية:

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسام

وقصة كفاحه مع المرض ليست حديثة، ومرضه الأخير لم يكن إلا نتيجة لمقدمات كثيرة، ونهاية لجهد طويل خلال سني شبابه ومراحل كفاحه.. لقد حاولت الأسقام والآلام والأمراض أن تنال من قوته وحيويته ودأبه ونشاطه وحركته التي لا تعرف الفتور، فلم تفلح.. ولكنها لم تدعه، واستمرت تلاحقه وكان في كل مرة يتغلب عليها، وينساها في زحمة النشاط والواجبات والأعباء حتى استحكمت به في نهاية الأمر وسقط المارد العملاق بعد طول تجلد ومجاهدة، وأصبح كالأسد الهصور وقد ألقي الشبك على عرينه..

فعندما قاد رحمه الله إخوانه في معارك فلسطين كان مصاباً قبلها بارتفاع ضغط الدم، وكان الأطباء قد أشاروا عليه بضرورة الإخلاد إلى الراحة والسكينة والهدوء وعدم الخطابة، وكأنَّ الأستاذ السباعي رحمه الله قد فهم من الأطباء عكس ما أشاروا عليه، فلم يعبأ بما قالوا، كما أنه تلطف باعتذاره لأبيه رحمهما الله عندما ذكره بنصائح الأطباء، وأن مجرد الخطابة تشكل على صحته خطراً، فكيف بالحرب وخوض المعارك.. كل ذلك لم يثبط من عزيمته فمضى يثير الجماهير ويدعوها للتطوع.. ومضى يقود

الكتائب إلى المعركة دون أن يحسب حساباً لصحته وما يتهددها، ولقد نسي مرضه خلال المعارك، ولما عاد من فلسطين استمر في كفاحه وجهاده لا يثنيه عن عزمه شيء.. فلم تلبث أن ظهرت عليه أعراض مرض السكر، فكان يعالج أمراضه، ويأخذ ما ينبغي لها من علاجات، ولكنه ما كان يحب الراحة ولا يفكر فيها، بل كان يستلذ الكفاح والعمل والنشاط، وكم مرة وقف خطيباً يتدفق بالحيوية والنشاط ويثير الحماسة ويلهب المشاعر ويفجر البراكين، وهو يعاني المرض والأوجاع دون أن يظهر شيء من أثر ذلك على محياه الطلق المشرق أو على كلامه العذب الجميل، أو على صوته الجهوري العاصف الرنان..

وحمل المرض والأوجاع على كتفيه عبئاً من جملة الأعباء، ومضى يدفع الركب ويبني الصرح ويعبد الطريق ويقود الأجيال.. ولعمري إذا كان المرض سبب انطفاء شعلة بعض الناس وسبب تهاونهم وقعودهم، فقد أضاف المرض دليلاً من أقوى أدلة عظمة فقيدنا الكبير طيب الله ثراه، فلم يقعده ولم تفتر به همته، ولم تخبو شعلة نشاطه أو تدفق حيويته.

وفي عام ١٩٥٧، وبعيد عودته من رحلته العلمية إلى الاتحاد السوفياتي، هجم عليه المرض هجمة عنيفة فأخذ منه أكثر نصفه الأيسر، فشل حركته، وأثار فيه الآلام المضنية.. فأقعده بعد طول مجالدة، ولكنه رحمه الله كره القعود وكره الراحة والكسل ولو كان بسبب المرض الشديد فتمرّد عليه وجالد الآلام، واستمر يتابع بنشاطه إلقاء دروسه الجامعية، ومحاضراته التوجيهية لطلاب كلية الشريعة في «قاعة البحث».

ولقد ألقى خلال مرضه هذا أهم محاضراته العلمية على مدرج جامعة دمشق، منها محاضرته عن «اشتراكية الإسلام» التي استمرَّ إلقاؤها أكثر من ثلاث ساعات، وقد طبعت فيما بعد في كتاب كبير.. ومنها أيضاً محاضرته العلمية الرائعة عن «المرأة بين الفقه والقانون» التي استغرق إلقاؤها كذلك أكثر من ثلاث ساعات، وقد طبعت أيضاً في كتاب كبير فيما بعد.. هذا

بالإضافة إلى عديد من المحاضرات العلمية الرائعة التي ألقاها في عدد من النوادي الثقافية والفكرية في دمشق.. كما استمرّ يمد الفكر الإسلامي بكل جديد من فكره وعلمه، ويمد الشباب المسلم بالتوجيه والوعي، ويعالج أهم مشكلات العالم الإسلامي كل ذلك على صفحات مجلته «حضارة الإسلام».

فترة مرضه أخصب فترات حياته إنتاجاً:

ولقد كانت فترة مرضه الطويل الذي استمرّ ثماني سنوات، حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم إلا من كان له صبر الأنبياء، ورغم هذه الآلام المبرحة المستمرة فقد كانت فترة مرضه هذه من أخصب فترات حياته إنتاجاً فكرياً وعلمياً وأدبياً واجتماعياً. فألف القسم الاجتماعي من كتابه **«هكذا علمتني الحياة»** وهو في مستشفى المواساة عام ١٩٦٢م، وكان يختلس القلم والقرطاس في غفلة من أعين الأطباء الذين شددوا عليه في ضرورة الابتعاد عن التفكير والقراءة والإخلاد إلى الراحة التامة، فكان هذا الكتاب من أروع كتبه وأطرفها لما حواه من الحكمة والتجارب والإرشاد والتوجيه السديد والرأي الرشيد والبلاغة الرائعة.. وفي هذه الفترة أيضاً طبع كتابه: **«القلائد عن فرائد الفوائد»**، وهو مختارات من بطون أمهات كتب الأدب والعلم والفقه والتاريخ.. وكذلك طبع كتابه العلمي الكبير: **«السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»**، وهو أثر علمي خالد في الدفاع عن السنة ومكانتها وفي الرد على خصومها من المستشرقين والمغرضين..

الصبر الجميل والرضا والتسليم:

ولقد ضرب أستاذنا السباعي ـ عليه رحمة الله ـ خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر الجميل مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله، وتحاشي التسخط والتبرم والشكوى، فما كنا نسمع إلا الحمد لله يجري على لسانه كلما سألناه عن آلامه مهما اشتدت وازدادت..

وكان رحمه الله كلما برحت به الآلام وأرقت ليله وحرمته لذة النوم أسرع إلى القلم والقرطاس ليسجل ما تفيض به نفسه من معاني روحية سامية يناجي بها ربه في جوف الليل الطويل. ولا حاجة بي للاستشهاد هنا ببعض كلماته ومناجاته التي تؤكد هذا المعنى[١].

وخلاصة القول أن الراحل الحبيب قد أثبت رجولته الفذة في حال صحته وفي حال مرضه، وكان رجلاً عظيماً في كل مراحل حياته عليه رضوان الله ورحمته..

وفاته:

وفي يوم السبت الثالث من تشرين الأول ١٩٦٤، انطفأت الشعلة المتوقدة، وهدأت الحركة الدائبة، وجفَّ القلم السيَّال، وسكت الصوت العذب الرنَّان، وتوقَّف القلب الكبير، وطاش سهم الفجيعة على غير هدى يصيب القلوب فيدميها، والألسنة فيعقدها، والعقول فيذهلها، وإذا بالألوف يهرعون إلى بيت الفقيد لعلهم يسمعون ما يكذب النبأ، ولكنه قضاء الله ولا رادَّ لقضائه.. وهكذا كانت نهاية المطاف، رحلة طويلة أبدية إلى الله جل شأنه بعد أن ترك طيِّب الله ثراه للأجيال المؤمنة من بعده وعلى مدى الآجال تاريخاً زاخراً بالمآثر الخالدة وصفحات لا تطوى من الجهاد المتواصل من أجل العقيدة كتبها الفقيد الغالي بدمه وروحه وفكره وقلبه.. ستبقى ما بقي الوجود منارات هدى وعلامات طريق.. طريق الإسلام تتتابع عليه الأجيال جيلاً بعد جيل تذكر السباعي نموذجاً رائعاً للداعية المجاهد، والمرشد المربي، والقائد الموجه، ونموذجاً فذاً للإيمان الصادق...

فيا فضيلة أستاذنا الراحل لئن تركتنا ونحن أشد ما نكون حاجة إلى

---

(١) ففي مكان آخر من هذا العدد نشرنا طائفة منها وهي من القسم الذي لم ينشر من كتابه «هكذا علمتني الحياة»، كما أعدنا نشر بعض كلماته ومناجاته التي تدور حول هذه المعاني.. (الحضارة).

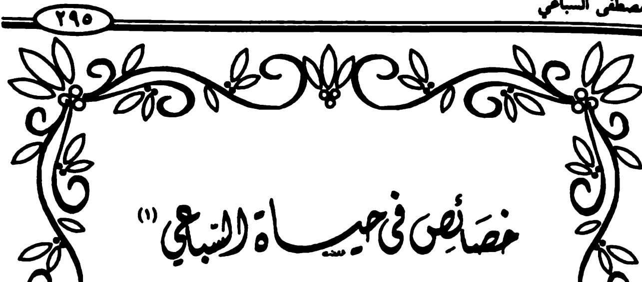
نصحك وإرشادك وقيادتك نستشعر من بعدك اليتم وآلامه التي تتزايد مع الأيام وعند النكبات والملمات. فعزاؤنا ـ إن كان يغني العزاء ـ أنك مضيت إلى ربك بنفس راضية مطمئنة بعد أن عبّدت لنا الطريق، ورسمت لنا المنهج، وأديت واجبك كاملاً فعليك يا قائدنا ومرشدنا رضوان الله، وإلى الملتقى في جنات الخلد تحت لواء سيد المرسلين ﷺ. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

□ □ □ □ □

أحباء الله

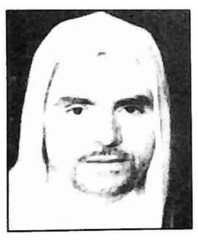
إن لله عباداً قطعوا علائق الشهوات، وأسرجوا مراكب الجد بصدق العزمات وامتطوا جياد الأمل، واتجهوا إلى الله عز وجل، وتزودوا إليه بصالح العمل، مع إخلاص النية وتوسلوا إليه بصفاء القلب وصدق الطوية، فمروا بالخضرة الفاتنة مسبحين، وباللهب اللاهب مستعيذين، ولم يعبؤوا بالعقبات، ولم يلتفتوا إلى المغريات، فقد صانوا وجوههم من الابتذال، وطهروا أقدامهم من الأوحال، استعانوا بالله على مشقة الطريق فذلل لهم صعابه، وعلى بعد المدى فلملم لهم رحابه، فلما اجتازوا الصعاب، سألوا الله ففتح لهم بابه، فلما دخلوه استضافوه فقربهم ورفع دونهم حجابه، فلما استطابوا المقام بعد طول السرى قالوا: «الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين» أولئك أحباء الله، صدقوه العهد فصدقهم الوعد، ومحضوه الحب فمنحهم القرب.

مصطفى السباعي



خصائص في حياة السباعي (١)

للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
المدرس في كلية الشريعة بجامعة دمشق



يا لَضَعْف القلم:

يا لَضَعْف القلم حينما يطلب منه وحده أن يسجل كلمة الحق، وأن يتحدث عن نفاثات الصدور، وأن ينقلب إلى عين قريحة تبكي الحق وأهله، وأن يتحوَّل إلى شوكة وسنان ليجاهد الباطل ويصول في ميدان الشرف، ثم أن ينبض هو وحده بكلِّ ما يحمله هذا القلب المُلتاع من الأحاسيس المُخرقة والآلام المُمِضَّة والمشاعر الخانقة!..

إنني لأحمل الساعة هذا القلم بين أصابع ترتجف.. وفي القلب طوفان من اللهيب الذي لا يهدأ، وفي الصدر نحيب يختنق ولوعة لا تبين، وفي الحلق غصة، وفي اللسان عقدة. فماذا عسى أن يحمل القلم من كل ذلك، ومن أين له أن يترجم عذاب النفس كله على ما فيه من ضعف في الإبانة وعلى ما حمل من قيود وأغلال؟!

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة السابعة: (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

وقع نبأ وفاة السباعي:

إذا أغمضت عيني عن كل ما حولي لأمضي بفكري إلى ماض قريب، تذكرت مثل هذه الأيام من السنة التي خلت، يوم كنت في القاهرة، وفاجأني النبأ الأليم بأن الداعية الإسلامي العظيم الأستاذ السباعي قد توفي.. قد انتقل إلى جوار ربه بعد أن غبر حياته كلها مجاهداً في سبيله.

لقد أصابني يومها دوار شديد، أعقبه تخبط في النفس، وتصدعت المشاعر وراء صدري كما تصدعت صخرة أهويت عليها بمطرقة عاتية ثقيلة بعثرتها إلى حصى متفرقة، فما أملك وسيلة لجمع شتاتها في ذهني ولا سبيلاً للتعبير عنها بلساني.

ولقد كان لي العذر أن يكون وقع الخبر إذ ذاك بكل هذا العنف.

السباعي في صراعه مع المرض:

فقد عاقتني الظروف عن التعرف إلى الأستاذ السباعي رحمه الله إلا بعد أن وقع في قبضة المرض.. ذاك المرض الأليم الذي ظل يغالب كل ما فيه من عنف وآلام كي لا يقعد عن حَمْل أعباء الدعوة يوماً، ولا يلقي قلم الجهاد عن يده ساعة!

لقد تعرَّفت إلى الأستاذ السباعي - عن خبرة وقرب - في غمرة صراعه هذا، ومن قبلها لا أعلم عنه شيئاً إلا كما يسمع عامة الناس باسمه دون أن يعلموا شيئاً عن ترجمته أو الجليّ من أمره.

عمل دائب وجهاد مستمر:

ولقد وجدتني يومها أبصر إنساناً، امتزجت آلام المرض في جسمه بلَوْعة الدعوة الإسلامية في قلبه، وربَتْ بين جوانحه محبة إلهية عارمة، فغدا بذلك مرضه الجسمي مؤثراً جديداً للوعته القلبية، وأخذت آلامه المبرحة تذكي محبته الإلهية العارمة. فلم يكن يعاني، في مجموع أمره، إلا آلاماً تنبعث من القلب، وإن كانت تتجمع فيه من أنحاء الجسم كله، وبالتالي فلم

يكن ليترجم هذه الآلام يوماً ما إلى شيء من التأوُّهات الجسمية، وإنما كان يعبِّر عنها كلها بمزيد من عمله الإسلامي الدائب وجهاده اللساني والكتابي المستمر. إي والله، وكأني أنظر إليه الساعة وهو يستقبل نوبات من الألم الحاد في جسمه، فلم يكن يتبدى ذلك إلا في تقبض يسير في وجهه ومزيد من الانشغال بما بين يديه من كتابة أو دراسة أو بحث.

كان في غمرة مرضه ذاك يحمل على عاتقه عبء إخراج هذه المجلة مستمرة دون تقطع. وكان يأبى إلى جانب ما يقوم به من كتابة افتتاحيتها إلا أن يكتب مقالاً رئيسياً آخر، ثم يأبى إلى هذا وذاك إلا أن يحرر بيده بعض الأبواب الدائمة للمجلة. ثم كان لا ينقطع خلال ذلك يوماً واحداً عن عمله في البحث والتأليف، ويسعى فوق ذلك إلى الجامعة ليلتقي بطلاب الشريعة وغيرها في محاضرات وحلقات بحث منتظمة دائمة. وهيهات أن تشعر ـ وهو يهدر بالتوجيه والإرشاد المُنْبعثين من أعماق قلب متأجِّج، ويرد باطل المبطلين، ويكشف عن تلبيس الملبسين بمنطق علمي غزير ـ هيهات أن تشعر أثناء ذلك أنك أمام رجل مريض يعاني تشنجاً هائلاً في نصفه الأيسر ويستقبل بشكل مستمر نوبات من الألم الممض العنيف. بل هي القوة المتدفقة تنبعث من جميع أعصابه ومشاعره في استرسال مستمر قد يزيد على الساعتين.

ثم إنك قد تجد عند بعض الناس مثل هذا التفاني مع مثل هذه الآلام، لغرض من أغراض الدنيا، أو لشهوة من شهوات النفس، فلا يكون ذلك غريباً أو عجيباً.

حياة السباعي في سبيل الله وحده:

ولكني والله قد بلوت الأستاذ رحمه الله تعالى، فما رأيت بين جنبيه إلا دافعاً وغرضاً واحداً، هو أن تكون حياته ـ في السلامة والمرض ـ في سبيل الله وحده، وربما يصيبه ما قد يصيب الإنسان من الخطأ في البحث والرأي، ولكنه على كل حال لم يكن يسعى إلا نحو هدف واحد فقط، هو إقامة مجتمع إسلامي سليم لا تسود فيه إلا الشريعة الإسلامية العظيمة.

سلامة صدره:

وما رأيته مرة يحقد أو يتألم من إنسان ردَّ عليه رأيه أو خاصمه في بحث من بحوثه، وقد كنت كتبت في الرد على بعض آرائه، ولقد توقعت - بعد أن ضمنِّي إليه العمل في كلية الشريعة -، أن أجد لديه بعض التأثر أو التألم من بعض ما قد كتبت.. ويبدو أنه أدرك ما كنت أتصور وأتوقع، فقال لي مرة، وهو يتجرع آلام مرضه غصة وراء غصة:

يبدو أنك تظن أنني عاتب عليك. اسمع يا أخي: إنَّ الإسلام لا مجاملة فيه، ونحن جميعاً جنود لهذا الدين وحده، فمن واجبك أن تكتب وتدعو إلى ما تراه الحق، وأنا أطالبك بإلحاح أن تظل على ما كنت عليه بنفس الطريقة والأسلوب ما دام أن القصد هو: وجه الله وحده.

وإنني لأذكر أنه استمر في حديثه في هذه الجلسة نفسها، إلى أن وصل عند كلمة دمعت عندها عيناه، حينما قال مشيراً إلى الكلية: إنني سعيد أن أرى هذا الغراس وقد أينع.. وهيَّأ الله له حماةً ودعاةً أرجو أن يكون هدفهم الأول والأخير بذل كل ما يملكونه في سبيل هذا الدين وحده. من أجل هذا فإنني لا آسى على شيء في الحياة حينما أجدني أدنو رويداً رويداً إلى الموت!..

ما أسهل الخلاف في الرأي والغلط في البحث إذا كان القصد مرضاة الله:

لا أكتم القارئ أنني ما ندمت على شيء تلك الساعة، ندمي على أني لم أعرف الأستاذ السباعي على حقيقته إلا بعد أن صرعه هذا المرض الأليم. وما رجوت الله شيئاً تلك الساعة كرجائي أن يشفيه الله من ألمه، كي أوضح له وأثبت أن هذا الذي طالما كتب يناقش بعض أفكاره لن يعيقه أي عائق أن يسير معه على خط واحد من الدعوة الإسلامية وجهاد القلم واللسان. فما أسهل أمر الخلاف في الرأي، بل والغلط في البحث في بعض الأحيان، عندما لا يكون منشؤه غرضاً في النفس أو مصلحة من مصالح الدنيا، وإنما القصد إلى مرضاة الله وحده.

شفاؤه من أوصاب الدنيا:

وتعلقت الآمال بالرحمة الإلهية أن تتداركه بالشفاء.. ولكن الرحمة الإلهية أرادت له الشفاء من أوصاب هذه الدنيا كلها، ونقلته الأقدار إلى جوار خالقه الكريم في لحظة لم يكن مُتشبثاً من هذه الدنيا كلها إلا بقلم ينافح به عن الإسلام ومكتبة يستعين بها للكشف عن حقائقه وكنوز شريعته وهديه.

أعود بعد هذا لأفتح عيني على الدنيا التي من حولنا اليوم..

موت السباعي ترك فراغاً في التوجيه القويم والقيادة الرشيدة:

أعود لأرهف السمع لدقات الساعة التي تمر بعمر الزمن.. لقد فقدنا السباعي - رحمه الله - كما فقدنا الكثيرين من أمثاله. أما هم فقد انتقلوا - إن شاء الله تعالى - إلى فراديس الجنان في مقعد صدق عند مالك السموات والأرض. وأما نحن، فأشتات متفرقون - ويا للأسف - نعاني من فراغ هائل في التوجيه القويم، وفي القيادة الرشيدة، وفي التضحية المقدسة.

صفات ثلاثة للسباعي:

أما والله، ليس الذي فقدناه في السباعي - رحمه الله - شخصه الذي عرفناه، ولا الإنسان الذي ألفناه، إنما الذي فقدناه فيه، ثم لم نعوض عنه بغيره، هذه الأمور التالية:

العمل الإيجابي الدائب:

أولاً - العمل الدائب الإيجابي من أجل الإسلام. فقد كان واضحاً لكل من عاشره وعرفه أنه لم يكن يرى في لقمة الطعام التي يأكلها، ولا في بيته الذي يؤويه، ولا في الدنيا البسيطة التي تطولها يداه، ولا في الصحب الذين يراهم من حوله، ولا في الأنفاس الصاعدة والنازلة وراء صدره - إلا أدوات تستعمل من أجل العمل الإسلامي وتحقيق مبادئه. وما كان يوماً ما ليجعل العمل الإسلامي أداة أو وسيلة لشيء من مظاهر الدنيا وأغراضها.

وما عرف عنه يوماً ما أنه كان يكتفي من العمل الإسلامي بأن يتكئ على أريكة، ثم يصرف الوقت كله في نقد الناس والبحث عن دخائل أعمالهم ومعايبها، بل لقد كان من صفاته المعروفة أنه يفرح الفرح الشديد، في براءة وطيب صدر، إذا ما قيل له عن عمل إسلامي قام به بعض الناس أياً كان نوع العمل، ومن أي كان أولئك الناس. وإن في ذهني لأمثلة كثيرة لذلك لا مجال لسردها الآن.

كفاءةٌ قياديّةٌ رائعة:

ثانياً ـ كفاءة القيادة الإسلامية. وإنها لحقيقة صدقها التاريخ الحافل لحياته. وحسبك أن تعلم أنه لم يعتصر من عمله القيادي شراباً ينتشي به في ظلال الطمأنينة والرخاء، وإنما ترك القيادة نفسها هي التي تعتصر شبابه وحياته، تُورده المخاطر وتهون عليه المصائب، وأن جرأته أمام جيوش الباطل لم تكن حلماً يداعب خياله. بل عزيمة تملأ حياته، ولذلك فما كان ليترجمها يوماً إلى أقوال رنّانة يسعد بتكريرها في المجالس أو على ذرى المنابر، وإنما كان يترجمها إلى عمل بناء يمخر به عباب المخاطر. وما كان ينتظر على كل ذلك أجراً من المال أو الجاه في دنياه، وهو الذي يقول في بعض كلماته: (لو عمل كل العاملين انتظاراً للجزاء في الدنيا لماتوا هماً وكمداً) ولو أنه مدَّ يد القبول للدنيا، وأغمض العين عن النظر إلى العقبى، لجمع من المال قدراً غير يسير، ولما ترك من خلفه صبية وأولاداً ليس لهم من نشب الدنيا ومتاعها إلا حسن الاتكال على الله وحده.

صحيح أنه لم يجمع إلى ذلك كله العصمة من الزلل.. فقد كان يخطئ، وربما حاول مرة أن ينتهي إلى غاية نبيلة صحيحة فسلك إلى ذلك سبيلاً غير صحيح، ولكن مثل هذه الخطيئة لا يمكن أن تبخس شيئاً من فضائله، ولا يعقل أن تنسخ بها بقية ما كان يتمتع به من عظيم خصائصه وأخلاقه.

لَوْعة قلبيّة ثائرة:

ثالثاً ـ لوعة القلب، تلك اللوعة التي كان يبحث عنها محمد إقبال في

صدور خريجي المدارس والمعاهد الجديدة دون جدوى، وأخيراً أدرك أن الأسرار العظيمة التي حجبتها هذه المدارس عن الشبان لا يمكن أن تكشف إلا في خلوات الصَّحارى والجبال. هذه اللوعة كان منها في قلب الأستاذ السباعي رحمه الله قدر غير يسير.

كان أكثر ما يُحرّكه ويدفعه إلى العمل المتواصل المضْني، هذه اللوعة التي تغمر قلبه. وتلك هي السنة الإلهية التي فطرت عليها طبيعة الإنسان في الحياة: له عقل في رأسه يفكر ويؤمن به، وله قلب بين جَنْبَيه يحبُ به ويبغض.. وما كان للفكر العقلاني وحده أن يهيج بصاحبه ويحمله على بذل شيء من الطاقة والجهد. ولم يسمع عاقل من الناس أن مسألة في الجبر أو قاعدة في الرياضيات حملت أحداً من الناس على عمل من أعمال التضحية والفداء.

وإلا فكم في الناس من مستشرقين ومدركين لكثير من حقائق الدين وأحكامه، ومع ذلك يظلون ـ من حيث أعمالهم السلوكية ـ سادرين في ظلمات من الغي.

وكم في الناس من رجل مشرق العقل والتفكير، ولكنه مظلم القلب والروح، فلا يستر الأول شيئاً من عوار الثاني.

وكم في المسلمين ودعاتهم من أناس لا يعجزهم أن يُحلّلوا معضلات الدين وأحكامه في عقلانية دقيقة واعية، ولكن أعينهم لا تعرف الدموع وأفئدتهم لا تذوق الخشوع، فلن ترى أي فائدة أو تأثير لعقلانيتهم الجامدة، ولن تجد في هؤلاء الناس من يتخلّص يوماً ما من رطانته الفكرية وأثقالها ليندفع في سبيل من سبل التضحية وتحمل الجهد والمشاق.

إنَّ لوعة الحب وحدها هي السوط السائق، والتيار المحرك. والمحب هو وحده الذي يبذل الجهد شوقاً إلى المحبوب فيسهل بذلك عليه الصعب، ويقرب أمامه البعيد، وتفنى القوى وتذوب الحياة ولا يرى أنه قد أوفى بعهد المحبة أو قام بواجب شكر النعمة.

لقد كانت هذه اللوعة هي الوقود الذي كنت أراه دائم الاشتعال وراء صدر السباعي عليه رحمة الله (منذ أن عرفته) فيحمله على العمل الدائب وتحمُّل الجهد المؤلم دون أن يحس بِنَصَب أو مشقة، بل كان على العكس من ذلك: يرى فيه لذة وسعادة غامرة.

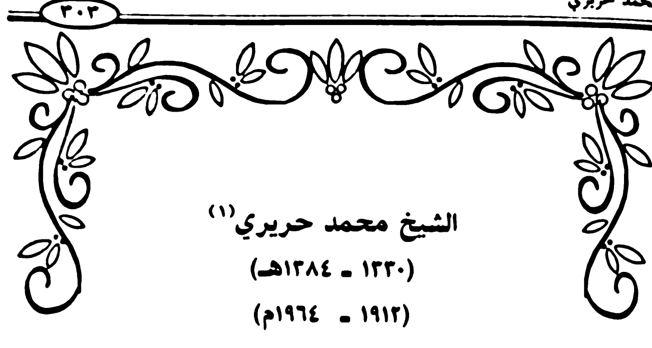
حالته القلبيَّة مع الله في أيام مرضه:

ولا أنسى يوماً التقى فيه فضيلة الأستاذ والدي حفظه الله بالمرحوم السباعي، وراح الوالد يدعو له ـ متأثراً ـ بالشفاء من مرضه، فقال له المرحوم السباعي وقد اغرورقت عيناه بالدمع: يا سيدي: إذا كان شفائي من المرض يحرمني من حالتي القلبية مع ربي عزَّ وجل، فأنا أشهدك أنني أفضل بقاء المرض على أن لا أحرم سعادة هذه الحال.

لقد كان الذي فقدناه بفقد السباعي رحمه الله: عملاً إيجابياً دائباً، وكفاءةً قياديةً رائعةً، ولوعةً قلبيةً ثائرة.

صفات ثلاث، يحقُّ لنا أن نبكيها في ذكرى انقضاء عامين على وفاة السباعي رحمه الله. فقد اجتمعت هذه الخصائص الثلاث في حياته، وقلما اجتمعت في حياة إنسان في هذا العصر.





الشيخ محمد حريري[1]

(١٣٣٠ - ١٣٨٤هـ)

(١٩١٢ - ١٩٦٤م)



للأستاذ عبدالله علوان

انتقل إلى رحمة الله يوم الثلاثاء في ٢ جمادى الأولى ١٣٨٤، الموافق ٨ أيلول ١٩٦٤م. الشيخ محمد حريري من أهالي حلب، ومن علمائها الأفاضل.

ولد رحمه الله في حلب سنة ١٩١٢، ولما بلغ سنّ الشباب تلقّن العلم الشرعي في المدرسة الشرعية التي كانت تُسمّى وقتئذ «الخسروية»، ثم لازم فضيلة العلامة الكبير الشيخ نجيب السراج رحمه الله ملازمة تامةً في جميع دروسه الخاصّة والعامة إلى أن اختاره الله لجواره.

ولا بأس أن نذكر شيئاً من مآثره الكريمة، وأعماله الجليلة حتى يتأسّى به، ويمشي على طريقته طلاب العلم، ودعاة الإسلام، وورثة النبوة وأصحاب الثروة والمال. لأنهم أحوج ما يكونون لمثل هذه المآثر، ولمثل هذه الأعمال، واللّهُ لا يُضيع أجر العاملين المخلصين.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الخامسة: (١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م).

من أميز هذه المآثر، ومن أعظم هذه الأعمال التي كان يتحلى بها الفقيد رحمه الله هي:

١ ـ الجرأة في الحق:

كان رحمه الله لا يخشى في الحقّ لَوْمة لائم، لقد وقف وقفة صامدة أمام فرنسا في عهد الانتداب، فكان يُندّد بها، ويثير الجمهور عليها، ويقرّع بها ويلعنها.. في خطبه الحماسية وكلماته الثورية، وظلّ على هذه الحال حتى خرجت من بلادنا خاسئةً مذمومةً مدحورة. ووقف أمام الحكام مراتٍ ومرات يعظهم وينصحهم، ويأمرهم وينهاهم، ويُبيِّن لهم خطأهم واعوجاجهم غير هيّاب ولا وَجِل، فحسبه في ذلك رضوان الله والدار الآخرة.

٢ ـ الإنفاق في سبيل الله:

لقد كان الفقيد من أهل الثراء والغنى، فلم يبخل يوماً في معروف، ولم يقصّر في عطاء، وكان أسخى ما يكون في العشر الأواخر من رمضان، فإذا مررت على بابه في هذه الأيام، رأيت العشرات من المحتاجين والفقراء يعطيهم ما يكفي أودهم، وما يسدُّ حاجتهم، وكان يعتني رحمه الله بترميم المساجد وبنائها، وترميم أماكن المياه التي يستسقي منها المارة، ومن اعتنائه البالغ مساعدة طلاب العلم الشرعي، وتأمين الملبس لهم، والإنفاق عليهم، وما قَصَدَه أحدٌ بعطاء فيه مصلحة وخير إلا بذل من حُرِّ ماله ما فيه الكفاية.

٣ ـ التحرُّق على الإسلام:

كلُّ مَنْ رأى الفقيد يجده مهتماً مغتماً على ما أصاب المسلمين من تفرُّق وميوعة وفساد.. فكان يتحرّق لأوضاعهم، ويتألم لمصابهم.. ويجتمع بالعلماء ليتذاكر وإياهم في الخطة الرشيدة التي تجمعهم بعد تفرُّق، وتصلحهم بعد فساد، وترجعهم إلى الدين الحق والإسلام الحنيف، وأذكر أني زرته في مرضه الأخير، فوجدته يعاني من الفساد والانحلال الذي أصاب بلاد الإسلام أكثر مما يعاني من مرضه، فكان يسألني: ماذا فعلتم؟

ومن قابلتم؟ وماذا نتج عن مراجعتكم؟ فكنت أجيبه عن كلّ ما تمّ من مقابلتنا للمسؤولين في شأن دروس الدين.

وأخيراً دعا ما ألهمه الله من دعاء، والدموع تنهمر من عينيه، وختم كلامه بهذه الكلمات: «اللهمّ من أراد للإسلام خيراً فوفقه لكل خير، ومن أراد للإسلام شراً فخذه أخذ عزيز مقتدر».. وبعد يومين أسلم الروح لبارئها.

رحم الله الفقيد، وأسكنه فسيحَ جنانه، وأكثر من العلماء من أمثاله، وألهم ذويه وإخوانه الصبر والسلوان، ولا يسعنا إلا أن نقول: «فإنَّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمًى، فلنصبر ولنحتسب ولا حول ولا قوة إلا بالله».



في ذكرى وفاة الشيخ الإبراهيمي

جمعية العلماء ومكانها في تاريخ الجزائر الحديث[1]



للأستاذ محمد المبارك
عضو المجمع اللغوي بدمشق

دور جمعية العلماء المسلمين في نهضة الجزائر واستقلالها:

مات البشير الإبراهيمي رحمه الله شيخ الجزائر الأكبر، وآخر تلك الرؤوس الكبيرة التي بدأت من نحو أربعين سنة بإنهاض الجزائر نهضة واعية منبثقة عن روح الجزائر العربية المسلمة انتهت بالاستقلال الذي كان حلماً من الأحلام البعيدة حين بدأوا بهذه النهضة.

إنَّ من لا يعرف «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» لا يعرف شيئاً عن الجزائر في عصرها الحاضر فهي تؤلف الجهاز الضخم في كيانها والفكرة المستقرة في ضميرها والمعبرة عن روحها التي ترجمت في أعمال بديت من نشر العلم والدين والوعي السياسي، وانتهت إلى ثورة مسلحة كانت الخاتمة والنتيجة الطبيعية لحركتها.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة السادسة: (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

تعرُّف الأستاذ المبارك على جمعية العلماء الجزائرية:

لقد عرفت جمعية العلماء الجزائرية، واطلعت على حركتها منذ عام ١٩٣٠، وكنت طالباً في تجهيز دمشق أو مدرستها الثانوية الوحيدة يومئذ بواسطة بعض الجزائريين المهاجرين الذين كانوا يتلقون صحفها ومنشوراتها، وكنت يومئذ أنا ونفر مثلي من الشباب المسلم مشغوفين بتتبع أوضاع البلاد الإسلامية نقرأ ما يكتبه الأمير شكيب أرسلان في «حاضر العالم الإسلامي» وفي المجلات الإسلامية، وفي كتبه التي كان ينشرها والتي كانت هي ومجلة «الفتح» وما يشبهها تصل الطليعة المثقفة المؤمنة بمشكلات العالم الإسلامي، وتُمكنهم من أن يضعوا قضايا العرب والمجتمع العربي في إطارها الأكبر وفي مكانها من المخطط الاستعماري المرسوم للعالم الإسلامي كله، ومن جملته: العالم العربي فكانت نظرتهم إلى هذه المشكلات أوسع أفقاً وأعمق فهماً وأقرب إلى الصحة ممن كانوا ينظرون في حدود الإطار السوري - وهو جزء من الإطار العربي - أو في حدود الإطار العربي الذي هو جزء من الإطار الإسلامي في العالم في نظر الحقيقة، وفي نظر أهله وأصحابه، وفي حساب مخططات أعدائه الذين كانوا أدق فهماً وأوعى لمشكلات من يكيدون لهم ويرسمون لهم المخططات للسير في الخطة التي يريدون أن يُوجِّهوهم إليها تمكيناً لاستعمارهم.

جريدتا «البصائر» و«الشهاب»:

كانت تصلنا جريدة «البصائر» ثم مجلة «الشهاب»، ونقرؤها بلهفة شديدة متطلعين إلى أخبار قطر عربي مسلم كان المعروف المشتهر عنه أن اللغة العربية أصبحت مجهولة فيه بعيدة عن الاستعمال لدى الخاصّة التي اتخذت الفرنسية، والعامة التي اتخذت لغة عامية هجينة هي مزيج من الفرنسية والعربية العامية المحلية.

أثر منشورات جمعية العلماء في المسلمين الجزائريين:

فكانت منشورات جمعية العلماء حَدَثاً هاماً يلفت النظر، ويثير الدهشة

وكان الأعظم من ذلك أن هذه المنشورات كانت تدل على وعي عميق شامل للمشكلة، إذ كانت نقطة الانطلاق في عمل جمعية العلماء ثورة فكرية سلفية، استهدفت تهيئة الرأي العام، وتغيير تفكيره وعقليته والكثير من عاداته، ومحاربة الخرافات والأساطير والحشويات وسائر أنواع التخدير الفكري والعودة به إلى روح العمل والجهاد الإسلامي، وإلى النظرة الإسلامية الصحيحة، ولم تنجح حركة سلفية في بلد عربي أو إسلامي وتأخذ طريقها إلى الحياة العملية لتكون أساس النضال كما نجحت في الجزائر.

خطط الاستعمار الفرنسي في التنكيل بالجزائريين:

كان الجو الذي أنشئت فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو الجو الذي بلغ فيه الاستعمار الفرنسي ذروة شدَّته، فكان الفرنسيون المستعمرون قد سلبوا الأراضي من أصحابها وامتلكوها، وساروا على خطة التنكيل بالجزائريين المسلمين واحتقارهم واضطهادهم وتجهيلهم وإفقارهم وإقصائهم عن جميع مرافق الحياة حتى أنهم ما كانوا يعتبرونهم مواطنين بل رعية تابعين، وإنما المواطنون هم الفرنسيون وحدهم، واتخذوا كل الخطط لمنعهم من تعليم الدين والقرآن واللغة العربية، واستولوا استيلاء مباشراً على الأوقاف، فأخذوا أموالها، وعلى المساجد فاتخذوا بعضها كنائس، ولم يكن الفرنسيون يقبلون حتى بفرنسة الجزائريين واعتبارهم مواطنين فرنسيين لأن ذلك يعطيهم حقوق الفرنسيين ويوجب تثقيفهم بالثقافة الفرنسية وسياستهم إنما كانت في اتخاذهم خداماً وعبيداً، ويستلزم ذلك إفقارهم وتجهيلهم.

ولذلك أنشئت في الجزائر نتيجة هذا الاضطهاد أحزاب وهيئات كان غاية ما تطالب به وتتمنّى تحقيقه أن يكون الجزائريون مواطنين فرنسيين لهم حقوق الفرنسيين.

منهج حركة جمعية العلماء الجزائريين:

في مثل هذا الجو برزت حركة جمعية العلماء، واتخذت نهجاً جديداً

يختلف عن ذلك الذي سلكه غيرها من الأحزاب والهيئات، فهي أطول طريقاً وأبعد هدفاً وأكثر أصالة وأعمق جذوراً، وذلك بإعادة الجزائري إلى إطاره وكيانه الإسلامي، وإلى عربيته وتكوينه تكويناً جديداً يجعله غير قابل للاستعمار، ويؤهله للنضال والجهاد.

من أعلام الجمعية:

وكان من أعلام هذه الحركة: الشيخ عبدالحميد بن باديس ذلك الرجل العظيم الذي لا ينسى فضله أبداً على الجزائر الحديثة، وكان منهم الشيخ الطيب العقبي، والشيخ مبارك المليلي، وكان منهم فقيد الجزائر العظيم الشيخ البشير الإبراهيمي، والأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه الله الذي أصدر منذ أكثر من ثلاثين سنة كتاباً عن الجزائر باللغة العربية لم يُكتب مثله عن أيّ قطر عربي في ذلك الحين من الوجهة التاريخية والجغرافية والاجتماعية.

لقد أدرك هؤلاء جميعاً أنّ حلّ المشكلة، وقد وصلت إلى ما وصلت إليه لا يكون بالمطالبة بحقوقٍ سياسية، وإنما يكون بحركة جذرية تنتهي بتحقيق المطالب السياسيّة، بل بالتحرر الكامل.

إحياء الإسلام في عقيدته ولغته:

لقد أدركوا أنه لا يحفظ كيان هذا القطر العربي المسلم كسائر الأقطار العربية التي كانت منهم على مرأى ومسمع إلا بإحياء الإسلام في عقيدته المحررة ونظامه وجهاده، وإحياء اللغة التي بها أدى الإسلام رسالته، وهي اللغة العربية، وإحلال هذه العقيدة الشاملة محل مخلفات عصور الانحطاط من حشويات وخرافات وانحرافات وإسفاف، ومحل تلك الثقافة الفرنسية السطحية المزيّفة الغريبة عن روح هذا البلد العربي المسلم.

نشر الوعي الإسلامي عن طريق الشعب والجيل الناشئ:

فعمدت الجمعية إلى نشر هذا الوعي الإسلامي عن طريقين: طريق

الشعب في المساجد والنوادي والبيوت، وبوساطة الصُحف والمجلات والكتب.

وطريق الجيل الناشئ في المدارس التي أخذوا يؤسّسونها في كل بلد من بلاد الجزائر، وكانت حركة هائلة ومعركة اشتعلت بينهم وبين الاستعمار الذي كان يغلق هذه المدارس ويحاكم القائمين بها، وتفتحها الجمعية، وتزيد عليها مدارس أخرى جديدة. حتى استطاعوا خلال عشر سنين أو أقل من ذلك ما بين ١٩٣٠ و١٩٤٠ أن يوجدوا وعياً عاماً وروحاً إصلاحية سلفية وشعوراً قوياً بتميُّز الجزائري بإسلامه وعربيته عن الفرنسي الرومي.

ويلغ مدُّ هذه الحركة فرنسا نفسها، حيث كان يعيش عدد كبير من الجزائريين، فقد كان في باريس وحدها نحو مئة ألف جزائري عدا المدن الأخرى، فأسست النوادي في باريس ومرسيليا، وقد حضرتُ الكثير من اجتماعاتها في باريس حينما كنت طالباً في جامعتها ما بين ١٩٣٥ و١٩٣٨، وكان عدد هذه النوادي التي يتّسع كل منها لآلاف المستمعين ثمانية، وكان الخطباء يتمتعون بحرية الكلام ومهاجمة الاستعمار وبثّ روح الاستقلال لا يتمتعون بمثلها في الجزائر، وكان من قادة هذه الحركة في باريس يومئذ المجاهدان الشيخ الفضيل الورتلاني رحمه الله، والشيخ سعيد الصالحي أمد الله في حياته، وهو ممن سجن مدة طويلة في أثناء ثورة التحرير، وبلغت قوة الحركة أن البائعين المتجولين في باريس من الجزائريين والعمال الأميين كانوا يحدثوننا بحماسة عن حركة الإصلاح هذه.

الوعي السياسي الشامل في جمهور الجزائر:

لقد كان الوعي السياسي الشامل في جمهور الشعب الجزائري نتيجة طبيعية لحركة جمعية العلماء في الجزائر، وكان هو المرحلة الثانية التي أعقبت الوعي الفكري والديني، ولم يكن ثوّار الجزائر إلا أبناء هذا الجيل الذي ربّته مدارس جمعية العلماء ونواديها في الجزائر وفي فرنسا، ولم تكن الثورة التحريرية نفسها إلا جزءاً من الخطة العامة الواسعة التي رسمت خطوطها تلك العقول الكبيرة التي أسست هذه الجمعية، وليس أعظم ثوار

الجزائر بطولة إلا تلاميذ بررة لجمعية العلماء ومنفذين مخلصين لخطتها الحكيمة، وكانت العقيدة الإسلامية والعاطفة الدينية أقوى بواعث هذه الثورة وأمضى أسلحتها، ومن أعماقها كانت تستمد الثورة قوتها ولهيبها.

ليست الوطنية ولا القومية في الجزائر إلا ضرباً من العواطف الإسلامية والمشاعر الدينية التي كانت تقف في وجه أوروبا الصليبية المتعصبة التي كانت تقرن دوماً الاستعمار بالتبشير والتبشير بالاستعمار لأن أوروبا لم تفهم الدين إلا من هذه الزاوية الضيقة، وبهذه النظرة المُشوَّهة المنحرفة.

إن جمعية العلماء قد أحيت الجزائر، وبعثت فيها عربيتها التي كادت تغيب، وإسلامها الذي كان يُقْضَى عليه، ولو أن حركات التحرُّر السياسي في الجزائر، سارت بطريق آخر، وعلى منهج بعض الهيئات التي أنشئت في جوّ التأثر بالثقافة الفرنسية لكانت الجزائر اليوم قطراً فرنسياً، ولو أنه مستقل استقلالاً ذاتياً، ولكنه استقلال يمحو ذاتيتها، ويزيل عنها إسلامها وعربيتها.

واجب الوفاء لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومؤسّسيها:

إن من الوفاء للتاريخ ومن الوفاء لأصحاب الفضل والسابقة: أن نضع جمعية «العلماء المسلمين الجزائريين» في القمة من تاريخ الجزائر الحديث، وأن نضع رجالاتها الأبطال وفي مقدمتهم البطل المجدِّد المجاهد ابن باديس رحمه الله، والعلامة المجاهد الشيخ الإبراهيمي الذي انتقل إلى جوار ربه في أوائل شهر ذي الحجة المنصرم من هذا العام في سجل أبطال تاريخ الإسلام بوجه عام وتاريخ العرب بوجه خاص.

وإن من الوفاء لهم ولتاريخنا وأمتنا: أن تسير الجزائر على النهج الذي رسموه، وتكمل الخطة التي بدؤوها، وذلك بأن تكون نهضتها بعد تحررها قائمة على الإسلام وحده، تحمل لواء عقيدته أمام سائر العقائد الأخرى، وتقيم مجتمعها على أساس مبادئه، متحررة في عقيدتها وفي نظمها من سائر (الأيديولوجيات) العقائد الأخرى وسائر الأنظمة دون أن

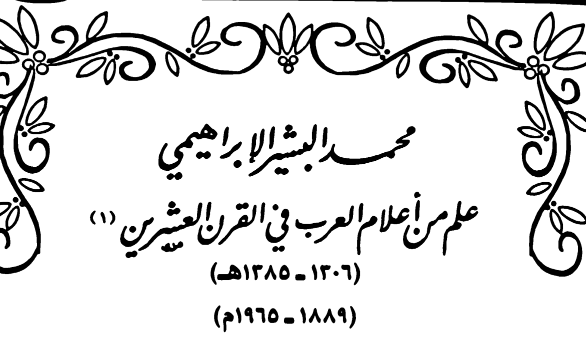
يحول ذلك بينها وبين الاستفادة من تجارب الأمم فيما وراء المبادئ الأساسية والاتجاهات الكبرى، وحينئذ تقدم الجزائر لسائر البلاد العربية أصح تجربة اجتماعية سياسية في هذا العصر، وخير نموذج لشقيقاتها العربيات ولأخواتها الإسلاميات ولصديقاتها وغير صديقاتها من بلاد العالم جميعاً.

إحياء ذكرى ابن باديس والإبراهيمي:

وإنَّ إحياء ذكرى ابن باديس والإبراهيمي بإقامة الحفلات لذكراهم والمحاضرات عن حياتهم وتاريخهم وحركتهم، والإشادة بهم بإطلاق أسمائهم على المعاهد والمؤسسات والمدارس والثكنات هو من خير الوسائل لتحقيق هذا الوفاء، ومن خير البشائر الدالة على انتهاج الطريق القويم طريق الذين وعد الله أن يستخلفهم في الأرض، ويُمكِّن لهم فيها، طريق الذين يعملون على تحرير الإنسانية من أنواع العبوديات؛ عبودية الملوك والرؤساء والطبقات، وعبودية العصبيات الضيقة لينقلها إلى رحاب الإنسانية الواسع المتَّصلة بالله وحده وعلى إقامة المجتمع الإنساني على أساس الحق والعدالة المنبثقة عن هذه العقيدة عقيدة التوحيد المحررة التي تبقى وحدها العقيدة الصحيحة، ويستبين زيف جميع العقائد المنتشرة اليوم في الأرض.

رَحِمَ اللَّهُ الشيخَ الإبراهيمي وشيوخَ الجزائر، وبُناة نهضتها الحديثة من قبله ابن باديس وصحبه، وأمدَّ الله في عمر الباقين منهم، وحيَّا الله رجال الثورة الجزائرية الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من تحرير بلدهم من الاستعمار ونهجه الجاهلي الكافر، وساروا على الدرب القويم القديم الذي سار عليه من قبلهم عقبة وطارق، بل أبو بكر وعمر وعلي وأبو عبيدة ذلك الدرب الذي شقَّه وأنار سبيله سيد البشر ومنقذ الإنسانية وخاتم المرسلين محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الغر الميامين.

□ □ □ □ □



محمد البشير الإبراهيمي

علم من أعلام العرب في القرن العشرين [١]

(١٣٠٦ ـ ١٣٨٥هـ)

(١٨٨٩ ـ ١٩٦٥م)

للأستاذ عمر الحكيم



زيارة الإبراهيمي للملك سعود:

في شتاء عام ١٩٥٤م، كان القصر الأحمر في بلدة الرياض، وهو قصر الملك، وأفخم قصر في البلاد العربية، يعجُّ بعشرات الوفود، جاؤوا من البلاد العربية والإسلامية لزيارة المملكة السعودية، وكانت أسماء تلك الوفود تعلن مساء قبيل دخولها القاعة الكبرى لمقابلة الملك السابق سعود بن عبدالعزيز.

وفي إحدى حُجُرات القصر الجانبيَّة، كان يجلس شيخ وقور المظهر،

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني من السنة السادسة: (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م).

حاد النظرات، صامتاً واجماً منكسراً على نفسه، شاردَ الفكر، يطوف بذهنه بعيداً عن القصر وعن الرياض وعن الجزيرة العربية كلها.

وفجأة أقبل أحد رجال القصر ونادى: الشيخ بشير الإبراهيمي، فنهض الشيخ بصعوبة، ومشى متحاملاً وراء المنادي، ودخل القاعة التي جلس فيها الملك.

وانفرد به يُحدِّثه طوال ساعتين عن الجزائر، وعن تاريخها وعروبتها ودورها في التاريخ الإسلامي، وقضيتها مع فرنسا وثورتها التي كانت آنئذ في أول عهدها، والتي قامت تُجابه فرنسا وحلف الأطلسي الذي يشدُّ أزرها كما بيَّن للملك دوافع تلك الثورة العظيمة ومعناها بالنسبة للمسلمين وللعرب وكيف أنها تعدل الحروب الصليبية، واستشهد الشيخ الإبراهيمي بقول وزير خارجية فرنسا لأحد الصحفيين الفرنسيين، وقد سأله آنئذ عن فكرة التفاوض مع ثوار الجزائر، فأجابه الوزير: «لن ندع الهلال ينتصر على الصليب»، وذكَّر الشيخ الإبراهيمي الملك بواجبات الدولة السعودية حامية الحرمين الشريفين لنُصرة المجاهدين الجزائريين، الذين يتحمَّلون وحدهم مقارع الاستعمار ومطارق الصليبية اللدودة التي تمكَّنت فرنسا من إطلاقها من عقالها في القرن العشرين كما أطلقتها من قبل في القرون الوسطى على أيدي ملوكها ونبلائها.

تصوير واقع الثورة الجزائرية:

واستمرَّ الشيخ الإبراهيمي في تصوير واقع الثورة الجزائرية والمجاهدين فيها، وكيف أنهم قاموا وقد نفخ الإسلام فيهم من روحه الخالدة، فنفضوا غبار الموت والاندثار عن شعب سقط تحت الاستعمار الأسود طوال قرن وربع القرن، فجرَّب فيه ذلك الاستعمار كل الوسائل لإذابته أو مَحْوِهِ من الوجود، وإحلال شعب آخر محله غريب عن العروبة عدوٍّ للإسلام، فما تمكن ذلك الاستعمار اللدود أن يخمد جذوة شعب الجزائر أو يقتل أصالته العربية أو يُجهز على روحه الإسلامية وارتباطه بالعروبة والإسلام رغم أنه نشر فيه الجوع والجهل والبؤس

والفقر والتشرد والإرهاب، وأقام المجازر العامة، وحارب لغته العربية ومنع تداولها وتعليمها لأنها كانت في نظر الاستعمار مركبة الإسلام، تحمل دين النبيّ محمد إلى قلوب أولئك الجزائريين الأشاوس في جبال الأطلس وفي حمادات الجنوب، ولكن هذه اللغة المحظورة في المعاملات والمدارس ظلت لغة العقيدة والعبادة وهما أقوى صلة بين البشر والخالق، لا سيما في ساعات المحنة واستفحال الخَطْب، وهكذا كانت العقيدة الإسلامية بالنسبة للجزائريين الأمل الركيْن الذي يتوجُهون إليه، والنور المشرق الذي يضيء ذلك الظلام الحالك الذي يعيشون فيه، فما استكانوا لفرنسا، بل ظلوا يأملون بنصر الله الذي وعده عباده المؤمنين، وظلوا ينتظرون ساعة الخلاص طوال قرن وربع القرن إلى أن قامت ثورة الجزائر، فالتفّ حولها الشعب برمّته بشيبه وشبانه، برجاله ونسائه، وكلهم يعلم جَسامة الإقدام وعَظَمة الغاية وضَخامة الفداء والتضحية التي تطلبها تلك الثورة، لا سيما وأنها أول ثورة في العالم العربي تتخذ صفةَ ثورة شعب لا ثورة أمير أو ثورة زعيم.

ثم شرح الشيخ الإبراهيمي للملك الذي لم يسمع من قبل بحديث كهذا مفصّل وواسع عن بلد عربي إسلامي ينبعث من مرقده، وينتصب متحدياً الموت والفناء ليأخذ مكانه اللائق بين البلاد العربية والإسلامية كأنه لم يخضع ساعةً واحدة لجبروت فرنسا واستعمارها الأسود طوال مئة وثلاثين عاماً.

حاجة الثورة إلى إمدادها بكلِّ أنواع المساعدة:

لقد شرح الشيخ الإبراهيمي للملك: كيف اندفع رجالات الثورة الجزائرية إلى تنظيم تلك الثورة وإمدادها بكل ما تقتضيه من الرجال والأموال والدعاية والأنصار من العالم الإسلامي وغير الإسلامي، لأن حرباً كهذه يتوقف عليها مصير شعب بأكمله، ويتقرّر فيها مستقبل أمة كانت تتطلب أقصى الجهد وكل جهد، ولا تحقر أية مساعدة مهما كانت ضئيلة، فالبحر الزاخر يتكوّن من اجتماع نقاط صغيرة، ولذلك اندفع رجالات الجزائر إلى

طَرَق جميع الأبواب من الصين إلى مَجَاهل إفريقيا، وطلب المعونة والأنصار من كل حَدْب وصَوْب.

وكان الشيخ الإبراهيمي من رجالات الجزائر الذين انتشروا في العالم للتعريف بمعنى ثورة الجزائر، وتجنيد الأنصار لها، وها هو يبسط قضية الجزائر للملك سعود الذي كان يُصغي ويفكر بما جُبِل عليه من فطرة عربية صِرْفة وبداهة إسلامية صافية، وكانت علائم الأسى والتأثر الشديدَيْن ظاهرة على ملامحه لِمَا نزل بالجزائريين من ضروب الأذى والعدوان، ولم يعلق على حديث الشيخ الإبراهيمي إلا بقول واحد: «إنَّ كلَّ ما أصاب الجزائريين سببه أنهم مسلمون».

انتهاء مقابلة الإبراهيمي ومعاناته آلام المرض والشيخوخة:

وانتهت المقابلة، وخرج الشيخ الإبراهيمي مسرعاً، ولجأ إلى غرفة متواضعة في إحدى دور الرياض، وارتمى على سريره، ونادى أحد مرافقيه الجزائريين طالباً منه إحضار طبيب، ذلك أن الشيخ كان آنئذ في أوج المرض والضعف، يعاني عدة أمراض، يكفي واحد منها لإناخة أي رجل عادي في الحياة العادية، هذا عدا عن مرض الشيخوخة، ولكن صوت شعب الجزائر الذي تبيده جيوش فرنسا في كلِّ مكان من الجزائر في المدن وفي الأرياف وفي معتقلات التجميع كان يُلعلع في ضمير الشيخ وفي مسامعه، فلم يدع للشيخ مجالاً لشكوى ولا ذكراً لنفسه وأدوائه وشيخوخته فانتصب يغالب كل ضعف، وتحامل على جسمه المحموم، وسافر إلى الرياض، وعانى الأمرَّيْن حتى تَمَكَّن من مقابلة الملك، وعرض قضية الجزائر عليه، وخرج اليوم من تلك المقابلة راضي النفس، عليل الجسم أكثر من أيِّ وقت مضى، لأن جهد الإقناع في جلسة واحدة ولأول مرة ولا سيما إقناع الملوك والرؤساء بقضية أمة يتوقف عليها حياتها أو موتها ليس جهداً يسيراً ولا أمراً هيناً.

فالملوك والرؤساء في البلاد العربية في ذلك العهد كانوا يمتازون بثقافة متواضعة، تُؤهِّلهم للعيش دوماً على غير مستوىً الأحداث، ولأن قضية

الجزائر لم تكن داخلة في الكتب المدرسية التي مرّوا عليها مرور الكرام إبان طفولتهم المَرِحَة السهلة، والتي عرجوا منها سريعاً إلى مدارج السلطة والحكم دونما مُؤهّلات العلم والثقافة الواسعة التي يتطلّبها الحكم والسلطة.

بين الزاهدين في الحكم والمتطلّعين إليه:

واللوم لا يقع في ذلك على أولئك الملوك أو الرؤساء، فالشعب العربي بمجموعه فئتان: فئة زاهدة في الحكم والسلطة، وفئة تعتبر الحكم والسلطة أهون الأمور في الحياة وأربحها، إليهما تَتَصَاعد آمال الفاشلين في الحياة والعاجزين والكسالى، وإليهما تنصب نظرات طالبي الاغتناء المُتَسَارع والجاه المفاجىء والرفعة المُتفجّرة، وإليهما ترنُو نفوسُ الجُهَّال والطامحين الذين فاتهم قطار العلم والنجاح في الطريق المستقيم، فآمنوا إيماناً أعمى أن الحكم والسلطة هما أقصر من أيّ طريق مستقيم.

مهمة البشير الإبراهيمي رئيس رابطة العلماء الجزائريين:

كان رجالات الثورة الجزائرية يعلمون تمامَ العلم هذه الحال في الأمة العربية وفي ملوكها ورؤسائها، ولذلك اختاروا وفودهم إلى أولئك الملوك أو الرؤساء من بين أعلم رجالاتهم، وكانت المكانة الأولى في تلك المهام الخطيرة والصعبة تقع على الشيخ بشير الإبراهيمي، وهو آنئذ رئيس رابطة العلماء الجزائريين بكل جدارة واستحقاق لا بالتعيين والتزوير.

وكان الشيخ الإبراهيمي يعلم جَسَامة المهمة المُلقاة عليه، لا سيما وأنه يدرك تماماً أنّ الحديث مع الملوك والرؤساء العرب عن الجزائر كان آنئذ أصعب من الحديث عن جزر «الواق ـ الواق» الواردة في ألف ليلة وليلة، لولا أن الإذاعات الأجنبية والعربية التي تُطوّق العالم العربي من كل حدب وصوب آناء الليل وأطراف النهار، وتصبُّ جام ثرثرتها وأحاديثها بإلحاح دؤوب لا هوادة فيه، لولا أن تلك الإذاعات قد عرّفت العالم بالثورة الجزائرية وبالشعب الجزائري تعريفاً ناقصاً ومشوّهاً، ولكنه في الوقت ذاته تعريف مفيد لأنه أفهم العالم أن شعب الجزائر لم يندثر ولم يذب في بوتقة

فرنسا التي تصهره منذ مئة وثلاثين عاماً، بل ظل شعباً مسلماً عربياً لا فرنسياً ولا غريباً عن العروبة والإسلام كما كانت الدعايات الفرنسية والأجنبية تصوِّره من قبل، وأن هذا الشعب الجزائري استفاق من رقاده، وشبَّ عن الطوق وقد «عقد العزم أن تحيا الجزائر وعلى العالم أن يشهد ذلك».

من مرحلة المعرفة النظرية إلى مرحلة المعرفة العملية:

ولكن هذا التعريف بالجزائر لا يكفي، فعلى هيئة التحرير واجب استكمال التعريف لدى العالم العربي والإسلامي لإمداد الثورة بالعون والدعم، وأن تنقل العالم العربي والإسلامي من مرحلة المعرفة النظرية إلى مرحلة المعرفة العملية، وذلك بإمداد الثورة بالمال والسلاح، وهنا كانت المشكلة العظمى والطامة الكبرى.

فالعرب والمسلمون أتقنوا فنَّ الكلام، ونبغوا في الفصاحة والبلاغة، ولكنهم مُقصِّرون في واجبات الحياة، وخاصَّةً واجبات الجهاد والبذل والاستمرار فيهما لتحقيق غاية أو نصرة مبدأ، وما أكثر الانقطاعات في تاريخ العرب والمسلمين.

من طَوْر الدعاء والفخر بالثورة إلى طور البذل المادي والعون السياسي:

ولم يكن الشيخ الإبراهيمي ليجهل كلَّ هذه النواحي الضعيفة في بناء الأمة العربية والإسلامية، ولكن الثورة تطلب منه بذل أقصى الجهد لنقل الحكومات العربية من طَوْر الدعاء والابتهال والفخر بالثورة الجزائرية إلى طَوْر البذل المادي والعون السياسيّ لها، وها هو يعود اليوم في مقابلة ملك أغنى دولة عربية، تبذل في يوم واحد ما يكفي لجيش الجزائر شهراً كاملاً، فمهمة الشيخ هي تحويل وجهة ذلك البذل، أي تحويل نهر الذهب الذي يضيع في جزيرة العرب ـ ولو يوماً واحداً ـ من كل شهر إلى جبال أوراس ونجود وهران وجبال الأطلس.

ولقد خرج الشيخ من مقابلة الملك، وهو قانع أنه تمكَّن من هذا التحويل، وأن حديثه مع الملك لاقى أذناً صاغية ونفساً طيبة استجابت لنداء

الواجب المقدس، وهو نُصْرة أمة تذبح وتُباد في معتقلات الأسر وفي كل مكان من الجزائر.

وقضى الشيخ الإبراهيمي عدّة أيام يُغالب الموت، فالطبيب لم يعلم ماذا يداوي فيه الشيخوخة أم الإرهاق أم بقية الأمراض، وظل الشيخ يتلوّى عدة أيام على فراشه في حالة غيبوبة، فإذا عاودته صحوة تَمْتَم قائلاً: «ما هي أخبار الجزائر؟ وما استجدّ في موقف الحكومة السعودية من هيئة التحرير!!».

استجابة الملك سعود لنصرة مجاهدي الجزائر:

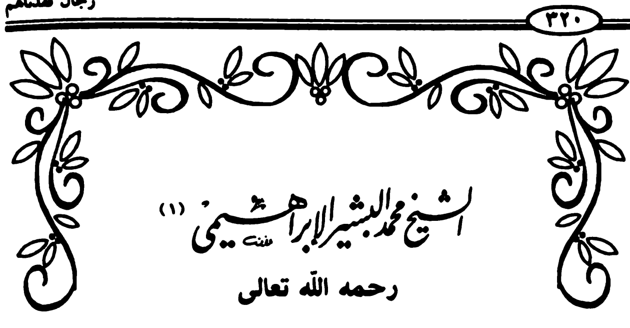
ولم تمض إلا أسابيع قليلة حتى كان معمل السلاح في بلدة «الخرج»[1] في نجد يعمل ليل نهار، يُصدِّر الذخيرة والعتاد إلى مجاهدي الجزائر، كما كانت هيئة التحرير الجزائري تَتَلقَّى مساعدات مالية ضخمة لشراء الأسلحة من شتَّى أنحاء العالم، وفي الوقت ذاته كانت الحكومة السعودية تُقدِّم العون السياسي والأدبي لثورة الجزائر، وتقطع تدريجياً علاقاتها مع فرنسا، ولم تتحسَّن صحة الشيخ الإبراهيمي، بل اشتدَّ به المرض وازداد به الإرهاق، ولكن ثورة الجزائر كانت تطلب منه مزيداً من الجهد ومن نسيان النفس فتحامل على جسم هزيل تعصف به الحمَّى، وتهدّه الشيخوخة، وتفتك به العلل، وانتقل إلى ليبيا وتونس، حيث كان الواجب ينتظره لخدمة الثورة[2].

□ □ □ □ □

---

(١) استمرَّ هذا المعمل يقدم كل ما ينتج حتى عام ١٩٥٦م، حيث تمكَّنت المخابرات الفرنسية من تدميره بواسطة ألغام عديدة وضعها العمال الأجانب الذين كانوا يعملون فيه، ولكن الحكومة السعودية عادت إلى إصلاحه، وعاد المعمل يُزوِّد ثوار الجزائر بالذخيرة والعتاد حتى آخر يوم من الثورة الجزائرية (الحكيم).

(٢) انتهت مقالة الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله تعالى، وكتب في آخرها: (يتبع) ولم أجد في المجلة بقية لمقالته الممتعة المفيدة.



للأستاذ عبدالرحمن الغريب

وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدر:

احتفلت الجزائر بذكرى وفاة فقيد الإسلام والعروبة محمد البشير طالب الإبراهيمي. وقد عبَّر الشعب في هذه الذكرى عن مشاعره المخلصة حيال رجل خدم الجزائر، ودافع عنها في عهد كان المخلصون قليلين.

لم تعرف الجزائر في أيام محنتها رجلاً، وتعرف مكانته بعد وفاته مثل الإبراهيمي - وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر - لقد قدَّم أعزَّ ما يملك: شبابه، وكهولته، وشيخوخته، لم يصرفها في ربح العظمة الزائفة، أو في جمع ما يعتبره الناس نفيساً، من المتاع الزائل... بل صرفه في خدمة الأمة وتوجيه نشئها. ولولا أمثال الإبراهيمي ممَّن تحمَّلوا مشقة حمل الأمانة الروحية، لما ذكرت الجزائر، ولا رجعت لها شخصيتها العربية والإسلامية.

لقد كان الإبراهيمي يرى - حين كان الناس لا يؤمنون بالصبح المشرق - أن الجزائر لا بد أن تعوذ إلى حظيرة الإسلام، ويعود للعربية شأنها،

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة السابعة: (١٣٨٦ - ١٩٦٦).

وعمل كما عمل معه المؤمنون بالفكرة، على تسفيه أحلام العدو الذي كان يتبجّح بأن أرض الجزائر ليست إلا مزرعة مهملة جعل المغيرون عليها أرضاً تُطعم سكانها، وتنبت ما يشبع بطون المساكين فيها من بشر وحيوان.

وأمدّ الله عمر الإبراهيمي، فشاهد بلاده التي نافح وكافح من أجلها، تنعمُ بالخطوة الأولى من خطوات الحياة الحقة: الحرية. وتمنى لو أنّ شبابه عاد إليه ليعمل من جديد على تحقيق الأمنية العريضة، حتى يشهد الآمال مجسّمة والأحلام أشياء ملموسة.

إلا أنّ هذا لا يمنع الإبراهيمي، ولو غادرنا إلى العالم الروحاني النوراني، أن يتمتّع من العالم الثاني بابتسامة الرضا.

وقد غادر عالمنا ولسان حاله يردد:

مــن عــاشَ بــعــد عــدوِّه ... يــومــاً فــقــد بــلــغ الــمُــنــا

عروبة الشمال الإفريقي:

ويكفينا في هذه المناسبة أن نذكر بعض الفقرات، ممّا كان الإبراهيمي يكتبه في وقت كانت حرية القول فيه جريمة.

لقد نادى بعروبة الشمال الإفريقي، ودحض مزاعم الأفاكين الذين كانوا ينشرون الشك، ويزرعون البلبلة في أذهان السواد الأعظم ليصدوه عن سبيل الله، ثم عن سبيل العروبة. وها هو رأيه صريحاً لا التواء فيه، إنه يقول[1]: «عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبتُ أساساً، وأقدم عهداً، وأصفى عنصراً من إنكليزية الإنكليز وألمانية الألمان.

قَضَت العروبة بروحانيتها وقوتها وأدبها وسُموّ خصائصها، وامتداد

---

(١) البصائر، العدد (١٥٠)، ٣ رجب ١٣٧٠هـ.

عروقها في الأكرمين الأول من نبتات الصَّحارى وبُناة الحضارات فيها، على بربرية كانت منتشرة بهذا الشمال، وبقايا آرية كانت منتشرة فيه، وفعل الزمن الطويل فعله حتى نسي الناس، ونسي التاريخ الحديث أن هناك جنساً غير عربي، وضرب الإسلام بيسره ولطف مدخله، وملاءمة عقائده للفطر، وعبادته للأرواح، وآدابه للنفوس، وأحكامه للمصالح، على كل عرق ينبض بحنين إلى أصل، وعلى كل صوت يقصف بذكرى إلى ماض بعيد، وزاد العروبة تثبيتاً وتمكيناً هذه الأبجدية العربية الشائعة التي حفظت أصول الدين، وحافظت على مستوى اللغة، ودوّنت الآداب والشرائع، وكتب التاريخ وسجلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى العلم، وكانت السبيل إلى الحضارة.

* * *

هذه العروبة الأصيلة العريقة في هذا الوطن، هي التي صيَّرته وطناً واحداً، لم تفرقه إلا السياسة، سياسة الخلاف في عصوره الوسطى، وسياسة الاستعمار في عهده الأخير، وهذه العروبة هي مسألته على كثرة المُفرّقات، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة، وهي رباطه الذي لا ينفصم ببقية أجزاء العروبة في الشرق، وهي السبب في كلّ ما يأخذ من تلك الأجزاء وما يعطيها، فينصرها في الملمات، ويتقاضاها النصر في المهمات، فالعالم العربي بهذه العروبة المكينة كالجسد الواحد إذا ألمّ بجزء من أجزائه حادث، أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنُّصرة والغَوْث، أو بالتوجُّع والامتعاض.

* * *

ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل، وهو بجميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، وقتل الموجود بالمعدوم، ليتم له ما يريد من محو واستئصال لهما معاً، وإنما يتعمد العربية بالحرب؛ لأنها عماد العروبة، ومُمْسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم، وأدباء ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاء

والخلود، وكل ذلك مما يقضُّ مضجعه، ويطير منامه، ويصخ مسمعه، ويقصر مقامه.

* * *

كل ذلك الجهد ومثله معه مصروف إلى غاية واحدة، وهي محو العربية وقتل العروبة، وكل ذلك الجهد مردف بجهد آخر في إحياء المعاني الميتة التي حاربها الإسلام من بدع وضلالات».

السياسي البارع:

والإبراهيمي سياسي بارع، يسخر من خصومه سخرية الخبير. لقد كان يُصوِّر البرلمان الذي صنعته السلطات الاستعمارية للتضليل وإيهام العالم - المدعو بالعالم الحر - بأن الجزائر تتمتَّع بكل ما تتمتع به الأقطار الديموقراطية، من سلطة، وحرية رأي. صورة طبق الأصل حين يقول[1]:

«وماذا في الجزائر من ذاك؟

يسمع البعيدون الذين منَّ الله عليهم بالسلامة ممَّا نحن فيه، أن في الجزائر نواباً ومجالس نيابة، وأن فيها من مواليد عهد التطورات مجلساً جزائرياً، يتراءى في مظاهر برلمانية، تلوح عليه مَخايل البرلمان وسماته، وتنفح من طياته روائح البرلمان ونسماته.

يسمعون ذلك عن الجزائر، فيحسبون أنَّ الحرية صافحتها، وأنَّ عوادي الدهر صافتها، وأنَّ هذه المجالس النيابية خليقة أن تراقب الحكومة والحكام، وأن تناقش، وأن تُحاسب، وأن تُحامي عن مصالح الأمة وحقوقها، كدأبها في كلِّ بلد نيابيّ، وقد يغبطنا جيراننا الأقربون على هذه الحياة الشُّوريَّة التي حَرَمهم الاستعمار منها.

مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ، والبعيد يسمع الأصداء لا الأصوات، والحقيقة هي أنه ليس في الجزائر نيابة ولا نواب، ولا منتخبون ولا انتخاب. وأن حالتها

(١) البصائر، العدد (١٢٠)، ٥ شعبان ١٣٦٩هـ.

في هذا الباب بعد مائة وعشرين من استعمار فرنسا أم الدساتير، وأمام الشعوب النيابية في العالم، قد انتهت إلى حيث ابتدأ الباش آغا[١]...

ليس في الجزائر نيابة ولا نوّاب، بالمعنى الذي تعرفه الأمم، وإنما هي صور بلا حقائق، وألفاظ مجرّدة من معانيها، وأجسام مُفرّغة من أرواحها... إنما هي وظائف توزعها الحكومة على أعوانها، وتضع عليها هذه الأسماء، تمويهاً وتغليظاً، وتغطيها بأقلية ضئيلة من النواب الأحرار، تمهيداً للغدر، وتعويذاً من العين، ودفعاً للتهمة وقالة النقد، فإذا اجتمعت هذه المجالس النيابية ليوم الفصل في المشكلات، أو ليوم الرأي في المعضلات، لم تجد نواباً ولا رأياً، ولكنك تجد الحكومة تتحكم وتسيطر، وتوجّه وتملي، ثم لا يكون إلا رأيها».

ويقارع الخصم فيقف في وجهه ليقول كلمته، ويجهر بها غير هيّاب ولا وَجِل فيقول: «يقول الاستعمار ـ وقوله الباطل ـ: لا حقَّ للأمة الجزائرية في الحياة، وما قالها إلا بعد أن فعلها... جرّدها من سلاح الحماية، فلا قانون يحميها، ولا نيابة تنطق باسمها، ولا صحافة تدافع عنها، ولا حاكم منها يعطف عليها... فَمَنْ ذا الذي يحمي عرضها من الثلب، ويحمي مالها من السّلب، ويحمي دينها من القلب، ويحمي جسمها من الضرب؟ لا شيء...! لا شيء، ولا بعض الشيء.

وقعت حوادث ٥ أغسطس ـ وهي مكيدة مُدبّرة ـ فلم تحرك فرنسا ساكناً، وتركت المكيدة تجري لغايتها.

ووقعت حوادث ٨ أيار المروعة، فأعلنت فرنسا ثقتها بالمُدبّرين لها، ورضاها عما يصنعون، واهتزت الدنيا لهولها وفظاعتها، ولم تهتز فرنسا إلا هزّة الإعجاب ببطولة الهاتكين للأعراض الطاهرة، الفاتكين للمهج البريئة، المُثخنين في شعب أعزل، ورويت الضواري الوالغة من دماء هذه الأمة، وشفيت الصدور المغيظة عليها من الغليل، وأفاق المظلومون من غمرة

---

(١) لقب تخلعه الحكومة الفرنسية على كبار الموظفين.

الذهول على حِمًى مُستباح، ودماء مطلولة، فرفعوا أصواتهم يطلبون من فرنسا إرسال لجنة برلمانية للتحقيق الذي لا يردُّ فائتاً، ولا يحيي مائتاً، ولكنهم كانوا ينادون صخرة صمّاء».

المعلّم العربيّ:

وقد تمكن الإبراهيمي بعبقريته الفذّة أن يفهم المشكلات الجزائرية فهماً عميقاً، وكانت آراؤه في مجلس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين محل تقدير زملائه، حتى أن الأستاذ الإمام ابن باديس كان ينزل عند رأيه، ويرى في الرجل أنه أهل ليكون ربان سفينة الفكر الإسلامي في البلاد.

تنظيم التعليم العربي والإسلامي:

واستطاع بعد الحرب العالمية الثانية وخروجه من المعتقل، وارتحال باديس إلى الرفيق الأعلى ١٦/٤/١٩٤٠م، أن يلم شتات أعضاء الجمعية الإسلامية وأنصارها، للسير قدماً في تنظيم التعليم العربي والإسلامي، وجمع حوله طائفة من جنود الإسلام، ليكوّن بهم معاقل تحفظ للجزائر المسلمة شخصيتها، وتدفع غائلة العدو المتكالب، وكان كل همّه أن يجعل من هؤلاء الجنود المثل الأعلى للمسلم الصحيح، اسمعوه يخاطبهم:

«أنتم جنود العلم، وكلمة «جندي» معنى يبعث الرّوعة، ويوحي بالاحترام، ويجلب الشرف، ويعلي القيمة، لأنه في غاية معناه حارس مجد، وحافظ أمانة، وقيّم أمة، لذلك كان من واجبات الجندي الصبر على المكاره واللّزبات[1]، والثبات في الشدائد والأزمات، والسمع والطاعة فيما يغمض على الأذهان فهمه من العلل، ويعسر على العقول هضمه من الحكم، فإذا استرسل الجندي في الجَزَع والشكوى، أو خانه الصبر فلاذ بالضَّجَر، خانه النصر، وضاع الثغر، وإنما أنتم حراس دروب، ومرابطة ثغور، فاصبروا

---

(١) اللّزبة: السنة الشديدة. والجمع لَزبات كأنّ القحط لَزَبَ، أي: ثبت فيها. كما في «معجم مقاييس اللغة». وفي «تاج العروس»: لزبات بالتسكين على أنها صفة، وبالتحريك على أنها اسم.

واثبتوا، وقد كفيناكم سَدَاد الرأي، فهاتوا سدادة الإرادة وسداد العمل.

وأنتم ممثلو جمعية العلماء في ناحيةٍ من أهم أعمالها، وهي التربية والتعليم، فكلُّ واحد منكم صورة مصغرة من الجمعية في نظر الأمة، وجمعية العلماء هي رمز الدين الصحيح، وهي حارس الفضيلة الإسلامية، وهي المثال المفسِّر للحكمة المحمديَّة بأحسن تفسيراتها، وهي المثل المضروب في مقاومة الباطل والمُبْطلين، وهي مظهر القدوة الدينية اعتقاداً وعملاً، فهي لذلك كله ـ ملء سمع الأمة وبصرها، وهي الأريج المتضوِّع بسمعة الجزائر في العالم الإسلامي، فكونوا في مظهركم ومخبركم ـ أمثلة صحيحة منها، واعلموا أنَّ كل زلةٍ منكم ـ وإن صغرت ـ محسوبة على جمعية العلماء منسوبة إليها.

أنتم حُرَّاس هذا الجيل الجديد، والمُؤتَمنون عليه، والقَوّامون على بنائه، وأنتم بُناة عقوله ونفوسه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على هِزَّة[1] من الفضائل الإنسانية، وأشربوه عرفان قيمتها، فإن مَن لم يعرف قيمة الثمين أضاعه، وقد غبنت هذه القيم في عصركم، فكان ما ترون من فوضى واختلاط.

ربُّوهم على ما ينفعهم وينفع الوطن بهم، فهم أمانة الوطن عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم.

ربُّوهم على التحابب في الخير، والتآخي في الحق، والتعاون على الإحسان، والصبر إلا على الضَّيْم، والإقْدام إلا على الشر، والإيثار إلا بالشرف، والتسامح إلا بالكرامة.

امْزُجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأتي التركيب بعجيبة، ولا تعمروا لهم أوقاتهم كلها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد، هو الذي صيَّر علماءنا مثل «القواعد»، وإنما القواعد أساس، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتمُّ البناء؟

---

(١) هزرت فلاناً للخير فاهتزَّ، وأخذته له هِزَّة ـ أي: أريحيَّة وخفة ـ.

ربُوهم على أن يعيشوا بالروح في ذلك الجوّ المشرق بالإسلام وآدابه وتاريخه ورجاله، ذلك الجو الذي يستوي ماضيه ومستقبله في أنهما طرفا حق لا يشوبه الباطل، وحاشيتا جديد لا يبليه الزمن، وعلى أن يعيشوا بالبدن في هذا الزمن الذي يدين بالقسوة، ويدل بالبأس، وعلى أن يلبسوا لبوس عصرهم الذي يبني الحياة على قاعدتين: «إن لم تكن آكلاً كنت مأكولاً»، و«كن عبداً للشيطان قوياً، ولا تكن عبداً لله ضعيفاً»[1].

الناصح الصادق:

كان الإبراهيميُّ ـ رضي الله عنه ـ يقول كلمة الحق، ولا يخشى لومة لائم، يرفع عقيرته مندّداً بالأخطاء، ويرفض الحلول المرتجلة، والمصالحات الكاذبة، فإذا حلَّ بالإسلام والعرب خَطْبٌ، قال كلمته، وكم رفض من دعوات للمهادنة، وكم صَفَع وجوهَ أولئك الذين باعوا ضمائرهم لقاء دراهم معدودة.. إنه يذكر واجب الصفوة المختارة، في مقال تحت عنوان: «أرحام تتعاطف»[2]: طالما نعينا على المسلمين خصوصاً والشرقيين عموماً، هذا التقاطع الذي شتَّت شملهم، وفرّق جامعتهم، وصيَّرهم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم، وأقمنا لهم الأدلة، وضربنا لهم الأمثال، وسقنا المثلات، وجلَونا العبر، وكانت نذر الشر تَتوالى، فيتمارَوْن بها، وصيحات الضحايا منهم تتعالى فيصمون عنها، والزمن سائر، والفلك دائر، وهم في غفلة ساهون.

منبع الشفاء ومبعث البلاء:

... وحذّرناهم من هذه الأفاحيص الضيّقة، والوطنيات المحدودة التي هي منبع شقائهم ومَبعث بلائهم، وبيّنا لهم أنها دسيسة استعمارية، زيّنها لهم سماسرة الغرب وعلماؤه وأدلاؤه، وغايتهم منها التفريق، ثم التمزيق، ثم

---

(١) البصائر، العدد (١٣٣)، ١١ محرم ١٣٧٠هـ.

(٢) البصائر، العدد (١٤٤)، ١٨ جمادى الثانية ١٣٧٠هـ.

القضم، ثم الهضم، وأن الاستعمار ـ بهذه الدسيسة وأشباهها ـ يفسد فطرة الله فيهم، وينقض دين الله عندهم، ففطرة الله تلهم نصرة الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره، ودين الله يوجب حقوقَ الأخوة، ويدعو إلى إيثار الجار والإحسان إليه، وهو بهذا يُعمِّم التناصر، ويقيم في الأرض شِرعة التعاون، فما من جار إلا له جار، والناس كلهم متجاورون جوار الدار للدار، القرية للقرية، فجوار المدينة للمدينة، فجوار الوطن للوطن، فإذا أخذوا بهذه الشرعية، وأقاموا حدودها عمَّ التناصر والتعاون، وسُدَّت المنافذ على المغيرين وعلى المفسدين في الأرض، ولكن الاستعمار ـ بهذه الدسيسة ـ بدَّل شِرعة الله بشِرعة الشيطان، فهو يقول لك: اقْصِر اهتمامك على دارك، ولا تلتفت إلى دار جارك، ويوسوس للجار بمثل ذلك، حتى إذا أطعتماه خَرَّب الدارَيْن واستعبد الجارين.

أسلحة لا نُحسن استعمالها:

إننا ـ على ضعفنا ـ ما زلنا نملك أسلحة لو أحسنا استعمالها مجتمعين، لأرهبنا صهيون ونيرون معاً، ولكن طالع الاستعمار ما زال بغفلتنا وتخاذلنا منتقلاً بين (سعد السعود) وبين (سعد بلع)، ولو عاملنا بغير هذه المعاملة لكان منزله (الدبران)، ولو أن المسلمين والشرقيين عموماً لقوا خصومهم في كل معترك سياسي بمثل هذا الإجماع في الرأي، والتواطؤ على الغضب لهتموا أنيابهم الحداد، وقلّموا أظافرهم الجاسية، ولكنهم لانوا لخصمهم أولاً، فقسا عليهم أخيراً، وعوَّدوه أن لا يلقوه جميعاً، فعوَّدهم أن يلتهمهم جميعاً.

أينقم منا الاستعمار أن نتناصر بالكلام، وهو سلاح المغلوب؟ ونتعاون بالأقلام وهي بقية المتاع المسلوب؟ وتتعاطف منا الأرحام، وذلك أيسر مطلوب؟ إن صحَّ ذلك منا فلا رضي ولا حظي، ولا زال غضبان حرداً.

إننا لا نلومه، إذا لمنا السِّباع الضارية على الافتراس، وإنما نلوم

أنفسنا أن لا نكون شوكاً في لهواته، ونغصاً في شهواته، وسواداً في لونه، وفساداً في كونه، وضياعاً في صوته، وخذلاناً في عونه.

ولو كنا ذلك لأنصفناه وانتصفنا لأنفسنا منه».

كذب فرنسا على التاريخ وتزويرها للأحداث:

ولما قامت فرنسا في وجه رجال جمعية العلماء، وسدّت في وجوههم المساجد لتمنعهم من الاتصال بالشعب، كوّنت الجمعية نواديها ومساجدها الحرة، والتفّ الشعب حولها يناصرها، ويغضب معها لدينه. ثم حاولت فرنسا بعد أن استفحل الخطْب وأصبح الحديث يشغل بال الصحف الأجنبية التي تسرّبت إليها أنباء الجدال ـ رغم رقابة السلطة الاستعمارية ـ قامت فرنسا ودفعت مأجوريها للكذب على التاريخ، وتزوير الأحداث.

ودخلت المسألة في طور جديد جعل فرنسا تعمل في مختبراتها (طبخات كيميائية) إلا أن الإبراهيمي كان يفهم نفسية السلطة، ويدرك أغراضها، فرفع قلمه ليذكرها بالأرقام والأحداث المسجّلة، ويرد كيدها في نحرها، وكان مما كتبه في هذا الصّدد، قوله:

«احتلّت فرنسا هذا الوطن بالقوة، وبينها وبينه بحر فاصل، وبينها وبينه دينان متخالفان، وجنسان متضادّان، ولسانان متباينان، وبينهما ـ مع ذلك كله ـ أخلاق متنافرة، واجتماعيات متغايرة، بل بينهما شرق وغرب بكل ما بين الشرق والغرب من فروق، وإذا تباينت المقوّمات بين جنسين كل هذا التباين، كان تسلُّط أحدهما على الآخر غير مضمون الاستمرار، فإن استمر فغير مضمون الاستقرار، لأنه يعتمد دائماً على القوة المادية وحدها، والقوة المادية ليست سلاح كل وقت.

سُبُل المُتَسلِّطين لدوام السلطة:

سُبل المُتَسلِّطين لدوام السلطة أحد أمرين: إما الإحسان الذي يملك النفوس، والعدل الذي يحفظ الحقوق، والتساهل الذي يستهوي الأفئدة، والرحمة التي تأسر العواطف.

وإما المحق لمقوّمات المغلوب الروحية والمادية مغافصة[1] أو تدريجاً، وتحطيم عناصر المقاومة فيها جهرة أو اغتيالاً. فأي السبيلين سلكت فرنسا في الجزائر؟

إنها آثرت الأمر الأخير من أول يوم، ووضعت له الأصول، ورتّبت الوسائل، وآثرت من أنواعه التدريج المغطى بالكيد والاحتلال، وبدأت من المقومات بالدين، لأنها تعرف أثره في النفوس والإرادات، وتقدّر ما فيه من قوة التحصُّن من الانحلال، وقوة المقاومة للمعاني الطارئة، فوضعته نصب عينيها، ومدّت يدها إليه بالتنقص، فالتهمت أوقافه المحبوسة على مصالحه، لتجرُّده من القوة المادية التي هي قوامه، وتلصق برجاله الحاجة إليها، فتخضعهم لما تريده منهم، فتُصيِّرهم أدوات تأتمر بأمرها لا بأمر الدين، وتخضع لسلطانها لا لسلطان الدين، وما زالت بهم تُروِّضهم على المهانة، وتسوسُهم بالرغبة والرهبة، حتى نسُوا الله ونسُوا أنفسهم، ونسوا الفوارق بين رجل الدين الذي يدين بطاعة الله، وبين موظف الحكومة الذي يدين بطاعة الحكومة، وأصبحوا في العهد الأخير كالأسلاك الكهربائية المفرغة من الشحنة... ليس فيها سلب ولا إيجاب.

غاب عن فرنسا ـ وهي تحوك هذا التدبير ـ ما يغيب عن كلّ مستكبر جبار، وهو درس القابليات في الأشياء، ولو درست لهداها الدرس إلى الحقيقة، وهي أنّ الإسلام والعروبة سيّان ليست فيهما قابلية الذوبان والانمحاء، لأن فيهما من أثر يد الله ما يعصمهما من ذلك.

والعقلية الغالبة في أيام احتلال الجزائر، هي الغالبة في أيام نضج المبادىء الجمهورية، وهي المُسيطرة عليه في هذه الأيام التي نسخ العلم فيها كل عهد، وفسخ الزمن بأحداثه كل عقد، وأصبحت فيه الحرية أنشودة كل لاغ، ونشيدة كل باغ، والتمس ما شئت مجالاً آخر لتطور هذه العقلية، فأما الإسلام... وأما في الجزائر... فلا... ومكلف هؤلاء القوم ضد

(١) أي: مفاجأة على غرة.

طباعهم، متطلب في الماء جذوة نار، كما يقول التهامي الشاعر، لذلك بقيت قضية فصل الإسلام عن حكومة الجزائر منظورة بالعين الاستعمارية، وموزونة بالميزان الصليبي، ومفهومه بالعقل المتحجّر».

الإبراهيمي الأديب:

أما الإبراهيمي الأديب، فهو آية من آيات البيان العربي، جزالة الأسلوب، وعُمق المعاني، حتى كان قرّاء كتاباته يعجبون من إحاطته بالأدب العربي ومعرفته للبيان العربي معرفةً ميّزته بين معاصريه. فكان القارئ لكتاباته يتصور وأنه عاد بالمخيلة إلى عهد الأدب العربي في أزهى عصوره.

شعره وسجعه:

وإنك إذا قرأت شعره، لا سيما أراجيزه، تبهر لبلاغة التعبير، وحلاوة التصوير.

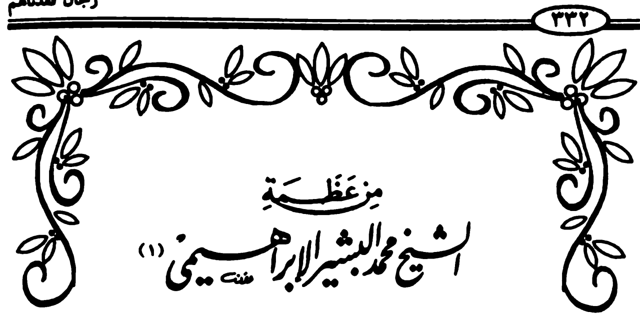
أما السجع فكان فارسه، ومن يقرأ ما كتبه في سجع الكهان الذي كان صورة صادقة للسجع العربي في دولة البلاغة والبيان. يعجب لاطلاع الإبراهيمي، وفهمه لدقائق اللغة وحفظه الكثير للمترادفات، وإدراكه لأسرار الجناس والتورية.

هذه صورة خاطفة، أسجلها تذكيراً بالرجل في يوم ذكراه.

رَحمَ الله الإبراهيمي، ورزق الإسلام والعروبة فحولاً من طرازه يحفظون التراث ويعملون على التجديد الذي يأمر به الدين. تجديد الروح، وتصفيتها مما يعلو بها من أتربة الزمن، وأوساخ التقليد الزائف.

وربك يحيي ويميت ويعيد.

□ □ □ □ □



من عظمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١)

للأستاذ محمد الطاهر فضلاء

الكلمة التي أُلقيت في حفل الذكرى الأولى للأستاذ الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقاعة «ابن خلدون» عشية يوم السبت ٣٠ محرم ١٣٨٦هـ/٢١ ماي ١٩٦٦م.

ما أعظمك وأجملك حياً وميتاً:

إنّ الأقوال العظيمة، كالأعمال العظيمة، لا تدرك معانيها الرائعة من مجرّد ألفاظها البليغة البسيطة حين تتفتح عليها قرائح البلغاء والعباقرة، فتتفجر على ألسنتهم أو أقلامهم ينابيع من الحكمة وفَصْل الخطاب... وإنما الذي يَسْتشفُ هذه المعاني ويجلوها، هو التعمُّق والاستغراق في الأحاسيس التي كانت الدافع المباشر لكلّ قول يسمُو إلى سماء الحكمة فيخلد، أو يبقى حيث هو في الأرض فتطغى عليه الحياة فتطمسه وتمحوه...

إنّ «الصدّيق» العظيم، قد اختصر المعنى العظيم الذي يختلج بين جنبيه وتتزاحم فيه الكلمات والجمل على لسانه يريد الإفصاح بها عما كان

(١) حضارة الإسلام، العدد السادس، السنة السابعة: (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

يدوّي في أعماقه من شتى المشاعر والأحساس فيقول: «**ما أعظمك وأجملك حياً وميتاً**».

وكذلك كانت أقوال «الفاروق» العظيم عظيمة، عندما أخذ بالفاجعة، أخذاً حوّل صرامته إلى ثورة أذهلته عن نفسه، وأنسته مظاهر الاتزان، فراح يهدّد ويتوعّد، وينذر كل من يرى رأيه في وفاة النبي ﷺ.

أثر فقد العلامة الإبراهيمي:

أما أنا، وحين أُعلن إليّ الخطب في همس:

ـ إنَّ الشيخ قد قضى، إنَّ الإمام قد ختم.

أحسست كأنَّ كارثة دوّت في أرجاء الغرفة الصغيرة، وزلزلت لها الأرض ومادت، واكفهر الجو وتلبّد، وكأن قتامته تعلن للدنيا هذا الحدث المهول.

يا للكارثة... يا لكارثة المسلمين في إمامهم وقائدهم، ويا لنكبة العرب في لسانهم وبيانهم، ويا لفاجعة الجزائر في بطلها المغوار، وفي سيفها البتار، ورائدها وحاديها في قافلة الأبرار والأحرار.

ذهلت وأخذت، لا كما أخذ عمر. فعمر أعلى مقاماً، وأعدل رأياً حتى في ثورته على نفسه، التي أنسته نفسه العظيمة، فراح ينظر إلى الفتوح التي لم تتم، وإلى النصر الموعود الذي لم يكتمل، وإلى مَجْد الإسلام الذي لم تُرْسَ أوتاده بعد. فثار ثورة عظيم، وزمجر زمجرة عزيز... أما أنا فقد ذهلت وأخذت لا لأن البطل رحل، والمصاب في فقده قد حلَّ، ولكني أخذت في نفسي إشفاقاً على نفسي...

ثم وجدتني أجرُّ رجلي جراً، وأخرج من الغرفة على غير وعي، وتقودني خطواتي المتعثّرة إلى الطريق العام، فإذا بي أقف متهالكاً أكاد أهوي، وإذا بي أنسى مَنْ حولي وأنسى الفاجعة، وأذهل عن كل ما يحيط بي...

لقد عشت هذه اللحظة من الزمن، وكأني عشت فيها دهراً كاملاً، حيث بدأ فجر النهضة بالجزائر في صيف سنة ١٩٣٣م.

في صحف النهضة:

كنت طفلاً صغيراً ـ فطمت بالكتاب وبالقلم ـ وقرأت منذ ذلك الحين صحيفة صغيرة لم آلف بعد قراءة مثلها، وقرأت في هذه الصحيفة كلاماً سهلاً بسيطاً، ولكني شعرت وكأنه يشدني إليه شداً عنيفاً، ويملأ نفسي بإحساس غريب، ويغمرني بإشعاع من العظمة والعزة والزهو... وكيف لا. وقد كان هذا الكلام بالنسبة إليّ بداية التحول الغريب الذي سلكني في سلسلة ذرع حلقاتها الملاحقة: هذه السنون، الخمس والثلاثون...

كان مما قرأته في هذه الصحيفة، وخلتني وأنا أقرأه وأعيد قراءته، كأني أُشدُّ إليه شداً عنيفاً، وما كنت أعلم أن ذلك الإحساس، إنما هو وجدان وإرهاص، وما كان هذا الكلام ليشد نفسي إليه آنذاك، لو لم يكن فيه من السر العظيم الشيء الكثير... كان مما قرأته:

«وإننا نبتهل إلى الله، أن يقيض «لها» في كلِّ دور من أدوارها، رجالاً مخلصين حكماء، يستلمونها بيضاء نقية، ويسلمونها لمن بعدهم أشد ما تكون بياضاً، وأشد ما تكون نقاء، ويتلقونها وهي أمانة وعهد، فيؤدونها لمن بعدهم وهي أمانة وعهد...».

محمد البشير الإبراهيمي
جريدة الشريعة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م

طالب وأستاذ:

وَكَلِفْتُ بالعظمة وشغفت بها منذ ذلك الحين، ثم سرحت في أرجائها وساحها، وتتبعت الشوارد في آفاقها، والروابض في آجامها...

وأعترف بجد لا هزال فيه، أنني كلما خلتني بلغت الحد من هذا الخضم، إلا وترامت أمامي آفاق أخرى أوسع رحاباً وأبعد غوراً، تبعدني عن الغاية، وتنذرني بطول المدى في سلسلةٍ من المراحل متعددة الحلقات، متصل بعضها ببعض.

كنت طالباً بالجامع الأخضر، همّي فيه تصيُّد هذه الشوارد. وكنت في هذا شديد التبرُّم بجفاف القواعد، بقدر ما أنا شديد التمسُّك بحضور حلقاتها.

ووالله ما كنت أطلب في هذه الحلقات ـ مجرّد التعرف على نصوص القواعد وشواهدها ـ ولكني أريد الوقوف على أسرار هذه العظمة، التي كانت تشدُّنا شداً قوياً إلى ذلك الرجل العظيم الذي يجلس فيه على كرسيْ الدرس، يملي درسه كما يملي إرادته، ويسلك الأفهام والعقول في سلك المعلومات العلمية، كما يسلك الأبطال في عداد الكتائب المجنَّدة...

وأتساءل آنذاك: ما هو هذا السر؟ وما هي الأسباب التي تقودنا إليه؟

أما السر، فهو الذي ستكشف عنه الأيام. وأما الأسباب، فقد تتأتى أحياناً بالصدف، ولكنها نتيجة المواظبة والبحث ما في ذلك شك، ولعل من الصدف هنا هذه الحقيقة الواقعة:

الشيخان الإبراهيمي وابن باديس:

في كل مساء يوم أربعاء من كل أسبوع، يتهامس الطلاب في قسنطينة:

ـ ذهب الشيخ، ركب القطار إلى تلمسان...

واهتمام الطلبة بذهاب الشيخ، وركوبه القطار إلى تلمسان، معناه في البداية التخلص من بعض القيود التي فرضها الشيخ على كل طالب، أما أنا فقد تساءلت: لماذا يذهب الشيخ أسبوعياً إلى تلمسان؟

ويأتي الجواب بعد البحث والمواظبة: إن الشيخ «ابن باديس» يذهب إلى تلمسان، لإعداد العدة، ولإحكام الخطة، مع رجل عظيم، وحيد في عظمته، فذٌ في جيله وعصره، حكيم في إخوانه وزملائه... والشيخ يعلم كل السر في عظمة هذا الرجل، ويعلم مع هذا أنه لا يمكنه الاستفادة منه للإفادة به إلا بهذا السفر الدائم المرهق، نحو هذا الرجل العظيم في تلمسان: محمد البشير الإبراهيمي.

سر.. وحلم:

ومنذ ذلك الحين، وأنا أبحث جاداً عن سرّ هذه العظمة في هذا الرجل العظيم. ويميناً ما عرفت سرَّ هذه العظمة حقَّ معرفتها من هذا الرجل العظيم الذي عرفته حقَّ المعرفة إلا بعد مرور ربع قرن من الزمن من صيف سنة ١٩٣٧م، إلى يوم ١٩ ماي ١٩٦٥م.

ففي هذا اليوم فقط أدركتُ السرَّ العظيم والمعنى العظيم في قول الصدِّيق للنبي ﷺ وهو مُسَجًى في فراشه: **«ما أعظمك وأجملك حياً وميتاً»**.

وفي هذا اليوم فقط، أدركتُ السرَّ العظيم من عظمة هذا الرجل العظيم محمد البشير الإبراهيمي، وهو مُسجّى في أرضية الغرفة الضيِّقة، التي وسعت الناس المجتمعين..

لقد رأيتُ ورأى الناس في هذا اليوم، كيف كان الرجل عظيماً في موته كما كان عظيماً في حياته:

- شموخٌ، في أَنَفَة، في عزّة، في سُموّ، في استعلاء...

كلُّ هذا رأيته ورآه الناس، ولكن الذي رأيته ولم يره غالب الناس، وسمعته ولم يسمعه الناس، هو ما عادت بي الذاكرة وبه، إلى ذلك الماضي البعيد... وهو الذي بقي سراً لم أكشف عنه منذ ذلك اليوم، ولم أكاشف بعد أحداً حتى اليوم.

من عالم الغيب:

لقد رأيت هذا الرجل العظيم، يعلو وجهه المشرق جلال الموت، وتنطلق أسارير وجهه الشموخ استعلاءً واستكباراً عن المادة وأوضارها، تعتبر أصدق تعبير، بما يعجز لسان الحي عن الإفصاح به.

لقد توقف لسانه عن الكلام حقاً، وأطبقت شفتاه بختم عليه، ولكنه بالرغم من هذا، كان يقول وأنا أسمع:

إنني ما زلت رائدكم ولن أزال. وكل ما حدث بيني وبينكم، هو أني قد انتقلت من حالٍ إلى حال، وإذا كان وجودي بينكم قد أزعج من الناس قصار النظر، وأقزام التفكير وتجار القيم، وإذا كان وجودي في حياتكم قد أوغر صدور الموتورين والحانقين، وأقضّ مضاجع الأنانيين والمغرورين، وأرّق نوم وراحة المتردّدين والمتخاذلين، فإن وجودي هذا بينكم قد انتهى اليوم.

ولكن الذي لم ينته، ولن ينتهي في أجيال، هو أساس مبدأ الأمانة، التي هي عهدٌ من الله لأنبيائه، وعهدٌ من الله لأصفيائه، وعهدٌ من الله لخلقه أجمعين. يستلمه خَلَفٌ عن سلف، ويرثه وارث عن مورث إلى أن يرث الله الجميع...

ثِقَل الأمانة:

إن الأمانة اليوم في أعناقكم ثقيلة، وبين أيديكم عهد وذمة، وقد عشنا بينكم رؤاد طلائع، لم ننم عن حقٍّ من حقوق الإسلام، ولغة الإسلام، وبلاد الإسلام، ولم نفرِّط في قلامة ظفر منها... فكونوا اليوم كما كان أسلافكم، فقديماً قيل فيكم: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها...

لقد كانت حياتي فيكم، حافزة للتفاؤل والأمل والعمل، فلا تجعلوا من موتي مدعاةً للتشاؤم والتخاذل والكسل...

إنَّ زمنكم وعصركم ـ وإن كان على ما يبدو من الطلاقة والبشر، تعلوه أعلام النصر والفوز، وتكلّل هامته أكاليل الغار، هو عصر مقطِّب الجبين، جهم التقاطيع، لا يصفو كدره ولا يعذب مذاقه، إلا إذا عرفتم كيف تديرون شؤونكم بأنفسكم، وكيف تصنعون من عدمكم وجودكم وبأيديكم.

تغريب الأمة:

لقد تضافرت وتواطأت في عصركم هذا جهود الأجنبي الحاقد الحانق على (تغريب) أمتكم بعد أن عجز عن تخريبها. فكونوا عيناً يقظة، وحافظوا على «عينها» قبل أن يعجمها المعجمون، فيكون في إعجامها مسخ لكم، ومسخ لأمتكم.

إنَّ هذا الأجنبي الحاقد الحانق يريد لأمتكم أن تكون:

«هيكلاً لا تترابط أجزاؤه، ولا تتماسك أعضاؤه، يوجّه وجهه إلى الغرب، ويمكن في أفكاره لأهواء الغرب، وفي لسانه رطانات الغرب... وهو يريد أن يقتلع جذور هذه الأمة من تربة، ويغرسها في تربة، فتأتي مضعوفة هزيلة، لا من هذه ولا من هذه»[1].

وإنَّ هذا الأجنبي الحاقد الحانق، يريد تعطيل لغتكم بينكم، بعدما عجز عن ترحيلها من بلادكم:

«إنَّ العربية هي لسان العروبة، الناطق بأمجادها، الناشر لمفاخرها وحكمها، فكلُّ مدَّعٍ للعروبة، فشاهده لسانه، وكل مُعْتزٍّ بالعروبة فهو ذليل إلا أن تمده هذه المُضغة اللينة بالنصر والتأييد. فلينظر أدعياء العروبة الذين لا يديرون ألسنتهم على بيانها، ولا يديرون أفكارهم على حكمتها، في أية منزلة يضعون أنفسهم»[2].

وإنَّ هذا الأجنبي الحاقد الحانق، يسخر الآن منكم بأساليبه الملتوية، فكونوا حيث تضعكم هذه الأمانة من اليقظة.

«إن منكم من يحتقر لغة الأمة، فلا يقيم لها وزناً، وفيكم من يحتقر دينها فلا يقرأ له حساباً، وفيكم من يحتقر بناتها فلا يتزوج منهن، وفيكم من يأنف من خؤولتها لأبنائه فيختار لهم أخوالاً غرباء... وإن بعض ذلك لقدح محسوس في أمتكم الحاضرة، وأن بعضه لسمٌّ مدسوس في أعراق أمتكم المقبلة»[3].

وإنَّ هذا الأجنبي الحاقد الحانق، يتذرَّع اليوم لغاياته بشتَّى الذرائع، ليسري في أمتكم مَسْرى الشيطان والسرطان، فقفوا منه موقف الحارس اليقظ، الذي «لا يُحاور ولا يفاوض»، وسدُّوا في وجهه كلَّ مَنْفَذ منه إليكم

---

(١) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (١٢) من جريدة البصائر ١٩٤٧م.
(٢) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (٢) من جريدة البصائر ١٩٤٧م.
(٣) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (٤) من جريدة البصائر ١٩٤٧م.

وإلى مقوّمات وطنكم. إنَّ الصراع اليوم بينكم وبينه شديد، وهو يكشف عن شراسته أولاً في هذا الجيل الصاعد من الشباب:

«إنَّ شباب الأمة، هو الدم الجديد في حياتها، فمن الواجب أن يُصان هذا الدم عن أخلاط الفساد، ومن الواجب أن يتمثَّل فيهم: الطهر والفضيلة والخير، ومن الواجب أن تربَّى ألسنتهم على الصدق وقول الحق، لا على البذاء وعورات الكلام»[1].

فاحفظوا لهذا الشباب مسالكه ومَسَاربه، وحصِّنوا بالعلم والإيمان حياته بينكم، ومستقبله في أبنائكم وأحفادكم.

وإنَّ هذا الأجنبي الحاقد الحانق، ليتآمر اليوم على أمتكم ليطمس معالمها، ويُشوِّه مآثرها ومفاخرها، ليتمكَّن من جعلها مستعمرة جديدة لأفكاره وأخلاقه، بعد أن عَجَز عن تأييد استعمارها بجيوشه ومعداته. فقفوا كلكم في وجهه موقف المرابط في الثغر والمجاهد في الميدان، فلا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين...

بطل وشعب...

وخلتني أفقتُ من ذهولي واستغراقي في هذا البيان الذي يشدُّني إليه شداً عنيفاً، ويعنف هذه المرة ولا يرحم فيمزج الشد بالإيلام، وأفقت على همسة، لعلني سمعتها قبل من أخ كريم.

لكي لا يضطر الشعب في الآفاق إلى تجشُّم مشاق السفر إلى الجنازة، ولكي لا يكون في الجنازة ذلك المظهر الذي نحن الآن أحوج ما نكون إلى تفاديه، يجب أن يدفن الشيخ ظهر الغد...

عَجَباً... أيقضي الشيخ حياته كلها في خدمة هذا الشعب، يبني له

(١) من مقال الأستاذ الإبراهيمي من حضارة الإسلام العدد (٤) من جريدة البصائر ١٩٤٧م.

المفاخر والمكارم، ويشيد له الآثار والمعالم حتى إذا تحرر من عبادة الأوثان، وحطّم بإيمانه معاقل الطغيان، وأخذ بكلتا يديه صولجان الحكم والسيادة تنكر للباني وما بنى، وللمشيد وما أعلى؟

ألا يكفي لإيثاره لشعبه ونكرانه لذاته، هذا الدليل القائم، من هذا الجحر الذي تضيق غرفه الثلاث بأعشاش العصافير والخطاطيف، لتسع هذا البحر الذي غمرت أنعامه وأفضاله الكثير من الناس.

ثم يقضي هذا البحر فيها كل ما تبقّى من شيخوخته ومرضه، في وقت ينعم الناس فيه بالقصور ومقاصيرها، وبالزهور وريحانها، وبالشمس ودفئها، وبالهواء ومكيفاته؟ ألا يكفي كل هذا في الضغط على هذا الإمام البحر الذي سعت إليه الدنيا فازْوَرَّ عنها، واكتفى منها بلقمة العيش في تقشف وزهد، حتى قضى محروماً مضيَّقاً عليه، وذهب إلى ربّه بسجل كل حسناته فيه مفاخر لهذا الشعب. . .؟ ألا يكفي كل هذا، وتريدون اليوم أن تحولوا بينه وبين الشعب حتى في توديعه لمقرّه الأخير؟

موت العظماء وخلود ذكرهم:

وعدت مرة أخرى إلى الذهول والاستغراق، ووالله ما كنت ذاهلاً ولا مأخوذاً، ولكني عشت في دوامة من المشاعر والأحاسيس، تجرّدت فيها من المحدود إلى اللامحدود، وتحرّرت في هذه المادة من كل القيود. ووجدتني أسمع الشيخ مرة أخرى، وهو يقول:

«يموت العظماء، فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحية في الأرض: قوةً تحرّك، ورابطةً تجمع، ونوراً يهدي، وعطراً ينعش. وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو كون العظمة خلوداً. فإن كل ما يخلف العظماء من ميراث، هو أعمال يحتذيها من بعدهم، وأفكار يهتدون بها في الحياة، وآثار مشهودة ينتفعون بها وأمجاد يعتزون بها ويفخرون. . .

العظمة الحقَّة:

والعظمة الحقَّة عظمة الخير والجمال والمنفعة، مُستمدَّة عناصرها الأولى من ينابيع النبوة التي هي مثال لتصفية النفس: من كثافة المادة وكدورة الأثرة، فهي متصلة بالله، شعر البشر بذلك أم لم يشعروا، واعترفوا بالإلٰهية أو جحدوا. فكلُّ عظيم أفاد وهدى ونفع وأسعد، فهو سائر على قدم النبوة... أو هو حواري، لَمَست روحه شرارة من قَبَس النبوة... ومن وزن العظمة بهذا الميزان ذاد عن حياضها أبالسة الشر من عظماء القوة والطغيان، الذين ظلموا العظمة، فافترضوها ثم فرضوها، وعظماء العصبيَّات الجنسيَّة المحدودة الذين ضاقوا عن العظمة فضاقت بهم، فكل هؤلاء يشيل بهم ميزان الخير الدقيق، وإن رجح بهم ميزان الخبز والدقيق»[1].

... عظيم في حياته وعظيم في موته:

أجل! هذه هي العظمة في تعريفها الدقيق، وعظمة الشيخ الإبراهيمي ليست من ذلك النوع المفتعل المفترض، الذي تجهضه الظروف والأيام، أو تلمع به الدعايات والدعاوي، فتلك عظمة تلمع سريعاً وتخبو سريعاً مثلها مثل البرق الخلب.

أما عظمة الشيخ الإبراهيمي، فدوحة تكشَّفت عن معدن، وتجلَّت عن أصالة، وتعرَّفت إلى الدنيا من على قمم العقيدة، ومن ميادين الجهاد المقدس..

إذن فلتمت الأشباح ما كتب عليها الموت، ولتتبخَّر هذه المادة الأرضية في عالم الفناء فلن يضير الشيخ البشير الإبراهيمي هذا الموت، ولن يضيره إن مات في هذا المكان أو ذاك، ولن يضيره كذلك أن تشيع جنازته في موكب حافل أو خامل. فالشيخ البشير الإبراهيمي عاش حياته رائداً ومجاهداً، مقامه في القمم الشمَّاء، وروحه في علياء السماء...

---

(١) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (١٥١) من جريدة البصائر ١٩٥١م.

ولكنَّ الشعب العربي المسلم في الجزائر فنّد كل زعم في تشييع جنازة الشيخ البشير الإبراهيمي، وتحدّى كل المتآمرين والأنانيين، وهو يدفع برجاله ونسائه وأطفاله لتشييع جنازته. فكان الشيخ الإبراهيمي عظيماً في موته كما كان عظيماً في حياته، لأن عظمته سائرة على قدم النبوة، مستنيرة في سيرها بأقباس النبوة، وهو المعنى الذي أشار إليه شاعرنا الكبير الأستاذ محمد العيد، في قوله على جثمان الشيخ الفقيد:

عشت فوق الثرى عظيماً فأحرى بك أن تسكن السماء عظيما

١٩ ماي و١٩ جوان:

لقد مات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يوم ١٩ ماي ١٩٦٥م، ونعاه العالم العربي والإسلامي، وخصصت أجهزة الإعلام جزءاً كبيراً من برامجها لنقل الكلمات البيّنات من بيانه وحكمه، وأقيمت حفلات للتأبين، أشادت بمناقب ومكارم هذا الرجل العظيم...

مطالب لتجديد ذكرى الإبراهيمي:

أما بعد: فلكي تكون هذه الذكرى الأولى لإمامنا الشيخ الإبراهيمي ذات معنى من معاني عظمة خلوده، نضع بين أيدي الواعين من رجال ثقافتنا الوطنية، هذه المطالب التي تتجاوب مع مناهجنا ومبادئنا، وتنبع من واقعنا ومقوماتنا:

١ - إن ما خلّفه الشيخ البشير الإبراهيمي من التراث الأدبي الخالد في شتى المواضيع، إنما هو أمانة بين أيدينا، وعلينا واجب المحافظة عليه، ونقله إلى الأجيال من أبنائنا وأحفادنا.

٢ - ولكي يكون هذا النقل ذا فعالية في التكوين والتقييم معاً، يجب أن تشكل لجنة أو لجان يكون من مهمتها اختيار النماذج الحية، من كل ما كتبه الشيخ الإبراهيمي، ثم طبع كل موضوع على حِدَة، مع ما يتطلبه من الشرح والتوضيح في كتيّبات صغيرة، تخرج إخراجاً فنياً، وتكون في متناول الجميع.

٣ ـ العمل على ترجمة هذا التراث الخالد إلى اللغات الأجنبية، تعريفاً بهذه العبقرية الفذة التي أنبتتها تربة وطننا.

٤ ـ العمل على اختيار وطبع نماذج من هذا التراث الأدبي، لدراسته في المستويين العالي، والثانوي.

٥ ـ تقرير جائزة سنوية للثقافة القومية تسمَّى: جائزة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وتمنح هذه الجائزة بالتساوي للمتفوقين من طلبتنا في التعليم العالي والمراحل النهائية من التعليم الثانوي، ثم للأساتذة والمعلمين الذين يظهرون نشاطاً ملحوظاً في ميادين التربية والتعليم.

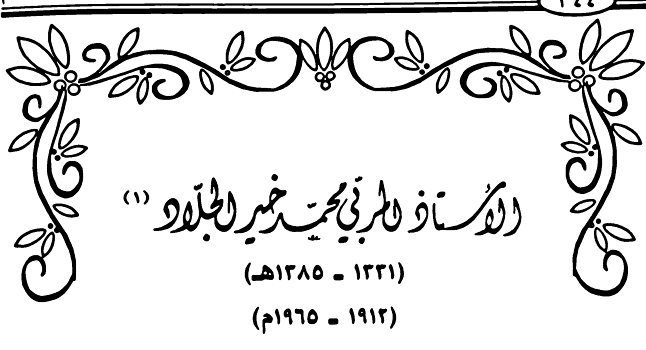
وختاماً:

أدعو الله تعالى بما دعاه به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي منذ ستة وثلاثين عاماً، وقرأته وأنا طفل منذ ستة وثلاثين عاماً:

«إننا نبتهل إلى الله العلي القدير، أن يقيض ـ لهذه الأمانة ـ في كل دور من أدوار ـ هذه الأمة، رجالاً مخلصين حكماء، يستلمونها بيضاء نقية ويسلمونها لمن بعدهم أشد ما تكون بياضاً، وأشد ما تكون نقاء، ويتلقونها وهي أمانة وعهد، فيؤدونها وهي أمانة وعهد».

وسلام على إمامنا الإبراهيمي في العلماء الخالدين، وسلام عليه مع إخوانه الأبرار في مقامهم الأعلى على سُرُرٍ متقابلين، وسلام عليه يوم يبعث أمة في الأبطال المجاهدين.

□ □ □ □ □



الأستاذ المربي محمد خير الجلاد (١)

(١٣٣١ - ١٣٨٥هـ)

(١٩١٢ - ١٩٦٥م)

بقلم الدكتور: محمد أديب الصالح



قضى الله أن يحمل إلينا النعيّ نبأ وفاة الأستاذ محمد خير الجلاّد في الوقت الذي كنا ننتظر منه أن يكتب في ذكرى وفاة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمهما الله.

ولقد علّمنا إيماننا أنْ نرضى بالقضاء، وأن نحمد الذي خلق الموت والحياة على كلّ حال، فله الحمد سبحانه على ما أخذ، وله الحمد على ما أعطى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا كان الناس يُوزنون عند الله بمقدار ما عملوا من الخير وقدّموا من

---

(١) حضارة الإسلام، العددان (٣ و٤)، السنة السادسة: (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

المكرمات، فإن الأستاذ محمد خير الجلاد رحمه الله تعالى وغفر له غبر حياته - فيما نعلم - مدرساً للتربية الدينية في ثانويات دمشق، فمنذ ربع قرن تقريباً تولى تدريس هذه المادة، وكان فيها مثال المدرس الواعي لمادته، الفاهم لرسالته، المدرك للأهداف التي من أجلها كانت المعرفة.

وأشهد كما يشهد أكثر من عرفوه أنه أسهم في بناء جيل مؤمن يتمتع بحرقة صادقة على دين أمته وتاريخها ولغتها، ويتطلع إلى المستقبل بعزم وإيمان.

الأستاذ المُربّي الناجح:

ولعل لهناءة نفس الفقيد، وما كان يزينه من إيمان صادق وسعة صدر، وأسلوب فطري أخاذ في التربية أثراً جعل منه ذلك الأستاذ المربّي الناجح، الذي كان له من طلابه وإخوانه أكبر قدر من المحبة والاحترام.

ومن الخير أن نقرر أن الأستاذ الجلاّد لم يقتصر على التدريس في المدارس، بل كانت له حلقات من التوجيه والتعليم، ولقاءات يجتمع خلالها إلى العديد من الشباب الذين تهفو نفوسهم إلى الخير والمعرفة والحق فيزودهم بالكثير من تجاربه الغنية، وتوجيهاته الصادقة.

تواضعه وكراهته للظهور:

وكان هؤلاء وأولئك يرون في تواضعه وكراهيته للظهور ونفرته من بهرج العناوين والأضواء، مثالاً يحتذى وقدوة تتبع.

ولقد عرفت الأستاذ الجلاد في سنة ١٩٤٤م، حين كان ناظراً في الكلية الشرعية (الثانوية الشرعية اليوم) وكنت إذ ذاك طالباً من طلاب السنة الرابعة فيها، ولقد ترك في نفسي آثاراً طيبة أرجو أن أذكرها ما حييت.

ولست أنسى أبداً آخر لقاء معه حين غَمَر الجالسين بفكاهته ودعابته على ما كان يعاني من آثار مرض أقعده الفراش مدة طويلة من الزمن.

ولقد دعوته حينذاك أن يكتب لقراء «حضارة الإسلام» عن الفقيد

الأستاذ مصطفى السباعي، ووافق مستعيناً بالله عزَّ وجلَّ، وشرط أن نذكّره لئلا ينسى.. نعم لقد كان ذلك... وسارت الأيام وأردت أن أذكّر أبا هشام بالمقال، وإذا بالقدر يقول كلمته، فتفيض نفس إلى بارئها، وتنطفئ شعلة طالما أضاءت الطريق.

وبدلاً من أن يكتب محمد خير الجلاد عن السباعي أراني والأسى يملأ نفسي، أكتب هذه الكلمات الوجيزة المتواضعة عن الأخ الأكبر الغالي...

فللّه الحمد أولاً وآخراً. وإنا لله وإنا إليه راجعون، سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

* * *

الأستاذ الجلاد في سطور

هو محمد خير بن عبدالقادر عزت الجلاد، ولد عام ١٩١٢م.

مُنحَ شهادة الأزهر العالية مع الإجازة في القضاء الشرعي في ٦ شعبان سنة ١٣٦٣هـ، الموافق ٢٦ يوليه ١٩٤٤م.

مُنحَ شهادة الأزهر شهادة الأهلية للغرباء بتاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٥٦ هجرية، ومنح الشهادة العالية لكلية الشريعة في جامع الأزهر في المحرم ١٣٦٢ هجرية، الموافق يناير سنة ١٩٤٣م.

بدأ حياته في التدريس سنة ١٩٤٤م، في الكلية الشرعية.

ساهم بتأسيس المعهد العربي الإسلامي، والتدريس فيه كما ساهم في مدارس تعليم الأميين التي أقامتها جمعية الشبان المسلمين في دمشق.

كان يقوم بجولات خلال العطل الصيفية للوعظ والإرشاد في قرى لبنان واللاذقية، وكان عضواً مؤسساً في أول جمعية تعاونية لبناء المساكن، تأسست في سورية عام ١٩٤٩م، وقد بقي رئيسها لهذا العام أي لآخر حياته.



دمعة في ذكرى الأخ صالح زركان

فقيد كلية الشريعة(١)

(١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م)

كلمة مجلة «الحضارة»

في الشهر الماضي أقامت كلية الشريعة في جامعة دمشق حفل تأبين إحياء لذكرى وفاة فقيدها المعيد الموفد الأستاذ محمد صالح زركان الذي قضى - رحمه الله - وهو يحضر الدكتوراة في العقيدة والفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وذلك بعد أن نال درجة الماجستير بدرجة امتياز في موضوع الإمام «فخر الدين الرازي» رحمه الله تعالى.

وقد تكلم في الحفل الأستاذ محمد المبارك، والدكتور وهبة الزحيلي، والدكتور محمد أديب الصالح، والأستاذ خالد الرفاعي، كما ألقيت قصيدة باسم الأستاذ عبدالمنعم الرحبي، وتكلم عن أسرة الفقيد شقيقه الأستاذ محمد علي زركان.

ونكتفي الآن بتقديم كلمة الأستاذ محمد المبارك رئيس قسم العقيدة، وكلمة الأستاذ الرفاعي، وقصيدة الأستاذ عبدالمنعم الرحبي، المنشورة كل منهما في مكان آخر من هذا العدد، آملين أن تتاح لنا الفرصة لنشر بقية ما كان من كلمات، سائلين المولى عزَّ وجل أن يتغمد أخانا الغالي فقيد العلم والمعرفة بوابل رضوانه ومغفرته، وأن يهيّئ للإسلام شباباً يحملون رسالته عن دراية وفهم وإخلاص، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وله الحمد على كل حال.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة السادسة: (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).

كلمة الأستاذ محمد مبارك

بذرة صالحة طيبة:

رحمك الله يا صالح، لقد كنت ثمرة من هذه الثمار التي أنضجتها هذه الكلية، بذرة صالحة طيبة سقتها الكلية بماء العلم وغذتها بلباب الشريعة، فلما أينعت وحان قطافها قضت حكمة الله ألا يكون القاطفون لها من أهل هذه الدنيا.

لقد كان صالح زركان ـ رحمه الله ـ من هؤلاء الطلاب النابهين النابغين الذين ساروا في هذه الكلية سنة فسنة في جِدٍّ لا يعتريه غرور، وفي فهم لا يصحبه تبجح، وفي هدوء وصمت حتى كان أساتذته الذين يدرسونه جنبات هذه الثقافة المتنوعة الألوان والمتعددة الآفاق التي تمتاز بها كلية الشريعة بجامعة دمشق.

لا أزال أذكر جلساته مستمعاً في غرفة الدرس، ووقوفه معنا لمناقشة مسألة أو البحث في موضوع، لا أزال أذكره وكأنه الساعة أمامي. كان في نظراته أدب واستحياء، وفي نبراته اعتداد وثقة.

إيفاده للدراسات العليا في دار العلوم بالقاهرة:

لقد اختارته كلية الشريعة، وكان الأول بين المتخرّجين في عام تخرجه لتوفده للدراسات العليا لتحصيل درجة الدكتوراه في العقيدة والفلسفة الإسلامية.

وقضى في كلية دار العلوم في القاهرة أربع سنين دائباً يواصل الليل والنهار في بحث موضوع اختاره ليكون موضوع رسالة الماجستير، وهو الإمام الفخر الرازي وآثاره، ذلك الإمام الكبير صاحب التفسير والمؤلفات العظيمة في علم الكلام والفلسفة الإسلامية.

وكان الأستاذ المشرف على عمله هو أحد كبار الأساتذة المشتغلين بهذه البحوث، وهو الدكتور محمود قاسم رئيس قسم الفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم.

صلاحه وصبره على طلب العلم:

أخبرني رفاقه الذين صاحبوه في القاهرة أنهم رأوا منه عجباً، فقد رافقوه في الدراسة بدمشق، ولكنهم لم يعرفوه حقَّ المعرفة، وإذا به يتكشف لهم في القاهرة على حقيقته؛ شاب صالح لا يعرف اللهو ـ على ما في القاهرة من أسبابه وألوانه ـ سبيلاً إلى حياته، قويٌّ في إيمانه، متعبدٌ لربه، لا يشغله عن عبادته شاغل، ولا يصرفه صارف، منكبٌ على عمله العلمي الذي أوفد من أجله انكباباً لا يُبارى فيه حتى كان موضع التقدير والاحترام من أساتذته، وكان البحث الذي اختاره لنفسه واختاره له المشرفون على بحثه شاقاً عسيراً، ذلك أنه يتصل بالفلسفة اتصالاً وثيقاً، ويتَّصل بالعقيدة الإسلامية كذلك اتصالاً عميقاً، فكان لا بد من أن يكون بحثه مرضياً مقنعاً لباحثي الفلسفة، وأن يكون كذلك بالنسبة للمشتغلين بعلم الكلام والعقيدة الإسلامية.

دراسة نفيسة عن الإمام الرازي وآرائه الكلامية والفلسفية:

وقد لقي في طريقه هذا مصاعب كثيرة أجهد نفسه في تذليلها، وتحمَّل في سبيل النهوض بعبء البحث مشاقَّ شديدة أتعبت فكره، وأنهكت جسمه حتى طلع علينا بعد أربع سنوات بدراسة فريدة لم يسبقه إليها أحد من الباحثين، فقد استطاع ـ كما اعترف له أساتذته الذين ناقشوا رسالته ـ أن يقف موقف الناقد لأبحاث عدد من كبار المؤلفين في هذا الموضوع من المشتغلين بهذه المباحث في هذا العصر، وأن يخرج (أول كتاب متجانس عن حياة الرازي وآرائه الكلامية والفلسفية على أساس علمي سليم)، فقد جلا هذه الشخصية الإسلامية العظيمة، وقدَّم لنا في دراسته صورة جامعة واضحة المعالم عن إمام من أئمة أهل السنّة، ومفكر عظيم من مفكري

الإسلام الذين جمعوا بين الفلسفة والكلام وبين التفكير العقلي العميق والإيمان الديني المُسْتقى من نصوص الكتاب والسنّة.

الجيل الجديد الذي يحمل رسالة الإسلام:

لقد قرأت هذا الكتاب العظيم الذي ألّفه السيد صالح زركان رحمه الله، فوجدته كتاباً يستفيد منه العلماء والاختصاصيون، ووجدت فيه ثمرة من ثمار هؤلاء الشبان (الصالحين) الذين تسعى أساتذة كلية الشريعة لتخريجهم لا على أساس أن يكونوا مقلّدين تابعين أو نسخاً ثانية لأساتذتهم، بل ليكونوا فاتحين لآفاق جديدة، وليكملوا عمل أساتذتهم، ويسيروا خطوات أخرى إلى الأمام، وليكونوا الجيل الجديد الذي يحمل رسالة الإسلام متحررة من الخرافة ومن السطحية ومن التدجيل والانتهازية، منزّهة عن أغراض الدنيا، يبتغون بها وجه الله ونفع عباده، ويعمل على بعث الإسلام من جديد على أسس فكرية سليمة وبدوافع إيمانية خالصة.

وهكذا كان صالح رحمه الله فقد انطوى على علم لا يخالطه كِبْر، وعلى تقوى لا يخالطها ادّعاء، وعلى دين يصاحبه عقل، وعلى ورع لا يُدِلُّ به على الناس، يُعرف بالمعاملة ولا يبدو في المظاهر.

يا صالح...

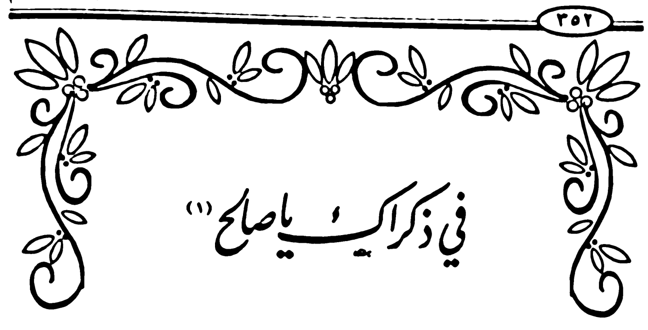
لقد كانت آخر نظرة نظرتها إليك يوم خرجت من المستشفى الذي دخلته إثر عودتك من القاهرة لعملية جراحية فكنت منهك القوى، ساهمَ النظرة، وكأنك تستقبل الآخرة بوجهك، وتودّع الدنيا. سلّمت عليك، وسلّمت عليَّ بوداعتك المألوفة، ورصانتك المعهودة، وتفارقنا على أن نلتقي بعد أن تستعيد بعض قوتك، ولكن قضى الله أن يكون ذلك آخر لقائنا في الدنيا، فعسى الله أن يجمعنا في مستقرّ رحمته، وفي ظلّ اللواء الأكبر لواء إمام النبيين وسيد الخلق أجمعين صلوات الله عليه وسلامه، وأن يحشرنا مع الناجين في ذلك اليوم الرهيب، ويحتسب عملنا خالصاً في سبيله، ويغفر لنا ذنوبنا، ويكفّر عنا سيئاتنا.

رحمك الله يا صالح رحمة واسعة، وأثابك على ما تركت لنا من أثر أجزل الثواب، وكَتَبَكَ مع المجاهدين في سبيل إعزاز دينه ونشر رسالته، وعوّض كلية الشريعة التي فقدت بفقدك عضداً كبيراً كانت ترقبه وتنتظره يشد أزرها، مَنْ يخلفك من مُتخرّجيها ليسهم بحمل رسالتها.

وعوّض أهلك - طاب منبتهم - الذين فقدوا فيك غرساً نما وأزهر واستحصد خيراً كثيراً، وجعلك الله لهم في الآخرة ذخراً، وفي الدنيا ذكراً، وهيّأ الله للإسلام والمسلمين من الجيل الجديد أمثالاً لك يحملون هذه الرسالة، ويسيرون في طريق الهدى على فقهٍ من دينهم وبصيرةٍ من ربهم.

تغمّدك الله بوابل من رحمته وغفرانه ورضوانه.





في ذكراك يا صالح(١)

للأستاذ خالد الرفاعي



ذكرى الفضيلة والرجولة والوعي:

ما كنت أظنني أقف في هذا المكان مثل هذا الموقف لأشترك في إحياء ذكرى الأخ الحبيب الأستاذ محمد صالح الزركان، وأشيد بمآثره، وهو الذي كنت أرجو منه أن يُحيي لنا ذكرى الفضيلة التي خف إشراقها، والرجولة التي مات فرسانها، والوعي الذي ولى وترك وراءه قطيعاً من البشر تائهين.

كنت أرجو منه أن يُحيي لنا ذكرى أبطال العلم والتجديد في الإسلام، ذكرى البصري، والغزالي، وابن تيمية، وابن الجوزي، والأشعري، والماتريدي، وذكرى فقيد الجهاد أستاذه السباعي، عليهم رحمة الله ورضوانه.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة السادسة: (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).

كنت آمل فيه أن يرفع راية محمد ناصعة الإشراق لا تطاولها أيدي العابثين، ولا ترنو إليها بسفه أعين المخدوعين.

وكان رحمه الله جديراً بمثل هذه المكرمات لأنني عرفت فيه ما لم يعرفه غيري، فلقد قَضَيْتُ معه ستة عشر عاماً كان فيها سميري في السمر، وأخي في الله، وصاحبي في مقعد الدرس.

(صالح) الإنسان الذي نبحث عنه:

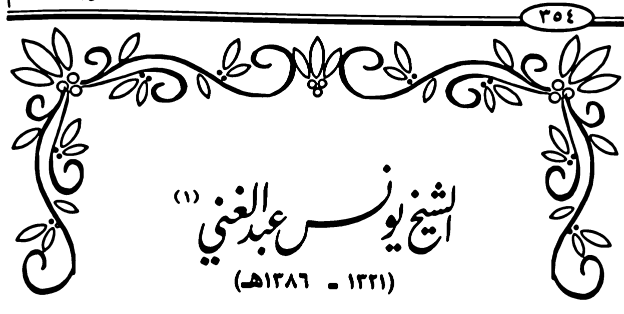
عرفت فيه الإنسان الكامل، والمؤمن الثائر، والعالم المخلص، عرفت فيه دواء هذه الأمة المفقود، حيث عزَّ الدواء، ورجلها المجاهد حيث ندر المجاهدون، وإنسانها الشاعر، حيث جمّدت المادية قلوب الناس.

عرفت فيه ذلك الإنسان الذي كان يفتش عنه (ديوجين)، والذي حدثنا عنه الإمام جلال الدين الرومي بقوله:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى ... له في كل ناحية مجال
يقول مللت أنعاماً وبُهماً ... وإنساناً أريد فلا أنال
فقلت لقد طلبت بذا محالاً ... فقال ومُنيتي ذاك المحال

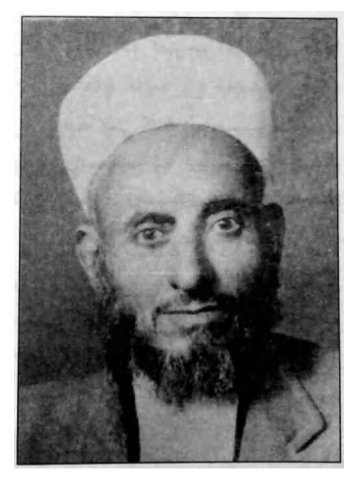
نعم أيها الأخوة: لقد رأيتُ في صالح الإنسان الذي كنا نبحث عنه، ولكننا لم نكد نراه حتى فقدناه، فقدناه شاباً طريَّ العود لم يزهر، محترق الفؤاد، ولمّا يسعرها حرباً شعواء على الضلال والانحراف، مجاهداً رفع السيف بعزم المؤمنين، وعالماً حَمَل العلم وأقدم، ولكنه قضى قبل أن يخوض الغمار.

□ □ □ □ □



الشيخ يونس عبدالغني (١)

(١٣٢١ - ١٣٨٦هـ)



للأستاذ عبدالله محمود الطنطاوي

وُلدَ الشيخ التَّقيُّ الورع العالم العامل أبو عبدالله يونس عبدالغني المارعي في قرية مارع، من أعمال حلب ـ في حدود عام ١٣٢١هـ، وتوفي فيها ليلة الجمعة في السابع والعشرين من شعبان عام ١٣٨٦هـ، ولقد تحلَّى بشمائل نادرة، قلَّ من اتَّصف بها من مشيخة اليوم، ولعلَّ الحديث يطول بنا كثيراً إذا نحن استعرضناها إجمالاً، فكيف بالتفصيل؟ ولكن.. لا بدَّ لنا ـ في هذه العجالة ـ من بلال صادٍ وعلالة هيمان..

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الأول والثاني، السنة الثامنة: (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م).

ملامح شخصيته المميزة:

لقد كانت شخصية الشيخ تقوم على عنصر الإيمان الذي تفرّعت عنه كبرياء وجرأة في الحق، وحساسية لم يكن الناس ليعهدوها في غير قلة قليلة من ناس دنيانا..

جراته وصدعه بالحق:

ولعل أول ما يخطر على البال، تلك الجرأة الجريئة التي تعيد إلى الأذهان ذكريات حبيبة عن السلف الصالح، وما كانوا عليه من صدع بالحق، وثبات على المبدأ، رفع من قيمتهم في الحياة الدنيا، ونالوا به حُسْنَ ثواب الآخرة، فلقد كان يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر في كل مقام، لا تهمُّه شخصية مَنْ يأمره وينهاه، سواء لديه الحاكم والمحكوم، سري القوم وضعيفهم، كل ذلك في حكمة الشيخ، وريّة الفاهم لكتاب الله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، و ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولا يزال الناس يتندرون بطرائف تنمُّ عن رجولة فذة، وإيمان عميق، من مثل أخذه بتلابيب شرطي اعتدى على «مُسَخّر» ضعيف، ومن حَمْل هراوته في وجه فئة ضالة حاولت إشاعة البغي والفساد والإلحاد في قريته، ومن صيحاته في وجوه مشايخ عزاز الذين كانوا يُحلّلون الحرام لقاء ليرات يملؤون بها فراغ جيوبهم، يبتزونها من أبناء الريف الذين يأتونهم مُستفتين.

شغفه الشديد بالعلم:

ولقد كان له شغف بالعلم شديد، حتى صار المرجع في الفقه الشافعي في الريف الشمالي من حلب، ولا بدع في هذا، فقد كان سليل أماجد من أمثال العلماء العاملين الأتقياء: الشيخ عيسى البيانوني، والشيخ محمد عقيل، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ أبو النصر خَلَف الحمصي، والشيخ

شهيد ـ رحمهم الله جميعاً ـ تلقى العلم على أيديهم في مدارس حلب الشرعية (الخسروية والشعبانية والدليواتية والعثمانية).

ولقد كان الشيخ باراً بأساتذته يكثر من ذكرهم، ويرجع إليهم كل فضل فيما وهبه الله من علم، يُردِّد ما طبعوه على قلبه من شعار: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد»، ولذا كنت تراه مكبّاً على العلم، دائباً على تحصيل ما ينفعه في دينه، ويقربه من ربه، ليجلس بعد ذلك إلى بنيه الذين نشَّأهم تنشئة إسلامية خالصة، وإلى زوّاره الكُثُر، مُقْتفي فضله وعلمه، ليفقِّههم في دينهم، ويناقشهم في بعض المشكلات الحياتية التي تعترض طريقهم... غير أن اهتمامه الأكبر كان منصباً على الشبان، يثقفهم الثقافة الإسلامية الصحيحة، لا يألو جهداً في حل كل مشكل يُشكل عليهم، ولربما ناقشه بعضهم فصبر على نقاشه، وكأنه ندٌّ له يضارعه علماً.

ولقد كان للفقه الشافعي والنحو والقرآن الكريم خاصة نصيبٌ وأمرٌ من حياته، يُوصي بحُسْن ترتيله وحفظه والعمل به.

وفي مرض وفاته كان يكثر من تلاوته، ويطلب من عُوَّاده أن يقرؤوه عليه، ولربما تعمَّد الغلط بعضهم ليرى مدى انتباه الشيخ ووعيه، فيشير إليه بيده ـ وهو لا يستطيع الكلام لأنه يعاني من سكرات الموت ـ أن صحِّح غلطك.

سعيُه الحثيث في سبيل نشر الإسلام وتطبيق أحكامه:

أما عن سعيه الحثيث في سبيل نشر الإسلام، وتطبيق أحكامه، وتبشيره الناس بعودته حاكماً، فحدِّث ولا حرج، فقد كان يطوف القرى مبشراً ومنذراً، لم تقعده عاهة في رجله كانت حَرِيَّة أن تَحُدَّ من حركته، ولا رهبة من دجاجلة العصر، ممَّن يتصدرون المجالس، يزعمون أنهم رجال الدين وحُماته، فإذا ما رأوا من يدعو إلى الدين الذي يأكلون الخبز بوساطته، تجهَّموا له وعبسوا وبسروا، وسلقوه بألسنة حدادٍ...

عزّته الإيمانية:

لم يلقِ عصا التطواف إلا في مرضه الأخير، ولقد كان لقعوده عن ذلك ندوب أية ندوب في قلبه العامر بالإيمان، وفي قلوب الذين عرفوه فعرفوا فيه عزّة المؤمن وكبرياءه على الفسقة والمارقين، وتواضعه الجم للمؤمنين.. عرفوا فيه نمطاً جديداً بين أنماط أزرى بهم سلوكهم الذي أرداهم في حمأة آسنة.. عرفوا فيه عزوفه الأبيّ عن موائد ذوي الجاه والسلطان والثراء، يؤثر عليهم مجالسة الشباب المثقف المتلهف إلى الله، لأنه لم يكن محباً للشهرة، ولا ساعياً لها سعيها، فعْل الكثرة الكاثرة من شيوخ اليوم، ولو على حساب دينهم.. ولو على حساب كرامتهم.. كان من أولئك الرجال حقاً - لا أشباههم - الذين قال فيهم الشاعر:

رجالٌ دعاةٌ لا يفلّ عزيمتهم تهكّم جبار ولا كَيْد ماكر

إسهامه في بناء المساجد:

ولئن كنّا لا نستطيع إيفاء الرجل حقّه في مجال الدعوة إلى الله، إلا أنه لا يليق بنا أن نغفل إسهامه في بناء المساجد في كل مكان حلّ فيه، ولقد دعي قبيل الوفاة بتسعة أيام للمساهمة في بناء مسجد صغير يقام في طرف بعيد من أطراف قريته الكبيرة، وليحث الناس على البذل، فهرع إلى مكان البناء متحاملاً على عصاه، وأسهم بمئة ليرة - جهد المقل - زيدت فيما بعد إلى مئتين، ثم حثّ الناس على البذل، بدأ بنفسه ثم دعا غيره، لأنه لم يكن من ذلك الصنف الذي قال فيه الشاعر:

لا يبذلون لأجل الخير خردلة إلا إذا قيل قبل الدفع: قد دفعوا!

ولأنه كان كثيراً ما يَجأر بالشكوى إلى الله من البخل الذي سيطر على نفوس الناس: إلٰهي لماذا خلقت العقول بعصرٍ تفكر فيه الجيوب؟!..

ثم رغب الشيخ في صلاة ركعتين قبل أن يتم البناء، صلاهما في المحراب، وكأنه كان يخشى ألا يطول به أجله فيفوّت على نفسه الأجر (إلا

أنها من تقوى القلوب) وعندما همّ بالعودة إلى بيته، طلبت له سيارة، فأبى وقال قولة الصدّيق: «أفلا أغبّر قدمي في سبيل الله؟».

ضمير القرية:

كما كان الشيخ إلى جانب هذا وذاك، بمنزلة الضمير من قريته، إذا حَزَبَهم أمر عَجِلوا إليه، ليتترّس له، وليستخدم ثقة الناس في فضّ المنازعات في ريفنا ـ وما أكثرها وما أقبحها ـ . . .

كان بيته مثابة للناس، يأتونه ليجدوا الطعام الشهي، والزاد الفكري، والنادرة الحلوة، والبديهة المعجبة، والدماثة المُحبِّبة، والمرح الوقور، والمواعظ المنداة بالدموع، ولعل الكثيرين لا يزالون يحفظون ترديده لقول ابن عامر عبدالله بن الزبير: «إنّ الدنيا لم تبن شيئاً قط إلا رجعت على ما بنت فهدمته، وإنّ الدين لم يبن شيئاً قط وهدمه». وقوله: «كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وأكثروا من التفكير والبكاء، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤمّلون ما لا تدركون»، ولوصيته لبنيه عندما حضرته الوفاة، فجمعهم وأوصاهم بتقوى الله ولزوم طاعته، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

سبب تعلُّق الناس به:

وإذا سألت عن سبب تعلق الناس به؟ أجابوك: هذا من الرجال الصالحين، لم يأكل دنياه بدينه، كان يعطي ولا يأخذ، يكسب من عمل يده، ولم يُلوّث جيبه بقرش يأخذه من الدولة أو ما يسمونه (الأوقاف) يعمل لوجه الله، لا يبغي من جراء ذلك أجراً من إنسان قط، لا يبيع علمه الذي أباحه للناس جميعاً كما أباح طعامه وشرابه. إنْ أصرّ إنسان على دفع أجرة لِفُتْيا نالها منه، وجّه بالأجرة إلى عمل مبرور، دون أن يقبض عليها. . .

الحزن على وفاته:

لقد كان لوفاة الفقيد رنة حزن حزين في حلب وضواحيها التي احتسبته عند الله، ولقد بكاه كل من عرفه أو سمع عنه، وقد أرّخ وفاته الشاعر الشيخ صالح أحمد الحلبي بقوله:

وَفَيْتَ عهدك بالعلوم مُحَدِّثاً … عن أحمدٍ وبِمُقْتضى الآيات
وَسَلَكْتَ في سُبُلِ الشريعة داعياً … لله تَصْخَبُ أخْلَصَ النيّات
حَسَدَ النجومُ ثراكَ حين نَزَلْته … وكأنَّك المصباحُ في المشكاة
لك منزلٌ في الخُلد تاريخاً زَهَا … رقياً ورَمْسُك مهبط الرَّحمات

رَحِمَ الله الفقيد، وألهم ذويه ومُحبّيه وتلاميذه الكُثُر الصبر والسلوان، وعوَّض الإسلام والمسلمين خيراً، وأصْحَبَهُ أحبابه الشهداء الذين هم:

نجوم سماء كلما انقضّ كوكبٌ … بدا كوكبٌ تأوي إليه كواكبه

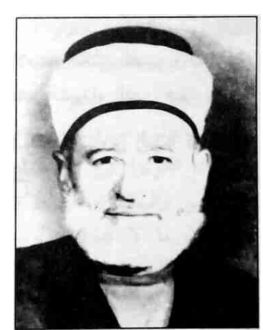




الشيخ محمد نجيب خياطة(١)

(١٣٢١ - ١٣٨٧هـ)

(١٩٠٥ - ١٩٦٧م)



بقلم ابنه: محمد أبو اليُمْن خيَّاطة

وفاء للعلم وحق أهل العناية بكتاب الله عزّ وجل نقدّم فيما يلي نبذة عن حياة المرحوم فقيد العلماء والقراء فضيلة الأستاذ الفرضي شيخ القراء محمد نجيب خياطة، بقلم نجله الأستاذ محمد أبو اليمن خياطة.

اسمه ومولده:

في حيٍّ من أحياء حلب الشعبية، حي الجلوم الصغرى. وفي يوم من أيام سنة ١٣٢١ هجرية، وسنة ١٩٠٥ ميلادية، ولد الطفل محمد نجيب بن محمد بن عمر خياطة، الذي أصبح عَلَماً من أعلام الشهباء المباركة.

وقد ولد لأب قاسىٰ من مرارة الحرمان والشظف الشيء الكثير، حيث عاش يتيماً وتربّى في بيت أخواله الذين لم يستطيعوا أن يعوّضوه عن عطف الأب وحنانه رغم ما بذلوه من جهد في تربيته، وكان هذا الوالد مُحباً للعلم

---

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الثامنة: (١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م).

والعلماء، يحضر مجالسهم، ويستمع إلى دروسهم رغم أنه كان يعمل بنّاءً، مما أورث أولاده حبَّ العلم والسير في ركابه.

وهكذا نشأ هذا الطفل في هذه البيئة المحبة للعلم والعلماء، فورث هذه المحبة وهو لمّا يزل طفلاً، بل إنَّ هذه المحبة سَرَت في نفسه كما تسري الروح في الجسد، وكان لها أكبر الأثر على حياته فيما بعد.

وما إن ترعرع هذا الطفل حتى دفعه والده إلى الكُتَّاب ـ على عادة ذلك العصر ـ حيث تعلم قراءة القرآن الكريم وبعض المبادئ الأولية في الحساب والإملاء، وغير ذلك مما كان يعلمه الكتاب في ذلك الوقت، ثم حفظ القرآن غيباً.

طلبه للعلم وأساتذته:

ما إن أصبح الفقيد يافعاً حتى شعر بالمسؤولية تجاه البيت والأسرة التي يعيش بين أفرادها، فراح يعمل. وقد تنقّل في أعمال عديدة حيث عمل نجاراً، ثم عطاراً عند أخواله.

ولكن حبَّ العلم والعلماء المغروس في نفسه كان يدفعه إلى الارتشاف من منهله العذب، فكان لا يدع مجلساً من مجالسه إلا ويحضرها ولا يدع عَلَماً من الأعلام إلا ويأخذ عنه، ثم تفرّغ لطلبه، وكان من جملة الأساتذة الذين أخذ عنهم العلم علماء العصر وأفذاذه:

- الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم السلقيني شيخ المدرسة الخسروية.
- الأستاذ الشيخ أحمد المكتبي شيخ المدرسة الدليواتية الجابرية.
- الأستاذ الفقيه المحقّق الشيخ أحمد بن محمد الزرقا شيخ المدرسة الشعبانية.
- الأستاذ العالم الشيخ علي العالم الكيالي شيخ المدرسة الأحمدية.
- الأستاذ الشيخ بشير الغزي شيخ المدرسة العثمانية.

والأساتذة العلماء: محمد الحنيفي، سعيد الإدلبي، أحمد الشماع، محمد الناشد، أحمد الكردي مفتي حلب.

ثم أخذ علم الفرائض، وتخصص فيه وبرع حتى أصبح المرجع الوحيد له في حلب، على الشيخ عبدالله المعطي[١] فريد عصره في هذا العلم.

ولما انتظمت الدراسة الشرعية في حلب، وأصبحت المدرسة (الخسروية) مجمعاً للعلم والعلماء وتدريس العلوم الشرعية، انتسب إليها سنة ١٣٤١هـ، وتخرج فيها حاملاً الإجازة العلمية المؤرخة في ١٧ محرم سنة ١٣٤٧هـ. وكان من جملة الأساتذة الذين أخذ عنهم فيها بالإضافة إلى من ذكرنا مؤرخ حلب المشهور العلامة «محمد راغب الطباخ» صاحب تاريخ حلب المشهور[٢].

نشره للعلم:

ما إن نال المرحوم الإجازة العلمية من المدرسة الخسروية حتى تفرّغ لنشر العلم بين الناس، فكان ـ بالإضافة إلى تدريسه مادتي الفرائض والقرآن وتجويده في الثانوية الشرعية (الخسروية) ومعهد العلوم الشرعية ـ يقوم بتدريس الفقه والتجويد والقرآن وغير ذلك من العلوم الدينية في دروس خاصة في مسجد أبي يحيى الكواكبي الكائن في محلة الجلّوم، ثم مسجد الثانوية الشرعية في أكثر من وقت واحد، فيفيد بذلك الناس العلم وقراءة القرآن مبتغياً وجه الله جل جلاله وكثيراً ما كان يقول: «إننا خلقنا لكي ننشر العلم في صفوف الناس فوقتنا ملك لهم وليس لنا».

أخذه لعلم القراءات:

لم يكتف المرحوم بتعلُّم العلم من فقه وحديث وغير ذلك، وكان يعلم أن القرآن هو أساس كل علم ديني ومرجعه، فمضى في دراسته للقرآن الكريم، وقضى في ذلك شطراً كبيراً من حياته.

---

(١) العالم الفقيه الفرضي الشيخ عبدالله بن محمد عبدالمعطي المولود سنة ١٢٦٦، والمتوفى سنة ١٣٥٣ رحمه الله تعالى.

(٢) ومنهم أيضاً: الشيخ محمد أسعد العبجي، والشيخ عيسى البيانوني.

وكان له من همَّته الكبيرة دافعاً للتعلم. فلم يكتف بحفظ القرآن وحده، بل راح يدرس علم القراءات، فأخذ القراءات السبع من طريق (الشاطبية)، ثم القراءات المتمّمة للعشر من طريق (الدُرة) على الأستاذ الأجلّ الشيخ «أحمد المصري الأبوتيجي الريدي» المدني مولداً[1]، المكي إقامة ووفاة[2]، وقد أجازه بخطه في القراءات السبع من طريق (الشاطبية) وبتصديقه من طريق (الدرة) المكملة للقراءات العشر.

ثم في سنة ١٣٥٦هـ، رحل المرحوم إلى دمشق، ومنها إلى عربيل «قرية من قرى غوطة دمشق» قاصداً شيخ القراءة المتقن الأستاذ الشيخ عبدالقادر قويدر رحمه الله، فأخذ عنه القراءات العشر من طريق طيبة النشر، وأجازه بها، ثم صادق على إجازة الشيخ عبدالقادر له الشيخ عبدالله المنجد رحمه الله وأجزل مثوبته.

إجازاته:

أجيز المرحوم إجازات كثيرة في الحديث وغيره:

فأجيز من قبل علامة حلب الشيخ: محمد راغب الطباخ في كتابه: «مختصر الأثبات الحلبية».

وأجيز من الرجل الربّاني والمجاهد الكبير الشيخ محمد زين العابدين ابن السيد أحمد البالساني[3] في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧هـ، إجازة عامة. كما أجيز من السيد الشيخ علوي المالكي في كتابه: «فتح القريب المجيب».

---

(١) وُلد في قرية أبي تيج بمصر في شهر ذي الحجة سنة ١٢٨٥، كما في ترجمته في «الدليل المشير» ص٣١ بتحقيقي.

(٢) توفي رحمه الله تعالى بمكة المكرمة بداره بمحلة (جياد) ليلة الأربعاء ثاني شهر محرم سنة ١٣٦٨، وصُلّيَ عليه بالمسجد الحرام، ودُفن بالمعلاة تغمَّده الله برحمته ورضوانه.

(٣) الأنطاكي ثم الحلبي المتوفى سنة ١٣٧٠هـ، وهو والد الشيخين الجليلين عبدالرحمن ومحمد أبو الخير رحمهم الله تعالى.

أخلاقه وحياته مع طلابه:

كان رحمه الله يتمتّع بأخلاق عالية ونفس متواضعة جداً مع طلابه، فكان كثيراً ما يستمع إلى أسئلتهم ويجيبهم عليها بكلّ تواضع، ويحثهم على طلب العلم والاشتغال به، وكان يُضحّي بكلّ غالٍ ورخيص في سبيل إفادتهم، وحياته مع المكفوفين في مدرسة الحفاظ وبذله الجهد في تعليمهم أصدق مثال على ذلك.

كما كان يغلب عليه حسن الظن بالناس ويعتقد فيهم الخير والبركة، ولا يريد أن يُذكر أو يُنقد أحد أمامه بمكروه.

مؤلفاته:

له كثير من المؤلفات منها المطبوع، ومنها الذي ما زال مخطوطاً، ومن هذه المؤلفات:

١ - كشف الحجاب، شرح هداية المُرتاب منظومة للسخاوي في متشابهات القرآن الكريم، وفي ذيلها جواب عن سؤال مهم وهو: هل يلزم المسلم بحفظ القرآن الكريم؟ (طبع ونفد).

٢ - الدرر الحسان في تجويد القرآن، وهو كتاب غزير العلم جامع في علم التجويد للمهم (طبع مراراً ونفد).

٣ - خلاصة الجهود في تحرير المدود (طبع ونفد).

٤ - كفاية المريد من أحكام التجويد (مطبوع).

٥ - الرياض الزهيّة شرح السّراجيّة جمع من جداول المسائل والمناسخات مع تمرينات لم توجد في كتاب (مطبوع).

٦ - الروضة البهيّة في شرح الرحبيّة (مطبوع).

٧ - تنبيه ذوي الأحلام لما في يوم الجمعة من الفضائل والأحكام (مطبوع).

٨ ـ سفينة النجاة في مُهمّات من الصلاة (طبع مراراً).

٩ ـ مرشد الإسلام إلى حجّ بيت الله الحرام (مطبوع).

١٠ ـ غُنية القراء البررة في القراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرة (مخطوط).

١١ ـ التّبيين والبيان على بدائع البرهان ـ تحريرات طريق الشاطبية (مخطوط).

١٢ ـ هداية القرّاء إلى الطيبة الغرّاء في القراءات العشر من طريق طيبة النشر (مخطوط).

١٣ ـ المنحة الإلهية في الفوائد الشرعية (مخطوط).

١٤ ـ التذكرة العلية في المواضيع المختلفة البهية (مخطوط).

كما حقّق متني السراجية والرحبية ونشرهما.

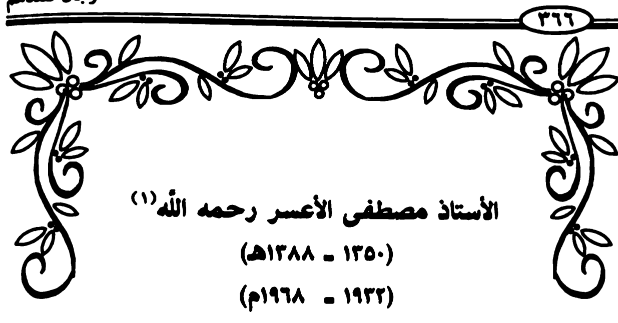
وفاته:

توفي رحمه الله صبيحة يوم السبت في ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧هـ[1]، فخسر المسلمون بموته عالماً عاملاً، وعلماً من أعلام الإسلام.

تغمد الله الفقيد برحمته، وعوّض الإسلام والمسلمين عن فقده خيراً.

□ □ □ □ □

(١) الموافق للتاسع من شهر أيلول عام ١٩٦٧.



الأستاذ مصطفى الأعسر رحمه الله[١]

(١٣٥٠ - ١٣٨٨هـ)

(١٩٣٢ - ١٩٦٨م)

ولادته ونشأته ودراسته وتدريسه:

ولد في بانياس سنة ١٩٣٢م، ونشأ في أسرة مسلمة برعاية رجل مُحبٍّ للإسلام ذي عاطفة طيبة هو والد الفقيد.

نال الشهادة الثانوية في بلده، ثم انتقل إلى كلية الشريعة في جامعة دمشق، وهناك التقى بالداعية الكبير القائد الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى. وتتلمذ على يديه، وأحبّه وأخلصَ له، واقتفى أثره ونهج نهجه في الدعوة.

عُيِّن مدرساً للتربية الإسلامية في اللاذقية عام ١٩٥٩م، ثم نقل منها إلى بانياس بلده، وبقي فيها حتى وفاته، رحمه الله تعالى.

إخلاصه وجِدّه:

ولقد اشتهر الفقيد بالإخلاص والجد في تدريسه، خدم مهنته، وقام بها خير قيام، وكان حريصاً على تربية تلاميذه التربية الإسلامية الصحيحة ليكونوا بحق عماد هذه الأمة وحماة الوطن.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة التاسعة: (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م).

خطبه وجرأته:

ظهرت عليه منذ صغره موهبة الخطابة، وقد مارسها في المساجد وغيرها يدعو إلى الله عزّ وجل، لتحقيق منهجه في الحياة.. وقد كانت خطبه حماسية صادقة اللهجة، تتميّز بالصراحة، وذلك لتميز صاحبها بالشجاعة والجرأة الأدبية وقول الحق مهما كانت النتائج.

وفاته وتشييعه:

وقد وافته منيته بسبب حادث سيارة على طريق حماة السلمية، إذ كان قد قام بزيارة لإخوان له ومحبين في بلدة السلمية، فنقل على أثرها إلى مستشفى سلمية، ثم حماة، ثم (المواساة) في دمشق، حيث كانت وفاته الساعة العاشرة إلا ربعاً من صباح الأربعاء الواقع في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٨٨هـ، الموافق لـ١٩٦٨/٨/١٧م.

ولقد شيّعه الكثير من إخوانه إلى بلدة بانياس، خرجوا معه من دمشق وغيرها من المدن السورية.. ووصلوا مع غياب الشمس إلى بلده، ليجدوا بانياس وما حولها قد خرجت لاستقباله والاشتراك في تشييعه، حملت جنازته، وطاف المشيّعون شوارع البلدة، ثم واروه مقرّه الأخير، رحمه الله تعالى.

لقد شهدت بانياس يوم تشييعه من الجموع المحتشدة الحزينة الباكية على ولدها البار مصطفى الأعسر ما لم تشهده في يوم من أيامها السابقات.

أسرته:

ترك الفقيد وراءه أسرة مؤلفة من سبعة أولاد، وزوجة صابرة حامل بالثامن.

كان لها الزوج الصادق الوفي، والمربّي الناصح، فقد رباها على الإسلام، وعلى تحمُّل الخطوب والكوارث، وقد كان حريصاً على تربية أولاده التربية الإسلامية الواعية، وانتقى لكل واحد منهم اسم قائد أو عظيم

من علماء المسلمين. وكان يدربهم على الخطابة وقول الحق..

ترك وراءه أيضاً أبوين مفجوعين مكلومي الفؤاد لفقده، فأمُّه ليس لها ولد ذكر سواه، وأبوه رجل كبيرٌ صابر محتَسِبٌ عند الله أجره في صبره على فقد ولده.

ولقد ظهر منه من الصبر والتجلُّد ما لا يظهر إلا من الرجال العظماء.. ألهمهم الله جميعاً الصبر والسلوان.

وترك الفقيد وراءه جيلاً مسلماً في بلدته عمل على تربيته وإرشاده إلى الطريق السويّ.. طريق الإسلام العظيم.. الذي سار عليه الأنبياء والمرسلون وقادة هذه الأمة المخلصون الصادقون.

صفاته وخصائصه:

لقد اشتهر - رحمه الله تعالى - بالصَّلابة في العقيدة ووضوحها ومتانتها، والثبات على الحق والجُرأة في قوله.. وحرصه على المسلمين وكرامتهم وعزَّتهم، وشدة اهتمامه بمصالحهم، وإرشادهم إلى إسلامهم الذي منه عزتهم ومجدهم، وفي الابتعاد عنه والانحراف عنه هلاكهم وشقوتهم وذلهم واستعبادهم.

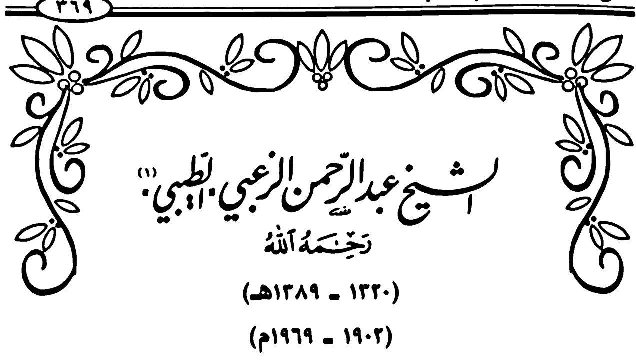
ولقد عُرف عنه إلى جانب هذا كله البر بالوالدين، والمعاملة الحسنة والوفاء للزوجة، والرحمة والرأفة بالأولاد.

كان رحمه الله عماد أسرته، وجيل بلده، ورجلاً من رجال الدعوة.

لقد عرفه الكثير، وأحبوه واحترموه، ولكنهم فقدوه حيث هم في أشدّ الحاجة له. وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

رحم الله أبا نوّاب، وجعله من الذين أنعم الله عليهم مع النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً. وألهم آله الصبر، وجعل في أولاده خير خلف له...

وإننا لا نملك إلا أن نقول: إنَّ القلب ليحزن، وإنَّ العين لتدمع.. ولكن لا نقول إلا ما يرضي الله.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.



الشيخ عبدالرّحمن الزعبي الطيبي[1]

رَحِمَهُ ٱللهُ

(١٣٢٠ ـ ١٣٨٩هـ)

(١٩٠٢ ـ ١٩٦٩م)



بقلم: محمد بهجت البيطار

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

رحمك الله يا شيخ عبدالرحمٰن، يا ذا الخلق الكريم، والطبع القويم، والدّرس المستديم، رحمك الله يا من جمعت بين العلم والعمل، وتقوى الله عزّ وجل في السرّ والعلن، وكنت القدوة الصالحة لأبنائك وتلاميذك وإخوانك.

أيها الإخوة الكرام:

التربية الدينية عمادُ الفضائل، والمعلمون هم خُلفاء الرسل عليهم

---

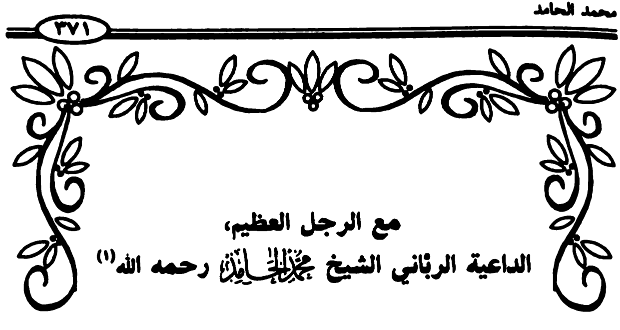
(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م)، وجاء في مقدمة الترجمة: نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار عضو مجمع اللغة العربية بدمشق في تأبين أستاذنا الشيخ عبدالرحمٰن الزعبي رحمه الله.

الصلاة والسلام في تعليمهم وأخلاقهم: «كاد المعلّم أن يكون رسولاً» إذ هم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس، والمُثل العليا تستملى من صفاتهم وأعمالهم، لا من الكتب التي يُدرّسونها فحسب، إذ بهم يُقتدَى وبهديهم يهتدى، ألا وإن هذه الدنيا سَحَابة صيف ما لها من دوام، والنفوس أغراض الليالي والأيام، فلنتزوّد من الدنيا بالتقوى فإنها خير زاد، ورحم الله عبداً أحيا سنة مأثورة، وصحب حياته بالأعمال الصالحة المبرورة، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

رحمك الله يا أستاذ، يا شيخ عبدالرحمٰن الطيبي رحمة واسعة، وجعل أبناءك الكرام البرَرَة خير خلف لك، وألهم الأهل والمحبين جميل الصبر، وأجزل للجميع المثوبة والأجر، وأفضل ما يقوله الصابرون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[1].



(١) تنظر ترجمته في كتاب «علماء دمشق في القرن الرابع عشر» ٢: ٨٢٢ ـ ٨٢٨.



مع الرجل العظيم، الداعية الرباني الشيخ محمد الحامد رحمه الله[1]

بقلم التحرير

لقد اختار الله إلى جواره خلال الأيام القريبة الماضية الشيخ محمد الحامد، أجزل الله له المثوبة، ويلاحظ ـ ولله الفضل والمنة ـ أنه سبحانه قد أكرم هذا العَلَم من أعلام الإسلام، بأن جمع له بين العلم النافع، والعمل بهذا العلم، والاستقامة على العبادة والورع في الدين، فهو عالم عاملٌ عابدٌ زاهد، مجاهد، يخشى الله واليوم الآخر، وإذا كان فضل العالم على العابد كفضل رسول الله ﷺ على أدنى أصحابه، فما بالك بمن أكرمه الله بالعلم والعمل والعبادة والصَّدع بالحق والزهد في الدنيا والخشية الصادقة لله عزّ وجل؟؟

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «ذُكر لرسولِ اللّهِ ﷺ رجلان: أحدهما عابدٌ، والآخر عالمٌ، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**فَضلُ العالِم على العابد كفضلي على أدناكم**»، ثم قال ﷺ: «**إن الله وملائكتَهُ وأهلَ السماوات والأرض، حتى النَّمْلة في جُحْرها، وحتى الحوتَ ليصلُّون على معلِّم الناس الخير**». رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

يبعث أمة وحده

إنا لا نتألى على الله عزّ وجل، ولكنّنا بما عرفنا بيقين لا يعتوره شك، نحتسب أن يكون رحمه الله في عداد أولئك الذين عناهم قول النبيّ ﷺ فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: «ألا أخبركم عن الأجود الأجود، الله هو الأجود، وأنا أجودُ ولد آدم، وأجودكم من بعدي رجلٌ علّمَ علماً، فنشرَ علمه، يُبعث يوم القيامة أمةً وحده، ورجلٌ جادَ بنفسه للهِ عزَّ وجلَّ حتّى يقتل»[1]. أخرجه أبو يعلى والبيهقي.

* * *

مصاب الأمة ورفع العلم..

لقد ذُعرت الأمة بوفاة هذا الرجل الذي قضى في سبيل الإسلام - وأعني هنا أولئك الذين يدركون معنى المصاب بموت العالم العامل الزاهد في الدنيا المجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله - لقد ذُعرت الأمة وحقَّ لها ذلك في وقت يعز فيه العاملون الزاهدون المستعلون على الحطام، الذين يخشون الله فيما يحملون من أمانة العلم، وتبليغها للناس عن بصيرة وتحقيق وتقوى لله عزَّ وجل، أفلا يسوغُ لجيلنا الحاضر أن يخاف أن يصدق فيه ما بيّن رسول الله ﷺ من رفع العلم بقبض العلماء؟؟

---

(١) أخرجه أبو يعلى ٥:١٧٦ (٢٧٩٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» ١:١٦٦: «فيه سويد بن عبدالعزيز، وهو متروك الحديث». وقال البوصيري في «إتحاف المهرة» ١:٤٩: إسناده ضعيف أيوب بن ذكوان قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بشيء. وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. يجب التنكُّب عن حديثه وحديث أخيه. وقال الحاكم أبو عبدالله: يروي عن الحسن كل معضلة، وقال الذهبي: «واه». فالحديث إسناده مسلسل بالضعفاء.

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جُهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا». أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢).

نعم يحقُّ لنا أن نخاف.. وإن كان الشيخ ـ رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خير الجزاء ـ بما أدّى من أمانة نشر العلم بأمانة وإخلاص يقل نظيرهما وبسلوكه الذي كان مَثَلاً كريماً يحتذى قد ترك ـ والحمد لله ـ من نأمل أن تفيد الأمة من علمهم وعملهم وخشيتهم لله بما ربّاهم عليه من التحقيق والورع والعمل الجاد إن شاء الله.

* * *

أحبَّ لقاء الله فأحبَّ الله لقاءه

إنَّ كل الذين صحبوا الشيخ الحامد رحمه الله بصدق، يعلمون أنه كان في مرضه الذي عانى منه سنين حيث أرهقه الجهد الدائب علماً وتعليماً وخطابة وتدريساً وتأليفاً ومنافحة عن الإسلام، فأخذ منه الإعياء مأخذاً، وحيث تقرّحت كبده حرقة على المسلمين، وقلقاً على ما يصيب الأمة في دينها وبُعدها عن شريعة الله، يعلمون أنه لم يكن يجزع من الموت وإنما كان يرى في المرض جسراً يُوصله إلى لقاء الله عزَّ وجل. فلقد أحبَّ لقاء الله فأحب الله لقاءه.

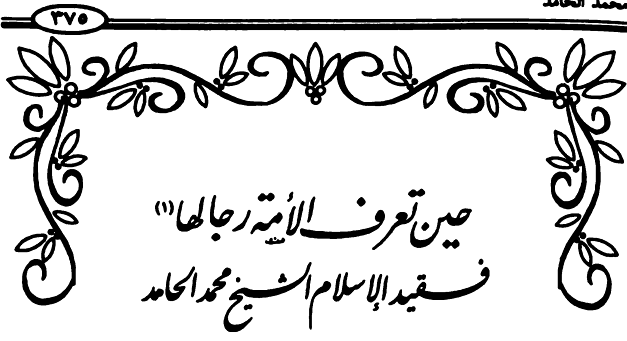
جاء في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحبَّ لقاءَ اللَّهِ أحبَّ اللَّهُ لقاءه». فقالت عائشة رضي الله عنها: إنّا لنكره الموت؟ قال: «ليس ذلك، ولكنَّ المؤمن إذا حضره الموت بُشّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء الله وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشّر بعذاب الله

وعقوبته، فليس شيءٌ أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه» أخرجه الخمسة إلا أبا داود[١].

رحم الله الشيخ الكبير رحمةً واسعة، وبوّأه الفردوس الأعلى في دار كرامته، وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩] ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٤].

□ □ □ □ □

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)، والترمذي (١٠٦٦) و(٢٣٠٩)، والنسائي (١٨٣٦) و(١٨٣٧)، وابن ماجه (٤٢٦٤).



بقلم: الدكتور محمد أديب صالح

واجب الوفاء:

على بركة الله نقدم هذا العدد الخاص عن حياة فقيد الإسلام والمعرفة الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

وإنما كان ذلك ـ وهو قليل مما يُوجبه الوفاء ـ لما أنَّ من الأمانة لهذه الأمة ـ وهي تعاني ما تعاني ـ أن نكون على معرفة بأولئك العاملين فيها، الأمناء على عقيدتها، الأوفياء لشرعتها ومبادئها.

فما أروع أن تعرف الأمة رجالها، تقي بهم نفسها عوادي الزمن، وتصلح على إثرهم ما تتعثر به من زلات وأخطاء، لما يأخذون بيدها إلى ميادين الكرامة والأيد، وما يحفظون عليها من أمر دينها الذي هو قاعدة البناء.

وأجدر بهذه المعرفة أن تساعد في وضع الأمور مواضعها، من أجل تقويم المكان الطبيعي الذي يجب أن يأخذه كل واحد من أبنائها على طريقها

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة العاشرة: (جمادى الأولى ١٣٨٩هـ = تموز وآب ١٩٦٩م).

الشائكة الطويلة، وفي ميادين العمل على تحقيق رسالتها في العالمين.

وليس شيء أضرَّ على هذه الأمة في دينها ودنياها، من أن يلبِّس عليها أعداؤها، أو العاقُّون من ذويها، فتعجز عن تصوُّر القيم التي على أساسها تبنى منزلة الرجال، وفي ضوئها يحسب حسابهم من الطاعة والاتباع.

وفي بيان مشرق لأبعاد هذه الساحة التي نشير إليها بهذه الكلمات، أوحى الله إلى نبيِّه محمد عليه الصلاة والسلام قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فكان تعليمه ما لم يعلم هو الفضل الذي لا يغفل عن عظيم قدره إلا غافل، ولا يحدُّ سعة مدلوله إلا جاهل مسكين. أعلنها القرآن واضحة بعيدة عن التشبيه والتلبيس، لتكون في مرتبة التكامل مع مظهر من مظاهر الرسالة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

الهدير الإيماني المعبِّر:

لقد وقفت وما بي من حاجة إلى تلمُّس الحقيقة التي تكمن وراء هذا الهدير الذي يقرع القلوب في حياة فقيدنا الكبير الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

فالرجل الذي يهب نفسه للعلم والمعرفة، ثم يجعل من سلوكه وعمله وجهاده بلسانه وقلمه صورة حيَّة صادقة لما يعتقد، هو رجل جدير بكلِّ هذا الهدير الإيماني المعبِّر، حريّ بأن يكون مثلاً يحتذى، وأسوة تتبع، ولا نتألى على الله فالعصمة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الميراث العلمي:

وليس من مكرور القول أن نذكر بأنَّ أمتنا قد أعطت للفرد قيمة كبرى في ميدان النقل العلمي خصوصاً لما يكون من سنَّة رسول الله ﷺ، ومن هنا ومن أجل هذا الغرض كيما ينقل الحديث بالسند الصحيح كان علم الرجال، ووجد علم الجرح والتعديل الذي يقوم على الوضوح والأمانة دون محاباة أو مصانعة في الحق.

موضع الثقة في النقل والحُجَّة في العمل والقدوة:

والشيخ الحامد أجزل الله مثوبته واحدٌ من أولئك العلماء العاملين الذين وضعهم التاريخ على قمّة المرتقى في تاريخ الأمة الحديث، فقد أكرمه الله بأن كان موضع الثقة في النقل، وموضع الحجة في العمل، وموضع القدوة للعلماء زهداً في الدنيا، وصدعاً بكلمة الحق، والتحلي بما من شأنه أن يحفظ على العالم ـ والعلماء ورثة الأنبياء ـ كرامته التي هي من كرامة الأمة.

ولن يعوزك البحث لتجد في كل واحد من تصرُّفاته ما ينبغي أن يكون عليه العالم رغَباً ورهباً، من تحقير لشأن كل منصب يمكن أن يعوقه عن أداء رسالته في الحياة، ولو كان هذا المنصب قد ألبس لَبوس الدين، في وقت تشابهت فيه الأمور، وساد في أرجائه الكثير من تمويه إبليس.

الزهد في الدنيا:

ولم يكن هيناً من الأمر أن يحمل الرجل نفسه في شؤون الدنيا على المركب الخشن، فقد كان هذا دليل علو الهمة والانتصار على النفس الأمارة بالسوء، لأن الزهادة في الدنيا أمر ـ بمفرده ـ سلاح يقاتل، ونور يضيء سبيل العالم إلى قوة التأثير والقدرة على فتح مغاليق القلوب.

تعدُّد جوانب شخصيته:

والشيخ محمد الحامد ـ على تعدد جوانب شخصيته التي ترى فيها الجِدّ الجادّ، والتحقيق العلمي، والغضب لله عزَّ وجلَّ، مع النكتة البارعة، وموهبة الشعر التي لو تسنَّى لها أن تأخذ طريقها الطبيعي لرأينا العجب العجاب.

جَعَل علمه زُلفى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة:

استطاع في هذه الفترة التي عاشها أن يكون فيصلاً بين العالم يتخذ

العلم صناعة تكسب الجاه والمال ومرضاة السلطان، وبين العالم، يجعل من علمه زلفى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة.

الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي:

والرائع الرائع وراء ذلك كله، ما كان من الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي في العصر الحديث، ذلك الوعي الذي اتسمت به تحركاته ـ رحمه الله ـ منذ كان طالباً في الأزهر سنيّ شبابه الأولى.

فلقد شهد بقلبه وعقله المرحلة التي تمرُّ بها الدعوة الإسلامية، وكان على إدراك تام لما يجب أن تكون عليه الطريق التي ينبغي أن تسلك لتحمل أعباء الدعوة، في ظروف تستدعي الكثير من الإخلاص والمعرفة، والنظرة الجماعية إلى الموضوع.

ذلك أنَّ الدعوة الإسلامية في هذا العصر قد ورثت تَرِكَةً مثقلة بالكثير من العناء، نتيجة بُعد المسلمين عن دينهم في منابعه الأصيلة الصافية، ومُجافاتهم للمنهج الإسلامي الصحيح في مجال الفكر والحياة.

والعدو ـ وقد أمسك بزمام الحضارة المادية ـ يبتدع في محاربة الإسلام كل يوم سلاحاً جديداً، ويبني مؤامرة جديدة، وكثيراً ما يحاول الإتيان على البناء من الداخل، على أيدي من ينتسبون إلى الإسلام ويتَّسمون بأسماء بني جلدتنا وقومنا في ساحة من البهتان والزور.

إعدادٌ صادقٌ:

كل هذا ـ وغيره كثير ـ أوجب العمل على تكوين قاعدة صلبة أمينة يقترن فيها الإيمان بالإعداد الصادق وحمل مسؤولية الجهاد، بحيث يكون الإسلام مع الفرد والجماعة التزاماً في كل خطوة وفي كل حركة، على إيجابية تباعد عن إلقاء الحبل على الغارب، وعن الاستغناء بالهدم عن البناء، ثم الاكتفاء بتجريح الآخرين عن إلزام النفس بما ألزمها به الإسلام.

ومن خلال القناعة بتكوين هذه القاعدة التي يكون في مقدورها

ـ مستعينة بالله ـ أن تحمل الإسلام عقيدة لا تشوبها شائبة، وفكراً نيِّراً لا ينغلق دون الانتصار العلمي، وجهاداً لا يقف دونه حب الذات وعبودية الشهوات. . .

أقول: من خلال القناعة بذلك وجدنا الفقيد رحمه الله يمارس العمل الإسلامي ويعيه وراء حدود الكتاب ومقرَّرات الامتحان في الأزهر، حيث جمعه الإخلاص والوعي إلى أولئك الذين وهبوا أنفسهم لقضية الإسلام، على أساس أنها القضية الأولى التي يجب أن يحيا لها الرجال. رافق ذلك قناعة أن الكفر كله ملة واحدة، وأنَّ الوثنية اليوم بشتَّى ألوانها ومظاهرها وعناوينها الخادعة وغير الخادعة تحاول جاهدة مجتمعة الكلمة موحَّدة الصف أن تجهز على الوعي الإسلامي، مهما كلفها الثمن. . . أنّى وجد هذا الوعي أو لاحت بارقة تدل عليه.

الشمول في نظرته إلى ساحة العمل الإسلامي:

وإذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم ليس كلمات يلهج بذكرها اللسان، ويتفكه بها في المجالس، ولكنه إخلاص وحسن تصوير، وحَمْل أعباء، ومعرفة بالأرض التي قسم الداعية أن يغرس فيها بذور الخير، وإحاطة بالواقع الذي تعيش الأمة في ظلاله، وإدراك لما عليه العالم اليوم في أفكاره وعلمه وتطوره الحضاري، إذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم كذلك، فما أيسر أن تتحوَّل الدعوة إلى دُويلات صغيرة هنا وهناك، ولكن ما أعظم أن يكون الداعية على وعي وإخلاص يحملانه على الشمول في نظرته إلى الساحة التي يجب أن يكون عليها العمل في ظل دعوة لا تعرف الإقليمية والانحسار.

معالم توجيهه وإرشاده:

وكذلك كانت نظرة الشيخ الحامد رحمه الله، وكذلك كانت معالم توجيهه وإرشاده لمن ولاّه الله أمر توجيههم وإرشادهم، فعبثاً تحاول أن تجد عند أولئك الشباب الذين سُعدوا بالانتفاع بعلمه وعمله نزعة انطواء عن

الخط العام الذي يجب أن تلتقي عليه القلوب، بل العكس هو الذي يكون دائماً، صورة عن قناعاة الشيخ رحمه الله، فقد كان همُّه أن يُعدهم علماً وإخلاصاً وسلوكاً من أجل أن يكونوا للأمة، يسلكون لنصرتها الطريق الجماعية الواعية التي تتّسم بالإحاطة والتكامل، ويخرجون إلى الناس نماذج حركيَّةً للشباب المسلم الذي يحمل من العقيدة، صفاء الفكر وسلامة الإدراك لخصائص التصور الإسلامي، وتتقد بين ضلوعهم روح العمل والجهاد.

رحم الله الشيخ الحامد فلقد كانت هذه الرائعة من خصاله أوضح ما تميَّزت به شخصيته عند لداته وأقرانه وأقوى ما استعلى به في ميدان الرجولة والوفاء في زمن قلَّ فيه الرجال وعزَّ للدعوة الإسلامية الوفاء.

وكل ما ذكرنا من خلاله رحمه الله كانت روافد لهذه الرائعة العظيمة، ذلك أنَّ وعيه للعمل الإسلامي وما كان من انعكاس ذلك على الأبعاد والمنطلقات في سلوكه وتصرفاته، جعل لكل من تلك المزايا والخلال معنًى جديداً، حتى بدت كل خصلة وكأنها رجل جديد يعمل للإسلام علماً وعملاً وجهاداً.

رائد من روّاد القافلة المؤمنة:

بل إن استقامة تصوره لطريق الدعوة كيف يجب أن يكون، جعل من كل واحدة من تلك الخلال سلاحاً يقاتل في معركة الإسلام التي تتحرك على صعيد عالمي. فليس الأمر أمر «محمد الحامد»، ولكنه أمر رائد من رواد القافلة المؤمنة التي تسربلت على مر الزمن نسيجاً من النصال التي يتكسّر بعضها على بعض وباتت كل يوم تقدم شهيداً يزيد في وضوح الرؤية وتحديد معالم الطريق.

وسيظلُّ أمر المعركة كذلك ما دام العدو هو العدو، وما دام الدين الذي يُراد العمل لإعلاء كلمته هو مضمون قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ حتى يأذن الله بالنصر.

فما لم يكن ديناً يومذاك فليس ـ كما قال الإمام مالك ـ اليوم بدين.

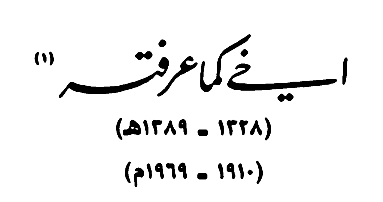
إلا أن يكون شيئاً مبتدعاً مخترعاً من عند بعض النفوس لا صلة له بالإسلام والعياذ بالله.

الغايات الكبار والنفوس الكبار:

ألا أنه ليس كثيراً على الغايات الكبار ما تجود به النفوس الكبار. وفي مرضاة الله تعالى تهون الصعاب... ويستعذب الموت، فقد أقعد الشيخ الحامد رحمه الله مرضه الذي كان نتيجة طبيعية للجهد المتواصل، وما يرهقه من حَمْل أعباء أمته، وما يؤرقه من همومها ولياليها السود. حتى قضى على حال نحتسب عند الله أن يكتب فيها من شهداء العلماء، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

وبعد: فسيظلُّ هذا الرجل حُجَّة على كل أولئك الذين يَرهبون حَمْل الراية، ويجْنحون إلى السلامة تحت وَطْأة تسويلات وتأويلات، وعلى كلّ أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين، ويُقدِّمون للأمة ركاماً من الزيف والانحراف وسُوء التأويل، يسمُّونه «سماحة الإسلام»، وينصرفون عن كلمة الحق باسم «الحكمة» والأمل في أن يَجْنوا من القَتّار شيئاً غير الشوك. ولله عاقبة الأمور. وما كان ربُّك نسياً.





(١٣٢٨ ـ ١٣٨٩هـ)

(١٩١٠ ـ ١٩٦٩م)





ولادته ونشأته:

ولد الشيخ محمد الحامد رحمه الله في حماة سنة ١٩١٠، وتوفي فيها سنة ١٩٦٩.

وكان أبوه الشيخ محمود الحامد شيخ الطريقة النقشبندية في حماه، وأمه من بيت اشتهر بالعلم والشعر، فخاله الشيخ سعيد الجابي من العلماء الأعلام، وجده لأمه الشيخ مصطفى الجابي عالم وشاعر. فنشأ ميَّالاً بطبيعته إلى التديّن منذ نعومة أظفاره.

مات أبوه وهو طفل صغير، ولحقت به بعد سنة أمه، فعاش سنيّ طفولته يتيماً يتولّى أمره أخوه بدر الدين، ولم يكن يومئذ ذا مال أو عمل، فعانى الشيخ محمد من ذلك في بيته وهو صغير أشد ما يعاني إنسان من

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

حالات الفقر والحرمان، ولما شبَّ اتَّجه إلى طلب العلم الشرعي، وواصل من بعد ذلك دراساته لأحكامه والتعمق في بواطنه حتى أصبح من كبار علماء المسلمين.

أسرته:

تزوج بابنة العالم الكبير الشيخ أحمد المراد أمين الفتوى في حماه، ورُزق خمسة أولاد ذكور وابنتين. أكبر أولاده هو محمود الحامد المجاز من كلية الشريعة بدمشق، وخطيب ومدرس جامع السلطان بحماة بعد أبيه.

وللشيخ محمد الحامد من الإخوة: اثنان شقيقان، هما: بدر الدين الحامد شاعر العاصي المعروف، وعبدالغني الحامد مدرس اللغة العربية في إعداديات حماه. وله أخ ثالث من أمه هو نجيب الريِّس صاحب جريدة القبس الدمشقية سابقاً.

مواقفه الجريئة في الدفاع عن الإسلام:

اشتهر الشيخ محمد الحامد بمواقفه الجريئة في الدفاع عن الإسلام، وبمؤلفاته التي يوضِّح فيها حقائقه، وبكثرة الردود على الاستفتاءات التي كانت تأتيه من مختلف المدن والأقطار.

وتميَّز بالتقوى والورع إلى أبعد الحدود، وبالحرص على نشر أحكام الدين وهداية الناس إليها حتى أواخر حياته.

جنازته:

ولقد كان يوم وفاته يوماً مشهوداً، تناقلت فيه الإذاعات العربية نبأ وفاته، وعدِّدت له مناقبه، ومشى فيه وراء نعشه آلاف الناس من أهالي حماة ومن وفود المدن السورية، يشيِّعونه باللوعة والدموع إلى مثواه الأخير.

ذكريات عن أخوي: محمد وبدر الدين:

كان أخواي محمد وبدر الدين رحمهما الله كل ما أعي من الحياة بعد موت أبويَّ وأنا طفل صغير.

كنت في الثالثة من عمري، ومحمد في السادسة، وبدر الدين في الرابعة عشرة، ونشأنا نحن الثلاثة في ظروف صعبة مشحونة بالشدائد، تحملها إلينا سنوات الحرب العالمية الأولى فتكاد تذهب بنا لولا معونة الله.

ولقد ألقى الله تعالى في قلوبنا محبة كلٌ منا للآخر، وإيثاره على نفسه بكل شيء حتى بالضروري من أسباب الحياة.

أما بدر الدين فقد حلَّ محل الأم والأب. وأما أنا ومحمد فقد كنا كغُصني شجرة لا يفترقان. نذهب ونؤوب ونطعم ونبيت معاً. يدانا متماسكتان وقلبانا متمازجان.

عاطفته وحُنوُّه وصدقه:

في هذه الظروف القاسية عشت أنا ومحمد أول ما تعرَّفت إلى الحياة، وارتسم على قلبي منه منذ ذلك الحين كل شيء عرفته فيه من الصفات، فلم أجد شيئاً منه قد تبدَّل فيما بعد عندما كبر وأصبح رجلاً إلا علمه الذي اكتمل، وجهاده الذي برز في خدمة الدين. هو محمد نفسه في السادسة من عمره كما هو بعد العاشرة أو بعد الثلاثين والخمسين، العاطفة الطيبة، والحنوُّ العميق، والصدق في القول، كل ذلك استشعرته منه ونحن صغيران ولم يكن في تلك السن المبكرة يألف من الأمكنة إلا المساجد، يصلي خلف الأئمة، ويحضر دروس العلماء ويأخذ بحفظ القرآن الكريم.

نشأته الصَّالحة:

وكان أبعد ما يكون عن الشر، أشدّ ما يكون تحرياً للحلال ولو في أصغر الأشياء لم تمش به قدم إلى ملهى قط، والأطفال والفتيان من حوله يتحدثون يومئذ عن ذلك الشيء العجيب الذي يسمُّونه (السينما) والذي فوجئت به البلاد فأدهش العقول. التسلية عنده هي النزهة فحسب، ولقد أكسبته المناظر الطبيعية حسًّا شعرياً وذوقاً سليماً صافياً، بقي أثرهما في نفسه حتى عهد شبابه وكهولته.

هذه أمور أرويها عنه وهو صغير، كنت أحياها معه كل يوم وأشهدها منه سلوكاً ثابتاً لا يتغير.

في مدرسة دار العلوم الشرعية بحماة:

وكان أخوه بدر الدين قد أدخله المدرسة الابتدائية، فلما انتهى منها أراد أخوه أن يُتمِّم له دراسته في المدارس الثانوية، لكن نفسه انصرفت عنها انصرافاً عنيفاً، ومالت به إلى دخول مدرسة دار العلوم الشرعية التي افتتحت حديثاً في حماة، فأدخله أخوه فيها وتعيَّن بذلك مستقبله في طلب العلم الشرعي.

لقد وجد محمد في هذه المدرسة أمنيته، فأقبل على العلم الشرعي إقبالاً شديداً، وظهر تفوُّقه في الدروس تفوقاً ملحوظاً، ولم يكن يكتفي بدروس المدرسة وحدها، بل كان يضيف إليها ما يقوم به من دراسات أخرى شخصية يستكمل بها علمه، حتى تكوّنت فيه شخصية العالم المحقق، ثم انتقل منها بعد أن نال شهادتها بدرجة ممتازة.

في المدرسة الخسروية بحلب:

وظلَّ بعد ذلك ما يقرب من سنة غير منتسب إلى معهد علمي، يقوم بدراسة العلم الديني واستكمال مواده على أيدي علماء حلب الأعلام، فأفاد منهم علماً غزيراً وتحقيقاً دقيقاً[١]. وكان يرفض أن يشغل عن طلب العلم واستكماله بأيِّ عمل آخر غيره.

في كلية الشريعة بالأزهر:

ثم لما أن تيسَّر له أمر الذهاب إلى مصر[٢]، شخص إليها ودخل

---

(١) انتسب إلى الثانوية الشرعية، ودرس فيها ست سنوات، وتخرج فيها سنة ١٩٣٥، وكان الأول على مجموعته.

(٢) في سنة ١٩٣٧.

الجامعة الأزهرية فوجَدَ فيه مدرِّسوها عالماً موهوباً، يقرع الحُجَّة بالحُجَّة، ويناقش في مختلف الأحكام، حتى شهدوا له بالتفوق والنبوغ. وكان بعضهم يأخذ برأيه فيما يحقق من أحكام شرعية، ولو أنه كان يخالف بها ما يقرر في الدروس على الطلاب، إذعاناً للحق واعترافاً به[1].

وبعد أن نال شهادة كلية الشريعة من الأزهر[2]، التحق بكلية القضاء فيه، فأمضى فيها سنتين حتى نال شهادتها بنجاح كبير[3].

إيثاره العودة إلى بلده:

وقد عُرض عليه بعد ذلك أن ينتسب لأحد فروع التخصُّص العالي لينال شهادة الدكتوراه، ولكنه آثر العودة إلى وطنه، ليقوم بنشر العلم والدعوة إلى الله تعالى وبذل الجهد في هداية المسلمين إلى أمور دينهم، مُرجِّحاً ذلك على التخصُّص، وكانت البلاد آنذاك في حالة نضال ضد المستعمرين الأجانب. فزاد ذلك من رغبته في العودة ليساهم في معركة النضال لتحرير الوطن.

الخطيب المدرِّس:

وكان رحمه الله قد عُيِّن قبل ذلك وهو ما يزال طالباً في الأزهر خطيباً في الجامع الأشقر بحماه، ثم نقل منه إلى جامع السلطان خطيباً ومدرساً، فكان يمارس علمه في هاتين الوظيفتين، يعلي من فوق المنبر صوت الحق، ويفتح القلوب في الدروس العامة لهدي الإسلام.

دعوته إلى الجهاد:

وفي معركة التحرير عام ١٩٤٥ كان على المنبر يلهب النفوس حماسة

---

(١) وكان الشيخ مشهور الضامن مفتي نابلس المتوفى ١٩٩٨ رحمه الله تعالى يقول: أشهد أنَّ الشيخ محمد الحامد جاءنا إلى الأزهر عالماً.

(٢) في سنة ١٩٤١.

(٣) في سنة ١٩٤٣.

إلى الجهاد، يخطب والطائرات فوقه تحوم لتضرب المدينة بالقذائف، فلا يخاف ولا يبالي، بل يمضي في خطابه مجاهداً ومُحَرِّضاً على الجهاد حتى كتب الله تعالى النصر للأمة، وتحررت من ربقة الاستعمار.

في ثانوية ابن رشد:

وفي سنة ١٩٣٦[1] عُيِّن مدرساً في ثانوية ابن رشد للتربية الإسلامية، فأتيح له في هذا المجال أن يتّصل بالشباب الصاعد، وأن يلامس بكلامه قلوبهم، وأن يُزيح عن كثير منهم كل ما يغشاهم من شكوك وأضاليل، وأن يردّهم إلى طريق الحق، طريق الله عزَّ وجل.

جهوده في الدعوة إلى الله تعالى:

وظلَّ محمد رحمه الله يعمل في مختلف المجالات، يبذل كلَّ جهده في الدعوة إلى الله تعالى، ويبيِّن بجلاء حقائق الإسلام، يغرف كلامه من قلبه، ويفرغ عليه من روحه، فيرد على الشبهات، ويدحض الأباطيل، حتى كان لعمله بتوفيق الله الأثر الحسن الذي وقف نفسه عليه، فاجتذب إليه النفوس، وتعلقت به القلوب، وتأثرت بإخلاصه الأرواح. فالتفَّ حوله طلاب لا يفارقونه، تخلّقوا بأخلاقه، وأخذوا عنه تجرُّده عن مطالب الدنيا وابتغاءه وجه الحق. فرضيت نفسه بهم، وأيقن أنه قام بواجبه في خط المنهج الصحيح للسلوك المستقيم، وأنه قد أرضى الله تعالى فيما أوجب عليه من بيان وتعليم.

مؤلفاته وفتاويه:

وألف كتباً ورسائل دينيّة كثيرة تداولتها أيدي الناس، كشف فيها عن كثير من مواطن الزيغ، وقرّر كلمة الحق كما جاءت في تعاليم الإسلام، فوثق الناس به كل الوثوق، لما رأوا فيه من علم غزير، واطّلاع واسع،

(١) وذلك قبل ذهابه للدراسة في الأزهر سنة ١٩٣٧.

ودقة في تحرّي الأحكام، ونزاهة في كل ما يكتب أو يقول، فأجمعت على قبول ما يفتي به مدينته، وكذلك سائر المدن الأخرى من بلاد الشام أو من غيرها من أقطار العروبة والإسلام. وكانت تحل على يديه أعقد المشكلات فيوفقه الله تعالى فيها إلى أحسن الحلول، وكانت ترد عليه الأسئلة من كل صَوْب فيجيب عليها كتابة بكل أمانة، ولو كلفه ذلك جهداً كبيراً. وما زال كذلك حتى ثقل عليه العمل وأصبح يهدد جسمه بالضعف وبالمرض.

مرضه:

لكنه رحمه الله كان شديدَ الخوف من الله تعالى، شديدَ الشعور بالمسؤولية أمامه، فلم يتوقَّف عن عمله، في مختلف المجالات، مُبْتغياً بذلك مرضاة الخالق مفادياً بنفسه في سبيله، حتى أقعده المرض، وألحّ عليه النزف، فحبسه في البيت مدة، كان أكثر ما يكون فيها تشوقاً إلى معاودة العمل في سبيْل الله؛ لتحريك القلوب إليه سبحانه، وتحبيبها به، وتعريفها بأحكامه، حتى يكون اسمه تعالى فيها بمنزلة الضياء من العيون، فترسخ العقيدة، وتخلص النيات.

ولقد كان يقول لأطبائه: إن أنا شفيت على أيديكم وعاودت العمل للإسلام فكل ما سأقوم به من عمل سيكون مكتوباً في صحائفكم عند الله.

رضاه عن الله عزَّ وجل:

ولم نكن نسمع منه كلمة تذمُّر لا تحلُّ شرعاً، بل كان في أشدِّ ساعات مرضه يقول: إني راضٍ عن الله، وما كان يفطن لشيءٍ إذا نزلت به غيبوبة، ثم صَحَا منها إلا للصلاة ولذكر الله.

وفاته:

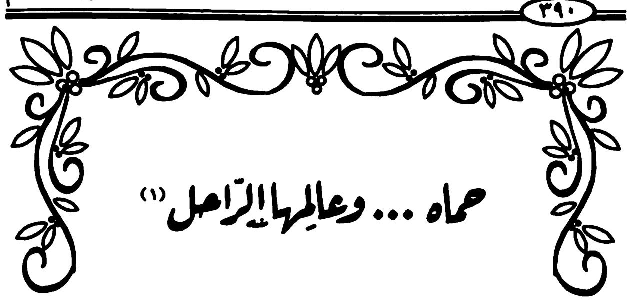
وأجريت له عملية جراحية لإيقاف النزف، لكن كبده رحمه الله كان قد ثقل عليها المرض فاختاره الله تعالى إلى جواره في يوم الاثنين الواقع في الخامس من شهر أيار عام ١٩٦٩ في الساعة التاسعة مساء.

رحم الله محمداً، فقد كان عَلَماً في التقوى والورع، حُجّة في العلم، قدوةً في النزاهة.. هو نفسه كما عرفته في السادسة من عمره، أواريه التراب اليوم بدمعي، لم يتغيّر في خُلقه شيء، ولم يتبدّل من أعماله عمل.

بالأمس فقدت أخي بدر الدين الشاعر، واليوم أفقد أخي محمداً العالم، وقد كانا لقلبي العينين اللتين أبصرت بهما نور الحياة منذ أن عرفت بعيني نور الوجود، فما أشدّ ظلمة الحياة من بعدهما، وأيُّ شيء بقي لي فيها إلا ذكراهما، وإلا ما أفدت منهما من أدب وعلم.

رحم الله أخويَّ رحمةً واسعة، وجمعني بهما في مستقرّ رحمته. وإنا لله وإنا إليه راجعون.





حماه ... وعالمها الرّاحل[1]

للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
المدرس في كلية الشريعة من جامعة دمشق

صورة حماة المتميِّزة الفريدة:

لمدينة حماة في نفسي صورةٌ عزيزة أحفظها لها منذ سنوات طويلة، صورة متميِّزة فريدة تختلف عن صور ما قبلها وما بعدها من البلدان المنتشرة على طول ذلك الطريق المتَّجه إلى الشمال.

وما مرةً حَلَلْتُ فيها بمدينة حماة زائراً، أو اجْتَزت بها مسافراً، إلاّ واستقبلتني هذه الصورة على مشارفها تنبِّهني إلى أنني من هذه البلدة أمام طبيعة أخرى غير التي عرفتها من طبائع الناس والبلاد.

وما مرةً وقع فيها بصري على نواعيرها الصاعدة الهادرة، إلاّ ورأيت في وقار مظهرها وانبعاث صوتها حديثاً طويلاً تظلُّ تخاطب به كل داخل ومسافر، فإذا ما رَنَوْتُ ببصري نحوها أتأمل حديثها أبصرتُها تقول:

حديث النواعير الصاعدة الهادرة:

هٰهنا تربض كبرياء الشرف جنباً إلى جنب مع رقَّة الخلق الإسلامي

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

الرفيع، هٰهنا تلتقي قوة الثبات على الحق مع كرم المعشر ولطف الحديث. عند مداخل هذه المدينة تعود مرتدّةً جميع تلك الرياح والعواصف الهُوج بما تحمله من نقيع التقاليد الآسنة، ووباء الميوعة والانحلال، فمهما جُلتَ في ميادين هذه البلدة أو سرت في سككها وشوارعها فلن تستنشق من حولك إلا نسيماً عذباً يتخطّر.

لقد زعموا أنّ عجلة الدهر تَنْبذ كل قديم وراءها مهما كان نوعه لتستقبل كل جديد أمامها مهما كان نوعه.. أهي عجلة قطارٍ هائج أُفلِتَتْ من تحته قضبانه وصُرِع في داخله سائقه؟!.. ربّما... ولكنّ عجلة الدهر في هذه البلدة إنما تسير على هَدْيٍ من عقل في داخلها وخارطة مرسومة أمامَها.

أمّا أنا فسأظل أدور هٰهنا حول نفسي في تطواف دائب لا ينقطع، لأغسل هذه البقعة مما قد يصيبها من وساوس هذا الفكر المتعفّن.

ربّما أبصرني المارّ هنا فتوهّم أنها الطبيعة، أرادت أن يكون عملي هذا هو العمل المكرّر المعاد: أنضح الماء من هنا إلى هناك، ولكن الحقيقة أن هذه المدينة إنما أرادت لي أن أكون رمزاً للثبات على محور المبدأ، ليس للإنسان أن يجعل حياته إلا مطافاً ثابتاً من حوله، يعيش من أجله ويموت في فلكه.

* * *

قلت لصاحبي ذات يوم، وقد وصلت بنا السيارة إلى مَشارف حماة، وتراءت لنا نواعيرها الذاهبة في جوّ السماء: ويحك، ألا تسمع إلى ما يقوله هدير هذه النواعير؟.. ألا ترى إلى الصورة المتميّزة المنبسطة على عرض هذه المدينة وطولها؟.. ترى ما الذي جعلها تتميّز عن غيرها بهذه الصورة، وما جعل نواعيرها تظلُّ تنشد نشيد الكبرياء؟!..

مرشد حماة العظيم:

قال لي صاحبي: أو لم تعلم سرّ ذلك بعد؟.. أو لم تسمع بشيخ هذه البلدة ومرشدها العظيم الشيخ محمد الحامد؟.. قلت: لم أسمع باسمه

قط[1]. قال: فإن الله قد أقام هذا الرجل في هذه المدينة مقام ينبوع من الماء العذب وسط أرض ذات تربة نقية خِصْبة. فكان من ذلك ما ترى من تَحَوُّل هذه البلدة إلى واحةٍ وارفةِ الأنس والظلال.

قلت: وإنّ في هذه المدينة مثل هذا الشيخ وأنا لا أعرفه بعد؟!.. وأصررت على أني لن أبارح حماة إلاّ بعد أن أزوره وأتعرّف عليه وأشدّ آصرتي به.

منزل متواضع:

وكانت السيارة قد خلّفت معظم معالم المدينة وراءها، ولم يبق أمامنا منها إلاّ حاشية يسيرة من بيوت متفرقة هنا وهناك. فعادت بنا أدراجها، وأخذنا ننتقل بين الأزقة حتى وقفنا أمام منزل متواضع وسط أحد تلك الأزقة الضيقة.

ولما دخلنا المنزل، أُذِنَ لنا إلى غرفة في أعلى الدار صعدنا إليها على درج ضيّق متعرّج.

رؤية الشيخ محمد الحامد لأول مرة:

وفي تلك الغرفة المتواضعة أبصرت لأول مرة الشيخ محمد الحامد، ورحتُ أسرّح النظر فيه وفي هيئته باحثاً في شخصه عن مكان النبع الذي تحوّلت به هذه المدينة إلى دوحة فينانة وارفة الظلال.

وأخذتُ أُسائل نفسي ـ وأنا أُمْعِنُ النظر والفكر في مظهره ولحيته الوافرة البيضاء المحيطة بوجهه ـ: كيفَ استطاع هذا الشيخ أن يَتَسلّل إلى أفئدة أهل هذه البلدة فيحوّلها ويقلبها من حال إلى حال؟.. وهل هو في هذا إلاّ كغيره من الشيوخ: لحية وجبّة وقامة؟..

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٧م، وكنت لا أزال في دور الدراسة، أتنقل بين القاهرة ودمشق، ولم أكن قد عرفت الأستاذ الشيخ محمد الحامد بعد (البوطي).

تأثير الشيخ في مدينته:

لقد رأيت شيوخاً كثيرين لهم ما له من سيما المظهر والجلال، فلم يفعلوا بذلك أكثر من أنهم وضعوا بينهم وبين الناس حجاباً من مظاهرهم هذه، يقف أحدهم من سواد الناس ودهمائهم فوق برج مرتفع بعيد، حيث ينثر عليهم من هناك صيغ الوعظ والإرشاد، فليس بينه وبين أولئك الذين ينساحون بعيدين عنهم في الأرض إلا نسب هذه الكلمات وحدها، تهبط هي إليهم من عليائها هناك ويتلقونها هم بآذانهم في الأرض، ثم يعود كل شيء إلى ما كان عليه لا يتبدل أي خط ولا يقضي على أي انحراف.

وعدتُ أتأمل في حال الشيخ، وهيأت نفسي لسماع قطعة من الموعظة المحفوظة المكررة. . . ولكني لم أسمع شيئاً من ذلك!. .

حديثه من أغوار نفسه المؤرقة المتألمة:

لم يكن حديثه يهبط إلينا من علياء بعيدة، ولكنه كان يصعد من أغوار نفس مؤرقة متألمة!. . أخذ يكلمنا عن مشاكل المسلمين في حياتهم والعوائق التي تقف سداً دون رقيهم الاجتماعي، ثم تحدث عن المدارس والمعاهد والمناهج وما ينبغي أن تكون عليه أوضاع هذه المؤسسات، وأفاض بعد ذلك في الحديث عن دور الشباب والجيل الناشىء في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي المنشود، وعرض لنا تجاربه الشخصية في هذا الصدد.

فكر ناقد بصير:

ثم انتقلنا إلى بعض المسائل والأبحاث العلمية، فاندفع يشرح وينقد ويحلل. . وفوجئت بما لم أكن أتصورُه: إنه يقرأ كل جديد يقع تحت يده، ويطّلع على كل فكرة تمرُ من تحت بصره. ثم هو لا يقرأ شيئاً من ذلك ابتغاء تسلية أو لمجرّد اطّلاع كما هو شأن معظم القراء والباحثين، ولكنه يتناول كل ذلك بفكر الناقد البصير، ويضعه تحت مجهر العقيدة التي يعيش لها، ثم ما هو إلا أن تثور به أعصابه تدفعه إلى ما ينبغي أن يقوم به المسلم

تجاه ذلك، من نقد أو تأييد أو تصحيح مهما كلّفه ذلك من مشقة وجهد!...

ومضت دقائق، وأنا أتخيل تناقضاً يتلبّس حال الشيخ..

إنّ جلال مظهره ووقار سنّه وهيئته، لا يتفقان وهذا الخوض في كل هذه الميادين.. ورأيت أن الصورة التي انطبعت طويلاً في ذهني تهمس إليّ بأنّ العالم لا ينبغي أن يتجاوز محراب المسجد الذي هو فيه، إلاّ أن يتحول بوجهه عنه مستديراً إلى ما وراءه من صفوف العامة يعظهم ويرشدهم، ثم ما هو إلا أن ينفتل عنهم بعد ذلك ليعود إلى تسبيحه وشأنه.

في صفوف الطلاب:

وازدادت صورة هذا التناقض في مخيلتي وضوحاً، عندما همس إليّ صاحبي الذي كان إلى جانبي، بأن الشيخ مدرّس في المدارس الثانوية العامة، وأنه يمضي شطراً كبيراً من وقته بين صفوف الطلاب!...

وإني لأذكر الساعة جيداً كيف أخذتُ أحمْلق بعينيّ في مظهره وروعة لحيته ووقار شكله، دون أن يسعفني الخيال بالقدرة على تصوُّر أن صاحب هذه الهيئة يُمضي شطراً كبيراً من وقته في صفوف المدارس حيث يحفُّ به التلاميذ وهو يوجههم ويعلمهم ويحادثهم!..

سرُّ انصياع حماة لشيخها العظيم:

ولمّا أخذت أتأمل بفكري هذه الظاهرة، أدركت أنها هي وحدها سرّ انصياع هذه البلدة لشيخها العظيم!.. فلو كان الرجل في حياته مع الناس مثل بعض العلماء الآخرين: يجول معهم ضمن دائرة محدودة تحصرها وظيفة معينة تستهدف غاية واحدة لا تتبدل، لما كان له أي أثر في الناس أكثر من آثار أولئك الآخرين، ولما كان لسعيه أي فائدة فيهم، اللهمّ إلا فوائد جزئية متناثرة لا يمكن أن يتألف منها أي منهج قويم متكامل.

* * *

التكامل الرائع في حياته الإسلامية:

منذ ذلك اليوم، أصبح اسم الشيخ محمد الحامد بِلء نفسي وكياني كله؛ لا من أجل مزيد علم وتحقيق قد يمتاز بهما عن غيره من العلماء، ولا من أجل مزيد من الصلاح والتقوى قد لا تجد منهما عند سواه، ولا من أجل لطف معشر أو رقة حديث قد يجذب بهما من حوله من الناس. ولكن من أجل هذه الظاهرة التي أثارت لديَّ الدهشة والتي لم أجدها عند كثير من العلماء الآخرين.

إن الذي لفت نظري من حياة الشيخ محمد الحامد رحمه الله وجعله بذلك ملء قلبي حباً وتعظيماً، هو هذا التكامل الرائع الذي تجلَّى لي في حياته الإسلامية.

ولقد أخذت ـ من بعد هذا اللقاء الأول معه ـ لا أتأمل من ترجمته وشؤون حياته إلا هذه الظاهرة وحدها، وكان كلما امتدت بي الأيام، وازددت معرفة بالشيخ وأحواله، ازدادت هذه الظاهرة لديَّ تألقاً ووضوحاً.

تأمَّل في حياته وأعماله العلمية، فتجده يذهب مذهباً يوليه كل اهتمامه وفكره، حتى ليخيَّل إليك أن الرجل قد تجاوز به الأمر إلى حد الإفراط والقسوة، وأنه إنما يعيش حياة عقلانية جافة مجردة. ولكنك تنظر بعد ذلك، فتراه ـ مع هذا كله ـ مُستغرقاً في حالة من العبادة والتبتُّل وتقوى النفس، متحلياً بأسمى حقائق التصوف الإسلامي الصحيح، يتمثل في سلوكه الدائم قول الله عزَّ وجل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، حتى ليكاد يُخيَّل إليك أن الشيخ إنما ينظر إلى الإسلام من خلال زاوية أوراد ورياضات صوفية مجردة. ولكنك تتأمل، فتجده إلى جانب ذلك ثائراً على كل بدعة، منكراً لكل تزيُّد، مُحذِّراً من كل انحراف، مهتاجاً في وجه كل منكر ولو جاء مغلفاً بما يسمى بالحقائق أو الشطحات. ونظن أخيراً أن هذا هو كل ما عند الشيخ من مسلك وبحث وفهم. ولكنك تنظر وإذا به يصبُّ هذه القيم العلمية والسلوكية كلها في طريق من الدعوة الإسلامية المركزة،

يؤمن بتنظيم الفكر والمنهج والسلوك، ولا يرى عند الكلمات الجوفاء وصيغ الوعظ والإرشاد المجرّدة أي جدوى لتحقيق أي حق.

الشباب الواعي مادة العمل الإسلامي:

يعتقد أن الشباب الواعي هو مادة العمل الإسلامي، وسرُّ بقائه ونموه، ولذلك فهو يخلط حياته بمشاعرهم، ويقيم دعوته على جانب كبير من إيمانهم وجهودهم.

وهيهات أن تراه ذات يوم وقد حصر نفسه في زاوية ضيّقة من جوانب الإسلام ليقول لك ـ كما يقول بعضهم ـ: هذا ما حصرت عليه نفسي ولا شأن لي بما وراء ذلك. ولكنه يفهم كما يفهم كل عالم واع أخلص لله في علمه وإسلامه: أن الإسلام جوانب متكاملة إن هدم منه جانب سرت بذلك عوامل التصدُّع والزلزال إلى الجوانب الأخرى، ولذلك فما ينبغي للمسلم ـ إذا كان صادق الإسلام ـ إلا أن يكون قائماً بحق هذه الجوانب كلها، يرعاها بعقله ودمه وحياته، ولعل هذا المعنى هو الذي كان يجعله يُردِّد قوله المعروف: إنني لا أتمنى أن أكون حاكماً، ولكن الذي أتمناه هو أن أكون مستشاراً لحاكم مسلم.

هذا التكامل في العلم والفهم والسلوك الإسلامي، هو الغاية التي إن وصل إليها العالم المسلم في بلده، وقف بذلك في مرتبة ليس بينه وبين النبوة فيها إلا درجة الوحي. وما كان العالم خليفة ووارثاً للنبيّ إلا على هذا المعنى وبهذا القيد والشرط.

وما كان عمل النبي ﷺ مع صحبه، طيلة حياته النبوية التي عاشها، إلا نموذجاً رائداً لهذا التكامل.

بناء صرح الحقيقة الإسلامية:

أرأيت كيف كان يبني بيمين صبره وجهاده صرح الحقيقة الإسلامية شامخاً يملأ حياة المسلمين من كل جانب، يملؤها بالعقيدة الراسخة

الصحيحة حتى لا تبقى فيها ثغرة يدلف إليها أي وهم من الأوهام الباطلة، ويفيض عليها صبغة العبودية لله عزّ وجل حتى لا يبقى فيها منزع ذل أو خضوع لغيره سبحانه وتعالى، ويكسبها الواقع الاجتماعي والسياسي الصحيح حتى لا يتهددها شيء من فوضى السلوك والخلق والحياة، إن هذا البناء المتكامل القائم على هذه الجوانب كلها، هو الإسلام الذي بعث به محمد عليه الصلاة والسلام، ودَعَا إليه في حياته، ثم وكّل إلينا شأن رقابته والحفاظ عليه بعد وفاته.

العالِم المسلم الحق:

ولا يكون المسلم مسلماً حقاً ولا العالم الإسلامي أميناً على ما استأمنه عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام، إلا إذا كان عمله الإسلامي متكاملاً على النحو الذي ذكرنا.

ليس المهم في العالم أن يكون علاّمة فيما يحفظ ويفهم من حقائق الشريعة الإسلامية وأحكامها الاجتهادية المختلفة، فربّ عالم متبحّر لم يكن علمه إلا وبالاً على الإسلام وأهله.

وليس المهم فيه أن يكون مستغرقاً في الزهادة يملأ بياض أيامه وسواد لياليه بالأذكار والعبادة والأوراد، فربّ جماعات من هذا القبيل جرفهم سلوكهم هذا إلى حياة سلبية منطوية مؤلمة حجبتهم عن الإحساس بأي غيرة على الإسلام وشعائره وحكمه، قد يرى أحدهم معاول الهدم والتدمير تدك صرح الحقيقة الإسلامية دكاً، فلا يتحوّل مع ذلك عن سُبحته وخلوته وأوراده! . .

وليس المهم في العالم أيضاً أن يكون مُجرّد داع، وواعظ أو مرشد، يهيج الناس بخطبه المتأجّجة، ويحمّسهم بكلماته الهائلة، ويشيد في أخيلة الناس صرحاً عظيماً من الحكم أو المنهج الإسلامي القويم، فربّ دعاة من هذا القبيل أصبح كل شأنهم هو التعويض عن خسارة المسلمين التي حاقت بهم إذ تركوا إسلامهم، بأوهام تصول وتجول داخل رؤوسهم، وربّ دعاة

من هذا القبيل أسقط في أيديهم وهم في ذروة تهييجهم وتحميسهم للآخرين، عندما قيل لهم: لقد آمنا وصدقنا، فما السبيل؟ وما المنهج؟ وما الحكم؟..

التحذير من رجلين: خامل ومهيِّج:

ولا والله ما ضرَّ بالإسلام وأهله أكثر من رجلين اثنين: خامل يرى النار تلتهم شرعة الله وحكمه فلا يتحوّل عن محرابه إليها بأيّ جهد أو محاولة، ومهيّج مهذار يبيع الناس كلاماً، ويملؤهم وعوداً وحماساً دون أن يتحرك من أرضه أو يحرك الناس إلى سبيل من الفكر والعمل والتدبير.

وأعود مرة أخرى فأقول: إن شعوري بهذه الحقيقة هو الذي جعل اسم الشيخ محمد الحامد ملء قلبي وكياني كله.

أثر الحامد المتكامل:

لقد كانت حياته كلها رداً على معنى التجزؤ والشّتات البارزَيْن ـ مع الأسف ـ في حياة المسلمين اليوم. أجل فقد كانت حياته رداً قوياً صارخاً على معنى ما أسميه بالتوظف والتعصُّب لجهة من جهات العمل الإسلامي مع الإعراض الكلّي عن الجهات الأخرى إن لم نقل: مع الحرب لها.

ومن أجل ذلك استطاع الشيخ محمد الحامد أن يقيم من ورائه هذا الأثر الكلي المتكامل في مدينته الصغيرة الرائعة.

ومن أجل ذلك لا تجد هناك أي ظاهرة مهمة تذكر، لداء التناقض المفرّق للصفوف، على نحو ما قد ترى في مدن وأماكن أخرى.

وعي تلاميذه وتكامل حياتهم وأفكارهم:

ومن أجل ذلك تنظر في مسلك تلاميذه وأخلاقهم وطبيعة وعيهم، فترى صورة هذا التكامل منعكسةً على حياتهم وأفكارهم: يؤمنون بالعلم

وأهله، ويذهبون في تقديره مذهباً يجعلهم يعتقدون أنَّ أيَّ خطوة في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن تكون إلا بهدي من العلم الراسخ الدقيق.

يتميَّزون بالعبادة والورع والتقوى حتى ليخيَّل إليك أنهم مريدون سلكهم شيخهم في طريق من التربية، ولكنهم يتحلَّون مع ذلك بالوعي والتمسُّك بأهداب السنة المطهرة لا يتحوَّلون عنها إلى أي بدعة يعلمون أنها بدعة.

وهم بعد هذا كله شعلة تتَّقد في سبيل مستقيمة من الدعوة إلى الحق وأهله لا يبالون من أجل ذلك بحياة أو نعيم.

وفي يقيني أن هذا التكامل الإسلامي إذا ما توفَّر بهذا الشكل الذي وصفت، فليس من ضَيْر في أن يكون صاحبه غير معصوم عن الخطأ والسهو، كما هو شأن كل إنسان.

ومعنى هذا: أن الشيخ محمد الحامد رحمه الله لم يتبوَّأ هذه المكانة في الصدور، ولم يترك من ورائه هذا الأثر الإسلامي العظيم، من أجل أنه كان معصوماً في كلِّ ما يعرضه من آراء، وما يعالجه من مسائل العلم والبحث . .

ولذلك فلا قيمة بل ولا معنى لمحاولة نقده أو النَّيْل منه من هذا الجانب. وإنما كان ذلك كله من أجل أنه لم ينصرف بعمله الإسلامي إلى زاوية خاصَّة من زواياه يحصر نفسه فيها ويتعصَّب لها ولا يدعو إلا إليها، وإنما صرف حياته إلى جملة العمل الإسلامي كله، فجعل من اتجاهه إلى كل زاوية من زواياه سبيلاً يستعين به على التوجُّه إلى الزاوية الأخرى. ومثل هذا السعي الرائع العظيم لا يضيره عدم العصمة، ولا يؤثِّر فيه إمكان الوقوع في الخطأ. بل ولم تكن سنة الله عزَّ وجل قاضية في يوم من الأيام أن يكون الخطأ في الرأي ـ بعد التمحيص وبذل الجهد ـ سبباً لأيِّ إخفاق أو أصلاً لأيِّ فساد.

* * *

الفراغ الخطير الذي خلّفه الشيخ الحامد:

لقد ارتحل هذا العالم العظيم إلى جوار ربه، بعد أن سار طويلاً في هذا الدرب الذي وصفت، وبعد أن خلف وراءه أثراً عظيماً يتحدث بنفسه عن نفسه.

ولا ريب أن ارتحاله أعقب فراغاً خطيراً في ميدان العمل الإسلامي الصحيح.

وقد لا تكون خطورته من الناحية العلمية وحدها أو من ناحية الوعظ والتوجيه، أو من ناحية الإرشاد، ففي المسلمين عندنا اليوم من يقوم بشأن هذا الجانب أو ذاك..

ولكن الفراغ الخطير الذي خلّفه الشيخ من ورائه، إنما هو حاجة المسلمين إلى ما قد أوضحت وبيّنت.. إلى تكامل العمل الإسلامي، والقيام بأعبائه من كل جانب.

إنَّ هذا التكامل، هو وحده الدواء الذي يحتاجه المسلمون اليوم، وهو وحده السبيل إلى جمع صفوفهم ولمّ شعثهم، وهو وحده المرقاة إلى سالف مجدهم وعزهم.

صورة حماة الحيَّة المشرقة:

وإنَّ في القلب من هذا لغصّة.. ولكن عزاءنا الوحيد وجود بقية صالحة من أهل العلم والفضل لا تزال بلادنا ترفع الرأس فخاراً بهم، وإني لعلى يقين بأنهم يشعرون بالحاجة التي استشعرها، وإن كثيراً منهم ليسير بخطى ثابتة مطمئنة في نفس السبيل.. ومهما كانت ثمة سبل متعرجة ملتوية تزخر بخليط من الشذاذ والأقزام والمنتفعين، فإنَّ الصراط النيِّر المستقيم الذي اختطّه الله عزَّ وجل واضح للأبصار كلها في طبيعته ومنتهاه، وإنه لصراط يلتقي عليه كل ذي وعي سليم وحرية صادقة، وإنهم ليزدادون مع الزمن، وإنه للحق الذي وعد الله به عباده الصادقين.

وأعود الآن إلى الصورة التي أحفظها في نفسي عن مدينة حماة..

إنها صورة ستبقى في نفسي مع الزمن.. وستزداد لديَّ مع الأيام تألّقاً ووضوحاً. صورة لها في نفسي مكان التقدير والإجلال، منذ أن عرفت الشيخ محمد الحامد في منزله المتواضع الصغير.

ولها في نفسي مكان الحب والوداد منذ أن تحرّك القلب إليها وعرفت الكثير من أهلها وذويها.

وسَيَظلُّ القلب على ما هو عليه، وستبقى الصورة حيّةً مشرقة مع الزمن..

وإنَّ في الحَلْق لَغَصّة.. ومن وراء الصّدر نفثات كاوية.. وما كان أسعدني ببثّها وشرحها، لو اتّسعت لذلك هذه الصفحات، ولكن فلتحبس النار في الأعماق، فربما اتّخذت منها قبساً ينير لي الطريق، أو أجد به على النار هُدى، ولكلِّ أجلٍ كتاب.



ضيف الحضارة

محمد الحامد(١)

فضيلة الشيخ محمد الحامد

سعدت مجلة «حضارة الإسلام» بلقاء كريم مع العلامة المجاهد، فضيلة الشيخ محمد الحامد، ووجِّهت إليه بعض الأسئلة. وعلى تعب جسمه، وكثرة شواغله في التأليف، والتدريس، والخطابة، والتوجيه، أجاب ـ حفظه الله وشكر له ـ عن الأسئلة بما عهد عنه من أمانة ووضوح.

ولئن كان الشيخ محمد الحامد، غنياً عن التعريف: إنَّ من الخير والوفاء، أن ننقل لقرائنا طرفاً من حياة رجل، وضعه الله في مكان القدوة والتأسي للعلماء وطلاب العلم، عملاً بما يعلم، وخشية من الله، وزهداً في الدنيا، وبعداً عن حطام المناصب، وزخرف الظهور. اللهمّ علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً.

التحرير

قال الأستاذ الحامد:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه.

أجوبة لأسئلة توجَّهت بها إليَّ مجلة حضارة الإسلام:

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الخامس، السنة السادسة: (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م).

دراستي وتكويني العلمي:

س١ - سئلت عن دراستي وتكويني العلمي؟

ج١ - نشأت فقيراً يتيم الأبوين فكان المفروض في مثلي أن يتجه إلى عمل يعود عليه بما يقوم بأوده، لكن همّة المرحوم أخي الشاعر المشهور بدر الدين الحامد أبت عليه إلا أن يوجّهني في طريق العلم والمعرفة على ما كان يعاني من فقر شديد وحاجة ملحة.

وبعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائي التحقت بالمسلك الشرعي فانتسبت إلى دار العلوم الشرعية في حماه.

المدرسة الخسروية الشرعية بحلب:

وبعد تخرجي منها رحلت إلى حلب فانتسبت فيها إلى المدرسة الخسروية الشرعية وإنها لأرقى من مدرسة حماه الشرعية، وفيها علماء أجلاء فطاحل محققون تشد الرحال إليهم ويؤخذ العلم عنهم ويؤتسى بهم في الدين والخلق.

الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا:

منهم الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا الفقيه الجليل الذي لم أجلس إلى أفقه منه حتى المشايخ الذين تلقيت عنهم في مصر من بعد، بلّل الله ثراه وأغدق عليه شآبيب رحمته، كان يتفجر علماً ويتفتح تحقيقاً ويجري معرفة كالوادي إذا سال، ولكأن الفقه كان أمامه يأخذ منه ما يشاء ويترك ما يشاء، وأشهد أنه كان وقّافاً عند حدود الله في بياناته العلمية، فإن عرض له إشكال طلب إلينا أن نكتبه له ثم يضعه في ثنايا عمامته، ويأتينا في الغد بالقول الفصل، وكان يقول: **العلم أمانة**. وهذا الأستاذ الكبير أحد الذين تأثرت بهم من الناحية العلمية.

هذا إلى تأديب لنا منه معشر طلابه وأخذه إيّانا باحترام الأئمة والعلماء حتى من غير الحنفية، ولا أزال أذكر قوله في حلقة الدرس: إني أتصور الإمام الشافعي رحمه الله تعالى جبلاً من علم.

وقد كان رحمه الله تعالى ذا هيبة عظيمة وشيخوخة نيّرة، ولكنك إذا

خالطته لمست فيه نفساً طيبة متواضعة يمزج تقريراته العلمية بمزج لطيف ومداعبات حلوة، ولم يكن من أهل الشطح والكبر الذين ينكرون فضل الفضلاء السابقين، بل كان يتهم نفسه ويقول: لقد استرحنا من حيث تعب الكرام. مع أنه كان في تلقيه عن والده الجليل الأستاذ الشيخ محمد الزرقا رحمه الله تعالى، تمرُّ به سنون لا ينام الليل، ويطالع نحواً من عشرين كتاباً علمياً فقهياً على الكتاب الذي كان يتلقاه عن والده، وكان يرجع إلى الكتب التي نقل عنها المحقق الشيخ ابن عابدين في حاشيته الشهيرة التي سماها (رد المحتار) ـ كان يرجع إليها فيجده واهماً في بعض النقول. أخبرنا بهذا عن نفسه.

شيوخي في المدرسة الخسروية:

وهناك غيره في المدرسة أفذاذ فضلاء، **كالشيخ أحمد الكردي مفتي الحنفية في حلب، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ إبراهيم السلقيني العالم العامل والتقي الورع، والشيخ محمد الناشد، والشيخ راغب الطباخ، والشيخ أحمد الشماع، والشيخ عبدالمعطي الواسع المعرفة في فقه المواريث، والشيخ فيض الله الأيوبي الكردي المحقق العظيم في علمي التوحيد والمنطق، والشيخ محمد أسعد العبجي مفتي الشافعية حالياً في حلب، وهو والشيخ عبدالله حماد الباقيان في قيد الحياة من مشايخي، جزاهم الله خير الجزاء وبارك عليهم أحياء وأمواتاً.**

وبعد أن أنهيت الدراسة في حلب عدت إلى بلدتي حماة، ولزمت فيها الدراسة العلمية مع زملاء لي، وكنت أحضر دروس بعض المشايخ الفقهاء فيها.

الالتحاق بالجامع الأزهر:

ثم التحقت بكلية الشريعة إحدى كليات الجامع الأزهر الشريف، ونلت منها الشهادة العالية، ثم انتسبت إلى قسم التخصص بالقضاء الشرعي منها. وبعد تمام الدراسة نلت شهادة العالمية مع الإجازة في القضاء، ولكن لم أشأ أن أكون قاضياً، وقد كان القضاء ميسوراً لي لو أردته لأني رأيت البقاء في العمل العلمي أروح لروحي وأنفع للأمة فاخترت التدريس في وزارة التربية والتعليم على ما فيه من مشقة ملحوظة.

الدروس الخاصة والعامة:

وإني مع هذا دائب إلى الآن على التدريس الخاص لطلبة العلم الديني صباحاً، وفي المساء ألقي درساً عاماً في الناس كل ليلة إلا ليلة الجمعة، كما إني ألقي خطبة الجمعة.

إيثار العلم على لذائذ الدنيا:

وإني أحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره إيّاي للتوسُّع العلمي، ووضعه الشغف به في قلبي حتى إني لأوثر العلم على اللذائذ المادية التي يقتتل الناس عليها، ولو أني خُيِّرت بين الملك والعلم لاخترت العلم على الملك والسلطان، وذا من فضل الله عليَّ وعلى الناس.

ولم أكن فيما مضى من أيام دراستي مقتصراً على كتب المناهج الرسمية، كلا، بل إني كنت أطالع عديد الكتب من قديم المصنَّفات وجديدها ولن يَنْسلس العلم قيادة لطالبه إلا بنحو هذا لأن المناهج الرسمية تعنى بتكوين الشخصية العلمية، أما ملء الذهن بالمعلومات فطريقة المطالعة الواسعة يحدوها الشوق ويقودها الشغف.

احترام خلاف الأئمة في الفروع الفقهية:

وهنا أحب أن يعرف الناس عني أني غير شديد التعصُّب لفقه الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وإن كنت متمذهباً بمذهبه، وقد يصفني بعض الناس بهذا جهلاً منهم بحقيقتي التي يعرفني بها المستمعون إلى بياناتي. إني أحترم خلاف الأئمة في الفروع الفقهية العملية وأقدسهم كلهم أجمعين، وقد ورثت هذا عن شيوخي رحمهم الله تعالى ـ لكنني أشتد في الاعتقاد فلا أسمح ببدعة تداخل القلب وتواكب السلوك فمذهب أهل الحق هو الذي ارتضيته وأدعو إليه، وهو الذي يطلبنا الإسلام بإصابته عيناً فمن تزحزح عنه فقد ضل، وهذا الضلال متفاوت النسبة قُرباً من الحق وبُعداً عنه، وما لم يأخذ طالب النجاة من عذاب الله نفسه بهذا فليس من الفرقة الناجية المفلحة.

الشخصيات التي تأثرت بها في العصر الحاضر:

س٢ ـ سُئلت عن الشخصيات التي تأثرت بها ولها في نفسي مكان الصدارة في العصر الحاضر؟

ـ محمد سعيد الجابي وتوفيق الصباغ:

ج٢ ـ تأثرت بكثير من أساتذتي وشيوخي الذين لهم الفضل الكبير علي كفضيلة خالي الكريم الأستاذ الشيخ محمد سعيد الجابي المدرس العام في حماه رحمه الله تعالى فهو الذي دفعني في سبيل العلم الديني وأمرني بحفظ القرآن الكريم وأقرأني مبادئ العلوم الدينية.

ومنهم فضيلة أستاذي الفقيه الجليل شيخ الشافعية في حماه ورئيس جمعية العلماء فيها الشيخ محمد توفيق الصباغ أدام الله توفيقه وجزاه عني وعن زملائي طلابه خيراً. كان مديراً لدار العلوم الشرعية، وكان يبذل جهداً كبيراً في تثقيفنا وتعليمنا، ويحنو علينا حُنوَّ الوالد الرحيم على صغاره. أسأل الله له طول البقاء في توفيق وصلاح.

ـ محمد سعيد النعساني:

ومنهم سماحة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سعيد النعساني مفتي حماه ذو الباع الطويل في العلوم والمعارف، فقد كان له مع فضل التعليم فضل رفع الهمة إلى معالي الأمور والترفع عن سفسافها وما يزال أسعده الله في قيد الحياة، وقد جاوز المائة من العمر، ونزل به مرض الشيخوخة ولزمته العلة. أسأل الله له العافية.

ـ أحمد المراد:

ومنهم فضيلة عمي والد زوجتي الأستاذ الفقيه الحنفي الحُجَّة العالم العامل، التقي الورع، الزاهد في الدنيا، شمس علماء حماه وبدر شيوخها الشيخ أحمد المراد رحمه الله وبارك عليه، إنه من شيوخي الذين لهم عليَّ فضل التربية والتعليم، وقد أكرمني الله فجعلني صهراً له على ابنته، وقد كان

هذا قبل أن يكون لي مورد رسمي ومنزل آوي إليه، ولكنه التوكل على الله سبحانه والإيمان به والوثوق بما عنده.

كانت الفتوى في حماه وقراها تدور عليه وترجع إليه فقد كان أمين الإفتاء ولم تصدر عنه فتوى غير صحيحة، وقد قال فيه سماحة العلامة الجليل مفتي الشام الأستاذ الشيخ محمد شكري الأسطواني رحمه الله تعالى - قال فيه: عنه تؤخذ الفتوى.

العارف بالله محمد أبو النصر الحمصي النقشبندي:

والذي له في نفسي مكان الصَّدارة الأولى على الإطلاق والعموم، وله فيها بالغ التأثير العميق والشديد معاً هو فضيلة سيدي العالم العامل، والمرشد الكامل، مربي المريدين، ومرشد السالكين، **العارف بالله تعالى الشيخ محمد أبو النصر الحمصي النقشبندي** قدس سره. الذي أخذت عنه طريق السادة النقشبندية العلية.

إنه الذي أخرجني الله تعالى به من ظلمات الغفلة والقسوة والشرود إلى نور الذكر والرقة والوقوف بباب الله سبحانه في ذلة وضراعة لهذا الرب الكريم، إنه الذي ملأني بتوجيهات قلبه الشريف، وكم طهرت فيوضاته من أسرار، وأزاحت من أكدار، وأعلت من همم، وأنجت من نقم. كم أنقذ من غرقى في بحار الطغيان، وكم جلا عن القلوب من ران العصيان. وكم أبكى من عيون الناس عيوناً، وكم ألقى في ضمائرهم سراً مكنوناً.

كان من الصِّدِّيقين الراسخين الذين لهم قوة إشعال جذوة الحال في مريديه على القرب والبعد وقد سمعته يقول: القرب والبعد عندنا واحد. من لم ينفعك بعده لم ينفعك قربه.

وكراماته التي أكرمه الله بها من خوارق العادات كثيرة جداً جداً، وإن من نيتي جمعها في كتاب إن شاء الله تعالى وفاءً بحقه وقياماً ببعض واجبه علي، ولئن كان مني نفع للأمة فهو في صحيفة شيخي مسجل إذ قد انتابتني نائبة روحية أيام دراستي في مصر كادت تشل فكري عن العمل وترميني

بكارثة التعطل العقلي فكتبت إليه بما عناني، فرأيت فيما يرى النائم أنه مد يده الكريمة إلى قلبي وحركه بأصابعه الشريفة فاستيقظت وقد أبرأني الله من العلة بعد أن حار إخواني المصريون في أمري. ولولا أن الله سبحانه أغاثني بسيدي لكنت من نزلاء المشافي من الأمراض العقلية، فإن كان خير مني الآن للمسلمين فله من ثوابه قسط عظيم وحظ وافر.

توفاه الله تعالى إليه في سحر ليلة الجمعة خامسة ليالي رمضان المبارك سنة ١٣٦٨هـ وقد انكشف بعد سنة مرّت على وفاته حجر من فوقه في عملية حفر ففاحَتْ رائحة زكية من قبره الشريف، ورؤي الشيخ قدس سره بحاله التي دفن عليها لم يتغيَّر ولم ينتن. رحمه الله وبارك عليه وأعاد علي وعلى المسلمين من بركاته آمين. إني دائب على زيارته، ودائم على عهده أحفظه في ذريته، وأرعاه في أهل خرقته، وإن زيارته تملأ النفس حالاً صحيحة وبركة واضحة.

ـ الشيخ عيسى البيانوني:

وممَّن تأثرت بهم ونالتني بركاتهم: سيدي الأستاذ العالم العامل الشيخ عيسى البيانوني الحلبي من خلفاء سيدي الشيخ محمد أبو النصر رحمهما الله تعالى. كان رحمه الله تعالى مدرساً لنا في المدرسة الخسروية الشرعية لعلم التصوف والأخلاق، وكان نفعه يَسْري إلى قلوبنا قالاً وحالاً فتطهر ضمائرنا في درسه وتصفو أرواحنا، وكان يضرب المثل الأعلى في التواضع النفسي والانمحاق الذاتي وتحمل الأذى. وكان من الأدب مع سيدنا قدس الله سره بالمنزلة التي ما كنا نستطيع مداناتها فضلاً عن منازلتها، هذا مع كونه أسن من شيخنا ـ قدس الله سرّه ـ السنوات، وله القدم العالي في الطريقة الرفاعية وغيرها، لكن الله سبحانه كشف له عن سرّ الشيخ قُدِّس سره فرضي بمتابعته وتتلمذ له وأخذ عنه وازداد بهذا فضلاً إلى فضله ونوراً إلى نوره.

وكان صادق الحب لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد تراءى له في المنام مرات كثيرة جداً، وقد أخذ عليه الشغف به عليه وآله الصلاة والسلام مأخذه فسأل الله أن يموت في المدينة المنورة فأجاب الله

دعاءه، فقبضه فيها بعد الحج ودفن في البقيع تحت أقدام سيدنا إبراهيم ابن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى على أبيه وعليه وعلى القرابة والصحابة. وهذي منقبة عظيمة لسيدي الشيخ عيسى قدس سره.

- الشيخ إبراهيم الغلاييني:

وممَّن تأثرت بهم ولهم مكان عال في نفسي: سيدي الأستاذ الشيخ إبراهيم الغلاييني النقشبندي قُدِّس سره. كانت بيننا صلة روحية، وإنه لمن أرباب القلوب وأهل المعرفة بالله سبحانه إلى كونه فقيهاً جليلاً يفتي في الحوادث إذ كان مفتياً لمدينة قطنا.

كان رحمه الله يتردَّد إلى حماه في بعض الأحيان وآخر مرة قدم إليها أكرمني الله بنزوله منزلي وحلوله ضيفاً كريماً عليَّ. لكن العلة كانت قد بلغت به منتهاها أو كادت فلم تطل حياته بعد سفره إلى دمشق؛ إذ توفاه الله فيها مبكياً مأسوفاً على علمه وعرفانه وهمته العلية.

إني أحبه كثيراً لعلمه وحلمه وإيقاظه إياي مرة من سنة غفلة ولدتها الحدة الدينية والإنكار على من يمالئ الباطل من علماء العصر، فكان مني غضب شديد وزمجرة، وكان ذا في مجلس ضمَّ عدداً من العلماء في دمشق، وما كان لي أن أزمجر هذه الزمجرة ولا أن أشتد في غضبي، بل كان الدعاء لهم بالصلاح والتوفيق خيراً وأبقى، لكني كنت وقتئذ في مرام الشباب وميعته.

فما كان منه قُدِّس سره إلا أن تناولني من قلبي من حيث لا أشعر فألقى الله عليَّ ندامة كادت تحرقني بنارها ثم لم يتركني رحمه الله أذهب وحدي بعد انفضاض المجلس فسرت معه وركبنا الترام، إلى حيث دعانا إنسان يعرفنا إلى المبيت عنده، وكانت الندامة تشتد معي حتى بلغت أوْجها، فقال عندئذ: (ليس إلى هذا الحد يا مولانا)، فهدأت نفسي واستقرت، وكان لها سكون وراحة. رحمه الله تعالى وقُدِّس سره.

الإمام الشهيد حسن البنا:

والذي أثر في نفسي تأثيراً من نوع خاص وله يد في تكويني الشخصي سيدي وأخي في الله وأستاذي الإمام الشهيد الأستاذ حسن البنا رحمه الله وأغدق عليه غيوث الإحسان والكرم.

صحبته في مصر سنين، وحديثي عليه لو بسطته لكان طويل الذيل ولكانت كلماته قطعاً من قلبي، وأفلاذاً من كبدي، وحرقاً من حرارة روحي، ودموعاً منهلة منسجمة تشكل سيلاً من فاجع الألم وعظيم اللوعة.

ولكنني أكتفي بالإيجاز من الأطناب، وبالاختصار من التطويل، وقد بكيته كثيراً بعد استشهاده على نأي الدار وشطّ المزار، ولا أزال أذكره حتى ألقاه في زمرة الصالحين الأبرار إن شاء الله تعالى وتبارك.

لي كلمةٌ فيه رحمه الله تعالى، نشرتها مجلة الشهاب، وهي ـ لو استعيدت ـ تبعث الألم وتثير العاطفة في نفسي بما لا أتمالك معه البكاء بالدموع الحرّى السخينة.

إنه أخي قبل أخوتي في النسب، ولما وافاني نبأ اغتياله قلت: إن موت ولديَّ، ولم يكن لي غيرهما حينئذ، أهون عليَّ من وفاة الأستاذ المرشد.

وكنت رأيت فيما يرى النائم ليلة قتل ولا علم عندي بالذي حصل ـ رأيت أننا في معركة مع اليهود، وقد بدأ التقهقر في جندنا حتى أني لأمشي منحنياً لئلا يصيبني رصاصهم، فاستيقظت واستعذت بالله من شرّ هذه الرؤيا. وفي النهار ألقى إلي بعض الناس الخبر، فكان وقعه أشد من شديد، وكان تأويل رؤياي.

إني أقولها كلمة حرة ولا بأس بروايتها عني ـ أقول: إنَّ المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين في مجموع الصفات التي تحلّى بها وخفقت أعلامها على رأسه الشريف.

لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبرين، وحنكة السائسين ـ لا أنكر هذا كله عليهم من سابقين ولاحقين، لكن هذا التجمُّع لهذه المتفرقات

من الكمالات قلما ظفر به أحد كالإمام الشهيد رحمه الله تعالى.

لقد عرفه الناس وآمنوا بصدقه، وكنت واحداً من هؤلاء العارفين به، والذي أقوله فيه قولاً جامعاً، هو أنه كان لله بكليته بروحه وجسده، بقالبه وقلبه، بتصرفاته وتقلبه، كان لله فكان الله له، واجتباه وجعله من سادات الشهداء الأبرار.

حدثني عالم في مصر كانت له به صلة قال لي: إنَّ الإلحاد امتد إلى مصر، وانتشر فيها وغمر كثيراً من أوساطها ولم يستطع الأزهر الشريف ولا الجمعيات الدينية أن ترد سَيْله الجارف الهادم حتى جاء حسن البنا فدرأ خطره وأنجى من شره.

قال هذا العالم هذا القول، وكنت أرى بعيني توفيق الله لأصحابه، وقد كانوا من قبل في ظلمات فأخرجهم منها إلى نور.

إنَّ سيدي وأخي الإمام الشهيد ذو وفاء في حياته وبعد وفاته، فقد تراءى لي في المنام كثيراً في مدى سنين، وما أشوقني إلى الوقوف على قبره الشريف أناجيه عن قرب كما كنت أناجيه في الحياة.

وهنا أمسك بعنان القلم عن الجري في ميدان القول، فإن الحديث عن حبيبي طويل ممطول، وقد خسرناه فما أفدح خسارتنا به نحن معشر المسلمين وإنا لله وإنا إليه راجعون. اللهمّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده، وألحقنا به شهداء صالحين. آمين.

وقد رأيت فيما يُرى رؤيا أني جالس معه في جملة من أصحابنا على مائدة فيها أطباق خبز وأطباق رَيْحان يؤكل لكنه ريحان من النوع الممتاز. فاستيقظت وذكرت قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾.

أبرز الأمور التي لها أثر في حياتي:

س٣ ـ سئلت عن أبرز الأمور التي كان لها كبير الأثر في حياتي؟

ج٣ ـ أبرزها على العموم وقوفي موقف المضاد للإلحاد الذي فَشَا في

الجيل الصاعد، وعملي على رد هؤلاء الشاردين عن الحقيقة إليها رحمةً بهم واستخلاصاً لهم من مهاوي الشقاء.

أما الثابتون منهم على الإسلام فما أزال دائباً في تغذيتهم بالعلم الواقي والمعرفة الدارئة كي تقوى فيهم ملكة المناعة الإيمانية فلا يجد الزيغ سبيلاً إلى قلوبهم ليفسدها.

وعندي أن تجلية محاسن الإسلام بعرضه عرضاً جميلاً، كافية لرد الشاردين وتثبيت المؤمنين: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

المواقف التي وقفتها في الذود عن حياض الإيمان أكثرت أوليائي وأعدائي جميعاً، فأنا أعيش في قلوب مُحبِّباً إليها، كما أن قلوباً أخرى تبغضني، لأني كالحسكة في حلوق أصحابها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

عملي وإنتاجي العلمي:

س٤ ـ سُئلت عن طبيعة عملي، وعن إنتاجي العلمي ما صدر من مؤلفاتي وما هو في طريق الصدور؟

ج٤ ـ عملي هو أني أدرس الديانة الإسلامية في ثانوية ابن رشد في حماه، وألقي درساً عاماً في المسجد كل ليلة بعد الغروب إلا ليلة الجمعة، وقد وزعت المواضيع العلمية على الليالي فليلتان لتفسير القرآن الكريم، وليلة لفقه العبادات، وليلة لفقه المعاملات، وليلتان للحديث الشريف.

ولي درس خاص في غرفتي بالمسجد بعد الشروق من كل يوم إلا يوم الجمعة. فإني أنصرف فيه إلى التفكير في الخطبة التي أنا مطالب بها.

ومن عملي: الإجابة الخطية على أسئلة تردُ عليَّ من غير حماه، بل منها أحياناً وإن كان الغالب على الحمويين أن يسألوني شفاهاً.

ومن عملي المتعب: كتابة ردود على ما ينشر من أباطيل وأخطاء أبعث بها إلى الصحيفة أو المجلة التي نشرت الخطأ.

أما إنتاجي العلمي فالمطبوع منه هو ما يلي:

١ ـ نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام.

٢ - حكم الإسلام في الغناء.
٣ - رحمة الإسلام للنساء.
٤ - آدم لم يؤمر باطناً بالأكل من الشجرة.
٥ - القول في المسكرات وتحريمها من الناحية الفقهية.
٦ - حكم اللحية في الإسلام.
٧ - التدارك المعتبر، لبعض ما في كتاب القضاء والقدر.
٨ - بدعة زيادة التنويرات في المساجد ليالي رمضان وغيرها.
٩ - ردود على أباطيل.

وهو كتاب ضخم اخترت منه ما يمكن طبعه الآن كجزء أول منه، وهو مجموعة رسائل ومقالات بعضها طويل وبعضها متوسط، ومجموعة أسئلة فقهية وأجوبتها، وسأقدمه للطبع قريباً إن شاء الله تعالى.

١٠ - كتاب في تحريم نكاح المتعة في الإسلام.

وقد أنجزته ثم وجدته في حاجة إلى توسعة، وسأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، ثم أنشره في الناس.

تنشئة الجيل المسلم:

س٥ - سُئلت عن تنشئة الجيل المسلم وكيف يجب أن تكون؟

ج٥ - ليس هناك إلا تقوية اليقين بالإسلام بالبرهنة على صدق الرسول سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام. ومتى تم هذا للفتى آمن بكل ما جاء عنه بلا توقف، وسيّان لديه عندئذ ظهور الحكمة في المشروعات وخفاؤها.

وهذا لا يمنع من بيان أسرار التشريع وحكمته ليزداد إيماناً إلى إيمانه، لكن على الأول المعوّل، وهو الطريق السديد إلى القلوب فبه تستكين مؤمنة مسلمة منقادة مذعنة.

وإن صحبة الأخيار من العلماء العاملين أصلٌ أصيلٌ في سريان الحال الصالحة إلى مُصَاحبهم فمن جالس جانس. والقرآن الكريم ينادي بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

وحسن جداً إفهام الطلاب أن القرآن الكريم لا يتبدّل، والنظريات في تبدُّل مستمر، فليكن منا أدب ديني يمنعنا من العبث به من أجلها بتحميله من التأويلات ما لا يحمل، وقد زلت أقدام، وزلقت إلى أعماق الضلال بهذه المحاولات البائرة.

طريقة إبلاغ الجمهور حقائق الإسلام:

س٦ ـ سُئلت عن رأيي في طريقة إبلاغ الجمهور حقائق الإسلام وأحكام الشريعة؟

ج٦ ـ رأيي أن المنابر الدينية والدروس العامة والخاصة تكفي لهذا الإبلاغ على أتم وجه إذا كان الخطباء والمدرسون ممتلئين علماً ومعرفة وإخلاصاً لله سبحانه، وعملاً بما إليه يدعون. إنَّ هؤلاء هم قوّاد القلوب وحادوها وسائقوها، وهم الأيدي المصلحة للفساد، والمقومة للعوج.

يضاف إلى هذا نشر العلم عن طريق الكتابة بلغة قريبة من الأفهام غير مستعصية عليها بدقة التركيب ووعورة التعبير ليسلك سبيله إلى الأذهان ولا يبقى مخبوءاً في بطون الكتب لا يطّلع عليه إلا أخص الخاصة من المحصلين.

ولا بأس بالمجلات العلمية الدينية شريطة إشراف علماء أجلاء عليها لئلا يطيش السهم بشباب الكاتبين فيخبطوا ويخلطوا ويسيئوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وإن الواجب على علماء الدين ملاحظة شباب المسلمين في هذه الفتنة الزاخرة وقايةً لهم من الزيغ والانحراف. كما أن الواجب على هؤلاء الاتصال بالعلماء والأخذ عنهم توقياً من الضلال المردي في المهالك.

التربية في البيت:

س٧ ـ سُئلت عن رأيي في تحقيق التربية في البيت، وكيف يمكن أن تكون؟

ج٧ ـ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وفي الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع

ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته» إلى آخر الحديث الشريف.

فليقم الرجل بواجبه في التربية ولتقم المرأة بواجبها أيضاً، وليأخذوا الذريّة بالطهارة النفسية والتزكية الروحية والأدب الجم والتوجيه الصحيح إذا كان ذلك كذلك كان البيت إسلامياً سليماً.

الصلاةَ الصلاةَ، وسوقهم إلى المساجد ليشهدوا الخير ودعوة المؤمنين وليستمعوا إلى القرآن الكريم والعلم، وقد أدركنا الناس على هذا قبل أن ينتشر الفساد هذا الانتشار المخيف.

سبل الخلاص:

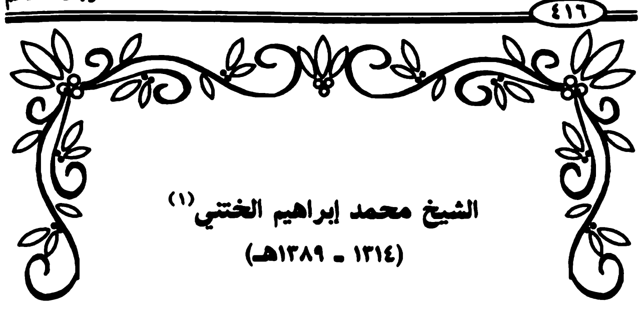
س٨ ـ سئلت عن الطريق للخلاص من واقع المسلمين في انحرافهم عن الإسلام الذي أنتج ما نرى من فرقة الكلمة واختلاف الاتجاهات؟

ج٨ ـ الطريق هو الرجوع إلى الإسلام الأول العتيق فعلاً وقولاً كالذي نرى فقد كثرت الأقوال وقلّت الأفعال وعظمت الفتنة التي تحدث عنها الحديث الشريف بأنها «تدع الحليم حيران» كنتيجة لفسق الشبان وطغيان النساء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورؤية المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

الإسلام العتيق الأول يأبى علينا هذا كله وخصوصاً تحريف الحقائق الدينية وتكييفها بما يروق للقلوب المريضة والعقول الزائفة، تكييفاً تأباه النصوص إذا أخذت بفهم صحيح من سبيل سليم، والله تعالى قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. متى نخلص من هذا السوء الذي قَلَبَ معالم الحق فعبث بالنصوص والأحكام باسم الإسلام.

القرآن الكريم حُجّة الله على العالمين، وما يزال محفوظاً مقروءاً وفيه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

صحّحوا الأفهام، وعُودوا أدراجكم إلى السلام بالإسلام. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.



الشيخ محمد إبراهيم الختني(١)
(١٣١٤ ـ ١٣٨٩هـ)

تقديم بقلم الدكتور محمد أديب الصالح

كان ذلك من أربعة أعوام، يوم أسعدني الله بالحج وزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإلى جانب ما لمست في الشيخ الختني رحمه الله من العلم والفضل والتقوى، أكرمني ـ أجزل الله مثوبته ـ بما رضيَ من مُصاحبتي له عند زيارة البقيع ـ رحم الله من في البقيع ـ وكانت جولة غنية بالمعرفة، غامرة بالضياء، مُشرقة بكلِّ ما فيه غذاء القلب، حيث كان حديثه حديث التقوى، وكلامه ـ مع المعرفة ـ غاية الأدب مع أهل البقيع، وحيث لا يلبث يُعطي من نفسه وقلبه لضيفه ومن يتحدث إليه، ولوددت ـ يعلم الله ـ أن تلك الفترة من حياتي لم تنقطع.

ثم انصرفنا، وكأنَّ الزمان قد انطوت حدوده، وذهبنا إلى دار الشيخ رحمه الله، وخرجت من عنده بعد لقيمات تحسبها من طعام الجنة. ومن بعدُ ودعته ظهراً في المسجد العظيم، أحمل في نفسي أثراً أرجو أن يظلَّ معي ما حييت.

ثم كانت الصلة بيننا من طريق المجلة، وحين بلغني نبأ الوفاة برسالة حزينة رزينة من نجله الكريم، تأثرت ـ عَلِمَ الله ـ شديد التأثر، وتذكُرت الكثير الكثير.

رحم الله الفقيد وعوّض أهله والمسلمين خير العوض، وشكر الله للأخ كاتب المقال، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

(١) حضارة الإسلام، العددان (٥ و٦)، السنة العاشرة: (١٣٨٩ ـ ١٩٦٩).

الفقيه الصالح الشيخ محمد إبراهيم الخُتَني
(١٣١٤ - ١٣٨٩هـ)
رحمه الله تعالى[١]

بقلم الأستاذ الشيخ وهبي سليمان غاوجي الألباني

كُنتَ تراه رجلاً جليلاً وقوراً، هادىء الطبع، رضيَّ النفس، بخاريَّ السحنة، أميل إلى القصر، ذا لحية أطلقها على السنة النبوية المطهرة، يسير الهُوينىٰ، لا يلتفت في طريقه يَمنةً ولا يَسْرةً، متواضعاً في نفسه ومظهره، كريماً سخياً بما في يده، وإذا وقفت له في الطريق وقف لك وهشَّ في وجهك، وأخذ يسأل عن الصحة والأهل والعمل حتى يطمئن، وإذا سألته مسألة وجدته المعلم الأديب، والفقيه الصبور حتى تفهم ما سألت عنه، ما تسأله في مجالسه عن كتاب إلا أعطاك منه علماً، وعن مؤلفه خبراً، كان في التراجم والتاريخ آية من الآيات.

ذلك الرجل الجليل هو فضيلة الشيخ محمد إبراهيم بن سعد الله الفضلي الخُتَني المدني الحنفي رحمه الله تعالى، وأعلى في العليين درجته. توفاه الله تعالى بعد ظهر الأربعاء ٦ رجب الفرد/١٣٨٩هـ، دون أن يأخذ منه سمعاً ولا بصراً، ولا فكراً ولا وعياً، إلاّ ما كان من صوته الذي ضَعُف

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الخامس والسادس، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

جداً قبل وفاته بأيام قليلة، رحمه الله تعالى.

لقد شُغل الفقيد رحمه الله تعالى حياته بالعلم تدريساً وإفتاءً، تعريفاً بالكتب العلمية، وترتيباً لها، في مكتبات المدينة المنورة مثل المحمودية والمكتبة العامة، وكان هو الذي عاقه ـ كما ذكر لي رحمه الله تعالى في إحدى جلساتي إليه ـ عن الإكثار من التأليف ونشر المقالات، ومع ذلك فقد بكّر في التأليف فألّف وهو دون العشرين من عمره رسائل باللغة العربية.

وكلما طال عمره وزاد فضله وعلمه كثرت أشغاله، فهو مرجع الناس في فقه الحنفية خاصّة وغير الفقه من العلوم، وهو يدرس كل يوم أكثر من درس، وقد كان هذا شأنه إلى قبيل مرضه الأخير الذي شغله عن كل شيء سوى ربه.

لقد طلب أحد أحبابه منه أن يترجم لنفسه في أعقاب رسالة ألّفها في تراجم بعض العلماء ففعل ذلك، وقد أعطانيها ولده الأستاذ محمد يحيى لأنظر فيها، وأنا هنا أنقل منها ما يُعرّف به القرّاء الكرام.

اسمه وولادته:

قال رحمه الله تعالى: «أنا محمد إبراهيم بن مُلاّ سعدالله بن ملاّ عبدالرحيم بن عبدالعليم الفَضْلي الختني، ولدت في أواخر ١٣١٤هـ[1]، وكنّاني شيخي ثابت النمنكاني بأبي الفضل.

قرأت على والدي وعلى تلاميذه بعده، مثل ملاّ محمد روزي الأنديجاني، ومحمد نياز، وابن عمتي الشيخ شورف الذي كان يخصُّني بعنايةٍ فائقةٍ ويُدرِّبني على طرق كتابة الإفتاء، وأنا بعد تلميذ».

مؤلفاته:

قال: «وحين كنت بختن ألّفت بعض الرسائل مثل: تنقيح النحو، والفوائد، ومجموعة الفتاوى باللغة العربية، ورسالة الإعلالات الياركندية على الرسالة المعزية في الصرف باللغة الفارسية، وضرورة الحجاج في المناسك،

(١) ولد في بلدة «قرة قاش» من أعمال «ختن» بتركستان الشرقية.

وترجمة خلاصة الكيداني، والتماس الملتمسين في مسائل الجمعة والعيدين والجنازة باللغة التركية. وهذه كلها ممّا ألّفتها قبل الهجرة إلى المدينة المنورة وبقيت في ختن.

وفي المدينة المنورة ألّفتُ رسائل أخرى هي الرسالة الفضليّة في ثبوت الطوافين للقارن بالأدلة القطعية، ووفاق الأئمة الأعلام في جواز تفريق مَنْ زُوّجت بغير الكفء من الأنام، وتحفة المستجيزين بأسانيد أعلام المجيزين (لم يتم) باللغة العربية، قيّض الله لها مَنْ ينشرها لينتشر فضلها في الناس، وفتح الرؤوف ذي المنن في تراجم علماء ختن.

سفره إلى بخارى في طلب العلم:

في ذي القعدة ١٣٣١هـ، سافر إلى بخارى في طلب العلم، وأقام ثمانية أشهر ـ في طريقه ـ بكاشغر، ثم انتقل إلى سمرقند في سنة ١٣٣٢، حتى إذا وصل إلى بخارى أكبّ على العلوم، وجوّد القرآن الكريم، وقرأ الشاطبية والجزرية في القراءات. وأثناء إقامته في بخارى حدثت فتن يشيب لهولها الولدان، ففي سنة ١٣٣٥هـ، ثارَ بعضُ الشبان المتطرفين في بخارى فقضي على ثورتهم، وفي سنة ١٣٣٨هـ، هُوجمت معسكرات بخارى بالأسلحة الحديثة والطائرات، ونُقضت معاهدة الصلح نافذة المفعول، ودامت الحرب أربعة أيام، وبعدها انسحب الأمير ـ عالم خان أمين بخارى ـ إلى جهات حصار شادمان، ثم ذهب إلى كابل حيث مات بها واحتُلت البلاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

قال رحمه الله: «وكانت هذه السنوات الثلاث بكوارثها كأنها ثلاثة قرون كاملة، أو من سنوات القيامة».

وفي بخارى أتمّ حفظ كتاب الله تعالى أيام العطل الدراسية.

مجيئه إلى الحجاز:

وفي سنة ١٣٤٨هـ، خرج من بلاده لأداء فريضة الحج ماراً بطاشقند (الشاش)، وبحر قزوين وباطوم واستنبول حتى السويس، وحين وصلها كان

وقت الحج قد فات، فأقام بالسويس حتى جاءت باخرة أقلّته إلى جُدة التي وصلها في اليوم السادس عشر من ذي الحجة. وأقام في مكة المكرمة والطائف حوالي ستة أشهر، ثم جاء إلى المدينة المنورة وتتلمذ فيها على الشيخ محمد عبدالباقي الأنصاري[1] من أقرباء أبي الحسنات عبدالحي اللكنوي صاحب المؤلفات الكثيرة التي تزيد على مائة ما بين رسالة وكتاب، وفي العام التالي ١٣٤٩هـ أدى فريضة الحج، وعاد إلى المدينة المنورة، وقد عزم على الإقامة فيها.

تدريسه في المدينة المنورة:

في سنة ١٣٥١هـ، عيَّنه الشيخ الأنصاري مدرساً بمدرسته، وحين ألغيت هذه المدرسة سنة ١٣٥٤هـ أصبح مدرساً في مدرسة (تورة قل تركستاني)، ثم في مدرسة العلوم الشرعية.

وفي سنة ١٣٨٢هـ، عُيِّن في وظيفة مُعرِّف للكتب النادرة والمخطوطات، ومترجماً للغات الفارسية والتركية والأوردية في المكتبات الأربع الواقعات حول الحرم النبوي الشريف، بالإضافة إلى تدريسه بالحرم الشريف، ومدرسة الشيخ عبدالقادر الشلبي الحسينية، ومدرسة توره قل، وفي بيته.

قال رحمه الله تعالى: «ولكني لا أزال أعتبر نفسي من طلاب العلم إلى الآن، فأفيد من العلماء الثقات من أهل السنة والجماعة على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم بالقراءة أو المراسلة لذا يزيد عدد أساتذتي على مائة وخمسين أستاذاً».

---

(١) كما لازم علماء كثيرين، منهم الشيخ عبدالقادر الشلبي (ت١٣٦٩هـ)، واستجاز جماعة آخرين من علماء الحرمين، منهم محدث الحرمين الشريفين: عمر حمدان المحرسي (ت١٣٦٨هـ)، والشيخ أحمد الفيض آبادي (ت١٣٥٨هـ) مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة، والمفتي عمر باجنيد، والسيد عيدروس بن سالم البار، وغيرهم.

ثم قال رحمه الله تعالى في آخر ترجمة لنفسه: «فرغت من تسويد هذه الرسالة: «فتح الرؤوف ذي المنن» وفي آخرها ترجمته الشخصية في ضحى يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧هـ، في مدينة الرسول الأعظم ﷺ».

رحم الله شيخنا برحمته الواسعة، وفسح له في قبره، وأعلى في العليين درجته، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً وعوض المسلمين خيراً[1].



(١) توفيَ الختني رحمه الله تعالى يوم الأربعاء السادس من شهر رجب عام ١٣٨٩ في المدينة المنورة، ودفن في بقيع الغرقد. وتنظر دراسة وافية عنه وعن مكتبته، في «مخطوطات مجموعة محمد إبراهيم الختني في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة» للدكتور عبدالرحمٰن المزيني في مجلة «عالم المخطوطات» العدد الأول من المجلد الأول (١٤١٧ ـ ١٩٩٦) ص٢٤ ـ ٤٣. وأفرد ترجمته نجله الأستاذ محمد يحيى المتوفى سنة ١٤٢١هـ في رسالة بعنوان: «الشيخ محمد إبراهيم الختني المدني» في ٦٠ صفحة. وقد ألحقت ترجمة وافية عنه بقلم الأستاذ محمد سعيد دفتردار.

فضيلة العلامة المحقّق الشيخ محمد إبراهيم الفضيلي الختني ثم المدني(١)

بقلم الأستاذ: محمد سعيد دفتردار

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد الشيخ محمد إبراهيم بن ملا سعدالله بن عبدالرحيم الفضيلي عام ١٣١٤هـ في بلدة (قره قاش) من أعمال (ختن) بتركستان، ونشأ في أسرة اشتهرت بالعلم والدين والفضل. وبدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن المجيد على أستاذه وابن عمه (قاري روزي محمد الأندجاني)، ثم قرأ على والده مبادئ العلوم، وعلى ابن عمته الشيخ محمد شريف، وعلى ابن عمه القاضي محمد عيسى وتوسّم فيه ذووه وأقاربه الذكاء والإقبال على الدراسة فخصُّوه بشيء من العناية.

رحلته في طلب العلم:

ولما ظهرت نجابته واستوت ملكته طلب الرحلة لتلقّي العلم من أكابر العلماء خارج بلدته، وكان يريد السفر إلى بلدة (لكنو) بالهند ليدرس على علامة عصره (الشيخ عبدالحي اللكنوي)، ولكن أساتذته حسَّنوا له السفر إلى

(١) مجلة المنهل السعودية، ٢ صفر ١٣٩١هـ.

مدينة (كاشغر)، ونزل في مدرسة تاج حاكم بيك، ودرس على مدرسها الشيخ محمد يعقوب، وكان يوجد في تلك البلدة رجل من علماء طرابلس الشام، وهو الشيخ محمد سعيد العسلي الذي نفاه الروس فيما بعد إلى خوارزم... درس على ذلك الأستاذ الطرابلسي بعض كتب الحديث الشريف، وقرأ في تلك المدرسة عند الشيخ محمود بن عبدالباقي الأرتوجي «تلخيص المفتاح»، وبقي في كشغر ثمانية أشهر يدرس ويستفيد من علمائها، ويُطالع مع زملائه العلوم.

ثم رحل من تلك البلدة إلى «سمرقند» عن طريق خوقند وترمذ، ونزل في مدرسة الخليفة عمر بن عبدالعزيز عند إمام مسجد المدرسة الشيخ هادي بن فضل، وكان رجلاً كريماً، فأكرم وفادته، واستفاد منه بعض المعلومات.

ثم رحل إلى «بخارى»، وتلقَّى عن علمائها، منهم عمدة الفتوى الشيخ محمد أكرم، وقرأ الجزرية على الشيخ برهان الدين، ثم قرأ عليه الشاطبية في علم القراءات.

انتهاؤه من التحصيل وإجازاته:

وفي عام ١٣٣٩، انتهى من التحصيل، ونال إجازات أساتذته وأكثر هؤلاء العلماء الذين أجازوه بعد دراسته عليهم كانوا قد تحصَّلوا على إجازاتهم من علامة المدينة المنورة ومُحدِّثها الشيخ السيد محمد علي بن ظاهر الوتري الذي كان قد قضى مدة عام في مدرسة (بخارى).

متابعته الرحلة في طلب العلم:

وفي عام ١٣٤٠ ذهب إلى «أندجان»، وأسمع القرآن الكريم لشيخه المقرئ الحافظ محمد روزي مرة ثانية، وقرأ عليه الشاطبية مع شرحها، وأجاز له في القراءات.

ثم ذهب إلى «نمنكان»، ودرس عند العلامة الشيخ محمد ثابت بعض كتب الحديث.

رحلته إلى الحج:

وفي أوائل عام ١٣٤٨ رحل إلى الأستانة عن طريق بالو وباطوم، ومن إسطنبول إلى بور سعيد فالسويس، وفاته الحج ذلك العام، حيث وصل إلى مكة المكرمة يوم ١٣ ذي الحجة عام ١٣٤٨، ومنها إلى المدينة المنورة، وأدى فريضة الحج عام ١٣٤٩هـ.

دراسته على الشيخ محمد عبدالباقي الأنصاري وتدريسه في مدرسته:

وتعرف بالمدينة المنورة على أستاذه الشيخ محمد عبدالباقي الأيوبي الأنصاري، وتلقى عنه مجموعة من العلوم العقلية والنقلية، وأجازه فيها، ثم عيَّنه عنده في المدرسة النظامية مدرساً، وبقي يدرس بها إلى عام ١٣٥٤.

تدريسه في مدرسة العلوم الشرعية:

ولما أغلقت المدرسة لسبب مرض الشيخ الأنصاري، انتقل إلى مدرسة العلوم الشرعية بطلب من مؤسّسها الفاضل السيد أحمد الفيض آبادي عليه رحمة الله، وكان يدرس بالقسم العالي بعض العلوم الدينية والعربية، ومكث في تلك المدرسة ما يزيد على خمس سنوات، وتخرج على يده مجموعة من طلاب تلك المدرسة من المجاورين ومن أهل المدينة المنورة.

عمله في مكتبات المدينة المنورة:

وفي عام ١٣٨٢، انتقل إلى وظيفة حكومية في مكتبات المدينة المنورة التابعة للمسجد النبوي، وأخيراً استقرّ في المكتبة العامة في وظيفة معرِّف عن الكتب النادرة ومترجم عن بعض اللغات التي كان يجيدها مثل التركية والأوردية والفارسية والبخارية، حيث كان رحمه الله تعالى يجيد تلك اللغات إجادة تامة.

اطلاعه على المخطوطات النادرة:

ولقد كان رحمه الله له اطلاع على المخطوطات النادرة التي كانت توجد في مكتبات المدينة المنورة التابعة للأوقاف العامة.

وأخبرني مرة أنه يعدُ جدولاً بأسماء تلك الكتب وأماكنها في مكتباتها وأرقام حفظها وليس ببعيد على مثله أن يكون مُلماً بمثل ذلك لأنه زاول ذلك العمل عدداً من السنوات، واطلع على موجودات تلك المكتبات مع العلم والفهم.

التدريس في المسجد النبوي:

وكان مع عمله في المكتبة يقوم بمهمة التدريس في المسجد النبوي الشريف ويداوم عليه. ومن الكتب التي درسها: (موطأ الإمام مالك) برواية محمد، ودرس أيضاً في النحو كتاب ابن عقيل شرح ألفية بن مالك، وشرح القطر، وتفسير الجلالين، والمتممة في النحو، وغير ذلك مثل رسالته في الإعلالات الباكندية.

مؤلفاته:

وله رحمه الله مؤلفات كثيرة قيمة وبلغات شتّى من مجموعة الفتاوى جمعه من فتاوى شيوخه، وله كتاب «تنقيح النحو»، وكتاب في مسائل الجمعة والعيدين والجنازة باللغة التركية.

ومن مؤلفاته كتابه: «تحفة المستجيزين بأسانيد أعلام المجيزين» في الحديث. ومنها: «فتح الرؤوف ذي المنن في تراجم علماء ختن»، و«الرسالة الفضلية في ثبوت الطوافَيْن للقارن بالأدلة القطعية»، وكتاب في الكفاءة بين الزوجين والتفريق بينهما إذا لم توجد الكفاءة.

دروسه في بعض المدارس:

وللشيخ رحمه الله نشاطات أخرى في بعض المدارس فقد كانت له

حصص من الدروس يلقيها في مدرسة خوش بيكي الموجودة في سوق القفاصين في المدينة المنورة، ودروس أخرى في مكتبة الشيخ عبدالقادر شلبي ومدرسته، في ذروان، وهذا غير تلك الدروس التي كان يدرسها في منزله لبعض خواص طلبته.

رحلاته:

أما رحلاته غير ما ذكرت آنفاً فهي متعددة، منها: رحلة إلى البلاد العربية مثل مصر وسورية ولبنان والعراق والأردن، وله رحلة إلى تركيا واتصل بعلماء تلك الأقطار.

ثم ارتحل رحلة أخرى عن طريق البر إلى الأردن وسورية ولبنان والعراق والكويت ونجد، ومنها إلى المدينة المنورة.

صفاته وأخلاقه وعاداته:

كان رحمه الله مربوع القامة، قمحي اللون، غزير الشعر، واسع العينين، إلى القِصَر أقرب منه إلى الطول، هادئ المشية، خفيض الصوت، محافظاً على قراءة القرآن ومواصلة أداء الفرائض في المسجد النبوي.

وأخبرني ابنه أنه حج ما يقرب من أربعين حجة، وكان سهلاً طيباً، تقي السريرة، متواضعاً مُحباً للغير يحبُّ صحبة الأفاضل، ويساعد الفقراء والمحتاجين، مقتصداً في مطعمه وملبسه.

مرضه ووفاته:

توفي بعدما مرض ما يقرب من ستة أشهر بمرض الحنجرة، وتوفي في المدينة المنورة في منزله بالعويرضية التابعة لزقاق الطيار، وذلك في السادس من شهر رجب عام تسعة وثمانين وثلاثمائة وألف، ودفن في البقيع.

وخلَّف من الأولاد ابنه الحافظ محمد يحيى، وهو صنو والده في الأدب والكمال، وله بنت واحدة لا تزال في رعاية أخيها المدرس في مدارس الحكومة عليه رحمة الله.

الشيخ عبدالله هارون[1]
شهيد جنوب إفريقية
(١٣٤١ ـ ١٣٨٩هـ)
(١٩٢٣ ـ ١٩٦٩م)

بقلم الأستاذ علي الخطيب

لكلّ أجل كتاب، وقد بلغ الكتاب أجله في ١٦ من رجب عام ١٣٨٩ فلحق الشيخ عبدالله هارون بالرفيق الأعلى في شهر الإسراء، وخلّص الله ـ الرؤوف الرحيم ـ روح عبده من بين أنياب مفترسيه من رجال حكومة جنوب إفريقية العنصريين، وفي حجرته بالمعتقل رقد جثمانه شهيداً على استشهاده، يحمل سِمَات عذابه في سبيل الله.

عرفه مسلمو جنوب إفريقية بالإمام، وسيعرفه التاريخ بالشهيد، كما سبق أن عرفته مجامع المسلمين العلمية، وجهاده السياسي لتحرير الأرض الإسلامية في كل دار عامة وفي أرض العروبة خاصّة.

وبعد، فليس العمل من أجل الإسلام، وباسم الإسلام هيّناً في بلد يناصب الإسلام العداء، وكل دراسة عن الإسلام ترفع لحكومته تقرر صراحة

(١) مجلة الأزهر، العدد السادس، السنة الحادية والأربعون: (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م).

أنه ضد العنصرية لا يفرق بين أبيض وأسود، والخلق فيه «سادة» أمام الحاكم «عبيد» أمام الله وحده.

هذه الحكومة التي بلغ بها الطغيان في أواخر العام الميلادي المنصرم ١٩٦٨ أن تسنّ قانوناً يقسم كل مدينة في بلادها ألى أربعة أقسام، وتمنع اختلاط كل قسم بالآخر، أو زواج أفراد قسم منه بأفراد قسم آخر.

معارضته السياسيَّة للحكومة العنصريَّة:

في هذه البلاد، ومن مدينة (كيب تاون) ترتفع أصوات المعارض باسم الله ينطق بها الشهيد وأتباعه، وتَسْري دعوة الله من بين لسانه ـ وهو يبشِّر بالإسلام ـ فيزداد عدد معتنقيه، فتزداد المعارضة لسياسة الحكومة العنصرية فتعتقله ثم تفرج عنه، ثم تعتقله ثم تفرج عنه، ثم لا تجد بدأ من إحكام مؤامرة حوله فترصد عليه خطاه.

لقد سافر إلى الجمهورية العربية المتحدة أربع مرات، والتقى خلالها بزعماء المسلمين وعرف رجاله: المنظمات الفلسطينية، وذلك كله كاف لاعتقاله، فما عاد إلى بلاده حتى اعتقلته سلطاتها للمرة الرابعة والأخيرة ووجُهت إليه تهمة مناقضة أوامر الحكومة والتشهير بها.

وجدير بالذكر أن هذا الزعيم الإسلامي هو ثاني زعيم يموت وتحيط به كل الظروف المُريبة التي تشير إلى أعدائه، رحم الله «أحمد بللو» وأثاب الله «عبدالله هارون».

آثار الشيخ الشهيد عبدالله هارون:

ولم تمت آثار الشيخ الشهيد عبدالله هارون، فلا زال مجلس «القضاء العالي» الذي رأسه عدّة مرات، وكان فيه عضواً دائماً يتولى شؤون المسلمين في بلاده، ففي مدينة كيب تاون مقر هذا المجلس وكل أعضائه من العلماء المسلمين خريجي الأزهر الشريف، ويلتئم في عضويته جميع أئمة المساجد في مديرية (كيب تاون)؛ ولهذا المجلس عناية خاصّة بالأحوال الشخصية

للمسلمين في الزواج والطلاق والميراث. ويلجأ المسلمون إليه في حلّ هذه المشكلات ويتناولون أحكامه بالتنفيذ.

صحيفة الشهيد:

ولا تزال صحيفة الشهيد Muslim News التي يرأس تحريرها في بلدته Cape-Town، وتصدر بالإنجليزية، تؤدّي واجبها في التعريف بالإسلام، ونشر أخبار الجماعات الإسلامية داخل البلاد وخارجها، وتفرد فصولاً لتحرير: تفسير كتاب الله العزيز، وشرح سنّة رسوله الكريم ﷺ، وترد على فتاوى الجماعات الإسلامية.

جماعة الصدق:

ثم هو عضو في «جماعة الصّدق» التي تعمل في بلاده عملاً رئيسياً: هو ترجمة معاني القرآن الكريم إلى كافّة لغات إفريقية، وانتهت بالفعل من ترجمة معاني القرآن بلغة: «الزولو» و«الأفريكانز» كما أخرجت عدة كتيبات تعليمية لشرح مبادئ الإسلام وتطبيقها في الصلاة والزكاة والحج وغيرها فضلاً عما تقوم به الجماعة من نشاط في مستوى الحياة العلمية العالية: إذ يؤدي أعضاؤها محاضرات في الجامعات والمدارس للتعريف بالإسلام والمسلمين، ولا تنسى المستشفيات والسجون؛ فأثرها مبثوث في هذه الجوانب رحمة بالإنسانية.

رحم الله الشيخ عبدالله هارون، وجزاه عن دينه خير الجزاء، وألهم والديه وابنته صبراً من عنده، فلقد وَصَل بين المسلمين ما أراد الاستعمار أن يقطعه، وأعدّ لأبنائهم في بلاده كافة التسهيلات التي تؤهلهم لمزاولة العلوم الإسلامية في الداخل والخارج، وعمل للإسلام بكلّ ما استطاع، رحمه الله رحمة واسعة، وعوّض الإسلام فيه خيراً.



نشاطه العلمي والدعوي:

شارك في حياة المسلمين الاجتماعية، وتأثر بأفكار جماعة الإخوان المسلمين.

أسّس جمعية إسلامية في ١٩٥٨، وكان إماماً في إحدى المساجد في حي (كليرمونت) حيث كانت له حلقات العلم للرجال والنساء.

في ١٩٦٠ بدأ يدعو شخصيات أخرى لنُصرة المسلمين، وتعرّف على الأفكار الموجودة على الساحة الإسلامية.

مقاومته الدعوة العنصريّة:

ومن خلال الخطب التي ألقاها، عارض قوانين الحكومة الظالمة وأفكار العنصريّة، وحثّ المسلمين على الوقوف بجانب السُود، وبالتالي فقد نال احترامهم وتقديرهم.

وفي ١٩٦١ وصف التفريق العنصري بأنه نظامٌ ظالمٌ ومخالف للشريعة الإسلامية، وأنه يريد تعبيد الشعب، فكوّن الشيخ علاقات مع شخصيات سياسية بارزة.

مغادرته البلاد:

في ١٩٦٥ اضطر إلى مغادرُة بيته، فقد طرده النظام العنصري، كان يشتغل لإحدى شركات التي كانت تصنع الحلويات، وتجمّع لديه مبلغ من المال، وبنى به بيتاً خاصاً له ولأهله.

إقامته بمكة المكرمة:

وفي ١٩٦٨ سافر إلى مكة المكرمة ليفكّر في علاقته مع المنظّمات السياسيّة، وأن ينسق برنامج تربية وتعليم ابنته في لندن.

في هذه الزيارة لقي وزير التعليم في السعودية حسن بن عبدالله آل الشيخ، وكذلك التقى بالملك فيصل، ثم سافر إلى القاهرة.



الإمام عبدالله هارون
(١٣٤١ - ١٣٨٩هـ)

بقلم: د. محمد عبدالله هارون



ولادته ودراسته:

وُلد في ١٩٢٣ في مدينة (كيب تاون)، وهو أصغر الأولاد، توفيت أمه وهو صغير، ثمّ اعتنت به أخته.

تزوّج في سنة ١٩٥٠.

درس المرحلة الابتدائية في مدرسة الفلاح إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره، ثم درس لمدة سنتين في مكة على يد الشيخ عبدالرحمٰن العلوي المالكي (ت١٩٨٦)[١].

بعد عودته إلى كيب تاون (رأس الرجاء الصّالح) واصل دراسته على الشيخ عبدالله طه جمال الدين (ت١٩٤٦)، والشيخ إسماعيل حنيف (ت١٩٥٨م).

---

(١) هكذا ورد اسمه في الترجمة التي أملاها ابن الإمام عبدالله هارون على الأخ شعيب أحمد. ولعل الصواب: السيد علوي عباس المالكي، المتوفى سنة ١٣٩٣.

عرف الإمام عبدالله أنَّ مخابرات جنوب إفريقيا تسعى للقبض عليه، ولكن والده كان مريضاً وكبير السن فلم يرض بالهجرة إلى دولة أخرى، وشاء أن رفضت سفارة كندا منحه تأشيرة.

اعتقاله واستشهاده:

في ٢٨ مايو ١٩٦٩ (نفس اليوم الذي كان المسلمون يحتفلون بمولد النبي ﷺ) اعتُقِل لأربعة أشهر، وقد عُذِّب إلى أن تُوفي شهيداً في ٢٧ سبتمبر ١٩٦٩.

وقد نشر النظام العنصري كذباً بأنه تُوفي بعدما سقط من السُلَّم.

ومنذ سنة ١٩٧٦ كان رمز الحرية لشباب المسلمين، ورمز المقاومة ضد العنصرية. رحمه الله تعالى وجزاه عما قدَّم لدينه وأمَّته كل خير وبر.

أعدها:
شعيب أحمد
المعهد الإسلامي
بريتوريا ـ جنوب إفريقية ـ



محبُّ الدين الخطيب..
كما عرفته[1]

(١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ) = (١٨٨٦ ـ ١٩٦٩م)



لفضيلة الأستاذ ابو الوفا المراغي

تاريخ حافل بالجهاد في ميادين كثيرة:

إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد جرى القضاء على (محب الدين) بما يجري على الناس، فمضى إلى جوار ربه راضياً مرضياً، وخلف وراءه تاريخاً حافلاً بالجهاد في دينه وعروبته وحريته، فبكاه الإسلام، وبكته العروبة، وبكته الحرية.

إنَّ تاريخ (محب الدين) تاريخٌ مُشْرق بالمناقب والمآثر، وما كان له ـ وهو المسلم العربي الغيور، ذو العقل الحصيف والحس المرهف، والبيان المفحم، والقلم الخصْب الرَّصين ـ أن يقصر جهاده.. على ميدان خاص من ميادين النشاط فدخل في ميادين كثيرة، وتفاعل مع أحداث عصره، وكان فيها مناضلاً شجاعاً، يتحمَّل في سبيل نضاله ما يتحمَّله المكافحون المناضلون.

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء العاشر، السنة الحادية والأربعون: (١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠م).

ثقافته وذكاؤه:

ولقد أعانته ثقافته وذكاؤه ونشاطه وإخلاصه على أن يقوم برسالاته فيما ندب نفسه له، فقد ثقف ثقافة مدنية أولاً، فتعلم في المدارس الثانوية ببيروت، ثم بجامعة (استانبول)، حيث درس الحقوق والآداب، ثم أقبل على الدراسات الإسلامية الحرة، يعبُّ منها في نهم، واستطاع بتلك الدراسات أن يكون باحثاً إسلامياً واسع الثقافة والتحصيل، على غرار الباحثين الإسلاميين أمثال (فريد وجدي) و(العقاد) وغيرهم ممَّن كانت مدارسهم كتبهم ومواهبهم.

تنقُّلاته واستقراره بمصر:

ولعلَّ ظروف حياته غير المستقرّة كان لها أثر في تكوين شخصيته العلمية والاجتماعية والدينية، فقد أخرج من وطنه، ورحل إلى (تركيا)، وإلى (اليمن)، ثم إلى (مصر) حيث استقرَّ به المقام سنة ١٩٠٩، والتقى بأحمد تيمور باشا، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ علي يوسف، وعمل محرراً بجريدة المؤيد.

جهوده في الصحافة والجماعات الإسلامية:

وفي (مصر) أخذ يتابع جهوده الدينية في الصحافة والمجتمعات الدينية بقلمه ولسانه، فلفت إليه الأنظار، واحتل مكانه بين الصفوة من الباحثين الإسلاميين، واستُدعي إلى الحجاز فأسَّس المطبعة الأميرية، وأصدر بها جريدتها الرسمية (القبلة) سنة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سافر إلى دمشق، وهناك وكل إليه إدارة تحرير جريدة (العاصمة)، وبعد حوادث الاستعمار الفرنسي في (ميسلون) عاد إلى مصر وعُيِّن في جريدة (الأهرام) خلفاً للسيد نجيب الأرْمَنَازي، وظل بها خمس سنوات إلى أواخر سنة ١٩٢٥م.

مجلة الفتح:

وكان أول اتصالنا به عن طريق مجلة (الفتح) التي أصدرها في الثلاثينيات من ذلك القرن لخدمة الإسلام، وتجْلية مبادئه ودفع الشبه عنه، مع صفوة من كتّاب عصره، نذكر منهم المرحومين: الشيخ (عبدالباقي سرور)، و(الشيخ القاياتي)، وكانت صحيفته (الفتح) هي الصحيفة الدينية المتخصّصة التي احتلت مكاناً بارزاً بين مجلات عصرها، وكنا ونحن طلاب بالأزهر ـ نترقّب صدورها الأسبوعي بتطلُّع وشوق على أبواب الأزهر، ونتخطّفها من الباعة لننهل من معينها الثقافي، ونتتبع الحركات الإسلامية. وكان قلمه في الإسلاميات صورة من نفسه، يلتهب حرارة وغيرة.

جولاته القلميّة العنيفة:

وكان (محب الدين) سلفياً متشدّداً، يكره الترخُّص في المبادئ الإسلامية، وبرغم حبه لآل البيت كان يكره الإفراط في مشايعتهم، وله مع بعض الطوائف جولات قلمية عنيفة، وظلَّ مجافياً لها طوال حياته.

محب الدين كان كاتباً لا أديباً:

وعن طريق الدفاع عن الإسلام برز (محب الدين) كاتباً إسلامياً ممتازاً سليم الفكرة، صحيح العبارة، يعالج موضوعاته في عمق وقوة، ولم يكن يميل إلى زخرفة الأسلوب والتشدُّق بالغريب، بل كان موضوعياً، قليل الحشو والاستطراد. فـ(محب الدين) كان كاتباً لا أديباً، فالكاتب همُّه الأول موضوعه.. يوفيه حقّه من التجلية والإبانة، فإذا بلغ في ذلك الغاية.. فلا يعنيه التأنّق في الأسلوب والعبارة؛ أما الأديب فهمُّه الأول أسلوبه وعباراته، ثم الموضوع ثانياً..

وقد يعالج الأديب موضوعاً تافهاً، ولكن يُحلّيه بوشي العبارة، ويجمّله بالنقش والزخرف، فيبدو موفقاً جذاباً.

وكان (محب الدين) من الطراز الأول كاتباً لا أديباً.

مجلة (الزهراء) ورئاسته تحرير مجلة (الأزهر):

وفي ميدان الصحافة والكتابة أصدر مجلة (الزهراء) سنة ١٩٢٤م، ثم تولى رئاسة تحرير (مجلة الأزهر) فلبث فيها أعواماً، وكان له بعد انصرافه عنها مقالات في مختلف مجلات (العالم الإسلامي).

المطبعة السلفية:

وكان يشغل فراغه بالقراءة أو بالتحقيق العلمي لبعض الكتب التي كان يقوم بنشرها وطبعها في مطبعته الخاصة، وعن طريق تلك المطبعة زوّد المكتبة الإسلامية بعشرات من كتب التراث، الذي كان له في اختياره دقّة، وحسن تقدير.

من آثاره العلمية:

ولقد ترك من آثاره العلمية غير ما نُشر له بالفتح والزهراء وغيرهما من المجلات الإسلامية كتاب: **(الحديقة)**، و**(الغارة على العالم الإسلامي)**، و**(مع الرعيل الأول)**.

ولقد كان (محب الدين) داعياً لأحداث العالم الإسلامي، قُدّر له أن يتوفّر على تسجيلها، فكان لنا منها مرجع تاريخي هام.. عن تلك الحقبة التي عاشها وهي حقبة طويلة من هذا القرن.

وفي هذا الميدان ـ أعني ميدان الثقافة ـ أنشأ مدرسة باليمن ـ كما يقول بعض المتحدّثين عنه ـ.

سبيل الإصلاح:

وكان (محب الدين) مهتماً بالإصلاح الاجتماعي في العالم الإسلامي، ورأيه في ذلك: ألا سبيل لهذا الإصلاح إلا التمسُّك بالإسلام، وتطبيق منهجه في نواحي حياة المسلمين، وكان يُردّد ذلك المعنى في كثير من كتاباته وأحاديثه.

جهاده في بعض المعارك:

ولم يكن جهاد «محب الدين» بلسانه وقلمه فحسب، ولكنه جاهد بنفسه وخاض بعض المعارك، حيث اشترك في موقعة «ميسلون» بسوريا، وشارك في تشكيل الجمعيات بتركيا، والثورة ضد السلطان «عبدالحميد»، وأشعل الثورة العربية ضد «تركيا»، ونادى بحياد العرب في الحرب العالمية الأولى.

غلبة اللون التاريخي على بحوثه:

وإذا أردنا أن ننصف التاريخ، وننصف السيد «محب الدين الخطيب» حين نتحدث عنه.. دون مبالغة في الحديث.. فإنا نقول: إنه كان باحثاً إسلامياً واسع المعرفة ذا بيان ناصع.. استطاع أن يعالج به ما كان يتصدّى له من القضايا الإسلامية العامة، إلا أنه قد غلب عليه اللون التاريخي، لإعجابه بسير أسلافنا، وتقديره لهم.

صلابته في الرأي:

ولقد كان صليب الرأي فيما يرى، ولي معه في هذا الشأن تجربة شخصية، فقد حدث أنه لما توفي المرحوم «فريد وجدي»، وكان سلفه في رئاسة تحرير «مجلة الأزهر»، طلبت منه أن يكتب كلمة عن «فريد» وفاءً بحقه على المجلة. فرفض في إصرار، لأنَّ رأيه في «فريد» ـ كما فهمت من الحديث ـ أنه كان على ما لا يرضى الإسلام في بعض الأمور، إذ كان ينصرف عن أكل اللحوم إلى الاغتذاء بالنباتات، وقد قمت حينذاك بهذا الواجب، ونشرت لي «الأهرام» كلمة ضافية عنه، اقتبست منها مجلة «الحج» السعودية.

حياة محب الدين الاجتماعية:

أما حياة «محب الدين» الاجتماعية.. فإنه نظراً لطبيعته الانطوائية ولظروفه المعاشية، وتقديراً لملابسات ضيافته في «مصر».. ظلَّ طوال إقامته

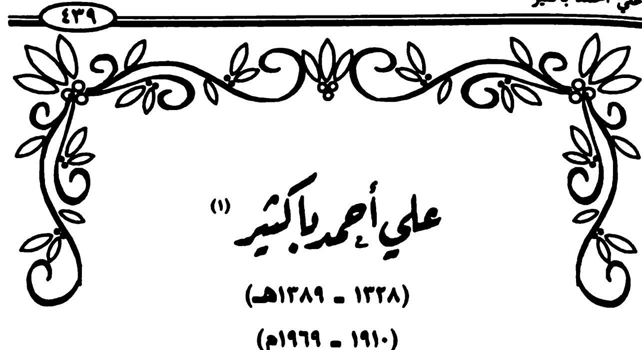
بمصر قليل الظهور في المجتمعات العامة إلا ما كان منه في بعض المناسبات الدينية، رغم شخصيته وكفايته، التي كانت تضعه موضع الصدارة في كل مجتمع ناد، وقد جعل من مكتبته محراباً لا يفارقه حتى إنه لما ابتنى منزله بالروضة ألحقها به حتى لا يضيع وقته في التردُّد بين المنزل والمكتبة. وظلَّ على هذا الأسلوب إلى أن لقيَ ربه في أواخر شوال سنة ١٣٨٩هـ وأوائل يناير سنة ١٩٧٠م.

وبعد، فهذه صورة سريعة بخطوطها العريضة.. رسمتها للسيد «محب الدين» بقدر ما سمحت لي صلتي به، ولا شك أن له أصدقاء وأحباء أشدُّ به اتصالاً ووقوفاً على دقائق حياته.. وعلى عاتق هؤلاء تقع مسؤولية الحديث عنه.. حديثاً تفصيلياً، يُزوِّد التاريخ بما ينبغي أن تعرفه عنه الأجيال المقبلة.. كرجل من رجالات الإسلام.. وقف دونه مناضلاً ومدافعاً على مدى عمره الطويل الذي ناهز التسعين.

وسلام على (محب الدين) في الصِّدِّيقين والصَّالحين.!!

ابو الوفا المراغي





(١٣٢٨ ـ ١٣٨٩هـ)

(١٩١٠ ـ ١٩٦٩م)

للأستاذ: محمد الحسناوي

حياته:

ولد علي في أندونيسيا عام (١٩١٠) من أبوين عربيين، ثم أرسله والده إلى حضرموت ليعيش مع عمّه الذي كان من رجال العلم والدين والأدب، هناك تلقّى ثقافته العربية والإسلامية، وأولع بالأدب والشعر الذي أخذ ينظمه منذ حداثته المبكرة.

ثم سافر إلى الحجاز، حيث أقام إلى أن قدم مصر في عام ١٩٣٣ ليلتحق بقسم اللغة الإنكليزية بكلية آداب القاهرة، ويتخرّج فيها عام ١٩٣٩، ويحصل على دبلوم معهد التربية عام ١٩٤٠.

وفي تلك الفترة قرأ لشكسبير وتأثر به، وترجم عنه مسرحية (روميو وجولييت) بالشعر المرسل. واشتغل بعد ذلك بالتدريس إلى أن تركه أخيراً إلى مصلحة الفنون بوزارة الإرشاد القومي[٢].

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الحادية عشر: (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م).

(٢) قضايا جديدة في أدبنا الحديث، محمد مندور، ص١٤٦ ـ ١٤٧. ذهب مندور إلى أن أم باكثير أندونيسية، وهذا خلاف ما نصّ عليه كتاب «الثائر الأحمر» (الحسناوي).

اشترك باكثير في سبع مباريات أدبية فاز فيها جميعاً بجوائز القصة والمسرحية من وزارة الشؤون الاجتماعية.

وكان باكثير أول الأدباء المصريين الذين نالوا منحة التفرُّغ، نالها لمدة عامين ليكتب ملحمة مسرحيّة عن (عمر بن الخطاب) في تسعة عشر جزءاً، نشر منها اثنى عشر جزءاً، وكان قد نال جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ١٩٦٣[١].

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٦٩ وأوائل رمضان المبارك ١٣٨٩ ـ أفضى إلى ما قدم على أحمد باكثير مفاجئاً بذلك كل عارفيه ومحبيه، فقد كان في مقتبل العمر، وفي قمة الصحة[٢].

عمله:

لم يزد مقامه في الحياة على وظيفة متواضعة «تُغْدق» عليه قروشاً معدودات، فقد اشتغل مُدرِّساً في مدرسة «الدواوين» الثانوية بالقاهرة حتى عام ١٩٥٣. وكان ينوي ـ رحمه الله ـ أن يستقيل من عمله في القاهرة، ويذهب إلى الكويت ليشرف على طبع كتبه للمرة الثانية[٣].

رحلاته:

يقول الأستاذ شوقي السكري: «لقد قابلت الفقيد العزيز في الصيف الماضي في لندن، وكان قد فرغ لتوّه من وضع متاعه في غرفته بفندق «دريان هوتيل» بضاحية بادنجتون، ونزل إلى الشارع يستنشق الهواء العليل، وفي فمه غليونه المشهور، ووجهه الوديع السَّمْح الهادئ الذي ينمُّ عن رضى عميق، ولم أكن أعرف أن السبب هو تمكُّنه من زيارة لندن لأول مرة في حياته، فقد كنت أظن أنه، وهو الذي تخرج في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة القاهرة، لا بد قد زار بريطانيا من قبل. وفاجأني في حديثي معه أنه

---

(١) الآداب، ع١٢، ١٩٦٩، ص٦٣، سامي خشبة (الحسناوي).
(٢) أنور الجندي، الأديب، ع١، ١٩٧٠، ص٥٣ ـ ٥٤ (الحسناوي).
(٣) وديع فلسطين، المرجع السابق، ص٥٦ (الحسناوي).

طوّف في الأرض ما طوف، وزار بلاداً كثيرة في آسيا وأفريقيا. وأوروبا الشرقية، ولكن لم يتح له زيارة البلاد التي كان يتابعها في دراسته الجامعية[١].

طبعه وهواياته:

كان يحبُّ الشعر، ويهوى تلاوته، ويتندَّر بالتأليف المرتجل فيه كلَّما واتتْهُ فرصة المداعبة والمزح. ولكن هواه دائماً كان مع المسرحية التي توفَّر على كتابتها في الشطر الأخير من حياته، وتصدَّى بها لتناول شتى الموضوعات بطريقة جديدة أو ساخرة. مستفيداً من التاريخ أو الأسطورة، ومُحلِّلاً نفسياً أو اجتماعياً لظواهر مختلفة. وما تزال تعليقاته العميقة على المسرحيات التي شاهدها مع الأستاذ السكري في لندن ترنُّ في أذن صديقه، وتملأ شعاب نفسه بالحسرة كلما تذكر آماله العريضة في خدمة الأدب[٢].

لو كان باكثير من «بهلوانات» الأدب لفتحت عليه أبواب الخزائن، ولكنه رجل مبادئ، ضنين بقلمه أشدّ الضنّ، يرفض أن تمتد يد إلى آثاره بحذف أو تحوير، كائنة ما كانت هذه اليد، ولهذا استكان وهو لا يستكين، وانزوى وهو في الصدارة من أدباء هذا الجيل، ومات بين الكتاب والمحبرة[٢].

ويقول عنه أحد أصدقائه: لقد كان باكثير يثير حنقي بسكوته الهادئ على سالبيه وناهبيه. جدَّد في الشعر المسرحي تجديداً رائداً، فسلبوه هذه الريادة، وهو لا ينطق، غنت أم كلثوم شعره فنسبوه إلى غيره. والتهمت «الدواوين المكتبية» حياته، وهو بدخان غليونه يسخر منها... وأكثر ما لوّعني من وفاة باكثير أنه مات حزيناً كاسف البال. فالأحاديث التي جرت بيننا في أخريات لقاءاتنا كانت عامرة بأسباب الضجر، حتى لقد فكر في أن يكفَّ عن الكتابة بالعربية، ويتحول إلى الكتابة بالإنكليزية التي يتقنها، وفكر

(١) شوقي السكري، الأديب، ع٣، ١٩٧٠، ص٥٤ (الحسناوي).

(٢) المرجع السابق (الحسناوي).

في أن يختار لنفسه دار إقامة تنأى به عن الناس، بعد ما نقموا عليه منذ ما أخرج مسرحية «حبل الغسيل»، بل قبل ذلك، وبعد ذلك إلى يوم وفاته[١].

بواكيره الأدبية:

قال ـ رحمه الله ـ: بدأت أنظم الشعر منذ بلغت الثالثة عشرة من عمري. وكان جل اهتمامي بالشعر، ومبلغ اجتهادي للتبريز فيه، فلم أدع ديواناً لشاعر من الأقدمين أو المُحْدثين وقع في يدي إلا قرأته التهاماً. وكان مثلي الأعلى في الأقدمين أبو الطيب المتنبي، وفي المحدثين أحمد شوقي... كان لاطلاعي على مسرحيات شوقي أثر كبير في نفسي فقد هزّني من الأعماق وأراني لأول مرة في حياتي كيف يمكن للشعر أن يكون ذا مجال واسع في الحياة حين يخرج عن نطاق ذاتية قاتلة للشعر، وأن يكون ذا مجال واسع في التاريخ أو حدث من الأحداث... فكان أن كتبت مسرحية شعرية أسميتها: «همام أو في عاصمة الأحقاف»، وذلك في مدينة الطائف. وقد كتبت هذه فكان أن كتبت مسرحية شعرية أسميتها المسرحية[٢].

مواقفه:

كان باكثير ـ فيما كتبه ـ أصيلاً في عروبته وإسلامه، وغيرته على تراث أمته وقيمها، وكان لساناً حياً منافحاً عن القيم والمثل واللغة العربية، وكانت مواقفه الشريفة الصلبة مزعجة لخصوم هذه الأمة من دعاة التغريب والشعوبية، فلقيَ كثيراً من الضيق والانزعاج، وقد كان ملتزماً في أدبه، يعيش من داخل حياة الأمة، ويعالج قضاياها، وخاصة قضية فلسطين التي كتب عنها ١٩٤٤: (شيلوك الجديد) قبل النكبة، ثم كتب بعد النكبة: (شعب الله المختار) و(إله إسرائيل)، ثم كتب بعد النكبة: (التوراة الضائعة).

يقول: «إنَّ في التاريخ العربي مواقف عظيمة رائعة ينبغي أن يعيها

---

(١) وديع فلسطين، الأديب، ع١، ١٩٧٠، ص٥٦ (الحسناوي).

(٢) فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية باكثير، ط٢، ص٥ ـ ٧ (الحسناوي).

الجيل العربي الحاضر حين تصور في صور درامية مؤثّرة، والمعروف أن التاريخ يربط حاضر الأمة بماضيها، ولا حياة لأمة مبتورة الصلة بماضيها»، ويرى أنّ الأسطورة هامة من ناحية استغلالها لمعالجة كثير من مشكلات العصر، يقول: ألجأ إلى الأسطورة كثيراً لأعالج من خلالها مشكلات عصرنا الحاضر، كمشكلة الطموح الإنساني والقلق لدى الإنسان المعاصر في (فاوست الجديد).

ويؤمن باكثير بأن اللغة الفصحى، هي اللغة المحايدة التي يستطيع الكاتب القدير أن يتصرّف فيها، ويخلق منها ألواناً متنوعة من التعبير يتناسب مع الشخصيات المنوعة التي ترسمها، وأنّ مثل اللغة الفصيحة مثل الماء الصافي الذي يمكن تلوينه بأيِّ لون تريد، فيظهر هذا اللون على حقيقته، أما اللهجة العامية فمثلها كمثل الماء الملون لا يمكن أن يظهر أي لون جديد على حقيقته، وعنده أن اللغة كائن حي. ويرى باكثير أن أصلح الشعر للمسرحية الشعرية هو الشعر المرسل المستند إلى التفعيلة لا البيت وحدة نغمية[(١)].

آخر ما كتبه:

لعل آخر ما خطّه قلم باكثير: ثلاثيته عن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت، التي لم ينشر منها إلا الحلقة الأولى: (الدودة والثعبان) في النصف الثاني من عام ١٩٦٧[(٢)]. والمسرحية الحلقة هذه ـ كما يرى كاتب مقدمتها الدكتور عز الدين إسماعيل ـ تتضمن ثلاثة أشكال من الصراع: الأول: بين المماليك وبين جيش الحملة على مشارف القاهرة، والثاني: بين المقاومة الشعبية التي يقودها عمر مكرم في القاهرة وبين الحملة، ولم يبرز باكثير هذين الشكلين من الصراع إلا ليؤكد قيمة الشكل الثالث، الذي كان يتزعمه الشيخ سليمان الجوسقي الضرير، وهو الصراع المسلح المنظم الخاضع للتخطيط والتدبير، ضد كل القوى الأجنبية. وهذا

---

(١) أنور الجندي، الأديب، ع١، ١٩٧٠ (الحسناوي).

(٢) مجلة الكتاب العربي، ع ٤٠، كانون الثاني ١٩٦٨ (الحسناوي).

الشكل من الصراع هو الذي نجده يمتد في قوة وعنف حتى يبلغ ذروته في ثورة القاهرة الأولى. وقد استطاع باكثير أن يبرز لنا مواقف هذا الصراع على المستويين الفردي والجماعي[١].

كان هدف الجو الموسيقي ـ الذي هو هدف المسرحية ـ تكوين جيش الشعب، عبر ما يشبه التنظيم السري، الذي يؤمن بفكرة المقاومة المسلحة للمماليك والأتراك والفرنسيين جميعاً. والجدير بالذكر أن عنوان المسرحية الحقيقي هو (جيش الشعب) الذي طُمسَ بعد أن طبع على الغلاف، كما يلحظ القارئ بسهولة، لأمر ذي علاقة بلغز باكثير الذي أشرنا إليه. لذلك لم يستطع الناقد كاتب المقدمة أن يجد مغزى للرمز (الدودة والثعبان) لأنه لا يوجد رمز ولا ما يحزنون، ولكن يوجد (لغز).

أما الحلقتان الأخريان من هذه الثلاثية ـ كما يستفاد من هوامش كتب المرحوم ـ فهما: (أحلام نابليون) و(مأساة زينب) اللتان لم تنشرا إلى اليوم، وإن كانتا ـ كما تذكر الهوامش ـ تحت الطبع.

محاضرته عن دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار:

هذا بالنسبة لكتابته المسرحية، أما في الأعمال الفكرية فمحاضرته (دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية) التي ألقاها في مؤتمر الأدباء السابع المنعقد في بغداد ١٩٦٩ ـ وفيها (حدد مهمة الأديب ودور الاستعمار والصهيونية، وأهمية المواجهة بالوحدة العربية، مع تقديم لبعض المقترحات الهامة البناءة في القسم الأول من المقال). وفي القسم الثاني يرى أن (أمام الأديب العربي مجالين للعمل: المجال العربي أو المحلي، والمجال العالمي، ولكلٍّ منهما أسلوبه). أما في القسم الثالث فيتحدث عن تكوين الأديب العربي، ويركِّز على النقطة الهامة (ألا وهي أن يتحلَّى بصفة تعلو على الصفات كلها وتفوقها في الخطر والأهمية: أعني الأصالة العربية) أي: التميز عن الآخرين، وعدم التبعية الفكرية أو السياسيَّة أو الأدبية.

(١) مقدمة «الدودة والثعبان» (الحسناوي).

صدى وفاته:

أكثر النصوص والإشارات التي ضمناها هذا البحث، اقتبست من المراثي التي سطرها الكتاب بمناسبة وفاة الرجل، وهي التي ساعدتنا في الكشف عن عدد من الجوانب الغامضة من مأساة الراحل. وممن رثاه شعراً الأستاذ محمد عبدالغني حسن، والشاعرة روحية القليني من القاهرة، والشاعر حسن عبدالله القرشي من السعودية، يقول القرشي:

فتـُـه كـان عـلـى الـبـاغـي يـدا	تـصـرع الـبـغـيَ وتـجـتـثُ الـظـلاما
والـيـراع الـصـلـب فـي قـبـضـتـه	صـارمـاً كـان، وثـأراً وانـتـقـامـا
كـان فـذاً، عـربـيـاً، شـامـخـا	مـا حـنـى يـومـاً عـن الـذروة هـامـا
بـاسـمـاً، والـخـطـب داجٍ حـولـه	زاهـداً، والـنـاس يـغـشـون الـحـطـامـا
فـاذكـريـه، كـم شـهـيـد، فـكـره	ينفض الرِّمس، ويستحيي العظاما[1]

دارسو أدبه:

دُرس باكثير - في حياته - دراسات متباينة، فهناك مقدّمات مؤلفاته، مثل مقدمة (أخناتون ونفرتيتي) للمرحوم إبراهيم عبدالقادر المازني، وتصدير (همام) للأستاذ حسن كامل الصيرفي، ومقدمة (الدودة والثعبان) للدكتور عز الدين إسماعيل، ومقدمة (الزعيم الأوحد) للأديب العراقي هلال ناجي.

وهناك دراسات جادة، مثل تحليل (شهرزاد) من الوجهة النفسية للدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه (التفسير النفسي للأدب)، ومثل الرسالة الجامعية التي تقدّم بها محمود سيد يوسف عن مسرح الأستاذ باكثير للحصول على دبلوم النقد والبحوث الفنية من معهد التمثيل العالي بالقاهرة، ومثل الأطروحة التي تكتب في باريس[2]، ومثل المقال الذي كتبه الأستاذ

---

(١) المجلة، ١٥٩، ص٤٨ (الحسناوي).

(٢) شوقي السكري، الأديب، ع٣، ١٩٧٠، ص٥٤ (الحسناوي).

عبدالله الطنطاوي[١] (مع روّاد الشعر الحر) ومثل المقالتين اللتين كتبهما الأستاذ يحيى العلمي، إحداهما (ابن باكثير)[٢].

عروض مسرحياته ورواياته:

معظم رواياته عُرض على الشاشة البيضاء، مثل: (سلامة)، و(وا إسلاماه)، كما أخرجت له على مسرح دار الأوبرا مسرحية (الحاكم بأمر الله)، ومسرحية (مسمار جحا)[٣].



(١) الآداب، ع٩٤، ١٩٦٩، ص٢٠ (الحسناوي).

(٢) المسرح، العدد الممتاز، تموز ١٩٦٦ ص١٥٠، في هذا المقال يشير الكاتب إلى مقاله السابق الذي نشره في المجلة المذكورة قبل عام (الحسناوي).

(٣) قام الدكتور محمد أبو بكر حميد بجمع تراث باكثير من دواوين ورسائل ومسرحيات وأعمال أدبية لم تنشر قبل، وسيصدر في أربعة عشر مجلداً، وستقوم وزارة التربية اليمنية بنشره قريباً (مجد مكي).

الشاعر محمد وحيد الدين العالي الحيدر آبادي[(١)]
(١٢٦٨ ـ ١٣٢٢هـ)

للدكتور محمد عبدالستار خان الحيدر آبادي
أستاذ الأدب العربي بالجامعة العثمانية بحيدر آباد

الدولة الآصفية:

مولانا العالي من أينع الثمرات التي انشقَّ عنها فردوسنا المفقود (الدولة الآصفية)، فهو من أعلام الدين والشعر والأدب والطب والحكمة. ومن المعروف أنَّ الدولة الآصفية كانت ضمنت للناس رخاءً وأمناً ما سمع الزمان بمثلها، ووطَّدت ملكاً على أساس متين ساعده على هذا عقلٌ راجح، ودهاء واسع، ووطنية مخلصة، ورجولة كاملة مع بأس شديد وصفح جميل وهمة بعيدة عن ملوكها ورؤسائها، فرفعوا للعلم والأدب صرحاً باذخاً فأغدقوا العطايا على العلماء والأدباء، والحكماء والفضلاء، وأوسعوا لهم المجالس، وفتحوا لهم الخزائن.

أصله ونشاته وشبابه:

هو محمد وحيد الدين العالي ابن الكاتب محمد كلان، ولد بحارة مغلبورة، وهي حارة قديمة من العاصمة. حكي أنَّ والده رأى قبل ولادته

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م).

بأيام رؤيا أنه اشترى من السوق سمكاً، وخرج من بطن سمكة ياقوت فاستعبر ولياً من أولياء البلد، فعبّر أنه يولد له ابن يحصل له الباع الطويل في علوم العربية وآدابها. ولما تولّد سماه ذلك الشيخ بوحيد الدين. ومن الأسف أن والده الكريم تُوفي في صباه.

طلبه العلم وشيوخه:

قد أجمع المُؤرخون على أنّ الناس في الدولة الآصفَية كانوا في بحبوحة من عيش رَغَد، ورخاء دائم، ونعيم مقيم، وعلوم زاخرة، وحياة فكرية خِصْبة في تتبُع كتب الأدب واللغة والمشتغلين بها، وضمنت لهم حضارتهم الزاهرة ألواناً من الترف واللذائذ ما نظنُّ أننا نتمتع بمثلها في عهدنا هذا. ولا أطيل في هذا لأن حياة مولانا العالي كلها خير شاهد مثل وسنأتيك على جليتها.

في مثل هذه الحضارة السابغة، نشأ أديبنا العالي، ونهل منها وعلّ، وهذا هو السر في نبوغه وتكييف عبقريته.

انصرف الأديب إلى الطلب، وأقبل على دراسة العلوم المقررة في عصره من المنقول، والمعقول، والطب خاصة حتى أربى فيها على الغاية.

قرأ الأدب على العلامة آغا شوستري، وأخذ الطب والمعقول من مولانا منصور علي خان الطبيب المراد آبادي. وله شيوخ كثيرون غيرهما، وحريٌ به أن يستكثر من الشيوخ والطلب، ويُجْهد في ذلك همته العالية حتى يقتعد الذروة بين الأدباء إذ ذاك حين كانت مدينتنا تغصُّ بالفحول من الأدباء والعلماء.

لم ينعم الأديب العالي بعد نشأته بطمأنينة الاستقرار في بلدته، وقديماً كانت تضيق البلاد بالعباقرة فرحل إلى بلاد الهند، وأخذ من علمائها، ورحلته إلى مختلف أنحاء الهند سبّبت تقوية قريحته، وازدياد معرفته بحضارة المشرق وعلومه وعلمائه.

أدبه وشعره:

عبقرية مولانا العالم تحتاج إلى كتاب لإظهار أدبه البليغ العميق يستجلي فيه فكره العالي. على كلِّ حال أريد أن أرسم لحضرة الأديب أعصارهم فنعايشهم ونخالطهم، ونشعر بما شعروا، ونُحلّق في الآفاق التي حلقوا صورة قريبة من الكمال بقدر وسعي في الكلمة موجزة فيما يأتي.

مولانا محمد وحيد الدين العالي من الأدباء الموهوبين الذين يتركون لنا مرآة واضحة عن نفوسهم ومجتمعهم، وينقلوننا بسحر بيانهم وقوة روحهم إلى عالمهم، فكان ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ عالماً متمكناً في الدين، فصيحاً بليغاً، شاعراً كبيراً، صاحب أدب واجتماع وتاريخ وأخبار، فقد نهل الشعر العربي وعلّ، وشرب كأسه حتى الثمالة إلى أن صار من المنفردين في عصره بالإيغال فيه والغَوْص على أسراره.

ديوانه «الجواهر الزاهرة»:

ليس لدينا من شعر مولانا العالي إلا قصائد مدحية تشهد بعبقريته في الشعر والآداب. (الجواهرِ الزاهرة في مدح النبيّ وآله الطاهرة) مجموع نفيس، يتألف من المدائح التي أنشأها الشاعر في مدح النبي الكريم وآله وأصحابه. فقد طبع هذا المجموع في دائرة المعارف العثمانية للمرة الأولى سنة ١٣١٦ من الهجرة. قال يُقرّظ هذه القصائد الغرّاء سناد الملك أديب الدولة العلامة السيد علي الشوستري شيخه في الأدب والشعر:

لله درُّ وحيد الدين من فَطِن ... ما لاح لي مثله من ساكني الدكن
رأيته ناطقاً بالشعر معترباً ... ومِصْقعاً بالدراري ألسن اللسن
طُوبَى له بارعاً في العلم مُنْخَرطاً ... في سلك مدّاح صفو الله ذي المنن

القصيدة الأولى:

(الجواهر الزاهرة) يشتمل على أربعة قصائد. ففي القصيدة الأولى خمسة وخمسون بيتاً أولها:

هل من يُبلِّغ من أهوى وأعشقه   عنّي تحيَّة شوق حين يرمقه
هل من يجيء بأنباء الأحبةِ من   أرض لها أرج يذكو فأنشقه
هل من ينبئ وَجْدي مَنْ شغفتُ به   حُباً سَطَا بفؤادي كاد يزهقه
هل من يقوم ويسري بي إلى بلد   ثوى به واستناخت فيه أينقه

إذا تأمّلنا في هذه الأبيات، وجدنا عواطف الحب والود والحنين والشوق إلى سيد الكونين ﷺ، فساق رحمه الله ما ساق من الأبيات على هذا المنوال إلى أن شَرَعَ في مدحه ﷺ، فقال:

محمد سيِّد الدارين ليس له   ندٌّ ولا خالق الكونين يخلقه
كالورد زهرته والمسك نكهته   والبدر طلعته والدر منطقه
خير النَّبيِّين لا تُحصى فضائله   فيحتويها بليغ القول مفلقه
طوق الرسالة تاج الرسل خاتمهم   طُوبَى لِمَنْ ذاك إخلاصاً يطوقه

وفي آخر هذه القصيدة يقول:

وفي الهند ناء أطال الشوق ليلته   ويستكينُ لأحزان تؤرِّقه
وإنه لأخو وَجْد أقاربه   مثل العقارب تؤذيه وتقلقه
قد جاء عندك يهمي عينه حَزَناً   حتى غدت عَبَرات الشوق تخنقه
فانظر إليَّ بألطاف تُزحزح عن   صدري بلابل أحزان تُضيقه

القصيدة الثانية:

وأما القصيدة الثانية من (الجواهر الزاهرة) فأولها:

إذا شدُّوا رحالهم وراحوا   بدا في القلب حزن لا يزاح
فيا لهفي لصَحْب فارقوني   فكم بيني وبينهم انتزاح
إذا أقْوَت منازلهم وأمْسَت   طلولاً قد تعفَّتها الرياح
وقفت بها ويجري من جفوني   دمٌ قان على نحري مفاح
ولما زاد وجدي زدت رحلي   إليهم حيث حلُّوا واستراحوا

انظر إلى نُدرة المطلع وجودته، وكيف شبّب بصحبه الذين فارقوه مع أنه يحبهم حباً جماً. ولقد أجاد فيما أتى ببيان حاله حين شدوا رحالهم.

وانظر كيف يتخلّص إلى مدح النبي الكريم ﷺ والأرض المقدسة التي شرّفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها ضريحاً له ﷺ إلى أن تقوم الساعة:

فلما جئتُ طيبة طِبْتُ نفساً ... بها وحوى على نفس مراح
مقام مثل دار الخُلْد فيه ... رياضٌ للصُدور بها انشراح
وفي أنهارها من تحت يجري ... نمير الماء سَلْسَال قُراح
وفيه الرتبة العُليا وفيه ... الكرامة والشجاعة والسماح
ومَنْ هو سيّدٌ للرسل فَضْلاً ... وفي يوم النُشور لهم جناح
وخير الناس طُراً من قريش ... هم، أهل العُلَى عَرَبٌ صحاح
كريم جوده يحكي الغوادي ... إذا ما القوم أهلكها الشياح
وما أشقى رجالاً أنكروه ... ألا ثلت عروشهم وطاحوا

هكذا تراه يسوق بيتاً بعد بيت في مدح النبي ﷺ إلى أن ختم هذه القصيدة الغراء المباركة بهذه الأبيات:

رسول الله يحمي كلُّ مرء ... أصابته من الدهر الرِّماح
فعطفاً يا رسول الله عطفاً ... عليّ برحمة فيها نجاح
عليك وآلك الشُرفاء فَضْلاً ... سلام الله ما انْبَلَج الصباح

القصيدة الثالثة:

وأما القصيدة الثالثة من (الجواهر الزاهرة) القصيدة الغرّاء التالية، تخميس قصيدة الفرزدق الشهيرة التي أنشدها أمام هشام بن عبدالملك يمدح الإمام سيدنا زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وأرضاهم عنا. والحق أن قصيدة الفرزدق هذه هي المكرمة المباركة التي يرجو بها الجنة.

وقصة إنشاد الفرزدق القصيدة أنْ هشام بن عبدالملك لما حجّ، طاف بالبيت، وسعى أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر لكثرة الزحام. فجلس على كرسي ينظر إلى الناس، وكان معه معشر من أعيان الشام وأمرائها. فبينما هو كذلك إذ أقبل الإمام زين العابدين رضي الله عنه، وكان أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم أرجاً، فطاف رضي الله عنه بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر تنحّى له الناس حتى استلم الحجر. فقال رجل من أهل الشام: من هذا؟ فقال هشام: لا أعرفه. قال ذلك مخافة أن يرغب فيه أهل الشام. وكان الفرزدق الشاعر حاضراً هناك، فقال: أنا أعرفه. فقال الشامي: مَنْ هو يا أبا فراس؟! فأنشد الفرزدق ولله درُّه وجزاه الله عنا وعن أهل البيت وعن المسلمين أحسن الجزاء:

هذا الذي تعرف البطحاء وَطْأته والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحَرَمْ
هذا ابن خَيْر عِبَادِ الله كلهم هذا التَّقيُّ النَّقيُّ الطاهرُ العَلَمْ

فقصيدة الفرزدق هذه مشتملة على تسعة وعشرين بيتاً، وعلى هذه القصيدة المباركة أسس شاعرنا العالي مديحه فرداً كاملاً من أهل بيت النبي الكريم ﷺ في تسع وعشرين قطعة أنيقة عالية مباركة أعلى الله مقامه في عليين، وألحقنا به.

وإليك أبياتاً من هذه القصيدة المباركة التي تنكشف بها عبقريته في فن الشعر:

هذا الذي لا تنال الشمس شهرته وليس ينكره من شام غُرّته
هذا الذي تلثم الأفلاك عفوته هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن من هو هاد سيد الأمم فاق الخلائق من عرب ومن عجم
هذا ابن من هو أهل الفضل والكرم هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العَلَمُ
مَنْ جدُّه مصطفى كالبحر همّته والغيثُ رحمته والليث سطوته

نالت بأعلائه الأفلاك دوحته　　مشتقة من رسول الله نبعته
طابت مغارسه والخيم والشيم

ومنها:

خير البرية قد طابت عناصره　　غرّ المناقب لا تخفى مفاخره
زاكي الأرومة لا تُحصى مآثره　　سَهل الخليقة لا تخشى بوادره
يزيّنه اثنان حسن الخلق والشيم

وإنه قمر في وجهه وضح　　وفي الزمان به نور الهدى يضح
سَمْحٌ يفيض لنا من كفّه منح　　حمّال أثقال أقوام إذا فدحوا
حُلو الشمائل يحلو عنده نعم

وهكذا تراه يأتي ببيت بعد بيت في مدح الإمام سيدنا زين العابدين إلى أن ختم هذه القصيدة العالية هكذا:

أنا بحرز كرام سادةٍ عَظُمت　　فلا تضج بأرزاء إذا دهمت
هم الليوث إذا نارُ الوغى اضطرمت　　هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت
والأسد أسد الشرى والبأس محتدم

فاضتْ هباتهم في الناس كالديم　　حتى بها اشتهروا في العرب والعجم
خير الكرام إليهم منتهى الكرم　　لا يستطيع جواد بعد جودهم
ولا يُدانيهم قوم وإن كرموا

قوم بذكرهم الأقوال تنتظم　　لم يَخْل مبتدأ عنه ومُخْتتم
باق ثناؤهم ما يسطر القلم　　مُقَدَّم بعد ذكر الله ذكرهم
في كل بَدْء ومختوم به الكلِمُ

قصيدته في أحوال المسلمين في عصره:

وأذكر الآن القصيدة التي أنشدها مولانا العالي؛ إذ استشهده مولانا ألطاف حسين الحالي (من طليعة الأدباء والشعراء في اللغة الأردوية في

الهند)، يذكر فيها أحوال المسلمين في عصره على رويّ قصيدة صالح بن شريف الرندي وقافيتها كما أورَدَ صالح بن شريف في قصيدته سقوط المسلمين في الأندلس. فأجاب مولانا العالي عن سؤال الحالي وارتاح فيما اقتضاه ببديع شعره وجودة قريحته. وإليك أبيات من قصيدة الرندي لتقتدر قصيدة مولانا العالي حق القدر:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمّ نقصان ... فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسان
فجائع الدّهر أنواع منوّعة ... وللزمان مسرّات وأحزان

ومنها:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الألف هيْمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما ... فيهنّ إلا نواقيس وصُلبان

ومنها:

أعندكم نبأٌ من أهل أندلس ... فقد سَرَى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث صناديد الرجال وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان

وهذا مقطعها:

لمثل هذا يذوبُ القلب من كَمَد ... إنْ كان في القلب إسلام وإيمان

ومن البعيد أن يقرأ أحد هذه الأبيات وتجمد عينه، بل يبكي بكاءاً مراً حزناً على ما أتت على المسلمين من الكوارث والنوائب. فكذلك إذا أمعنت النظر في نونية مولانا العالي تجد فيها عبقريته وقدرته الكاملة على اللغة العربية وشعرها، تجد أنها بحر زاخر من الشعر العالي، والأسلوب الجاهلي الساحر الجذاب، لا سيما إذْ تراه يُصوِّر الأحوال والوقائع بأسلوب عذب دقيق يدلُّ على براعته الرائعة، وقريحته المطاوعة.

حُسْن الاستهلال وجمال التخلُّص:

انظر كيف يستهلُّ قصيدة كأكثر شعراء الجاهلية بذكرى الأحبة البائنين يبكي ويبكي ويتشوَّق ويشكو حيث يقول:

هل من سبيل إلى وَصْل الأُلى بانوا ... بيني وبينهم بِيدٌ وقيعان
أو للزمان رجوع بالوصال إذا ... كانت له كالرَّحى في الدور أحيان
أو الدموع رقوء وهي جارية ... تدمي شؤون إراقتها وأجفان
أنى خمود لنار في الغرام بها ... ما في الجوانح والأحشاء لهبان

من خصائص الشعر الجاهلي: أن الشاعر يستهل القصيدة بذكر الأطلال والديار والحنين إلى المحبوب والتحسُّر على فراقه، ثم يخرج من نسيب إلى مدح أو غيره، ثم يتمادى فيما خرج إليه ويسمّى هذا تخلصاً، فكذلك مولانا العالي تخلَّص في قصيدة من النسيب إلى موضوعه، وأجاد فيه حق الإجادة كما قال ابن رشيق القيرواني في العمدة: (وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى الأول، وأخذ في غيره، ثم رجع إلى ما كان فيه). فإليك ما يقول:

وفتية عذلوني حين هيّج لي ... نَوْح الطيور بكاء فيه أشجان
تقول ما لك تبكي في اشتياقهم ... لكلّ طير لها في الأيك ألحان
فقلت: وَيْحَكم مهلاً لأني بي ... حزن تُسَعِّره كالنار أحزان
لما مضوا طفقت تعفو ديارهم ... كأنها مصحف تمحوه أزمان

ثم يذكر عظمة المسلمين السالفة:

أين الأُلى أدركوا بالسّعي من رُتَب ... ما لا يُسَامته بدر وكيوان
أين الأُلى مَلَكوا شرقاً كما مَلَكوا ... غرباً وسادوا الورى حتى لهم دانوا
أين الأُلى طلعت شهب العلوم بهم ... حتى استنارت بها في الأرض بلدان
أين الأُلى رتقوا فتق الورى وحموا ... ديناً به نسخت في الناس أديان
أين الأُلى نوَّر الأرجا سراجهم ... وزال عنها بهم كفر وطغيان

ثم يذكر سقوط المسلمين في العصر الحاضر:

خلف أضاعوا هدى أسلافهم ونسوا   ما قد أتاهم به للضبط قرآن
فلا لشقبهم رأب لأنهم   كل امرىء منهم في الحق سهوان
إن حدّثوا كذبوا إن خاصموا فجروا   وإن هم ائتمنوا أفٍ لهم خانوا
إنَّ الزمان بنا حَلَّت نوازله   يموج موجاً له كالبحر طغيان

هكذا ساق بيتاً بعد بيت يُصوِّر فيه أحوال المسلمين إلى أن ختم هذه القصيدة بمدح النبي الكريم وآله الأطهار لأنه يقول:

وكل قول من الأقوال لم يك في   مدحه فهو قول فيه نقصان

وإليك ختام هذه القصيدة:

نفسي فداء رسول كان قدوتهم   مَنْ أوضح الحق فيهم وهو عريان
ما أورق العود مخضرّاً وما سَجَعت   حمامة الأيك يوري شوقها البان
صلّى على المصطفى والآل كلهم   ربّي الذي هو ذو الإكرام منّان

هذا ورأيت أنَّ مولانا العالي شاعر فحل مطبوع موهوب، والأدب هبته الأصلية، وإنه على كل حال في الطليعة من بلغاء الدولة الآصفية شعراً وأدباً.

رثاؤه لمصطفى كامل:

وأخيراً أذكر فيما يأتي أبياتاً من رثائه للشيخ مصطفى كامل باشا المصري، والرثاء نوع من المدح يضاف إليه شيء من التحسُّر والتلهف والتفجُّع ليعلم أنه مدح لميت، وأفضله ما جمع بين هذين الأمرين: جمال الأسلوب، وجلال المعنى، ودقة الخيال، واستعظام المصيبة.

فمرثية مولانا العالي طافحة بالألم المبرح، مغمورة بالحزن، وأسلوبها أسلوب الفحول؛ ديباجة منفحة، ومعان نبيلة جلية، وألفاظ جزلة، وهذا هو الرثاء الجيد. وإليك بعض الأبيات منها:

لـقـد حـلَّ رُزْء بـالـبـريَّـة كـارث   تـهـونُ الـرزايـا بـعـده والـحـوادثُ
نأى مصطفى عن أهل مصر بموته   فـمـن بـعـده لـلـعزْ والـمـجـد وارث
وإن تـفـقـد الـقـوم الأجـانـب واحـداً   تجد من له في الفضل ثان وثالث
ولكننا بالعكس من حيث لا نرى   بـديـل فـقـيـد حـيـن أرداه حـادث
فـمـهـمـا يـغـب عـنـا كـريمٌ فـلا يقم   كـريـم لأسـمـى قـدره مـتـوارث

ويختم مرثيته هكذا:

فمن بعده في مصر يحمي الأنام من   بـحـور شـرور مَـوْجُـهَـا مـتـلاطـث
ومن بعده في اللمم يفرغ جهده   إذا انتشرت للمفسدين المشاعث
ومن مثله يهوى المهاوي جاهداً   لـرفـع الألـى هـم لـلـعـهـود نـواكـث
لـه عـنـد خـلاق الـبـريَّـة نـعـمـة   وأجـر إلـى يـوم الـجـزا فـيـه مـاكـث
سقى ربنا المولى بأمطار عفوه   مدى الدهر قبراً جسمه فيه لابث

ليس شعر مولانا العالي الذي يستوفي إحدى نواحيه من هذه الأوراق، لأنه أديب عالمي سبق عصره قروناً، وإني لأرجو ـ إن شاء الله تعالى ـ أن أتيح لنفسي فرصة أخرى فأتكلم عن شعره خاصّة إذا تيسّر لي جمع ما تفرّق من شعره.

بيت فضيلة وشرف:

البيت الذي درج فيه مولانا العالي بيت فضيلة وشرف، فلا عجب إذا نشأ كريم الخلق، جمّ المزايا، طيب النفس.

ذكر فضيلة الأستاذ الدكتور عبدالحق رحمه الله (رئيس القسم العربي بالجامعة العثمانية سابقاً) أنه كان من عادته الكريمة التقدُّم في السلام على تلميذه أو غيره، وإن كان أصغر منه سناً.

كان يلبس لباس العلماء العاملين ـ العمامة ـ أو القلنسوة الرومية فوق رأسه، ولا يزال يضع المنديل على كتفه. كان طبيباً حاذقاً يجامل المرضى، ويعالج الغرباء مجاناً.

اقترحت الدولة الآصفية أن يلتحق بالجامعة العثمانية ليكون أستاذ القسم العربي بكلية الآداب، ولكن الإدارة الطبية لم ترض بأن تفارقه.

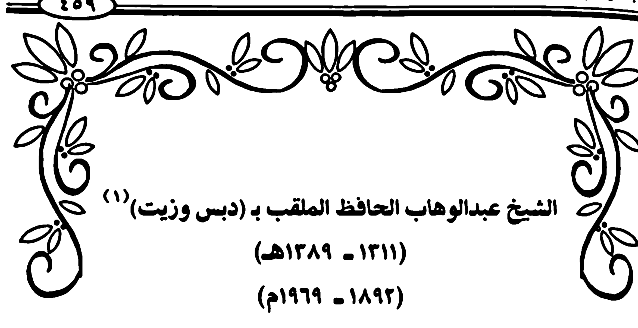
اشتغاله بتصحيح أمهات الكتب:

وكان رحمه الله مع ذلك يشتغل بتصحيح أمهات الكتب التي كانت تطبع وتنشر في تلك الأيام بدائرة المعارف العثمانية إلى أن مات رحمه الله.

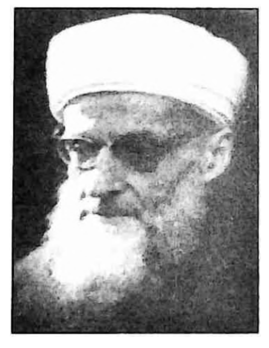
وفاته:

استقرّت النّوى بهذا الأديب الجليل، والطبيب الحاذق الكبير ـ بعد أن خدم الشعر والأدب والعلوم والمعاهد ـ التاسع عشر من شهر شعبان المعظم سنة ١٣٢٢ من الهجرة بعارضة القولنج، ودفن بتكية مغل فقير ـ مقبرة قديمة مشهورة بالقرب من حارة علي آباد بجنوب العاصمة ـ وكان عمره إذ ذاك أربعاً وخمسين عاماً، رحمه الله وجزاه عن العلم والدين أحسن الجزاء ونفع بعلومه القريب والبعيد.





الشيخ عبدالوهاب الحافظ الملقب بـ (دبس وزيت)[١]
(١٣١١ ـ ١٣٨٩هـ)
(١٨٩٢ ـ ١٩٦٩م)



من أعلام الفقه وأشراف الأمة:

لقد شيَّعت دمشق منذ أيام عَلَماً من أعلام الفقه، وواحداً من أشراف الأمَّة حَمَلة الكتاب الكريم، كان أمَّة في رجل جَمَعَ أشتات العلوم، وأخذ بأطراف الفضائل في جميع الفنون.

ولقد كان أحد العلماء الأجواد، الذين نَذَروا أنفسهم لخدمة الإسلام، والذَّود عن شريعة هذه الأمة، فلم يدَّخر وسعاً، ولم يملك طاقة إلا بذلهما لإعلاء كلمة الله تعالى في الأرض، ثم خرج من هذه الدنيا صفر اليدين من حطامها لا مال، ولا جاه، ولا منصب ولا سلطان... ولكن صيت حسن، وذكر كريم، وأياد بيضٍ، وعلم ينتفع به.

لقد انضمَّ الفقيد الغالي إلى القافلة من الأعلام الذين خسرتهم الأمة،

---

(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة العاشرة: (١٣٨٩ ـ ١٩٦٩). وتنظر ترجمته في «تاريخ علماء دمشق» ٢/٨٢٩ ـ ٨٤١ لابن أخيه الأستاذ الفاضل محمد مطيع الحافظ.

وكأني بالأيام السود التي أخبر عنها الصّادق المصدوق ﷺ قد حلّ موعدها، وآن أوانها. فقد جاء في الحديث الصحيح: «إنّ الله تبارك وتعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتّخذ الناس رؤساء جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا»[1].

أسرته:

ولد الشيخ رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة اثنتين وتسعين وثماني مئة وألف للميلاد، الموافق لسنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة، في دمشق، في أحد أحيائها القديمة وهي حي العقيبة، من أب كريم هو الشيخ عبدالرحيم بن عبدالله بن عبدالقادر بن عبدالوهاب دبس وزيت الذي ينتهي نسبه إلى العلامة العارف بالله تعالى الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه. وقد اشتهرت أسرته بلقب الحافظ لأن معظم أفرادها من الحَفَظَة الكرام.

طلبه للعلم وشيوخه:

سار الشيخ رحمة الله تعالى عليه، على سُنّة آبائه وأجداده، فتلمذ أولاً على يدي والده المرحوم الشيخ عبدالرحيم، الذي أقرأه القرآن، وقام على تعهُّده ورعايته، حتى أتقن حفظه ولمّا يبلغ بعد سن الحلم. ثم أعاد قراءته على الشيخ المرحوم **محمد سليم الحلواني**، شيخ قرّاء دمشق في ذلك الحين.

كما أُغرم بطلب العلم منذ نعومة أظفاره، فاتّصل رحمه الله تعالى، بكبار علماء عصره، وتلقّى على أيديهم. فاتّصل أولاً بالشيخ المرحوم **محمود ياسين**، وقرأ عليه الفقه الشافعي وعلوم العربية. ثم تعرّف على مفتي الديار الشامية المرحوم **محمد عطاء الكسم** الذي توسّم فيه بوادر الذكاء والنجابة، فأقرأه على الفور حاشية (ابن عابدين) من باب الإجارة. ولمّا أتمها أعاد عليه قراءتها كاملة مرتين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمرو.

ولقد كانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته رحمه الله تعالى، وأعمقها تأثيراً. فقد لازمه فقيدنا ما يقرب من ثلاثين عاماً ملازمة حقيقية، لا تعرف الفتور أو الانقطاع، فكان يحضر دروسه العامّة والخاصّة، ولم يَتخلّف عنها كل هذه الفترة الطويلة إلا ليلة زفافه.

وقد تَلقَّى على يدي شيخه الكسم جميع أنواع العلوم، من فقه، وحديث، وتفسير، ولغة، وبلاغة، وعروض، ومنطق وغير ذلك. وكان خير تلميذ لخير أستاذ، كما كان أثيراً عند الشيخ، بارزاً عنده، محبَباً إليه، يقرِّبه ويفخر به، وكلّفه بالتدريس، وإقراء الناس نيابة عنه في مسجد «يلبغا».

نشره للعلم ودروسه:

وقد توجَّه أثناء طلبه للعلم إلى نشره بين الخاصّة والعامة، فكان على ضعف جسمه، وانحراف صحّته، لا يتأخر عن إعطاء الدروس في بيته ومسجده حتى آخر لحظة من حياته.

كان رحمه الله تعالى لا يستطيع المشي أكثر من خطوات لضعف جسمه، ومع ذلك فإنه كان يُكابد ويُعاني مشقة الوصول إلى المسجد لإلقاء الدروس على طلابه مبتغياً وجه الله تعالى.

كان رضي الله تعالى عنه لا ينقطع عن إعطاء الدروس صيفاً ولا شتاءً، رغم أنَّ البرد كان يُؤثِّر عليه أكثر من تأثيره على الطفل الرضيع، ومع ذلك كان لا يتأخَّر عن درس، ويأتي إلى الدرس وصدره يخفق من التعب، كان رحمه الله تعالى مُدقِّقاً باحثاً، يُنقِّب في بطون الكتب ليتحقَّق من المسائل المعروضة عليه من شتى الأقطار الإسلامية.

أخلاقه:

كان ـ رحمه الله تعالى ـ زاهداً في الدنيا، مُعرضاً عن زخارفها وبهارجها، ومناصبها، وزينتها، عُرضت عليه وظائف كثيرة من كل من دمشق وبيروت وغيرهما من العواصم الإسلامية فأباها، وعُرضت عليه أمانة

الفتوى في زمن الشيخ محمد الأسطواني، فرغب عنها، كما عُرضت عليه إمامة مسجد دمشق العظيم وغيرها من المناصب فأباها. كان يكره مقابلة ذوي السلطان، ومصانعتهم ومداهنتهم.

عُرف ـ رحمه الله تعالى ـ بورعه الشديد في تَحرّي الحلال في كل ما تقع عليه يده، حتى إنه أحب أن يشتري كفنه في حياته من ماله الحر الخالص الذي لا تشوبه شائبة.

كما عُرف بمحبته الشديدة للرسول الكريم ﷺ، وتقفّي آثاره، واتّباع سُنّته، ومواظبته على زيارة قبره المعظم، وزيارة بيت الله الحرام كل عام، ولكنه قبل وفاته بثلاث سنوات أقعدته العلة عن هذه الغاية، فكتب إلى شيخ المدينة المنورة الشيخ إبراهيم الختني رحمه الله لينوب عنه في قضاء هذه الفريضة.

الدروس الدوريَّة التي كان يقوم بها الشيخ:

وقد أحبَّ الشيخ رحمه الله تعالى أن ينقطع للعلم، وللعلم وحده، فقبل بوظيفة التدريس في مساجد دمشق، وبخاصَّة المسجد الأموي الذي درَّس فيه قرابة ثلاثين عاماً، ومسجد التوبة الذي ألقى فيه معظم دروسه الخاصة، وفي مدارس جمعية الغرَّاء للعلوم الشرعية، وكان يلقي في اليوم ما يزيد على عشرة دروس، بين فقه، وأصول، وتصوُّف، ونحو، وتجويد، وحديث، وغير ذلك، وقد أحاط به تلامذته من أهل الحي ومن خارجه، ولازموا دروسه الخاصَّة ملازمة دائبة، فأفادوا من الشيخ رحمه الله تعالى، ونهلوا من معينه، حتى غَدَا منهم الفقيه، والمفتي، والخطيب، والإمام، لا في سورية فحسب، بل في بقية الأقطار الإسلامية كتركيا حيث أصبح فيها تلامذته منهم خطباء، ومدرسين، ومفتين.

رحمَ الله تعالى الشيخ، لقد كان أباً للفقراء والمساكين، بل أباً للجميع، تُحلُّ عنده المشكلات وتُسوَّى بآرائه الخصومات.

تلك هي قَبَسات من حياة هذا العلامة الكبير سيدنا الشيخ عبدالوهاب

دبس وزيت شيخ قراء دمشق، الذي توفَّاه الله تعالى بعد حياة حافلة نذرها لخدمة هذا الدين، وإعلاء شأن هذه العقيدة، من أجل أن تسود في الأرض شريعة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

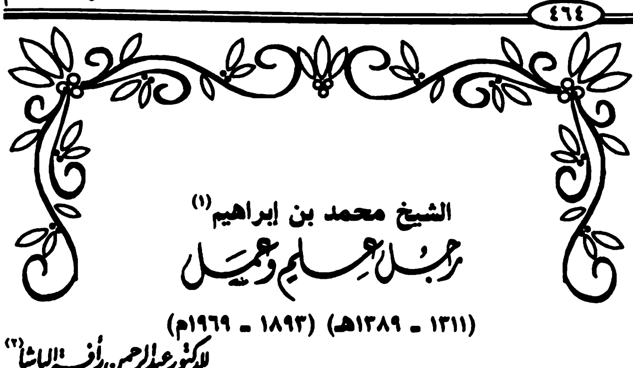
لقد ترك رحمه الله تعالى بوفاته فراغاً كبيراً في فقه الحنفية، وعلوم القرآن وتجويده، نرجو من المولى الكريم أن يُخرج من هذه الأمة المسلمة مَنْ يسدّ هذا الفراغ، ويحمل هذه الرسالة بأمانة وإخلاص كما أدّاها عليه رحمة الله تعالى.

وفاتـه:

وقد اختاره الله تعالى ضيف جنابه، ونزيل رحابه بعد ظهر يوم الأربعاء العاشر من رمضان الذي هو من شهور سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق للتاسع عشر من تشرين الثاني سنة تسع وستين وتسعمائة وألف.

تغمّد الله الفقيد برحمته، وأسكنه فسيح جنته، وجزاه عن هذه الأمة كل خير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

□ □ □ □ □



الشيخ محمد بن إبراهيم(١)

رجل علم وعمل

(١٣١١ ـ ١٣٨٩هـ) (١٨٩٣ ـ ١٩٦٩م)

للدكتور عبدالرحمن رأفة الباشا(٢)

إنَّ مصاب الأمة بفقد العالم من علمائها مصاب جَلَل، وذلك لما يحدث من تلك الثلمة المخيفة في طريق المسلمين. ولقد هزتنا وفاة العالم العامل الشيخ محمد بن آل الشيخ إبراهيم هزة زاد من ألمها تأخر وصول النبأ، مما جعلنا نقصِّر في أداء شيء من حق الرجل، وإن كنا قد لا نبلغ بعض ما له من حق.

ولقد كان حسناً ما قام به لفيف من العلماء والكتاب ـ شكر الله لهم وأجزل مثوبتهم ـ فيما نشروا من مقالات وكلمات في العدد الخاص من جريدة «الدعوة» تناولت الكثير مما يجب تناوله من حياة الفقيد رحمه الله، ونحن إذ نقدم لقرائنا مقالاً منها للأخ الدكتور عبدالرحمٰن رأفة الباشا رمز وفاء للعلم وأهله، نسأل المولى سبحانه وتعالى أن يعوض المسلمين بالشيخ الأجل خير العوض، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م). وقد جمع الأخ الكريم البحاثة المسند المؤرِّخ النسَّابة الشيخ محمد بن عبدالله آل رشيد ما كتب عن الشيخ محمد بن إبراهيم من مقالات وكلمات في كتاب صدرت طبعة الثانية ١٤٢٠ في مكتبة الإمام الشافعي بالرياض، ولأستاذنا العلامة الشيخ عبدالفتاح ترجمة إضافية لمفتي المملكة في كتابه «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر».

(٢) ولد عام ١٩٢٠ في بلدة أريحا شمال سورية، وتلقى دراسته الابتدائية فيها، ثم تخرج في المدرسة الخسروية بحلب، ونال شهادة العالمية من كلية أصول الدين بالأزهر، وشهادة الليسانس في الأدب العربي من كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم درجتي الماجستير والدكتوراه من الجامعة نفسها. اشتغل بالتدريس والتأليف، وانتقل للتدريس في جامعة محمد بن سعود بالرياض. وأسهم بإنشاء رابطة الأدب الإسلامي.

توفي رحمه الله في يوم الجمعة ١٩٨٦/٧/١٨ في مدينة إستانبول بتركيا، ودفن بمقبرة الفاتح.

رحم الله فقيد الإسلام والمسلمين ـ محمد بن إبراهيم ـ فقد كان رجل علم وعمل.

لقد اجتمع له ما تفرّق في كثير من الناس، والتقى في شخصه ما لو وزّع على قبيل من الرجال لجعل كلاً منهم رجلاً.

أعباء جسام:

ألقيت على كاهله أعباء جسام تنوءُ بها العصبة من أُولي القوة فنهض بها بحزم المؤمن، وصبر المجاهد، وروية الحكيم.

بذل للمهام التي أُنيطت به نفسه، فدانت له، ومنحها وعيه، فجرت على عينه، وأولاها نصحه، فسارت رشيدة سديدة لا تنحرف ولا تنجرف ولا تنحاز.

حَكّم في أعماله شرغ الله، فكان له في ذلك عاصم من الخطأ، واسترشد في سيرته بنهج الصدر الأول، فاستقامت له وبه الأمور، واستشعر مسؤوليته أمام الله فذاد عن شرعه أكرم الذود، ونافح عن دينه أصدق المنافحة.

العلم وتربية الأجيال:

أيقن أن العلم هو الوسيلة القويمة لتربية الأجيال، وإعداد الرجال، فعلم بنفسه من صدر شبابه إلى حين وفاته، وعلم بغيره، فعمل على افتتاح المعاهد والكليات، ورعى شؤون تعليم البنات، واستقدم لذلك الأكفاء الثقات، فأفاض على أبناء أمته الخير والبر والنور، فما من امرئ ذي ثقافة في هذا البلد إلا وهو شيخه، أو شيخ شيخه، أو حسنة من حسناته، أو وصل إليه أثر من آثاره بطريق أو بآخر.

اهتمامه بشؤون القضاء:

أدرك بفطنته أن العدل روح المجتمعات وأساس الملك فأولى شؤون

القضاء عيناً ساهرة لا تغفل، وقلباً يقظاً لا يهمل، وعقلاً نيّراً لا يخدع حتى اطمأنّ الناس إلى حقوقهم، واستراحوا إلى عدل قضائهم.

كريم شمائله:

لقد استطاع الفقيد العظيم أن يكون رجل علم وعمل لما كان يتمتع به من جليل الصفات، وما يتحلى به من كريم الشمائل.

تبيُّنه وتثبُّته:

ولعل من أعظم مزاياه أنه لم يكن ـ أذناً ـ فقد كانت تلتقي عنده الشكايات، وتكثر في ساحته السّعايات، فكان يتبيَّن ويتثبَّت، ويتحرَّى، ويتريَّث حتى لا يصيب أحداً بجهالة، وهذه فريدة من فرائد الرجال.

لا ينتقم لنفسه:

وكان لا ينتقم لنفسه، فلكم ناله بعض الناس بجهالة أو بغير جهالة، فنسبوا إليه ما لم يفعل، ورموه بما ليس فيه فربما غضب، وربما تأثر، ولكنه ما خطر له مرة أن يثأر لذاته أو ينتقم لنفسه، وإنما كان يدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينه وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

معرفته أقدار الناس:

وكان يعرف الناس أقدارهم وينزلهم في منازلهم، فلا يرفع من لا يستأهل أن يرفع مهما كانت الملابسات، ولا يضع من لا يستحق أن يوضع مهما كانت المؤثرات، فأدرك بذلك كل الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

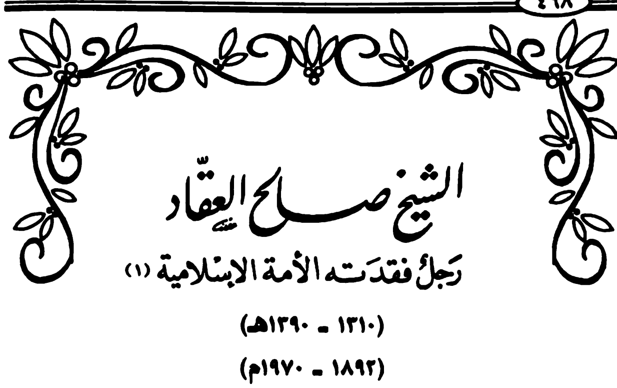
تواضعه الجمّ:

وقد كان متواضعاً جمَّ التواضع، لم يزهه منصب، ولم تفتنه دنيا، ولم يغيره سلطان، وتلك أكبر مزايا الرجال.

هذه بعض الشمائل التي جعلت من الفقيد العظيم - محمد بن إبراهيم - رجل علم وعمل، ويسَّرت له أن ينهض بما نهض به من جليل الأعباء.

أجزل الله مثوبة الفقيد العظيم وأكرم مثواه كفاء ما قدم بين يدي ربه وأمته وألهم أسرته الكريمة الصبر وعوضها الأجر.





الشيخ صالح العقّاد

رَجلٌ فقدَته الأمة الإسلامية (١)

(١٣١٠ - ١٣٩٠هـ)

(١٨٩٢ - ١٩٧٠م)

بقلم: محمد سعيد الفيومي

رَحِمَ الله أستاذنا الفاضل الحبيب أبا ياسين، ورضي عنه وأرضاه.

سلامٌ على روحه الرضيّة الطاهرة العَذْبة ورحمة الله وبركاته.

عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمتي من لم يُجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**» رواه أحمد بسند صحيح، والطبراني والحاكم في معناه[٢].

وإنّ أدنى الحق عليّ أن أذكر بعض الشيء عن هذا السيِّد الفاضل، الذي كان أُمّةً في رجل، جَمَعَ أشتات العلم والفضائل، ونحتسب عند الله عزّ وجل، أن يجعله في عداد أولئك الذين قال عنهم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) حضارة الإسلام، العددان: السادس والسابع، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٣٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٦٣) من حديث عبدالله بن عمرو، والحديث صحيح، تنظر شواهده في التعليق على «المسند» ١١: ٣٤٥.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾...﴾ [الفرقان: ٦٣، ٦٤].

فرحمك الله يا فقيد الإسلام والمسلمين، يا من ودَّعتنا وداع الأحباب، وسنلتقي إن شاء الله لقاء الأحباب المُتَحَابِّين في الله مع سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

اسمه ولقبه:

لقد عرف فضيلة الأستاذ الشيخ محمد صالح بن أحمد بن الحاج عبدالقادر العقاد في أوساط العلماء بلقب (الشافعي الصغير).

وكانت نشأته في بيت عُرف بالتقوى والصلاح والتجارة والصناعة والبذل والخير... وكان في نفسه أثر جدته لأبيه التي كانت تقوم الليل إلا قليلاً. فنشأ في ذلك الفردوس الصغير من البيت المؤمن الرفيع بتهذيبه وأخلاقه، وكان من ذلك خُلق الأستاذ طبعاً أكثر منه تطبُّعاً.

دراسته وشيوخه:

ابتدأ العلم في مدرسة الجُقْمُقيَّة (المعروف بناؤها الأثري شمالي الجامع الأموي)، وبقي فيها حتى الصف الخامس، حيث بلغ العاشرة من العمر، وأخذ خلالها في حفظ كتاب الله عزَّ وجل غيباً، وتطلَّع فؤاده إلى اكتساب الفقه، فترك متابعة دروسه في هذه المدرسة، وبدأ يتلقى الفقه الشافعي على يد فضيلة الأستاذ الشيخ **عيد السفرجلاني** (مدير تلك المدرسة نفسها) فرعاه رعاية الأب لابنه، وأقبل عليه بمثل إقبال الفتى الصالح على ربه، وتدرَّج هو في طلب العلم الشرعي، وانقطع له في شبابه، فكان يستيقظ باكراً، ويصلي الفجر، ثم يخرج إلى ربوة دمشق ـ وكانت في ذلك الحين ظاهرة الهدوء، رائعة الجمال الطبيعي، خالية من البنيان ـ وكان يصطحب معه زاده من الكتب، وبعض الطعام، وكان طعاماً خفيفاً غالباً قطعة خبز وجبن، فإذا انقضى النهار عاد إلى منزله.

وقد استمّر على هذا الحال قرابة عامين، وقد أخبرني أن تلك المرحلة كانت من أخصب مراحل حياته وأعمقها.

وقد نال رحمه الله من فضائل العلم والخلق حظاً موفوراً على أيدي كبار الأساتذة في دمشق وفضائلها الأعلام الذين نذكر منهم:

ـ الفقيه الشيخ عبدالوهاب الشركة، والفرضي الكبير الشيخ مصطفى القباني، والمحدِّث الكبير والفقيه الجليل الشيخ عبدالمحسن الأسطواني (القاضي الشرعي الممتاز المتقاعد)، فقد استقبله تلميذاً رغم بلوغ الشيخ يومئذ المئة من العمر، وكان عَلَماً من الأعلام، مشهوراً برجاحة عقله وقوة ذاكرته مع متانة صحّته ونشاطه، وخصَّه بدرس خاص لما عرف فيه من النبوغ والفطنة والإخلاص والعمل بما علم.

ثقة أساتذته به:

لقد دأب منذ نشأته الصالحة على التعليم والمطالعة والبحث الدقيق، يتبيَّن ويتثبَّت ويَتَحرّى حتى أصبح موضع ثقة أساتذته، والمُحبَّب إليهم والمفتخرين به، وأخذوا يوجِّهون إليه الكثير من مسائل الاستفتاء التي ترد عليهم من كل مكان.

اشتغاله بالصناعة والتجارة:

وكان شأنه في ذلك مع ما كان عليه شغلاً في الصناعة والتجارة، وقد مارس هذا الأمر نزولاً عند رغبة والده براً به وطاعةً لأمره، وقد عمل معه في معمل جده لنسج غزل الحرير الاصطناعي (الصَّايات)، ولما اتَّسع أفقه العلمي وشعوره بالثقة اشتد، نظَّم دروسه العامة والخاصّة حتى ملكت عليه معظم وقته.

انصرافه إلى العلم:

وكان منها ما يزاحم عليه عمله حين يحضر إليه من طلاب العلم ليقرر بعض الدروس في داخل المعمل أيضاً، واستمرَّ على ذلك حتى رأى أن

العمل بالتجارة لا يخلو من الوقوع في الشبهات والربا، فأوقف العمل وصفّى الشركة، وانصرف بكليته لخدمة العلم من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر دون أن يقطعها حتى ولا ليلة زفافه أو زفاف أحد من أبنائه الثلاثة الوحيدين: (ياسين، وعبدالعزيز، وعبدالقادر).

دروسه العامّة والخاصّة:

وكانت دروسه العامة تقتصر غالباً على الفقه بمختلف مراحله ومستوياته وأبوابه، أما الخاصّة منها فكان يلقي مع الفقه وعلوم الآلات دروساً في القرآن الكريم وتفسيره، والحديث الشريف ومصطلحه.

وكان مع سَعَته في علم التوحيد وتعليمه بمستوياته كافّة، يرى أن للعقل البشري حداً لا يتعداه يقتضي التسليم والتفويض بما ثبت في الكتاب والسنة فلا يخوض في المتشابهات والغيبيات بعيداً عن الوقوع فيما لا يعلم، مقتصراً على تنزيه المولى الكريم جل سبحانه عن أن يشبه شيئاً أو يشبهه شيء، ويُردِّد قول الله عزَّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولم تكن تلك الدروس للبحث وللبحث وحده، بل كانت روحه السامية الزكية الطاهرة الطيّبة تؤثّر في طلابه تأثير الروح في الجسد، شاحذاً هممهم مُحمّلاً إيّاهم تَبِعاتهم تجاه هذا الدين الحنيف، لافتاً انتباههم إلى أن طالب العلم يجب أن يكون كالنحلة تمتصُّ رحيق أفضل الأزهار لأجود الثمار، دون أن تقتصر على زهرة واحدة لتسلك منه ذلك الشراب الذي فيه شفاء للأبدان، وكذلك شأن شفاء الأرواح فإنه يستوجب التوسُّع بالعلم من مختلف مناهله وأزاهيره.

لباسه:

وكان يرتدي الثياب اللطيفة بما فيها العباءة الرقيقة وما عهدته أنه ارتدى الصوف ولا الغليظ من الثياب في أشدّ أيام البرد، أما في الصيف: فكان يلبس حلة بيضاء ناصعة.

طعامه:

أما طعامه فكان يتناول قليله دون أن يصل بحال إلى الشبع، وجبة في الصباح وثانية في المساء عقب صلاة العشاء، أما في فترة الظهيرة: فقد يتناول قطعة كعك أو نحوها.

وأذكر له حديثاً ذكره في منزل الأخ الفاضل الحافظ الجامع السيد محمد سكر[1] (منذ حوالي ١٥ عاماً)، وخلال درس فقه من بعد عصر يوم الجمعة فإنه حين قدم الشاي كالعادة (وسئل عن إمكانية أخذ نصيب منه) ـ خلافاً لعادته ـ وافق يومئذ، ولكن على نصف كأس، فعجبنا لموافقته هذه، ولو أنها على نصف كأس، وسأله أحد الحضور: عن سبب قبوله لذلك على خلاف عادته؟ فقال: إنني أثقلت اليوم بالطعام، فقد قدّمت إليّ دراقة، وأشار بأصابعه الثلاث إلى حجمها، فرأى أن ذلك مما يقتضي (لمخالفة عادة جسمه) أن يشرب لها هذا القدر من الشاي مَعُونةً على الهضم.

كثرةُ عبادته:

لقد كان لطيف الجسم، مُعتدلَ القامة، طبيعيَّ الابتسامة، كثير العبادة والذكر، والصلاة على رسول الله ﷺ، يستيقظ قبل الصبح بأكثر من ساعتين ويقيل من النهار دقائق معدودة فقط.

بيعه وشراؤه:

وكان يعيش عيشة القناعة والرضا، حياةً لا إسراف فيها ولا تبذير، يبتاع حاجاته بنفسه.

أما بيعه وشراؤه: فكان مَدَارهما على خُلق المسلم المُتَّصف بلسان

---

(١) توفي فجر الأربعاء ١٢ شعبان ١٤٢٩، الموافق ٢٠٠٨/٨/١٣م عن تسعة وثمانين عاماً. ونشرت ترجمته في موقع «الإسلام في سورية»، وسترد ترجمته في كتاب التراجم التالي لهذا الكتاب بعون الله عزّ وجل.

النبوّة بأنه: «سَمْح إذا باع، سَمْح إذا اشترى، سَمْح إذا اقتضى»[1]، فكان لذلك يبدأ بالسؤال عن السعر ولا يُماكس فيه، فإذا رغب بالشراء طلب المقدار الذي يريد شراءه، ثم يسأل ثانية البائع: كم تريد؟ فيدفع له، وهذه الصورة من أروع وأسمى أنواع الشراء وأفضلها، علماً بأنه كان لا يبتاع من أصحاب المعاصي أو ممّن يبيع المحرّمات أو ما دونها، ولا يصرف المال من عندهم (كبائعي الدخان ومعلبات اللحوم غير السمك).

أما كسبه: فكان من مال التجارة، أما بعد تركه إياها: فأصبح من إيجارات محلاته دون أن يتناول من مال الحكومة أو الأوقاف أي شيء.

كراهته تقبيل يده وفتواه في استحبابها لزهد صاحبها أو صلاحه:

وكان متيناً، قويّ البنية مع لطافته في جسمه، وإذا ما حاول أحد تقبيل يده، ولو من خاصّة طلابه وجد من قوته العُجَاب، حيث إنه كان يكره ذلك قائلاً: (أنا شقفة أيش) هذا التواضع الذي كان خُلقاً أصيلاً في نفسه كما يقول: (شو أنا لسيد الخلق؟! فهل كان الصحابة رضوان الله عليهم يقبّلون يده الشريفة)؟![2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٦)، وابن ماجه (٢٢٠٣)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».

(٢) نعم كانوا يقبلونها، وينظر: حكم تقبيل اليد، لفضيلة العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وأنه جائزٌ مشروعٌ على وَجْه البر والتكريم لأهله، وفيه ردٌ على من استدل بكراهته ﷺ لتقبيل يده الشريفة بأن قال: «هذا إنما تفعله الأعاجم بملوكها..» وأنه حديث ضعيف جداً أو موضوع، وفيه نكارة ظاهرة من جهة متنه، وهو مناقض لما صحّ عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قبّلت يده الشريفة وأطرافه الكريمة، كما هو مذكور في السنة الصحيحة، وقد نشرت فتوى الشيخ عبدالفتاح في مجلة «حضارة الإسلام»، ثم نُشرت في موقع رابطة العلماء السوريين بإشرافي. ولفضيلة العلامة الشيخ صالح العقاد المترجم له، فتوى في حكم تقبيل اليد نشرت في العدد السابع من السنة الثالثة من «حضارة الإسلام» (١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م)، ص٨٠٣ هذا نصها وجوابها: =

موقفه من خصومه:

لقد كان يدفع بالتي أحسن، وما كان له أن يغضب لغير الله، وهو في ذلك لا يرهب في الله أحداً، ولا تأخذه لومة لائم، وكم كان خير قدوة في مقابلة أولئك الحاسدين الذين أرادوا أن ينالوا منه بجَهالة وسفاهة، وكان يكثر في مثل هذه الأحوال الدعاء لخصمه بقوله: (اللهمَّ اهده، اللهمَّ أصلحه).

سماحة نفسه:

وكان من آخر ما حَدَث له قبل وفاته بأيام رحمه الله أنه كان ذاهباً من منزله إلى الجامع لصلاة العصر في يوم الجمعة، وفي ذلك اليوم القائظ اندفع نحوه بسرعة وعنف شاب يركب دراجة فصدم الشيخ الجليل الفاضل، وأصيب برضوض مختلفة، وشُجَّ شجّاً دامياً، ولما حاول البعض التحقيق في الحادث قال بنفس رضيّة كريمة: (هل كان هذا الشاب يتعمّد ذلك، سامحه الله).

كراهته الجدل:

وكان رحمه الله أشدّ ما يكره الجَدَل ولو كان محقّاً... هذا بينما كان في البحث يفصِّل الرأي ويبحث المسألة من أوجهها المختلفة.

= وردنا سؤال حول حكم تقبيل اليد وآداب ذلك وحكم الانحناء له؟ فأجاب فضيلة الأستاذ الشيخ صالح العقاد:

«إنَّ تقبيل يد الإنسان إن كان ذلك لزهده وصلاحه أو علمه ودينه ونحو ذلك، فهو ليس بمكروه، بل مستحب. وأما إن كان لغير ذلك كدنيا وغنى أو شوكة وجاه فإن ذلك مكروه أشد الكراهة كما قال النووي في كتابه «الأذكار».

دليل الاستحباب ما روي في سنن أبي داود عن زارع رضي الله عنه ـ وكان في وفد عبد القيس ـ قال: فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فَنُقبِّلُ يد النبي ﷺ ورِجْله».

ولكن يكره الانحناء إذا وصل إلى حدّ أدنى الركوع لنهي الرسول ﷺ عن ذلك ـ فيما يرويه الترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه ـ قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا. كما أنه لا يشرع وضع اليد على الجبهة كما يفعله بعض الناس لشبه ذلك بالسجود الذي لا يجوز لغير الله تعالى».

انتهى.

شدّة تواضعه وحُنوه على الضعفاء:

وكان شديد التواضع، يحنو على الضعفاء، ويقضي مصالحهم بيد مبسوطة، كما كان رحمه الله ينزل الناس منازلهم، ويعرف لهم حقهم. فهو رجل الوفاء والحب والتواضع.

احترامه للعلماء العاملين:

وكان كثير الاحترام للعلماء كافة وللعاملين منهم خاصة.

وأذكر على سبيل المثال من ذلك: أن فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبدالكريم الرفاعي حفظه الله ومدّ في أجله ونفعه، طَلَبَ مني ذات يوم أن أسأل الشيخ عن مسألة فقهية تتعلق بالمسكرات فأجابه برسالة استهلّها بقوله: (سيدي فضيلة الأستاذ...)، وهكذا كان خُلقه الكريم أبداً.

وكان من أحبِّ العلماء المعاصرين إليه: (أبو حنيفة الصغير) فضيلة الأستاذ الحافظ الفقيه الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت تغمّده الله بالرحمة والغفران، فكان حُباً عجيباً، وقد كان لوفاته في نفس أستاذنا أعمق الحزن والأسى رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته.

منزلته عند الناس:

وأما منزلته عند الناس: فقد اطمأنّ الناس لصواب حكمه وأمانته في الفتوى والرأي، فأصبح موضع ثقتهم ومؤتمن أماناتهم، ومحكَّماً في خلافاتهم العامة منها والخاصّة، مُحكِّماً في أعماله كلها شرع الله القويم، متمسكاً بحبل الله المتين، فينتهي بذلك إلى خروج الأطراف المتنازعة راضيةً مسرورة متسامحة بعد أن كانت مُتنافرة مُتخاصمة، كل ذلك كان بما حباه الله من الحكمة والفطنة، قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

حلُّه المشكلات وتسويته الخصومات:

لقد كانت تُحَلُّ عنده المشكلات، وتُسوّىٰ بآرائه الخُصومات، وقد زهد بالمناصب حين جاءته طائعة، فقد دُعي رضي الله عنه أكثر من مرة لمنصب الإفتاء العام فرغب عنه.

كريم شمائله:

ومن الحق والإنصاف أن نقول: بأنه كان رجل علم وعمل لما كان يتمتّع من جليل الصفات ويتحلّى به من كريم الشمائل والأخلاق، فعندما يراك يستقبلك ببشاشة عذبة صادقة تدخل إلى القلب وتتمكّن من النفس فتنفذ إلى الروح بهذا الإيناس واللطف النادرَيْن، وإلى جانب ذلك كان عفيف القلب واليد واللسان. وحال المسلمين شُغْله الشاغل، وهمُّه المقيم والمقعد، يتحرّق على مصابهم ونكباتهم وأشدُّ ما كان يؤلمه ويتحرّق عليه هو مستقبل أبناء هذه الأمة.

وكان تغمّده الله بالرحمة، يحمل على كاهله ما تنوء به العصبة أولو القوة، فينهض بها بقوة الإيمان وصبر المجاهدين الأبرار ورويّة الحكماء، مُسترشداً بسيرة المصطفى ﷺ، مستنيراً بمنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، ولم يُزَحْزِحْهُ عن طريقه هذا جَوْر جائر ولا غطرسة سلطان أو ظالم.

محاربته البدع:

لقد اشتهر رحمه الله بمحاربته للبدع والضلالات بشتّى أنواعها، وكان حريصاً كلَّ الحرص على إحياء سُنن رسول الله ﷺ المأثورة، ملتزماً بكتاب الله عزَّ وجل وسنة الرسول الكريم ﷺ، واحترام آراء جميع الأئمة.

لقد كان يُؤثر ذلك كله على الانزلاق وراء البدع، ولو صوَّرها الناس بصور العبادات والقُربات، واشتهرت بينهم وانتشرت في مجتمعاتهم التي هي من مخادعة الشيطان، الموصلة إلى الوقوع في حبائله.

وفاته رحمه الله تعالى:

لقد التحق بالرفيق الأعلى مع غروب شمس يوم الثلاثاء الواقع في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٩٠هـ، الموافق ١٨ آب ١٩٧٠م.

تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته، وجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وعن عبدالله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتَّخذ الناس رؤساء جهالاً، فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

تلك هي قَبَسات في كلمات موجزات عن فقيد الأمة الإسلامية، جمعنا الله به تحت لواء سيد المرسلين وإمام المتقين، وألحقنا به في الصَّالحين غير فاتنين ولا مفتونين، ولا خزايا ولا نادمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولا نقول إلا ما يُرضي اللّهَ عزَّ وجل: إنَّ القلب ليحزن، وإن العين لتدمع... وإنا لله وإنا إليه راجعون.

□ □ □ □ □

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).



الشيخ صالح العقّاد(١)

للأستاذ محمد الصباغ

بقيّةُ السّلف الصالح:

كان الله لدمشق.. فبين الفترة والفترة يُختطَف منها كريم، ويُنتزَع من رجالاتها صالحون، وتحلّ بساحتها كارثة إثر كارثة...

ولقد اخترمت يد المنون في الأسبوع الماضي صالحاً جليلاً من أبنائها، وعالماً عظيماً من أجلّ علمائها، وعبداً ورعاً كان مفخرتها، فَعَرى دمشق الخالدة من الحزن ما زاد في أساها.. لك الله أيتها المدينة وأنت تودّعين رجلاً من بقية السلف الصالح... وأنت تُودّعين رجل الجرأة والاستقامة... رجل الزهد والترفُّع... لك الله يا دمشق، وأنت تودّعين فقيدنا وأستاذنا الشيخ صالح العقاد رحمه الله.

إنّ الرزء في فقد الأستاذ الجليل والعلامة الشيخ صالح العقاد ليس لدمشق بلد هذا العالم.. ولكنه يتعداها إلى العلم عامة وإلى الفقه الإسلامي بصورة خاصة... بل إنه ليتجاوز مدينة دمشق والعلم إلى المعاني الكريمة الرائعة التي كانت متمثلة فيه، من الزهد الذي يعيد إلى أذهاننا صورة الزاهدين الصادقين من أسلافنا، والورع الذي يصعب على إنسان هذا العصر

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م).

أن يحياه، والجرأة التي تدفع بصاحبها إلى قول الحق لا يخشى فيه لومة لائم.

لم تكن الدنيا عنده إلا قنطرة يعبر عليها إلى الآخرة... كانت بيديه ولم تكن في قلبه.. وكان مستغنياً بالله عن الدولة والأوقاف والناس أجمعين.

توفاه الله يوم الأربعاء في ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٠هـ، الموافق لـ ١٩ من آب سنة ١٩٧٠م فقال الناس: توفي الشافعي الصغير.

لكنه قد كان كبيراً حقاً... كبيراً في نفسه وشخصه.. كبيراً في علمه.. كبيراً في خُلقه.. كبيراً في دينه.

أشهد أنَّ الكتابة عن هذا الرجل ـ مهما بذل الكاتب في تجويدها ـ تهضم حقَّه، ولا تقوى على تصويره على حقيقته، وهذا ما أشعر به وأنا أحاول أن أقوم بواجب الوفاء نحو أستاذي الذي أمضيت بضع عشرة سنة لا أذر حلقته في صيف ولا شتاء.

إنَّ الجوانب التي يمكن أن يُتحدَّث عنها في حياة الفقيد الكريم متعددة وسأقتصر على أهمها:

الفقيه الشافعي الكبير:

كان الفقيد علاّمة عصره في فقه الشافعية.. فلقد كان يستحضر مسائل الفقه استحضاراً عجيباً، حتى كأنَّ فقه المذهب بين عينيه، ولم يكن ـ غفر الله له ـ مُقتصراً على حفظ هذه المسائل فقط، وإنما كان يُحسن تطبيقها على وقائع العصر، فقد كان بسبب عمله في التجارة يُدرك القضايا المالية الجديدة المُعقَّدة التي يضطر إليها الاقتصادي المعاصر، وكان يستطيع أن يذكر لكل قضية الحكم الذي يناسبها معتمداً على ما يعلم من آراء الفقهاء، كان يُحسن ذلك على وجه قلَّما يستطيع أحد أن يُجاريه فيه من فقهاء عصره.

وكان ـ تغمَّده الله بواسع رحمته ـ يحرص على ذكر الدليل من الكتاب والسنة للحكم الفقهي، ولا يخلو درس من دروسه من استعراض الأدلة، وله ملاحظات في ذلك هي ثمرة اطلاعه الواسع العميق.

قضى هذا العمر المديد المبارك بالعلم والتعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكلّ عن ذلك ولا يملّ، ولا يصدُّه عن ذلك تعب ولا شغل، هذا مع ذهن صاف جوّال، وحافظة واعية، وقدرة على استيعاب المسألة وفهمها، وتحليل العبارة العويصة، ومعرفة لمظانّ المسائل في المراجع.

صدعه بالحق:

كان ـ غفر الله له ـ أمة وحده من بين العلماء الذين أدركناهم، إذ كان العلماء[١] في العصور المتأخرة خاضعين لسلطان العامة يُسايرونهم، ويُسَوِّغون لهم أحوالهم التي وَرثوها عن آبائهم، ويتهاونون في كثير من الأمور التي ألفوها، ذلك أنَّ الوعاظ من الدجّالين قد ركّزوا في أذهان العامة على تطاول الأجيال خرافات ألصقوها بالدين وهي ليست منه، وهي تحقق في معظم الأحيان مصالح لبعض الأشخاص القائمين بها.

وكانت على مرّ الأجيال المتقدّمة تقوم طاقات ضخمة في وجه هذا الانحراف من أمثال الإمام أحمد والشافعي وابن تيمية والعز بن عبدالسلام، غير أن هذه المنارات المضيئة قد قلّت في العصور المتأخِّرة، وأضحى العلماء تَبَعاً للعامّة، وكأنّ مهمة العالم أصبحت التماس المعاذير للعامة، وإيجاد المَخرَج والدليل لفساد الناس، وساعد على توطيد ذلك الرغبة في التأويل الذي لا حدّ له هرباً من التضليل على حدّ قولهم: (التأويل خير من التضليل). ومن هنا كان نفر من العلماء يخشون العامة أشد الخشية، ويُسايرونهم أكبر المسايرة، والصالح منهم يسكت، أما الذين يؤثرون المكانة

---

(١) الأوْلى أن يقول: بعض العلماء، أو كثير من العلماء، ولا يعمِّم الحكم عليهم كلهم.

فإنهم يذهبون مذاهب متعدِّدة في تخريج ما ألف العامة وتوارثوه. أما فقيدنا الكبير فلقد كان صَدّاعاً بالحقّ لا يبالي أرضيَ العامة أم سخطوا، جريئاً في قول ما يعتقد أنه الحق، لا يُسايرهم ولا يخشاهم، ولا يحرص على رضاهم.

فمن ذلك: امتناعه عن حضور أي حفلة مولد منذ عرفته، ويقول للذين يعتبون عليه: إنَّ فيما تقومون به من المخالفات ما لا يسرُّ رسول الله ﷺ، ولو أنكم استشرتموني لكان لي معكم شأن.

ومن ذلك: قضاؤه على عديد من البدع في عدد من المساجد، وكانت مملوءة بالبدع، وقد تحمَّل من أجل ذلك الكثير، فما ثَنَاه سَفَهُ السفهاء ولا حسد الحاسدين عن تحقيق ما يعتقد.

كان رحمه الله يُنفِّذ ما يعتقد مهما كان في سبيل ذلك من مصاعب ومن تضحيات.

كسبه وتجارته:

وكان رحمه الله يكتسب المال عن طريق التجارة، وكان له دكان في النورية (سوق الخياطين)، ولكن هذا العمل لم يكن ليصرفه عن طلب العلم والتعبُّد، بل كان عَوْناً له على طاعة الله.

ورعه وزهده:

وممَّا يعدُّ مثلاً رائعاً من أمثلة الورع: ما صنعه الرجل إبان الحرب العالمية الثانية، عندما أصبحت أسعار البضاعة التي كان يعمل بها كسعر البورصة، إذ أصبح الإنسان العادي يشتغل بشراء الغزل وبيعه، وبلغت أرباح الغزل في تلك الفترة مبلغاً خيالياً، فاعتبر عمله حينذاك، وأخْذَ تلك الأرباح شبهة لا ترتاح لها نفسه، ولا يطمئن لها قلبه، فترك الدكان وباع ما فيها، واشترى لنفسه عقارات ليؤجرها ويجعل ريعها دخلاً له، ينفق منه.

وكان ـ أسكنه الله فسيح جنَّاته ـ يحرص على أن لا يأكل إلا من

الحلال بقدر ما يستطيع، ولذلك فإنه لم يكن ليرضى أن يطعم عند إنسان يرى شبهة في ماله.

امتناعه من قبول وظيفة الإفتاء:

وممّا يتّصل بورعه وزهده أنه أبى أشدّ الإباء وظيفة الإفتاء ـ إفتاء الشافعية ـ وقد عُرضت عليه أكثر من مرة، فاعتذر بإصرار، ولما ألحُوا في الطلب كان موقفه الرفض بكل تصميم. هذا والناس يتقاتلون على أقل من ذلك بكثير.

اعتذاره عن الذهاب إلى الحكام:

كما أنه كان يعتذر عن الذهاب إلى الحكام، ولقد دُعي من قبل أحد رؤساء الجمهورية مرات عديدة، ولكنه كان يعتذر عن إجابة كل ذلك الدعوات.

لقد كان يقول: بِئسَ العالم بباب الحاكم، وَنِعْمَ الحاكم بباب العالم.

كراهته الاستدانة:

كانت حياته في بيته ـ غفر الله له ـ حياة بسيطة. زرته مرة فوجدت جدران البيت غير مطلية، ولما سألته عن ذلك؟ قال: لقد عرض عليّ فلان وفلان. فقلت لهم: إنّ همّ الدَّيْن ثقيل، ولئن استدنت من أحد ولم أوفه فإنّ صورته تتماثل لي في الليل، وأخشى أن أموت وذمّتي مشغولة لأحد من الناس.

مشاركته في الحياة العامّة:

كان الرجل يعيش عصره، لا يبتغي من وراء المشاركة الحية التي كان يمارسها في الحياة العامة ثمناً ولا مصلحة. وقد عرفنا ممّن ينتسب للعلم فئتين من الناس:

ـ فئة تشارك في الحياة العامة، ولكنها تقبض الثمن، وتُساوم عليه مالاً أو جاهاً أو مصلحة.

ـ وفئة أخرى، تفرُّ فلا تشارك الناس في حياتهم، وكأنما هي في واد والناس في واد آخر.

أما فقيدنا فكان ينصح الأمة، ويبيّن لها ما تسلكه في المواقف الحرجة، والأزمات المُسْتَحكمة. وكان يدرك أدق الأمور التي تخفى على كثير من الشباب في ذلك.

استمراره في العمل:

ومن أبرز مزاياه: الاستمرار في العمل الذي يبدأ به، فهناك الكثير من دعاة الخير ينطلقون في مشروعات عديدة دون أن يدرسوا إمكانية استمرارها، ولا يلبثون طويلاً حتى تنتهي هذه المشاريع وتتوقف، وينقطع بذلك الخير الذي كانت تُحقِّقه، وقد يكون توقفها مؤذياً إذ يدخل اليأس على الناشئة المبتدئين، ويُزلزل الثقة بمعاني الحق عنه عدد من الناس.

كان فقيدنا الغالي ـ أحسن الله إليه ـ إذا عُرض عليه مشروع فلا يوافق عليه إلا إذا توفَّرت له العوامل المُقْنعة له بقدرته على الاستمرار.

دروسه:

وحياته مُتْرَعة بالخير والنفع والتعليم، فهو لا ينتهي من درس حتى يستقبل مستفتين، ولا يودِّع هؤلاء حتى يبدأ درساً جديداً، بهمَّة علية لا تعرف الكلل وعزيمة لا تفتر على مدى الأيام.

ظلَّ قرابة خمسين سنة على طريقة جادَّة في الدرس والتدريس، يفتتح يومه بدرس قبل الشمس، ثم يأتي درس الضحى في بيته، ثم درس الظهر في (النورية)، وكذا درس العصر في غرفته المتواضعة التي يرقى إليها الطلبة في جامع نور الدين الشهيد.

ويُصلِّي المغرب في الصالحيَّة في جامع الشيخ محيي الدين، ثم يجلس لقراءة القرآن وتدريس العلم حتى العشاء الآخرة. أما يوم الجمعة ففيه درس بعد العصر عام.

تلاميذه من التجار والشباب:

لقد كان لهذا النّهج الذي لا يقوى عليه إلا أُولو العزيمة من الرجال نتائج مشكورة، فقد تخرّج في هذه الحلقات علماء من التجار، وفيهم الشباب الذين لا يُعرفون.

لقد محض هذا الرجل نفسه لتبليغ دين الله، لا يبتغي من وراء ذلك ثناء الناس ولا جزاءهم، وإنما يبتغي ثواب الله ومرضاته، وأرجو أن يكون قد بلّغها وافية.

اللهمّ اغفر له ذنوبه، وَأَعْلِ في جنّاتك درجاته، وبارك له في حسناته، واجْزه عن دينك خير الجزاء، وأسكنه الفردوس، وألهم آله وأحبابه الصبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.





الفقيه اللغوي العلامة الفاضل ابن عاشور[1]
(١٣٢٧ ـ ١٣٩٠هـ)
(١٩٠٩ ـ ١٩٧٠م)

بقلم الأستاذ: محمد أنور الجندي



نحت هذا العنوان كتب الأستاذ أنور الجندي في عدد جمادى الأولى لهذه السنة من مجلة «الوعي الإسلامي» عن الفقيد العظيم يقول:

عميد كلية الزيتونة:

في يوم ١٣ صفر ١٣٩٠ (٢٠ أبريل ١٩٧٠) ودّع الحياة عالم من كبار علماء المسلمين هو المرحوم الأستاذ الفاضل ابن عاشور، فقيه تونس، وعميد كلية الزيتونة، وعضو المجامع اللغوية في القاهرة ودمشق مات عن واحد وستين عاماً[2]، أعظم ما يكون تألّق فكر، وحيويّة عقل، وصحّة بدن.

رحلاته العلمية ومحاضراته:

وقد عُرف في السنوات الأخيرة برحلاته في سبيل الثقافة العربية والفكر

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠ ـ ١٩٧٠).
(٢) ولد عام ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م في مدينة تونس (الجندي).

الإسلامي إلى عديد من الأقطار، واشتهرت عنه محاضراته البارعة وأحاديثه الذكيَّة باللغة الفرنسية، مُتحدثاً عن الإسلام، عارضاً للفوارق والروابط بين الفقه الإسلامي والشرائع الغربية، كاشفاً عن عظمة الإسلام، وتلك كانت أبرز خصائصه التي عرفتها.

وقد استمعت إليه المرة بعد المرة حين يتحدث في هذا المجال فيبز الفقهاء ورجال القانون جميعاً، ويقدِّم للعقل الإنساني تلك الحقائق سائغة مبسَّطة، وتلك كانت هوايته المُحبَّبة، فقد حاضر في جامعات استانبول، وجامعة عليكرة في الهند، وخلبَ الألباب بقدرة أستاذ معمَّم يلبس ذلك الزي الإسلامي المغربي المعروف، وهو يعتلي المنابر ويهزُّ النفوس، هذا مع فرط براعته وبلاغته وإيمانه بدينه وأمته.

والده العلامة الطاهر ابن عاشور:

وقد كشف لي في حديث خاص أجريته معه في العام الماضي ليكون نواةً لدراسة عنه كواحد من جيل الروَّاد في الفكر الإسلامي الحديث عن مصدر هذه الخاصيَّة، وقال: إنَّ والده العلامة الكبير الطاهر بن عاشور إمام المالكية في تونس وعلامتها منذ أوائل القرن، والرجل الذي التقى بالأستاذ محمد عبده في زيارته الأخيرة لتونس عام ١٩٠٤ قبل وفاته بعام، وقطب الدراسة السلفية التي كانت مجلة «المنار» التي أصدرها الشيخ رشيد مناراً لها وللمغرب كله، قال: إنَّ والده أطال الله بقاءه[١]. وهو ما يزال حياً، وله مؤلفات عديدة يتجدَّد صدورها في هذه الأيام هو الذي أرشده إلى هذا الطريق، ودفعه إلى أن يتزوَّد بالثقافتين الإسلامية العربية والفرنسية الغربية.

دراسته وشيوخه:

يقول: بدأت الدراسة في مطالع الصِّبا في البيت، فحفظت القرآن والمتون القديمة، ثم دخلت الزيتونة، وهنالك درست إلى أن تخرَّجت

---

(١) توفي عام ١٣٩٣هـ عن سبعة وتسعين عاماً رحمه الله تعالى.

بالشهادة الثانوية المسمَّاة (التطويع) عام ١٩٢٨م - ١٣٤٧هـ.

ثم واصلت الدراسة العليا في الزيتونة (الشريعة وأصول الدين واللغة) وعلى الشيخ محمد بن يوسف درست التفسير وصحيح البخاري، وعلى الوالد درسنا التفسير والموطأ والمطول للتفتازاني وديوان الحماسة.

وعلى الشيخ أبي الحسن النجار درسنا علم الكلام (المقاصد للتفتازاني)، وعلى الشيخ محمد بن القاضي درسنا أصول الفقه (شرح المُحلِّي على جمع الجوامع).

وكان والدي قد خطَّط لي نظاماً يتضمَّن تعليم اللغة الفرنسية بأساتذة خاصِّين، ولم أنتسب إلى مدرسة أو إلى معهد فرنسي.

تخرّجه في كلية الآداب في جامعة الجزائر:

ثم انتسبت إلى كلية الآداب في جامعة الجزائر لاستكمال دراستي في اللغة الفرنسية، وكانت الطريقة المُتَّبعة بعد الدراسة العليا أن يتقدَّم الطلبة لمباريات ومناظرات للدخول في سلك الأستاذيَّة وهي مراتب، والانتقال من كلِّ رتبة إلى ما فوقها إنما يتمُّ بمناظرة، وقد اجتزت المناظرات على التعاقب حتى أحرزت الدرجة الأولى عام ١٩٣٥.

تدريسه في جامعة الزيتونة والمدرسة الصادقيَّة:

وقد عملتُ مدرِّساً في جامعة الزيتونة، وفي المدرسة الصادقيَّة منذ عام ١٩٣٢ وأنا مستمر في التدريس، وظللت أواصل التدريس حتى وليت عمادة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٦١[1].

(١) وقد ظلَّ الفقيد محتفظاً بهذا المنصب حتى تُوفي (الجندي).

مشاركاته في مجال الثقافة الإسلامية والعربية:

ويمكن القول إن علامتنا قد واصل الاشتراك في مجال الثقافة الإسلامية والعربية منذ العقد الثالث، وتوالت أبحاثه في المجالات التونسية ورحلاته في الأقطار العربية والإسلامية، وكانت مفاهيمه واضحة عميقة الدلالة على غيرته وإيمانه وإخلاصه.

فقد كان حريصاً على أن يحمل لواء الدعوة إلى الإسلام والعربية في كل مكان، وأن يكون مدافعاً عن الفكر الإسلامي والتاريخ واللغة في وجه خصومها شاجباً لأهوائهم داحضاً لشبهاتهم.

أداؤه العربي والفرنسي واطلاعه على الفكر الإسلامي والغربي:

وقد آتاه الله القدرة من ناحيتين: من ناحية الأداء العربي البليغ والفرنسي الطليق، ومن ناحية اطّلاعه الواسع على الفكر الإسلامي والفكر الغربي على السّواء.

ولقد ردَّدت مثل هذا المعنى على مسمعه عند لقائي المطوَّل معه في صباح الجمعة ١٩٦٩/٢/٦م في فندق (شبرد) بالقاهرة، ونحن نستعرض أعماله وتاريخه، فقال لي:

«إنما هي ثقافة إسلامية واحدة وليست ثقافتين، فهي تقوم على عامل التكوُّن الإسلامي الصِّرف، فأنا أنظر إلى ما أقرأ بالفرنسية من ناحية المطلب الإسلامي وحده، وأنا أرى أمامي عقلين مختلفين عقل عربي وعقل أوروبي، وأنا ما طلبت معرفة من المعارف الفرنسية إلا بدافعٍ إسلاميٍّ، فأنا أحسُّ في قرارة نفسي أن شخصيتي آتية من سعد الدين التفتازاني والسبكي حين تناقش أو تقرأ ما يكتب عن الإسلام باللغة الفرنسية».

وفهمت من ذلك أنه يريد ألا يقال عنه: أنه مثقف ثقافة غربية بمعنى أنه يؤمن بما وراء هذه الثقافة من قيم على النحو الذي يقال حين نذكر بعض الذين تعلموا في فرنسا أو زاولوا عرض آثار الفكر الغربي عندنا.

دروسه ومحاضراته ومؤلفاته:

وقد كانت حياة العلامة الفاضل ابن عاشور خصْبة مليئة بالعمل والدرس والمحاضرة بين منابر المعاهد الإسلامية في تونس وليبيا والجزائر والمغرب، وفي مجمع البحوث الإسلامية، ومجمع اللغة العربية، وبين الكلية الزيتونية في تونس، وكلية الحقوق بها حتى كانت محاضراته تبلغ خمس عشرة ساعة في الأسبوع، وهو في هذا العمل يرتجل ولا يكتب، وقد واتته ذاكرته الخصبة، وأسعفته عقليته الحافظة بالنصوص والمصادر على نحو بارع، وقد كان يرى ذلك مصدراً من مصادر قصوره في التأليف وتحرير المحاضرات والدرس على النّحو الذي يلجأ إليه الأساتذة بكتابة ما يلقون في ساحات الدرس، وإنما كان يكتفي بأن يكتب خطوطاً عامة لما يتناوله، ولذلك فقد كانت محاضراته المطبوعة في مصر عن الحركة الفكرية في تونس من الأعمال التي تحققت تحت تأثير الضرورة، وإن كان له إلى ذلك مؤلفات أخرى منها:

١ ـ أركان النهضة الأدبية في تونس.

٢ ـ أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي.

٣ ـ كتاب التفسير ورجاله.

إلى جانب دراسات أخرى قيّمة التأليف كأبحاثه في مجمع القاهرة ومجمع دمشق اللغويين ومجمع البحوث الإسلامية.

وكان قد نشر فصولاً منثورة في مجلة «الثريا» التونسية عن مشاهير التونسيين في القرن الرابع عشر، وله أيضاً بعض الأبحاث في مجلتي الفكر والمجلة الزيتونية.

•

مشاركاته في المؤتمرات الإسلامية والعربية:

كما شارك في عديد من المؤتمرات الإسلامية والعربية في مختلف بلاد الإسلام والعالم العربي كمؤتمرات الحقوقيين والمحامين العرب في دمشق وبغداد، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، والمجلس التأسيسي في باكستان،

وجامعة استانبول في تركيا فضلاً عن زياراته لأوروبا بدولها المختلفة، وخاصة فرنسا وسويسرا وإيطاليا، وذلك إلى شغفه بالحج والعمرة فقد أداهما عشر مرات.

كما شارك في الاحتفال بمهرجان ابن خلدون في القاهرة، وحضر إزاحة الستار عن تمثال ابن خلدون المقام في مدينة الأوقاف بالدقي.

ميادين ثلاثة:

وقد استخلصت من مراجعة آثاره وكتاباته أنه قد أضاف إضافات بناءة في ميادين ثلاثة هي: **التشريع الإسلامي، واللغة العربية، والتاريخ الإسلامي**.

وقد سألته في ذلك فقال: إنَّ هناك رابطة عضوية بين التشريع الإسلامي واللغة، فاللغة العربية أداة ضرورية لفهم التشريع الإسلامي، وتعمُّق روح الإسلام يكاد يكون ضرورة ماسّة لتذوُّق اللغة العربية وآدابها.

ونحن نحتاج للنظر في تاريخ الإسلام لاسْتجلاء ماضينا، وحتى نتصوَّر ما علينا من واجبات نحو الماضي وما تربطنا به من مُقوِّمات، لا نستطيع أن نخرج عنها وخروجنا عنها معناه أننا نخرج عن أنفسنا. فضلاً عن حاجتنا الماسَّة إلى التعرُّف على روَّاد نهضتنا العربية الإسلامية الأوَّلين حتى نكون على بصيرة من الغاية التي نحن سائرون إليها الآن، لأننا في الحقيقة لسنا إلا مواصلين السير على خطط النهضة التي خطَّطها هؤلاء الروَّاد، ولكن الطريق قد يَنْبهم أمامنا أحياناً، فيكون من الضروري لنا أن نتعرَّف دائماً طريقنا الصحيح، وروابطنا بقادتنا الأولين والمبادئ التي قامت عليها النهضة أصلاً.

وطن الارتكاز ووطن الامتداد:

ويؤمن العلامة الفاضل بن عاشور أن العالم العربي يضمُّ شرقين يطلق

على المشرق منه وطن (الارتكاز)، ويطلق على المغرب منه (وطن الامتداد).

ويرى أنَّ الخط الجامع بين النقطتين هو النيل، فمن الضفة الشرقية للنيل يبدأ المشرق، ومن الضفة الغربية يبدأ المغرب.

وقد سألته عن ذلك التمييز الواضح لدراسات المقارنة في اللغة والفلسفة والفقه، وذلك الطابع الذي يطبعها فقال:

يختلف المغرب عن المشرق من حيث ائتلاف العناصر، ومن حيث أن أول عهده بالعروبة يبدأ منذ أول عهده بالإسلام بخلاف ما في المشرق، حيث له روابطه بالعروبة منذ أمد بعيد قبل الإسلام، ويختلف أيضاً من حيث متاخمة المغرب للعالم الغربي الأوروبي، ومن حيث متاخمة المشرق للعالم الإيراني والهندي، من هنا تكوَّنت في المغرب عناصر طبعت الفكر وطبعت الأدب، وجعلته مع ما يتلاقى فيه من العنصر العربي الذي هو وطن (الارتكاز) يمتاز بظواهر خاصَّة، هي نتيجة تلك الخاصيَّات التي اتصلت بتكوين الفكر والشعور ولم تتصل بالعالم الشرقي.

ظاهرة تطلع المغرب إلى المشرق:

كما أشار إلى ظاهرة تطلع المغرب إلى المشرق على امتداد التاريخ، وكيف أنَّ الرحلات الإسلامية كلها قد بدأت من المغرب إلى المشرق وليس العكس، فقال: إنَّ المغاربة كانوا يتطلعون دائماً إلى الشرق، حيث بيت الله الحرام في مكة، وحيث قبلة المسلمين، وملتقى وحدتهم الروحية والفكرية.

حصيلة ضخمة من العلم والثقافة:

وبعد فإنَّ آثار العلامة الفاضل ابن عاشور كثيرة وجديرة بالمراجعة والعرض لما تحويه من مفاهيم وآراء هي خلاصة تجربة عالم عريق أتاحت له دراسته وثقافته واتصالاته بعوالم المشرق والمغرب حصيلة ضخمة من العلم والثقافة.

هذا بالإضافة إلى شخصيته الجذابة وروحه المرحة وخلقه الرفيع وذكائه الحي. وبالجملة فهو أحد رواد الفكر الإسلامي العربي المعاصر الذين تركوا تراثاً ضخماً على طريق حركة اليقظة.

«رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته».

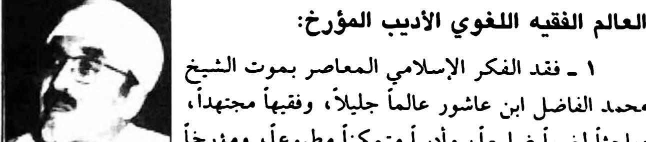


محمد الفاضل ابن عاشور[1]

(١٣٢٧ ـ ١٣٩٠هـ)

(١٩٠٩ ـ ١٩٧٠م)

للأستاذ: محمد الدسوقي



العالم الفقيه اللغوي الأديب المؤرخ:

١ ـ فقد الفكر الإسلامي المعاصر بموت الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور عالماً جليلاً، وفقيهاً مجتهداً، وباحثاً لغوياً ضليعاً، وأديباً متمكناً مطبوعاً، ومؤرخاً دقيقاً، ولا غرو فهو فرع من دوحة كانت منذ عدة قرون ـ وما تزال ـ مثابة العلم والعلماء في تونس.

وقد عرفت الفقيد معرفة لقاء قبل وفاته بنحو عامين، وقدم إليَّ مساعدات علمية هامة، كان من بينها أنه أرسل إليَّ على نفقته الخاصة مصوراً لكتاب لا يوجد إلا في دار الكتب الوطنية التونسية.

واليوم يفرض واجب التلمذة والتقدير لعلمائنا المخلصين أن أكتب هذه الكلمة السريعة عن هذا العالم الفاضل تحية وفاء له، واعترافاً بفضله،

---

(١) مجلة الأزهر، العدد الخامس، السنة الثانية والأربعون: (١٣٩٠ ـ ١٩٧٠).

وتسجيلاً لبعض حياته، وأهم آرائه، راجياً أن أوفق مستقبلاً في تقديم دراسة وافية عنه إن شاء الله.

بيت العلم والأدب:

٢ ـ نشأ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور كما أومأت آنفاً في بيت علم وأدب، ويعد والده الطاهر بن عاشور ـ متعه الله بالصحة والعافية ـ من أبرز دعائم النهضة الحديثة في المغرب العربي، فقد جاهد الاحتلال الأجنبي، وعمل على دفع الغزو الثقافي الذي كان يريد لبلاد المغرب أن تصبح قطعة من بلاد المستعمر، فتنسى تاريخها وتتحدث بغير لغتها، وتتخلىٰ شيئاً فشيئاً عن عقيدتها وتراثها، لقد قيض الله لهذا الجزء من الوطن الإسلامي ـ الذي تعرض لسياسة استعمارية حاقدة ـ رجالاً مخلصين كافحوا سياسة المستعمر الخبيثة، وأنقذوا الثقافة الإسلامية وعروبة اللسان المغربي من كيد المحتل الغاصب، وكان والد فقيدنا العالم في طليعة هؤلاء الرجال الذين حملوا الراية وتقدموا الصفوف في إيمان راسخ وجهاد دائب، فحقق الله على أيديهم الخير الكثير.

دراسته:

في هذا البيت الذي رعى الفكر الإسلامي ولغة الكتاب العزيز وعرف الأبطال والمجاهدين والعلماء والأدباء، ولد الفقيد الكريم في سنة ١٣٢٧هـ وتلقى دروسه الأولى على يد والده حتى أجاد العربية وألمَّ بعلوم الدين، ثم أقبل على تعلم اللغة الفرنسية، وبعد أن أتقنها أكمل دراسة العلوم الشرعية والعربية في جامع الزيتونة الأعظم، وكان مثالاً للجد والتحصيل والعكوف على الدراسة والتعلم، فضلاً عن الرعاية التي أسبغها عليه والده والتوجيه الذي كان يتعهده به، فتخرج في هذه الجامعة العريقة ذات التاريخ المشهور في خدمة الإسلام وتراثه الفكري والحضاري، وهو في نحو الحادية والعشرين من عمره.

تدريسه في جامع الزيتونة:

٣ ـ وعُيِّن عقيب تخرجه مدرساً معاوناً في جامع الزيتونة مما يدل على أنه كان قد وصل بعد إتمام دراسته في هذا الجامع إلى درجة من العلم أهَّلته لأن يتولى التدريس في الزيتونة وهو ما زال في شرخ الشباب، وكأنه بهذا يعيد إلى الأذهان ما كان من كثير من فقهائنا الأعلام الذين كانوا يجلسون مجلس الأستاذ وهم في سنّ العشرين أو بعدها بقليل، ولبث مدرساً في الزيتونة وبخاصّة في القسم العالي قرابة عشرين عاماً، ألقى فيها كثيراً من المحاضرات في التوحيد والتفسير والأدب واللغة.

رئاسته للجمعية الخلدونية:

وفي سنة ١٣٦٥هـ انتخب رئيساً للجمعية الخلدونية، وهي جمعية تهتم بالدراسات الإسلامية والأدبية في تونس، ثم أنشأ معهد البحوث الإسلامية، للتعريف بالعالم الإسلامي وقيمه الفكرية والحضارية ومشكلاته المعاصرة وما يجب على المسلمين أن يقوموا به لكي يعيدوا لهذا العالم سابق مجده وعزته، وقد ألقى في هذا المعهد أكثر من مائتي محاضرة ألقت الضوء على كثير من شؤون المسلمين وقضاياهم في الماضي والحاضر.

مفتي الديار التونسية ووظائفه الأخرى:

ولنشاطه الجم وعلمه الغزير وآرائه الناضجة عين مفتياً للديار التونسية في سنة ١٣٧٣هـ، وظل في هذا المنصب إلى أن توفي يوم الثلاثاء ١٥ من صفر سنة ١٣٩٠هـ.

وفضلاً عن قيامه بالإفتاء كان أستاذاً للتشريع بكلية الحقوق، كما عُيِّن قاضياً للقضاء، ورئيساً للمحكمة العليا الشرعية، فرئيساً لمحكمة النقض والإبرام.

معرفته بمخطوطات الخزائن التونسية:

٤ ـ وهو مع هذا عارك في مجالات علمية مختلفة، منها أنه تعاون مع مجموعة من الباحثين في التعريف بمخطوطات الخزائن الزيتونية، ولا ريب أن دوره في هذا المجال كان دور الرائد الخبير، فقد نشأ في بيت يضمُّ مكتبة ضخمة جلُّ ما فيها مخطوط، وقضى أيام طلب العلم بين جدران هذه المكتبة، وحمله شغفه بالبحث على التنقيب فيما حوته هذه المكتبة من كنوز علمية مخطوطة وغير مخطوطة، ولذا كان وثيق الصلة بالتراث العربي الخطي منذ حياته العلمية الباكرة، وكان يعرف عن هذا التراث ما لا يعرفه بعض المهتمين به والمتفرغين له.

مشاركته في مؤتمرات المجامع العلمية:

ومنها أنه مثَّل تونس في مؤتمرات المجامع العلمية، مثل مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٣٦٨هـ، ومؤتمر الثقافة الإسلامية بتونس سنة ١٣٦٩هـ، ومؤتمر العلوم التاريخية بباريس سنة ١٣٧٠هـ، ومؤتمر المحامين من العرب بدمشق سنة ١٣٧٧هـ، ومؤتمر الأدباء العرب بالكويت سنة ١٣٧٨هـ.

عضويته في مجمع البحوث ومجمع اللغة العربية:

ومنذ إنشاء مجمع البحوث الإسلامية في سنة ١٣٨١هـ وهو عضو به، كما اختير في نفس السنة عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وكان له في كل المؤتمرات التي شارك فيها ـ وهي عديدة ومتنوعة ـ دور إيجابي وأثر واضح عن طريق أبحاثه المبتكرة ومناقشاته الممتعة وتعليقاته المفيدة.

بحثه في المصطلح الفقهي في المذهب المالكي:

٥ ـ ومن أبحاثه المبتكرة التي تبرز تعمقه في الدراسات الفقهية، ذلك البحث الذي ألقاه في مؤتمر المجمع اللغوي في الدورة الرابعة والثلاثين

تحت عنوان: «المصطلح الفقهي في المذهب المالكي»، وقد استهله بالإشارة إلى أنَّ المصطلحات التي تزخر بها كتب الحقوق والعلوم القانونية قد اعتمدت من المصطلح الفقهي المشترك المشاع بين المذاهب الفقهية، وإن كان المذهب المالكي أقوى إمداداً وأوسع أثراً من غيره في هذا المجال.

ثم قدم بعد هذا في عبارة طليَّة تجنح إلى الإيجاز تطور نشأة المصطلح الفقهي في المذاهب كلها مع بيان مناط الفرق بين مذهب ومذهب، وفصَّل القول بعض التفصيل في المذهب المالكي، وما انفرد المصطلح فيه بخصائص جعلت فقهاء القانون يرجعون إليه ويغترفون منه أكثر من سواه.

وجاءت خاتمة البحث تأكيداً لتلك النظرية[1] التي تذهب إلى أن الفقه القانوني الأوروبي متأثر بالفقه الإسلامي وإن تلك المصطلحات الفقهية الأوروبية تمتد بجذورها الأصلية إلى هذا الفقه وبخاصة الفقه المالكي.

واتفقت كلمة المؤتمرين[2] على أنَّ هذا البحث عمل علمي فريد في بابه، وأن صاحبه قد تعمق فيه إلى أبعد أغواره فأحسن غاية الإحسان.

بحثه عن الاجتهاد في ماضيه وحاضره:

٦ ـ وفي المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية كانت قضية الاجتهاد من القضايا التي نالت قسطاً كبيراً من اهتمام المجمع وأعضائه، وكان لعالمنا الراحل مشاركة في هذه القضية يبحث عن الاجتهاد في ماضيه وحاضره بدأه بقوله: «جاء الدين الإسلامي يكشف للناس ـ في جلاء ـ حقيقة وجودهم فينبههم من الغفلة التي كثيراً ما استولت عليهم، إذ توهموا وجود الإنسان مقصوراً على مظهره المادي: يبتدئ بالميلاد وينتهي بالوفاة، فدعاهم الدين إلى الإفاقة من تلك الغفلة ومعرفة وجودهم على وجهها

(١) انظر: التشريع الإسلامي وأثره في التشريع الأوروبي، للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى (دسوقي).
(٢) انظر: مجموعة البحوث والمحاضرات للدورة الرابعة والثلاثين، ص٩٣ (دسوقي).

الكامل، بإدراك المبدأ والمعاد والإقلاع عن الأوهام والأباطيل التي حجبت تلك الحقيقة عنهم[١].

ثم عرض ـ في إيجاز واف ـ للاجتهاد في أدواره المختلفة منذ عهد الرسول ﷺ إلى يومنا الحاضر، وتساءل بعد هذا: هل انقطع الاجتهاد؟ أو استمر مطرداً؟

فإذا كان قد انقطع، فماذا نعني بتجديده، وإلام نهدف من ذلك؟ وإن كان لم ينقطع فما الذي نشكوه من أمرنا اليوم، وما هو السبيل إلى علاج ما نشكو؟

وقد رأى أن انعزال الدين عن الحياة العملية، واندفاع تيار الحياة العامة بالأمة الإسلامية في مجرى الهوى الذي ما جاء الدين إلا ليخرج بالمكلفين عن داعيته، هو السبب في تخلف الاجتهاد في هذا العصر، والطريق الأقوم للعودة بالاجتهاد إلى سابق مجده وقوته وازدهاره، هو تبصير الباحثين بأن الاجتهاد حركة عقلية في أحكام الدين المشروعة لصالح الأمة، وأن هذه الحركة، لن تثمر ثمرتها المرجوة منها إلا باجتهاد جماعي منظم.

والواقع أن الإسلام يواجه اليوم موجة عارمة من الكيد السياسي والعلمي، وأن على المسلمين أن يجاهدوا ويجتهدوا ليدفعوا عن دينهم وأنفسهم ما يدبر لهم من المكر السيّئ، وكان بحث الفقيد الجليل صرخة قوية تهيب بعلماء المسلمين أن يتلاقوا ويجتهدوا ليؤكدوا للبشرية قاطبة أن هذا الدين صالح قولاً وعملاً لكل زمان وكل مكان.

دراساته النَّحويَّة واللغويَّة:

٧ ـ هذا طرف من آراء الشيخ الفاضل في ميدان الدراسات الفقهية، وأما آراؤه في مجال الدراسات النحوية واللغوية فهي تتسم كذلك بطابع الاستقلال والعمق والأصالة والاجتهاد، ومن ذلك مثلاً أن كتب دراسة عن

---

(١) انظر: كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية، ص٥١ (دسوقي).

تحرير أفعل التفضيل من قياس نحوي فاسد، وقد أثبت في هذه الدراسة ـ ولا سبيل هنا لتفصيل ما عرض له ـ أن النحاة ضيّقوا على أنفسهم وعلى لغتهم حين التزموا قياساً لأفعل التفضيل لا يطّرد مع ما نطقت به العرب، وأن علينا أن نتحرر مما التزموا، ونتوسع فيما ضيّقوا، ولا يفرض علينا هذا التطور الحضاري بقدر ما يفرضه السماع اللغوي.

وهذه الدراسة النقدية الجادة قدمها الفقيد إلى مؤتمر المجمع اللغوي بالقاهرة في دورته[1] الثلاثين، وأثارت بين الأعضاء جدلاً امتد إلى المجمع العلمي العراقي[2] بيد أنه الذي لا خلاف عليه أنها فتحت آفاقاً جديدة لتحرير النحو العربي من الشوائب التي شابته.

مؤلفاته الأدبية والعلمية:

٨ ـ وللفقيد فضلاً عن دراساته التي قدمها في المؤتمرات العلمية أو أبحاثه التي نشرها في مختلف المجلات ـ وهي كلها كثيرة ومتنوعة ـ مؤلفات أدبية وعلمية وقومية، منها: **الحركة الفكرية والأدبية بتونس**، **والتفسير ورجاله**[3] وهو كتاب ـ على وجازته ـ يعرض لنشأة التفسير وأهم أعلامه وخصائص كل مفسّر مع الاهتمام بالشهاب الألوسي وتفسيره، ودعوة الإصلاح الديني على يد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، وتفسير المنار.

وسيطرت مأساة فلسطين على وجدان الشيخ الفاضل، فألف عنها كتاباً دحض فيه مزاعم الصهيونية الحاقدة، وكشف عن سياستها الخبيثة وأطماعها التوسعية ودعا في إخلاص إلى توحيد القوة لردع هذا العدو الذي يخطط ويعمل من أجل القضاء على الوجود العربي كله.

---

(١) انظر: مجموعة البحوث والمحاضرات في دورة المجمع الثلاثين، ص٥٧ (دسوقي).

(٢) انظر: مجموعة البحوث والمحاضرات للمجمع العلمي العراقي، مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين، ص٩٣ (دسوقي).

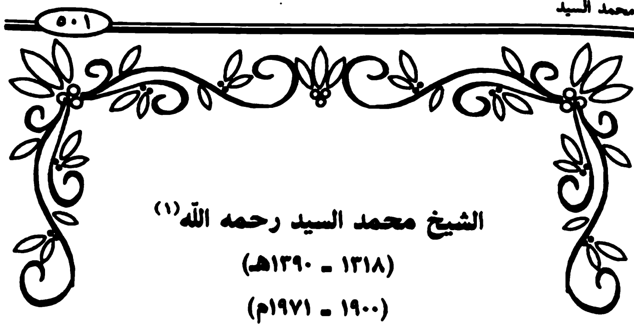
(٣) نشر هذا الكتاب مجمع البحوث الإسلامية في سلسلة بحوثه الشهرية (دسوقي).

وقال في كلمته التي ألقاها في مؤتمر المجمع اللغوي الأخير: «وإذا كانت صلات القربى إنما تقوى وتتوثق، ومعاني الود إنما تزكو وتتأكد عندما تعظم الملمّات وتستشري الأزمات فإن أحقَّ الأيام بأن تعرف فيه العربية أبناءها ويتعرفوا عليها، وأن تنعطف إليهم ويتعاطفوا عليها، لهذه الأيام المدلهمة التي جاء العدوان الحربي فيها يظاهر الغزو الثقافي، وامتدت فيها إلى العربية أيد أثيمة: هذه تعبث في أوطانها، وتلك تضيق على أنفاسها، وأخرى تبث فيها الفتن الروحية والفكرية».

٩ ـ وبعد فإن الشيخ الفاضل ابن عاشور كان مفكراً جليلاً واسع الثقافة، أصيل المعرفة، فهو فقيه مجتهد، يحترم عقله، وأديب مطبوع يؤثر اللفظ الجزل والكلمة الرصينة، ولغوي تدل آراؤه الحصيفة على أنه كان إماماً في اللغة كما كان إماماً في الفقه والأدب، وكان فوق ذلك تقياً ورعاً صالحاً خشع لله بجوارحه وفكره، وأخلص له في جهاده، وعاش حياته كلها يدافع عن دين الله ولغة الكتاب العزيز والتراث الإسلامي العريق حتى لقي ربه راضياً مرضياً.

رحمه الله، وجزاه كفاء ما قدَّم لدينه ولغته وأمته خير الجزاء.





الشيخ محمد السيد رحمه الله[1]
(١٣١٨ - ١٣٩٠هـ)
(١٩٠٠ - ١٩٧١م)

بقلم: سعيد السيد

وَدَّعت دمشق منذ أيام عالماً آخر من علمائها، وزاهداً من زهّادها: هو الأستاذ الشيخ محمد السيد الذي ظلَّ طيلة حياته بعيداً عن الشهرة والمناصب، عاملاً في صمت لربه ودعوته ولطلابه الذين كانوا يجدون فيه الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة.

اتصاله بالشيخ علي الدقر:

هبط الشيخ محمد من قرية «الديرخبية» قرب بلدة الكسوة إلى الغرب منها سنة ١٣١٨ شاباً معدوداً من شباب القرية يبحث عن «أرض» جديدة معطاءة في شخص الداعية الزاهد الشيخ علي الدقر عليه رحمة الله، بعد أن خلَّف أرض قريته التي كانت تنتظر سواعده الفتية، ولكنه رحمه الله، أدرك أنَّ شباب القرية وشيوخها بحاجة إلى كلمة الإيمان ودعوة الحق تنفرج عن شفاهه. وتسامع بالشيخ علي الدقر ودعوته المباركة في دمشق، فسعى إليه

(١) حضارة الإسلام، الأعداد الثامن والتاسع والعاشر، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

متواضعاً تائقة نفسه ينشد الخير، ويطلب العلم ولمّا يمضِ على زواجه في قريته عام أو بعض عام..

موسم الحصاد:

.. وبعد سنوات من الغربة والوحدة... والجوع في كثير من الأوقات بدأ موسم الحصاد في حياة الشيخ الراحل. فقد تفتّحت نفسه على نور المعرفة والعلم بعد أن كان شباب القرية قد «حصدوا» مواسم كثيرة من الحبّ والغلال ذهبت كما يذهب كل متاع الأرض. وبقي إيمان الشيخ وعلمه ثابتاً في صدره كما يبقى الدين والعمل الصالح، وبقي فيه كتاب الله تعالى الذي حفظه الشيخ وما زال يتعهده بالرعاية والعناية ـ ومتون كثيرة في النحو والفقه وعلوم أخرى ـ ملازماً له حتى وُوري في التراب. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

معرفته الحقّة بالإسلام:

وانطلق الشيخ من المعرفة الحقّة بالإسلام التي استقرّت في صدره، وصدّقتها جوارحه وأعماله، فاستطاع أن يَتجاوز في كثير من المواقف البيئية التي كتب له أن يعمل فيها. فلم يكن فهمه للإسلام في حدود أناس قريبين ومصالح موقوتة، ولم يكن الدين عنده ـ رحمه الله ـ حلّةً يرتديها يفيد منها في المناسبات والمواقف. ولكنه تجاوز هذه الظواهر التي وقف عندها كثير ممّن كان إلى جانبه، ولكن لم يكن لهم صفاء نفسه وعميق إيمانه... تجاوزها إلى الشعور بشعور المسلمين ومشكلات العالم الإسلامي وما يعتلج فيه من حركات ودعوات إصلاحية مباركة.. فكان يديمُ القراءة والمطالعة في أحوال المسلمين في العالم.. ويُصوّر لمَنْ حوله طريق النجاة في وحدة العاملين للإسلام، ووحدة الفهم لأركان هذا الدين.

سلوكه في حياته:

وكان سلوكه في حياته مثالاً يُحتذى، كما يشهد بذلك إخوانه وطلابه والقريبون منه.

لقد كان ـ رحمه الله ـ نِعْمَ العابد الورع الزاهد.. الصابر.. صَبَرَ على المرض ونوباته الشديدة التي كانت تهز أركان صدره الصغير الضعيف..

ولكن الإيمان الذي كان مستقراً في أعماق هذا الصدر.. كان يهزأ بهذه النوبات التي كانت تترك من حول الشيخ يحبس أنفاسه خشية وإشفاقاً وألماً عليه... ولطالما كان الكثيرون ممن حوله يتذكرون - كلما رأوه - الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود.. فقد كان هزال جسم الشيخ في أواخر سني حياته يذكر به... ولكن الذي كان يذكر به كذلك: قوة في الحق فُطِرَ عليها الشيخ وتربّى عليها، فكان لا يخشى في الله لومة لائم..

محنته وسجنه:

وكان يقول الحق ولو على نفسه... ولقد تحمّل في سبيل ذلك العنت والمشقة، فزجّ به في السجن أيام الاحتلال والاستعمار، وأُعيد فيه مرة أخرى في أيام مَنْ خلفهم الاستعمار والاحتلال.. ودخل السجن هذه المرة وعلى شفته ابتسامة عريضة ساخرة تحمل في طياتها من الألم والحزن على أحوال هذه الأمة الشيء الكثير..

صبره وعزيمته:

ألحّ عليه أولاده الشباب بترك العمل والخلود إلى الراحة، ولكنه رحمه الله كان يأبى بعزيمة الشباب وعفة المؤمنين الزاهدين. على الرغم من مرضه (الذي زادت صحبته له على أربعين سنة) صَبَر صَبْر أولي العزم. فالعزيمة والقوة في إيمانه وكأنّ المرض لم يعرف إليه سبيلاً.

رحمَكَ الله مُجاهداً وعالماً ورعاً.. وطريقنا الذي عبَّدت يدعو لك بالرحمة. طريقنا هذا الذي سيكون درب الكثيرين بعون الله يودعك أبا محمود، ويحمل لك الشهادة بصدق الالتزام والثبات على العهد، وقول الحق أمام خالق الوجود.. فنم أبا محمود قرير العين، ونرجو الله الثبات على نفس الطريق لنحشر وإياك تحت لواء سيد المرسلين مع الشهداء والصالحين..

رحمك الله أبا محمود فقد كانت وصيتك لأولادك: أبْرأ إلى الله منكم في كل عمل يخالف الإسلام..

فلك من الله الرحمة، ومنا الدعاء والعهد. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ولكن الإيمان الذي كان مستقراً في أعماق هذا الصدر.. كان يهزأ بهذه النوبات التي كانت تترك من حول الشيخ يحبس أنفاسه خشية وإشفاقاً وألماً عليه... ولطالما كان الكثيرون ممن حوله يتذكرون ـ كلما رأوه ـ الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود.. فقد كان هزال جسم الشيخ في أواخر سني حياته يذكر به... ولكن الذي كان يذكر به كذلك: قوة في الحق فُطِرَ عليها الشيخ وتربّى عليها، فكان لا يخشى في الله لومة لائم..

محنته وسجنه:

وكان يقول الحق ولو على نفسه... ولقد تحمّل في سبيل ذلك العنت والمشقة، فزجّ به في السجن أيام الاحتلال والاستعمار، وأعيد فيه مرة أخرى في أيام مَنْ خلفهم الاستعمار والاحتلال.. ودخل السجن هذه المرة وعلى شفته ابتسامة عريضة ساخرة تحمل في طياتها من الألم والحزن على أحوال هذه الأمة الشيء الكثير..

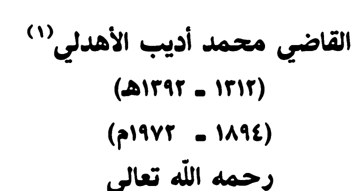
صبره وعزيمته:

ألحّ عليه أولاده الشباب بترك العمل والخلود إلى الراحة، ولكنه رحمه الله كان يأبى بعزيمة الشباب وعفة المؤمنين الزاهدين. على الرغم من مرضه (الذي زادت صحبته له على أربعين سنة) صَبَر صَبْر أولي العزم. فالعزيمة والقوة في إيمانه وكأنَّ المرض لم يعرف إليه سبيلاً.

رحمَكَ الله مُجَاهداً وعالماً ورعاً.. وطريقنا الذي عبَّدت يدعو لك بالرحمة. طريقنا هذا الذي سيكون درب الكثيرين بعون الله يودعك أبا محمود، ويحمل لك الشهادة بصدق الالتزام والثبات على العهد، وقول الحق أمام خالق الوجود.. فنم أبا محمود قرير العين، ونرجو الله الثبات على نفس الطريق لنحشر وإياك تحت لواء سيد المرسلين مع الشهداء والصالحين..

رحمك الله أبا محمود فقد كانت وصيتك لأولادك: أبْرأُ إلى الله منكم في كل عمل يخالف الإسلام..

فلك من الله الرحمة، ومنا الدعاء والعهد. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.



القاضي محمد أديب الأهدلي(١)

(١٣١٢ - ١٣٩٢هـ)

(١٨٩٤ - ١٩٧٢م)

رحمه الله تعالى



بقلم: محمد صالح

ارتحل إلى جوار ربّه العالم العامل القاضي محمد أهدلي اليماني في ربيع الآخر ١٣٩٢هـ الموافق لـ ٢٧ أيار ١٩٧٢م، عن عمر يناهز ٧٨ عاماً، حافل بالأعمال الجليلة والجهاد المتواصل في سبيل الله.

اسمه وكنيته ولقبه ونسبه:

هو: محمد أديب بن عزّي بن حسن بن القادري بن عمر بن القاسم بن محمد بن الطاهر بن محمد الثاني، وهو سليل علي الأهدلي الكبير الذي يتّصل نسبه بالحسين بن علي رضي الله عنهما، ومنه جاءت كنيته الأهدلي ويدعى أبا سعد أو أبا الأهدلي.

أما أمه: فهي خديجة بنت الحاج لطوف بن نجيب البصمجي من حلب.

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الثالث والرابع، السنة الثالثة عشرة: (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

موطنه الأصلي ومسكنه الجديد:

موطنه الأصلي هو اليمن، حيث هاجر أحد أجداده، وهو محمد بن سليمان، الذي يعود بنسبه إلى جعفر الصادق، من العراق إلى المراوعة بوادي سهام من أعمال الحديدة في اليمن، فولد له عمر، ثم ولد لعمر علي الأهدلي الذي تفرّعت منه أغصان الأسرة الأهدلية.

وقد انتقل أحد فروع الأسرة، وهو محمد السادس إلى قرية الشغر القديم التابعة لقضاء جسر الشغور سنة ١٨٤٧م، حيث استقرّ به المطاف هناك، وعندما تُوفي عام ١٨٧٨م، قدم ابن أخيه محمد عزي (والد القاضي المرحوم) في عام ١٨٨٠م، من اليمن إلى الشغر بصفته الوريث الشرعي الوحيد لعمّه، لأنه مات بدون عَقِب، وقد خلّف له زاوية ومكتبة، فأقام في الشغر، ثم عُيّن مفتياً لقضاء جسر الشغور حتى وفاته قبيل عام ١٩١٨م، حيث خلفه ابنه (المترجم له) في عمله.

موجز عن تاريخ حياته العلميّة والعمليّة:

ولد المرحوم عام ١٣١٢هـ الموافق لـ ١٨٩٤م، في قرية الشغر القديم، وفيها ختم القرآن وجوّده وتعلّم الكتابة، ثم انتقل إلى المدرسة الرشيدية في قَصَبة الجسر، فتلقّن جوهر الدين وقويم الأخلاق فيها، ثم انصرف لطلب العلم الديني حسب رغبة والده فرحل إلى أريحا وإدلب واللاذقية وحلب، وأخيراً إلى مصر حيث دخل جامعة الأزهر وحظي بعناية المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وبعد قضاء ٤ سنوات في الأزهر الشريف عاد ليعيَّن في مدرسة ذكور الجسر الابتدائية.

وعند إعلان النفير العام، انخرط في سلك الجندية متطوّعاً لشعوره بوجوب الجهاد، فانتسب إلى رهط البرق (التلغراف)، ثم تحول إلى قلم الفرقة ٢٣، وعندما علم بوفاة والده، عاد إلى الجسر ليؤدي امتحان مشيخة التكيّة، ثم ليعين بعدها مأموراً للزراعة، ثم كاتباً ثانياً للأعشار، وبقي في عمله هذا حتى نهاية الحرب العظمى، حيث انتخب في عام ١٩١٨م، مفتياً

لقضاء جسر الشغور مكان والده مُضافاً إلى ذلك وكالة القاضي ورياسة البداية.

وفي أيار ١٩٢٥م، أنفذته حكومة الانتداب إلى حلب حيث أجبر على الإقامة منفياً فيها حوالي ١٩ شهراً، ثم عين في كانون الأول ١٩٢٦م، مفتياً لجرابلس، ثم أضيفت إلى الإفتاء وظيفة التدريس لقضاء جرابلس.

وفي تموز ١٩٢٨م، عُيِّن قاضياً شرعياً لقضائي أعزاز وكرد ضاغ درجة رابعة، ثم تحوَّل قاضياً لقضائي جرابلس ومنبج عام ١٩٣١م، ونقل في عام ١٩٣٢م، قاضياً بقضائي الباب ومنبج.

وفي عام ١٩٣٣م، عُيِّن حاكماً لصلح قضاء حارم، فقاضياً شرعياً لمدينة حلب، حيث ترقى فيها للصنف الثاني.

وفي عام ١٩٣٨م، استلم مديرية أوقاف حلب، وفي ١٩٣٩م، نقل قاضياً شرعياً لحمص درجة ثانية، ثم رقي إلى الدرجة الأولى، وبقي في منصبه هناك حتى ١٩٤٨م، حيث نقل إلى اللاذقية، وهناك أحيل على التقاعد عام ١٩٤٩م.

وقد عمل كاتباً للعدل فيما بين ١٩٥١ ـ ١٩٥٩م، ثم عمل محامياً فيما بين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٦م، حيث تفرَّغ بعد ذلك للعناية بتربية وتوجيه أولاده إلى أن فارق الحياة وهو في دمشق، فنقل إلى الشغر حيث دفن هناك، وكانت حصيلة تربيته وتوجيهه أولاده بالإضافة إلى مئات الشباب الذين تولاهم بالتوجيه والرعاية في كلٍّ من الجسر وحلب ودمشق وحمص واللاذقية، ولم يكن نصيبهم من عنايته بأقل من نصيب أولاده.

أضواء على شخصيته:

من هذا العرض السريع لمراحل حياته نصل إلى دلالتين هامتين:

١ ـ نشاطه الدائب، وسعيه المتواصل، وحبه للعمل، وتفانيه فيه.

٢ ـ مناوأته للظالمين، ومُعاداته للانتهازيين، ووقوفه في وجه حركات التتريك، ومناضلته للفرنسيين، مما جرَّ عليه نقمة الحكومة الفرنسية وعملائها

أيضاً، فعملوا على نقله من مكان لآخر، وتعرّض للإهانة والنفي والسجن وللحكم بالإعدام أيضاً، دون أن يفلّ ذلك من عزمه، أو يُوهن من قوته، أو يغير مواقفه.

ويؤيد ما ذهبنا إليه مواقفه الحازمة من الأمور الجسيمة التي تعرض لها. نذكر منها:

مناضلته ضد الاستعمار:

عندما عُيِّن في منصب الإفتاء في جسر الشغور، قام بتشكيل فرقة مسلحة تضم ٨ آلاف رجل لمناهضة سياسة التتريك، التي قادتها جماعة «الدونمة»: يهود سالونيك.

وعندما دخلت فرنسا إلى سورية، قاد الثوّار السوريين في منطقة الجسر، وتعاون مع إبراهيم هنانو، والشيخ صالح العلي، وثوار جبل صهيون ضد المستعمرين الفرنسيين.

كل ذلك مما سبّب نقمة الحكومة الفرنسية وعملائها عليه، فاعتقل عام ١٩٢٥م، باختطافه من جامع الجسر ونقله إلى السجن، ثم حُكم عليه بالإعدام، وكاد الحكم ينفُذ لولا ثورة أهالي الجسر واعتقالهم للمستشار الفرنسي، حيث افتدوا به زعيمهم الأهدلي؛ وهذه الحادثة كافية للدلالة على مدى حب الشعب له وتعلُّق قلوبهم به، وبالمقابل تدل على تفاني الشيخ المرحوم وإخلاصه وتضحيته في سبيل مصلحة أمته.

وبالإضافة إلى نفيه إلى حلب ـ كما ذكرنا سابقاً ـ فإنه قد حُجز في دمشق أيام الانتداب الفرنسي مدة ٧ أيام حيث استُجوب كالمجرمين.

ولكن كل هذه المحاولات لم تفلّ من صلابة الرجل المؤمن، ولم تعرف شخصيته انفصاماً بين الفكر والسلوك، فاستمرّ في كل النشاطات السلبية والإيجابية ضد فرنسا المستعمرة.

إصلاحاته الدينية والاجتماعية:

لقد كان رحمه الله حرباً على التخلُّف والتسلُّط، ولم تلن عريكته أبداً مما أدى إلى اتِّهامه بالخروج والمروق من الدين.

وعندما عُيِّن مديراً لأوقاف حلب نهض بالمشاريع الآتية:

١ - قام بإصلاح ديني واسع سار فيه حثيثاً بقوة العقيدة وحرارة الإيمان مما عرضه لمحاولة الاغتيال من جانب أعداء الدين والإنسانية الذين يرون في الإصلاح دمارهم.

٢ - قام بإصلاحات إدارية جمَّة كانتقاء المؤذن الصالح، والإمام الورع، والخطيب البليغ، بالإضافة إلى سهره على أموال الأوقاف وكفّ الأيدي الأثيمة عن سرقتها، وأشهر إصلاحاته في هذا في المجال إلغاؤه راتب تكيته في الشغر قبل أن يلغي راتب أية تكية أخرى، وإنزال راتبه المعيَّن له في المرسوم الجمهوري من ٤٠ ليرة دينارية إلى ٣٠ ليرة رغبة في التوفير.

٣ - حاول إنشاء جامعة دينية تُضاهي جامعة الأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى رغم ضعف إمكانيات أوقاف حلب عهدئذ.

٤ - قام بنشاط صحفي واسع خاصَّة في حمص واللاذقية، فدبجت يراعته المقالات المختلفة من سياسية واجتماعية وأدبية ودينية، مما كان له أكبر الأثر في نفوس الجماهير، وما يزال الجمهور يُردِّد هذه المقالات الجريئة التي تنصُّ على حرب التخلُّف والاستعمار والصهيونية وتنادي بالإصلاح الديني.

هذا بالإضافة إلى نشاطه في عمله حيث تَقَلَّب بين التدريس والإفتاء والقضاء فترة طويلة، تقدم للإسلام والمسلمين خدمات جليلة، ناهيك عن الشباب الذين أحاطهم برعايته في مختلف المناطق.

آراء علماء عصره وفضلائه فيه:

لقد كان رحمه الله بحقٍّ شخصية إسلامية فذة، تذكّرنا بالسلف الصالح علماً وعملاً، تقوى وورعاً، حزماً وعزماً، وقد شهد له بهذه الخصال وبغيرها من الخلال النبيلة، العديد من العلماء ورجالات عصره، وخاصة في معرض حديثهم عن أحد مؤلفاته: (القول الأعدل في تراجم بني الأهدل) وهاكم بعض هذه المقالات في تقريظ المؤلف رحمه الله.

من حمص يتحدَّث المرحوم الدكتور **مصطفى السباعي** رضوان الله عليه بقوله: (الأستاذ الأهدلي من علماء هذه الأمة الذين امتلأت قلوبهم بالحمية لله والغضب لكرامة الإسلام والمسلمين، وهو من الرجال القلائل الذين يتحرَّقون شوقاً إلى إصلاح المجتمع الإسلامي، فإذا آتاهم الله السلطة، ومكنهم في الحكم، اندفعوا في تنفيذ برنامجهم الإصلاحي اندفاعاً قوياً، لا يبالون بما ينالهم في سبيل ذلك من عَنَت وإيذاء وضرر في الأموال والأرواح، ومواقف الأستاذ الأهدلي في الإصلاح مشهورة معلومة آخرها موقفه من الأوقاف الإسلامية حين تولى شؤونها في حلب، ودعوته إلى مشروع الكلية الإسلامية).

ومن حلب يقول فيه المحامي **عبدالقادر السبسبي**: (عرفت الشهباء الأستاذ محمد الأهدلي قاضياً شرعياً، نزيهاً مكيناً، وعرفته مديراً لأوقافها حازماً أميناً).

ومن حمص أيضاً يقول الأستاذ **وصفي الجندي**، زميل المرحوم في الجندية: (الجندية تلك هي التي عرَّفتني المؤلف حفظه الله، وعرفتني ما تضم تلك الشخصية النبيلة في أطواء الصدر من أخلاقه الفاضلة، والثقة بالنفس، والصبر على الأذى واحتمال المكاره...).

ويتابع وصفي الجندي حديثه قائلاً: (قال لي يوماً أركان حرب فرقتنا: لقد أسْديتَ إلينا يداً لا تنسى باختيارك السيد محمد الأهدلي للقلم... لم يمض على وجوده سوى بضعة أيام حتى أصبح مضرب المثل بين عموم أفراد الفرقة على اختلاف مراكزهم فيها: عفة وأمانة واستقامة وأخلاقاً

وديناً. . . إنساني برحابة صدره وكريم سجاياه وعظيم أخلاقه).

كلُّ هذه الخصائص من عنفوان الشباب، وحزم الرجال، ورزانة الشيوخ تجتمع معاً لتكوِّن الشخصية الفريدة، شخصية المرحوم القاضي الأهدلي عليه رضوان الله، وهذا ما دفع الشاعر رفيق الفاخوري ليقول:

طوّق الأهدليُّ حمص بيُمْنَاهُ ... وأحيا بفضله الآمالا
أي دار أرادها ما تهادَت؟ ... أي صَقْع قد زاره ما اخْتالا؟
منطق ساحر، فإن حَزَبَ الأمر ... تخلّى عن طبْعه واستحالا
وخِلالٌ تَخالها هيكل الصِّدق ... تجلّى أو روضة محلالا
وقضاء يُدْني الضعيف ويُقْني ... من تجافى عن الصِّراط ومالا
واجتهاد يستلهم الحقَّ صِرْفاً ... ليس يلقي إلى الأباطيل بالا

حقاً لقد كان الأهدلي شخصية فريدة في عصره، مَنْ سمع به أحبه، ومَنْ رآه ازداد حباً له، في سلوكه يتجلّى إيمانه، وفي زهده يتجلّى ورعه وتقواه.

وقبل نهاية المطاف يجدر بنا أن نُلمَّ بشيء من مؤلفاته التي بقيت ذكرى جميلة تُحيي في نفوسنا تلك الروح الطاهرة التي كانت مشعلاً من مشاعل الإسلام أدت واجبها إلى آخر مدد من وقودها.

مؤلفاته:

١ ـ القول الأعدل في تراجم بني الأهدل: في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط.

٢ ـ رسائل صغيرة، مثل:

أ ـ أحسن الرد على من جَعَل جدَّه القرد.

ب ـ العمامة الخضراء.

جـ ـ مؤامرة على الإسلام.

بالإضافة إلى المقالات العديدة والمتنوعة في صحف حمص واللاذقية.

وأخيراً لا بدّ لنا من الوقوف موقف الإعجاب والإكبار من هذه الشخصية الإسلامية الفذّة التي جمعت إلى جانب رفعة النسب وشرفه، دماثة الخلق، وقوة الإيمان، وحب الجهاد في سبيل الله. والهدف من عرض بعض ملامح هذه الشخصية، هو أن تكون لنا قدوة صالحة، ونبراساً في طريق الخير وذكرى للمؤمنين.

رحمك الله يا أبا الأهدلي.. لقد كنت بشهادة معاصريك قاضياً نزيهاً، وعالماً عاملاً، ومسلماً مجاهداً حتى الرمق الأخير، حتى إنك لتتحرق ألماً على وضع المسلمين المُزْري، وعبارتك الأخيرة التي لفظتها مع أنفاسك الأخيرة تدل بوضوح على رغبتك الجامحة في الإصلاح رغم قوة الجاهلية وعنادها، فإن كنت قد رحلت فقد بقيت عبارتك في مسمع الدهر تدل عليك وتذكرنا بك وتدفعنا للاقتداء بك، هذه العبارة هي قولك: (إنني شهيد الألم).

فرحمك الله رحمة واسعة، وأسكنك فسيح جناته، وجمعنا بك في ظلال رضوانه.

□ □ □ □ □



أبا الأهدلي[١]

للشاعر محمد الحسناوي

أبا «الأهدليّ» سُقيت السحابا   وجوزيت بالخُلد باباً فبابا
مَعَ الأنبياء، مع الشهداء   نعِمْتَ ثواباً، وَطِبْتَ مآبا

* * *

أبا الأهدليّ بكتْك «الشغور»   و«جسر الشغور» قُرَى وَهِضَابا
وقالو: فَقدنا الفتى الألمعيّ   إذا الظُّلمات ألقتْ حِجاباً
إذا خُدِعَ التُّركُ عن «خيبرِ»   وعن «قينُقاعٍ» فطاشُوا صَوابا
إذا ما «أتاتورك» نسلُ اليهودِ   على لُغةِ الضّادِ أشهرَ نابا
وما لغةُ الضَّادِ حَرْفٌ وصَرْفٌ   ولكنها الدِّينُ ضُمّ كِتابا
سقَانا «أبو الأهدليّ» رَحِيقاً   مِن «القاف» و«النُّونِ» ساغَ شرابا
وأقرأنا «سُوَراً» في اليهودِ   تَدُقُّ الرِّقَابَ، وتَجْلُو الحِرابا
وما هِيَ إلا انتِفاضةُ أُسْدٍ   إذا ما غُزِيْنَ وَثَبْنَ خِضابا

* * *

أبا الأهدليّ ألا ذِكريَاتٌ   عَنِ الأمسِ، فالأَمس أضحى سَرابا

---

(١) هذه قصيدة كتبها أستاذنا الأديب الكبير الشاعر محمد الحسناوي رحمه الله تعالى، وقدّمها لي مكتوبة بخطه، ورغب بنشرها في هذا الكتاب.

غداةَ ارتشفتَ العلومَ صَبيّاً   وغالبْتَ بحرَ الهُموم غِلابَا
فما أورثتك العلوم اغترابا   ولا جنَّبتك الهموم طلابا
عَضدتَ الخَناجرَ ألاّ فِرارٌ   مِنَ الزَّحفِ. ضلَّ الفِرارُ وغابَا
فمن «شُغْرِكَ» الوَعرِ حتّى الكنا   نةِ طُفْتَ بلاداً، وجُزْتَ شِعابَا
ومن نَبعَةِ الشرعِ - يالَلْمَعين -   نَضَوْتَ جِراباً، وصُغْتَ شِهابَا
أتذهبُ في الذاهِبينَ أبا الأهدليِّ   عَدِمنا الوَفاءَ إذاً وَالشَّبابَا
يَميناً لَتَنْبَعِثَنْ بِموتِـ   ـكَ «جسر الشغُورِ» قلاعاً وَغابَا
فهٰذي أياديكَ في الضِفَّتين   وفي الخافِقَين كسونَ اليَبابَا
وَهٰذي رسالتُكَ اليومَ نَسْغٌ   رَضِعناهُ حَشْواً، فَأمسى قِبابَا
أتذكُرُ لمَّا دَعاكَ «هَنانو»   لِتُبدِلَ تُركاً بِتُركٍ، فَخابَا
فَقلتَ: لِربِّ السماءِ سَجَدْنا   وَمَا لِسِواهُ نُذِلُّ الرِّقابَا
أنُبدِلُ مُستعمِراً بِدَخيلٍ   ونحنُ الأعزُّ هُدًى وَانتِسابَا
ولمَّا ابتَلاكَ «الفِرنسيسُ» قلت: هَلمُّوا بَني «الجِسْرِ» فالموتُ طابَا
فما خَذَلَتْكَ الجُموعُ، ولا أسْـ   ـلَمَتْكَ الضُلوعُ، لِتلقى العَذابَا
غَداةَ خُطِفْتَ مِنَ المَسجدِ الطُّهـ   ـرِ خطفاً وساقوك فرداً مهابا
لكي يقتلوك على ضِفَّةِ النهـ   ـرِ، والنهرُ يَغْلي حَصًى وحَبَابَا
كما خَطفُوكَ خَطَفْنا الرَّئيسَ   وَقُلنا: دَمٌ بِدَمٍ إن أردتُمْ حِسَابَا

* * *

أبا الأهدليِّ، سَمَوْتَ مَقاماً   وَرُوِّيتَ سَكْباً مِنَ اللّهِ صَابَا
نَفَوْكَ إلى «حَلَبٍ» وقُراها   فما ازددتَ إلاّ إباءً ودَابَا
وَهاجُوا عليكَ مَساعِيرَهُمْ   ألا خَسِئَتْ أذْؤُبٌ وذُنَابى
فَألقَمْتَهُمْ حَجَراً لا تَخيبُ   وأصْلَيتَهُمْ عَزْمَكَ المُستجابَا
وطَهَّرتَ منهم مَنابِرَ جَدِّ   كَ «طَهَ» وكانتْ عليهمْ ثِيابَا
وقالوا: عدوُّ العِمامةِ هذا   كأنَّ العِمامَةَ تُخفي الذِّئابَا
كأنَّ المَنابِرَ حِكْرٌ، ومَكْرٌ   كأنَّ السِّبابَ يَضِيرُ العُبَابَا

كَففتَ عن السّلْب والنّهبِ قوماً ... لِتُشْبِعَ جوعىً، وَتَبني خَرابَا
فما أحوجَ المُسلمين إلى مَعهدٍ ... أعزُّ مَنَ النَّيرَيْنِ جَنابَا
رمانا العدوُّ بِكلِّ سِلاحٍ ... وَخيرُ سلاحٍ هدى اللّهِ ذَابَا
فَمَنْ يَطلبُ الموتَ غيرُ الأُلى ... شَروا اللّهَ أنفُسَهم والرِّغابَا
ومَنْ ينصُرُ اللّهَ والقِبْلَتَيْنِ ... إذا نَصَرَ القاعِدونَ تُرَابَا

* * *

أبا الأهدليّ سُقيتَ السّحابَا ... وجُوزيتَ بالخُلدِ بابَاً فَبابَا
مع الأنبياءِ، معَ الشهداءِ ... نَعِمْتَ ثوابا، وطِبْتَ مآبَا

□ □ □ □ □



الدكتور عبدالكريم عثمان[١]
(١٣٤٧ ـ ١٣٩٢هـ)
(١٩٢٩ ـ ١٩٧٢م)

للدكتور محمد اديب صالح

في ريعان الشباب وأوْج القوة ونُضْرة الحياة:

قضى الأستاذ الدكتور عبدالكريم عثمان ـ رحمه الله ـ وهو الأخ الغالي في ريعان الشباب... ولم يودِّع بابتسامته الحلوة الراضية أهلَه الأقربين، وأطفاله الصغار وكفى.. ولكنه ودّع الكثير الكثير من قلوب أحبته التي حملت له طوال حياته أكرم معاني المودة والأخوة والتقدير...

قضى (أبو علاء) وذلك أوسع من الألقاب والعناوين، وهو في أوْج القوة، ونُضْرة الحياة على طريق الدعوة إلى الله، وتبصير المسلمين بدينهم، ودعوتهم إلى تبيُّن أمورهم، لإدراك ما يُحيط بالجيل الناشئ من مكايد ومؤامرات.. وإحاطة العاملين في حقل المعرفة والدعوة، بطبيعة المعركة

(١) حضارة الإسلام، العددان الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة: (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م).

التي يخوضها الفكر الإسلامي في وقت تنوّعت فيه أسلحة العدو، وتلوّنت ساحات هجومه على الإسلام وحضارته وذويه.

ومن هنا، ومن خلال هذا التصوُّر، تبدو الفاجعة الأليمة بوفاة الأخ عبدالكريم رحمه الله.. فلله ما أخذ، ولله ما أعطى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.. وهو المسؤول سبحانه أن يعوّضنا بفقده خير العوض، إنه المعطي والآخذ... وهو المحمود على كل حال.

ومَنْ أجدر مِنَ المؤمن بأن يذكر عند فقد واحد من أحبته الذين لهم في النفس ما لهم، قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ...﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله جلت قدرته: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥].

والكلام في هذه الآية واردٌ في معرض الحديث عن محمد عليه الصلاة والسلام، والأسوة بما حصل للأنبياء السابقين صلوات الله عليهم أجمعين.

ألا وإن كلمات تقال على عَجَل ليست ـ يعلم الله ـ كفاء الأخ عبدالكريم، ولكنها اللفتة السريعة التي أرجو أن يقدّرني الله إلى ما هو أوفى منها، بحيث يطمئنُّ القلب إلى أن شيئاً من حقّ الأخ الأعز، داعية وعالماً وأخاً، قد وُضع في نصابه إن شاء الله تعالى.

تقدير الروّاد:

ويوم تكون الأمة على الطريق البنّاءة كما أراد الله، مولية وجهها شطر القيم، تقدر رُوّادها على هذه الطريق.. وبقدر ما تكون اهتمامات هذه الأمة في أن تجد من يقول الكلمة، ويرسم المنهج أو يسهم فيه، في سبيل تحقيق الغاية المُثلى، تشعر بفراغ يحصل عند فقدان واحد من رجالها.. خصوصاً في زمان يعزّ فيه الرجال.. وعند ذلك يتجاوز الأمر حدود العواطف ليدخل

في حدود الحكم العقلي، وكل ما يمتّ إلى ما تنشده الأمة بسبب، إذ يصبح مقياس القُرب والبُعد بالنسبة للراحل مُختلفاً عن المقاييس التي اعتادها الناس.

الداعية المؤمن:

وأشهد.. لقد علمت ـ في صحبتي المديدة المتقطعة للفقيد رحمه الله ـ الكثير من المعاني التي هي من سمات الداعية المؤمن الذي ينشد الحقيقة، ويسعى في مرضاة الله عزّ وجل...

ولقد كانت آخر فترة طويلة قضيناها معاً عام ١٣٨٢هـ، في القاهرة، وكان منها شهر رمضان المبارك بما يحمل من الخير والخِصْب، ونفحات القرآن والرحمة والمغفرة.. فلم أرَ فيه ـ أكرمه الله بمغفرته ـ إلا النفس الهنية الراضية، والتعالي على مُحقَّرات الأمور، والحرص على صُحبته كتاب الله تعالى قراءةً وتدبراً.

اهتمامه بواجب الدعوة والعطاء:

وكان ـ إلى سلوكه الذي يسعى جاهداً أن يكون متوائماً مع الإسلام ـ لا ينسى دعوته التي يرى فيها شرّيان الحياة ونبض القلب. وكان لها دائماً من اهتمامه نصيب كبير والحمد لله، يتمثّل ذلك في نظرات فاحصة، حرص على سلامة القدوة، والتزوُّد الدائم بما يكون فيه القدرة على العطاء عندما يدعو واجب الدعوة والعطاء.

مجال العلم:

وفي مجال العلم.. كان فقيدنا مثال الجِدّ والسَّهر والدأب في تواضع جم، وتلمُّس لأبواب الإفادة، ونكرانٍ للذات.

والذي يلفت النظر ـ وهذا قليل في الناس ـ أنه في سبيل استكمال ما كان يشعر بأنه فاته من قبل كخلفية واجبة لدراسته عن الغزالي والقاضي عبدالجبار... كان لا يني يسأل ويستشير ويناقش ليصل إلى الحقيقة، عارفاً

لكلّ أخ قدره، تاركاً في المسألة المطروحة لصاحب الاختصاص أن يقول كلمة الفصل. . وكثيراً ما كان يحصل هذا. . حتى في قراءة عبارة أو كلمة في مخطوطة، حيث يتوقف على ذلك فهم قضية من القضايا، أو تجلية أمر من الأمور.

•

مؤلفاته:

وبين يدي الآن ـ وأنا في طريقي إلى السفر ومغادرة الدار ـ مجموعة من كتب أبي علاء رحمه الله، فيها: «سيرة الغزالي»، وهو بحث أعدّه لمؤتمر المجلس الأعلى للآداب والفنون منذ أكثر من عشر سنوات، و«الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي» ـ بوجه خاص ـ وهو رسالة الماجستير، و«ترجمة القاضي عبدالجبار الهمذاني»، و«تثبيت دلائل النبوة» الذي حقّقه وهو للقاضي عبدالجبار رحمه الله، و«نظرية التكليف آراء القاضي عبدالجبار الكلامية» وهي رسالة الدكتوراة، و«الثقافة الإسلامية»[1] وهو محاضرة ألقاها في الرياض.

التطلّع إلى الحقيقة والسعي وراء المعرفة:

و«معالم الثقافة الإسلامية»، و«نظام الإسلام السياسي» مما ألقاه على طلابه في جامعة الرياض، أقول: بين يديّ هذه المجموعة من آثاره، ولست بسبيل دراستها أو دراسة واحد منها الآن في هذه العُجَالة. . فلذلك وقت آخر. . ولكن الذي أودُّ إثباته، أنَّ خطاً ينتظم آثاره جميعاً، سواء منها ما كان باكورة عمل كما في «سيرة الغزالي» أو ما كان ورقة امتحان كما في رسالتي الماجستير والدكتوراه، أو ما كان نتاج تدريس أو محاضرة عامة، أو بحث. . ذلك الخط هو التطلّع إلى الحقيقة، والسعي وراء المعرفة، والحرص على أن يكون فيما يعمل مرضاة لله عزّ وجل. .

---

(١) وترى الحديث عن الكتاب في مكان آخر من المجلة في دراسة أعدّها الأستاذ محمد منلا غزيل أكرمه الله (محمد أديب)، وتجده بعد هذه المقالة (مجد).

صحيح أنك قد لا توافق عبدالكريم أجزل الله مثوبته، في كل ما يقول، أو قد ترى أنّ أمراً من الأمور كان يعوزه النُضج أكثر مما فعل، أو مخطوطاً ربما احتاج إلى خدمة أكثر.. ولكن.. أينا لا تجد عنده ما هو كذلك، وأي امرئ يتعرّض لخدمة دعوة الإسلام عن طريق المعرفة والتوجيه بلسانه وقلمه، ثم لا تبصر فيما يقدّم، آثار المعركة الضارية التي يخوضها العاملون ضد الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام.. علماً بأن إنتاج الأخ عبدالكريم رحمه الله هو من الوفرة بحيث ينظر إليه نظرة معينة عند التقويم والنقد.

الإخلاص وصفاء النفس:

وإنك واجد ـ فيما وراء ذلك كله ـ أنّ إطاراً عاماً من الإخلاص والمعرفة، وصفاء النفس، كان يلفُّ سلوك عبدالكريم في حقل الدعوة والبحث العلمي.. وحَسْبُه بذلك زُلفى إلى الله، وطريقاً إلى مرضاته سبحانه.

ولكم يتعثّر القلم، وتَضْطرب النفس، ويَجِبُ القلب.. عند تذكر الحادث الجلل، حيث اللوعة تلفّ الكلمة، والأسى يُجلّل ما يكون من خواطر وذكريات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

دعوة لليقظة والتنبُّه:

ولكن.. ولكن لوعة القلب لا تطفئها دمعة تُرسل، ولا كلمة تقال والكبد المقروحة بفقدان الرجال لا تجعلها صفحة من الرثاء كبداً ليست بذات قروح، غير أنه الرضا عن الله عزّ وجل، والطمأنينة لقضائه وقدره، والإفادة من صوت النذير أن أخاك إذا ارتحل فأعدّ نفسك لمثلها وكأن قد... والعاقل كل العاقل من يرى في ارتحال أخ قريب حبيب مجيباً نداء القدر، دعوة لليقظة والتنبه، وتحذيراً من الغفلة والاستهتار والاستكانة لحبّ الدنيا والعافية، ونذيراً من نذر الأجل المحتوم أن ما قضاه الله كائن، ولا حيلة في ذلك ولا شفاعة... ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، والساعة هنا أقصر ما يمكن أن يتصور من الزمن.

لوعة القلب.. ومعالم الرضا:

أذكر يا أبا علاء حرقتك على الدعوة وأهلها منذ تلك الأيام البعيدة، وأذكر صفاء نفسك، وأذكر ابتسامتك المشرقة علامة الطمأنينة والرضا.. وأذكر ما كان بيننا من التشاكي ألماً على واقع المسلمين، وكيف يمكن أن تبرز إرادة التغيير صورة حية في العمل والتطبيق.. وأذكر ما كنت تحرص عليه من تدريب النفس على أن يحب المرء لله ويبغض لله.. أذكر ذلك كله، فتأخذني اللوعة، ويستخفني الحادث الجلل.. ثم أعود إلى معاني الإيمان أستذكرها، وإلى معالم الرضا أمرُّ بها على القلب رويداً رويداً.. فأشعر ببرد الطمأنينة، وأن ما عند الله خير لعبدالكريم وأبقى، وأن ما أعده الله لعباده الأبرار من النعيم المقيم، لا يقاس بما في هذه الدنيا الفانية الزائلة من عناء ونَصَب، ومصائب يذوبُ لهولها القلب من كمد.. وتكاد تذهب نفس المؤمن لشدتها حسرات.

فأنْعِمْ أيها الأخ الغالي بكرم الله وعطائه.. فللذين أحسنوا الحُسنى وزيادة، ومَنْ أراد الآخرة، وسَعَى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً. وأرجو أن تكون في عداد من قال الله فيهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

رحم الله أبا علاء رحمة واسعة، وعوَّضنا بفقده خير العوض، وكان لأهله وولده من بعده، وكتب له ثواب المجاهدين الأبرار، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وَحَسُن أولئك رفيقاً. ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.. والحمد لله على كل حال.

* * *

حياة الفقيد في سطور

- ولد فقيدنا رحمه الله في مدينة حماة عام ١٩٢٩م، لأب مشهود له بالورع والتقى.

- حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٤١م، ثم التحق بثانوية ابن رشد ليتابع تحصيله.

- تقرر إيفاده في بعثة إلى جامعة القاهرة عام ١٩٤٧م، لينال الشهادة العالية في الفلسفة وعلم الاجتماع، فنال درجة الامتياز طوال السنوات الأربع، ومارس الكتابة أثناء الدراسة في عدة مقالات عن التأمينات الاجتماعية في الإسلام نُشرت في جريدة المنار الدمشقية.

- عمل رحمه الله مدرساً في مدينة دير الزور، فخلّف فيها من الآثار ما لا يُنسى، ثم عمل في مدينتي حلب وحماة، فكان نِعْمَ المدرس الداعية بعلمه وسلوكه.

- أوفدته وزارة التربية إلى جامعة القاهرة عام ١٩٦٠م، ضمن مجموعة من المتفوّقين للحصول على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، وقد حصل عليها بعد خمس سنوات بمرتبة امتياز.

- نشر عدداً من المقالات في عدة مجلات منها: «حضارة الإسلام».

- عمل مدرساً للثقافة الإسلامية في جامعة الرياض، وكان هذا العمل أخصب أيام حياته وأغناها.

- كانت وفاته في مدينة حماة عصر الأربعاء ٢١ رجب الخير ١٣٩٢هـ، بعد مرض لم يُمهله طويلاً، عن ثلاثة وأربعين عاماً، رحمه الله وغفر له وأكرم مثواه.

□□□□□

وداعاً... يا عبدالكريم(١)

بقلم: محمد غزيل

شجون وذكريات:

بلغني النّعي فأثار شجوناً وذكريات... فمنذ أكثر من عشر سنين كان لقائي بعبدالكريم عثمان ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

ثم مضى بنا تيّار الحياة بإذن الله الحي القيّوم... وتابعت بعض ما كتب عبدالكريم، وقرأت له باهتمام ما كتبه حول الكتاب المترجم بعنوان: (دراسات إسلامية)، لعدد من المستشرقين في عدد من أعداد السنة السادسة من (حضارتنا)... وقرأت له هذا الصيف كتابه عن (سيرة الغزالي)، ولكن محاضرته اللطيفة التي ألقاها في مدرج جامعة الرياض بعنوان (الثقافة الإسلامية: خصائصها ـ تاريخها ـ مستقبلها) استأثرت مني باهتمام أكبر وأشرت إليها في محاضرتي عن (المسألة الحضارية وبعدها الثقافي) بالمركز الثقافي العربي بمنبج...

وأرى اليوم أن من الوفاء الأخوي أن أخطَّ حولها هذا التعريف والتلخيص على عجل إسهاماً في ذكرى أخينا الكريم عبدالكريم رحمه الله...

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة: (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

جاء في مقدّمة الرسالة:

(فالأمة الإسلامية) التي يشكّل فيها العرب واسطة العِقْدِ تستيقظ بعد أمدٍ من السبات العميق... ولئن كان واجب التفكير في هذه الأزمة والسعي للانتقال بها من مرحلة الضياع والتفكُك إلى نقطة الحركة مفروضاً على كل مسلم؛ فإنّ على المفكّرين أصحاب الرأي والثقافة بين المسلمين واجباً مضاعفاً... وإن أهم ما يقاس به الفرد أو المجتمع أو الحضارة هو مقدار ما يتضمّنه كلٌ منها من قيم روحية وعقلية وخلقية... وأول الطريق للوصول إلى تحقيق هذا الهدف هو في التعرُف على ثقافة الأمة الإسلامية ونظرتها الأصيلة إلى الكون والإنسان والوجود، والثقافة هي التي تعطي الأمة طابعها الأصيل المميز...).

مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية:

ثم يتحدث عن مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية، فيرى أن الثقافة، تعني لغة: الحذق والفهم، وتقابل المدنية من الناحية المعنوية، كما أن الحضارة تعني حياة الحضر، ونمط الحياة المستقرة، وهي المحصلة الشاملة للمدنية والثقافة في مجموع أنماطها المادية والمعنوية ذلك لأن (المدنية) تمثل الجانب المادي والمظهري للحياة... ويأتي بعد ذلك الكلام على خصائص الثقافة الإسلامية ثم تاريخها ومستقبلها...

خصائص الثقافة الإسلامية:

أما الخصائص فأبرزها الربّانية: لأن الوحي الإلهي هو المصدر الرئيسي للثقافة الإسلامية ممثلاً في كتاب الله وسنّة نبيّه عليه الصلاة والسلام...

وبما أن الثقافة الإسلامية ربانيّة النزعة فهي ثقافة عميقة غائبة تجمع بين المقاصد والوسائل، فهي بحق ثقافة (الإيمان والعلم) ويؤيّد الكاتب رأيه بمقاطع من كتابات سيد قطب رحمه الله ومالك بن نبيّ...

أما الخصيصة الثانية، فهي الإنسانية.. وذلك نابع من عالمية الرسالة ومجافاتها للتعصُب والعنصرية... رابطتها الوثقى هي العقيدة... وفي ظل التوحيد الخالص تلتقي شعوب المسلمين أمة واحدة تستقي من دينها الحق القوة والحرية... كما تستمد العدل والخير الشامل...

وصفتها الثالثة هي الشمول ومعه التوازن لأن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام أو بعبارة أخرى هو منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي والنظم الواقعية. أخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية ودولية...

والثقافة الإسلامية إيجابية لأنّ مبادئ الإسلام قوة بناءة وحركة دافعة إلى النمو المطرد...

ولا يفوت الأستاذ المرحوم أن يورد لهذه المعاني من آيات القرآن الحكيم ما يعزّز الرأي ويدلُّ على أن الثقافة الإسلامية بسطت أمام العقل آفاقاً رحاباً... مترامية الأطراف...

وبعد ذلك يتحدّث عن الواقع التاريخي، وعن آثار الحضارة والثقافة الإسلامية في المجالات المتعددة: مجال القيم الخالدة والمثل العليا، ثم مجال العلاقات الاجتماعية حيث التكافل الإنساني والدولة الفاضلة، ويؤكد ما أعطته الحضارة الإسلامية للمسلمين وللعرب خاصّة من شخصية فكرية متميزة لا غربية ولا شرقية!...

ويذكر أنه لم يكتمل القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوب الإسلامية أغنى الشعوب علماً وفكراً وثقافة وكفاية... ويعتبر المنهج العلمي التجريبي الذي تدين له الحضارة الغربية أحد منجزات ثقافتنا...

وبعد أن يسرد قدراً ممّا استطاعت الثقافة الإسلامية أن تغني به الإنسانية في ميدان الفكر والتقدم العلمي في الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب وغير ذلك من الآداب والعلوم والفنون يتمنّى لو حافظ المسلمون على أصالة التوجيه الإسلامي ولم يستغرقوا في جدل فلسفي أو نقاشي عقيم!...

تحديات الثقافة الإسلامية:

ويأتي بعد ذلك حديث التحديات التي جابهت الثقافة الإسلامية قديماً وحديثاً، فيذكر أنها جابهت تحديات خطيرة مع بداية العصر العباسي بتأثير الاحتكاك الحضاري والتمازج الثقافي... ومن ذلك حملات الزندقة والإلحاد والشعوبية والتشكيك بعقيدة التوحيد... فنشأ علم الكلام... ووقع الانحراف... فقامت الدعوة للعودة بالفكر الإسلامي إلى صفائه ونقائه

وتميزه بسلوك طريقة السلف من الصحابة والتابعين بإحسان، وكان للأئمة ابن حنبل والغزالي وتقي الدين ابن تيمية أثرهم الكبير في إعادة الأمور إلى نصابها... جزاهم الله خيراً...

وأما التحدّي الآخر الخطير، فقد جاء مع الغزو الفكري اليوناني إثر اتّساع الترجمة، وكانت الثقافة اليونانية نظرية بحتة ودنيوية لا ترتكز إلى أساس ديني من وحي وتنزيل وتطغى عليها نظرة حسية مادية... حيوانية!...

ولئن كانت تلك التحديات وما أثارته من أفكار وردودِ فعلٍ قد أدّت دورها التاريخي، واستنفدت أغراضها إلى حدٍّ كبير فيحسن بالمفكِّر المسلم المعاصر أن يستقبل التحديات الجديدة ويكافحها بما يكافئها من وسائل وأساليب!... وقد صَدَق الأفغاني: (متى تكافأت القوى فإنّ العدل قادم).

تحديات الحضارة الحديثة وثقافتها:

وجاء بعد ذلك الحديث عن تحديات الحضارة الحديثة وثقافتها... وإن الغزو الغربي هو أعظم تحدٍ؛ وقد اتخذ شكلين: الغزو المسلم الاستغلالي، والغزو الفكري العقائدي الحضاري، فعانت المجتمعات الإسلامية مرّ المعاناة بسبب هذا الطوفان ومضاعفاته ولا سيما بسبب ما عرفته أوروبا من نزاع تاريخي بين رجال الكنيسة ورجال العلم والعرفان... ودهمت مجتمعاتنا مع الغزو أمواجُ التحلل والجمود والنسبيّة الأخلاقية! وبذلُ جهدٍ واسع تبشيريٍّ استشراقيٍّ لطمس معالم الطريق الإسلامي وتشويه ذلك التراث الأصيل... وكان من غرض المستشرقين إضعاف القيم الإسلامية وإثبات تفوق الغرب!... وخسِّؤوا رغم أنهم قد نجحوا في تحقيق كثير من أهدافهم... وأحدثوا في نفوس المسلمين ما يشبه اليأس من مستقبل الإسلام، وقد ساعدهم على ذلك أتباع ذليلون وعملاء مقنعون!... في ظروف من الضعف السياسي والتخلف المادي... والعلمي!...

موقف الثقافة الإسلامية من تحديات الغرب:

وأجاد الدكتور عبدالكريم إجادة بارعة موفقة في القسم الثاني من المحاضرة حين تحدث عن موقف الثقافة الإسلامية من تحديات الغرب... وميز عدة اتجاهات:

١ ـ موقف سلبي مُتحجّر جامد... يُمثّل أصحابه قوة مولية مدبرة!
٢ ـ دعوة عمياء إلى التغريب والتبعية...
٣ ـ محاولة تطويرية للتوفيق بتقريب مبادئ الإسلام من مُثُل الغرب!
٤ ـ احتفاظ بالأصالة ومحاولة لإعادة تماسك الجماعة الإسلامية مع الإفادة من منجزات المدنية...

ولعلَّ الاتجاه التوفيقي التلفيقي ينتهي بالمسلمين إلى الفرقة؛ لأن كل إقليم سيذهب في مسلكه التطويري مذهباً يخالف غيره ومع توالي الأيام سوف نجد في عالمنا الإسلامي ثقافات متنافرة!... ولا سبيل لمغالبة تلك المكايد من الثقة بالنفس ومن تحقيق الذات... في توازن حكيم بين حاجات النفس والجسد، والفرد والجماعة، وليظل المسلم قيادياً ريادياً طليعياً يحمل رسالة خالدة وعقيدة صامدة!

الحركات الإصلاحية الحديثة:

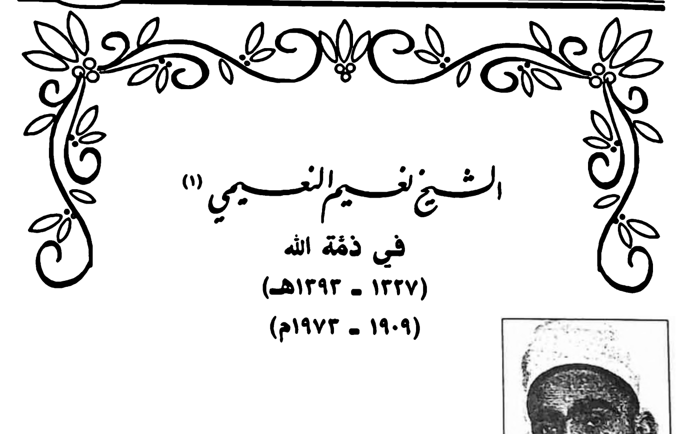
ويشير المحاضر إلى عدد من الحركات الإصلاحية الحديثة في أرجاء عالمنا المعاصر منها: ندوة العلماء، والجماعة الإسلامية، ودار الإسلام، والحركة النورية، ثم الحركة الوهابية، والسنوسية، وجمعية العلماء المسلمين بالجزائر، ويشيد بأفكار الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام في القارة الهندية، حيث يتطلّع إلى عالم جديد (لأن العالم القديم الذي حوّله الغربيون والشرقيون مكاناً للمقامرة بالأمن والكرامة يلفظ أنفاسه...).

مستقبل الثقافة الإسلامية:

وفي الحديث عن مستقبل الثقافة الإسلامية، وهو الفصل الأخير من فصول هذه الرسالة الغنية القيمة... أودُّ أن أؤكد ما كتبته ذات يوم من عام ١٩٥٦ إلى أستاذنا صاحب (نحو مجتمع إسلامي) قائلاً:

(ما زلنا نعتقد معك بقوة: أن المستقبل في أرض الإسلام للإسلام... فصبراً...).

اللهمَّ إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى... كما أسألك الصبر والنصر... إنك نعم المولى ونعم النصير...



الشيخ نعيم النعيمي (١)

في ذمّة الله

(١٣٢٧ ـ ١٣٩٣هـ)

(١٩٠٩ ـ ١٩٧٣م)

بقلم: بلقاسم النعيمي
مدير ثانوية شيحاني بشير ــ خنشلة ــ

تمهيد:

هذه بعض العناصر الرئيسية من حياة المرحوم الشيخ نعيم النعيمي،

---

(١) مجلة (الأصالة) الجزائرية، العدد (١٦) السنة الثالثة: (١٣٩٣هـ) وجاء في مقدمة الترجمة: فُجعت الجزائر في عالم من جلّة علمائها الأبرار الأستاذ الجليل نعيم النعيمي رحمه الله. فقد اختير إلى الرفيق الأعلى يوم ١٦ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ ـ ١٧ يونيو ١٩٧٣م ـ بعد مرض عضال أنهكت أوصابه منذ ما يزيد على ثلاث سنوات.
وكان الفقيد ـ رحمه الله ـ مثال العصامية في تكوين نفسه، والتضحية في خدمة أمته ووطنه ودينه، والإخلاص في عمله.
انخرط في سلك العلماء منذ سنة ١٩٤٦م، وأستاذاً بمعهد ابن باديس منذ تأسيسه ١٩٤٧م، وشارك في الثورة منذ سنواتها الأولى. ثم كان من كبار مسؤولي الشؤون الدينية في حكومة الجمهورية باعتباره من كبار موظفي وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية.
وقد شُيعت جنازته إلى مقرّه الأخير بمقبرة قسنطينة في محفل رهيب، حضره الكاتب العام لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، ووالي قسنطينة، والمحافظ الوطني للحزب، ورئيس المجلس البلدي الشعبي، ومن=

كتبتها كمحاولة للتعريف بهذه الشخصية التي تمثل نموذجاً لجيل من الرجال الذين كان لهم الفضل في بعث شخصية الجزائر العربية الإسلامية، وشقوا طريقهم رغم العقبات التي لا تحصى فحفظوا للوطن مميزاته القومية ورفعوا شأنه عالياً في الميدان الثقافي.

لقد اعتمدت في إيراد هذه المعلومات على كتابات الفقيد ومذكراته، وكذلك على أحاديثه بحكم علاقتي العائلية به، كما أكملت بعض الثغرات قدر المستطاع بالحديث مع أخويه الباقيين على قيد الحياة وبعض المسنين من الأقارب. وقد تحرّيت ـ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ـ في إيراد الصحيح من الوقائع ونبذ كل ما شككت في صحته. وأرجو أن أكون بذلك قد ساهمت ولو بجهد ضئيل في خدمة الحقيقة والتاريخ. وذلك هدفي الأول.

اسمه وعائلته:

إنّ الاسم الحقيقي الكامل للفقيد هو النعيمي بن أحمد بن علي. وقد سُمّي باسم جده الخامس أو السادس في سلسلة النسب أي «النعيمي» الذي تنسب إليه العائلة. وقد ظلّ يدعى بهذا الاسم في إطار الأسرة، إلى أن اختصر إلى «نعيم» بالتصغير، وهو اسم وارد بكثرة في كتب التاريخ ولا شك أن هذا الاختصار أتى من تردده على ألسنة أصدقائه من المثقفين ثم أصبح علماً عليه بعد ذلك. ولا أدري متى حدث هذا بالضبط.

وعشيرة آل النعيمي التي تنتسب إليها العائلة هي إحدى عشائر عرش أولاد حركات من قبيلة أولاد زكرى التي تقطن حول واحتي أولاد جلال وسيدي خالد من واحات الزيبان الغربية في دائرة بسكرة المعروفة.

= ناب عن قائد الناحية العسكرية الخامسة، وكل ممثلي السلطة المدنية والعسكرية والشعبية وطائفة من العلماء الجلة من مختلف أنحاء الوطن.

وأبّنه الشيخ محمد خير الدين الرئيس الثاني لجمعية العلماء، والشيخ أحمد حمّاني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والشيخ الطاهر سعدي مدير ثانوية ابن باديس. رحمه الله ورضي عنه.

ويسر مجلة (الأصالة) أن تقدّم دراسة قيمة عن حياة الشيخ النعيمي بقلم ابن أخيه الأستاذ بلقاسم النعيمي، مدير ثانوية شيحاني بشير بخنشلة، والمختص في التاريخ.

ولادته:

وُلد نعيم النعيمي في صيف سنة ١٩٠٩، ولا يعلم يوم ميلاده على وجه التحديد، لأن مسقط رأسه كان ضمن منطقة الحكم العسكري في عهد الاستعمار، حيث لا يوجد سجل مدني ولا إحصاء للسكان، حتى إن الضرائب كانت تؤخذ عن طريق الالتزام فيدفع القائد أو شيخ العرش مبلغاً معلوماً للخزينة، ويأخذ من المواطنين ما يشاء، ولم تشرع السلطة في تسجيل المواليد إلا في سنة ١٩٤٠، ولذلك فإنَّ مواليد هذه المنطقة قبل التاريخ المذكور لا يمكن معرفة تاريخ ولادتهم إلا عن طريق القرائن.

والده:

كان والده فلاحاً بسيطاً يملك قطعاً أرضية في بادية سيدي خالد التي يملكها عرش أولاد حركات ملكية مشاعة (عروشية)، وله قطيع صغير من الأغنام وبضعة جمال. وكان رغم بساطته وأميته ورعاً متديناً شديد الأمانة لا يعرف الكذب قط، وكان في نفس الوقت من الإخوان؛ أي: من أتباع زاوية الشيخ المختار التي كان مقرُّها في أولاد جلال، وهي إحدى زوايا الطريقة الرحمانية التي تكثر في واحات الزيبان.

إخوته:

كان النعيمي هو سابع إخوته في الترتيب، وهو أيضاً ما قبل الأخير منهم، وعلى يد أخيه الرابع الجنيدي[1] مدَّ الله في عمره بدأ خطوته الأولى في التعلم، وهي حفظ القرآن الكريم.

حفظه للقرآن:

كان الجنيدي يتمُّ حفظ القرآن وحده، وإلى جانبه أخوه الصغير يكتب على لوحته السور القصار من القرآن حسب الطريقة المتَّبعة، وذلك حسب تقديراتي حوالى سنة ١٩١٥، ثم انتقل بعد أن سار شوطاً في حفظ القرآن

(١) هو الآن موظف متقاعد يقيم في العاصمة (بلقاسم).

إلى خاله الذي كان يزاول تحفيظ القرآن للصغار فأتم حفظه هناك. وبدا عليه منذ الطفولة قوة الحافظة فكان سريع الاستيعاب للأجزاء التي يكلف بها، رغم أنه لا يبذل جهداً كبيراً في هذا السبيل. وقد اشتهر بهذه الخاصيَّة منذ ذلك الوقت المبكر.

انتسابه إلى زاوية الشيخ المختار:

ها هو الآن قد أتمَّ حفظ القرآن وعمره لا يتجاوز عشر سنوات. فماذا يفعل طفل مثله في هذه البيئة الفقيرة المتخلفة؟ كان يمكن أن يكون مصيره مثل مصير كل أقرانه فيعود إلى بيت أهله ليعيش حياة فارغة من كل محتوى سوى مساعدة أهله في طلب الرزق المحدود، لكن صغر سنه الذي لا يسمح له بمزاولة أي عمل، وتفتُّح مواهبه المبكر، وعلاقة والده وأخيه الأكبر بشيخ الزاوية قد جعل مصيره يتَّجه اتجاهاً آخر كان له الأثر الأكبر في مجرى حياته كلها. وهكذا انتسب إلى زاوية الشيخ المختار كطالب علم حوالى سنة ١٩١٩ وقد سبقه إليها أخوه الخامس علي أطال الله بقاءه.

وقد أُسِّست هذه الزاوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد الشيخ المختار البخليفي كفرع من فروع الطريقة الرحمانية المشهورة، وسرعان ما أصبحت معهداً يقصده طلاب القرآن والعلوم الدينية واللسانية من مختلف واحات الزيبان وإقليم جنوب التيطرى. وكانت مثل غيرها من الزوايا تعتمد على ما تتلقَّاه من تبرُّعات السكان الذين يأخذون ميثاق الطريقة عن شيخها، وتؤدي الطلبة مسكناً ومطعماً مقابل مبلغ رمزي يدفعه كل طالب.

ويبدو أن هذه الزاوية قد ازدهرت في أوائل القرن العشرين على يد شيخها الثاني محمد الصغير وابنه عبدالحميد، وارتفع عدد طلبتها إلى بضع مئات بما فيهم طلبة العلم وتلاميذ القرآن.

كان الطالب بعد أن يتمّ حفظ القرآن الكريم داخل الزاوية أو خارجها يسمح له بمزاولة الدراسة بعد موافقة شيخ الزاوية. وكانت هذه ميزة لا تتاح إلا للنجباء من حَفَظة القرآن والذين لأوليائهم علاقة وطيدة بالشيخ.

وكانت مناهج الدراسة تشتمل بالدرجة الأولى على العلوم الدينية

وخاصة الفقه المالكي، ثم العلوم اللغوية وخاصة النحو. وحين يتقدَّم الطلبة في هاتين المادتين يتاح لهم متابعة بعض الدروس في المواد الأخرى التي كانت تُعتبر ثانوية مثل التفسير والأصول والبلاغة والعروض وقليل من المنطق والفلك القديم.

شيوخه في الزاوية:

كان أهم المدرسين حينذاك في الزاوية المذكورة هما: الشيخ العابد السماتي، والد المصلح المناضل محمد بن العابد الجلالي رحمه الله، ثم الشيخ مصطفى بن قويدر. وقد كان فقيدنا حتى أواخر أيامه يتحدَّث عنهما بكثير من الإجلال والتعظيم ويعترف لهما بالفضل الجزيل. وكان يصفهما بغزارة المعرفة والتمكن البالغ من المعارف الدينية واللغوية، مع الورع الشديد والتعبُّد الدائم، والتعفف عن المنافع المادية. وكانا متلازمين لا يكادان يفترقان، ويحبان بعضهما حباً جماً. ورغم وجودهما في بيئة ظرفية ومجتمع متخلف، فقد كانا على اتصال بالحركة التجديدية في الشرق عن طريق الصحف والكتب. وكانا يقرضان الشعر حسب الطريقة التقليدية في المناسبات. وقرأت للشيخ العابد بعض القصائد في موضوعات صوفية تتعلق بالتضرع إلى الله عزَّ وجلَّ ومدح الرسول الكريم. وهي مقياس ذلك العهد يمكن اعتبارها من الشعر الجيد الرقيق.

مكث الفقيد في الزاوية نحو أربع سنوات ملازماً للشيخين المذكورين حتى استوعب ما لديهما. وكان ما درسه في هذه الفترة هو كل زاده من التعليم المنظم، وأساس حصيلته الثقافية، وهو أساس متين من الوجهة التقليدية، أتاح له التمكن البالغ من المعلومات الأساسية في ميدان الثقافة الدينية واللغوية. وتفتَّحت موهبته الشعرية في هذه الفترة ولو أنه لم يتعهَّدها بالصقل والتمرين، ولم يحتفظ من إنتاج هذه الفترة بشيء يذكر. والظاهر أن هذه الموهبة قد اتجهت اتجاهاً تقليدياً، حيث نظم في هذه الفترة كتاب النحو المشهور «قطر الندا وبلّ الصدا» لابن هشام.

سفره إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة:

وتفتَّحت شهيته إلى المعرفة، وأصبح شديد الشوق إلى اغتراف المزيد

منها، وحين لم يعد يجد في الزاوية ما يشفي غليله توجّه إلى تونس حوالى عام ١٩٢٤ قصد الانخراط في جامع الزيتونة، وقد خاض هذه المغامرة دون علم أهله، ولم يتزوّد من عندهم بشيء.

وفي تونس نزل ضيفاً على ابن بلده الشيخ عبدالرحمٰن غريب مدّ الله في عمره، وكان يقاربه في العمر، وسبقه إلى هناك. ولكن مقامه في تونس لم يطل. ولم يتمكّن من الانتظام في الدراسة بسبب العُسْر المادي، وعاد إلى مسقط رأسه بعد غيبة دامت نحو ستة أشهر.

الرحلة الطويلة:

في سنة ١٩٢٦ فارق مسقط رأسه، وشرع في سياحة طويلة داخل البلاد استغرقت اثنتي عشرة سنة لم يكاتب أسرته أثناءها إلا مرات معدودة. وكان حين فارق أهله يافعاً نصف متعلّم ولم يَرَوْه ثانية إلا بعد أن نضج عوده، وأصبح عالماً يُشار إليه بالبنان، فماذا كان يفعل طول هذه المدة؟

إن أخبار هذه المرحلة من حياته قليلة يشوبها الغموض، ولم أستطع جمعها إلا من خلال الأحاديث العابرة فيما بعد. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

حين بارح مسقط رأسه اتّجه نحو الغرب، وتجوّل في أقاليم وسط الجزائر وغربها. ومن المؤكد أنه أقام فترات مختلفة في أرياف ومدن الجلفة والأغواط وشلالة وسوقر وتيارت ومعسكر ومستغانم وغليزان وعمى موسى والأصنام.

اتصاله برجال العلم واطلاعه الواسع على الكتب:

وكانت جهوده مركَّزة حول نقطتين أساسيتين هما: الاتصال برجال العلم بمختلف اتجاهاتهم، وكان عددهم كبيراً في هذه المناطق، مثل القضاة ومشايخ الطرق والمدرسين والمفتين، ثم الاطلاع على الكتب المخطوطة والمطبوعة في خزائن الخواص، ومكتبات المساجد والزوايا، والتهام محتوياتها بشهية غريبة، وتلك خاصية لازمته حتى آخر أيامه.

ومن الممكن القول بأن الكتب أصبحت المصدر الرئيسي لمعارفه، وساعدته حافظته الخارقة على استيعاب محتوياتها بسرعة غريبة ودقة فائقة.

تصوفه:

وقد حكى عن نفسه أنه مارس التجربة الصوفية في مدة ما من هذه المرحلة، فانقطع عن الناس أياماً، وأخذ يصوم ويكثر من التهجد والعبادة. ولأمر ما أقلع عن هذه التجربة ولم يعد إليها بعد ذلك. ويبدو أن تأثير الدعوة السلفية هو الذي ثناه عن السير في هذا الاتجاه.

مطالعته الصحف والمجلات الإسلامية:

ولما كان يقرأ كل ما يقع بين يديه فقد أغرم بمطالعة الصحف التي كانت تصدر في ذلك العهد. وقد شاهدت بين الكتب التي جمعها في تلك الفترة أعداداً من مجلة «المنار» و«الإسلام» و«الفتح» و«الزهراء» و«الرسالة» المصريات. و«الشهاب» القديم، و«الشهاب» و«الإصلاح» و«البصائر» الجزائريات.

وعن طريق الصحف اطّلع على أفكار الحركة الإصلاحية واعتنقها عن إيمان واعتقاد.

اشتراكه في جمعية العلماء المسلمين:

وحين تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١ اشترك في اجتماعها التأسيسي كعضو عامل وتعرف على رئيسها الشيخ عبدالحميد بن باديس، وأصبح من دعاتها في ناحية الغرب الجزائري.

في ميدان الإصلاح والتعليم:

عاد إلى مسقط رأسه سنة ١٩٣٦ لفترة قصيرة تزوّج خلالها، ثم رجع إلى مقرّ عمله، وكان في مدينة (الأصنام)، حيث أسّست مدرسة حرة، كان هو معلمها، كما كان داعية جمعية العلماء هناك، ومحاضراً في نادي الإصلاح، وحين نشبت الحرب العالمية الثانية، وأوقفت السلطة الاستعمارية نشاط الجمعية، ونفت زعماءها، اضطر للعودة إلى مسقط رأسه للمرّة الأخيرة، واستقر به المقام في مدينة (طولقة) التي أصبح خطيباً في مسجدها الحر وكوّن بها مدرسة حرة أيضاً بعد التغيير النسبي في موقف السلطة على عهد حكومة فيشي سنة ١٩٤٠.

نفيُه من (طولقة) وإقامته في (بسكرة) وتأسيسه معهداً تعليمياً:

وفي سنة ١٩٤٣، وبعد احتلال قوات الحلفاء للجزائر، نفته السلطات المحلية من (طولقة)، واضطر إلى تجميد نشاطه لمدة سنة استقرَّ بعدها في (بسكرة) نحواً من ثلاث سنوات كوَّن فيها معهداً للتعليم كان صورة مُصغَّرة من معهد الجامع الأخضر الذي أسَّسه المرحوم عبدالحميد بن باديس، وكان يقوم بتعليم الطلبة، يساعده بعض المعلمين المتطوعين، وفي نفس الوقت يؤمن لهم وسائل العيش من مأكل ومسكن بمساعدة بعض الفضلاء من سكان المدينة.

وقد تجمَّع في معهد (بسكرة) مجموعة طيِّبة ينتمي جلها إلى جبال أوراس والزيبان، وأكمل الكثير منهم دراسته بتونس، وانضم الباقون إلى معهد ابن باديس.

استقراره في قسنطينة وتدريسه في معهد ابن باديس:

وحين فتح معهد ابن باديس أبوابه سنة ١٩٤٧، اختارت إدارته الشيخ النعيمي مدرساً به فاستقرَّ به المقام نهائياً في (قسنطينة).

وقد تخصَّص في تدريس المواد اللسانية والدينية، وحين تدعو الضرورة كان يدرس مختلف المواد الأخرى حتى الحساب رغم أنَّ معلوماته فيه كانت نتيجة لجهده الشخصي فقط. وقد تميَّز بالتفاني في أداء الواجب والرغبة الشديدة في إفادة تلاميذه، وتوسيع معارفهم، والحدب عليهم والإصْغاء إلى مشكلاتهم، مما أكسبه محبة تلاميذه وتقديرهم، ولا يزال الكثير منهم يعترف له بالجميل بعد أن أصبحوا معلمين وأساتذة في الثانويات والجامعات وأطباء ومهندسين وحقوقيين وصحافيين ودبلوماسيين.

وكان في نفس الوقت عضواً نشيطاً من أعضاء جمعية العلماء. وكان لا يتردَّد في القيام بكل المهام التي تكلفه بها، مثل دروس الوعظ والإرشاد، والتجول في أنحاء الوطن لنشر الدعوة، وجمع التبرعات المادية لصالح المعهد ومؤسسات الجمعية الأخرى.

حضوره المؤتمر الثقافي الإسلامي بتونس:

وفي سنة ١٩٤٩ شارك في وفد الجمعية الذي حضر المؤتمر الثقافي

الإسلامي المنعقد بتونس، وهو أول مؤتمر يحضره خارج الجزائر.

بين صفوف المجاهدين:

كان الشيخ النعيمي دائماً على صلة طيبة بالشباب الوطني، وكثير منهم كان يحضر دروسه وينتفع بمحاضراته، وتعرّف أثناء إقامته ببسكرة على الشهيد العربي بن مهيدي الذي استمع إلى بعض دروسه، وظلَّ محافظاً على هذه الصِّلات إلى حين اندلعت الثورة التحريرية في سنة ١٩٥٤، فارتمى بين أحضانها بكل حماس، وارتبط بقيادة الولاية الأولى، وكان صديقاً لقائدها الأول الشهيد مصطفى بن بولعيد، وكانت واسطة الاتصال بعض تلامذته القدماء الذين التحقوا بجيش التحرير. ولم تلبث أن حامت الشبهات حوله فنفي من قسنطينة، واستقرَّ به المقام في مسقط رأسه بسيدي خالد. وهناك واصل نشاطه الثوري، حيث أسهم في تنظيم العناصر الثورية وربطها بجبهة التحرير، وكشف الغموض الذي كان سائداً هناك، وقدم بنفوذه الواسع مساعدة قيمة للشهيد أحمد بن عبدالرزاق (سي الحواس) الذي كان بصدد تنظيم الولاية السادسة حينذاك.

ونتيجة لذلك حُكم عليه بالإعدام من طرف أتباع الخائن ابن الونيس. الذي كان يتمتَّع بنفوذ واسع في منطقة الصحراء مستغلاً سذاجة السكان. فاضطر حينئذ للانتقال إلى (المسيلة)، وهناك حامت الشبهات حوله من جديد، واعتقل رهن التحقيق في محتشد هناك، ولم ينْج من الموت أو السجن المؤبّد إلا بمساعدة بعض معارفه من رجال الدرك في تلك الناحية.

التحاقه بجيش التحرير:

كان لا مفرَّ له من اتّخاذ قرار حاسم بين أمرين: إما البقاء حيث يزاول النشاط السري، ومن ثم يتعرّض للقمع الاستعماري الأكيد، أو يلتحق بجيش التحرير للانتظام بين صفوفه، وقد اختار الحل الأخير رغم عدم استعداد بدنه لذلك. وهكذا اختفى من (المسيلة) في أواخر سنة ١٩٥٧ بعد أن أرسل عائلته إلى قسنطينة، ومكث أسبوعاً مختفياً في بيت أحد المناضلين بسطيف إلى أن اتّخذت الإجراءات لصعوده إلى جبال الحضنة في الولاية الأولى، وقد بقي نحو ستة أشهر متنقلاً بين مناطق الولاية، وشهد بعض المعارك، وأصيب في

إحداها بجروح بليغة في كتفه ورجله. وأخيراً قرّر المسؤولون إرساله إلى تونس حيث تنتصب القواعد الخارجية لجيش التحرير وجبهة التحرير.

سفره إلى تونس للعلاج وإسناد مهمة المسامرات إليه:

وصل إلى تونس في ربيع سنة ١٩٥٨، وقضى فترة في المستشفى حيث عالج جروحه وشفي منها، ثم وضع نفسه تحت تصرُّف المسؤولين في الجبهة، فأسندوا إليه مهمة تتناسب تماماً مع إمكانياته وتكوينه، وهي مهمة المسامرات كما كانت تدعى حينذاك.

وكان الغرض من هذه المسامرات هو الاتصال بالجزائريين المقيمين في تونس أو اللاجئين إليها قصد توعيتهم سياسياً، وغرس مبادئ الجبهة في أفكارهم، وبث الأمل والحماس في نفوسهم لقضية التحرير، وكذلك جلب اهتمام الرأي العام التونسي للقضية.

كانت المسامرات تعقد أحياناً بصورة علنية، وتتّخذ شكل المهرجانات الشعبية، وتحضرها السلطة التونسية، كما كانت تعقد في نطاق الجزائريين خاصة في بعض الأحيان.

مواضيع مسامراته العلمية والدعوية:

كانت مواضيع المسامرات محدّدة مسبقاً، وتتناول غالباً أحداث الساعة، وبعض العناصر السياسيّة والتربوية والتاريخية. وقد اعتاد على تسجيل تقرير مختصر في مفكرته عقب كل مسامرة.

ومن المواضيع التي كان يطرقها والتي وجدتها مكتوبة بخطه، كيف تنتصر على العدو - القيام بالواجب - الاستعمار يلفظ أنفاسه - الثورة الجزائرية ووحدة المغرب العربي - واجبنا أمام مشكل الساعة.

جولاته في القطر التونسي:

ويبدو أنه قد ارتاح إلى هذه المهمة، لأنها تعيده من جديد إلى حياة السفر والتجوال التي عشقها منذ الصغر. فكان يجوبُ القطر التونسي باستمرار، حيث كلف بمهام في جميع أجزائه، وقد استغلّ هذه الجولات في التعرُّف على

العلماء والمثقفين عموماً، والاطلاع على الكتب وجمع النادر منها كعادته. وهكذا أصبح بيته الصغير في تونس العتيقة عبارة عن خزانة كتب مكدّسة، كما أصبح ملتقى لزملائه من أساتذة المعهد الذين التجأ بعضهم إلى تونس أيضاً. واستغلّ أوقات فراغه في التنقيب على الكتب التي تحتوي عليها مكتبات تونس وخاصة العبدلية والعطارين. كما انصرف إلى التعلم من جديد وتتلمذ على أكابر علماء الزيتونة وخاصة في مادتي القراءات والحديث.

تلقيه علم القراءات وروايته للحديث:

وفي هذا الصّدد ختم القرآن عدّة مرات بالقراءات السبع على المختصّين، وحصل على إجازاتهم في هذا الفن، كما اتصل بعلماء الحديث، وقرأ عليهم كتب الصحاح وروى عنهم مروياتهم من الحديث، وحصل على إجازاتهم الخطية أيضاً.

سفره إلى الحج:

وحين لاحت تباشير النصر بتقدُّم المفاوضات بين الجبهة والحكومة الفرنسية، تاقت نفسه إلى تأدية فريضة الحج، فقام بها سنة ١٩٦١، واغتنم هذه الفرصة النادرة لاكتساب المزيد من المعرفة، فطاف بمعظم بلاد الشرق العربي متّصلاً برجال العلم منقّباً عن الكتب النادرة محققاً لبعض المسائل المبهمة.

زيارته لعدد من البلاد وإقامته بحمص:

وزيادة عن الديار المقدسة، فقد زار كلاً من دمشق وحمص وبيروت والقدس والقاهرة. ومكث شهراً كاملاً في حمص ختم فيه القرآن من جديد على أيدي القراء المعروفين(١)، وروى بعض الأحاديث عن المحدثين ونال إجازاتٍ خطية منهم.

---

(١) قرأ على العلامة الشيخ عبدالعزيز عيون السود، كما سيأتي في ترجمته في هذا الكتاب، كما أجاز برواية الحديث الشيخ عبدالعزيز، والشيخ عبدالغفار الدروبي، والشيخ وصفي المسدي، وغيرهم من علماء حمص.

إشرافه على مفتشية الأوقاف في (قسنطينة):

في أول حكومة جزائرية بعد الاستقلال، تشكّلت وزارة للأوقاف لأول مرة، وقد كلف من طرفها بالإشراف على مفتشية الأوقاف في (قسنطينة) التي كانت تشمل ولايتي قسنطينة وسطيف. ورغم الصعوبات التي تعترض دائماً مصلحة في طور التكوين فقد انهمك بكلِّ حماس في تنظيم شؤون منطقته بروح العالم الديني حامل لواء الإسلام. غير أنَّ أثمن وقت كان هو الذي يصرفه في إشباع هوايته المفضّلة، وهي جمع الكتب والاطلاع عليها. ولهذا الغرض كان دائم التجوال لا يستريح أسبوعاً بأكمله في بيته حتى أصبح ذلك عادة ملازمة له، وربما كان هذا من أهم الأسباب التي عجّلت في تدهور صحته.

حضوره المؤتمر الإسلامي في تونس:

وفي سنة ١٩٦٣ مثّل الجزائر في المؤتمر الإسلامي التي دعت إليه تونس لبحث مسألة بدايات الشهور القمرية. وقدّم فيه بحثاً قيماً مدعماً بالأدلة العلمية التي تدعم وجهة نظره في ضرورة الاعتماد على الرؤية.

رئاسته لجنة الفتوى في المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر:

وحين تشكّل المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر أصبح من ضمن أعضائه وأسندت إليه رئاسة لجنة الفتوى.

وقد اختير أيضاً كعضو في مجمع البحوث الإسلامية، ومثّل الجزائر أيضاً في مؤتمره المنعقد سنة ١٩٦٨.

وآخر مؤتمر حضره ضمن الوفد الجزائري هو المؤتمر الإسلامي الدولي الذي انعقد بماليزيا في شهر أفريل سنة ١٩٦٩. وقدّم أمامه بحثاً آخر في موضوع الصوم وعيد الفطر.

مرضه ووفاته:

وقد شعر بضعف بصره بعد عودته مباشرةً من ماليزيا، وكان قبل ذلك يشكو من غشاوة تمرُّ أمام عينيه من حين لآخر. وقد انصرف إلى علاج عينيه دون جدوى، حيث ضعفتا تدريجياً إلى أن كفّتا تماماً بعد قليل. وقد تأثّر كثيراً لفقده الوسيلة الوحيدة لإشباع نهمه الذي لا ينقطع إلى المطالعة،

واكتشف الأطباء عن طريق الصدفة حين إجراء بعض التحاليل أنه مصاب بداء السكر منذ زمن طويل دون أن يفطن لذلك. ولم يكن يبدي عناية كافية بصحته أبداً، وكان مصاباً أيضاً بارتفاع ضغط الدم.

وفي ٢٢ أفريل سنة ١٩٧٠، زاره الدكتور أحمد طالب، وأثناء الحديث أُغمي عليه فجأة وانقطع عن الكلام وشُلَّ نصفه الأيمن فوراً، وحين نُقل إلى المستشفى تبيَّن أنه أصيب بنزيف داخلي في الدماغ. وهكذا أصبح قعيداً طريح الفراش. ولم يُجْدِ العلاج في فرنسا ومختلف مستشفيات الجزائر.

وفي ليلة ١٧ جوان ١٩٧٣ على الساعة الواحدة إلا خمس دقائق فاضت روحه وصعدت إلى الرفيق الأعلى. ودُفن مأسوفاً عليه من زملائه وتلامذته ومعارفه في مختلف أنحاء البلاد في مقبرة (قسنطينة)، وترك ستاً من البنين والبنات، وأكبر أولاده يدرس البترول في معهد (بومرداس)، وأصغرهم في المرحلة الأخيرة من التعليم الثانوي.

الجانب العلمي:

يمكن القول أن الشيخ النعيمي كان عبارة عن خزانة معلومات متنقلة، يعرف عنه هذه الميزة كل من جالسه من المثقفين بمختلف مستوياتهم واختصاصاتهم؛ ومن عادته أنه كان حين يحضر مجلساً يجلب انتباه الحاضرين دون قصد لطلاوة حديثه وسلاسته وتنوُّع عناصره وغزارة مادته.

لقد ساعدته ـ كما أشرت سابقاً ـ ذاكرته القويَّة، وانكبابه الدائم على المطالعة على أن يختزن مقداراً هائلاً من المعلومات التي يطلع عليها.

وقد كان أصحاب المكاتب هم أهم زبائنه، فكان دائم الطواف عليهم للحصول على كل جديد من الكتب التي لا يختار منها نوعاً محدداً. فكان يقتني كتب الأدب والشعر والتاريخ والفقه والحديث والتفسير إلى جانب كتب السياسة والعلوم.

وكنت تجد في غرفة جلوسه نماذج من جميع هذه الأنواع مبعثرة هنا وهناك إذ لم يكن التنظيم من مميزاته الشخصية. إلا أن هناك مواضيع معيَّنة وجَّه لها اهتماماً خاصاً حتى يمكن القول أنه أصبح مصدراً يرجع إليه فيها.

العلوم التي اهتم بها:

ومن هذه المواد: الفقه والنحو والقرآن والحديث ومتن اللغة. كما أن مطالعاته الواسعة قد أفادته في الإحاطة بالتاريخ الإسلامي. وجولاته العريضة في الوطن الجزائري جعلته مرجعاً موثوقاً به في المعالم الأثرية ومواطن القبائل العربية والأمازيغية وأنسابها.

وممَّا يذكر في هذا المجال: أن بعثة تُمثِّل زعماء إحدى الطوائف الشيعية في الهند زارت الجزائر للوقوف على أماكن انتشار الدعوة الشيعية والمعالم التي أقام بها الداعية أبو عبدالله اليمني والخليفة عُبيدالله المهدي، فصحبها وأراها بدقة كبيرة جميع الأماكن المذكورة في نواحي ميلة وسطيف.

درايته الواسعة بالأدب العربي:

ومن جهة أخرى، فقد كان ذا دراية واسعة بالأدب العربي قديمه وحديثه ورواته لا يشقُّ له غبار للشعر العربي وأيام العرب وأمثالها. كما يعتبر اعتباره ناقداً أدبياً من الطراز القديم بفضل العبارة الجَزْلة ذات الألفاظ الرنانة والتركيب المتين مع الإيجاز، وكان شديد الإعجاب بالجاحظ في القدماء والإبراهيمي في المحدثين.

موهبته الشعرية:

وقد تفتَّحت لديه منذ الصغر موهبة شعرية لو تعهَّدها الصقل والمران لأمكن أن يصبح من الشعراء المعدودين. ولكنه انصرف عن الشعر إلى الدراسات فلم يكن ينظِّمه إلا عَفْوَ الخاطر، وفي المناسبات فيأتي بالبيتين أو البضعة أبيات كانت غالباً من بحر الرَّجَز، وكان حين يشاء ينظم القصائد الطوال في هذا البحر حتى قال عنه المرحوم الإبراهيمي: إنه ثاني اثنين في الجزائر بالنسبة لهذا النوع من الشعر، أما الأول فقد عنى به نفسه، وكان رجَّازاً لا يشقُّ له غبار.

ويمتاز شعر الشيخ النعيمي شأن شعر أمثاله بمتانة اللغة وحُسْن السبك مع مَيْل إلى اللفظ القديم، وسأورد هنا نموذجين من شعره، فقال وقد زار (خراطة) فلم يجد استجابة لدى سكانها لمهمته الإصلاحية، وقد سلك في قافيتها لزوم ما لا يلزم:

«يا غُربة الدين بخراطة وإن يكن منظرها يغري

الظلم والجبن بها أطفأا | لمع سنا أوجهها الغرّ
ما من فتى أرشدته لهدى | إلا طوى الثوب على الغر
يوليك إعراضه حذار أذى | يفغر فاه أيما فغر
لم تُجْدِ ذا الحيلة حيلته | فكيف بالأبله والغر»

قال يداعب أحد أصدقائه وقد تزوّج:

«الخطيبُ الحَبْر مرّ قبل لقا | عرسه هاج هياج الجمل
ها هو اليوم خبت جذوته | إذ بليل نال أقصى الأمل
أبدل الكتب وصحباً أوفيا | بلمى ظبي رقيق الغزل»

في ميدان النثر:

أما في ميدان النثر، فقد كان قليل الكتابة، وقرأت له مقالين في جريدة (البصائر) أحدهما: بمناسبة أحد الأعداد الخاصة، والآخر: في تأبين صديقه الشيخ الزيّاني.

ونثرُه كشعره متين السبك، متوسط الطلاوة، يصبح سَلساً عَذباً حين يتناول المواضيع التي تثير انفعاله. ويصبح موجزاً دقيق العبارة حين يتناول المواضيع العلمية... وكنموذج على نثره الأدبي أورد هذه الفقرة يصف فيها البحر حين سفره للحج في المرة الأولى:

وصف سفره للحج:

«تراءت لنا جبال مالطة، ونحن قبل مشاهدتها لم نر إلا زرقة القبة الزرقاء تحيط بزرقة البحر من جميع الجوانب، فيتألف من مجموعها منظر عجيب. ولو أن إنساناً عاش في هذا الجو منذ نعومة أظفاره لما شعر بأن هناك عالماً آخر فيه أرض يابسة يخالف لونها وطبيعتها طبيعة البحر تماماً».

ضياع إنتاجه العلمي:

ومن المؤسف أنه لم يسجِّل إلا القليل من حصيلته الثقافية وإنتاجه

الفكري. فرغم كثرة ما نظم من قصائد ومقطوعات وأراجيز فإنه لم يهتم جدياً بجمعها، ولا حتى تسجيلها في مذكِّراته، ولم تسمح ظروف حياته المُضْطربة من تخليد علمه الغزير عن طريق التدوين أو التأليف أو التحقيق، وكان يتمنّى في السنوات الأخيرة أن ينظم تسجيل مذكراته الشخصية، وينصرف إلى تحقيق بعض المخطوطات النادرة التي حصل عليها، ولكن المرض فاجأه قبل تحقيق هذه الأمنية، ثم عاجلته المنية بعد ذلك، فاختفى إلى الأبد مَعين غزير من المعارف حُرمت منه الثقافة في الجزائر.

من آثاره العلمية:

ويمكن بكثير من الجهد في التنقيب والترتيب أن يصنف ما هو مسجل من هذا التراث فيما يلي:

١ ـ نظم قطر الندا وبلّ الصَّدا.

٢ ـ مقطوعات شعريّة وقصائد مبعثرة بين أوراقه ودفاتره.

٣ ـ محاضرات حول تاريخ المعركة الإصلاحية في العالم الإسلامي وفي الجزائر، ودروس في التفسير ألقاها على طلبة كلية الآداب بجامعة قسنطينة.

٤ ـ الأبحاث التي قدَّمها إلى المؤتمرات الإسلامية التي حضرها.

٥ ـ مقتطفات وتعليقات مسجَّلة بخطِّ يده على هوامش الكتب المطبوعة أو المخطوطة أو في دفاتر المذكرات. وتتناول مواضيع متنوعة تشمل الأخبار والأدب والتاريخ والحديث والفقه، وتصحيح بعض القضايا العلمية. وغير ذلك. . .

هذه ـ فيما أعلم ـ هي أهم العناصر التي تكوِّن إنتاجه الثقافي. ومن الواضح أنه مثل أكثر زملائه ومعاصريه لم تسمح له ظروف الحياة والكفاح من الاشتغال بالتأليف رغم المواهب المتعددة التي توفَّرت لديه، فظلَّ طول حياته دارساً غير منتج.

ولإبراز القيمة الحقيقية لإنتاجه الثقافي وتقديره تقديراً عادلاً ينبغي إجراء دراسة وافية ومعمَّقة.

ولا شك أنَّ مثل هذه الدراسة سوف تضيف لَبِنةً جديدة إلى تراث الجزائر الثقافي التليد.



رجال فقدناهم

تراجم نشرت في مجلة «حضارة الإسلام» مع إضافات

جمعها ورتبها وقدم لها وعلق عليها

محمد مكي

الجزء الثاني

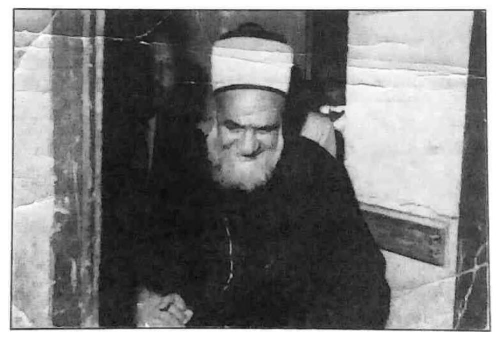
دار ابن حزم



الشيخ عبدالكريم الرفاعي (١)

(١٣٢٢ ـ ١٣٩٣هـ)

(١٩٠٤ ـ ١٩٧٣م)



صورة وخاطرة

للدكتور عدنان زرزور

سكن الروح الصادق الأمين.. وانطوت صفحة من صفحات الصبر والمصابرة وراء حفنة طهور من ثرى دمشق.

قضى العالم المعلّم المُربّي الشيخ عبدالكريم الرفاعي رحمه الله رحمة واسعة، وأثابه عن دينه وعباده خير الجزاء.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

الدعاة والمصلحون هم الذين يصنعون التاريخ:

وأجيال الدعاة هم جنود القادة المخلصين في الوقائع الفاصلة، والساحات التي عرفت شرف الشهادة... وكرامة النصر والانتصاف.

الإصلاح الذي تصدّى له الإمام الغزالي هو الذي أنتج الجيل الذي حارب به القائد المظفّر المسلم صلاح الدين..

ما كان لحجة الإسلام أن يغرق في خلوته وسيوف الصليبيين تلمع في سماء الشام...

أثر الحماسة الروحيّة:

لقد آلى الغزالي على نفسه ـ على طريقته الخاصّة ـ أن ينفخ في الأمة تلك الحماسة الروحية التي دخلت بها التاريخ... والتي لا تبقى في إطاره بدونها... ولا تعود إليه، وقد خرجت منه، إلا بوقود تلك الحماسة ولهيبها وشررها ودخانها...

بدون الحماسة الروحية لا تاريخ..

وبدون الحماسة الروحية لا حضارة..

وبدون الحماسة الروحية لا نصر على الأعداء...

إنَّ الانتصار لا يصنع في فراغ...

إن النصر لا تصنعه أمة لا ينتصر أفرادها على أنفسهم.. ولا يرتفعون إلى أعلى من حاجات الجسد!! بكل ما في هذه الحاجات من عوامل اللصوق بالأرض، والتهافت على الشهوات، والتكالب على أسباب المتع والحياة...

تاريخنا الحقيقي الذي نفخر به:

ما هو تاريخنا الحقيقي الذي كتب بعضه ولم يكتب كله بعد؟! بأي صفحاته نفخر؟ وعلى هامش أيها نعيش؟!..

كل ما نقوله هنا، إنْ تاريخنا الحقيقي هو تاريخ الخلفاء الدعاة، لا الولاة الطامحين... وتاريخ الملوك المصلحين لا السلاطين المالكين... إنه تاريخ الحسن البصري لا تاريخ الحجّاج، وسيرة الإمام أحمد قبل تاريخ المأمون.. وتاريخ أبي حنيفة لا حياة أبي نواس.. وعبقرية الغزالي لا تاريخ المستنصر أو المستظهر!!.. إنه تاريخ العز بن عبدالسلام وابن تيمية والأفغاني والحسني وابن باديس.. وسائر هؤلاء الغر الميامين.

وأستاذنا الراحل الشيخ عبدالكريم ـ رحمه الله ـ الذي اقتفى سيرة هؤلاء، وضَمّهُ لواء بعضهم.. جزء من تاريخ هذه الأمة في عاصمة الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز.

* * *

في حلقة الشيخ علي الدقر:

نزل الفتى الشاب على حلقة الداعية الشيخ علي الدقر... مخلص النية، صافي النفس، مطمئن السريرة، صادق العزم على طلب العلم... وطلب الهداية، لقد كانت الخطوة الأولى التي خطاها طائعاً مختاراً نحو حلقة الشيخ في مسجده الجامع المعروف، لا يبغي بذلك إلا الله والدار الآخرة... دليلاً على إرادة التغيير الكامنة في نفسه، ودليلاً على قدرته على التغيير في واقع الناس، وحياة الأمة التي أقضّ مضجعها الاستعمار الفرنسي وثقافته الأوروبية المناقضة للإسلام، المحاربة لعقيدته وشريعته وأخلاقه.. وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

رسالة الشيخ بدر الدين الحسني في الإصلاح والنهضة العلمية:

التحق الفقيد بحلقة الشيخ علي الدقر، وقد تبلورت فيها ـ في نهاية المطاف ـ حماسة العلاّمة المحدث شيخ الديار الشامية الشيخ بدر الدين الحسني، ورسالته في الإصلاح والنهضة التعليمية.

هذه الرسالة التي عبّرت عن رفض الأمة للتبشير والاستعمار، في تلك

المرحلة من مراحل الغزو الثقافي والعسكري لبلاد المسلمين. ولسوف يكتب عن فضل هذه الدعوة في تثبيت أركان الأمة، وفي إمدادها في ساحات القتال الحقيقية بين رجال الثورة السورية والاستعمار الفرنسي.. حتى غُدْ الشيخ بدر الدين بحقٍّ أب الثورة السورية (الروحي) كما وصفه بعض المؤرخين.

ونكتفي هنا بالقول: إنّ دعوة الشيخ بدر الدين والشيخ علي الدقر رحمهما الله حلقة من حلقات التربية والإصلاح في هذا الجزء من العالم الإسلامي.. في دمشق وبلاد الشام، وحلقة من حلقات الجهاد ومقاومة الاستعمار في هذا الوطن الكبير... وتحت ظل هذا الشعار ـ شعار الجهاد في سبيل الله ـ ولدت الثورات وتجدّدت... وتحت أعين أولئك الدعاة المربّين أضرمت نيرانها، واشتعل أوارها... وفي الإمام عبدالحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي أقرب الشواهد وأوضح الأمثال.

* * *

من أعلام الدعوة والهداية والإرشاد:

التحق الأستاذ الفقيد رحمه الله بحلقة الشيخ علي الدقر، واختلف إلى الدروس والحلقات التي كانت تعقد لمختلف الفنون والعلوم الإسلامية: العربية منها والشرعية، وعاش رحمه الله لا ينكر فضل من تلقّى عنه في هذه الحلقات، ولعلّ ذاكرته كانت أشدّ تعلُّقاً بالثقافة والتربية العملية وما تحتاج إليه من العقيدة وأصول الدين.. لأنّ القدر كان يُعدُّه ـ يرحمه الله ـ جندياً من جنود التغيير، وعلماً من أعلام الدعوة والهداية والإرشاد.

تدريسه الفقه الشافعي والتوحيد وأصول الفقه:

ثم بدأ الرحلة حيث انتهى به المطاف: مُعلّماً مربياً مرشداً، باع نفسه لله ولدعوة الإسلام... لم تقعد به همّة، ولا خارت له عزيمة، ولا غرّته دنيا، ولا أغراه منصب أو رئاسة أو جاه.. كان دائم الرضا والابتسام، وكان يعلم ما يفعل، ويعلم ما يريد...

عرفته منذ بضع وعشرين سنة مدرساً في معهد العلوم الشرعية للجمعية الغرّاء بدمشق، تلقّاني وزملائي في أولى سنوات المرحلة الإعدادية؛ يُعلّمنا الفقه الشافعي.. فكان والله أباً ومربياً ومعلماً، ثم درسنا عليه في سنوات أخرى التوحيد وأصول الفقه، فكان يُعلّم بروحه وحاله كما يعلّم بلسانه ومقاله.. بل لعله كان يوحي بما يريد دون أن يقوله أو ينطق به...

استحضاره العجيب لأخبار الصحابة:

كان عجيب الاستحضار لأخبار الصحابة وقصص الأبطال، وكان عجيب النفاذ منها والتأثير بها، وربما صوّر الامتحان لبعضنا أن يعيق الأستاذ عن المُضيّ في الدروس المقرّرة والمنهاج الموضوع، مشيراً علينا بشيء من النصائح والوعظ، فلا يلبث الشيخ أن يردُّنا إلى الدرس بعد نقلة سريعة إلى النصح المؤثّر الباكي في كثيرٍ من الأحيان.. للّهِ ما أصدق تلك الروح، وما أبلغ صَمْتها، وأشدّ تأثيرها.

المسجد مَهْد الدعوة وملاذها:

وتمضي السنون، وينقطع الشيخ رحمه الله عن المعهد الذي خلا من صوت الشيخ علي الدقر، واصفرّ من روح دعوته. انقطع رحمه الله ليكرّس جهده ليلاً ونهاراً على الدعوة والإعداد في المسجد، مهد الدعوة الحقيقي وملاذها الأخير..

لم يُشر إلى نفسه بالبنان، ولم يدل على مكانه باللسان، بل كان في دعوته صامتاً صادقاً، ملأت ساحة الإسلام الكبرى، ودعوته الرائدة، نفسه المؤمنة، فلا سبيل عنده إلى القول حيث يتّسع سبيل العمل، ولا إلى الخلاف حيث يسع الناس الوفاق والوئام...

إخلاص الجندي وحماسة القائد:

لم يختلف صوته حين أصبح صوتاً عنه يوم كان صدى... أقام على تثقيف العقول، وتهذيب النفوس، وإيقاظ الضمائر.. بإخلاص الجندي،

وحماسة القائد.. وصدق المؤمن الذي اختاره الله تعالى مربياً وداعية في جميع المواقف والأحوال...

* * *

الحبُّ: أساس دعوته إلى الإسلام:

الزمن يمضي.. والنفس الفاضلة تُوقَّر بالتقوى، وتثقل بالمعرفة، وتتَّسع لمعالي الأمور، وتجلّ عن سفسافها. وأسمعه مرة، وقد تشرّفت بلقائه بعد أعوام طوال!! يتحدَّث عن أساس دعوته الناس إلى الإسلام، فيقول: إنه الحب؟ نعم، ولا طمع وراء ذلك بدنياً أو وظيفة أو جاه...

كانت كلماته رحمه الله قليلة جامعة، وكانت نديَّةً رَقْراقة تعكس صفحة نفسه الصافية، وروحه الطيّبة الطهور. وعلى الرغم من شعوري بكثافة بعض الأرواح من حولي فقد كانت كلمات أستاذنا الداعية الجليل تخترق جميع الحُجُب لتصل حيّة مؤثرة..

سرُّ نجاحه: الصدق والرفق:

وساءلت نفسي عن هذا التأثير: ما سببه؟ وعن ذلك الحب الذي تحدث عنه الشيخ رحمه الله، والنجاح الذي أصابه مربياً وداعياً إلى الله، فوجدت تفسير ذلك في كلمتين اثنتين أخذ بهما نفسه من هدي النبي ﷺ، هما: الصدق والرفق.

معاني الصدق عند الشيخ:

كان رحمه الله صادقاً بكلّ معاني الصدق.. كان صادقاً في إيمانه، صادقاً في عزيمته، صادقاً في طلب الفضيلة والإصلاح.

إيثاره إلى ما عند الله صدق، وتواضعه وعدم رغبته في الظهور والامتياز صدق، والتزامه بما كان يدعو إليه ويحث عليه صدق.. ولهذا ربّى الناس بسلوكه وأفعاله قبل أن يُربّيهم بأقواله وأوامره ـ وذلك أعلى أنواع

التربية ـ وقد علم مَنْ حوله أنه لم يكن يأمر، بل كان يشير إلى محدثه وقد أخذ بيده ووضعه معه على طريق الإسلام.. أنْ هذا هو الطريق..

أيّ معنى من معاني الصدق لم يأخذ به المربّي العالم الفاضل الشيخ عبدالكريم رحمه الله وأرضاه؟ وأيّ عَرَضٍ زائلٍ أو مفرقٍ وقف عنده، أو أشار إليه... فضلاً عن أن يقاتل دونه أو يملأ عليه نفسه فعل بعض الأدعياء والمُموِّهين...

إنّ عدم التفات الشيخ لمعاني الخلاف والشقاق.. صدق، وإدراكه لواقع الناس وحقيقة المجتمع وطبيعة الدعوة التي يجب أن تلف جميع أبناء الإسلام.. صدق..

رِفقُ الشيخ رحمه الله:

أما الرفق الذي تأسّى فيه بسيرة خير العباد ﷺ، والذي أشارت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: «ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما»[1]، فقد كان من أهم ميزات الفقيد الراحل رحمه الله حتى لكأنّ الرفق عنده هبة من هبات الخلق والتكوين...

كان رحمه الله طَلْق الوجه، ليّن الجانب، خافض الجناح، دمث الأخلاق، لم يكن فظاً ولا جافياً، ولا ينطق بسوء، ولا يَتَتبَّع عورات الناس، ولا يَتَجسَّس على عيوبهم، فأسر بذلك القلوب، وألّف بين الأرواح.. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

لقد سبق شيخنا الجليل في هذا المقام، وفي هذا الخُلُق الرفيع حيث تخلّف الكثيرون...

إنّ أرواحنا يا سيدي ليس لها شفافيّة روحك، ولا رهافة حسّك

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

ووجدانك، ولكن صورتك الماثلة في أذهاننا، والتي سنراها غداً إن شاء الله إن لم نقوَ على استشفافها من اليوم أنك إن شاء الله من أقرب الناس مجلساً من رسول الله ﷺ، ألم يقل رسول الله ﷺ: «إنّ من أحبِّكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، المُوطَّؤون أكنافاً، الذين يألفون ويُؤلفون»[1]. وما عرّفك الناس في الدنيا إلا من هؤلاء...

* * *

صور ومناسبات يرتبط بعضها ببعض:

في الحياة صُور ومناسبات يرتبط بعضها ببعض، منها ما يفكر فيه المرء، ومنها ما يسبق إلى ذهنه بدون سابق أمر مقصود...

كنت إذا مررت على اسم الإمام أحمد بن حنبل أو سمعت به تمثّل لي أستاذنا الجليل الشيخ عبدالكريم، وتمثّلت معه عالماً عابداً آخر ـ مدّ الله في عمره ـ ليس بعيد الطول والسَّمْت عن الفقيد الراحل رحمه الله...

وفي يوم الرحيل المشهود تذكرت ذلك الربط والمناسبة البعيدة، فإذا بها قريبة عجيبة!! ألم يقل الإمام أحمد في كلمته المشهورة: «بيننا وبينكم الجنائز..»! وهذه جنازة الشيخ الجليل تذكّر بجنازة الإمام أحمد التي شهدها عشرات الألوف، بل مئات الألوف، وبكى من وراءهم لفقده ـ يرحمه الله ـ مَنْ لا يُحصيهم العدّ!

ما أشبه الليلة بالبارحة! بل ما أشبه مطلع حياتك يا سيدي بخاتمتها..

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٤: ٣٥٦ (٤٤٢٢) عن أبي سعيد الخدري، وقال الهيثمي في «المجمع» ١: ٥٨: رواه الطبراني في الأوسط وقال: لم يروه عن محمد بن عيينة إلا يعقوب عن عباد القلزمي. ولم أر من ذكره. وأخرجه أيضاً الطبراني في «الصغير» ١: ٣٦٢ (٦٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٦: ٢٣٢ (٧٩٨٣) وأخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» ص١٦٨ (١١٧)، وفي «الصمت» ١: ١٥٤ (٢٥٣)، والطبراني في «الأوسط» ٧: ٣٥٠ (٧٦٩٧)، وفي «الصغير» ٢: ٨٩ (٨٣٥). وقال الهيثمي ٨: ٢١: فيه صالح بن بشير المري، وهو ضعيف.

هبطت على حلقة الشيخ علي الدقر رحمه الله، لتعيد مع إخوانك ورفاقك للبلد لونه المسلم وثقافته العربية والإسلامية في وجه الاستعمار البغيض، هذه الروح الصامتة الصادقة دعت الناس في حياتك فَلَبَّت، ورفرفت على رؤوسهم يوم وداعك فخشعت، خشعت في ذلك اليوم المشهود، وأسراب من الطيور البيضاء ترتفع بروحك المؤمن العظيم إلى فراديس الجنان. رحمة الله عليك وسلامه ورضوانه إلى يوم اللقاء.

* * *

بشائر ربيع الشام ونسائمه:

ثم يتلقّى جسدك الطاهر، مع بشائر ربيع الشام ونسائمه وأريجه، جَدثٌ متواضع إلى جانب شيوخ صالحين، وعلماء عاملين، وإلى جانب أخيك الحبيب أبي حسان، يا للجراح تنكأ الجراح، أبو حسان، لكأني بابتسامته العَذْبة تَتَلقَّاك بها روحه، وأمارات البِشْر والتَّرحاب ترتسم على مُحَيَّاه، وروحك الرضيَّة الأنيسة تعانق روحه في صمتٍ أبدي بعيد.

يا سيدي العالم العامل الراحل، بثّه أشواقنا وأحزاننا، وآلامنا ودموعنا، وادعُوا الله لنا أن يُهيِّـىء لنا من أمرنا رشداً، وأن يثبِّتنا بقوله الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة حتى نلقاه وهو راضٍ عنا...

رضيَ الله عنك يا سيِّدي وأرضاك.. وأعلى مقامك في عليين.



العالم العامل الشيخ عبدالكريم الرفاعي رحمه الله[١]



للأستاذ الشيخ عبدالغني الدقر

منهج الشيخ علي الدقر في تربية تلاميذه:

يرحمُ الله الوالد، كان في تعليمه وتسليكه مَثَلاً رائعاً، كان يبذل أعظم جهده في أن يجعل من طالب العلم الشرعي القدوة الصالحة في علمه ودينه وخلقه.

وما كان ـ يرحمه الله ـ يعتقد الخير في طالب العلم يملأ دماغه ويهمل قلبه، تهدر أشداقه بالتعالم والتعالي، وليّ اللسان بالإغراب والمِراء والمطاولة.

كما لم يكن يركن لطالب العلم يتّخذ من علمه وسيلةً لدنيا يُصيبها، أو وظيفة ينالها، أو جاهٍ يسعى إليه.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣ ـ ١٩٧٣م).

التربية الصوفية الصالحة:

وكان سعيه كله أن يتعهّد طلابه - مع العلم - بالتربية الصوفية الصافية التي تُزكي النفس، وتُطهّر القلب، وتجعل من طالب العلم داعية للدين، مخلصاً، مضحياً في سبيله بكلّ متعه وشهواته. بل بكل ما في الدنيا، فكل ما فيها عَرَضٌ زائل.

والتربية الصوفية إذا قُصد بها تهذيب النفوس وتطهيرها من الآفات، وإشغال القلب بالعمل والطاعة والذكر، وتصحيح المعاملة على السنة - كما كان يفعل السلف الصالح - هي التربية المنتجة المفيدة التي تصنع العجائب، وإلا فهي تفلسف فارغ.

هذه سبيله - يرحمه الله - في تربية طلابه: **علم وعمل وإخلاص**.

وهكذا كان بالفعل كثير من تلاميذه الذين أضحوا في حياته علماء ينتفع بعلمهم ويُهتدى بهديهم.

وكان منهم: العالم العامل المربّي الشيخ عبدالكريم الرفاعي.

كان أول أمره فتى مريضاً عاجزاً، ليس فيه من أمارات الحياة إلا تردُّد النفس. حين أُتي به أول مرة إلى مجلسه بقصد التبرُّك والاستشفاء.

وكان مجلسه هذا مجلس وعظ وإرشاد، وكان إقبال الناس عليه وانتفاعهم به، وما فيه من الخير والصفاء، منقطع النظير في تلك السنين حتى ما يزال هذا الأثر العظيم يتردَّد ذكره على لسان من أدركوه. وكان هذا الأثر مُبهجاً للمؤمنين غائظاً للمنحرفين.

وأذن الله لهذا الفتى بالشفاء، وكأنَّ الله ما وهبه الصحة غير المتوقعة إلا لينذرها في خدمة دينه علماً وإرشاداً.

إقبال الفتى على العلم:

وأقبل الفتى على العلم، وانتظم في حلقاته يقرأ على المُقدَّمين من تلاميذ الشيخ.

وهكذا كانت السنن في التعلُّم والتعليم في نظام الشيخ، يُقرئ الشيخ المُقدّمين من الطلبة، ويُقرئ المُقدّمون منْ أتى بعدهم.

المنهج العلمي في التلقِّي:

وسقى الله عهوداً كان الطلبة يجلسون فيها بين يدي شيوخهم، يقرؤون تحقيقاً وتدقيقاً في العلم الواحد كتباً من أولها إلى آخرها، يبدؤون بالأقل والأسهل، وينتهون بالأكبر والأعمق، ولا يقبلون على الدرس إلا بعد مراجعة ما قرؤوا بإمعان وتدقق الدرس المقبل، وهذا كان يحمل أساتيذهم على ألا يتركوا شاردةً ولا واردةً ممّا يتعلق بدرسهم إلا استوعبوها واستحضروها.

وعلى هذه الطريقة بدأ المرحوم الشيخ عبدالكريم يطلب العلم، وما برح يجدُّ ويتقدّم حتى صار من الطلبة المقدّمين والأساتذة الذين لهم أن يحضروا الدروس الخاصّة للشيخ، وممّن له حلقة، بل حلقات يعلّم فيها إخواناً مُحْدَثين ممّن أتى بعده.

حضوره عند الشيخ بدر الدين الحسني:

وانطلق على هذه الحال يتعلّم ويُعلّم، بل يتعلّم وهو يعلّم حتى أتقن علوماً كثيرة تتعلق بالشريعة المطهّرة، وفي خلال هذه الفترة أذن الشيخ للطلبة المُقدّمين أن يحضروا للمحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني دروسه الخاصّة، وكان فيهم الشيخ عبدالكريم، وما إن رآه المحدث الأكبر حتى كانت له به فراسة، ثم خصّه بدروس كثيرة كان معظمها في الفلسفة والمنطق والتوحيد، واستمرّ على ذلك عنده نحواً من عشر سنين.

من أركان الدعوة والعلم والإرشاد:

وكان الشيخ عبدالكريم تغمّده الله بالرحمة ـ في نحو عشرين سنة ـ واحداً من كبار أركان التدريس والدعوة والعلم والإرشاد في جميع أعمال

شيخهم، ومن هؤلاء مَنْ سبقه إلى رحمة الله مثل: **الفقيه الشافعي القليل النظير الشيخ أحمد المقداد البصري**[١]، **والعالم العامل الواعظ الشيخ عبدالرحمٰن الزعبي الطيبي**[٢]، وبارك الله في عمر من بقي منهم.

هذا عَرْضٌ موجز لما عرفت من أطوار حياة الفقيد الأستاذ الرفاعي في ظلِّ شيخه وعُمدته العلامة والدي الشيخ محمد علي الدقر.

دينُه واستقامتُه وحُسْن سَمْته:

أما ما عرفته من دينه واستقامته وحُسْن سمته أكبر من ذلك كله.

فقد كان عالماً متعبِّداً متواضعاً، سَمْحَ النفس، نقيَّ القلب، يألف ويُؤلف.

ولا تجده غاضباً إلا إذا انتهكت حُرمة من حُرمات الدين أو شذَّ أحدٌ ممَّن يعرف عن طريق المتقين.

وفاؤه لشيخه الكبير علي الدقر:

ومن كريم أخلاقه: وفاؤه الكبير لشيخه الذي كان سبب حياته الروحية والعلمية.

والوفاء أقل ما يستطيع فعله الرجل النبيل الذي يُجازي الإحسان بالإقرار به، شعوراً منه بالعجز عن وفاء الإحسان بإحسان مثله.

فما نسي الشيخ عبدالكريم شيخه يوماً واحداً كل حياته بعد وفاة شيخه، وكثيراً ما كان يردِّد بين إخوانه وطلابه ما يراه له من الفضل الأكبر

---

(١) المولود سنة ١٣٢٢، والمتوفى سنة ١٣٨٣. تنظر ترجمته في «تاريخ علماء دمشق» ٣: ٥٧٠ ـ ٥٧٣.

(٢) المولود سنة ١٣٢٠، والمتوفى سنة ١٣٨٩. تنظر ترجمته في «تاريخ علماء دمشق» ٢: ٨٢٢ ـ ٨٢٨. وتقدمت ترجمته المختصرة في هذا الكتاب ص٣٦٩.

عليه، كما يردِّد كلامه ومواعظه وعقيدته وشيئاً من سيرته.

بل كان حياته كلها يُحبُّ ما يُحب ومَنْ يُحب، ويكره ما يكره ومَنْ يكره.

بل كان وفياً لأبنائه من بعده لا ينقطع عن زيارتهم، يصحبه بعض إخوانه ما دام مُعافى صحيحاً.

عنايته بتربية الشباب وتعليمهم:

وأرجى أعماله وأكبرها مثوبة عند ربه ـ إن شاء الله ـ ما نهض به وحده، من جَمْع الناس ـ وخصوصاً منهم الشباب ـ وتعليمهم والعناية بدينهم، وتسليكهم طريق المؤمنين الصادقين.

وما تقرَّب إلى الله أحدٌ بشيءٍ أحبَّ إليه من نفع عباده بتعليمهم دينهم، وتخليقهم بأخلاق القرآن، وتأديبهم بآداب النبيِّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، لا لشيء إلا ابتغاء مرضاة الله.

ثمرات دعوته وتعليمه:

وقد أثمر ـ والحمد لله ـ ما قام به من تعليم الناس وتثقيفهم وهدايتهم بفضل إخلاصه وطيب دخيلته وحُسن نيته. فقد رأينا من تلاميذه الخطباء الذين يتكلَّمون بروحٍ من الإخلاص والتقوى والغيرة لا يغرُّهم عن ذلك مال ولا جاه، ورأينا منهم الكثير من حَفَظة القرآن، كما رأينا منهم طلابَ علم فيهم دين وتقوى وتواضع.

وأما بعد، فما أحرانا أن نستوحي دائماً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ونردِّد معها قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

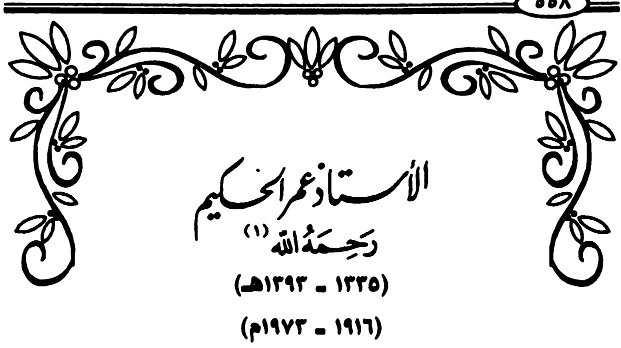
ثروة ضخمة:

لقد نَذَر فقيدنا العالم المربّي الشيخ عبدالكريم نفسه لدين الله، فأنفق معظم عمره في ذلك، تعلّم ثم علّم وخلّف ثروةً ضخمة، ليست من مال ولا حكم، ولا جاه ولا ثرثرة فارغة، ولا تعمُّق فيما لا طائل تحته.

ولكنها ثروة من العمل المنتج المفيد الذي يمكث في الأرض، وسيبقى هذا العمل مفيداً منتجاً إنْ أحسنَ خلفاؤه أبناؤه وتلاميذه رعايته وتنميته بذلك الرُّوح السامي المخلص الذي يترفّع عن مآرب الحياة الدنيا.

رحم الله العالمَ المُربّي الشيخَ عبدالكريم رحمةً واسعة، وأجزل له الأجر، ووصل له المثوبة، فقد ترك من بعده علماً ينتفع به، وولداً صالحاً يدعو له.





الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله (١)

(١٣٣٥ ـ ١٣٩٣هـ)

(١٩١٦ ـ ١٩٧٣م)

للدكتور عدنان زرزور

رثاء الرجال في وقت يعزُّ فيه الرجال:

ما أقسى أن يكتب المرء في رثاءِ الرجال في وقتٍ يَعُزُّ فيه الرجال!.

بالأمس فُجِعَت حلقاتُ التربية والإصلاح والإعداد الروحي بوفاة الأستاذ العالم المُربّي الداعية الشيخ عبدالكريم الرفاعي رحمه الله، واليوم تفجع الجامعة ودور العلم بوفاة العالم الجغرافيّ الموسوعي الكبير الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله.

لقد ذهب الأستاذ الحكيم ـ ابن السابعة والخمسين ـ في السابع عشر من ربيع الثاني، وذهب معه ولده الأكبر خالد، ضحيَّة حادث مفجع على الطريق بين مكة وجُدَّة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رحم الله الفقيدين الشهيدين، وألهم الأم والزوجة والولد وسائر الأهل

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

جميل التأسّي والصبر والعزاء والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ما أقسى أن يكتب المرء في رثاء الرجال، وقد كُتب لجيله أن يشهد هؤلاء الرجال، وأن يستمع إليهم، ويأخذ عنهم. وموتُهم ـ وبخاصّة وهم في أوْج عطائهم وقمة تجاربهم ـ يحمّله في كلْ يوم أمانة، ويلقي على كاهله تبعة ومسؤولية.

المسؤوليات الجسام التي نهض بها جيل الأستاذ عمر الحكيم:

المسؤوليات التي نهض بها جيل أستاذنا العلامة الفاضل عمر الحكيم مسؤوليات جسام..

وقد كان أستاذنا رحمه الله مثال هذا الجيل الذي عاش ظروف الصراع بين الحضارة الأوروبية المسيحية والحضارة العربية الإسلامية، وخرج من هذا الصراع أشد تمسُّكاً بحضارة الإسلام ونبي الإسلام، وأشد إدراكاً لطبيعة الحضارة الغربية ـ بشقيها ـ و«أوروبيتها» التي تنبع من بيئتها وظروفها المحلية الخاصة البعيدة عن الشعوب العربية والعالم الإسلامي، حتى كانت مادية انشطارية من وجه، غير إنسانية من وجه آخر، كما خرج الأستاذ الحكيم ـ رحمه الله ـ من هذا الصراع أشد وعياً للدسائس والمؤامرات التي كانت تدبّرها شعوب هذه الحضارة الاستعمارية لشعوب العالم الإسلامي بوجه خاص، ولسائر الشعوب في العالم بوجه عام.

الجيل الطليعي الاستقلالي:

كان الأستاذ الحكيم رحمه الله مثال الجيل الطليعي الاستقلالي المثقف، فلم يكن عبداً من عبيد حضارة الغرب، ولا بوقاً من أبواقها، ولا مقلّداً من مفاليك مؤيّديها ومقلديها، وبخاصة ممن تلقوا علومهم ومعارفهم في المعاهد الأوروبية والجامعات الأجنبية!

التحاقه بالكلية الحربية الفرنسية ثم المعهد الجغرافي:

كان قد ناهز العشرين من عمره عندما التحق بالكلية الحربية الفرنسية

في باريس في بعثة خاصة، وكان أول عهده بالدنيا إبان الحرب العالمية الأولى، ولكن ظروف هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية قد عطّل الدراسة في الكلية الحربية المذكورة، فالتحق بالمعهد الجغرافي التابع لجامعة الصوربون في باريس.

ملاحقته من الاستعمار الفرنسي:

ثم كان لاشتغاله هناك بالحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي أثره في ملاحقته وخروجه إلى ألمانيا، ثم إلى الجزائر، قبل أن يتمكّن من العودة إلى سورية ليتولّى تدريس الجغرافية الطبيعية في المدارس الثانوية، ثم في كلية الآداب بالجامعة السورية.

وقد أفاد في كل ذلك ـ ومن تمكُّنه الدقيق ببعض اللغات الأجنبية، وإدامته النظر في الكتب والمراجع والنشرات والدوريات ـ سَعَة اطلاع، ودقّة ملاحظة، ساعده على ذلك أيضاً ما عُرف به من قوة الذهن، وقدرة فائقة على اختزان المعلومات والأرقام والوقائع، واستحضارها والإفادة منها في الوقت المناسب.

إيقاظ الشعور بالامتياز والتفوُّق على الحضارة الغربية:

كانت ثقافته موسوعيّة بكل معنى الكلمة، وكانت إفادته من هذه الثقافة، ومن حصيلة تجاربه الواسعة، عميقة ودقيقة أيضاً. ويكفيه أن يفيد من التاريخ ـ كمؤرّخ وعالم ـ القدرة على التوقع، وعلى قراءة أحداث الغد، ثم تصحُّ نظرته في كثير من الأحداث والوقائع.

وقبل أن أورد له ـ يرحمه الله ـ بعض القضايا التي سيذكرها له التاريخ، أحب أن أذكر صورته في نفوسنا، نحن معشر طلابه في كلية الشريعة في خريف عام ١٩٥٦م، والغرسات الفاسدة التي اقتلعها يومذاك من خيالنا وشعورنا.

لقد كانت الساعات الأولى من مادة «حاضر العالم الإسلامي» معرضاً

خِصْباً لتاريخ الحضارة الأوروبية، وحياة الغرب في القرون الوسطى، وميداناً واسعاً لأنانية واقعها اليوم، وكذب قادتها، وفساد سياسييها وزعمائها، وقيام أمرها على روح الاستعلاء على الشعوب، والحروب الاستعمارية التي تكذِّب كل دعوى «لسانية» بالأمن والسلام.

لقد كنا في ذلك اليوم بأمسّ الحاجة إلى الشعور بالامتياز والتفوُّق في تاريخنا وحضارتنا ولغتنا وديننا على الغرب والشرق، بعد تلك الرحلة في مناهج التعليم الثانوي الشرعي والعام على حدٍّ سواء، والتي كدنا أن نسقط معها ـ كلٌّ من وجه ـ في الشعور بالتبعيَّة لحضارة القوم وتاريخهم ومفهومهم عن الحياة.

ويعلم الله أن أستاذنا عمر الحكيم هو الذي تولى إيقاظ هذا الشعور بمعلوماته الواسعة، وحساسيته الصادقة، وطريقته الخاصة في عرض المعاني وتصويرها والتعقيب عليها.

تناوله القضايا بشجاعة ورجولة وتفصيل:

وأذكر هنا: أنه وأستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة ـ مدّ الله في عمره[1] ـ الذي لقيناه في مصر، فيهما شيء من طبيعة الأسد في الهجوم على القضايا وتناولها بشجاعة ورجولة وعُمق وتفصيل وتفصيص!.. وقد كان لهذه الطبيعة فيما يبدو أثر بارز في تفرُّده بكثير من الآراء، وسبقه إليها، حتى لكأنها الروض الأنف، والأرض العذراء.

تأكيده على التصوف الإسلامي النقي:

وقد كان من تتمّة هذا العمل والشعور حرصه الواضح في أغلب محاضراته ـ رحمه الله ـ على محاربة التصوف الأعجمي البعيد عن روح الشريعة، وعن روح الإسلام الحق، وتأكيده على أنَّ التصوف الإسلامي هو «تصوف» الحسن البصري وأمثاله من العلماء الصالحين العاملين، فكان يلاحق في نفوس بعض

---

(١) توفي سنة ١٣٩٤، وستأتي كلمة تلميذه الدكتور عدنان زرزور عنه ص٦٥٤.

الطلاب روح التماوت، ويحارب فيهم الخروج على الناس بمظاهر لا تلائم شرف الدعوة، وروح الداعية والعصر، ويحاول بناء شخصياتهم بالفكر والقوة ومزيد من القراءة والاطلاع، وليس عجيباً - بعد - على سميّ ابن الخطاب أن يكون فيه مشابه منه في كراهية التماوت والسكون والخنوع، «رحم الله عمر كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع».

اهتمامه بالقضايا العربية والإسلامية:

أما التاريخ ودور العلم ومعاهد التدريس، فستذكر للأستاذ الحكيم رحمه الله أموراً أساسية كثيرة يتصل معظمها بالتاريخ القريب للقضايا العربية والإسلامية، ويحاضر هذه القضايا ومستقبلها البعيد. وأكتفي هنا من هذه الأمور بالنقاط الثلاث الآتية، قبل أن أورد فقرة من محاضرة ألقاها الأستاذ الفقيد في مطلع عام ١٩٧٢م، عن مستقبل البلاد الإسلامية:

فهمه العميق لقضية الدولة العثمانية:

١ - سوف يُحفظ لأستاذنا الراحل رحمه الله فهمه العميق والحقيقي لقضية الدولة العثمانية، وتألُّب الدول الأوروبية عليها مجتمعات، والدور الذي قام به يهود الدونمة في تقويض أركان الخلافة، وتوليد المبادئ والشعارات المفرّقة، كسياسة التتريك، وما تبع ذلك من ردود فعل وعواقب سيئة على ما كانت تعاني منه الدولة العثمانية في مطلع هذا القرن من أسباب التخلف والجمود، ثم ملاحقته لهذا الدور في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، كل ذلك بالأرقام والوقائع والأماكن والأعلام، مع رسم صورة أخرى لما كان سيؤول إليه أمر العرب والمسلمين لو أن مشكلة «الرجل المريض» - كما سمّاها الأوروبيون، وكما نترجم عنهم ونأخذ بتعابيرهم ووجهة نظرهم - لم يخطط لها اليهود الماكرون تحت عناوين زاهية وشعارات برّاقة.

تحليله الدقيق للقضية الفلسطينية:

٢ - رأيه في القضية الفلسطينية، وتحليله لبواعثها وأهدافها في النفس

الأوروبية الحاقدة، كما يدل على ذلك موقف دولة الانتداب بريطانيا - بعد أن تمزّقت أوصال الدولة العثمانية - والدول التي سارعت إلى الاعتراف بإسرائيل في الشرق والغرب!

السبيل الوحيد لإزالة الدولة اليهودية:

وكان يكرّر في محاضراته - وأماليه - قبل ثمانية عشر عاماً أو تزيد أنّ الحرب الشاملة هي السبيل الوحيد لإزالة الدولة اليهودية واسترجاع فلسطين، وأنّ هذه الحرب يجب أن يعتمد فيها العرب والمسلمون على أنفسهم أولاً وآخراً، وكان شديد الحذر والتخوُّف من المصائب التي يمكن أن يلحقها اليهود بالعرب والمسلمين في ديارهم والتي ستحول دون هذه الحرب وذلك الاعتماد.

وعنده أن تحكُّم اليهود بالكتل العالمية المتصارعة ليس من قبيل الاستنتاج أو الخيال، «بل هو حقيقة واقعة تشهد عليها الأسماء اليهودية التي تهيمن على المنظمات والمؤسّسات الحكومية الأمريكية»، كما يشهد على هذا القول واقع كثير من الدول الأخرى، وتصريحات مشهورة لمندوبيها في أروقة الأمم المتحدة، وبخاصة في المناسبات الهامة، وهذه التصريحات والأقوال محفوظة مدوّنة، وتُذاع عادةً بجميع اللغات الحية عدا اللغة العربية كي لا يفيق العالم العربي من سُباته العميق!

تركيزه الذكي المبكر على إفريقية السوداء:

٣ - تركيزه الذكي والمبكّر على إفريقية السوداء، وعلى مستقبل الإسلام والثقافة العربية في القارة الإفريقية. ففي حين أرانا مصرع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وانتصار الثورة الجزائرية قبل استقلال الجزائر بسنوات، وأرانا مع ذلك نهاية الاستعمار القريب في القارة الإفريقية بعد سقوط أهم وأقوى معقل استعماري في القارة - ومن هنا كان التشبُّث الاستعماري بالجزائر ووقوف حلف الأطلسي كله إلى جانب فرنسا - فإنه كان يرى أن مستقبل القارة الإفريقية للإسلام، وأنّ الإسلام فيها أقوى من أيّ مبدأ أو نظام آخر.

وقد كان متتبعاً لأعمال التبشير في هذه القارة، وللجهود التي يبذلها

المبشرون بين يدي الاستعمار أو تثبيتاً لأركانه؛ وللمبادئ والشعارات التي يطلقونها في سبيل هدفهم البعيد؛ وكانت عند الأستاذ الحكيم القدرة على تجاوز السطوح إلى الأعماق، وتجاوز الصُور إلى الحقائق، منذ أول عهده بالدراسة في ديار الغرب إلى آخر يوم في حياته يرحمه الله.

وقضية الثقافة الإسلامية في هذه القارة ـ كما كان يراها ـ قضية دينية حضارية من وجه، وقضية عربية قومية من وجه آخر؛ لأن الإسلام هو الوجه الذي يمكن للعرب أن يطلّوا من خلاله على هذه القارة، ويكسبوها إلى الصف العربي، وإلى معسكر الثقافة العربية الإسلامية في عالم تتوزعه معسكرات ثقافية معدودة.

إنّ العرب في منطقة الثقافة العربية الإسلامية من العالم ـ وهي البقعة التي تضمُّ خارطة العالم الإسلامي ـ هم القادة والسّادة، وإطلالتهم على إفريقية أو سواها، لا يمكن أن تكون تحت ألوية غريبة المنشأ والهدف، لا لأنها إطلالة التابع لا المتبوع فحسب، وهي لهذا غير قادرة على الوقوف، فضلاً عن «التعريب» والصمود، بل لأن الإسلام كذلك هو دين هذه القارة في الغد القريب، كما تُثبت الدراسات والإحصائيات.

* * *

مستقبل البلاد الإسلامية:

أما حديث الأستاذ الفقيه رحمه الله عن مستقبل البلاد الإسلامية، الذي ضمّنه محاضرة هامة ألقاها في كانون الثاني عام ١٩٧٢م، فقد قال فيه: إن ذلك قد يبدو للوهلة الأولى ضرباً من الرجم بالغيب، ولكننا إذا حصرنا الجواب ضمن حدود العناصر المعلومة جيداً عن العالم الإسلامي، وعن أوضاع العالم بوجه عام، وتطوره الحالي، فيمكننا الاطمئنان إلى الجواب الذي يرتكز في جميع الأحوال على القضايا التالية:

ثم أورد خلاصة رأيه ـ رحمه الله ـ في الناحية العقائدية، والناحية الجغرافية، وبعض النواحي الأخرى. ونكتفي هنا ببيان رأيه الدقيق الشامل في الناحية الجغرافية.

الناحية الجغرافية للعالم الإسلامي:

قال رحمه الله: «وأما من الناحية الجغرافية فالعالم الحالي يتزايد سكانه بسرعة، ويجمع الخبراء في علم السكان حسب القوانين المقبولة لتزايد السكان من أكثر العلماء أن عدد سكان الأرض سيقرب في العام ٢٠٠٠م، من ضعفي عددهم الحالي! وفي هذه الأحوال فإن الأقوات على سطح الأرض لن تكفي البشرية الكثيرة، هذا مع العلم أن العالم الإسلامي حالياً - رغم انعدام تشجيع الحكومات في البلاد الإسلامية لزيادة النسل - هذا العالم الإسلامي هو صاحب أكبر تزايد في السكان. ولئن كان المسلمون يؤلفون حالياً سدس سكان الأرض، فإنهم سيؤلفون عام ٢٠٠٠م، حسب تزايد المسلمين الحالي خمس سكان الأرض، وفي هذا وحده زيادة في أهمية العالم الإسلامي في نظر غير المسلمين.

ولقد توصلت أمريكا الشمالية والجنوبية وأوروبا إلى زراعة جميع مناطقها القابلة للزراعة، وإنتاج أكثر ما يمكن إنتاجه من الأقوات النباتية والحيوانية بفضل العلم والتقنيات الحديثة، مع ذلك فالعالم الحالي تجتاحه المجاعات، ويموت حالياً حسب إحصاءات هيئة الأمم يموت سنوياً أكثر من عشر ملايين إنسان جوعاً، فكيف بحال العالم بعد ثلاثين عاماً حين يزيد عدد البشرية ثلاثة مليارات نسمة؟!

وقبل الاسترسال في الجواب يجب إخراج أوروبة والصين والهند واليابان من إمكانية تغذية البشر بفائض من الأقوات، لأن أقوات هذه الدول لا تكفي حالياً شعوبها! كما يجب إخراج أستراليا وسيبيريا من إمكانية إفادة البشرية بالأقوات، لأن أستراليا قارة شديدة الجفاف صحراوية في أكثر بقاعها، ولأن سيبيريا شديدة البرد وتربتها تتجلد أكثر أيام السنة.

تقديم الأقوات النباتية للبشرية:

وعلى هذا لن يفيد البشرية في تقديم الأقوات إلا البلاد الحارة ذات الأمطار الوفيرة، أو ذات المياه الجوفية الكثيرة، وذات المساحات الواسعة والسكان القليلين. وهذه البلاد هي البلاد الإسلامية: فالقسم الغربي من آسيا لا

يزال غير مُستثمر للزراعة، بل يكاد يكون مهملاً من الناحية الزراعية بسبب انصراف السكان إلى موارد أخرى كالتجارة والصناعة؛ فسهل العراق الرسوبي، وسهول إيران وأفغانستان والباكستان الغربية، وسهول الفرات والجزيرة والبادية في سورية كلها مهملة، وهي صالحة لإعطاء ثلاثة محاصيل سنوياً.

وهذه المناطق وحدها قادرة على تقديم أقوات نباتية تكفي ألف مليون نسمة.

أهمية الزراعة في الجزيرة العربية:

وأما الجزيرة العربية فالزراعة فيها حالياً شبه منعدمة لانصراف السكان إلى ما هو أجدى في نظرهم، ولكن إمكانية هذه الجزيرة الزراعية عظيمة جداً. لا سيما حين نقرأ أرقاماً عن كميات الماء العذب التي تحفل بها الجزيرة هذه؛ فعيون الماء في منطقة الإحساء تقذف سنوياً إلى البحر أكثر من (٤٠٠) مليون متر مكعب من الماء! كما دلت الدراسات التي جرت في الصحارى العربية أنّ تحت هذه الصحارى وعلى عمق غير كبير - ١٠٠م - توجد جيوب مائية واسعة هي أشبه ببحار لا تنضب عملياً، ولو استخرج منها لكفى لإرواء هذه الصحارى مئات السنين. كما أن سهل عسير وتهامة غير مستعملين حالياً للزراعة رغم جودة جميع الشروط الزراعية وتوافرها في هذين السهلين. وسوف يضطر سكان الجزيرة إلى زراعة هذه المناطق كلها زراعة حثيثة وثلاث مرات سنوياً بدافع ارتفاع أسعار الأقوات حينما يتضاعف عدد البشرية، وتصبح الأقوات غاية البشرية الأولى بعد أن تكون أكثر بلدان العالم قد تصنّعت وزاد إنتاجها الصناعي عن حاجة سكانها، وحاجة بقية العالم إلى هذا الإنتاج الصناعي.

مستقبل الصحراء في إفريقية:

أما في إفريقية فالمستقبل العظيم هو للصحراء، وللسودان الغربي والشرقي، وللدول الإسلامية الواقعة على خليج غينيا؛ فالصحراء الكبرى ليست كما ذكرنا ذات ذخر تعديني عظيم فحسب، بل هي تسبح - حسب قول الجيولوجيين - على بحر من الماء العذب غير قابل عملياً للنضوب،

وعلى عمق يتراوح بين (١٠٠٠ و ١٢٠٠م)، هذا إذا لم يرد سكان الصحراء الغربية الإفادة من فيضانات نهر النيجر التي تذهب حالياً هدراً في منطقة عطفة النيجر أو إلى البحر.

أما البلاد الإسلامية الواقعة على خليج غينيا والسودان الشرقي وتشاد، فلم يزرع حتى الآن سوى عشر أراضيها رغم جودة كل الشروط الزراعية، وكثرة الأمطار المدارية فيها، وستغدو هذه البلاد المنتج الأول للحوم والزيوت النباتية التي تحل تدريجياً محل الدهون الحيوانية.

تصدُّر العالم الإسلامي المكانة الأولى في الاقتصاد العالمي:

وهكذا يتضح لنا أن تغذية البشرية ستعتمد في المقام الأول على العالم الإسلامي، وبذلك فالعالم الإسلامي سيحتل المكانة الأولى في الاقتصاد العالمي، لا سيما وأن المحاصيل الزراعية سترتفع أسعارها لزيادة الطلب عليها، بينما تقل أسعار المنتوجات الصناعية لكثرتها (بعدأن تكون أكثر بلدان العالم قد تصنَّعت)، وكثرة عرضها في الأسواق.

الثروات التَّعدينيَّة والبتروليَّة والزراعيَّة في القارة الإفريقية:

ويلاحظ حالياً أنَّ الثروات التعدينيَّة في أوروبا تكاد تَنْضب، وكذلك فالقسم الأكبر من الثروات التعدينية والبترولية في القارة الأمريكية هي في طريق النضوب، بينما لا تزال البلاد الإسلامية، وخاصة قارة إفريقية، وهي قارة تكاد تكون قارة إسلامية بحتة في قسمها الأكبر الممتد شمال خط الاستواء، والتي تضمُّ (١٩٠) مليون مسلم من أصل (٢٦٠) مليون نسمة.

إن هذه القارة هي قارة المستقبل، وتتكشَّف فيها حالياً ثروات هائلة تعدينية وبترولية وزراعية؛ وهذا ما دعا إلى تكالب الكتل الكبيرة على هذه القارة.

وكذلك فالجزيرة العربية ستكون ذات مكانة أولى في تزويد صناعات العالم بالخامات الثمينة، كالنحاس والنيكل والكروم والمنغنيز وغيرها من الخامات، عدا عن الحديد والبترول.

أثر العنصر البشري في البلاد الإسلامية:

وأخيراً، فإنَّ البلاد الإسلامية هي التي ستكون البلاد ذات الكثافات السكانية الشابة الفتية القادرة على تنفيذ المشاريع الكبرى في العالم، وإعمار سطح الأرض، وإثارته واستغلاله والسيطرة عليه؛ ذلك لأن العنصر البشري يظل ذا قيمة كبيرة مهما تحسّنت الآلات وارتقت، فالعمل الذي يقوم به البشر تعجز غالباً أية آلة عن القيام به، ولأنَّ شعوب أوروبا ـ بما في ذلك الشعب الروسي والأوكراني ـ تظهر الإحصاءات الصادرة عن هيئة الأمم أن نسبة الشيوخ فيها تزداد، ونسبة الشباب فيها تقل، وأن تزايد هذه الشعوب في نقص مستمر، وأنها تُصاب بعقم لا تزال أسبابه خفية! بينما الشعوب الإسلامية في تزايد مُتزايد، وأنَّ نسبة الشباب فيها آخذة بالزيادة، وإذا استمرت هذه الحال قرناً واحداً فإنَّ المسلمين يُؤلِّفون ثُلث البشريّة حسب النتائج التي يُعطيها قانون هذه الزيادة، بينما الشعب الأمريكي والشعب الأوروبي قد توقفا منذ الآن عن التزايد المستمر.

ومن المتوقع أن تكون الزيادة الكبرى في عدد المسلمين مفتاحاً إلى الكثير من مشاكلهم الحالية، ولإيقاف التآمر عليهم من قبل الأعداء الثلاثة».

نظرته إلى المستقبل:

هذا ما كتبه أستاذنا الفقيد قبل بضعة عشر شهراً، ولم يدع فيه روح النظر إلى المستقبل من وراء الحدود والسدود. وتمتاز آراؤه على الدوام، مع ذلك، بالوضوح والقوة، والصراحة والشجاعة، بل إنه رحمه الله لم يعرف طريقاً إلى المواربة أو المُداهَنة حتى في تلك الآراء والأفكار التي كان يقدر غربتها عن أفهام من حوله وطريقتهم في التفكير، حتى ليخيل لجليسه في بعض الأحيان أنه أمام رجل فرد بقراءته، واهتماماته، وسعة اطلاعه، وقوة دماغه، وآرائه الجريئة الحرة.

صفحة ابتدأت بالغربة وانتهت بالشهادة:

عاش في أوروبا غريباً يوم أخذ من (علوم) القوم، ولم يخضع (لثقافتهم) كما فعل كثير ممّن حوله من أبناء العروبة والإسلام، وخرج إلى الجزائر طريداً، وشارك في أعمال التحرير والمقاومة مجاهداً، وعاد إلى الجامعة ومعاهد التعليم مدرساً لا ينقطع عن القراءة حتى لكأنه راهب كتب منقطع، ودائرة معارف خاصّة. ثم ضمّه في آخر الرحلة قبر منقطع عن الأهل والوطن الصغير في مكة البلد الحرام، فأيُّ ختام أليق من ختام الشهادة، يطوي هذه الصفحة التي ابتدأت بالغربة لتنتهي بالشهادة.

إنَّ الرجال الذين يسبقون العصور غرباء، والغُرباء يعيشون عادة حياة الشهداء، والشهادة هي أليق ختام لحياة الرجال الشجعان.

رحم الله فقيدنا العلاّمة الكبير، وأسكنه ونجله الشهيد الشاب فسيح جناته.

* * *

مؤمن قوي الإيمان:

ما عرف الناس (الأستاذ حكيم) إلا مؤمناً قوي الإيمان، مسلماً صادق الإسلام، في صلاته خشوع، وفي دعائه استغراق، وفي قلبه حبٌ لصاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام.

ذكريات رحلة جامعية:

ماذا أذكر من ذكريات أحاديثه وماذا أدع، رحمه الله وأعلى مقامه.

إن صوته الجهوري الأجش ما يزال يرنُّ في أذني، وحركات وجهه ويديه المُعبرتَين ترتسم أمام ناظري، وهو يحدثنا حديثاً مُشهياً نافعاً في رحلة جامعية في عام ١٩٥٦م.

ما أعجب أن أذكر من حديثه في ذلك اليوم كلامه عن مكة والمدينة، وعن طبائع أهل كلٍ من المدينتين كما تبسطها كتب الأدب والتاريخ، ماذا كان يعدّ له القدر في طريق مكة بعد سنوات طوال، يرحمه الله.

بعض هذه الأقاصيص والأخبار، وقد وقفت عليها فيما بعد، سأعود إلى قراءتها في كتب الأدب، وفي القلب حرقة، وفي النفس أسى ولوعة.

في الطريق إلى المدينة المنورة:

وفي تلك الرحلة نفسها - يشهد الله - حدثنا عن زيارته للمدينة المنورة مع طلاب كلية الشريعة في أول رحلة تقوم بها الكلية إلى الأراضي المقدسة، وكيف أن القبة الخضراء وفناء المسجد - في الطريق إلى مثوى النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه - تُحرّكان في النفس كوامن الحب وتاريخ الذكريات، وأنّ لهما عند مَنْ حُرم المعرفة الحقّة بذلك المقام الكريم معنى آسراً يفرض الهيبة والاحترام والإجلال.

صوّر لنا (الأستاذ حكيم) في الحالة الأولى جاره على مقعد الطائرة الأستاذ السباعي - رحمهما الله - وكيف سقط من مكانه، وأصيب بما يشبه الغيبوبة، والطائرة تُحلّق بهم في سماء المدينة المنورة، وأن الذي طمأنهم عليه - وسكب عبراتهم - بقايا كلمات مضطربة على شفتيه علموا منها أنه لمح القبة الخضراء، يسطع نورها في ضوء الشمس.

كما صوّر لنا في الحالة الثانية حوادث رآها في فناء المسجد من أناس دلفوا إليه، وكأنهم يستعرضون الجند، فما خطوا خطوات حتى أكبّوا على الأرض يلتمسون منها أو من جيوبهم ما يمسحون به عن الأرض الغبار!!

كان الصوت الأجش المُحبَّب يزداد تهدُّجاً وتأثراً وندى بعيداً.

وكانت الروح المُحبّة لرسول الله ﷺ تسكن إلى حديثه، وتعكس رسالته على صفحة النفس النقية، صادقة صافية.

ثم يأذن الله تعالى لهذه الروح أن تنطلق من عقالها في مكة البلد الحرام، لتُحشر يوم القيامة - إن شاء الله - مع النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً.

رَحِمَ الله أستاذنا العلاّمة الراحل، وجَزاه عن العلم والدين والمعرفة، وعن المسلمين الذين كانت تقضُّ مضجعه مشكلاتهم، وتآمر العالم عليهم، أفضل الجزاء. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



الشهيد العالم عمر الحكيم رحمه الله(١)

(١٣٣٥ - ١٣٩٣هـ)

(١٩١٦ - ١٩٧٣م)

للأستاذ شفيق بيرودي

شخصيةٌ قويةٌ وجاذبيةٌ عظيمة:

عرفت الفقيد الشهيد عمر الحكيم عام ١٩٥٣م، يوم كنت طالباً في جامعة دمشق في كلية الآداب - قسم الجغرافية، وكان الفقيد - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - يتمتع بشخصية قوية، كما يملك جاذبية عظيمة. وكان متواضعاً بسيطاً في حياته، اجتماعياً في سلوكه، وكان حاد المزاج عصبياً. ولكنه كان هادئاً متزناً عندما يتكلم في العلم.

وكان رحمه الله شجاعاً لا يهاب في الحق لومة لائم، دخل السجون لإيمانه العميق بمبدأ الحرية.

مبادئه في الحياة:

ولم يتراجع أبداً عن مبادئه وفلسفته في الحياة، وكان يردّد مراراً

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

وتكراراً على تلاميذه: «إن نهضة الأمة العربية والعالم الإسلامي مرتبطة بالتمسُّك بالإسلام وبتطبيق العلم المعاصر».

دعوته إلى العلم التجريبي المعاصر:

لقد كان رحمه الله داعيةً إلى العلم التجريبي المعاصر لأنه يستطيع أن يقضي على جميع مظاهر التخلّف في العالم العربي والإسلامي.

الإسلام روح المقاومة والثورة في العالم:

كما كان يؤمن أنَّ الإسلام يستطيع أن يوجد روح المقاومة والثورة في العالم العربي والإسلامي، ويرفد الشعوب الإسلامية بحركيّة مستمرة، وبثورة دائمة، وبإشعاع فكري ساطع.

تلازم العروبة والإسلام:

وكان يؤمن ـ رحمه الله ـ أنَّ العروبة والإسلام شيئان متلازمان لا يمكن أن ينفصلا أبداً وكان عندما يحاضر يذكر مراراً وتكراراً أن مدلول كلمة العرب مرادفة للإسلام.

استقامته في سلوكه:

ولقد كان الفقيد مستقيماً في سلوكه لم يعرف الانتهازية، ولقد مرّت على سوريا أحداث مختلفة لو أراد أن يستغلّها لوصل إلى أرفع المناصب السياسيّة.

تلامذته الكثيرون:

ولقد ساهم في تخريج ألوف الطلاب الجامعيين في سوريا والأردن والسعودية، وهؤلاء الخريجون ـ وأنا واحد منهم ـ هم الشعلة الدائمة التي تركها الفقيد للعالم الإسلامي، وسوف تستمرُّ هذه الشعلة في أداء دورها في تجديد الشعب حتى يَرِثَ اللّهُ الأرض ومن عليها.

دوره في النهضة الثقافية المعاصرة:

أما عن دور الفقيد في النهضة الثقافية المعاصرة، فسأقوم بعرضها الآن بصورة مختصرة.

فقد كان الفقيد الشهيد يكتب ويتكلم في دروسه ومحاضراته الجامعية باللغة العربية الفصحى، وكان ضليعاً باللغة والأدب العربي، وكان يتمتع بثقافة عالمية عالية جداً تشمل مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية.

وكان على اطلاع واسع بالتاريخ الإسلامي، وفي الدراسات الجغرافية عن الشمال الإفريقي، وعن أفريقيا السوداء كما كان على اطلاع واسع بحاضر العالم الإسلامي كله، وكان على اطلاع بالتاريخ العسكري العربي، وقام بتدريسه في الكلية العسكرية السورية في حمص في منتصف القرن العشرين.

تَعَمُّقه في علم أشكال الأرض:

وكان ـ رحمه الله ـ قطباً فريداً من أقطاب الدراسات الجغرافية الطبيعية في العالم العربي اليوم، وكان متعمقاً في «علم أشكال الأرض»، وأعتقد أنه عالم لا مثيل له في ميدان هذا العلم في كلِّ الجامعات العربية المعاصرة، وقام بتدريس مادة الجغرافية الطبيعية في جامعة دمشق ١٩٥١ ـ ١٩٦٩م، كما قام بتدريسها في جامعة عمان، وفي جامعة مكة «كلية التربية» ١٩٦٩ ـ ١٩٧٣م.

ترجمته كتاب «الجغرافية الطبيعية»:

وقد ترجم عن اللغة الفرنسية كتاب «الجغرافية الطبيعية» للعلامة الفرنسي «دومارتون»، الذي كان أكبر عالم جغرافي في العالم في النصف الأول من القرن العشرين. وهذه الترجمة مطبوعة بالآلة الكاتبة، ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الرئيسة في العالم اليوم لمادة «علم أشكال الأرض».

كتابه «المدخل إلى علم الجغرافية»:

كما ألف المرحوم الشهيد كتاباً أسماه «المدخل إلى علم الجغرافية» وهو كتاب فريد من نوعه في اللغة العربية عن تضاريس الأرض وأشكالها، واعتمد المؤلف في تأليفه على المراجع الألمانية والفرنسية، ويُدَرَّس هذا الكتاب في جامعة دمشق وعمان ومكة.

مؤلفاته التاريخية:

أما عن مؤلفاته التاريخية، فهي لا زالت محاضرات مكتوبة بالآلة الكاتبة وخاصّة ما يتعلق بحاضر العالم الإسلامي، تلك المحاضرات التي أُلقيت في كلية الشريعة بجامعة دمشق.

ترجمته كتاب «الإسلام في إفريقية السوداء»:

وترجم أيضاً كتاب «الإسلام في إفريقية السوداء» الذي ألفه رئيس الاستخبارات الفرنسية فيليب فونداسي ولم يذكر المرحوم اسمه كمترجم على الكتاب، لأنه كان يؤمن بالعمل بعيداً عن الدعاية والضوضاء، ويلقي الكتاب ضوءاً عن السياسة الفرنسية في إفريقية، وعن دور الإسلام العظيم في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وعن الجهود الفرنسية لإيقاف زحف الإسلام في القارة السوداء؛ لأن مصير القارة الإفريقية مرتبط اليوم بالصراع بين الإسلام الذي يزحف من الشمال الإفريقي وبين المسيحية التي تزحف من الجنوب.

الاستعمار الفرنسي في الشمال الإفريقي:

وكتب المرحوم عدّة مقالات عن الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، وقد حلّل المرحوم فلسفة السياسة الفرنسية في المغرب وجهودها المستمرّة لطمس معالم العروبة والإسلام في الشمال الإفريقي، وحلّل الثورات المستمرة في المغرب حتى رأى بأمّ عينيه (وهو المغربي الأصل) انهيار الاستعمار الفرنسي إلى الأبد في الشمال الإفريقي.

مذكرات والده خالد الحكيم:

ويعتقد بأنَّ مذكرات والده المرحوم خالد الحكيم هي في حوزته، وكانت تلك المذكرات التي كتبها والده خالد الحكيم يوم كان مستشاراً للسياسة الدولية عند المرحوم عبدالعزيز آل سعود في الفترة الواقعة بين ١٩٢٠ ـ ١٩٤٦م، ويوجد في المذكرات خفايا مجهولة عن المملكة العربية السعودية، وأيضاً خفايا الصراع الإنكليزي ـ الأميركي من أجل السيطرة على بترول السعودية، وخفايا الاستراتيجية الأميركية من أجل استنزاف بترول جزيرة العرب، وقد عرضت على المرحوم خالد الحكيم مجلة التايم الأمريكية ١٩٤٦م أن يبيعها تلك المذكرات بمئات الألوف من الدولارات، ولكن رفض ذلك، ثم توفي خالد الحكيم فجأة رغم أنه كان يتمتَّع بصحة جيدة وبطاقةٍ لا تعرف المَلَل والتعب والكلل.

انتسابه إلى الكلية العسكرية ودراسته في المعهد الجغرافي:

أما عن مؤلفاته العسكرية، فقد انتسب إلى الكلية العسكرية الفرنسية ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩م، بعد حصوله على شهادة البكالوريا السورية، وقُبِل في تلك الكلية بواسطة المملكة العربية السعودية على أن يعود ضابطاً مدرباً في الجيش العربي السعودي. ولكن اشتعال الحرب العالمية الثانية أدى إلى إغلاق الكلية العسكرية الفرنسية، فانتسب عند ذلك إلى جامعة الصوربون في باريس، وحصل على الشهادات العلمية في مادة الجغرافية من المعهد الجغرافي الفرنسي.

اشتغاله بالحركة الوطنية:

وقد اشتغل بالحركة الوطنية عن طريق الحاج أمين الحسيني، وبعض الشخصيات العربية الأخرى، ثم حكمت عليه المحاكم الفرنسية بالإعدام، فترك فرنسا وذهب إلى المغرب (إلى بلاد أجداده)، ثم جاء إلى سوريا بعد الاستقلال ١٩٤٧م، وعُيِّن مدرِّساً في حمص، ثم نقل إلى دمشق، ثم أصبح مدرِّساً في جامعة دمشق، كلية الآداب، وقد حاضر في الكلية العسكرية في

حمص عن التاريخ العسكري العربي، وعن طرق القتال عند العرب في المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام.

تنوُّع ثقافته:

لقد كان المرحوم الشهيد عالماً عظيماً من علماء الأمة في القرن العشرين، وكان ـ رحمه الله ـ في أَوْج النشاط والقوة والعمل، وكان على اطِّلاع مستمر ودائم بالثقافة العالمية لأنه يُجيد اللغة الفرنسية والألمانية والعربية، وكان يدرِّس يومياً ويطالع يومياً عدَّة ساعات في مادة اختصاصه، وكان على اطلاع جيد بالرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجية، وكان عالماً جغرافياً بكلِّ ما في هذه الكلمة من معنى، وخاصَّة في ميدان «علم أشكال الأرض».

رحم الله الفقيد الذي استشهد، ونحن في أمسِّ الحاجة إليه وإلى جهوده العلمية، لقد مات الشهيد قبل أن يؤدِّي دوره العلمي والتربوي كاملاً في المجتمع.

وفاته في حادث سيارة في طريقه إلى مكة المكرمة:

وكان الشهيد على أبواب التقاعد، حيث بقي له من الخدمة ثلاث سنوات، وكان يريد التفرُّغ للعلم والثقافة، ويريد المساهمة في تجديد حياة الأمة الثقافية، ولكن القدر أبى ذلك، وفُجعت الأمة به شهيداً خالداً على طريق الشهداء، وخسره العالم الإسلامي، واستشهد في الأرض المباركة «مكة المكرمة»، ودُفن فيها، وعاد إلى الأرض التي أحبَّها ودرسها، وسلامٌ عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حياً.



عبدالله التل

سيف من سيوف الإسلام أغمدته أمته[١]

(١٣٣٧ - ١٣٩٣هـ)

(١٩١٨ - ١٩٧٣م)

للأستاذ ماجد عرسان الكيلاني

الرجولة المؤمنة والعبقريّة الفذّة:

بالأمس ودعت القافلة المؤمنة جندياً من جنودها، ومجاهداً عرفته مختلف الميادين، ذلك هو القائد المجاهد عبدالله التل.

ويشهد الله أن الخبر نزل على أعصابي ثقيلاً مرهقاً، وجاءت دموعي وشرد خاطري لأستعيد صوره في جميع مواقفه ولقاءاتي معه. وما كان ذلك جزعاً من أمر الله ولا اعتراضاً على حكمه فجميعنا لله، وجميعنا إليه راجع. ولكن لأن قصة أبي المنتصر هي قصة الرجولة المؤمنة، والعبقرية الفذة التي تشقّ طريقها مؤمنة بربها واثقة من نفسها حتى إذا أخذت مكانها في ميدان الحياة اصطدمت بنفاق العصر وتناقضاته، واختلاط الزائف والأصيل في نفوس أهله. ومضت تعاني من ذلك كله وتكابده حتى تنفد قواها، وتفرغ من طاقاتها.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

شمائل الرجولة الأصيلة:

لقد نزل عبدالله التل إلى ميدان الحياة، ولكلِّ صفة من شمائل الرجولة الأصيلة في صدره رجل ينطق بها ويعبر عن أسمى معانيها. فرجل يجسد إيمان المؤمن وصفاءه، ورجل يرفع لواء الشجاعة بأقوى ما تكون الشجاعة. ورجل يرفع علم الإباء والأنفة، ورجل يفتح لكل الناس بابه، كريماً من غير ذل، وفياً من غير طمع، ورجل وافر الحكمة بعيد النظرة في أمور السياسة والاجتماع، يدرك المواقف ويفهم الرجال، ورجل يقدِّر العلم ويعشقه كما يعشق السيف، حتى لقد ضمَّت مكتبته الآلاف من المجلدات العربية والأجنبية.

في ميدان الجندية والقيادة:

كانت فاتحة حياته الاتجاه لميدان الجندية، فبرز يمثِّل الحنكة العسكرية والمهارة القتالية، الأمر الذي مكّنه من الوصول إلى صف القيادة في مدة قصيرة جداً، وهو لما يزل في عنفوان الشباب، ولقد شهد له في ذلك من لم يحبوه ومن فشلوا في النَّيل من أنفته وإبائه، فلقد كتب الكولونيل ماروث ركن الحركات الإنكليزية في تقريره بتاريخ ١٩٤٨/٣/١٣م: «لقد أنهى الرئيس عبدالله التل دورة لمدة ثلاثة شهور في قيادة الفرقة الأولى للمُشاة، وبرهن على اهتمامه بالعمل المنوط به، إنه لَخليقٌ أن يكون أندر ضابط أركان في الجيش العربي».

جهاده في حرب عام ١٩٤٨:

وحين بدأت مكائد الانتداب لتسليم فلسطين لليهود عام ١٩٤٨م، لم ينتظر لتصدر الأوامر للاشتراك في الجهاد، وإنما أخذ يذود عن حمى الأهلين، ويتعاون معهم، حتى إذا اشتعلت أوار الحرب ودخلتها الجيوش رسمياً كان أبرز القادة على ساحاتها وهو ما زال في الثلاثين من عمره. وحين جمع الصهاينة قواهم جاعلين بيت المقدس وحمى الأقصى من أولى

أهدافهم، تقدّم ليقود المعركة هناك، فدحر العدو ومرّغ أنف دايان نفسه في التراب.

اتهام اليهود له بالتطرُّف والإرهاب:

ولقد سطّرت جهاده الأقلام، حتى أقلام العدو نفسه، فلقد كتبت صحيفة ـ هامشكيف ـ في عددها الصادر بتاريخ ١٩٤٩/٤/٢٧م: «إنّ عبدالله التل من المعروفين بالتطرُّف والتعصُّب الأعمى، وهو السبب الأصيل في كل اضطراب، وهو إلى جانب تعصبه فإنه من دعاة استئناف الحرب ضد إسرائيل في اللحظة المناسبة». ودايان نفسه لم يستطع أن يكتم مرارة هزيمته أمام أبي المنتصر، فدوّنها في كتاب أصدره باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٠م قرأته بنفسي ولا يحضرني الآن اسمه، ووصفه بالمتعصّب الإرهابي المتعطش لقتل اليهود.

إنها النفسيّة اليهودية الملتوية المعقّدة حين تتحدّث عمّن يُمرّغ أنفها في التراب لا تجد سبيلاً إلا أن تصمهُ بتهم الإرهاب والتطرف.

أخلاقياته الإسلامية في الحروب:

ومن يستطلع سلوك الرجل إبان المعارك المذكورة يرى كيف كان ـ رحمه الله ـ يتأسى ـ عن وعي وشغف ـ سلوك قادة المسلمين من الرعيل الأول، شجاعةً وخُلقاً ورحمةً للإنسانية، تتعالى على الخصومات، وتمسك بعنان النفس. ففي الوقت الذي تراه سيفاً مُصلتاً على أعناق اليهود المقاتلين، وناراً تنصبُّ عليهم في جبهة القتال، تراهُ إنساناً رحيم القلب، عالي الهمة في معاملة الأسرى والشيوخ والنساء والأطفال، فعندما يئس المقاتلون اليهود من الفوز بالقدس القديمة، ولم يجدوا مناصاً من الاستسلام، اشترط قائد الحامية المحاصرة انسحاب المقاتلين وغيرهم، فأبى عبدالله التل إلا استسلامهم دون قيد أو شرط، وحينما رضخ اليهود لشروطه سمح للشيوخ والنساء والأطفال اللحاق بذويهم، وأمر جنوده بتقديم المال والطعام لهم، وبحمل العجزة والمرضى منهم.

ويقول رحمه الله: كنت، وأنا أرى جنودنا يحملون العجزة والمرضى والأطفال على الأكتاف، ويقدّمون لهم الماء والغذاء، أتذكر سلوك السلف من المسلمين الفاتحين، وأتيقّن أن هذه الأمة ستظل تتمثّل أرواحهم وأخلاقهم الإنسانية الرائعة.

تبصيره الأمة بأبْعَاد الخطر اليهودي:

وشاءت الأقدار أن تعزل رجل السيف من ميدان الجهاد العسكري، فانْبَرَى رجل القلم وهو يرى سلبيّة الأمة، وقد أغمتها الاهتمامات الفردية والقبلية والإقليمية والطبقية عن الإحاطة بأبعاد الخطر اليهودي وحقيقته، ومضى يُبصِّرها بـ «خطر اليهودية العالمية»، ويعرفها بـ «جذور البلاء» اليهودي الذي أفسد العالم كلّه، وسخّر طاقات الشرق والغرب لمآربه وشروره. وأطلقها ـ أبو المنتصر ـ صَيْحات واعية ليحذّر الأمة من سموم «الأفعى اليهودية»، وقد اقتحمت «معاقل الإسلام» لتُجهز على المقومات الإسلامية بفضائلها وقيمها ومبادئها، وأصبح الباحث المتخصّص في الكشف عن مخاطر اليهودية العالمية في الماضي والحاضر والمستقبل.

ولقد صدرت أبحاثه هذه في وقت مبكّر كانت الأمة خلاله ـ حتى غالبية المثقفين منها ـ تحسب الصدام مع اليهود كأنه مشاجرة بين عشيرتين في قرية نائية يمكن حسمها بالحجارة والعصي.

مقال الدكتورة بنت الشاطئ عن كتابه «خطر اليهودية العالمية»:

وأذكر عندما صدر كتابه «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية» أنّ الدكتورة بنت الشاطىء كتبت مقالاً في صحيفة الأهرام نوّهت بالكتاب وصاحبه، وكانت خلاصة مقالها: إنّ القائد الذي برز في مجابهة الصهيونية في الميدان العسكري يبرز اليوم ليحتل مركز القيادة في مجابهتها في الميدان الفكري. وأذكر أن الصحف القاهرية كتبت تقول: أنه تم توزيع ٢٤ ألف نسخة خلال أسبوع واحد. وحين كتب رسالته للدكتوراة كان موضوعها حول طبيعة الصهيونية وأخطارها.

بيته منتدى الوافدين:

ولم تكن الكلمة المكتوبة وسيلته الوحيدة في الاتصال بالناس، وإنما جعل بيته في القاهرة - يومذاك - منتدى للوافدين لجامعاتها ومعاهدها، ووجد فيه الوافدون الأهل الذي يرعى ظروفهم العلمية والفكرية والمالية والأخلاقية، ولقد عاد الكثير إلى بلده وهم مدينون له مادياً، ولربما ما زال منهم من لم يُسدِّد ما عليه.

لقد كان الرجل يُضحِّي بماله ووقته في سبيل إيصال أفكاره ومشاعره للناشئة وللإخوة والزملاء، وأصبح الحديث عن مخاطر الصهيونية حديثه في جميع مجالسه، لا يتحدَّث بتجارة ولا منصب ولا عَرَض من أعراض الدنيا، وإنما باليهودية وأخطارها على مستقبل الإسلام ومقدساته، وعلى وجود الأمة ذاتها، يحدث حديثاً ممزوجاً بالألم، معصوراً من الكبد.

أثر نكبة ١٩٦٧:

ولكن ذلك كله لم يكن ليشفي غليله، فلقد كان بفطرته مُسْعِر حرب لو كان معه رجال!! وكل مَنْ رآه بعد محنة ١٩٦٧م، كان يعرف أن الرجل الذي قيَّدته أمته إنما كان حنينه إلى الجهاد يقتله أولاً بأول. كانت كل غارة يهودية على أيٍّ من الجبهات «الشرقية» أو «الغربية» أو «الشمالية» تفعل بجسمه فعل الأدواء الهالكة، ولقد تزايد المرض، وكادت تكون منيته منذ عام ١٩٦٧م نفسه، لولا أن كان له أيام من حياة.

دخلت عليه بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧م، وإذا به طريح الفراش وما من سبب للمرض إلا شدَّة الصدمة، ووجدت عنده نفراً من وجهاء الضفة الغربية الذين عرفوه سيفاً يذود عن حماهم، وعن أعراضهم في رُبَى القدس ورام الله والخليل، جاؤوا يعودونه في مرضه فانقلبوا من أسباب المرض إذ مضوا يبثُّونه اعتداءات سلطات الاحتلال ومضايقاتها لهم في «القطاع» و«الضفة»، وعلى «الجسر»، ذلك أنهم تعوَّدوا أن يبثُّوه اعتداءات فرق (الهاجانا) و(شتيرن) يوم كان يعسكر على جبال القدس، فيسارع ليُدمِّر

المستعمرات التي تنطلق منها الاعتداءات، ولكنه هذه المرة لا معسكراً ولا جنداً حتى ولا جسداً صحيحاً، فلقد صدق فيه قول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

ولقد آمن - رحمه الله - أنَّ الجند القادر على التصدي لليهودية العالمية هو الجند الذي يتربَّى في مدرسة الإسلام، فأصبح داعياً من دعاته، والتحم بأهله وشبابه، وشاركهم آمالهم وتطلعاتهم العامة.

في ميدان الدعوة:

وكان في ميدان الدعوة عظيماً سَمَا فوق الشهوات والصداقات والمصالح الشخصية، وتلك مزيّة تتطلّب تضحية وشجاعة وإقداماً. ما أظن قد فاز بها إلا القليل القليل من الناس، وذلك بالارتفاع عن زخارف الدنيا، والسمو فوق شهواتها، والصبر على آلامها، وعبدالله التل كان واحداً من هذه القلة التي دفعت ثمن الرجولة بأغلى ما يكون الثمن.

وإلى جانب هذه الأنماط من الرجال التي عمرت صدره كان رجلاً يتمثَّل روحانية الإسلام وأخلاقه، يأنف من المتعالين، ويتواضع - حتى لا يصبح شيئاً - مع الضعفاء والمساكين.

تواضعه للفقراء والمساكين:

جلست مع أحد الأخوة في أعقاب وفاته نتذاكر شمائل الرجل وأخلاقه، فحدَّثني الأخ المذكور، فقال: جاء - رحمه الله - ذات يوم إلى الوزارة يقْتاده آذن من أذنة المكاتب ليتوسط له بمصلحة بسيطة لدى موظف بسيط، فاستكثرت ذلك عليه، واستعظمته، وقلت له: يا أبا المنتصر، إنها مسألة بسيطة لو بعثت أحد أبنائك أو اتصلت تلفونياً بالموظف المذكور لاغتنمها فرصة ليلبّي طلبك ويقضي للآذن حاجته! ضحك رحمه الله وقال: يا أخي أنت تعرف أن المساكين من أمثال هذا الآذن قد فقدوا الإحساس

بقيمتهم لكثرة ما استخفّ المتعالون بهم، وحين نصحبهم بأنفسنا هذه المسافة لأمور بسيطة، فإننا نبني نفوسهم ونعيد إليهم الثقة بإنسانيتهم.

أَنَفَتُه وترفُّعه عن المراتب والمناصب:

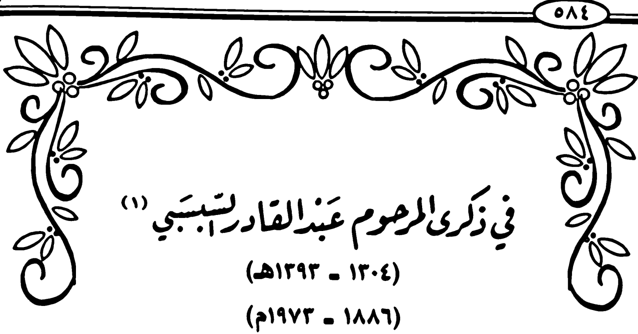
ولن يستغرب الخبراء بالفضائل الإنسانية حين يكتشفون أن هذا التواضع قد اقترن بأَنَفَة منعت عبدالله التل ـ بعد أن عاد لوطنه ـ أن يطلب لنفسه مراتب الجاه التي تسنَّمها من كانوا أقل منه، خاصَّة وقد كان أقرب الناس إليه دماً ولحماً من المتصرفين بهذه المراتب، وكان يملك أن يجيبه لما يريد. ولكنها الرجولة المتكاملة حين تكون شمائلها أصيلة وفطرية، فإنَّ كمالها يقتضي تناسقها بالأشكال التي استعرضناها، فالأنفة قرين التواضع، والتسامح قرين الشجاعة، والحلم قرين العقل، والغيرة قرين العفة، والإنصاف والموضوعية قرينا الإيمان، والعدل قرين الحكمة، كما أنَّ الصَّغار والمذلة قرينا التكبُّر، والحقد قرين الجبن، والطيش قرين السفاهة، والجشع قرين الخيانة، وعبادة النفس قرين النفاق، والدياثة قرين العهر والمجون. وهكذا في كل صفات الإنسان الصالح منها والفاسد.

في ذمّة الله أبا المنتصر! فلقد كُنتَ سَيْفاً من سيوف الإسلام، عجز العدُو عن كسرك، فأغمدتك أمتك وهي في أشد الحاجة لأمثالك.

ورجاؤنا حين يبعث الله البَشَر أن تكون في كتيبة خالد وأبي عبيدة وصلاح الدين.

وعزاؤنا أنَّ الأجيال حين تقرأ تاريخ الجيل المعاصر فستجد أنك الوحيد الذي هزم دايان بين حَمَلة الأوسمة على الصدر، والرُّتب على الأكتاف.





في ذكرى المرحوم عبد القادر السبسبي (١)

(١٣٠٤ - ١٣٩٣هـ)

(١٨٨٦ - ١٩٧٣م)



للقاضي الأستاذ عبدالوهاب التونجي

يقول ابن دريد في مقصورته الشهيرة:

والناس ألفٌ منهم كواحد
وَوَاحدٌ كالألف إنْ أمرٌ عَنى

والمرحوم الأستاذ السبسبي من الأشخاص الذين ينطبق عليهم الوصف الوارد في الشطرة الثانية من هذا البيت.

نشاته وشيوخه:

لقد كان رحمه الله أمة وحده، فقد نشأ عصامياً من أسرة متدينة، ومال

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

منذ صغره إلى طلب العلم، حيث جالس كبار العلماء، أمثال الأستاذ الشيخ محمد الزرقا، والشيخ راجي مكناس، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ محمد نجيب سراج الدين، وغيرهم من كبار العلماء.

في مهنة المحاماة:

مال منذ صغره إلى مهنة المحاماة مع طلبه العلم، وكان أن نجح في الفحص الذي قدَّمه في منتصف العقد الثالث من هذا القرن، وأصبح محامياً منذ ذلك التاريخ حتى أحيل إلى التقاعد منذ سنوات قليلة.

تدريسه في المدرسة الفاروقية:

كانت أول معرفتي به حينما كنت طالباً في المدرسة الفاروقية عام ١٩٢٨م، وكان أستاذاً لنا في مادة الحقوق، حيث شرح لنا المواد الكلية من المجلة، وجزءاً من أحكام البيوع.

زمالتي له ومشاركتي له في مهنة المحاماة:

ثم انقطعت الصلة بيننا حتى تخرجت في كلية الحقوق ١٩٣٦م، وهناك عادت صفة الزمالة بيننا.

وفي عام ١٩٣٨م، أصبحنا شركاء في المهنة في مكتب واحد، وبقينا معاً حتى تاريخ تعييني في القضاء في آخر عام ١٩٤١م، حيث انفصلت عنه، ولكن الصلة بيننا لم تنقطع حتى آخر حياته رحمه الله.

المحامي الفقيه العامل:

كان الأستاذ السبسبي محامياً لامعاً من جهة، وفقيهاً عالماً من جهة ثانية، وعاملاً كبيراً في الحقل الاجتماعي من جهة ثالثة، وسأورد بصورة موجزة نبذة عن هذه النواحي الثلاث للوقوف على نبوغه ونشاطه في كلّ حقل من هذه الحقول.

١ ـ عمله في المحاماة:

كان المرحوم السبسبي من أقدر المحامين وألمعهم، وبصُورة خاصّة في القضايا المدنية والشرعية، ورُغم اطْلاعه الواسع على القوانين الجزائية غير أنه لم يكثر من الدخول في الدعاوى الجزائية.

استظهاره مواد القوانين عن ظهر قلب:

كان في مهنته قديراً، ويستظهر سائر القوانين المعمول بها غيباً، فلقد كان ذا حافظة من أقوى الحافظات، وذاكرة من أقوى الذاكرات، يحفظ مواد القانون عن ظهر قلب، وكان مُطّلعاً على الاجتهادات العثمانية، حيث استفاد من تلك الاجتهادات استفادة كبيرة في مهنته.

في دائرة الأوقاف الإسلامية:

ولقد كان محامياً لدائرة الأوقاف الإسلامية مدّة طويلة من الزمن، ثم أُعفي منها في فترة من الفترات، ولكن دائرة الأوقاف حينما لاحظت لحوق الضرر بقضاياها بعد إعفائه من الوكالة أعادت الأستاذ المرحوم إلى وكالة الأوقاف ثانية، وبقي فيها حتى أُعفي منها فيما بعد.

في محكمة البداية المدنيّة:

ومن الطريف أن نذكر حادثة وقعت له أثناء ممارسته المحاماة، وكنت شريكاً معه، فقدمت باسمه دفاعاً إلى محكمة البداية المدنية، وكان رئيس المحكمة حينئذ من القضاة المشهود لهم بالعدل والاستقامة، ويظهر أن الرئيس لم يُدقّق دفاع الأستاذ السبسبي تدقيقاً كاملاً، فأصدر قراراً إعدادياً ضدّه في تلك الدعوى دون أن يكون الأستاذ حاضراً، ولما أبلغته القرار غضب من هذا التصرُّف غضباً شديداً؛ لأنه يعلم أنّ الحقّ والقانون بجانبه، وأقسم أن لا يدخل محكمة البداية بعد الآن، وصار يكتب اللوائح المتعلقة بدعاوى هذه المحكمة بنفسه، وأنا أقدّمها عنه.

ويظهر أنّ رئيس المحكمة حينما عاود تدقيق القضية لاحظ أنّ الحق بجانب الأستاذ السبسبي، كما لاحظ أنّ الأستاذ انقطع عن حضور جلسات

المحكمة، فسألني الرئيس عن سبب عدم حضور الأستاذ إلى المحكمة؟ فاعتذرت له بكثرة أشغاله، فطلب الرئيس مني أن أبلّغه بالحضور إلى المحكمة في الجلسة القادمة، وأنه عدّل القرار الإعدادي السابق في الدعوى، ووافق رأي الأستاذ السبسبي، ثم قال الكلمة المشهورة التي قلّما تصدر عن قاضٍ صراحة: (**إن الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل**)، وأصرّ عليّ بلزوم حضوره إلى الجلسة القادمة.

ولما أخبرت المرحوم بذلك قال لي بأنه أقسم يميناً بعدم الدخول إلى المحكمة، فماذا يفعل تجاه اليمين؟ فقلت له: إنه من الممكن التكفير عن اليمين والدخول إلى المحكمة بناءً على رغبة الرئيس، وقد كفّر عن يمينه فعلاً، وعاد إلى المحكمة، وكانت النتيجة ربحه للدعوى.

استعانة المحامين برأيه، واستشارة القضاة له:

وكان كثير من المحامين يستعينون برأيه، ويساعدهم في كثير من اللوائح، كما أنَّ عديداً من القضاة كانوا يستشيرونه في بعض الأحكام القانونية نظراً لغزارة علمه وخبرته الطويلة في المحاماة، وقد تدرّب عنده عدد كبير من المحامين منهم من أصبح أستاذاً في الجامعة، ومنهم من أصبح قاضياً قديراً، ومنهم من أصبح محامياً لامعاً، فلقد كان رحمه الله يبذل معلوماته الواسعة إلى متدرّبيه وسائليه، ولا يبخل عليهم بشيء من تلك المعلومات.

٢ ـ صفاته العلمية وقوة حافظته:

كان ـ رحمه الله ـ عالماً فقيهاً كثير المطالعة، لا يترك فرصة تمرُّ عليه إلا وهو يطالع في كتاب علميّ أو مرجع حقوقي، أو سفْر فقهي، ولقد اقتنى مكتبة عظيمة حوتْ مختلف أنواع العلوم، وكان إذا أراد أن يبحث في موضوع حقوقيّ أو علميّ لا يترك مصدراً إلا ويطّلع عليه لزيادة التوثّق في الوقوف على الحقيقة العلمية، لذلك كانت معلوماته ومذاكراته مع غيره في النواحي العلمية ورسائله التي ألّفها مبنية على حقائق علمية قلّما تقبل الجدل، وبعيدة عن الخطأ غالباً، وكان لا ينشر رسالة إلا ويعرضها على

غيره لبيان ملاحظاته عليها حتى تكون بعيدة عن الأخطاء.

مقالاته الكثيرة ورسائله المطبوعة:

لقد ألف الأستاذ المرحوم ما يزيد على مئة مقالة في مختلف المواضيع الثقافية، منها ما كان موضوعه علمياً محضاً، ومنها ما كان رداً على بعض الآراء الفقهية الصادرة عن المراجع العلمية أو غيرها، وسنأتي على بعض ردوده في هذه المقالة بصورة مختصرة.

كان يطبع رسائله ومقالاته ويوزّعها مجاناً، وله رسائل صغيرة مطبوعة في بعض المواضيع الإسلامية أو تفسير القرآن الكريم، وله تعليقات قيمة على كثير من القوانين الحديثة والآراء الحقوقية التي تصدر عن كبار فقهاء القانون، وبيان النقص فيها وضرورة تعديلها.

اطلاعه على المذاهب الفقهية:

كان ـ رحمه الله ـ مُطّلعاً على أكثر المذاهب الإسلامية، ومقارناً بينها، فإذا رأى حكماً قانونياً لم يؤخذ من المذهب الحنفي، فإنه كان يرجعه إلى مصدره من المذاهب الأخرى كالمالكي والشافعي والحنبلي، وغيرهم من أئمة المذاهب.

انطباق قانون التجارة السوري على المذهب المالكي:

وقد حقّق رحمه الله في قانون التجارة السوري المستمد من القانون الفرنسي، فرأى أنّ أحكامه منطبقة في الأكثر على المذهب المالكي، ويعود السبب في ذلك إلى أن القانون المدني الفرنسي بما فيه قانون التجارة وُضع في أيام حكم نابليون بونابرت في فرنسا، وقد استعان هذا الإمبراطور حينما أراد وضع هذا القانون ببعض العلماء المغاربة، وكان هؤلاء العلماء من أتباع المذهب المالكي، لذلك كان قانون التجارة الفرنسي مُشابهاً في كثير من أحكامه للمذهب المالكي.

ومن المؤسف أن نستورد قوانينا من المصادر الأجنبية، وننسبها إليهم،

ونأنف أن نستمدَّ تلك القوانين من الشريعة الإسلامية التي تعدُّ بحق أكمل الشرائع العالمية في سائر عصور التاريخ.

حافظته القوية:

كان رحمه الله إلى جانب علمه ذا حافظة قوية، قلَّ نظيره بين أقرانه في العصر الحاضر، فكان يحفظ سائر القوانين مادة مادة، ولا يحتاج إلى الرجوع إليها إلا في حالات نادرة.

نادرتان عن قوة حافظته:

وهنا أروي نادرتين عن قوة حافظته التي شهد له بها كبار العلماء والحقوقيين.

النادرة الأولى: كان الأستاذ العلامة مصطفى الزرقا، المعروف بعلمه واطلاعه على الأمور الشرعية والقانونية شريكاً للأستاذ السبسبي في المحاماة، ثم عُيِّن أستاذاً في كلية الحقوق في دمشق، ولم ينقطع عن تردُّده إليه واستشاراته في كثير من المسائل القانونية والشرعية، وحينما كنت شريكاً مع المرحوم في المحاماة حَضَر الأستاذ الزرقا إلى المكتب، ورغب من الأستاذ السبسبي أن يفتِّش له عن نصٍّ وارد في كتاب الفقه لابن عابدين، باعتبار أنَّ أوقات الأستاذ الزرقا لا تساعده على التفتيش عن هذا النص، فما كان من الأستاذ السبسبي إلا أن قال له فوْراً، وبدون مراجعة: إن هذا النص موجود في شرح المادة ـ ١٢٩ ـ من مجلة الأحكام العدلية لسليم باز، وطلب المرحوم من كاتبه حينئذ أن يحضر له الشرح المذكور، وفتح على المادة الآنفة الذكر، فرأى الأستاذ الزرقا النص بعينه موجوداً في شرح المادة المذكورة، فتعجَّب الأستاذ الزرقا من قوَّة حافظة الأستاذ السبسبي، خاصّة وأن مثل هذا النص قد لا يمرُّ على المحامي أكثر من مرة واحدة في حياته، ومع ذلك فقد تذكّر مكان وجوده بهذه السرعة.

النادرة الثانية: وقد جرت معه في محكمة البداية الناظرة في القضايا التجارية، حيث أصدرت المحكمة حكماً في إحدى القضايا، وأرادت الاستناد إلى المادة التي تعتبر مستند هذا الحكم، وبحث رئيس المحكمة

وأعضاؤها في قانون التجارة للوقوف على رقم المادة المطلوبة فلم يجدوه، وأعادوا النظر في القانون مراراً فلم يعثروا على رقم تلك المادة، فما كان من رئيس المحكمة إلا أن قال لآذنه: ناد لنا الأستاذ السبسبي، وحينما حضر الأستاذ، سأله الرئيس عن رقم المادة المطلوبة، فأجابه على الفور بالرقم المطلوب، وفتّش رئيس المحكمة عن تلك المادة فرآها صحيحة، وهي المادة المطلوبة، فقال رئيس المحكمة لأعضائه: إن الأستاذ السبسبي هو بحق قاموس الحقوق.

وهناك حوادث كثيرة تدلُّ على قوة حافظته يضيق المقام عن ذكرها.

ردوده العلمية:

لقد كان للمرحوم جولات علمية ردّ فيها على عدد من علماء القانون أو المواضيع العلمية التي صدرت من مختلف الهيئات والأشخاص ذوي الصفة العلمية، وكان ينشر ردوده في «مجلة القانون» التي تصدرها وزارة العدل السورية أحياناً، أو في مجلة «حضارة الإسلام» التي تصدر في دمشق، فقد ردّ على بعض آراء المرحوم الأستاذ عبدالرزاق السنهوري، وردّ على عدد من المستشرقين والمستشرقات، وكان يرى أن معظم المستشرقين رغم غزارة علمهم واطلاعهم على تاريخ الحضارة الإسلامية، فإنهم كانوا يدسُّون في مؤلفاتهم كثيراً من السموم التي ينفثونها في كتبهم، فيتأثر بها مَنْ لم يطّلع على التاريخ الإسلامي ويعتقدها حقائق مُسلّماً بها، فكان فريق من هؤلاء المُطّلعين على آراء المستشرقين يحملون أفكاراً خاطئة عن الحضارة الإسلامية والتشريع الإسلامي، رغم أنهم مسلمون، لذلك كان يتصدى للرد على أولئك المستشرقين.

ملاحظاته على الموسوعة الفقهية:

أصدرت الموسوعة الفقهية ـ التي كانت تصدر في الكويت ـ موضوعين في جزئين، هما: الأشربة والأطعمة، وقد درسهما الأستاذ المرحوم دراسة فقهية واسعة، ودوّن بعض الملاحظات على ما جاء في محتوياتهما، وربما كانت ملاحظاته أقوى الملاحظات التي واجهت هذين الموضوعين، ومهما

ثار من جدل ورد بين الأستاذ السبسبي وهيئة الموسوعة، إلا أن الرد الذي أصدره الأستاذ السبسبي كان رداً ينمُّ عن اطّلاع واسع في العلوم الفقهية، وتحقيق كبير في مختلف المذاهب الإسلامية، وبعد أن نشر الملاحظات الأولى عن موضوع الأشربة، عاد ونشر ملاحظات ثانية عن نفس الموضوع.

أما عن موضوع الأطعمة، فقد نشر ملاحظاته عليه مرة واحدة، لأنه يرى ـ رحمه الله ـ أن موضوع الأطعمة كان أكثر تدقيقاً وتحقيقاً من موضوع الأشربة.

ولقد نشرت هذه الردود في مجلة «حضارة الإسلام» في حينها[١].

ملاحظاته على تفسير العلامة جمال الدين القاسمي:

كان المرحوم العلامة جمال الدين القاسمي ألّف كتابه الكبير «محاسن التأويل» في تفسير القرآن العظيم، وكان للأستاذ القاسمي رأي غير مستند إلى نقل شرعي، وفيه تأويل لا ينسجم مع صراحة القرآن، لذلك كتب مقالة أبدى فيها ملاحظاته على ذلك التأويل الغريب[٢].

ملاحظاته على كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب):

سبق أن قلنا: إنّ المستشرقين الذين يكتبون عن الحضارة الإسلامية يُوردون كثيراً من الحقائق الصحيحة، ولكنهم يُوردون في خلال مؤلفاتهم بعض الشبهات التي قد تبدو لمن يجهل التاريخ الإسلامي صحيحة، ويطعنون بذلك في صميم الشرع الإسلامي، ومن ذلك ما ورد في كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) للمستشرقة (زيغريد هونكه) حيث قارنت مؤلفته بين بلاغة اللغة العربية في الجاهلية وبلاغتها في الإسلام، وأن اللغة العربية اكتسبت بلاغة بعد مجيء محمد ﷺ. وقالت في كتابها: (انظر كيف استطاع نثر محمد الذي أتى مبشّراً فسيطر على ذاك الإنسان الشاعر، وتقصد

---

(١) وقد ناقشها شيخنا الزرقا في ملاحظاته، وستصدر قريبا ـ بعون الله تعالى ـ في كتاب: «مقالات ومحاضرات العلامة الشيخ مصطفى الزرقا» بعنايتي.

(٢) وقد نشرت مجلة «حضارة الإسلام» هذه الملاحظات في أحد أعدادها السابقة (المجلة).

به الشاعر الشنفرى الجاهلي ـ ودخل إلى أعماقه)، واستشهدت على ذلك بسورة التكوير، معبِّرة بذلك أن القرآن كان من نثر محمد عليه الصلاة والسلام وقارنته مع ذلك الشاعر الجاهلي.

ولقد عقَّب المرحوم في ملاحظاته على مُعرِّبي الكتاب السيدين فاروق بيضون، وكمال دسوقي اللذين لم يُبديا أية ملاحظة على هذه الجملة، لذلك كتب رحمه الله مقالاً جليلاً رداً على هذه العبارة، وبيّن فيه أن القرآن العظيم هو من كلام الله تعالى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن من يزعم بأن القرآن من نثر محمد عليه السلام إما أن يكون جاهلاً أو حاقداً أو عدواً للإسلام، وقد نُشرت هذه المقالة في مجلة «حضارة الإسلام» في حينها.

٣ ـ مشاركته في خدمة المجتمع وأعماله الدعوية:

لقد شارك المرحوم في سائر الحوادث الاجتماعية التي جَرَت في البلاد أيام الاحتلال الفرنسي وبعده، فلقد كان منذ نشأته عضواً في الكتلة الوطنية التي قاومت الاستعمار، وكان عضواً في لجنة الدفاع عن حقوق مياه حلب، وكان عضواً في مؤتمر الأوقاف العام الذي عُقد في حلب عام ١٩٣٢م، للمحافظة على الأوقاف الإسلامية، وكان أبرز أعماله عضويته في نادي (دار الأرقم) الذي أُسِّس في حلب عام ١٩٣٧م، ثم أصبح رئيساً له، وكان للنادي أعمال بارزة يعرفها كل من اطَّلع على سَيْر أعمال النادي في جميع مراحله.

كان ـ رحمه الله ـ يشارك في كل عمل اجتماعي، سواء كان خيرياً أو اجتماعياً عاماً، وكان يُؤخذ برأيه في أكثر الأمور الطارئة نظراً لِسَعَة مداركه، ورجاحة عقله، واتزانه في جميع أعماله.

أخلاقه العالية:

وكان لا يجيب على سؤال إلا إذا تحقق من الجواب الصحيح، ويحيط به من جميع جوانبه.

وكان ـ رحمه الله ـ ذا أخلاق عالية، وتديُّن شديد، وكان متواضعاً إلى آخر حدود التواضع.

وكان فكِهاً يملأ المجالس فكاهة وظرفاً، ويحفظ من الشواهد ما لا يحفظه أحد مثله، وكلما كان مجتمعاً مع جماعة يتداولون الحديث يوقف الحديث فجأة، ويقول لهم: لقد تذكرت نكتة تناسب الموضوع، ثم يروي لهم النكتة، وقد تتعدَّد النكات التي تناسب موضوع الحديث.

نكاته اللطيفة:

ومن نكاته اللطيفة: أنه قعد يوماً في إحدى حدائق حلب يتناول طعام الإفطار، وكان يبرُ الخادم الذي يحضر له الطعام، وبعد أن انتهى من طعامه أراد أن يداعب الخادم، وكان شاباً غير متزوّج، فقال له: (الله يبعث لك عروسة من لوني)، فلمّا نظر الخادم إلى وجه المرحوم ـ وكان أسمر اللون ـ تبسّم، وقال له: (لو أتتني مثل هذه العروس لذبحتها).

ومن نكاته اللطيفة أيضاً: أنه كان ينتظر دوره في إحدى المحاكمات، ويظهر أنَّ الحاكم لم ينتبّه إلى وجوده، فصار ينظر في دعاوى المحامين الذين قدموا بعده، ولا ينظر في دعواه، عندئذ التفت المرحوم إلى رئيس المحكمة، وقال له: (يظهر أنَّ شكلي الجميل أعجبك يا سيادة الرئيس، لذلك أخَّرتني عندك لكي تخيّل عليّ). فضحك رئيس المحكمة من هذه النكتة، ونظر في دعواه.

ردُّه على قانون الطوائف:

وكان من أهم البيانات التي أصدرها المرحوم: بيانه في الرد على قانون الطوائف الذي أصدره المفوض السامي الفرنسي في عام ١٩٣٦م، ونحن نذكر نبذة عن صدور هذا القانون والرد عليه.

قانون الطوائف:

صَدَر هذا القانون بتاريخ ١٩٣٦/٣/١٣م، برقم ٦٠ (ل.ر) ونشر في العدد (١٦) من الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ ١٤ أيار ١٩٣٦م، ولكنه لم يُذَع على الناس، ويطلع عليه الجمهور إلا حين قدوم الوفد السوري المفاوض في أيلول ١٩٣٦م، ولم يجلب انتباه الناس في حينه، لأن الشعب كان منهمكاً في الاحتفالات بقدوم الوفد السوري المفاوض، ثم انشغل

بالانتخابات النيابية، وكان التنبيه إليه في عام ١٩٣٧م، حيث اطلع عليه الشعب، وتبيّن له ما يخفيه وراءه من طعن في الشريعة الإسلامية، فقد نصّ هذا القانون في مادته الحادية عشرة على أن (كل من أدرك سنّ الرشد، وكان متمتّعاً بقواه العقلية يمكنه أن يترك أو يعتنق طائفة ذات نظام شخصيّ معترف بها). ونصّت مادته الثانية عشر على (أن الأولاد القاصرين يتّبعون حالة والديهم إذا انفصل الزوجان عن طائفتهما، وإلا فيتّبعون حالة والدهم إذا انفصل واحد منهم فقط، ويتّبعون حالة الحي منهما إذا كان أحدهما ميتاً، أو يتّبعون حالة من يكونون في عُهْدته، ويقوم تجاههم بالسلطة الأبوية عندما يكون الوالدان في حالة هجر أو طلاق).

ويستنتج من هاتين المادتين: أنّ المسلم يمكنه أن يُبدّل دينه إلى دين آخر، ويكون لهذا التبديل أثر قانوني، حيث يُسجّل في السجل المدني، كما يستنتج أن الولد الصغير يمكن أن يسجل على دين أمه إذا كانت غير مسلمة ولو كان أبوه مسلماً وتوفي قبل أمه.

وهاتان الحالتان تخالفان النظام العام في البلاد الإسلامية، حيث لا تجوز ردّة المسلم، ويتبع الولد دين أبيه المسلم مهما اختلف دين أمه، وكان أول من تصدّى للرد على هذا النظام مؤسسة دار الأرقم، الذي كان الأستاذ السبسبي رئيساً لها في ذلك الحين، فوضع بالاتفاق مع إدارة الدار رداً علمياً على هذا القانون كان له صداه الكبير لدى الدولة المنتدبة، وتنبّه الشعب المسلم في كلّ من سورية ولبنان إلى خطر هذا النظام، ممّا حمل الدولة المنتدبة على إيقاف العمل بهذا القانون بالنسبة للمسلمين في عام ١٩٣٨م، برقم (٥٣)، وبقي سارياً بحق باقي الطوائف، وقد صاغ الرد القوي الأستاذ المرحوم السبسبي بأسلوبه الحقوقي المتين، ممّا جعله أقوى الردود على القانون المذكور.

وفي الحقيقة، لقد فقدت حلب ـ كما فقد العالم الإسلامي ـ بوفاة الأستاذ السبسبي حقوقياً قديراً، وعالماً نحريراً، وعالماً اجتماعياً كبيراً، وقد أحدثت وفاته فراغاً قلّ أن يُوجَد مَنْ يشغله، فرحمه الله رحمةً واسعة، وعوّض الأمة والبلاد عنه خيرَ عوض، وفي ذمّة الله والتاريخ تلك الروح الطيّبة الطاهرة.

الأستاذ عبدالقادر السبسبي رحمه الله[1]



للأستاذ محمد فؤاد قسطلي

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة. (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

نحن اليوم في ذكرى الأربعين على وفاة عبد من عبد الرحمن، جدير بنوال شرف هذه العبودية، التي تتطاول لها الأعناق وتهفو إليها النفوس، ويبذل في سبيلها كل غالٍ ونفيس.

من بقايا السلف الصالح:

وسأرسم لكم صورة صادقة للأستاذ الراحل مأخوذة من أقواله وأفعاله: فلقد كان الأستاذ عبدالقادر السبسبي، طيّب الله ثراه، من بقايا السلف الصالح، قولاً وعملاً، وكان شديد الخشية من ا تعالى، وإنما يخشى الله من عباده العلماء، كما كان شديدَ الحياء من الله تعالى ومن الناس. «والحياء شعبة من الإيمان».

وكان حسن التوكل على الله، وقوي اليقين بالله حتى أنه كان يردد دائماً قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نَمْ فالمخاطر كلهُنَّ أمانُ

وكان هيْناً ليناً، يألف ويؤلف، دمث الأخلاق، حاضر البديهة والنكتة الأدبية.

وكان يجتهد دائماً في تطبيق أحكام الشرع الحنيف في مجالات حياته، تطبيق موقن، مطمئن النفس والضمير إلى أنها هي السبيل الأول لنجاة هذه الأمة أفراداً ومجموعات في الحياتين، وعارف أن لا إصلاح ولا نهوض للمسلمين إلا باتباع أحكام دينهم.

في دار الأرقم:

لقد صحبنا الأستاذ الراحل، تغمّده الله برحمته، في رحلة طويلة في هذه الحياة، بدأت في عام ١٩٣٦م، في دار الأرقم، وكان رئيسنا فيها وموجّهنا، ولقد كانت هذه الدار في حينها، حِصْناً حصيناً صمد في مواجهة الاستعمار الأجنبي، ومخطّطات غزوه المادي والفكري، وحفظ للوطن العربي شبابه من الانحلال والفساد والضياع، والتأثّر بسموم الاستعمار.

كما كانت هذه الدار درعاً متيناً ترتدُّ عنه سهام الأجنبي الغاصب، وكان لها الأثر الكبير في الجهاد الوطني آنذاك، تَوّجته في عام ١٩٤٥م. حينما هبَّت البلاد بأسرها، تُطارد المحتل الغاصب، الذي حينما أخذ ينفث أنفاسه الأخيرة في بلادنا، استشرى وأضاعَ صوابه، فجمعت الدار بتوجيه الراحل الكريم وإخوانه، كافَّة طبقات الشعب وطوائفه في جبهة واحدة. قرعت الاستعمار، وصَمَدت أمام شراسة الأيام الأخيرة من حياته. وصانت الشعب وساعدته على تَخَطِّي تلك الأيام العصيبة، وقدمت المعونة المادية والمعنوية لشعبنا الذي صمد حتى تمَّ النصر بعون الله، وخرج المستعمر من بلادنا مذموماً مدحوراً.

العملُ الجادُّ الحثيث في الدعوة إلى الله:

وامتدت رحلتنا معه ـ رحمه الله ـ بعد ذلك إلى آفاق واسعة رحبة من العمل الجاد الحثيث، في سبيل نشر كلمة الله وإعلائها في الأرض، وفي سبيل النهوض بهذه الأمة الصابرة من الوهدة المخيفة التي هوت فيها، وفي سبيل الأخذ بيدها والنهوض بها ثانية نحو المنبع النيِّر العذب، الذي ارتوى منه قادة الإسلام ومجاهدوه، منذ أن بزغ نوره، بظهور الدعوة المحمدية، فعمَّ الأكوان، وشمل البرايا، وأخرج للبشريَّة خير أمة أُخرجت للناس تقودها في مراقي العز، ومعارج الفلاح، في نطاق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي جَلاَ غَيَاهبَ الفسوق والعصيان، ونقَّى قلوب البشر وغَسَلها برحيق الدعوة المحمديَّة، فإذا الدنيا إسلام، وإذا الدنيا سلام، وإذا البشر يرتفعون بدعوة محمد ﷺ، إلى ذرى عاليةٍ من الرُّقيِّ والعلاء.

من أساطين القانون والشريعة:

ولقد كان ـ متَّعه الله بالنعيم ـ من أساطين القانون والشريعة، فهو حُجَّة في الأحكام الشرعية، كما هو حجة في الأحكام القانونية وتخريجاتها، وكانت آراؤه واجتهاداته، مناراً يهتدى به، كما كان رجال القضاء، يحدون

في علمه وفضله، وسَعَة اطْلاعه وصدقه في مرافعاته ودفوعه، خير ضمان يطمئنهم ويساعدهم على إحقاق الحق وإقامة العدل.

طلابه من القضاة والمحامين:

ولقد تدرّب على يديه، طيلة عمله في المحاماة، كثير من القضاة والمحامين، وقد كانوا كلهم من خيار الناس، وأطهرهم ضميراً ووجداناً، لأنهم لا يكتسبون لديه العلم والمعرفة فقط، بل كان يفيض عليهم من تقاه، وصلاحه، وورعه، ما يجعلهم باتّباعهم نهجه، من الرعيل الأول الذي يمكن أن يُوجّه هذه الأمة نحو المجد والسؤدد.

في ميادين الدفاع عن الشريعة:

ولما رأى الراحل الكريم، أنزل الله على جدثه شآبيب رحمته، أن العمر قد تطاول به، وأنه آن أن يخلد إلى الراحة من وعثاء العمل، الذي قضى فيه معظم أيام حياته، تقاعد عنه، ولكنه لم يخلد إلى الراحة والكسل كما يفعل أكثر المتقاعدين، وإنما جنّد نفسه في ميادين الدفاع عن الشريعة الإسلامية الغرّاء، وحمل راية الجهاد ضد كل مَنْ تُسوّل له نفسه أن ينال من الشريعة المطهّرة أي منال، فلم يدع مُستشرقاً ماكراً يكيد للإسلام، إلا وانتصب للردّ عليه، ولم يترك مبتدعاً أو متفيهقاً خبيثاً، يريد أن يدسّ السم في الدسم، إلا وسفّه رأيه، وأظهر خُبث نواياه.

كما أنه لم يَألُ جهداً في شرح وتفسير كثير من الأفكار والأحكام الإسلامية، خدمةً للدين، وقياماً بواجب الدعوة إلى الله، اختاره الله إلى جواره، فلبّى مَوْلاه راضياً مرضياً.

فَسَلامٌ عليه في المجاهدين الصّابرين، في زمان شغل فيه الناس بالمال واللذة والمتاع، عن كلّ ما عداه، وتخلّوا عن الآخرة، وتفرغوا للدنيا.

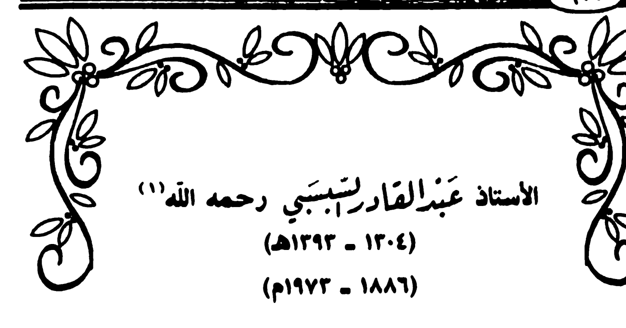
رحم الله تعالى فقيدنا الغالي الأستاذ عبدالقادر السبسبي، وأجزل مثوبته

له، وحشرنا وإياه مع النبيين والصديقين، والشهداء والمجاهدين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً. ونختم بالدعاء له ضارعين لله تعالى:

يا من وسعت العالمين رحمة وشملتهم بالجود والإحسانِ
اغفر لعبدك يا رحيم ذنوبه وأنله من كرمٍ فسيح جنانِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

□ □ □ □ □



الأستاذ عبد القادر السبسبي رحمه الله[1]

(١٣٠٤ - ١٣٩٣هـ)

(١٨٨٦ - ١٩٧٣م)

للأستاذ انس بن عبدالقادر السبسبي

حفل نقابة المحامين التابيني:

لقد مضى أربعون يوماً على وفاة والدي المغفور له عبدالقادر السبسبي، ورحتُ أسائل نفسي: لماذا أقامت نقابة المحامين هذا الحفل التأبيني الكبير له؟

أتقديراً لعلمه، وقد كان من العلم في المكان المرموق.

أم تقديراً لدينه، وقد كان من عباد الله المخلصين.

أم تعظيماً لجاهٍ ناله من الدنيا، وقد كان له الجاه الذي يغبطه عليه الكثيرون من أهل الدنيا.

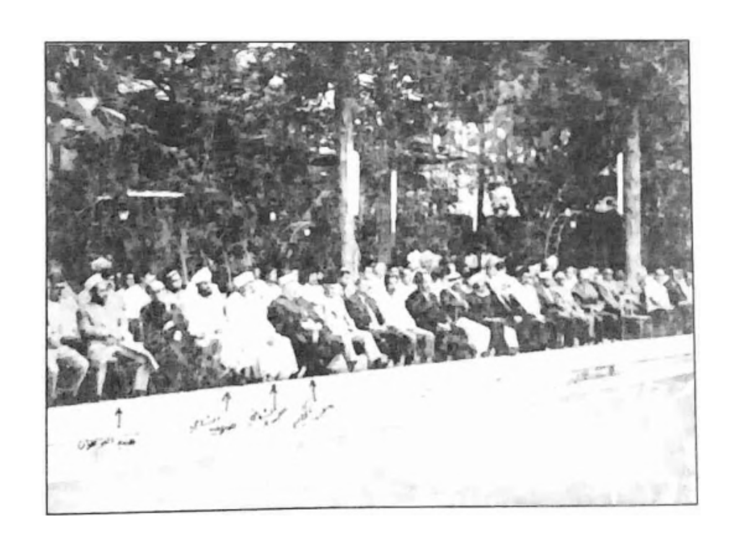
نعم، كان رحمه الله يجمع كل هذه الخصال الحميدة وكثيراً غيرها. ليس من حقي أن أمدح والدي، فهذا من الآخرين، لأنني مهما قلت وتحدثت فلن أفيه حقه.

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

ولادته ونشأته وطلبه العلم:

كانت ولادته عام ١٨٨٦م، من أسرة عريقة، ينتهي نسبها إلى سيّد المرسلين محمد ﷺ، نشأ في كنف أبوين رحيمين أحسنا تربيته، وكانا يريدانه حافظاً للقرآن الكريم، ورجلاً لامعاً في حياته العامة، فحقّق الله إرادتهما.



جانب من الحفل الذي أقامته نقابة المحامين بحلب
بمناسبة وفاة المحامي الأستاذ عبدالقادر السبسبي رحمه الله

ختم القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين وحفظه غيباً، ثم مال إلى طلب العلم على يد كبار علماء حلب، أمثال الشيخ محمد الزرقا، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ محمد نجيب سراج الدين، وغيرهم من كبار العلماء. وهو لم ينتسب إلى كلية الحقوق، وإنما مارس مهنة المحاماة بطريق التمرين، حيث قدّم فحصاً في منتصف العقد الثالث من هذا القرن، ونجح فيه، وأصبح بعدها محامياً لامعاً يُشار إليه بالبنان.

اشتغاله بالمحاماة:

بدأ مهنته عام ١٩٢٦م، حتى أحال نفسه إلى التقاعد عام ١٩٦٠م، وكان يقول: إنّ مبدئي في مهنة المحاماة تتلخص بالاستقامة وخوف الله في السرّ والعلانية.

لم يكن والدي محامياً فقط، بل كان فقيهاً عالماً، وعاملاً كبيراً في الحقل الاجتماعي في شتى الميادين.

ففي مجال المحاماة كان لا يدع اجتهاداً قانونياً صادراً عن السلطة القانونية إلا ويتلقّفه ويسجّله لديه، حتى أضحى حجّة في ذلك.

وكان من ألمع المحامين في القضايا المدنية والشرعية، ذا اطلاع في القضايا الجزائية، غير أنه لم يكن راغباً بالإكثار من الدخول بالدعاوى الجزائية.

وكان في مهنته قديراً ومُستظهراً لسائر القوانين المعمول بها، فكان يكتب القانون بكامله ليسهل عليه حفظه، حافظاً مجلة الأحكام العدلية عن ظهر قلب بكافّة موادها، وكان يستطيع بسهولة تلاوتها غيباً من أول مادة فيها حتى آخر مادة، من الألف إلى الياء، وكانت تُسعفه ذاكرته القوية بأن يتلوها من الياء إلى الألف.

وكثيراً ما كانت تأتيه الاستشارات القانونية والفقهية من مختلف أقطار العالم العربي بالإضافة إلى تركيا وألمانيا وسائر أقطار العالم.

روح الدعابة الصافية:

وكانت رُوح الدُعابة الصافية تمتلك مخيلته، وأذكر من دعاباته أني أرسلت إليه من ألمانيا حينما كنت أدرس فيها أستفتيه في جواز أكل لحم الحمير، فأرسل إليّ رداً فيه بحثٌ شرعيٌ وافر، ثم ختم هذا البحث مخاطباً إيّاي: يا ولدي! كل مثلما نأكل نحن كي نستطيع أن نفهم بعضنا بعد عودتك.

صلات كبار علماء العصر به:

وكان كبار علماء الأمصار وأفذاذهم المعاصرون يأمُون داره، وينزلون في ضيافته، كأمثال أبي الأعلى المودودي من الباكستان، وأبي الحسن الندوي من الهند، والعالم محمد أبي زهرة من مصر، والدكتور مصطفى السباعي رحمه الله.

منتدى دار الأرقم:

كان من الروّاد الأوائل الذين أسس دار الأرقم عام ١٩٣٧م، فكانت الندوات العلمية تُعقد في ذلك المنتدى، فيعجّ بالطلبة والمثقفين من كل صنف ولون، يستمعون إلى تلك المناظرات، وينهلون من الكتب التي ملأت خزائن المنتدى، وكم خرّجت تلك الندوة من رجال أفذاذ كانوا قادة الفكر وقادة العلم في هذا البلد الأمين.

جمعية تعليم الأميين:

كما انصرف رحمه الله إلى تأسيس جمعية تعليم الأميين مع لفيف من إخوانه عملاً بقول الرسول ﷺ: «خيرُكم من تعلّم وعلّم»[1].

---

(١) لم يرد بهذا اللفظ، وإنما ورد بلفظ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». رواه أحمد (١: ٥٨، ٦٩)، والبخاري (٥٠٣٧)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧)، وابن ماجة (٢١١)، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

دراسة مشروع قانون الأحوال الشخصية:

وفي عام ١٩٦٩م، قرّر مجلس نقابة المحامين بحلب تأليف لجنة برئاسة والدي لدراسة مشروع قانون الأحوال الشخصية، وكانت تعقد أسبوعياً في منزله.

أعماله الاجتماعية:

أما صفته كعامل اجتماعي فذلك أمر مشهور ومعروف عنه:

ـ كان عضواً في لجنة الدفاع عن حقوق مياه قناة حلب.

ـ وفي عام ١٩٣٢م، كان عضواً في مؤتمر الأوقاف العام الذي عُقد في حلب أيام الفرنسيين للمحافظة على الأوقاف الإسلامية، وحينما ذهب الوفد السوري إلى فرنسا للمفاوضة لعقد معاهدة لإعطاء البلاد استقلالها، وعودة الوفد بعد ذلك، أصدر الفرنسيون قانون الطوائف ذي الرقم ٦٠ (ل.ر)، وفي نصوص هذا القانون تَجَنٍّ على المسلمين، وخروج عن مبادئ الإسلام.

رسالته في الردّ على قانون الطوائف:

وقد ألّف المرحوم والدي ـ باعتباره رئيساً لدار الأرقم ـ رسالة في الرد على قانون الطوائف، وأحدثت الرسالة هذه ضجّة في جميع الأوساط الرسمية والشعبية، ممّا حمل الفرنسيين على إيقاف العمل بقانون الطوائف بالنسبة للمسلمين، وبقي معمولاً به بالنسبة لبقية الطوائف في البلاد.

المحامون الذين تمرّنوا عنده:

تمرّن عنده عدد كثيرٌ من المحامين، كان أولهم الأستاذ شوقي الزيات، وآخرهم الأستاذ عبدالعزيز الشماع، ومن بينهم الدكتور معروف الدواليبي، والأستاذ مصطفى الزرقا، وقاضي الشرع الأول الأستاذ عبدالوهاب التونجي،

والأستاذ المحامي سليم عقيل، والأستاذ فؤاد قسطلي، والأستاذ محمد سيرجية، وغيرهم كثيرون.

الداعية المصلح:

وحسبي أن أقول لكم: إذا ما ذكرتم عبدالقادر السبسبي، فاذكروا الداعية المصلح، الذي قضى نحبه في طلب العلم، ومن أجل العلم. وقد سُئل الرسول الكريم ﷺ: أيُّ جلسائنا خير يا رسول الله؟ فقال: «من ذكَّركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكَّركم بالآخرة عمله»[1].

ردوده على المستشرقين والحاقدين:

وقد كتب في موضوعات شتى، وأولى عنايةً خاصة الموضوعات التي فيها ردٌّ على الشكوك والتُّهم التي يثيرها المستشرقون والمستغربون والحاقدون على الإسلام، ومنها مقالة: (الدر المكنون رداً على قالة الملعون)، وتفنيده لأباطيل المُغْرضين الذين تناولوا بعض العلماء الأعلام، كالإمام البخاري رضي الله عنه، بالنقد والغمز والتجريح، رداً على مقال نشرته مجلة العربي عدد (٧٠): «لا تفتروا على الإمام البخاري، كل ما في صحيح البخاري صحيح». ومن إنتاجه العلمي: الرد العلمي الصريح على الموسوعة الفقهية، وكثيرٌ من المقالات نشرت في مجلة حضارة الإسلام، نشراً للثقافة وتعميماً للفائدة.

وقد ألَّف كتباً عدة، منها كتابه عن «الأحوال الشخصيَّة»، وكتابه عن «الزواج والرقّ في الإسلام»، و«فقه الإسلام».

كان الجهاد بالقلم واللسان في سبيل إعلاء كلمة الله دَيْدنه، إنه لم يترك راية الجهاد إلا ليد الموت التي لا تقهر.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٢٤٣٧)، وعبد بن حميد (٦٣١)، من حديث ابن عباس. وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة» ٦:١٢٧: إسنادُ رواته ثقات.

كان يحمل راية الإسلام والوطنية والكرامة بقلبه لا بيده، بروحه لا بأنامله.

وفاته رحمه الله تعالى:

وكان طبيعياً لجسد يُسرف في إحراق وقوده أن ينطفئ أخيراً، وهكذا وقع القدر، ونزل به الداء العضال، فالانطفاء. وحسبي قول الشاعر:

بكى عليك الحسام والقلم — وانفجع العِلْمُ فيك والعَلَمْ
مضى الذي كان للأنام أباً — فاليوم كل الأنام قد يتموا

سوف نسير على الخطّة التي خطّها لنا، لننال رضاه وهو في جنة الرضوان، نواصل السّيْر على الدرب الذي مشى فيه.

دعاء ورجاء:

اللهمّ ارحم والدنا.

اللهمّ إنه وديعتنا عندك.

اللهمّ إنه جاهد فيك حقّ الجهاد، وصبر على ابتلائك أكرم الصبر، رضي بقضائك وقدرك دون اعتراض، وجعل حياته لك، ومات راجياً ثوابك، وكان شديد الثقة فيك، وقد كانت كلمته الأخيرة في الدنيا: يا الله.

اللهمّ يا رب أحسِنْ قبوله، وحقّق رجاءه وأمله.

اللهمّ اغفر له وارحمه، وأكرم نُزله، وأدخله الجنة.

اللهمّ لا تحرمنا أجره ولا تفتنّا بعده.

اللهمّ قد روينا في السند الصحيح عن نبيك المصطفى ﷺ: «إنّ المرء مع مَنْ أحب»[1] فاحشره إليك مع صَفْوة خَلْقك، واجْمعنا به في مُستقر

(1) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبدالله بن مسعود.

رحمتك مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصَّالحين، وحسُن أولئك رفيقاً.

وصيته لأبنائه:

وقد كانت وصيته لأولاده متمثلة بقول الشاعر:

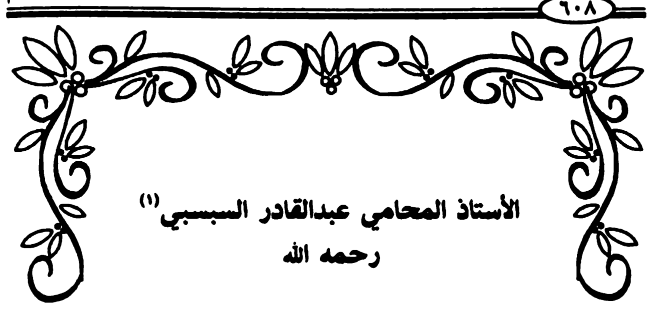
يـنـاشـدنـا بـالله ألاَّ تـفـرَّقـوا	وكـونـوا رجـالاً لا تـسـرّوا الأعـاديـا
فروحي من هـذا المقام مُطلَّة	تُشارفكم عني وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإنني	أخاف عليكم في الخلاف الدواهيا
أجل أيها الداعي إلى الخير إننا	على العهد ما دمنا فنم وأنت هانيا
بقاؤك محفوظ وطيفك ماثل	وصوتك مسموع وإن كنت نائيا

فنسأل الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الرشد دليلك، وأن يوسِّع لك في قبرك، ويغفر لك يوم حشرك، وأنت أهل لحُسْن الثناء وطيب البقاء.

لقد عِشْتَ حميداً مودوداً، ومتَّ سعيداً مفقوداً، رحمة الله عليك، وتحية لك من قلوب مفجوعة لذهابك، ومسح الله على قلوبنا بالصبر الجميل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أخيراً، لا يسعني باسم آل الفقيد إلا أن أُقدِّم جزيل شكري وامتناني لكلِّ من شاركنا بحضور هذا الحفل التأبيني لوالدي المرحوم، كما أخصُّ نقابة المحامين لمُساهمتها في إحياء هذا الحفل، سائلاً المولى عزَّ وجل أن لا يفجعكم بعزيز، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

□□□□□



الأستاذ المحامي عبدالقادر السبسبي[1] رحمه الله

الحفل التابيني في مقر نادي المحامين بحلب:

كتب إلينا الأخ الفاضل مندوب المجلة بحلب يقول:

مساء الأربعاء الموافق ١٩٧٣/٨/٢٩، أقيم حفل تأبيني في مقرّ نادي نقابة المحامين بحلب، بمناسبة ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاة الفقيد الغالي العالم العامل والمحامي الفاضل الشيخ عبدالقادر السبسبي رحمة الله عليه.

اجتمع شَمْلُ المدعوين في باحة النادي التي تظلّلها الأشجار السامقة، وتحتل طرفها بركة واسعة، وتشرف عليها عمارات أهل الحي (السبيل) من نواحيها، وتتلألأ المصابيح الكهربائية في أركانها جميعاً. وفي تمام الساعة السادسة افتتح عريف الحفل الأستاذ عبدالقادر الحيدري، افتتح الكلام بالاستماع إلى آي من الذكر الحكيم.

كلمة المحامي طريف كيالي رئيس نادي المحامين:

وبعد الإنصات بخشوع إلى تلاوة ما تيسَّر من كتاب الله عزّ وجل،

(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

تقدم إلى الكلام المحامي الأستاذ طريف كيالي رئيس نادي نقابة المحامين، فرحب بالمدعوين - وكانوا حشداً ضخماً - ثم انتقل إلى الكلام على مزايا المرحوم السبسبي الكثيرة، ووقف عند مزية هامة، ألا وهي: توفيقه البارع بين الدين والعلم، أي: الاستنباط من دين الإسلام الحنيف ما يُلبّي حاجات عصرنا المندفع بسرعة إلى العلوم والصناعة والتقنية، وكان توفيق المرحوم السبسبي بغير زيغ ولا وَهَن، مما جدّد شباب الإسلام العظيم، وبعث الثقة في النفوس، وأثبت بالقول وبالفعل أن الإسلام دين الحق وما سواه باطل.

كلمة الأستاذ إحسان كيالي رئيس فرع نقابة المحامين بحلب:

ولمّا فَرَغ رئيس النادي من ثنائه، انتدب إلى الكلام الأستاذ إحسان كيالي رئيس فرع نقابة المحامين بحلب، فأعلن أسفه على خروج جنازة المرحوم في غيبتهم لمّا كانوا في مؤتمر حقوقي خارج المحافظة، ثم تناول بالإشارة والإكبار دَوْر الفقيد السبسبي في بناءِ صَرْح نقابة المحامين، علماً ومسلكاً، مما جعلها مفخرةً بين أمثالها في المحافظات والبلاد الأخرى. كما أفاض في الحديث عن تبحُر المرحوم في المسائل القانونية، وعن حفظه - رحمه الله - لمجلة الأحكام العدلية كلها عن ظهر قلب، وعن موقفه الشجاع لما كان وكيلاً لحقوق الأوقاف الإسلامية برغم قلة راتبها. ولم ينس أن يكبر فيه تواضعه الجمّ وروحه المرحة. على أن أهم شيء فيه (نضاله العلمي الإسلامي): مطالعةً وكتابةً واستمراراً عليه قبل التقاعد وبعده، لا سيما رده المشهور على عبدالرزاق السنهوري: حول النهضة العلمية في ضوء القانون الغربي - في مجلة القانون - معتبراً الفقه الإسلامي كنز الشريعة الغراء.

ثم أخذ بتعداد مؤلفاته الكثيرة، ونوّه بشكل خاص بمؤلفه الضخم «شرح قانون الأحوال الشخصية»، وأعلن عن نية النقابة على طبعه ونشره على نفقة النقابة الخاصّة تقديراً لجهوده الواسعة، ومن أهم جهوده العلمية: تخريج جيل عريض من القضاة والمحامين في مكتبه، فقد عمل منذ ١٩١٩ محامياً، وأصبح ١٩٢٥ أستاذاً، وفي ١٩٥٩/١/٣ أحال نفسه على التقاعد حيث لم ينقطع فضله المدرار.

كلمة القاضي فؤاد القسطلي:

ثم أعطي الكلام للقاضي فؤاد القسطلي، الذي ألقى كلمة (القضاء)، فافتتح كلمته بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا... وَمُقَامًا﴾، واعتبر المرحوم السبسبي من بقية السلف الصالح القلة في هذا الزمن الذي فسد أهلوه، وأفاض في كلمته عن دور المرحوم في جمعية (دار الأرقم) التي أسهم في تأسيسها ١٩٣٦، وقاد جهادها الوطني في العهد الفرنسي البائد حتى ١٩٤٥، يوحّد الصفوف، ويُربّي الناشئة، ويقارع الاستعمار، ويدعو إلى الله سراً وعلانية باللسان وبالبنان، حتى أصبح من أعلام هذه الأمة يشار إليه ويؤخذ رأيه ويزار في عرينه ويضرب بسيفه[1].

كلمة المحامي أسامة الصابوني:

وكانت الكلمة التالية للمحامين، وقد ألقاها المحامي الأستاذ أسامة الصابوني، امتازت كلمته بالبلاغة الساحرة وبالتأثر الواضح، لا سيما حديثه عن غرور الجيل الجديد الذي كان يستهين بالجيل القديم وبرجاله، فإذا بالسبسبي العبقري يُدهش الجيل الجديد بعلمه وكرمه وشجاعته وتواضعه وذكائه، ويجعل أقصى مطامح الجيل الجديد أن ينظر فقط إلى بعض منزلة الجيل القديم. فمثلاً استطاع السبسبي ـ هذا الرجل الضئيل الحجم في الجسد ـ أن يؤسّس جمعية (دار الأرقم) في حلب مقابل (النادي الكاثوليكي)، ليقود الأجيال الجديدة في معركة الانتقال من عصور الانحطاط إلى العصر الحديث، فيُجنّبهم الانبهار والضياع، ويُعزّز فيهم الثقة بأنفسهم وبأمتهم وبشريعتهم الغرّاء، ويتّخذهم أبناءه لأنه رزق الأولاد على كبر، فنهارهُ يقضيه في تربية شباب (دار الأرقم)، وليله في المطالعة والكتابة.

ويروي المحامي أسامة الصابوني حادثةً له مع المرحوم السبسبي حين استشاره بمسألة عن (الحقوق الذريّة) فقال له: إنها قضية شائكة. دعنا ندرسها في جلسة مطوّلة في متنزّه، ولما اجتمع شملهما ثانية، أخذ السبسبي

(١) تقدمت كلمة القاضي فؤاد القسطلي ص٥٩٥ ـ ٥٩٩.

يعطي ويعطي من علمه ونفسه ما أذهل المحامي الصابوني، وأدهشه علماً وفهماً.

وفي الختام أحبَّ المحامي الصابوني أن يردّ الجميل بما يشبه الأجر، فإذا بالسبسبي يرفض بكل إباء وكرم، لأنَّ عطاءه أسمى من أن يقدَّر بشكر أو أجر، فأين نحن؟ وأين جيلنا؟ وأين واقعنا الأسود المتكالب على اللهو والغش والخيانة من ذلك الرجل العظيم؟!

رحمك الله يا أبا أنس رحمة واسعة، وألهمنا عنك الصبر والسلوان، وعلَّمنا كما علَّمك العطاء ولذّة العطاء من النفس قبل الطمع بما في أيدي الناس.

كلمة أسرة الفقيد للمهندس أنس السبسبي:

أما مسك الختام فكان كلمة أسرة الفقيد، ألقاها ابن المرحوم السبسبي المهندس أنس السبسبي، فأشار إلى أن نسب والده ينتهي إلى بيت الرسول عليه السلام، وأنه ولد عام ١٨٨٦ لأبوين صَالِحَين أراداه حافظاً للقرآن ورجلاً بارزاً في الحياة العامة، فكان كما أرادا. فقد ختم القرآن ابن سبع سنوات، وطلب العلم على كبار العلماء، مثل: الشيخ محمد الزرقا، ومحمد سعيد الإدلبي، ومحمد نجيب سراج الدين، كما مارس المحاماة منذ منتصف العقد الثالث من هذا القرن حتى تقاعد.

وكانت مبادئه في الحياة: الاستقامة وخوف الله تعالى. وإذا كان لا يليق بالابن أن يمدح أباه فإن الناس شهودٌ للمرحوم بأنه فقيه عالم عامل في الحقل الاجتماعي، حتى صار حُجَّة.

وكان ـ عليه رحمة الله ـ يستلم القضايا المدنية والشرعية ولا يرغب بالقضايا الجزائية، وإن كان ضليعاً فيها كذلك. وكان حافظاً مجلة (الأحكام العدلية) من ألفها إلى يائها بلا تلكؤ، وكانت تأتيه الاستشارات القانونية والقضائية من مختلف البلدان[1].

---

(١) تقدّمت كلمة الأستاذ أنس بن عبدالقادر السبسبي ص٦٠٠ ـ ٦٠٧.



الداعية المجاهد

الأستاذ خالد الرفاعي

رحمه الله (١)

(١٣٥١ - ١٣٩٣هـ)

(١٩٣٣ - ١٩٧٣م)



للأستاذ عمر عبيد حسنة

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

رحمك الله يا أخي أبا أيمن، يا أخا الطريق الطويل، يا رفيق السفر والحَضَر، والشدَّة والرخاء، فقد كنت نزهة النفس، ومتعة القلب، وغذاء الروح.

رحمك الله وأكرم مثواك وأعلى مقامك في الآخرين، وجزاك عنا خير الجزاء، وجمعنا بك في دار الخُلد تحت لواء سيد المرسلين.

---

(١) حضارة الإسلام، العددان: الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

لقد صدقتَ الله فيما عاهدت عليه، وكان عهد الله أساس حياتك ومحور سلوكك في جميع المجالات.

أدّيت الأمانة، ونصحت لهذه الأمة التائهة، عشت آلامها ومشكلاتها، وكنت لها الدواء، وأنت في أشدّ حالات مرضك، كنت تتحسّس مواطن الداء، وتشارك في وصف الدواء وبيان الطريق.

اهتمامه بالعمل الإسلامي رغم اشتداد وطأة المرض عليه:

ولا زلت أذكر حينما رغبت مع بعض الأحبة زيارتك أثناء اشتداد وطأة المرض عليك، ورأينا أن لا نتعرّض لذكر المرض وحديثه، وأن يكون حديثنا معك ممّا اعتدنا أن نتكلم فيه من الأمور، لعدم إشعارك بشيء من حالتك المرضية، وإذ بنا نفاجأ بإيمانك الكبير بقدر الله وقضائه، وأنك الحريص ـ كما كنت دائماً ـ على عدم إشغالنا بقضايا المرض الخاصّة، وأن مشاكل العمل الإسلامي، والدعوة إلى الله وديمومة التفكير بوسائلها هي الشغل الشاغل والأمر العظيم الذي تهون دونه قضايا المرض وسائر الأمور الشخصية الأخرى. ولا زلت أذكر أيضاً كيف كنت تستفيد من فترات الصحو البسيطة التي تمرُّ ضمن ساعات آلامك الشديدة لتتابع الحديث والتفكير فيما نذرت نفسك من أجله، الدعوة إلى الله وتخليص الناس من أوضار الجاهلية.

لقد أذكرتني ـ يا أخي ـ بحامل راية المسلمين في غزوة مؤتة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ما سقطت الراية التي يرفعها حتى سقطت كلتا يديه.

شكره وصبره:

لقد كنتَ معلّماً وقدوةً في حالة الصحّة وحالة المرض، تعلّمنا منك الكثير الكثير، عشنا المعاني الإسلامية، بشكل عملي، ورأيناها واقعاً حياً بعد أن كادت تنتهي في حياة كثير من الناس لبُعدهم عنها وعدم تمثلهم لها.

لقد كنت الواقع المقروء لقول الرسول ﷺ: «عَجَباً لأمر المؤمن! إنَّ أمره كله خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن: إنْ أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم[1].

كنت معلماً صبر المسلم، وما يحتسبه من أجر عند الله في كل الحالات، متمثلاً قول أستاذنا الرائد السباعي رحمه الله[2]:

وما لهفتي للبرء لهفة طامع	حريص على الدنيا من الموت يهلع
رضيت من الرحمٰن أجر طوية	على فعل خير نفعه لا يضيع
فإن يؤتني برءاً نهضت لفعله	وإلا فقد رضيت نفسي بما الله صانع

المرض درس كبير:

كان مرضك درساً كبيراً لنا، وتربيةً لنفوسنا، رأينا فيه كيف يمرض المسلم ويصبر المسلم؛ رأينا فيه بكاء الطبيب، وحُرقة الأخ، ولوعة الأم، ووفاء الزوجة، المؤمنة الصابرة، وابتسامة المريض؛ رأينا فيه عجز الإنسان، وضعف الإنسان، رأينا فيه العبد المخلوق، وحاجته الشديدة إلى الله الخالق.

سفره إلى ألمانيا للعلاج:

طلب إليك إخوانك ومُحبُّوك السفر إلى ألمانيا للعلاج ممَّا ألمَّ بك من مرض عضال، كان ألمهم له أشد من ألمك منه، وما كنت بالذي يردّ لهم طلباً طيلة حياتك، في صحتك ومرضك، في ليلك ونهارك، وكانت إرادة الله أن تذهب إلى هناك إلى ألمانيا لتقرّ عينك، فترى أنَّ المعاني الإسلامية التي دعوت لها وجاهدت من أجل تحقيقها، هي هناك حقيقة واقعة تعيش على الأرض في دنيا الناس، وليست نظرية فلسفية وتأمُّلات يعيشها الإنسان مع عقله بعيداً عن مجتمعه. ذهبت إلى هناك لتقرّ عينك، ولتكون الصورة الأخيرة

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

(٢) الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله توفي في جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، الموافق ٣٠ تشرين الأول ١٩٦٤م.

التي تفارق الدنيا عليها هي صورة تمثُّل المعاني الإسلامية، والأخوة الإسلامية حيَّة متحركة، فالمسلمون مهما تباعدت ديارهم، واختلفت ألوانهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

مبعث سعادته وطمانينته:

رحمك الله يا أبا أيمن! لقد كنت معلِّماً داعياً إلى الله، حتى وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة. كان أطباؤك من غير المسلمين، وهم الذين يعالجون آلاف المرضى، يحارون من أمرك ومن مبعث سعادتك واطمئنانك بالرغم من أنك تعلم ما ألمَّ بك من مرض، فذهبوا يسألون عن عقيدتك ونوع إيمانك الذي يُضْفي عليه هذه السعادة وهذا الاطمئنان!! عجبوا من هذه الظاهرة التي لم تصادفهم في حياتهم الطبية!!

المسلم الداعية في كلِّ الأوقات:

رحمك الله يا أخي! لقد كنت المسلم الداعية في كلِّ الأوقات. وكنت تعتقد أن عثرات الدعاة إنما تبدأ من داخل نفوسهم، وذلك بعدم وضوح تصوُّرهم للفكرة التي يدعون الناس إليها وعدم ثقتهم بها، وخضوعهم في مقاييسهم وتصوُّراتهم لضغوط الجاهلية وثقافتها من حولهم، وإنه لا بد لنجاح الداعية إلى الله في هذا العصر من التصوُّر الكامل للفكرة التي يدعو إليها، وهذا لا يتولَّد إلا بالتلاوة المتأمِّلة لكتاب الله، والدراسة الهادفة لسيرة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام. وأن دليل صدق التصوُّر للفكرة والثقة بها أن يكون الداعية إلى الله من ورائها بسلوكه وحياته كلها. فالدعوة للإسلام كما تراها حياة كاملة بكل آفاقها.

الدعوة للإسلام ليست حرفة يأكل بها أصحابها، ويعيشون عليها لا لها، وليست ثوباً له مواصفات خاصَّة يُلبس في المناسبات ويُخلع في المناسبات، ويُوضع في غرف الاستقبال ليلبس للزائرين بعيداً عن جوِّ الأسرة وعلاقات الأسرة وتربية الأسرة، وليست حصة زمنية محدَّدة تلقى على الطلاب في الدرس، ثم يكون وراءها ما يكون من الحَيْدة عن الحياة

الإسلامية، والمشاركة بكلّ ما يتعامل به الناس ويعيش له الناس، وليست الدعوة إلى الله في نظرك شعارات، وعناوين يطرحها محترفون أذكياء، أدركوا رواجها وتوفر المناخ المناسب لها، وظنوا أنهم قادرون على استغلالها وتحقيق المكاسب عن طريقها، تلك المكاسب التي لا تختلف عن مكاسب أهل الدنيا في وسائلها وعناوينها، لقد كنت تقابل هذه الأشكال من الدعوة بالابتسامة المشفقة.

أمله الكبير بالمستقبل لهذا الدين:

رحمك الله يا أخي! لقد كان الأمل الكبير بأنَّ المستقبل لهذا الدين، يملأ قلبك، وكان أملك بنصر الله لدعوته وعباده المتقين أكبر من واقع الناس، وكانت معالم عالم الغيب أقوى في نفسك وأشدّ تأثيراً في سلوكك من عالم الشهادة الذي تراه وتحسه.

آلفٌ مالوف:

كنت مثالياً في حياتك وشؤونك، واقعياً في دعوتك، كنت الترجمة الحية لحديث الرسول الكريم عليه الصَّلاة والسلام: «المؤمن يَأْلَفُ، ويُؤْلَفُ»[1] ولعل ذلك من أبرز صفاتك التي ما اقتصر على معرفتها إخوانك من الأقربين، بل كل مَنْ رآك وزاملك في عمل أو رافقك في سفر أو جالسك على طعام، وكان هذا مفتاحك الذي لا يخطئ إلى قلوب الآخرين، وكم كانت صفاتك وخفَّة ظلِّك تُعيدنا وتذكُرنا بمجالس أستاذنا الجلّاد رحمه الله[2].

---

(١) رواه أحمد (٥: ٣٣٥) عن سهل بن سعد مرفوعاً بلفظ: «المؤمن يَأْلَفُ ولا خير فيمن لا يَأْلَفُ ولا يُؤْلَفُ»، ورجاله ثقات غير مصعب بن ثابت، فإنه لين الحديث، ولا يضر فإن له شاهداً من حديث أبي هريرة رواه أحمد وابنه عبدالله (٢: ٤٠٠) بسند صحيح على شرط مسلم. وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٨: ٨٧) و(١٠: ٢٧٣) لأحمد والبزار وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) الأستاذ محمد خير الجلاد، مدرس التربية الإسلامية بدمشق، توفي عام ١٣٨٥هـ الموافق ١٩٦٥م رحمه الله، وتقدمت ترجمته ص٣٤٤ ـ ٣٤٦.

كنت بعيداً عن الحقد والكراهية، تصل مَنْ قطعك، وتعفو عمَّن ظلمك، مُحتسباً ثوابك عند الله تعالى، كيف لا وأنت المؤمن الذي لا يجتمع في قلبه حقد وإيمان.

زهده في متاع الحياة الدنيا:

عِشْتَ حياتك زاهداً في متاع الدنيا الفاني، كانت حياتك حياة المُودِّعين، ما أثقلت الدنيا كاهلك، ولا أقعدتك عن أداء رسالتك، ولم يكن لها من قلبك أي نصيب، كنت تنعي على الدنيا وأهل الدنيا، ولا أنسى ـ كما لا ينسى كل من عرفك ـ لفتاتك اللطيفة وإشاراتك الخفية التي تحذر فيها من الانشداد إلى الدنيا والركون إليها، فالمترفون عاجزون بطبيعة وضعهم وحياتهم عن تحمُّل أعباء الدعوة، والقدرة على التضحية في سبيلها، وكم كنت تكرر: إن هؤلاء كل همِّهم قطاف الثمرة، والبعد كل البعد عن تقديم التضحية والعناية بتربية الشجرة «**فليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغنى غنى النفس**»[1] صدق رسول الله.

شجاعته وسرعة عودته إلى الحق:

عِشْتَ كريماً شجاعاً لا تخشى في الله لومة لائم، وقَّافاً عند حدود الله، سريعَ العودة إلى الحق، فشجاعتك في العودة إلى الحق ليست بأقل من شجاعتك بالدفاع عنه والثبات عليه، مُؤثراً ما عند الله، مُخْلصاً لله في عملك، متمتِّعاً بصفاء نادر ليس من بضاعة هذه الأيام.

التربية بالقدوة:

لقد كانت وسيلتك في الدعوة إلى الله: التربية بالقدوة والأسوة، بعد أن كَثُر الكلام وقلَّ العمل، علَّمت الناس بحياتك الإسلامَ؛ لم تضع مؤلفاً في التربية ووسائلها ـ وأشهد الله أنك أهلٌ لذلك ـ فالمؤلفات تملأ المكتبة

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١)، والترمذي (٢٣٧٣)، وابن ماجه (٤١٣٧) من حديث أبي هريرة.

الإسلامية، ولكن أوجدت الإنسان المسلم النموذج. وما هذا الجيل من الطلاب والشباب والنساء الذي يعمل في مختلف جوانب الحياة، والذي يشعر كل واحد منهم أنه مَدينٌ لك بمعرفة الطريق الحق، ساهمت في بناء نفسه ونظافة سلوكه إلا شاهد صدق عند رب العالمين، والرسول ﷺ يقول: «لأَنْ يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من الدنيا وما عليها»[١].

وبعد: رحمك الله يا أخي خالد، ما كنتُ أظنُّ أني سأفتقد إحدى ساعدي بهذه السرعة، وما أظن أن ساعدي الضعيفة الأخرى قادرة على وفاء بعض حقك، وعزائي في ذلك أن كلَّ من عرفك يحمل في نفسه وسلوكه الترجمة الأمينة والعملية لحياتك.

فلقد كنتَ في حياتك معلماً حقوق الأخوة حارساً لها، وكانت وفاتك امتحاناً لوجودها. فلئن تركتنا ونحن أشد ما نكون حاجة إليك نعاني من آلام اليتم التي تتزايد مع الأيام، وعند النكبات والملمَّات، فعزاؤنا أنك عشتَ مجاهداً، وقضيتَ شهيداً، فإلى اللقاء في جنات الخلد دار المتَّقين إن شاء الله، وحَسْبنا الله ونِعْم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصَّالحون، ثم الأمثل فالأمثل»[٢] صدق رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأبو داود في العلم (٣٦٦١) من حديث سهل بن سعد مرفوعاً بلفظ: «فوالله لأَنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعم».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلباً، اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة» وقال: حسن صحيح. وأخرجه أحمد (٦: ٣٦٩) عن فاطمة بنت اليمان، أخت حذيفة، قالت: أتينا رسول الله ﷺ نعودُه في نسوة، فإذا سقاء مُعلَّق يقطر ماؤه عليه من شدَّة ما يجد من حرِّ الحُمَّى، قلنا: يا رسول الله، لو دَعوْتَ الله فَشَفاك. فقال: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم». وسنده حسن، وعزاه الحافظ في «الإصابة» للنسائي، وقال: سنده قوي.

حياة الفقيد في سطور

○ ولد رحمه الله في (المزة) من أحياء دمشق عام ١٩٣٣م، ونشأ فيها.

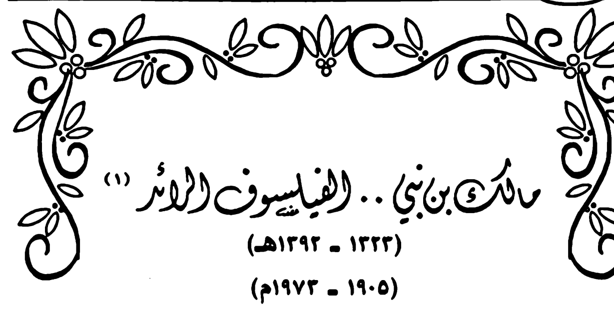
○ حصل على الثانوية الشرعية عام ١٩٥٤م، من مدرسة الكلية الشرعية بدمشق، كما حصل على شهادة الدراسة الثانوية الرسمية بنفس العام.

○ انتسب إلى جامعة دمشق، كلية الشريعة، عام ١٩٥٤م، وحصل على إجازة في الشريعة عام ١٩٥٨م، كما حصل على إجازة في الحقوق ١٩٥٩م.

○ عُيِّن مدرساً للتربية الإسلامية في محافظة درعا ١٩٥٨م، ثم انتقل بعدها إلى ثانوية التل، ثم مدرساً في ثانويات دمشق، وكان آخرها ثانوية فايز منصور.

○ توفي رحمه الله صباح الخميس ١٥ رمضان المبارك ١٣٩٣هـ، الموافق ١١ تشرين الأول عام ١٩٧٣م، في ألمانيا.

□ □ □ □ □



مالك بن نبي .. الفيلسوف الرائد [(١)]

(١٣٢٣ ـ ١٣٩٢هـ)

(١٩٠٥ ـ ١٩٧٣م)



للأستاذ عمر مسقاوي

منذ بداية هذا الشهر نقلت وكالات الأنباء وفاة المفكر الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي.

لقد مُنيَ العالم الإسلامي بنهاية فيلسوفنا كما بدأ به.

فبالرّغم من أن مُفكّرنا قد رَصَدَ فكره لدراسة العالم الإسلامي من الوجهة الاجتماعية، فقد نشأت هنالك غربة بينه وبين المجرى الفكري الذي طغى على تصورات الأجيال الإسلامية في عالمها الحديث.

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).
وللدكتور عبدالله بن حمد العُويسي أستاذ الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود، دراسة بعنوان: «مالك بن نبي: حياته وفكره»، صدرت الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ في ٧٣٧ صفحة.

قضيّة المجتمع الإسلامي المعاصر:

فالأستاذ مالك بن نبي لم يكن مُجرّد عالم أو أديب أو متعمّق في تراث ينقله إلى جيل يليه. كان الأستاذ مالك فوق ذلك كله، إذ جذبته القضية إلى حلبتها.

ذلك أنه ما كان لابن نبيّ أن يتّجه إلى العمل الفكري ككاتب لولا قضية المجتمع الإسلامي المعاصر.

فهو مهندس تخرج في الثلاثينات. وكان قد تقلّب في معاهد العلم قبل ذلك منذ ولادته في الجزائر عام ١٩٠٥م. وقد سطر في كتابيه الأوليين من «يوميات شاهد القرن» مراحل الطفولة ومراتع الدراسة في الجزائر وباريس، فأتاح للقارئ أن يستمع إليه كشاهد يرقب الحياة من خلال فكره، ويعطينا صورة كافية عن عملية التأثُر النفسي لمجتمع متخلّف يتّصل بالحضارة في صورة طالب يدرس الثقافة الغربية، أو عامل يتبلّغ في أرضها الكفاف، أو سياسي يلعب دوراً في مستقبل البلاد.

من صفحة الأرقام إلى صفحة الفكر:

فقد أتاحت له نشأته في الجزائر أن يشهد يوميات الاستعمار تحمل حصيلة مئة عام قبله أو يزيد. وكان ذلك نقطة اتصال هامة كوّنت في فكر الأستاذ مالك تجربة، نقلت قلمه من صفحة الأرقام كمهندس إلى صفحة الفكر، يتعرّض لمشكلات الحضارة بدلاً من مشكلات الإنتاج الحضاري.

بناء الإنسان:

لقد وجد نفسه أمام ترتيب ضروري لرسالته في المجتمع، فلا بدّ أولاً من بناء الإنسان قبل بناء الآلة، حتى لا نضع العربة قبل الحصان، فنقع في استحالة الوصول إلى الهدف.

في «يوميات شاهد القرن» يرتسم الأستاذ مالك لقارئ فكره: جزائريٌّ، طبعته أصالة الشعب، فمازجت روحه وعقله، فإذا القلم يشدُّه إلى منابعه الأولى، صاحب رسالة في المجتمع.

تلك ملامح تقرؤها في كلّ صفحة من صفحات يومياته، ترسّخ المعرفة أقدامه في أرضه كماء يسقي الجذور، فقد تميّز الأستاذ مالك بن نبي عن سائر المُتّصلين بالثقافة الغربية، يحتويها كأداة للتفكير، بينما هذه الثقافة أغرقت في محتواها الآخرين، فأفقدتهم قدرة التحديد الصحيح للمشكلات.

مقارنة بين طه حسين وابن نبي:

وإنه لتوافق يدعونا إلى المقارنة، إذ يغيب عن مسرح الحياة الدكتور طه حسين والأستاذ ابن نبي في آنٍ واحد.

كتاب الدكتور طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر»، أو الكتب الأخرى المتّصلة بالأدب أو بالإسلام، كانت حصيلةً وصفيةً شيئية لا تقدّم حقيقة الإنسان المتخلّف الذي قيّده التخلف عن أية مبادرة فاعلة.

أما الأستاذ ابن نبي فقد دخل باريس جزائرياً مسلماً، يبحث لأمته عن طريق إلى الحضارة، وهو في مهمته هذه لم يفقد مقياس الأشياء، فاستطاع السيطرة عليها كمراقب يفهم المقدّمات والنتائج.

فالأستاذ مالك يضع فكره في إطار مشكلة تتطلّب الحلول، إذ الفرد المسلم مشكلة في عالمنا المعاصر، إنه متخلّف، والقضية الملحّة أن نضعه في مجرى التقدم.

وهذا التقدُّم لا يمكن أن يتحقّق من خلال التكديس في الإنتاج الحضاري والفكري، بل من خلال البناء الذي يضع المسلم على مقود التاريخ.

والمشكلة من هذا الجانب تتجاوز الانتماء الفكري. فكما أنّ التخلُّف بادٍ في مبادرات المسلم، هو أيضاً واقع الرجل الآخر الذي يبحث عن نهضته خارج تراثه.

فالمجتمع الإسلامي في سائر ما يحتويه من اتّجاهات ما يزال في عالم الأشياء.

من هنا يأخذ الأستاذ مالك مبادرة جديدة في ترسيخ القواعد. فالقضية تتطلّب تجديداً ديناميكياً متحرّكاً للنهضة.

ومن هناك أتت مؤلفاته جميعها تحت عنوان: «مشكلات الحضارة».

ولسوف نضع القارئ أمام نموذج من أفكاره اقتطفناه من كتابه: «فكرة كمنولث إسلامي».

الفكرة في المجتمع الإسلامي:

إنَّ أمام تنفيذ المشروع ـ الذي سلف الإشارة إلى خطوطه العامة ـ بعض المصاعب التي تقوم في مجالين اثنين:

أ ـ فهي تُعزى إلى التطور التاريخي للعالم الإسلامي، أعني: إلى منشآته.

ب ـ كما أنها من ناحية أخرى ناتجة عن تطوره النفسي، أعني: عن أفكاره.

ويكفي فيما يتعلّق بالنقطة الأولى أن نذكّر بما سلف من أن كثيراً من الأشياء المتفسخة في العالم الإسلامي قد تلاشت بالموت.

وأن الكثير من الأشياء الضرورية لمّا تُولد بعد. والذي يترتّب على هذا أن المنشآت في هذا العالم: إما أن تكون قد أصبحت لاغية، وإما أنها لما تتكيّف بعد مع أوضاع العالم الإسلامي الراهنة.

فمصر هي البلد الإسلامي الوحيد ـ فيما أعرف ـ التي تهتمّ بإنجاز منشآت جديدة ضرورية لحياتها الداخلية ولاتصالها بالخارج. أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية فإن الأشياء فيما تبدو أكثر تعقيداً وذات أهمية أكثر جسامة معاً.

عالم الأشياء وعالم الأفكار:

فنحن إذا قمنا فيما سبق بالمقارنة بين تطور اليابان وتطور الشعوب الإسلامية منذ قرن من الزمان، قلنا: إنَّ هذه الشعوب قد دخلت «عالم الأشياء»، وأنها لمَّا تدخل بعد في «عالم الأفكار» كلية. كما ذكرنا أيضاً - مستعيرين للغة «علم نفس الطفل» -: إن هذه المرحلة تمثل الطور «الما قبل اجتماعي» الذي يكتشف فيه الطفل عالم الأشياء، وإن كان لا يزال على جهل «بعالم الأفكار».

ويمكننا أن «نسقط» هذا الاعتبار على المظاهر المختلفة للحياة الإسلامية لنستخلص منها النتيجة المطابقة لها.

فنحن لو «أسقطنا» ذلك الاعتبار مثلاً على التطور الاقتصادي للعالم الإسلامي، منذ قرن من الزمان، نلاحظ أنَّ هذا التطور باكتماله في اتِّجاه «الأشياء» قد أنتج - ويلزم أن ينتج - «إعوازاً» زاد من حاجات هذا العالم، من غير أن يزيد في وسائله. وإذا ما أسقطناه على التطور الفكري، فهمنا السبب في أن هذا التطور، عندما يتحوَّل لدى المثقف المسلم إلى شكل من أشكال المادية، يكون قد اتَّجه نحو الشكل المحدَّد «بالأشياء» لا نحو الشكل المحدد «بالأفكار».

وكذلك الأمر فيما لو أسقطناه على التطور الاجتماعي بصفة عامة فإننا نفهم أن هذا التطور يتجه صوب ذلك الشكل من أشكال الحضارة الذي أدعوه «بالحضارة الشيئية».

ويمكننا أن نسقط ذلك الاعتبار أيضاً على الاتجاه الجمالي أو السياسي، ونستخلص نتائج بالغة الأهمية. إلا أننا نريد إسقاطه بطريقة أخص، على التصميم المفاهيمي، أعني على حياة الأفكار ذاتها ومدى فعاليتها في العالم الإسلامي.

فالمؤكد أنَّ الالتقاء لم يتم بعد بالنسبة إلينا بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، ومن جرَّاء هذا ظلت الفكرة معزولة ومحايدة، وكأنها العزلى من سلاحها بفقدها فعاليتها.

وإذا ما أراد القارئ تكوين فكرة شخصية في هذا الصدد فليقم بتجربة صغيرة يرضخ فيها محيطه لمعيار موائم. فقد كررت أنا نفسي تجربتي في كل الصور بالجزائر منذ ربع قرن، وإنني لأستطيع تأليف كتاب كامل في هذا الموضوع، ولكنني أفضّل أن يقوم القارئ بتجربته الشخصية بنفسه..

حاولوا في أيّ مناقشة أن تُوجّهوا موضوع النقاش بطريقة منهجية حول «الأفكار»، ولتختاروا على سبيل المثال: موضوع المذاهب الاقتصادية أو أي موضوع نفساني. فإنه لا معدى لكم عن الالتقاء في محيطكم بثلاثة أصناف: الذين يلزمون الصمت تأدباً، والذين يتهكمون ملقين فيما بينهم بنظرات ذكية وكأنهم يقولون من ورائها: يا للمخرف...، وصنف ثالث - وهم أكثر القوم خلوص نية -: يتثاءبون من السآمة، ثم ينصرفون عنكم إلى الاهتمام بأشياء أكثر جدية كمشكلة «الشوال» مثلاً...

وحتى هذا المَدَى، فإنكم لا تزالون بعيدين عن مشاهدة كل المزعجات التي يمكن أن تُحيق «بأفكاركم»، إلا أنكم على أية حال قد قمتم في هذه الأثناء بملاحظة هامة، تمثّل في إدراككم لِمَدَى ما عليه الفكرة في المجتمع الإسلامي من لا فعالية وكأنها العزلى من سلاحها.

إنّ «عالم الأفكار» هو الذي يدعم «عالم الأشياء»، العالم الذي لا يقف على قدميه بدون العالم الأول، ولا يمكن أن يقف على قدميه بنفسه إذا ما أطاحت به النوائب.

والمؤكّد أنّ عصرنا، من جراء العامل الفني الذي يُعجّل من خطو كل الاطرادات، هو العصر الأخصب والأحفل بالتجارب الاجتماعية البناءة.

قيام ألمانيا بنهضتها خلال عشر سنوات:

فقد رأينا كيف قامت ألمانيا - وهي المُسْتَنْزفة والمُنْهكَة جداً سنة ١٩٤٥م - بنهوض معجز خلال عشر سنوات. وقد سلف لي أن فسّرت في دراسة أخرى هذا النهوض: بالإنسان والتراب والوقت، العناصر التي تفسر،

كل عملية اجتماعية. ولكننا إذ ندفع هنا بالتحليل إلى أقصى حدوده، من غير أدنى تغيير في المعادلة:

إنسان + تراب + وقت = حضارة.

يمكننا، بل يتعيَّن علينا أن نقول: إنَّ الإنسان هو الذي يحدِّد في النهاية القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة، لأن التراب والوقت لا يقومان ـ إذا اقتصر عليهما فحسب ـ بأيِّ تحويل اجتماعي.

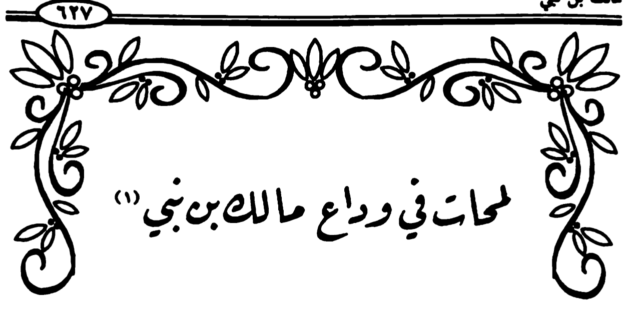
ونحن إذا ما تَساءلنا إذن: بأيِّ شيء أنهض «الإنسان» الألمانيُّ وضعيَّة بلاده أثناء هذا العقد المنصرم من الزمان؟ نكون ملزمين بالجواب عن سؤالنا هذا بطريقة واحدة لا غير، وهي أن أفكاره، وأفكاره فحسب، هي التي أتاحت له أن يحقق ذلك النهوض.

وهذا أمر حقيقي ـ وحقيقي بصورة لا مجال للريب فيها ـ سيما وأن حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م، قد خرجت عملياً «عالم الأشياء» في ألمانيا: بمصانعه، وآلاته، ومناجمه، وبنوكه، ومختبراته، فكل هذه «الأشياء» كانت قد دمرت وأتلفت.

وإذن فقد كانت ألمانيا ـ على وجه الدقة وبطريقة تكاد تكون رياضية ـ لا تملك سنة ١٩٤٥م، أي مجموعة من «الأشياء»، ولكن مجموعة من «أفكار» فحسب وهي قد كونت من جديد، وابتدأت من هذا «الرأسمال» المفاهيمي كل حياتها الاجتماعية، واحتلت مجدداً مكانتها السياسيَّة في العالم.

إنَّ تجربتها بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن، فهي تتيح لنا أن نستخلص بطريقة علمية، أن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه، لا يعبر عنها بمجموعة «الأشياء» في هذا المجتمع، ولكن بمجموعة «أفكاره».

وإذن فما هي قيمة مجتمعنا الآن؟.. مهما يكن من أمر، فإن شيئاً واحداً هو المؤكد: وهو أنَّ «أساسنا» المفاهيمي ضعيف للغاية، و«عالم أشيائنا» لا يرتكز على أساس متين. مضافاً إلى ذلك أنه حتى الأشياء الموجودة في هذا العالم، كنا قد «اشتريناها» من مجتمعات تملك «أفكاراً».



لمحات في وداع مالك بن نبي[1]

للأستاذ محمد منلا غزيل

رسالة قلبية في وداع مالك بن نبي:

يا أيتها الروح المؤمنة: هذه رسالة قلبية في وداع أخ كريم كبير، شاءت الأقدار ـ بإذن ربها ـ أن تجمعنا وتؤلف بيننا على صراط الحق في عروة وثقى وحبل متين.

ولقد عرفت أخي وأستاذي مالكاً ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ أول ما عرفته من خلال كتابه: (مستقبل الإسلام) في أواخر الخمسينات، فوجدت نفسي أمام ذكاء باهر وألمعية فذة ونفسية مباركة طيبة تفيض بعبير مخلص نفّاذ، وتابعتُ فصول الكتاب عبر مسيرة واعية صوب النهضة واليقظة والانبعاث، في محاولة لجعل (وجهة العالم الإسلامي) ـ وهذا عنوان الكتاب نفسه في ترجمة القاهرة وطبعتها التي تمّت بإشراف المؤلف سنة ١٩٥٩م، على ما أذكر حيث كان أستاذنا الراحل لاجئاً سياسياً منذ ١٩٥٦م ـ وجهة مُسَدَّدة الخطى، راسخة الأقدام..

وقد ظلّ هذا الكتاب في نظري أجود ما خلّفه مالك بن نبي، وأحسب

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

أن دراسته دراسة جادة عميقة كفيلة بأن تظلّ صورة المؤلف في نفوس الشباب الإسلامي محاطة بإطار الوقار وهالة الإعجاب والتقدير، إلى جانب ما يُجتنى من فائدة وخير عميم!..

وما زلت أذكر حديثاً من إذاعة العدو الصهيوني ذات ليلة، راح كاتبه يحرّف فكرة أساسية تتّصل بالموقف الواعي والصلب من قضيتنا المصيرية في فلسطين، ووقوفنا في وجه الاستعمار وقفة باسلة، وكان التحريف يرمي إلى إرجاف وتشويش في نطاق الصراع الفكري على نحو ما عرّفنا به الراحل.

لقائي بالأستاذ مالك بن نبيّ:

وفي ذات يوم من أواخر ١٩٥٩م، علِمنا في الجامعة أنّ مالكاً قدم إلى دمشق، فيمّمنا صوب فندق قناة السويس بالمرجة ـ وأحسب أنه هو المكان الذي زاره فيه المرحوم الدكتور **مصطفى السباعي** كما يبدو من برقية العزاء التي أرسلها مالك مدير التعليم العالي بوزارة الثقافة الجزائرية يومذاك ـ وتعرّفنا في ملامح المفكر وقسماته إلى أسارير الصادق ونظرات العبقري ـ ومعذرة عن مثل هذه التزكية النابعة من فيض الشعور النابض بالوفاء وبالمودة ـ وما زلت أذكر كيف ضرب لنا مثلاً حول ما يريده للمسلمين من فعالية وانطلاق من خلال عنوان: (**الإسلام والطاقات المعطّلة**)، وهو كتاب جديد للأستاذ محمد الغزالي، وكان العنوان في نظر المفكر الراحل ذا دلالة كبيرة على ضرورة انعتاق تلك القوى الكامنة والطاقات المُكبّلة من قيودها وأغلالها، ووعي العالم الإسلامي بواقعه لتجاوزه إلى مستقبل أفضل.

أثره في بنيان الوعي الإسلامي المعاصر:

يا أيتها الروح المؤمنة: ما زلت أذكر لقاءات لنا خِصْبة في رحاب دمشق ـ وقاها الله شرَّ العدو ـ وقد انثالت إلى خاطري ذكرياتها إثر سماعي نبأ الرحيل زرافات ووحداناً، ولعل الأيام تسمح بأن أفصّل القول فيها يوماً ـ إن شاء الله ـ متجاوزاً بعض ما فيها من آثار الضعف البشري، والخطأ الإنساني، إلى اللباب والصفوة، وما زال اقتناعي بأنّ مالك بن نبي يَسُدُّ في

بنيان الوعي الإسلامي المعاصر ثغْرةً وأي ثغرة! على بعض ما في آرائه أحياناً من شوائب أو رواسب.

تقبُّله النقد والنصح:

ولقد كتبت إليه يوماً بعد قراءة (آفاقه الجزائرية) ناقداً وناصحاً، فتقبَّل النقد برحابة صدر ـ على ما فهمت من رسالته ـ ولكنني وجدت في كتابه: (المسلم في عالم الاقتصاد)، وهو آخر ما قرأته له قبل كتابه الأخير (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، وفي هذا الأخير أيضاً، بعض الآراء والاجتهادات التي نخالفه فيها مخالفة الأخ لأخيه، وليس هذا مقام مناقشة وحوار، ولكلٌ مقامٍ مقال.

بين سيد ومالك بن نبي:

حدَّثني أخ عزيز التقى بمالك أيام وجوده بالقاهرة ـ خلال سبع خصاب ـ بأنَّ من أجود انطباعاته أثناء لقاءاته حرص الأستاذ الراحل على قراءة صفحات من كتاب الأستاذ سيد قطب (في ظلال القرآن) مع التعاطف والتجاوب، بل قُل مع الائتلاف الروحي، والأرواح جنود مجنَّدة. . . .

وكم كنت أود لو ظلت هذه الأحوال الخيِّرة هي السائدة في مواقف الرجلين على ما بينهما من تباين في بعض الآراء والتقديرات، وأحسب أنَّ جلال الموت ورضوان الله للعالمَيْن العاملَين المُخلصَيْن، وموعود الله في جنَّة عرضها السمٰوات والأرض سوف تنزع من الصدور كل غلّ، إخواناً على سُرر متقابلين بإذن الله، وليفهم عني إخوتي القرَّاء ما أرمي إليه ـ على أساس من ثقتي بإخلاص الرجلين وعلمهما ـ من رصّ البنيان وحَشْد الأجناد.

وختاماً يا أيتها الروح المؤمنة:

لئن كان من قدر الله سبحانه وتعالى (قدّر الله وما شاء فعل) أن تجمعني بتجربة الأستاذ مالك الشخصية ظروف معاناة قاسية، وأحسست معه

برهافة وتوتر صدق ما تعنيه المطاردة، ومحاولة الحصار النفسي والتطويق العصبي ـ بأموال أمريكا واليهود على حدّ إدراك الأستاذ مالك يومذاك ١٩٦٠ ـ ١٩٦١م، فليس لي إلا أن أكرر القول: قدّر الله وما شاء فعل ـ بيد أن الذي أتوخاه في ختام هذه اللمحات هو أن أركّز على أن شعار مالك في نهاية كتابه الذي صدر في سلسلة الثقافة الإسلامية في شباط ١٩٦٠م، بالقاهرة حيث قال:

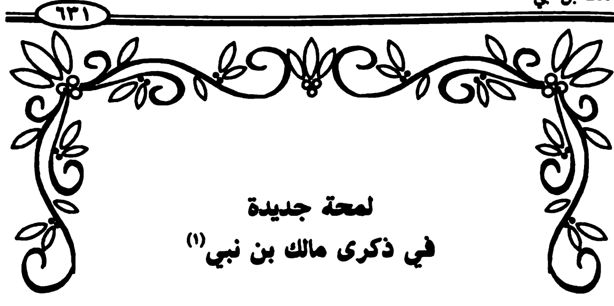
(... ولكن الإسلام هو القوة التي لا تُحَطَّم).

فَلْنَثْبُتْ في مواقع الدعوة والعمل مؤمنين واثقين صابرين.

وسلاماً سلاماً يا أرواح الشهداء والصالحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





لمحة جديدة في ذكرى مالك بن نبي(١)

للأستاذ: محمد منلا غزيل

التفريق بين صفة (المسلم) و(الإسلامي):

١ ـ مرّت الذكرى الأولى لرحيل المفكّر الإسلامي مالك بن نبي ـ رحمه الله وغفر له ـ وأنا عاكف على سلسلة كتبه ومجموعة تراثه في (مشكلات الحضارة) أقرؤها قراءة جديدة، متجاوزاً سلبياتها وما في بعض الآراء من شَطَط القول... إلى إيجابياتها وفوائدها الجمّة الغزيرة، ولئن بدا لبعض الباحثين أن يفرّق بين صفة (المسلم) و(الإسلامي) في بيان ما كان عليه مفكرنا الجزائري، فوصف بأنه كاتب مسلم لا كاتب إسلامي، فلا يفوتني أن أؤكد التلازم والتكامل في مدلول هاتين الصفتين ما دام الإيمان بالإسلام والعمل لرفع رايته وإعلاء شأن أهله هو القاعدة والأساس.

ولقد كان مالك مسلماً واعياً مخلصاً، تهزّه حالة أمته المسلمة وشعوبها، فيبذل قصارى الجهد ليكون لها دورها القيادي في حياة الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ..﴾، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م).

٢ ـ ولقد كتبتُ إلى أخ كريم أعرف فيه غيرته على الإسلام وأهله، كما أعرف فيه إعجابه بمجمل فكر مالك أن يُسهم معي ـ على نحو ما ـ في أداء واجب مشترك حيال ذكرى مالك، وذلك بأن يطرح عليّ من الأسئلة ما يراه منطلقاً لتبيان بعض الجوانب الخِصْبة من تراث ذلك الكاتب الكبير، وأن يخبرني عن تاريخ وفاته، فكان مما وصلني منه هذه السطور:

ولادته ووفاته:

«أما جواب هذا الأخير، فقد عثرت عليه منذ يومين في مجلة الثقافة الجزائرية في مقال عن مالك، فقد جاء فيه: إنه ولد مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي في فاتح جانيفي سنة ١٩٠٥، الموافق ٦ ذي القعدة ١٣٢٣هـ، وتُوفي يوم الأربعاء في ٤ شوال، الموافق للحادي والثلاثين من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة بمنزله، وممّا يؤسف له أن مجلة الثقافة الليبية التي خصّها بآخر ما كتب حول (دعائم الثقافة) قد أغفلت تماماً أي إشارة، إلى وفاته رحمه الله، وغفر له! فقد كان يُحسن الظن بمن يكون حسن الظن فيهم ورطة!

إحياء ذكرى مالك بن نبي ودوره في النهضة الإسلامية المعاصرة:

٣ ـ ولئن كان الغرض من نشر هذه العجالة، إنما هو لون من الوفاء بإحياء ذكرى أستاذ لنا وأخ كريم، يصنّفه الراصدون المختصُّون في تتبّع النهضة الإسلامية مع سيد قطب ومصطفى السباعي ومحمد يوسف موسى، ومع محمد البهي ومحمد الغزالي كما قرأت في كتاب عن المجتمع المصري المعاصر. وما أجدر مالك بأن نخصّه بإشارة ـ هي في هذا الموضع جهد المقل ـ ويُرجى أن تكون دراستي المجملة حول **(مالك على طريق الحضارة الإسلامية)**، التي تصدر عن دار القلم قريباً إن شاء الله لوناً آخر من ألوان الوفاء والتقدير لمن أخذ بنصائح مُحبّيه من إيثار الصفة الإسلامية على تلك الصفات الأفريقية ـ الآسيوية مثلاً، كما يبدو من الفصل الذي أعاد نشره في

(المسلم في عالم الاقتصاد) بعد التعديل المناسب. . . فضلاً عن ذلك (التنبيه) الذي كتبه على غلاف كل حلقة من سلسلة: **(مشكلات الحضارة)** في طبعة دار الفكر البيروتية، وكأنه يعتذر فيه عن هفوات وذلك في قوله:

«إن الأفكار العامة التي تتعلق بواقع مجتمع ما قد تستغل ملابسات هذا المجتمع في مرحلة معيَّنة من تطوره لا لحاجة نَظرية غالباً، وإنما لضروريات عملية تفرضها الطريق!. .

وقد يذكر صاحبها، في تلك المرحلة، أسماء شخصيات أو أماكن معينة، ولكن الطريق لا يقف عند هذا الشخص أو في هذا المكان. . إنه لطريق طويل. . طريق الحضارة الإسلامية. . .».

٤ ـ وأخصُّ من تلك الرسالة الجوابية على رغبتي في طرح أسئلة مركَّزة حول فكر مالك هذا السؤال. . وأسأل الله تعالى أن يهيِّئ لنا أسباب تلك الدراسة الموعودة، وأن يفتح لنا سبل المعرفة والبيان:

أما السؤال الثاني فهو: كيف أننا لا نرى (حسب مواريثنا) تاريخ الأشياء ونراها كأنها وُجدت كما هي، ولا نرى نُموَّها أو حسب التعبير القرآني: (بدء خلقها) الوارد في قوله التالي: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ. . .﴾.

ويتَّصل بهذا الموضوع: انصرافنا عن أعمال بنائية، زهداً فيها لعجزنا عن فهم أثرها وتعلقنا بقضايا نسمِّيها (كبرى). . ويسمِّيها الأستاذ مالك (البولتيكا) كما ورد في كتاب «وجهة العالم الإسلامي»؟!. .

ويختتم الأخ الكريم رسالته قائلاً في مودّة وحُسن ظن: وإذا كنت تعيش مع كتبه مجدّداً الآن فإن ما يتفتق عنه ذهنك أثناء ذلك سيكون له وهج بإذن الله، ونحن ننتظر هذه الدراسة وأمثالها إن شاء الله تعالى» اهـ.

٥ ـ وأودُّ في ختام هذه اللمحة الجديدة: أن يلتمس الأخ القارئ معاذير لما قد يراه من نزعة شخصية ذاتية في الكتابة، ذلك أننا من الجيل الذي تأثر بعبارات مالك واصطلاحاته، وبأثر من دروس تجربته الشخصية التي رأى في ضوئها جوانب بارزة من حقائق الصراع الفكري، ومعالم من أساليبه وفكره الخفي.

إطفاء ضوء النهار على الشعوب المستيقظة:

٦ ـ عندما اطّلع الأستاذ الراحل في أبان سنة ١٩٦٣ على ما صدّرت به مختارات من مجموعة (الصبح القريب) في ديوان اللؤلؤ المكنون من كتابه «شروط النهضة»، وهو قوله:

«يُزيّن الوهم للمستعمرين احتيالهم؛ إذ يحاولون إطفاء نور النهار على الشعوب المستيقظة، ويدقّون ساعات الليل عند غرة الفجر، وفي منتصف النهار، لترجع تلك الشعوب إلى العبودية والنوم.. ولكن مهما سمعنا تلك الدقّات الخادعة تلح في إيهامنا بأنه الليل فلن نعود إلى النوم.. لقد أصبحنا والحمد لله، ولا رجعة إلى الظلام، مهما حاول الاستعمار.. إنه النهار.. النهار..».

قال ـ عليه رحمة الله ـ: أما والله إنَّ مثل هذا الاختيار ليفقد الاستعمار رُشده وصوابه!

الصّراع العالمي بسبب الخلاف بين المذاهب والنُّظم:

٧ ـ استوقفني في كتاب عنوان (أفكار معاصرة) هذا الرأي الذي يزكّي تصوّر مالك، فرأيت أن أشير إليه:

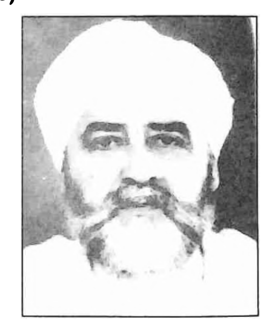
(ألسنا نجد أنَّ الصراع العالمي الضّاري الذي نُعاصره الآن يحتدم أكثر ما يحتدم بسبب الخلاف بين المذاهب والنظريات والنُّظم، أي: بسبب الخلاف بين الحُلول المقترحة لمشاكل الحضارة الحديثة والعلاقات الإنسانية المتغيرة).

وكم يسرُّني أن أتلقّى ممّن يودُّ الإسهام في الحوار حول أفكار الأستاذ مالك ما قد يزيد جوانب المسألة وضوحاً، كما يعبّر عن فعالية محمودة لبناء شبكة من العلاقات الاجتماعية كانت تستأثر باهتمام مفكِّرنا حتى خصّها بكتاب كامل هو (ميلاد مجتمع).. وحبذا لو دفعت هذه اللمحة إخوتنا القراء إلى قراءة كتاب واحد ـ على الأقل ـ من كتب مالك، في جوٍّ من المودة والاحترام، واليقظة الممحصة، الناقدة. والسلام.

السيد محمد المكّي الكتّاني في ذمّة اللّه[1]

(١٣١٢ ـ ١٣٩٣هـ)

(١٨٩٤ ـ ١٩٧٣م)



للأستاذ: عمر بهاء الدين الأميري

«ذكَر الله وَوَقّره، وعمل لإعلاء كلمته، فرَفع اللّهُ قدرَهُ، وأشاع ذكره، وكساه ثوباً من الوقار...».

حفل تأبيني كبير في الرباط:

دَعَتْ رابطة علماء المغرب إلى إقامة حفل تأبيني كبير على مسرح محمد الخامس في الرباط في ٢٢/محرم/١٣٩٤هـ، بمناسبة مرور أربعين يوماً على انتقال الأستاذ المجاهد السيد محمد المكي الكتّاني رحمه الله. وقد كان الحفل حاشداً حضره عدد كبير من العلماء والسفراء العرب، وعلى رأسهم سفير المملكة العربية السعودية، وسورية، ومصر، وحضره محافظ الرباط، وأساتذة جامعيون، ونُخبة من كرام المثقفين والمهتمين بالقضايا الإسلامية. وتداول الكلام فيه صفوة من العلماء ورجال الفكر والأدب، وعلى رأسهم محمد الطنجي الأمين العام المساعد لرابطة العلماء، وكان في طليعة المتكلمين الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، وهذه كلمته:

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م). وتنظر ترجمته في «الدليل المشير» لأبي بكر الحبشي بتحقيقي، و«تاريخ علماء دمشق» (٢: ٩٠٩ ـ ٩١٣).

شباب محمد ﷺ:

«عائدٌ قبل شهور من باريس، لم يجاوز العشرين، أقام منطلقاً للدعوة الإسلامية مع صفوةٍ من الغيارى على الإسلام، مضوا ـ على قدر فهمهم وعزمهم ـ يعملون لإعلاء كلمة الله، عُرفوا «بشباب محمد ﷺ».

مؤتمر علماء بلاد الشام:

كان ذلك عام ١٣٥٧ للهجرة ـ ١٩٣٧ ميلادية، وفي هذه الحقبة بالذات عقد علماء بلاد الشام مؤتمراً عاماً ضخماً لنصرة فلسطين، ولتخطيط وجهة السَّير في العمل الإسلامي خلال السنوات القادمة، دُعيت لتمثيل دار الأرقم فيه، وكان من أعضائه الأعلام الذين سبقوا إلى جوار الله: رئيسه الشيخ محمد طاهر الأتاسي، والأساتذة الأجلاء: القصَّاب، والمبارك، والطبَّاع، والدقر، والميداني، والغلاييني، والأسطواني، والشطّي، والكتاني وسواهم، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

ألفة الأرواح المتعارفة:

في هذا المؤتمر كان لقائي الأول بفقيدنا الغالي الأستاذ السيد محمد المكي الكتَّاني رحمه الله وأكرم مثواه. وقد كان من أركان المؤتمر المرموقين... وسرعان ما توطَّدت بيننا ـ على فارق السن ـ ألفة الأرواح المتعارفة، وبدأت لنا حياة طويلة، حافلة بأحداث أمتنا الجسام، لا أذكر أننا كنا في دقيقة من دقائقها على غير انسجام.

كان لا يَفْتُر عن الإسهام في كلِّ عمل إسلامي عام، دون أن يقطعه ذلك عن صفاء صوفيته[1].

---

(١) قال العلامة المحقق الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في ترجمة العالم المعمّر الجليل الشيخ محمد بن يوسف الكافي المتوفى بدمشق سنة ١٣٨٠ في كتابه «العلماء العزاب» ص٢٦٨ بعد ذكر حادثة طريفة كانت بين الشيخ الكافي والسيد مكي الكتاني: «كان شيخنا السيد الشريف الجليل الشيخ مكي الكتَّاني رحمه الله تعالى في دمشق: =

زياراتي وصحبتي له:

زرته وذاكرته كثيراً على انفراد، كما كانت لي مشاركة في عديد من مجالسه، متسامراً أو متشاوراً مع خاصته، ومستقبلاً لقاصديه وزائريه الأماثل، وكان يدعوني إلى مجالسه باستمرار ما وُجدت في دمشق، ويزورني كلما زار حلب... وصحبته في سفر وتزاملنا في مؤتمرات إسلامية، وقدم القاهرة لائذاً بدينه، وأنا فيها، فكَثُر تلاقينا، وكانت لنا هناك زيارات مشتركة لبعض كبار رجال العروبة والإسلام، وخلال رحلاته الأخيرة إلى المغرب، جلسنا عدّة جلسات، بعضها على انفراد، وبعضها مع أصدقاء، ومنها ساعات طويلة تاريخيّة كنا فيها بدعوة العالم المسلم الغيور الشيخ مختار السوسي لوحدنا رحمهما الله.

آخر لقاء:

... وأما آخر لقاء بيننا فكان خلال رحلته القصيرة الأخيرة إلى الرباط، حيث حضرت عدداً من أحفال تكريمه، كما كان بيننا لقاء خاص سعدت فيه بنَجْواه، وبادلته بثّه وشكواه.

أثرُ نعيه:

... وفجأةً وأنا أنصتُ إلى الإذاعة، قبل أربعين يوماً، سمعت نعيه الأليم، فشعرتُ ـ والله يشهد ـ أنّ قريباً حبيباً قد ابْتُزّ مني، وأنّ شطراً من ذاتي، وصفحات حياتي قد طواه الردى، وهو شعور ينتابني كلما فُجعت بأخ غالٍ حميم، فدعوتُ الله الحيَّ ربَّ العالمين، أن يرفع مقامه لديه، ويجمعنا في فردوسه الأعلى، تحت لواء سيد المرسلين.

= مجمع الفضائل، ومُلتقى الأكابر والأماثل، ومَوْئل العلماء في النوائب، ومقصد الفضلاء في دَرْء المصائب، ريحانة الشام وعلمائها، ومرجع الناس في بلاياها وضرائها، ولما غاب بَدْرُهُ لم يَبْزُغ بعدَه هلال»!!

أيها الأخوة الأعزة:

لو رحت أتحدَّث عن وقائع الأيام، التي سَرَدتُ عليكم منها بعض رؤوس أقلام، لطال بي القول، ولأخذت وقت السادة الأخوة الأجلَّة الذين سيتداولون الكلام، ويتناولون جوانب البحث إشادةً بالفقيد الكبير، ووفاءً لحقه، فاسمحوا لي أن أمعن في الإيجاز، وأستغني ـ بفطانتكم ومشاعركم ـ بالإشارة عن العبارة، وحسبي بالنسبة للراحل المكرم خفقات القلب التي يعلمها الرب.

تكريم العلم والعمل والجهاد:

أشكر أولاً رابطة العلماء المُوقَّرة، على تنظيم هذا الحفل الوفي، الذي هو في حقيقته تكريم للعلم والعمل والجهاد، في شخص مَنْ كان له من كل ذلك الحظ الوافر، فقيدنا وأستاذنا الجليل رحمه الله.

وإني لأشكرها ثانية، لأنها أكرمتني ودعتني للإسهام فيه، فبرّت عاطفتي الصّادقة نحوه، وأتاحت لي أن أشهد للتاريخ شهادة الحق، ولو بمزيد من الاختصار عمّا عرفته من مزاياه وسجاياه، خلال عُشْرة سبعة وثلاثين عاماً:

مزاياه وسجاياه:

قليل الكلام، رَحْب الابتسام، لا يكاد يعبس إلا إذا رأى منكراً، خاشع العبادة، كريم الوفادة، بطيء الخطا إلى المُغْتَرّين المستكبرين، مُسَارعٌ إلى صلة الأرحام وبرّ المساكين.

هو مع سلامة فطرته، وإشراق طيبوبته عميق التفكير، يسأل ويستشير، ويرجع عن عزمه ـ وهو الثّبْت في مواقفه ـ إذا اسْتَبَانت له حجّة صائبة، ولو ممّن هو دونه في العمر والقدر، يُكرم ولا يتكلّف، يصبر ولا يتأفّف، وهو دائماً على يقين، أنّ الخير فيما يختاره الله.

يذكر الله في قلبه ولسانه، ويستحضره، ويستغفره في جَنانه، ويخرج بذلك من سلطان نفسه إلى سلطانه، وبهذا ألبسه الله جل جلاله ثوباً من الوقار، وأشاع بين الناس ذكره، ورفع قدره، تغمَّده سبحانه برحمته الواسعة، وجعله في جواره العظيم الرحيم أنبه ذكراً، وأرفع قدراً».

حَمْل أمانته وتحقيق رسالته:

أما أنتم يا أسرته الكريمة، ويا أبناءه الأعزاء البررة، فلكم الأجر والصبر، وإننا في فقده سواء، ولعلكم على يقين، إنه ليس أرضى لروحه وهو في جوار ربه، من أن تكونوا امتداد جهاده، وأن تسيروا سيرته، وتحملوا شُعلته، جَعَلكم الله وإيَّانا وسائر المؤمنين، من جند الحقّ المنصور به، وأنبت منكم ومنا للإسلام الخالد، مَنْ يحمل أمانته، ويحقق رسالته.

تأبين الهضيبي ومالك بن نبي:

أيها الحفل الكريم: قبل خمسة أيام بالضبط، أقامت جمعية الثقافة الإسلامية في تطوان، حفلاً حاشداً، تأبيناً لفقيدي الإسلام الكبيرين: المجاهد الكبير الأستاذ حسن الهضيبي، والأستاذ مالك بن نبي، وكان مما قلت في ختام كلمتي فيه:

«يا شباب الدعوة الإسلامية الغرّاء...

لقد انتزعت يد المنون، في الشهور الأخيرة، من أسرة الجهاد الإسلامي المجيد، عدداً من كرام وكبار العاملين والعلماء المخلصين، مَنْ يستحقّ كل منهم أن يقام له حفل تأبين:

وفاة عدد من كبار العلماء العاملين المخلصين:

... المجاهد الأستاذ **الهضيبي**، المحامي **عبدالقادر السبسبي**، **أبو الخير زين العابدين**، المجاهد بسيفه ولسانه مع كلِّ أسرته، المهاجر من لواء إسكندرون يوم إلحاقه في ظلّ نظام أتاتورك العلماني، **عبدالله التل**.. القائد والمجاهد والباحث الكبير، **مالك بن نبي**.. مدرسة الفكر الإسلامي

المشرق، معروف الحضري، المختار بن محمود، المكي الكتّاني رئيس رابطة العلماء في سورية..

وأزيد أنه قد بلغني البارحة انتقال الأستاذ محمد الأمين الشنقيطي العلامة الفقيه الجليل، وقد سبقهم في الأعوام السالفة عدد كبير من العلماء والدعاة العاملين، بينهم صفوة من الشهداء الأجلاء الحنفاء، ابتلاهم الله واجتباهم.

قوافل العلماء العاملين:

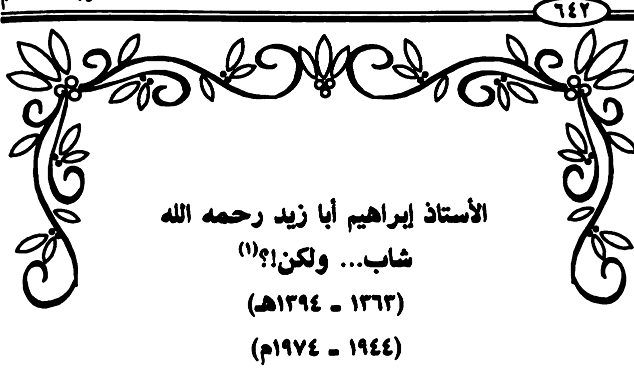
إنهم أمة، وأية أمة؟! أمة الجهاد الصامد الصاعد، علماً وعملاً، لتكون كلمة الله هي العليا... وقد تركوا فراغاً كبيراً وحيّزاً هاماً شاغراً، يحتاج منا كافّة، ومنكم يا شباب الإسلام بخاصة، إلى مضاعفة الجهد، والإمعان في العمل، وصرف الوقت بالكدّ والجهد، لتتلاحق في درب الله جل وعلا، قوافل العلماء العاملين، والعارفين الساعين، وليستمر الجهاد أبداً وسرمداً، جهاداً صاعداً، حتى تكون كلمة الله جل جلاله هي العليا، ونعود خير أمة أخرجت للناس.

مَنْ كان يعبدُ محمداً، فإنَّ محمداً قد مات، ومَنْ كان يعبد رب محمد فإن الله حيٌّ لا يموت، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

أمّةَ الإسلام ما في الأرض من مُسْتَخلفينْ
غيرنا، وَاضَلْتَا، حَتّام نبقى نائمينْ
هجرةً من وَهْدة الضعف ومن كل مَشِين
هجرةً نغدو بها حقاً وصدقاً مؤمنين
هجرةً من «أيديولوجياتِ» قوم خائبين
قادَهُم علمُهم الظاهر للجهل الدفين
فهُمُ يَحيون، لكن، في شقاء سادرين
ما الذي ينفعهم غزو الفضاء بسفين

وهُمُ في أرضهم صَرعى بغزو «الهيرويين»
ويهتك الخمر والعهر، وفتك المجرمين
سَلبوا الإنسَانَ فخواه وسَادُوا غاشمين
سيطروا، لكنها سيطرة البغي لحين
أمة الإسلام؛ حبل الله ممدود متين
والنجاة الحق في الدارين للمستمسكين
جاهدي والتمسي في السّعي نهجَ الفائزين
جنة الرضوان في ظل سيوف الفاتحين
فاحشدي الطاقات، واسْعَي بقناةٍ لا تلين
وثقي بالله وعدُ الله حَتْمٌ لا يمين
نصرُهُ آتٍ ولو طالت طريق الكادحين
يا إلٰهَ الكون، ربَّان الدُّنى اليوم أفين
لا يُراعي الروح، والإنسان دون الروح طين
هالكٌ يمكر كي يجعلنا في الهالكين
يا إلٰهَ الكَوْن، قلّد أمرَه للمسلمين
زكّهم، أنقذه، أسْعد خلقه بالمفلحين
بك ندعوك ونرجوك رجاء الصَّاغرين
أنجز الوعدَ بِداراً، إنه حقُّ اليقين
برسول الله، بالقرآن، بالنور المعين
كُن لنا نبعثْ عهودَ الخلفاء الراشدين
وأقِمْنا وأدِمْنا رحمةً للعالمين

□ □ □ □ □



الأستاذ إبراهيم أبا زيد رحمه الله
شاب... ولكن!؟[(١)]
(١٣٦٣ - ١٣٩٤هـ)
(١٩٤٤ - ١٩٧٤م)

للأستاذ محمود مفلح[(٢)]

قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ صدق الله العظيم [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

لَسْتَ كاتباً فذّاً فيعرفك الكثير يا إبراهيم، ولسْتَ شاعراً طار ذكره فملأ الدنيا، وشغل الناس، لستَ هذا ولا ذاك.. ولكنك غير هذا وذاك؟!

شاب لم يتجاوز الثلاثين:

أنت شابٌ لم تُثقلك السنون، فلم تَتجاوز الثلاثين ربيعاً، وأنت على

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

(٢) الشاعر والأديب الفلسطيني ولد عام ١٩٤٣ ببلدة (سمخ) على ضفاف طبريّة، هاجر مع أسرته إلى سورية، واستقر في درعا، وتخرج في كلية اللغة العربية من جامعة دمشق سنة ١٩٦٧، وله عدد من المقالات والقصائد والقصص، وهو عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

وجه التحديد من مواليد ١٩٤٤، عرفت الله فآمنت به إيماناً كان مضرب المثل في الوعي والثبات، وأبصرت دربَ الهدى فسلكته منهج حياة، وقنطرة نجاة، راضياً به مطمئناً إلى فجره القريب ـ بإذن الله ـ ولكنك دفعت لقاء ذلك كله الثمن، ولم يكن الثمن الذي دفعت يسيراً!.. بقيت سائراً على الدرب الذي اخترت لا يخيفنّك برقٌ في سماء، ولا يغرنّك سرابٌ في صحراء، ما التوى بك الطريق، ولا زاغ بك البصر، وما التفتَّ مرة إلى الوراء، وما سمعتك تلفظت بكلمة «لو»!!.. لست سوى شاب متواضع من مدينة متواضعة تقع في الجنوب السوري تسمَّى «درعا»، تنسَّمت هواءها، وشربت من مائها، ودرجت في مرابعها، شأنك شأن غيرك من الفتيان وحين اشتدَّ بك العود، وشَبَبْت عن الطَّوْق، كان لك شأن آخر! وهمٌّ آخر! وشوقٌ آخر!!

دراسة الأدب العربي وتخرُّجه في جامعة دمشق:

نعم كان لك نهجك الذي اخترت، وَنِعْمَ النهج والله، وَنِعْمَ الاختيار، درستَ الأدب العربي وتخرجتَ في جامعة دمشق لتمتلك المفتاح الذي يتيسَّر لك بواسطته فهم المعجزة الخالدة ـ القرآن ـ والاطلاع على كنوز التراث وغير ذلك مما تتوق إليه نفسك من ينابيع المعرفة والخير.

لا أدري من أيِّ جانب من جوانب حياتك أبدأ ـ وكلها ـ عَلِمَ اللَّهُ ـ غنيةٌ وطِّيبة، هل أسرد هذه الواقعة؟!

وفاؤه بالوعد:

حين استأجرت بيتاً في أحد أحياء دمشق، ودفعت أجرة عامين كاملين ـ دون ضغط أو إكراه ـ وتعهَّدت لصاحبه أن تُخْلِي البيت متى احتاجه، ولم تكد تستنفد نصف المبلغ الذي أسلفت حتى ألمَّت بصاحبه الحاجة إليه! وعلمتَ بذلك ولم تنتظر حتى يأتيك، بل أنت الذي جئته، وقلت: «إن بيتك جاهز يا أخي في أيِّ وقت تشاء»، وفعلاً أخلَيت البيت! فعلت هذا وأنت في أمسّ الحاجة إليه، لأنك كنت عازماً على الزواج بعد أيام! وقاطن دمشق يدرك مشقَّة العثور على بيت جديد، دفعت المبلغ جملة وأخذته

تقسيطاً، كل ذلك وأنت راض وقلبك كبير، وكنت في ذلك مثالاً قلّ نظيره، ونموذجاً متفرداً في حُسن المعاملة وصدق القول، لأنك وعدت ووفَّيت، وما أقلّ الذين يُوفون إذا وعدوا في هذه الأيام!! وهذا ما دفع أحد الجيران إلى أن يقول تلك العبارة التي ما زالت تطنّ في أذني: «يا جماعة والله لكأنَّ هذا الشاب يعيش في عهد الصحابة!».

سفره في طلب العلم الشرعي:

كنت تسافر مسافة مئة كيلو متر كلَّ أسبوع لحضور درس في العلم الشرعي، على حين يسافر الشباب في مثل سنك للتمرُّغ في أوحال الشهوة ومستنقع الرذيلة وحمأة الإثم!! أنت قرأت - يا للشوق - قول الرسول الكريم: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1] وأدركته وعضضت عليه بالنواجذ، وغيرك قرأ ما قرأ، فضلَّ وأضل، وما عناه قول الرسول ﷺ في صدر ولا ورد...

ما رأيتك في غدْوةٍ أو رَوْحة إلا بيمينك كتاب اشتريته أو (استعرته)، وكنت أقرأ عنوان الكتاب فأعجب!! ما أشدَّ شوقك إلى معرفة دينك! وما أغزر مطالعاتك في الفكر الإسلامي، وعَجَباً يا إبراهيم كيف لم ترتو؟ وهل يرتوي الظمآن من الماء النمير في صحراء ملتهبة؟؟ بل: «قل نار جهنم أشد حراً».

صمته البليغ:

لا أدري لماذا كنت تكثر من الصمت ولا تحبُّ الجدال، وتنفر من الخَوْض في أمور حياتية كثيرة يهجم عليها الناس، إلا إذا كان الكلام دفاعاً عن عقيدة أو رداً على اتهام، لكن المتأمِّل في هذا الصمت يكشف سره، يعرف أنك وَعَيْتَ قول الرسول ﷺ: «وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»!؟[2] فآثرتَ الصَّمت، واللّهُ يعلم أنه صمت

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، مسلم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل. وقال الترمذي: حسن صحيح.

بليغ! صمتٌ أفصح من كلام الفصحاء، وضجيج الأدعياء.

ولن أنسى عبارة قالها أحد أترابك: والله كنا نتحرّج من اللغو في حضرة إبراهيم.

سبحان الله كأنه شيخ وقور ينتقدنا ويُوجِّهنا.

الثبات على الحق والجرأة فيه:

كلُّ هذا ليس بشيء إزاء صفتين اثنتين برزت فيهما أو برزتا فيك بروزاً لا يخفى إلا على أحد اثنين: مكابرٍ أو حاقد.

الأولى ـ الثبات على الحق والجرأة فيه: ويطول الحديث عن هذه الصفة فيك، لقد ثَبَتَّ على الحق، وثبتَّ جريئاً.

كنت جريئاً في كل المواقف لا تتزحزح في كل الأحوال، في الصَّحو والمطر، وفي الإقامة والسفر، وفي النعماء والبلواء، دافعت عن عقيدتك بحُجَّتك القارعة ودعوتك إلى الله بالكلمة الطيبة المباركة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ..﴾، ولـويـت بهذه الحُجَّة أعناق كثير من المعاندين والمكابرين، وخير دفاع عن الحق هذا السلوك القدوة الذي كان يتمثَّل كل شأن من شؤون حياتك، وهذا ما كان واضحاً في نظر البعيد قبل القريب «والفضل ما شهدت به الأعداء».. لقد تحمَّلت الكثير من أجل هذا السلوك القدوة ولم يستطع غيرك أن يتحمَّل من هذا الكثير.. القليل!!.

كنت أعلم أنك قضيت ـ بمشيئة الله ـ معوزاً إلى المادة، ولكنك كنتَ غنياً في إيمانك وسجاياك غنًى تغبط عليه يا إبراهيم! ما سألت أحداً إلا الله ـ ويا لنعم المسؤول، وما طلبت حاجةً إلا منه سبحانه وتعالى. ولسان حالك يقول: «ومن طلب البحر استقلّ السواقيا»... كنت هادئاً كالبحر لكنك عميق مثله، أما إذا غضبت لله ـ ولا تجاوز فيما أقول ـ فقد كنتَ جاداً كالسيف أو أشدّ مضاء.

تواضعه الجمّ:

الثانية ـ هي التواضع، التواضع الجمّ القائم على الوعي بحقيقة قول

رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعه»[١]..

كنت يا إبراهيم متواضعاً في كل شيء، وفي حديثك ومَسْلكك ونَمَط حياتك، لا ادّعاء، ولا امتلاء، ولا غرور، حقّقت خير ما يطمع إنسان عاقل في تحقيقه: العبودية لله. علّمت الكثير من الأدعياء التواضع، وفجّرت في كثير من القلوب القاسية ينابيع الحق والهدى، وعلّمتهم معنى الخضوع لله والامتثال لأمره: «لأَنْ يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس»[٢].

بكاك الكثير والكثير ممن ألفك وعرفك يا إبراهيم، وفقدوا حين رحيلك ـ وما قدّر الله فعل ـ أخاً لا كالإخوان، ونموذجاً فريداً من الشباب المؤمن القادر على القبض على الجَمْر في هذا الزمان الظالم! إنك عززت على الناس جميعاً فأوقدت وفاتك في قلوبهم ضرماً وأججت ناراً!

الروضة التي زرعتها، وتعبتَ عليها وسقَيْتها بالعرق والنّدى تبكيك يا إبراهيم، وتُعاهدك على النموّ والنموّ والنموّ حتى تُؤتيَ أُكلها بإذن ربّها...

لستَ كاتباً فذاً فيعرفك الناس، ولكنك شابٌ تسلّحت بخير ما تسلّح به إنسان من عقيدة واضحة وضوح الشمس، وفكرٍ ثاقبٍ كنت تقذف به على الباطل، فإذا به زاهق، ومنطق لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، هذّبه الإسلام وأغناه، وحسبنا أنك في قلوبنا خالد ما لاح نجم في سماء، وما حنّت على غصنٍ ورقاء سيرةً وذكرى ومنهجاً.

فسلامٌ عليك يوم وُلدت، ويوم متّ، ويوم تبعث حياً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ١: ٣١٥ (٩٣٠) عن أبي رافع رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «المجمع» ٥: ٣٣٤: رواه الطبراني عن يزيد عن أبي زياد مولى ابن عباس، ذكره المزي في الرواة عن أبي رافع، وذكره ابن حبان في الثقات». وأخرجه الحاكم في «المستدرك» ٣: ٦٩٠ (٦٥٣٧).



أبرز رجال الفقه الإسلامي المعاصرين[1]

للدكتور وهبة الزحيلي

أ ـ لمحات عن شخصيته:

ـ إنه عَلَمٌ من أعلام الإسلام المعاصرين في علوم الشريعة، ولا سيما الفقه والأصول والتفسير والتوحيد أو علم الكلام والفلسفة الإسلامية.

ـ تخرَّج على يديه آلاف من الطلاب الجامعيين، وعشرات منْ حَمَلة الدكتوراه في الشريعة والقانون.

ـ فقيه النفس، يُحرِّر ويُقرِّر، ويُصَوِّب ويُخَطِّئ، ويُزيِّف ويُؤصِّل، ثاقب النظر، حادّ الذهن، صائب الفكرة، بليغ القول.

ـ أديبٌ كاتبٌ، وخطيبٌ لامع، ومحاضرٌ من الطِّراز الرفيع.

ـ ذو حافظة قوية، وذاكرة واسعة، وأُفُق علميّ مُتعدِّد الجوانب يستطيع الإملاء والارتجال ساعات.

---

(١) مجلة الفكر الإسلامي اللبنانية، العدد الثالث من السنة الخامسة: (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م).

- حاضر البديهة، سريع النكتة، قوي الشخصية، جذَّاب النفس، ظريف الحديث.

- واسع الاطِّلاع على معظم مصادر الثروة الإسلامية العلمية، جيد المقارنة بين الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية والثقافة الحديثة.

- اشترك في عدَّة مؤتمرات وندوات عالمية، فكان من عِلْية القوم، وسادة الحضور.

- معتدل النظرة إلى المذاهب الإسلامية، لأنه دقيق النظر عميق الفكر، يعرف مواهب الرجال، ويُقدِّر كفاءة العظماء من العلماء، ويمنحهم ما يستحقونه من إكبار وإجلال.

- يستطيع الاجتهاد وإبداء الرأي الثاقب في مُسْتَحدثات الأمور والقضايا المعاصرة والمشكلات الاقتصاديَّة، بدون خروج عن المعقول أو تطاول على الأصول، أو شذوذ عن الجماعة.

- جَمَع بين القديم والحديث في تقدير وَجْهِ المصالح، فكان معتدل الفتوى، يكرهُ الرأيَ الغريب، ويُحاربُ الخروج عن النصوص أو قواعد الشريعة وأحكام فقهها الأصيل.

- شديد الغيرة والحماسة على حُرُمات الدين وأخلاق الإسلام وقيم الرجال ومصلحة الوطن، مما جعله جريئاً في الحق، شديد اللهجة، عنيف اللوم على الخصوم الذين يخالفون منطق الإسلام.

- تربُو مؤلفاته وأبحاثه عن الثلاثين، وتنتشر مقالاته وكتبه في أنحاء العالم الإسلامي.

- استطاع ترجمة الثروة الفقهيَّة القديمة إلى اللغة السائدة الجديدة بتنظيم بديع وأسلوب ممتع واستقصاء شامل.

ب - خصائص كتبه وأهميتها:

إنَّ كتب ومؤلفات الأستاذ أبي زهرة عن «الملكية ونظرية العقد»،

و«أصول الفقه»، و«الأحوال الشخصية»، و«الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي»، و«محاضرات في النصرانية»، و«العلاقات الدولية في الإسلام»، أو «نظرية الحرب»، و«المجتمع الإنساني في ظل الإسلام»، و«الوحدة الإسلامية» تُعتبر في قمّة الإنتاج العلمي الرصين، لما فيها من تجديد، ومناقشات، وآراء حرة وفوائد جلّى، وصور ممتعة عن الحياة الإسلامية ومتطلباتها، وطرق معالجة الفقهاء المسلمين لمشاكلها، مع بيان نواحي السَّبْق التي سبق فيها المفكرون المسلمون غيرهم من زعماء الفقه القانوني الحديث.

مجموعته التاريخية عن أئمة المذاهب:

وكذلك مجموعته التاريخية النفيسة عن أئمة المذاهب الإسلامية: (أبو حنيفة، الشافعي، مالك، ابن حنبل، ابن حزم، الإمام زيد، الإمام الصادق، ابن تيمية، ابن قيم الجوزية)[1] تُعتبر حلقة ذهبية ودرة ثمينة لكلّ مسلم، أجادَ فيها الكلام عن حياة كلّ إمام وعصره وآرائه وفقهه، وضمَّنها كلها تحليلاً مُقْتَضَباً عن الفرق الإسلامية التي كان المجتهد يعيش بينها، وأبان أصول كل إمام في استنباطه أحكام الشرع، وأبدى وحدة الانسجام والترابط والاتّساق الفكري والعملي فيما بينها، وأظهر بكل إنصاف وأمانة وبُعْد عن التعصُّب المذهبي جوانب عظمة كل إمام وإحرازه قَصَب السَّبْق في بعض الميادين الفكرية. وأكمل كل كتاب عن الإمام بدراسة جيدة عن كلّ مذهب، ونموه وانتشاره، وطبقاته، وأسباب خلوده.

فكان كل كتاب عن إمام المذهب صورة حيَّة لشخصيته، ودراسة رائعة لآثاره، وبياناً جلياً عن معالم فكره ومذهبه. هذا بالإضافة إلى أنّ الأستاذ أبا زهرة كان مثال المدافع عن كلّ نقد قد يُوجَّه إلى أحد هؤلاء الأئمة، وكان أيضاً دقيق الملحظ لما يدور في ذهن المجتهد، أو تقرير الأصل الذي يصدر عنه في طائفة من الأحكام المذهبية الجزئية، من ذلك قوله: «كان

(١) لا يُعرف للشيخ رحمه الله أنه أفرد كتاباً عن ابن القيم.

أبو حنيفة رجلاً يُقدِّر الحرية في غيره كما يُريدها لنفسه، ولذلك كان في فقهه حريصاً كلَّ الحرص على أن يحترم إرادة الإنسان في تصرُّفاته ما دام عاقلاً، فرأيناه يجعل للبالغة العاقلة تمام الولاية في أمر زواجها، ولم يجعل لوليها عليها من سلطان، وانفرد من بين الأئمة الأربعة بذلك، ووجدناه يمنع الحَجْر على السفيه وذي الغفلة، وعلى المدين، ثم وجدناه يمنع كل قيد على ما يملك الإنسان إلا القيود الدينية النفسية، ثم وجدناه في سبيل هذه الإرادة يمنع الوقف. وهكذا تراه يتَّجه إلى ترك إرادة الإنسان حرة ليس للقضاء شأن معها إلا عند الاعتداء على غيره».

دفاعه عن شريعة الإسلام:

وفي غير كتب الأئمة للأستاذ أبي زهرة دفاعٌ مجيدٌ عن أحكام الإسلام وشرعته الخالدة وفلسفته وأصوله عن الحياة والكون والسياسة والاقتصاد والعلاقات المدنية والدولية وعلاقة المسلمين بغيرهم من المعاهدين أثناء السلم والحرب، وعلاقة الحاكم بالمحكومين، مع التركيز على إيضاح مبادئ الأخلاق الدوليّة في الإسلام ولا سيما الفضيلة والكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة التامة بين أبناء البشر.

تجديدُه في عرض الأحكام:

ويلحظُ القارئ لكتب الأستاذ أبي زهرة: فهماً أصيلاً ودقيقاً وجديداً للنصوص الشرعية وأحكام الفقه، مُقْترناً بأسلوب كتابيّ شائق في التعبير عن المعاني التي يُريد تأصيلها وتطبيقها على الحاجيات والمفاهيم الحديثة دون مصادمة لأصول الإسلام ومقاصد الشريعة.

فمن تجديده في المنطق والأسلوب قوله مثلاً في كتاب «المجتمع الإنساني في ظلّ الإسلام»: «إنَّ سمة الإسلام العدالة، وهي ميزان الاجتماع في الإسلام، وهي التي يقوم بها بناء الجماعة، وكلُّ تنسيق اجتماعيٌ لا يقوم على العدالة منهار مهما تكن قوة التنظيم فيه. والعدالة ذات شعبتين ابتداء: الشعبة الأولى: العدالة النفسيّة بأن يقدِّر كل إنسان لنفسه من الحقوق

بمقدار ما يقدّره لغيره على ألا يزيد على الناس في حق، وقد يفرض على نفسه الزيادة في الواجب. والشعبة الثانية من العدالة: هي التي تنظمها الدولة، وهي أقسام ثلاثة: عدالة قانونية، وعدالة اجتماعية، وعدالة دولية» ثم يفيض في شرح كل قسم منها.

ويقول عن تصوير فريضة الجهاد: «إنّ حرب الإسلام دفاع، وإنّ الدفاع قد يلبس لبوس الهجوم».

خصائص أخرى في كتب «أبو زهرة»:

وهناك خصائص أخرى كثيرة لكتابات الأستاذ أبي زهرة منها:

١ ـ أنه طويل النَّفَس في معالجته القضايا، يُشقّق المسألة على وجوه متعددة، ويقلب فيها وجوه النظر المختلفة داعماً الرأي بدليله من القرآن والسنة النبوية أو الأصول الإسلامية، وقارناً الفكرة الإسلامية بأعدلها عند علماء الفلسفة والاجتماع والمنطق.

٢ ـ قد تتردّد المعاني في فقرة من الفقرات في قوالب متعددة من الألفاظ لكنها ظريفة مألوفة لتقرب البعيد، ولكي تصلح للخاصّة ومتوسطي الثقافة.

٣ ـ أنه في كتاباته متأثّر بطريقة الشاطبي وابن تيمية وابن القيم والعز ابن عبدالسلام ومدرسة محمد عبده، حيث تربط القضايا الجزئية بأصول الشريعة العامة ومبادئها الكلية ومراميها الحقيقية وروحها السائدة.

دعوته إلى الوحدة الجامعة:

ـ له آراء حكيمة وحِكَم جليلة في أوضاع المسلمين الحالية، فهو يقول مثلاً في بحث صغير عن «الوحدة الإسلامية»: «إن الوحدة التي نبتغيها لا تمسُّ سلطان ذي سلطان يقوم بالحقّ والعدل في المسلمين، ولا شكل

الحكم في الأقاليم الإسلامية، فلكلِّ إقليم أسلوب حكمه ما دام يؤدِّي إلى إقامة الحق والعدل فيه، ويحقِّق المعاني الإسلامية السامية، وإنما معنى الجامعة الإسلامية: أن نعتبر أنفسنا مهما تناءت الديار مرتبطة بروابط وثيقة تمتد جذورها في أعماق أنفسنا، وهي أحكام الإسلام وشعائره، وعبادته وعقائده، إذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة، كما هو دين التوحيد الخالص من كلِّ شرك أياً كان نوعه.. وأياً كان مظهره»، ويردف ذلك بقوله: «يتحقق معنى الوحدة في ثلاثة أمور جامعة:

أولها ـ أن تتَّحد مشاعرنا جميعاً في الإحساس بأننا إخوة بحكم الإسلام، وأنَّ الأخوة الإسلامية فوق الجنسية والعنصرية.

ثانيها ـ وحدة ثقافيَّة ولغويَّة واجتماعيَّة تجمع بين المشاعر والأحاسيس.

ثالثها ـ ألا يكون من إقليم إسلامي حرب على إقليم آخر أياً ما كانت أساليب هذه الحرب، سواء أكانت بالاقتصاد أو كانت بالسيف».

تنديده بالهدّامين:

ولا يتوانى الأستاذ الكبير في التنديد بموقف الهدّامين لدين الله، فهو يقول مثلاً في كتابه «المذاهب الإسلامية» عن البهائية: «وهي الآن ترفع رأسها، ولا بدَّ من قطعه، أو عودته إلى شيكاغو موطن دعايته».

أطال الله في عمر أستاذنا العلامة الجليل محمد أبو زهرة[1] بعد أن أكمل العقد السابع من حياته المليئة تفانياً بالقيام بالواجب والدفاع عن الإسلام وأهله، فهو صوت الحق الهادر، وعالم الإسلام الفذ.

* * *

(١) كتب الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي هذه المقالة في حياة شيخه العلامة محمد أبو زهرة. وقد توفي الشيخ ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

ومضات من حياة (أبو زهرة)

١ - تخرج في مدرسة القضاء الشرعي.

٢ - قضى حياته مُدرّساً في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، ثم صار وكيلاً للكلية.

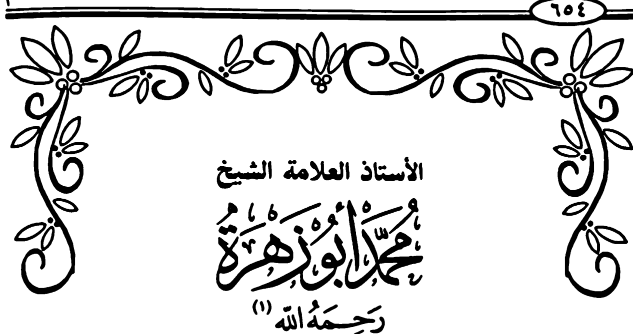
٣ - درّس الفقه في كُليتي الشريعة وأصول الدين بالأزهر.

٤ - اشتهر بمواقفه العنيفة في وجه ما يعتقده ضاراً بالمسلمين.

٥ - كان له موقفه الصّامد في أمور وطنية كثيرة كالدستور وتحديد النسل.

٦ - آخر كتبه صدوراً: القرآن الكريم، المعجزة الكبرى.

□ □ □ □ □



الأستاذ العلامة الشيخ

محمد أبو زهرة

رحمه الله[1]

(١٣١٦ ـ ١٣٩٤هـ)

بقلم: الدكتور عدنان زرزور

نعيُ العلامة الشيخ أبو زهرة بين التّصديق والشك:

نَعَتْ أنباء القاهرة في الشهر الماضي فضيلة الأستاذ الشيخ أبي زهرة عن ثمانية وسبعين عاماً قضاها أستاذنا الراحل ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ في التأليف والتدريس والجهاد والمصابرة، والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين.

وقد حملني نبأ وفاته إلى أيام سعدت فيها بلقاء الشيخ والإفادة منه والتردُّد عليه، وإلى آرائه التي سمعتها منه، ومواقفه التي شهدته فيها ـ علم الله ـ أسداً يذودُ عن حياض الإسلام ودعاته، ويتردَّد فيها صوته قوياً مُجلجلاً يوم خانت كثيراً من الناس الحناجر، وهَلَعت منهم القلوب، وماتت الضمائر!..

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، العدد الثالث من السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م).

التطواف في صفحات التاريخ:

لشدَّ ما آلمني أن يصل نبأ وفاته إلى سمعي على مراحل! بين مُصَدِّق للخبر ومُتأكِّد منه، وبين شاك فيه مُتردِّد في مصدر سماعه، ولا يتأكد الخبر حتى يكون ذهني قد طوَّف بصفحات التاريخ، تاريخنا نحن الذي اعتاد فيه مُؤرِّخونا أن يؤرخوا لكلِّ سنة بعينها، ويُوردوا أهم ما حدث في تلك السنة. ألم يعتادوا أن يذكروا طرفاً من التاريخ السياسي وأنباء الملوك والمعارك، ثم يضمُّوا إليها أنباء الكوارث والزلازل وأهم أحداث الطبيعة، وأخيراً يختمون حديثهم عن «العلماء» الذين لقوا وَجْهَ ربِّهم في تلك السنة، مع ذكر طرف من سيرتهم وأخبارهم.

وعيُ المؤرِّخين:

صَحَوْتُ على خبر وفاة أستاذنا رحمه الله، والعالَمُ من حولنا اليوم قد صغَّرته وسائل الإعلام حتى صار كالبلد الواحد، لأذكر مؤرخينا القدامى رحمهم الله، بوعيهم الشامل، وحسِّهم في قراءة صورة المجتمع والعوامل الأساسية التي تؤثِّر في مَجْراه، ولأذكر أنَّ عالمنا الصغير لم تتَّسع صحفه وإذاعاته ـ في بلاد العروبة والإسلام ـ لما تتَّسع له في العادة من أنباء وفاة الساسة والفنانين وسائر «الممثلين» من أبناء الشرق والغرب، البعيد والقريب.

الأموات لا يكسبون من هذا الإعلان ولا يخسرون، ولكننا نحن الذين نخسر احترامنا لأنفسنا حين لا نأبه ولا نبكي للذين تركوا لنا من ورائهم ما يحيون به هذه النفوس! وفقيدُنا الجليل الكبير أبو زهرة رحمه الله واحد من هؤلاء.

خواطر وذكريات عن (أبو زهرة):

ليست هذه كلمة في أبي زهرة «العالم» المؤلف، ولا في «منهجه» في التأليف والكتابة والتدريس، ولا في أبي زهرة رجل مصر في بعض الأيام، فلذلك موضعٌ آخر غير هذا الموضع، وقد حدَّثني مرة أن من جملة ما شغله في ذلك اليوم الذي رأيته فيه بعد مغيب شمسه: الكتابة إلى طالب أو باحث

مسلم - وإن كان غير عربي فيما أذكر - كان يعدُّ رسالة «دكتوراه» في إحدى الجامعات عن الشيخ أبي زهرة نفسه، أو بحسب تعبيره هو رحمه الله: «موضوعها أنا»، وكان قد كتب إليه يستوضحه ويسأله عن بعض النقاط فيما يتّصل بحياته ومنهجه ورأيه في بعض المشكلات... ويومها انتظر جوابي عن هذه «الظاهرة» في إعداد الرسائل الجامعية والكتابة عن مناهج المؤلفين، فاكتفيتُ بالإشارة إلى أن هذا يتيح للباحث فرصة «التأكد» من صحّة الفهم، وجواز نسبة بعض الفهوم والتفسيرات إلى الرجل موضوع البحث. تحدّثت عن الجانب الإيجابي في هذه القضية، وأخفيتُ في نفسي ملاحظات سلبية أخرى، ولكن الذي بقي ماثلاً في ذهني طيلة تلك الأمسية: الموت! وكنت أتفرّس في عيني الشيخ وكأنهما عينا عقاب هرم أو أسد أسير، تشعّان بالذكاء والحيويّة والعزم حتى حين بدأ النعاس يدبُّ في أجفانه على أشعة النور المبهر! ثم أقول في نفسي: مدّ الله في عمر هذا الرجل حتى يرى آمالاً أخرى له قد تحقّقت، وحتى يزيد المكتبة الإسلامية من عطائه الثر الثمين.

محاولة قراءة شخصية (أبو زهرة):

ليست هذه الكلمة - إذن - في علم أبي زهرة ومعارفه، لأنّ هذا يكتب فيه وسيكتب فيه - على نحو علمي - الشيء الكثير، ولكنها أقرب ما تكون إلى الخواطر والذكريات، وإلى محاولة «قراءة» شخصيّة هذا العالم الفذ، والوقوف على مفتاح هذه الشخصية التي يفسّر لنا ما وراء المواقف والآراء، وإن كان هذا لا يعفينا من الإشارة إلى كتبه ومكانته العلمية، وبعض ما كان يعتزُّ به من مؤلفاته وآرائه، كما سمعت ذلك منه رحمه الله.

لمحات من حياته:

ولد الأستاذ أبو زهرة سنة ١٣١٦، وحصل على «عالمية القضاء الشرعي مع درجة أستاذ» سنة ١٣٤٣، كما حَصَل على معادلة «دار العلوم»، واشتغل بالتدريس في هذه الدار وفي كلية أصول الدين بالأزهر، ثم في كلية

الحقوق بجامعة القاهرة ـ التي كانت تُدعى بجامعة فؤاد الأول ـ ولم ينقطع خلال ذلك عن المحاضرات والندوات العامة، وكان بعد إحالته على المعاش يحاضر في بعض المعاهد الخاصّة، وبخاصّة معهد الدراسات الإسلامية الذي أسّسه مع الدكتور العربي رحمه الله وبعض رجالات مصر، وكان يحاضر فيه بدون أجر، هذا إلى جانب اشتراكه في بعض لجان المجلس الأعلى للعلوم والآداب والفنون ولجان أخرى كثيرة كان فيها فارس الميدان حتى عُدّ بمزاياه التي سنشير إلى بعضها فيما بعد من أكبر رجالات المؤتمرات والندوات في مصر والعالم الإسلامي.

إشرافه على عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه:

وتكفينا الإشارة إلى عشرات رسائل «الماجستير والدكتوراه» التي أشرف على إعدادها أو ترأس لجان مناقشتها في الفقه والقانون والتفسير والحديث وعلم الكلام وسائر فروع الثقافة العربية الإسلامية، في كليات الآداب والحقوق والشريعة وأصول الدين في جامعة القاهرة وعين شمس والأزهر والإسكندرية وغيرها من الجامعات العربية.

أثر مدرسة القضاء الشرعيّ:

ويمكن القول إن الأثر الأكبر في شخصية أبي زهرة العلمية وشغفه الذي لا حدّ له بالمعرفة والمطالعة والتأليف يعود إلى مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأتها الحكومة المصرية أصلاً لما رغبت في إصلاح القضاء الشرعي ولم تستطع أن تعوّل في ذلك على علماء الأزهر ـ كما قال الشيخ المراغي رحمه الله ـ كما نشأت من قبل مدرسة دار العلوم أيام علي مبارك باشا لما أرادت أن تأخذ من الأزهر علماء للتعليم ـ أو مدرّسين ـ فلم تجد بُغيتها في الأزهر في ذلك الحين لأن طريقته في التعليم يومذاك لم تكن تلائم حالة النشء، كما ذكر ذلك الشيخ المراغي أيضاً.

عاطف بك بركات:

ويبدو أن مدرسة القضاء الشرعي هذه كانت شامخة في مناهجها وأساليبها، وفي شخصية «ناظرها» العالم المربّي عاطف بك بركات الذي كان يثني عليه خريجو هذه المدرسة العليا، وقد بكاه أحمد أمين ـ خريج هذه المدرسة ـ طويلاً عندما توفي رحمه الله سنة ١٩٢٤، أي بُعيد تخرج أبي زهرة من هذه المدرسة بنحو سنتين، وكان عاطف بركات بعد أن أُقصي عن هذه المدرسة قد تفرّغ للسياسة وانضمّ إلى «الوفد»، وعُيِّن وكيلاً لوزارة المعارف، وربما كان أبو زهرة رحمه الله لم يتتلمذ عليه ـ وإن كنت قد سمعته يُثني عليه ويذكره بخير ـ[1] إلا أنَّ الجوَّ الذي تركه في المدرسة والطابع الذي طبعها به بقي ملازماً لها، علماً وسياسة كذلك. ولعلَّ تأثر أبي زهرة بالوفد وإعجابه الشديد بسعد زغلول يعودُ من بعض وجوهه إلى هذا المعهد الذي كان يعد صنيعة من صنيعات سعد، وعملاً من أعماله الجليلة، وكان عاطف بركات نفسه من أقرباء سعد، ومن أقرب المقربين إليه.

* * *

كتبه في فروع الثقافة الإسلامية:

شُغف أستاذنا رحمه الله بالدرس والتأليف، وخلَّف للمكتبة العربية الإسلامية أكثر من أربعين كتاباً في فروع الثقافة الإسلامية. وبخاصّة الفقه والقانون. نذكر له في الكلام والأديان: «تاريخ الجدل في الإسلام»، «محاضرات في النصرانية»، «مقارنات الأديان»، «المذاهب الإسلامية» في السياسة والعقائد.

---

(١) قال رحمه الله تعالى في تقديمه لكتاب «المصلحة في التشريع الإسلامي» لتلميذه مصطفى زيد: «تذكرت أستاذ الأساتذة عاطفاً العبقري الذي لم يَفْرِ فريَهُ في التربية أحد.. تذكرت فيه ذلك العقل الحرّ المتطلّع، والروح المشرق، والنفس الفيّاضة، والقلب الكبير، والهمّة العالمية، والإرادة الحازمة، والحق القوي، والمَنْزِع العلمي».

وله في الاجتماع ونظام الإسلام: «تنظيم الإسلام للمجتمع»، «العلاقات الدولية في الإسلام»، «المجتمع الإنساني في ظل الإسلام»، «الوحدة الإسلامية».

ومن كتبه في الفقه والقانون: «أصول الفقه»، «الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي»، «الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية»، «الأحوال الشخصية»، «شرح قانون الوصية»، و«محاضرات في عقد الزواج وآثاره»، و«الميراث عند الجعفرية»، وفي «مصادر الفقه الإسلامي»، وفي «تاريخ المذاهب الفقهية» وفي «الأوقاف». وبعض هذه الكتب يقع في أكثر من مجلد، وغيرها كثير، عدا عن سلسلته الذهبية القيمة عن الأئمة المجتهدين وعصرهم وآرائهم وفقههم، كتب رحمه الله عن «الشافعي، ومالك، وأحمد، وأبي حنيفة، وابن تيمية، والإمام زيد، وابن حزم، والإمام الصادق..» وخصَّ كل واحد من هؤلاء الأئمة بكتاب كبير.

وكان رحمه الله ينشر تفسيراً للقرآن يعده تباعاً لمجلة «لواء الإسلام» المصرية، وقد جاوز فيه نصف القرآن الكريم[1]، وقد أودع تفسيره هذا كثيراً من معارفه ومعارف العصر العامَّة، وبخاصَّة في المسائل الاجتماعية والسياسيَّة وأصول الديانات، وكان ينظر فيه إلى تفسير الزمخشري، وينحو فيه نحو السيد الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد عبده رحمهما الله، مع رعاية اختلاف العصر، واختلاف النظرة إلى نظام الإسلام والحضارة الغربية.

وقد ودَّعته ـ رحمه الله ـ في داره بضاحية الزيتون بالقاهرة قبل خمس سنوات، وقد بدأ بوضع كتاب في سيرة المصطفى ﷺ، والراجح أن يكون قد فرغ من وضعه منذ أمدٍ ليس بالقصير[2].

مقالاته وبحوثه:

هذا.. عدا مئات المقالات التي كان يمدُّ بها كثيراً من المجلات الإسلامية في مصر وخارج مصر، والأبحاث التي كان يعدها للمؤتمرات

(١) انتهى فيه إلى الآية ٧٣ من سورة النمل. وطبع قريباً في عشر مجلدات.
(٢) طبع في حياته، وصدر عن دار الفكر العربي.

والمجامع العلمية كبحثه القيم في «القضاء الإداري في الإسلام» ـ الذي نشرته هذه المجلة في عامها الأول ـ وبحثه في «ولاية المظالم في الإسلام» وغيرهما كثير.

شدّة اعتزازه بكتابه عن الإمام الشافعي:

ولا بدَّ لنا هنا من الإشارة العابرة إلى أنه كان شديد الاعتزاز، من سلسلته الفقهية السابقة، بكتابه عن الإمام الشافعي، الذي أعطاه حقه من التمحيص والتحرِّي والتدقيق: وسبب ذلك ـ كما حدثني مرة رحمه الله ـ: أنه وضع هذا الكتاب وهو على عتبة الترقِّي إلى درجة أستاذ مساعد في كلية الحقوق، وكانت المنافسة بينه وبين سلفه الشيخ علي الخفيف ـ خريج مدرسة القضاء الشرعي أيضاً ـ على أشدِّها، وإن كان أستاذنا رحمه الله يختار لهذه «المنافسة» اسماً آخر بطبيعة الحال، فكان كتابه الذي جاء فاتحة تلك السلسلة مثالاً يُحتذى ويُشار إليه.

كلامه عن عصر كل مجتهد:

وأمر آخر يتَّصل بهذه السلسلة، وهو أنَّ المؤلف ـ رحمه الله ـ يرى أنَّ هذا النهج في الكتابة عن أعلام الاجتهاد في الإسلام لم يُسْبَق إليه، وبخاصَّة كلامه عن «عصر» كل مجتهد، ولم يُبْدِ مرة اعتراضه على ما بَدَر مني من رأيٍ حول «القَدْر» الذي يكتب عادة عن «عصر» مؤلف أو إمام موضوعِ دراسة وبحث، وهو: القدر الذي يُلقي ضوءاً على حياة المؤلف ويُمهد لفهمِ آرائه واجتهاداته فيما اشتهر فيه... ويضعه ـ من ثمَّ ـ في موضعه بين من شاركوه في هذا المجال... وإن كان من غير اللازم أن يكون شيخنا رحمه الله قد التزم في كتبه هذا القدر.

محاضرات في النصرانية:

أما كتابه الذي لم يكن يُخْفي اعتزازه به حتى في بعض المجالس العامة، والذي كان يحب أن يلقى وَجْهَ ربه وأنه هو الذي كتب هذا الكتاب، فهو «محاضرات في النصرانية»، ومَن اطّلع على هذا الكتاب علم

ما كان يقول الشيخ رحمه الله... وقد وَجَده إن شاء الله بين يدي عليم خبير.

* * *

عميد الفقهاء ومجتهد العصر:

مات عميدُ الفقهاء، ومجتهد العصر، فبماذا أصفه؟ ومن أين أبدأ الكلام على شخصيته المُحبَّبة المُتعدِّدة الجوانب؟!

كان أبو زهرة أشبه الناس بالإمام الغزالي رحمه الله: بلاغةَ قول، وإخلاصَ حديث، وغزارة عبارة، وقوة حجة... فهل كان أبو زهرة غزالي العصر؟!

غزالي العصر:

كان في قوّة دماغه واعتزازه بعلمه كالإمام الغزالي رحمه الله، ولكنّ شيئاً من طبيعة «الأسد» كان يبدو في تناوله لمنهاج المعرفة ومسائل العلم.. كان يتناولها بقوة ويقضي فيها برجولة وسرعة. فهل كان ذلك على حساب «الثقة» والتعمُّق في الفهم والتحليل؟ ما أظنُّ ذلك.. ولكن الذي لا شك فيه - فيما يبدو - أنَّ عبارته في التعبير عن معنى من المعاني أو فكرة من الأفكار قد تطول بعض الشيء، وربما صَاحَبَها قليل من التكرار والدوران وبألفاظ جَزْلة فخمة، ولكنه كان يصل إلى ما يريد من أداء المعاني الدقيقة والآراء الاجتهادية المعقدة.

الكلمة عند الأستاذ أبي زهرة:

ويمكننا القول: إنَّ «الجملة» أو «الكلمة» عند أستاذنا الكبير رحمه الله أداة يقع عليها «طبعه» وفحولته فخمة جَزْلة، وتقع عليها «إرادته» وثقافته بسرعة للتعبير عن المعنى الذي يُريد طال الكلام أو قصر، ويبدو الكلام طويلاً حيث يجب في مثل موضوعه الدقة والاحتراز.

الكلمة عند الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا:

وإذا جاز لنا أن نتّخذ من «الكلمة» معياراً نقيس به اختلاف مَنْ تتلمذنا عليهم من رجال الفقه والتشريع ـ على اختلافهم في الإصابة من قضايا الأمة والمجتمع ـ فالكلمة عند أستاذنا الجليل الشيخ مصطفى الزرقا ـ حفظه الله ـ «حدٌّ» من حدود المنطق، وقَيْدٌ أو احتراس من قيود المعاهدات والمواثيق!.. يبحث عنها الأستاذ الزرقا بدأب، ويختارها بعناية، ويضعها في موضعها الذي خُلقت له غير نافرة ولا قلقة.

الكلمة عند الأستاذ السباعي:

وهي عند أستاذنا الداعية المجاهد مصطفى السباعي رحمه الله «كائنٌ عضويٌ» ينبضُ بالحياة، ويضجُ بحركة الروح والأعضاء!.. تمسُ قلب القارئ، وتُحرّك فيه كوامن الفكر والأدب والشعور، ولذلك فهي أقوى ما تكون وأفعل ما تكون حين يُعبّر بها عن «فلسفة» النظام، لا عن نظام الفقه، وعن حكمة الإرث لا عن الأنصاف والأرباع والأسداس، وعن قواعد الإسلام في بناء الأسرة وموضوع المرأة لا عن الأهلية والوصية وتوزيع التركات.

قدرة الأستاذ أبي زهرة على الخطابة في الفقه والقانون:

وإذا كانت الكلمة عند أستاذنا العلاّمة الشيخ أبي زهرة ما قدّمت، فإنّ ذلك يفسّر قدرته الفائقة على أن «يخطب» في «الفقه» والقانون، وأن يرد اعتراضات المعترض في الندوات والمحاضرات ومناقشات الرسائل الجامعية، وأن يكون في مقدّمة رجال المحافل العلمية العالمية، يساعده في ذلك ذاكرة قوية، وبديهة حاضرة، واطّلاع واسع، وقدرة عجيبة على التوليد والابتكار، وصوتٌ قويٌ مُجَلْجِل ينطلق من أعماق القلب والعقل جميعاً، إلى جانب ما عُرف عنه ـ رحمه الله ـ من روح محببّة، ونفس مَرحة، وطبع أصيل يسعفه بالإشارة الموحية، و«القفشة» الحاضرة!

وربما كانت حصيلة كتابات أستاذنا رحمه الله في مجال فقه الدعوة

قليلة، أو دون من فرّغوا أنفسهم لهذا الحقل، وأتوا فيه بالروائع والدقائق، ولكن يبقى أسلوب الشيخ أبي زهرة ـ بفحولته وجزالته وصدق صاحبه ـ يُصوّر للقارئ أنّ وراءه الشيء الكثير.

* * *

مفتاح شخصيته: الكرامة والعزّة:

أما عزّة الرجل وكرامته وصلابته في الحق فلم أجد لها مثيلاً فيمن عَرَفت من مشايخ مصر، وفيمن رأيت من علمائها، بل لعل مفتاح شخصيته الفذة يكمن في «الكرامة» أو الرفض! رفض أن يبيع آخرته بدنياه، ورفض أن يسبقه أحدٌ أو يتقدّم عليه، ورفض أن يهزم في حوار أو جدال، ورفض أن يقول للظالم: يا عادل، بل رفض أن يسكت عن الظلم، ورفض أن يأخذ على محاضراته العامة الكثيرة أجراً من المال، بل رفض الاعتذار عن إلقاء محاضرة وهو في غاية التعب والإرهاق، وقد شهدت ذلك بنفسي أكثر من مرة، وبخاصّة مع طلاب كلية الهندسة وكلية التجارة بجامعة عين شمس، وكان طلاب هاتين الكليتين يحبُّونه حباً جماً، ولا يتركون مناسبةً إلا ويقومون بدعوته لإلقاء محاضرة عندهم، ولم يكن يتخلّف، ولم يكن يجبن عن أن يقول كلمة الحق.

بلَ رفض الشيخ رحمه الله أن «يكون» شيخاً للأزهر، وليس في مصر رجل أحق منه بهذا المنصب!!... أقول: رفض، ولا أعني أنّ المنصب عُرض عليه فأبى، بل أعني ما هو أبعد دلالة في شخصيّته على مبدأ الرفض: لقد أبى أن يضع نفسه بحيث يُرى ويُدعى!

ولم يكن أبو زهرة يجهل شروط هذه الرؤية في تلك الأيام، ولكن نفسه ـ شهد الله ـ كانت تشمئز من مجرّد تصوُّر هذه الشروط وسماعها، فضلاً عن قبولها والسعي إليها!

كرامة ليست فوقها كرامة، وعزّة ليس وراءها عزة، ورفضٌ مطلق لإعطاء الدنيّة في أيّ مجال من مجالات الأخذ والعطاء.

فحولةٌ في القول، ورجولةٌ في العمل، وبطولةٌ في المواقف، وكرامةٌ وسَبْقٌ في جميع شؤون الحياة. هذه هي شخصية فقيد الإسلام والمسلمين أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة كما عرفته وعرفه تلامذته ومُحبّوه، رحمه الله وجزاه عن دينه وعباده أفضل الجزاء.

* * *

حبُّه لسعد زغلول وتأثُّره به:

هذه النفس المنطوية على العبقرية والبطولة كانت تُحبُّ الأبطال، وقد انطبع في نفسه وهو غلامٌ حَدَث يجري وراء عربة سعد زغلول ويسعى إلى النظر إليه، ثم وهو شاب يستمع إليه بكلِّ جوارحه وهو يخطب ـ وكان من الخطباء القلائل في تاريخ مصر الحديث ـ انطبع في نفسه صورة هذا الزعيم فأحبه وتأثّر به، وبقي على ذلك ـ لما جُبلت عليه نفسه من الصلابة والوفاء ـ حتى آخر يوم في حياته، وممّا أكد ذلك في نفسه الصور التي كانت تجري على مسرح الحياة في مصر في تلك الأيام، وكان لا يمل من تذكُّر صورة سعد يوم أطلق عليه النار في محطة باب الحديد، وكيف تَحامل الرجل على نفسه ودمه ينزف ليصعد على منبر الخطابة لحظات يقول فيها: يعزُّ عليَّ أن أرى منبر الخطابة ولا أخطب! وميدان الكلام ولا أتكلّم، ثم يعلن العفو عن خصمه الذي لم يرد في نفسه لمصر إلا الخير!..

ثم يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله: أين هذا من حديث العجل؟

وممّا يكمل صورة نفس الشيخ ـ رحمه الله ـ في هذا الجانب تريُّثه ـ وربما تردُّده ـ في رفع بعض الناس إلى هذا المقام في نفسه، حتى يأتي أمر يعطيه «رؤية» جديدة ما كان له أن يقف على أبعادها لولا ذلك الأمر «الجوهري» الطارئ.

دخلت عليه مرة وقد ضُيّق عليه، وحُجر على كتابه القيم «محاضرات في النصرانية» فهالني أمر الكتاب الذي مضى على وضعه بين أيدي الطلاب والباحثين أكثر من خمسة عشر عاماً ـ في ذلك الوقت ـ فقال: نعم... النصارى الأوروبيون يترجمون هذا الكتاب إلى أكثر من لغة ويدرسونه

ويناقشونه، ومُتنصّرتنا يفعلون ما سمعت، هل تظنُّنا في دار حرب؟! ما أظنُّ الأمر يا بني إلا كذلك، وما أخال صاحبكم إلا واحداً من كرام الشُّهداء عند الله، إنه ولدنا فلان رحمه الله، وكان شريطٌ مُمْتد بثَّ فيه أستاذنا الجليل رحمه الله كثيراً من الصور والمواقف.

* * *

ذكريات وصور:

الذكريات عن أستاذنا الراحل تملأُ الذاكرة، والصُّور تزحم الخيال، وهذه مُجرَّد كلمة ندخل بها إلى ساحة نفسه الرَّحْبة، وعقله الواسع، ومواهبه الخصبة المتنوّعة، ولسوف يكتب عن الرجل رحمه الله ـ فوق الدراسات العلمية الجامعية ـ عن أبي زهرة «المربّي، والداعية، والأب، والصديق، والسياسي، والأديب، والخطيب» الخ.. ونرجو أن نسهم في هذا المجال في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

عزمه على وضع كتاب في السيرة:

في أوائل عام ١٩٦٩، وفي جلسة ممتدَّة في بيته الهادئ الرزين، حدَّثني عن عزمه على وضع كتاب في السيرة النبوية الكريمة، وعرض لِطَرَف من مخطَّط الموضوع في ذهنه، والقضايا «الجديدة» التي لا بدَّ من إثارتها بين يدي كتابة السيرة، أو في التعقيب على بعض المواقف، وشعرتُ أنه يحبُّ أن أشترك في الحديث، فأشرتُ إلى أن تلك القضايا قد كتب فيها «العقاد» في كتابه «مطلع النور»، وفي بعض كتبه الأخرى، كما كتب في بعض المواقف الأخرى كُتّاب آخرون، فقال: إنه سيطَّلع على هذه الكتب قبل أن يبدأ بالكتابة، وأذكر أنني وقفت عند بعض النقاط التي جَدَّ فيها من القول ما لا بدَّ لأبي زهرة بالذات من مناقشته والردِّ عليه، كالحديث عن حياة النبي الروحيَّة ونحو ذلك، وأشرتُ إلى من تولَّى كِبْرَ هذه الأمور من الكتّاب والمترجمين.

من عالم التَّبعات والحقوق إلى عالم السؤال والملكوت:

وكانت جلسة ممتدة عهد إليّ الشيخ في نهايتها بإحضار هذه الكتب، وكلّ كتاب أقدّر ضرورته أو أن الشيخ لم يطّلع عليه!! ولم يكن التقدير في اليوم التالي سهلاً، ولكنه جاء بحمد الله صحيحاً، وحضرت صلاة العشاء، ففاجأني ـ رحمه الله ـ بحرصه على أن يعطيني ثمن ما اشتريت له قبل أن نُؤدّي الصلاة، وقال بعد أن نادى على خادمه لِيُحضر المبلغ: «أحسن بكره يموت الشيخ أبو زهرة، فتُدعى للصلاة عليه، فتقول: لا... إنَّ لي في ذمّته مالاً لم يدفعه بعد!!»، وضحك ضحكته المشهورة بعد أن نقلني من عالم التَّبِعَات والحقوق.. إلى عالم السؤال والمَلكوت!... وتصوَّرت الخسارة والخَطْب اللذين سيحلان من غيابه عن الساحة، ثم غاب رحمه الله ولم أكن في مصر ليكون لي ثواب الصلاة عليه وتشييعه. ولكنني هنا مع سائر تلامذته ومُحبِّيه ندعُو له كلما قرأنا كتاباً من كتبه، وذكرنا موقفاً من مواقفه، أو ذكَّرتنا الأيام والخطوب بالثغرة التي كان يقف عليها في دنيا الإسلام والمسلمين.

عمل ودأب وجهاد حتى آخر دقيقة:

وبعد، فهذه لمحة عن حياة الفقيد الجليل رحمه الله.. الذي أخذ من دنياه الكثير، وأعطاها الكثير. جاء خبرُ نعيه وجمهورٌ غفير ينتظر حضوره في القاهرة لإلقاء محاضرة عامّة كان قد أعلن عنها في وقت سابق.

عملٌ ودأب وجهاد حتى آخر دقيقة، وَوَقف الجمهور يتقبَّل في الشيخ العزاء بعد أن تحوَّل اجتماعهم إلى مأتم وعزاء.

آخر كلماته المكتوبة:

أما آخر كلماته المكتوبة فهي: «وأحسبُ في حياتي كلّها أنَّ الله كان معي مع كثرة الذين يرومون بي السُّوء، وما خيَّب الله لي أملاً ولا رجاء. وكنت أضطهد في العهود السابقة، فكلما اشتدَّ الكرب عليَّ جاءني الفرج من حيث لا أحتسب».

«وإني أقول نصيحتي لأبنائي الذين أنعم الله علي بأنهم تخرجوا على يدي: كونوا يا بني مع الحق دائماً، وأخلصوا لله دائماً، ولا تمالقوا أحداً في حق، ولا تكونوا على ضعيف أبداً».

وتلك هي علامة الإيمان والقَبول إن شاء الله، على القنطرة التي وصلت في آخر أيامه عالم الغيب بعالم الشهادة.

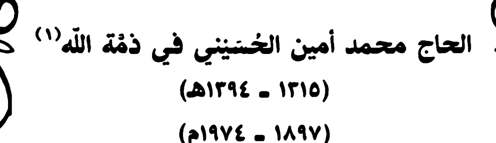
* * *

في صفحات التاريخ:

سيكتب المؤرِّخ: في العاشر من رمضان سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة وألف، اقتحم جنود مصر قناة السويس، وسَقَطت تحت أقدامهم تحصينات العدو، وحناجرهم تُردِّد بصوت واحد: الله أكبر. ثم دخل عام أربع وتسعين وفيه تمَّ تحرير مدن القناة، ورُدّ العدو إلى داخل سيناء، وفيه توفي الفقيه العلامة الشيخ محمد أبو زهرة وقد مُحِيَت من نفسه بعض الأحزان. وكان رحمه الله عالماً فاضلاً مُصنِّفاً كبير النفس، عالي الهمَّة، صادعاً بالحق، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لم يُعط الدنيَّة من دينه ولا من علمه وكرامته. وقد حزن الناس لموته حزناً شديداً، ورثاه غير واحد من الخلق داخل مصر وخارجها، رحمه الله رحمة واسعة، وعوَّض المسلمين خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

نعم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله.





الحاج محمد أمين الحُسَيني في ذمَّة الله[١]

(١٣١٥ ـ ١٣٩٤هـ)

(١٨٩٧ ـ ١٩٧٤م)



ارتباط اسمه بقضية فلسطين:

منذ مطلع هذا القرن وحتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، واسمه مرتبط بقضية أمتنا المقدسة قضية فلسطين، والتي واجه من أجلها إمبراطورية بريطانيا العظمى[٢] والصهيونية العالمية، واستمرَّ في مواجهته لهذه القوى والقوى الأخرى التي دخلت ميدان الصراع إلى جانب الصهيونية حتى لقي وَجْهَ ربه، ونرجو أن يكون راضياً مرضياً...

المعركة مع اليهود جهاد مقدس:

كان يرى أنَّ المعركة مع الأعداء هي جهاد مُقدَّس، واستمرَّ على هذا الرأي حتى وُوري التراب لم تغيّره المحن والمصائب والأحداث، ولم يضيره

---

(١) حضارة الإسلام، العدد السادس، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م).

(٢) مات عدو الصهيونية والإمبراطورية البريطانية... بهذه الكلمات صدرت التايمز البريطانية مقالها الذي عقبت به على وفاة الحاج محمد أمين الحُسيني!!.

تغير الأحباب والأصحاب، وبقي رحمه الله ثابتاً على ما آمن به، عاملاً بكل ما أوتي من جهد وقوة، مستخدماً كل الوسائل المتاحة له من كتابة وخطابة وعقد مؤتمرات وقيام بجولات لتكتيل القوى من أجل تحرير المغتصب من أرضنا وإعادة ديارنا المقدسة إلى وطننا الكبير. . .

تحذيره من خطر الحل السلمي:

لم تَفْتِنْهُ الشّعارات التي غرّت الكثير، وجعلتهم ينحرفون عن الدرب السوي المستقيم، ولم تُؤثّر في عزيمته الخطوب والرزايا، لم يتزحزح ولم ينحرف أو يقبل المساومة، بل استمرّ حتى آخر لحظة في حياته مُنذراً ومنبّهاً أمته بخطر الحل السلمي ـ أو ما يطلق عليه بالسلمي ـ دالاً أمته على الطريق الصحيح، وأن ما أُخذ بالقوة لا يُسْتَرَدُّ إلا بالقوة. . .

لم يهب اليهود أحداً كما هابوه، ولم يكرهوا أحداً كما كرهوه، ولم يحاربوا أحداً كما حاربوه ـ حتى أنهم رفضوا السماح لجثمانه بالدخول إلى بيت المقدس ليدفن حسب وصيته ـ ولم يحاولوا تشويه تاريخ زعيم عربي كما حاولوا تشويه تاريخه المديد الحافل بمختلف الوسائل والأساليب. .

محاربة اليهود له:

لقد سقط كثيرون عن قصد أو غير قصد في شَرَك يهود، وحاربوا أمين الحسيني، وبحربه حاربوا فكرة الجهاد الإسلامي والرؤية الدينية التي يجب أن تواجه بها إسرائيل، وكانت حربه نقطة تحوّل في القضية المقدسة عن مسارها الصحيح، لقد حارب اليهود السلطان عبدالحميد وأسقطوه بواسطة يهود الدونمة من الاتحاديين، وحاربوا أمين الحسيني ليعزلوه عن القضية، ويكون بذلك القضاء على فكرة الجهاد المقدس.

لقد عاش الحاج أمين قضية فلسطين وقضايا العرب والمسلمين، عاش بها، وعاش لها، ولم ينقطع في مختلف ظروفه عن الجهاد حتى وافاه الأجل المحتوم. . .

جهاد الحاج محمد أمين الحسيني:

لقد جاهد الحاج أمين شاباً وكهلاً وشيخاً ينوء بأعباء السنين. . جاهد

والجهاد فريضة إسلامية، جاهد والجهاد عناء وخطر وتشريد واعتقال.. جاهد وهو نجمٌ متألق في بُؤرة الأضواء المحلية والعالمية، وجاهد والأضواء موجَّهة إلى سواه وهو قابع في الظل.

جاهد وهو محور الأحداث، وجاهد وهو في أيامه الأخيرة.

كان - رحمه الله - يقوم بواجبه باستمرار، ويعمل غاية وسعه باستمرار، ويتلقى النوازل والضربات الخاصة والعامة كالجبل الأشم، ويمضي في طريقه بهدوء وابتسام وتصميم وبإيمان راسخ بالله عزَّ وجل...

وللحاج أمين - رحمه الله - في جهاده الطويل آراء ومواقف قد نختلف معه في بعضها، ولكنه كان رغم ذلك كله، ومع ذلك كله رجلاً كبيراً وزعيماً عظيماً قلَّ أن يجود الزمان بمثله في إخلاصه وغيْرته وجهده وتضحيته وثباته واستمراره في الكفاح وشخصيته الفذة القليلة المثال..

ولقد أدّى لدينه وأمته وبلاده إلى آخر لحظة من حياته كل ما استطاعه من خدمات.. تغمَّده الله بالرحمة والرضوان، وعوّض المسلمين أحسن العوض. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

الفقيد في سطور

○ ولد في القدس عام ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م، وتلقَّى تعليمه الأولي والثانوي في القدس، ثم التحق بالجامع الأزهر بمصر، وبدار الدعوة والإرشاد التي أسسها المرحوم محمد رشيد رضا، وكان يحضر خلال ذلك الدروس والمحاضرات في كلية الآداب بالجامعة المصرية.

○ عاد إلى القدس عام ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م، وكان يقيم فيها عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، فالتحق بالفرقة ٤٦ في ولاية أزمير، واستمر يخدم في الجيش العثماني ضابطاً حتى انتهت الحرب.

○ عاد بعدها إلى فلسطين، وقام بإنشاء الجمعيات والنوادي الثقافية

والاجتماعية والسياسيّة، وقاد الحركة الوطنية الفلسطينية من أجل مقاومة الانتداب البريطاني ووعد بلفور.

○ في عام ١٩٢٠م، وفي موسم النبيّ موسى عليه السلام أعطى أول درس للطامعين ليعلموا أن فلسطين لن تكون لليهود منازل وقصوراً، بل تكون لهم أجداثاً وقبوراً، وخرج من فلسطين بعد أن حُكم بالسجن عشر سنين بالأشغال الشاقة هارباً إلى سورية.

○ عاد إلى فلسطين عام ١٩٢١م، بعد إلغاء الحكم السابق، وتولى منصب الإفتاء في القدس الشريف عام ١٩٢٢م، خلفاً لشقيقه المرحوم محمد كامل الحسيني، ثم انتخب رئيساً للمجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.

○ قام بإصلاح إدارة الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية الإسلامية ونظّمها، وسعى إلى صيانة أراضي فلسطين، ومنع انتقالها إلى اليهود، وقاد الحركة الوطنية الفلسطينية، وعقد المؤتمرات الإسلامية، وأرسل الوفود الكثيرة إلى الخارج من أجل الحفاظ على فلسطين.

○ قام بوضع مشروع المسجد الأقصى وصيانته وأشرف على تنفيذه، واحتفل بتمام العمل عام ١٩٢٩م، وقام بإنشاء الكلية الإسلامية بجوار الحرم، وانتدب إليها خيرة المدرسين والمربّين لتخريج جيل من الشباب المستقيم تخريجاً صحيحاً..

○ لم يسمح لبلفور بزيارة الحرم الشريف عام ١٩٢٥م، على الرُّغم من طلب المندوب السامي صموئيل منه السماح، وأمر الحرس بإغلاق الأبواب وعدم فتحها ولو أدّى الأمر إلى استعمال القوة، وجاء بلفور والمندوب السامي واضطرا إلى العودة من حيث أتيا...

○ نَجَح في إخراج قضية فلسطين إلى نطاق العالَمين العربي والإسلامي، ودعا عام ١٩٢١م إلى عقد المؤتمر الإسلامي العام في القدس، وتتالت بعدها المؤتمرات العربية والإسلامية من أجل فلسطين، وكان رحمه الله العصب المُحرّك لهذه المؤتمرات...

○ تمكَّن من إفشال المؤتمر التبشيري العالمي الذي عُقد في القدس عام ١٩٢٧م، على الرغم من طلب المندوب السامي البريطاني (بلومر) منه أن يتدخَّل لتسكين البلاد، فما كان منه رحمه الله إلا أن أجاب بقوله: أيعقد مثل هذا المؤتمر في جبل الطور، ونريد أن يبقى المسلمين هادئين؟ فكان أن أُخرج المؤتمرون جميعاً من البلاد. . .

○ ذهب ضمن الوفد الفلسطيني عام ١٩٣٠م، الذاهب إلى لندن في أعقاب ثورة البراق الشريف عام ١٩٢٩م، لمفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية فلسطين ومطلب الشعب الفلسطيني.

○ وفي عام ١٩٣٤م، ترأس وفداً لإصلاح ذات البين بين السعودية واليمن.

○ وفي عام ١٩٣٦م، اندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى، وانتخب الحاج أمين الحسيني رئيساً للجنة العربية العليا بإجماع الأحزاب الفلسطينية، وعندما تجدَّدت الثورة عام ١٩٣٧م، أرادت حكومة الانتداب إلقاء القبض عليه فالتجأ إلى المسجد الأقصى، واعتصم فيه أربعة أشهر، ثم خرج خفية من فلسطين، وسافر في زورق إلى لبنان، ولم يعد بعدها إلى بلده، وعاش حتى لقي وجه ربه شريداً غريباً عن وطنه. .

○ غادر لبنان إلى بغداد بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، بعد ضغط حكومة الانتداب البريطاني على فرنسا لتسليمها الحاج أمين، واشترك في ثورة العراق التي اندلعت عام ١٩٤١م - ثورة رشيد عالي الكيلاني - وبعد فشلها التجأ مع قادة الثورة إلى إيران حيث بدأت ملاحقته بعد دخول القوات البريطانية والروسية إليها، فانتقل إلى أوروبا بعد أن رفضت تركيا قبوله لاجئاً سياسياً فيها، وبعد أن وضعت بريطانيا ٢٠ ألف جنيه أسترليني ثمناً لرأسه.

○ اعتقلته السلطات الفرنسية إثر خروجه من ألمانيا بعد انهيارها، لكنه نجح في صيف عام ١٩٤٦م، في مغادرة فرنسا سراً إلى مصر.

○ طالبت المنظَّمات الصهيونية والاستعمارية وسَعَتْ لتقديم سماحته

إلى محكمة (نورمبرغ) بتهمة كونه مجرم حرب بحُجة أنه حرّض السلطات النازية في ألمانيا خلال الحرب على إبادة اليهود.

وقد فشلت مساعي الصهيونية والاستعمار ضدّه بسبب استنكار زعماء المسلمين والرأي العام العربي والإسلامي لهذه المساعي.

○ وفي عام ١٩٤٧م، قام بتشكيل فرق الجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبدالقادر الحسيني، وكان يرى عدم دخول الجيوش العربية الحرب ضد اليهود في فلسطين مطالباً بإمداد سكانها فقط بما يحتاجونه من مال وعتاد.

○ ومنذ نكبة عام ١٩٤٨م، وهو يتابع رحمه الله في الظل القضية الفلسطينية وتطوراتها بمثل الاهتمام الذي كان يتابعها به يوم كان في الموقع الأول للمسؤولية.

○ كان آخر مؤتمر حضره مؤتمر القمة الإسلامي المنعقد في لاهور.

○ توفي رحمه الله في مشفى الجامعة الأمريكية يوم الخميس ٤ تموز ١٩٧٤م، إثر إصابته بنوبة قلبية كان قد أصيب بمثلها إثر هزيمة العرب عام ١٩٦٧م.

○ نعته قيادة الثورة الفلسطينية في بيان وزعته وكالة الأنباء الفلسطينية بقولها: تنعي قيادة الثورة الفلسطينية وجماهير الشعب الفلسطيني الزعيم الفلسطيني الكبير الحاج محمد أمين الحسيني الذي وافته المنية بعد عمر قضاه وهو يناضل نضالاً مستمراً ومريراً من أجل الشعب الفلسطيني والأمة العربية...

* * *

نبذة من آرائه وأقواله

○ رَفْضُ تقسيم فلسطين كان وما يزال مسألة حق وعدل، ومنطق وكرامة، وليس في اعتقادي من مبرر قط لقبول التقسيم ولا للسكوت عنه وتناسيه وتجاهله، واختلاق المبرّرات له بأنه أصبح أمراً واقعاً، وأن الأمم

المتحدة أقرّته وأن الدول الكبرى أمثال روسيا وأمريكا وإنكلترا وافقت عليه!

إنَّ هذه كلها أباطيل ومخادعات لتضليل الفلسطينيين وتضليل العرب والمسلمين الذين اعتبروا التقسيم طعنة نجلاء وجّهت إليهم.. فلماذا يراد بنا أن نخضع للظلم ونقرّه ونعترف بالأمر الواقع، ولماذا نُلام إذا رفضناه وتوجّه إلينا تهمة التصلّب والتشدُّد؟

إنَّ شعباً حياً ومجاهداً كالشعب الفلسطيني لا يجوز له أن يخضع ويقبل بالأمر الواقع الذي فرضته القوة الغاشمة والمطامع الأجنبية.. واعتقادي أنَّ المظلوم الذي ينام على الظلم ولا يقاومه بكل قوة وتصميم، يكن أحق باللوم من الظالم نفسه؛ لأنَّ الخضوع للظلم تأييد للظالمين وتشجيع لهم على الاستمرار في الظلم والتمادي فيه..

○ إعادة قضية فلسطين إلى الفلسطينيين فإنهم أحقُّ بها، وأهلها أحدب عليها، وأولى بالذَّوْد عنها والاستماتة في سبيلها. ولقد أثبتت التجارب أن هذه القضية كانت وهي في أيدي أهلها مصُونة عزيزة الجانب إلى أن استطاعت المؤامرات الاستعمارية أن تنتزعها منهم بالتأثير على بعض الحكومات العربية فحرمتهم بذلك من الاشتراك الوافي في الحرب كما أبعدتهم عن ميدان السياسة.. فينبغي إعادة هذه القضية إلى أيدي أهلها المؤمنين المخلصين المصمّمين ليعيدوا إليها حيويتها ونشاطها...

○ أما تدويل القدس فلا يختلف كثيراً عن تهويدها، لأنَّ الأمرين يؤدّيان إلى انتزاعها من أيدي أهلها، ويهددان مصير الشعب الفلسطيني، لأن موقع القدس وسط سلسلة الجبال التي تتوسط فلسطين يُخوّلها ميزة عسكرية لا يستهان بها تستطيع بواسطتها السيطرة على سائر الضفة الغربية...

وإني لأدعو العرب إلى رفض التدويل استناداً إلى الأمور التالية:

١ ـ لقد أثبت العرب والمسلمون خلال أربعة عشر قرناً قدرتهم ونزاهتهم في المحافظة على الأماكن المقدسة وتأمينهم لحرية العبادة في هذه الأماكن.

٢ ـ إنَّ المقدسات القائمة فعلاً في مدينة القدس هي مقدسات إسلامية ومسيحية، وإن عدم وجود أي خلاف عليها بين المسلمين والمسيحيين ينفي الحاجة إلى تدويلها، أما ما يدّعيه اليهود من حق لهم في حائط البراق الشريف ـ حائط المبكى ـ فإنما هو أكذوبة ضخمة مفتراة على الحق والتاريخ، وقد ثبت ذلك بوثائق وبراهين تاريخية وأثرية كان آخرها التقرير الذي وضعته لجنة البراق الدولية التي تشكلت بقرار من عصبة الأمم ١٩٣٠م، وقد نصَّ القرار على ما يلي: للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف..

٣ ـ إنَّ القدس جزء لا يتجزأ من فلسطين، وفلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، فلا يجوز للعرب والمسلمين التفريط في القدس أو التنازل عن أيِّ جزء منها، ولا يجوز أن يقام في القدس أي نظام دولي غريب عن فلسطين والشعب الفلسطيني.

٤ ـ إنَّ المسجد الأقصى القبلة الأولى للمسلمين، ومسرى الرسول ﷺ ومنه معراجه، وهو صلة الوصل بين فلسطين والعالمين العربي والإسلامي، ولا شك أن فكرة التدويل هي فكرة يهوديَّة استعمارية لقطع هذه الصلة الأزلية.

○ ولا شك في أنَّ الأعداء يقصدون من مشروعهم ـ مشروع الدولة الفلسطينية ـ بلوغ الأهداف التالية:

١ ـ انتزاع اعتراف من الشعب الفلسطيني بوجودهم ودولتهم القائمة على أساس الغصب والعدوان وتنازله عن أكثر من ثمانين بالمائة من أرض فلسطين.

٢ ـ امتصاص نقمة الشعب الفلسطيني خاصَّة والعرب والمسلمين عامة وصرفهم نهائياً عن الجهاد في سبيل استعادة فلسطين.

٣ ـ شقّ الشعب الفلسطيني إلى معارض للمشروع ومؤيد له، وإيقاع

الفتنة بين أفراده وجماعاته، وإيغار صدور العرب والمسلمين على الفلسطينيين.

٤ ـ أن تصبح هذه الدويلة جسراً يصل بين اليهود والأقطار العربية لاستغلالها اقتصادياً وسياسياً في سبيل تنفيذ مخططاتهم ومؤامراتهم.

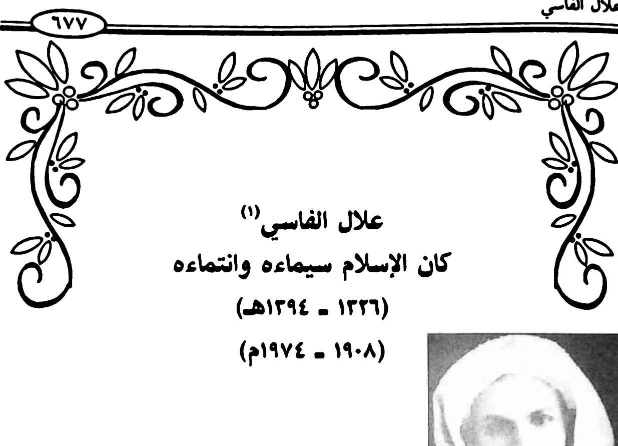
وصفوة القول: أنَّ الحلَّ الصحيح لقضية فلسطين هو إعادتها إلى طابعها العربي الأصيل، وعندئذ يصبح من حقِّ الفلسطينيين إقامة دولتهم وَفقاً لحقِّهم المشروع في تقرير مصيرهم.

○ أنَّ الحل المنشود للقضية الفلسطينية لا يتحقَّق بالتنازلات والمناقصات والتفريط في الحقوق الوطنية تفريطاً يقضي على كل أمل للشعب الفلسطيني في الحياة الكريمة. وليس في مجال القضية الفلسطينية أي مكان لتعايش سلمي مع أعدائنا الذين نعلم حق العلم أنهم لا يريدون تعايشاً[1] مع أحد، ولكنهم يريدون التوسع على حساب أمتنا وسلامتنا، ومستقبل أجيالنا والمضي في سلب كل شيء معتقدين أن بلادنا كلها هي لهم، بل إن العالم كله لهم! وهذا الاعتقاد اليهودي ثابت، وقد عرفه كل من درس تاريخ اليهود وكتبهم، وعرف ماضيهم وحاضرهم. إن الإسرائيليين مُصمِّمون على إبادتنا واغتصاب كل ما نملك، ولكنهم يخادعوننا لكسب الوقت الذي يستطيعون فيه تنفيذ مخططاتهم الرهيبة.



(١) «إنه لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ما لم نحرر وطننا بأجمعه، حتى ولو وقعنا معاهدة صلح»، مناحيم بيغن.

«إن إسرائيل الكبرى الممتدة من العراق إلى السويس هي الدولة القوية التي تستطيع تأمين السلام والاستقرار في الشرق الأوسط»، أريه ألتمان (الحضارة).



علال الفاسي[1]
كان الإسلام سيماءه وانتماءه
(١٣٢٦ ـ ١٣٩٤هـ)
(١٩٠٨ ـ ١٩٧٤م)

بقلم: عمر بهاء الدين الأميري

علال الفاسي عَلَمٌ عملاق، حجمه في الزمان أكبر من السنوات التي عاشها، وحجمه في المكان أكبر من الأرض التي وُجِدَ فيها..

حجم علال الفاسي في الزمان:

فحجمه في الزمان أكبر من السنوات التي عاشها؛ لأنه عاصر أحداثاً جساماً بدّلت خارطة العالم، وغيّرت وجهة التاريخ، وقد كابد الجهاد خلالها بطاقة هائلة، قلّ أن يتوفّر عليها ويجود ببذلها إنسان فرد، إلا إذا كان عَلَماً عملاقاً، وتاريخه في ذلك سِفْر كبير من مجلدات، يبدأ بجمعية طلابية سريّة سياسية، ويمرُّ بالسجون والمنافي، ويتنقل بين المغرب والمشرق، ويلمع في المجلس النيابي، ويَصِل إلى وزارة الدولة للشؤون الإسلامية، ويستمر في رئاسة حزب الاستقلال

---

(١) المجلة العربية، العدد الأول من السنة الثانية: (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م).

- الذي كان كثيراً ما يستفيد من منابره للدعوة إلى الإسلام ونُصْرة قضاياه، والمُناداة باتّخاذه دستور هذه الأمة، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً - وقد كان من الأركان الأولى لدار الحديث الحسنيّة، فدعم فكرة إنشائها، ونافح عن رسوخها وتقدُّمها، وأسهم في توجيهها وتدريسها والإشراف على رسائل طلابها حتى إذا تقاعد عن عمله في كلية الحقوق لبث محتفظاً بكرسيّه فيها حريصاً عليه إلى آخر دقيقة من حياته. ولا عجب في هذا فإن مدرسته الأولى التي استمرّ إشعاعها يواكب حياته هي «المدرسة القرآنية» تعلّماً وتعليماً...

صُوَر وعَبَرات:

أغوص في أعماق ذاكرتي بحثاً عن تعارفنا الشخصي الأول، ثم مراحله المتتابعة، فتضيع بي ذاكرتي المتعبة في رؤى غامضة، كأنها من صور تاريخ بعيد بعيد...

غاص من ذاكرتي عهدُ الصِّبا
والشباب الغض إلا غبرات
قطَّع النسيانُ عمري مِزَعا
فكأني عشت عمري فترات
وانمحى من خَلَدي جلّ الذي
خضته في جَلَدي من غمرات
فلكم قصَّ عليَّ الصَّحبُ من
طرف الأخبار عني شذرات
وأنا أسمعها مبتسماً
وبقلبي من أساهُ جمرات
بقيت لي من حياتي صور
عبر حيناً وحيناً عبرات..!

لقاءات ومشاركات:

كانت لنا لقاءات كثيرة، ومشاركة في مؤسسات ومؤتمرات وندوات ومناسبات عدّة، فكم التقينا في القاهرة وبغداد والقدس ومكة والرباط وفاس وسواها... التقينا على المعاني والعواطف والجهود المشتركة لقضايانا، قضايا أوطاننا وأوطان العروبة والإسلام.

في مؤتمر القدس:

ومن أبرز المؤتمرات التي كنا فيها معاً: مؤتمر القدس عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م، مع نخبة كبيرة من رجال العلم الإسلامي، منهم الشهيدان سيد قطب، ونواب مجتبى صفوى، واللواء صالح حرب الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين، رحمهم الله.

مؤتمر مكة الذي انبثقت عنه رابطة العالم الإسلامي:

وأما أكبرها فمؤتمر مكة عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٤م، الذي انبثقت عنه رابطة العالم الإسلامي، واختتمه العاهل السعودي الشهيد فيصل بن عبدالعزيز، بخطاب جامع، وجاوب عليه باسم المؤتمرين الشهيد المجاهد البطل الحاج أحمد ويللو، رحمهما الله، وشاركت فيه وفودٌ كثيرة ذات شأن من أعلام الأمة الإسلامية، واتُّخذ قرارات وتوصيات على جانب كبير من الأهمية، كان أكثرها إيجابية العمل على عقد مؤتمر قمة إسلامي عام، يكون انطلاقة أولى لإقامة شكلٍ ما من لمّ الشمل الجامع لولاة أمر المسلمين وشعوبهم، فضلاً عن تنسيق جهود الدول والحكومات منذ الآن في مواجهة التحديات المذهبية والمواقف الدولية والمخططات العدوانية التي يتعرّض لها العالم الإسلامي، وفي نُصرة قضاياه وحركات الجهاد والتحرير فيه، وكان الأستاذ علال رئيساً للجنة الشؤون الإسلامية وتقرير المصير، وكان نائبه الأستاذ عبدالله كنون، وكنتُ مقرر اللجنة، فلمست مدى غيرته وإخلاصه واهتمامه البالغ بأمر الإسلام والمسلمين في كل بقاع الأرض.

في مجال العمل الإسلامي العام:

أما في مجال العمل الإسلامي العام، فأشهد أنني ما ذكرت له موضوعاً إلا وجدته بالغ الاهتمام به، ولا اقترحت عليه دعماً أو نصرة إلا وجدته مستجيباً، وقد كانت له في ذلك مبادراته اليقظة التي تتجلى فيها أصالة تفاعله مع الإسلام وقضاياه، وعمق تضامنه مع المؤمنين المجاهدين الذين يتعرضون للأذى والعذاب والتنكيل في سبيل الله. وقد عرف ذلك عنه القاصي والداني.

موقفه من قضية الشهيد سيد قطب وإخوانه:

ومن هذا المنطلق الأصيل النبيل، أُسجِّل له بمزيد من الإكبار والتقدير موقفه من قضية الشهيد سيد قطب وإخوانه من قبل ومن بعد، فقد كان ثابتاً متيناً يواجه الأعاصير والزعازع في نُصرته الحق ودفاعه عن الدعاة إلى دين الله، ومطالبته بإنصافهم، وتقدمه الصف مع صفوة من رجال المغرب البررة في الاحتجاج على الظلم الفادح الذي كان ينزل بهم، حتى إذا أكرم الله سيد قطب وبعض إخوانه بالشهادة، كان أول الداعين إلى إقامة صلاة الغائب على أرواحهم الطاهرة في سائر مساجد المغرب المؤمن، وكان أول العاملين على تمجيد شهادة سيد قطب، وصَدَرَتِ «العَلَمُ» بعدد خاص وفيها مقال قيِّم مسهب للرئيس علال عن شهيد الإيمان صاحب **«في ظلال القرآن»**، كما كتب عنه مقالاً في العدد الخاص بالشهيد من مجلة **«الإيمان»**، التي يصدرها الأستاذ الكبير المجاهد أبو بكر القادري.

ولما حانت الذكرى الأولى لاستشهاد سيد قطب، كان علال الوفي المؤمن أول العاملين على إقامة حفل تأبيني كبير له في مركز حزب الاستقلال في فاس، افتتحه بنفسه في ظروف كان لا يجرؤ فيها سواه على أكثر من النقد المحصور في نطاق ضيِّق، والتفجُّع والدعاء بأن يكشف الله عن الأمة الإسلامية هذا البلاء! وقد عمل على إصدار طبعة مغربية من بعض كتب سيد قطب الهامة، وما ذلك لمُجرَّد الصداقة الوثيقة التي كانت بين المُجاهدَين الكبيرين، بل هو في الدرجة الأولى لاتفاقهما في العقيدة وارتباط

سيد قطب في نفس علال بالإسلام، الذي يؤمنان به ديناً حضارياً فذاً، لا للأمة الإسلامية فحسب بل للإنسانية جمعاء. وهذه العقيدة الإسلامية الحية الحركية في الرئيس علال قد ظهرت ملامحها بشكل أو بآخر في كل آثاره وأفكاره وأعماله العامة بل في توقعاته المستقبلية.

الرجل الموسوعة:

تضيق صفحات هذه الكلمة عن مُجرَّد سرد لقاءاتنا وذكرياتنا في المشرق والمغرب، فكيف بي إذا رحت أسترسل في الحديث عن صفحاتها ومجالاتها، ولا أدري هل سيتَّسع ما بقي لي من العمر للعودة إلى وثائقي ومفكراتي لكتابة مذكراتي، في قلب ما أنا فيه من تشتُّت ومشاغل وأعباء لا ينتهي وليدها، لو أتيح لي ذلك لكان لعلال الفاسي «الرجل الموسوعة» مجلَّد خاص بينها.

حجمه في المكان:

ذاك تصوير مقتضب لحجم الفقيد الجليل الغالي في الزمان، ونبذة عن لمحات من ذكرياتي معه، أما حجمه في المكان فكما سبق لي أن قلت: إنه متَّسع رَحْب وإن كان لا يصل إلى حجمه في الزمان.. فمن الأندلس حيث نَبَتَ أصله إلى فاس حيث استقرَّ أهله.. إلى قرى الأطلس التي سُجن فيها.. وبلدان المغرب التي تنقَّلت خلالها خطى جهاده.. إلى الغابون حيث قضى تسع سنوات من التألم والتعلم لم ينقطع خلالها عن التفكير والتحبير.

رحلة دائبة على دروب المجد والجهاد:

واستمرَّ علال الفاسي في ثبات قليل النظير على الجهاد في المغرب والمشرق ـ حيث نقل ساحة دعوته وعمله لأمته ـ إلى مصر لا يفتُر ولا يكل.. حتى عاد إلى المغرب المستقل الذي كان من أكبر دعائم استقلاله ويستمر في المغرب ولا يستقر، من مؤتمر إلى مؤتمر، ومن ندوة إلى

أخرى، ويزور في كل عام مرة على الأغلب مكة المكرمة، ويشهد اجتماعات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وقد بقي هكذا في رحلة دائبة على دروب المجد والجهاد حتى لقي وجه ربه في «بوخارست»، وفلسطين آخر كلمة يفوه بها...

الإسلامية الحيَّة الحركيَّة:

لقد كان علال ابن الإسلام قبل أن يكون أي شيء آخر، ثم كان، بعد ذلك ومع ذلك، للمغرب والعروبة والإسلام والإنسانية.. وإنَّ كل الذين عايشوه أو درسوه سيعرفونه بسيمائه وانتمائه إلى الإسلام، وإن كانوا ممَّن يعرفون معالم الحق، وإنَّ هذه «الإسلامية» الحيَّة الحركيَّة كانت تظهر عليه بشكل أو بآخر، وتأخذ لديه المقام الأول في الاعتناق والاعتزاز، رغم شدة تعلقه بوطنه وتشدُّده في الحرص على كل شبر من الأرض فيه.

وإننا لنجد من كتبوا عنه من الغربيين قد أبرزوا هذه الصفة فيه أيضاً، بل منهم مَنْ علَّلها وردَّ إليها عواطفه الأخرى وطنية وإنسانية.. يقول جاك بيرك: «إنَّ علالاً الفاسي لا يدافع عن الشخصية المغربية، ولكنه يدافع عن الهُويَّة الإسلامية، وهو يعتقد أن الإسلام وحده هو القادر على أن يحمي بلاده من سلاح أوروبا على الدين»...

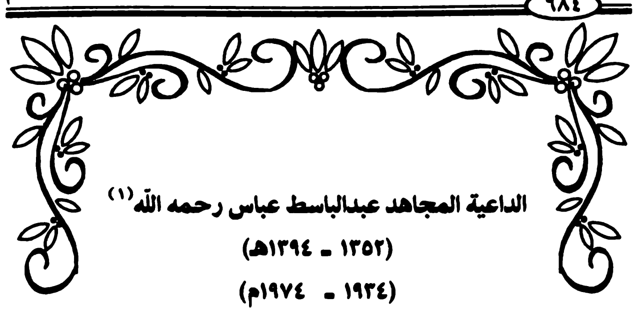
نموذج من سلسلة الرجال في هذه الأمة:

وبعد.. فهذا سطر من «كتاب علال»، يرمز تلميحاً إلى خطوط من شخصيَّته الفذَّة، ويلمُّ إلماماً عابراً ببعض جوانب نشاطه الإسلامي الواسع. وإذا كان لا يفي إلا بِنَزْر يسير من الوفاء للودِّ الذي بيننا والتقدير الذي أحمله له والتعريف ببعض مزاياه وسجاياه.. فإنني أجعله مع «سطور» أخرى كتبت فيه وستظل تكتب عاماً إثر عام، لا لتجزيه ما يستحق، فأمر ذلك موكول إلى الله جل جلاله وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وهو اليوم في حِرْزه الأمين، ولكن لتبقى نموذجاً لسلسلة «الرجال» في هذه الأمة الإسلامية المعطاء، ومثالاً للأجيال من المواطنين والأبناء، ولتكون بخاصَّة ـ حافزاً

للشباب المؤمن الغَيَارى من طلابه، ولا سيما من خريجي دار الحديث عسى أن ينهدوا نهده ويجدُّوا جده، ويكونوا استمراره بعده، فمن أوْلى منهم بالإشادة به، والانتفاع منه، ومن أجدر منهم بحَمْل الأمانة وأداء الرسالة في هذا البلد المؤمن العريق الغريق اليوم بالمذاهب الوافدة والدعوات الضارة الضالة، حتى ليكاد أن يعود فيه الإسلام غريباً، وهم أسرة العقيدة الهادية، وَوَرَثة الصفوة الواعية الداعية.

وإننا لنرجو أن يكونوا في هذا المعترك امتداداً لجهاد وقدح الزناد، نوراً لا ناراً، وسعياً لا شعاراً، ولذلك فإن الذي نُلحُّ عليه ونريده له من جوانب شخصية فقيدنا الكبير علال الفاسي، أحسن الله إليه، هو التعمُّق في العلم والفهم، والمَضَاء في العمل بلا كلل، والنهوض بأعباء الإسلام المقدَّسة، لا يثنيهم عن ذلك ثِقَل الأعباء وتكاثر الأعداء، ولتكن هممهم أكبر من همومهم، وأرواحهم أغلب من جسومهم، وعليهم أن يوطِّدوا في نفوسهم جذورَ اليقين بأنَّ النصر لنا، وأنَّ الله معنا، وأنَّ العاقبةَ للمُتَّقين!





الداعية المجاهد عبدالباسط عباس رحمه الله[1]
(١٣٥٢ ـ ١٣٩٤هـ)
(١٩٣٤ ـ ١٩٧٤م)

للأستاذ مصطفى البيراوي

عِظَم خسارة الدعاة:

فُجعت بلدة الباب ـ التابعة لمدينة حلب ـ بوفاة الأخ الداعية المجاهد عبدالباسط عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥].

لقد رحل فقيدنا الغالي، وانضمَّ إلى القافلة المؤمنة من الأعلام الذين خسرتهم الأمة، ما أعظم خسارة الدعاة على الأمة في وقت عزَّ فيه الدعاة إلى الله:

لَعَمْرُكَ ما الرزيَّة فَقْدُ مال ولا فَرَس يَمُوتُ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرزيَّة فَقْدُ حُرّ يموتُ لموته خلقٌ كثيرُ

لَهْفَ نفسي عليك أيها الحبيب الراحل! ما الذي أعجلك عنا وأنت في ريعان الشباب ونضرة الحياة وبدء العطاء؟!

---

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م).

أهكذا تركتنا يا أبا أنس في أول الطريق الصعب وفي حلكة الظلمة. إنَّ إخوانك في حاجة إلى حكمتك وسداد رأيك، وإلى قلبك الكبير، وإن دعوتك في حاجة إلى تجرُّدك وعملك.

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

جنازته المشهودة:

رحمك الله يا أبا أنس لقد كان مأتمك مأتم البلدة كلها، فهذه الجموع المؤمنة التي حملت نعشك على راحات الأيدي في موكب مهيب إلى دار الخلود، لتشهد لك عند الله تعالى أنك أدَّيت الأمانة، وبلَّغت رسالة نبيك محمد ﷺ، ولسان حالها يُردِّد: اللهمَّ ارض عنه فإننا عنه قد رضينا.

مناقبه وأخلاقه:

رحمك الله ـ يا أخا الإسلام ـ افتقدك ريف الباب ومنبج طبيباً تداوي القلوب قبل أن تداوي الأجسام، مستقيماً في عملك، دؤوباً على أداء واجبك، لا تعرف الكلل ولا الملل كأنك خُلقت للعمل وحده.

عرفك الناس عفيف اليد واللسان، طاهر الذيل والسريرة، كبير القلب، مسلماً بخلقك وعقيدتك وسلوكك، متواضعاً مشرق الوجه فكهاً تحب الدعابة.

يا أبا أنس!

افتقدك التقى والورع والهدى، افتقدك المحراب والصف الأول في المسجد.

وافتقدتك حلقات تجويد القرآن، يا مَنْ حفظت الذكر ترتيلاً وفهماً وتجويداً.

افتقدك إخوانك الذين كنت تحمل همومهم، وتشاطرهم أفراحهم، وتحفظ حقَّهم في السفر والحضر.

يا أبا أنس!

يبكيك الفلاحون في ريف الباب ومنبج، حيث فقدوا القلب الكبير، وفقدوا الاستقامة والنزاهة والتواضع والزهد. . .

رحمك الله يا أبا أنس لقد كنت - بعون الله - من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

منهجه في الدعوة:

سيذكر الجميع حماستك للدعوة، وحرصك على تدريب النفس أن يحب المرء لله ويبغض لله.

يا أبا أنس[(١)]!

ستبقى حُجَة على أولئك الذين يرهبون حَمْل الراية، ويميلون إلى السلامة والعافية، وإلى متاع الدنيا الزائل.

لقد عشتَ ملتزماً شرع الله، وقّافاً على الحق، وكانت وسيلتك في الدعوة إلى الله التربية بالقدوة والأسوة، أحييت سنن رسول الله في نفسك وفي أهلك يا أبا أنس!

نَمْ قرير العين في جوار ربٍّ كريم، واطمئن بأن لواء دعوة الإسلام سيبقى مرفوعاً بأيدي الفتية والأشبال الذين غذّيتهم بالإسلام وتعهّدتّهم بالريّ والسقيا حتى اشتدّ ساعدهم وصَلُب عودهم.

اللهمّ اغفر له، وأكرم نُزله، وأدخله الجنة، وعوّضنا بفقده خير العوض، اللهمّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده. ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

(١) ابنه أنس هو أستاذ إدارة الأعمال المشارك في جامعة الحديدة، من مواليد ١٩٦٢.

حياة الفقيد في سطور

ـ ولد الفقيد رحمه الله في بلدة الباب عام ١٩٣٤م، لأب مشهود له بالعلم والورع والتقى.

ـ نشأ ميَّالاً بطبيعته إلى التديُّن منذ نعومة أظفاره.

ـ حصل على الثانوية البيطرية والثانوية العامة وليسانس في الحقوق، وكان نجاحه بتفوق في كافة مراحل دراسته مما لفت الأنظار لما يتمتع به من الذكاء والنباهة والنشاط الدائب.

ـ عمل طبيباً بيطرياً في بلدة الباب وريفها منذ عام ١٩٥٧م، فعُرف بين الناس بالاستقامة والسمعة الحسنة إلى جانب المهارة في الخبرة في مهنته.

ـ شارك في كافَّة النشاطات الاجتماعية والخيريَّة التي قامت في منطقة الباب، وكان يؤخذ رأيه لرجاحة عقله واتزانه في جميع أعماله.

ـ خدم في الجيش ضابطاً، واشترك في عدَّة دورات تدريبية، وكان فيها الأول لما يتمتَّع من روح جهادية ولياقة جسمانية.

ـ أكبَّ ـ رحمه الله ـ على العلم والثقافة الإسلامية، وأيقن أن العلم هو الوسيلة القويمة لتربية الأجيال وإعداد الشباب، فتعلَّم وعَلَّم ونبغ في الفقه، وعلَّم تجويد القرآن الكريم.

ـ توفي رحمه الله في ليلة الاثنين ٢١ رمضان المبارك ١٣٩٤هـ، الموافق ٧ تشرين الأول ١٩٧٤م، بعد أدائه صلاة العشاء والتراويح، وكان آخر كلماته قالها لأخيه وهو يستشيره في قضية: (حكِّم شرع الله في قضيتك). غفر الله له وأدخله فسيح جناته.





في وداع عبدالباسط عباس[١]

بقلم: محمد ملّا غزيل

فلتغمر النفس رَوْحاً نفحة القدس ... ولتمنح الأفق قذحاً لمحة القَبَسِ

وَلْتنطلقْ بالمعاني الغرّ.. مُلهمةً ... شرارة البرق بالبشرى لملتمس

إنا على العهد يا أيام شامخةٌ ... أعلامنا فوق طودٍ راسخ الأسس

تلكم سبيل الهدى تمتد واضحةً ... بيضاء ما زاغ عنها غير ملتبس

كنا جنوداً لها بالحقّ نحرسها ... نعمَ السبيل.. ونعمت قوة الحرس

يحررون بحد السيف أرضهم ... ويمحقون ضلال الغاشم الشرس

ما ودّعوا فارساً إلا تملكهم ... شَوْقُ الشهادة يحدو وارث الفرس

أنعم أخا الحق بالرضوان مرتقبا ... من رحمة الله للأبرار واقتبس

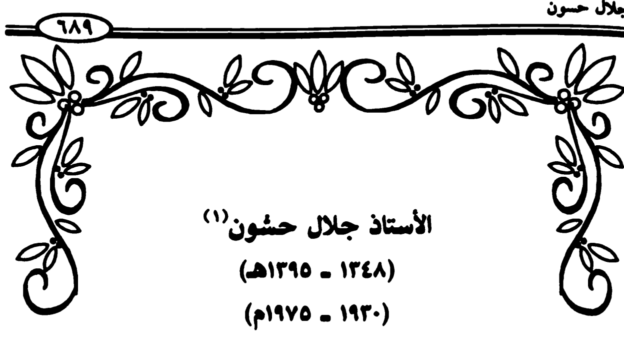
قد كنت عنوان أخلاق مهذبة ... رمز انطلاق بوجه البغي والدنس

لإخوة آمنوا بالعدل واحتشدوا ... يفدون قرآنهم في فتية حمس

يا رب لا تفتنن فتيانُ رايتنا ... وارحمه وارحمهم.. إرحم «أبا أنس»

٢٥ رمضان ١٣٩٤هـ
١١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٤م

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م).



الأستاذ جلال حشون(١)
(١٣٤٨ ـ ١٣٩٥هـ)
(١٩٣٠ ـ ١٩٧٥م)

بقلم: إبراهيم عاصي(٢)

الداعيةُ الصَّادقُ الصَّابرُ:

كان عصراً حزيناً وكئيباً، ذلك العصر الذي شيّعت فيه بلدة (أريحا) في شمالي سورية، ابنها الداعية الصادق الصابر الأخ الأستاذ جلال حسون.. إنه عصر يوم السبت التاسع من شهر ربيع الأول سنة ١٣٩٥هـ، الموافق للثاني والعشرين من آذار سنة ١٩٧٥م.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة السادسة عشرة: (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م).

(٢) الأديب الموهوب القاصّ إبراهيم عاصي، ولد في مدينة جسر الشغور بسورية عام ١٩٣٥ لأبوين رقيقي الحال طيّبي النفس، وكان رَيْحانة أبويه في الوفاء بحقّهما ورعايتهما، وتفوّق في دراسته وتخرّج في دار المعلمين الابتدائية ونال الشهادة الثانوية، والتحق بكلية الآداب، وأنجز خلال سنوات قليلة ستة كتب أدبية، معظمها قصص مفيدة، وهي: (سلّة الرمان ـ حادثة في شارع الحرية ـ ولهان والمتغربون ـ همسة في أذن حواء ـ للأزواج فقط ـ جلسة مفتوحة مع مالك بن نبي)، واعتقل سنة ١٩٧٩ وطال سجنه ونيف على ثلاثين عاماً، وخسرته دوحة الأدب العربي، رحمه الله تعالى، وأجزل ثوابه.

تُوفي رحمه الله في مدينة لندن، حيث كان يتعاطى العلاج من مرض عضال ألمّ به، وسكن في جسمه لمدّة ناهزت خمس سنين.

ولادته ونشاته ودراسته:

ولد الفقيد في بلدة أريحا أوائل الثلاثينات، وبها نشأ وحصّل تعليمه الابتدائي. ثم انتقل إلى مدينة حلب، حيث تابع تعليمه المتوسط فالثانوي في دار المعلمين الابتدائية.

تخرّج في دار المعلمين سنة ١٩٥٤م، وعمل معلماً في بلدته فترةً من الزمن، تابع خلالها دراسته العليا في كلية الحقوق من جامعة دمشق.

ممارسته المحاماة:

ولما أن تخرج في كلية الحقوق ترك التعليم، وأخذ يمارس المحاماة إلى أن كانت سنة ١٩٦٧م، عندها غادر سورية إلى المملكة العربية السعودية بصحبة أسرته، حيث تعاقد للعمل مستشاراً قانونياً في وزارة الدفاع هناك. وبقي هذا عمله إلى أن وافاه الأجل المحتوم في آخر سفرة من سفراته العلاجية الكثيرة إلى مدينة لندن.

رابطة اخوة في الله قوية متينة:

كان أول تعرُّفي على الأخ الفقيد، في بداية دراستنا في دار المعلمين في حلب، ثمَّ تطورت العلاقة من صلة زمالة عادية، إلى صلة أخوة في الله، أخذت تنمو وتزكو مع الأيام، ولم تزدها الزمالة الجامعية ـ على اختلاف الاختصاص ـ والزيارات الوديّة الكثيرة ـ لقُرب بلدينا وتوادد قلبينا ـ لم تزدها إلا قوةً ومتانة، وامتداد جذور وثبات أصل.

ذلك ممّا مكّنني من معرفة أخي الفقيد معرفة لا يدانيني فيها إلا القلة من أحبابه وإخوانه وأصفيائه. وذلك مما يسمح لي أن أتحدث عنه حديث العارفين، وأبكيه بكاء الثاكلين، وأتفجّع عليه تفجُّع مَنْ قصَمَتْه المصيبة، وحطّم جناحه الهول العظيم...

شاب عصامي:

رحمك الله ـ يا أخي جلال ـ شاباً عصامياً، نَهَضَ شامخاً على قدميه يحمل في قلبه نور العقيدة، وفي يده مصباح العلم، وفي لسانه كلمة الحق والصدق، وهو ابن ذلك الأب الأميّ الصّابر المحتسب الذي كتب عليه أن يحصّل لقمته من الصخر، يكسره وينحته ويبنيه. .

ورحمك الله ـ يا أخي جلال ـ فتًى شبّ ونشأ في طاعة الله ورضوانه، يدعو له ويجاهد في سبيله، لا يخاف ولا يخشى سواه، وقد كنتَ واحداً ممّن أُقرُّ لهم ـ أمام الله ـ بالفضل عليّ، إذ صحّحوا إليّ مساري يوم كنتُ يافعاً أقف متردّداً على مفترق الطريق. .

المعلم المربي:

ورحمك الله، مُعلّماً مُربياً، نشّأ تلامذته وأطفاله على حُبّ الله ورسوله، وحُبّ الحقّ والفضيلة، وحُبّ العلم والعرفان. .

المحامي المدافع عن المظلومين:

ورحمك الله محامياً، يدافع عن الشرفاء بشرف، وعن المظلومين بأمانة وحرقة، يعرض عن الباطل والمبطلين، ويتسامى على الصغائر والصّغار من شانئيه، الذين كانوا يكيدون له داخل مهنته إمّا غيرةً وحسداً، وإمّا غلظةً وكثافة إحساس!!.

صبره على البلوى:

ورحمك الله مريضاً، صبرتَ على البلوى خمس سنين بطولها، تعاني من مرض متنقل فتّاك. واجهته بأعصاب باردة كاليقين، وإيمان راسخ كالجبال، ونفس مطمئنة اطمئنان الناسك الساجد في محراب الله.

وإني لأعترف بأني كنت أتضاءل بإيماني جَنْب إيمانك، وكنت أتصاغر بنفسي لدى عِظَم نفسك كلما زرتك في جيئاتك الأخيرة التي تردّدت فيها

إلى أرض الوطن.. وما ذلك إلا لأني كنت أجدني أمام إنسان يواجه الموت البطيء الذي يدبُّ في كيانه دبيب السُّمّ، ويُواجه الألم الفظيع الذي يهدُّ الجبال الراسية، بكلِّ رباطة جأش ورضًا بقضاء الله وثقة بقدره.

حَمْلُهُ مسؤولية الدعوة:

رحمك الله ـ يا أبا محمد ـ من رجل ظلَّ يحمل مسؤولية دعوته ودينه حتى آخر نَفَس من حياته، وقد ابْتُلي فيها ومن أجلها وسُجن غير مرة، فما حَادَ عن الطريق المستقيم، وما التوى له عُنق، وما انكسر له حد، وما طُؤطِىء له رأس..

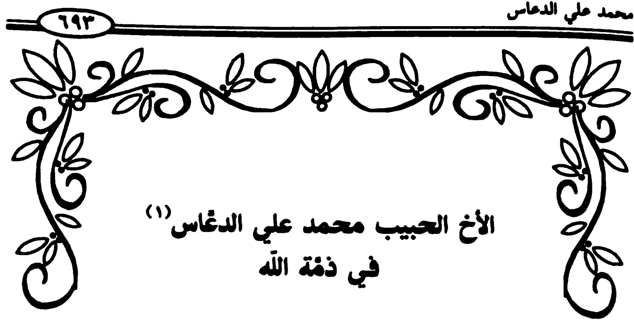
ورحمك الله من داعية كان حادَّ الذهن، سليمَ المحاكمة سديدها، حاضرَ الجواب، دقيق المنطق، طيب النفس، سليم الطويَّة، سمحاً عطوفاً على إخوانه... هذا ما عهدته فيك ولا أُزكّي على الله أحداً.

اللهمَّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده، واغفر لنا وله واحشرنا وإياه في الصالحين والشهداء والصِّدِّيقين..

اللهمَّ أخلفنا منه أخاً براً، ومجاهداً صادقاً، وداعية مخلصاً نيّراً.

اللهمَّ وأسكن رَوْعَ أهله وزوجه وأولاده وإخوانه وذويه، وألهمنا وإيَّاهم الصبر والعزاء، يا رحمٰن الدنيا والآخرة، يا الله.





الأخ الحبيب محمد علي الدعّاس(١) في ذمّة الله

بقلم: الشيخ عبدالنافع الرفاعي

وفاة أستاذ عالم داعية:

لقد مُنِيَتْ مدينة ابن الوليد في مساء الجمعة ٢٧ شوال ١٣٩٥هـ، الموافق ١٣ تشرين الأول ١٩٧٥م، بفقد أستاذ من أساتذتها، وعالم من علمائها، هو الداعية الأستاذ محمد علي دعاس.

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٨ ـ ٧٣].

إنّ القلب ليتقطّر حزناً وحسرة ولوْعة على فقيد الدعوة إلى الله الأستاذ محمد علي دعاس رحمه الله. في العين عَبَرات، وفي النفس زفرات، وفي القلوب رضا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد مات الأخ محمد علي دعاس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا

(١) حضارة الإسلام، العددان التاسع والعاشر، السنة السادسة عشرة: (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٦م).

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، فلله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل.

غاب الكوكب الساطع، وأفل النجم الحبيب، وخفَتَ الصوتُ الجَهْوَري العالي بالحق والدعوة إلى الله.

لقد مات محمد علي دعاس، وإنّ في الديار حنيناً، وفي الصدور أنيناً، وفي العيون عبرات، ولكلّ أجل كتاب ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

القائد العالم:

إن القائد يُبْكىٰ إن فُقد بين القادة. فكيف لا يُبْكىٰ وقد ندر القادة؟! والعالم يُبْكىٰ إذا خلا مكانه، فكيف لا يُبْكىٰ إذا كان فريداً بين أقرانه؟! فالحزن عليك يا أبا أحمد حزن من فقد الأخ الصادق والصديق المخلص، وطالب العلم المُجِدّ، والعالم العامل بعلمه، والأستاذ المربّي، ولا يعني ذلك يأساً ولا قنوطاً، فإنّ نفس المؤمن لا تعرف اليأس والقنوط ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وإنما هي الأمور تُقَدر بقدرها فلا ينكر حق الفقيد الغالي، ولا ييأس من فضل الله وكرمه، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

من جنود الإسلام:

رحمك الله أخاً عزيزاً، وصديقاً حبيباً، وأثابك الله وأعلى في الجنان مقامك، لقد كنتَ جندياً من جنود الإسلام، ومجاهداً بكل معاني الجهاد.

وإنّ ما بيننا من محبة في الله لم تنقطع بهذا الفراق حين سبقتني للقاء ربك، ومن أخوة وثّقها الإيمان والحب في الله، والالتقاء تحت راية الإسلام. وإن لقاءنا غداً إن شاء الله تعالى تحت ظل العرش، وعلى حوض رسول الله ﷺ.

عرفتك منذ زمن بعيد: الأخ الوفيّ المخلص لله ولدعوة الإسلام، وإني لا أنسى - ما حييت - أنني أول ما عرفتك قال أخ لي: (هل لك بمعرفة مَلَك من الملائكة..) فكانت تلك المعرفة الطيبة. ولم يُبالغ إذ قال

ذلك، وأنت أهلٌ لهذا الوصف، ورأيتُ منك ورأى إخوتك وأصدقاؤك جميعاً كل طيب وصدق وإخلاص ووفاء.

حياته مع الناس:

أما حياتك مع الناس فإنني أحمد الله تعالى أن كنتَ من خيرة الناس سيرةً، عُرفتَ بالطيبِ وصدقِ المعاملة.

لقد كنت ابناً باراً بوالديك، وأخاً مخلصاً مع إخوانك، وزوجاً وفياً مع أهلك، وأباً باراً حميماً مع أبنائك، واصلاً لرحمك، متحمّلاً أعباءهم هذا بشهادة والدك وأقربائك وأصدقائك.

حميته وشجاعته:

لقد عَرَفنا فيك نخوة وحميّة وشجاعة فما اسْتُصْرِخت في عمل الخير إلا وكنت في المُقدِّمة، وما انْتُدبت لمعروف إلا ولبّيته. لم تقف في وجهك المِحَن، ولم تؤثّر فيك المصائب المتوالية، وانتقلت من مجال الوظيفة والتدريس إلى مجال العامل المجاهد.

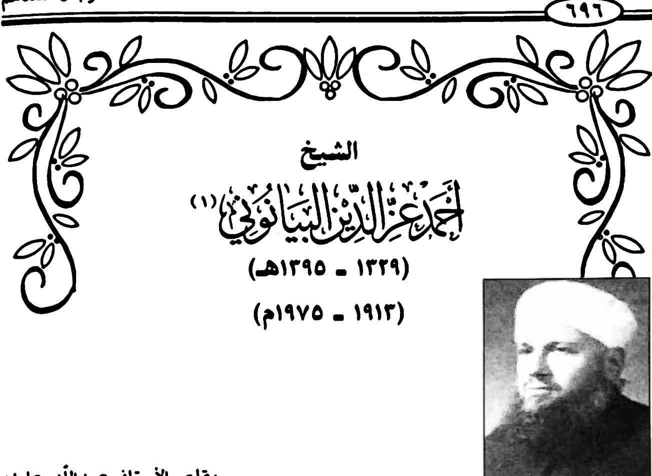
فرحمك الله يا أبا أحمد، رحمك الله، وأعظم في الجنة منزلك.

الاشتراك في المصيبة بفقده:

وأنتم يا آل الفقيد وقرابته وبني عشيرته وإخوته.. لستم أنتم الذين فقدتموه فحسب، ولستم في المصيبة به وحدكم تبكون وتألمون، وليس ابنه وحده هو الذي أصيب باليتم من بعده، وإنما أصيب به المسلمون.. نحن الشباب المؤمن في دنيا الإسلام، نحن الذين فقدناه، فإلينا قدِّموا العزاء، ومنا انتظروا البكاء، وفي قلوبنا فتشوا عن اللوعة والألم، ولنا فاسألوا الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

رحمك الله أبا أحمد في المجاهدين الصّادقين، وحَشرك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصّالحين، والسلام عليك حياً وميتاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الشيخ

أحمد عز الدين البيانوني[١]

(١٣٢٩ - ١٣٩٥هـ)

(١٩١٣ - ١٩٧٥م)

بقلم: الأستاذ عبدالله علوان

لقد فُجِعَتْ حلب الشهباء في الشهر الماضي[٢] بفقد عالم جليل من علمائها، وموت داعية كبير من دعاتها.. إنه فضيلة الشيخ المربِّي أحمد عز الدين البيانوني طيّب الله ثراه، وأسكنه فسيح جناته، وغمره بفيض رحمته ورضوانه. ولا يسعني في هذه المناسبة الأليمة إلا أن أتكلم عن بعض مآثره ومزاياه عسى أنْ أوفّيه بعض حقّه، وأعرّف من لا يعرف بعضاً من فضائله ومكارمه.. ليعلم القريب والبعيد مَنْ هو فقيدنا الراحل؟

امتاز رحمه الله بثلاث مزايا رئيسة قلَّما توجد في عالم شرعي في هذا الزمان:

المزيّة الأولى: الحرصُ التامّ على التزام السنّة والتطبيق.

المزيّة الثانية: الدقّة المتناهية في الإعداد والتكوين.

المزيّة الثالثة: المُجاهَرة بالحق أينما كان.

---

(١) حضارة الإسلام، العددان التاسع والعاشر، السنة السادسة عشرة: (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

(٢) ضحى يوم الجمعة الموافق ١٧ من ذي الحجة ١٣٩٥هـ، الموافق ١٩ من كانون الأول ١٩٧٥م.

المزيّة الأولى: الحرص التام على التزام السنة والتطبيق:

أما الحرص التام على التزام السنة والتطبيق: فكان خلقاً من أخلاقه رحمه الله، فكان يأخذ نفسه وأهله وأولاده بأوامر الشريعة، والعمل بأحكامها اعتقاداً منه أنّ الموعظة لا تترك أثرها في النفوس، ولا تعمل عملها في القلوب إذا لم يكن الواعظ الناصح للإسلام مطبقاً، ولما يدعو إليه متحققاً!!.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

بل يصدق عليه قول القائل:

يا أيها الرجلُ المُعلِّمُ غيرَهُ	هلّا لنفسك كان ذا التعليمُ
لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ	عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وكان رحمه الله لا يفتأ ولا يكلُّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم حيثما كان، وأينما جلس.. بل كان شديد الملاحظة بكل من يلتقي بهم، ويجتمع معهم، فإذا رأى تساهلاً في سنّة أرشد إليها، وإذا أبصر مُقْترفاً لمنكر نهاه عنه، وإذا وجد مُصرّاً على معصية هجره لله، ولو كان أقرب الناس إليه.

وأما أخذه بعزائم الأمور، وفضائل السنن والنوافل، فكان عادة من عاداته، حتى قيل عنه ـ لفرط اهتمامه بالنافلة ـ: إنه من بقايا السلف الصالح.

أما الحجاب الإسلامي الذي أقام عليه أهله وبناته ونساء مَنْ يلوذون به من مُحبيه وتلاميذه، فكان له سِمَتُهُ البارزة، وصفته المتميْزة، مبالغة بالستر، وزيادة بالورع، وتطلعاً إلى الكمال.

هذا غيضٌ من فيض ممّا كان يحرص الفقيد على التزامه، ودعوة الناس إليه، ونصحهم له، وتذكيرهم به..

المزية الثانية: الدقة المتناهية في الإعداد والتكوين:

أما الدقة المتناهية في الإعداد والتكوين، فكان فيها مَضْرب المثل، بل كان ـ رحمه الله ـ يرفض رفضاً باتاً أنصاف الحلول، ومرحليَّة التطبيق في إعداد الفرد المسلم وتهيئته لعضوية جماعة المسلمين إيماناً منه أنه إسلام أو لا إسلام!..

فإن التزم الإسلام، فمعنى هذا أنه استسلم لكلِّ الأوامر والنواهي والنظم والأحكام.. دون أن يجد في نفسه غضاضة ولا حَرَجاً.. مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

أما إذا التزم البعض وترك البعض، فأقل ما يقال عنه: أنه فاسق خارج عن طاعة الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

لهذا كله كانت شروطه على مَنْ يلتزم طريقته، ويدخل في جماعته قاسية وشديدة، فلا يقبل أيَّ إنسان قصَّر في سنة، أو تَغَاضى عن أيِّ حقٍّ من حقوق الله، أو تواجد في مواطن التُهم، أو تَعَاطى المنهي أو المكروه..

وللحقِّ والحقيقة أقول: إنَّ الذين أعدَّهم وربَّاهم فقيدنا الراحل كانوا وما زالوا شامات بين الناس في تقواهم ومظهرهم ومعاملتهم.. ويرجع الفضل كله لمن كان سبباً في إعدادهم وتكوينهم رحمه الله وأعلى منزلته.

المزية الثالثة: المجاهرة بالحق أينما كان:

أما المجاهرة بالحق أينما كان، فكان ـ رحمه الله ـ راسخاً كالجبل في إيمانه وثباته.. بل كان يرفض كل مساومة أو تهديد أو إغراء في سبيل إعلاء كلمة الله والمجاهرة بالحق. ولو أراد الميل إلى الدنيا والجنوح إلى متاعها الفاني وعرضها الزائل.. لجاءته الدنيا بأصفرها وأحمرها وجاهها ومناصبها.. ولكان في مركز اجتماعي مرموق عند مَنْ يشترون الضمائر،

ويُقرّبون الأشخاص.. ولكن آثر رحمه الله الآخرة على الدنيا، وفضّل رضى الله على المنصب والجاه، وأعطى لمن بعده القدوة الصالحة في صلابة الحق، ومنازعة الباطل، والثبات على المبدأ.. بينما الكثير ممن ينتسبون إلى العلم قد انزلقوا أمام بريق المادة، وفتنة الجاه، وباعوا ضمائرهم لمن اتّخذوهم أرباباً وأولياء.. وحسبهم غضب الله ولعنة التاريخ والأجيال إلى يوم يبعثون.

موقف بطولي عظيم:

وما زلت أذكر للفقيد ـ رحمه الله ـ موقفه البطولي العظيم لمّا وقف في يوم من الأيام مُحتجاً على اعتقال عالم مجاهد فاضل[1] أُوذِيَ في الله، فما كان من ذوي الأمر ـ وقتئذ ـ إلا أن سرّحوه من جميع وظائفه، واستقبل هذا التّسريح بابتسامة ورضا، وما وسعه إلا أن قال: «الحمدُ لله على كل حال، إني أعلم أنَّ الله هو المميت وهو الرازق، ولن تموت نفس حتى تستكمل أجلها ورزقها»، وصبر على هذا البلاء سنوات رحمه الله وأجزل مثوبته.

ولو أحصَيْنا مواقفه الجريئة لرأيناها عديدة وعديدة، والذين عرفوه من زملائه وتلاميذه حدّثوا عنها الكثير والكثير..

تلكم أشهر المزايا التي اختصّ بها الفقيد الراحل رحمه الله، وهي ـ لا شك ـ مزايا كريمة، وصفات جليلة.. لو وُجدت في الدعاة إلى الله وأهل العلم اليوم لرأينا الأمة الإسلامية في نصر مُؤزّر، وعزّ دائم، وقوة منيعة..

حاجة العلماء والدعاة إلى التحقُّق بتلك المزايا الكريمة:

فما أجدر العلماء والدعاة إلى الله أن ينهجوا نهج الفقيد، وأن يكونوا على الجادة علماً وعملاً، لتحيا لهم دعوتهم، ويتحقق الإصلاح الفردي

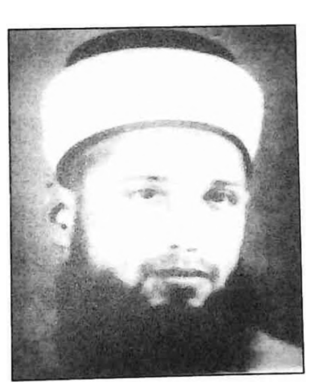
---

(١) هو فضيلة العلامة المحدث الداعية المربّي الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى.

والاجتماعي على أيديهم، وترتفع راية الإسلام في سماء العزة الإسلامية عالية بفضل جهادهم وتضحياتهم.. وما ذلك على الله بعزيز.

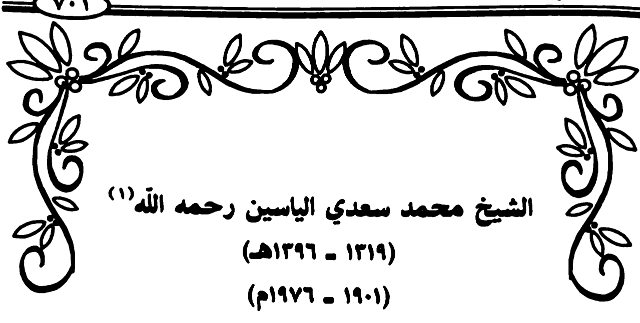
رحمك الله يا أبا علي، وأكثر في العلماء من أمثالك، لقد نصحتَ فأحسنت، ودعوتَ فوفّيت، وصدعتَ فأثّرت، وربّيت فأنتجت..

فسلامٌ عليك يوم وُلدتَ، ويوم فارقتَ، ويوم تُبعث حياً مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين(١).



صورة للشيخ أحمد البيانوني في شبابه

(١) للأخ الكريم الدكتور الشيخ عبدالمجيد البيانوني، ختن الشيخ أحمد البيانوني، دراسة وافية عن عمه، صدرت في سلسلة: «علماء ومفكرون معاصرون» سنة ١٤٢٧ بعنوان: «أحمد عز الدين البيانوني الداعية المربي» في ١٨٠ صفحة. فمن رغب الاستزادة في أخبار الشيخ، والتعريف بمؤلفاته فليرجع إليها، كما أن للأخ الشيخ عبدالمجيد دراسة أخرى بعنوان: «أساليب تربوية ومفاهيم دعوية من حياة الشيخ أحمد عز الدين البيانوني».



الشيخ محمد سعدي الياسين رحمه الله[(١)]

(١٣١٩ ـ ١٣٩٦هـ)

(١٩٠١ ـ ١٩٧٦م)

للأستاذ الشيخ مُسلّم الغنيمي

معرفةُ المترجمَ في جميع مراحل حياته:

نعت إحدى الإذاعات العربية صبيحة يوم الخميس ١٥ ربيع الآخر سنة ١٣٩٦هـ، العالم الجليل، والعلامة النبيل الأستاذ الشيخ محمد سعدي الياسين، وكان النَّعْيُ عند مَنْ لا يعرف الفقيد نبأ عابراً، أمّا من عرفه عن كثب، فكان وقع النبأ عليه كالصاعقة المدمِّرة، لقد هزَّ النبأ الكيان، وعقد اللسان، وهدّ الأركان، وأشدّ ما يكون النبأ هَوْلاً عند من عرفه فتًى وشاباً وكهلاً وشيخاً.

أسلوبه في التربية:

لقد عرفته منذ أكثر من نصف قرن، وذلك عام ١٩٢٢م، وكنت قبل ألازم شيخاً سنة كاملة، لم أحصل بها على شذرة من العلم، بل اطّلعت

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة السابعة عشرة: (١٣٩٦هـ ١٩٧٦م). وينظر: «تاريخ علماء دمشق» (٣: ٣٨١ ـ ٣٨٧) وللمترجم صورة في «الأعلام».

على أمور شاذة، كوَّنت في نفسي عقدة من المتمشيخين، وما أن تعرَّفت على الفقيد المرحوم، حتى شعرت أني كنت في غياهب الظلمات، ظلمة السماكة، والركاكة، والغلاظة والفظاظة، لأني لمست في الفقيد الغالي ما كنت أبتغيه من سهولة في تقرير الدرس، وبَسْط الموضوع، وشرحه بلغة سهلة، وتعبير لطيف، وأمثلة وإيضاح، وحُسْن بيان، أضف إلى ذلك ما كان يتمتع به من روح مرحة، ودعابة بريئة، وكان يُشعر طلابه بأنه أخ لهم لكنه أكبرهم سناً، لا يفرض احترامه على تلاميذه فرضاً، ولا بتبجيله وتكريمه وتعظيمه، وكان هذا الأسلوب في التربية يجعل التقدير والاحترام نابعاً من النفس، صادراً من القلب، لا زيف فيه ولا رياء، ولا مداهنة ولا نفاق.

مكارم الأخلاق:

ولئن صَدَر الحب والاحترام والتقدير من قلوب مريديه وتلامذته ومعارفه، فلأنه كان يتحلى بكلِّ ما يجب على المسلم أن يتحلى به من مكارم الأخلاق، فقد كان رحمه الله، أبيَّ النفس عفيفاً شريفاً شجاعاً كريماً، صُلباً في دينه، مستقيماً، عطوفاً رحيماً، صادقَ الوعد، محافظاً على الود، سريعَ الفهم، غزيرَ العلم، جَهْوريَ الصوت، رقيق النغمة، إذا رأيته على المنبر يخطب ـ وكان خطيب مسجد أبي بكر في بيروت ـ تقول: إنه منذر جيش يقول: صبَّحكم مسَّاكم، بفصاحة لسان وبلاغة وبيان.

لا يملُّ جليسه مجالسته، وحُسن مؤانسته، لطيف النكتة، حاضر البديهة يروي الأشعار، ويسرد الأخبار، يقلِّد اللهجات، حتى لكأنك تشعر عندما يتكلم بلهجة، سواء كانت بدوية بكل أشكالها أو حضرية بتعدُّد ألوانها، كأنه من أهلها.

لا تظن ـ يا أخي الحبيب ـ أني أبالغ في وصفه؛ لأنَّ حُبَّه سكن فؤادي منذ نعومة أظفاري، بل يشهد لذلك كل مَنْ خالطه وعاشره، وما أكثرهم، وهم لا يزالون على قيد الحياة.

أسرة كريمة:

وهذا ليس غريباً على من نشأ من أسرة كريمة عريقة الحسب، زكية النسب. (آل ياسين) إحدى أسر دمشق، ومن خيرة عائلات الميدان الذين توارثوا مكارم الأخلاق كابراً عن كابر، ولئن سَرَى الخلق الكريم في دمه بالوراثة، لقد بزَّ قومه بجدِّه واجتهاده، حتى أصبح علامةً يشار إليه بالبنان، وقلَّ نظيره بين العلماء، لأنه يطبق ما يستحسن من علم وفهم وخلق قويم على نفسه أولاً، ثم يأخذ به إخوانه ومريديه ثانياً، فكان رحمه الله مرشداً بفعله قبل قوله.

تربيته جيلاً يفهم حقيقة الإسلام ويلتزم تعاليمه:

رأى ما عليه المسلمون، والعلماء الجامدون ـ علماء الرسوم ـ فأحبَّ أن يكوِّن جيلاً يفهم حقيقة الإسلام، ويلتزم بتعاليم كاملة، لعلمه أنّ ما أصاب المسلمين من تأخر عن ركب الحضارة الإنسانية كان بجهلهم سيرة السلف بعامة، وسيرة الدعوة التي جاء بها منقذ الإنسانية ـ المتدهورة في حضيض الشهوات والأهواء ـ فكان يعمل على رفع مستواها، ويصعد بها إلى سماء العزَّة والكرامة، ويخرجها من ظلمات الجهل والجاهلية إلى نور الإسلام، ويُحرِّرها من عبادة الطاغوت بكل أشكاله، طاغوت الشيطان وطاغوت الإنسان؛ ويقودها إلى فردوس السعادة، عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

سلوك طريق السلف الصالح:

كان يرى رحمه الله أنّ أقصر طريق لما يهدف إليه، وهو الخروج من ظلمات تخبط فيها العالم الإسلامي بضعة قرون، هو الطريق المستقيم الذي سلكه السلف الصالح، وكان مما حفظناه منه ورويناه عنه: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فكان سلفيَّ العقيدة، يتحرَّى ما كان عليه السلف في عقيدتهم وعبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، ينهج نهجهم ويسيرُ على قدمهم، لا يُؤْثر قول أحد على ما صحّ من قول رسول الله ﷺ أو ما

كان عليه أصحابه الكرام، يُؤيّد كل ما يعمل به أو يدعو إليه بالدليل القاطع من كتاب الله عزَّ وجل وسنة نبيّه الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

خطَّاطٌ شاعرٌ:

كان رحمه الله مرهف الحسّ، ذوّاقاً، مرحاً، وهبه الله صوتاً جميلاً عَذْباً، كانت له أنامل لطيفة إذا امتطاها اليراع سال من شباته الأري الشاري، والسمّ الزعاف بخط جميل منوَّع، كالرقعي والثلث والفارسي والديواني الخ، أخذ ذلك عن صديقه المرحوم الأستاذ بدوي الديراني أشهر خطَّاطيّ زمانه.

كان يُحسن نَظْم الشعر، إذا نظم يعبّر عن خلجات قلبه، وأعماق أحاسيسه، له رهافة حس الشاعر وجرأته.

مسرحية تاريخية في مدرسة المقاصد الخيرية:

وهذه حادثة طريفة جرت له في بيروت زمن الاستعمار الفرنسي، وكان رحمه الله وقتئذ معلماً في مدارس المقاصد الخيرية.

أرادت إدارة المدرسة أن تقيم حفلاً تبين فيه أمجاد العرب وحضارتهم وما كانوا فيه من عزٍّ شامخ ومجد رفيع، وكان الناس آنذاك لا يزالون مفتونين بـ (الدعاوى الإقليمية) العرب لعروبتهم، والأكراد لكرديتهم و....و...و.. وكلٌ حزب بما لديهم فرحون، وله يعملون، وكان من آثار هذه الدعوة التي حطَّمت صرح الإسلام الشامخ العتيد ما يعانيه ـ اليوم ـ المسلمون من تمزيق أوصال، وشتات أمر، كانت هذه الدعوة أخطر قنبلة ألقاها الاستعمار على الإسلام حتى خرجوا من دينهم، واتخذوا الإقليميات لهم ديناً، والمذاهب المستوردة مذهباً.

موقف هارون الرشيد من ملك الروم:

قلت: عهدت إدارة المدرسة لفقيدنا العظيم بأن يُعدّ تمثيلية تكشف النقاب عمّا كان للعرب من حضارة ومَجْد وعز، فاختار من التاريخ ما حدث لهارون الرشيد مع بيفور ملك الروم عندما استلم زمام الملك ـ من سلفه ـ وكانت امرأة تدفع لهارون الرشيد مبلغاً من المال بموجب معاهدة صلح بينها

وبين الرشيد، فكتب بيفور إلى هارون الرشيد: «من بيفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك المسلمين: أما بعد: إن من كانت قبلي امرأة ضعيفة، وكانت تدفع لك أتاوة سنوية، فاحسب ما أخذت منها، ثم أعده إلينا»؛ فأجابه هارون الرشيد: «من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى (كلب) الروم بيفور، الجواب ما تراه لا ما تقرؤه».

ثم جهّز جيشاً وغزا بلاد الروم، فحدث أن نزل الجيش بمكان قريب من جيش الروم، فذهب غلام من جيش المسلمين مع عبد له يحتطب، فمرّت مَفْرزة من جيش الروم، وأسرت الغلام والعبد، ثم أخذوا يهددونهما ويسألونهما عن جيش المسلمين وعددهم وعدتهم..، فقال الغلام: والله لولا خوفي من هذا العبد أن يشي بي إلى قومي لأخبرتكم بما تريدون، فقام أحد أفراد العدو وضرب عُنق العبد، ثم قال للغلام: هيه ما عندك يا شاطر، فقال الغلام: الآن اطمأننت، كنت أخشى أن يبوح العبد بما تريدون، فقلت ما قلت لتقتلوه، أما الآن ولم يبق غيري فلا يمكن أن تفرحوا مني بكلمة تتعلق بجيش المسلمين.

وبينما هم في الحوار مع الغلام كانت مفرزة من جيش المسلمين تبحث عن الغلام، فلمّا التقت المفرزتان، ركنت مفرزة الروم إلى الفرار وولّت الأدبار تاركة الغلام، ولمّا سألوه عن العبد أخبرهم بما كان، قالوا له: لِمَ لمْ تُخبرهم بما يريدون خوفاً على نفسك من الهلاك؟ قال الغلام: الموت لا بدّ منه سواء أأخبرتهم أم لم أخبرهم، وكيف أشي بكم وأخون الله ورسوله والمؤمنين، فالعرب قومي وحب العرب إيماني.

العربُ قومي وحبُّ العرب إيماني ... لا فرق ما بين قحطان وعدنان
العربُ قوم أبي بكر وصاحبه ... ورَهْط حَيْدرة ثم ابن عفان
يا أمّةً فرّ كسرى من فيالقها ... وغادر العرش يبكي حُسْن إيوان
قف سائل الكون عنهم أرضه وسما ... واسْتَنْبِئ الخلق من إنس ومن جان
أهَلْ سمعتم بمثل العرب في كرم ... وفي وفاء وجود ثم إحسان
إن غالبوا غلبوا أو قاتلوا انتصروا ... أو ناظروا فلجوا عرفان عرفان

كلب الروم:

فلما عُرض النص على إدارة المدرسة أُعجبت به، ولكن رغبت إليه أن يستبدل كلمة (كلب الروم) بـ (ملك الروم) لأن الظروف الحاضرة لا تسمح بذلك، فالمستعمر أحمق، ولربما حدث لنا إشكال بسبب هذه الكلمة؛ فحاول إقناع إدارة المدرسة بأن هذا نصٌ تاريخي لا يمكن تغييره، فلم تقنع وأصرّت على رأيها، فوافق على ذلك، وقد أضمر في نفسه سراً، وكان الذي يمثّل دور هارون الرشيد أحد أخوته، فلما خلا به قال له: عند تمثيل البروفات لا بأس أن تقول: ملك الروم. ولكن - والله ثم والله - عند تمثيل الرواية يوم الحفل إن لم تقل: كلب الروم، لأعذبنّك عذاباً شديداً، أنت قل: كلب الروم، والعُهْدَةُ عليّ لا عليك.

فلما كان يوم الاحتفال، وقد حضر نائب المندوب السامي، وأعضاء البعثة الفرنسية، وكبار الهيئات السياسيّة والدبلوماسية، ورئيس وزراء لبنان، وكان يومئذ - رياض الصُلح رحمه الله - والوزراء وأعيان بيروت، ورفعت الستارة، ومُثّلت الرواية أروع تمثيل، ثم جاء دور هارون الرشيد للردّ على بيفور، قال هارون الرشيد لكاتبه: اكتب: من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى كلب الروم بيفور، الجواب ما تراه لا ما تقرؤه.

وما أن انتهى جواب هارون الرشيد، حتى رجّت القاعة بالتصفيق ممّا أرغم الرجال الأجانب من الفرنسيين وغيرهم على التصفيق. وكان هذا المشهد محور التمثيلية.

جراة إيمانية:

وفي اليوم التالي استدعاه رئيس الوزراء، وهنّأه على هذا الإخراج الجيد، والجُرأة النادرة، ويومئذ توثّقت عُرى الصداقة بينهما، وقد نشرت صحف لبنان خبر هذا الاحتفال بالخط العريض، وعلّقت على ما تحلّت به شخصية هارون الرشيد من جرأة منقطعة النظير.

أرأيت - يا أخي الكريم - هذه الجرأة الإيمانية في مثل هذا الموقف بهذا البلد.

كلب الروم:

فلما عُرض النص على إدارة المدرسة أعجبت به، ولكن رغبت إليه أن يستبدل كلمة (كلب الروم) بـ (ملك الروم) لأن الظروف الحاضرة لا تسمح بذلك، فالمستعمر أحمق، ولربما حدث لنا إشكال بسبب هذه الكلمة؛ فحاول إقناع إدارة المدرسة بأن هذا نصٌّ تاريخي لا يمكن تغييره، فلم تقنع وأصرَّت على رأيها، فوافق على ذلك، وقد أضمر في نفسه سراً، وكان الذي يمثّل دور هارون الرشيد أحد أخوته، فلما خلا به قال له: عند تمثيل البروفات لا بأس أن تقول: ملك الروم. ولكن ـ والله ثم والله ـ عند تمثيل الرواية يوم الحفل إن لم تقل: كلب الروم، لأعذبنّك عذاباً شديداً، أنت قل: كلب الروم، والعُهْدَةُ عليَّ لا عليك.

فلما كان يوم الاحتفال، وقد حضر نائب المندوب السامي، وأعضاء البعثة الفرنسية، وكبار الهيئات السياسيّة والدبلوماسية، ورئيس وزراء لبنان، وكان يومئذ ـ رياض الصُلح رحمه الله ـ والوزراء وأعيان بيروت، ورفعت الستارة، ومُثّلت الرواية أروع تمثيل، ثم جاء دور هارون الرشيد للردّ على بيفور، قال هارون الرشيد لكاتبه: اكتب: من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى كلب الروم بيفور، الجواب ما تراه لا ما تقرؤه.

وما أن انتهى جواب هارون الرشيد، حتى رجُت القاعة بالتصفيق ممّا أرغم الرجال الأجانب من الفرنسيين وغيرهم على التصفيق. وكان هذا المشهد محور التمثيلية.

جراة إيمانية:

وفي اليوم التالي استدعاه رئيس الوزراء، وهنّأه على هذا الإخراج الجيد، والجُرأة النادرة، ويومئذ توثّقت عُرى الصداقة بينهما، وقد نشرت صحف لبنان خبر هذا الاحتفال بالخط العريض، وعلّقت على ما تحلّت به شخصية هارون الرشيد من جرأة منقطعة النظير.

أرأيت ـ يا أخي الكريم ـ هذه الجرأة الإيمانية في مثل هذا الموقف بهذا البلد.

عنايته بالشباب المؤمن وأثره في توجيههم:

لم يقتصر على دروسه في كلية المقاصد فحسب، بل كان يجمع حوله نخبة من الشباب المؤمن، ويكوّن منهم حلقات يعلّمهم القرآن والحديث والتفسير والفقه وأصوله ومصطلح الحديث والأدب وفنونه.

كان يحرص على أن يكون التوجيه الصالح منذ البداية، لأنَّ من شَبَّ على شيء شاب عليه. وهذا ما لمسته بنفسي لأنه بدأ بتوجيهي وأنا غضّ الإهاب قبل المراهقة وسنّ الشباب.

اعترافٌ بالفضل لأهله:

ولا تزال تعليماته وتوجيهاته ممزوجة بدمي ولحمي - وقد شارفتُ على السبعين - فما كان لديَّ من خصال حميدة وأخلاق رشيدة، فالفضل يعود إليه، فأنا حَسَنةٌ من حسناته، وما أكثرها في المسلمين، وقد تعهَّد هذه البذور الطيبة التي زرعها في نفسي الفقيد الغالي، أستاذنا الكبير علامة الشام الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار فسقاها من مَعين خلقه الكريم، ورؤاها من علمه الغزير، حتى أصبحت كما أنا عليه الآن، فما بي من خير وفضل وعلم، فالفضل يعود إليهما، وما سوى ذلك من نقص وعيب فمني ومن الشيطان.

رحم الله أستاذي الكريم الشيخ محمد سعدي الياسين رحمة لا تنقطع ما دام المسلمون ينتفعون بعلمه وتآليفه، وألهم ولديه وآله السكينة والسلوان، وبي - واللهِ - من الحُرْقة على هذه الفرقة ما قاله الشاعر:

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عينايَ حتى تأذنا بذهابِ
لم يبلغ المعشار من حقَّيهما ... فَقْد الشباب وفرقة الأحبابِ

وأفضل ما يقوله المصابون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

□□□□□

الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله[1]

(١٣١١ ـ ١٣٩٦هـ)

(١٨٩٤ ـ ١٩٧٦م)

للشيخ مُسَلَّم الغنيمي

نعيُ العلامة محمد بهجة البيطار:

نعت رابطة العالم الإسلامي، ورابطة علماء دمشق، ومجمع اللغة العربية بدمشق، فقيد الإسلام والمسلمين بل والإنسانية كلها علامة الشام الشيخ الجليل: محمد بهجة البيطار الذي استأثر الله به ضحوة يوم السبت الواقع ٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٦هـ، الموافق ٢٩ أيار سنة ١٩٧٦م.

تشييعه وجنازته:

وشُيّع من داره في الميدان، وصُليَ عليه في مسجد كريم الدين ـ الشهير بـ (الدقاق) ـ والذي أمضى فيه ستين عاماً من عمره إماماً وخطيباً ومدرّساً وداعياً إلى الله، وكان هدفه تغمّده الله برحمته إيقاظ المسلمين من سُباتهم، شارحاً لهم واقعهم المُؤلم المظلم، وشاداً لهم إلى الطريق السوي، وذلك بالسير على طريق رسول الله ﷺ، منقذ الإنسانية، حاثاً لهم على

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة السابعة عشرة: (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م).

العمل بكتاب الله عزَّ وجل وسنة نبيه العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، قولاً وعملاً.

كانت الجنازة تسير الهوينىٰ محمولة على أعناق الرجال بمهابة وجلال، وكنت أردد بيتاً من قصيدة قيلت في رثاء عبدالحميد الكاتب:

لَيتَ شعري هل دَرَى حامِلوه ما على النَّعش من وفاء وجود

صدّ وإعراض ومُحَارَبة ثم إقبال ومحبة واعتزاز:

وعدت بالذاكرة خمسين سنة، يوم كان يختار لنا أستاذي الأول الشيخ محمد سعدي الياسين رحمه الله من الشعر أرقاه، ومن النثر أغلاه، وكان الشيخ محمد سعدي وقتذاك يتتلمذ على فقيد الإنسانية الشيخ محمد بهجة البيطار، وكيف حاول أوليائي أن يفصلوني عن الأستاذ الشيخ سعدي لأنه يتردّد على الشيخ محمد بهجة، فأنا بقراءتي على أستاذ يتردّد على الشيخ محمد بهجة أسيء إلى سمعة عائلتي (آل الغنيمي)، وكيف أصبح الحال اليوم من أنَّ مَنْ تتلمذ عليه يعدُّ ذلك مفخرة واعتزازاً، فقد تتلمذ عليه الملوك والأمراء والرؤساء والوزراء والدكاترة وأساتذة الجامعات، ولم يكن هذا الفارق العظيم بين الماضي المظلم المُتدثِّر برداء العلم، والحاضر المشرق بنور العلم والعرفان إلا بسبب جهاده ونضاله وصبره على أذى المغرضين والحاسدين من المتمشيخين الجَهَلة، وسار بالدعوة إلى الله على المنهاج الذي رسمه رب العالمين لسيد المرسلين ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾. فكانت النتيجة واحدة، صدّ وإعراض ومحاربة في أول الأمر، ثم دخول الناس في دين الله أفواجاً.

كثرة مُشيِّعيه:

شيَّعه الوزراء والعلماء والأغنياء والفقراء، شيَّعوه بقلوبهم لا بالسير وراء نعشه، شيّعه الوزراء اعترافاً بفضله ونُبله وترفّعه عن طمع المتستِّرين بأثواب العلماء، وشيَّعه العلماء لأنه لم يُزاحم أحداً منهم على وظيفته، وشيَّعه الأغنياء لزهده عما في أيديهم، وشيَّعه الفقراء لأن جلَّ مُرتّبه كان

لهم، ومن حقّهم، كان ينفق سراً وعلانية، علانيةً ليكون قدوة للموسرين، وسراً إرضاء لرب العالمين، شيّعه ممثّلون عن الجمعيات الإسلامية، ورابطة العلماء، وأعضاء مجمع اللغة العربية، وجمهور غفير من سائر أنحاء دمشق.

تعداد مآثره وذكر مناقبه:

وما أن توارى الجبل الأشمّ والبحر الخضمّ، في لحده حتى علا جدار المقبرة الخطباء يمثّلون الهيئات التي ينتسبون إليها، فخطيب يمثّل العلماء، وخطيب يُمثّل أساتذة الجامعة، وآخر يُمثّل الجمعيات الدينية، وغيره يمثّل الجمعيات الخيرية، وسواه يمثّل القرّاء، يعدّدون مآثره ويذكرون مناقبه، ولكنهم جميعاً لم يذكروا سوى شذرة من سيرته، وخليج من بحر فضله، لأنهم عرفوا شيئاً وغابت عنهم أشياء.

ولئن فاتني شرف الاعتراف بفضله أسوةً بالخطباء لمرضي وشدّة حزني، فلي أسوة بأنجاله الكرام الدكتور يَسَار، والأساتذة عاصم وعبدالعزيز، أرجو أن لا يفوتني تسجيل بعض مآثره ومفاخره ممّا لمسته منه، وشاهدته طيلةَ خمسين عاماً لزمته فيها مما لم يطّلع عليه أحد غيري.

شهد له الخطباء، وبعضهم ممّن كان يناوئه في حياته أنه اجتمعت فيه من خصال الخير والخُلق الحسن ما يندر بعضه لدى الكثير من العظماء، وسأذكر بعضها بغير تخيُّر، ولكن ممّا يفيض به الخاطر على جري القلم.

زهده في المال ومحافظته على الصداقة:

حضر لدمشق من الحجاز ١٩٣١م، بطلبٍ من وزير المعارف الأستاذ محمد كرد علي لتعيينه معلماً في مدارس دمشق، فاستأذن الملك عبدالعزيز بن سعود رحمه الله لزيارة دمشق فأذن له، ولما حَضَر كانت الحكومة الفرنسية أقالت الوزارة، وحلَّ محل الأستاذ كرد علي غيره فلم يتحقق الأمل بتعيينه فظلَّ بلا عمل شهوراً، وكان صرف ما لديه من مال بشراء داره جانب جامع الزيتونة بالاشتراك مع حرمه، وكنت آنذاك معلماً عند المسيو (موريس) في المهاجرين، وكان صديقاً لأستاذنا الفقيد، فاتّفقا على أن يستبدلا هذه المدرسة الابتدائية بمدرسة ثانوية بمعاونة الأستاذ المرحوم عز الدين علم الدين التنوخي عضو المجمع العلمي، والأستاذ

تيسير ظبيان رئيس تحرير جريدة الشرق الأردنية الآن، وكان الجميع يعوزهم المال لتأسيس هذه المدرسة، فكان من الأستاذ (موريس) المقاعد والطاولات والكراسي والسبورات، واتفق الثلاثة، الأستاذ الفقيد، والأستاذ عز الدين، والأستاذ تيسير على أن يدفع كل واحد منهم خمس عشرة ليرة عثمانية ذهباً، وكانت هي العملة المتداولة آنذاك ـ رحمهما الله ـ ويدفع المبلغ كله الأستاذ الفقيد على أن يقتطع بعضه مُشَاهَرَة.

ثم استأجروا داراً في جادّة (شورى)، ونقلوا لها المقاعد والأثاث، وكان في المدرسة الابتدائية في المهاجرين مئة وستون طالباً وطالبة في مدرستين متجاورتين منفصلتين، ولما انتقلنا إلى المدرسة الجديدة في جادّة (شورى) لم يحضر سوى بضعة عشر طالباً وأربع طالبات، وفي أقل من شهر مات المشروع وتعيَّن الأستاذ عز الدين في المعارف، وسافر الأستاذ تيسير إلى الأردن، وعاد شيخنا رحمه الله إلى داره، وعاد الأستاذ (موريس) إلى مدرسته الأولى التي هي داره، وبعد سنة كنت أَسَّست مدرسة خاصّة، سألته رحمه الله: ما فعل الله بالدراهم التي أقرضتها للأستاذ عز الدين والأستاذ تيسير؟ قال: يا بني المشروع أجهض ولمّا يتم، فإذا خسرت المال هل أخسر صديق العمر الأستاذ عز الدين وتلميذ الصِّبا الأستاذ تيسير، فهذا أخي وهذا ابني، فهل تظنُّ يا بني أنَّ خسارة الأصدقاء تُعوّض بمال الدنيا، المال يا بني وسيلة لا غاية، ثم رفع يديه وقال: اللهمَّ اشهد أني سامحتهما، اللهمّ اجعل المال بين أيدينا ولا تجعله في قلوبنا.

حرصه على الدرس وأسلوبه في عتاب طلابه:

كنت وابن عمّه الشيخ نعيم نقرأ عليه «معيار العلم» لحُجّة الإسلام الغزالي بعد صلاة الفجر في جامع الدقاق، ووافق في يوم من أيام الشتاء أن تأخر الشيخ نعيم عن صلاة الفجر في الجامع، وحضر الشيخ رحمه الله فوجد الغرفة مغلقة، فخطر له أن يحضر لمسجدي في الساحة، فلما وصل وجد بعض المصلين تحت الرواق، ولما سألهم عني، قالوا: لم يخرج اليوم لصلاة الفجر، فعاد إلى منزله والمطر يهطل، ثم قبيل شروق الشمس،

ذهبتُ مسرعاً فوجدت الشيخ نعيم قد حضر تواً، فانتظرنا حتى طلعت الشمس، ولمّا لم يحضر الشيخ قلنا: لنذهب إليه في الدار لنريه كيف أننا نحرص على الدرس، ولما وصلنا إلى منزله خرج إلينا هاشّاً باشّاً مُرحّباً، فدخلنا باعتزاز نتباهى بحرصنا على الدرس، فلمّا استقرّ بنا المقام اعتذر عن تأخُر الوقت، ورغب إلينا أن نستبدل الدرس بفطور، فوافقنا على أن لا يتكرر مثل هذا الإهمال، ولما حضر الطعام اعتذر بأنه تناول فطوره مع العائلة، فجلسنا نأكل وحدنا، فقال رحمه الله: لا بدّ مع الطعام أن يكون كلام، فلكم الطعام هنيئاً مريئاً وعليّ الكلام تسليةً لكما ولفتح الشهية.

قصة محمد الخضر حسين مع الطلبة المتاخرين عن حضور مجالس العلم:

ثم قال: كنا نقرأ على المرحوم السيد الخضر حسين التونسي (المستصفى) للغزالي وصحيح مسلم، وكان منزله جانب الجامع في باب السريجة، فإذا فرغ من صلاة الفجر، ورأى بعض الطلاب جلس للدرس، وإنْ لم يرَ أحداً دخل منزله ولم يخرج، فوافق أن حضرت مرة أنا والشيخ حامد التقي والشيخ مصطفى الحلاق، فوجدناه قد ذهب لداره، فقلنا: نطرق عليه الباب ونعتذر عن تأخرنا، فطرقنا عليه الباب، فأطلّ من غرفة فوق الباب، فلمّا رآنا قال: انتظروا، ثم دخل فظننا أنه نزل يفتح الباب، فلم نشعر إلا وسطل من الماء الباردَ يَنْصَبُّ علينا من النافذة التي أطلّ منها، وقال: هذا جزاء من يتأخر عن الدرس، فذهبنا مخجولين والماء يقطر من جبيننا، ثم ابتسم، فظننا أنه يبتسم لمنظره والماء يقطر منه.

ثم استطرد قائلاً: أنا اليوم ذهبت باكراً إلى الجامع، فوجدت الغرفة مغلقة. ثم ذهبت لعند الشيخ مسلم فأخبرني بعض من في المسجد أنه لم يخرج اليوم لصلاة الفجر، فعدت إلى المنزل والماء يقطر مني، فهذا عذري لعدم أكلي معكما، ثم سكت، وقد أغضى حياءً لهذا العتاب الخفيف والتوجيه اللطيف، فقلت بعد أن جفّ حلقي ويبست اللقمة في فمي: لئن كان الأستاذ السيد الخضر حسين ألقى عليكم سطلاً من الماء البارد، فقد سكبت علينا

بعتابك هذا حُلة، لا من الماء الساخن، بل من القطران المَغْلي، ونحن ـ والله ـ نستحق الصفع بالقبقاب، لا تعريضاً بمثل هذا العتاب.

موقفه ممَّن يناوئه ويعاديه:

هناك شيخ نَصَّب من نفسه للرد على السلفية والسلفيين برسائل تحوي الكثير من الذمّ والقدح ونَبْذ الألقاب، زاره هذا الشيخ مرة ومعه رسائل من هذا النمط، وقدَّمها إليه بكل بساطة، فتقبّلها شاكراً مُثْنياً، ودفع له بعض المال مُؤازرةً لأنه يُوزِّعها مجاناً، ثم أكرمه بطعام وشراب، وخرج معه واستأجر له سيارة ودفع له أجرتها، وأوصى السائق أن يوصله للمكان الذي يريد.

وكان يزوره بعض الشيوخ ممَّن يخالفونه في رأيه (السلفية)، فإذا خرج من منزله ورآه بعض الناس، يقول متعجباً: ماذا تفعل هنا؟ ألست كنت تذمه بالأمس، يجيب الشيخ: كنت عنده أهديه سواء السبيل، وحوادث من هذا النمط أكثر من أن نذكر.

رفقه بالموعظة وحُسْن أسلوبه فيها:

أقامت الحكومة السورية حفلاً بالجامعة السورية بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني ـ رحمه الله ـ وكان يوم ذاك ابنه الشيخ تاج الدين رئيساً للحكومة السورية، وحضر الحفل العلماء والوزراء ورئيس الوزراء، ورئيس الجمهورية، وعددٌ من سفراء الدول العربية والإسلامية، وممثِّلون عن الطوائف المسيحية، وكان فقيدنا الغالي أحد الخطباء فلما علا المنبر أخذ يُعَدِّد مناقب الشيخ بدر الدين ومزاياه وعلمه وفضله وجرأته بالدعوة إلى الله والنصيحة في دين الله، كانت هيئة الحكومة مع المدعوين خلف الخطيب على المسرح، وفجأة التفت الشيخ رحمه الله نحو هيئة الحكومة، وقال: كان شيخنا الشيخ بدر الدين رحمه الله إذا حضر حفلاً مثل هذا وقليلاً ما كان يحضر، أو زاره رئيس أو كبير مسؤول يقول لهم بكل جرأة وفصاحة:

أيها الرؤساء، أيها الوزراء والأمراء، أيها الأغنياء: أنتم خلفاء الله[1]

---

(١) في هذا التعبير نظر لا يخفى.

في أرضه على عباده، ووكلاء عنه في ماله، فانظروا ماذا تقولون في خلافتكم، وماذا تتصرَّفون فيما وكلتم به، فإن أحسنتم في خلافتكم وأدّيتم الأمانة فيما اؤتمنتم عليه فنظرتم إلى الكبير نظرتكم إلى الآباء، وإلى الصغير نظرتكم إلى الأبناء، وعاملتم الفقراء بالإحسان وأداء الحقوق، وعدلتم في الرعية، وقسمتم بالسويّة، ولم تجعلوا رقاب العباد لكم مطيّة إلى أغراضكم الدنيئة، جعلكم مع عباده الأبرار في جنات تجري من تحتها الأنهار، مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً، وإن انحرفتم عن الطريق السوي وائتمرتم بأمر الشيطان القوي، ومن مناصبكم مطايا لشهواتكم وأغراضكم، أدخلكم ناراً وقودها الناس والحجارة في يوم شديد، يوم يقال لجهنم: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد. . . واسترسل في نصائح تفوق الدر والجوهر، عند من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم عاد إلى وصفه الأول، والتفت نحو الجمهور، وقال: هكذا كان شيخنا الشيخ بدر الدين يقول تغمَّده الله برحمته وأدخله فسيح جنته.

ذكريات خمسين سنة:

وأخيراً لا يسعني في هذه العجالة أن أذكر ذكريات خمسين سنة قضيتُها في ملازمته، ورُوِيت من علمه، ورأيتُ من حِلْمِه وكرمه وأدبه ولطفه وعطفه وزهده وصَلابة دينه وأصالة خُلقه ورقة قلبه وحنانه ومحاسبة نفسه ومؤانسته وبشاشة وجهه وطلاقة لسانه وفصاحته وبيانه، إلى آخر الجدول من مكارم الأخلاق، فقد تجسَّدت فيه مكارم الأخلاق حتى كانت روحاً وخُلقاً أكثر منها جسداً وخَلْقاً.

ولكن أملنا كبير في أن يقيم المجمع اللغوي العربي بدمشق الذي كان عضواً فيه حفلة تأبين، فهو أجدر من سواه بمثل هذا التكريم، ولعله أقدمُ عضوٍ فيه منذ تأسيسه.

* * *

موجز عن حياته العلمية والعملية

١ ـ ولد بدمشق ثاني يوم من رمضان عام ١٣١١هـ.

٢ ـ كانت دراسته الابتدائية في المدرسة الريحانية، والثانوية في الكاملية، واللغة الفرنسية في العازارية، وأجادها على يد المسيو موريس.

٣ ـ تلقَّى علومه العربية والدينية والعقلية على والده الشيخ بهاء، وعلى عالمي الشام: جده الشيخ عبدالرزاق البيطار، والشيخ جمال القاسمي، وعلى المحدث الشيخ بدر الدين الحسني، وعلى العلامة الجليل الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، وهو خاتمة شيوخه، وله في ذلك أبيات:

يا سائلي عن درس ربِّ الفضل مولانا الإمام
ابن الحسين التونسي محمد الخضر الهمام
سَلْ عنه مستصفى الأصول لليث معترك الزحام
أعني الغزالي الحكيم رئيس أعلام الكلام
وكذاك في فنِّ الخلاف بداية العالي المقام
أعني ابن رشد مَنْ غدا بطل الفلاسفة العظام
وكذلك المغني إلى شيخ النحاة ابن الهشام
وكذا صحيح أبي حسين مسلم حَبْر الأنام
وكذا كتاب أبي يزيد بن المبرد في الختام

وظائفه وأعماله:

١ ـ انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٣٤٠هـ.

٢ ـ انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في بغداد عام ١٩٥٤م.

٣ ـ علّم في مدارس دمشق الخاصّة والرسمية الثانوية، وفي الحجاز مديراً للمعهد العلمي السعودي، وعضواً بمحكمة مكة الشرعية الكبرى،

ونائباً لرئيس هيئة المراقبة القضائية، ومفتشاً للعلوم الدينية، ومدرساً للتوحيد والتربية العلمية.

٤ - خدم في القضاء تطوُعاً، ثم عاد لدمشق سنة ١٣٥٠هـ، فوجد أعماله مُوزَّعة، وفقد من أعوام التقاعد أكثر من عشر سنين.

٥ - دعته جمعية المقاصد في بيروت للتدريس في كليتي البنين والبنات، وانتدبته وزارة معارف الشام لتدريس علوم الدين في تجهيز البنات بدمشق، فجمع بين بيروت ودمشق في أسبوع واحد يغادر دمشق أصيل يوم الجمعة إلى بيروت ثم يعود مساء الثلاثاء من كل أسبوع.

٦ - عُيِّن مدرساً للعلوم الدينية في تجهيز دمشق للبنين والبنات.

٧ - ومدرّساً للتفسير والحديث في كلية الآداب ومدرّساً في كلية الشريعة.

٨ - عاد للحجاز ١٣٦٣هـ، وأسس دار التوحيد بالطائف، وأعدَّها لتخريج القضاة والمفتين والدعاة إلى سبيل الله.

٩ - وآخر ما قرأنا عليه في جامع الدقاق «الموافقات» للشاطبي، وكان من مراجعنا الآمدي والمستصفى.

وحَسْبُهُ ما قال فيه بعض طلابه الأدباء:

وما أستاذنا البيطار إلا ... وحيد الشام في علم الكتابِ
فيشرح حين يشرح كل صدر ... بمعنى من معانيه العِذَابِ
ويبعث همّة الآساد فينا ... كأن الشيخ في شَرْخ الشبابِ

أهم رحلاته إلى البلاد العربية والأجنبية:

١ - كانت أولى رحلاته: عام ١٣٣٨هـ، إلى الحجاز ونجد، للدعوة إلى عقد اتفاق عام بين أمراء الجزيرة وأئمتها الكرام، وكلّفه بهذه المهمة الملك فيصل بن الحسين.

٢ ـ الرحلة الثانية: إلى الحجاز بدعوة من المغفور له الملك عبدالعزيز بن سعود لإنشاء معهد ديني في الطائف.

٣ ـ الرحلة الثالثة: إلى مصر، لحضور مؤتمر مواصلة العمل الإسلامي المسيحي لإحلال السلام.

٤ ـ الرحلة الرابعة: إلى روسيا بدعوة من مجمع العلوم الروسي.

٥ ـ الرحلة الخامسة: إلى الولايات المتحدة بدعوة من أصدقاء الشرق الأوسط لتقريب وجهات النظر بين الأمتين الإسلامية والمسيحية.

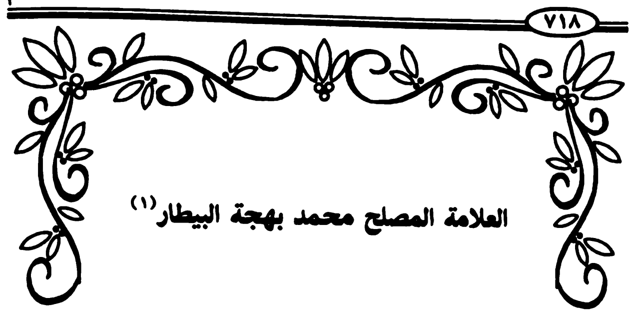
٦ ـ الرحلة السادسة: إلى باكستان والهند بدعوة من رئيس جامعة بنجاب، وكان رئيساً للوفد السوري.

مؤلفاته وما أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه:

بلغت مؤلفاته وما حقَّقه وخرّج أحاديثه خمسة عشر كتاباً، نذكر بعضها: نقد عين الميزان، نظرة في النفحة الزكية، الثقافتان، إكمال تفسير سورة يوسف للسيد محمد رشيد رضا، تخريج أحاديث قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لشيخه القاسمي، نشر مسائل الإمام أحمد وتلميذه الإمام أبي داود السجستاني، تخريج أحاديث البخلاء للجاحظ، كتاب المعاملات في الإسلام، تحقيق كتاب الموفي في النحو الكوفي، شرح كتاب أسرار العربية لأبي البركات الأنباري، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، الإسلام والصحابة الكرام.

فرحم الله فقيد الأمة الإسلامية والإنسانية علّامة الشام أستاذنا الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار، وأجاد على جدثه فيض الرحمة والغفران، وألهم آله وذويه ومريديه ومحبيه الصبر والسلوان.





العلامة المصلح محمد بهجة البيطار(١)

للقاضي سعدي أبو حبيب

العلامة الكبير محمد بهجة البيطار الذي فقدناه، واحد من نجوم الهدى والخير، نبع نورٍ، وفكرٍ، وإرشادٍ إلى السبيل السوي.

وَصْفُ البيطار لحال الأمة الإسلامية في عصره:

ولد رحمه الله تعالى عام ١٣١١هـ - ١٨٩٤م، في عصر كانت فيه الأمة تحت ظلّ الخلافة العثمانية، وحين بلغ سن الشباب وصف حال أمته، فقال:

«ألا ترى أنا لما كنا صالحين لاستعمار الأرض (عمارتها) أيام كان الإسلام في حضارته ونضارته، كيف امتدّت سلطتنا، وعلت كلمتنا، وقوي نفوذنا، وخضع العالم لقوة سلطاننا.

ولمّا انحرفنا عن جادّة الصّراط السّوي، كيف انقلب الحال، وساء المآل، وقام أناسٌ من بيننا أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يزعمون أنهم مصلحون، ويشهد الله أنهم مفسدون، وأنهم فيما زعموه من الإصلاح لكاذبون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة السابعة عشرة: (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، نبذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً، أضاعوا الصلاة، واتَّبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، لا صلاة، ولا صيام، ولا حلال، ولا حرام، قصروا همّتهم على دراسة الكتب الغربية، ونسوا ما لسلفنا من العلوم العربية، وهم الضاربون بأوفر سهم في كل فن وعلم. عشقوا الغرب، وأولعوا بلغته، وصُبغوا بصبغته، ففسدت أخلاقهم، وساءت آدابهم، وصار التفرنج لهم عادة، وذكر أوروبا لهم عبادة. وليت هؤلاء الخفاف العقول قلّدوا الأوروبيين بالشيء النافع، والعمل الرافع، ولكنهم يقلدونهم بالأزياء، واستحسان تبرج النساء، وإذا نشر الواحد منهم مقالة في صحيفة، توهّم نفسه أنه صار بها المفرد العلم، الذي يشار إليه بالقلم.

إنّ الزرازير لـمّا قام قائمها توهّمت أنها صارت شواهينا

يَسْتسمن نفسه، بتخيُّل العلم وهو ذو ورم، نار همّته في طاعة الله خامدة عن الضرم. أما والذي نفسي بيده لا يأخذ الله بيدهم، ولا ينصرهم على عدوهم ما لم يُقْلعوا عن غيّهم، ويرجعوا إلى رُشدهم، ويُنيبوا إلى ربهم، ويأخذوا بهدي نبيهم، ويسلكوا سبيل السلف الصالح. ويرحم الله القائل: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فمن أين لأمثال هؤلاء أن يُصلحوا غيرهم، وهم ليسوا صالحين بأنفسهم فضلاً عن إصلاح غيرهم، وفاقدُ الشيء لا يعطيه. ومن أين لهؤلاء الأحداث الأغرار أن يرثوا الأرض والديار، وهم على ما هم عليه من إباحة المنكرات، وانتهاك المحرمات. وقد قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ - وهؤلاء بينهم وبين الأعمال الصالحات كما بين الأرض والسماوات فلم يكونوا موعودين أن يُسْتَخلفوا في الأرض - ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

بل بُدّلوا من بعد أمنهم خوفاً، ومن بعد عزّهم ذلاً، ومن بعد قوتهم

ضعفاً. وقد صال ـ وا أسفا ـ عليهم أعداؤهم، فأراقوا منهم الدماء، وأزهقوا نفوس الأبرياء، وهتكوا أعراض النساء، وأهلكوا الحرث والنسل، والأوطان والأهل، ولم يغادروا فظيعة إلا فعلوها، ولا شنيعة إلا ارتكبوها..

نعم صَالَ علينا الأغيار، فَجَاسُوا خلال الديار. أتوْا أرضنا فنقصوها من أطرافها، وأحاطوا بها من أكتافها، وكادوا أن يذهبوا بالقلب لا سمح الله... يا أسفي على الإسلام والمسلمين، ويا لهفي على البلاد التي افتتحت بدم الأجداد الفاتحين كيف آل أمرها إلى السقوط بأيدي الكافرين»[1].

أسطر ذوات عدد، أرجو ـ أيها الحبيب ـ أن تقرأها مرة، ومرة، وأن تتدبَّر حروفها وفواصلها، لأنها عرض دقيق للواقع المرّ في مطالع هذا القرن، في إطار يحمل من المجد الغابر عبقه، ومن العزّ التليد لونه، لتزيد الصورة وضوحاً وجلاءً.

رسم الفقيد الكبير صورة أمته، وهو لم يدرك العشرين بعد، فدلّ على عُمْق فكره، وإدراكه لما آل إليه الحال. فأيّ نوع من الشباب كان؟.. وأي جهد سيبذل للإصلاح؟.. على قدر أهل العزم تأتي العزائم...

دعائم الإصلاح عند الشيخ البيطار:

لقد أقام أستاذنا الجليل بناء الإصلاح على الدعائم الآتية:

١ ـ الديـن:

هو الركيزة الأمّ في إصلاح الفرد والأمة عند أستاذنا الجليل، لأنّ في أحكامه سعادة الدنيا والآخرة.

ولأن ديناً أخذ بيد العرب من الجاهلية الجهلاء، والضلالة العمياء، فجعل منهم سادة الأمم نوراً، وخُلقاً، وعلماً، وقوة، لقادر من جديد على

---

(١) نقد عين الميزان ـ ص٣١ ـ ٣٣ (سعدي).

إنقاذهم من واقعهم المُؤلم، وعيشهم النكد في وحل التخلف، ورفعهم إلى سدَّة الرقيّ والمدنية. . . وما أشبه الليلة بالبارحة.

دعا أستاذنا العلامة إلى العقيدة على مذهب السلف، اقتداء بشيخ الإسلام ابن تيمية، وحثّ على العبادة، والتمسُّك بها، لأنها ترمي إلى إذكاء فكرة محاسبة النفس، ومراقبة الربّ جل جلاله، وتُنمّي الروح، وفي ذلك الخير، كل الخير، للفرد وللأمة.

قال في وصف الصائم: «فالصائم الذي يغلب عقله شهوته، ولا يخون دينه بالأكل نهاراً، سراً أو علانية، لا يمكن أن يخون وطنه، أو يخدع في أمره، فيبيعه بثمن بخس من غير أهله»[١].

وعلى ذات الوتر الهادف يتحدث عن بقية العبادات.

ولا يمكن للأمة أن تفهم الغاية السامية للعبادات إلا إذا قام العلماء بتنوير أفكار الناس، وتهذيبهم، وترسيخ العقيدة الصحيحة، وتفهيمهم أحكام الحلال والحرام، وأسرار التشريع، و«بأن الشريعة أبر بالإنسان، وأرفق به من أبيه وأمه، وأنّ جميع ما شرعه الله للناس فهو لخير مجتمعهم الإنساني ولدفع الشرور والغوائل عنهم. . .»[٢].

واجب فقهاء الأمة:

وهو يريد من العالم أن يكون قدوةً صالحة، عاملاً بما يقول، مخلصاً في دعوته إلى سبيل ربّه، منفتح الفكر ضمن حدود الشريعة، وأحكامها. .

ففي رسالة كريمة وجُهها إليّ نقرأ هذه الجملة: «ولا شك أن واجب فقهاء الأمة مواجهة الحقائق، وبيان الأحكام في جميع ما استحدث من المخترعات إلى اليوم على قاعدة جَلْب المصالح للأمة، ودرء المفاسد عنها. أي أن تكون فتاوى العلماء الواقفين على أسرار التشريع، وكُنه الزمن،

---

(١) كلمات وأحاديث، ص٢٧ ـ ٢٩ (سعدي).

(٢) كلمات وأحاديث، ص١٩ (سعدي).

وحاجة الأمة هادية إلى حفظ وحدتها، وتنمية ثروتها، وحماية حوزتها، ودفع عوادي الشر عنها، مع إثبات أن ذلك هو الذي يقتضيه هدي الإسلام، وترشد إليه آيات القرآن، وأن المسلمين هم أولى بالمسابقة والسبق في هذا المضمار..»[1].

٢ ـ المحبة:

إن الأمة لا يمكن أن تشقّ طريقها في هذا الكون إلا إذا كانت المحبة تلفُّ نفوس أبنائها، فتسمو بهم فوق كل خلاف.

وإذا خلت من هذه المحبة أمة من الأمم، فإنها إلى التمزُّق لا بد صائرة.. ولقد آمن أستاذنا الجليل بذلك ودعا إليه.

٣ ـ العلم:

كان العلامة جمال الدين الأفغاني يرى أن إصلاح الأمة لا يكون إلا على يد «سلطان مستبد عادل».

وكان يجوبُ العالم الإسلامي باحثاً عن رقعة من الأرض الإسلامية يطبِّق فيها تلك النظرة، ولكن دون جدوى.

وكان الإمام محمد عبده، صفيّ الأفغاني وخليله، يؤمن بنظرية أستاذه، ولكنه بعد أن ذاق مرارة النفي والتشريد، أعرض عن تلك النظرة، وضرَبَ صَفْحاً عن العمل السياسي، وصار همُّه الأول هو العلم، لأنه طريق النهضة بهذه الأمة، ولا طريق سواه.

عزوفه عن السياسة والأحداث العظام التي مرَّت بها الأمة:

وأخذ هذه النظرية عنه تلميذه، وصديقه الإمام السيد محمد رشيد رضا، وعنه أخذ شيخنا الكبير ذلك، وظلَّ يدعو إلى هذه النظرية عمره.

---

(١) رسالة مؤرَّخة في ٢٩ محرم الحرام سنة ١٣٨٧ الموافق ١٩٦٧/٥/١ (سعدي).

وقد بلغ من إيمانه بها، أنه لم يُبْدِ يوماً رأياً في السياسة، ولو في مجالسه الخاصّة، مع أنه عاش أحداثاً عظاماً مرّت بها الأمة.

ونحن نعجب لذلك، ونسأل: لمَ اتّخذ أستاذنا الجليل هذه النظرة، وعزف عن رأي ابن تيمية في السياسة والإصلاح؟! ولمَ لمْ يتأثر بشيخه الكبير الإمام محمد الخضر الحسين التونسي الذي كان مشعل جهاد في سبيل تحرير تونس الحبيبة؟!

لعل ذلك، في رأينا، يعود إلى طبعه الهادئ، وخُلُقه الهيِّن الليِّن.

دعوته إلى العلوم الدينيَّة والعصريَّة:

دَعَا شيخنا الجليل إلى العلوم الدينية، وليس هذا بدعاً من الأمر، ودعا إلى العلوم العصرية التي هي أسس الحضارة والمدنية..

وكان يستدل على ذلك بالقرآن الكريم، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا..﴾ [البقرة: ٢٩]: «هذا خطاب عام لأمة القرآن يدعوهم، ويُوجِّه نظرهم إلى ما أودع تعالى في جوف هذه الأرض من الكنوز، والمعادن، ويُرشدهم إلى الاستفادة منها، والانتفاع بما بثَّ فيها من الخواصّ والقوى، ويثبت أن جميع ما استحدثته أمم الغرب من المكتشفات، والمخترعات، هو ممّا أرشد إليه الإسلام، وسبقت إلى العمل به الأمة العربية في عصورها الذهبية. فردُّه ردٌّ لنصوص القرآن، وتعطيلٌ لأحكامه، وتجريدٌ لهذه الأمة من كلِّ ما يُعزِّز قوتها، وينمي ثروتها، ويدفع عوادي الشر عنها، وأي جناية على هذه الأمة أكبر من هذه الجناية..»[1].

وما دام الغرب قد تقدَّم الأمة العربية في دنيا الحضارة، فما على

---

(١) كلمات وأحاديث، ص٥١ (سعدي).

شبابنا من ضير إذا سافروا إلى هناك لتعلّم الفنون، والصناعات، التي تتوقف عليها حياة البلاد ورقيها. . .»[١].

وعدَّ ذلك السفر هجرةً محمودةً شرعاً. .[٢].

حثه على تعليم المرأة:

وهو في دعوته هذه لا يخصُّ الرجل وحده، بل يحثُّ على تعليم المرأة «ما تحتاج إليه من العلوم، والمعارف، وتدبير المنزل، وإسعاد الزوج، وتربية الأولاد. . .»[٣].

وهو يصرُّ على أن تبقى للمرأة شخصيتها، وآدابها الإسلامية الرفيعة، وشرفها، وإباؤها. .

رده على من زعم أن حجاب المرأة وتعليمها لا يجتمعان:

وهو يعجب لفئة من رجال الفكر في أوائل هذا القرن، ترى أن حجاب المرأة، وتعليمها، لا يجتمعان.

قال في الردّ على هؤلاء: «كيف استطاعت الراهبات المُبشّرات في القرن العشرين أن يُحافظن على حجابهنّ، وآدابهنّ، وأن لا يرى أحد منهم غير وجوههنّ، وأكفهنّ، وأن يكُنّ فوق نساء المتفرنجين علماً، ومعرفة بحال العصر، وبأيديهنّ تدار المؤسّسات الدينية، والمعاهد العلمية، والمستشفيات الخيرية العمومية في الشرق والغرب. .؟ فهل تكون المرأة المسلمة، المتعلمة أقل حظاً منهنّ في حجابها وآدابها. .»[٤].

---

(١) كلمات وأحاديث، ص٨٥ (سعدي).

(٢) لا تخلو هذه الدعوة إلى الابتعاث للغرب من أخطار، ولا يصح اعتبارها هجرة محمودة.

(٣) المرجع السابق، ص٦ (سعدي).

(٤) المرجع السابق ص٤٧ (سعدي).

قال ذلك في أوائل الثلاثينات من هذا القرن في وقت كان إقبال الرجال على العلم قليلاً. فكيف إقبال النساء..؟

اهتمامه بالمعلّمين:

وهو في دعوته إلى العلم، ينظر إلى المعلمين نظرةَ احترام وإكبار، لأنهم يبذرون العلم والمدنية في عقول براعم الأمة، لتثمر بعد حين خيراً، وعطاء، وهو يدرك ما في هذه المهنة الكريمة من مشقة وصبر.

ففي محاضرة ألقاها على مدرج جامعة دمشق في أوائل سنة ١٩٣٦م، خاطب المعلمين قائلاً: «وأنتم معشر المعلمين عليكم أن تطالبوا أنفسكم بالصبر على ما أنتم بسبيله من تربية النشء، وتعليمه إن كنتم في عملكم هذا ورثة الأنبياء..». وطلب في ختام محاضرته من وزير المعارف، وكان بين الحضور، أن يعمل على تحقيق أمرين:

١ ـ تأسيس منتدى للمعلمين، يجمع شملهم، ليبحثوا فيه شؤون التعليم، والنهضة الفكرية في البلاد، ويكونوا بعيدين عن المقاهي، والملاهي التي لا يستفيدون منها، ولا تستفيد البلاد، إلا إضاعةَ الوقت والمال.

٢ ـ الاهتمام بإيجاد أفلام أخلاقية، علمية، تُعرَض على المعلّمين، والطلاب بدلاً من ارتيادهم دور السينما التي تُعرض فيها روايات لا تتفق مع الأخلاق في شيء...

دعوة خير لأساتذتنا الميامين، فهل في ناديهم ما كان يرغب شيخهم الذي سَلَخ حياته، وهو يعلّم، ويعلّم..؟

وهو في دعوته إلى العلم يصرُّ بعزم على أن يكون الدين هو الأساس الفكري الذي تقوم عليه التربية والتعليم، وأن تكون الأخلاق الفاضلة حية عامرة في ضمير الأمة، أساتذةً، وطلاباً، على وجه الخصوص، لأنَّ جيلاً متعلماً بلا خُلق، ولا دين، لا خيرَ فيه، ولا تجني أمته على يديه إلا الصاب والعلقم.

٤ ـ العمل:

كان فقيدنا الجليل يحثُّ الناس على العمل المقرون بالأخلاق.. وكان يستدل على ذلك بما ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وكان يعتبر هذه الآية الكريمة باعثة على النهضة والرقي والثروة...

القوّة والأمانة صفتان مترابطتان:

فالقويُّ هو ابنُ العمل، أي عمل كان العارف به، المتقن له...

والأمينُ هو المحافظ على الشرف، والأمانة، والاستقامة في العمل.. فلا يغش، ولا يسرق، ولا يخون، ولا يخلف وعداً، ولا ينكث عهداً..

وهما صفتان متلاحمتان، فإتقان العمل ـ إذا كان مُجرَّداً عن الأخلاق ـ لا خَيْرَ فيه، وذو الخلق إذا لم يكن متقَناً للعمل لا يمكن أن ينهض على زنده بناء، ولا تقوم صناعة...

وصَدَقَ شيخنا الكبير فيما قال.. فهل يلتزم عمَّالنا، عماد نهضتنا، بإتقان العمل وقواعد الأخلاق..؟

وبعـد: هذه جولة في الخطوط الفكرية الكبرى التي قامت عليها نظرية الإصلاح عند أستاذنا الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله تعالى..

كلمة العلامة الإبراهيمي في وصف البيطار:

وقد قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في وصفه:

«الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار عَلَمٌ من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة السلفية الحقيقية، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنة، واسع الاطلاع على آراء المفسرين والمحدثين، سديد البحث في تلك الآراء، أصولي النزعة في الموازنة والترجيح بينها، ثم إن له ـ بعد ـ رأيه الخاص، يوافق ما يوافق عن دليل، ويخالف ما يخالف إلى صواب.

والأستاذ البيطار مجموعة فضائل. ما شئت أن تراه في عالم مسلم من خُلق فاضل إلا رأيته فيه، مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزن هذه المذاهب الشائعة بآثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي لكلٍّ ما يستحق، جريء على قوله الحق في العلميات، ولكن الجرأة منه يلطفها الوقار، والوقار فيه تُزيِّنه الجرأة، فيأتي من ذلك مزاج خلقي لطيف، متساوي الأجزاء، ملتحم الخلايا، قلَّ أن تجده من علمائنا المعدودين.

والأستاذ البيطار مفكر عميق التفكير، وخصوصاً في أحوال المسلمين بعللهم، وأدوائهم، طب بعلاجهم ودوائهم.. يعتمد في تحصيله وتربيته على طودين شامخين من أطواد العلم والعمل: أحدهما الإمام عبدالرزاق البيطار، والثاني الإمام المحدث جمال الدين القاسمي، عنهما أخذ، وفي كنفهما نشأ، وعلى يدهما تخرّج، فجاء عالماً من ذلك الطراز الذي نقرؤه في التراجم...»[1].

وصدق فيما قال...

ومَنْ كالبشير الإبراهيمي معرفةً بالرجال؟ عليه وعلى علمائنا الرحمة، والرضوان.



(١) كلمات وأحاديث، ص٩٩ ـ ١٠٠ (سعدي).

الشيخ محمد سعيد المسعود: مفتي الباب[(١)]
(١٣٢٦ - ١٣٩٧هـ)
(١٩٠٨ - ١٩٧٦م)



للأستاذ: حسن عبدالحميد

منزلة العلماء:

يقول الإمام ابن القيم: العلماء بمنزلة النجوم في السماء، يهتدي بهم الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض من طاعة الأمهات والآباء بنصّ كتاب الله قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم العلماء كما قال المفسرون.

١ - شيِّعت مدينة الباب في الأسبوع الأول من شهر المحرم[(٢)] عَلَماً من أعلام الفقه الإسلامي، ورائداً من روّاد العمل الإسلامي.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

(٢) توفي يوم الأربعاء الثامن من المحرم ١٣٩٧، وكان مولده في ٥ ربيع الأول ١٣٢٦ الموافق ١ نيسان ١٩٠٨ كما في كتاب: «الربانيون الثلاثة» للشيخ محمد زكريا المسعود ص٣٥٨.

دراسته في المدرسة الخسروية:

٢ ـ درس على يدي كبار العلماء في المدرسة الخسروية بحلب، وكان ترتيبه الأول دوماً. من أساتذته: الشيخ راغب الطباخ، والشيخ أسعد العبجي، والشيخ فيض الله الأيوبي، والشيخ أحمد الزرقا، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ أحمد الشمّاع رحمهم الله جميعاً. وكان زميله في الدراسة الشيخ محمد الحامد رحمه الله، وتتلمذ في مدينة الباب على الشيخ مصطفى أبي زلام رحمه الله تعالى.

دروسه ونشره العلم:

٣ ـ شمّر عن ساعديه لنشر العلم فَوْرَ تخرُّجه، فكانت دروسه إلى يوم وفاته موزَّعة على مساجد البلدة يُدرِّس في اليوم أربعة دروس في الفقه والحديث والنحو.

إحياؤه رسالة المسجد:

٤ ـ كان كثير الإعجاب بالشيخ عبدالكريم الرفاعي رحمه الله في جعل المسجد ميداناً للحلقات العلمية في مختلف الفنون. وقد افتتح ـ رحمه الله ـ في الصيف الماضي دورةً شرعية للطلاب ظلّ يدرِّس فيها الفقه الإسلامي بهمّة ونشاط بالرغم من بلوغه سن السبعين.

تشجيعه طلاب العلم:

٥ ـ أبرز ما فيه ـ رحمه الله ـ حبه لتشجيع طلاب العلم بالنصح، بالمال، بالثناء عليهم في كلّ مجلس، في حضوره لدروسهم وهو أستاذ لهم.

في دار الأرقم:

٦ ـ كان رحمه الله من الروّاد الأوائل في دار الأرقم، مدرسة شباب محمد ﷺ في العصر الحديث، وكثيراً ما حدّث عن زمالته وإعجابه بالشيخ المجاهد مصطفى السباعي رحمه الله، وأنه رفيق دربٍ له.

وكان ـ رحمه الله ـ الأب العطوف لتلاميذ السباعي وأتباع الدعوة الإسلامية الحديثة في الباب.

نشاطه الاجتماعي:

٧ ـ وكان رحمه الله ذا نشاطٍ اجتماعيٍّ بارز:

أ ـ فهو عضوٌ في (جمعية البرّ والأخلاق الإسلامية).

ب ـ وعضو في (جمعية النهضة الإسلامية) في الباب، وله في تأييدها والثناء على رجالها جهاد مبرور.

جـ ـ وهو رئيس لجمعية رفع المستوى الصحي في البلدة.

د ـ كان في زياراته المتوالية للريف يفتتح المساجد الجديدة، أو يفضُّ المنازعات ويعمل للصلح، أو يُحيي ذكرى مولد النبي عليه السلام، وكثيراً ما حدثني أنه يركب الحصان يدعو إلى الله من قرية إلى قرية.

حُبُّه للشباب المسلم:

٨ ـ كان رحمه الله يُحبُّ الشباب المسلم من كلِّ قلبه، ويتواضع لهم، ويرى فيهم أمل الإسلام المشرق.

ـ كان يقيم لهم المسابقات الدينية في السيرة والفقه، ويقدِّم لهم الهدايا والجوائز القيمة.

ـ كان يحضر أعراس الشباب المسلم، ويمشي خلف العرس حتى يوصله إلى بيته بين التكبير والتهليل سانّاً سنةً حسنة في البلدة بجعل الأعراس مهرجاناً إسلامياً، يخطب فيها الخطباء، وينشد فيها الشعراء.

ـ كان يحرص على سلامة عقيدتهم، ولو كانوا في أول الأمر ذوي مظهر غير إسلامي.

ـ أسعد لحظاته عندما يرى شاباً أطلق لحيته في هذا الخضم الهائج بالفتن والشهوات.

ـ تنبّه ونبّه لما يُراد بالصغار من إضلال وإفساد، ولطالما صرخ بأعلى صوته في حفلات المولد: «أيها الآباء انتزعوا أولادكم من أيدي الملحدين قبل أن تخسروهم إلى الأبد».

جمعه بين العلم والسلوك:

٩ ـ جَمَعَ الفقيد بين علوم الشريعة والطريقة الصوفية، لكنه لم يتعصّب لمذهبه الحنفي ولا لطريقته النقشبندية. كانت أمنيته أن يتعاون رجال العلم والطرق، وأن يتّحد كل العاملين للإسلام. وكثيراً ما نادى شباب الإسلام: لا تختلفوا فالعدو يتربص بكم جميعاً.

ـ كان يتمتّع بسَعَة أفق: قلّ أن تُوجد في غيره، ورَحَابة صدر ندر وجودها إلا فيه.

سَعْيُه في بناء المساجد:

١٠ ـ كان رحمه الله مُغْرماً ببناء المساجد الحديثة وإصلاح القديم منها من جيبه الخاص ومن تبرُّعات الناس، يقوم بنفسه على جمعها، وكان حريصاً أن يرتفع شعار الإسلام (المآذن) عالياً في السماء.

إنّ أغلب مساجد البلدة ستذكره يوم الدين أنه قام بتشييدها، وآخر مآثره: إصلاح الجامع الكبير وترميمه، وكان في أواخر عمره قد ألقى ثقله ببناء مسجد جديد، وكان يحدثني أنه سيجعل فيه ملعباً رياضياً للشباب ومسبحاً إسلامياً للطلاب... إنه فهمٌ عظيم للمسجد ورسالته.

كرمه البالغ:

١١ ـ ومن أبرز خصاله رحمه الله: الكرم البالغ، والحديث عن كرمه سارت به الركبان، لا تدخل عليه إلا والسِّماط ممدود، ولا يأتي للبلدة غريب إلا ويأخذ طريقه إلى بيته، ولا يرى غريب إلا ويدلّه الناس على بيت المفتي، ولا يأتي موظف للبلدة إلا ويجب أن يذوق طعام المفتي.

- دعاة الإسلام من كل بلد هم ضيوفه وأحبابه.

- مساعداته المالية لطلاب العلم الفقراء لا تنقطع.

- كثيراً ما يطرق عليه الباب فقراء فلا يردُّهم إلا طيِّبة نفوسهم. وما وقف في السوق يشتري حاجة إلا وقف إلى جانبه فقراء حاجتهم في قلوبهم، فيدركها على الفور، ويطلب من البائع أن يزن لهم فاكهة أو خضرة أو لحماً، وكثيراً ما يستدين من البائع ليعطي لهم نقداً.

اهتمامه بدعوة النساء:

١٢ - اهتمامه بالعنصر النسائي جدير بالنظر، فقد كان يعمل على إقامة دروس لهنَّ، ويشجع على حضورهنَّ حفلات المولد، ويطلب مني أن أقيم للطالبات مسابقات في السيرة والحديث، ويبعث ببناته وزوجاته إلى حلقات العلم، ويبعث بمسجلة تسجل كل ما دار في درس النساء.

اطلاعه على المجلات والكتب الإسلامية المعاصرة:

١٣ - وكان - رحمه الله - بالرغم من أنه يعيش بين الحواشي الفقهية لا تفوته مجلة إسلامية معاصرة، ولا كتاب إسلامي حديث حتى يدركه بالفهم والنقد.

منهجه في الفتوى:

١٤ - أما في الفقه الحنفي، فهو من الأعلام البارزين في هذا القطر، وخسارته لن تعوض إلا أن يشاء الله.

كان مرناً في الفتوى يحب التيسير على الناس، ويسعى للصلح بين المتخاصمين.

موقفه من خصومه:

١٥ - كان - رحمه الله - لا يقع في خصومه، ويُثني عليهم إذا سمع

تجريحهم له، ويضع نصْب عينيه حديثاً يُردِّده: «صِلْ من قطعك، واعْفُ عمَّن ظلمك، وأحْسِن إلى مَنْ أساء إليك»[(١)].

١٦ ـ لما أدركت الوفاة الإمام ابن عقيل واحتضر بكى الناس، فقال: لقد وقّعت عن الله خمسين سنة فدعوني أهنأ بلقائه.

ولقد وقّع شيخنا الشيخ سعيد المسعود عن المولى خمسة وثلاثين عاماً. وآن له أن يفرح بلقاء الله.

أبا محمد:

سلامٌ عليك، سلام على تلك المجالس التي كنت أقضيها معك بين الحواشي والمتون.

سلامٌ على تلك الساعات الغالية كنت فيها معك هنا وهناك في مجلس علم أو ذكر أو في حفل مولد.

سلامٌ على ذكريات الأمس في الليالي الخالدة، أسألك عن الفقه عبر الهاتف فلا تملّ الإجابة التي قد تطول ساعات.

سلامٌ عليك أبا محمد.

طالما رأيتك تمشي في السوق قبيل عيد الفطر، وفي «البازار» قبيل عيد الأضحى. لسان حالك يقول: هل من سائل؟ هل من مُسْتفت؟

سلامٌ عليك: ما ملّت قدمك من الوقوف ساعات مع شيخ يسأل، أو

---

(١) أخرجه البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صل من قطعك، واعف عمّن ظلمك» وأخرج ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لن ينال عبد صريح الإيمان حتى يصل من قطعه، ويغفر لمن شتمه، ويحسن إلى من أساء إليه». وأخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الفضائل: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمّن شتمك».

عجوز تستفتي، ولم تتثاقل من طَرْق الباب الدائم، ولا من رنين الهاتف المتواصل سؤالاً عن حكم الشرع في مسألة.

سلامٌ عليك: جاءك الموت بعد ربع ساعة من آخر فتوى أفتيت فهنيئاً لك الشهادة لقد جاءك وأنت تعلم وتعلمه.

وإلى اللقاء أبا محمد إن شاء الله في مَقْعَد صدقٍ عند مليك مقتدر مع الأحبة محمد ﷺ وصحبه.

أيها الأخوة: أمِّنوا مع ابن الجوزي:

اللهمَّ لا تُعذِّب يداً دلّت عليك.

ولا رِجْلاً مَشَت إلى طاعتك.

ولا لساناً ذبَّ عن سُنَّة نبيِّك.

خبر وملاحظة:

أقيم في يوم الجمعة ٢٩ صفر ١٣٩٧هـ، احتفال كبير عن روح فقيد الإسلام الشيخ محمد سعيد المسعود في مدينة الباب في جامعها الكبير، حضرته وفود من أنحاء سوريا، وتكلَّم فيه علماء وشعراء ومنشدين في مقدمتهم الشيخ أديب حسون، والشيخ محمد علي المراد، والشيخ كامل بدر، والشيخ بكري الرجب، والشاعر محمد منلا غزيل، ذكروا مآثر الفقيد، وحثُّوا الناس على الالتفاف حول العلماء.



الدكتور تيسير رمضان الحصّاد رحمه الله[١]
(١٣٦٥ - ١٣٩٧هـ)
(١٩٤٦ - ١٩٧٧م)

للأستاذ محسن خرابة[٢]

الفقيد في سطور:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على سيدنا محمد قائد المجاهدين وإمام المتَّقين وعلى آله وصحبه وكل مَنْ سار على نهجه، ودعا بدعوته، وجاهد في سبيل شريعته إلى يوم الدين.

أما بعد: أيها الأخوة لا بدَّ لي قبل أن أتحدَّث لكم عن بعض الخواطر التي أملتها عليَّ روابط الأخوة ودوافع الوفاء والإخلاص للفقيد رحمه الله من أن أقدِّم لكم الفقيد في سطور.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

(٢) من تلاميذ العلامة أحمد راتب النفاخ، ومحقق كتاب «المسائل البصريات» لأبي علي الفارسي، وهي رسالته الماجستير في جامعة دمشق، واشترك مع مروان العطية في تحقيق «فضائل القرآن» لأبي عبيد، و«جمال القراء» لعَلَم الدين السخاوي، وصدر سنة ١٤١٨ عن دار المأمون للتراث.

ولادته ونشاته:

ولد الفقيد رحمه الله عام ١٩٤٦م، في قرية الشدادي على نهر الخابور قرب مدينة دير الزور، حيث كان والده يعمل مزارعاً فيها، وكان أهله يخرجون إليها من دير الزور باستمرار.

تعلّم في مدارس دير الزور الابتدائية والثانوية، وكان من الأوائل في دراسته دائماً لأنَّ الله أنعم عليه بعقل نفّاذ وذكاء نادر.

كان نور الإيمان والهدىٰ يشعّ في وجهه منذ نعومة أظفاره، فقد لازم الصلاة وهو في الصف الثاني الابتدائي ولم ينقطع عنها إلى أن لقيَ وجْهَ ربه الكريم.

تعلُّق قلبه بالمساجد:

كان رحمه الله من الذين تعلّقت قلوبهم بالمساجد، وارتبطت أرواحهم بها منذ صغره، وحدث مرة أنه كان ذاهباً إلى صلاة الفجر في المسجد، فقُطع حذاؤه، فحمله تحت إبطه وأكمل طريقه إلى المسجد حافياً خشية أن تفوته صلاة الفجر جماعة لو عاد ليستبدل الحذاء.

تَحَسُّسه قضايا المسلمين:

عندما بلغ سن الخامسة عشرة بدأ يتحسّس قضايا المسلمين، وما يعانون من ضعفٍ وتخاذل، وما يلاقيه أهل الإسلام من مكايد ومؤامرات لإقصائه عن ساحة الحياة.

كان في هذه السن القدوة الحسنة والأسوة المثلى العلمية والدينية لأفراد عائلته جميعاً.

دراسته في كلية الطب:

بعد أن نال الشهادة الثانوية بتفوُّق، دَخَل كلية الطب في جامعة دمشق عام ١٩٦٣م، وكان من الأوائل المتفوقين خلال مسيرته العلمية، وكان كثيراً

ما ينال المكافآت المالية بسبب هذا التفوق، وكان أول شيء اشتراه هو كتابه المحبَّب (**في ظلال القرآن**)، وكان فكره العلمي ووعيه الإسلامي وتصوُّره الإسلامي الصافي وإيمانه يزداد باطّراد خلال دراسته في كلية الطب، وكان من هذا الباب قدوة لزملائه.

تخرّج يحمل لقب الدكتوراه بتقدير جيد جداً عام ١٩٧٠ - ١٩٧١م.

متابعته الاختصاص في طب الأطفال:

عمل طبيباً عاماً في منطقة (الميادين) ما يقرب من شهرين، ثم يمَّم وجهه شَطْرَ الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر عام ١٩٧١م، لينهل من معين العلم هناك، وليتابع دراسة الاختصاص في طب الأطفال. وهناك في أمريكا كان شعلة من النشاط والعمل الدائب للإسلام، فكان يسافر لحضور المؤتمرات الإسلامية، ويكتب ويحاضر ويخطب في قضية الإسلام. كان سكرتيراً لمنظمة الأطباء المسلمين في الولايات المتحدة وكندا.

بعد بضع سنوات من العمل والعلم نال شهادة البورد في طب الأطفال عام ١٩٧٦م، وعُيِّن مباشرة أستاذاً لتدريس طب الأطفال في جامعة اللينوى قرب شيكاغو بعد أن أبدى ضروباً من التفوق العلمي حتى على الأمريكيين أنفسهم.

وفاته بحادث سيارة:

وفي ١٦ شباط عام ١٩٧٧م، خرج من بيته في الساعة الثامنة والربع صباحاً، وفي الساعة التاسعة والنصف في رابعة النهار قُتل بسيارته بحادث قيل: إنه صدم قطاراً في هذه الساعة الواضحة من النهار بعد ساعة وربع من خروجه من بيته مع أن مسافة الطريق من بيته إلى مكان الحادث لا تستغرق أكثر من عشر دقائق.

نقل جثمانه إلى بلده دير الزور:

نقل جثمانه الطاهر من شيكاغو إلى بلده دير الزور، حيث دُفن في دير

الزور وهو في عمر الورد وريعان الشباب، وقد خلَّف وراءه ولدين وبنتاً رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

أخي تيسير: إنّ العين لتدمع، وإنّ القلب ليخشع، وإنا على فراقك يا أبا عمر لمحزونون، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أخي الحبيب تيسير: ما كان يدور في خَلَدي، ولم يخطر على بالي في يوم من الأيام أنني سأمسك بقلمي الراعش لأخط كليمات في نعيك، وأحمل يراعتي المضطربة لأتحدث عنك وأرثيك، ولكن القدر إذا حلّ والقضاء إذا نزل فما للقلوب المفجوعة الثكلى إلا التسليم المطلق والرضا الكامل بما يقدّر الله ويفعل. ولكن أيُّ بيان ـ مهما عظم ـ قادر على أن يوفيك حقَّك أيها المجاهد، وأي كلام وأي قلم يقوى على أن ينطق بما يعتمل في الصدور ويختلج في القلوب، وشهد الله أن الخبر المحموم الفاجع حينما قرع آذاننا كادت قلوبنا أن تنفلق، وأفئدتنا أن تتمزّق، وكأنّ صاعقة نزلت علينا من السماء، وكاد صوابنا أن يطير من هول الصدمة وكبر الكارثة وفداحة الفاجعة لولا تمسُّكنا بحبل الله المتين واستعصامنا بإيماننا.

وفجأة تقفز إلى أذهاننا أنّ الصهيونية الآثمة والصليبية الحاقدة لم يقرّ لهما قرار، ولم يرتح لهما ضمير إلا إذا ذاق تيسير وأحبابه ومن هم على طريقه الموت الزؤام لأنه لم يكن شوكة في عيونهما فحسب، وإنما كان سهماً مدمياً في قلوبهما.

أخي الحبيب أبا عمر: لا أدري عن أيِّ شيء أتحدّث من حياتك؟!! أعن طفولتك البريئة؟ أم عن شبابك المؤمن الصلب؟

نفسٌ توّاقة:

لا زلت أذكر تلك الأيام التي قضيناها معاً في الثانوية والجامعة، حيث كنت تحمل بين جنبيك نفساً توّاقة، وروحاً عالية لا تعرف إلا معاني الجد حتى في أوقات الراحة.

لا زالت تلك الأيام التي كنا نذهب فيها إلى نهر الفرات مع بعض

الأحباب لقضاء المتعة والراحة، ماثلةً أمام عيني، وكنت دائماً تتأبط كتابك الحبيب «**في ظلال القرآن**»، وبعد قضاء فترة وجيزة سرعان ما كان صوتك المؤمن النّدي ينادي إخوته: أن تعالوا واسمعوا صوت السماء، أيها الأحباب فكانت نفسك لا ترتاح وروحك لا تطمئن إلا في ظلال الظلال.

لا زلتُ أذكر العهد الذي قطعته على نفسك مع بعض أحبابك وطبّقته زماناً طويلاً إلى أن ذهبت إلى أمريكا، وهو قضاء فترة ما بين المغرب والعشاء بحفظ القرآن الكريم.

دعاؤه بالشهادة في سبيل الله:

لا زال دعاؤك الخالد الذي كنت دائماً تردده صادقاً يرنُّ في أذني وفي أذن الزمان: «**اللهمَّ ارزقنا الشهادة في سبيل دينك وإعلاء كلمتك**»، ونسأل الله الكريم أن يكون هذا الدعاء قد استجيب، وهذا السؤال قد تحقّق وأن تكون في سلسلة الشهداء الأبرار الخالدين.

أخي الغالي تيسير: لم تبقَ عينٌ من العيون المؤمنة إلا أسْبَلَت عليك الدموع قائلة:

تبكيكَ يا فِلذة الأكباد أعيننا   دماً يسيل على الخدين مدرارا
خلّفت بعدك أكباداً مقرّحة   تبقى على الحزن آماداً وأدهارا

ولم يبق قلب ينبض بذكر الله إلا ذاق لوْعة الحرقة، واكتوى بنار المصيبة، لم يبق فم إلا انطلق يلهج بذكرك الطيب ويتحدث عن خلالك الكريمة، ويروي أخبارك العذْبة حتى أولئك الناس الذين يخالفونك في الرأي والفكر، لم يَبْقَ مجلس من مجالس البلد إلا نعاك وحَزِنَ عليك بكل حرقة وأسًى.

لقد بكيناك يا أخي، بكيْنا فيك الكرم والوفاء والإخلاص والصدق والإيمان والتقوى والورع والعمل الدائب والتفكير الواعي والشجاعة في الحق. . .

إنّ كل هذه المعاني التي يكاد الإنسان المسلم في هذا الزمان يكون أحوج إليها من الماء والطعام بكيناها فيك، ويحقُّ لنا أن نقول فيك:

بموتك قد فقدنا اليوم عزاً　　وكنزاً لا يُحدّد بالحساب
فقدنا اليوم شمساً قد أضاءت　　وعلماً فيضه غر السحاب
وفهماً ثاقباً ومدىً بعيداً　　ولباً دونه لب اللباب
وصدراً واسعاً وتقى وفضلاً　　وعقلاً دونه ثقل الهضاب
لقد خسرت بك الأشبال ليثاً　　منيعاً ساحُهُ في كلّ غاب
لقد خسرت بك الأحلام طوداً　　تطأطئ تحته شمّ الروابي

قافلة الشهداء:

أخي المجاهد: لم تكن أول شهيد أريق دمه في سبيل الله، فقافلة الشهداء لا تزال تجود بالأرواح والأنفس رخيصةً في سبيل الله، وإننا نعاهدك يا أخي، نعاهد روحك الطيبة الطاهرة أننا على دربك سائرون، وبنهجك عاملون، فلتقرّ عينك في جنان الله، ولتعلم أنّ دماءك الزكية التي أريقت هناك ستبقى تشعّ نوراً لنا ولدربنا الطويل فتُكسِبُنا مزيداً من الثبات على الطريق.

أثره في ديار الغربة:

أخي: لقد كنت مُعلّماً في الطريق، تهدي السائرين في دروب الحياة وبخاصّة في ديار الغربة، لقد كنت الظلال الدافئة التي يرتاح إليها أحبابك في أمريكا. لقد كنت نبراساً يضيء الطريق للغافلين، لقد كنت مجاهداً بحق يرفع شعار الإيمان في ديار الكفر ولواء النور في بلد الظلام. ولئن حاولت النفوس المظلمة والأرواح المنتنة أن تقضي على هذه المعالم، وأن تطفئ هذا النور، خسئت وخابت، لأن هذه الشعلة من النور تستمدُّ نورها من نور ربّ الكون، وإنّ الله متمّ نوره ولو كره الكافرون المجرمون الظالمون.

يا صاحبَ القلب الكبير، ويا صاحبَ العقل المنير، وأنت الأستاذ في

الجامعة، الدكتور المختصّ في طب الأطفال، كنت دائماً تذهب إلى مدارس أطفال المسلمين الخاصّة في شيكاغو وغيرها، لتعلمهم مبادئ القراءة والكتابة العربية، حفاظاً على دينهم ولغتهم فمن يفعل ذلك إلا أولئك الأبطال الذين يتحسّسون قضايا أمتهم ومصيرها صباحَ مساء، وكنت واحداً منهم.

لا أدري مرة ثانية عن أيِّ شيء أتحدَّث؟ وماذا أقول؟ القلم عاجز، وإنَّ البيان قاصرٌ عن الوفاء بحقك.

ترفُّعه عن متاع الدنيا:

لقد غادرت يا أخي هذه الدنيا الفانية الزائلة التي لا يتعلق بها إلا ذوو النفوس الصغيرة المهزومة، وكنت فوقها وفوق متاعها الزائل وزخارفها الفانية، وكم كنا نتمنى أن تعود إلى بلدك لتلقِّن أولئك الناس الذين أعمتهم المادة، وارتكسوا في حمأتها في هذا المجتمع المادي المسعور، أنَّ السعادة ليست في جمع المال، ولا في الانكباب على الدنيا، والتعلق بها، ولكن السعادة في التقوى الحقيقية والاستعلاء على زخارف الدنيا كما يقول الشاعر:

وَلَستُ أرى السَّعادةَ جَمْعَ مالٍ ولكنَّ التقيَّ هو السَّعيدُ

لقد رحلت - يا أخي - عن هذه الدنيا وأنت مرفوع الرأس عالي الجبين، لم تطأطئ رأسك إلا للواحد القهار، ولم تَحْن جبهتك إلا للعزيز الغفار، لقد متّ موتَ الفُرسان الشجعان الأشاوس الذين لم يعرفوا معاني الذلّة والهوان والصّغار، التي يَرْزح الناس في نَيْرها، والذين تخرَّجوا في مدرسة البطولة والفروسية مدرسة محمد ﷺ، وبحق لقد تخرَّجت في مدرسة محمد ﷺ، أذكرتني حياتك وزهدك بالجيل الأول الذي تربَّى في مدرسة محمد ﷺ. لقد كنت شعلة من الإيمان الراسخ، ونبراساً من التقوى الصادقة، وطاقة هائلة من الحركة والعمل، ومثلاً أعلى في حُبِّ الآخرين ونكران الذات.

أيُّ كلام بعد هذا الكلام يا أخي. والله إنها لفاجعة كبيرة، ولكن الذي

يُخفِّف من هولها وعظمها هو اعتقادنا بأنك شهيد من الشهداء، ويقيننا بأن جنة الله الواسعة ستكون مأواك مع محمد وصحبه والأنبياء والشهداء ومع شاعرك الحبيب الذي قال:

أخي إنْ نَمُتْ نَلْقَ أحبابَنا ... وجَنَّاتُ ربِّي أُعِدَّت لنا
وأطيارها رَفْرَفت حَوْلَنا ... فَطُوبى لنا في ديارِ الخلود

طُوبى لك يا أخي وحُسْن مآب، وإلى الخلود في قلوبنا وفي أرواحنا وفي جنان الله الواسعة إن شاء الله.

لن تموت يا أخي تيسير، صحيح أن جسدك الطاهر فارق الدنيا ورحل عنا، ولكن روحك الزكية التي تحمل كل معاني الإباء والإيمان والعمل سوف تبقى خالدة في قلوبنا خلود هذه المعاني في كل زمان ومكان.

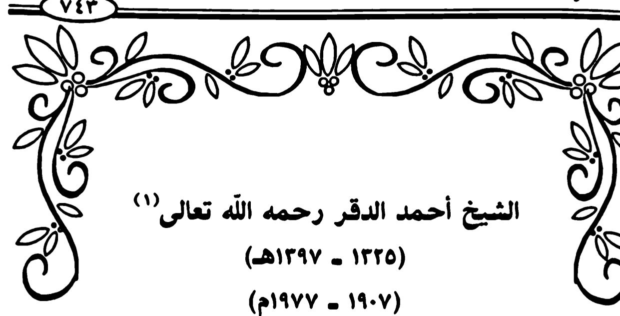
إنَّ الدموع السخيَّة التي ذرفناها عليك ستكتب اسمك في أفئدتنا، وسترسم صورتك في قلوبنا، وستخلِّد ذكراك في أرواحنا.

وأنتم يا آل الفقيد وأخوته لستم وحدكم في المصيبة، ولستم وحدكم الذين فقدتم أبا عمر، وإنما فقده كل مسلم وكل مؤمن.

وختاماً أخي الحبيب: نسأل الله الكريم أن يُكرم مَثْواك، وأن يرحمك رحمة واسعة، وأن يجعلك في أعالي الجنان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً، ونسأله تعالى أن يكرمنا بأن نسير على طريقك طريق الشهداء والأتقياء والعاملين.

فللَّه ما أخذ، وله ما أعطى، وكلُّ شيء عنده بأجل، نصبر ونحتسب، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.





الشيخ أحمد الدقر رحمه الله تعالى[١]

(١٣٢٥ ـ ١٣٩٧هـ)

(١٩٠٧ ـ ١٩٧٧م)

للأستاذ: عبدالغني الدقر



أخي في ظلال أبي:

يرحم الله أخي أنفق نحواً من خمسين سنة هي زهرة عمره في سبيل الله، ونُصرة دينه، وفي سبيل ما لا يشك أنه الحق.

مرشد بلاد الشام الشيخ علي الدقر:

كان إمامه وقدوته ومعلمه أبوه وشيخه مرشد بلاد الشام العالم الجليل الشيخ علي الدقر، الذي دخل إرشاده وعلمه وإخلاصه وغيرته كل دار في دمشق، بل كل قلب إلا من ران الضلال أو الكفر أو الانحراف أو الحسد على قلبه.

كان سلطانه على أفئدة الناس بالله ولدين الله لا يوازيه سلطان، مهما

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م)، وينظر: «تاريخ علماء دمشق» (٢/٩٢٦ ـ ٩٣١).

يبلغ من القدرة والنفوذ، وسرُّ ذلك: أنه ـ رضي الله عنه ـ لم يعش حياته كلها لذرة من دنياه، سواء أكانت مالاً أم جاهاً أم نفوذاً، وإنما كانت حياته وقفاً على الدعوة إلى الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]، والانتصار لدينه، والغيرة الثائرة أن يقتحم الكفر والاستعمار وذيول الاستعمار ديار المسلمين وعقولهم ونفوسهم فيسرق دينهم ومروءتهم وشهامتهم وعزتهم. وما زال لذلك يصرخ وينادي ويبشر وينذر حتى أسكته الموت حميداً، مرفوع العمل الصالح إلى الله إن شاء الله، ولكنه وإن مات جسده فما برح يحيا بعلمه وروحه وإرشاده في نفوس كثيرة من تلاميذه، وتلاميذ تلاميذه ومَنْ بعدهم حتى يأتي أمر الله، فكلُّ هؤلاء لن ينسوه عالماً مرشداً مقداماً غيوراً لم تطلْ شمس عصره على مثله، كلا لن ينسوه، بل يذكروه في كل مناسبة وفاة واقتداء، ومَضرب مثل للزهد والتقوى والإخلاص والتضحية والبذل، والفناء في الله والدعوة إليه.

مَوْضع الشيخ أحمد الدقر من جهاد أبيه وإرشاده:

وما كنت أريد هنا أن أكتب عن والدي، فما يكفي للتحدُّث عنه بضعة أسطر في مقال ولا بضع مقالات، فحياته تستوعب أكثر من ذلك بكثير، وإنما أكتب هذا القليل لأضع أخي المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد في موضعه من جهاد أبيه وإرشاده وعمله، فلقد أدرك فجر نهضة أبيه، بل رافقها يوم لم يكن من حوله إلا أقل من ثلاثين رجلاً من إخوانه الدمشقيين يُعلِّمهم النحو والفقه وبعض علوم الدين والعربية الأخرى، ويحرص على إرشادهم ليقرنوا إلى العلم العمل، وكان أخي ـ رحمه الله ـ أحدهم.

بروز مظاهر التَّديُّن بين الناس:

إلى أن تفجَّرت دعوة أبيه الشيخ الكبير فملأت الآفاق، وأقبل الناس عليها إقبالاً لم يُعرف مثله لأحد ممَّن عاصره، فبرزت مظاهر التديُّن بين الناس، فتوَّج الشباب والشيوخ رؤوسَهم بالعمائم، واحتَجَب النساء بالأزر البيض، وامتلأت المساجد بالمصلين. حتى شَعَر المستعمر حينذاك أن في البلاد حَدَثاً لم يكن يعهده، فارتاعَ لذلك، وحرص على لقاء الشيخ الكبير

ليسأله عن هذا الحدث الخطير الذي ظهر فجأة: هل من ورائه شيء يراد؟ فأجاب المرشد الكبير: إنا لندعو إلى دين الله، ونحث الناس على الالتزام بأوامره فروضاً وسنناً، واستجاب كثير من الناس ـ والحمد لله ـ لهذه الدعوة، والذي ترون من مظاهر الاستجابة. واكتفى المستعمر من الشيخ الكبير بهذا.

العدوُّ الأول والأمضى للمستعمر:

ولو أراد أن يعرف حقيقة ما ينادي به الشيخ الكبير، ومبلغ تأثيره لأدرك أنه العدو الأول والأمضى للمستعمر، ذلك أنه لا يجتمع في قلب رجل واحد دين حق راسخ مع أيِّ لون من ألوان الاستعمار مادياً كان أو معنوياً أو فكرياً، خصوصاً والقاعدة الفقهية تقول: إذا اقتحم عدو بلداً مسلماً، وجب وجوباً عينياً على الكبير والصغير والرجل والمرأة أن ينهضوا جميعاً لردِّ الغزو الاستعماري الكافر والمرتد.

دعوة الشيخ علي الدقر للجهاد وتحذيره من أعداء الدين والوطن:

ولقد كانت الكثرة من المؤمنين يتسابقون ويتزاحمون ليجدوا مكاناً ـ ولو بقدر مفحص قطاة ـ في المسجد الذي كان الشيخ الكبير يعظ فيه ليسمعوا منه كلاماً يهزّ قلوبهم، بل يهزّ وجودهم، كلاماً يتفجَّر من قلب ملتهب بحرارة الإيمان، والصدق، والغيرة، والإخلاص، ثم ما يزال بالناس يُحذِّرهم ويُنذرهم ويحضُّهم على الجهاد حتى يخرجوا من المسجد، ويتمنَّى أحدهم لو قاتل وحده، وكثير من الحضور حفظ منه قولاً حتى صار مأثوراً، وهو قوله في المستعمرين أعداء الوطن والدين: **«إن السرّاق دخلوا دياركم، يريدون أن يسرقوا دينكم وأموالكم وأعراضكم فاستيقظوا وتنبهوا واحذروا»**، وحفظوا منه قولاً آخر وهو قوله: **«إنَّ هذه المدارس مصانع الكفر»** يريد بذلك المدارس التي كانت صنيعة الكفار المستعمرين، فقد كانت تشكِّك الناس في دينهم وأخلاق أسلافهم.

أثر دروس الشيخ علي الدقر:

ولقد نتج عن دروس الشيخ الكبير الوالد ثلاث نتائج، كل واحدة منها

كان لها الأثر الكبير في بناء مجد الأمة: الجهاد في سبيل الله، ونشر العلم الشرعي، وفتح مدارس لأبناء المسلمين، وكلها كان لأخي المرحوم السهم الأوفر بعد أبيه في تنظيمها وتهيئتها.

الجهاد في سبيل الله:

أما الأولى: وهي الجهاد فمن حقّ والدي الشيخ الكبير على التاريخ أن يذكره أحد القليلين الذين أعدوا لتفجير الثورة السورية، وذلك أنه - يرحمه الله - كان يوقد في النفوس باسم الدين الحماس ويُغْريهم بالشهادة، حتى اجتمع منهم ثلة ممَّن عُرفوا بالبسالة والإقدام والرغبة في الجهاد على أخي المرحوم ليقرأ عليهم كتاب «فتوح الشام» للواقدي الذي امتلأ بالحديث عن بطولات الصحابة رضوان الله عليهم، وخصوصاً سيف الله خالد بن الوليد، وكانت قراءة هذا الكتاب في إحدى المدارس القديمة التي كانت بإدارة الشيخ الكبير والدي، وهي (مدرسة العداس)، وكانت خلف القصر العدلي في الزاوية الغربية الجنوبية، واستؤصلت في تنظيم الشارع، وعهدي بهذه المدرسة بعد قليل من ذلك، ملئت سلاحاً، ثم بعد فترة ملئت بطلبة العلم الذين أصبحوا بعد ذلك علماء تقرُّ بهم عين الشريعة، منهم: **الفقيه الكبير الشيخ أحمد البصروي، والعالم التقي الفقيه الشيخ عبدالكريم الرفاعي، والعالم المرشد الشيخ عبدالرحمٰن الطيبي**، رحمهم الله تعالى وغيرهم والحمد لله كثير.

صُحبته العلامة بدر الدين الحَسَني في رحلته إلى بلاد الشام للحثِّ على الجهاد:

ثم إن والدي الشيخ الكبير وبعض العلماء قام بصحبة شيخه حافظ عصره وعلامة زمنه الشيخ محمد بدر الدين الحسني برحلة إلى بلاد الشام. وكان والدي اللسان الناطق المؤثر في هذه الرحلة، وكان يهتبل كل فرصة ليحثَّ فيها على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

اندلاع ثورة سنة ١٩٢٥:

وبعد نحو شهرين عادوا وخرجت دمشق بشبابها وشيبها ونسائها وأطفالها لاستقبالهم، ما لبثوا بعد أوْبتهم إلا قليلاً حتى اندلعت الثورة سنة ١٩٢٥م، وكان أولئك النفر الذين كانوا يجتمعوا ليسمعوا كتاب «فتوح الشام» من أخي عليه رحمة الله من أوائل من خرج للجهاد في سبيل الله، وكلّ منهم كان قائداً لجماعات من الثوار، وخرج على أثرهم كثير من تلاميذ الشيخ الكبير والدي، خرجوا لله والاستشهاد في سبيله لا طمعاً في دنيا، ولا شهوةً في زعامة أو رياسة، ولا رغبة في أن تُسمَّى الشوارع بأسمائهم، ولا في أن يعلن عنهم في الكتب والصحف، بل خرجوا تلبية لأمر الله، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً.

نَشْرُ العلم الشرعيّ:

وأما الثانية من النتائج الثلاث: فقد نظر والدي الشيخ الكبير عليه رحمة الله، فرأى أنّ البلاد كادت تخلو من العلماء، العلماء العاملين الذين يحرصون على عقائد الناس وأخلاقهم ودينهم، ففتح الباب للراغبين في طلب العلم على طريقته، مع قلّة الاستعداد وضيق الأماكن.

إرسال الطلبة المرشدين إلى قرى دمشق ووصاياه لهم:

ولم يكتف الشيخ الكبير بالواردين عليه، بل كان يرسل في كلّ رمضان من إخوانه مَنْ يُرشد الناس في القرى والأرياف من دمشق وحوران والجولان والأردن والبقاع، ويُزوّدهم بوصاياه، ومن أهم وصاياه لهم: **أن يزهدوا فيما عند الناس فلا يقبلوا عطاء أحد، وأن يصبروا على إعراض الناس عنهم، وأن يصدقوا مع الله في أقوالهم وأفعالهم**، ولما رأى منهم الناس ذلك حتى أقبلوا عليهم إقبالاً ما كانوا ينتظرون بعضه، فإذا أتمُّوا ما أُرسلوا من أجله عادوا مُصْطحبين معهم العشرات من الراغبين حتى قلّ بلد ذهب الطلبة المرشدون إليه لم يأت منه مَنْ يطلب العلم، حتى بلغوا أكثر من سبعمائة طالب كلهم على طريقة شيخهم: علمٌ وعمل، والغريب أنّ

أحدهم لا يكاد يبلغ في طلب العلم فترة ستة أشهر حتى يجد أن عنده ما يعظ به الناس وما يؤثر به عليهم.

فتح المدارس لأبناء المسلمين:

وأما الثالثة فقد كان الشيخ الكبير يحسّ زمن الانتداب أن أطفالنا في خطر من جهة تربيتهم وأخلاق أمتهم ودينهم، فرأى أن يفتتح مدارس للبنين والبنات تُعنى بتعليم كتاب الله، والاهتمام بالدين تدريساً وتسليكاً، مع باقي العلوم التي تشارك فيها المدارس الأخرى.

ظهور الجمعية الغرّاء:

ولهذه النتائج ظهرت الجمعية الغرّاء من عِلْيةِ الناس الموثوقين في دينهم وأمانتهم لِتُعينَ والدي الشيخ الكبير فيما نهض به من تعليم الكبار الوافدين: الشريعة والعربية ومهمة الإرشاد، ومن تعليم الصغار في مدارس ابتدائية.

ولهذه الجمعية التي خدمت أغراض شيخها المرشد الكبير، تاريخ حافل نأتي منه هنا بهذا العرض بأقل من القليل.

وكل من تخرّج في المعهد الشرعي ـ ويعدون بالآلاف ـ ومن تخرّج في المدارس الابتدائية لا يزالون ـ والحمد لله ـ يحافظون على ذلك الروح الذي بثّه فيهم مُدرّسوهم ومعلموهم الذين تلقّوا إرشاد الشيخ وتعليمه وتوجيهه مباشرة، بل إن تلاميذ المتخرّجين يسير معظمهم على هذا المنهج وهو تحقيق الإسلام روحاً ومعنى وشرعاً، لا الاكتفاء بالنسبة إليه، وما الحديث عن الجمعية الغرّاء في جميع فروع نشاطها إلا الحديث عن عَلَمين كبيرين مقدامين هما: الأستاذ المرحوم أخي الشيخ أحمد الدقر، والأستاذ المرحوم الشيخ عبدالحميد الطباع[1]؛ فهما حَمَلا أمانة الشيخ الكبير بجدّ وإخلاص وتفانٍ صغُر لقاءها عمل كل عامل.

(١) هو العالم الفاضل الشيخ عبدالحميد الطباع، المولود سنة ١٣١٦، والمتوفى سنة ١٣٧٢ عن ست وخمسين سنة. وهو أخو الشيخ مراد الطباع، وابن خالة والدة الشيخ علي الطنطاوي كما أفادني بذلك شيخنا العلامة علي الطنطاوي.

اهتمام الشيخ علي الدقر بابنه أحمد:

ولست بسبيل الحديث عن ثانيهما المرحوم الأستاذ الطباع، ولكنّي في معرض الحديث عن الأول منهما أخي الأستاذ الدقر، فقد اهتمّ به والده فتعهّده بتربيته وعنايته، فكان صحيح العقيدة، صحيح العقل، صحيح النفس، جيدَ الرأي، محافظاً على تراث أبيه، خادماً لمصلحة المسلمين.

وكان دون العشرين من العمر حين أضحى عَضُد أبيه، حَمَل أعباءه كلها بمعونة أخيه وزميله الشيخ عبدالحميد الطباع، وأبقيا للشيخ الكبير مهمة التوجيه والإرشاد والقطع بالأمر له وجهات نظر متعددة.

أثر الشيخ أحمد الدقر في الجمعيّة الغرّاء ومعهدها الشرعي:

وما إن أنشئت الجمعية الغرّاء حتى كان من أوائل أعضائها، بل كان بالحق قريناً للقروم من الرجال بعقله ورأيه وهو دونهم بالسن، ثم كان بعد ذلك المنفذ الفعلي لقرارات الجمعية وأعمالها، وحمل جميع مسؤوليات المعهد الشرعي بتنظيم الطلبة في دراساتهم وأساتيذهم ونظمهم في مبيتهم وفي طعامهم وشرابهم، وحرص كلَّ الحرص على المحافظة على أخلاقهم ودينهم وعلمهم ومطالعاتهم، ولقد حفظ رحمه الله جميع وصايا أبيه ورغباته وعمل بها وطبّقها على الطلبة في المظهر والمخبر.

واتّجه مع ذلك إلى تنظيم المدارس الابتدائية التابعة للجمعية، فكانت بحق من خيرة المدارس تحفظُ للصغير دينه، وتعلمه القرآن، ولا تقصر به في جميع العلوم الأخرى.

وهذا يستدعي كل ما عنده من جهد وطاقة، ويستدعي أعواناً كثيرين ومع ذلك قام به وحده.

ولا يعرف أحدٌ من مرجع لكلّ مشكل في جميع أعمال الجمعية الداخلية غيره، أما الأعمال الخارجية فليس لها أحد غيره أيضاً بعد وفاة زميله وأحد خاصّة أبيه المرحوم الأستاذ الشيخ عبدالحميد.

وهذا البناء الشامخ الذي بناه الشيخ الكبير، وبذل ابنه المرحوم الشيخ

أحمد في سبيل بقائه ونموه أكثر من أربعين سنة، هذا البناء الضخم هدمه بجرّة قلم من لا يخاف الله، ومَنْ لا يأبه بمصلحة المسلمين، ولا يبالي بلعنة التاريخ.

وبعد فالحديث عن أخي المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد حديث عن جميع أعمال الجمعية الغرّاء، وهذا لا تحصره كلمات في موضوع، بل ذلك محتاج إلى مقالات إن لم نقل: إلى كتب، وعسى أن يسمح الزمن فنكتب دور كل أحد ونضعه مكانه من غير إسراف ولا تقصير حتى بعض الجنود المجهولين الذين لهم الأثر الكبير في تطوير المعهد وتقدمه.

صفاته الذاتيّة:

أما صفات أخي الذاتية: فقد كان ـ رحمه الله ـ مَصُوناً دِيْناً، طيب السريرة، ذكياً عاقلاً، ذا رأي وفهم، كان إذا حَزَبَ الناسَ أمرٌ يتعلق بدينهم أو وطنهم، كان من أوائل من يُطلب لمداولة الرأي معه، وكثيراً ما أخذ برأيه، وكان يكره الوقوف بأبواب الرؤساء والوزراء إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك، وإذا اضطر لذلك فلا يُداري ولا يُماري ولا يُداجي، بل يقول ما يرى صريحاً من غير لفّ ودوران.

وكان يؤخذ عليه الصلابة واليبوسة فيما يقتنع أنه الحق، وهذا ممّا يشرّفه، وليأخذ عليه مَنْ شاء ما شاء ما دام يصرُّ على ما يعتقد وما يقنع به.

مَرَضُه وصبره ورضاه:

ولقد أقعده المرض في الفراش نحواً من اثنتي عشرة سنة، فكان غايةً في الصبر، غايةً في الرضا عن الله، لا يفتُر لسانه عن الحمد لله تعالى. وهكذا وافاه أجله مؤمناً صادقاً، قدّم أمامه من جليل الأعمال لله، ما يجعله ـ إن شاء الله ـ رفيق والده في عليين في صُحْبة الأنبياء والعلماء والعاملين المخلصين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.





الدكتور محمد أمين المصري[1]
(١٣٣٣ - ١٣٩٧هـ)
(١٩١٤ - ١٩٧٧م)

اعدّها واختارها مَجْد مكّي

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد الدكتور المصري - رحمه الله تعالى - في دمشق، وبعد إنهاء دراسته الثانوية عمل في سلك التدريس، ونشأ مع فتيةٍ من جيله على حب الإسلام ومطالعة كتبه.

وقد أثّر فيه كتاب «إحياء علوم الدين» كثيراً حتى آخر حياته، وكان يتميّز بإرادة صلبة، جعلته يُطبّق كثيراً ممّا يمرُ معه في «الإحياء» للغزالي، مهما كان هذا الذي يُطبّقه.

دراسته وشيوخه:

وقد ساهم - رحمه الله تعالى - في الندوات العلمية إسهاماً جيّداً، وكان يحضر دروس عالم الشام الشيخ محمد بدر الدين الحَسَني، ودروس الشيخ أبي الخير الميداني وغيرهما.

---

(١) نشرت بتاريخ: ٢٠٠٨/٠٦/٢٤م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

حصل على الشهادة الجامعية في الأزهر بعد عام ١٩٤١م، ومن ثَمّ حصل على تخصُّص التدريس، ثم عمل مدرساً في ثانويات دمشق.

وكان له صلة طيّبة بالدعوة الإسلامية في مصر، كما كان حريصاً على حضور محاضرات الأستاذ «حسن البنا» ـ رحمه الله تعالى ـ والعلامة محمد الخضر حسين.

عنايته بتدبّر سورة الأنفال:

وكان يركّز في دروسه ومحاضراته على سورة الأنفال وتفسيرها، يريد من وراء الأنفال أن يذكر بدراً، والقلة المؤمنة، القلة التي تُنقذ الموقف... وألقى محاضرات عديدة في مسجد المرابط بحي المهاجرين بدمشق، وفي مسجد الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة حتى ظنّ الظانّون أنه لا يحسن غير سورة الأنفال، وكان يمازح من يعرفه ويقول: «أنا لا أعرف إلا تفسير سورة الأنفال!».

اهتمامه بالتربية:

وكان توّاقاً إلى تخريج دعاةٍ ومجاهدين، لا موظَّفين وأصحاب شهادات، فكان كثير الاهتمام بعلوم التربية، يرى أن المشكلة الأساسية والأولى هي: كيف نُربّي؟ هل نُربّي الأطفال والشباب على الخوف وحب الوظيفة أم على الجهاد؟ ويذكر دائماً السيدة عفراء التي قدّمت للإسلام سبعة من أولادها الشباب، استشهدوا في المعارك الأولى في الإسلام.

تعيينه ملحقاً ثقافياً للسفارة السورية بباكستان:

وفي عام ١٩٥١م، عُيّن مُلحقاً ثقافياً للسفارة السورية في باكستان، وبقي هناك خمس سنوات، وقد اضطلع خلال هذه الفترة بجهود طيبة في نشر اللغة العربية لغير أهلها، وتعرّف على علماء باكستان، لاسيما المحدثين منهم، كما توثقت صلته بالشيخ أبي الأعلى المودودي.

حصوله على شهادة الدكتوراه من بريطانيا:

وفي عام ١٩٥٦م، سافر إلى بريطانيا للتحضير لرسالة الدكتوراه، وحصل عليها عام ١٩٥٩م، كان موضوعها «معايير النقد عند المحدثين»، ورجع مدرساً في كليّة الشريعة في جامعة دمشق.

ومما يذكر هنا أنَّ المستشرقين أَبَوْا أن يكون موضوع دراسته نقد «المستشرق شاخت» فاختار موضوعاً في الحديث. وكان له ـ رحمه الله تعالى ـ أثناء رحلته لأوروبا وقفات لا تنسى مع المستشرقين، وعندما ترأس قسم الدراسات العليا في كليّة الشريعة بمكة المكرمة، كان يُحذِّر من ابتعاث أبناء المسلمين إلى ديار الغرب.

إقامته في السعوديّة وتأسيسه قسم الدراسات العليا في مكّة المكرمة:

وفي عام ١٩٦٥م، سافر إلى السعودية للتدريس في جامعة الملك عبدالعزيز ـ كليّة الشريعة ـ في مكة المكرمة، وقد شارك في تأسيس قسم الدراسات العليا فيها.

وقبل وفاته بثلاث سنوات، انتقل إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، رئيساً للدراسات العليا فيها، وكان له دورٌ في وضع مناهجها.

دروسه في التفسير والسيرة:

ولم ينقطع عن دروسه ومحاضراته، وكلها في التفسير والسيرة النبوية، وكانت دروسه في التفسير تدور حول سورة الأنفال أو سورة آل عمران للحديث عن غزوة بدر أو غزوة أحد.

وكان الموضوع الرئيس الذي تدور حوله دروس الشيخ وفكره هو التربية، والتربية الجهادية خاصة، وكان يكثر من الحديث عن غزوات الرسول ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم.

ابرز كتبه ومؤلّفاته:

١ ـ الطرق الخاصّة للتربية الإسلامية.

٢ ـ من هدي سورة الأنفال، دار الأرقم بالكويت ١٤٠٠هـ.

٣ ـ لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها، بيروت دار الفكر، ١٣٩٨هـ، ط٤.

٤ ـ المسؤولية، طبعة (٢)، الكويت، دار الأرقم، ١٤٠٠هـ.

٥ ـ المجتمع الإسلامي: وجهة التعليم في العالم الإسلامي، ط٤، الكويت، دار الأرقم ١٤٠٦هـ.

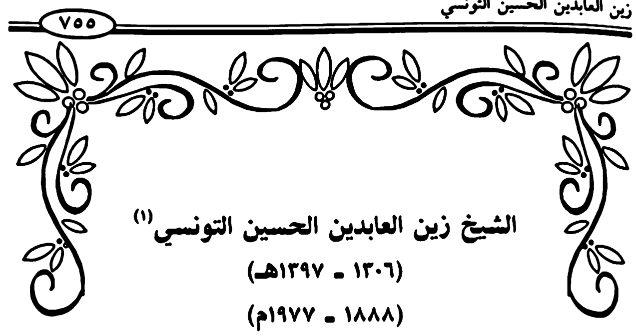
٦ ـ وله أيضاً: محاضرات في فقه السيرة، ومحاضرات في العقيدة لم تطبع حتى الآن.

وفاته:

توفي في سويسرا في شهر رمضان ١٣٩٧هـ على إثر عملية جراحية في أحد مستشفياتها، ونقل جثمانه إلى مكة المكرمة، حيث دفن فيها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة[١].

□□□□□

(١) علماء الشام في القرن العشرين وجهودهم في إيقاظ الأمة، للأستاذ محمد حامد الناصر، ص١٩٣ ـ ١٩٩.



الشيخ زين العابدين الحسين التونسي[١]

(١٣٠٦ ـ ١٣٩٧هـ)

(١٨٨٨ ـ ١٩٧٧م)

بقلم ابنه: المحامي علي الرضا التونسي



سلامُ الله ورحمته عليك ورضوانه:

ما أسعده من يوم ولدت فيه تحت سماء تونس وفوق أديمها الأخضر، وما أجلها من ساعة مباركة ميمونة من عام ١٨٨٨م من تلك الساعات الخالدة التي يتفضل بها الله جلّ جلاله على خلقه برجال مختارين من بطون أمهات طاهرات صالحات.

أسرة علم وعمل:

سلام عليك يوم نشأت في أسرة علم وعمل، والدك الزاهد العالم الشيخ حسين بن علي بن عمر، وجدك المنعم ذاك الذي ما برح المئات من أبناء الجزائر كل عام ومنذ أكثر من مئة وخمسين عاماً وحتى يومنا هذا، يتخرجون من دار القرآن التي شيَّدها في (طولقة) حفظةً لكتاب الله العظيم، وشباباً نشؤوا في طاعة الله.

---

(١) حضارة الإسلام، العددان ٩ـ ١٠ من السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م).

ووالدتك العابدة الناسكة السيدة حليمة بنت العلامة مصطفى بن عزُّوز، وفي حجرها الطاهر، ربا جسمك على العبادة، وأشرقت نفسك على الدنيا بعد أن تشربت حلاوة الإيمان. لقد لقنتك تلك الأم البارة ـ وما أحوج المسلمين لأمهات تقيات ـ القراءة والكتابة مع لبانها، وكانت قدوتك في الخلق الكريم، والطبع السمح، والأدب الجم.

وشقيقك الأكبر العلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر الذي عرفه العالمان شرقه وغربه حجة الإسلام. فكان لك أخاً وصديقاً وأستاذاً، وخالك العلامة الأجل محمد المكي بن عزوز الفقيه والمحدِّث والأديب، وشقيقك الأصغر العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين.

دوحة فيَّاضة، رُبِّيت في أحضان أمهات فاضلات، وبين أخوة علماء وأدباء، وأخوال أفذاذ فقهاء.

في جامع الزيتونة:

وأقبلت إلى جامع الزيتونة لطلب العلم، وهو أكبر معهد إسلامي في تونس، فأخذت عن أساتذته الأجلاء روائع كتب التفسير والحديث والسيرة والفقه والأدب.

وما إن بلغت شأوك، حتى كان التضييق والإرهاب قد بلغ أشدّه على أخيك الإمام محمد الخضر لنضاله عن الهدى وكفاحه ضد الباطل، فصَدَر الحكم عليه بالإعدام لدعوته للتحرير ضد المستعمر، فخرجت أسرتك فراراً بدينها مهاجرةً في سبيل الله لتبحث عن بلد مطمئن آخر، وهل غير دمشق المدينة المسلمة المؤمنة الصَّامدة من مهبطٍ للأفئدة ودارٍ للفضيلة ودعوة إلى الحق؟

خروجه مع أسرته مهاجراً في سبيل الله إلى دمشق:

انتقلت أسرتك بكلِّ علمها وفضلها عام ١٣٣٠هـ، الموافق لعام ١٩١٢م من تونس إلى دمشق، فنزلت أهلاً ووطأت سهلاً. وكانت الروضة

التي بدأت فيها رحلة الإخلاص في العمل لله، ومن هذه المدينة الماجدة انطلقت - يا سيدي - في درب الهداية الإسلامية والتربية الخلقية.

بدأت جهادك الطويل الشاق من موقعين عظيمين - المسجد والمدرسة - وأشرفت على أبناء دمشق من خلالهما، لأنك كنت ترى صلاح الأمة مرتبطاً بهاتين القلعتين الشامختين فإذا ثلمتا فقل على الأمة السلام.

نشره العلم في مساجد دمشق:

عرفك مسجد بني أمية عالماً، وجامع سيدي صهيب مدرساً، وجامع منجك موجهاً، وجامع الخانكية مربياً فاضلاً. وطيلة سبعين سنة كاملة أعطيت دمشق كل ما لديك من آداب نبويّة وأخلاق السلف الصالح.

جهاده العلمي في مدارس دمشق:

ومدارس دمشق بمراحلها الابتدائية والثانوية ودور المعلمين، وعلى مرّ خمسين عاماً، سَقَيْتَها من جُهدك وتوجيهك وإرشادك فأثمرت العديد من الوزراء الشرفاء، والقادة الحكماء، والرجال كبار النفوس من أبناء الأمة.

التوجيه والوعظ والإرشاد:

ودور دمشق في أحيائها القديمة والحديثة، فتحت لك ذراعيها طيلة أيام الأسبوع للتوجيه والوعظ والإرشاد: فكانت ليلة الشباب المثقف، وليلة تجار المدينة، وليلة أبناء الريف، وليلة الأميين البسطاء، وليلة الدعاء والصلوات، فكنت توفي كل جماعة حقَّها بما يلائم مستواها ومشربها، فجعلت الأيام أحب إليهم من أهليهم والدنيا وما فيها.

تاليفه «المعجم المدرسي» و«المعجم في النحو والصرف»:

وفي أوقات كنت تقتنصها اقتناصاً، انصرفت إلى وضع (المعجم المدرسي) طيلة خمس سنوات. فأسعدت اللغة العربية وخدمتها الخدمة

الجلى، وكان المعين للطالب والأديب والمعلم. ثم قدمت (المعجم في النحو والصرف) فأزلت به الجفاء بين الطالب وقواعد اللغة، وحبَّبتها له حباً جماً، وما كانت خدمتك للغة إلا لأنها لغة القرآن.

مؤلفاته الكثيرة:

زوَّدتَ المكتبة الإسلامية بالعديد من كتب التوجيه السديد، فها هو كتاب (دروس الوعظ والإرشاد)، وكتاب (الدين والقرآن)، وكتاب (القرآن القانون الإلهي)، ثم (المعجم في القرآن)، و(آداب المؤمن)، و(الأربعون الميدانية). كما زوَّدت المكتبة المدرسيّة بما ينفع الناشئة مثل كتاب (الطرف)، و(المفردات والمحادثة)، و(الإملاء).

والسلامُ على أخلاقك مع أهلك وجيرانك ومعارفك، ولن أوفيك حقك في هذه الكلمة، وإنما لقاؤنا في كتاب سيرتك - إن شاء الله - لا لأنك والدي، بل لأني أتمنّى لكل إنسان مسلم أن يكون مثلك إنساناً مسلماً، لتكون العزة للإسلام.

رثاء الأستاذ علي الرضا التونسي لأبيه:

وإلى روحك الزكية أرفع هذه الأبيات:

لَسْتُ أبكيك ولا الدمع هَمَى ... إنما أذرف من عيني الدما
ليس في الصَّدر فؤاد إنما ... ألم يعصر مني الألما
ليس في الآذان وقر إنما ... بعد همس (الزين) عافت نغما
كنت بالأمس على أقدامه ... ألثم النور وأفدي القدما
أتملّى طلعة ريّانة ... أشرقت هدياً وكانت بلسما
فأتى داعي الرَّدى في لحظة ... - راعني هولاً - وهزَّ المعصما
وكأنَّ الشيخ إذ رافقه ... قد رأى روضته فابتسما
جفَّت العبرة لما أعلنوا ... نبأ أضرم قلبي ضرما
صرخة محمومة أخفيتها ... ثم أطبقت على المُرِّ الفما

رائدَ النّعش ترفّق يا فتى — إنَّ فوق النعش شمسا غلما
فاسأل الشام وسَلْ مَيْدانها — هل رأت مثل صفاه شبما
كم بنى صرحاً لعلم شاهقا — ينشر الخير ويرعى الحكما
شرف العرفان والعلم به — وسَنَا الإيمان يمحو الظلما
كم نواد عطِّرت ساحتها — بأريج (الزين) طابت نسما
لغة القرآن كم قدَّسها — فأتى المعجم يهدي العجما
عانق القرآن من غدوته — وانتضى نحو الضلال القلما
دوحةٌ طاهرةٌ فيَّاحة — قد رَبَا فيها عزيزاً ونَمَا
قبسٌ من جدِّه عظَّمه — فهو ابن المصطفى قد عُظِّما

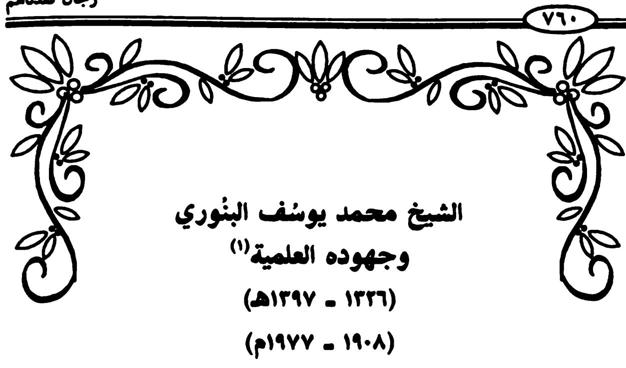
* * *

يا سُقَاة القبر هاكم مهجتي — فاجعلوها إن تشاؤوا سُلَّما
واهبطوا في اللَّحد هَوْناً إنه — جلَّ هذا الشيخ حتى عظما
واجعلوا بعض جفوني مرقداً — وانشروا من زفراتي غمما
قد تولَّى عن عيوني عَلَمٌ — صافح النَّجمَ سمواً وسما
ومَضَت تسعون عاماً حُلُماً — لَيْتَها تسع قرون حلما

* * *

إيه يا زين لقد علَّمتنا — خشيةَ الله وأن نرعى الحِمَى
ولقد لقَّنتنا من صغر — عِزَّة الإسلام حتى ارتسما
وعَلِمْنَا منك أنَّ الله لا — يُخْزِي من كان به مُعتصما
هذه آثاره تذكرنا — أنه حيٌّ يُضاهي القِمَما

□ □ □ □ □



الشيخ محمد يوسف البنوري وجهوده العلمية[1]

(١٣٢٦ - ١٣٩٧هـ)

(١٩٠٨ - ١٩٧٧م)

للأستاذ الدكتور: عبدالعزيز عزّت عبدالجليل

نسبته وبيئته:

هو محمد يوسف بن محمد بن زكريا البنُوري.

والبنُوري نسبة إلى بلدة - «بنُور» - قرية من قرى «البنجاب الشرقي» من ولاية (بتيالة) من ولايات الهند.

ولقّب كذلك بالبشاوري، نسبة إلى مدينة «بشاور» عاصمة الحدود الشمالية الغربية في «باكستان» المتاخمة للحدود مع «أفغانستان»، وتقع على مسافة ثلاثة عشر ميلاً من ممر «خيبر» المعروف في التاريخ.

وممّا هو معروف أنّ للبيئة أثرها في تكوين الفرد، فقد نشأ الشيخ محمد يوسف البنُوري في أسرة علمية حملت لواء العلم، وورّثته الأبناء والأحفاد.

---

(١) مجلة الأزهر، العدد ٤، السنة الرابعة والستون: (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).

طلبه للعلم:

حفظ العلامة البنوري القرآن الكريم في صغره، وتلقَّى مبادئ العلوم على أبيه وخاله، ثم رحل مع أبيه إلى «أفغانستان»، وبعد العودة إلى «بشاور» تلقى دروسه على أشهر العلماء هناك في ذلك الوقت، ثم رحل إلى مدينة «جلال آباد» في أفغانستان، وانتقل بعد ذلك إلى «الهند»، والتحق بمدرسة دار العلوم ديوبند التي لقبت «بقرطبة الهند»، و«أزهر آسيا».

وبعد ذلك توجَّه إلى ـ «دابهيل» ـ من أعمال «بومباي» محط كبار العلماء، ومَوْئلهم، ولا يخفى على أيِّ مُهتمّ بالدراسات الإسلامية دور رجال «الجامعة الإسلامية» في «دابهيل» وشُهرتهم في علوم الشريعة، وكانت رحلته فيما بعد إلى «كشمير»، ولم يمكث بها طويلاً.

مناصبه العلمية:

كان الشيخ البنوري شخصية علمية بارزة، وقد تبوَّأ مناصب عديدة أذكر منها الآتي:

(١) رئيساً لجمعية العلماء في إقليم «بشاور».

(٢) رئيساً لجمعية علماء الهند في «كجرات».

(٣) عُيِّن عضواً بارزاً في المجمع العربي «بدمشق».

(٤) عُيِّن كذلك عضواً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

(٥) اختير عضواً بجامعة كراتشي في لجنة انتخاب المدرسين بكلية الدراسات الإسلامية والعربية.

وغير ذلك من المناصب التي بلغت أكثر من ستة عشر منصباً علمياً.

ثناء العلامة الشيخ عبدالفتاح على شيخه البنُوري:

قال عنه الأستاذ المحدِّث عبدالفتاح أبو غدة: «كان ـ رحمه الله ـ كنز العلوم والفضائل لكلِّ مستفيد وسائل، وكان رأيه ثاقباً، وفكره مصباحاً

وضَّاءً، ينير السبيل للسالكين والمُسْتَهدين. أما غزير علمه ومكنون حفظه، فهو البحر العذْب النمير، والكوثر الصافي المورود، وهو الذي كانت تزدان به صدور مجالس أهل العلم والصلاح والقلوب، ولقد كان لي ـ والله ـ الرُّوحَ والبلسمَ والمنهلَ العذْب الذي لا يشبع منه الناهلون، ولا يظفر بمثله الطالبون. يوسُف هذا العصر! في علمه ودينه وجهاده وجهوده وكفاحه في وجه كلِّ عادٍ ومُغيرٍ على الإسلام والمسلمين»[1].

المُحدِّث المفسِّر:

كان ـ رحمه الله ـ مُحدِّثاً، وكان في منهجه يهتم بالسند والرجال، والدقَّة في الرواية والبحث والتأمُّل، وكان صاحب باع طويل في شرح الحديث الشريف وتدريسه.

كما كان الشيخ البنُوري مُفسِّراً، وكانت له مواقف من السير سيد أحمد خان بسبب التفسير الذي ألفه، وكذلك مع مولانا أبو الكلام آزاد، وردَّ على كتابه ـ «ترجمان البيان» في كتابه ـ «يتيمة البيان في علم القرآن»، كما انتقد أبا الأعلى المودودي فيما كتبه في تفسيره «تفهيم القرآن».

العالم الفقيه:

والبنُوري كذلك كان فقيهاً له اهتمام بالغ بعلم الفقه وأصوله، وقد وصفه من ترجم له بالفقيه، وكان حنفي المذهب، يفتي به، ويُرجِّحه على غيره دون تعصُّب.

---

(١) وقال شيخنا العلاَّمة عبدالفتاح أبو غدة في إهدائه لكتاب «مبادئ في علوم الحديث» ـ مقدمة فتح الملهم ـ لشبِّير أحمد العثماني: إلى روح شيخنا العلاَّمة المُحدِّث الضابط المُتقن النبيل، الفقيه المحقِّق الدرَّاكة البارع الأصيل، الداعي إلى الله بحالِهِ ومَقالِهِ، وسلوكِهِ وأعماله، الشيخ محمد يوسف البنُوري، مؤسِّس (جامعة العلوم الإسلامية) في مدينة كراتشي، أعلى اللهُ مقامَه لديه، وأكرم جائزة وفادته عليه، آمين.

الأديب الشاعر:

وكان البنُوري أديباً وشاعراً، وله آثار في الأدب العربي، وأذكر هنا نموذجاً من قصائده في مدح النبي ﷺ:

كأنَّ نجوماً أَوْمَضَتْ في الغياهب ... عيون الأفاعي أو رؤوس العقارب

إذا ما أتتني أزمة مُدلهمة ... تحيطُ بنفسي من جميع الجوانب

تطلَّبت هل من ناصر أو مساعد ... ألوذُ به من خوف سوء العواقب

فلستُ أرى إلا الحبيب محمداً ... رسول إله الخلق جمّ المناصب

وغير ذلك من القصائد في مختلف أغراض الشعر العربي.

مؤلفاته:

وللشيخ البنُوري مؤلفات عديدة في مختلف العلوم الدينية والأدبية.

ومن ذلك في علم الحديث الشريف الآتي:

- مقدمة «فيض الباري» وتحقيقه.
- تحقيق «نصب الراية» للزيلعي[(١)].
- مقدّمة «أوجز المسالك في موطأ مالك».
- مقدّمة «لامع الدراري على جامع البخاري».
- مقدّمة «بذل المجهود في حل أبي داود».
- مقدّمة «السنة ومكانتها في التشريع»[(٢)].
- ترتيب وتبويب مع إخراج وتصحيح «العرف الشذي شرح الترمذي»[(٣)].

---

(١) لم يحقق الأستاذ البنوري فيض الباري ولا نصب الراية، وإنّما قدّم لهما.

(٢) هذه المقدمة والثلاثة التي قبلها لا نعرف أن الشيخ قدّم لها.

(٣) وهو مجموع أمالي شيخه محمد أنور شاه الكشميري في تدريسه لسنن الترمذي.

- التعليق على «سنن أبي داود»، لا زال مخطوطاً.

- تحقيق وتخريج لـ «معاني الآثار» للطحاوي[١].

- «لب اللباب في تخريج ما يقول الترمذي: وفي الباب»[٢] - وغير ذلك كثير وكثير أتركه خوف الإطالة.

آثاره في الفقه:

- «الفتاوى» على مدى سنوات طويلة.

- «بغية الأريب في أحكام القبلة والمحاريب».

- «مقدمة للسعاية في كشف ما في شرح الوقاية».

- «مقدمة في عِقْد الجِيد في أدلة الاجتهاد والتقليد».

- «الأسماع إلى خصائص حَجّة الوداع».

وله في العقائد:

- موقف الأمة الإسلامية.

- مقدمة عقيدة الإسلام، وعدّة مقدّمات أخرى.

دوره في الدعوة الإسلامية:

وللشيخ البنُوري دورٌ هام في بناء المراكز الإسلامية والمساجد وإيفاد المبعوثين إلى جهات مختلفة لنشر الدعوة الإسلامية خاصّة في «أفريقيا» و«أوروبا» و«أمريكا».

---

(١) لا يعرف أن الشيخ رحمه الله تعالى حقّق وخرّج «معاني الآثار».
(٢) ابتدأ العمل به، ولم يكمله.

ومن أبرز خدماته: مواجهته للقاديانية بالكلمة والتحرُّك المضاد والمباشر، ودوره الفعّال في حركة ـ ختم النبوة ـ حتى انتخب بالإجماع رئيساً لمجلس خَتْم النبوّة الأولى.

تاسيس جامعة العلوم الإسلامية بكراتشي:

وقد أسّس ـ عليه رحمة الله ـ «جامعة العلوم الإسلامية» ـ بمدينة «كراتشي» في الثالث من شهر المحرم سنة ١٣٧٤هـ = ١٩٥٣م، وتعد الآن من المفاخر الإسلامية في باكستان لما تتمتّع به من سمعة علمية وثقة المجتمع الباكستاني فيها، وكانت قبل ذلك تسمى المدرسة العربية الإسلامية أسسها بعد تقسيم الهند وباكستان.

وفاته ورثاؤه:

وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ في الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧م، وقد وافته المنية وهو يتهيأ للسفر إلى القاهرة لحضور مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية.

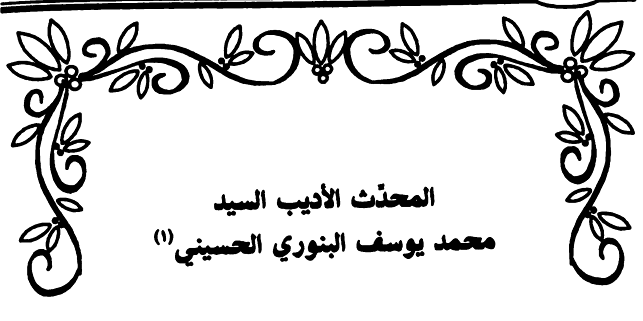
ومما قيل في رثائه:

رضينا بالقضاءِ من القدير ... إلَـهِ الخَلْق علاّمٍ خبيرِ
بموت الشيخ يوسُف بن بنور ... نظيف البشرة الصّافي الضمير
حَوَى علماً ورُشْداً ثمّ تقوى ... قنُوعاً في المعيشة باليسير
وما أحدٌ يُضَاهيه بوصف ... ولا يَدْنوه في علم غزير

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء[1].

□ □ □ □ □

(١) ألحقت ترجمة ضافية محرّرة للبنوري، سدّاً لجوانب الضعف في هذه الترجمة، وتعريفاً بمكانة العلامة الشيخ يوسف البنوري رحمه الله تعالى.



المحدّث الأديب السيد
محمد يوسف البنوري الحسيني[1]

اختيار وإعداد: مجد مكي

سلالة دوحة مباركة:

هو محمد يوسف بن السيد محمد زكريا بن المير مزمل شاه بن المير أحمد شاه البنُوري الحسيني، يتصل نسبه بسيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما[2].

مولده:

ولد في ٦ ربيع الآخر ١٣٢٦هـ =١٩٠٨م يوم الخميس وقت السحر.

---

(١) هذه الترجمة مستلّة من كتاب «دراسة حديثية فقهية عن معارف السنن شرح سنن الترمذي»، بقلم الأخ الكريم الدكتور محمد يحيى بلال منيار، ص٦٩ ـ ٨٧. وقد جعل ترجمته في خمسة مطالب: الأول: في سيرته ومسيرته، والثاني: في التعريف بمدرسته (المدرسة العربية الإسلامية)، والثالث: في موقفه التاريخي الخالد في القضاء على القاديانية، والرابع: جمال البيان واللغة عند البنوري، والخامس: عَلَم من الأعلام. وقد اقتصرت على المطلب الأول.

(٢) مجلة «بينات» ص٩ و١٠٥ ونفحة العنبر ص٢٦٧. و(بَنُور) هي قرية من قرى بنجاب الهند بالقرب من مدينة (سَرْهِنْد). ونضبط (بَنُور) بالتخفيف كـ(صبُور) أو بالتشديد كـ(التنّور)، لكن السائر على الألسنة اليوم كما يقول البنُوري، هو التخفيف. نفحة العنبر ص٢٦٨ وبغية الأريب للبنُوري ص١٨ (يحيى).

أسرته الراشدة:

كان أبوه الشيخ محمد زكريا البنُوري عالماً جيداً، طبيباً حاذقاً، صالحاً زاهداً، يجيد تعبير الرؤى، وكان أيضاً يكتب العربية الجيدة. وله مؤلفات مختصرة في موضوعات (الروح) و(المعجزات) و(الرؤى). توفي سنة ١٣٩٥هـ رحمه الله تعالى(١).

وكان جدّه المِير أحمد شاه رحمه الله تعالى رجلاً وجيهاً في غاية الصلاح والاستقامة. وممّا يُؤثَر عنه أنه أنشأ منطقة سكنية، لا يَسمح بالسكنى فيها إلا لمن كان محافظاً على الصلاة!(٢).

نشاته العلمية ومراحل دراسته المختلفة:

قرأ القرآن الكريم على والده وخاله، وتلقّى التعليم الأوّلي في مسقط رأسه بشاور، ثم في كابل عاصمة أفغانستان.

ثم ارتحل سنة ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م إلى (المدرسة الإسلامية الديوبندية) التي تقع بمدينة (ديوبند) شمال دهلي بمئة ميل، فدَرَس فيها باقي العلوم من سنة ١٣٤٥ إلى سنة ١٣٤٧.

ثم ارتحل منها سنة ١٣٤٧ ـ ١٩٢٩ إلى (مدرسة تعليم الدين) بقرية (دابهيل) في منطقة كُجرات فأكمل فيها دراسته التخصصية في الحديث الشريف وعلومه المعروفة في مدارس الهند بمرحلة (دورة الحديث الشريف)(٣)، ونجح فيها بتفوق ممتاز جداً.

---

(١) «بينات» ص٨٧ و٢٤، وإتمام الأعلام لنزار أباظة ورياض المالح ص٢٣٦ (يحيى).

(٢) «بينات» ص٢٤ (يحيى).

(٣) وهي دورة لدراسة الكتب الحديثية الستة، والموطأ، وشرح معاني الآثار، دراسة مكثفة في عام واحد، يتخرج الطالب على إثرها حائزاً على شهادة تقارب أو تعادل شهادة (البكالوريوس) أو (الليسانس) في أيامنا (يحيى).

وكان أبرز شيوخ هذه المدرسة الذين تأثر بهم البنُوري وتخرج عليهم في الحديث الشريف وعلومه، اثنان:

أحدهما: محقق العصر الشيخ شبير أحمد العثماني شارح صحيح مسلم بكتابه الفخم: «فتح الملهم شرح صحيح مسلم».

والآخر: إمام العصر المحدِّث الكبير العَلَم الشهير الشيخ محمد أنور شاه الكشميري. وهو يعدُّ عمدة البنُوري في التخريج والتكوين العلمي، فقد أخذت شخصيته بمجامع قلب البنُوري لأنه رأى فيه ما ملأ عينه من الفحولة العلمية والضلاعة والمتانة وامتلاك نواصي العلوم والفنون كافة، فألقى إليه بمقاليد نفسه، وأحبه بقلبه وقالبه، ولازمه ملازمة الظل للشاخص مدة سنة كاملة لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ولا سفراً ولا حضراً، وشامّه مشامّة تامّة حتى كان يُعدُّ من أخصّ تلامذته مع كونه أقلَّ واحدٍ وآخِرَ واحدٍ مصاحبةً له واستفادة منه.

نشاطُه المتنوِّع بعد التخرج:

ثم من سنة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤م بقي في وطنه بشاور يؤدي النشاط التدريسي، إلى جانب بعض الاشتراكات الاجتماعية والسياسيّة.

ثم اختارته مدرسة دابهيل سنة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٤م مدرِّساً بها، وأيضاً عضواً في إدارتها التأليفية التي تسمَّى بـ«المجلس العلمي»، وأُسند إليه حينئذ خدمة كتاب «العَرْف الشَّذي على جامع الترمذي» وهي مجموع أمالي شيخه الكشميري في تدريسه لسنن الترمذي، فكُلف البنُوري بتخريج نصوص هذا الكتاب وتوثيقها وضبطها وتحريرها، وكانت مهمة علمية صعبة جداً، لكن حسن كفاءة البنُوري في هذا العمل، أثمر له بعد ذلك إنتاج كتابه الفخم الحافل «معارف السنن».

ومن أهم أحداث هذه الفترة: ابتعاث «المجلس العلمي» له إلى بلاد مصر، لطبع كتابَيْ «نصب الراية» للزيلعي، و«فيض الباري على صحيح

البخاري». وكانت رحلة ممتعة طويلة استغرقت مدة سنة وزيادة[(١)].

وبعد عودته من هذه الرحلة، أُسند إليه منصب (مشيخة الحديث الشريف) بمدرسة دابهيل، وهو أعلى منصب بمدارس الهند، فبقي مُتصدِّراً بها إلى حين هجرته إلى باكستان عام ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م[(٢)].

أبرز مشايخ العصر الذين أجازوه في الحديث الشريف:

التقى البنُوري في رحلاته بمشايخ كبار فاستجاز منهم في الحديث الشريف، ومن أعيانهم: الشيخ محمد زاهد الكوثري، والشيخ خليل الخالدي المقدسي، والمحدث الشيخ عمر بن حمدان المحرسي المالكي المغربي، والشيخ محمد بن حبيب الله ابن مايأبى الجكني الشنقيطي أستاذ كلية أصول الدين بمصر، وقد التقى بهؤلاء جميعاً في مصر سنة ١٣٥٧ في أثناء رحلته إليها. واستجاز من المحدِّثة المعمَّرة العالمة أمة الله بنت الشاه عبدالغني الدهلوي في المدينة المنورة.

النشاط التدريسي والتلامذة:

قام البنُوري بالتدريس مدة أربعين سنة منذ تخرجه إلى أواخر حياته، درّس فيها مختلف الفنون، ولكن كان يرتاح وينشرح جداً لتدريس مادتي تفسير القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف وعلومه. وكان ذا ذوق منفرد في معرفة لطائف التفسير واستنباط نكات القرآن الكريم. وأما الحديث، فقد شهد له العارفون من كبار معاصرين بأنه يُعدُّ من جهابذته المحقِّقين المبرزين في عصره.

---

(١) ذكر الدكتور يحيى تفاصيلها في المبحث الثاني من التعريف بالبنوري، بعنوان: صلة البنُوري بمصر ص٨٩ ـ ٩٨.

(٢) ينظر: العناقيد الغالية من الأسانيد العالية، لمجيزنا العلامة الفقيه المحدث محمد عاشق إلهي البرني ص٨١ (مجد).

وتخرج عليه في هذه المدة الطويلة جَمْعٌ كثير من الطلبة، وجميعهم من أهل الهند والباكستان. وإليك بعضاً منهم ممن اشتهرت أسماؤهم في الأوساط العلمية والعربية:

الدكتور محمد حبيب الله مختار رحمه الله تعالى، نال العالمية من جامعة البنُوري بكراتشي، وهو خَتَن الشيخ البنُوري. وقد استُشهد قريباً وهو شاب، مغتالاً بالأيادي الأثيمة في باكستان، رحمه الله تعالى.

الدكتور محمد أحمد قمر، نال العالمية (الدكتوراه) من جامعة كراتشي بباكستان[١]. وهو شقيق الدكتور محمد حبيب الله مختار السابق.

الدكتور عبدالقيوم عبد رب النبيّ، نال العالمية (الدكتوراه) من جامعة الأزهر أيضاً، بأطروحته «تحقيق القسم الأخير من سنن الدارمي»[٢].

الدكتور عبدالرزاق سكندر، نال العالمية (الدكتوراه) من جامعة الأزهر، بأطروحته «فقه عبدالله بن مسعود» بإشراف فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة. وهو مدير جامعة البنُوري حالياً.

أبرز الشخصيات التي استجازت من البنُوري في الحديث وعلومه:

المُحدِّث الشيخ حسن المشاط المكي، والعالم الجليل الشيخ عبدالفتاح أبو غدة الحلبي، والشيخ عبدالعزيز عيون السود الحمصي، والشيخ إبراهيم خُتَني بالمدينة المنورة، والشيخ سليمان بن عبدالرحمٰن الصّنيع، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكة المكرمة، والدكتور مصطفى السباعي الدمشقي.

---

(١) وهو مقيم بمكة المكرمة، وكان باحثاً برابطة العالم الإسلامي إلى عهد قريب. وهو ختن شيخنا العلامة المحدث محمد عبدالرشيد النعماني رحمه الله.

(٢) وهو مقيم أيضاً بمكة المكرمة، وكان باحثاً بمركز البحوث والدراسات لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم انتقل قريباً إلى مكتبة الحرم المكي الشريف.

تصانيفه:

«بغية الأريب في أحكام القبلة والمحاريب». طبع في مصر سنة ١٣٥٧ في ١٨٣ صفحة. ألّفه للردّ على ما أثاره الملحد عنايت الله خان المشرقي من بلبلة حول صحّة اتجاه محاريب مساجد الهند، وقد وفّى البنُوري البحث فيه من جميع المناحي مع صعوبة الموضوع، مما جعل كبار علماء عصره يعترفون له بالإجادة فيه. وقد قرّظه له بمصر الشيخ الكوثري.

«نفحة العنبر في حياة الشيخ الأنور»، في سيرة شيخه محمد أنور شاه الكشميري. طبع بباكستان سنة ١٣٨٩هـ في ٣٣٧ صفحة. ومع كونه ألفه في «شَرْخ شبابه وعنفوان فتوتهِ»، إلا أنه بَهَرَ كبار شيوخه وأدباء عصره من حيث المادة القيمة، ومن حيث الأسلوبُ الرفيع المعجب فيه. وما زال الكتاب بطراوته وطلاوته يَجْذبُ القرّاء، فما يكاد يبدأ المرء قراءته إلا ويجد نفسه مأخوذاً بمتعة بيانه حتى يأتي على قراءته بكامله.

«يتيمة البيان على مشكلات القرآن»: هي في الأصل مقدمة لكتاب شيخه الكشميري: «مشكلات القرآن»، وقد حوَت مادة حافلة في علوم القرآن الكريم وموضوعات التفسير مع إطلالة على مؤلفات علماء الهند في التفسير، جاءت في نحو ١٣٩ صفحة، وطبعت مع أصل الكتاب في دهلي سنة ١٩٣٦.

«الأستاذ المودودي ونتائج بحوثه وأفكاره»: انتقد فيه بعض النظريات الخاطئة، التي توجد في فكر المودودي وكتاباته، ويجهلها عامة القراء.

«معارف السنن»: شرح لسنن الترمذي في ضوء إفادات الشيخ المحقق الكشميري، وهو تاج مؤلفاته[1].

«لُب اللباب في تخريج ما يقول الترمذي (وفي الباب)»: هذا كتاب

(١) وهو الذي اختاره للدراسة الأخ الكريم الشيخ محمد يحيى بلال في رسالة الدكتوراه في الأزهر، وطبع الكتاب في المكتبة المكية سنة ١٤٢٦هـ =٢٠٠٦م، وصدر في ٧٧٤ صفحة.

قيم جداً كان البنُوري ابتدأ العمل فيه لتخريج الأحاديث التي اشتهرت عند الترمذي بعنوان «وفي الباب عن فلان وفلان»، ولم يكتمل هذا الكتاب، ولو كمل لكان تحفة علمية حديثية نافعة جداً في خدمة سنن الترمذي[١].

وللبنُوري مقدِّمات قيِّمة ماتعة لبعض الكتب، من أبرزها:

- مقدِّمة نصب الراية، ط في ٢٠ صفحة.

- مقدِّمة فيض الباري، ط في ٢٠ صفحة.

- مقدِّمة مقالات الكوثري، ط في نحو ١٠ صفحات. وهذه المقدمات الثلاثة مشهورة متداولة، وتعتبر من أنفس كتاباته من حيث المادةُ العلمية ومن أنصعها ديباجة وأسلوباً.

- مقدِّمة كتابه «معارف السنن» سمَّاها: «عوارف المنن». وهي أحفل المقدمات، حيث تُقدَّر بنحو ٥٠٠ صفحة، لكنها مجهولة حتى الآن[٢].

مناصبه وامتيازاته:

- أُسندت إليه صدارة المدرسين ومشيخة الحديث الشريف في مدرسة دابهيل سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م، وبقي فيها إلى أن هاجر إلى باكستان.

- كان عضواً في «المجلس العلمي» بدابهيل، وهو إدارة للنشر.

- اختير رئيساً لرابطة اتحاد المدارس العربية الإسلامية في باكستان.

---

(١) ينظر تعريف مفصَّل عنه مع نماذج من تخريج البنُوري فيه، في فصل التخريج في بحث (تخريج أحاديث وفي الباب) من الكتاب المذكور سابقاً، ص١٩٤ - ٢١٠.

(٢) وقد أشار البنُوري إليها بإجمال، في بعض المواضع من معارف السنن وبيّن قيمتها في احتوائها ترجمة بديعة للإمام الترمذي، مع دراسة تفصيلية عن سنن الترمذي. وكانت مسودّتها موجودة عند ختنه الشيخ محمد حبيب الله مختار الذي استشهد مغتالاً قبل سنوات، رحمه الله تعالى، فلا ندري إلى من انتقلت بعده تلك المسودّة، وقد استَفْسَرتُ عنها الشيخ تقي العثماني، فأشار إلى احتمال فقدانها، مما ثبّط همتي بالأمل في العثور عليها. والأمل كبير أن نجد يوماً ما السبيل إليها بإذن الله تعالى (يحيى).

ـ رُشح لصدارة منصب الإفتاء بمدرسة ديوبند، فلم يقبل.

ـ اختير أميراً لمجلس تحفظ ختم النبوة في باكستان سنة ١٩٧٤م. وفي عهد رئاسته لهذا المجلس، وُفّق لإصدار قرار البرلمان الباكستاني باعتبار القاديانية أقلية غير مسلمة في باكستان.

ـ كان أحد أعضاء مجموع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

ـ اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

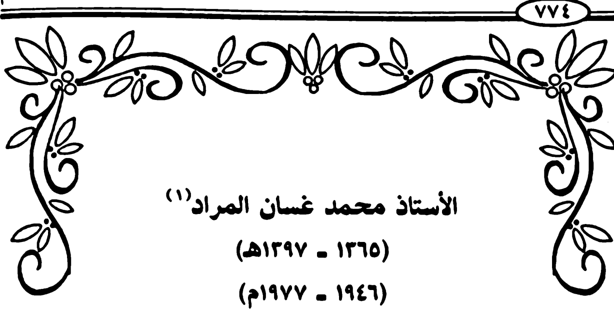
وفاته:

«لقد كان البنُوري من جنود الله حقاً الذين وقفوا حتى آخر لحظة من حياتهم يذودونَ عن حِمى الإسلام وأرضه ودينه، ويكافحون في كلِّ موقع نزل فيه كفر، أو عمّت فيه بدعة، أو ظهر فيه زنديق، لقد ظلَّ رحمه الله تعالى مجاهداً، حتى سقط وهو في ساحة الميدان، حينما توفاه الله وهو يسعى لتحكيم شريعة الله في باكستان»[1]، حيث أُصيب بنوبة قلبية في أثناء اشتراكه في مؤتمر تحكيم الشريعة في باكستان، توفي على إثرها في ٣ ذي القعدة ١٣٩٧هـ.

وعزّته صدور الشخصيات الإسلامية، وعزّاه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر أيضاً.

□ □ □ □ □

(١) مقتبس من خطاب الشيخ أحمد عبدالعزيز آل مبارك، رئيس القضاة بالإمارات العربية المتحدة، مجلة بينات ص٧٩٠ ـ ٧٩١ (يحيى).



الأستاذ محمد غسان المراد[١]

(١٣٦٥ - ١٣٩٧هـ)

(١٩٤٦ - ١٩٧٧م)



للأستاذ: عبدالقادر حداد[٢]

أيها الغائب الحبيب:

سلامُ الله عليك حيث كنت، فهذه ساعة ذكر وذكرى تحملنا إليك، إلى رُوحك الطيِّبة اللطيفة بعد مرّ الأيام السريع جاءنا النعي يوم السادس

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الخامس، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

(٢) من كبار شعراء الدعوة الإسلامية، ولد في مدينة حماة عام ١٩٤٥، وتلقى تعليمه في مدارسها، وحصل على شهادة دار المعلمين، ثم التحق بكلية الآداب في جامعة دمشق، ونال إجازة اللغة العربية وآدابها عام ١٩٦٩، وحصل على دبلوم الدراسات الإسلامية من القاهرة عام ١٩٨٤. عمل معلماً لمادة اللغة العربية في عدد من مدارس حماة، ثم أعيد للتدريس في السعودية، ثم انتقل للعمل في الكويت لدى وزارة الأوقاف، ودرّس في مدارس دور القرآن الكريم، حتى وافته المنية في مدينة عمان بالأردن في ٢٠ محرم ١٤٠٩هـ، الموافق ١٩٨٨/٨/٢٥، وله عدد من الآثار الأدبية المطبوعة، منها: من وحي المولد، وبستان الأناشيد للبراعم، وملاحم للبطولة الخالدة، وملحمة بدر.

والعشرين من آذار لهذا العام، فدافعناه بالأمل البعيد، ولكن القضاء كان أمضى.

وعلى مثل الجَمْر بات قلب أخيك تلك الليلة، وإنّ الأذن لتدفع النبأ مسترية: أصحيح هذا؟ والقلب ليهتف بالعقل: هذا غير معقول.

الشباب الناضر، والروح العَذْبة، والآمال العريضة، كلها تنقضي هكذا؟ وبلا سابق إنذار؟! ولكن ما إن انجلى الشك حتى كان اليقين أبلغ من أن يكذب، فغالبت فيك الأسى وهو أغلب!

ولادته ونشأته العلمية:

يرجع فقيدنا الغالي بتاريخ ميلاده إلى عام ستة وأربعين ميلادية في حماة، والده الفقيه الحنفي المرحوم الشيخ ظافر المراد[١] من الأسرة المعروفة بالحفاظ على تراث الشريعة بحماة. وقد درس عليه الفقه الحنفي، كما سمع من أستاذنا الشيخ محمد الحامد رحمه الله بعض الدروس المعروفة عنه.

ولكنه جمع إلى ذلك كله، الدراسة في كلية الشريعة بجامعة دمشق وقد تخرج فيها عام واحد وسبعين للميلاد، وقد حضر لدراسة الدبلوم في التربية، ولكنه لم يتمّها لأنه سافر إلى السعودية مدرّساً [في مدينة أبها] منذ أول عام ستة وسبعين، وهكذا بقي هناك ما يقرب السنة والنصف حتى وافاه الأجل في [مدينة الرياض في] السادس والعشرين من آذار. وقد دُفن هناك رحمه الله تعالى.

مزايا الفقيد رحمه الله تعالى:

يمتاز الفقيد بروحه الطيبة وتفاؤله العريض وأخوته السامية، هذه الأخلاق الرضية التي تصل به إلى النموذج المثالي للشاب المسلم الواعي في هذه الأيام!.

---

(١) الشيخ محمد ظافر بن الشيخ محمد علي المراد الأول المولود سنة ١٣٠٩ والمتوفى سنة ١٣٨٩ رحمه الله تعالى.

قيمة الفقيد في المثال الكامل - أو الساعي نحو الكمال، المتفائل - والمؤمن دائماً كذلك - بنصر الله، وبصلاح هذه الشريعة لكلِّ زمان ومكان!.

قيمته في النموذج الصالح لطلاب كلية الشريعة في جامعة دمشق، الدأب والجد والمثابرة مع الدماثة والرقة واللين لإخوانه، التي هي من صفات المؤمنين أسوة برسولهم عليه الصلاة والسلام: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

أخي، أيها الراحل الحبيب: أنت في قلبنا جزء من روحنا، مرضت لفقده، لا أقول مرضت بل حزنت... الحزن الذي لا تدفعه طبيعة البشر ولا تقدر عليه، هو في قول معلمنا ﷺ في إبراهيم: «... **وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[1].

وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا...

أبيات الشاعر عبدالقادر حداد في رثائه:

ويا أخي: لك عليَّ حقٌّ كبير، فهل تفي ببعضه هذه الأبيات المتواضعة في رثائك؟ وإني لأعجب من نفسي الساعة: كيف يقول المرء أبياتاً في رثاء نفسه؟؟ لقد كنت مرآة أخيك، وها أنا أرفع أبياتي لتراها في مرآتك، واقبل عذري إن قصرت فهذا الموقف ثقيل عليّ يا أخي أبا نافع!..

لَيْسَ لأمرِ اللهِ من دافعٍ ... فَلْيَرْحَم اللهُ أبا نافعِ!!
مَضَتْ بغسَّان إلى ربِّه ... كفُّ الرَّدى في مدِّها النازعِ
إذا أطلَّ الأجل المُنْتَهي ... أرداك أدنى مَلْمَسٍ صارعِ
لن يمنع الإنسان من يومه ... ولو ثوى في حصنه المانعِ!

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

ويـقـرع الـمـقـدور أبـوابـنـا ونـغـفـل - الـعـمـر - عـن الـقـارع
حـتـى إذا حـانـت لـنـا صـحـوة تـفـلـت الـعـمـر مـن الـهـاجـع!!؟
هـل تـنـفـع الأحـزان فـي ذاهـب إذا تـولـتـه يـد «الـنـافـع»؟
يا حُسْنَهُ في المجمع المرتضى أنـس الـمـنـى، ريـحـانـة الـجـامـع
يا طيبَهُ في المجلس المُشْتَهى يـا لـطـفـه فـي ذوقـه الـرائـع
مـصـابـنـا فـيـك عـظـيـم الـشـجـى! لـكـنـنـا نـؤمـن بـالـصـانـع
أبكيك؟! جفّ الدمع في ناظري لـو أسـعـفـتـنـي فـورة الـنـابـع!!
يـبـكـيـك قـلـبـي، يـا مـنـى قـلـبـه ألـم تـكـن فـي روضـة الـراتـع؟
يـبـكـيـك فـي الـمـسـجـد مـحـرابـه ومـجـلـس الـذكـر والـخـاشـع
قـد كـنـت فـيـنـا زهـرة الـمـنـتـدى وبـهـجـة الـنـاظـر والـسـامـع
هـجـرت دنـيـاك خـفـيـف الـهـوى مـن ربـقـة الـغـافـل والـطـامـع!!
وعـفـتـنـا فـي هـمِّـهـا، يـا أخـي تـضـربـنـا فـي لـجـهـا الـدافـع
سـبـقـتـنـا فـي الـدرب مـا ضَـرَّنـا والـمـلـتـقـى فـي رحـمـة «الـواسـع»
أكـرم بـمـثـواك لـدى تـربـة طابت بمثوى المصطفى الشافع

□ □ □ □ □

الشيخ محمد سيادي المراد رحمه الله تعالى(١)

(١٣٢٨ - ١٣٩٧هـ)

(١٩٠٨ - ١٩٧٧م)



بقلم الشيخ: محمد بشير المراد ـ مفتي حماة(٢)

بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختاره مولاه إلى الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه إلى يوم الدين. وبعد:

المصيبة بفقد العلماء:

فإنَّ فقد الأحباب فاجعةٌ أليمة، وكوْن الفقيد من العلماء أشدّ ألماً وأبلغ أثراً، إنَّ فقد العلماء كارثة مريرة، وكون الفقيد من الأتقياء أشدّ مرارة وأفدح خسارة، وفقد العلماء ثلمة لا تعوض، ولفقد قبيلة أهون على الله من فقد عالم، والله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن ينتزعه بقبض العلماء.

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة التاسعة عشرة: (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

(٢) المولود سنة ١٣٤٠، والمقتول شهيداً بحماة سنة ١٤٠٢ رحمه الله تعالى وهو شقيق المترجم.

والمؤمن لا يستغرب وقوع الموت لأنه المصير المحتوم لكل مخلوق وقد أذعن له البشر كافةً مؤمنهم وكافرهم إلا أنَّ المؤمن يأخذ منه العبرة والعظة ويرضى بقضاء الله وقدره.

وقد كان حزننا على الراحل كبيراً، وفاءً بحقّ الأخوة والعلم والتقوى، وانقياداً للخلال الحميدة والخصال الرفيعة، وانسجاماً مع فطرة النفس البشرية التي تحزن وتسرّ، وترضى وتسخط، وترغب وترهب، ولكنها تضع كل أمر في موضعه، ولا تقول إلا ما يرضي ربها.

القاضي الفقيه:

نعم لقد كان أخي الشيخ محمد سيادي من العلماء العاملين، والقضاة الشرعيين العادلين الذين يتوخون الحق أينما كان، ويتّبعونه أينما دار وسار، فقد كان رحمه الله عَلَماً من أعلام الفقه في العصر الحاضر، ومع أن القضاء شغله طوال حياته إلا أنه كان لا يترك المطالعة والدرس وخصوصاً الفقه الحنفي.

ولما انتقل في آخر مدة وظيفته إلى مديرية التعليم الشرعي بوزارة الأوقاف كان المسؤولون في إدارة الإفتاء العام يكلّفونه باستخراج النصوص الشرعية والتحقيق فيها، ويعتمدون عليه ولا يطمئنون إلى الفتوى التي تصدر إلا إذا كان موافقاً عليها، وهذا قبل أن يُكلّفوا مفتي القنيطرة بإفتاء دمشق.

ولادته ونشاته:

ولا بأس بهذه المناسبة أن أذكر طرفاً عن حياة الراحل وفاءً بحق الأخوة فأقول: إنَّ أخي الشيخ محمد سيادي هو ابن الشيخ أحمد بن الشيخ سليم المراد، ولد في حماة عام ١٣٢٨هـ، الموافق لعام ١٩١٠م، ونشأ في بيئة علمية متدينة، فوالده الشيخ أحمد[1] كان من مشاهير علماء حماة علماً

(١) أحمد بن محمد سليم المراد المولود في حماة سنة ١٢٩٨، والمتوفى سنة ١٣٧٩ رحمه الله تعالى.

وفقهاً وورعاً وتقوى وزهداً في الدنيا حتى اجتمعت حوله القلوب، وكان إلى جانب ذلك من أهل الصلاح المرشدين، وكان قد أخذ العلم والسلوك عن أخيه وشيخه الشيخ محمد علي المراد[١] الذي كان عالم زمانه مربي السالكين وقدوة العلماء والمتبحِّر في كلِّ علم وفن، وهذا بدوره كان أخذ العلم وطريق المعرفة والسلوك عن شيخه ووالده الشيخ سليم المراد[٢] الذي بلغ في العلم درجة رفيعة، والحمد لله.

طلبه العلم:

أعود فأقول: إنَّ أخي الشيخ محمد سيادي ابتدأ طلب العلم على والده، وعلى أخيه الشيخ عبدالعزيز[٣] حينما كان صغيراً، ثم دخل مدرسة (دار العلوم الشرعية) في حماة، وتلقى العلم عن أساتذتها، وكانوا أكابر علماء حماة في ذلك الوقت، وعلى رأسها الشيخ **توفيق الصباغ الشيرازي** مدير المدرسة، رحمه الله.

في المدرسة الخسروية بحلب:

وبعد أن نال شهادتها ذهب إلى المدرسة الخسروية في حلب، وتلقى العلوم الشرعية المختلفة على شيوخها الأكارم الأكابر، أمثال الشيخ أحمد الكردي مفتي الحنفية، والشيخ أحمد الزرقا، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ أسعد العبجي مفتي الشافعية، والشيخ إبراهيم السلقيني، والشيخ محمد الناشد، والشيخ راغب الطباخ، والشيخ أحمد الشماع، والشيخ فيض الله الأيوبي الكردي، والشيخ عبدالله حماد.

---

(١) الشيخ محمد علي بن محمد سليم المراد الأول المتوفى في حماة سنة ١٣٤٣ رحمه الله تعالى.

(٢) المتوفى بحماة يوم الإثنين ١٢ سنة ١٣٠٨ رحمه الله تعالى.

(٣) الشيخ عبدالعزيز بن أحمد سليم المراد المولود سنة ١٣٢١ بحماة، والمتوفى سنة ١٣٨٥ بحماة، الموافق ١٩٦٥ رحمه الله تعالى.

دراسته في كلية الشريعة بالأزهر:

وبعد أن نال شهادتهما تيسّر له أمر الذهاب إلى مصر إلى الأزهر الشريف، ودخل كلية الشريعة، ثم تخصّص بالقضاء الشرعي على أيدي شيوخها الأفاضل، أمثال الشيخ مأمون الشناوي، والشيخ يوسف السنهوري، والشيخ عيسى منون، والشيخ إبراهيم خمروش، والشيخ محمد الجمل، والشيخ محسن أبو دقيقة، والشيخ محمد السايس، وكان على رأسهم في حينها الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر.

وكان يتردَّد على كثير من العلماء أمثال الشيخ يوسف الدجوي، والشيخ مصطفى أبو سيف الحمامي، والشيخ محمد زاهد الكوثري، والشيخ حبيب الله الشنقيطي، وغيرهم من العلماء الأجلاء، وقد كان لي شرف المثول بين أيدي هؤلاء العلماء معه ـ رحمه الله ـ في آخر مدَّته في مصر.

تعيينه قاضياً في الحسكة وتنقله في المحافظات السورية:

ولما انتهى من مصر، وعاد إلى بلده حماة لم يمكث إلا برهة يسيرة عُيّن بعدها في القضاء الشرعي، وأول بلدة عُيّن بها هي الحسكة، وكان ذلك عام ١٩٤٣م، وبعدها بسنة تقريباً تزوَّج بابنة نقيب أشراف اللاذقية الشيخ محاسن الأزهري رحمه الله تعالى.

ثم إنَّ أخي ـ الراحل ـ ما زال ينتقل بوظيفته إلى المدن والبلاد حتى طاف أكثر محافظات سورية.

تعيينه مديراً للتعليم الشرعي في سورية:

وانتهى به المطاف في آخر الأمر إلى أن انتقل من وزارة العدل إلى وزارة الأوقاف، وعُيّن مديراً للتعليم الشرعي في سورية.

انتقاله إلى دمشق ووفاته في بلده حماة:

وعلى أثر ذلك انتقل بأسرته إلى دمشق، واستوطن بها إلى أن

توفاه الله تعالى عصر يوم الاثنين ثاني أيام عيد الأضحى أي في الحادي عشر من ذي الحجة ١٣٩٧هـ، الموافق ليوم ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٧م، في بلده حماة، حيث كان في زيارة أهله وإخوانه لأنه اعتاد أن يزورهم في الأعياد والمناسبات.

وفي أول يوم من أيام عيد الأضحى بعد أن صلّى العيد إماماً وخطب خطبة العيد في «الجامع الجديد» ذهب وأنا بمعيَّته لزيارة ومعايدة الأقارب والأحباب، وكانت كأنها زيارة مودِّع.

وفي اليوم الثاني أي: في يوم الوفاة ذهب إلى حمص، وزار وودّع أصحابه وأحبابه، وعاد إلى حماة، وعند أذان العصر، وبعد دخوله إلى البيت بدقائق فاضت روحه إلى بارئها فجأة بدون سابق إنذار من مرض أو غيره، وهكذا انتهت حياة هذا العالم الجليل في أهون سبب وبدون سبب، مُخلِّفاً وراءه اللوعة والأسى والحزن.

رحم الله الفقيد رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيحَ جنّانه، وجعله من المقرَّبين ورثة جنة النعيم.

أنجب المرحوم ستَّةً من الأولاد: اثنين من الذكور، وأربعاً من الإناث.

علمه وأخلاقه:

كان رحمه الله ـ كما أسلفت ـ عالماً جليلاً، وفقيهاً حنفياً كبيراً بالفروع والأصول، واسعَ الاطلاع في الحديث والتوحيد والتفسير، وخصوصاً آيات الأحكام إلى غير ذلك من العلوم الشرعية المختلفة.

وكان رحمه الله خطيباً بارعاً ومرشداً، وموجِّهاً وداعياً إلى الله بحاله ومقاله.

وكان من الذاكرين الله كثيراً، ومن المستغفرين بالأسحار، الحريصين على آداب السلوك والحفاظ على السنة.

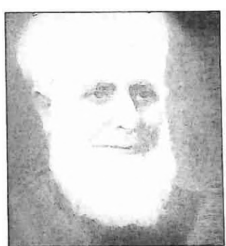
وكان ـ رحمه الله ـ يمتاز بروح طيبة، ونفس متواضعة، وأخلاق عالية رضيّة، وأدب جمّ، وكرم وسَخاء مع دماثة ولين جانب.

وكان صُلْباً في الحق، يقرع الحجة بالحجة، يُحبُّ لله ويكره لله، سليم الظاهر، طاهر السريرة، يحبُّ أهل الخير والسماحة والصفاء، ويكره أهل المكر والحقد والخبث والالتواء، لسان حاله أبلغ من لسان مقاله، كان صادقاً في حديثه، بارّاً رحيماً بإخوانه وأولاده وأهل بيته، بعيداً عن التكبُّر والتجبُّر، عبداً لله حقاً من عباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هَوْناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً.

رحمك الله يا شيخ سيادي رحمةً واسعة، وجمعنا بك وبمن سبقك من الصَّالحين في مستقرّ رحمته.. والحمد لله رب العالمين.



العلامة المجاهد الشيخ حسن حبنكة رحمه الله
هكذا عرفت أبي[١]
(١٣٢٦ ـ ١٣٩٨هـ)
(١٩٠٨ ـ ١٩٧٨م)



للأستاذ عبدالرحمن حسن حبنكة الميْداني[٢]

العلامة المربّي المجاهد الربَّاني:

في ليلة الاثنين الرابع عشر من شهر ذي القعدة عام ١٣٩٨ للهجرة الموافق لـ ١٩٧٨/١٠/١٥م، مات أبي العلامة المربّي المجاهد الربَّاني المجاهر بالحق، والداعي إلى الحق على بصيرة الشيخ حسن حبنكة الشهير بالميداني بعد عمر زاد على السبعين عاماً بعامين أو أكثر قضاها في العلم

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة التاسعة عشرة: (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م).

(٢) لأستاذنا العلامة المفسِّر الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني، النجل الأكبر لفضيلة الشيخ حسن رحمهما الله تعالى كتاب حافل في ترجمة أبيه سمّاه: «الوالد الداعية المربّي الشيخ حسن حبنكة الميداني: قصة عالم مجاهد حكيم شجاع» صدر سنة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م عن دار القلم بدمشق في ٤٠٦ صفحة.

وشيخنا عبدالرحمن ورث الكثير من علم أبيه، وانطبع بجميل أخلاقه وسمو نفسه، وهو إلى جانب علمه أديب شاعر، مرهف الحس، وسترد ترجمته في هذا الكتاب.

والتعليم والجهاد والإصلاح ومختلف أعمال الخير، ومقاومة الطغيان والفساد والإفساد والإلحاد والردة، ومناصحة الحكام والمحكومين في كلّ مناسبة، غفر الله له ورفعه إلى مَقْعَد صدق عنده مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصَّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

الفجيعة بموته:

مات أبي ففُجعت بموته ملايين قلوب مؤمنة، ونعته المآذن والمنابر والإذاعات والصحف ووكالات الأنباء، وخلّف بموته فراغاً ضخماً جداً شعرت به جماهير الأمة في بلاد الشام (سورية والأردن ولبنان)، وجماهير أخرى في العالم الإسلامي الكبير، وأقامت معظم مساجد العالم الإسلامي صلاة الغائب على روحه، وبكته عشرات الألوف من المؤمنين المحبين له والمعظِّمين لحَمَلة العلم الربَّاني والمجاهدين في سبيل الله.

تشييع جنازته ودفنه في حُجْرة ملحقة بجامع الحسن:

وبالاندفاع الذاتي اكتظّ بمشيِّعي جنازته مسجد بني أمية الكبير وشوارع دمشق على امتداد خط سَيْر مَوْكب الجنازة حتى مثوى جسده الذي قضى الله دون سابق تفكير من أهله وذويه، ودون سابق تدبير أن يكون في حُجرة من ملحقات جامع سيدنا الحسن في حيِّ الميدان، وهذه الحجرة لم تكن مُخَصَّصة في المخطَّطات مسجداً، وقد تمَّ الدفن فيها بضغط من جماهير مُحبِّيه ومُقَدِّري جهاده.

انتصار الشيخ لقضية الإيمان وعصمته من مكايد أعدائه:

وجامع سيدنا الحسن هذا آخر جامع كان الشيخ الوالد يُشرف على إنشائه إلى جوار المعهد الديني الكبير الذي سبق أن أنشأه قبل خمس عشرة سنة من وفاته، وامتدَّت إليه يد المصادرة والاستيلاء أثر انتصار الشيخ الوالد - عليه الرحمة من الله - لقضيَّة الإيمان بالله تعالى، وإعلانه رفض الأمة الإسلامية في بلاد الشام والعالم الإسلامي أجمع مخطَّطات الإلحاد بالله

والردة عن دينه، وإعلانه غضبه وغضب الجماهير المسلمة لله، وقد قدّم يومها روحه وكل ما يملك طائعاً مختاراً؛ لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، إلا أن الله تعالى قضى يومئذ أن يُسلّمه ويعصمه من الناس، فأجرى أحداثاً ألجأت الذين يُدبّرون لقتله أن يُفرِجُوا عنه ويعتذروا منه.

خروجه من السجن ومتابعته جهاده ودعوته:

وخرج من السجن، وعاد إلى عرينه أسداً هَصُوراً يكافح ويناضل على بصيرة من الله، حتى وافته منيتُهُ وهو على فراشه بعد إحدى عشرة سنة من المكيدة المدبّرة التي كان قد أراد بها أعداء الإسلام قتله ليتخلّصوا من صوته الناطق بالحق، والمُجاهر بالحق، والمدافع عن دين الله.

ولادته وأسرته:

وُلد أبي في دمشق في أواسط العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري الموافق لأواخر العقد الأول من القرن العشرين الميلادي، في أسرة من أسر حي الميدان بدمشق، وقد ذكر لنا بعض أهل المعرفة من كبار السن أنها أسرة قادمة إلى دمشق من عرب بادية (حماة)، ومن العرب المعروفين ببني خالد، وقد شاهدنا الصفات والخصائص المؤكّدة لهذا الأصل العربي البدوي ظاهرة في جيل جدّنا من هذه الأسرة.

نشاته وعصاميَّتُه:

نشأ أبي عصامياً في بيئة يقلُّ فيها العلم إلى حدّ النُّدرة، إذْ كان علماء العلوم الإسلامية قلة في بيئته، وإن كان بعض الموجودين منهم على علم جمّ. وكان دارسو العلوم الأخرى شبه مُنْعدمين باستثناء طلائع المُتنوّرين الذين أخذوا يدرسون على طريقة الثقافة الأوروبية، وشقُّوا طريق النهضة العلمية الحديثة.

تعلُّق قلبه بالعلم:

وفي هذه البيئة نشأ أبي - عليه رحمة الله - وليس من حوله مُؤسّسات

تحتضنه وتعطي تطلُّعاته إلى العلم والعمل ما تصبُو إليه، إلا أن يد العناية الربانية علقت قلبه بمَجْد العلم وبحُب المعرفة إلى حدّ الشغف، وعلقت فكره ونفسه بالتعلم والتعليم والتربية والتقويم إلى حدّ ملء نهاره وليله دائباً عاملاً مجاهداً، مع ما يرافق ذلك من أمر عام بالمعروف ونهي عام عن المنكر، ومشاركة في مختلف أنواع الخيرات والمبرات، وفي دأب منقطع النظير.

تلقيه العلم:

أخذ يتلقّى العلم من علماء زمانه، ويأخذ عن كلّ واحد منهم العلم الذي هو مختصٌ به، وكان يعقد في الوقت نفسه حلقات تعليم يجمع فيها طلاب العلم، وحلقات توجيه وموعظة يجمعُ فيها طلاب العلم والعامة، مع الخطابات المنبريّة التي كان يخطبها مُلهباً بها العواطف الإيمانية، ودافعاً بها إلى الاستقامة وطاعة الله، والسّيْر على صراط الله المستقيم.

منهجه في دروسه وخطاباته:

وكان من منهجه في دروسه وخطاباته أن يتعرّض للمشكلات المعاصرة الاجتماعية والدينية والسياسيّة، فيأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، وينصح للجميع دون استثناء، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يُحابي ولا يُدَاجي في الحقّ أحداً.

مشاركته في الثورة السورية:

وانطلقت الثورة السورية على الاستعمار الفرنسي، فخرج مع الثوار محارباً دولة الاستعمار، وعندما ضعُفت الثورة واشتدت شوكة المستعمر لجأ مع مَنْ لجأ إلى الأردن، دون أن ينقطع عن العلم والتعليم.

استئناف الجهاد العلمي:

ثم لما هدأت الأوضاع، عاد إلى دمشق ليستأنف فيها جهاده العلمي مُعلِّماً ومُتعلماً، يعقد الحلقات لطلابه، ويلتقي بشيوخه جلة علماء الشام

فيأخذ عنهم ويكون بهم براً، وكان من دَيْدنه أن يأخذ حلقات طلابه إلى شيوخه يعلمهم بطريقة عملية أن يحترموا ويبرُّوا آباءهم وأجدادهم في نَسَب العلم.

النهضة التعليمية في دمشق:

وقامت النهضة التعليمية في دمشق بتوجيه من مُحَدِّث الشام الشيخ محمد بدر الدين الحسني وهمَّة تلميذين من تلاميذه هما: العالم الناصح الصَّالح الورع علي الدقر ـ عليه رحمة الله ـ والعالم الصَّالح الجريء بالحق الشيخ هاشم الخطيب ـ عليه رحمة الله ـ.

مع الجمعية الغرّاء:

وأسّس الشيخ علي الدقر وإخوان له من طلابه وتلاميذه ومحبيه «الجمعية الغرّاء» للقيام برسالة التعليم، وتخريج الفقهاء والوعاظ والدعاة، فكان أبي ـ عليه رحمة الله ـ أحد الأركان الكبرى لقطاع التعليم في هذه المؤسّسة، وتخرّج على يديه فيها جيلٌ من طلاب العلوم الإسلامية، كان لهذه المؤسّسة المباركة نفع امتدّ في بلاد الشام وغيرها، وثمرات طيبات شهد بها المخلصون.

انقطاعهُ لحلقاته الخاصّة في جامع منجك:

وكان لأبي مع ذلك حلقاته الخاصّة التي ما انقطعت في بيته وفي جامع الحي الذي يقع فيه وهو (جامع منجك).

ثم ألجأت الضرورة الاجتماعية أبي أن ينقطع لحلقاته الخاصّة به، ومشايخُه راضون عنه، يدعونَ له بالتوفيق والسَّداد، ويُعلِّقون عليه آمالاً جساماً.

تأسيسه جمعية التوجيه الإسلامي:

ولما عظُمَ عمله واتّسع، أسّس جميعة له باسم «جمعية التوجيه

الإسلامي» أخذت على عاتقها نشر العلوم الإسلامية، وتخريج الدعاة من حَمَلة الشهادات الشرعية، مع ما تقوم به من أعمال خيرية أخرى.

وكان لهذه الجمعية برئاسة والدي المغفور له نشاط كبير في المهمّات التي جعلتها من أهدافها الأساسية، فأسّست معهداً شرعياً في (جامع منجك) باسم «معهد التوجيه الإسلامي» بَنَتْ له في الجامع بناءً مناسباً. ثم قامت ببناء مدرسة كبيرة له فتحوّل طلاب معهد التوجيه الإسلامي إليها، وبقي المكان الأول داراً للقرآن.

طلاب معهد التوجيه الإسلامي:

وقد كان طلاب المعهد قد بلغوا خمسمئة طالب ويزيدون، وهم طلاب داخليون يتعلّمون وتُقدّم لهم مطالب حياتهم المعاشية، وتخرّج في هذه المؤسّسة التعليمية التي أسّسها المغفور له أبي متخرّجون كثيرون انتشروا في كثير من أقطار العالم الإسلامي، وكان لهم نفع عظيم، وما يزال علماء كثيرون من حَمَلة أعلى الشهادات يفتخرون بأنهم قد تخرجوا في مؤسسة الشيخ الوالد ـ عليه رحمة الله ـ وبأنهم كانوا من تلاميذه وطلاب حلقاته.

مصادرة الجمعية والمعهد:

واستمرّ الحال كذلك حتى وقعت واقعة مصادرة الجمعية وأملاكها، والمعهد وطلابه، وحَجْز أموال الشيخ الخاصّة لما سبق أن أشرت إليه. لكن أبي ـ رحمة الله عليه ـ لم ينقطع عن عمله الدائب بعد ذلك فظل ملازماً عمله الذي عاش عليه طوال حياته.

مشاركته في تأسيس رابطة العلماء في سورية:

وفي خِضَمّ أعماله الاجتماعيّة الواسعة والمحدودة، شارك في تأسيس رابطة العلماء في سورية، وكان الأمين العام لها، والرجل العامل فيها مع إخوانه الشيخ أبي الخير الميداني، والشيخ محمد مكي الكتّاني، والشيخ

أحمد الدقر وغيرهم، وكان لهذه الرابطة نشاطٌ توجيهيّ عام شهدته سورية من أقصاها إلى أقصاها.

وأسّس عدّة جمعيات خيرية منها: جمعية أسرة العمل الخيري.

وانتُخب عُضواً للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وساهم في أعمال هذه الرابطة.

مناصحته للحكام ومكافحته لأعداء الإسلام:

وفي خِضَمّ مناصحته للحكام، ومكافحته لأعداء الإسلام، وجرأته في الحق ونضاله الحكيم، أذكر النبذ التالية:

١ ـ حرّك الجماهير المسلمة لإلغاء قانون الطوائف الذي وضعته الدولة الاستعمارية الفرنسية ليطبَّق على المسلمين في سورية ولبنان، ويتضمّن هذا القانون أحكاماً تُخالف أحكام الشريعة الإسلامية فيما يُسمّى بالأحوال الشخصية، وكان من توفيق الله له أن تراجعت الدولة عن قرارها فأوقفته، وتحرّرت البلاد بعد ذلك من الاستعمار الفرنسي المباشر.

٢ ـ ساهم وحرّض على تحرير البلاد من المحتلين المستعمرين، وناصر الوطنيين المخلصين.

٣ ـ جاهد الإلحاد والمُلحدين والردة والمرتدين، وكان له في هذا مواقف دلّت على بطولته النادرة، وشجاعته العجيبة الدالة على صدق يقينه بالله وثقته به، فما لانت قناته، ولا اضطرب فؤاده ولا ضعفت حُجّته، والحديد والنار من حوله، وهو في أسر خصومه، وقلوب الناس واجفة من وراء الأسوار خوفاً عليه من القتل.

وأنجى الله أبي من أعدائه ومن خصومه، بعد كلّ الشدائد التي تعرّض لها. حتى وافته منيته كما قضى الله وهو على فراشه، وكنت بعيداً عنه في مكة، مترقّباً وصوله يوم الاثنين ١٤ من ذي القعدة ١٣٩٨هـ، ليشارك في أعمال المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، إذا بالهاتف يدق عليّ صباحاً من دمشق، ويُبلّغني ابني محمد حسن أن جدّه قد توفي، وأن عليّ

الحضور فوراً، فيسّر الله لي الأمر، ولكن الطائرة تأخّرت عن موعدها فلم أصل إلا بعد الدفن وعودة المُشيِّعين.

رثاء الشيخ عبدالرحمٰن حبنكة لأبيه:

وبينما كنت أنتظر الطائرة ودموعي تنهمر كتبت الرثاء التالي:

وَاحَزَنَا مَاتَ أبي … وغابَ ذُو القَلْبِ الأبي
شَمساً سَمَتْ في أُفْقِهَا … لِعَالَمٍ مُحَبَّبِ
لِمَقْعَدِ قُدْسٍ لدىٰ … ربٍّ مَلِيكٍ طَيِّبِ
شَمساً طَوَتْ سَمَاءَهَا … بِقُضُبٍ وكُتُبِ
بالعلمِ والجهادِ رُكْنَـ … ـيْ كُلِّ حَقٍّ أغْلَبِ
غَابَتْ كَمَا غَابَتْ شُمُو … سٌ قَبْلَهَا في الحِقَبِ
وخَلَّفَتْ في أرضنا … لَيْلاً شديدَ الغَيْهَبِ
كَمْ أشْرَقَتْ كم جَاهَدَتْ … كم طَارَدَتْ مِنْ وَصَبِ
كَمْ صَارَعَتْ مِنْ ظَالِمٍ … ولم تَخَفْ من عَطَبِ
قَدْ كَادَهَا أعداؤُهَا … في العَصْرِ قَبْلَ المَغْرِبِ
لكنَّ ربِّي قَدْ أبىٰ … مَا مَكَرُوا من سَبَبِ
وَردَّ كَيْدَهُمْ إلَيْـ … ـهِمْ بِقَضَاءٍ عَجَبِ
فاصْطَدَمُوا واقْتَتَلُوا … وبَانَ مَحْضُ الكَذِبِ
وَعَادَتِ الشَّمْسُ إلى … مَكَانِهَا لَمْ تَغِبِ
وانْقَشَعَتْ غَمَامَةٌ … عَنْ وَجْهِهَا المُحْتَجِبِ
حتى أتى أُفُولُهَا … في وَقْتِهَا المُحْتَسَبِ
في سَاعَةٍ كَمَا أرا … دَ ذو القَضَاءِ الأغْلَبِ
وَضَمَّهَا أفْقُ شُمُو … سٍ في سَمَائِهِ النُّبي
في كَنَفِ الرحمٰنِ ذي الجُو … دِ العَزِيزِ الأرْحَبِ

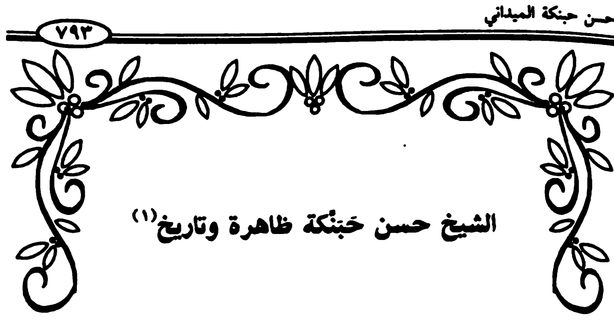
* * *

يـــا إخْـــوَتـــي هـــذا أبـــي عُـــذْرُ الـــفـــتـــى الـــمُـــنْـــتَـــجِـــبِ
وعُـــذْرُ كـــلِّ مُـــسْـــلِـــم رأى بِـــهِ عَـــطْـــفَ الأبِ
مُـــعَـــلِّـــمـــاً فـــي أدبٌ مُـــرَبِّـــيـــاً فـــي خَـــذبِ
وَبَـــطَـــلَ الإقْـــدامِ لِـــلْـــمَـــوْ تِ بِـــعَـــضَـــرِ الـــهَـــرَبِ
لِـــنَـــصْـــرِ ديـــنِ الـــلّـــهِ لا لـــلـــمَـــجْـــدِ أو لِـــلْـــنَّـــشَـــبِ

* * *

يَـا رَبِّ إنّـي عَـبْـدُكَ الـمـحـزونُ فـــاغْـــفِـــرْ لأبـــي
وارْفَـــعْ مَـــقَـــامَـــهُ إلـــى جـــوار طَـــهَ الـــعـــربـــي

□ □ □ □ □



الشيخ حسن حَبَنَّكة ظاهرة وتاريخ[1]

للدكتور عدنان زرزور

ـ ١ ـ

من عالم الغيب إلى عالم الشهادة:

ما سمعت مرةً بنبأ وفاة إنسان، وبخاصّة إذا كان عالماً أو قريباً أو شاباً، إلا فكّرت بما بعد الموت، أو استحضرت في ذهني ونفسي صورة ما بعد الموت، وذكرت قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كفى بالموت واعظاً».. وتمثَّل لي عالم الغيب بوصفه حقيقة الحقائق وخاتمة المطاف: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦]. ولكنني حين سمعت بنبأ وفاة فضيلة الأستاذ العلامة المجاهد الشيخ حسن حبنكة وجمت وأطرقت، ورأيتني بعد أن ثُبْت إلى نفسي أستعرض في ذاكرتي تاريخ الأمة الإسلامية الحديث منذ مطلع هذا القرن الهجري إلى الآن.

كنت أعيد النظر وأتأمل في جزء من ماضي عالم الشهادة، ولا أفكر في عالم الغيب: لقد ردني موت الشيخ رحمه الله إلى الماضي، ولم يحملني على النظر في المستقبل، ثم لازمتني هذه الصورة وأنا أسير مع

(١) حضارة الإسلام، العددان ٨ ـ ٩ من السنة التاسعة عشرة: (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م).

عشرات ألوف المشيعين واجماً مُطْرقاً حزيناً على الرغم من بعض المظاهر الكفيلة بنقل المرء من العالم الذي يعيش فيه إلى عالم آخر من الصور والأفكار، والتي كان من بينها منظر بعض الشيوخ المسنّين الذين ربما جاوز بعضهم الثمانين ـ ولا أقول الستين أو السبعين ـ وقد حنت حانيات الدهر ظهره، يسير في وسط المشيعين هذه المسافة الطويلة يتّكئ على نفسه وصمته وأحزانه.. وكأنه يسعى في واجب عيني يهمه هو وحده ولا يهم أحداً سواه! بل لعلّ الكثير من هؤلاء الشيوخ أن يعفوا أنفسهم من تشييع أقل مشقة وجهداً لو كان الأمر يتعلق بقريب يتصلون به بروابط الدم والنسب.. ولكنهم ـ شهد الله ـ لم يفعلوا ذلك وهم ينتسبون إلى الشيخ المجاهد بوشائج التاريخ، وروابط العقيدة والدين، وواجب احترام العالم العامل بوصفه حاملاً لأمانة هذا الدين ومُمثّلاً له، مدافعاً عنه... هذا الدين الذي أراد هؤلاء الشيوخ وغيرهم من سواد المشيّعين أن يقولوا: إننا له ومعه في جميع مراحل الحياة، وفي جميع الظروف! كان شيئاً عَجَباً هذا الاندفاع، وهذا الحب، وهذا الشعور، وهذا التعبير العميق البعيد!.

توديع تاريخ حافل:

ولكن سرعان ما خطر لي أنّ هذه الصور التي أراها في هذا الموكب المهيب ليست إلا جزءاً من الصورة التي ملكت عليّ شعوري وتفكيري طيلة ذلك اليوم الحزين: إن الأمة تودّع اليوم تاريخاً من تاريخها الحافل لتستقبل على أرض هذا البلد الذي درج فيه الشيخ، وعلى ترابه نشأ وترعرع وتعلم وعلم وجاهد، لتستقبل مرحلة جديدة خالية من هذه الشخصية الكبيرة الفذة! والغد المأمول، والحاضر المنظور، كأمس الذاهب: كل ذلك بيد الله العلي القدير.

وحين نودع التاريخ، أو نحمل على وداعه بمشيئة الله وقدره الذي لا يُرد، نجد أنفسنا نتأمل فيه ونفكر، وحين نستقبل منه مرحلة جديدة نقف كذلك أمامها نفكر، بل قد نطيل التفكير، أما شخص الفقيد العظيم فهو «دلالة» هذا التاريخ قبل أن يكون رجلاً كبيراً يقطع الرحلة إلى عالم الغيب ليذكرنا بهذا العالم، ولنضرع للفقيد بالرحمة والغفران.

الإحساس بمرارة فقده:

كانت الدعوات للشيخ بالرحمة والرضوان حارة وغزيرة لأن رحمة الله تعالى هي أساس الفوز والنجاة بين يدي العليم الخبير.. ولكنني كنت أقرأ في هذه الدعوات كذلك معنى الرثاء والإشفاق من الغد القريب المجهول وقد خلت الديار من الشيخ المهيب الجليل، ولهذا فإن الإحساس الحقيقي بمرارة فقده ـ رحمه الله ـ كان والجنازة يدلف بها إلى القبر والمؤذن يؤذن للمغرب: الله أكبر.. الله أكبر؛ عندها شعرت بالدموع الحارة تنساب من مآقيّ ومآقي ألوف المشيّعين.

حياته للإسلام والمسلمين:

لقد غربت شمس هذا العالم الذي عاش لقضية الإسلام، فغربت الشمس في نفوس أبناء هذا البلد مساء ذلك اليوم لتشرق في اليوم التالي على القضيّة التي عاش لها الشيخ، والتي قضى في سبيلها.. فقد كانت حياته للإسلام والمسلمين، ولم تكن في يوم من الأيام لأهله وذويه. رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى مقامه في عليين.

ـ ٢ ـ

مراحل التاريخ المعاصر:

مثلت حياة الشيخ المجاهد جميع مراحل التاريخ الحديث أو المعاصر بدءاً من عصر الصّدام مع الحضارة والفكر الأوروبي إلى مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي، وما تعاني منه شعوب العالم الإسلامي في هذه المرحلة من قهر لأبنائها، ومطاردة لعقيدتها ودينها.

ولد الشيخ حسن حبنكة بعيد وفاة الشيخ الإمام محمد عبده رحمهما الله. وقد كان الشيخ الإمام علامة بارزة في ذلك الصدام حين استطاع أن يقف في وجه الافتتان بهذه الحضارة وبمنجزاتها المادية.. ليقول: لا، إنّ الإسلام لا يغل العقل الإنساني، وهو صالح لكل زمان

ومكان... ولكم دينكم ولي دين؛ على ما أخطأ فيه ـ رحمه الله ـ من تجاوز في تطبيق هذا المنهج، لم يحمل عليه فيما يبدو سوى موقع الدفاع أو موقف المحامي الذي اتخذه من قضايا الإسلام والمسلمين.

العلماء الأفذاذ الذين تأثر بهم:

وتتلمذ الشيخ حسن حبنكة رحمه الله على رعيل من العلماء الكبار في دمشق في وقت كان الجهل يلف السواد الأعظم من الناس، والعجيب أن هذه النسبة العالية من الجهل والأمية في ذلك الوقت ـ في أواخر العهد العثماني ـ كان يقابلها تلك الدرجة العالية من العلم لدى نفر من العلماء الأفذاذ.

عدم استفادة علماء الشام من تجربة الإمام محمد عبده:

وكان للظروف التي مرت فيها بلاد الشام في أوائل هذا القرن الميلادي دورها في عدم استفادة علماء الشام من تجربة الإمام محمد عبده، فضلاً عن تصحيحها أو تجاوزها! بل لعل معظمهم إذا أشار إليها كان يضعها موضع الزراية والريبة بوصفها تمثّل انحرافاً، وتجاوزاً، وجرأة، وفتحاً لأبواب يصعب إغلاقها... كيف لا!؟ والجديد الذي تردَّد في بلاد الشام لم يكن أكثر من جرأة على الإسلام، بل لعلي لا أبعد إذا قلت: إنَّ الحلقات التي قرأ فيها الشيخ حسن رحمه الله، وتتلمذ على أصحابها الأعلام كانت تمثل «الأصالة» أو تمثل فروع العلم الإسلامي على النحو الذي توضع عند العلماء منذ عدة قرون، بعيداً عن أي محاولة أخرى كتلك التي كانت في مصر أو الهند على وجه الخصوص. ولكنها كانت أصالة من نوع فريد لأن تلك الطبقة من العلماء الكبار، الذين أخذ عنهم الشيخ حسن حبنكة وأبناء جيله؛ لم نرها تعاد، ولا ندري إذا أعيدت في يوم من الأيام هل ستبذل العلم للناس، وتسعى إلى تعليمهم بمثل تلك الهمَّة والحماسة والتجرُّد، والسعي إلى الثواب ومرضاة الله عزَّ وجل؟!

العامل الأول: في التكوين العلمي للشيخ هو الأصالة والإحاطة بفروع العلم:

كانت هذه «الأصالة» هي العامل الأول في التكوين العلمي والعقلي للأستاذ الشيخ حسن حبنكة رحمه الله الذي انطلق في الإحاطة بأركان هذه العلوم الإسلامية بذكاء نادر، وعقل راجح، وهمّة عالية... كما يحدثنا أقرانه وزملاؤه، وكما ظهر في عمله العلمي الذي قاده هو فيما بعد.

العامل الثاني: ظروف العمل الوطني والسياسي:

أما العامل الرئيسي الثاني، فهو **ظروف العمل الوطني والسياسي** الذي خاضه الشيخ رحمه الله في ظروف مبكرة، لعلها كانت بُعيد طلبه للعلم وتردده على حلقات العلماء والشيوخ، وربما كانت مصاحبةً له على وجه التقريب، فحمل السلاح وانخرط في سلك الثوار والمجاهدين، وانتقل من مسجد إلى مسجد، ومن حيّ إلى حيّ، ومن بلد إلى بلد، وتردّد طويلاً بين دمشق وبين قرى غوطتها الواسعة، وهو في كل ذلك يحمل كتابه في يد، ويحمل سلاحه في اليد الأخرى، ويقرأ شخصيات الناس، ويعرف قدراتهم وعوائدهم.

ذاكرته الهائلة ومعرفته العميقة:

ولقد سمعت منه رحمه الله صوراً كثيراً بخطوطها الدقيقة والمعبّرة عن الكثيرين من القادة والعلماء وطلاب العلم الذين صحبهم وعمل معهم.. تدلُّ على ما كانت تختزنه ذاكرته الهائلة من تاريخ وملاحظات ومعرفة عميقة بالطبائع والأحوال.

وأخشى ـ بهذه المناسبة ـ أن نكون قد فقدنا بوفاة الشيخ المجاهد رحمه الله كثيراً من تفاصيل حركة الجهاد ومقاومة الاستعمار الفرنسي في سورية، وأسماء الكثيرين من طلاب العلم الشرعي وغيرهم ممّن استشهد في هذه الحركة...

دور العلماء في مقاومة الاستعمار:

وليس يشك مؤرخ، أو باحث منصف بعيد عن الغرض والهوى، أن الوطنية والدينية في جميع أجزاء العالم الإسلامي، لا في هذه الصُورة المحدودة أو الصغيرة في دمشق فحسب، كانتا تسيران جَنْباً إلى جنب، أو أن الجهاد ومقاومة الاستعمار كان واجباً دينياً لا يقبل التهاون أو المساومة أو التأخير.

وعلى الذين يتجاهلون هذه الحقيقة أو يحاولون طمسها وتشويهها أن يعودوا لقراءة تاريخ جهاد المسلمين في الهند، وتاريخ الجهاد الذي قاده الأزهر ودعاة الإسلام في مصر، بل ليقرؤوا تاريخ الثورة الجزائرية الكبرى، وما سبقها في هذا البلد من عشرات الثورات والحركات؛ فضلاً عن غيره من البلاد والأصقاع...

التربية العملية العالية:

ولكن الذي أحب أن أشير إليه هو هذه التربية العملية العالية، أو التربية والإعداد من خلال الواقع التي أتيحت للشيخ المجاهد رحمه الله، والتي سعى هو إليها، والتي لم تتكرر كثيراً في إعداد القادة والشيوخ في هذا البلد العريق.

- ٣ -

الأصالة العلميّة:

ثم يتابع الشيخ رحمه الله ليصبح مرجعاً وموئلاً في كلا الجانبين أو العاملين السّابقين[(١)] مع اختلاف الظروف والأحوال. مثّل رأس الأصالة العلمية في حلقات التدريس التي كان يعقدها في «جامع منجك» في حي الميدان، وفي بيته كذلك. ثم في المعهد العلمي الذي أسّسه في الجامع

---

(١) وهما: الأصالة في التكوين العلمي، والثاني: ظروف العمل الوطني والسياسي.

المذكور باسم «معهد التوجيه الإسلامي»، والذي كان يضمُّ بين جدرانه طائفة غير قليلة من الطلاب المسلمين غير العرب، وبخاصّة الأتراك منهم الذين كان الشيخ رحمه الله ـ فيما لاحظت ـ يُوليهم اهتمامه الخاص، ولعل ذلك كان الرد العلمي والعملي جميعاً على العلمانية والتغريب الذي قاده «أتاتورك» في بلادهم.

وربما كانت هذه الأصالة بحاجة إلى شيء من الإضافة والإفادة في بعض التجارب الإسلامية التي تمّت في مصر أو الهند ـ وربما سورية ذاتها ـ في سبيل مقاومة أفضل لهذه العلمانية التي أريد لها في ذلك الحين أن تعم أجزاء العالم الإسلامي، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم على نحو ملائم وفي الوقت المناسب فيما يبدو.

الجهاد والعمل العام:

أما في جانب الجهاد والعمل العام فقد مثل فيه الأستاذ الشيخ رحمه الله رأساً كبيراً في السياسة والاجتماع والاهتمام بشؤون الإسلام والمسلمين.

شارك في تأسيس رابطة العلماء في سورية، وكان الأمين العام لهذه الرابطة، كما أسّس بعض الجمعيات الخيرية الاجتماعية. وبقي يخطب الناس في مسجده الجامع يوم الجمعة أكثر من ربع قرن! ويخطئ من يظن أن هذا كان عملاً علمياً أو دينياً ـ بالمفهوم الغربي لهذه الكلمة ـ فحسب، بل كان منبره من أكبر الأعمال العلمية الاجتماعية التوجيهية السياسيّة الوطنية.

خطيب من طراز خاص:

كان الشيخ رحمه الله خطيباً من طراز خاص، أُوتي القدرة الفائقة على هذا المزج بأسلوب تربوي تثقيفي رشيق، ولم يُلهب حماسة المصلّين ضدّ طاغية ظالم أو وضع فاسد، في الخطبة التي يأخذهم فيها بأسباب التربية

والتهذيب، ويقص عليهم فيها من قصص الصحابة وسائر العلماء العاملين حتى تجري منهم المدامع... لم يفعل ذلك مرة أو مرات... بل لعل أكثر خطبه رحمه الله تحمل هذا الطابع الفريد على وجه العموم. وكم قالت دمشق، بل سورية كلمتها على لسان الشيخ رحمه الله من فوق منبره في جامع منجك بحي الميدان. وكم سعى الناس ليسمعوا هذه الكلمة في الحوادث البارزة والخطوب الجسام!.

ـ ٤ ـ

بُعده عن الانفعاليّة وسرعة التأثر والاستهواء:

لقد ترددت على سماع خطبه رحمه الله نحواً من عشر سنوات بدءاً من أوائل الخمسينات إلى ما بعد تخرّجي في الجامعة في صيف عام ١٩٦٠م، ولكنني لم أفكر طويلاً في آفاق هذه الشخصية الكبيرة إلا في عام ١٩٥٤م، يوم سعيت مبكراً لسماع كلمة البلد على لسان الشيخ في الأسبوع الذي غادر فيه حاكم سورية أديب الشيشكلي البلاد إثر تمرّد أو انقلاب أو تهديد!

كنت أتوقع أن أسمع تشفياً من الطغيان والديكتاتورية التي كانت تتحكّم في البلاد والعباد، كيف لا وقد وقع في حسّنا ونحن شبّان صغار في سنّ المراهقة أن ما كانت تعاني منه البلاد في ذلك الحين يمثّل قمة التسلّط والاستعباد ـ وكم كنا واهمين أو متفائلين مع الأسف الشديد ـ وكنت قد سمعت قبل أسابيع، فيما أظن، عن مقابلة الشهيد نواب صفوي لحاكم سورية، وماذا قال له في تلك المقابلة، بل كنت قد وَعَيْتُ الكثير من خطب الشيخ حسن نفسه رحمة الله في انتقاد الأوضاع، والجهر بكلمة الحق، ولا يزال يتردّد في خاطري حتى الآن قوله في مستهل بعضها، وقد تسامع بما عرض على بعض المسارح من سخرية «برجال الدين» أو العلماء وحملة الإسلام... فبدا الشيخ مغضباً، وبدأ بقوله: «أيها الناس إن الوقت جدّ فلا تهزلوا!!» ثم أفاض في حديث

الجد والهزل، مشيراً بأصبع الاتهام إلى من يضيّع البلاد والعباد، وكان يومها ـ رحمه الله رحمة واسعة وجزاه أحسن ما يجزي عباده الصالحين ـ قمة في البيان والتأثير، وَعَيْتُ هذا وأمثاله وسَعَيْتُ لسماع خطبته في اليوم المذكور، وغصّ المسجد ـ مع ملحقاته ـ بالمصلّين، ثم فوجئت بالشيخ لا يشمت ولا يفرح! بل يتحدّث عن المستقبل بروح لا تَخلو من الامتعاض والتشاؤم، حدّث الناس عن الأصول والمبادئ، ولم يحدّثهم عن الأشخاص والأعلام.

أدركتُ يومها أن من أبرز صفات الشيخ رحمه الله أنه أبعد ما يكون عن الانفعالية وسرعة التأثر والاستهواء ـ وهي الصفة التي طالما جرّت علينا المشكلات والويلات لدى كثير من الخطباء والنقباء! ـ وأنه يُؤثّر في الحوادث ولا يتأثّر بها، وأنه يحاول أن يكون فاعلاً لا منفعلاً.

إغراق العوام في حُبِّهم لا يفتح باب التجاوز عن الثوابت:

ويتردّد في خاطري الآن وأنا أكتب هذه الكلمات: لو أنّ هذا الخُلق أو هذا المبدأ أخذ به وعمل عليه جميع العلماء والخطباء كم يكون الأثر محموداً، والنتائج طيبة حسنة! بل لو أخذ به أولئك العوام وأشباههم ممّن عاصروا الشيخ وصحبوه طويلاً، ولكنهم لم يفقهوا عنه إلا القليل، لو أخذوا بهذا المبدأ وعملوا به لما أساؤوا إلى الشيخ رحمه الله، وأساؤوا إلى أنفسهم، وخالفوا أمر نبيهم ﷺ حين أصرّوا على دفن الشيخ ضمن مخطط مسجد سيدنا الحسن البصري رضي الله عنه، وقد قضى الله ورسوله أن تكون المساجد لله عزّ وجلّ وحده! هذا حكمٌ شرعيٌّ واضح لا مجال فيه للتأويل والتعليل!

ومن زعم أنّ إغراقه في حُبّ بعض الأشخاص يفتح له باب التجاوز عن بعض الأحكام الشرعية الثابتة المقرّرة، وأن يكون ولاؤه للأشخاص لا للمبادئ، أو للشيخ وليست للإسلام، من زعم ذلك فقد كذب في حبّه وفهمه لدينه جميعاً.

- ٥ -

حياته تلخيص لتاريخ البلاد المعاصر:

لخصت حياته - رحمه الله - تاريخ البلاد المعاصر، لا بحكم تاريخ ولادته ووفاته، بل بما مثّلته هذه الحياة من أدوار التفاعل والتأثير في البيئة والمجتمع، والحياة والناس!

نشأ في ظل الحكم العثماني يافعاً، وجاهد الاستعمار الفرنسي شاباً، ومضى يكافح هذا الاستعمار وسائر أعداء الإسلام كهلاً، واستوى على مقعد القيادة الدينية والسياسيَّة والاجتماعية كهلاً وشيخاً، ووقف في وجه الاستبداد والطغيان، والزندقة والعمالة والإلحاد شيخا مهيباً جليلاً كبير النفس، عالي الهمة، صلب العود، قويَّ الشكيمة؛ يجهر بكلمة الحقّ لا يخشى في الله لومة لائم، ويفيء إليه العلماء وطلاب العلم وعامة الناس كلما حزبهم أمر، أو ألمّ بهم مكروه؛ فيجدون فيه الملجأ والملاذ؛ يجدونَ فيه الحكمةَ المتأنية، والنفس الكبيرة، والأب العطوف، ويجدونَ فيه قبل ذلك وبعده: عزّة المؤمن، وكبرياء المجاهد، الذي باع لله نفسه فلم يعد يخيفه تهديد أو وعيد، رحمه الله وأعلى مقامه.

الاستجابة العفويَّة للشيخ من الجمهور:

وأحبُّ أن أشير هنا - من باب الاعتبار والإفادة من تجارب الشيخ رحمه الله في ميدان الإصلاح الاجتماعي والعمل العام - أنَّ الاستجابة العفوية التي كان يجدها الشيخ رحمه الله ويلقاها من الجمهور وهو يحضُّه على الجهاد ضد الفرنسيين، أو يُلهب شعورهم الديني ضد قانون الطوائف على سبيل المثال، بقي الشيخ رحمه الله يقدِّر هذه الحماسة قدرها أو لا يسقطها من حسابه حتى عندما ضعفت أو ذبلت فيما يبدو، أو عندما تغيَّرت الظروف والأحوال؛ وتغيَّرت تبعاً لذلك وسائل المكر بالإسلام والمسلمين، ووسائل العدوان عليهم في تربية أولادهم وقيادة أمتهم ومجتمعهم!

الحاجة إلى تطوير الوسائل في العمل والإصلاح:

أقول: بقي الشيخ المجاهد رحمه الله حيث وضع نفسه فارساً صادعاً بكلمة الحق، لا يخشى إلا الله واليوم الآخر، ولكن أثره في الحياة الاجتماعية، وقدرته على المقاومة والتغيير يمكن أن تكون أفضل لو أن وسائله في العمل والإصلاح العام أدخل عليها بعض التطوير والتعديل بحيث تُعنى على سبيل المثال بتدبير مُسْبَق أو نظام ملحوظ.

وإذا كان مثل هذا يقع على عاتق الأجيال التي ربَّاها الشيخ رحمه الله، إلا أن تقاعسهم عن ذلك قلَّل مدى الإفادة من آفاق الشيخ الواسعة، ومواهبه المتنوعة، وصوَّره في بعض سنيّ حياته أقرب ما يكون إلى زعيم شعبي تاريخي في حيٍّ مجاهد عريق، وقد علم كل من له صلة به رحمه الله أنه أكبر من ذلك بكثير.

الحجم الحقيقي لدور الشيخ الاجتماعي والسياسي:

ولهذا فإنَّ دوره الحقيقي، أو بعبارة أدق: الحجم الحقيقي لدوره الاجتماعي والسياسي كان يعود إلى الظهور حين يبلغ التوتر الاجتماعي أَوْجَهُ، وحين تجد الأمة نفسها محمولة على مثل تلك الاستجابة العفوية السابقة أو القديمة، حينذاك كان يعلم الحكام والمحكومون من هو الشيخ المجاهد حسن حبنكة رحمه الله. ولكن هذه المواقف كانت معدودة، وحين جدَّ الجد في بعضها، وتعرَّضت حياة الشيخ للخطر بعد أن زُجَّ به في السجن، ولفِّق له من التُهم ما يتناسب مع الحكم الذي أرادوه به رحمه الله، انتهت استجابة الجمهور السابقة إلى السّلبية والقعود والتهاون.

ولكنَّ الشيخ الذي لم يتطرق اليأس إلى نفسه في يوم من الأيام كان يبقى على حُسْن ظنه بالناس، لأنه إنما كان ينتظر العون والجزاء من الله سبحانه وتعالى، وليس من أحد سواه، ولأنه كان يعامل الناس من موقع الأبوة والقيادة، ومن مقام عُلوّ الهمة الذي لا يسمح له بالإحجام والتأخر ولو أُفرد وحده في الميدان!.

ـ ٦ ـ

صلته واحتكاكه بالعاملين للإسلام:

كان لنبوغ الشيخ المبكِّر، وتَصَدِّيه لحمل مسؤولية القيادة والزعامة الدينية الشعبية من بين الكثير من أقرانه وزملائه، أثره في صلته واحتكاكه بسائر القائمين على رأس العمل الإسلامي العام، كلٌّ في موقعه، وفي الثغرة التي أقامه الله تعالى عليها من ثغور الإسلام، كان ذلك والشيخ المجاهد رحمه الله في سنِّ الكهولة، أو ما بين الأربعين والخامسة والأربعين على وجه التحديد، وكان في ساحة العلماء والشيوخ من هو أكبر منه سناً. وربما أغزر مادة في بعض فروع العلم ومسائله الكثيرة، ولكن أحداً منهم لم يكن مهيئاً ليقوم على الثغرة التي كان يقوم عليها الشيخ حسن رحمه الله، ولا ليؤدي الدور الكبير الذي كان مُناطاً به في ذلك الحين؛ بحكم الإعداد والتكوين، وبحكم المواهب والاستعداد، وقد جرَّ ذلك على الشيخ رحمه الله شيئاً غير قليل من حسد الزملاء والأقران! كما أنه أوقع الشيخ نفسه ـ رحمه الله ـ في خطأ التعامل مع سائر القائمين على العمل الإسلامي العام من موقع الزعامة الشعبية التي تسنّمها الشيخ بحق، ولكن ما كان له أن يتعامل على أساسها مع سائر العاملين المجاهدين من إخوانه رحمهم الله جميعاً، وجزاهم عن دينه أحسن الجزاء.

الاختلاف في وجهات النظر مع القائمين على العمل الإسلامي:

أذكر بهذه المناسبة طرفاً من حديث طويل سمعته من أستاذنا الشيخ السباعي رحمه الله عن المعركة التي خاضها مع إخوانه في المجلس النيابي التأسيسي حول دين الدولة، وما انتهوا إليه حول هذه المادة من مواد الدستور بعد طول مناقشات ودراسات وزيارات واجتماعات وندوات..!!

يقول الأستاذ السباعي رحمه الله ـ وكانت عنده شدّة في الحق، وحدّة في الطبع ـ: وعندما اجتمعنا إلى الأستاذ الشيخ حسن حبنكة، وجدنا الاجتماع أقرب إلى المحاكمة منه إلى الحوار وتقليب وجوه الرأي... لقد

كره الأستاذ السباعي رحمه الله أن يوضع موضع الريبة والاتهام في موضوع لا يمكن له أن يُفرّط فيه، أو يتهاون، أو يُقصّر عن طلب الأفضل والأمثل. ولكن الأمر فيما يبدو أن هذا «الاختلاف» في وجهات النظر كان يصعب الخروج منه في ذلك الحين من طريق «حق» السَّبْق والتقدم الذي أصابه الشيخ حسن في بيئته على سائر الزملاء والأقران. رحم الله الجميع سابقين ومسبوقين، ومخطئين ومصيبين، وعوض المسلمين خيراً عن هؤلاء العلماء العاملين الأعلام.

سفينة النجاة في الساحة الإسلامية:

هذا الموقف، وأمثاله، يذكرنا بالعامل الثاني السابق[1] الذي أشرنا إليه وأثره في شخصية الأستاذ الشيخ حسن رحمه الله؛ فإن تعامله مع تلك الصورة الشعبية الاجتماعية أمر هام وحسن، ولكن تعامله على أساسها ـ حتى عندما تغيّرت ظروف العمل والمجتمع ـ أمر يُولِّد بعض العوائق أو بعض الخلاف في وجهات النظر، ولهذا كان الشيخ المجاهد رحمه الله في صورة العمل الإسلامي العام، وعلى رأسه كذلك، بمقدار تجاوزه للصورة السابقة، أو بمقدار رؤيته للساحة الإسلامية بكل أبعادها ورجالاتها، وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة عند الشيخ في سنواته الأخيرة، حتى غدا رحمه الله أقرب ما يكون إلى سفينة النجاة في هذا الخِضَمّ الواسع، تتعلّق به القلوب والأنظار، وتلتقي عنده الآراء والأفكار، كلما نزل بالناس ـ جميع الناس ـ ظلم، أو لحقهم ضيم أو ألمّ بهم مكروه، وله من جهاده وترفعه وعفّة ذات يده، ومن نفسه التي وهبها لله عزّ وجل، له من كل ذلك ما يشفع له فيما يرجونه عنده، ويأمّلونه لديه، ولم يكن له ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ من شرط يشترطه لنفسه، وإنما كان يشترط لدينه، ولكرامة هذا الدين أن تُذل أو تُهان مُمثّلة في شخصه الكريم رحمه الله.

---

(١) أي: ظروف العمل الوطني والسياسي.

ـ ٧ ـ

حرصه على كرامة الدين من أن تُذل أو تُهان:

لا أريد أن أسترسل أكثر من ذلك في الحديث عن هذا العامل، وعن أثره في كثير من المواقف العامة التي كان يتخذها الشيخ رحمه الله، أو في تفسير المواقف السياسيّة المتوازنة التي كان يقفها في بعض القضايا والمسائل. ولكن ممّا لا شك فيه أنه عاش ـ رحمه الله ـ لا يخالف قناعاته بوجه من الوجوه، حتى ولو خرج عن مألوف الرأي العام، أو رأي الأوساط الإسلامية الأخرى في بعض الأحيان ـ وبخاصة إذا لاحظنا أثر العاملين السابقين مجتمعين في وقت واحد ـ مثل موقفه الاجتهادي يوم مسألة صاحب الظلال رحمه الله، ولكن علينا أن نذكر أن ذلك كان يسمح له أن يقول كلمة الحق، وأن يُواجه بها الباطل في ظروف أخرى، فتكون الكلمة ـ كما يقدر الشيخ فيما أظن ـ مسموعة ومؤثرة. أو بعبارة أخرى: كان يقف الشيخ رحمه الله في بعض الأمور الحاسمة في خط الدفاع الأخير، وما اشتراطه لكرامة دينه التي أشرنا إليه قبل قليل إلا حفاظاً على هذا الخط ألا يسقط أو ألا يقتحم بحال!.

بُعده عن المناصب الرسميّة:

وأذكر ـ بهذه المناسبة ـ أن الكثيرين من مُحبّي الشيخ وعارفي فضله ومكانته ومواقعه سُرُّوا لبقائه طيلة حياته بعيداً عن المناصب الرسمية، السياسيّة أو الدينية، وبخاصة عندما بدا أن مثل هذا الأمر قريب المنال أو وشيك الوقوع، لأن الشيخ رحمه الله أكبر عندنا من هذه المناصب ـ تكبر هي به، ولا يكبر هو بها ـ ولأن مثل هذا الأمر لو كُتب له الوقوع لكان فيه تضييق لساحة عمل الشيخ، وانتقاص لها من أطرافها، فوق ما كان مُعرّضاً فيها لعوامل الخصومة والصدام! فكان قدراً مقدوراً أن يبقى حيث هو يؤدي رسالة الله وواجب الدعوة إليه، بعيداً عن أيّ عامل من عوامل الضغط والتأثير. حتى أذن الله سبحانه لهذه الروح الكبيرة أن تنطلق من عقالها عشية

حديث له مؤثر عن الرحلة إلى الله، وفي ليلة استعداده للسفر إلى أرض الحجاز! ومَنْ يدري؟ فلعل موعده مع سيدنا رسول الله ﷺ لم يتخلف. رحمه الله رحمة واسعة، وعوض المسلمين خيراً.

ـ ٨ ـ

ظاهرة وتاريخ:

كان «ظاهرة» بعدت بنا الآن عوامل نشأتها وظهورها، وكان «تاريخاً» حافلاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ومن الصعب على المؤرخ لبلاد الشام في القرن العشرين ألا يجد للشيخ حسن حبنكة رحمه الله دوراً أو ذكراً في جميع الحوادث البارزة التي مرت بها البلاد على الصعيد الديني والسياسي والاجتماعي، وغير ذلك من وجوه النشاط الأساسية العامة.

وإننا في الوقت الذي لا نطمع فيه في تكرار هذه الظاهرة مرة أخرى، لا يأساً من رحمة الله فإن ذلك ليس من صفات المؤمنين، ولكن لأن عوامل نشأته وظهوره ـ علماً وجهاداً وريادة ـ لا نراها تعاد اليوم مرة أخرى؛ وفي الكون سنن ربانية ليس لها من تبديل ولا تحويل إلا إرادة العزيز العليم ـ جلَّ وعلا ـ فإننا نطمع ألا ينقطع خط العمل والجهاد على النحو الملائم لطبيعة القائمين بواجب الدعوة والإعداد، ولطبيعة سائر الظروف والملابسات الأخرى في الزمان والمكان. أما قيادة أستاذنا الشيخ حسن رحمه الله وسائر القيادات التاريخية الأخرى، فسوف تبقى على الدوام معالم على الطريق، ومثلاً يهتدي به في حالكات الأيام.

سجاياه النفسيَّة العالية:

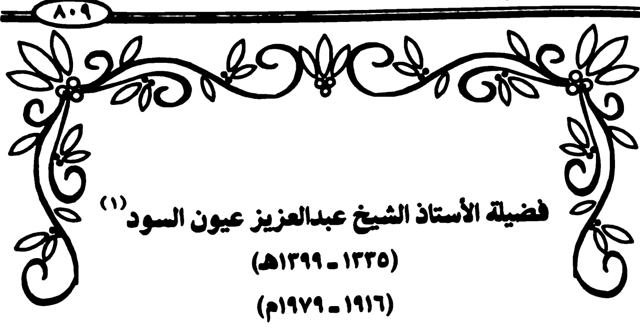
أما سجاياه النفسية العالية التي توّجت تلك العوامل وتفاعلت معها، وكانت تسير به صُعُداً نحو مَعَارج الكمال يوماً بعد يوم؛ فما أظن إلا أنها معروفة للجميع، ولكن إذا نسي الناس شيئاً فلا ينسون في الشيخ رحمه الله أنه كان دمث الطبع، ليّن العريكة، لطيف المعشر، حاضر الطرفة والبديهة،

مهيب الطلعة، مُحبَّباً إلى النفس، مُحكم الإجابة والتعليق ومجاذبة أطراف الحديث، يُقبل على جُلسائه ويُؤنسهم جميعاً على اختلاف درجاتهم وثقافاتهم. وأنه كان قوياً في ذات الله.. يغضَبُ للحق، ولكنه يملك نفسه عند الغضب.. وقد يعلم الكثيرون أنه كان من أبرع من يبتسم في وجه العاصفة، ولكنه ما يزال بها حتى يهدئها ويكفكف من غلوائها، ثم يبدأ بالنُّصح والإرشاد والتوجيه، وَوَضْع الأمور في نصابها وفي موضعها؛ يستوي عنده في ذلك ـ كما لمست ذلك بيدي أكثر من مرة! ـ عواصف الرجال «والأولاد»! وعواصف المبادئ والأفكار. أما ذكاؤه وألمعيته و«حضوره» فناهيك به!.

رحم الله شيخنا الكبير الراحل، ورضي عنه وأرضاه، وحشره يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً. ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وأنا إليه راجعون[١].

□□□□□

(١) ونشرت مجلة «حضارة الإسلام» في العددين (٨ ـ ٩) من السنة التاسعة عشرة: شوال ـ ذو القعدة: (١٣٩٨) مرثيَّة شعرية ونثرية للأستاذ محمد خالد حبيب بعنوان: سلطان العلماء، ومرثيَّة شعرية للأستاذ محمد علي الحريري، وقد نشرهما أستاذنا الشيخ عبدالرحمٰن الميداني في كتابه عن والده في الفصل السادس: ما قيل فيه ص٣٦٠ ـ ٣٦٨.



فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالعزيز عيون السود[1]

(١٣٣٥ - ١٣٩٩هـ)

(١٩١٦ - ١٩٧٩م)



بقلم الأستاذ الشيخ محمد علي مشعل

في صباح السبت ١٣ صفر الخير ١٣٩٩هـ، الموافق ١٣ كانون الثاني ١٩٧٩م، أصيبت حمص مدينة ابن الوليد وسوريا والعالم الإسلامي بموت عالم ربانيّ هو الشيخ عبدالعزيز عيون السود عن عمر يناهز الستين. قضى هذا العمر في العلم والتعليم، والدرس والتدريس، فهو قدوة للعاملين المخلصين، ومنار للأجيال في طريق الحق المبين. والعلماء العاملون يحيون بعد موتهم أو استشهادهم بذكرهم ومآثرهم وآثارهم.

ولادته وأسرته ونشأته:

ولد الشيخ عبدالعزيز عيون السود في حمص عام ١٩١٦م، في أسرة عريقة في العلم والفضل، فآل عيون السود معروفون بحمص بالتقى والعلم؛ فجدّه الشيخ عبدالغني عيون السود من العلماء، وعمُّه الشيخ عبدالغفار عيون

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة العشرون: (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

السود شيخ مشايخ حمص المشهورين، وهو عَلَم من أعلام الفقه دان له علماء عصره وفقهاء زمانه، وهو عَلَم من أعلام تفسير القرآن والحديث، وكتابه «الرياض النَّضرة في تفسير سورتي الفاتحة والبقرة» زادُ العلماء والوعاظ، وكنز الموجهين والمربين؛ يذكر فيه أصح التفاسير عن علم وفهم ورواية ودراية، ويستشهد بالأحاديث ويُخرّجها ويشرحها، ويذكر آراء الفقهاء فيها بعيداً عن التطويل الممل والاختصار المخلّ.

دراسته في دار العلوم الشرعيّة بحمص:

وقد تلقى الشيخ عبدالعزيز عيون السود العلم في دار العلوم الشرعية التابعة للأوقاف عن العلماء الفضلاء: الشيخ زاهد أتاسي، والشيخ أنيس كلاليب، والشيخ محمد الياسين، والشيخ أحمد صافي، ووالده العالم العظيم الشيخ محمد علي عيون السود، وهو أستاذ أصول الفقه والفقه. وتخرّج الفقيد في دار العلوم الشرعيّة عام ١٩٣٦م. كما تلقّى العلوم عن عمّه الشيخ عبدالغفار، والشيخ عبدالقادر الخوجة، والشيخ طاهر الرئيس، والشيخ عبدالجليل مراد، وغيرهم.

حفظه للقرآن وعبادته وعلمه:

أصابه مَرَضٌ قطعه عن الناس فحفظ القرآن الكريم، وكان يطبق العلم بالعمل، وكان يتمثّل به الإسلام إيماناً وعبادة ومعاملة وخلقاً وسلوكاً، فأعطاه الله علماً يزيد على المكتسب، ومنحه قلباً نيّراً وفيضاً غزيراً، وهذا أمر يجب على طالب العلم أن لا ينساه؛ فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

وكان كثير التلاوة للقرآن وفي الصلاة، وكان يديم التهجد قبل الفجر، ويُحيي ما بين المغرب والعشاء، ويُحيي ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، ويحرص على تطبيق السنة في عبادته وأكله وشربه ونومه، كل تصرفاته، ويحرص على صلاة الضحى، وكان كثير الصلاة على النبي ﷺ،

وكثير الزيارة للصالحين طمعاً بالحصول على السعادة عملاً بقوله ﷺ: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[(١)].

وكان يرى النبيّ ﷺ في المنام في أكثر الليالي، وكان وَقوراً مُهَاباً من رآه لأول وَهْلة هابه، ومَنْ خالطه عن قُرب أحبه.

علوم القراءات:

تلقَّى علم القراءات السبع بمضمَّن الشاطبية عن الشيخ **سليمان الفارس كوري المصري**، ثم حفظ الدرة والطيبة، ونزل إلى دمشق فقرأ على الشيخ **محمد سليم الحلواني** شيخ القراء في دمشق وقتئذ، وأخذ عنه القراءات العشر بمضمَّن الشاطبية والدرة.

وفي الوقت نفسه كان يذهب إلى قرية عربين (قرية قرب دمشق) ليأخذ عن الشيخ **عبدالقادر قويدر العربيني** القراءات العشر بمضمن الطيبة.

ثم رحل إلى الديار الحجازية حاجاً في خدمة والده، وحفظ (الفوائد المعتبرة في القراءات الأربع الزائدة على العشرة).

وقرأ في مكة المكرمة بعد الحج على الشيخ **أحمد حامد التيجي** شيخ القراء في الديار الحجازية القراءات الأربع عشرة بمضمَّن الشاطبية والدرة والطيبة والفوائد المعتبرة.

ثم استأذن والده للذهاب إلى مصر وتلقى القراءات عن شيخ عموم المقارئ المصرية الشيخ **علي محمد الضبَّاع** فأذن له ورحل إليه، وقرأ القراءات الأربع عشرة من طريق الشاطبية والدرة والطيبة والفوائد المعتبرة، وتلقى عنه المقدمة في التجويد لابن الجزري، ومنظومتي (عقيلة أتراب القصائد) و(ناظمة الزهر) كلاهما للإمام الشاطبي في علم الرسم والضبط والآي. وقد أجازه كلٌّ منهم وهم علماء القراءات في العالم الإسلامي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وبينه وبين النبيّ ﷺ ستة وعشرون رجلاً كلٌّ منهم مشهور بشيخ قراء زمانه، مشهود له بالتحقيق والتدقيق. وهذا إسناد لا يوجد اليوم في الدنيا أعلى منه ولا أقرب منه إلى النبي ﷺ. وهذا الإسناد مفخرة الأمة الإسلامية والميزة التي فضلها الله بها على سائر الأمم، والخصوصية التي خصَّها الله بها.

وكان الشيخ رحمه الله تعالى مع ذلك كله عالماً بالتفسير ومحققاً. وله تحقيقات وأبحاث لها شأنها، وله استنباطات خاصة في الفتن والملاحم وعلامات الساعة الصغرى والكبرى عسى أن تنشر في مدينة حمص بعد نشر هذه الإجازات.

وقد أصبح شيخ القراءات في العالم الإسلامي كلّه دون منازع، وعرف فضله شيوخ القراءات، فاعترفوا له بالسَّبْق روايةً ودرايةً، وبالنُّطق.

دار الإقراء بحمص:

وافتتح دار الإقراء بحمص، وأخذ عنه الكثيرون علوم التجويد ومخارج الحروف والقراءات والرسم والآي، وأجاز بالقراءات السبع عن طريق «الشاطبية» والقراءات الثلاث فوق السبع من طريق «الدرة» الشيخ عبدالغفار الدروبي(١)، وقد تلقى عنه الشيخ سعيد العبد الله(٢) شيخ قرّاء حماة ـ الذي يقوم على دار الإقراء بحماة الآن في جامع الدلوك ـ القراءات الثلاث فوق السبع بمضمن الدرة والقراءات السبع بمضمَن الشاطبية عن طريقه وأجازه. وقد أجاز المحدِّث النعيمي الجزائري(٣) الذي وفد خصّيصاً من الجزائر

---

(١) المولود في حمص سنة ١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠، والمتوفَّى بجدة قبيل صلاة الجمعة ٢٠ محرم ١٤٣٠ عن تسعين عاماً رحمه الله تعالى. وستأتي ترجمته في آخر تراجم هذا الكتاب.

(٢) المولود في حماة سنة ١٣٤١ الموافق ١٩٢٣، والمتوفَّى بمكة المكرمة بعد ظهر الثلاثاء ٨ رجب ١٤٢٥، الموافق ٢٤ آب ٢٠٠٤ رحمه الله تعالى.

(٣) هو العلامة المحدِّث الشيخ نعيم النعيمي بن أحمد بن علي المولود سنة ١٣٢٧هـ الموافق سنة ١٩٠٩، والمتوفَّى سنة ١٣٩٣ الموافق ١٩٧٣ رحمه الله تعالى. وقد أوردت ترجمته في هذا الكتاب، لوثيق صلته بعلماء الشام عامة، وعلماء حمص خاصة.

للقراءة على الشيخ عبدالعزيز، وتلقَّى عنه القراءات الأربع عشرة بمضمن الشاطبية والدرَّة والطَّيبة والفوائد المُعتَبَرة. وقرأ عليه الشيخ محيي الدين الكردي[١] ختمةً كاملة لورش من طريق الأصبهاني من طريق الطيْبة وأجازه. وقرأ عليه آخرون، وأجازهم.

علوم الحديث:

له باعٌ في علم المصطلح، وفي قواعد الجرح والتعديل، وحفظ الكتب الستة والأحاديث المُسلسلات، وأُجيز من قبل النعيمي الجزائري المُحدِّث. وعنده عدَّة إجازات في رواية بعض الأحاديث.

علم أصول الفقه والفقه والعربية:

تلقى هذا العلم من منابعه الأصيلة بالسند المتَّصل بأبي حنيفة النعمان عن عمِّه الشيخ عبدالغفار، ووالده الشيخ محمد علي، وشيخه الشيخ عبدالقادر خوجة، وهؤلاء الثلاثة الأجلاء فقهاء بالتلقِّي، فهم في أعلى مرتبة دراية ورواية، وكان الشيخ عبدالعزيز يشبههم إلى حد بعيد حتى في لباسه والهيئة والأسلوب والخلق والسلوك والتحقيق والتدقيق.

وكان متمكِّناً يُرجع إليه في الفتوى وحلِّ المعضلات، وقد أصبح من أعلى المراجع في حمص في هذا الميدان يجله علماء حمص، ويُشار إليه بالبنان في سوريا والعالم الإسلامي كله.

وله اطلاع واسع لا ينكر على علوم اللغة العربية، ومحفوظاته ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر في العلوم كالشاطبية والألفية.

علم التوحيد:

كان دقيق التعبير عن عقيدة السلف، يميل إلى الأخذ دوماً بطريق

---

(١) هو الشيخ المقرئ الصالح، المعمَّر محيي الدين بن حسن الكردي المولود في دمشق سنة ١٣٢٩ الموافق ١٩١٢، والمتوفى بعد مغرب يوم الجمعة ١٦ شعبان ١٤٢٩ الموافق ٧ آب ٢٠٠٩ رحمه الله تعالى وأثابه رضاه.

الفطرة عن الكتاب والسنة بعيداً عن التعقيد، ويكره إدخال العامة في أبحاث المتكلمين.

تحفّظه في الفتوى:

كان متحفظاً كثيراً، وإذا سأله طالب علم مسألة أرشده إلى مطالعتها في كتاب، وكان قويَّ الحجة حاضر البديهة سريع الإجابة في الدليل، حنفي المذهب عليماً بمذهبه أدلة وأحكاماً، مطلعاً على بقية المذاهب، ويحب الرجوع إلى ذوي الاختصاص.

أخلاقه:

جمع مع العلم التواضع للعلماء والمعلمين، والبساطة في المأكل والمشرب والمجلس، كان حسنَ المعاشرة حسن الصحبة، يهتم بجلسائه ومرافقيه وتلاميذه ويعتني بهم ويُحسن رعايتهم.

كان باراً بوالديه وأعمامه مُحترماً موقِّراً، حريصاً على خدمتهم والرفق بهم، وعلى الرغم من مرضه فقد كان يخدمهم بنفسه ممَّا يغرس في قلب من يراه بر الوالدين عملياً، وكان يكثر من زيارتهم بعد الممات، ويذكرهم دوماً مع الاحترام والتوقير.

وكان باراً بشيوخه وحسن الخدمة لعلماء عصره، يحرص على رضاهم ويزور من يظهر فيه الصلاح والخير.

وكان قليل المزاح، وإذا مزح لا يقول إلا حقاً. وكان كثير الذكر كثير الصلاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ولا يصلي إلا جماعة. وقد نقل عنه الثقات أنه لم يصل منفرداً ألبتة لا في حضر ولا سفر!.

حُسْن خاتمته:

وفي ليلة وفاته أتمّ صلاته قبل النوم ونام، إلا أنه أحسَّ مَنْ حولَه بتعبه، وقام للتهجد كعادته وتوضأ ثم بدأ الصلاة، ومات وهو في الصلاة في الساعة الرابعة قبل الفجر، وهذه منحة عظيمة.

وإنا لنرجو الله سبحانه أن يجمعنا به في مستقر رحمته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مع العلماء العاملين.

أيها الأخوة المؤمنون في حمص والعالم الإسلامي كله: فقدنا عالماً مرشداً مقرئاً فقيهاً مُحدِّثاً مربياً، ولنا في النخبة من علماء حمص، وفي النخبة من علماء سورية، وفي النخبة من طلاب العلم، وفي النخبة من تلاميذ الشيخ عبدالعزيز وفي أولاده خير عزاء إن شاء الله تعالى.

والأمل أن تشحذ العزائم من جديد لحَمْل الراية والسَّيْر في طريق الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، وأن تبقى دار الإقراء في حمص مركز إشعاع، وأن تفتح في المساجد دور الإقراء ودور العلم في كل مكان من العالم الإسلامي، ويكون ذلك إحياء لذكرى عالمنا الجليل وشيخنا العظيم، وستظل سيرة هذا العالم وعلم هذا العالم شعلة هدى تضيء للأجيال الطريق.

وإذا فقدنا عالماً فسيكون بعده علماء، وإذا غربت شمس طلعت شموس، ولن نجزع لأمر الله، وإنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، ولا نقول ما يغضب الرب.

ولنا في رسول الله ﷺ أكبر عزاء، وقد وقف أبو بكر الصديق الخليفة الأول والمؤمن الأول رضي الله عنه يقول:

«أيها الناس من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، وإن الله قد تقدَّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً فإن الله اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، ولا يشغلكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتنكم عن دينه، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه، ولا تستنظروه فيلحق بكم فيفتنكم».

ولا يجوز ـ أيها الأخوة المؤمنون في كل مكان ـ أن تشغلنا مصيبتنا

عن أمر الدين، ويجب أن لا يزيدنا فقد العلماء إلا يقظة لنتدارك الفائت، ونتابع التحصيل، ونغتنم الوقت فنستفيد من علماء عصرنا، فالمحروم من حُرِمَ من خير أهل زمانه، إنَّ في الله خلفاً عن كلِّ أحد، ودَرَكاً لكل رغبة، ومجازاً من كل مخافة، فالله أرجو، وبه ثقوا.

إنَّ في الله عزاءً عن كلِّ مصيبة، وعِوَضاً عن كلِّ رغبة، فاللَّهَ فأطيعوا وبأمره فاعملوا، وحَسْبنا الله ونعم الوكيل[1].

□□□□□

(١) ولشيخنا العلامة المحدث المحقق الأستاذ محمد عوامة ترجمة ضافية كتبها عن الشيخ عبدالعزيز عيون السود، وأرسلها لمجلة «الحضارة» بعد وفاته، فاعتذرت المجلة عن نشر ترجمته لأنه سبق لها أن نشرت مقالة الشيخ محمد علي مشعل، وكنت قد تشرَّفت بزيارة الشيخ عبدالعزيز في منزله بحمص بصحبة شيخنا محمد عوامة مع والدي رحمه الله تعالى، ورأيت الشيخ مرَّات في زياراته لحلب، وقد طلبت من شيخنا محمد عوامة تلك الترجمة لأوردها في هذا الكتاب فلم يقف عليها، ولعلَّ الله سبحانه يُيسِّر العثور عليها، ونشرها، ففيها من الفوائد والتحقيقات ما لا تجده في غيرها كعادة شيخنا فيما يكتب ويحقِّق حفظه الله ونفع به.

وإذا كان لا بد من كلمة رثاء أسطرها في يوم وفاته، فلتكن الكلمة في تبيان فضائله، وتعداد مآثره إن أردنا أن نكون أوفياء لهذا الفقيد الغالي، وأن نكون مخلصين في محبته، مقدّرين لفضله...

يمتاز فقيدنا رحمه الله بثلاث مزايا رئيسية:

يمتاز بكونه عالماً.

ويمتاز بكونه متواضعاً.

ويمتاز بكونه مرشداً.

أما كونه عالماً، فقد قضى رحمه الله حياته كلها في العلم والتصنيف، والشعر والمطالعة والتدريس.. ويشهد لعلمه وتآليفه وأدبه وشعره تلامذته الذين تخرّجوا على يديه، وقد درسوا عليه العلوم الشرعية، واللغة العربية، وعلم العروض. وتشهد لعلمه وتدريسه «الشعبانية» وعلماؤها، والخسروية القديمة والحديثة وأساتذتها، ويشهد لعلمه مَنْ عرفه من إخوانه من أهل العلم والمعرفة، ومن حضر عليه من الخاصة والعامة.

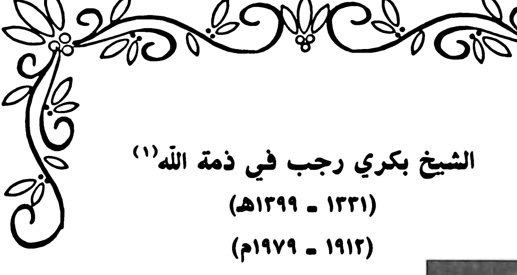
أما كونه متواضعاً، فالقريب والبعيد يعرف عنه هذا الخلق الأصيل، وهذه الصفة المميزة وتواضعه هذا كان شاملاً لجميع مظاهر حياته.

شاملاً لملبسه، فإذا لبس لا يُرى عليه آثار التكلف والتنمُق، ومظهر الزهو والخُيلاء.

وشاملاً لمطعمه، فإذا أكل يأكل ما حَضَر، وما عُرف عنه رحمه الله أنه تفنَّن في أنواع المآكل، وأطايب الطعام.

وشاملاً لمشيته، فإذا مشى مشى على الأرض هَوْناً، وسار بين الناس في تواضع وخفض جناح.

وشاملاً لمن يلقاه من الناس أو من يلتقي بهم، فإذا اجتمع بأحد أو التقى به سلّم عليه، واستنار وجهه ببشاشة حلوة، وإذا سمع أن إنساناً مرض



الشيخ بكري رجب في ذمة الله[1]
(١٣٣١ ـ ١٣٩٩هـ)
(١٩١٢ ـ ١٩٧٩م)


بكري رجب

للأستاذ الشيخ عبدالله علوان

منذ شهور فقدت الشام عالمها الفذّ، وفقيهها الجريء، ورجلها الشجاع.. فضيلة الشيخ حسن حبنكة تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

وبالأمس القريب فقدت حمص رجل العلم والفقه والعمل والإخلاص.. فضيلة الشيخ عبدالعزيز عيون السود أعلى الله مقامه وجعل الجنة مأواه.

واليوم تفقُد حلب الشهباء عالماً فاضلاً من علمائها، وداعية مخلصاً من دعاتها.. هو فضيلة الشيخ بكري رجب رحمه الله الذي توفاه الله سبحانه ضحى يوم الخميس الأول من شهر جمادى الأولى، الموافق ٢٩ آذار ١٩٧٩م.

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة العشرون، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م. وتنظر ترجمته في كتاب «علماء من حلب في القرن الرابع عشر» للأستاذ محمد عدنان كاتبي ص٣٦٦ ـ ٣٧١.

عاده أو مات شيعه، وإذا دعاه إنسان إلى بيته أجابه، أو قصده في حاجة نَفَّسَ كُرْبَتَهُ، وإذا جاءه فقير يطلب شيئاً أعانه، وإذا جاءه إنسان يستفتيه في مسألة أفتاه وعلّمه، وإذا أراد أحد تلامذته أو محبيه أن يحمل عنه متاعه فيمتنع ويقول له: صاحب الحاجة أحق بحملها!

وهكذا كان التواضع خُلقاً أصيلاً من أخلاقه، وصفةً بارزة من صفاته رحمه الله.

أما كونه مرشداً فالإرشاد في الحقيقة كان ميزة ظاهرة من مزاياه.

كان رحمه الله لا يَفْتُر ولا يكل في تبليغ الدعوة الإسلامية، وإرشاد أمة الإسلام إلى الحق والخير أينما كان وحيثما ارتحل.

هذه الظاهرة في تبليغه وإرشاده يعرفها عنه إخوانه العلماء، وتلامذته النجباء، والخاصة والعامة من الناس.

خروجه للدعوة وجولاته المستمرة:

فمن ملامح إرشاده وتبليغه: أنه كان يخصص له يوماً من كل أسبوع يخرج فيه مع زمرة من العلماء الأفاضل إلى القرى القريبة أو النائية. وكان يقوم بالتدريس الوعظي والإرشادي في مساجد حلب بشكل دائم، وأوقات مخصصة، وكان يقوم أيضاً بجولات مستمرة على البيوت في مناسبات الموالد والأفراح والمآتم وعودة الحجيج من الأراضي المقدسة.. ليؤدي في هذا كله رسالة التبليغ والتوجيه، ومهمة التعليم والدعوة.

مجالس وعظه المؤثرة:

وقد أُوتي رحمه الله ثقافةً عجيبةً في الوعظ، وقدرةً فائقة في التأثير، ففي جلسة وعظه وإرشاده يروي لمُحدِّثيه من القصص والشواهد وروائع الشعر والأمثلة التاريخية، ما يلفت النظر، ويثير الانتباه، وفي كثير من الأحيان يبلغ التحزُّن والتخشُّع في الحاضرين أقصى مداه، وما ذاك إلا لقوة تأثيره، وجاذبية حديثه، وَصِدْقِ قاله وحاله، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما

يدل على إخلاصه الصَّادق، وذكائه النادر، وذاكرته الفريدة، وموهبته العجيبة، وأسلوبه المؤثر البليغ..

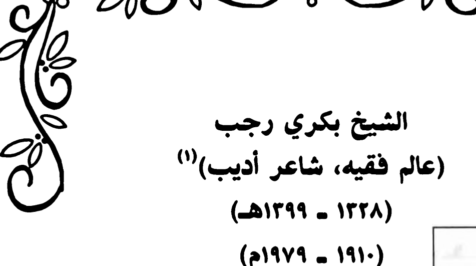
رحم الله شيخنا الجليل، وأغْدَقَ عليه من سحائب رحمته ورضوانه، ورفع مقامه في الآخرة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

سلامٌ عليك يا أبا عبدالله إلى يوم نلقاك عندما يقوم الناس لرب العالمين.

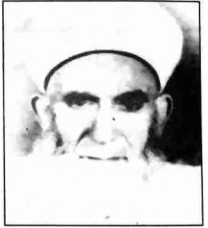
وألهم أهلك وأولادك وإخوانك العلماء وتلامذتك جميعاً الصبر والسلوان والرضا.. وعَوَّض الله المسلمين من يقوم مقامك في الدعوة إلى الله، وتبليغ الناس رسالة الإسلام، إنه بالإجابة جدير.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى فلنصبر جميعاً ولنحتسب، إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله.

□ □ □ □ □



الشيخ بكري رجب
(عالم فقيه، شاعر أديب)[(١)]
(١٣٢٨ ـ ١٣٩٩هـ)
(١٩١٠ ـ ١٩٧٩م)



بقلم: فيّاض العبسو

نسبه ومولده ونشاته:

هو الشيخ العلامة الفقيه الشاعر الأديب، أبو عبدالله بكري بن عبده بن عمر بن رجب، الحنفي، البابي الحلبي. ولد في مدينة (الباب)، التابعة لمحافظة حلب، بسورية، سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة وألف للهجرة[(٢)].

وتلقّى تعليمه الأولي في أحد كتاتيب بلدته، فأتقن تلاوة القرآن الكريم، وحفظ الكثير منه، كما حفظ بعض المتون في الفقه والعربية، وكثيراً من الشعر العربي في الجاهلية والإسلام، وحضر حلقات بعض شيوخ البلدة، أمثال الشيخ مصطفى أبو زلام.

---

(١) نشرت بتاريخ: ٢٠٠٧/٤/٢٥ في موقع (الإسلام في سورية) مع إضافات من كتاب الأستاذ عدنان كاتبي.

(٢) أرّخ ولادته الأستاذ عدنان كاتبي في كتابه «علماء من حلب» ص٣٦٧ سنة ١٣٣١هـ الموافق ١٩١٢م.

دراسته وشيوخه:

دخل المدرسة الخسرويّة، بحلب، وتلقى العلم عن علمائها الأفاضلها وشيوخها الأجلاء، أمثال العلامة الفقيه الكبير الشيخ أحمد الزرقاء، والشيخ العلامة المفسر أحمد الشماع، والشيخ الصالح الشاعر عيسى البيانوني. دفين البقيع، والشيخ المحدِّث المؤرخ محمد راغب الطباخ، والشيخ الفقيه الأصولي محمد أسعد العبجي. [وتخرج مع الدفعة السادسة، وذلك صيف سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م].

كما حضر على مفتي مدينة الباب السابق، الشيخ الأديب أحمد النعساني، وحضر كذلك على عالم حلب الكبير ورئيس المدرسين، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني. وسلك على يد العالم الجليل الشيخ المربِّي الفاضل محمد أبي النصر الحمصي النقشبندي، رحمه الله تعالى. كما درس سنة واحدة في الجامع الأزهر بمصر.

أقرانه وأصدقاؤه:

وكان من أقرانه وأصدقائه، الشيخ الأديب العلامة اللغوي أحمد القلاش الحلبي، والشيخ العلامة الفقيه محمد السلقيني الحلبي، والشيخ الفقيه مصطفى مزراب الحلبي، والشيخ العلامة محمد نجيب خياطة (فرضي حلب، وشيخ قرائها)، والشيخ محمد السيفي، والشيخ الشاعر محمود الفحام الحموي ثم الحلبي، والشيخ محمد الشامي البابي الحلبي، والشيخ العلامة ناجي أبو صالح، والشيخ محمود الصابوني الحلبي، والشيخ حسن هاشم، والشيخ الفقيه محمد الغشيم، والشيخ محمد المسلاتي.

ومن خارج سورية، العلامة الكبير حكيم الهند سماحة السيد الشيخ الداعية أبو الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى، والشيخ العلامة المحدث الهندي حبيب الرحمٰن الأعظمي، والشيخ السيد علوي المالكي المكي، والشيخ السيد الشاعر محمد أمين الكتبي، والسيد الشاعر عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي الحسيني، والشيخ حسن فدعق المكي، والشيخ

الشاعر أمين الكتبي المكي، والشيخ الشاعر محمد الخطيب الطنطاوي... والسيد نور الشيخ أمين، وغيرهم كثير.

عمله:

درّس العلوم الشرعية والعربية، في المدرسة الخسروية، ومعهد العلوم الشرعية (المدرسة الشعبانية)، والثانوية الشرعية للبنات، والمدرسة السلطانية التي أسّسها صديقه الشيخ الشاعر الأديب محمد خير الدين إسبير، كما افتتح الشيخ بكري رجب وصديقه الأثير الشيخ أحمد القلاش، مدرسة دينية في حلب استمرت لمدة عشر سنوات، بالإضافة إلى عمله إماماً وخطيباً لمدة أربعين سنة، في عدة مساجد بحلب، منها جامع هارون داده، في قاضي عسكر، وجامع الميدان، وكان مدرس محافظة، يعطي دروساً في الجامع الأموي الكبير بحلب، وجامع بنقوسا، ومسجد الصاخور، كما ألقى عدداً من المحاضرات في عدة محافظات، كمدينة دمشق وحمص، في سورية، ومدينة بيروت في لبنان الشقيق. وكان يذهب إلى القرى، داعياً إلى الله تعالى، وكان يوزع المال على الفقراء والمساكين.

صفاته وأخلاقه:

كان الشيخ عالماً، مرشداً، وواعظاً مؤثراً، وعابداً، زاهداً، ومتواضعاً، مخلصاً في عمله، محباً لله تعالى، ولرسوله الكريم ﷺ، محبوباً لدى الناس، وكان كثير الرؤيا الصالحة، ويراه الناس في رؤى صالحة، تبشر بالخير. وكان صبيح الوجه أنوه، ذا لحية بيضاء قبضة، يلبس عمامة بيضاء على طربوش أحمر.

أسرته وأولاده:

تزوج امرأتين، ورزقه الله تعالى بتسعة أولاد، ستة منهم بنات، وثلاثة منهم ذكور، أكبرهم، الشيخ عبدالله، وبه يكنى، والذي درس في الخسروية، ثم تخرج في كلية الحقوق، وكلية الآداب بحلب، وعمل في المساجد والمحاكم، ثم ولده رضوان، الذي تخرج في الخسروية أيضاً، ثم اتجه إلى الإنشاد والموسيقى والغناء، وآخرهم الشيخ عبدالباسط، والذي يعمل في مجال الدعوة والإرشاد.

كثرة حَجّة:

وكان الشيخ كثير الحج، فقد حجَّ ثلاثاً وأربعين حجَّة، ولما لامه بعض الناس على ذلك ردَّ عليه بقوله:

يروم عذولي صدَّ قلبي عن الحِمَا ... وأنْ ألزم القلب المُلوَّع بالصبرِ
فقلت له كُفَّ الملام فإنني ... أرى الصبر عن حبي أمرَّ من الصبرِ

مؤلفاته وآثاره:

ترك الشيخ العديد من الكتب والمؤلفات، المطبوعة، والمخطوطة، ومن كتبه المطبوعة:

١ ـ الرسالة الشافية في الشعر والعروض والقافية. ٢ ـ الدليل إلى مناسك الحج والزيارة. ٣ ـ المثل العليا في الحب للجناب المحمدي، طبع سنة ١٣٩٣هـ. ٤ ـ المولد النبوي في الترغيب والترهيب. ٥ ـ ردود على بعض الفرق، نظماً. ٦ ـ هداية المريد إلى جوهرة التوحيد، طبع سنة ١٩٦٥م، وهو شرح متوسط لجوهرة التوحيد، في العقيدة الإسلامية.

٧ ـ شرح قصيدة السفور والصهيونية، للشيخ الشاعر محمد خير الدين أسبير. ٨ ـ ديوان شعر، بعنوان: ديوان المدائح النبويَّة والأشعار الحكمية. طبع سنة (١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م). اشتمل على كثير من المدائح النبوية، والرثاء، والدفاع عن عز الإسلام ومجد العروبة والأقصى وفلسطين والحجاب الشرعي، والرد على المغرضين الحاقدين.

وأما كتبه المخطوطة، فهي:

١ ـ الدرر اللمَّاعة في شرح بيان السنة والجماعة. ٢ ـ الفيض الهامي في الرد على رسالة «أدوار التصوف الإسلامي». ٣ ـ القول المنيف في الرد على «النقد والتزييف» للشيخ محمد سعيد الجابي الحَمَوي. ٤ ـ ردود على بعض الفرق، نثراً. ٥ ـ تقريرات على شرح الشيخ خالد الأزهري.

وفاته:

عاش الشيخ سبعين سنة، قضاها في العلم والتعليم والدعوة والعبادة والوعظ والإرشاد، ثم فارق الحياة مأسوفاً ومحزوناً عليه من الجميع، وذلك في ضحى يوم الخميس ١ جمادى الأولى ١٣٩٩هـ، الموافق ٢٩ آذار ١٩٧٩م، ودُفِنَ في مقبرة كرزة دادة، بحلب رحمه الله تعالى[١].

□□□□□

(١) مصادر الترجمة: هذه المعلومات مستفادة من: الشيخ العلامة أحمد القلاش، في لقاء معه، في مسجده بباب النصر، بحلب. ومن ولده البار الشيخ عبدالباسط، في اتصال هاتفي معه، بحلب، بتاريخ ١٩٩٩/٧/٧م. ومؤلفات الشيخ المطبوعة، وديوان شعره، الذي طبع في عام (١٩٧١م). ويُنظر أيضاً: مجلة حضارة الإسلام الدمشقية، العدد الرابع، السنة العشرون، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. ومقدمة كتاب: إتحاف المريد بجوهرة التوحيد، لمؤلفه عبدالسلام اللقاني، كتبها تلميذه، الأستاذ الشيخ محمد علي إدلبي الحلبي. وتكملة معجم المؤلفين (لعمر كحالة)، صفحة (١٠١)، للأستاذ الشيخ محمد خير رمضان يوسف. ومعجم المؤلفين السوريين، صفحة (٥٢)، لمؤلفه الأستاذ عبدالقادر عياش. وتنظر ترجمته أيضاً في كتاب «علماء من حلب في القرن الرابع عشر» للأستاذ عدنان كاتبي ص٣٦٦ ـ ٣٧١.

وفاة الأستاذ المودودي رحمه الله[١]

(١٣٢١ - ١٣٩٩هـ)

(١٩٠٣ - ١٩٧٩م)


ابو الأعلى المودودي

فُجِعَ العالمُ الإسلامي بنبأ وفاة سماحة الأستاذ العلامة الداعية المجاهد أبي الأعلى المودودي رحمه الله عن عُمر يناهز الخامسة والسبعين، قضاها في الدعوة والجهاد وتبصير المسلمين - في كلِّ مكان من أنحاء العالم، وبخاصَّة في شبه القارة الهندية - بشؤون دينهم ومجتمعهم وثقافتهم الخاصَّة بهم، ولم تقعد به همة - رحمه الله - عن الكتابة والتأليف وإلقاء المحاضرات حتى في أيامه الأخيرة.

تاريخ الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية:

وقد مثَّلت حياته الكريمة الخِصْبة ولخَّصت تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية في العصر الحديث، أو في التاريخ المعاصر، بدءاً من الصِّراع مع الاستعمار البريطاني الذي كان يجثم على

---

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة العشرون: (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

صدر الهند والكثير من البلاد الإسلامية ـ حتى كان هذا الاستعمار أشرس ألوان الاستعمار الأوروبي، وأشدها حقداً على الإسلام والمسلمين، وأكثرها خُبثاً وكيداً لهم في حاضرهم ومستقبلهم كما اتَّضح لكلّ ذي عينين في فلسطين وكشمير، وكما حذر منه، ونهض لمقاومته دعاة الإسلام في الهند وفلسطين ومصر والعراق وسائر البلاد الإسلامية الأخرى ـ وانتهاءً بمقاومة الظلم الاجتماعي والطغيان السياسي، والعمالة الحضارية التي مارسها حكام باكستان وغيرهم في بلاد المسلمين في عصر ما بعد الاستعمار السياسي والعسكري، والذي يُطلق عليه عادة اسم عصر الاستقلال!.

ولادته ونشاته وعمله في الصحافة:

ولد الأستاذ المودودي في مدينة أورنج آباد في جنوبي الهند في ٢٥ كانون الأول ١٩٠٣م، والتحق في عام ١٩٢٠م ـ بعد أن توفي والده ـ بجريدة «المدينة» التي كانت تصدر في مدينة «بنجور».

ثم تولّى بعد ذلك إدارة تحرير مجلة «تاج» اليومية في مدينة «جبلبور».

وفي العام التالي أصبح رئيس تحرير جريدة «مسلم» الأسبوعية التي كانت تصدر في نيودلهي، ثم رأس تحرير جريدة «الجمعية» اليومية في عام ١٩٢٤م. واستمرّ منذ ذلك التاريخ في كتابة المقالات وإلقاء المحاضرات وتأليف الرسائل.

مجلة «ترجمان القرآن»:

وفي عام١٩٣٢م، بدأ بإصدار مجلة «ترجمان القرآن» الشهرية التي كانت من أعظم الوسائل في توجيه مُسلمي شبه القارة الهندية، وفي تعبئة شعورهم الديني أمام التحدّي الهندوسي المُتَزايد، والذي كان يلقى العطف والتشجيع من قبل الاستعمار البريطاني.

مشاركته في إعداد خطة الحكم الإسلامي لدولة باكستان:

حتى إذا اتخذ حزب الرابطة الإسلامية ـ الذي كان يعبر عن شعور مسلمي شبه القارة الهندية وأمانيهم في الحياة ـ قراره التاريخي في آذار

١٩٤٠م، بإنشاء دولة خاصة لهم في الهند باسم باكستان، يحكمون فيها بشريعة الإسلام، كان الأستاذ المودودي رحمه الله عضواً في اللجنة التي كُلِّفت بإعداد خطة الحكم الإسلامي لدولة المستقبل. وكان له رحمه الله رأيٌ في أسس الدولة وشروط المواطنة والرعوية فيها قد بسطه في محاضرته القيمة عام ١٩٣٨م، «منهاج الانقلاب الإسلامي»، ثم صدّقت الأحداث والوقائع صحّة نظرته العميقة وفكره الثاقب رحمه الله.

دعوة الأستاذ المودودي على صفحات مجلته:

وفي خريف ذلك العام ١٩٤٠م، كانت دعوة الأستاذ المودودي على صفحات مجلته تلك تصل إلى عيون المسلمين في شبه القارة وأسماعهم، يحثُّهم فيها على تكريس جميع جهودهم وطاقاتهم على الصعيد الفردي والجماعي لفهم الإسلام حق الفهم، وإقامته في نفوسهم ومجتمعه ودولتهم على نحو ما كان في عصر الخلافة الراشدة المجيدة.

تاسيس الجماعة الإسلامية في باكستان:

ثم بلور برنامجه هذا وأخرجه إلى حَيِّز الوجود في مؤتمر عام دعا إليه في عام ١٩٤١م، في مدينة لاهور حيث نشأت «الجماعة الإسلامية» ووضع لها قانونها الخاص، وانتخب الأستاذ المودودي أول رئيس لها.

وقد تعرضت الجماعة للهجوم من القوى البريطانية المسيطرة منذ أول ظهورها، ولم يستطع الإنكليز ـ والشعور الديني الوطني الجهادي كان عند المسلمين في الهند في ذلك الوقت على أقوى ما يكون ـ أن يبلغوا من الجماعة ما بلغه الحكم في باكستان بعد التقسيم!

رئاسة الجماعة الإسلامية في باكستان:

هاجر الأستاذ المودودي إلى باكستان بعد تقسيم الهند في آب ١٩٤٧م، وتولى مهام رئاسة الجماعة الإسلامية في البلد الجديد، وفي كانون الثاني ١٩٤٨م، بدأ حملته الواسعة لوضع الشريعة الإسلامية والنظام

الإسلامي موضع التنفيذ، ونشط في الكتابة والخطب والأحاديث الإذاعية، ولكن ما لبث في تشرين الأول من ذلك العام أن ألقي عليه القبض وزجَّ به وبزملائه في السجن بتهمة معارضة الحكومة وتحريض الجمهور.

ولم يُطلق سراحه إلا في حزيران ١٩٥٠م، بعد حبس دام عشرين شهراً!

مطالبته بتنفيذ الدستور الإسلامي وتآمر الحكومة العسكريَّة عليه:

وفي عام ١٩٥٢م، قدم الأستاذ المودودي مطالبه الشهيرة المؤلفة من تسعة بنود لنفاذ الدستور الإسلامي. هذا الدستور أو هذا الإسلام الذي قُسِّمت الهند على أساسه، وقامت دولة باكستان لتطبيقه، وإعادة بناء الفرد والأمة والدولة على هُداه، ولكن الحكومة العسكرية تآمرت على هذه المساعي، واسْتَغلَّت مساعي الأستاذ المودودي ـ وبخاصَّة مساعيه ضد القاديانية ـ لتحقيق أهدافها، فشجعت عملاءها على إثارة موجات العنف وخلق جو الفوضى، واعتقلت الأستاذ المجاهد ـ رحمه الله ـ في عام ١٩٥٣م، بتهمة إثارة العنف.

استبدال حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة:

وفي الحادي عشر من شهر أيار ـ مايو ـ في هذا العام أصدرت حكمها بإعدام المودودي، وكان هذا الحكم نهاية هذه الأحداث المثيرة، ومقدِّمة لاضطرابات واحتجاجات واسعة داخل باكستان وخارجها في أرجاء العالم الإسلامي الذي كان قد عَرَف الأستاذ رحمه الله عن طريق مؤلفاته ومحاضراته وتاريخ جهاده، فاضطرت الحكومة إلى استبدال حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة.

إطلاق سراحه ومساعيه في تحكيم الدستور الإسلامي:

ثم أصدرت المحكمة العليا في ٢٩ نيسان ١٩٥٤م، حكمها بإطلاق سراحه رحمه الله.

وفي شهر آذار من عام ١٩٥٦م، لقيت مساعيه نجاحاً جزئياً، وأعلنت الحكومة دستوراً شبه إسلامي.

سفره إلى الأقطار الإسلامية:

وفي هذا العام سافر إلى بعض الأقطار الإسلامية، وناشد المسلمين من خلال خطبه إلى توحيد صفوفهم، والجمع بين كلمتهم. وبعد عودته من سفره وجَّه مطالبه إلى الحكومة بأن تسعى إلى إنشاء كتلة إسلامية.

الحَظْر على الجماعة الإسلامية:

في ٦ كانون الثاني ١٩٦٤م، عادت الحكومة إلى فرض الحظر على الجماعة الإسلامية، وزجَّ بالأستاذ المودودي وأعضاء مجلس الشورى للجماعة في السجن، ثم أطلق سراحه في ٢٥ أيلول بناء على حكم المحكمة العليا.

أداء فريضة الحج وتعريفه بقضية كشمير:

وفي نيسان ١٩٦٦م، سافر الأستاذ المودودي رحمه الله لأداء فريضة الحج، وعرَّف العالم الإسلامي مُجدِّداً بقضية كشمير فوزَّع كتيباً عن هذه المشكلة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

في ٤ آذار ١٩٦٩م، أجرى التلفزيون الإيطالي مقابلة شخصية معه حول موضوع «الإسلام في العالم».

استقالته من رئاسة الجماعة الإسلامية وتفرغه للتاليف:

في عام ١٩٧٢م، استقال من رئاسة الجماعة الإسلامية لأنَّ حالته الصحية لم تعد تسمح له بمتابعة مهمات هذا المركز، وكرَّس وقته للتأليف، وتابع في تأليف تفسيره للقرآن الكريم الذي كان قد بدأ العمل به في عام ١٩٤٣م، في مجلة «ترجمان القرآن» ـ تحت عنوان «تفهيم القرآن» ـ حتى تم له إنجازه بحمد الله في حزيران من هذا العام.

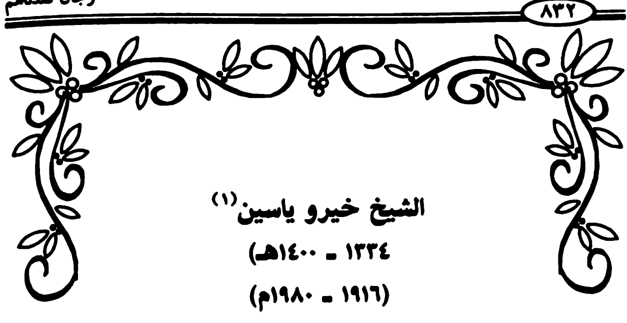
ثم عكف في سنواته الأخيرة ـ بعد إنهاء التفسير ـ على التأليف في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، واستكمل منها مجلدين اثنين تضمّنا حياة النبيّ ﷺ في مكة قبل الهجرة. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل ما يجزي عباده الصالحين.

مزاياه الشخصيّة

هذه خطوط عامة، ومعالم بارزة في حياة الفقيد العظيم رحمه الله، يقابلها في باب مزاياه الشخصية ذلك العقل القوي الهائل الذي وهبه الله سبحانه، وتلك القوة العجيبة في المنطق والتحليل، والقدرة على التصوير الذهني الدقيق، وعلى المناقشة والجدل والإقناع.. إلى جانب ما عُرف عنه خلال حياته الطويلة بجلائل الأعمال من الصّلابة في الحق، وعدم المهادنة مع الباطل في جميع الظروف والملابسات والأحوال، والجهر بما يرى أنه حق في باب الفقه والاجتهاد، وفي باب السياسة والاقتصاد، وفي جميع أبواب الفكر النظري، والتعامل اليومي، رحمه الله وأعلى مقامه.

ونحن إذ نضع هذه الخطوط العامة بوصفها مقدّمات وأرقاماً يحسن الوقوف عليها من قِبَلِ جميع الأخوة القراء والدارسين والكاتبين فإننا نأمل أن تصل إلينا طائفة من المقالات تتناول النواحي المختلفة في حياة الأستاذ الفقيد رحمه الله، وفي مؤلفاته ورسائله الكثيرة، وفي منهجه التربوي والإصلاحي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

□ □ □ □ □



الشيخ خيرو ياسين[(١)]

(١٣٣٤ ـ ١٤٠٠هـ)

(١٩١٦ ـ ١٩٨٠م)

للأستاذ محمد عيد البغا[(٢)]

مصيبة فقد العلماء:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن ينتزعه بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتَّخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**» متفق عليه[(٣)].

إنَّ فقد الأحباب فاجعة أليمة، ولكن فقد العلماء أشد ألماً وأبلغ أثراً! فهو كارثة مريرة، وفقد العلماء الأتقياء أشدّ مرارة وأنكى خسارة! وإن فقد

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الحادية والعشرون: (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م). وينظر: «تاريخ علماء دمشق» (٢:٩٤٦ ـ ٩٥٢).

(٢) المولود بدمشق سنة ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠م، وتخرج في مدارس التربية، وأصبح مديراً لمدرسة ابتدائية في حي الميدان الوسطاني، ثم أمين سر لجنة المعلمين، وتتلمذ على يد الشيخ خيرو ياسين، وحسن حبنكة الميداني، وزين العابدين التونسي، وافتتح مكتبته وسط دمشق سماها: (دار الفتح) ونشر بعض الكتب الإسلامية، وغادر دمشق في بدايات أحداث الثمانينات، وأقام في الأردن، وتوفي في عمان يوم الخميس ١٧ محرم ١٤٣١ رحمه الله تعالى.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

الأتقياء نذير سوء في الأمة، ولعل أقل ما يمليه علينا الواجب تجاه عالم جليل، أمضى حياته في خدمة العلم والعمل للإسلام أن نسجل بعض مآثره، رحمه الله لعلها تكون منارة للجيل يهتدي بهديها وينسج على منوالها، ولا بد لنا ـ قبل الحديث عن صفاته ومآثره وعمله الجاد المثمر في حقل التعليم وما تركه من آثار في هذا المجال ـ لا بد لنا من نبذة مختصرة عن حياته.

نبذة مختصرة عن حياته:

ولد الشيخ خير ياسين رحمه الله في دمشق عام ١٩١٦م، وتوفي في ١٩ صفر ١٤٠٠هـ، الموافق لـ ٧ كانون الثاني ١٩٨٠م، وتلقى مبادئ العلوم الشرعية في جامع منجك في حيِّ الميدان بدمشق الذي كان يشرف عليه الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمه الله، وبدأ بحفظ القرآن الكريم في سنٍّ مبكرة على يد القارئ الحافظ الشيخ عز الدين العرقسوسي رحمه الله. والتزم في حلقته مدارسة وتدريس التفسير حتى وفاته.

تدريسه في معهد التوجيه الإسلامي:

ولقد أحبَّ رحمه الله مهنة التعليم تأسياً برسول الله ﷺ: «إنما بُعِثْتُ معلماً»[1]، وَوَهَبَ حياته للعلم الشرعي، فكان أحد مدرِّسي معهد التوجيه الإسلامي البارزين. وحياته العامة تكاد تكون محصورة في الإطار العلمي والتعليمي، حيث درّس العلوم الشرعية (القرآن ـ علوم اللغة العربية ـ الفقه..) فقد حوّل بيته إلى معهد ومَنْهلٍ للعلم الشرعيّ، يبدأ فيه النشاط العلمي منذ الفجر وحتى الظهيرة، ومن المغرب إلى ما بعد العشاء، يُمسي ويُصبح مع طلابه وكتبه ودروسه، ويعيش غالب وقته لطلاب العلم ولم يكن ليوصد بابه في وجه طالب علم أبداً.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٩) في المقدمة، والدارمي (٣٤٩)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص. قال الحافظ السخاوي: هذا حديث غريب ضعيف، لضعف راوٍ في سنده، هو (زياد بن أنْعُم الإفريقي) لسوء حفظه، ولكن للمتن شواهد. انتهى. ومن شواهده الصحيحة: حديث صحيح مسلم (١٤٧٨) في قصة تخيير النبيْ ﷺ زوجاته الشريفات رضي الله عنهن، وقوله ﷺ لعائشة: «إنّ الله لم يبعثني مُعنّتاً ولا متعنّتاً، ولكن بعثني معلّماً ميسّراً».

إقامته حلقات تحفيظ القرآن:

وقد تنبَّه مُبكِّراً رحمه الله إلى أهمية حفظ وتحفيظ القرآن الكريم فكانت حلقات تحفيظ القرآن الكريم لطلاب العلم من الجيل الناشئ إذ حفظ على يديه العدد الكثير.

استمراره على التدريس والتعليم في مرضه وشيخوخته:

ولم يترك رحمه الله العلم والتعليم حتى في سنيّ حياته الأخيرة رغم تقدم سنه وفقد بصره، حيث كان يحتمل مرضه وعجزه وكف بصره، ويتابع تعليمه صابراً محتسباً الأجر والثواب، فكان بهذا معلماً وقدوة في حالة الصحة والمرض، حيث لم ينقطع عن حلقات التدريس والتعليم حتى وافته المنية وانتقل إلى جوار ربه.

تيسيره العلم لطلابه:

ولعلَّ من أبرز صفات منهجه التعليمي رحمه الله: رغبته في أن يقدِّم العلم لطلابه وتلامذته سهلاً مُيسَّراً، وبعيداً عن التعقيدات النظرية، وعن الخوض في الجزئيات المتكلفة، وبعيداً عن الأمور الخلافية والجدلية، وبعيداً عن التعصُّب لرأي إذا ظهر الدليل الشرعي بخلافه.

تواضعه وزهده:

ولم تكن هذه السجيَّة من سجاياه تُمثِّل موقفاً نظرياً فحسب، بل كانت تُمثِّل خلقاً أصيلاً فيه كان يعرف ببساطته وتواضعه وزهده في الدنيا ومظاهرها، وبذلك كان رحمه الله دليلاً صادقاً على إسلامه وصورة عملية للأمة بسلوكه، فالإسلام ليس ثوباً له مواصفات خاصة يلبس في المناسبات. فقد عاش حياته زاهداً في متاع الدنيا الفاني مؤثراً ما عند الله عزَّ وجل تاركاً هذا المتاع الزائل للاهثين وراءه حيث لم تثقل الدنيا كاهله ولا أقعدته عن أداء رسالة العالم العامل فلم يكن لها من قلبه نصيب.

إلى جانب هذا كله كان رحمه الله لطيف المعشر، دمث الطبع، مُحباً

لإخوانه وطلابه، كريماً سخياً عليهم. كان ترجمة حيّة لحديث رسول الله ﷺ: «المؤمن يألف ويُؤلف»[(١)].

خدمته لأصحابه في رحلاته الكثيرة إلى الحج:

ولعل ذلك من أبرز صفاته التي ما اقتصرت معرفتها على أقرانه وإخوانه وتلامذته الأقربين، بل شملت كل مَنْ عرفه أو رافقه في سفر أو جالسه على طعام، فقد كان رحمه الله المعلم والمرشد والمُؤنس والخادم لمن يلازمه في رحلاته الكثيرة وبشكل خاص حجه إلى بيت الله الحرام طيلة ما ينوف عن ربع قرن تقريباً، وبصحبته العدد الكثير من حجاج بيت الله، يعلمهم مناسك الحج ويرشدهم إلى السنة، ويعينهم على وعثاء السفر ومشقة الطريق، ويُؤنسهم بحديثه العذب الصافي. ليس هذا فحسب بل يكاد يتحمّل - وبكل سرور - كل أعباء تحضير الطعام لهم.

رحم الله الفقيد الكريم وأسكنه جنّات الفردوس، وعوّض الأمة خيراً بالسائرين على دربه المتّبعين هدي الله، العالمين المتقين، ولله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٩١٩٨)، والحاكم في «المستدرك» ١:٢٣، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٥٨) من حديث أبي هريرة ولفظه عند أحمد والبيهقي: «المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف». ولفظ الحاكم: «إن المؤمن يألف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».
وأخرجه أحمد (٢٢٨٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٤٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٢٠) من حديث سهل بن سعد بلفظ: «المؤمن مألفة، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف» وهذا الحديث والذي قبله حسّنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) هذه آخر ترجمة نشرت في مجلة «حضارة الإسلام» التي توقّفت عن الصدور بعد العدد الثاني من السنة الثانية والعشرين: (ربيع الآخر ١٤٠١هـ، شباط ١٩٨١م)، وألحقت بهذه المجموعة عدّة تراجم كتبتها ونشرتها في بعض المناسبات والمجلات تتميماً للفائدة، ونفعاً للقارئ.

الأستاذ الكبير الشيخ محمد المبارك أبو هاشم العالم والداعية والمفكر(١)

(١٣٣١ ـ ١٤٠١هـ)

(١٩١٢ ـ ١٩٨١م)



بقلم العلامة الشيخ مصطفى احمد الزرقا

هو النَّجْل الأكبر لأستاذ الجيل الشيخ عبدالقادر المبارك. كان والده الشيخ عبدالقادر أستاذ الأدب العربي، واللغوي المرجع في دمشق لكل سؤال يتعلق باللغة العربية، وعضواً في المجمع العلمي في دمشق.

في مدرسة عنبر:

١ ـ أول معرفتي بالأستاذ محمد المبارك كان في مدرسة عنبر الثانوية الرسمية في دمشق في العشرينات من هذا القرن العشرين.

ففي سنة ١٩٢٩ جئت أنا من حلب إلى دمشق للالتحاق بمدرسة عنبر (الثانوية) في الصف الثاني عشر (صف الفلسفة والرياضيات). وكان هو الصف الوحيد فيها للسنة الثانية عشر لسائر المحافظات الأخرى في البلاد السورية. كان محمد المبارك إذ ذاك طالباً في السنة العاشرة من الدراسة الثانوية، وكان متميِّزاً مرموقاً بين رفاقه.

---

(١) نُشرت بتاريخ ٢٠٠٦/٧/٢٠م، في موقع (الإسلام في سورية) www.islamsyria.

في كلية الآداب في جامعة السوربون:

٢ ـ لما أكمل دراسته الثانوية وتخرج فيها، فتحت مسابقة في وزارة المعارف لإيفاد طلاب إلى فرنسا ليدخلوا الجامعة في باريس، ويعودوا أساتذة في الثانويات السورية. فاغتنم محمد المبارك هذه الفرصة، ودخل المسابقة في فرع الأدب العربي، ونجح فيها بتفوق فأوفدته الدولة على حسابها في جملة من أوفدت إلى باريس العاصمة الفرنسية ليدخل كلية الآداب (قسم الأدب العربي) في جامعة السوربون بباريس في منتصف الثلاثينيات، وعاد مجازاً إلى دمشق، في الأدب العربي وفي علم الاجتماع. وتمَّ تعيينه بعد عودته أستاذاً للأدب العربي في المدرسة الثانوية بمدينة حلب.

كان من أبرز أساتذته في باريس: الأستاذان المستشرقان المشهوران؛ مارسيه، وماسينيون، وخلال وجوده في هذه المرحلة من حياته في حلب تزوج زوجته الحلبية من آل البيانوني، وهي أم أولاده أحسن الله عزاءها.

أستاذ الأدب العربي في حلب:

وقد ظلَّ في حلب في وظيفته هذه مدة طويلة، تعرَّف خلالها إلى إخوانه العاملين في الحقل الإسلامي، كالأستاذ معروف الدواليبي، وعمر بهاء الأميري، والمحامي عبدالقادر السبسي، وغيرهم.

عودته إلى دمشق ونشاطه في الحقل الإسلامي:

ثم نقل إلى دمشق وتابع فيها مهمته. وتعرَّف على بقية إخوانه الذين يتلاءمون معه، ويتعاونون فكرياً وعملياً في الحقل الإسلامي، كالأستاذ نهاد القاسم، والأستاذ عبدالوهاب الأزرق، والأستاذ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، والأستاذ عصام العطار.

نجاحه في الانتخابات النيابية:

ثم لما أجريت أول انتخابات نيابية بعد استقلال سورية وخلاصها من

الانتداب والاحتلال الفرنسي خاض الانتخابات النيابية، ونجح فيها هو والأستاذ مصطفى السباعي، فكانا مع بعض النوّاب الآخرين دعامة الجبهة الإسلامية في مجلس النوّاب الذي اعتبر مجلساً تأسيسياً لوضع الدستور السوري.

المعركة بين الجبهة الإسلامية وخصومها:

وفي هذه المرحلة اشتدّت المعركة بين الجبهة الإسلامية التي كان أبرز قياديها في المجلس التأسيسي هو والأستاذ مصطفى السباعي حول الموضوع الخطير الذي أثير في المجلس وهو النص في أوائل مشروع الدستور على أنّ: دين الدولة السورية هو الإسلام، وبين خصوم هذا النص وهم المسيحيون والعلمانيون والشيوعيون. وقد حمي الوطيس بن الفريقين. ثم انتهت المعركة بالنص في المادة الثالثة من المشروع على أنّ الإسلام مصدر رئيسي للتشريع في سورية. هذه كانت أهم المواقف الصعبة التي واجهها الأستاذان المبارك والسباعي في مجلس النواب، ومن يساندهم خارج المجلس.

تسلُّمه منصب وزارة الأشغال العامة:

٣ ـ وبعد انتهاء هذه الدورة التشريعية للمجلس ومدتها أربع سنوات أُلفت وزارة مؤقتة لأجل انتخابات المجلس النيابي، فأدخل الأستاذ محمد المبارك في هذه الوزارة المؤقتة، وأعطي وزارة الأشغال العامة، فشهدت منه خير وزير منحها كل اهتمامه، وقام على إدارتها خير قيام.

الجبهة الإسلامية في مجلس النوّاب:

ثم في سنة ١٩٥٤ لما أُجريت الانتخابات النيابية لأجل دور تشريعي جديد، دخلها الأستاذ محمد المبارك عن دمشق، ودخلتها أنا عن حلب، ونجحنا كلانا فيها، فألفنا مع بضعة نواب آخرين في مجلس النواب الجبهة الإسلامية.

وقد نجح في هذه الدورة خالد بكداش عن الشيوعيين وعدد وفير من البعثيين، فكانت الجبهة الإسلامية مع مَنْ تحالفت معه من الآخرين جداراً استنادياً في وَجْه خصوم الإسلام من العلمانيين والبعثيين والشيوعيين في المجلس النيابي.

وقد عانينا في هذه المرحلة أنا والأستاذ المبارك، ولاقينا الأهوال من هذه الفئات الثلاث ومؤامراتهم، وكنت وإياه نتعاون ونتناوب المواقف الصعبة في المجلس. ثم انتهى هذا الدور التشريعي عام ١٩٥٨، بالوحدة بين مصر وسورية التي دامت ثلاث سنوات، ثم فشلت وانفرطت، فقد عقدها العسكريون ونقضها العسكريون أنفسهم!!

مزايا الأستاذ محمد المبارك:

٤ ـ كان ـ رحمه الله ـ جمّ المواهب الفكرية، واسع الثقافة العصرية إلى جانب ثقافته العميقة، وحُسن التحليل للقضايا المعقدة، سريع البديهة، خطيباً كاتباً باحثاً متعمقاً، حسن التمييز بين الأولويات الإسلامية، قوي الحجة في المناقشة والمناظرة، بعيداً عن الشبهات والمواقف المريبة، صادق الوطنية في عهد الاستعمار الفرنسي للبلاد، متواضعاً يحب البساطة في حياته ويكره التكلف.

إنه بين إخوانه الذين كان يتعاون معهم على الواجبات الإسلامية والعلمية يعدُّ ثروة لهم يغني عن كثيرين، ولا يقوم مقامه كثيرون.

مادة (نظام الإسلام):

كان أول من فكر من علماء العصر الإسلاميين بوجوب تدريس مادة في الجامعات العربية على المستوى الجامعي لكل الكليات باسم: نظام الإسلام، يعرض فيها الإسلام بمفهومه العام ونظرته الشاملة لله تعالى والكون والإنسان، وينظِّم حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً في هذه الحياة الدنيا على أساس أنها طريق إلى الآخرة ليوم الحساب، وتوزع المعلومات في كتاب نظام الإسلام على هذه الأركان الثلاثة: الله، والكون، والإنسان.

- ففي البحث عن «الله تعالى» يلخِّص للطلاب خلاصة من علم التوحيد عن وجود الله وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر بأسلوب جديد.

- وفي البحث عن «الكون» يعرض ما في الكون من آيات ناطقة عن الله ونظام معجز مُحيِّر للعلماء كلما تبحَّروا فيه، وإنه كله إلى زوال ويبقى وجه الله ذو الجلال والإكرام.

- وفي البحث عن «الإنسان» تبين نظرة الإسلام إلى هذا الإنسان المتميز عن سائر المخلوقات، وما يجب أن يكون عليه البشر في حياتهم الفردية والاجتماعية والاقتصادية، وتعرض هنا خلاصة عن النظام القانوني الذي جاء به الإسلام لتنظيم حياة الإنسان وسلوكه من جميع جوانبها الحقوقية والجنائية والأسرية أفراداً ومجتمعات وفقاً لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

وقد بدأ رحمه الله بوضع كتاب باسم نظام الإسلام تطبيقاً لفكرته، وتولى تدريس هذه المادة في الجامعة الأردنية.

إعادة النظر في علم الاجتماع:

٥ ـ كذلك كان الأستاذ محمد المبارك رحمه الله أول من فكر بضرورة إعادة النظر في علم الاجتماع الذي يدرس بصورته المستمدة من آراء العلماء والفلاسفة الأجانب الملحدين، ويدرس في الجامعات العربية بوضعه الحالي المعروف الذي يؤدي إلى الإلحاد.

فيرى الأستاذ المبارك ضرورة لكتابة علم اجتماع إسلامي متَّفق مع مُسلَّمات الإسلام وثوابته في القرآن والسنَّة النبوية.

وقد كُلِّف في آخر حياته في الجامعة الأردنية بتدريس علم الاجتماع الإسلامي على صعيد الجامعة للطلاب من جميع الكليات، وقام بذلك فعلاً في عام واحد أو أكثر، ولكنه لم يبدأ بوضع كتاب كما فعل في موضوع نظام الإسلامي، بل توفاه الله قبل أن يبدأ بتنفيذ فكرته.

مواهب متنوِّعة:

٦ ـ أن الأستاذ محمد المبارك كان يُعَدُّ بمفرده وفي ذاته فريقاً من العلماء والدعاة ذوي المواهب المتنوعة. وقد خسر العالم الإسلامي بوفاته خسارة كبيرة لا أظنّ أنها تُعوَّض في مئة عام.

تولِّيه عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق:

تولّى عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق بعد وفاة عميدها الأول الأستاذ الدكتور مصطفى حسني السباعي رحمه الله، فأدارها خير إدارة، وخلف الدكتور السباعي خير خلافه.

وقد ترك لنا من مؤلفاته العديدة وكتاباته ما يدلُّ على مدى ما كان يتمتَّع به رحمه الله من فكر متميِّز، وبصيرة إسلامية نيِّرة، وأُفق واسع.

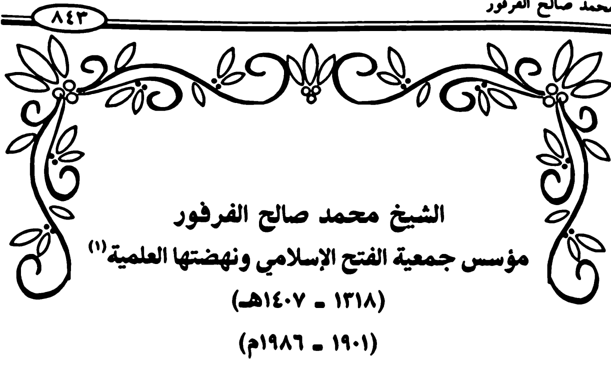
من شواهد حفظ الله تعالى لكتابه:

حدَّثني عن أستاذه المستشرق (ماسينيون) أنه ذكر لمجموعة من طلابه، وفيهم الأستاذ محمد المبارك كانوا في زيارته في بيته بباريس، قال لهم: نحن المستشرقين بذلنا جهوداً كبيرة خلال ثلاثة أجيال في تتبع مخطوطات القرآن الكريم من أقدم ما هو محفوظ في دور الآثار والمكتبات العالمية، حتى الأوراق المفردة المقطوعة من مصاحف قديمة فُقِدت، وقارنا كل ذلك بالمصاحف المطبوعة، لكي نعثر على أيِّ اختلاف بين المصاحف من مصحف عثمان إلى مختلف العصور حتى المصاحف في عصرنا، ولو كان اختلافاً في آية أو جملة أو كلمة، فلم نجد أي اختلاف، ما جعلنا نعتقد مستيقنين أن القرآن الذي نطق به محمد باقٍ إلى اليوم كما نطق به لم يتبدل فيه شيء!!

أقول: وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

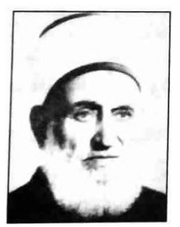
أسأل الله أن يُجيز أخانا المبارك الذي سبقنا إلى لقاء ربّه، عن جهاده في سبيل الله، خير ما يجيز به عباده الصالحين في جنات النعيم المقيم، فإننا إذا أردنا أن نعد المجاهدين في سبيل الإسلام في العصر الحاضر يبرز الأستاذ محمد المبارك رحمه الله في طليعتهم.

□ □ □ □ □



الشيخ محمد صالح الفرفور
مؤسس جمعية الفتح الإسلامي ونهضتها العلمية[١]
(١٣١٨ ـ ١٤٠٧هـ)
(١٩٠١ ـ ١٩٨٦م)

حرّرها واختصرها: مجد مكي



اسمه ونسبه:

العلامة المربِّي الكبير الشيخ محمد صالح بن عبدالله بن محمد صالح الفرفوري الدمشقي الحنفي، من ذرية بني فُرفُور ـ بضم الفاءين ـ الذين كثر فيهم العلماء والأدباء والقضاة والمفتون في القرن الثامن فما بعده.

ولادته ونشاته:

ولد بدمشق سنة (١٣١٨هـ)، الموافق (١٩٠١م)، ونشأ بين أبوين صالحين، دفعه والده في سِنّ السادسة إلى المكتب ليتعلَّم فيه القرآن والقراءة والكتابة والحساب، وكان شيخه في المكتب هو الشيخ أنيس الطالوي (ت١٣٢٧)، ثم أدخله المدرسة الكامليَّة، فدخلها وهو ابن ثمانية سنين

---

(١) نُشرت بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٣٠م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.

بتاريخ ١٤ شوال ١٣٢٨، وتخرج في المدرسة سنة ١٣٣٥ بدرجة علي أعلا.

عمله وكسبه الدنيوي:

توفي والد الشيخ صالح، السيد عبدالله (ت١٣٣٦هـ) وترك ذُريَّةً تحتاج إلى مَنْ يعولها ويقوم عليها، فاضطر الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ إلى الاكتساب لئلا يمد يده إلى أحد، فعمل بصنعة النجارة في سوق القباقبية الملاصق لدار المسجد الأموي.

وقد تحدَّث صديقه الأستاذ الكبير علي الطنطاوي عن عمله هذا، فقال في «الذكريات» ٢: ١٨٢: «وكان نجاراً بارعاً، يأكل من كسب يده مالاً حلالاً، كما كان شأن كبار الصحابة، وكبار العلماء، وكان يغدو إلى درس الشيخ هاشم الخطيب في المسجد، ثم يؤمُّ دكانه في السوق، يُحْسن عمله، وينصح مَنْ يعامله، ويقنع بالقليل من الحلال، لم يكن غشّاشاً ولا طمّاعاً ولا مُدَّعياً في صناعته».

صفاته الخِلْقيَّة والخُلقيَّة:

١ ـ صفاته الخِلْقيَّة:

كان الشيخ رَبْعة من القوم، إلى الطول أقرب، تغلب عليه السمرة، واسع العينين، وفي وجهه سيماء المهابة ونور الصَّالحين. اعتمَّ في شبابه بالعمة الصفراء، وارتدى الجبة والقنباز، ثم لبس العمة البيضاء على الطربوش الأحمر قبيل سن الأربعين والتزمها طوال عمره.

٢ ـ صفاته الخُلقية:

كانت أخلاق الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ أخلاق الكُمَّل من الرجال، فقد كان يحبُّ معالي الأمور، ويكره سفسافها، حكيماً يضع الأمور في مواضعها، يتواضع من غير مَذَلَّة، عزيز النفس من غير كبرياء، يصدع بكلمة الحق ولا يخشى فيها أحداً، يغضب لله ولا يغضب لنفسه، كل ذلك مع الحكمة وحُسْن التصرُّف وبُعْدِ النظر.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ لين الجانب، كثير الإحسان والتودُّد إلى الناس، لا سيما تلامذته، يحنو عليهم ويهش لهم، حتى يحسب كلُّ طالب منهم أنه أحب إليه من غيره، فإذا ما وجّه لأحدهم تأنيباً أو تأديباً فإنما يكون ذلك في سبيل تربيته، ومع ذلك فإنه سرعان ما يسترضيه، فيشعر الطالب بذلك أنه بين يدي أب رؤوف حنون.

ومن أخلاقه ـ رحمه الله تعالى ـ: أنه كان كريم النفس، سخيَّ اليد، كثير الإنفاق في سبيل الله، في شتى أبواب الخير، لا سيما إطعام الطعام، فكرمه في هذا الباب من أشهر شيء، أما إنفاقه على تلاميذه فحدِّث عن البحر ولا حرج.

ومن أخلاقه ـ رحمه الله تعالى ـ: الوفاء لجيرانه ومعارفه، ولكل من مدَّ يد العون في سبيل نهضته، والوفاء لأبناء شيوخه، فكان يقدرهم قدرهم، وينزلهم منازلهم، ويكرمهم غاية الإكرام.

ومنها: أنه كان لا يستخدم أحداً من طلابه في شؤونه الخاصة، فيشتري حوائجه، ويخدم نفسه بيده، وكان كثيراً ما يقول: ليست هذه السنة لتروى على المنابر فحسب بل لنعمل بها، حتى إنه لمّا مرض ولزم الفراش كان يتحرَّج من خدمة أبنائه له.

ومنها: أنه كان أبيَّ النفس عفيفها لا يمدُّ يده إلى أحد، ولا يذلُّ إلا لِلَّهِ، أسَّس (جمعية الفتح) وترأسها ثلاثين سنة وما دخل عليه قرشٌ واحد من أموالها، وكان في ذلك ورعاً نزيهاً غاية النزاهة.

ومن مناقبه ـ رحمه الله تعالى ـ: الرقة والبكاء من خشية الله، والقلب الحاضر، والمراقبة الدائمة لله عزَّ وجلَّ، والإخلاص في أقواله وأفعاله، والإكثار من الذكر والعبادة، وتلاوة القرآن، مع فكرٍ دائمٍ واهتمام بشؤون المسلمين، تغمده الله بواسع رحمته.

مزاياه وخصائصه الذاتية:

جمع الشيخُ ـ رحمه الله تعالى ـ في شخصيته أصنافاً من المكارم،

كالشجاعة والإقدام، والجرأة والصبر، والعزّة والإباء، بل كان ذلك يجري منه مَجْرى الدم في العروق، يعرف ذلك منه كل مَنْ عاشَرَهُ ولازَمَهُ.

ومن شجاعته ـ رحمه الله تعالى ـ: مشاركته في الثورة السورية ضد الفرنسيين، فقد أبلى فيها بلاءً حسناً، ونَجَا فيها من الموت مراتٍ عديدة.

وشارك أيضاً في المقاومة الشعبية عام ١٩٥٦م ضدَّ العدوان الثلاثي على مصر مع ثلة من طلابه، حيث تدربوا على السلاح الحديث آنئذٍ، وشارك في هذا التدريب كثير من علماء دمشق.

وجمع ـ رحمه الله تعالى ـ إلى ذلك اهتمامه بممارسة الفتوة بأنواعها، كالفروسية، والرماية، والسباحة، والمصارعة، والصيد، والأخذ بالسيف، وغير ذلك، بل كان يُشَجِّع أولاده وتلاميذه على ممارستها ليبني لهم بذلك شخصيةً متكاملة، تجمع بين العلم والدين والدنيا.

يقول الأستاذ علي الطنطاوي ـ رحمه الله تعالى ـ واصفاً فتوّة صديقه المترجم: «كان من أرباب الفتوة لاعب سيف، وكانت لعبةُ السيف والترس مما يفخر به الرجال، وكان البطل فيها يمسك بيديه سيفين وينازل خصمين، وكذلك كان هذا الصديق، وكان يحطُّ على الأرض قاعداً القرفصاء، ثم يثب من قعدته في الهواء، كما يفعل أهل القوقاز».

شيوخه وتحصيله العلمي:

قرأ رحمه الله على أجلّة علماء دمشق، في مقدّمتهم العلامة المحدّث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني (١٢٦٧ ـ ١٣٥٤هـ)، فقد لازمه ملازمة تامّة سنوات، قرأ عليه خلالها علوم الحديث والتفسير والفقه والأصول والعقيدة وعلوم العربية وعلوم الفلسفة، وعلوم الفلك والميقات والرياضيات، وغيرها من العلوم الشرعيّة والعربيّة والعصريّة، وانتفع به كثيراً، وقيّد عنه كثيراً من الفوائد والإملاءات.

وقرأ على العلامة الفقيه الزاهد الشيخ صالح بن أسعد الحمصي (١٢٨٥ ـ ١٣٦٢هـ)، وتخرّج عليه في علوم الفقه الحنفي وأصوله

والتصوف، وانتفع به وبعلومه وزهده، وكان له أكبر الأثر في حياته.

وحضر أيضاً في الفقه الحنفي على مفتي الشام الشيخ محمد عطاء الله الكسم (١٢٦٠ ـ ١٣٥٧هـ).

وقرأ علوم الفلك والميقات على مفتي الشراكسة في مرج السلطان ـ شرقي دمشق ـ الشيخ محمد الساعاتي، وبه تخرّج في هذه العلوم.

وقرأ القرآن الكريم على العلامة المقرئ الشيخ محمد سليم الحلواني شيخ قراء دمشق (١٢٨٥ ـ ١٣٦٣هـ).

كما حضر دروساً مختلفة عند عدد من علماء الشام، كالشيخ محمد بن جعفر الكتاني (١٢٧٤ ـ ١٣٤٥هـ)، والشيخ محمد أمين سويد (١٢٧٣ ـ ١٣٥٥هـ)، والشيخ عبدالكريم الحمزاوي (ت١٣٤٦هـ)، والشيخ محمد نجيب كيوان (١٢٨٧ ـ ١٣٥٢هـ)، والشيخ محمد هاشم الخطيب (١٣٠٤ ـ ١٣٧٨هـ)، والشيخ عبدالرزاق الأسطواني (١٢٧٠ ـ ١٣٦٣هـ)، والشيخ محمود العطار (١٢٨٤ ـ ١٣٦٢هـ)، والشيخ محمد شريف اليعقوبي (١٢٨٢ ـ ١٣٦٢هـ)، وغيرهم.

واشتغل رحمه الله بنفسه فَجَدَّ واجتهد في تحصيل العلوم مطالعة وبحثاً وتحقيقاً، واعتزل الناس من أجل ذلك اقتداءً بعُزْلة شيخه البدر، فقرأ خلال عزلته الكثير من الكتب العلمية والأدبية، وحفظ من أشعار العرب الشيء الكثير.

نهضته العلمية وتاسيسه جمعية ومعهد الفتح الإسلامي:

وبعد أن أتمّ تحصيله على الشيوخ، التفت إلى التعليم والإرشاد، فدرَّس أولاً في الكلية الشرعية في بيروت سنوات، ثم تركها وأسَّس في دمشق نهضة علمية، بدأت في المساجد لا سيما المسجد الأموي ومسجد فتحي في القيمرية، واستمرّت هذه النهضة سنوات، نبغ خلالها عددٌ جمٌّ من طلبة العلم، استطاع أن يعتمد عليهم في التأسيس لنهضة علمية كبيرة.

وفي سنة (١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م) أسَّس جمعية الفتح الإسلامي مع نُخبة

من كبار تلاميذه، وثلة من صُلحاء التجار، ثم أسّس **معهد الفتح الإسلامي** ليضمّ طَلَبة العلم فيُعلّمهم فيه أصناف العلوم، ويفقّههم في دينهم، ويربّيهم على الصلاح والتقوى، وينفق عليهم من أموال الجمعية ليتفرغوا عن مشاغل الدنيا، ويصرفوا سائر أوقاتهم إلى تحصيل العلوم.

وفي سنة (١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م) أسّس معهداً خاصاً بالإناث، ليُعَلّمْهُنّ العلومَ الشرعية، وهي أول نهضة من نوعها تُقام في دمشق آنئذ.

ولا زال هذا المعهد المبارك بفرعيه قائماً مستمراً بفضل الله، يخرج المئات من طلبة العلم والدعاة والداعيات.

نشاطه التعليمي:

وفي سنة (١٣٩١هـ)، الموافق (١٩٧١م)، افتتح الشيخ قسم التَّخصُّص في معهد الفتح الإسلامي، وكان هدفه منه تقوية الطلبة المتخرّجين خلال ثلاث سنوات، يَتَخَصّص الطالب في علم من العلوم التي قرأها في المعهد، وجعله ثلاثة فروع: فرع الفقه واوصول، وفرع اللغة العربية وعلومها، وفرع الحديث والتفسير، وقد أثمر هذا القسم ثمراتٍ طيبةً مباركة.

وكانت للشيخ رحمه الله نشاطات أخرى في مجال التعليم والإرشاد، فعقد حلقات علمية في بيته تضمُّ تلامذته ومعارفه ومُحبيه، وعَقَدَ حلقات للتجّار في حوانيتهم وبيوتهم، كما كان يَترَدّد على السجون ويعقد فيها الدروس الوعظيّة يذكّر أهلها بالتوبة والإنابة، واهتمّ أيضاً باللاجئين الفلسطينيين، فأرسل عدداً من طلابه إلى مُخيماتهم لتعليمهم وتفقيههم، كما أرسل كثيراً من الطلاب إلى القرى والأرياف وأماكن البدو، لتعليمهم وتفقيههم وفتح المساجد المغلقة.

أهم الكتب التي أقرأها:

أقرأ رحمه الله خلال نهضته الكثير من الكتب العلمية:

فمن كتب التفسير: أقرأ النسفي والبيضاوي والكشاف وغيرها.

ومن كتب الحديث وعلومه: الترغيب والترهيب للمنذري، ومقدمة ابن الصلاح، وتدريب الراوي للسيوطي.

ومن كتب الفقه الحنفي: مراقي الفلاح للشرنبلالي، والاختيار للموصلي، والهداية للمرغيناني، وحاشية ابن عابدين وبعض رسائله.

ومن كتب الأصول: المنار للنسفي وشروحه، والتوضيح لصدر لشريعة، والمستصفى وشفاء الغليل للغزالي، والفروق للقرافي.

ومن كتب العقيدة: شروح الجوهرة لا سيما الباجوري، وشرح بدء الأمالي لملا علي القاري، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

ومن كتب التصوف: الرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين للغزالي، وشروح الحِكَم العطائيّة ولا سيما شرح ابن عبّاد.

وأقرأ من كتب العربية: شروح الألفية لا سيما ابن عقيل والأشموني، ومغني اللبيب، وشرح قطر الندى، وشذور الذهب لابن هشام.

ومن كتب البلاغة: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة للجرجاني.

ومن كتب الأدب: الكامل للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي، والمثل السائر لابن الأثير.

أشهر تلاميذه:

من أشهر تلاميذه الذين لازموه السادة الأعلام:

الشيخ عبدالرزاق الحلبي (حفظه الله وأطال عمره في عافية وسرور)، والشيخ رمزي البزم ـ ت(١٤١١هـ)، والشيخ محمد أديب الكلاس (١٤٣٠هـ)، والشيخ إبراهيم اليعقوبي ت(١٤٠٦هـ)، والشيخ صبحي القيسي البغجاتي ت(١٤١٣هـ)، والشيخ شعيب الأرناؤوط (حفظه الله ونفع بتحقيقاته العلمية)، والشيخ عبدالقادر الأرناؤوط ت(١٤٢٦هـ)، والشيخ سهيل الزبيبي،

والشيخ سعيد طناطرة، والشيخ أحمد رمضان، والشيخ نور الدين خزنه كاتبي، والشيخ موفق النشوقاتي ت(١٤٢١هـ)، والشيخ صبحي النمر، والشيخ عبدالفتاح البزم مفتي دمشق، وغيرهم.

ومن تلامذته: أبناؤه الأكارم، لا سيما الدكتور محمد عبداللطيف، والدكتور حسام الدين، والدكتور ولي الدين، والسيدة فاطمة، والسيدة لطفية، وسائر أبنائه وبناته.

وظائفه الدينية ونشاطاته العلمية:

تولى رحمه الله عدداً من الوظائف الدينية، أبرزها:

١ ـ وظيفة التدريس الديني في مساجد دمشق. ٢ ـ وظيفة الإمامة في مسجد سنان آغا في المناخلية. ٣ ـ وظيفة الخطابة في المسجد المذكور عام ١٩٤٤، ثم انتقل منه سنة ١٩٥٩ إلى مسجد السادات أقصاب. ٤ ـ رئاسة جمعية الفتح الإسلامي منذ تأسيسه لها سنة ١٩٥٦م. ٥ ـ عضويته في جمعية العلماء بدمشق، ثم في رابطة العلماء، وهو من أعضائها المؤسِّسين، وقام بالتدريس في كليتها الشرعية (الثانوية الشرعية فيما بعد).

أبرز مؤلفاته:

لم يلتفت الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ إلى التأليف إلا متأخِّراً، لانشغاله بتربية الطلاب، وتأسيس معهد الفتح الإسلامي. فمن أبرز تصانيفه:

١ ـ النسائيات من الأحاديث النبوية الشريفة. طبع بدمشق عدة مرات، آخرها في دار الفرفور سنة ١٤١٨هـ. ٢ ـ من مشكاة النبوّة شرح الأربعين النووية. طبع بدمشق سنة ١٣٨٩ ـ ١٩٦٨م، ثم في دار الفرفور سنة ١٤١٨هـ. ٣ ـ الرسالة النافعة والحجة القاطعة في التوحيد. طبعت بدمشق في دار الفرفور سنة ١٤١٧هـ.

٤ ـ المحدث الأكبر وإمام العصر العلامة الزاهد الشيخ محمد بدر الدين الحسني كما عرفته. طبع بدمشق سنة ١٤٠٦هـ، ثم أعيدت طباعته ١٤١٨هـ، في دار الفرفور. ٥ ـ الدر المنثور على الضياء الموفور

في أعيان بني فرفور. الدر المنثور للشيخ محمد جميل الشطي (ت١٣٧٨هـ). ٦ ـ سلسلة الخلود: مجموعة مقالات أدبية وقصص تاريخية، في ثلاثة أجزاء: (من نفحات الخلود، من نسمات الخلود، من رشحات الخلود). طبع الكتاب بدمشق مراراً آخرها سنة ١٤١٨هـ في دار الفرفور.

ومن أبرز تآليفه المخطوطة:

٧ ـ الإفصاح في شرح الاقتراح للسيوطي في أصول النحو. ٨ ـ تهذيب نور الإيضاح مع شرحه في الفقه الحنفي. ٩ ـ شرح جوهرة التوحيد في علم العقائد. ١٠ ـ تاريخ مسجد الأقصاب ومن دفن فيه من الأصحاب. ١١ ـ ترجمة العلامة الزاهد الشيخ عبدالحكيم الأفغاني. ١٢ ـ ديوانه الشعري واسمه «آلام وآمال». وغيرها من المؤلفات، وقد كتب رحمه الله مقالات في عدد من المجلات من أبرزها: مجلة التمدن الإسلامي بدمشق.

شعره:

عُنِيَ الشيخ رحمه الله بقرض الشعر مُبكِّراً منذ الخامسة عشر من عمره، لكنه كان آنذاك مبتدئاً في هذا الباب، فلما نمت مواهبه وصقل شعره أتلف الكثير من نظمه القديم.

واعتنى في شعره بأغراض عدّة، من أبرزها: المديح والرثاء والحماس والإصلاح وغير ذلك، وقد جمع له ولده الدكتور عبداللطيف أشعاره في ديوان خاص، اسمه: «آلام وآمال» لم يطبع حتى الآن.

من أشهر قصائده:

١ ـ قصيدة في مدح سيدنا رسول الله ﷺ مطلعها:

أحيانا حُبُّك يا مختار أحيانا   وأصبح القلبُ من ذكراك نشوانا

في نيف وأربعين بيتاً، ألقاها في حفل المولد النبوي الذي أقامته جمعيته التمدن الإسلامي سنة ١٣٥٤هـ، ونشرت في مجلتها.

٢ ـ قصيدة في وصف حادثة الفيل، مطلعها:

يا راعي السود قد خابت أمانيه وراكب الفيل يطوي البيد في تيه

في نحو أربعين بيتاً. ألقاها في حفلة المولد النبوي، في جامع التوبة سنة ١٣٧٣هـ.

٣ ـ قصيدة في وصف حال العرب والمسلمين، وما حلَّ بهم من ضعف وهوان، يدعوهم فيها إلى الجدّ والعمل والإخلاص، وهي بعنوان: «همات وأفعال»، مطلعها:

إنَّ الحياةَ لآلامٌ وآمالُ وناشِدُ العزِّ لا يعروهُ إهمالُ

٤ ـ ومن شعره: القصيدة التي سمّاها (معلَّقة أو ملحمة)، مطلعها:

بني العُرب لا تبقوا على الهون باقيا ولا تذروا الآمال صرعى الأمانيا

وهي تشبه سابقتها في موضوعها.

وله في الرثاء قصائد كثيرة، من أبرزها: مراثي الشيخ بدر الدين الحسني (ت١٣٥٤هـ)، والشيخ عبدالقادر الخطيب (ت١٣٥١هـ)، والشيخ نجيب كيوان (ت١٣٥٢هـ)، والشيخ محمد هاشم الخطيب (ت١٣٧٨هـ)، والشيخ عبدالرحمٰن الخطيب، والشيخ محمود العطار (ت١٣٦٢هـ)، والشيخ حسن حبنكة الميداني (ت١٣٩٨هـ)، وغيرهم.

وفاته:

عاش الشيخ رحمه الله حياةً مليئة بالجهاد في سبيل نشر العلم والفضيلة، إلى أن وافاه الأجل صبيحة يوم الثلاثاء في الخامس من المحرم سنة (١٤٠٧هـ)، الموافق للتاسع من أيلول سنة (١٩٨٦م)، وصُلّيَ عليه في المسجد الأموي، ودفن في مدفن مسجد الشيخ أرسلان الدمشقي، في قبر قاضي القضاة ولي الدين ابن الفرفور أحد أجداد الأسرة، وأبّنه عددٌ من علماء الشام، كالشيخ عبدالرزاق الحلبي، والشيخ محمد كريِّم راجح،

غيرهما. ورثاه شعراً كلٌ من الشيخ صادق حبنكة، والشيخ محمد كريْم راجح، والأستاذ أنور الكاوردي. تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه(١).

□□□□□

(١) هذه الترجمة مقتبسة باختصار شديد من كتاب: «العلامة المربِّي الكبير الشيخ محمد صالح الفرفوري: حياته العلمية ونهضته وآثاره» بقلم الأخ الكريم الشيخ عمر بن موفق النشوقاتي. الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، دار الفرفور.

محمد أبو الفرج الخطيب الحسني
الخطيب المؤرِّخ النسابة(١)
(١٣٣٧ ـ ١٤٠٧هـ)
(١٩١٩ ـ ١٩٨٦م)



بقلم: مَجْد مكي

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد في حي القيمريَّة بدمشق ليلة الثلاثاء ٨ رجب ١٣٣٧هـ، الموافق ٨ نيسان ١٩١٩م.

---

(١) نُشرت بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٣٠م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.
وقلتُ في تقدمة هذه الترجمة: «هذه الترجمة لعالم من علماء دمشق الأخيار، المؤرخ النسَّابة، المدرس الخطيب، مدرس دمشق بالإفتاء، وشيخ دار الحديث النورية، خطيب جامع بني أمية، الأستاذ محمد أبو الفرج الخطيب، وقد أكرمني الله بلقائه في غرفته بدار الحديث النورية، بالعصرونيَّة، التي أسَّسها وأوقفها السلطان نور الدين الشهيد، عندما كنت أدرس في كلية الشريعة بدمشق، وأتردَّد على تلك المدرسة العظيمة، وآثارها الخالدة، وقد قام فضيلة الشيخ محمد أبو الفرج بكتابة دراسة عن دار الحديث النورية بدمشق، وتاريخها وتراجم شيوخها، واعتنى ابنه النجيب الأخ الكريم العالم المحدِّث المحقِّق الأستاذ محمد مجير بكتاب والده وأتمه، وأعاد صياغته، وكتب في آخره ترجمة لوالده الكريم فضيلة الشيخ محمد أبو الفرج بن عبدالقادر بن محمد أبو الفرج الخطيب الحسني الشافعي الدمشقي ـ رحمه الله تعالى ـ وقد أحببنا أن نتحف القرّاء بهذه الترجمة بعد اختصار يسير لها» انتهى.

والدته السيدة مَسَرّة بنت الشيخ صالح المُنيّر الحسني سبط الكزبري الحسني.

نشأ في بيت والده، وكان أزيز الرصاص ودوي القنابل ولهب الحرائق سنة ١٩٢٥م، في أثناء الثورة الكبرى من أوّل ما تفتّحت عليه مداركه.

ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره سنة ١٣٥١هـ، انتقل والده خطيب الأموي ومدير الأوقاف الإسلامية إلى رحمة مولاه.

ونشأ ـ رحمه الله تعالى ـ في رعاية أمه وأخيه الأكبر نذير.

فأتمّ مراحل الدراسة النظاميّة في عدة مدارس أهلية وحكوميّة، وهو إلى جانب هذا يلازم دروس بعض علماء الأسرة، وعلى رأسهم الشيخ محمد هاشم رشيد الخطيب في دروسه الصباحية في الجامع الأموي، وابن عمه الشيخ توفيق بن حسن بن أبي الفرج في مدرسة الخياطين ودار الحديث النُّوريّة، والشيخ محمد سهيل بن عبدالفتاح، كما أنه شارك في كثير من الأنشطة الكشفية والرياضية والثقافية والاجتماعية التي كان يقوم بها آل الخطيب، لما كان المجال مفتوحاً لذلك.

حضوره الحلقات العلميّة في جامع بني أمية:

وفي جامع بني أمية العامر ـ وقتها ـ بالحلقات العلمية، جلس إلى كثير من مدرسيه، كالشيخ أحمد النويلاتي، والشيخ عبدالقادر الإسكندراني الكيلاني، والشيخ عبدالوهاب الحافظ، والشيخ محمد أحمد دهمان، الذي استمرّت صلته العلمية به إلى آخر حياته، وغيرهم.

كما استفاد من الشيخ عبدالحميد القابوني في التجويد والقراءة، والشيخ صالح الحمصي في اللغة والنحو والصرف.

مجالسته طبقة عالية من العلماء:

وجالس على صغر سنه طبقة عالية من العلماء الذين كانوا يزورون والده أو يزورهم، وفي مقدمتهم الشيخ المحدث الأكبر محمد بدر الدين

الحسني، والقاضي الشيخ عبدالمحسن الأسطواني، ومفتي الديار الشامية الشيخ عطا الله الكسم، والشيخ محمد سعيد الباني، والشيخ عبدالجليل الدرّا، والشيخ عزيز الخاني.

إضافة إلى هذا كله كانت مطالعاته الخاصّة في مكتبة والده العامرة رافداً مهماً في مسيرته العلمية.

خطيب جامع بني أمية:

ولما كان قانون توجيه الجهات معمولاً به وقتها، وُجّهت خطابه جامع بني أمية إليه بعد وفاة والده، على أن يُثبت أهليّته عند بلوغه سنّ الرشد وإمكان قيامه بها، وقد ناب عنه في الخطابة نائب أبيه من قبل الشيخ عبدالرحمٰن رشيد الخطيب.

ومنذ أن بلغ العشرين بدأ بالخطابة في مساجد متفرّقة، وكان أكثر ذلك بالمدرسة النُّوريّة الكبرى في الخيّاطين، فلما آنس من نفسه القدرة على الخطابة، تقدّم إلى مجلس الأوقاف العلمي يطلب فيه تحديد موعد الفحص والمقابلة، فاجتاز امتحاناً عاماً لإثبات كفاءته أمام أعضاء المجلس، وفي مقدمتهم رئيس المجلس قاضي القضاة الشيخ عبدالمحسن الأسطواني، وقاضي دمشق الممتاز الشيخ عزيز الخاني، والقاضي الشرعي الفرضي الشيخ سليم الطيبي، ونقيب السادة الأشراف الشيخ محمد سعيد الحمزاوي.

وصدر قرار المجلس بإثبات أهليّته وكفاءته لهذا المنصب بتاريخ ١٣٦٣/١/٢٥هـ.

وفي يوم الجمعة ١٣٦٣/٢/٢٤هـ، ألقى - رحمه الله تعالى - أول خطبة له في الجامع الأموي، وقد صادفت عودة الحجّاج من موسم الحج المنصرف، فتحدّث طويلاً عن الخط الحديدي الحجازي وأهميته.

ولما كانت خطبته الثالثة في ٧ ربيع الثاني ١٣٦٣هـ، كان من بين مستمعيها رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس وزرائه، وكان من جملة

الأماني التي ذكرها الشيخ في خطبته إقامة جيش يتوطّد به استقلال البلاد على أسّ الأخلاق القويمة والدين الصحيح.

دراسته في الجامع الأزهر:

وفي أواخر ١٣٦٣ توجّه نظره ـ رحمه الله تعالى ـ إلى الجامع الأزهر محطّ أنظار أهل العلم في ذلك الوقت، فسافر إلى مصر، واجتاز امتحان معادلة الشهادة الثانوية الأزهرية، ومن ثم التحق بكليّة أصول الدين التي أنهى دراسته فيها، وكان في أثناء دراسته قد انتسب أيضاً إلى كلية الشريعة بالأزهر، وإلى كلية الحقوق الفرنسيّة بالقاهرة إلا أنه لم يُكتب له إتمام دراسته في هاتين الكليتين، إذ غادر مصر مُضطراً إلى دمشق سنة ١٣٦٨.

أساتذته في الأزهر:

وفي مصر عاصمة الثقافة وقتها، التقى ـ رحمه الله تعالى ـ بشخصيات كثيرة، وفي مقدمتهم أساتذته في الأزهر: الشيخ عيسى منون، والشيخ أبو زيد شلبي، والشيخ صالح موسى شرف، وله منه إجازة علمية بالمعقولات، والشيخ سليمان دنيا، وغيرهم.

ومن الذين جالسهم: الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر مصطفى عبدالرازق باشا، والشيخ محيي الدين عبدالحميد، والشيخ رشيد الحواصلي، والشيخ محمد الخضر حسين التونسي، وغيرهم من أعلام مصر وواردیها.

وكان له لقاءات دوريّة مع ابن عم والده صاحب الفتح والزهراء السيد محب الدين الخطيب الكاتب الإسلامي الشهير.

كما أنه اهتمّ بتأسيس اتّحاد للطلاب السوريين بمصر سنة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م مع مجموعة من زملائه وكان الأمين العام له.

أعماله العلمية والدعوية:

بعد عودته إلى دمشق لزم الخطابة في الجامع الأموي لا يبرحه،

وخطب آخر خطبة له قبل وفاته بثلاثة أيام ـ رحمه الله تعالى ـ، ودرس مدة طويلة في الصفوف الإعدادية والثانوية في بعض مدارس دمشق الخاصّة والخيرية، ومنها مدرسة التهذيب والتعليم في المدرسة المجاهدية الجوانية بسوق القلقجية التي كان يدرس فيها ثلة من علماء آل الخطيب، وعلى رأسهم العلامة الشيخ محمد هاشم رشيد الخطيب، ودرس في غيرها من الثانويات إلى جانب حلقات علميّة شرعيّة خاصّة كان يعقدها ـ رحمه الله تعالى ـ في دار الحديث النُّورية، وفي بيته، وفي مسجد البادرائية، وفي بعض الجمعيات الأدبية والخيرية التي كانت مفتوحة للأنشطة الثقافية.

مشاركته في الجمعيات العلمية:

وفي العقد الثامن من القرن الرابع عشر الهجري، كانت دمشق تزخر بالهيئات الإسلامية والجمعيات العلمية التي كان لها أثر في توجيه المجتمع وإعلان لأحكام الإسلام في الأمور المستجدّة والأحداث العامّة، وكان له ـ رحمه الله تعالى ـ إسهام كبير في تلك الجمعيّات. فكان عضواً إدارياً في جمعية التمدن الإسلامي، ثم عضواً مؤسّساً في مرحلتها الثانية، وعضواً مؤسّساً في جماعة أرباب الشعائر الدينية، وهو الذي وضع قانونها الأساسي ونظامها الداخلي سنة ١٣٦٩، وكان أول أمين سر لها، ورأسها الشيخ حسن الشطي ـ رحمه الله تعالى ـ، وأمين سر لجمعية العلماء ـ وكان أصغرهم سناً ـ فكان محل ثقة رئيسها الشيخ محمد كامل القصاب ـ رحمه الله تعالى ـ، كما كان عضواً إدارياً ثم أميناً للسر في جمعية الهداية الإسلامية، وعضواً مؤسّساً وأميناً للسرّ في هيئة العلماء ١٣٧٢. وغيرها من الجمعيات التي لم يعمّر بعضها أكثر من جلستين أو ثلاث.

مشاركاته في المؤتمرات الإسلامية:

وشارك في مؤتمر الهيئات الإسلامية بالقدس، والمؤتمر الإسلامي المنعقد بدمشق الّذين حضرهما كبار الشخصيات الإسلامية آنذاك إلى أن ظهرت نظم ومقرّرات حالت دون متابعة تلك النشاطات والمساعي.

انتسابه إلى كلية الشريعة ورحلته إلى الحجاز ونجد:

ولما افتتحت كلية الشريعة في جامعة دمشق، كان ـ رحمه الله تعالى ـ من أوائل المنتسبين إليها، ثم آثر بعد سنتين الانسحاب منها، وقد شارك في رحلتها إلى الحجاز ونجد، وأدى فريضة الحج بعد ذلك في موسم ١٣٧٧هـ.

ترشُّحه للمجلس النيابي وتعيينه مدرساً دينياً:

وفي سنة ١٣٨١هـ = ١٩٦١م، رشَّح نفسه في الانتخابات لعضوية الجمعية التأسيسية والمجلس النيابي عن دمشق، وحاز أصواتاً كثيرة، لكن جرى ما ذكره خالد بك العظم في مذكراته، وكان قبل ذلك قد نال وسام الإخلاص من الدرجة الأولى منحه إيَّاه رئيس وزراء الجمهورية السورية ١٩٥٨/٢/٢٩م قبيل قيام الوحدة.

ثم عُيّن عام ١٩٦٢م مدرساً دينياً في دائرة الفتوى العامة.

عميد الجامع الأموي:

فلما كان عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م تألفت هيئة استشارية عليا لجامع بني أمية، كان أحد أعضائها، ثم سُمّي عميداً لجامع بني أمية، وشغل هذا المنصب طيلة عام ١٣٨٦، من ١٩٦٦/١/١٠ وحتى ١٩٦٧/١/١٥، ولا يُعرف هذا اللقب لغيره ـ رحمه الله تعالى ـ منذ أن كان جامع بني أمية إلى اليوم، وقد أُلغي هذا المنصب بإقالته ـ رحمه الله تعالى ـ منه إثر بعض مواقفه الصَّارمة، فقد وضع مُخطَّطاً إصلاحياً شاملاً لإعادة المكانة الإسلامية المعهودة للمسجد الجامع الأموي بدمشق، ووقف في وجه حَمَلات التنقيب المُغرِضَة في صحن المسجد، كما وقف بقوَّة في وجه من يحاولون تحويل المسجد إلى متحف أو مقصف، وله مواقف كثيرة شهيرة.

وقد أُقيل من منصبه في العمادة بتاريخ ١٩٦٧/١/١٥م، ثم أوقف عن الخطابة أيضاً إثر ظروف مرت آنذاك. فلما كان عام ١٣٩١هـ = ١٩٧١م عاد إلى الخطابة.

ولما كانت الانتخابات لعضويّة مجلس الشعب سنة ١٩٧٣م، رشَّح نفسه عن مدينة دمشق إذ رأى ذلك من الواجبات آنذاك.

وفي عام ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م دُعي إلى المشاركة في مؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض.

عكوفه على كتب التاريخ والتراجم:

وبعد أن انبلج فجر القرن الخامس عشر الهجري، عكف ـ رحمه الله تعالى ـ على كتب التواريخ والتراجم، فَسَرَدَ كتباً كاملة لا يُغادر منها حرفاً، وشرع في أخرى، واعتنى بأنساب الأشراف وغيرهم من أسر دمشق العريقة.

مدير جمعية التمدن الإسلامية وجمعية التهذيب والتعليم:

وفي الوقت نفسه أُسندت إليه أمور التمدن الإسلامي جمعيها ومجلتها بعد مرض الأستاذ الكبير أحمد مظهر العظمة، وسفر ابن عمه الأستاذ محمد بن كمال الخطيب، فمكث ـ رحمه الله تعالى ـ مديراً للتمدن الإسلامي إلى أن تُوفي ـ رحمه الله تعالى ـ.

كذلك ترأس جمعية التهذيب والتعليم إلى وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ.

زيارته للحرمين الشريفين ومصر وحضوره موسم الحج:

وفي عام ١٤٠٦هـ تحرّك فيه داعي الشوق إلى الحرمين الشريفين، فشدَّ إليهما الرحال.

ومرَّ في عودته على مصر، مصر التي سكنها في عنفوان شبابه في الأربعينيات فرآها كيف أمست في الثمانينيات!

وعاد إلى دمشق فلم تمض أشهر حتى دخلت أشهر الحج، فعاوده الشوق والحنين إلى البلد الأمين، فحجَّ موسم ١٤٠٦هـ وزار النبيَّ ﷺ.

وفاته:

لم يلبث بعد عودته من الحج إلا قليلاً حتى وافاه الأجل فُجْأة مساء الاثنين ٢ صفر ١٤٠٧هـ، الموافق ٦ تشرين الأول ١٩٨٦م، ثم صَلَّى عليه بعد عصر الثلاثاء بالجامع الأموي ولده الأكبر الشيخ أحمد معاذ، ثم أتى فضيلة شيخ القرّاء الشيخ حسين خطاب - رحمه الله تعالى - بعد انقضاء الصلاة فصلَّى عليه ثانية في الجامع الأموي، ثم انطلقت جنازته مُسْرعةً إلى الباب الصغير، حيث دفن بجوار طائفة من كبار علماء دمشق في تربة الشيخ القدوة العارف بالله الشيخ إبراهيم الغلاييني - رحمه الله تعالى -.

أخلاقه وسجاياه:

كان متواضعاً أبيَّ النفس رافع الرأس، وكان حُلوَ المنطق، حَسَنَ اللقاء، حَسَن الهدي والسَّمْت، فَطِناً ليس بالخَبّ ولا الخَبُّ يخدعه، فما استطاع أحد على تقلُّب الأيام والمفاهيم أن يُكدِّر بياض عمَّته، شهده الناس على منبر الأموي وسمعوه في عصور شتَّى وعهود مختلفة، فكان قوله واحداً، ولقد فاقه كثير من أقرانه بالعلم والتعليم والتدريس، لكنه فاق كثيراً منهم بالثبات ووضوح الرؤية.

لم يكن منغلقاً على الكتب والطلاب، بل كان عارفاً بعصره وما يجري فيه، وما يُحاك للمسلمين هنا وهناك، وله مع الحكام مواقف مشهودة.

وكان أمّاراً بالمعروف نهَّاءً عن المنكر، يباشر ذلك بنفسه، ولا يخاف في الله أحداً، فقد كان مرَّةً يتجوَّل بمفرده في بستانه بجمرايا فرأى عند العين جماعةً من الأشرار، وقد وضعوا في جدول الماء زجاجات الخمر، فأهوى عليها بعصاه يكسرها، والقوم في دهشة وذهول لم يَنْبس واحد منهم بنت شفة!.

وكثيراً ما كان ينكر على بعض الناس في مسجد بني أمية ممَّن لا يُراعون حرمة المسجد بنوم غير لائق أو دخان أو تبرُّج أو غير ذلك، وكان

إذا دخل المسجد يوم الجمعة من الباب الذي كان يدخل منه السيَّاح الأجانب إلى مشهد عثمان يطلب من الموظف إغلاق الباب.

ولما سمع أن بيت الخطابة تهبُّ عليه رياح تريد هدمه مع جملة ما هُدم من ملاصقات الجامع الأموي، كتب إلى وزير الأوقاف كتاباً بتاريخ ١٤٠٤/٤/٧هـ قال في آخره: «وإني إذ أتقدَّم إليه بهذا الرجاء أضع المسؤولية الفقهية والتاريخية والأثرية والقومية في عنقه وإني لمطالبه بها يوم أسأل عنها...» فلم يهدم بيت الخطابة ـ بحمد الله ـ وهو باق ما شاء الله.

ولم يكن في حياته العلمية منذ نشأته خاضعاً لأحد من الشيوخ ينظر بنظره، ويسمع بأذنه، ويفكِّر بعقله، ولم يُربِّ أحداً ممَّن لازمه أو واظب على دروسه على هذا المنهج.

وقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ الله صوفياً في أخلاقه وسلوكه، وإن لم يمش في طرق المتصوفة، على أنه قرأ وطالع كثيراً من كتب التصوف حتى نسخ بخطه بعض النوادر منها.

وكان في الفقه مرناً في الفتوى والعمل ـ والمرونة لا تعني التسيُّب أو التَّساهل ـ يعمل بمذهبي الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله، ولم يكن يُحبُّ التعمُّق والتقعُّر في المسائل، ولا يرتضي الظاهريَّة في التفكير والفهم والعمل.

حُبُّه للحديث النبويِّ الشريف وإجازاته:

وكان ميَّالاً إلى الحديث الشريف، وهو أكثر ما كان يقرؤه في دروسه، ويبدو أنه لم يكن يَتتبَّع الإجازات والأسانيد، لو تَتبَّعها لحصَّل أسانيد عالية نادرة على أنه قد حصل على إجازات ثمينة هي:

١ ـ إجازة الشيخ محمد صالح بن أحمد بن عبدالرحمٰن الخطيب الحسني بخطه بعموم مروياته مؤرخة ٦ شعبان ١٣٦٣، ثم أجازه ثانية بثبته «موجز الدرر الغالية» سنة ١٣٩٠هـ.

٢ ـ إجازة الشيخ محمد علي ظبيان مؤرخة بـ٣ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ.

٣ ـ إجازة الشيخ محمد أحمد دهمان مؤرخة بـ١٣٨٤هـ، وعمدته في الرواية: الشيخ محمد أمين السفرجلاني.

٤ ـ إجازة نقيب السادة الأشراف السيد الشريف الشيخ محمد سعيد الحمزاوي ـ رحمه الله تعالى ـ بخطه الجميل مؤرخة بـ١٣٨٩/٧/١١هـ.

٥ ـ إجازة الشيخ محمد سامي الملا الكيالي القاضي الشرعي المتقاعد بحلب وملحقاتها العشر مؤرخة بـ١٤٠٢/٤/١٧هـ.

٦ ـ إجازة شفهية من الشيخ رفيق السباعي عن المحدِّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني عندما زاره الشيخ أبو الفرج ـ رحمه الله تعالى ـ بمعيَّة بعض الفضلاء بعد صلاة الجمعة ١٤٠٢/٧/٢١هـ.

٧ ـ إجازة الشيخ أحمد القاسمي مدير الأوقاف الإسلامية ـ رحمه الله تعالى ـ مؤرخة بـ١٤٠٣/١٢/١هـ.

٨ ـ أما الإجازة المهمة وهي شهادة علمية وإذن بالتعليم، وليست من قبيل إجازة الرواية، فهي إجازة أستاذ التوحيد والمنطق بكلية أصول الدين الأستاذ الشيخ صالح موسى شرف إذ أجاز الشيخ أبا الفرج بتدريس التوحيد والمنطق بعد أن تلقَّى عنه هذين الفنين في منزله بانتظام عامين كاملين. وهي مؤرخة بـ١٣٦٦/٧/٢٧هـ.

تآليفه:

للشيخ أبي الفرج مؤلفات كثيرة، لكنه لم يكن ممَّن يعكف على تأليف كتاب حتى يتمّه، وإنما ينتقَّل إلى غيره، ولذلك لم يتم أكثر مؤلفاته، وترك جُذاذات كثيرة تصلح لتكون تأليفاً، وكلَّما مرَّ معه شيء له تعلق بها أودعه فيها. وهذا ثبت بأهم مصنفاته حسب الموضوعات التي ألف فيها.

أولاً: الجامع الأموي:

١ ـ الخطابة والخطباء في جامع بني أمية خلال أربعة عشر قرناً، في طبقات خطباء الأموي من الفتح الإسلامي حتى الآن. ٢ ـ عمادة جامع بني أمية ومن تولى نظارة الجامع. ٣ ـ مدرسون تحت قبة النَّسر. ٤ ـ جامع بني أمية الكبير: المسجد الجامع بدمشق.

ثانياً: آل البيت السادة الأشراف، وهو في ثمانية أقسام:

١ ـ في معرفة النسب وفضله وضرورة الحفاظ عليه، وفضل آل البيت وخصائصهم. ٢ ـ نقابة الأشراف في الشام ونقباؤها: فيه تراجم ما يقرب من ٥٦ نقيباً. ٣ ـ السيد النقيب محمد سعيد الحمزاوي. ٤ ـ أشراف الشام. ٥ ـ أشراف الحجاز، وهو كتابٌ ضخم حافل. ٦ ـ أشراف العراق. ٧ ـ أشراف المغرب ومصر واليمن. ٨ ـ ذريَّة الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

ثالثاً: الأنساب:

١ ـ أسرٌ دمشقيَّة تَتابعت أنسابها: يريد بها الأُسر الحسنيَّة أو الحسينية المنسوبة إلى آل بيت النبيّ ﷺ. ٢ ـ أُسر دمشقيَّة تتابعت أجيالها: يريد بها الأسر العريقة التي لها انتساب إلى أحد الصحابة أو المتقدِّمين، أو لها في دمشق عراقة تمتد زمناً طويلاً. ٣ ـ أسرتي آل الخطيب الحَسَني، وتراجم أعلام من نُبهائها. ٤ ـ سلاسل أُسر تاريخية وتراجم أعلام منها.

رابعاً: الخطب والكلمات:

١ ـ من على المنبر تحت قبة النَّسر: وهو ديوان خطبه الأُمويَّات، من أول خطبة خطبها في الأموي إلى آخر خطبة ١٣٦٣هـ ـ ١٤٠٧م، يأتي في خمس مجلدات. ٢ ـ من على المنبر: يتضمَّن خطبه وكلماته ـ رحمه الله تعالى ـ في مناسبات شتَّى في غير جامع بني أمية. ٣ ـ الخطابة علم وفن وسجيَّة. ٤ ـ فن الخطابة وأهليَّة الخطيب. ٥ ـ في مجرى الحياة في مواضيع أدبيَّة إنشائيَّة.

خامساً: كتب شتّى:

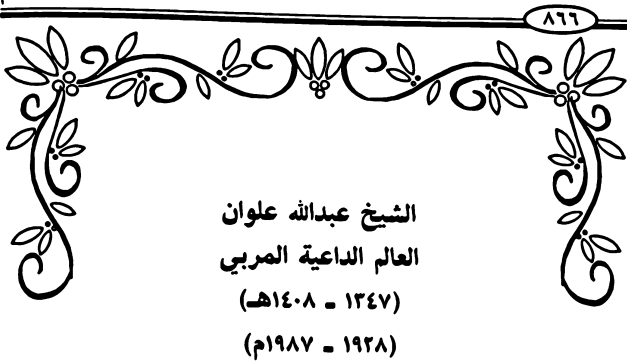
١ ـ دار السنة دار الحديث النوريّة بدمشق، اعتنى به إتماماً وصياغةً ابنه العالم الفاضل المُحدّث المؤرّخ المحقّق الشيخ محمد مُجير الخطيب الحَسَني وفقه الله، وطبع بدار البشائر بدمشق، وصدرت الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م في ٣٦٧ صفحة. ٢ ـ المدرسة الأمينيّة. ٣ ـ أعلام في ذمّة الله: عبدالقادر الخطيب، محب الدين الخطيب.

ولعلّ الله سبحانه وتعالى يُيسّر لابنه العالم النجيب المحقّق الأستاذ مجير الخطيب ـ حفظه الله ورعاه ـ القيامَ بإتمام أعمال والده العلمية ونشرها.

أولاده:

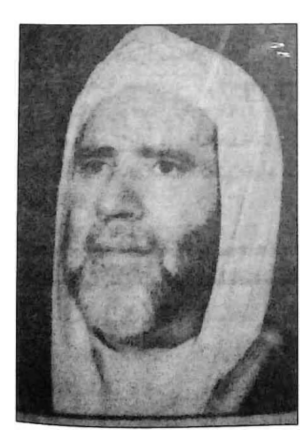
أما أولاده ـ رحمه الله تعالى ـ فهم: أحمد معاذ العالم الداعية الموهوب، المشرف على موقع (دربنا)، والعالم الفقيه الخطيب الشيخ محمود عبدالقادر، والعالم المحدّث المحقق الأستاذ محمد مجير، ولهم أختٌ تُضَارِعُهم في طلب العلم وفي التعليم، حفظهم الله تعالى ورعاهم، وأولاهم وتولاّهُم ونفع بهم.

□ □ □ □ □



الشيخ عبدالله علوان
العالم الداعية المربي
(١٣٤٧ ـ ١٤٠٨هـ)
(١٩٢٨ ـ ١٩٨٧م)

بقلم تلميذه: مَجْد مكي



ولادته ونشأته:

ولد رحمه الله تعالى في حيّ قاضي عسكر بمدينة حلب سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م في أسرة متدينة معروفة بالتُّقى والصلاح، وتربى في ظلّ والده الصالح الشيخ سعيد علوان ـ رحمه الله ـ وكان بعض الناس في حلب وغيرها يقصدون الشيخ سعيداً طلباً للتداوي بالأعشاب، وكان لسانه لا يَفْتُر عن ذكر الله وقراءة القرآن، وكان يدعو ربه أن يجعل من أبنائه العالم الحكيم والطبيب المسلم، وقد أجاب الله دعاءه.

في الثانوية الشرعية (الخسروية):

عندما أنهى دراسته الابتدائية، وجُهه والده عام ١٩٤٣م إلى دراسة العلم الشرعي في الثانوية الشرعية، وكانت تعرف في ذلك الوقت بـ(الخسروية) نسبة إلى بانيها خسرو باشا، وكان يقوم بالتدريس في تلك المدرسة علماء كبار وأساتذة أكْفاء وهبوا حياتهم للعلم وأخلصوا في عملهم، ومنهم: محمد راغب الطباخ، أحمد الشماع، محمد سعيد الإدلبي، عيسى البيانوني، عبدالرحمٰن زين العابدين، ناجي أبو صالح، نجيب خياطة، عبدالله حمَّاد، رحمهم الله جميعاً.

وقد تأثّر بأستاذه العلامة المحدث المؤرخ الشيخ محمد راغب الطباخ، كما تأثّر بعد ذلك بالدكتور الشيخ مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ وكان يتخذه نموذجاً وقدوة.

عُرف بين زملائه بالجرأة في الحق والشجاعة في مواجهة الأحداث. كما عرف بالخطابة والقلم المعبّر عن أحاسيس المسلمين، وكان بيته في حلب منتدى ومجمعاً لأصدقائه ولأساتذته، وكان الكرم يشمل الجميع من والد الفقيد ـ رحمه الله ـ.

دراسته في الأزهر:

بعد أن حصل على شهادة الثانوية الشرعية في سنة ١٩٤٩م، وبتوجيه من والده سافر إلى مصر لاستكمال تحصيله في علوم الشريعة الإسلامية في الأزهر، ونال شهادة كلية أصول الدين سنة ١٩٥٢م، ثم حَصَل على شهادة تخصُص التدريس، وهي تُعادل الماجستير سنة ١٩٥٤، كان له في مصر نشاط إسلامي واسع وزيارات مُتَبادَلة مع كبار رجال الدعوة الإسلامية. وعندما اشتدّ البلاء بالإسلاميين في مصر سنة ١٩٥٤، ووقعت المحنة أصابه الأذى، فاعتقل، وكان قد بقي له عدّة مواد حتى يُؤدِّيها ويتخرج في الجامعة، فكان يُؤتى به إلى الاختبار مقيَّد اليدين، وحين انتهت الاختبارات اقتيد إلى الطائرة لتنقله إلى وطنه، ولم تسمح له حكومة مصر حينذاك أن يكمل دراسته العليا ويحصل على شهادة الدكتوراه.

وقد حصل الشيخ ـ رحمه الله ـ على شهادة الدكتوراه بعد مدة طويلة من جامعة السند في باكستان، وكان موضع رسالته: (فقه الدعوة والداعية)، وهو بعلمه ومؤلفاته أرفع من هذا اللقب بكثير.

عمله في مجال التدريس والدعوة:

عمل الشيخ عبدالله منذ عام ١٩٥٤م مُدرّساً لمادة التربية الإسلامية في ثانويات حلب، فكان خيرَ مُرَبٍّ للأجيال، غرس في طلابه حُبَّ الإسلام والعمل على نُصْرة شريعة الله في الأرض، وكان لمادة التربية الإسلامية في سورية حصّة واحدة في الأسبوع، وكان طلبة الشهادات لا يُخْتَبرون فيها، فسَعَى مع إخوانٍ له على جعل حصتين في الأسبوع لمادة التربية الإسلامية، وإدخال تلك المادة في امتحانات الشهادات في سورية.

وفي تلك الفترة انتشرت بين صفوف الطلبة الأفكار العلمانية والدعوات الإلحادية، فتصدّى مع إخوانه العلماء لمُروّجي هذه الأفكار الهدامة التي تُشوّه معالم الدين، وكانت له مواقف مشهودة عرفها طلابه في تلك الأيام.

وكان ـ رحمه الله ـ مُربياً ومعلّماً وواعظاً في المدرسة، وكان يقوم بدور كبير في بيوت الله، لا يعرف الملل، ولا يشكو الكلل، بل كان يُجهد نفسه بالعمل مع شعورٍ بالرضا والسعادة، ولم يتخلّف أو يعتذر عن أي دعوة توجّه له لإلقاء كلمة في مناسبة إسلامية أو حفلة خاصّة.

دروسه في جامع عمر بن عبدالعزيز وأبرز تلاميذه:

وكان للشيخ دروسه الدورية في مسجد (عمر بن عبدالعزيز)، درّس فيه الفقه والسيرة، وقد علّم الكثير من الشباب الخطابة وإلقاء الدروس، وكان يجلس أمامهم مُصْغياً وموجّهاً ليستقيم لهم البيان، فتربّى في هذه المدرسة عدد كبير من الشباب، بعضهم قضى نحبه أيام المحنة، ومنهم من ينتظر. ومن أبرز تلاميذه: الداعية الملهم الخطيب المصقع الشهيد السعيد الشيخ موفق سيرجية رحمه الله تعالى، والأستاذ الشيخ أحمد فيصل، والأستاذ عبدالجبار الزيدي، والشيخ مَجْد مكي.

صلاته مع علماء سورية:

كان الشيخ على صلة طيّبة وثيقة مع جُلّ علماء سورية، وكان يتنقل من مدينة إلى أخرى داعياً إلى توحيد كلمة العلماء، وتماسك بنيانهم أمام الأعاصير التي تعصف بالمسلمين.

هجرته وإقامته بالسعودية وتدريسه بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة:

وحين اشتدّت المحنة في أوائل الثمانينيات، خرج من مدينة حلب سنة (١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م) مهاجراً بدينه، وأقام عدة أشهر في الأردن، ثم توجّه إلى السعودية، وتابع عمله العلمي والتربوي والدعوي بمشاركته في العديد من المحاضرات والمخيّمات الطلابية، وكذلك مقالاته العديدة في المجلات الإسلامية، ودروسه التربويّة في إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية، مع عمله أستاذاً في قسم الدراسات الإسلامية في جامعة الملك عبدالعزيز في جدة، منذ ١٤٠١هـ إلى أن لقي ربّه سنة ١٤٠٨.

أخلاقه وصفاته:

عُرِفَ رحمه الله تعالى بالكرم، فكان بيته موئلاً لخلاّنه ولطلابه وللمحبين، يجدون عنده ما يسرهم من ابتسامة مشرقة إلى كلمة هادفة، إلى موعظة وعبرة، يتخلل ذلك كرم الضيافة.

وكان دائب السعي إلى توثيق روابط الصَّداقة ووشائج المحبة مع إخوانه ومُحبيه، فكان يسارع إلى زيارتهم ومشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، وإذا طُلب منه المساعدة في أمر ما فإنه لا يعتذر، بل يسارع إلى المساعدة ويَعُدُّ هذا الموضوع موضوعاً شخصياً له، ويبذل كل جهده حتى ينجزه.

وكان متواضعاً في نفسه، دعوباً حاضر النكتة، حسن المعاملة مع الناس، يحبُّ الخير والنصح للمسلمين.

مؤلفاته:

ترك الشيخ عدداً وفيراً من الآثار العلميّة والدعويّة والتربويّة منها:

١ - التكافل الاجتماعي في الإسلام. ٢ - تعدُّد الزوجات في الإسلام. ٣ - صلاح الدين الأيوبي. ٤ - تربية الأولاد في ازسلام في مجلدين. ٥ - فقه الدعوة ومدرسة الدعاة في مجلدين. ٦ - قصة الهداية في مجلدين أيضاً. وقد أصدر من كتابيه الأخيرين العديد من الرسائل المفردة. ٧ - إلى كلِّ أب غيور يؤمن بالله. ٨ - آداب الخطبة والزفاف. ٩ - الإسلام والجنس. ١٠ - الإسلام والقضية الفلسطينية. ١١ - إلى وَرَثة الأنبياء والدعاة إلى الله. ١٢ - تعدُّد الزوجات في الإسلام. ١٣ - حتى يعلم الشباب. ١٤ - الشباب المسلم في مواجهة التحديات. ١٥ - دور الشباب في حمل رسالة الإسلام. ١٦ - حكم الإسلام في وسائل الإعلام. ١٧ - حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان. ١٨ - شبهات وردود حول العقيدة الربانية وأصل الإنسان. ١٩ - معالم الحضارة الإسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية.

وغيرها من المؤلفات النافعة بالإضافة إلى المحاضرات والمقالات التي كان ينشرها في المجلات الإسلامية.

مرضه:

صارع شيخنا المرض قرابة ثلاث سنوات، فقد أصيب بمرض عضال في الدم إثر عودته من باكستان، وسافر إلى بريطانيا ليتمَّ العلاج، ففعل، ولكن بدون جدوى.

ومع حالته الصحيَّة الحرجة أبى مُحبّو الشيخ في بريطانيا إلا أن يستمعوا إلى محاضرة للشيخ، في مخيم صيفي، فلم يتأخر عن الاستجابة، وكان عنوان المحاضرة: (الشباب المسلم في مواجهة التحديات)، وصدرت فيما بعد في كتاب حافل واسع.

ورجع الشيخ إلى جُدة، فبدأت تظهر عليه الأمراض المتلاحقة حتى

ذبل عوده وتضاءل جسمه، وكان دائم التردُّد على العيادات الطبية طالباً المشورة والعلاج، ولكن نفسه لم تَهُن ولم تضعف، بل بقي عالي الهمة متوثب العزيمة محافظاً على مهماته الدعوية، يقوم بمسؤوليته الاجتماعية، لا يعتذر عن قبول أية مناسبة يُدعى إليها، وحين يُطلب منه التحدث كان يتكلم وينفعل وينسى حالته المرضية التي لا تسمح له بإرهاق نفسه.

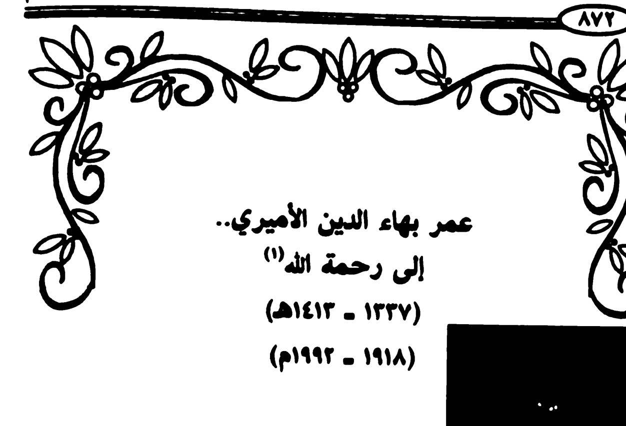
وأثناء المدة التي قضاها الشيخ ـ رحمه الله ـ راقداً في المستشفى، كان يخلع ثوب المستشفى، ويلبس ثيابه ويذهب إلى الجامعة لإلقاء المحاضرات، ثم يعود مرة أخرى إلى المستشفى ليتلقَّى العلاج من الأطباء، وبجوار سريره ترتفع مجموعات من الكتب، فهو يجد السعادة في التأليف والنصح فيما ينفع الأمة ويرفع من شأنها.

وكان يضع (المخدة) أمامه، ويكتب فصولاً من كتاب سلسلة «مدرسة الدعاة» الذي كان قد بدأه قبل مرْضه رغم نصائح الأطباء والمحبين بالابتعاد عن القراءة والكتابة، والإخلاد إلى الراحة، لكن نفسه الطموحة وهمّته العالية تأبى أن تُلقي القلم من يدها مهما اشتدَّت وطأة الألم.

وفاته:

وكانت وفاته في الساعة التاسعة والنصف صباح يوم السبت الخامس من شهر محرَّم عام ١٤٠٨هـ، الموافق ٢٩ من آب /١٩٨٧م في جدة بمستشفى جامعة الملك عبدالعزيز، وقد شُيِّع جثمانه يوم الأحد في السادس من محرم الموافق الثلاثين من آب، ونُقل من جُدة إلى مكة، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة العصر، ودُفن في مقبرة المعلاة، وشيَّع الفقيد عددٌ كبير من العلماء والدعاة والإخوة والشباب والطلاب، كما ألقى بعض أحبة الفقيد الكلمات المعبِّرة عن حبِّهم ومُصابهم في فقيدهم العالم المربِّي الداعية رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه.

□ □ □ □ □



عمر بهاء الدين الأميري.. إلى رحمة الله[1]

(١٣٣٧ - ١٤١٣هـ)

(١٩١٨ - ١٩٩٢م)

بقلم: الأستاذ باسل رفاعي

فقيد الأدب الإنساني والفكر الإسلامي:

بين غُربة الروح وغُربة المَوْطن والديار، أمضى فقيد الأدب الإنساني والفكر الإسلامي عمر بهاء الدين الأميري سنيّ حياته التي جاوزت الخامسة والسبعين مجاهداً ومكابداً ومُعنًى، قبل أن يرحل عن دنيانا مساء السبت الماضي إلى لقاء الله البرّ الرحيم.

ولادته وأسرته ودراسته:

وُلد الأميري عام ١٩١٥[2] في أسرة من كرائم الأسر بمدينة حلب السورية، فوالده محمد بهاء الدين نائب المدينة في «مجلس المبعوثان العثماني»، ووالدته ابنة رئيس محكمة الاستئناف فيها..

---

(١) جريدة الاتحاد الإماراتية (الملحق الديني) ١/٥/١٩٩٢.

(٢) كتب الأستاذ باسل رفاعي بحثاً دقيقاً بعنوان: «الأميري ورحلة البحث عن شهادة الميلاد» ورجح أن يكون تاريخ ميلاده هو عام ١٩١٨م.

وبعدما أتمّ دراسته الثانوية، ارتحل إلى العاصمة الفرنسية ليدرس الأدب وفقه اللغة بجامعة «السوربون»، ثم عاد إلى موطنه ليدرس الحقوق كما تمنى له والده، وليتجه بعد تخرجه إلى تدريس علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والحضارة في جامعتي حلب ودمشق علاوة على عمله في المحاماة.

إسهامه في انطلاق العمل الإسلامي المعاصر:

وقد أسهم ـ رحمه الله ـ في انطلاق العمل الإسلامي المعاصر في سورية، وكان من الأعضاء المؤسسين لجماعة الإخوان المسلمين فيها، كما شارك في الدفاع عن القدس مع جيش الإنقاذ خلال حرب فلسطين عام ٤٨.

وقد مثّل بلاده سفيراً في دولة الباكستان عام ١٩٥٠، وفي السعودية عام ١٩٥٤.

وفي عام ١٩٦٦ دُعي إلى المغرب، وعُيِّن أستاذاً لكرسي الإسلام والتيارات المعاصرة بدار الحديث الحسنية بالرباط، كما درّس بجامعة الملك محمد الخامس بفاس، واستمرت إقامته هناك منفياً عن بلاده حتى أواخر أيامه، عاكفاً على الكتابة ونظم الشعر.. ينافح عن دين الله، وينفعل بقضايا أمته، ويُرفرف بروحه شوقاً لحضرة مولاه وهياماً بمُصْطَفَاه صلوات الله وسلامه عليه.

شاعر الإنسانيّة المؤمنة:

والأميري شاعر مفطور منذ بواكير عمره، بدأ نظم الشعر وهو في التاسعة، وعلى مدى هذا العمر المبارك طبع له أكثر من ثلاثين أثراً في الشعر والفكر والنثر، وتُرجم عدد منها إلى لغات عديدة، كما أُلفت في دراسة شعره وأدبه أطروحات جامعية عدة، وقد اهتم في عطائه بقضايا الثقافة والدعوة الإسلامية، وبالمعاني الوطنية، وبالمشاعر الإنسانية حتى لُقب بشاعر الإنسانية المؤمنة.

ومن أشهر دواوينه المطبوعة: «مع الله»، و«أب»، و«أمي»، و«من وحي فلسطين»، و«حجارة من سجيل»، و«نجاوى محمدية»..

ومن أبرز مؤلفاته: «الإسلام وأزمة الحضارة المعاصرة»، و«الإسلام في المعترك الحضاري»، و«في الفقه الحضاري»[١].

كتب الأميري رحمه الله بريشة الروح شعره، وخطّ بمداد القلب ورعشات الفؤاد أحاسيسه وبَوْحه، من رياض الحب الإلهي اغترف، وفي رحاب الجمال المُبدع حطّ وارتحل، وعند كل معنىً من معاني النبض الإنساني توقّف فأنشد، وبرغم اعتلال صحته أواخر سني حياته وتباطؤ دفق القلب لديه، واجتماع المحن والأدواء عليه إلا أنه لم يكف عن العطاء وعن الإبداع، حتى قضى نحبه[٢] كما قدّر الله وقضى، وصدى أبياته لا ينفك يتردّد، وهو يقول:

إذا كــفّ قــلــبــهُ عــن وجــيــب	ظــلَّ حــيّــاً بــبــاقــيــات عــطــائــه
وإذا غــيــض فــي غــيــابــة رَمْــسٍ	طــاول الــنــجــم روحــه فــي عــلائــه
فــدعــونــي فــي الله أبــذل نــفــســي	وأداوي قــلــبــي بــه.. بــشــفــائــه
والذي في الإله.. في النور يفنى	يــتــجــلّــى بــقــاؤه فــي فــنــائــه

□□□□□

---

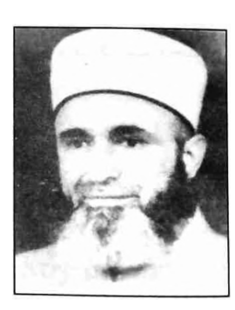
(١) للأخ الكريم البحاثة الطُلَعة الأستاذ باسل رفاعي دراسة واسعة عن الأستاذ الأميري وتعريف بآثاره، ستصدر بعون الله تعالى قريباً.

(٢) انتقل أستاذنا الأميري إلى رحمة الله تعالى مساء السبت ١٤١٣/٣/٢٨هـ، الموافق ١٩٩٢/٩/٢٥، إثر عارض صحيّ لازمه في الأشهر الأخيرة، وأدخله أواخر أيامه حالة من الغيبوبة شبه التامة، حيث قضى نحبه في أحد مستشفيات الرياض. ونُقل جثمانه الطاهر إلى المدينة المنورة، ودُفن بالبقيع قريباً من قبر الإمام مالك بن أنس، وقد حضر تشييعه طائفة من أهل العلم، كان في مقدمتهم أستاذنا الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالى.

لمحات من حياة العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة[1] رحمه الله تعالى

(١٣٣٦ ـ ١٤١٧هـ)

(١٩١٧ ـ ١٩٩٧م)



بقلم تلميذه: مَجْد مكي

هو العلامة المُحدِّث الفقيه الأصولي الأديب الشيخ عبدالفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة.

ولادته ونشاته ودراسته:

ولد ـ رحمه الله تعالى ـ في مدينة حلب بسورية سنة ١٣٣٦هـ ـ ١٩١٧م، ودرس في المدرسة العربية الإسلامية الخاصَّة الدراسة الابتدائية، ودرس في المدرسة الخسروية التي أنشأها خسرو باشا ـ رحمه الله تعالى ـ بحلب، والتي سُمِّيت فيما بعد: الثانوية الشرعيَّة، من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤٢.

أبرز أساتذته في الثانوية الشرعية:

وكان من أبرز أساتذته فيها المشايخ: الشيخ محمد راغب الطباخ،

---

(١) مجلة الأزهر، العدد الأول من السنة السبعين: (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

وعيسى البيانوني، وإبراهيم السلقيني الجدّ، رحمهم الله تعالى، إلى جانب الشيخ محمد السلقيني[١] والشيخ مصطفى الزرقا[٢] مدّ الله تعالى في عمرهما بالعافية والسلامة، كما لازم الأستاذ الفقيه الحنفي المتقن الشيخ محمد الرشيد ـ رحمه الله تعالى ـ تلميذ العلامة الفقيه الكبير الشيخ محمد الزرقا، وابنه الفقيه الجليل الشيخ أحمد الزرقا والد الشيخ مصطفى الزرقا.

انتسابه إلى كلية الشريعة في الجامع الأزهر وأبرز شيوخه فيها:

ثم دخل كلية الشريعة في الجامع الأزهر بمصر في عام ١٩٤٤م، ومن أبرز من درَّس له فيها المشايخ: الشيخ محمود خليفة، وعبدالرحيم الفرغلي، وعبدالرحيم الكشكي، ومحمد الخضر حسين التونسي، وعبدالحليم محمود، ومحمود شلتوت، وقد تولى ثلاثتهم مشيخة الأزهر فيما بعد.

دراسته خارج الأزهر بمصر وأبرز شيوخه:

ودرس خارج الأزهر على الشيخ عبدالله بن الصدِّيق الغماري، وحضر محاضرات الأساتذة عبدالوهاب خلاف، ومحمد أبو زهرة، وعبدالوهاب حمُّودة ـ رحمهم الله تعالى ـ، وكانت له تلمَذة خاصة لشيخ الإسلام مصطفى صبري، ولوكيل شيخ الإسلام الشيخ محمد زاهد الكوثري ـ رحمهما الله تعالى ـ، لازمهما لمدّة ست سنوات ملازمة تامة.

وتخرج في عام ١٩٤٨ حائزاً على الشهادة العالية من كلية الشريعة، ثم درس في «تخصص أصول التدريس» في كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر ـ أيضاً ـ لمدة سنتين، وتخرج سنة ١٩٥٠م.

تدريسه في ثانويات حَلب وتاليفه كتباً منهجية دراسيَّة:

وبعد عودته لسورية عمل مدرساً بوزارة المعارف لعام ١٩٥١م، ودرس

---

(١) توفي يوم الأربعاء ٢ صفر ١٤٢٢ الموافق ٢٠١٠/٤/٢٥.
(٢) توفي يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠ الموافق ٣ يوليو ١٩٩٩.

لمدة إحدى عشرة سنة في ثانويات حلب مادة التربية الإسلامية كما درَّس العلوم الشرعية المختلفة في المدرسة الشعبانية والثانوية الشرعيَّة التي تخرج فيها، وألَّف خلالها ستة كتب دراسية للمرحلة الثانوية بالاشتراك مع الأستاذ الشيخ أحمد عز الدين البيانوني ـ رحمه الله تعالى ـ.

انتخابه في المجلس النيابيّ وانتدابه للتدريس في كلية الشريعة بدمشق:

ثم انتُخب عضواً في المجلس النيابيّ بسورية في سنة ١٩٦٢ للمدة التي سمحت الظروف السياسيَّة فيها ببقاء المجلس النيابي، ثم انتدب للتدريس في كلية الشريعة بجامعة دمشق، فدرس فيها لمدة ثلاث سنين: الفقه الحنفي وأصول الفقه والفقه المقارن بين المذاهب، ثم قام بعدها بإدارة (موسوعة الفقه الإسلامي) في كلية الشريعة بدمشق لنحو سنتين قام خلالها بإتمام وإنجاز كتاب (معجم فقه المحلي لابن حزم)، وكان قد سبقه إلى العمل فيه بعض الزملاء، فأتمَّه وأنهى خدمته، وطبعته جامعة دمشق في ضمن مطبوعاتها في مجلدين كبيرين.

رحلته إلى الهند وباكستان وكثرة شيوخه:

ورحل لمدَّة نحو ثلاثة أشهر رحلة علميَّة شخصيَّة خاصَّة إلى الهند وباكستان سنة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م والتقى بأجِلَّة الشيوخ والعلماء في تلك الديار من أمثال المشايخ: الشيخ محمد شفيع مفتي باكستان، والمفتي عتيق الرحمٰن كبير علماء دهلي بالهند، وأبو الوفاء الأفغاني رئيس دائرة المعارف النعمانية، رحمهم الله تعالى، ويبلغ عدد شيوخه الذين لقيهم وأخذ عنهم واستجاز منهم أكثر من مئة وخمسين شيخاً.

انتقاله إلى السعودية وتدريسه في جامعة الإمام محمد بن سعود:

وفي سنة ١٣٨٥ تعاقد مع كلية الشريعة بالرياض التي غدت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لاحقاً، ودرَّس فيها وفي المعهد العالي للقضاء، ثم درَّس نحو عشر سنوات في الدراسات العليا في كلية أصول

الدين من الجامعة نفسها للحديث الشريف وعلومه، وكان عضواً في المجلس العلميّ فيها، وبقي يعمل مع جامعة الإمام مدّة ثلاث وعشرين سنة إلى عام ١٤٠٨، ولقي فيها من إدارة الجامعة ومنسوبيها كلّ تكريم وتقدير.

تعاقده مع جامعة الملك سعود بالرياض:

ثم تعاقد مع جامعة الملك سعود بالرياض فدرّس علوم الحديث في كلية التربية لمدّة سنتين لطلاب السنة الأخيرة من الكلية وفي الدراسات العليا، ثم تقاعد عن التدريس في ١٤١١.

مشاركته في وضع مناهج دراسية:

وشارك في وضع مناهج وخطط دراسيّة في سورية، ثم في مناهج المعهد العالي للقضاء، وكلية الشريعة في جامعة الإمام الإسلامية.

انتدابُه أستاذاً زائراً لعدد من الجامعات:

وانتدب أستاذاً زائراً للتدريس في جامعة أم درمان الإسلامية في السودان لعام ١٣٩٦، وأستاذاً زائراً لليمن عام ١٣٩٨، وأستاذاً زائراً عام ١٣٩٩ لجامعة ندوة العلماء في «الكنو» بالهند التي يرأسها سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي.

وانتفع بعلمه الآلاف من التلاميذ وطلبة العلم في حلب وجامعات دمشق والرياض والهند وباكستان والسودان واليمن وغيرها.

مشاركاته في عدد من المؤتمرات والندوات:

وشارك في مؤتمرات وندوات كثيرة جداً في سورية والعراق واليمن وقطر والمغرب والسودان والهند وباكستان وتركيا وأندونيسيا وأفغانستان وطشقند وسمرقند، وفي أوروبا وأمريكا وكندا وغيرها.

خدماته العلمية وعضويته في عدد من المجامع العلمية:

وله من الخدمات العلمية والآثار المطبوعة ما بين محققات ومؤلفات

أكثر من ٧٠ كتاباً في الحديث والمصطلح والرجال والفقه والأخلاق والتاريخ.

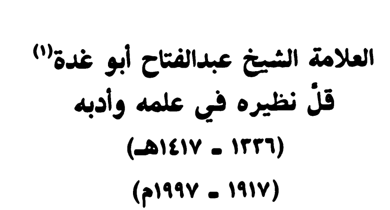
هذا، والأستاذ أبو غدة ـ رحمه الله تعالى ـ إلى جانب هذه الآثار التي خدمها تأليفاً وتحقيقاً وطبعاً وإخراجاً: عضو في المجمع العراقي في بغداد، وعضو في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، ونال جائزة سلطان بروناي لخدمة الحديث النبويّ الشريف في عام ١٤١٥هـ، وكان أول من منح الجائزة.

مرضه ووفاته:

أَجْهَدَ الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ نفسه في نشر العلم وتحقيق الكتب النادرة، حتى ضَعُف بصره، وأجريت له عملية جراحية في مستشفى العيون التخصُّصي بالرياض في شعبان ١٤١٧هـ ضعفت صحته على إثرها، ونُقل إلى مستشفى الملك فيصل التخصُّصي في أواخر رمضان، وتوفي سحر ليلة الأحد التاسع من شوال سنة ١٤١٧هـ، وصلى عليه جَمْعٌ حاشد من طلابه ومحبيه في مسجد الراجحي بالرياض بعد صلاة الظهر يوم الاثنين العاشر من شوال، ثم نُقل إلى المدينة المنورة بطائرة خاصَّة أرسلها سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز جزاه الله خيراً، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة العشاء في المسجد النبويّ الشريف، وشيَّعه مئات المحبّين الذين توافدوا إلى المسجد النبويّ الشريف من شتَّى أنحاء المملكة، ودُفن في البقيع بجوار سيدنا رسول الله ﷺ الذي أمضى عمره في خدمة سنته، وبجواره أصحابه الكرام ـ رضي الله عنهم ـ الذين أحبَّهم ونشر فضائلهم.

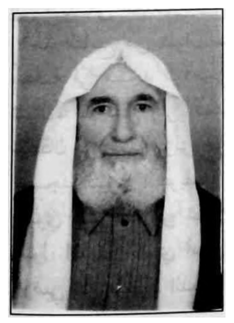
وبموت فضيلة الشيخ تنطوي صفحة مضيئة مشرقة من صفحات العلم التي تُذكِّر بعلماء السلف في عُلوِّ الهمَّة والحرص على الزمن، والصبر على طلب العلم وتحصيله.

رحمه الله رحمةً واسعة، وعوَّض المسلمين خيراً، وجمعنا به في مستقرِّ رحمته.



العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة[1]
قلَّ نظيره في علمه وأدبه
(١٣٣٦ - ١٤١٧هـ)
(١٩١٧ - ١٩٩٧م)
- ١ -

بقلم تلميذه: حسن قاطرجي



لمحات من علمه وأدبه:

بادئ ذي بِدْء أعتذر من الله - جلّ جلالُه - عن الحديث أو الكتابة عن سيدي الشيخ رحمه الله، وما أصدق كلمة الإمام الحُجّة البحر أحد القُرّاء السبعة أبي عَمْرو بنِ العلاء البَصْري - مع أنه من التابعين -: «ما نحن فيمن كان قَبْلنا إلا كبَقْلٍ في أصول نَخْل طِوال» والتي سمعتُها من الشيخ رحمه الله أكثر من مرة في سياق المقارنة بين العلماء في العصور المتأخرة وبين علماء السلف الصالح. وأنا أحقّ بها وأجدر في مقامي من سيدي الشيخ تغمّده الله برضوانه وأنزل عليه شآبيب رحمته.

---

(١) نشرت بتاريخ: ٢٠٠٧/١/١٩م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com، ونُشرت من قبل في مجلة «منبر الداعيات» البيروتية.

أولاً: أكتب بعضَ ما أعرفه عن شيخنا رحمه الله وفي النفس حَسْرةٌ جامحة على جسامة الخسارة التي ألَمّت بالعِلم وبالعالم الإسلامي وليس ذلك من باب التوقّف في قبول قضاء الله تعالى، معاذَ الله، ولكنه أولاً للشعور الطبيعي عند فَقْد الأعزّاء. وثانياً: لأن خسارته ليست خسارة شخصية ولكنها خسارة عامة سرعانَ ما يحتاج الخاطرَ بحلولها ظلالُ نبوءات الرسول ﷺ: «...حتى إذا لم يبقَ عالمٌ اتخذ الناسُ رؤساءَ جُهّالاً فسُئلوا فأفتَوْا بغير علم فضلّوا وأضلّوا»، و«بين يدي الساعة سنون خَدّاعة... يتكلّم فيها الرُّوَيْبِضة: التافه يتكلّم في أمر العامّة».

إنني أستطيع أن أقول من خلال صلتي المباشرة بالشيخ والتلمذة عليه ومرافقتي له وصحبتي لشخصه الكريم طيلة ثلاث سنوات أثناء دراستي في كلية أصول الدين ـ قسم السُنّة وعلومها، بالرياض ـ فضلاً عن صلة المراسلة والتعلّق بكتبه منذ ما يزيد على (١٥) سنة، أستطيع أن أقول: لئن كان الشيخ رحمه الله يشاركه غيره من أهل العلم والدعاة في بعض الخصال بل ربما تميّز عنه بعضهم ببعض الجوانب العلمية أو الدعوية أو القيادية أو السياسيّة إلا أن سيدي الشيخ في تقديري قلّ نظيره في تعلّقه بالعلم واحتراقه في تحصيله والحرص على إتقان تحقيقه وفي حرصه على الأوقات بل اللحظات لئلا تضيع في غير العلم، كما أنه رحمه الله قلّ نظيره في أدبه حتى إن المعاشر له ليتعلم من أدبه تماماً كما يتعلّم من علمه. وفي هذين الجانبين سأحصر كلامي عنه رحمةُ الله عليه مع الحاجة الملحّة إلى ترجمة شاملة لحياته، واستعراض عام لمراحل سيرته، ودراسة تقويمية معمّقة للجوانب الأخرى من نشاطه في المجالات الدعوية والاجتماعية والسياسيّة، مما يتطلّب تضافر جهود عدد من عارفيه وإخوانه وأقاربه وتلامذته. وسيظل هذا الجهد أمانةً ثقيلة في أعناقهم لا يُعفيهم منها إلا أداؤها.

شواهد تفوّقه في العلم:

كثرة شيوخه:

ومما يشهد لقوّة تعلّقه بالعلم وتفوّقه في تحصيله كثرةُ شيوخه الذين تلقى عنهم فقد بلغوا (١٨٠) شيخ على ما أحصاه الأخ الشيخ محمد الرشيد

النّجدي ـ أحد خواصّ تلاميذ الشيخ ـ في كتابه «إمداد الفتّاح بأسانيد ومرويّات الشيخ عبدالفتاح»، علماً أنهم يتوزّعون على مساحة جغرافية مترامية الأطراف من بلاد الشام إلى مصر إلى الحجاز واليمن والهند وباكستان والمغرب، وهذا نادر جداً في عصرنا.

كثرة الكتب التي خدمها:

كما أنه يشهد لذلك كثرة الكتب التي خلّفها ـ ما بين تحقيق وتأليف ـ فقد بلغت حواليْ ٧٠ كتاباً من العلم المُصفّى المُحقَّق المُوثّق وليست مجرّد كتب إنشاء، وحتى في رسائله الصغيرة مثل «السنّة النبويّة وبيان مدلولها الشرعي» أو «منهج السلف في السؤال عن العلم وفي تعلّم ما يقع وما لا يقع» أو في مقدماته لكتب غيره مثل مقدمته الحافلة لكتاب «التعليق الممجّد» أو مقدمته لكتاب «شرح القواعد الفقهية» لا يأتي إلا بالممتع النافع مع التحقيق والتدقيق والإتقان. ولا يخفى على المتتبّع لكتبه أنه خصّ عدداً غير قليل منها في موضوعات العلم وتراجم العلماء مما يترجم أصدق ترجمة أحاسيسَه نحو العلم وشدة تعلّقه به وحُرقته على تحصيله، وهي:

١ ـ «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، ٢ ـ و«العلماء العُزّاب الذين آثروا العلم على الزواج»، ٣ ـ و«قيمة الزمن عند العلماء» والذي ذكر في مقدمته أنه حصيلة (٢٠) سنة من المطالعة والتجميع والانتخاب وأصله كلمة لمدة عشر دقائق ضمن محاضرة مشتركة دعت إليها كلية الشريعة بالرياض!!، ٤ ـ و«منهج السلف في السؤال عن العلم»، ٥ ـ و«الرسول المعلّم ﷺ وأساليبه في التعليم»، ٦ ـ و«تراجم ستّةٍ من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري».

حرصه على اقتناء الكتب ومعرفته الواسعة بمخطوطها ومطبوعها:

ويلمس كلُّ مَنْ يعاشر الشيخ أن له حُرقةً نادرة قلما نجدها عند كثير من العلماء فضلاً عن طلبة العلم على اقتناء الكتب ممّا جعله أحد المراجع المهمة في العالم الإسلامي في معرفة الكتب مخطوطِها ومطبوعها، ولقد

رافقته في بعض الزيارات إلى بعض المعارض وعاينتُ بنفسي نَهَمَه على اقتناء الكتب حتى ولو كانت عنده إذا اختلفت طبعاتها.

والجدير ذكره أنه يحرص على اقتناء الكتب في مختلف فروع الثقافة الإسلامية والعامة، ومن يقرأ في مقدمة كتابه «صفحات من صبر العلماء» كلامَه عن عجائب المخلوقات والكتب المؤلفة في ذلك والأخبار التي التقطها من مصادر شتّى يدهش لهذا التنوّع والغزارة والتتبُّع عنده رحمه الله ونفع بعلمه. كما أن له قصة من أطرف القصص وأغربها وأدلّها على ولعه بكتب العلم مع كتاب «فتح باب العناية» سَجّلها في مقدمة تحقيقه للجزء الأول منه كما سَجَّلها الدكتور السباعي رحمه الله في الجزء الثاني من كتابه «القلائد من فرائد الفوائد» جديرٌ بكلِّ طالب علم أن يقرأ خبرها لعلها تكون مِهْمازاً له.

مكتبته الضخمة:

وبهذه الحرقة وهذه النَّهْمة تكوّنت للشيخ مكتبة ضخمة قلّ أن يملك مثلَها أفرادٌ، وقد ذكر أحد أعرف تلاميذه به فضيلة شيخنا الأستاذ محمد عوّامة ـ فيما كتبه عن الجانب العلمي في حياة الشيخ رحمه الله وأرسله إليّ مشكوراً ـ أن إذاعة الرياض أجرت معه رحمه الله قبل نحو عشرين سنة مقابلة، سُئل فيها عن مكتبته فصرّح بعد إلحاح أنها تضمّ عشرين ألف مجلد!!. هذا في ذلك الوقت فكم يُقَدَّر حجمُها الآن؟!

حرصه على تحقيق مسائل العلم وإتقان البحث:

وممّا يتصل بحب الشيخ للعلم وتفوّقه في تحصيله حرصُه على تحقيق مسائله وإتقان البحث فيها والتدقيق في تجليتها وضبطها مما يُهمله كثير من العلماء في عصرنا ـ للأسف الشديد ـ ثم لا تقف ظاهرة الإهمال هذه عند حدّ التهاون في ضبط الكلمة وتحقيق معناها، بل تتعدّاها إلى التهاون في الفتاوى وتحقيق الحكم الشرعي فيقع الناس في الخبط وتكثر الفوضى في العلم. أما سيدي الشيخ رحمه الله فيكتب صفحات طويلة مثلاً ـ وهي عندي بخط يده الجميل المنسّق المرتّب ـ في الفرق بين الوَهْم والوَهَم، وكذلك

كتب صفحات طويلة في كتابه «الإسناد من الدين» من ص٥١ إلى ص٧٤ من أجل تتبُّع التحريف الذي وقع في كلمة واحدة فقط من عبارة للإمام عبدالله بن المبارك في فضل الإسناد، ونجد هذا النَّفس في الاستقصاء والتتبُّع فيما كتبه ابتداءً في تعليقةٍ ثم أخرجه في رسالة حول مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل.

تحسُّسه لأمانة العلم:

ولقد شهدت هذه الحادثة الدالّة على علوّ همّته وتحسّسه لأمانة العلم، وهي أنه رحمه الله أثناء حضورنا عليه قراءة كتاب «شرح ألفية العراقي» غاب مرتين متتاليتين بسبب السفر ثم حضر في المرة الثالثة فأخبرنا رحمه الله - وهو مَنْ هو في علم المصطلح - أنّه حضّر الدرس قبل مجيئه إلينا للمرة الثالثة!! وما كان للشيخ رحمه الله تعالى - في ظني - لَيَتأتى له ذلك كلُّه لولا توفيقُ الله الذي هو مفتاح الخير كلّه ثم حرصُه البالغ على استثمار الوقت، وهو ما يُفسِّر نبوغَه وتفوُّقَه وكثرةَ إنتاجه، مع الأخذ بالاعتبار مشاغل الشيخ الدعوية ومسؤولياته التنظيمية في العمل الإسلامي مما لا نجده عند السّواد الأعظم من المشتغلين بالعلم حيث يعتزلون العمل الدعوي ويتخفّفون من حمل هموم المسلمين للأسف الشديد، بل لقد كان رحمه الله صارماً في استثمار وقته صرامة وصيّة الشاعر:

كُنْ صارماً كالوقت فالمقْتُ في (عسى) وإيّاك (علاّ) فهي أخطر علّة

استفادته من وقته:

وحياته رحمه الله ترجمة صادقة لما كتبه في كتابه النافع الماتع: «قيمة الزمن عنده العلماء» الذي يجدر بكل عالم وطالب علم أن ينكبّ على قراءته والتمعُّن فيه مرة بعد مرة، كما يجدر بكل مسلم اقتناؤه وقراءتُه ليتعرّف على سرّ عظمة الحضارة الإسلامية وليفهم لُغز تفوّق علماء السلف وفضلهم على الخلف.

والشيخ في مجال استفادته من وقته في الانكباب على العلم نادرٌ عُجَاب، فما دخلت عليه مرة إلا كان موضوعَ الجلسة (العلم) قراءةً أو

مناقشةً أو مذاكرة، وكثيراً ما كنت أدخل إلى غرفته والكتب التي يشتغل بها مفتوحة مفروشة مملوءة بها الغرفة.

ولقد حدَّثني الأخ المحامي الطبيب الدكتور فؤاد العريس أنه قبل سنوات وكان لا يزال يتخصَّص في الطب في باريس جاء الشيخ رحمه الله إليها للمعالجة في عيونه وكان معه أستاذه العلاّمة الفقيه الشيخ مصطفى الزرقاء، فكان الأخ يرافق الشيخ أحياناً إلى المركز الطبي وفي السيارة يُخرج الشيخ كتاباً ويسلّمه إياه ويطلب منه أن يقرأ له بسبب ضعف بصره، بل أعجب من ذلك أنه أثناء معاينته للجهاز الذي كان يبحث عنه لاقتنائه ـ وكان من مزاياه أنه تُدخَل فيه الورقة فيُكبِّر حروف كلماتها أضعافاً مضاعفة ـ كان رحمه الله ينتهز الفرصة كلما واتت فيُخرج الكتاب ويُدخله في الجهاز ويستفيد ولو من لحظات للقراءة فيه.

مزايا علمه:

المزية الأولى: سَعَته وتنوّعه، ولقد جاء في ثنايا كلامي ما يدل عليها.

المزية الثانية: حرصُه على التحقيق والإتقان فيه، ولقد ذكرت العديد من الأمثلة على ذلك.

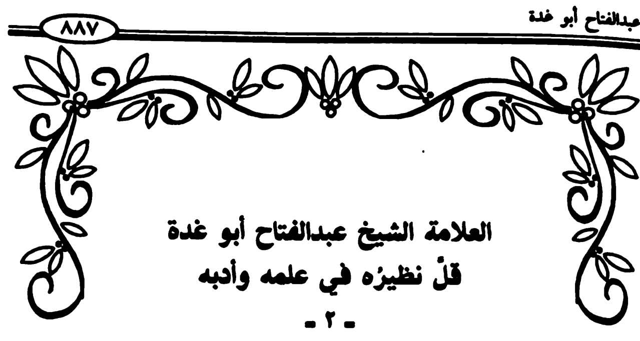
لاسيما تفوّقه في علم مصطلح الحديث وتجديده، فلقد كان للشيخ رحمه الله اهتمامٌ خاصٌ بهذا العلم ذلّل صعابه وخاض في عويص مسائله وحلّ معضلاته، وما تهيّب من تحقيق أصعب المسائل فيه.

ولقد عشت حوالَيْ شهر مع آخر كتاب حققه الشيخ رحمه الله في هذا العلم ونشره العام الماضي وهو من أوسع كتب المصطلح وهو كتاب «ظفر الأماني» للإمام اللّكْنوِي، وقبله كتاب العلاّمة طاهر الجزائري «توجيه النظر إلى أصول الأثر» حيث كلفني الشيخ بقراءتهما قبل دفعهما للطباعة فأتى الشيخ فيهما بكل ظريف طريف وضمّنهما تحقيقات ماتعة رائعة مُدهشة تشهد لرسوخه في هذا العلم وإتقانه له. وممّا يدل على ذلك أيضاً أنه حقق (١٢) كتاباً من كتب هذا العلم و(١٢) رسالة، كما ألّف هو في بعض مباحثه كتاب «لمحات من تاريخ السُّنّة وعلوم الحديث» بالإضافة إلى أربع رسائل متنوّعة في علوم الحديث.

المزية الرابعة: إنصافه واستفادته من الجميع، فهو غير متعصّب إلا لما يراه صواباً، ويحرص على أن يدور مع الحق والدليل حسبما يرى، ولذلك أخذ من شيوخ مُتعدّدي المشارب العلمية. ولكنه مع إنصافه لا يُحابي في دين الله ولكنْ بأدب جمّ وتواضع مع شيوخه وإخوانه وكالأسد الهصور مع أعداء الدين. فنجده يخالف شيخه العلاّمة مصطفى الزرقاء في بعض الفتاوى مع أنه شديد الاعتداد به والإعجاب بعقليته، ونجده يخالف شيخه العلاّمة محمد زاهد الكوثري في جفوته لابن تيمية وابن القيّم ويحقّق رسالتين للأول وكتاباً للثاني بإعجابٍ بهما وثناء، وترحُّم عليهما مع أنه يخالفهما في عدد من المسائل في الأصول والفروع، ولا تخفى منزلة الكوثري رحمه الله عنده وأثره فيه. وحدّثني مراراً عن بعض تساهلات العلامة الفقيه القرضاوي في فتاواه، وأنه في أحد المؤتمرات ردّ عليه علناً في مسألة مصافحة المرأة حيث يُجيزها القرضاوي مع أنهما من مدرسة فكرية وحركية واحدة. كما نجد أنه في سياق إشادته بشيخه العلاّمة المحدّث أحمد شاكر في مقدمة تحقيقه لكتاب «تصحيح الكتب وصنع الفهارس» يبيِّن في التعليقة أنَّ شيخه مجانب للصواب في كتابه «نظام الطلاق في الإسلام».

وفي المقابل يكتب بلغة صارمة ضدّ مفسدي الدين وأعدائه فيتحدث - مثلاً - في كتابه «المحات» عن المُتملِّقين للحكام بالباطل في كل عصر ومِصْر، وأنهم مرض وخيم في جسم الأمة وبلاء عظيم في حياتها وقال فيهم: فاقدو الذمة، في دينهم رِقّةٌ وضَعْف، يحبون دنياهم ويؤثرونها على دينهم... ويقدمون لهم - بحسب ذمتهم - من النصوص الشرعية ما يؤيدهم فيما هم عليه من ظلم أو لهو أو بطالة أو فساد.

وفي ثنايا ترجمته الحافلة الواسعة لعبقريّ الزمان والمدافع عن الإسلام في وجه الكمالية العلمانية: سعيد النُورسي، وذلك في كتابه «العلماء العُزّاب» رمى رحمه الله سهامَه الحادّة صوب صدر الطّاغوت آتاتورك - كما وصفه - والكماليين والعلمانيين. فجزاه الله عن أدبه وإنصافه خيراً وعوّضه عن غَيْرته وكفاحه من ثواب المجاهدين ذُخراً.



العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة قلّ نظيرُه في علمه وأدبه

ـ ٢ ـ

بعد الكلام عن علم شيخنا ـ رحمه الله وأثابه رضاه ـ أتحدّث في هذا المقال عن أدبه الجمّ الذي يستذكر به جليسُه سِيَرَ وأخلاقَ الصالحين من السلف الكرام رضي الله تعالى عنهم.

وأنا لا أتحدث عن مستوىً من الأدب الذي لا بد أن يتوفّر في العلماء والدعاة، وإنما أتحدث عن مستوى مُتفوِّقٍ فريدٍ قلّ نظيره بين علماء عصرنا ـ فيما أعلم ولا أزكّي على الله أحداً ـ إلى الحدّ الذي يأسر به الشيخ رحمة الله عليه جليسَه ويأخذ بمجامع إعجابه فينتقل إلى عالَمٍ آخرَ لا نعهده حتى في مجالس كثير من العلماء فضلاً عن مجالس مشايخ السوء الذين لا همّ لهم إلا النفاق والتزلُّف ولا حديث لهم إلا في المناصب والمكاسب.

وينطبق على سيدي الشيخ رحمه الله ما كتبه هو في إحدى تعليقاته الحافلة المغذِّية المُحفِّزة على «رسالة المسترشدين» للإمام المحاسبي ـ ص١٠٢ من الطبعة الثامنة ـ حيث يقول: «ورؤية الرجل الصالح القدوة إنما تذكِّر بالله، لما يُرى عليه من النور والإشراق، والأُنس والطمأنينة، والمحبة والسكينة، في سَمْته وهيئته وخَشعته، في نُطقه وصَمْته وإطراقه وحركته وسكونه وكل شؤونه، فلا ينظره ناظر إلا كان نَظَرُهُ إليه مُذكِّراً له بالله، وكانت صورته مُوجِّهة له للإقبال على الله، أولئك الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله».

وكلُّ مَنْ رأى الشيخ رحمة الله عليه يعرف أنه مَهيبُ الطلعة، ناهضُ القامة، مُنوَّر الوجه، كَسَاهُ الشَّيْب إشراقاً ووقاراً، وانعكس اشتغاله بذكر الله وإجلاله وتعظيمه على وجهه صفاءً واستبشاراً، ولا أبالغ إذا قلت: إنه رحمه الله تُذكِّر بالله رؤيتُه ويَنْهض بجليسه حالُه ومقالُه.

اعتناؤه التامّ بالأدب تعليماً وتطبيقاً:

ولقد تأتّى للشيخ رحمه الله ذلك من اعتنائه التامّ بالأدب حتى لكأنّ (الأدب) يتقاطر منه، وليس هذا الكلام من قبيل المبالغات والمجازفات فلست ـ بفضل الله تعالى ـ ممَّن يحبّ المبالغات في حقّ الشيوخ ولا ممَّن يقدّسونهم، بل أذكر ذلك وأرى أنّ هذه النظرة من قِبَل بعض طلاب العلم وتلاميذ الشيوخ انحراف عن سَنن التربية الإسلامية، ومُؤشّر للتخلُّف وللجمود والانهزامية، يستغلّها تجارُ المَشْيَخة أبشع استغلال في تعظيم ذواتهم أو الانحراف بتلاميذهم في الولاء للباطل وتمجيد الطواغيت.

واعتناؤه التامّ بالأدب يظهر فيما بثّه في كتبه العديدة من الإشادة بأدب السلف وسرد حكايات أدبهم، ومن يلحظ هذا الجانب من اهتمام الشيخ رحمه الله يشهد لبراعته ومهارته في انتقاء روائع أخبار أدب العلماء والصالحين.

فالشيخ رحمه الله كتب رسالةً ماتعة ممتعة بعنوان (من أدب الإسلام) ضمّنها جملة من الآداب، وقال في أوائلها: «وهذه الآداب المذكورة هنا من لُباب الشريعة ومقاصدها، فليس معنى تسميتها (آداباً) أنها على طَرَف الحياة والسلوك يُخيَّر الإنسانُ في فعلها وتركها، أو الأَوْلى فعلُها. قال الإمام القَرَافي في كتابه «الفروق» وهو يتحدَّث عن موقع الأدب من العمل وبيان أنه مقدَّم في الرتبة عليه: واعلم أن قليل الأدب خير من كثير من العمل، ولذلك قال رُوَيْم ـ العالمُ الصالحُ ـ لابنه: يا بُنَيّ اجعلْ عملَك مِلْحاً وأدبكَ دقيقاً. أي: استكثر من الأدب حتى تكونَ نسبته في الكثرة نسبةَ الدقيق إلى الملح في العجين».

فأين هذا مما عليه أهل الأهواء المنافقون الذين ينسُبُون أنفسهم إلى العلم ويتظاهرون بالحرص على نشر العلم الضروري!! وهم محرومون من بهاء العبادة وبركة الالتزام بالسُّنَّة وفقه (الولاء والبَرَاء) ولا أدب عندهم مع العلماء، بل دأبهم التطاول عليهم وتكفير أهل السابقة منهم في مَيْدان الجهاد وقول الحق وجرأة المناداة بتحكيم الشريعة الإسلامية.

وكذلك له ـ رحمه الله ـ كنوز منثورة من حكايات الأدب الرفيع والخُلُق النبيل عن الصَّالحين والعلماء الربانيين تطفح بها تعليقاته على «رسالة المسترشدين» للإمام المُربِّي الحارث المحاسبي، بالإضافة إلى اعتنائه بنشر قصيدة (عنوان الحِكَم) لأبي الفتح البُسْتي وهي من غُرَر القصائد في الآداب والأخلاق والنصائح الحكيمة الغالية. هذا كله من حيث الاعتناء بالتعليم، أما التطبيق فيظهر في شخصية الشيخ في مختلف جوانبها:

١ ـ أدبه مع الله تعالى:

في كثرة ذكره له سبحانه وتعالى، حتى إنني أتذكَّر الآن أثناء كتابتي هذه السطور تلك الأوقات المباركة التي كنتُ أقضيها معه أثناء اصطحابه رحمه الله تعالى في بعض الأحيان بسيّارتي من (الدُّخنة) إلى مكان الدرس في (العُلَيّا) في الرياض أثناء حضوري عليه قراءة: (ترجمة الإمام مسلم) من سِيَر أعلام النُّبَلاء للإمام الذهبي، ثم (مقدمة صحيح مسلم)، ثم (مقدمة ابن الصلاح)، ثم (شرح ألفية العراقي)، فكان ـ رحمه الله وأغدق عليه رضوانه ـ إذا لم نتباحث بالعلم يلهج لسانُه بالأذكار ولا يَفْتُر عن الثناء على الله وتعظيمه. وتعبيراً عن حرصه على الأدب عند ذكر الله تعالى كتب تعليقة طويلة على «رسالة المسترشدين» ـ ابتداءً من الصفحة ١١٢ من الطبعة الثامنة ـ حول أدب ذكر الله والتحذير من بِدَع الذكر والتي منها بدعة أولئك الذين «يذكرون اسم الله سبحانه، في أوّلِ دَوَرانِ حلقاتهم بلفظٍ هادئ، مفهوم ثم يُسرعون بالذكر والخَلْع والوثب حتى لا يُفْهَم عنهم ما يقولون! فما هي إلا أصوات تنخفض وترتفع، وأنفاس مبهورة تشتدّ وتندفع وترتفع، وأنفاس

مبهورة تشتدّ وتندفع، وهمهمة تتردّد، وحركات تتجدّد، ويَعُدُّون ذلك ذكراً لله! فإنا لله ـ من قلة الأدب مع الله ـ وإنا إليه راجعون» كما قال بالحرف رحمه الله تعالى.

بالإضافة إلى بكائه إذا ذُكِر بالله أو غَيْرةً على حُرمات الله أو إذا سمع كلماتِ مدح وثناء. والذي يعرف الشيخ رحمه الله تعالى لا يستغرب وصفي له بأنه (بكّاء سريع الدَمعة)، وفي ذاكرتي العديد من الذكريات ولكن أقتصر هنا على قصتين:

الأولى: عندما حضرت شريط فيديو تكريمه الذي حصل في (اثنينيّة) السّرِي الحجازي عبدالمقصود خوجة بتاريخ ١٤١٤/١١/١٤ في جُدّة استمعت إلى قصيدة لشاعر المدينة المنوّرة ـ الحلبيّ الأصل ـ محمد ضياء الدين الصّابوني يُعدِّد فيها مزايا الشيخ ويُثني عليه وعلى مقامه العلمي الرفيع حتى شبّهه بالإمام أبي حنيفة، فما كان من الشيخ رحمه الله إلا أن انفعل وغضب وأبدى بعد إلقاء القصيدة عدم رضاه عن هذا التشبيه وأنه دون ذلك بكثير واغرورقت عيناه بالدمع. لا مسَّتْهما النار إن شاء الله، اللهمّ آمين.

والثانية: ما قرأته في الحوار الذي أجرته مجلة المجتمع معه قبل وفاته ـ طيّب الله ثراه وجعل الجنة مُتقلَّبَهُ ومَثْواه ـ ثم نَشرَتْه في ٢٥ شوال/ ١٤١٧هـ، العدد ١٢٤٠، حيث نقل محاوِرُه كلامَه رحمه الله عن أحد الحُكّام الصالحين وهو الملك نور الدين الذي كان يُدني العلماء من مجلسه كلَّ يوم ويُقرَأ الحديث فيه، ولمّا حُوصرت مدينة (دِمْياط) من قِبَل الفرنج وكان في مجلسه صديقُه العالم المحدّث عمر بن بدر المَوْصلي رحمه الله، فقرأ عليه الحديث المسلسل بالتبسُّم ـ أي: كل من رواه من الرواة تبسّم فصار مُسَلْسَلاً بالتبسُّم ـ وطلب هذا العالم من الملك أن يبتسم حتى يستمرَّ تَسَلْسلُ التبسُّم في الحديث. قال له الملك: لا أتبسّم! فسأله: لماذا؟ قال: كيف أتبسّم و(دمياط) مُحاصَرَة من الفرنج؟!

هنا قال محاوِرُه الصحفي: تأثّر الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله

بموقف الرواية وسال دمعه!! فسبحان الله! ما أندر هؤلاء العلماء الصالحين الغَيَارى على دين الله! وما أفدح خسارتهم! أما مَوْتى القلوب وعبيد المناصب الذين لا يَنْبض منهم عِرْق غَيْرة على دين الله فما أحراهم بالاستيقاظ من غفلتهم. وأما أنت يا سيدي الشيخ فطِبْ مُقاماً في مثواك المبارك قريرَ العين.

تحرِّيه الشديد في العبارات التي تقال في جَنْب الله:

ومن شواهد أدبه مع الله: تحرِّيه الشديد في العبارات التي تُقال في جَنْب الله عزَّ وعلا، حتى كتب مقالةً مشهورةً منشورةً في مجلّة الأمّة القطرية بعنوان (تعبيرات خاطئة في جنب الله) تتبّع فيها بعض الأخطاء الشائعة في كتابات بعض العلماء والكُتّاب ممّا لا يليق بالله تعالى، كما أنّ له فتوى مشهورة ـ ألحقها بكتاب رسالة المسترشدين ـ في عدم مشروعية قول الذاكر: «الحمد لله حمداً يُوافي نِعَمِه ويُكافئ مزيده» لأنه لم يثبت نقلاً ولا يصح معنًى إذ ليس أحد من الناس يكون حَمْدُه بالغاً نِعَم الله عليه ولا مكافئاً لمزيد فضله إليه.

تنبيهه إلى كلمات لا يجوز أن تقال في حقِّ الله تعالى أو رسوله ﷺ:

وبالمناسبة ونصيحة للقراء والقارئات أنبّه إلى أنه لا يجوز قول: العصمة لله، وإنما نقول: الكمال لله، أما العصمة فهي للأنبياء، ولا يجوز قول: عدد كمال الله، كما أفتى بذلك عدد من كبار محقّقي العلماء، وكذلك لا يجوز قول: أعشق الله أو رسول الله، علماً أن (العشق) لم يَرِد في القرآن ولا في كتب الحديث الستة ولا في مسند الإمام أحمد إلا في موضع واحد فيه في حقّ العابد الذي عشق امرأة.

٢ ـ أدبه مع العلماء:

والشيخ مؤدّب غاية الأدب مع العلماء، وعلى رأسهم سيّدُ العلماء سيّدنا محمد ﷺ، ثم أصحابه السادة العلماء، ثم علماء السلف رضي الله عنهم، وما أروع ما كتبه وقرّره في رِفْعة مقام النّبيّ ﷺ وشَرَف منزلته

وعدالة صحابته وتأثرهم بتربيته في تعليقه على «رسالة المسترشدين» ـ ص١٨ و ١٩ـ وأسهب فيه في كتابه «لمحات من تاريخ السّنة وعلوم الحديث» ـ من ص٣٣ إلى ص٥٥ من طبعة دار البشائر الإسلامية الرابعة الجديدة ـ، فَلْيُقْرَأْ فإنه من العلم النافع والتحقيق النادر.

ويقول رحمه الله في تعليله اكتساب الصحابة الكرام الصلاح والأدب والتقوى من جرّاء صُحبة النّبيّ ﷺ: «إذا رأى أحدُنا في هذه الأزمنة المتأخّرة عالماً صالحاً تقياً صارت رؤيتُه له ـ ولو لحظةً أو دقائقَ معدودةً ـ غِذاءً يتطعَمُهُ يتَمَطَّق بطعمه طول حياته، ويدفَعُه إلى الخير والطاعة كلما ذكره، فكيف برؤية سيّد الخلق والأنبياء والمرسلين ﷺ فِداه أبي وأمّي. وإنما أطلتُ بعضَ الشيء في بيان فضل (الصُحبة الشريفة) لأن هذا الموضوع ـ بتكدُّر العقول والقلوب بالأفكار الضالّة ـ صار ضامراً في أذهان بعض الناس اليوم فاقتضى مني الإطالة» انتهى كلامه رحمه الله. وكتابه الطّريف «الرسول المعلّم ﷺ وأساليبه في التعليم» مرآة صافية لأدبه العالي الرفيع مع جناب سيدنا رسول الله ﷺ.

أدبه مع السلف الصالح وغَيْرته عليهم:

ومن شواهد أدبه مع السلف الصالح وغَيْرته عليهم: أنه لمّا خشي أن يظنَّ القارئ ممّا أورده من أخبار العلماء الفحول في سَعَة علمهم وكثرة مؤلّفاتهم في كتابه «قيمة الزمن عند العلماء» أنهم أعلم من السلف، كتبَ أكثر من صفحتين ـ ابتداءً من ص٩٠ من الطبعة الخامسة ـ في بيان أفضليّة السلف وأعلميّتهم.

أدبه مع شيوخه:

أما أدبه مع شيوخه فعَجبٌ عُجاب، إذ لا يذكرهم إلا مع الترحُّم عليهم والدعاء لهم مُطبّقاً وصية الإمام الفقيه العابد العلاّمة أبي محمد رِزق الله التميمي الحنبلي المتوفّى عام ٤٨٨هـ حيث يقول: (يَقْبُحُ بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحّموا علينا).

أدبه مع شيخه مصطفى الزرقاء:

فمثلاً من دقائق أدبه مع شيوخه ما حدثني به الأخ الأثير، الداعية الطبيب، الدكتور فؤاد العريس من أن الشيخ رحمه الله عندما جاء إلى باريس طلباً للعلاج ـ كما في القصة التي نقلتُها عنه حفظه الله ـ كان بصحبة شيخه العلاّمة فقيه العصر مصطفى الزّرقاء، وكانا ينزلان في أحد فنادق باريس، فكان يزورهما الأخ في غرفتهما فيرى من أدب الشيخ رحمه الله ولُطفه مع شيخه وخدمته له ما يُدهش!! ومن ذلك أنه كان يسابق شيخه للإتيان بنعليه وصَفِّهما قُرب سريره مع أنه كان في سنٍّ يقارب الخامسة والسبعين.

ولا يُسْرِعَنّ إلى ذهن القارئ أن الشيخ الزرقاء من أولئك مُمْتَهِني المشيخة الذين يستذلّون تلاميذهم في خدمتهم أو مدّ يدهم لتقبيلها ولو قبل قدوم أحدهم بُعْد أمتار أو مدّ رجلَيْهم لخلع الحذاء أو إلباس الجَوْرَبَيْن... ولا سيِّدي الشيخ من أولئك السُّذّج المُخدَّرين... كل ما هنالك: أدب من التلميذ بمبادرةٍ منه للإكرام والوفاء بالجميل مع تحفُّظ العالِم وامتناعه وخَجَله. بل أقول: إن شيخنا ـ يَشْهَدُ اللّهُ ـ كان إذا ما أقدم أَحَدُنا بعد غياب طويل عنه ليقبّل يده ـ علماً أنه بالنسبة لنا كالجَدّ ـ جذبها ممتنعاً بشدّة.

تقبيله يد أهل العلم والفضل والصلاح:

ومن شواهد أدبه أيضاً: أنه كان يُقْبل بلهفة لتقبيل يد من يعرف فيهم العلم والفضل والصلاح كما رأيت بعينَيَّ في إحدى المرات ـ على ما أذكر ـ في مشهد من أروع مشاهد الأدب والتواضع إقبالَه بشَغَف عندما قابل في أحد ممرات كلية أصول الدين شيخنا العلامة الصالح المنوّر عضو جماعة كبار العلماء في مصر الشيخ محمد عبدالوهاب البُحَيْري ليقبّل يده، رحمة الله عليهما ونوّر مرقَدَيْهما.

غُرر الفوائد وروائع الحكايات في مقدمة «رسالة المسترشدين»:

ولشدّة اهتمام الشيخ رحمه الله بضرورة الاعتناء بالأدب مع الشيوخ

كتب صفحات طويلةً في تقدمته الثانية لرسالة المسترشدين، فيها غُرَر من الفوائد وروائعُ من الحكايات والفوائد، فلْتُقْرَأ فإنها من الغنائم. ولكن أذكر من هذه الروائع واحدةً ممّا انتقاه الشيخ رحمه الله تعالى وهي قصة الإمام الجليل إمام أهل السنّة أحمد بنِ حنبلٍ عندما كان متّكئاً من مرضٍ ولما ذُكر إبراهيم بن طَهمان ـ أحد العلماء الصُلَحاء ـ استوى جالساً وقال: (لا ينبغي أن يُذكر الصّالحون ونحن متّكئون).

٣ ـ متفرّقات من أدبه المُدْهش:

وبما أن صفحات أدب الشيخ رحمه الله هي سِجِلُّ حياته كلّها لا يتّسع المقام لسردها جميعها، فضلاً عن أنّ ما أعرفه نقطة من بحر ما يعرفه عنه عارفوه ممن أطالوا صحبته، وعلى رأسهم تلميذه الأجلّ شيخنا العلاّمة محمد عوّامة الذي تمتدّ صلتُه به واستفادته منه حواليْ أربعين سنة، وأخي الغالي الأثير العالِم الداعية الشيخ مَجْد مكي، والأخ الشيخ محمد الرشيد، بالإضافة إلى سائر عارفيه وخاصّة أهله، ممّا يستحقُّ أن يُجمع لإحياء خُلُق (الأدب) المفقود في حياة أكثر المسلمين اليوم.

فما أكثر العقوقَ حتى مع الآباء والأمهات! وما أبشعَ الخياناتِ حتى مع الأصدقاء والأقرباء! وما أوسعَ انتشارَ الكذب حتى في صفوف المُتصدِّرين للدعوة! وما أسهلَ على كثير من المتديِّنين وأصحاب العمائم التفريطَ حتى بأمانة الكلمة وأمانة الموعد وأمانة المال فضلاً عن أمانة نشر العلم وإقامة الدين والدعوة إلى الله! فإلى الله المشتكى وأعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر، ومن الخيانة بعد الاستقامة، ومن الخذلان بعد السداد.

وإذا كان ما لا يُدرك كله لا يُترك قُلُّه فإنني أختم الكلام عن أدبه الجمّ بهذه الأخبار المُدْهشات:

حرصه على زيارة الدكتور محمد حميد الله وشكره على صنيعه القديم:

القصة الثالثة التي حَدّثنيها الأخ الطبيب فؤاد العريس، وهي أنه أثناء صحبته للشيخ رحمه الله في باريس طلب شيخنا معرفةَ مكان إقامة الدكتور

العلاّمة محمد حميد الله الهندي الذي يَعرف عنه أنه مقيم في باريس وبعد لأيٍ ومشقّة وطول سؤال اهتدى الشيخ رحمه الله ومَنْ معه من الشباب إلى منزل هذا العالِم الهندي الذي يُؤثر العُزْلة ويُقيم مع كتبه للبحث العلمي في منزلٍ متواضع جداً على سطح مبنى قديم رقم ٦ في شارع لوكسمور في باريس، فصعِدوا إليه فإذا به يعيش حياةَ زُهدٍ وتَقَشُّف يشغل وقته في العلم والعبادة، ولوحظ أن الدكتور حميد الله سَمْعَه ضعيفٌ جداً ومن جهته الشيخ رحمه الله يعاني من ضعف بصره، فصارا يتخاطبان بصعوبة ويستعين الشيخ بالإشارة، وإذا بالأخ يُدرك أنَّ الشيخ رحمه الله ما تكبّد هذه المشقات وألحّ على السؤال عن مكان إقامة هذا العالم الهندي إلا ليشكره على خدمةٍ أسداها إليه قبل أكثر من عشر سنوات تتعلّق بإحدى المخطوطات. ولما لم يكن الأخ الدكتور ضابطاً لتفاصيل الموضوع إذ مضى على الحادثة أكثر من ستّ سنوات وأنا عالق في ذهني أن الشيخ رحمه الله سَجّل هذه الخدمة في أحد كتبه رجعتُ إلى عددٍ منها أقلّب صفحاتها حتى عثرتُ على الخبر في مقدمته لكتاب «الموقظة» للإمام الذهبي رحمه الله حيث يقول عن نسخة الكتاب الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس ما يلي: (وكنتُ رجوتُ من الصديق المفضال العلاّمة الدكتور محمد حميد الله، المقيم في باريس حفظه الله تعالى ورعاه، أن يتكرّم فيصوّرها لي، فوجد أمر التصوير يتأخّر قليلاً، فتفضّل بنسخها لي بقلمه وخطّه ثم قابلها بالأصل، وأثبتَ عليها ما على حواشي الأصل من تعليقات وبعث بها إليّ مشكوراً متكرّماً في ١٨ ذي الحجّة ١٣٩٩، فله أجزل الشكر والثناء والتقدير على هذه المساعدة العلمية الكريمة). هذا ما كتبه في مقدمة الكتاب مؤرّخاً في ٢٣ من شوال ١٤٠٤هـ. ومشتملاً على الشكر، ومع ذلك وبعد حوالَيْ اثْنَتَيْ عَشْرة سنة ينتهز فرصة وجوده في باريس ويُلحُّ على مقابلة الدكتور حميد الله ولو تكبّد المشاق وعلى كِبَر سنّه وانشغاله بالعلاج، فقط ليُسدي له الشكر .الله أكبر ما أندر هذا الوفاء! وما أعزّ هذه الأخلاق! وما أقسى قلوب كثير منا بطغيان حب الدنيا والجاه وغلَبَة الحسد عليها حتى من أناس نعيش معهم سنوات طويلة ونظنّهم من المُقرّبين ومن أخصّ المُحبّين فإذا بالحقيقة تتكشف

ويفتضح فيهم خُلُق التعامل بوجهين، وتكشف الأيام عن انطواء قلوبهم على داء الحسد المُقيت فلا يراعون ليس فقط وُدّ لحظة ـ كما يَفترض الإمام الشافعي في أخلاق الأحرار ـ بل وُدّ سنوات ورفقة عمر في العلم أو في طريق الدعوة. فإلى الله المشتكى.

زيارته للأخ حسن قاطرجي في بيته وتواضعه ولطفه:

قصة أخرى تدلّ على تواضعه وهضم نفسه. فقد دعوتُه مرة إلى الطعام في منزلي في الرياض في السكن الجامعي للمتزوِّجين في (الدخنة) وهو الحيّ الذي كان يسكن هو فيه أيضاً، فدق الباب بمنتهى اللطف وسألَتْ أهلي: من؟ فإذا صوت الشيخ الرقيق: عبدالفتّاح. هكذا وحسب، من دون ألقاب ولا فخفخات. فأسرعتُ إلى الباب وفتحتُه فدُهشت أنه وحده لا خادم ولا مرافق وهو مَن هو في علمه ومكانته القيادية في العمل الإسلامي!!

نفرته من التوسُّع بالألقاب:

ومقابل هذا الأدب الجمّ والتواضع الرائع كم يستاء أحدنا عندما يشاهد في أوساط طلاب العلم المبتدئين وبعض المُعمَّمين الذين هم في العلم لا في العِير ولا في النَّفير كما يُقال: إسراعَهم في لُبْس زِيّ المشيخة الرسمي (الجُبّة والطربوش الأحمر تلفّه العِمامة) ثم إذا عرّفك أحدهم عن نفسه على الهاتف أو فيما يكتب إليك فلا بد من أن يذكر (الشيخ) فلان!! بل أحياناً (فضيلة الشيخ) فلان، وإنني لَتَتملكُني الدهشة من أدب الشيخ رحمه الله وتواضعه أنه طوال سنوات تعرُّفي عليه وفي كل رسائله إليّ ومكالماتِهِ الهاتفية لم أسمع منه ولم يكتب إليّ ولا مرة (الشيخ عبدالفتاح).

بل لما كتب إليه شيخه العلاّمة العالم الصالح أحد أئمة العصر مفتي مصر سابقاً ـ أيام كان يتولى منصب الإفتاء فيها الأئمة العلماء الصّالحون!! ـ فضيلة الشيخ حَسَنَيْن مخلوف تقريظاً لخدمته رسالة المسترشدين وافتتحه بقوله: (إلى أخي وصديقي الأستاذ العلاّمة المحقق الشيخ عبدالفتاح أبي غدة

أدام الله توفيقه)، فإذا بسيدي الشيخ رحمه الله يعلّق أسفل الصفحة: (قال عبدالفتّاح: هذا من تواضع شيخنا وسُمُوّ أخلاقه العالية الرفيعة فإني منه بمنزلة الوليد من الجَدّ المجيد...) فرَحمات الله عليه ما أروع أدبَه!!

ذوقه الرفيع وحسُّه الرقيق:

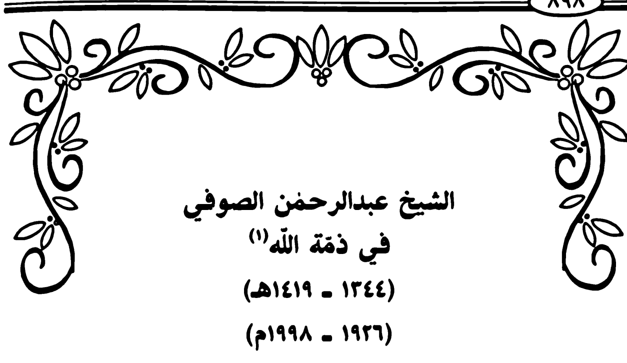
وبعد، فهذا غيْض من فيْضِ أدب الشيخ، ولا أدري إن كنتُ نجحتُ في التعريف بِنزرٍ من أدبه الرفيع، وفي تمكين القراء والقارئات الذين لم يتشرّفوا بصحبة الشيخ رحمه الله من تخيُّل طَيْفٍ من هذه الشخصية العظيمة في جانبها العلمي وجانبها الأدبي، وإن كان لا يزال عندي كلام كثير في جانب مهم من أدب الشيخ رحمه الله وهو ذوقه الرفيع وحسُّه الرقيق الرفيق في النظافة والضيافة، وفي الترتيب واختيار الألوان وتناسق الأشياء، وفي عنايته الفنية والجمالية بكتبه، وفي اهتمامه بالكتاب وأدبه معه مما لا أعرفه إلا عند شيخ آخر من شيوخي رحمهم الله: شيخ القُراء في لبنان العلاّمة حسن دمشقيّة، وفي مَلْبسه وأناقته من دون اختيال ولا بطر، وفي مخاطباته ورسائله، ممّا لا يَسَع العارف بذلك كلّه إلا أن يعترف أنه فضل الله وتوفيقه، وآية من آيات عظمة دينه الذي يطبع الصادق المخلص فيه بهذا الطابَع النموذجي الفريد الذي يرفع الرأس ويُظهر عظمة الإسلام، ويكشف سرّ دخول الناس في تاريخنا المجيد أفواجاً في دين الله.

فاللهمّ أعظِمْ لشيخنا ثوابَه، ولا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعدَه، واخلُفْنا مثلَه، إنك وليُّ ذلك والقادرُ عليه، اللهمّ آمين[١].

□□□□□

---

(١) يُنظر في ركن العلماء في موقع (الإسلام في سورية): نماذج من رسائل العلماء وأدبهم العلمي، فيه ست رسائل من الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، لبعض شيوخه، جمعها ورتبها وقدّم لها كاتب هذه الكلمات وجامع هذه التراجم، العبد الفقير مجد مكي.



الشيخ عبدالرحمٰن الصوفي في ذمّة الله[1]

(١٣٤٤ - ١٤١٩هـ)

(١٩٢٦ - ١٩٩٨م)



بقلم الدكتور: نبيل الطويل

اختار الله إلى جواره منذ أيام أخاً كريماً، وصديقاً عزيزاً، وخِلاً وفيّاً، وناصحاً صادقاً، ومُوجّهاً مُخلصاً، هو المهندس الزراعي الأستاذ المربّي عبدالرحمٰن الصوفي. ومثل الكثيرين من أحبّاء الله فقد قضى عبدالرحمٰن في الديار المُقدّسة، بنوبة قلبية حادّة بعيداً عن مسقط رأسه وملعب فتوّته ودار شبابه.

كان عبدالرحمٰن حتى آخر يوم من عمره في هذه الدنيا الفانية مثلاً ومثالاً للمؤمنين الصالحين والعاملين المخلصين والأتقياء الأخفياء، وكانت الأخلاق الرفيعة والنفس الرضيّة والتواضع الجمّ تُزيّن ذكاءه واجتهاده على مقاعد الدرس وفي الحياة العملية.

---

(١) مجلة الأمان اللبنانية، العدد ٣٣٩، كانون الثاني ١٩٩٩.

في الدراسة الابتدائية والمدرسة الرسميّة:

ترافقنا في المدرسة الابتدائية لجمعية المساعي الخيرية الإسلامية باللاذقية، وتتلمذنا ـ سوياً ـ على أيادي معلّمينا الأوائل كالشيخ جميل حجّار، والشيخ وجيه محمودي رحمهما الله رحمة واسعة، ثم انتقلنا في أواخر الثلاثينيات إلى المدرسة الرسمية، حيث نلنا الشهادة الابتدائية، ثم درسنا هناك على أيدي الراحلين الأساتذة: محمد علي نتيفة، وخالد فاروسي، وخالد كيّال، وعازار شرشر، والأب أنطون ديب، وغيرهم.

في ثانوية التجهيز الرسمية وتفوُّقه وابتعاثه:

وافترقنا في الدراسة المتوسطة أربع سنوات لنلتقي سوياً في ثانوية التجهيز الرسمية، وكان «أبو محمد» رحمه الله وأجزل ثوابه الأوّل في الصف دائماً، كذلك كان الأول على دورته في سائر القطر السوري في امتحان شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا الموحّدة)، فابتُعث إلى مصر، حيث درس الزراعة في جامعة القاهرة ـ جامعة الملك فؤاد آنذاك ـ على نفقة الدولة، ونال شهادة الهندسة الزراعية بامتياز.

كنت أحاول دائماً اللحاق به في مستوى الدراسة، وأسعى جاهداً أن أكون على شاكلته في السلوك في المدرسة وخارجها، فلقد بقي أبو محمد المؤمن الذي «يألف ويُؤلف» كما رُوي عن الرسول الكريم ﷺ[1].

في أيام الانتداب الفرنسي:

تزاملنا في الصفوف الابتدائية والثانوية، وترافقنا في فترات الاستجمام في الرياضة: سباحة ورحلات، وتعرّضنا مع رفاق آخرين مرّتين في عام ١٩٤٥ (آنذاك) ـ لوابل من رصاص جنود الانتداب الفرنسي، الذين قُتلوا في

---

(١) أخرج أحمد (٩١٩٨)، والحاكم في «المستدرك» ١: ٢٣، والبيهقي ١: ٢٣٦ من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» والحديث حسن.

بلدتنا الصغيرة في يوم واحد أكثر من خمسة عشر شهيداً من المدنيين الذين وافق مرورهم في شوارع المدينة، حين فتح الجنود المرتزقة نيران بنادقهم ورشاشاتهم بصورة عشوائية. . . هكذا ودّع (الانتداب) الفرنسي شعبنا في الوطن الحبيب قبل أن يجلو مُرْغَماً بعسكره عام ١٩٤٦.

تأثير الأستاذ محمد المبارك:

كنّا ثلاثة طلاّب: أبو محمد، وأنا، وزميل ثالث ـ اختار بعد ذلك طريقاً آخر ـ عندما رحّبنا بزيارة مفتّش اللغة العربية (الأستاذ محمد المبارك) في نفس العام، وكان قادماً من دمشق، واستمعنا لأخباره وآرائه وتوجيهاته التي أثّرت مستقبلاً في خطّ سيرنا الفكري، محاولين أن نُصدّق بالعمل ما وقَر في قلوبنا طالما أننا آمنا بالله ربّاً وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً، مُتّبعين التوجيه القرآني للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال ـ دائماً ـ بالتي هي أحسن، بعيداً عن التعصّب الأعمى، والشعارات الفارغة، والشتائم والعنف الذي ذاق منه كثير من الشباب المسالم الأمرّين في فترات تاريخية مضطربة مائجة بالصراع الفكري.

خلقه الرفيع وهمته العالية:

كان أبو محمد ـ رحمه الله ـ محطّ الإعجاب والتقدير والاحترام من كلّ من عرفه، مُوجّهاً مسؤولاً متّصفاً في عمله ـ دائماً ـ بالصبر والأناة والحكمة والنضوج، وكان له في قلبي دائماً فيض الحب والمودّة، والشوق. . بخاصّة بعد أن اغتربنا كل واحد في بلد.

شهادة لله عزّ وجل:

وشهادة لله ـ في شهر القرآن ـ أني لم أعرف مسلماً في بلدي أفضل منه في الخلق الرفيع والهمّة العالية، ولعلّ اختياره للسكن مدى حياته في مسقط رأسه على رابية عالية (الطابيّات) يستشرف منها مدينته الوادعة، جاء بصورة عفوية انعكاساً لهذا الخُلق الرفيع، مُبتعداً بنفسه عن الدنايا والصغائر،

وعن سفاسف الأمور والقيل، والقال والمُمَاحكات والمناورات والأهواء الشخصية والمصالح الفردية، معتزلاً ـ برضاه ـ الأجواء الصاخبة المريضة.

في ميادين الخير والبر:

ولقد آثر في مغتربه، بعد التقاعد عن العمل الرسمي في الزراعة، التطوّع للعمل في ميادين الخير والبرّ وتقديم النصيحة والمشورة في مجال اختصاصه.

الشاعر الملتزم:

وركّز على هوايته الأدبية في قرض الشعر الملتزم، فكانت له منظومات ومقطوعات شعريّة فيها نفحات الإيمان ولمحات التصوّف، الإيجابي الفاعل لا السلبي المُجْدب.

ولقد أتحفني في السنوات القليلة الماضية ببعض من أشعاره مع رسائله، كما أنه نشر القليل منها في الدوريات الشهرية الصادرة حيث يقيم.

افتقاد الأخ النصوح:

ورغم إيماني العميق بأنَّ لكل أجل كتاباً، فإذا جاء أحدنا لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وأنا راضٍ تماماً بقضاء الله وقدره.. إلا أن عينيّ تتبلّل دموعاً كلما ذكرت رحيل أبي محمد عن دنيانا الفانية، فلقد افتقدت برحيله الأخ النصوح الذي كنتُ أسأله دائماً الرأي والمشورة في أعمالي العلمية، بل وفي حياتي الشخصيّة ـ جزاه الله الخير كله ـ ولم يكن يبخل بها عليّ. وإني ـ والله ـ لفراق أبي محمد لمحزون، مع الكثيرين من أحبّائه.

اللهمّ اجمعنا وإيّاه في علّيين، مع الشهداء والصديقين.

وأتوجّه إلى السيدة الفاضلة أم محمد، وإلى ابنه العزيز محمد يحيى وإلى بناته الكريمات وأهله جميعاً بالدعاء، طالباً من العليّ القدير أن يُصبّرهم في هذا المُصَاب الجَلَل.. ويا أهل الفقيد عظّم الله أجركم جميعاً.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الشيخ عبدالرحمٰن الصوفي
«رائدٌ من رُوّاد العمل الإسلامي في سورية»
أحبَّ لقاء الله فأحبَّ الله لقاءه

بقلم الدكتور عبداللطيف الهاشمي

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

ودَّعنا بالأمس رجلاً من رجال الدعوة، ورائداً من رواد العمل الإسلامي في سورية؛ إنه الأستاذ المربِّي الشيخ عبدالرحمٰن الصوفي رحمه الله تعالى وأدخله فسيح جناته، وأعلى مقامه في عليين.

ولادته وأسرته وتأسيسه أول عمل طلابيّ إسلاميّ في الساحل السوري:

ولد الفقيد في مدينة اللاذقية في سورية عام ١٩٢٦م، لأسرة متوسطة الحال، لها نسب مكتوب متَّصل بآل البيت، وَرَضَع منذ نعومة أظفاره حُبَّ الإسلام والدعوة الإسلامية. وتصدَّى مع مجموعة من زملائه في مدرسة التجهيز الثانوية في اللاذقية للأفكار العلمانية الوافدة، ثم قام وبتوجيه من الأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ الذي كان موجِّهاً للغة العربية، بتأسيس أول عمل طلابي إسلامي في الساحل السوري.

تفوُّقه في جميع مراحل دراسته:

تلقَّى الأستاذ عبدالرحمٰن تعليمه في اللاذقية، وكان متفوِّقاً في جميع مراحله. . . وحَصَل على الترتيب الأول في سورية من بين المتقدِّمين لشهادة الدراسة الثانوية عام ١٩٤٦م، ونال بعثة من الحكومة السورية لدراسة الهندسة الزراعية في الخارج، وخُيِّر بين الابتعاث إلى مصر أو إلى بلجيكا، فاختار مصر لرغبته الشديدة في التعرُّف على الشيخ حسن البنا الذي طالما سمع عنه، ولرغبته في دراسة العلوم الشرعية إلى جانب دراسة العلوم الزراعية.

دراسته بمصر وحصوله على شهادة الهندسة الزراعيَّة:

حصل على (البكالوريوس) في الهندسة الزراعية من جامعة فؤاد الأول في القاهرة عام ١٩٥٠، بمرتبة الشرف الأولى، ثم عمل رائداً في المجال الزراعي في اللاذقية، وعلى مستوى سورية حتى عام ١٩٧٠م عندما انتدبته وزارة الزراعة ليعمل محاضراً في كلية الزراعية.

مشاركته في عدة مؤتمرات علمية وإنهاء خدماته بقرار تعسُّفي:

حضر عدة مؤتمرات علمية في الدول الأوروبية، ومثَّل سورية في عدد من الوفود الزراعية العلمية. ثم أُنهيت خدماته بشكل تعسُّفي من جميع وظائف الدولة عام ١٩٧٩م، بموجب قرار غير قابل للاستئناف، وذلك في إطار حَمْلةٍ لإخراج الإسلاميين من الجامعات، عُرفت بمذبحة التعليم الجامعي في حينها.

في أحضان الدعوة الإسلامية:

تربَّى الفقيد في أحضان الدعوة الإسلامية، ولقي أثناء دراسته في مصر الإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ، وتتلمذ على يديه، وشارك معه في مجموعة من الكتائب الليلية. وقد أحبَّه حُباً جماً، وبقي على دربه إلى أن لقي الله عزَّ وجلَّ.

تأسيس العمل الإسلامي في الساحل السوري:

ولقد كان لفقيدنا الراحل ـ يرحمه الله ـ شرف المشاركة في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سورية بقيادة الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله تعالى ـ، وكان عضواً في هيئتها التأسيسية لسنوات عدة، كما أسهم بشكل فعّال في تأسيس العمل الإسلامي في الساحل السوري. وقد اعتُقل وسُجن عدّة مرات بسبب اتّجاهه الإسلامي إلى أن خرج مهاجراً من بلده إلى بريطانيا ثم إلى السعودية.

أخلاقه وسماته:

كان رحمه الله تعالى متواضعاً، حُلْوَ المعشر ذا خلق رفيع، يفرح لأفراح المسلمين ويألم لآلامهم، وكان يمضي كثيراً من وقته في التفكير بهموم الدعوة ومشكلات المسلمين، وكان صاحب همّة عالية وذوق رفيع وأدب جمّ.

حفظه القرآن الكريم ونظمه الشعر:

أتمّ حفظ القرآن الكريم بعد أن بلغ الستين من عمره المبارك، وكان يخفي هذا الأمر عن أقرب الناس إليه، حتى إنه لم يكن يعلم بذلك إلا زوجته وإحدى بناته. كما أنه بدأ ينظم الشعر بعد أن بلغ الستّين كذلك، وبلغ ما نظمه قرابة ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر، كلها في خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية، صدر منها من سلسلة نفحات الإيمان ديوانه الأول (ابتهالات وتأملات)، وبدأ بطباعة ديوانه الثاني، لكن الأجل كان أسبق...

زيارته ليلة وفاته:

ولقد أكرمني الله تعالى بزيارة الفقيد ـ رحمه الله ـ ليلة وفاته (في مستشفى الدكتور بخش) في جدة مع بعض الأحباب فرأيته باسماً مُتهلّلاً، في أنْضَر وجه وأحسن حال، وشدّ على يدي عندما سلّمت عليه كما كانت عادته عندما يُسلّم على إخوانه، وأخذ يحدثنا ـ وابنه المهندس محمد

الصوفي، وصهره الدكتور محمد وليد جالسان ـ وكان مما قال: إني لأعجب من هؤلاء الذين يخشون الموت ويخافونه. إنَّ فراق الأحباب مؤلم حقاً، ولكن ألسنا مقبلين على لقاء أصحاب آخرين سبقونا واشتقنا إليهم. ثم إن هؤلاء الذين سنفارقهم إنما هم على الدرب وسيلحقون بنا. إني مستبشر بلقاء الله... أشعر ولله الحمد والمنَّة أني قد أديت الأمانة على أحسن وجه، وقد أكرمني الله بأولاد وأحفاد نشؤوا في طاعة الله سبحانه... فماذا أريد بعد ذلك؟!

شعره قبل الرحيل:

ثم أخرج ورقة وأعطاها للدكتور محمد وليد، وقال له: اقرأ على الإخوان هذه الأبيات التي كتبتها قبل قليل، فقرأ علينا:

يا مرحباً بلقاءِ ربّي	به منتهى أشواق صَبّْ
به ملتقى الأحباب ألقى	أنداء رحمٰن يُلبّي
كلُّ المرام فلا لغوب	نحيا الخلود بظل حبّْ
يا ربّ فاقبلني نزيلاً	في ودك الحاني المُحبّْ
أنت الكريم جليل فَضْل	فاغفر إلهي كلَّ ذنبي
قد كنتُ دوماً فيك أسعى	فاجعل عطاك حميمَ قُرب

لقد أحبَّ لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءه... ودعناه في الساعة الحادية عشرة مساءً وهو في أحسن حال، وفي فجر اليوم التالي؛ الخميس الرابع عشر من شعبان ١٤١٩هـ الموافق ١٩٩٨/١٢/٣م كان موعد الأجل المحتوم، إذ صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها، وتوقَّف القلب الذي طالما خفق بحب الله ورسوله والمؤمنين.

رحم الله فقيدنا الغالي الأستاذ عبدالرحمٰن الصوفي رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته، وألهم ذويه جميعاً الصبر والسلوان، وعوض المسلمين والدعاة في سورية خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

علي الطنطاوي
من حُماة الإسلام(١)
(١٣٢٧ - ١٤٢٠هـ)
(١٩٠٩ - ١٩٩٩م)

بقلم: مَجْد مكي

إنّه - لا رَيْب - أحدُ حُماة الإسلام في هذا العصر.

حياته حلقاتٌ مُتّصلات، من الدفاع عن الدين، والكفاح ضدّ المستعمرين، وخدمة لغة القرآن.

عليٌّ الطنطاوي، عالمٌ، وأديب، وفقيهٌ، وقاض، وخطيبٌ، ومُحدِّث، وثائرٌ على الظلم والظالمين، والفساد والمفسدين، والاستعمار والمستعمرين.

علي الطنطاوي، عبقريّة فذّة، وموهبةٌ نادرة... إنه نسيجُ وحده بين الأعلام، والمفكّرين والأدباء.

وَهَبَ حياتَهُ ولسانَهُ وقلمَهُ للدفاع عن الإسلام.

كَتَب مئات المقالات، وألّف عشرات الكتب، وألقى ألوف الأحاديث والمحاضرات.

(١) نشرت في جريدة المدينة بعد وفاة الشيخ بيومين في يوم الأحد ٦ من ربيع الأول ١٤٢٠هـ.

يقول رحمه الله: «والمطبوعُ ممّا كتبتُ يزيد على ثلاثة عشر ألف صفحة، وإنَّ لي أكثر من خمسين كتاباً ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير، وإنّي أحاضر في النوادي من سنة (١٣٤٥هـ)، وأتحدّث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أُنشِئَت محطّة الشّرق الأدنى في يافا، قبل الحرب الثانية... ولطالما وقفتُ مواقف كانت حديث الناس، وكانت حادثةَ الساعة، وكنت فيها ملءَ الأسماع والأمصار، وكان اسمي فيها على كلّ لسان... ولكن ذلك كله مضى، وسيمضي العمر، ويذهب الجاه والمال، كما ذهب الشباب، وينسى الناس كل ما عملت، ولا يبقى إلا الذي يحمله معه العبدُ إلى آخرته، وهذا الذي يبقى وكل ما سواه إلى زوال»[1].

لقد أسلمَ روحَه إلى بارئها، بعد أن حمل الراية سنواتٍ طوال، وأدى أمانة العلم والأدب والدين، وبلّغها بصدق وإخلاص، فتَوارى عن ساحة الكفاح، بعد حروب متواصلة مع أعداء الدين والخلق والفضيلة...



حياته في سطور

أبصر العلامة الشيخ علي الطنطاوي النور بدمشق في عام ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م، والده هو الشيخ مصطفى بن أحمد، وكان مدير «المدرسة التجاريّة» كما كان أمين الفتوى بدمشق.

تلقّى أول دروسه في أحد كتاتيب دمشق، وانتقل إلى إحدى المدارس الابتدائيّة، ثم غادرها إلى المدرسة الأهليّة، التي كان يُديرها المربّي الشيخ عيد السفرجلاني... ومرة أخرى غادرها إلى المدرسة السلطانيّة، وكانت المدرسة الرسميّة، وانتقلَ بعد ذلك إلى مكتب عَنْبَر، حيث أكمل دراسته الثانويّة منه، ودَخل بعد ذلك كليّة الحقوق، وفاز بإجازاتها.

(١) المقدمات، ص٣٥٨ ـ ٣٥٩، الطبعة الأولى.

مارسَ الأستاذ الطنطاوي التدريسَ في مختلف مراحله في مدارس ومعاهد وجامعات دمشق، وبغداد، وبيروت، والرياض، ومكة المكرمة.

وعمل في القضاء، فكان قاضي دمشق الممتاز، ورئيس المحكمة الكبرى، ومُسْتشاراً في محكمة النَّقْض خلال الوحدة مع مصر.

شارك في وضع قانون الأحوال الشخصيَّة، وهو القانون الوحيد والكامل في البلاد العربيَّة، وكذلك وضع قانون الإفتاء، وأوْجَدَ مجلس الإفتاء الأعلى، ووضع مناهج الدروس الدينيَّة والعربيَّة لمدارس وزارة الأوقاف.

وشارك في إنشاء الجمعيَّات الإسلاميَّة، وأقْدمها كانت «جمعيَّة الهداية الإسلاميَّة» عام ١٣٥٠هـ. والأستاذ الطنطاوي من أوائل مَنْ عَمِلَ في حَقْل الدعوة الإسلاميَّة[1].

الطنطاويُّ الأديب والصَّحافي:

تعلَّق الطنطاوي بالقلم مُنْذُ حَدَاثته، ورأى فيه المُتنفَّس للإعراب عن مَشَاعره وأحاسيسه، ونشر آرائه وأفكاره. فعمل في جريدة «فتى العرب» عند أستاذه معروف الأرناؤوط في عام ١٩٣٠م لمدَّة خمسة شهور، وحين دبَّ الخلاف بينهما، آثر الطنطاوي العمل في «جريدة ألف باء» لصاحبها شيخ الصحافة السوريَّة يومذاك يوسف العيسى، وكانت من أوْسَع الصُّحف انتشاراً غير أنَّ موقفها الوطني كان معتدلاً أيام الانتداب الفرنسي، فآثر الأستاذ الطنطاوي نقل نشاطه الصحافي إلى جريدة «الأيام» التي كانت تقودُ مع جريدة «القبس» حركة النضال الوطني ضدَّ فرنسا بحماسة واندفاع، فوَجَد الأستاذ الطنطاوي المجال رَحْباً على صفحات «الأيام» ليكتب ويهاجم الانتداب.

---

(١) تنظر مقالته: «حصاد ربع قرن في حقل الدعوة الإسلامية في الشام» في مجلة «المسلمون»، العدد الثاني، من السنة الثالثة، ١٣٧٨هـ.

يقول الأستاذ الطنطاوي: «ولقد بلغ ما طُبع من كلامي أكثر من عشرة آلاف صفحة، لو نخلتُها نخلاً، ما وجدتُ فيها بحمد الله سطراً فيه تزلُّف للظالمين، ولا سَطْراً فيه إزْراء على العربية، ولا سطراً فيه خروج عن الإسلام... ولقد كنت أكتبُ في الصحف أيام الفرنسيين، فكنتُ أقول ما لا يَجْرؤ على أكثر منه قائل من الوطنيين، وليست هذه دعوى بلا دليل، بل هي حقيقةٌ دليلها موجود في صحف تلك الأيام، في «فتى العرب»، و«المقتبس»، و«ألف باء»، و«الأيام»، و«اليوم»، و«النصر»، و«الناقد»، و«الجزيرة»»[1].

ثم أصدر الأستاذ الطنطاوي مجلة شهريّة باسم «البعث» في عام ١٩٣١م، وهي أوّل مجلة إسلاميّة تصدر في سورية، فَصَدَرت منها أعداد ثم احتَجَبَتْ.

وسافر إلى مصر تلبيةً لدعوة خاله الأستاذ محبّ الدين الخطيب، فعمل في «مجلة الزهراء» ومجلة «الفتح» وأسهم في تحريرهما.

ولم تَشْغله الصحافة عن قيامه بمهنة التدريس، ولا عن عمله في سِلْك القضاء بعد ذلك.

إقامته في مكة المكرمة وبرامجه الإذاعية والتلفزيونية:

وفي عام ١٩٦٣م تبدّلت الأحوال، وتغيّرت الوجوه، وانطوت عهودٌ، فآثر الشيخ الطنطاوي الإقامة في مكّة المكرمة، وفي السُّعوديّة تفتّحت له أبواب جديدةٌ للنشاط الإسلامي، فأخذ يُقدّم في الإذاعة برنامجاً يومياً «مسائل ومشكلات»، وبرنامجاً تلفزيونياً أسبوعياً بعنوان «نور وهداية». وقُوبلت تلك البرامج بتقدير واسْتحسان وإقبال مُنقطع النَّظير من مختلف الطبقات في المملكة وما جاوَرَها من دول الخليج، فاتّجهت إليه الأنظار

(١) المقدمات، ص٣٨٨ ـ ٣٨٩، الطبعة الأولى.

والأسماع، وباتَ الناس ينتظرون موعد تلك الحلقات، ويتمنّى كلُّ واحد منهم أنْ تطول فترة حديثه لما يجدون فيه من مُتْعة نفسيّة وفكريّة.

واستمرّت هذه البرامج الإذاعيّة والتلفزيونية أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وفي شهر رمضان كان يقدّم برنامجه التلفزيوني اليومي «**على مائدة الإفطار**». ولم يكن الأستاذ الطنطاوي يكتب أحاديثه، وإنما يضعُ رؤوس أقلام، ويستجمع أفكاره، ويرتجلها ارتجالاً، فلا يَتَلَعْثَم أو يَتَعثَّر، ولا يخطئ أو يلحن في عبارة أو لفظة، وينتقل بالمشاهدين والسّامعين من موضوع إلى موضوع، في حقول المعرفة، في التفسير والفقه والحديث واللغة والأدب والتاريخ، فكان من أنجح المتحدّثين وآثرهم في قلوب الناس في مختلف مستوياتهم وتنوع ثقافاتهم.

مؤلّفات الطنطاوي وآثاره:

يعدُّ الأستاذ الطنطاوي من أكثر أدباء العربيّة غَزَارةً في الإنتاج، وسخاءً في العطاء، فهو يَمْتلك زاداً فكرياً ثرًا، وقلماً مِطْواعاً يتدفّق كالسَّيْل المُنْهمر بعبارةٍ رائعة، وأُسلوب رائق متميِّز...

ويصفُ الطنطاوي قلمه فيقول: «قلمٌ إنْ شئت لأَنَ في يدي، حتى ليخشن معه الحرير، وإن شئت صلب حتى يلين إلى جَنْبه الحديد، إنْ أردته هدية نَبَتَ من شقّه الزهر، وقَطَرَ منه العطر، وإن أردته رزيّةً حطَمتُ به الصَّخر، وأحرقتُ الحجر، قَلَمٌ كان عَذْباً عند قومٍ، وعَذَاباً لقوم آخرين»[١].

موهبته النادرة وأسلوبه الفريد:

يقول الأستاذ عبدالغني العطري في كتابه «عبقريات من بلادي»: «كَتَبَ الطنطاوي المقالة، والقصّة، والمسرحيّة، وأبدع فيها إلى أقصى حدود الإبداع، فقد أُوتي صاحبنا مَوْهبةً نادرةً، وأسلوباً فريداً، وقدرةً لا حدودَ لها على تَطْويع الكلمات والألفاظ لخدمة أغراضِهِ. وكان يحلم في بعث الأدب

---

(١) الذكريات ٢/٥٩.

العربيّ القديم والتُّراث الإسلامي. ولو قُدِّر للأستاذ الطنطاوي أن ينصرف بجهده للأدب وحده، لأمكنه أن يكون الأديب العربي الأول، فقد أُوتي الطنطاوي ذاكرةً قويّة تشبه آلة التّسجيل، تحفظ كل ما يمرُّ عليها... وأنعَمَ الله عليه بأسلوب أحلى من السُّكر، ووَهَبه جاذبية في الحديث والإلقاء، لا أحسب أنّ أحداً من الأدباء والمفكرين يملكها»[١].

«والطنطاويُّ الكاتب الموهوب الذي لا يُجارى، وكلُّ ما يقوله ويكتبه هو السهل الممتنع، تنظر إليه فتراه بين يديك لا يَتَعاصى شيءٌ منه عليك، فهو في معانيه أقربُ إليك من شعاع الشمس، فإذا ما حاولت أن تحاكيَ أسلوبه وتنسج ما نسج، كنت كمن يريد أن يمسك شعاع الشمس، فما أبعده وما أقربه، وهذا هو السهل الممتنع»[٢].

جاوزت كتبه الخمسين، ولديه أصول أحد عشر كتاباً لا تحتاج إلا على عمل قليل لتقدّم إلى المطبعة[٣].

رسائل في سبيل الإصلاح:

وأوّل ما صَدَر له: «**رسائل في سبيل الإصلاح**»، يقول الشيخ رحمه الله: «لقد كانت هذه الرسائل بداية كتبي المطبوعة، أصدرتُ الأجزاء الأربعة سنة ١٣٤٨هـ، ولم يجاوز عمري إحدى وعشرين سنة، خرجت الرسائل الأربع الأولى كما تخرج القذائف من فم المدفع، لها دويٌّ، ومن حولها شَرَرٌ وَلَهَب، فأيقَظَت في دمشق النّيام، وقَرأها الناس وهم بين راضٍ عنها، وساخطٍ عليها، ومادحٍ لكاتبها، وقادحٍ فيه...»[٤].

---

(١) عبقريات من بلادي، ص٢٨٧.
(٢) بين يدي المقدمات، لكاتب هذه السطور ص٥ من الطبعة الأولى.
(٣) مقدمة تعريف عام بدين الإسلام، ص١١.
(٤) المقدمات، ص٤٠٦ من الطبعة الأولى.

رسائل سيف الإسلام والهيثميات:

وأصدر بعدها سلسلة رسائل «سيف الإسلام» سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)، وكتاب «الهَيْثميات»، وكان يُكنَّى بأبي الهَيْثم. وقد جمع في هذا الكتاب عدداً من مقالاته وأبحاثه وهو في مطلع شبابه، وأهدى كتابه إلى أديب العربيَّة مصطفى المنفلوطي، ووصفه بأنه «سيِّد كتاب العصر» وكان مُعْجَباً به أشدَّ الإعجاب، إلى أنْ أُتيح له أن يقرأ للرافعيّ والزيّات.

وأصدر بعده كتابه «أبو بكر الصديق» ١٣٥٣هـ، ثم «عمر بن الخطاب» انتدبه لتأليفهما الأستاذ المُحقِّق المؤرِّخ أحمد عُبَيْد صاحب المكتبة العربية بدمشق، ثم عَمد إلى كتابه عن «عمر» فأعاد جمعه وتحقيقه وتهذيبه، وألحق به فَصْلاً عن عبدالله بن عمر كتبه أخوه ناجي، وصدر باسم «أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر» سنة ١٣٧٩هـ.

أسماء كتبه وتاريخ صدورها:

ثم تَوَالى صدور كتبه، وأشير باختصار إلى أسمائها وتاريخ صدورها: «رجال من التاريخ» صدرت الطبعة السابعة مع مقدِّمتها سنة ١٤٠٥هـ، و«قَصَصٌ من التاريخ» صدرت الطبعة الخامسة مع مقدِّمتها عن دار المنارة سنة ١٤١٥هـ، و«حكايات من التاريخ» سبعة أجزاء، و«أعلام التاريخ» خمسة أجزاء، و«الجامع الأموي في دمشق» صدرت الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ، والثانية ١٤٠٩هـ، و«في سبيل الإصلاح» صَدَرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٨هـ، والطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ (١٩٨٧م)، و«هتاف المجد» صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩هـ، والطبعة الثانية سنة ١٤١١هـ (١٩٩٠م)، و«بغداد: مشاهدات وذكريات» صدرت الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م)، والطبعة الثانية سنة ١٤١٠هـ، و«صُور من الشرق في أندونيسيا» صدرت الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م)، والثانية سنة ١٤١٢هـ (١٩٩٢م)، و«من حديث النفس» صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م)، و«قصص من الحياة» صدرت الطبعة الرابعة سنة ١٤١١هـ (١٩٩٠م)، و«مقالات في كلمات» صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م)، و«فكر ومباحث»

١٩٦٠م، و«فصول إسلامية» ١٩٦٠م، و«مع الناس» ١٩٦٠م، و«من نفحات الحرم»، و«صور وخواطر»، و«تعريف عام بدين الإسلام»، وهو من آثر كتبه لديه، يقول في مقدمة طبعة دار الوفاء بالمنصورة: «فأنا أكتبُ وأنشُرُ من ستِّين سنة، لا أُحصي المقالات التي كتبتها، ولا الجرائد والمجلات التي نشرتُ ما كتبتُ منها، ولي نحو من خمسين كتاباً، ولكني أرجو من الله بهذا الكتاب ما لا أرجوه من كل ما كتبت»[1]، وقد طُبع أكثر من عشرين طبعة.

وحقق كتاب «صَيْد الخاطر» لابن الجوزي، بالاشتراك مع أخيه ناجي رحمهما الله تعالى.

ذكريات علي الطنطاوي:

وأصدر «ذكرياته» في ثمانية أجزاء، روى فيها جميع مراحل حياته، بدءاً من الطفولة الفقيرة المعذَّبة، إلى مراحل الدراسة والجهاد الوطنيِّ أيام الفرنسيين، ثم ممارسة التعليم، والعمل الصحافي، ثم رحلاته إلى مصر والعراق ولبنان، وجَوْلاته ولقاءاته ومشاهداته وتجاربه...

الفتاوى والمقدِّمات:

و«الفتاوى» ممَّا نشره في جريدة الشرق الأوسط، جمعها ورتَّبها حفيده الأستاذ مجاهد ديرانية، و«المقدِّمات» التي قمتُ بجمعها وترتيبها، وبَلَغ مجموعها ستاً وعشرين مقدِّمة كتبها الشيخ رحمه الله لعددٍ من المؤلِّفين في أزمنة مختلفة، ثم ضَمَمْتُ إليها مقدِّماته التي كتبها لكتبه بعد مرور زمن طويل على إعادة طباعتها، فضممتُ من مُقدِّمات كتبه سبع عشرة مقدمة، فتمَّ المجموع أربعين. وكان هذا الكتاب آخر ما صَدَر للشيخ مطبوعاً من آثاره، وصَدَرت الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ عن دار المنارة بجدة[2].

---

(١) المقدمات، ص٣٦٣، من الطبعة الأولى.
(٢) وستصدر الطبعة الثانية قريباً بعون الله تعالى.

تراث الشيخ المكتوب والمسموع والمرئي:

وأما مقالاته وأوراقه فلا تُحصى كثرةً، ولا يستطيعُ جَمْعها شخص بمفرده، ومع ذلك فقد وفّقني الله سبحانه لجمع الكثير من عيون مقالاته الرائعة وبحوثه الممتعة من عددٍ من المجلات والدوريات، وأسأل الله سبحانه أنه يُوفّق لنشرها، ولا بدَّ من تَضافر الجهود لجمع تراث الشيخ والتعريف به.

وأما أحاديثه الإذاعيّة والتلفزيونيّة، فقد قامت مؤسّسة (سَنَا) الإعلاميّة بجدة بانتقاء مجموعةٍ من أحاديثه، وصَدَرت بعنوان «دينٌ ودنيا» وصَدَر منها ثلاثون شريطاً، وذلك بجهد الأخ الكريم الأستاذ عبدالله زنجير الذي كان مُقرَّباً لدى الشيخ، وأثيراً عنده، جزاه الله كلَّ خير.

وبعد؛ فالحديثُ عن أستاذنا الطنطاوي طويلٌ ومُمْتَد، ومُتعدِّد ومُتَشعِّب، وشائقٌ ومُمْتع، وما كنتُ أحسب أن تمتدَّ الكلمة إلى هذا الحدِّ، ولكن جرى القلم، فمجال القول متّسع، ولدى الكثيرِ من تلاميذ الشيخ وعارفيه ومُحبّيه ما يتّسع للكلام عن الشيخ رحمه الله تعالى، وأجزل ثوابه، ورفع درجته، وعوّض الله المسلمين خيراً.

الأربعاء ٥ ربيع الأول ١٤٢٠هـ



علي الطنطاوي... ومجالسه المباركة

(١٣٢٧ ـ ١٤٢٠هـ)

(١٩٠٩ ـ ١٩٩٩م)

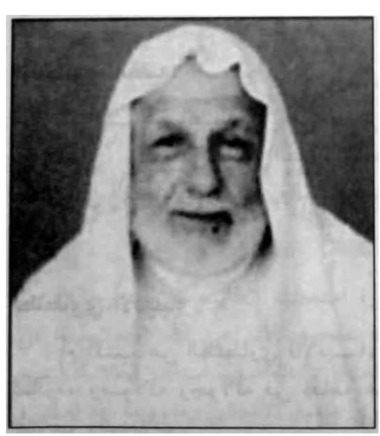
بقلم تلميذه: مجد مكي

ذكريات ولقاءات:

عندما أمسكت بالقلم لأكتب عن الأستاذ الطنطاوي، تتابعت الذكريات، وساعات اللقاءات التي امتدّت عبر عقد الزمان. وعن أيِّ شيء أكتب... وكيف أبدأ الكتابة؟



موسوعة معارف متنوّعة:



فالطنطاوي تاريخ حافل، وديوان كامل، وموسوعة معارف متنوِّعة الجوانب، ومتعدِّدة المواهب.

فهل أكتب عن تاريخ حياته: طفلاً نابغاً، وشاباً يافعاً، ومعلِّماً ناجحاً، وصحافياً لامعاً، وداعيةً موفقاً، وقاضياً عادلاً، ومحامياً عن

الإسلام منافحاً، ومتكلماً موهوباً، وكاتباً بليغاً، وشيخاً وقوراً، أقعدته السنين، وعركته تجارب الحياة.

الطنطاوي المربي:

أم أكتب عن الطنطاوي (المربّي)، وأستعرض آراءه التربويَّة، وكلماته وتوجيهاته، ولفتاته ونظراته، وتجاربه في تربية الأبناء، والاهتمام بالجيل، والعناية بالأسرة.

الطنطاوي المعلم:

أم أكتب عن الطنطاوي (المعلم)، فأبين مواقفه في تعليم الأجيال، وأذكر آراءه في المناهج الدراسية، وطرق التعليم، وأساليب التأليف...

الطنطاوي الداعية:

أم أكتب عن الطنطاوي (الداعية)، فأذكر منهجه في الدعوة إلى الله، وتجاربه ونصائحه، ومشاركته في حقل الدعوة الإسلامية بقلمه ولسانه، وأثره في الصحة الإسلامية.

الطنطاوي الفقيه:

أم أكتب عن الطنطاوي (الفقيه)، عن فهمِهِ لمقاصدِ الشريعة، ومنهجه في الفتوى، وأثره في تقرير الفقه، وتيسيره لعموم الناس... ومعالجته للكثير من القضايا الجديدة، والمشكلات المعقدة بنظراته البعيدة، وأفقهِ الواسع.

الطنطاوي الأديب:

أم أكتب عن الطنطاوي (الأديب)، عن أسلوب المتميز، وموهبته النادرة، وصولاته وجولاته في دفاعه عن العربية، ومعاركه الأدبية في الصحف والمجلات.

الطنطاوي الإعلامي:

أم أكتب عن الطنطاوي (المتحدْث) اللبق، و(الإعلامي) الناجح، عن عفويته المحبَّبة، ونفسيته القريبة، ولهجته الحبيبة، وبديهيته العجيبة، ومعلوماته المتنوعة، وموسوعيته المدهشة.

فعن أيِّ جانب من هذه الجوانب أكتب، وماذا أدع؟

هو البحر من أيِّ النواحي أتيته فَلُجّته المعروف والجودُ ساحلُه

إنَّ الكتابة عن أيِّ جانب من هذه الجوانب، يستوعب الصفحات الكثيرة، وعندي مجالٌ للقول، ومُتَّسع للكلام.

وتجمع في قارورة العطر روضة وتوضع في كأس الرحيق كرومُ

صحبتي للشيخ ـ رحمه الله ـ

لقد صحبتُ الشيخ ولازمته خلال السنوات العشر الأخيرة من عمره، فكان يوم الأربعاء من كل أسبوع هو اليوم المُخصَّص لي، وما قَدِمَ إلى جُدة زائرٌ من أهل العلم والفضل ممَّن يعرف الشيخ إلا وسعى لزيارته، وتشرَّفت بصحبة الكثير منهم إلى مجلسه الحافل.

صحبة عدد من الأعلام في مجلسه:

فقد كان الشيخ في السنوات الأخيرة من عمره المبارك، يحب الاجتماع بالناس، ويجد متعة وأنساً بمحادثتهم ولقائهم، ويحرص على طول مكثهم، وتكرر زيارتهم... بعدما كان في أكثر عمره منطوياً على نفسه، يحبُّ العزلة، ويؤثر الانفراد...

وخلال تلك الزيارات المتكررة استمعت لأطايب كلامه، وجَنَيْتُ من وافر ثماره، وناضج آرائه، وسعدت بصحبة الكثير من الأعلام والعلماء في مجلسه، وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أستاذنا العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والأستاذ اللغوي سعيد الأفغاني رحمهما الله تعالى،

والسيد أبو الحسن الندوي، والشيخ مصطفى الزرقا، والدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور محمد رجب البيومي، والدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، والدكتور معروف الدواليبي، والدكتور إبراهيم سلقيني، والدكتور محمد أبو الفتح البيانوني، والشيخ محمد عوامة، والشيخ عبدالله التليدي، والدكتور عبدالسلام هراس، والأستاذ هاني الطابع، والمحامي علي الرضا الحسيني، و... وغيرهم كثير ممن لا يغيب ذكرهم عني، فكانت مجالس علم وأدب، وحِلْم ووقار، وفكاهة محببة، تسمع فيها من عيون الشعر، وروائع الأدب، ولطائف العلم.

مجمعٌ علميٌّ وندوةٌ أدبيّة:

لقد كان بيت الشيخ في جدة مجمعاً علمياً، وندوة أدبية ممتدة خلال الأسبوع، في السنوات العشر الأخيرة، فمن بعد صلاة العشاء إلى قرب منتصف الليل، ندوة متجددة، ومواهب متعددة، ووجوه جديدة من مختلف الاختصاصات وتنوع الاتجاهات.

يحضر مجلسه كبار العلماء والأدباء ممَّن أشرت لذكر بعضهم، ويحضره كذلك مجموعة من العلماء والأدباء الشباب، أذكر منهم: الأستاذ محمد السرَّار من المغرب، ونظام يعقوبي من البحرين، ومحمد بن ناصر العجمي، ومحمد العوضي من الكويت، وحسن قاطرجي، ورمزي دمشقية من بيروت، ورائد سنهوري الشاعر المبدع من جدة، ومحمد عبدالله الرشيد من الرياض، الذي كان صلة الوصل بين الشيخ ودمشق، ينقل إليه أخبار من بقي من علمائها، ويُحدِّثه عن تاريخه الحافل، وذكرياته الجميلة، ويأتي في مقدمة هؤلاء: الأخ الكريم عبدالله زنجير، الذي كان من آثرهم لديه، وأكثرهم براً ووفاءً، فكان للشيخ كالولد البار في رعايته وبره، وكان الشيخ له كالوالد في حُنوه وعطفه...

ولم يقتصر مجلس الشيخ على طبقة العلماء الكبار والشباب منهم، بل غمر بواسع كرمه، وكريم عطائه، العامة الذين أحبوه وطعموا من «مائدة إفطاره»، واقتبسوا من «نور هدايته»، واستفادوا من حلول «المسائل والمشكلات»...

فكان يحضر مجلسه هؤلاء فيأنسون ويستفيدون، بل إن مجلسه العامر شمل حتى طبقة الصغار من الأبناء الذين كانوا يجلسون مع آبائهم بسكينة ووقار، فيتلقون درساً عملياً في الأدب والذوق، وتنطبع في مخيلتهم صورة الشيخ المهيب في تواضعه وسكينته، وتنالهم بركة دعواته الصالحة، وهم يقبْلون يده الطاهرة، ويحيط هذا المجلس برعايتهم وحفاوتهم أصهارُ الشيخ وأحفاده، وفي مقدمتهم: الأستاذ زياد الطباع ـ سبط الشيخ علي الدقر ـ، والأستاذ نادر حتاحت ـ صاحب دار المنارة ـ وأحفاده، وفي مقدمتهم الإخوة الكرام: عمرو حتاحت، ومجاهد، ومؤمن، ومعتصم، ومعتز ديرانية، وطارق طباع، وغيرهم من أحفاد الشيخ وأقربائه، جزاهم الله كل خير على برِّهم ووفائهم.

ذاكرةٌ ثرّة وتاريخٌ شاهد:

وكنت في مجلسي معه، أستحضر له مشاهد من ذكرياته، وعبارات من روائع كلامه، وأستثير ما في ذاكرته الثرة الغنية من تاريخ شاهده، ورجال صحبهم، وأعلام تعرّف عليهم.

وكنت أُطلعه على ما يصدر من كتب جديدة، فيحرص على اقتنائها، ويوصي بشرائها، وتجد بجانبه مجموعات من الكتب والمجلات التي تُهدى إليه، فتحيط الكتب به، وتتضاعف وتزداد حتى تأخذ سبيلها إلى مكتبته.

وعلى الرغم من إعراض الشيخ عن الكتابة، وضعف يده عن الإمساك بالقلم... إلا أنه كان يقرأ ويطالع، ويناقش ويحاكم بعقليته الكبيرة، وذهنه الوقاد.

وكم كنا نعجب ممّا تستحضره تلك الذاكرة العجيبة من ذكريات ومشاهد، وعلوم ومعارف، فكان يسرد علينا من روائع الشعر والأدب والحكم ودقائق المسائل... ما نجد أنفسنا عاجزين عن مجاراته، أو الجري في ميدانه.

وكم كان الخلاف يدور حول مسألة من المسائل، وقضية من القضايا،

يراعي فيها أدب الخلاف والحوار، فيجد الحاضرون الرأي السديد، والجواب المقنع عند الشيخ رحمه الله تعالى.

وإذا استشكلنا معنى كلمة أو غريب لفظ بادرنا بسؤاله، فنجد الجواب حاضراً على لسانه، وقد يردنا إلى بعض المراجع، ويعلمنا أن نتثبّت من الحكم والمسألة، ويُعوّدنا على الرجوع إلى «القاموس» الذي كان على يمينه لا يفارق مجلسه.

وفي أواخر أيامه توقّف الشيخ عن الفتوى وامتنع عنها، خوفاً وتورُّعاً، وكان يشير على من سأله بالرجوع إلى الأستاذ مصطفى الزرقا ـ أمتع الله بحياته ـ ويثني كثيراً على علمه وفقهه... وربما ردَّ السائل المستعجل إلى مكتبته لمعرفة الحكم الفقهي الذي يسأل عنه.

لقد كنت خلال هذه المجالس أحرص على انتقاء أطيب الكلام، وقراءة بعض النوادر التي أستخرجها من بطون الكتب والدوريات... وكنت أحضر له الكثير من مقالاته المنسية مما كتبه في بواكير شبابه في «الفتح»، و«الزهراء»، و«الرسالة»، و«الأزهر»، و«المسلمون»، و«حضارة الإسلام»، و«الوعي الإسلامي»، و«هدي الإسلام»، و«مجلة الحج»، و«رابطة العالم الإسلامي»، فيجد متعة في قراءتها، ويبدي سروره وإعجابه بوقوفي عليها، ويثني عليّ بصفات أنا دونها.

وأستعرض معه أسماء الكثير من الأعلام الذين أحبَّهم وصحبهم، وأذكِّره بمواقفهم، وأحضر له الكثير من آثارهم.... فيجد ما يُسلِّيه في غربته، ويُؤنسه في وحدته، ويعيده إلى ما مضى من سالف أيامه.

وأقرأ عليه بعض ما كتب عنه... من ثناء ومدح... وإعجاب وإنصاف... قرأت له ما كتبه الدكتور محمد رجب البيومي في «النهضة الإسلامية»، وما كتبه الشاعر الأديب عبدالله بلخير في «ذكرياته»، وما كتبه الأستاذ عبدالغني العطري في «عبقريات وأعلام»... فكانت عيناه تدمع فرحاً وسروراً... لأنه لم يضع جهده وجهاده، ولم ينس الناس أثره وأعماله... ويدعو الله سبحانه أن يتقبل منه، ويتجاوز عنه، ويُحسن خاتمته.

هموم المسلمين وقضايا الأمّة:

لقد كان الشيخ يعيش هموم المسلمين، وقضايا الأمة، فما زرته يوماً لأخبره بما يقع للمسلمين من أحداث، وما يحلّ بهذه الأمة من نكبات، إلا وكان الشيخ على دراية تامة، ومعرفة دقيقة بها، على الرغم من ضعف الشيخوخة التي أقعدته في بيته خلال سنوات عمره الأخيرة إلا أنه كان يعيش مع المسلمين في آلامهم وآمالهم، وأفراحهم وأتراحهم، وعُسْرهم ويُسْرهم، فهو معهم ومنهم ولهم.

وكانت أكبر أمنياته قوله: «وأسأل الله سبحانه كما سترني في شبابي أن يسترني في شيخوختي، وكما أحسن إليَّ في دنياي أن يُحسن إليَّ في آخرتي، وأن يختم لي بالحُسْنَى، وأن يتوفَّاني مسلماً، ويلحقني بالصالحين، وأن يريني قبل موتي ظفر المسلمين وعودتهم إلى دينهم عودة كاملة صحيحة سالمة من كل عيب»[1].

مدرسةٌ علميّةٌ حافلة:

الشيخ الطنطاوي مدرسة عملية حافلة، مدَّ الله في عمره حتى تجاوز التسعين فأصبح منفرداً بين الناس في علمه وعمره وطبقته، لم يبق من أقرانه الذين صحبهم وصحبوه، وعرفهم وعرفوه، وأحبهم وأحبوه، إلا الاثنين والثلاثة بعد أن كانوا عشرات... وهؤلاء بعيدون عنه... يسأل عنهم، ويسمع أخبارهم... فكان يحس بالغربة، ولطالما أنشد قول الطغرّائي:

هـذا جـزاء امـرئ أقـرانـه دَرَجـوا ... مـن قـبـلـه فـتـمـنَّـى فُـسْـحَـةَ الأجـلِ

ولم يكن الشيخ ممّن يتمنّى فُسْحَةَ الأجل بعد أن فقد أعزَّ أصحابه، ولكنه فضل الله عزَّ وجلَّ الذي أطال عمره ووفقه لحسن العمل.

(١) مقدمات علي الطنطاوي، ص١٨.

وَهْن الشيخوخة:

وشعر في أواخر عمره بثقل الأيام، ووهن الشيخوخة، فكان يردِّد قول الشاعر:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشبابِ
كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ ليس ثوبٌ جديدٌ كالدريس من الثيابِ

ولكن الروح التي كانت تتخلّل ذلك الجسد، كانت روحاً وثّابة، والنفس التي تسكن ذلك الجسم كانت نفساً متطلّعة أبيّة، تتطلع إلى رضوان الله وجنته، وتتشوّق إلى لقائه ودار كرامته.

من حُماة الإسلام:

لقد حمل الشيخ الراية بعزم وصدق وإخلاص... وترك بصماته في حياة الناس... ونافح عن الإسلام، ودافع عن حرماته أمام المفسدين، وقاوم الظلم والظالمين، وترك وراءه تراثاً ضخماً، وعلماً نافعاً، وأدباً ثراً... ولم يكن يريد من ذلك كله إلا الأجر والثواب والجزاء من الله سبحانه، الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «وأنا أخطب وأكتب من أكثر من ستين سنة، فإنْ خلصت لله نيتي في العشر منه، بل في معشاره، فكتب في صحيفة حسناتي فقد أفلحت وأنجحت، وإن اقتصر حظي فيه غداً على حفلات تأبين تقام، وخطب تلقى، ومقالات تكتب، فيا ضَيْعة المَسْعَى، إن ذلك كله يبقى ـ هناك ـ والله مالي إلا رجاء عفو الله، وأني مؤمن لا أشرك بالله أحداً من الناس، ولا شيئاً من الأشياء، والأمل بدعاء الصالحين من المسلمين.

اللهمّ إن تسألني: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ قلت: غرّني أنك وصفت نفسك بالكريم، لقد غرّني يا ربي كرمك، والكريم لا يردُّ من وقف ببابه نادماً مستغفراً راجياً».

فما أصدقها من كلمات، وما أخلصها من دعوات...

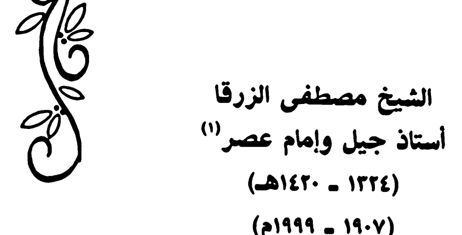
إنَّ الشيخ الطنطاوي غنيٌّ بآثاره ومآثره عن كتابة مقالات في تأبينه، وصياغة أشعار في رثائه، ولقد كان يُؤْثر الصمت، والبُعد عن الأضواء في أواخر أيامه، بعد أن كان ملء السمع والأبصار، وكان يرجو ثواب الله ومغفرته، ودعوات الصالحين من عباده، وهذا كل ما يرجوه ويتمنّاه: «والثواب هو وحده الذي يبقى على حين يفنى الإعجاب، وتذهب الأموال، ويعود إلى التراب ما خرج من التراب، وَلَدعوة واحدة لي بعد موتي من قارئ حاضر القلب مع الله، أجدى عليَّ من مئة مقالة في رثائي، ومئة حفلة في تأبيني، لأن هذه الدعوة لي أنا، والمقالات والحفلات لكتابها وخطبائها، وليس لي فيها شيء، اللهمَّ إني أستغفرك وأتوب إليك، وأسألك حسن الخاتمة، والوفاة على الإيمان».

اللهمَّ اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، اللهمَّ ارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره، ونوِّر له فيه.

«اللهمَّ أَجرنا في مصيبتنا، وأخلف لنا خيراً منها، ولا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده».

جدة ٩ ربيع الأول ١٤٢٠هـ





الشيخ مصطفى الزرقا
أستاذ جيل وإمام عصر(١)
(١٣٢٤ ـ ١٤٢٠هـ)
(١٩٠٧ ـ ١٩٩٩م)



بقلم: تلميذه الدكتور الفقيه
الشيخ أحمد الحجي الكردي

روى البخاري عن إسماعيل بن أبي أويس قال: حدثني مالك عن هشام، عن عُروة، عن أبيه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا»**.

لقد ارتحل عنّا عالمٌ جليلٌ، وجِهْبِذ مُحقّق، وفقيه مُتعمّق، هو العلامة المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء، وقد خسر العالم الإسلامي بوفاته إماماً من أئمة الفقه في هذا العصر، فقد كان رحمه الله تعالى لسان الفقه الإسلامي في عامة المجامع والندوات والمؤتمرات الفقهية التي عُقدت في العالم الإسلامي، بل العالم عامّة في هذا القرن، وما أظن

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٢/٦/٢٠٠٦م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

أن كثيراً منها فاته، وقد كان فيها جميعاً العنصر الفاعل، والمحدِّث المفوَّه، والمحقِّق المتعمِّق، والباحث الثَّبت، كما كان رحمه الله تعالى أستاذاً من أساتذة الفقه الأوّل في هذا القرن، وتخرّج به أجيالٌ هم الآن أساتذة الجيل في كثير من الجامعات الإسلامية، أما مؤلفاته ـ على قلّتها من حيث الحجم ـ فقليل نظيرها بين الكتابات الفقهية المحدثة، وذلك لما تميّز به فكره الفقهي من دقة الاستنباط، واستيعاب الأصول والقواعد والعلل التي تضبط الأحكام الشرعية، ولما تميّز به قلمه من أسلوب عربي فصيح محكم، خالٍ من الحشو والركاكة، فلا تكاد تجد كلمة واحدة يمكن أن تغني عنها كلمة أخرى في كتبه التي صاغ بها أفكاره، ونسج منها نظرياته، وبخاصة سلسلته: (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد).

اطلاعه على العلوم القانونية واضْطلاعه بتدريسها:

ومما تميّز به الفقيه الراحل اطلاعه على العلوم القانونية، واضطلاعه بتدريسها في عدد من الجامعات العربية والإسلامية، والتأليف فيها، حتى عُدّ المرجع المتقدّم فيها، مما مكّنه من المقارنة بينها وبين نظائرها في الفقه الإسلامي، وإظهار رجحان الأحكام الفقهية وتميّزها عليها، بالأدلة العلمية الناهضة، وهو ما لم يتوفّر لأكثر فقهاء العصر.

دراسة أكثر كتبه وتدريسها:

وقد أكرمني الله تعالى بدراسة أكثر كتبه عليه في جامعة دمشق، ثم القيام بتدريس أكثرها مكانة في جامعتي دمشق وحلب، بعد رحيله عن سورية إلى المملكة الأردنية الهاشمية للتدريس في جامعاتها، ثم إلى المملكة العربية السعودية للاستفادة من خبرته النادرة ومشُورته الصائبة التي كانت محلّ الاعتبار والرضا في المؤسَّسات العلمية كافّة في المملكة العربية السعودية بمجامعها المختلفة، وفي غيرها من البلدان الإسلامية شرقاً وغرباً.

وقد شارك رحمه الله تعالى في وضع العديد من مشاريع القوانين في البلدان العربية، كما ساهم في شرح وتنقيح بعض منها، من ذلك: قانون الأحوال الشخصية السوري، والقانون المدني الأردني. . .

اللبنة الأولى في صرح الموسوعة الفقهية:

كما وضع رحمه الله اللبنة الأولى في صرح الموسوعة الفقهية في دولة الكويت عام ١٩٦٧م، ومشى فيها خطوات ثابتة هامة كانت العمدة في استمرار هذه الموسوعة إلى يومنا هذا بحمد الله تعالى، وتوفيقه، على يد نخبة من أبناء الكويت الأمناء والعديد من الفقهاء المتخصصين.

منهجه في الفقه والفتوى:

كما كان رحمه الله تعالى مصدراً هاماً للفتوى في العالم الإسلامي، وقد صدر عنه فتاوى كثيرة في حياته كانت مميّزة وذات طابع اجتهادي خاص، فهو رحمه الله تعالى وإن كان حنفيّ المذهب، إلا أن فتاواه لم تكن تقف عند حدود هذا المذهب، ولكن تعدّته إلى المذاهب الثلاثة الأخرى: المالكي والشافعي والحنبلي، وربما جَنَحَ إلى ترجيح آراء ابن تيمية في بعض المسائل، أو اتّجه اتجاهاً خاصاً متفرّداً في بعض الأحكام ـ وبخاصة المُسْتجدّة منها ـ إلى ما يراه راجحاً ومُحقّقاً للمصلحة، وربما وافق في توجُّهه هذا أكثر الفقهاء أو بعضهم، وربما خالفهم فيه جميعاً غير آبهٍ بخلافهم، مثل إباحته التأمين ضد الأخطار، والتأمين على الحياة، لدى شركات التأمين التجارية، فقد عُرِضَ هذا الموضوع على مجمع الفقه الإسلامي، فاتّجه جميع أعضائه فيه إلى المنع، لما فيه من الغَرَر، وتفرّد الشيخ الزرقاء دونهم بإباحته، لما رآه من المصلحة، وقياساً له على عقد الموالاة وغيره، وهذه الميزة في الشيخ يعدّها البعض من ميزاته الإيجابية، لما بلغه رحمه الله تعالى من العلم، وما وصل إليه من القدرة على التحليل والاستنتاج، ويعدّها آخرون من سلبياته التي تجرّأ فيها على مخالفة الأكثرية، والخروج على الجماعة.

وهو في نظري مأجور فيها إن شاء الله تعالى مصيباً كان أو مخطئاً، لأنه عالم ومحقّق بذل جهده كاملاً، فثبت أجره على الله تعالى، لقول النبيّ ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» متفق عليه.

فنسأل الله تعالى لفقيهنا وفقيدنا الغالي الرحمة والرضوان، والمقام العالي في جنّات الخُلد، مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وأن يعوض الله تعالى العالم الإسلامي بخسارته فيه خيراً، وأن يثيب الفقيد الغالي عما قدم للمسلمين عامة وللفقه الإسلامي خاصة من علوم ومعرفة جناتٍ عرضها السماوات والأرض، وأن يرزقَ أهله وذويه وطلابه ومحبيه كافّة الصبر والسلوان، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

تُوفي الشيخ رحمه الله تعالى في مدينة الرياض عصر يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠، الموافق ٣ تموز ١٩٩٩م.

طَرَفٌ من أخباره الأُسريّة رحمه الله تعالى:

ولد رحمه الله بمدينة حلب عام ١٣٢٢ في بيئة إسلامية وأسرة علمية، فوالده العلامة الفقيه الشيخ أحمد الزرقاء صاحب كتاب «شرح القواعد الفقهية» المتوفى عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م)، وهو أحد من ترجم له الشيخ العلامة عبدالفتاح أبو غدة تلميذه رحمة الله عليهما في كتابه «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري». وجدّه هو علامة حلب الفقيه العُمدة المحقق الشيخ محمد الزرقاء المتوفى عام ١٣٤٣هـ.

يطلق الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله على سلسلة العلم هذه: الشيخ مصطفى ـ الشيخ أحمد ـ الشيخ محمد: سلسلة الذهب.

وتتابع الاهتمام بالعلم في هذه الأسرة العلمية لدى ابن الشيخ مصطفى الثاني: الدكتور أنس، فهو من العلماء في الاقتصاد الإسلامي.

والدته هي السيدة زينب بنت الحاج محمد جَلَب، وكانت امرأته صالحة، ولما حملت به رأت في الرؤيا رسول الله ﷺ يُبشّرها بأنها حامل بذكر وأوصاها بتسميته مصطفى.

جاءه من زوجته الأولى (وطفاء الأميري) أولاده: نوفل وهو أكبرهم ـ وأنس ـ ورُفيدة، وتوفيت ـ رحمها الله ـ عام ١٩٤٢؛ ثم تزوج من (فخرية

طاهر الذيل) وجاءه منها: مازن وعامر، وتوفيت ـ رحمها الله ـ عام ١٩٨٣، وحزن عليها حزناً شديداً ورثاها بقصيدة من عيون قصائد الرثاء.

كما تُوفي في حياته ولده الطبيب مازن، ثم ولده الأكبر المهندس نوفل الذي قال فيه إثر وفاته:

كان التيتُّم للصغار بفقدهم آباءهم، فإذا الأمور تُبَدَّل
فاليوم فقدك يا بنيّ أضاعني وأراك قد يتّمتني يا نوفل

آثاره العلمية ـ رحمه الله تعالى ـ:

١ ـ سلسلة (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) وصدر منها: المجلدان الأول والثاني بعنوان: «المدخل الفقهي العام»، والمجلد الثالث بعنوان: «المدخل إلى النظرية العامة للالتزامات في الفقه الإسلامي»، الذي نال به جائزة الملك فيصل العالمية في عام ١٩٨٤، والمجلد الرابع بعنوان: «عقد البيع». ٢ ـ شرح القانون المدني الأردني في ثلاث مجلدات. ٣ ـ أحكام الوقف (جزء لطيف). ٤ ـ في الحديث النبوي. ٥ ـ العقل والفقه في فهم الحديث النبوي. ٦ ـ الاستصلاح والمصالح المرسلة. ٧ ـ الفعل الضار والضمان فيه. ٨ ـ نظام التأمين والرأي الشرعي فيه. ٩ ـ الفقه الإسلامي ومدارسه. ١٠ ـ عظمة محمد ﷺ مجمع العظمات البشرية. ١١ ـ عقد الاستصناع وأثره في نشاط البنوك الإسلامية. ١٢ ـ صياغة شرعية لنظرية التعسّف في استعمال الحق.

وقدّم لكتاب (مشروع قانون الأحوال الشخصية الموحّد) الذي كان أحد أعضاء اللجنة التي قامت بصياغته، كما قدّم لكتاب والده النفيس (شرح القواعد الفقهية)، ولكتاب تلميذه العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدّة (صفحات من صبر العلماء).

وجُمِعَ شعره في كتاب بعنوان (قوس قزح)، لتنوّع مواضيع قصائده كتنوّع ألوان قوس قزح، كما جمعت فتاواه المتفرقة في كتاب ضخم بعنوان

(فتاوى مصطفى الزرقاء) صدر حديثاً مع ترجمة حافلة للشيخ ـ رحمه الله ـ بقلم جامع الفتاوى: الشيخ مَجْد مكي.

نماذج من فتاوى الشيخ مصطفى الزرقاء ـ رحمه الله ـ:

مشكلة في الحجاب لدى أجنبيات يعتنقن الإسلام؟

سُئل الشيخ رحمه الله من مسلمين مغتربين في أمريكا ما يلي: عدد من النساء اعتنقن الإسلام عن قناعة ورضا، غير أن موضوع الحجاب ظل صعباً عليهنَّ الالتزام به، سواء بسبب الاقتناع ـ خاصة وهُنَّ يرين من بين المسلمات العربيات وغيرهن من لا يتحجبن ـ أو الصعوبة التي تواجههن إذا أردن إكمال حياتهن موظفات وعاملات كما تقضي ضرورة الحياة هناك.
والسؤال: هل الأفضل أن يتأخر إعلان هؤلاء إسلامهن مع استمرارهن في مرحلة الدراسة والبحث حتى يشرح الله صدورهن للتحجب؟ أو ينبغي أن يرخص لهن ويرحَّب بهن على ما هُنَّ عليه من قناعات؟

فأجاب رحمه الله بما يلي:

«إنَّ من اعتنقن الإسلام من النساء الأجنبيات عن قناعة ورضا، ويصعب عليهنَّ الالتزام بالحجاب ـ ستر ما يجب ستره من بدن المرأة ـ لا نستطيع تغيير حكم الإسلامي الشرعي لأجلهن وإباحة السفور والحسور لهن، لأن هذا التناقض عندئذ في حكم الإسلام بين الإباحة والمنع.

ولكن إذا سفرن وحَسَرن يجب أن يكون هذا على اعتقاد أن هذا حرام في الإسلام، أما اعتقاد أنه حلال لا يحرمه الإسلام فهذا ينافي الإسلام.

ففرق كبير في النظر الإسلامي بين العاصي لأوامر الله عزَّ وجلَّ مع اعتقاد الحرمة وبين المستبيح، فالمستبيح للمحرَّم القطعي كافر. وذلك كمن يشرب الخمر عاصياً فهو مسلم ومن يراها مباحة فهو كافر.

وعلى هذا يكون ممارسة السفور والحسور من هؤلاء المسلميات

الجديدات دون اعتقادهن للإباحة ـ بل بانتظار أن تقوى إرادتهنّ وعزيمتهنّ ـ أولى من بقائهن على الكفر، والله أعلم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء» اللهمّ اجعلنا منهم.

وبهذه المناسبة أقول: يجب إفهام هؤلاء النسوة أنّ احتمالهن لهذا الحجاب اليسير وإن كان فيه بعض المشقة عليهن: فيه لهنّ ثواب إضافي عند الله أكثر ثواباً لمن تعيش في بيئة إسلامية.

العيوب التي يجب ذكرها للخاطب:

وكتب إليه رحمه الله أحد الأشخاص سائلاً:

هل يجب على والد المخطوبة أن يذكر للخاطب جميع العيوب الخِلْقية والخُلُقية، فمنها العيوب التي لا تؤثر في دوام الحياة الزوجية مثل بعض الأمراض المستعصية غير المعدية أو التي يلزمها علاج طويل؟ وفي حال أن الخاطب لم يسأل فهل يلزمه المبادرة بذكر هذه العيوب، علماً أن بعض العيوب لا تظهر للخاطب عندما يرى خطيبته ولا لأهله؟

فكتب رحمه الله إلى السائل مجيباً:

«العيوب التي يجب ذكرها للخاطب هي الأمراض المعدية، أو التي تُزعج الحياة الزوجيّة كالصّرع، أو العيوب الجنسيّة كالرّتق، هذا ما يبدو لي، والله أعلم».

موقف الإسلام من تحديد النّسل:

وجاءه رحمه الله السؤال التالي:

يكثر اليوم الكلام والحديث عن ضرورة اتّخاذ تدابير عامة في البلاد لتحديد النسل، فما موقف الإسلام من هذه الدعوة في البلاد الإسلامية؟

فأجاب طيّب الله ثراه:

«ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تزوّجوا الودود الولود فإني مكاثر**

بكم الأمم»، ورُوِيَ أيضاً بإسناد غير قوي ـ ولكن تعضده مؤيدات من الأدلة ـ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «تناكحوا تكثُروا، فإني أُباهي بكم الأمم يوم القيامة».

وفي هذه دلالة على أن تحديد النسل بأيّ وسيلة من الوسائل لا يجوز في ظلّ الإسلام بأن يكون هدفاً عاماً في الدولة تهدف إليه، وتخطّط له، وتحمل عليه الناس بتدابير عامة. فلا يزال ولن يزال العدد البشري في كل أمة من أهم مقاييس شأنها في الأنظار الدولية، وقابليات قدرتها وقوّتها.

ولكن لا يوجد مانع شرعي في الإسلام من اتخاذ تدابير شخصية ـ أي في نطاق شخصي غير عام ـ من كلّ فرد بحسب ظروفه الخاصة وقدرته المالية، بتحديد نسله بطرق مَنْع الحمل دون طرق الإجهاض التي فيها عدوان على جنين متكوّن إلا في حالات الضرورات التي تصل إلى درجة إباحة المحظورات كضرورة إنقاذ حياة الأم التي توقف الإنقاذ على إسقاط حَمْلها.

هذا ما تدلّ عليه النصوص الشرعية وعموماتها وكلام الفقهاء. وهو الموقف الذي استقرّ عليه رأي علماء الشريعة الإسلامية المعاصرين في عدّة مناسبات وحلقات اجتماعية: كمهرجان الغزالي بجامعة دمشق سنة ١٩٦١، ومؤتمر تنظيم الوالِديَّة في الرباط عاصمة المملكة المغربية سنة ١٩٧١، وفي كليهما اشترك فقهاء العصر على مستوى البلاد العربية والإسلامية، وقرروا هذا الموقف. كما قرّره أيضاً العلامة المحقق الداعية الإسلامي الشيخ أبو الأعلى المودودي في كتابه القيم عن الدعوة إلى تحديد النسل وموقف الإسلام منها.

حكم مشاركة غير المسلم أو مَنْ في ماله ربا:

وجاءه رحمه الله السؤال التالي:

هل تباح مشاركة أحد من هؤلاء في عمل تجاري: ١ ـ النصراني؟ ٢ ـ المرتدّ عن الإسلام بإنكار معلوم من الدين بالضرورة؟ ٣ ـ الذي في ماله ربا أو في ماله رشوة أو مال مغصوب؟

فكان جوابه رحمه الله:

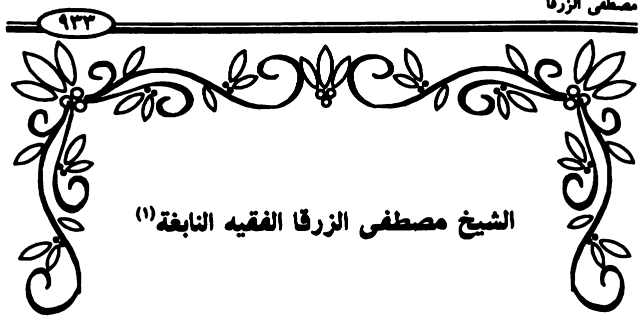
١ ـ تجوز مشاركة النصراني بالتجارة.

٢ ـ المرتدّ عن الإسلام لا تجوز معاملته.

٣ ـ الذي في ماله ربا أو حرام آخر تُكره معاملته ومشاركته.

هذه الفتاوى من كتاب «فتاوى مصطفى الزرقا» التي قام على جمعها وترتيبها تلميذه الشيخ مَجْد مكي وفقه الله ورعاه، طبعة دار القلم ـ دمشق، عام ١٤٢٠، الصفحات: ٢٦٦ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٢ ـ ٢٧٦ ـ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ـ ٥٦٠.





الشيخ مصطفى الزرقا الفقيه النابغة[1]

بقلم تلميذه: مجد مكي

بين الشيخين الزرقا والطنطاوي:

تتابعت المصائب، وتتالت الأحزان في فقد علماء الأمة، فما كدنا نفيق بالأمس القريب من ألم الوداع وحزن الفراق لشيخنا العلامة الأديب الأستاذ علي الطنطاوي حتى حلَّت بنا نكبةٌ أخرى بوفاة الأستاذ الجليل والفقيه الكبير العلامة الشيخ مصطفى الزرقا... رحمه الله تعالى.

وكان بين الشيخين صلة وثيقة وأخوةٌ متينةٌ، ابتدأت بالدراسة في مكتب عنبر، وكلية الحقوق بدمشق، واستمرت بعد تخرجهما في حقول العلم والفقه وميادين التربية والدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ.

وكم سمعتُ من أستاذنا الزرقاء من كلماتِ الثناءِ والتقدير لصديقه الوفيِّ الحفيِّ الطنطاوي، وهو يعدُّه من أبرز العلماء المعاصرين الذين أعجب بهم.

وما أكثر ما سمعت من أستاذنا الطنطاوي من مشاهد وذكريات مع الأستاذ الزرقا تُنبئ عن كريم أخلاقه، ورفيع سجاياه... وما أكثر ما كان

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/١/١٦م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

يُشيد بعلمه وفقهه، وتفرُّده بين أقرانه بدقة الفهم وسَعَة الاطلاع، ويدعو الله عزَّ وجلَّ أن يُطيل عمره، وينفع الأمة بآثاره، وكم كانت فرحته غامرة عندما أهديته كتاب: «فتاوى مصطفى الزرقا»، الذي قمتُ بجمعه وترتيبه.

ومن لطيف ما يذكره الشيخ الطنطاوي عن صديق عمره الزرقا: أنه اختلف معه أيهما أكبر سناً من الآخر؟ حتى اعترف له بعد ثلاثين عاماً أنه يكبره بخمس سنوات... ثم يقول بتواضعه المعهود: هو أكبر مني سناً وعلماً.

تعزية الزرقا بصديقه الطنطاوي:

ولما علم الأستاذ الزرقا بوفاة الطنطاوي تأثر بفقده، وأرسل بخط يده المرتعشة فاكساً أو فقساً كما عربّه شيخنا الزرقا ـ من فَقَس يفقس ـ مُعزياً بوفاته، قال فيه: «إلى آل فقيد الأمة الإسلامية: الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله: بلغني وفاة الفقيد الفقيه الأديب الكبير العلامة الشيخ علي الطنطاوي، وأنا مريض في الفراش، فأتقدّم بالتعزية للآل الكرام، وللأمة الإسلامية، سائلاً المولى أن يعوّضها وإيّانا خيراً، ويجزيه أحسن الثواب. مصطفى أحمد الزرقا».

لقد ودَّعنا بوفاة العلامة الزرقا نمطاً فريداً من العلماء، في رجاحة العقل، وفقه النفس، ودقَّة الفهم، والإحاطة بعلوم الشريعة، والمعرفة بواقع العصر.

ساعده على ذلك ـ بفضل الله وتوفيقه ـ عدة أسباب: البيئة العلمية الصالحة أولاً، وتلقيه العلم عن كبار علماء الشام ثانياً، ودراسته العصرية ثالثاً، ومباشرته للتدريس والإفادة في وقت مبكر رابعاً، وإسهامه في التحقيق والتأليف خامساً، ومشاركاته الفعّالة في المجامع الفقهية والعلمية سادساً، ونشاطاته الدعوية وجهوده الإصلاحية سابعاً.

البيئة العلمية الصّالحة:

١ ـ ولد الأستاذ الزرقا بمدينة حلب سنة ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م من أبوين صالحين، ونشأ في بيئة علمية حافزة على الطلب والتحصيل، حيث تربّى

تحت نظر جده العلامة الكبير الشيخ محمد الزرقا ـ ت١٣٤٢هـ ـ وفي رعاية والده الفقيه الضليع الشيخ أحمد الزرقا ـ المتوفى ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ ـ رحمهما الله تعالى. فنشأ في ذلك الجو العلمي النابض، وظهرت عليه ملامح النجابة والذكاء منذ طفولته.

تلقِّيه العلم على كبار علماء بلده:

٢ ـ وساعده على ذلك النبوغ أيضاً: تلقِّيه العلم على كبار علماء حلب الشهباء، ولا أعرف أحداً من المعاصرين يساويه في طبقة شيوخه الكبار الذين درس عليهم؛ ومن أبرزهم: العلامة الفقيه النحوي الشيخ أحمد المكتبي الشافعي ـ ت١٣٤٢هـ ـ والشيخ محمد الحنيفي المتوفى بجدة سنة ١٣٤٢هـ وهو من أعظم شيوخه تأثيراً فيه، بالإضافة إلى والده الفقيه الكبير، وإلى العلامة المؤرخ المحدث الشيخ محمد راغب الطباخ ـ ت١٣٧٠هـ ـ.

ومن أساتذته أيضاً: الشيخ أحمد الكردي ـ ت١٣٧٣هـ ـ أمين الفتوى بحلب، والشيخ إبراهيم السلقيني الجد ـ ت١٣٦٧هـ ـ والشيخ عيسى البيانوني ـ ت١٣٦٢هـ ـ والشيخ محمد الناشد ـ ت١٣٦٢هـ ـ.

كما حضر في دمشق أثناء دراسته الجامعية دروس العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد بدر الدين الحسني ت١٣٥٤هـ.

دراسته العصريَّة:

٣ ـ ومن عوامل نبوغه وتفوُّقه أيضاً: إضافةً إلى بيئته العلمية، وشيوخه الكبار، ودراسته الشرعية العميقة، معرفته باللغة الفرنسية والعلوم العصرية، حيث ألحقه والده وهو دون سنِّ العاشرة بمدرسة الفرير، وتلقَّى فيها مبادئ اللغة الفرنسية... ثم تابع بجهوده الشخصية دراسته العصرية، فنال شهادة البكالوريا الأولى في شعبة ـ العلوم والآداب ـ وحصل على الدرجة الأولى على طلاب سورية جميعهم، ثم توجَّه إلى دمشق سنة ١٩٢٩م بمتابعة دراسته العصرية، ونال البكالوريا الثانية في شعبة ـ الرياضيات والفلسفة ـ وأحرز الأوَّليَّة أيضاً، والتحق بعد إحرازه البكالوريا الثانية بالجامعة السورية، ودرس في كليتي الحقوق والآداب العليا، وتخرج في الكليتين،

وأحرز الدرجة الأولى، ومن أساتذته في تلك المرحلة: الشيخ عبدالقادر المبارك، وعبدالقادر المغربي، وسليم الجندي، وشاعر الشام شفيق جبري... ولما انتهى من دراسته الجامعية كتب قصيدة بعنوان: «وداع حياة الطلب» في ٣٤ بيتاً، عبر فيها عما قاساه من مشقة الدراسة، افتتحها بقوله:

نِعْم ما نوّلتني من أربي فوداعاً يا حياة الطلب

وتُظهر هذه القصيدة ما تتطلّع إليه نفسه الطموح من مستقبل علمي زاهر، وما يتحلى به من همّة عاليةٍ، وصبر وعزم لتحقيق ما يصبو إليه، فيقول مخاطباً نفسه:

وادّرع بالصبر في طول الطريق فهو في درب العُلا خير رفيق
إن مُرّ الصبر يغدو كالرحيق حين تحظى ببلوغ الأرب

تدريسه في عدد من المدارس والجامعات:

٤ - ومن عوامل نبوغه وتفوقه كذلك: مباشرته للتدريس في وقت مبكر، حيث تولى التدريس مكان والده في المدارس التي كان يدرس فيها، في المدرسة الخسروية والشعبانية، كما تولى القيام بالدرس الذي كان لوالده في الجامع الأموي بحلب، وجامع الخير، ولذلك درس الكثير من الطلبة الذين هم أكبر منه سناً، وألحق الأحفاد بالأجداد.

ولم يقتصر نفعه وتأثيره في محيط بلده، بل عمَّ نفعه الكثير من البلاد والعباد، فانتقل إلى دمشق للتدريس في كلية الحقوق عام ١٩٤٤م، وبقي فيها أستاذاً للحقوق المدنية والشريعة، حتى بلوغه سن التقاعد في آخر عام ١٩٦٦م، كما درس في كلية الشريعة بدمشق بعد إنشائها سنة ١٩٥٤م، ودرس في معهد الدراسات العربية العالية، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، ثم درس في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية عام ١٩٧١م، وظل بها حتى عام ١٩٨٩م، وتخرج على يديه، وتربى على منهجه العلمي نخبة من كبار العلماء، الذين تبوؤوا أرفع المناصب العلمية، والذين يُكنون له كل محبةٍ وتقدير ووفاء.

تحقيقاته ومؤلفاته:

٥ ـ ومن عوامل نبوغه وتفوّقه أيضاً: إسهامه في التأليف والتحقيق منذ وقت مبكر من عمره، ساعده على ذلك: ثقافته اللغوية والأدبية الراقية، وعلومه الشرعية الواسعة، إضافة إلى تشجيع شيخه العلامة المؤرخ الشيخ: محمد راغب الطباخ. . . ومن أوائل أعماله العلمية: تحقيقه لكتاب: «المذكر والمؤنث» للفراء المتوفى سنة ٢٠٧، وكتاب: «مختصر الوجوه في اللغة» للخوارزمي، وقد طبعا بحلب سنة ١٣٤٥هـ، وكانت سنُّه آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة.

وعندما عُيِّن الشيخ الزرقا أستاذاً لتدريس الحقوق المدنية والشريعة الإسلامية، قام بعرض الفقه بأسلوب عصري جديد، ساعده على ذلك ذخيرته من الدراسة القانونية وبحوثها ومناهجها ونظرياتها، فقرّب الفقه، وحلَّ عقده، وأسلس قياده لطلاب الجامعة الذين ليس لديهم خلفية علمية تؤهلهم لاستيعاب قضاياه.

وقد وفَّقه الله لإخراج سلسلتين من المؤلفات: أولاهما: السلسلة الفقهية، وعنوانها العام: «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد»، وقد بلغت أجزاؤها أربعة مجلدات: الجزء الأول والثاني: «المدخل الفقهي العام» والجزء الثالث: «المدخل إلى نظرية الالتزام العامة في الفقه الإسلامي»، والجزء الرابع: «العقود المسمَّاة في الفقه الإسلامي: عقد البيع».

وأما السلسلة الثانية: فتتألف من ثلاث مجلدات في: «شرح القانون المدني السوري». وقد حوت هذه السلسلة مقارنات كثيرة بالفقه، وأبرزت بوضوح ما يتميز به الفقه الإسلامي من إحاطة ودقة وشمول.

ومن أواخر ما صدر للشيخ رحمه الله تعالى: «فتاوى مصطفى الزرقا»، التي جمعتها من عدد من الدوريات، وما اجتمع لدى الشيخ من إجابات على أسئلة يُسأل عنها، فقمت بترتيبها والعناية بها، وكتابة مبحث عن منهجه في الفتوى، كما قدّم لها الدكتور القرضاوي ـ حفظه الله ـ بطلب من فضيلة الشيخ الزرقا مقدمة ممتعة. . . وقد لقي هذا العمل استحساناً وثناءً من جلة أهل العلم والفضل، والحمد لله على فضله وتوفيقه، وسيتبعه ـ بعون الله ـ بحوثه الفقهية، ومقالاته العلمية والأدبية.

مواهبه الأدبية وملكته الشعرية:

ولم تقتصر مؤلفات الشيخ على الجوانب الفقهية والقانونية، بل كانت له مشاركات لغوية وأدبية شعرية، وقد تميز الشيخ بمواهبه الأدبية ومَلَكته الشعرية منذ صغره، وأُولع بحفظ طائفة كبيرة من أصليه... وقد جمع كثيراً من شعره في ديوانه «قوس قزح» وقدَّم لكل قصيدة بمقدمة يذكر فيها المناسبة التي قيلت فيها، ولم يطغ الشعر على قريحة الأستاذ الزرقا، ولم يستحوذ على اهتماماته العلمية إلا بمقدار، ذلك أن الفقه الإسلامي، وبحوثه المتشعبة، ومسائله الشائكة، ونوازله المستجدّة المعقّدة، كان يحتل بؤرة شعوره، ويملأ بياض أيامه وسواد لياليه، كما عبر عن ذلك في قصيدته لصديقه الشاعر إبراهيم العظيم:

أخذ التفقُّه من فؤادي شِعرَه ... نَغَماً ألذَّ لديَّ من قَطْر النَّدى
وأعاضني بثقافةِ الحقّ الذي ... نادى الإله بحكمه وتوعَّدا
لا تَبْغ مني أن أجيب فإنني ... مهما جريت وجدتني دون المدا
دم في فضائلك العلا متفرداً ... مني الطروب ومنك غريد شدا

مشاركته في المجامع الفقهيّة والعلميّة:

٦ ـ ومن عوامل نبوغ الشيخ وتفوقه إضافة إلى كل ما ذكرته من أسباب يسّرها الله عزّ وجلّ له ووفّقه إليها: مشاركاته الفعّالة في المجامع الفقهية والعلمية، وإدارته لكثير من المشاريع العلمية، فهو من أوائل الذين دعوة إلى إنشاء الموسوعة الفقهية، عندما كان مدرساً في كلية الشريعة، واختار للبدء بهذا المشروع كتاب: «المحلى» لابن حزم، وقد أتمّ هذا العمل الدقيق الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، وصدر كتاب: «معجم الفقه الظاهري» مستخلصاً من «المحلّى» في مجلدين.

ثم اختارته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت سنة ١٩٦٦ خبيراً للموسوعة الفقهية، وبقي في الكويت خمس سنوات قائماً بهذه المهمة خير قيام، حيث أنجز من مشروع: «الموسوعة الفقهية» ـ ٥١ موضوعاً

موسوعياً محرَّراً على المذاهب الفقهية الثمانية ـ، ومعجماً للفقه الحنبلي يقع في ١١٤٢ صفحة مرتَّباً ترتيباً هجائياً بإشرافه.

كما اختارته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عضواً في المجمع الفقهي منذ إنشائه عام ١٣٩٨هـ، وقدم للمجمع عدة دراسات فقهية معاصرة.

وله مشاركات علمية أخرى، منها: مشاركته في وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية السوري عام ١٣٧٢، ورئاسته لجنة مشروع القانون الموحَّد للأحوال الشخصية لمصر وسوريا خلال وحدتهما (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) وقد قام الأستاذ الزرقا بنشر هذا المشروع المهم، وقدَّم له، وصدر عن دار القلم بدمشق.

كما شارك في تأسيس وتطوير مناهج عدد من الجامعات، وشارك في كثير من المؤتمرات.

جائزة الملك فيصل العالمية:

وقد منح الأستاذ مصطفى الزرقاء جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٤٠٤، وذلك تقديراً لإسهاماته المميزة في مجال الدراسات الفقهية، ومشاركاته الجادة في المؤتمرات الفقهية والإسلامية.

كثرة أسفاره وتعدُّد رحلاته:

٧ ـ ومن عوامل نبوغه: كثرة أسفاره وتعدد رحلاته العلمية في آفاق الأرض، ممّا وسَّع مداركه وآفاقه العلمية، وعمَّق معرفته بواقع الناس وأحوال العصر، وغرس في نفسه روح الاستقلال الفكري، وهو يصور نفسيته الأبية الطموح بهذه الأبيات الجميلة التي أنشدها عند تخرّجه من الجامعة:

إيهِ أصبحت طليقاً طائري ... فازم ذا الجو بصقر صاقرِ
ثم حلِّق واكتشف وغامر ... وَرِدِ الأنهار حُرَّ المَشْربِ
عِشْ طليقاً في رُبى المستقبل ... واغتنم كل ربيع مقبل

واحذر الأقفاص لا تستجمل ... قفصاً يوماً ولو من ذهبِ
تلك نفسي طائراً صوّرْتُها ... وإلى أوْجِ العُلا طيَّرْتُها
وبنور العلم قد نورتها ... فبدت في أفقه كالكوكبِ

نشاطاته الدعويَّة وجهوده الإصلاحيَّة:

٨ ـ ومن عوامل نبوغه: مشاركته في الدعوة الإسلامية، وتعرفه على أعلامها في كل قطر، وتعاونه مع العاملين للإسلام، وجهوده الإصلاحية في مشروع توحيد المدارس الوقفية ورفع مستوى الدراسة الشرعية، التي قام بها في بواكير شبابه في مدينة حلب مع بعض فضلاء شيوخه... وقد لقي العنت من المناوئين لفكره الإصلاحي، مما أورثه ضيقاً نفسياً شديداً، وصفه بتلك الأبيات المعبرة عما يلقاه المصلحون النابغون من أذى وإرجاف:

نبوغ النابغين إلى اختناق ... وكل مبرز هدف لطعن
يبيتُ لديغ بهتان وحقد ... ويمشي بين حسّاد وضغن
جزاء المصلحين مزيدُ بغض ... وإيذاءٌ بألوان التجنّي
فذا صَنَمٌ من الأشخاص يمشي ... وذا صنم من الأحجار مبني

ميادين العمل السياسي:

وامتدت جهوده الإصلاحية والدعوية إلى ميادين العمل السياسي، فانتخب نائباً عن مدينة حلب في المجلس النيابي مرتين، وشكل مع مجموعة من الإسلاميين في مجلس النواب: «الجبهة الإسلامية» كما استلم منصب وزارتي العدل والأوقاف مرتين، سنة ١٩٥٦ و١٩٦١، ولم تشغله أعماله السياسيَّة في النيابة والوزارة عن التدريس الجامعي، وعمله العلمي، بل نمت مواهبه، وزادت من معرفته وأغنته بالتجربة والخبرة.

إيثاره العلم والدراسة:

ولم ينقطع الشيخ عن العلم دراسة وتأصيلاً ومتابعة خلال عمره

المديد، وقد أقام منذ سنة ١٤١٠ بالرياض مستشاراً فقهياً في شركة الراجحي، وكان الشيخ يؤثر العمل والوظيفة رغم أعراض الشيخوخة وتوارد الأمراض عليه، التي كان يتغلب عليها بالعلم، ويتسلى عنها بالبحث والدراسة، فكانت تعرض عليه القضايا المالية الشائكة، فيبدي فيها رأيه الحصيف، ويقول فيها قوله الفصل، وكان من آثر الإخوة لديه في تلك المرحلة الذين لازموه واستفادوا من علمه ومنهجه الدكتور علي أحمد الندوي من تلاميذ مولانا العلامة السيد أبي الحسن الندوي حفظه الله ورعاه.

لقاءاتي بالشيخ الزرقا:

وقد تكرّرت لقاءاتي بالشيخ في حلب وعمان ومكة وجُدة والرياض، ولا سيّما في المجالس التي كان يزور فيها منزل الأستاذ الباحث محمد بن عبدالله الرشيد، ويجتمع فيها ثلّة من أهل الفكر والعلم.

وكانت آخر زيارة له في الرياض يوم الخميس ٢٧ محرم ١٤٢٠هـ بصحبة الأخ الأستاذ سلمان بن عبدالفتاح أبو غدة، وكان حاضرَ الذهن، قويَّ الذاكرة، يحلُّ قضايا الفقه الشائكة، ومسائله المعقّدة، وقد بقي ممتّعاً بجوارحه وحواسه ومَدَاركه إلى يوم وفاته، وقد قارب المائة من عمره، وبقي مهتماً بقضايا الفقه ومباحثه، حاملاً لأمانة العلم والدين. وقد حدثني ابنه الفاضل الدكتور: أنس، أنه قُبيل وفاته بساعتين، عُرضت عليه مسألة علمية تتعلق بالمعاملات المالية، وسُئل عن دليلها، فاستخرج لها من القواعد الفقهية ما يدلّل عليها... وبقي بعد انصراف المستفتين يضيف إلى الفتوى وينقّح فيها حتى وافته المنية بعد أذان صلاة العصر يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠هـ.

رحم اللهُ شيخَنا الجليل، وأخلف على الأمة بفقدان أهل العلم وموت أعلامه... لا سيّما في هذه المرحلة التي تتابع فيها موت العلماء الأعلام، فقد فقدنا منذ أيام الشيخ منّاع القطان، الذي توفي في الرياض يوم الأحد ٥ ربيع الآخر، والعلامة المفسر الفقيه الشيخ محمد عطية سالم الذي توفي في المدينة المنورة يوم الاثنين ٦ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا إليه راجعون.

الشيخ عطية محمد سالم
المفسّر الفقيه الواعظ(١)
(١٣٤٦ ـ ١٤٢٠هـ = ١٩٢٧ ـ ١٩٩٩م)

بقلم: مَجْد مكي

المفسّر الفقيه المدرِّس في المسجد النبويّ:



إذا دخلتَ المسجد النبويّ المُطهَّر من باب الرحمة ـ بعد صلاة المغرب ـ ستجد على يسارك في أول التوسعة السعودية حلقةً نورانية يتصدرها شيخ مهيب الطلعة، مُنوَّر الشيبة، جميل الصوت، حسن الأداء، واضح العبارة، تحيط به أعداد كبيرة من طلاب العلم من مختلف المستويات. . .

وستجد نفسك منساقاً للجلوس مع هذا الجمع المبارك، فتشعر بالسكينة تتنزل عليك، والرحمة تغشاك، والملائكة تحفك، وتعود من ذلك الدرس بالفائدة والخير العميم والنفع الكبير.

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/١/٦م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com. وكانت نشرت قبل ذلك في مجلة «النور» الكويتية.

إنه مجلس العلامة الشيخ: عطية سالم. الذي فُجع المسلمون بوفاته بالمدينة المنورة في يوم الاثنين ٦ ربيع الثاني ١٤٢٠هـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين عاماً، قضاها في العلم والتأليف والتدريس والإرشاد.

ووفاءً لهذا العالم الجليل، وتذكيراً للأجيال بما قدَّمه من آثار علمية وعملية، أسوق هذه الكلمة الموجزة في التعريف به:

ولادته ونشأته وقدومه إلى المدينة المنورة:

هو العلامة المفسِّر المحدِّث الفقيه الواعظ الشيخ عطية محمد سالم، ولد سنة ١٣٤٦هـ بمديرية الشرقية بمصر، وابتدأ دراسته بكتاتيب القرية، وانتقل بعدها إلى المدرسة الأولية، وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات، ثم قدم إلى المدينة المنورة في الثامنة عشرة من عمره عام ١٣٦٤هـ.

دراسته في المسجد النبويّ وأشهر شيوخه:

وبدأ دراسته في المسجد النبويّ الشريف على عدد من علماء المدينة المنورة، ومنهم:

الشيخ عبدالرحمٰن الإفريقي، والشيخ محمد التركي، والشيخ محمد علي الحركان، والشيخ عمار الجزائري، رحمهم الله جميعاً.

كما حضر بعض دروس شيخه العلامة: محمد الأمين الشنقيطي في التفسير أول قدومه إلى المدينة المنورة.

انتسابه إلى المعهد العلمي في الرياض وتخرجه في كليّتي اللغة العربية والشريعة:

ولما فتحت المعاهد العلمية، والكليات الشرعية عام ١٣٧٠هـ، انتقل إلى الرياض، فدرس الثانوية الثانية، ثم المعهد العالي، ثم في كليتي اللغة العربية والشرعية، وتخرج فيهما معاً، وكانت الدراسة آنذاك في أعلى المستويات إذ استقدم للمعاهد والكليات، كبار علماء الأزهر بالإضافة إلى كبار علماء المملكة، وهناك توطَّدت صلته بفضيلة الشيخ: عبدالرزاق عفيفي.

صلته بشيخه محمد الأمين الشنقيطي:

وأما أكثر شيوخه تأثيراً به، وأوثقهم صلة واستفادةً وبرًا ووفاءً، فهو العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فقد لازمه في الحضر والسفر لمدة عشرين سنة، واستمرَّت تلك الصلة من يوم قدوم شيخه سنة ١٣٧١هـ إلى آخر حياته ١٣٩٣هـ رحمهما الله تعالى. وامتنَّ الله عليه بصحبة شيخه الأمين في الرياض والمدينة، وفي رحلات الحج أربع سنوات متتالية، وفي الرحلة إلى إفريقية، حيث زار بصحبته عشرة أقطار بدءًا بالسودان، وانتهاءً بموريتانيا، واستمرَّت تلك الرحلة ثلاثة أشهر، وكانت علاقته بشيخه علاقة ولد مع والد، وكان شيخه يحيطه بالعناية والرعاية.

أعماله ووظائفه:

كُلِّف بالتدريس قبل التخرج، فدرس في معهد الإحساء العلمي لمدة أربع سنوات، وبعد التخرج انتقل للتدريس في معهد الرياض، ثم انتقل للتدريس في الجامعة الإسلامية عند افتتاحها عام ١٣٨١هـ باستدعاء من مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان في جملة المشاركين مع الشيخ عبدالرزاق عفيفي، ومنَّاع القطان، ومحمد العبودي، في وضع البرامج ورسم المناهج، برئاسة فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وأُسندت إليه شؤون التعليم فدرَّس الفقه والأصول.

ثم انتقل بعد ذلك إلى القضاء بتكليف من مفتي المملكة أيضاً، وابتدأ تعيينه بمرتبة قاض، ولم ينقطع أثناء عمله في القضاء عن التدريس في المسجد النبويّ، وتدرَّج في مراتب القضاء حتى وصل إلى مرتبة «قاضي تمييز» حيث أُحيل للتقاعد في ١٤١٤/٧/١هـ.

تدريسه بالمسجد النبويّ:

ابتدأ التدريس في المسجد النبويّ الشريف في وقت مبكِّر، بعد أن تمَّ وضع كرسي بجهاز باسم الجامعة الإسلامية، كان يتناوب عليه كل من فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبدالعزيز بن باز، نائب

رئيس الجامعة آنذاك. ولظروف الشيخ محمد الأمين الصحية، وكثرة أعمال الشيخ عبدالعزيز كان يقوم بإلقاء الدروس بدلاً عنهما.

ولما تولّى التدريس بشكل مباشر، شرح كتاب: «الموطأ» للإمام مالك، وسُجّل في نحو ٧٠٠ شريط، ثم شرح الأربعين النووية، وسُجّل في ٧٠ شريطاً، وفسّر سورة الحجرات، وأوائل سورة البقرة، وشرح البيقونية في المصطلح، والورقات في الأصول، والرحبية في الفرائض، وشرح كتاب: «بلوغ المرام في أدلة الأحكام» للحافظ ابن حجر، وسُجّلت جميع دروسه في أشرطة تتجاوز ١٠٠٠ شريط...

دروسه اليومية في شهر رمضان:

وكان يعقد في شهر رمضان دروساً يومية بعد صلاة العصر في أحكام الصوم، وبعض الغزوات، كما يُلقي دروساً يومية في مواسم الحج في أحكام المناسك. وجميع هذه الدروس مسجّلة على أشرطة كاسيت بالمكتبة الصوتية في المسجد النبويّ الشريف.

كما شارك في وسائل الإعلام، منذ إنشاء إذاعة: «نداء الإسلام»، وفي عدد من البرامج التلفزيونية، وكتب في عدد من الصحف والمجلات، وحضر الكثير من المؤتمرات.

مؤلّفاته:

من أبرز مؤلفاته وأهمها:

١ ـ «تتمة أضواء البيان» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، من أول سورة الحشر إلى آخر سورة الناس.

٢ ـ «ترتيب التمهيد» لابن عبدالبر، رتّبه على أبواب الفقه بدلاً من الأسانيد في اثني عشر مجلداً.

٣ ـ «موسوعة الدماء»، (وهو كتاب يشتمل على تركيب الدم وعناصره وأحكامه وتعاطيه بالنقل وإخراجه بالحجامة، ودماء النساء، ودماء الأنساك، ودماء الجنايات).

٤ ـ «عمل أهل المدينة في موطأ مالك».

٥ ـ «السؤال والجواب في كتاب الله»، وأصله حلقات بالإذاعة، ثم جُمعت وطُبعت.

٦ ـ «وصايا الرسول ﷺ»، وأصله أيضاً حلقات بالإذاعة، وجُمعت وطُبعت.

٧ ـ «في ظلال عرش الرحمٰن». شرح فيه حديث: «سبعة يظلهم الله...».

٨ ـ «آيات الهداية والاستقامة» في جزئين.

٩ ـ «موقف الأمة من اختلاف الأئمة».

١٠ ـ ومجموعة الرسائل المدينة، وقد تجاوزت أربع عشرة رسالة، منها: رسالة التراويح أكثر من ألف عام في المسجد النبوي، زكاة الحلي، مع الرسول ﷺ في رمضان، مع الرسول ﷺ في حجة الوداع، معالم على طريق الهجرة، الإسراء والمعراج، سجود التلاوة، مع المرضى.

ومن كتبه المُهيَّأة للطباعة:

«أعيان علماء الحرمين في عصر الصحابة إلى اليوم»، اختار فيه بعض مشاهير العلماء ممَّن كان لهم نشاط تعليمي في كل فترة زمنية في كلٍّ من مكة والمدينة، وتوسّع في تراجم علماء القرنين الثالث والرابع عشر، وكتاب: «موسوعة المسجد النبوي» ويشتمل على الجانب العمراني، والتعبُّدي، والعلمي، إلى غير ذلك من الأعمال العلمية.

ويتميَّز الشيخ بسَعَة الأفق، ومراعاة أدب الخلاف، وحُسن الظن بالمسلمين، والسعي إلى جمع كلمة العاملين للإسلام، والتعاون معهم في خدمة الدين.

وبوفاته أفل نجم من نجوم المدينة المنورة، وانطوت صفحة تذكّر

بالعلماء السابقين، ولا يسعنا إلا أن نتمثَّل بما قاله الإمام البخاري عندما بلغه وفاة شيخه الدارمي:

إنْ تَعِشْ تُفْجَع بالأحبة كلْهم ... وذهاب نفسِك لا أبا لك أفجع

وقد شهدنا خلال هذه السنة ١٤٢٠هـ موت كوكبة من أعلام الإسلام، وليس لنا إلا أن نقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» اللهمَّ أجُرنا في مصائبنا واخْلفنا خيراً منهم.



أبو الحسن الندوي
داعية عالمي من الطراز الرفيع[١]
(١٣٣٣ ـ ١٤٢٠هـ)
(١٩١٤ ـ ١٩٩٩م)





بقلم: حسن قاطرجي

في مثل هذا اليوم (١٩٩٩/١٢/٣١) قبل ٨ سنوات، فَقَد العالَم الإسلامي شخصيةً كبيرة من علمائه ودُعاته، وشاهداً من أصدق الشهود في القرن العشرين على أحداثه وتطوراته والخيوط الدقيقة الخفية التي تكمن وراء تدهوره وضعفه وتشرذمه واستلاب استقلاله وهويته.

وداعية من أعظم دعاته الربانيين ومفكريه العميقين: إنه الإمام العلامة المفكر الإسلامي والداعية الربّاني أبو الحَسَن عليّ الحَسَني النَدْوي رحمه الله وأغدق عليه شآبيب محبته ورضوانه، ورحمته وغفرانه.

اللقاء بالندوي بصحبة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة:

التقيت بالشيخ أبي الحسن النَدْوي رحمه الله مرة واحدة في حياتي بصحبة شيخنا العبد الصالح العلاّمة المحقّق عبدالفتاح أبو غُدّة ـ رحمة الله

---

(١) مجلة: منبر الداعيات: الاثنين ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٨هـ، الموافق ٢٠٠٧/١٢/٣١م.

عليهما ورضي عنهما ـ عندما اصطحبني معه إلى مكان نزوله في الرياض حيث قضى أياماً وذلك في شعبان من عام ١٤٠٥هـ.

وقد استمتعتُ بحديثهما وامتلأت إعجاباً بأدبهما مع بعضهما وتواضعهما، ورأيتُ في سَمْت هذا الداعية الربّاني وهَديه وفيما يحمل من هموم وما يَفيضُ به حديثه من علم: ما كنت رسمتهُ في مخيْلتي عنه وقد سبق مني قبل هذا اللقاء الاستزادةُ من تتبع أخباره عن طريق الأخ في الله الفقيه الأصولي أحد نَبَغة تلاميذه الدكتور علي النّدْوي، ومما كوّنتُه من الاطلاع على عدد من كتبه النافعة العميقة، أتذكّر منها الآن: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، «المسلمون وقضية فلسطين»، «ربانية لا رهبانية»، كتابه الممتع: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، «روائع من أدب الدعوة»، «إلى الإسلام من جديد»، وكتابُه المُنهِض المُلهب «إذا هبَّتْ ريح الإيمان» في سيرة الإمام الشهيد أحمد بن عرفان.

ندوة العلماء:

والشيخ الندوي ينتسب كغيره من النّدْويين إلى ندوة العلماء في لكهنَوْ بالهند، وهي جامعة شرعية مجيدة مضى على إنشائها أكثر من (١٠٠) عام، وخرّجت مئات العلماء الفحول والدعاة الربانيين.

نسبه وأسرته:

وهو حَسَنيُّ النّسب، عربيُّ الأصل، كريمُ المحتِد، هاجَرَ جَدُّ أسرته الأعلى (قطب الدين محمد المدني) في القرن السادس الهجري من المشرق الغربي إلى الهند على إثر هجوم المغول والتتار عليه. وبرز من أعلام هذه الأسرة ربانيون كبار ومجاهدون عظام منهم الإمام المجاهد الشهيد أحمد بن عرفان (المتوفّى عام ١٢٤٦هـ) مؤسس دولة إسلامية في القرن الثالث عشر في شمال الهند.

ولادته ووالداه:

وُلد الشيخ أبو الحسن عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) في قرية «تكيّة» بمديرية رائي بريلي بالهند، وأبوه (الشيخ عبدالحيّ) عالم كبير ومؤرّخ مجيد له أعظم

وأوسع موسوعة في تراجم علماء وأعيان الهند سماها (نُزهة الخواطر وبهجة المَسامع والنَّواظر) وقد طُبعتْ عدة مرات في الهند في ثمانية مجلدات، ثم طُبعتْ قبل وفاة (الشيخ أبي الحسن) في بيروت عام ١٩٩٩ في ثلاثة مجلدات، وقدمه لها وسمّاها «الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام».

أما والدته فهي امرأة صالحة كان لها تأثير روحي وعاطفي وتربوي على ولدها، وكانت تحفظ القرآن واسمها «خير»، ولها كتابات وشعر، ولطالما كان يتحدث الشيخ أبو الحسن رحمه الله عن أخبارٍ لافتة لها عن شأنها في العبادة والابتهالِ إلى الله والأذكار والأدعية.

وللشيخ رحمه الله كتاب بالأردو ـ لغة مسلمي الهند ـ في سيرتها وأخبارها اسمه (ذِكْرُ خير).

توفي والده عام ١٣٤١هـ وعمره تسع سنوات، وبقي في عناية أمه وكفالة وتربية أخيه لأبيه المربّي الطبيب الدكتور عبدالعلي رئيس ندوة العلماء[1]، وهو من أشدّ الناس تأثيراً في تربيته.

تدريسه وتاليفه:

تخرج الشيخ رحمه الله بدار العلوم ـ ندوة العلماء ـ، وبدأ بالتدريس وعمره (٢٠) سنة، وكان عمره عندما ألّف أول كتاب بالأردو، وهو في سيرة السيد الشهيد أحمد بن عرفان (٢٤) سنة.

تخصّص الشيخ رحمه الله بعدد من العلوم الشرعية على رأسها: التفسير والحديث والأدب العربي، ويُعتبر من الدعاة المرموقين بل من أبرز القيادات الإسلامية والمفكرين الإسلاميين في النصف الثاني من القرن العشرين، وله اطلاع واسع على التاريخ. وكان يُتقن ثلاث لغات: العربية والأوردية والإنكليزية، ويعرف الفارسية معرفة جيدة.

وظائفه ومناصبه العلمية:

وقد شَغَل وظائف ومناصب علمية عديدة تدل على علوّ همته وعظيم

---

(١) تنظر ترجمته المتقدمة في هذا الكتاب، بقلم أخيه الأستاذ أبي الحسن الندوي.

الثقة به رحمه الله: فقد رأس ندوة العلماء عام ١٩٦١، وكان عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وعضواً في المجلس الأعلى العالمي للمساجد، وعضواً في المجلس الفقهي بمكة المكرمة، وعضواً في المجلس الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، وعضواً في المجلس التنفيذي بمعهد ديُوبند بالهند.

تاسيسه ورئاسته لعدد من المراكز والمجامع العلمية:

وقد أسس ورأس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بأكسفورد، وفرّغ له أحد طلاب العلم النابغين الناشطين والباحثين المتميّزين: أخي في الله الدكتور محمد أكرم بن تجمُّل حسين النّدْوي، والمجمع العلمي الإسلامي التابع لندوة العلماء بالهند، ومجلس المشاورة الإسلامية بالهند الذي يضم الزعامات والقيادات الإسلامية لمتابعة قضايا المسلمين فيها، ومجلس الأحوال الشخصية العالمية لمسلمي الهند الذي كان له دور كبير في المحافظة على هُويّة مسلمي الهند، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية.

رحلاته الدعوية:

لقد شغل قلبَ الشيخ رحمه الله هذا الدينُ العظيم فملأ عليه فكره ومشاعره ووجدانه، فصارت قضاياه وهمومُ المسلمين شُغْلَه الشاغل وهمَّه الأكبر ممّا دفعه للقيام برحلات عديدة إلى بلاد المسلمين ناصحاً وداعياً وقائداً ومحاضراً، وقد سجّل أخبارها في عدد من كتبه، مثل: (مذكّرات سائح في الشرق العربي)، (من نهر كابُل إلى نهر اليرموك)، (أسبوعان في المغرب الأقصى)، (في مسيرة الحياة)، وهو كتابه في سيرة حياته ومدوّنة حافلة تشتمل على أخباره وأفكاره وتجاربه طُبع منها ٣ أجزاء وبقي رابع مخطوطاً إلى الآن، كما سافر مرات إلى بلاد الغرب يلتقي بالجاليات الإسلامية وينصحها ويرفع من معنوياتها ويربطها بهُويّتها الإسلامية ويقدّم حلولاً لمشكلاتها ويتشاور مع قادتها، وله كتاب (أحاديث صريحة في أمريكا)، فضلاً عما سجّله في كتابه (في مسيرة الحياة).

مواهبه المتعدِّدة:

والشيخ رحمه الله متعدد المواهب عظيم المناقب، ولكن يتميّز أنه مفكّر إسلامي من الطراز الرفيع، وداعية موهوب متحرّق، وربّاني ذو قدم راسخة وذوق أصيل يُنْبي في السلوك إلى الله، وهذا نادر في عصرنا فيمن كان له اهتمامات الشيخ الندوي وبعض من نشاطاته ومناصبه.

المفكر الإسلامي:

١ ـ أمّا إنّه مفكّر إسلامي، فتشهد لذلك كتبه المتميّزة بالتحليل الدقيق والفكر العميق والثقافة الواسعة والمنهجية المترابطة والمنطق السديد، منها: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) الذي قَدّم له مقدّمة مهمة تعرّف بقيمته وأهميته شهيد الدعاة الأستاذ الكبير المفكر الإسلامي سيد قطب رحمه الله، (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية)، (بين الدين والمدنيّة)، (الأركان الأربعة في الإسلام). . . وسواها.

الداعية الموهوب:

٢ ـ وأمّا إنه داعية موهوب، فيشهد لذلك واقعُه وتجاربه، وكتاباته واهتماماته، فقد كان يحمل في قلبه الكبير هموم الإسلام والمسلمين، ورحم الله من قال:

وإذا كانت النفوسُ كباراً　　تَعِبَتْ في مرادها الأجسامُ

وكان رحمه الله يملك حُرقة الداعية وتذوُّق المُجرِّب الخبير، ويُجيد فنّ الدعوة بتفوّق، وسيرةُ حياته وكُتُبه الدعوية تؤكد ذلك، ولذا أثّر فكرُه الدعوي في الصحوة الإسلامية المعاصرة، ونهل من كتبه جيلُ الدعاة في القرن العشرين.

صفات الداعية القائد:

ولقد اجتمع فيه صفات الداعية القائد: العلم، والحُرقة، والخُلُق، وفنّ الدعوة.

فالشيخ رحمه الله عنده نصيبٌ وافرٌ من العلم الشرعي والفقه العميق للكتاب والسنّة مع اطلاع واسع على الثقافة العالمية، وفي قلبه حُرقة عارمة

جعلت أكبر همّه قضية الإسلام ونشر دعوته، حتى صار محوز نشاطه وهدفَ رحلاته «إيقاظ الشعور الديني في المسلمين، وإعادة الثقة إلى نفوسهم بمركزهم ومبدئهم وغايتهم في الحياة ورسالتهم للعالم البشريّ، وتهيئة النفوس لحَمْل هذه الرسالة وتبوُّء مركز القيادة والإمامة للعالم الحائر الثائر، وتجديف سفينة الحياة، الضائعة بين الملاحين العابثين والركّاب النائمين»، كما في تقدمته لكتابه: (إلى الإسلام من جديد)، والمُتتبّع لأخباره والقارئ لكتبه والعارف بشخصه يعرف قدر ما كان عليه من الخُلُق والإتقان لفنون الدعوة والإقناع بالإسلام والتأثير بالمدعوّين والارتقاء بحال مَنْ يُربّيهم: علماً وفكراً وسلوكاً وخبرة.

العالم الربّاني:

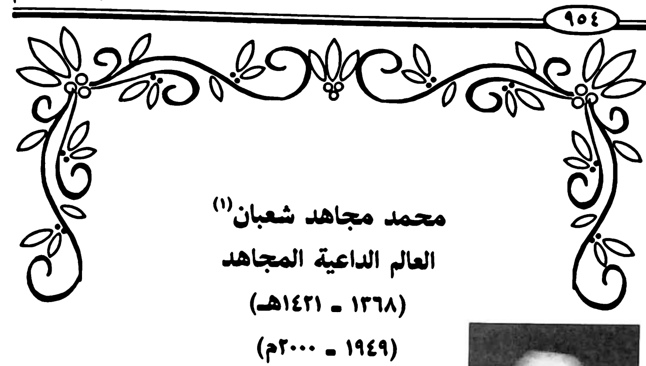
٣ ـ وأمّا إنه ربّاني فقد اتفق على وصفه بذلك كلُّ من عرفه أو كتب عنه، وصدق من قال: (ألْسِنَةُ الخَلْق أقلام الحق)، وفي هذا فألٌ حَسَنٌ بحقّ هذا الداعية الربّاني لأن الرسول ﷺ يقول: «أنتم شهداء الله في الأرض» متفق عليه.

وهو لم يقتصر على مجرّد الاهتمام بجانب (الرّبانية) في الإسلام وتركيزه عليه وإبرازه في سِيَر المصلحين والمجدّدين؛ بل اتصف به وتوجهت عنايته إليه فظهر في سَمْته ودلّه، ومَنْطقه وهدْيه، وحاله ومقاله، وسلوكه وأخلاقه، فله نصيب إن شاء الله من تطبيق أمر الله: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

وفاته وحُسْن خاتمته:

وأخيراً أقول: تُوفّي الشيخ وتوقّفَ قلبُه العامر المبارك ولَفَظَ آخر أنفاسه الطاهرة ضحى يوم الجمعة في ١٩٩٩/١٢/٣١ والمصحف بين يديه، يقرأ فيه سورة الكهف، فوقعت وفاته في يوم مبارك (يوم الجمعة للوفاة فيه فضلٌ وبِشارة)، من شهر مبارك (حيث صادفَت وفاتُه العشرَ الأواخر من شهر رمضان فقد توفي في ٢٣ رمضان)، على حالة مباركة (وهو يقرأ في كتاب الله).

رحمه الله، وأعلى منزلته في علّيين، وتَقَبّله في عباده الصّالحين، وجَمَعَنا وإيّاه وسائرَ إخواننا وأخواتنا وأحبابنا ومشايخنا في جنّات النعيم بصُحبة سيّد المرسلين وأفضل الخلق أجمعين، اللهمّ آمين.



محمد مجاهد شعبان[1]
العالم الداعية المجاهد
(١٣٦٨ ـ ١٤٢١هـ)
(١٩٤٩ ـ ٢٠٠٠م)

بقلم زوجته: عائشة بنت عمر خياطة

ولادته ونشأته ودراسته:

هو الأستاذ العالم الداعية، الأديب الخطيب، الشيخ محمد مجاهد بن محمود شعبان الشافعي الحلبي، ولد سنة ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م، من أسرة متدينة، ونشأ في بيئة صالحة، بعناية والده الحاج محمود، ودرس في الثانوية الشرعية بحلب، ثم تخرج في كلية الشريعة بدمشق سنة ١٣٩٤هـ، وفي أثناء دراسته، كان يدرّس في أرياف حلب، فينتقل من قرية إلى قرية، يخطب الجمعة ويدعو إلى الله عزَّ وجلَّ.

أعماله ووظائفه:

ثم شغل إدارة الأيتام بحلب مدَّة طويلة حتى وفاته، وأثناء ذلك درَّس في ثانويات حلب الخاصَّة، وفي «الثانوية الشرعية»، وكانت له خطبة جمعة

---

(١) نشرت هذه الترجمة بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٤م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

في جامع «التقوى» في حيِّ الأنصاري، وعدة دروس في جوامع حلب عامة، وله دروس خاصَّة بطلبة العلم في منزله.

وكما قيل عنه: عُرف معلماً وداعياً ومرشداً أكثر من أن يُعرف كاتباً ومؤلفاً، ومع ذلك فقد كانت له مقالات وشذرات هنا وهناك، وكانت له محاضرات هنا وهناك متى سنحت الفرصة، ولذلك لم تكن آثاره كثيرة...

أعماله العلميّة:

بادر ـ قبيل وفاته ـ إلى طبع كتاب: «المنهج السديد في شرح جوهرة التوحيد» للعلامة الشيخ محمد الحنيفي (١٢٩٢ ـ ١٣٤٢) بعد اعتنائه به، وقام الأستاذ الفاضل مَجْد مكي وفقه الله بمراجعته وتصحيحه، وصدرت الطبعة الأولى ببيروت عن دار ابن حزم سنة (١٤٢٤ ـ ٢٠٠٣). كذلك اعتنى بشرح «المنظومة البيقونية» للشيخ أحمد الترمانيني، وأعدَّها لإرسالها للطبع، وأنهى كذلك رسالته الماجستير في موضوع: «معاول الهدم الحديثة في اللغة العربية»، وكان قد أعدَّها لمناقشتها في كلية «الإمام الأوزاعي» في بيروت، ولم يبقَ لها إلا المناقشة الأخيرة حين قضى أجله ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقد بدأ بالاعتناء بكتاب: «الإفصاح عن معاني الصِّحاح»، وأنهى حوالي نصفه، ولكن إرادة الله شاءت أن يختاره إلى جواره، وهو في قمّة نشاطه، وأوج عطائه، وفي أحسن أحواله، وأفضل أوضاعه.

حرصه على مشافهة العلماء والتلقِّي عنهم:

كان اسمه «مجاهداً»، وكان مجاهداً بحق، كان ـ رحمه الله تعالى ـ داعياً نشطاً عالماً عاملاً مخلصاً فقيهاً، طالباً للعلم، لا يَعرف كَللاً ولا مللاً في ذلك، كان مُحباً للحكمة، حريصاً على مشافهة العلماء والتلقي من أفواههم، متأثراً بأحوالهم، لازم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله ملازمة شديدة في أيامه الأخيرة في سورية، وصحبه في رحلات ونزهات طويلة، يستفيد منه، ويقرأ عليه.

ولازم الشيخ عبدالرحمٰن زين العابدين رحمه الله، في حياته كلها، وخاصَّة في مرضه الأخير ملازمة الولد لأبيه.

صبره على طلب العلم وتنوُّع معارفه:

كان صابراً على البحث والتنقيب في بطون الكتب، يُؤثره على الطعام والراحة، وكان يحرص على الفائدة العلمية من أيِّ مصدر جاءت، ومن أيِّ جهة كانت. ولا يُعنى فقط بالعلوم الشرعية التي كانت اختصاص دراسته، بل عرف عنه اهتمامه بالصناعات والميكانيكا وبالناحية العلمية عند العرب قديماً، متأسِّياً بذلك بشيخه الشيخ عبدالرحمٰن زين العابدين رحمه الله، وقد تعلَّم منه الكثير في ذلك، وعُرف عنه أيضاً اهتمامه باللغة العربية اهتماماً يفوق الوصف، وخاصَّة علوم الصرف والبلاغة والنحو والاشتقاق، متأسياً بشيخه أيضاً.

كذلك قرأ شيئاً من كتاب «الكامل» للمبرّد على الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله، وله حواشٍ كثيرة على نسخته من كلام الشيخ رحمه الله، وكان له تذوُّق خاص بالشعر، ويحفظ قصائد مُطوَّلة بأكملها، وخاصة الشعر القديم الذي يُعَدُّ حُجَّة في اللغة، واهتمَّ بعلم الفلك وأخذ شيئاً منه من الشيخ «عبدالرحمٰن» رحمه الله، ومن عمِّه والدي الدكتور «عمر خياطة» رحمه الله، واقتنى من كتب هذا العلم الحديث والقديم، حتى المخطوط.

وله مكتبة ضخمة في منزله تضم كتباً في كافة العلوم الشرعية خاصة والعلوم العربية والعلمية.

كان غايةً في الحفظ والاستحضار، ومعرفته بالرجال نادرة، وخاصَّة علم الرجال، ومصطلح الحديث، وله اهتمام بالوقائع والحوادث الهامَّة في تاريخ الإسلام القديم والحديث، ومعرفته برجاله فذَّة غريبة.

أخلاقه وصفاته:

كان حَسَنَ الخُلُق مع الناس جميعاً، ومع أهله خاصَّة، كان رؤوفاً

رحيماً بهم، متسامحاً حليماً لطيفاً عفاً وفيًا، مرح النفس دائماً، عفيف النفس رضيّها، شاكراً لأنعم الله، حييًا، يخشى الله فيما بينه وبين نفسه خشية تقيٍّ ورع.

كان يعدُّ طلب العلم عبادته الأولى ليل نهار، لا ينام الليل إلا قليلاً، وهو يبحث وينقب ويطالع، وكان حريصاً على الإجازة وطلبها، يطلب الإجازة ممّن يتعرّف ويجلس معهم، ولو لساعةٍ من الزمن.

شيوخه وأساتذته:

من أكبر مشايخه وأكثرهم ملازمة له وانتفاعاً به: الشيخ عبدالرحمٰن زين العابدين، ثم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وكانت له صحبة طويلة في دمشق مع الشيخ عبدالغني الدقر رحمه الله.

ومن مشايخه في «الثانوية الشرعية»: الشيخ أحمد القلاش، والشيخ محمد زين العابدين جذبة، والشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد السلقيني حفظ الله من بقي منهم، والشيخ أبو الخير زين العابدين، والشيخ محمد السلقيني، والشيخ عبدالله سراج الدين، والشيخ محمد نجيب خياطة، والشيخ بكري رجب، والشيخ عبدالوهاب سكر، وغيرهم كثير رحمهم الله جميعاً.

كذلك من أساتذته في كلية الشريعة: محمد فوزي فيض الله، وهبة الزحيلي، نور الدين عتر، محمد أديب الصالح... وغيرهم كثير حفظهم الله.

إجازاته العلمية:

وإجازاته كثيرة، له إجازة من عمه الدكتور عمر خياطة، الذي أجازه إجازةً عامة عن شيخه الشيخ محمد راغب الطباخ، بكافة مروياته وأثباته.

ومن علماء الموصل: الشيخ إبراهيم المشهداني، والشيخ عبدالفتاح الجومرد، وغيرهم.

وله إجازة من الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله بمؤلفاته ومروياته، وأجازه بثبته عن شيخه العلامة الإمام محمد زاهد الكوثري، رحمهم الله تعالى، وله إجازات أخرى عديدة.

وله إجازة من العلامة الأصولي الفقيه الشيخ أحمد فهمي أبو سنة، أستاذ الشيخ عبدالفتاح؛ إذ لقيه ببيته بمكة المكرمة أثناء حجه بصحبة الأخ الشيخ مجد مكي، وأخذ منه إجازة على طرف كتاب كان معه.

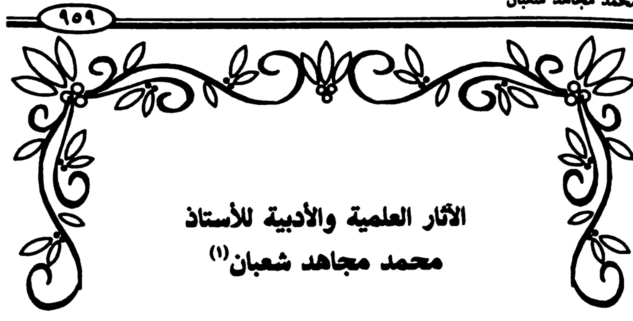
وممَّن استجاز له بناءً على طلبه الشيخ محمد بن عبدالله آل رشيد من عدد من علماء الحجاز والأحساء واليمن منهم: الشيخ الحبيب محمد بن أحمد الشاطري، والشيخ عبدالرحمٰن بن أبي بكر بن عبدالله الملا الأحسائي، رحمهما الله تعالى، والشيخ عبدالقادر بن عبدالله شرف الدين الحسني الصنعاني، وعبدالله بن عباس المُؤيِّد اليمني، وحمود بن عباس المُؤيِّد، وأحمد بن محمد زبارة مفتي اليمن، وأحمد بن علي الآنسي الصنعاني، ومحمد بن إسماعيل العمراني الصنعاني، وعبدالله المحفدي الصنعاني، ومحمد بن محمد بن منصور الحسني.

وفاته:

تُوفي رحمه الله تعالى في حادث سيارة أثناء عودته من مصيف جبل الأربعين القريب من حلب فجر يوم السبت ١٩ من جمادى الآخرة ١٤٢١هـ، الموافق ١٩ آب ٢٠٠٠م. عن ثلاث وخمسين عاماً، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين وعن العلم وعن الأيتام والأهل والأولاد خير الجزاء. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والحمد لله رب العالمين.





الآثار العلمية والأدبية للأستاذ محمد مجاهد شعبان[1]

بقلم: عبدالرحمن الحاج إبراهيم

لم يعرف الشيخ مجاهد بالكتابة والتأليف بقدر ما عرف بالتعليم والدعوة، وتتوزع نتاجاته وآثاره العلمية والأدبية على حقول عدة:

أولاً - الدراسات والبحوث:

١ - «معاول الهدم الحديثة في اللغة العربية الفصحى»، وهو الدراسة التي تعتبر أهم إنجاز علميٍّ خلَّفه، كانت معدَّة لنيل درجة الماجستير في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت، ولم يكتب الله له مناقشتها. وتتجاوز صفحاتها ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير. وتتكوَّن من خمسة فصول:

الفصل الأول: يتناول اللغة العربية الأم واللهجات في العصر الحديث.

---

(١) هذا بحث مفصَّل كتبه الأستاذ عبدالرحمٰن الحاج إبراهيم، نقدِّم خلاصة عنه بمناسبة ترجمة الأستاذ الفاضل الشيخ: محمد مجاهد شعبان رحمه الله تعالى. ونشرت هذه الدراسة بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٤م على موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

الفصل الثاني: صلة اللغة العربية بالإسلام والتراث الإسلامي.

الفصل الثالث: الأعداء التقليديون للغة: دعاة العامية.

الفصل الرابع: الأعداء الجدد: الحداثيون. درس فيه تاريخ الدعوة إلى التغريب ووسائلها، والتمرد على اللغة العربية، وعبث الشعر الحر، وقضية الشعر الجاهلي.

الفصل الخامس: دور الأمة وواجباتها في المحافظة على لغتها والنهوض بها.

٢ ـ **«نحو فقه إسلامي مُيسَّر»**: وهو بحث تمهيدي للماجستير بإشراف الدكتور: كامل موسى، قال في مقدمته: «منذ أمد بعيد وأنا أهتم بدراسة علم الفقه... كنت يومها ألاحظ مدى صعوبة العبارة الفقهية، وكثرة الاستطرادات الخارجة عن الموضوع كلية، وكنت أسأل نفسي: أليس من الممكن تيسير هذا العلم إلى ما هو أسهل عبارةً، وتهذيبه وحذف ما ليس فيه، وأن يكون هذا العلمُ بلغةٍ تتنزل إلى فهم أكبر مساحةٍ لفهم الأمة؟!».

وتناول في البحث جهود العلماء في تيسير الفقه، ثم درس الشيخ مبدأ التبسيط الفقهي، وتوصّل إلى خمسة عشر شرطاً مقترحاً لإنجازه، ثم ختم بحثه بقوله: «إنَّ ما وضعته من شروط التبسيط ما هي إلا قواعد أراها من وجهة نظري مهمة، يستعين بها من رغب في كتابة فقهٍ ميسر في ألفاظه وأسلوبه لتعليم هذا العلم ليشمل أكبر مساحة من تعداد المسلمين.

٣ ـ **«عناية المسلمين باليتيم قديماً وحديثاً في شمال سورية»**: يهدف هذا البحث الذي كتبه سنة ١٩٩٣م، إلى تقديم رؤية عن تجربة دار الأيتام الإسلامية في حلب وغيرها من مدن الشمال السوري، لبيان أهمية الدور الذي قامت به ولا تزال في خدمة المجتمع المسلم، وهذا البحث هو بحث تمهيدي آخر للماجستير بإشراف الدكتور: إبراهيم كمال أدهم.

٤ ـ **«الرخصة»**: بحث أصولي نشر في مجلة منار الإسلام الإماراتية عام ١٩٩٨م.

٥ ـ «تاريخ التفسير»: مشروع دراسة كتبها أيام تدريسه في الثانوية الشرعية في الثمانينات في القرن الماضي.

ثانياً ـ رسائل نادرة:

١ ـ رسالة عن الشيخ عبدالرحمٰن زين العابدين رحمه الله تعالى، وهو أستاذه وله معه صحبة طويلة، جمع في هذه الرسالة أقوال الشيخ وآراءه وأورد الكثير من ذكرياته معه كما قدَّم له بترجمة نادرة لشيخه.

قال في مقدمته: معرفتي بالشيخ منذ سنة ١٩٦٣م، وقد درسنا مادة الفقه الشافعي، واللغة العربية، ثم توطدت المعرفة أكثر بعد سنة ١٩٦٨م، حتى وفاة الشيخ سنة ١٩٩٢م.

٢ ـ رسالة عن الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، نحا فيها منحى الرسالة السابقة، وختمها بذكرياته مع الشيخ في زيارته الأخيرة لحلب.

هاتان الرسالتان نادرتان، وعدم نشرهما وتعرضهما للضياع خسارة حقيقية للتاريخ العلمي لمدينة حلب.

ثالثاً ـ كتب لم تكتمل:

أ ـ أحاديث مشتهرة على ألسنة الناس اليوم. جمعها ولم يكتب له إكمالها.

ب ـ تحقيق لرسالة إسماعيل كلنبوي في آداب البحث. حقق قسماً من الرسالة ولم يتمها.

رابعاً ـ في مجال التحقيق:

أ ـ تحقيق كتاب «المنهج السديد في شرح جوهر التوحيد» للشيخ: محمد الحنيفي الحلبي، وقد صدر الكتاب بعد وفاة محققه، عن دار ابن حزم عام ١٤٢٤هـ، في ٢٤٧ صفحة.

ب - تحقيق كتاب «شرح المنظومة البيقونية» للعلامة الشيخ: أحمد الترمانيني، قدم له بدراسة عن شروح البيقونية القديمة والحديثة كما أورد ترجمة واسعة للشيخ الترمانيني. ونرجو أن يصدر هذا الكتاب في وقت قريب بعون الله تعالى.

خامساً - المقالات والمحاضرات:

١ - فلتكن نظرتنا إلى الكيف أولاً، بيَّن فيها أن العدد ليس دليلاً على الصحة، ونشرت في مجلة «نهج الإسلام»، في العدد ٣٠ من السنة الثامنة (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).

٢ - ترجمة الدكتور الشيخ عمر خياطة بمناسبة وفاته عام ١٩٨٨م. وهي غير منشورة.

٣ - القرافي صاحب الفروق والدمى المتحركة، نشر هذا المقال في مجلة «نهج الإسلام» في العدد ٣٤، من السنة التاسعة (١٩٨٩م = ١٤٠٩هـ).

٤ - الزمخشري مفسّراً، مقال مطبوع على الآلة الكاتبة، يتحدث فيه عن جهود الزمخشري في مجال التفسير.

٥ - مولد الرسول ﷺ مولدٌ للعقل من جديد. نشر في مجلة «نهج الإسلام» في العدد ٤١ من السنة الحادية عشرة (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م).

٦ - الإسلام وبناء الشخصية الحضارية. نشر في مجلة «نهج الإسلام» في العدد ٤٤ من السنة الثانية عشرة (١٤١١هـ = ١٩٩١م).

٧ - ملامح الشخصية الحضارية في الإسلام. ذكر فيه ملامح الشخصية الإسلامية التي يراها تتمثل في الطموح والتطلع نحو الأفضل، والعزة والإلفة والمحبة، والثبات، والتكامل، نشر في مجلة «منار الإسلام» الإماراتية عام ١٩٩٧م.

٨ ـ قل آمنت بالله ثم استقم... نشر في مجلة «نهج الإسلام» في العدد ٥٣ من السنة الرابعة عشر (١٤١٤هـ = ١٩٩٣م).

٩ ـ كيف وظف الإسلام الشعر. محاضرة ألقيت في نادي التمثيل العربي في حلب، عام ١٩٩٦م.

١٠ ـ مشكلات سلوكية للطفل. محاضرة ألقيت في دار الأيتام بحلب، تحدث فيها عن بعض المشكلات السلوكية ودوافعها وأسبابها، وقدم حلولاً لمعالجتها من وجهة نظر إسلامية.

١١ ـ الإمام مسلم. محاضرة ألقيت عن الإمام مسلم في الثانوية الشرعية بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته، وهي غير منشورة.

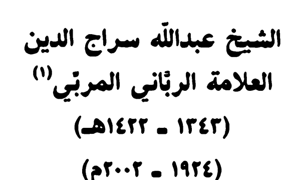
١٢ ـ بشائر النور. مقال يتحدث فيه عن ولادة النبيّ ﷺ والمبشّرات به في الكتب السماوية.

١٣ ـ الرحمة المهداة. وهي آخر ما كتب قبل وفاته بمناسبة ذكرى المولد النبويّ الشريف.

كما كتب الشيخ مجاهد عشرات المواد العلمية، في «الموسوعة الإسلامية الميسرة» الصادرة عن دار صحارى مشاركة مع دار فُصِّلت بحلب.

أخيراً: فإنما ما قدمته هو أهم ما خلفه الشيخ من آثار علمية وأدبية، ونأمل أن يقوم أبناؤه ومحبوه بنشرها وفاءً لجهده وجهاده.





الشيخ عبدالله سراج الدين
العلامة الربّاني المربّي[1]
(١٣٤٣ ـ ١٤٢٣هـ)
(١٩٢٤ ـ ٢٠٠٢م)



بقلم تلميذه المحدّث المحقّق الشيخ: محمد عوّامة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه. أما بعد:

العالم العامل الربّاني:

فإنَّ من سُنَّة الله عزَّ وجلَّ في عباده المسلمين أن يُكرمهم على الدوام بعلماء عاملين، همُّهم في هذه الحياة أن يملؤوها بالخير لأنفسهم، وللأمة من ورائهم، وكان منهم شيخنا العلامة الربّاني الشيخ عبدالله سراج الدين الذي أكرمني الله بصحبته خمسين عاماً.

ولادته ونشأته العلمية:

وُلد الشيخ الأجلّ عام ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م بمدينة حلب، ووالده العلامة الحُجَّة الشيخ محمد نجيب سراج الدين، ودخل طلب العلم وهو في

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/١٢م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

الثالثة عشرة من عمره، بعد أن حفظ القرآن الكريم.

توجُّهه إلى حفظ الحديث الشريف:

وفي أثناء ذلك كان توجّه إلى حفظ الحديث الشريف، وبعد أن ترك الدراسة الرسمية توجّه بكليته إلى ذلك، فحفظ كتاب: «تيسير الوصول» بألفاظه ورواته واختلاف رواياته، وكانت له مذاكرة يومية له، كما يذاكر حفظه للقرآن الكريم، واستمرّ به توجُّهه لحفظ السُّنة الشريفة إلى أواخر عمره المبارك.

تاسيسه جمعية التعليم الشرعي:

وفي صيف ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م أُلغيت المدرسة الشعبانية التي كانت تابعة لوزارة الأوقاف، وكانت تُخرّج الأئمة والخطباء والوعاظ الدينيين، فقام الشيخ بأعباء ذلك، فأسّس «جمعية التعليم الشرعي» التي انبثق عنها: مدرسة التعليم الشرعي، وفيها: المرحلة الإعدادية والثانوية، ثم المرحلة الجامعية المرتبطة بالجامعة الأزهرية، ثم انبثق عنها عام ١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م معهد حفظ القرآن الكريم بقراءاته العشر.

وقد تخرّج في هذه المراحل التعليمية الثلاثة مئات من طلاب العلم احتلوا مراكزهم المناسبة في محاريب حلب وقراها ومنابرها، وفي كثير من مدن السعودية ودول الخليج، فأحيا الله به العلم والعمل في مدينة حلب، كما أحيا الله تعالى به حفظ القرآن العظيم وقراءاته، بعد أن كان هذا الأمر ميْتاً حتى بين طلاب العلم.

دروسه العامّة في مساجد حلب:

وكانت دروسه في مساجد حلب الكبرى، دروس علم وتوجيه وترقية وتزكية مُدعَمة بالكتاب والسنّة، وهدي السلف الصالح، وكانت في مستواها العلمي تعدل المستوى الجامعي العريق، الذي يحضره طلابه بروح متعشِّقة للعلم والهدي السلفي الصالح، متمثلاً في شخص أستاذها ومربّيها.

إنتاجه العلميّ الواسع:

ولم يقف عطاء الشيخ ـ رحمه الله ـ عند تأسيس الجمعية وفروعها،

ولا عند الدروس العامة التي كان يحضرها الآلاف ـ لا سيما في المرحلة الأخيرة ـ بل شارك في الإنتاج العلميّ الواسع، فقد انتقل الشيخ إلى رحمة الله تعالى عن نحو ثلاثين مؤلفاً جُلّها في شرح أركان الإسلام: الصلاة، والصيام، والحج، وفي التفسير الموضوعي: «هدي القرآن إلى الحجة والبرهان»، و«هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكُّر في الأكوان»، وفي تفسير جملة من سور القرآن الكريم: الفاتحة، الحجرات، الملك، ق، الكوثر، الدهر... كل سورة في مجلد... وله: «تلاوة القرآن المجيد»، و«التقرُّب إلى الله تعالى»، و«سيدنا محمد رسول الله ﷺ: شمائله الحميدة، خصاله المجيدة»، و«صعود الأقوال ورفع الأعمال» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾. وله شرح منهجي مدرسي مبسَّط على المنظومة البيقونية في ٢٢٥ صفحة. وله غير ذلك من الكتب التي يحرص المسلم على العمل بها، والتربية الإسلامية الصالحة.

شاهدا العدل من الكتاب والسنة:

وكان يحكي عن والده رحمه الله ـ وهو لسان حاله أيضاً ـ أنه كان يقول لأصحابه في مجالسه الخاصّة مع العلماء: لا تقبلوا مني شيئاً إلا بشاهدَيْ عدل من الكتاب والسنّة. وكان هو كذلك فما كنا نسمع منه شيئاً إلا ويأتينا على ما يقول بشاهدَيْن عَدْلين من الكتاب الكريم والسنّة المطهَّرة، وذلك في دقائق العلم والتوحيد.

منهجه في دروسه العامة:

وكان يحكي عن والده ـ وهو لسان حاله أيضاً ـ أنه كان يقول: درسي درس عام لا درس عوام. يريد أن مختلف الطبقات التي تحضر دروسه تستفيد، منها: العاميّ، والشاب المثقف، وطالب العلم، بل العالِم، والطبيب، والتاجر، والمحامي، وما إلى ذلك.

منحة إلهية وقدوة محمديّة:

والحديث عن سيّدي الشيخ لا يكفيه صفحات، وهو أجلُّ من أن

أكتب عنه، لكني أقول: لقد كان الشيخ منحة إلهية لأهل زمانه، وقدوة محمديّة لهم إذا اذلهمّت الخطوب.

وفاته ودفنه:

توفي رحمه الله تعالى عشاء يوم الاثنين ٢٠ ذي الحجة في مدينة حلب، وشُيّع في موكب كبير، ودفن يوم الثلاثاء ٢١ ذي الحجة ١٤٢٢ في المقبرة التي داخل المدرسة الشعبانية رحمه الله تعالى، وتغمده برضوانه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه: محمد محمد عوامة
١٤٢٢/١٢/٢٥

مجالسه التفسيرية لبعض الآيات القرآنية:

وقد وصف فضيلة الشيخ محمد عوامة مجالس الشيخ عبدالله سراج الدين في العلم والوعظ والتذكير، فقال في مقدمة تحقيقه لكتاب «مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾» لابن ناصر الدين الدمشقي، ص٩:

«أما هذه المجالس: فإن المصنِّف رحمه الله اختار هذه الآية الجامعة لكليات الإيمان، واختياره لها أذكرني أول ما رأيت مخطوطة الكتاب بالمجالس العامرة بالإيمان، والعلم والروح، من مجالس شيخنا العلامة القدوة الربّاني المتكلم المفسّر المحدث سيدي الشيخ عبدالله سراج الدين حفظه الله تعالى بخير وعافية، مجالسه حول هذه الآية في الجامع الكبير بمحلة بانقوسا بحلب، بعد عصر كل يوم جمعة، والتي دامت سنوات، وهو يتكلم فيها عن مواقف النبيّ ﷺ الثلاثة: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

ولمّا تذكّرت هذه المجالس برؤية مخطوطة الكتاب، بادرت إلى تصوير نسخة عنها وتقديمها هدية إليه، والآن أتقدّم بإهداء خدمتي للكتاب إلى سماحته راجياً قبولها ورضاه.

ثم إنه انتقل بعد تلك المجالس إلى الكلام عن قوله تعالى: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾. وقد استغرق في ذلك سنوات أيضاً، وهو يتكلم عن كون سيدنا رسول الله ﷺ بيِّنة الله العظمى وحجته على خلقه، ومبيناً عن الله عزَّ وجلَّ شرعَه ودينَه. وهذه المجالس وتلك جميعها محفوظ لديه، لا تحتاج طباعتها إلا إلى تنقيح يسير.

وكان كلُّ مَنْ يحضر تلك المجالس ـ من العلماء وغيرهم ـ يشهد أنها مجالسُ تنقل صاحبها إلى رَوْحٍ وريْحانٍ من رَوْح الجنة وريحانها والحمد لله رب العالمين.

ومع هذا فإن شيخنا ـ أطال الله في عمره ـ لا يرى أنَّ ما يتكلم به يصلح أن يسمى تفسيراً لكتاب الله عزَّ وجلَّ، فشأن تفسير كتاب الله أجلُّ عنده من هذا، كما هو واضح من كتبه التي طبعها وتكلم فيها عن سورة الفاتحة، والحجرات، وق، وغيرها مما يتلوها، فإنه سمى كلاً منها: حول تفسير سورة كذا، وما رضي أن يسمي كتابه: تفسير سورة كذا». انتهى.

إهداء الشيخ محمد عوامة تحقيق كتاب «القول البديع» لشيخه السراج:

وقد أهدى إليه تحقيق كتاب «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي الذي صدر بعد وفاة شيخه بقليل بهذه الكلمات:

«إلى روح مُحيي الدين والعلم، الناطق ببراهين الكتاب والسنَّة. من أنار القلوب والعقول وجمعها على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، العلامة الربَّاني المربِّي الشيخ عبدالله آل سراج الدين.

توفي إلى رحمة الله تعالى عشاء الاثنين ٢٠ من ذي الحجة من عام ١٤٢٢هـ».

من تلميذه، محمد عوامة



الشيخ عبدالله سراج الدين[1]

بقلم: بكري شيخ امين

دور العلماء في الأمة:

العلماء هم مصابيحُ الأمة وأنوارها وهداتُها في كلّ الأزمنة والأمكنة، يُنيرون دروبَ حياتها، فيفتحون القلوب المغلقة، ويُجْلون الغشاوة عن العيون المتعَبة، وينقلونها من دياجير الجهل إلى أنوار العلم، ويُخرجون الناس من الظلمات إلى النور.

وأخصُّ بالذكر منهم علماءَ الشريعة، وفقهاءَ الدين، فبالشريعة يكون الإنسان إنساناً شريفاً، والمواطنُ مواطناً حقاً، وفي ضوء الشريعة يعرف الحقّ فيتّبعه، ويعرف الباطل فيجتنبه... يعرف ما يهوي به إلى الجحيم، وما يرقى به إلى أعالي الفردوس والنعيم.

وعلماء الشريعة وحدَهم الذين يأخذون بأيدي الناس إلى طريق الهدى والصواب والحق والنور، لأنهم ورثة الأنبياء، وحمَلة الرسالة والأمانة، وهم دائماً في عيون الناس المثل الأعلى الذي به يقتدون.

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٧م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

عالم من بلدي:

أريد أن أصل بهذه الكلمات إلى عالم من بلدي، يحمل تلك المزايا، ويتصف بتلك الصفات، اسمه عبدالله بنُ محمدِ نجيب سراج الدين الحسيني. لو رأيته تذكرت رسول الله ﷺ، وقاراً وجمالاً وجلالاً وسكينة وتواضعاً وبشاشة ورقة، وأحلى ما يتصوره الإنسان في كمال وجمال في عبد من عباد الله.

اقتداؤه برسول الله ﷺ:

فالرجل متمثل برسول الله ﷺ تمثلاً إن لم نقل: كاملاً فهو قريب من الكمال، من فَرْقِ شَعرِه إلى أَخْمَصِ قدميه، في مظهره، وفي حديثه، وفي حركاته، وسكناته، وفي تبسمه، وفي أخلاقه، وفي كل ما يتصل بحياته الإنسانية من صغيرة أو كبيرة.

عالم عامل:

الرائع في هذا النور المحمدي الذي سكن في مدينة حلب الشهباء من أرض سورية أنه ليس عالماً فقط، وإنما هو عالمٌ عامل، وحتى نلمَّ بسيرته تفصيلاً نذكر النقاط التالية:

ولادته ونشاته العلميّة:

ولد الشيخ عبدالله سراج الدين الحسيني بمدينة حلب سنة ١٣٤٢ للهجرة النبويّة والموافقة لسنة ١٩٢٣ للميلاد من أب كان نجمَ حلب في أيامه هو الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني الحنفي، فأدخل ابنه عبدَالله جامع سليمانَ القريب من حي قاضي عسكر بحلب... فتعلم تلاوةَ القرآن الكريم والكتابة، ثم انتسب إلى مدرسة دار الفلاح ـ السلطانية... فتدرج في صفوفها، وجوّد القرآن الكريم على القارئ الشيخ عثمان قنديل الطنطاوي المصري، وأخذ شيئاً من فقه العبادات والنحو، وأشعارِ العرب، وخُطبهم التي كان مفروضاً على الطلبة يومذاك أن يحفظوها، كما أخذ علوم الرياضيات عن الشيخ محمد خير إسبر.

في مكتب الشيخ عبدالوهاب المصري ثم المدرسة الخسروية:

ثم انتسب إلى مكتب الشيخ عبدالوهاب المصري الحلبي، فبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويدهِ عليه، واستمر سنتينِ كاملتيْنِ حتى حفظ كتاب الله كله عن ظهر قلب، ثم انتقل إلى المدرسة الخسروية متدرجاً في صفوفها.

عنايته بالحديث النبوي والعلوم الشرعية:

وحُبِّب إليه الحديث النبويّ، وأولع بقراءته، فحفظ قسماً كبيراً من صحيح البخاري، ثم عرج على العلوم الدينية الأخرى من فقه وأصول وتفسير وفرائضَ وتوحيد ومصطلح وسيرة، وأتبعها بعلوم العربية من نحو وصرف وعروض وبلاغة، فكان فيها المبرز والمتقن.

ثم استقرّ به الحال في غرفة والده الشيخ محمد نجيب في المدرسة الشعبانية مجاوراً للشيخ ياسين سريّو الذي كان يُعدّ من أجَلّ شيوخه رحمه الله تعالى، كما لازم دروس الفقه في المدرسة الإسماعيلية عند الشيخ أحمد عساف الحجّي الكردي.

وظائفه:

عُيِّن مدرساً في جامع (أبو درجين)، ثم دُعي للتدريس في معهد العلوم الشرعية في المدرسة الشعبانية، وكلّف بتدريس التفسير والحديث والفقهِ الحنفي ومصطلح الحديث.

تدريسه في المدرسة الخسرويّة:

كذلك استُدعي إلى المدرسة الخسروية، فدرّس فيها المصطلح، وألف كتاباً في هذا الموضوع، فطبعته المدرسة، ووزعته على طلابها، ناب خلال ذلك في التدريس عن والده الشيخ محمد نجيب سراج الدين في جامع الحموي، ثم أبدل بجامع أبو دَرَجَيْن درسَ المحافظة في الجامع الأموي الكبير.

في المدرسة الشعبانية:

وشاء الله تعالى أن ينتقل من جامع الحموي، ويركّز جهود في المدرسة الشعبانية، وراح يستقبل طلاب العلوم الشرعية، حتى إذا تخرج أحدهم من الشعبانية تلقفته جامعة الأزهر الشريف في أرض الكنانة، وأدخلته في كلياتها.

إجازاته العلمية:

يضاف إلى هذا كله اتِّصالُ عالمنا الشيخ عبدالله بعلماء العالم الإسلامي، ومحادثتهم، ونَيْل الإجازات الرفيعة منهم بخط أيديهم.

حكمته العلميّة والتربويّة والدعويّة:

آمَنَ الرجلُ بحكمة رائعة خلاصتها: لا يكفي أن يكون المرء عالماً، ومبرّزاً في علوم الأولين والآخرين، ثم ينطوي على نفسه، فلا يستفيد منه أحد... إنما شأنُ العالِم أن يكون عاملاً بعلمه، موزّعاً معارفَه عبْرَ الجهاتِ كلها، ينشر الخيرَ يَمْنةً ويَسْرَةً، آناءَ الليل وأطرافَ النهار، ثم يكون له أتباعٌ يتمثّلون بشخصه وتعاليمه، ويقتدون به، ويغدو كلّ منهم فلكاً جديداً تدور حوله نجوم وكواكب وأقمار... وهكذا.

ومع هذا كلّه، لا يكفي أن يلقيَ العالمُ دروسه على أتباعه ومريديه وتلامذته، ثم ينصرفُ وينصرفون، وينتهي كلّ شيءٍ بانتهاء حياته أو حياتهم، إنما ينبغي أن يتركَ العالمُ بعده آثاراً مسجّلة مكتوبة، يقرؤها الناس أيام حياته وبعد موته. ويطّلع عليها من هو قادر على أن يصل إلى الشيخ ويراه، ومن هو غيرُ قادر على أن يصل إليه أو يراه.

دروسه ومصنّفاته:

لقد آمن أن نفع التصانيف أكثرُ من نفع المشافهة، فهو يُشافهُ خلال حياته عدداً محدوداً من الناس، ولكنه بتصانيفه ومؤلفاته المطبوعة يشافه عدداً لا يُحصى، ما خُلقوا بعد... ودليل هذا انتفاعُ الناس بتصانيف المتقدّمين

كما يستفيدون من مشايخهم المعاصرين، وأن العالمَ الحقّ ينبغي أن يعكف على التأليف إن وُفّق إلى التأليف المفيد، فإنه ليس كل من ألّف أفاد ونفع، وليس المقصودُ جمعَ شيء كيفما كان، وإنما هي أسرارٌ وأنوار يُطْلِعُ الله تعالى عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمعُ ما تفرق، ويرتبُ ما تشتت، ويشرحُ ما يحتاج إلى شرح، ويحلّ كل غامض أو معقّد...

لقد دأب شيخنا في حياته على إلقاء الدروس في المدارس المختلفة كالشعبانية والخسروية وفي جوامعَ عدّةٍ كالجامع الكبير وجامع الحموي وجامع بنقوسا وجامع سليمان، ومع تلك الدروس الملقاة راح يسجل دروسه بتصانيف وكتب، زاد عددها على عشرين كتاباً مطبوعاً، نذكر منها:

١ ـ كتاب سيدنا محمد ﷺ. ٢ ـ التقرب إلى الله تعالى. ٣ ـ الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها. ٤ ـ الدعاء. ٥ ـ صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال. ٦ ـ شهادة أن لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله ﷺ. ٧ ـ الصلاة في الإسلام. ٨ ـ الصلاة على النبيّ. ٩ ـ تلاوة القرآن المجيد. ١٠ ـ هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان. ١١ ـ هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان. ١٢ ـ حول تفسير سورة الفاتحة. ١٣ ـ حول تفسير سورة الحجرات. ١٤ ـ حول تفسير سورة ق. ١٥ ـ حول تفسير سورة الكوثر. ١٦ ـ حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين. ١٧ ـ شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث(١).

---

(١) وقد عرض الأستاذ الدكتور بكري الشيخ أمين لكتاب «حول تفسير سورة الفاتحة» في عدة صفحات، وبعد أن استعرض لمحات مما جاء في تفسيره للسورة قال: فإن قراءة هذا الكتاب جعلتني أؤمن بما صرّح به سيدنا علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وفخر الدين الرازي ـ رحمه الله ـ من أن شرح سورة الفاتحة وحدها يملأ مئات الصحف والمجلدات، فالسورة فيها الحياة بكل دقائقها، وفيها الآخرة بكل جزئياتها، ولا تتأتى معرفة ذلك إلا لمن فتح الله تعالى عليه.
أعود إلى الحديث عن شيخنا الكبير عبدالله سراج الدين لأقول: إن جميع كتبه من هذا القبيل، فهو لا يتناول موضوعاً إلا أشبعه بحثاً وتفصيلاً حتى لا يترك لمستزيد حاجة إلى زيادة.

إقبال الناس على كتبه:

الطريف في هذه المؤلفات أن الناس في مدينة حلب ـ هذه المدينة المباركة ـ يقبلون على اقتنائها، ويتهادونها... وتنتقل هذه الكتب شراء وإهداء إلى معظم بيوت الناس في بلاد الشام، ومن بلاد الشام تنداح إلى مختلف أصقاع العالم شرقاً وغرباً. وتسهر المطابع على إعادة نشرها وتوزيعها مرة بعد مرة، وتقول: هل من مزيد؟

دروسه في جامع بنقوسا بعد عصر الجمعة:

وإنْ أنس لا أنسى شارع بنقوسا في مدينة حلب، ففي هذا الشارع جامع كبير يتسع لآلاف المصلين، وكان شيخنا يلقي فيه درساً على الناس بعد عصر كل يوم جمعة...

في ذلك الوقت لا يمكن لسيارة أن تمر بهذا الشارع من كثرة الزحام أو المجالسين المنصتين على الأرصفة وأرض الشوارع، يستمعون إلى درس هذا الرجل الكبير...

والرائع في تلك السيارات أن أبوابها تخرس أو تشل، فلا تسمع لها ضجة أو بوقاً أو صوتاً، وشرطة المدينة تقف في مختلف الجهات تحوّل مسير السيارات إلى هنا وهناك، حفظاً على حياة هؤلاء الذين يجلسون في الشوارع، هذا يبكي، وهذا يستغفر، وهذا يطرق برأسه، وهذا يفتح يديه إلى السماء.

وتستمر هذه الحلقة إلى مغيب الشمس، ثم ينفرج الطريق ليمر موكب الشيخ المَهيب، ويَصْطف الناس على جانبي الطريق، صفين متقابلين واضعين أيديهم على صدورهم، مثبتين أعينهم على شيخهم الحبيب، داعين الله أن يحفظه ويمدَّ في عمره، والسعيد من اقترب منه، أو لمس يده، أو استنشق من عبير أنفاسه وعبقها.

عزلته عن الناس:

وتمرُّ الأيام، وتتوالى الأمراض على الشيخ، ثم يعجز عن الخروج من داره، ويعتزل الناس إلا من أسعده الحظ بلقائه لحظات خاطفات، ويتقاطر الناس إلى بيته يسألون عن صحته، ويودون أن لو استطاعوا فداءه بأرواحهم، ويحملون ما يحمل ويعاني ليبقى سليماً معافًى، يرونه ويرون فيه صورة حبيبهم الأعظم صلوات الله تعالى عليه. ولكن هيهات هيات، فلا رادَّ لقضاء الله، وليت الأماني بالتمنّي.

الدمعة الحرّى:

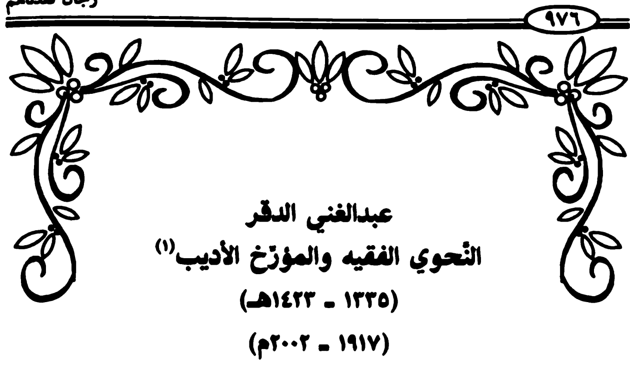
وبزغت شمس العشرين من ذي الحجة عام ١٤٢٢ للهجرة والموافق للرابع من شهر آذار سنة ٢٠٠٢ للميلاد على مدينة حلب، فإذا هي شمس كئيبة صفراء، وشاع في المدينة نبأ مزلزل، يقطع القلب هلعاً، والنفوس جزعاً، لقد مات حبيب الأمة وعالمها وسراجها وكوكبها الدري...

في موكب الوداع:

لقد مات الشيخ عبدالله سراج الدين، وراح الناس يجهشون بالبكاء، ويسيلون جموعاً إلى موكب وداعه، ودموعهم مسفوحة، وعيونهم زائغة، وحسرتهم تقطع القلوب، وتسري في المدينة كلها كلمة: رحل الحب والحبيب...

رحل الإنسان الذي كنا نراه فكأنا نرى رسول الله ﷺ، ودفن في المدرسة الشعبانية التي أحبها وأمضى فيها زهرة حياته، وبقي الناس يومها لا يشتهون طعاماً أو شراباً، ولا بيعاً أو شراء، وبقيت حلب تئنُّ من يتمها ولا تزال.





عبدالغني الدقر
النحوي الفقيه والمؤرِّخ الأديب[1]
(١٣٣٥ ـ ١٤٢٣هـ)
(١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م)

اختصرها وحرَّرها: مَجْد مكي

مولده ونشأته:

ولد عبدالغنيّ بن محمد عليّ بن عبدالغنيّ الدُّقر سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م، في حي زقاق البرغل باب الجابية من أحياء دمشق، لأبوين فاضلين، فوالده العالم الفاضل الشيخ محمد علي صاحب نهضةٍ علميةٍ في بلاد الشَّام، ووالدته السَّيدة الجليلة بدرية المرادي، توفيت وهي ابنة ثمانية وعشرين سنة، وعمر صغيرها عبدالغني حينئذ سنتان ونصف، فنشأ الطِّفل يتيم الأمّ ينقصه الحنان، فكان أبوه يعوِّضه شيئاً منه باصطحابه معه إلى حَلَقات كبار العلماء.

أرسل الوالد صغيره إلى معلمة القرآن الكريم للصغار، فقرأ عندها القرآن كاملاً، وتلا من سورة النَّاس إلى سورة الضُّحى.

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٩/٥/٢٠٠٨م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

ثم ألحقه والده بالكتّاب، وهو ابن خمس سنين، فقرأ فيه ختمةً كاملةً نظراً على الشّيخ المقرئ عزّ الدّين العرقسوسي، وأقيم له حفل الختم ولم يتجاوز عمره سبع سنين.

في المدرسة التجارية:

ألحقه والده بعد ذلك بالمدرسة التّجارية بدمشق لصاحبها الشيخ محمود العقّاد رحمه الله، ولما لوحظ نبوغه قيّد في الصف الرابع مباشرة فدرس في هذه المدرسة من الصف الرابع إلى الصف التاسع، وتخرّج فيها سنة ١٩٢٨م وعمره اثنا عشر عاماً، ولم تكن تلك المدرسة تمنح شهادات لخرّيجيها، ولم يحصل بعدها الشيخ على شهادةٍ قطّ.

ثمّ ترك الدّراسة مدّة من الزّمن، اتّجه فيها إلى ممارسة هوايته في الصّيد وركوب الخيل والسّباحة في مزارع أسرته في المزّة وداريّا.

عكوفه على قراءة كتب المنفلوطي:

وما لبث حبُه للعربية أن أعاده إلى نطاق العلم، فقد أهداه صديقه وأستاذه الشيخ منير الفقير كتاب (في سبيل التاج) للمنفلوطي، فقرأه كلّه في مجلسٍ واحدٍ وأُعجب به، وطلب على إثر ذلك من صديقه أن يوفّر له كتب المنفلوطي كاملة، وعكف على قراءتها، واستخرج الألفاظ الغريبة منها، ورتّبها هجائياً، واستخرج معانيها من القاموس المحيط، وحفظها عن ظهر قلب، فكان ذلك ثروةً لغويّة له، وعمره لم يتجاوز الرّابعة عشرة.

مطالعة كتب الأقدمين:

اتّجه بعد ذلك لمطالعة كتب الأقدمين، وقراءة الأدب الأصيل فقرأ للجاحظ، والمبرّد، والقالي.

دروسه في جامع السنانية بدمشق:

وعاد الشيخ إلى حِلَق العلم طالباً ومدرساً، إذ عقد له والده مجلساً لإقراء النّحو في جامع السّنانية بدمشق، فبدأ مع الطلبة بمتن الآجرومية، ثم

شرحها للأزهري، ثم انتقل إلى (قطر الندى) لابن هشام، ثم إلى (شذور الذهب)، ثم إلى (شرح ابن عقيل على الألفية)، وانتهى من تدريسه وعمره سبعة عشر عاماً!!!

دروسه في مسجد العدّاس:

ثم حوّل درسه بعد ذلك إلى (مسجد العدّاس) بدمشق، حيث تسلّم غرفة فيه ووضع فيها مكتبته، وبقي فيها قرابة خمس وعشرين سنة.

نبوغه المبكّر:

ظهر نبوغ الشيخ مبكّراً، إذ قُيِّد في الصف الرابع مباشرة أول ما أُلحق بالمدرسة التّجارية، وقد كان عمره يوم أن خصّص له والده حلقة إقراء النّحو نحو خمسة عشر عاماً.

كما دُعي إلى زيارة مصر من قبل رئيسها آنذاك، ضمن وفد يمثّل علماء الشام عام ١٩٥٦م وعمره أربعون سنة.

وكان الرّئيس شكري القوتلي الذي حكم سورية في الخمسينيات، يناديه طالباً منه تصحيحاً لغوياً، أو استشارة في ذلك، على حداثة سنّه ووجود أعلامٍ في العربية في عصره.

ثناء الشيخ الطنطاوي عليه:

وعنه كتب الشيخ علي الطنطاوي في مذكراته ٣٠١/٨ فقال: «...كذلك يُحيي الله بالرّجل الواحد بلداً ميتاً في الأدب والعلم، وربّ رجلٍ واحدٍ يكون على يده نهضةُ شعب... فعليكم بالبقية الباقية من أقطاب الأدب. أطلقوا أيديهم في مناهج العربية وكتبها، ولا تجعلوا الشّهادات وحدها هي الميزان، فإنّ كثيراً ممّن أعرف اليوم معرفة بالأدب العربي الحقّ، ممّن درس كتبه الكبرى؛ لم يكونوا يحملون شهادة، وإن كان يقعد بين أيديهم يتلقّى عنهم حملةُ الشّهادات من أساتذة الجامعات، ومن هؤلاء: محمود شاكر في مصر، وعبدالغني الدّقر في الشام».

وكان الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت فقيه دمشق ومقرئها يقول: إذا

أردت أن تتقن القرآن اذهب إلى الشيخ عبدالغني ثمّ تعال إليّ.

شيوخه:

قرأ الشيخ عبدالغني الدّقر رحمه الله تعالى العلوم الشرعية والعربية على كبار علماء عصره؛ فقرأ التّوحيد، والتّفسير، والحديث، والفقه الشافعي وأصوله، والنّحو والأدب والمنطق.

أما العلماء الذين قرأ عليهم فهم:

الشيخ بدر الدّين الحسني (ت١٣٥٤)، الشيخ محمد أمين سويد (ت١٣٥٥)، والده الشيخ علي الدّقر (ت١٣٦٢)، الشيخ محمود العطّار (ت١٣٦٢)، الشيخ عبدالرحمٰن الخطيب (ت١٣٦٧هـ)، الشيخ عبدالقادر المغربي (ت١٣٧٥)، الشيخ محمد هاشم الخطيب (ت١٣٧٨)، الشيخ واصف الخطيب، الأستاذ عزُّ الدّين التّنوخي (ت١٣٨٦)، الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت الشهير بالحافظ (ت١٣٨٩)، الشيخ حسن حبنّكة الميداني (ت١٣٩٨)، والشيخ أبو اليسر عابدين (ت١٤٠١)، رحم الله الجميع.

مطالعته مع أقرانه:

كان للشيخ الدّقر مع أقرانه مدارسات، ومذاكرات، من ذلك مدارسته مع الشيخ عبدالكريم الرّفاعي رحمه الله لكتابي (المحلّى) و(الإحكام) لابن حزم رحمه الله.

كما كان له مجلس مع الشيخ علي الطنطاوي والأستاذ سعيد الأفغاني رحمهما الله، بعد صلاة الجمعة، يقرؤون فيه كتاب (الرّسالة) للإمام الشافعي رحمه الله.

كما تدارس العربية مع الشيخ يوسف بن صادق عرار، قرآ معاً كتاب (المُزهر في علوم اللغة) للسيوطي.

وتدارس مع الشيخ نايف العباس علم البيان.

مطالعته ومكتبته:

كان الشيخ مولياً القراءة النصيبَ الأوفر من حياته، فهو يقرأ من بعد

صلاة الفجر حتى صلاة المغرب، وقد جَرَدَ بنفسه عدداً من المطوَّلات في التَّفسير والفقه، والحديث، واللُّغة، والأدب، مثل: (مغني المحتاج) للشربيني، و(نهاية المحتاج) للرملي، و(مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)، و(المحلَّى) و(الإحكام في أصول الأحكام)، و(الفصل في الملل والأهواء والنِّحل) لابن حزم، و(فتح الباري) لابن حجر، و(شرح صحيح مسلم) للنووي، و(تاريخ الطبري)، و(الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني، وكتب الأدب المشهورة جميعها.

وتضمُّ مكتبته المرتبة على الفنون؛ أصنافَ المعرفة الإسلامية والعربية جميعها؛ من تفسير، وحديث، وفقه، ولغة، وأدب، وتاريخ، وتراجم، وغير ذلك.

تعقباته واستدراكاته وتصحيحاته:

وقد فرضَت عليه مطالعاتُه الكثيرة أن يكون رجلاً نقَّاداً، فهو إما متعقِّب، أو مستدرك، أو مصحِّح، كما يقول عن نفسه: «لا أستسلم لكتاب، ولا رأي».

آراؤه في دراسة العلوم الشرعيَّة:

للشيخ آراء واتجاهات في علم الكلام والفقه والحديث واللغة، وأذكر هنا بعض اتجاهاته في العلوم المختلفة التي تنمُّ عن شخصيته العلمية:

- في علم الكلام: يميل إلى رأي السَّلف، ويحبُّ عقيدة الإمام أحمد وورعه وزهده.

- في علم المنطق: يذهب مذهب الغزالي بأن الفلاسفة كفروا في ثلاثة أشياء: قدم العالم، وأن الله يبعث الأرواح دون الأجساد، ولا يعلم الجزئيات.

- في علم الفقه: يميل إلى الأخذ بالدَّليل الصَّحيح، ويتتبَّعه؛ ولو كان مخالفاً لمذهبه الشافعي، ويرى أن طالب العلم المتمكِّن يسوغ له الأخذ بالدَّليل، غير أنه لم يخرج عن مذهب الشَّافعي إلاَّ في مسألةٍ واحدة في الطلاق الثلاث في مجلس واحد، غير أنه كان لا يفتي بذلك.

ـ في علم الحديث: لا يرى الأخذ بالحديث الضَّعيف مطلقاً، ولا حتى في فضائل الأعمال، ومتى ثبت الحديث لديه يعمل بما فيه.

ويرى أن البدع يجب محاربتها، وهي سنَّة السَّلف الصَّالح والعلماء العاملين.

ـ وفي التَّاريخ: قرأ التاريخ الإسلامي، ودرس كتب الشيخ الخضري.

ـ وفي اللُّغة: له تعقبات على (القاموس المحيط)، في نحو من ثمانمئة صحيفة، ويعدُّ الجوهريَّ صاحب (الصِّحاح) من أدقِّ اللغويين، ويقاربه ابن منظور في (لسان العرب).

ويأخذ على علماء الشَّام عدم عنايتهم باللُّغة والحديث.

مروياته:

للشيخ مرويَّات وإجازات من عددٍ من شيوخه، وهي:

سماعه من الشيخ المُحدِّث بدر الدِّين الحسني بعض الأحاديث المسلسلة، وقد أجازه إجازةً عامَّة. وأجازه العلامة الشيخ محمد أمين سويد إجازةً عامةً بسائر مرويَّاته. كما أجازه العلامة الشيخ محمود العطَّار إجازةً عامةً بسائر مرويَّاته. وأجازه العلامة المقرئ الفقيه الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت إجازتين: إجازة خاصَّة بالقرآن الكريم، وإجازة عامة بسائر مرويَّاته. وأجازه العلَّامة الشيخ حسن حبنَّكة الميداني إجازةً عامةً بسائر مرويَّاته. كما أجازه الشيخ أبو اليسر عابدين إجازةً عامةً بسائر مرويَّاته.

الوظائف التي تولاها، والأعمال التي شغلها:

تولَّى الشيخ عدداً من الوظائف، وشغل عدداً من الأعمال، وهي:

١ ـ مدرِّس بإدارة الإفتاء العام من عام ١٩٤٦م حتى وفاته. ٢ ـ درَّس في ثانوية السَّعادة الأدبَ العربيَّ لطلاب الشَّهادة الثَّانوية. ٣ ـ مدرِّس بالمعهد الشَّرعي بجامع تنكز للعلوم العربية. ٤ ـ أستاذ العلوم العربية في كثير من الثَّانويات. ٥ ـ عهِد له والده بحلقةٍ يدرس فيها النَّحو في جامع

السنانية. ٦ ـ رئيس مجلس إدارة الجمعية الغرّاء. ٧ ـ رأس تحرير مجلّة (المرأة) لصاحبتها نديمة المنقاري وزوجها عطا الصابوني وكتب فيها عدة مقالات، أودعها في كتابه «المحات من الكتاب والنبوة والحكمة»...

رحلاته:

لم يُعن الشيخ بالرّحلة، ولم يُكثر منها، إلا أنّه زار تركية سياحةً، والمملكة العربية السعودية، ولبنان، والأردن، ومصر، وحجّ حجّتين: الأولى: مع زوجه سنة ١٩٧٠م، والثانية: بدعوةٍ من الملك فهد بن عبدالعزيز سنة ١٩٧٨م.

حِلْيته:

كان رحمه الله ربعة، ممتلئ الجسم، أبيض البشرة، له لحيةٌ خفيفة، عيناه زرقاوان، يلبس البزّة، ويعتمُّ على طربوشه من الأغباني، متواضعاً، بهيَّ الطّلعة، لا تفارق الابتسامة محيّاه.

وفاته:

توفّي الشيخ عبدُالغنيّ مساء يوم الخميس الخامس عشر من شوال عام ١٤٢٣هـ، الموافق التاسع عشر من كانون الأول سنة ٢٠٠٢م، وصُلّي عليه في جامع الحمد بعد صلاة الجمعة من اليوم التّالي، ودفن في مقبرة الباب الصّغير عن خمس وثمانين عاماً قضاها في طلب العلم وبذله لطلابه، رحمه الله وأجزل له المثوبة.

تعريف بمؤلّفاته:

اعتنى الشيخ عبدالغنيّ الدّقر بالكتابة والتّأليف، فصنّف وحقّق وكتب المحاضرات والمقالات، وفهرس المخطوطات، أما أهم آثاره وعمله فيها فهي على النّحو التالي:

أ ـ في مجال العلوم والدّراسات الإسلامية:

١ ـ مختصر تفسير الخازن لعلاء الدّين البغدادي، اختصار وتهذيب، صدرت الطبعة الأولى ١٤٢٥ عن دار اليمامة بدمشق، واعتنى بمراجعته وترقيمه وإعداده للطباعة من أول التفسير إلى سورة الكهف: مَجْد مكي. ٢ ـ قواعد الأحكام في قواعد الأنام للعزّ بن عبدالسّلام، تحقيق، صدرت الطبعة الأولى ١٤١٢ عن دار الطباع بدمشق. ٣ ـ محاضرات في الدّين والتّاريخ والاجتماع، تأليف، وهو أول كتاب أصدره الشيخ سنة ١٣٧٢. ٤ ـ لمحات من الكتاب والنبوّة والحكمة، تأليف، صدرت الطبعة الأولى ١٤٠٦ في ٣٠٣ صفحة عن دار اليمامة بدمشق. ٥ ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الفقه الشافعي، فهرسة، صدر عن المجمع العلمي بدمشق ١٣٨٣ في ٣٥٥ صفحة. ٦ ـ صحيح الأدعية والأذكار، تأليف، صدرت الطبعة الأولى ١٣٩٧ عن دار القلم بدمشق. ٧ ـ صحيح الآثار في الأدعية والأذكار، تصنيف، أضاف إلى الكتاب السابق مختصراً في أحكام الحج للمفرد على المذهب الشافعي. ٨ ـ قصّة إبليس والرّاهب، قصة قصيرة استوحاها من بعض التفاسير صدرت الطبعة الثانية سنة ١٤٠٧. ٩ ـ الدّعوة من القرآن وإلى القرآن، رسالة في أساليب الدعوة وصفات الداعية، صدرت سنة ١٤٠٧ عن دار الهجرة.

ب ـ في مجال العلوم العربية:

١ ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري، ترتيب وتعليق وشرح الشواهد، صدر عن دار العربية في ٦٥٤ صفحة. ٢ ـ معجم النّحو، تصنيف طبع في المكتبة العربية عام ١٣٩٥. ٣ ـ معجم القواعد العربية في النّحو والتّصريف وذيل الإملاء، تصنيف، طبع في دار القلم، وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٤٢٢. ٤ ـ تحرير ألفاظ التّنبيه أو لغة الفقه للنووي، تحقيق وتعليق طبع بدار القلم سنة ١٤٠٨.

ج ـ في مجال التاريخ والتراجم:

١ ـ الإمام مالك بن أنس، تأليف، طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٢٣) وصدرت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ. ٢ ـ الإمام الشافعي،

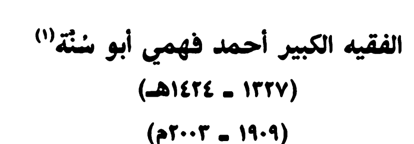
فقيه السُّنّة الأكبر، تأليف، طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٢) وصدرت الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ. ٣ ـ أحمد بن حنبل، إمام أهل السُّنّة طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (١٧) وصدرت الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ. ٤ ـ سفيان بن عيينة شيخ شيوخ مكّة في عصره، تأليف طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٣٧) وصدرت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ. ٥ ـ الإمام سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث، تأليف طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٥٢) وصدرت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ. ٦ ـ الإمام النووي شيخ الإسلام والمسلمين، وعمدة الفقهاء والمحدّثين، وصفوة الأولياء والصالحين، طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (١٠) وصدرت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ. ٧ ـ تاريخ مدينة دمشق حماها الله وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، لابن عساكر، تحقيق الجزء السابع، وقد احتوى على ٢٢٣ ترجمة، وطبع في مجمع اللغة العربية عام ١٤٠٥هـ.

د ـ المقالات:

شارك الشيخ في الكتابة في الصُحف والمجلات، فكتب مقالاتٍ وبحوثاً كثيرة في صحيفة (الأيّام)، و(المرأة) السُّوريتين، وفي (الرّسالة) القاهرية، وكتب في مجلّة (حضارة الإسلام)، و(مجلّة مجمع اللغة العربية) بدمشق.

تميّز الشيخ عبدالغني عن علماء الشام بعلمه بالعربية، وعنايته بأدلة الأحكام. ورغم نشأته في بيئة علمية رفيعة القدر، فإن أخلاقه وتعففه منعته أن يكون مستغلاً لها، فلا يطلب بها مالاً، أو جاهاً أو منصباً، بل فضل أن يكون الكتاب جليسه وأنيسه، والعلم مطلبه ومراده، فلا عجب أن تراه عازفاً عن رسوم المشايخ بعيداً عن أضواء براقة يسعى غيره إليها[1].

(١) مختصر من كتاب (عبدالغني الدّقر، النّحوي الفقيه والمؤرّخ الأديب)، تأليف: إياد خالد الطباع، وهو الكتاب رقم (٢٢) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم) التي تصدرها دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.



الفقيه الكبير أحمد فهمي أبو سُنَّة[1]

(١٣٢٧ ـ ١٤٢٤هـ)

(١٩٠٩ ـ ٢٠٠٣م)

هذه رحلتي وهذا عطائي...

سيرة حياته بقلمه

اسمي أحمد فهمي أبو سُنَّة، وُلدت في محافظة الجيزة مركز الصف سنة ١٩٠٩م، حفظت القرآن الكريم على يد جدي الشيخ محمود خليفة أبو سُنَّة رحمه الله، وتلقيت عليه من القرآن الكريم بعض الكتب الصغيرة في علمي التجويد والنحو، وكان للكتاتيب على أيامنا دور بارز في نشر كتاب الله تعالى.

في رحاب الأزهر الشريف:

ولما جاوزت السنة ١١ من عمري التحقت بالأزهر سنة ١٩٢١ وقطعت مرحلتيه الابتدائية والثانوية في القاهرة، وتلقيت فيهما العلم على يد

---

(١) نشرت بتاريخ ١٧/١/٢٠٠٧م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com وأصل المقالة نشرها الأستاذ ناصر وهدان في مجلة (الأزهر).

كثير من كبار علماء الأزهر في ذلك الوقت، مثل الشيخ يوسف حجازي في الفقه، والشيخ عبدالرؤوف الرفاعي في النحو، والشيخ محمد المدلل، وغيرهم الكثير.

وأذكر أنه قد ألغيت الدراسة الأزهرية وأنا في السنة الأولى من القسم الابتدائي؛ بسبب قيام المظاهرات ضد الاحتلال الإنجليزي، واشتراك طلاب الأزهر فيها، وبطبيعة الحال لم يحصلوا علماً فتعطلت الدراسة وألغيت الامتحانات، ثم عادت الدراسة مرة أخرى في العام التالي ١٩٢٣/١٩٢٢.

وأذكر من زملائي في تلك الفترة على سبيل المثال الدكتور حسن عون الأستاذ بجامعة القاهرة قسم الدراسات العربية والحاصل على الدكتوراه من فرنسا، والأستاذ محمود الأزرق الذي عمل بالقضاء الشرعي بعد ذلك، والشيخ شغبون، وغيرهم الكثير.

أما عن نظام الدراسة في هذين القسمين فقد كانت مُحبَّبة للجميع، وكنت مع دراستي أحب الاطلاع على الكتب، ولا سيما كتب الفقه والأدب.

تطوير منهج الأزهر:

ومع بداية التعليم الثانوي سنة ١٩٢٧/١٩٢٦م نشأ على عهدنا منهج في الأزهر متطور جمع فيه بين علوم الأزهر المتعارفة القائمة على المتون والشروح وبين العلوم الحديثة كالطبيعة والكيمياء والرياضيات والجغرافية والتاريخ، فكان الطالب يدرس دراسة مزدوجة في عهد مشيخة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي، ثم أدركنا مشيخة الشيخ محمد مصطفى المراغي الأولى سنة ١٩٢٨، ثم مشيخة الشيخ الأحمدي الظواهري سنة ١٩٢٩، وكان ذلك في آخر القسم الثانوي.

في التعليم العالي:

ثم انتقلنا إلى السنة الأولى من القسم العالي في سنة ١٩٣١، وهي ذات الدراسة على النظام القديم حضرناها في الجامع الأزهر على يد كثير من العلماء أمثال الشيخ أحمد عبدالسلام في الفقه، والشيخ حامد جاد في التفسير، وغيرهما.

التحاقه بكلية الآداب بجامعة القاهرة:

وفي هذا الوقت بدأت كلية الآداب بجامعة القاهرة تفتح أبوابها لطلاب الأزهر ودار العلوم، وكنت من الذين تاقَتْ أنفسهم للتعرُّف على التعليم الجامعي، فجمعت بين النظامين الأزهري والجامعي، وكنت أتلقى العلم هنا وهناك، ساعدني في ذلك تشجيع الأساتذة لي في كلية الآداب الذين درست على أيديهم أمثال الدكتور أمين الخولي في الحديث، والدكتور أحمد أمين في قاعة البحث، والدكتور إبراهيم مصطفى في النحو، والدكتور أحمد الشايب في الأدب.

وكان ذلك على عهد طه حسين الذي فتح باب الالتحاق بكلية الآداب، وشجَّع عليه الطلاب وبخاصة طلاب الأزهر ودار العلوم.

عودته للأزهر وتفرغه للدراسة الشرعية:

وما هي إلا شهور معدودة وقد أوشك العام الدراسي على الانتهاء وعلم والدي رحمه الله، وكان من أقران أساتذتي في كلية الآداب، برغبتي في المضي في التعليم الجامعي على حساب دراستي في الأزهر، فأقنعني وأقنع أساتذتي - لمعرفته بهم باعتبار أن أغلبهم من دار العلوم أو القضاء الشرعي - بعودتي للأزهر والتفرغ للدراسة الشرعية فيه وحده، فأكرمني الله بسبب بُعْد نظر والدي رحمه الله.

افتتاح الكليات الأزهرية النظامية:

وبعد نجاحي في السنة الأولى من القسم العالي وبداية السنة الثانية منه، افتتحت الكليات الأزهرية النظامية، وهي الشريعة وأصول الدين واللغة العربية في عهد مشيخة الشيخ محمد الأحمدي الظواهري.

التحاقه بكلية الشريعة:

وبعد اطلاعي على مناهج الكليات الثلاث السابقة، اخترت الالتحاق بكلية الشريعة، فكان الطالب الذي أمضى سنة بالقسم العالي من أمثالي

يلتحق بالسنة الثانية بكلية الشريعة مباشرة، بخلاف الطلاب الحاصلين على الثانوية الأزهرية فإنهم عند التحاقهم بالكلية يدخلون السنة الأولى كطلاب جدد على الدراسة الجامعية.

ولذلك كانت الدراسة بالنسبة لنا شاقة، فقد وزع علينا منهج الكلية على مدى ثلاث سنوات بدلاً من أربع.

أساتذته في هذه المرحلة:

أما عن أساتذتي في هذه المرحلة فهم على سبيل المثال: الشيخ حسن البيومي، والشيخ يوسف المرصفي، والشيخ محمد عبدالفتاح العناني، أولئك الذين درسوا لي علم الأصول، والشيخ محمد عرفة في التفسير، والشيخ عبدالرحمٰن تاج شيخ الجامع الأزهر بعد ذلك.

نظام الإصلاح بالأزهر:

وأذكر أنني قطعت سنوات الكلية بجد وحزم حتى تخرجت ونلت الشهادة العليا منها، والحق يقال: إن الذي وضع نظام الإصلاح بالأزهر وإنشاء الكليات هو الشيخ المراغي، ولكن الذي نفذ هذا الإصلاح هو الشيخ الأحمدي الظواهري، ثم عاد الشيخ المراغي في سنة ١٩٣٦م وواصل إصلاحه للأزهر وتخرج في عهده أول فوج من طلاب الدراسات العليا قسم الأساتذة.

أول دكتوراه في الأزهر:

وفي سنة ١٩٣٥ التحقت بالدراسات العليا بالكلية، وكانت مدتها طويلة وبلا مكافآت تشجيعية في هذه المدة، فلما جاء الشيخ المراغي قرّر منح طلاب هذا القسم مكافآت أعانتهم على الاستمرار فيه.

وفي سنة ١٩٤٠ نجحت في الدرسات العليا، وحصلت على الشهادة العالمية من درجة أستاذ دكتوراه كمتخصص في الفقه والأصول وتاريخ التشريع، وكان نظام التخصص على عهدنا قسمين:

(أ) القسم الأول:

١ ـ تخصص للحصول على العالمية مع إجازة التدريس، وكانت مدته سنتين يعمل بها صاحبها مدرساً في المعاهد الأزهرية.

٢ ـ تخصص للحصول على العالمية مع إجازة القضاء بعدها، وصاحبها يكون قاضياً في المحاكم الشرعية.

(ب) أما القسم الثاني من التخصُّص فهو تخصص المادة للحصول على العالمية من درجة أستاذ، وكانت مدته ست سنوات متواصلة ينتقى طلابه من الأوائل؛ ليعملوا فور تخرجهم ونجاحهم مدرسين في الكلية نفسها.

وكان موضوع رسالتي «العرف في رأي الفقهاء والأصوليين»، وأذكر أنها كانت أول رسالة قُدِّمت على هذا النظام الجديد، فقد كنت أول من نُوقش في القسم على النظام الجديد للحصول على الدكتوراه، وهذه الأولية هي أولية زمانية بمعنى كوني الأول في القسم الذي نوقشت رسالته؛ لأن اسمي يبدأ بالهمزة والهمزة أول حروف العربية.

كان معي في الدراسات العليا من الزملاء: الشيخ محمد أبو النور زهير، الشيخ أحمد ندا، والشيخ طه العربي، والشيخ سيد جهلان.

نظام امتحان العالمية:

وكان نظام امتحان العالمية من درجة أستاذ «الدكتوراه» يتكوَّن من مرحلتين، على الطالب أن يجتازها بنجاح، وكانت المرحلة الأولى عبارة عن:

١ ـ إلقاء محاضرة عامة. ٢ ـ مناقشة في مسألة علمية؛ يسمى الامتحان فيها بالامتحان في التعيين. ٣ ـ امتحان تحريري.

لجنة تقويم المحاضرة العامة وامتحان التعيين:

وكانت اللجنة المؤلفة لتقييم المحاضرة والتعيين مؤلفة من سبعة

أشخاص برئاسة الشيخ المراغي، وعضوية الشيخ عبدالمجيد سليم مفتي مصر، والشيخ إبراهيم الجبالي، والشيخ أحمد أبو النصر، والشيخ محمد عبدالفتاح العناني، والشيخ عيسى منُّون، والشيخ محمود أبو دقيقة رحمهم الله جميعاً.

مناقشة رسالة الدكتوراه:

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان بنجاح يتأهّب بعد ذلك للمرحلة الثانية، وهي إعداد رسالته تمهيداً لمناقشتها وتقييمها بعد كتابتها عن طريق لجنة أخرى، وهي اللجنة الخماسية، وكانت مؤلفة من الشيخ المراغي رئيساً وعضوية الشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ الفقيه الحقوقي أحمد إبراهيم، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر بعد ذلك، والشيخ يوسف المرصفي، وكانت رسالتي للدكتوراه أول مناقشة علنية في ظل نظام الشيخ المراغي الذي ظلَّ معمولاً به حتى ١٩٦١، وقد دعا الشيخ المراغي إلى هذا الامتحان كبار الشخصيات وعلية القوم من أمثال لطفي السيد باشا وغيره.

أما عن مكان مناقشة الرسالة فهو نفس مبنى كلية الشريعة القديم قبل إنشاء المبنى الجديد بالدرّاسة وهذا المبنى القديم في الأصل كان مدرسة للقضاء الشرعي قبل إلغائها وقيام كلية الشريعة مكانها، وهذا المبنى يعرف الآن بمعهد البرموني الأزهري.

وقد اكتظَّ المبنى بالحاضرين من الضيوف والطلاب يوم المناقشة، واستحال تنظيم الجلسة حتى خشي المنظِّمون لها من تصدُّع المبنى، فقال الشيخ المراغي رحمه الله بالحرف الواحد كما رأيت في مجلة «الاثنين والدنيا»: لولا أن يقال عن مشيخة الأزهر إنها لم تستطع ضبط النظام في امتحان عُقد لأحد أبنائها لفضَّ هذا الاجتماع. وانتهت المناقشة بحصولي على لقب العالمية من درجة أستاذ في الفقه وأصوله وتاريخ التشريع، وللعلم ظل هذا اللقب معمولاً به في الأزهر لمدة ثلاثين عاماً حتى تغيَّر إلى لقب الدكتوراه، والذي ظهر في عام ١٩٦٥م.

التدريس بالجامعات العربية:

وفي سنة ١٩٤١ عُيِّنت مدرساً في كلية الشريعة فأستاذاً مساعداً فأستاذاً، وظللت بها حتى سنة ١٩٧٤، وهو سنّ الإحالة للمعاش غير أنه ابتداء من سنة ١٩٦٠ كثُرت إعاراتي إلى الجامعات العربية، مثل دمشق سنة ٦٠ ـ ١٩٦١، وجامعة ليبيا بكلية الحقوق سنة ١٩٦٢، وجامعة بغداد سنة ١٩٦٧، وأخيراً جامعة الملك بن عبدالعزيز أم القرى الآن سنة ١٩٧٢، وما زلت بها أستاذاً للدراسات الشرعية حتى الآن، وأحضر لمصر في الإجازات الصيفية.

عنايته بالدراسات الشرعية المختلفة:

ومنذ تخرجي وعلى مدى ٥٠ عاماً تقريباً، وأنا معنيٌّ بالدراسات الشرعية المختلفة بما في ذلك تخصُّصي في الفقه وأصوله وتاريخ التشريع، مثل السياسة التشريعية، والاقتصاد الإسلامي، ومقاصد الشريعة، ومصطلح الحديث، والتفسير، وأخيراً التصوف الذي اضطررت إلى تدريسه في الجامعة الليبية بسبب تغيب أستاذ المادة الدكتور عمر الشيباني، وكان ذلك أثناء فترة تدريسي بالجامعة الليبية.

عضو مجمع البحوث الإسلامية:

وفي مشيخة الشيخ بيصار، وبالتحديد في سنة ١٩٨٠م عُيِّنت عضواً في مجمع البحوث الإسلامية أثناء إعارتي لجامعة أم القرى بمكة، وبرغم إعاراتي لكثير من الجامعات العربية فقد حضرت العديد من جلسات المجمع، خاصة ما ينعقد منها في الإجازات الصيفية.

مظاهر التكريم:

ومن مظاهر التكريم التي حظيت بها طوال فترة حياتي أنني حصلت على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في العيد الألفي للأزهر الشريف سنة ١٩٨٣.

عضو مجمع الفقه التابع لرابطة العالم الإسلامي:

وفي نفس الوقت عُينت عضواً بمجمع الفقه التابع لرابطة العالم الإسلامي، حيث نجيب عن الفتاوى التي تعرض علينا في مؤتمرات مجمع الرابطة في صورة قرارات.

أهمية المجامع العلمية:

وهذه المجامع مثل مجمع البحوث ومجامع الفقه الإسلامي الأخرى يجب أن تظل قائمة، وأن يعظم نشاطها في بيان شرع الله وإصدار الفتاوى العلمية الصحيحة فيما يحتاج إليه الناس وفيما يختلف فيه الكاتبون في الصحف، فإن الناس لا يطمئنون إلا إلى أمثال المجامع وعلى رأسها مجمع البحوث في الأزهر حتى نمنع أي مُفْتِئت على الشريعة بغير علم، ويذكر أحكام في الصحف ما أنزل الله بها من سلطان، وها نحن الآن نسمع في الربا أفكاراً غريبة ينسبها الناشرون إلى الشريعة بتعليلات واهية ولا تستند إلى الحق في شيء، والذي ينبغي أن يسأل فيه أهل الذكر، وهم القائمون بهذه المجامع حتى يطمئن الناس على دينهم ومعاملاتهم.

نشاطه في مجمع البحوث الإسلامية:

أما عن نشاطي في مجمع البحوث الإسلامية فأذكر أنه في مرة استفتاني المجمع وأنا بالسعودية في حكم شهادات الاستثمار فقلت بحرمة المجموعة (أ، ب) منها معللاً ذلك بالأدلة والأحكام في حينها أما المجموعة (ج) منها فذكرت رأيي وهو أن فيها شبهة ربا؛ لأنها ليست نوعاً من المضاربة، فالذي يدفع للبنك ليس من أجل المساهمة في مشاريع الدولة، وإنما من أجل الكسب، فالدافع إنما يدفع انتظاراً ليوم السحب فإن ظهر اسمه بين الفائزين نال الجائزة وإلا فلا، فهذا المال الذي يأخذ وقت السحب عند فوزه يأخذه مقابل ماذا؟! ولهذا ليست شهادات استثمار المجموعة (ج) ربا صريحاً. وإنما فيها شبهة الربا بناء على ذلك.

موقفه من التامين التجاري:

وفي مؤتمر الاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة المنعقد سنة ١٩٧٦ عُرضت علينا مسألة التأمين التجاري على الحياة فرفضناه كما رفضناه في الستينيات؛ لأنه باطل لما فيه من ربا وغرر وقمار، وإن كنا قد أجرينا بديلاً عنه التأمين التعاوني القائم على إيداع مجموعة من الأفراد مقداراً معيناً من المال لخدمة الأعضاء من علاج وإعانة، وما إلى ذلك من أنشطة للأعضاء بشرط أن ما يتبقى في الصندوق عند نهاية العام لا يرد ويجوز أن يستثمر عن طريق المضاربة والشركات ذات الربح الحلال، ثم يوزع الربح على المودعين كل بمقدار نسبة مساهمته في المشروع.

مؤلفات وبحوث:

ومن أهم المؤلفات والبحوث التي نُشرت لي:

١ ـ كتاب «العرف في رأي الفقهاء والأصوليين»، وهي رسالتي للدكتوراه. ٢ ـ كتاب الوسيط في أصول الفقه. ٣ ـ كتاب نظرية الحق في الفقه الإسلامي. ٤ ـ بحث حقوق المرأة السياسيّة في الإسلام.

ولديَّ كتب تحت الطبع من أهمها:

٥ ـ نظرية العقد في الفقه الإسلامي. ٦ ـ عقد الزواج. ٧ ـ مقاصد الشريعة. ٨ ـ الاقتصاد الإسلامي. ٩ ـ محاضرات في أصول الفقه. ١٠ ـ نظرية العقد، ونظرية الملك، ونظرية الضمان.

محاضراته عن «حقوق المرأة في الإسلام»:

١١ ـ فضلاً عن إلقاء المحاضرات وحضور الندوات المختلفة في الفقه والاقتصاد الإسلامي منها محاضرة ألقيتها في جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٩٥٥/١٩٥٦م بعنوان «حقوق المرأة في الإسلام»، وكانت رداً على دعاوى القائلين وقتها بأحقية المرأة في الحكم والقضاء، ولكن ما وصلت إليه من البحث والاطلاع بيّن لي أن المرأة لا تصلح للولايات العامة مثل

الخلافة كرئيس أعلى للدولة أو القضاء كقاضية، وإن كانت تصلح للولايات الخاصة وعلى أثر ذلك استفتي الأزهر.

مقالاته في المجلات:

١٢ ـ تحرير بحوث ومقالات بمجلة الأزهر ومجلة رابطة العالم الإسلامي، ومن بينها على سبيل المثال بحث في «الإشهار في العقود»، وآخر باسم «حماية الفقه الإسلامي».

أحاديثه الإذاعية:

١٣ ـ أحاديث إذاعية بغرض التعريف بالإسلام على هيئة فتوى فقهية بدأت في إذاعة بغداد أثناء إعارتي لجامعة بغداد سنة ١٩٦٨.

منهجه في البحث:

أما عن منهجي في بحوثي وكتبي فيقوم على الأدلة الشرعية الصحيحة من كتاب الله تعالى القرآن الكريم وسنّة الرسول المصطفى ﷺ وإجماع علماء المسلمين والقياس والمصالح المرسلة وأن يدون الفقه بأسلوب القواعد والنظريات.

جبهة علماء الأزهر والشيخ أبو زهرة:

أما معرفتي بالشيخ أبي زهرة، فقد تعرفت عليه حينما دعاني للاشتراك معه في إصدار موسوعة السنة، وكان ذلك في الخمسينيات حوالي سنة ١٩٥٧/٥٦م، ثم تقابلنا معاً بعد ذلك في جبهة علماء الأزهر، وهي هيئة من كبار علماء الشريعة بمصر عددهم ما بين عشرين إلى ثلاثين عالماً، وقد تكوّنت بغرض الدفاع عن الدين وما يصدر عن العامة من الشُبه والانحرافات التي تنشر أو تفعل اعتداء على الشريعة، وكان مقرّ هذه الهيئة أحد المساجد الموجودة بشارع نوبار بالقاهرة.

والواقع أن الشيخ أبا زهرة كانت ميزته التي تبرزه عن أقرانه هي كثرة

مؤلفاته، فما من موضوع يمتُّ إلى الشريعة ويشغل الناس إلا وكتب فيه كتاباً مثل كتاب «العلاقات الدولية في الإسلام» و«التكافل الاجتماعي في الإسلام»، وكتب في الأعلام من الفقهاء وغير ذلك.

والحق أنَّ كتاباته جيدة وبخاصة الكتب التي درسها في الجامعة مثل كتبه عن الأئمة الأعلام، فالشيخ أبو زهرة ما قصَّر في حياته، فقد صرف أيامه في الدفاع عن الشريعة. وأذكر قوله لي: «ممَّا منَّ الله علي: أني كنت خاملاً فرفعني طلب العلم» رحمه الله تلك كانت عبارته. وكان وهو يستقل القطار لإلقاء المحاضرات في جامعة الإسكندرية وغيرها من الجامعات يقطع وقته في الاطِّلاع؛ لذا أثرى المكتبة الإسلامية.

أضف على هذا شجاعته في الحق فكان لا يخاف فيه لومة لائم، فقد اعترض على الربا، ورفض التأمين التجاري على الحياة وأعلن رأيه صراحة وكنا في مؤتمر الفقه الإسلامي الذي انعقد في دمشق إبان الوحدة بين مصر وسوريا، وقد حضرت المؤتمر مندوباً عن الأزهر، وحضر الشيخ أبو زهرة مندوباً عن الجامعة المصرية، وكان مقرر المؤتمر الشيخ علي الخفيف، وأراد الشيخ الخفيف والدكتور مصطفى الزرقا جواز إباحة التأمين على الحياة فاعترضت مع الشيخ أبي زهرة على ذلك معتمدين على بيان الأدلة الشرعية في ذلك فرفض المؤتمر إجازته.

إشرافه على عدد كبير من الرسائل الجامعية:

بدأت التدريس في الدراسات العليا في الستينيات، وبخاصَّة لطلاب الجزء الأول منها، وهو الدراسة المنهجية للفقه وأصوله من الناحية النظرية تمهيداً لإعداد الطالب للجزء الثاني والأخير وهو تحضير الرسالة ومناقشتها، ثم شاركت وأشرفت على كثير من الرسائل العلمية أذكر منها رسالة بعنوان «الرخصة والعزيمة»، وكانت في آخر الستينيات، وأخرى بعنوان: «طرق القضاء» سنة ١٩٧٤، ورسالة «فقه عمر»، و«مقاصد الشريعة»، و«دلالة السكوت» لطالبة سعودية، و«رفع الحرج» سنة ١٩٨٦، و«نظرية الخطأ»، و«تطور النقود في الإسلام»، و«السياسة المالية في الاقتصاد الإسلامي»،

وأخرى حول «العمل في الإسلام». وهناك رسائل أخرى للدكتوراه قيد المناقشة منها «الحقوق المقدمة عند التزاحم» للطالبة السعودية شادية الكحكي، و«الأجل في عقد البيع» للطالب التركي عبدالله أوزجان، و«الآثار الإسلامية للوقف» للطالب الكويتي عبدالله السميط.

مواقف وذكريات لا تنسى:

من الذكريات التي لا تنسى: مشاهد الحج لبيت الله الحرام، وكانت بالنسبة لي في سنة ١٩٤٩، كنت وقتها مدرساً في كلية الشريعة بالقاهرة وذهبت مع بعثة الأزهر للسعودية لأداء مناسك الحج لأول مرة، ولا أستطيع أن أصف أو أعلل مدى فرحي وسروري وبهجتي وقتها.

الموقف الثاني يوم تعييني مدرساً في كلية الشريعة التي مكنّني فيها الله سبحانه وتعالى أن أفضي على طلابي بكلِّ ما حذقت من العلم وما منحني الله من مواهب تساعد على ذلك، فما بخلت على طلابي بشيء أشعر أنه ينفعهم.

أمنيته الخاصّة والعامّة:

وعن أعزّ أمنية لي وليس لي في الحياة بعدها حاجة هي إخراج كتبي التي كتبتها وهي قيد الطبع الآن، أما أمنيتي العامة هي أن يعود الأزهر إلى عهده الأول من إنهاضه للعلوم الإسلامية وترقية الناحيتين الدينية والعلمية في أذهان طلابه؛ حتى يكونوا مُؤهّلين لنشر دعوة الإسلام في الداخل والخارج.





أحمد فهمي أبو سُنّة
بين العلم والحياة... سيرة موجزة لعالم[(١)]

بقلم: وفاء سعداوي

فَقْد الأعلام:

هل كُتب علينا ألا يغادرنا سراً ومن دون كلمة وداع إلا من كانوا يستحقون منا كل احتفاء وتكريم، وأن تلهج الألسنة بذكرهم تقديراً ووفاء؟ وهل صار الرحيل في صمت وتعتيم هو دأب الأعلام والعلماء فصاروا إذا غابوا لم يُفتقدوا بعد أن حضروا ولم يُذكروا؟!

أخشى أن تكون الإجابة نعم، وبكل أسف!

رحيل العلامة الأصولي:

فقد مضى ما يقرب من الشهر ولم نقرأ أو نسمع نبأ رحيل العلامة الأزهري وشيخ الأصوليين الدكتور أحمد فهمي أبو سُنّة أستاذ أصول الفقه بجامعتي الأزهر الشريف وأم القرى الذي وافاه الأجل ليلة السبت (٢٣ رجب ١٤٢٤هـ = ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٣م)، والذي كان آخر حبة في عقد من

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٣/١/١٤م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

العلماء المُجدِّدين العاملين من أبناء جيله (ولد ١٩٠٩م)، فقد أمضى حياته كلها عالماً ومعلماً فنفع الله به كثيراً، وتخرجت عليه أجيال حَمَلت لواء العلم والدعوة في بلده مصر وفي الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام والمغرب العربي وتركيا وكثير من أنحاء العالم الإسلامي.

كتابه «العرف والعادة»:

ولا يذكر شيخنا العلامة رحمه الله إلا ويذكر معه كتابه العظيم وهو أول كتبه «**العرف والعادة في رأي الفقهاء والأصوليين**» الذي وضعه قبل أكثر من ٦٠ عاماً، وحصل به على أول دكتوراه من الأزهر الشريف (نوقشت في ٢٠ ـ ١ ـ ١٩٤١)، وهي شهادة العالمية من درجة أستاذ والتي أصبح لقبها الدكتوراه بدءًا من عام ١٩٦١، فقد كان رائداً في بابه ومرجعاً لكل ما كتب عن العرف والعادة في الفقه فيما بعد.

الوسيط في أصول الفقه:

وإذا كان ذلك الكتاب قد أدخل إلى باب تنزيل الأصول على الجزئيات فإن كتابه «**الوسيط في أصول الفقه**» يسهم في تقريب تلك الأصول ذاتها، فقد لمس الشيخ الجليل الصعوبة التي يجدها كثير من طلبة العلم الشرعي في فهم كتب التراث الأصولي لدقَّة عباراتها وصرامة منهجها من جهة، وللضعف العام الذي لحق الطالب لظروف وملابسات كثيرة لا مجال للخوض فيها هنا، من جهة أخرى. فأراد الشيخ أن يقرب عبارة أصل من أصول كتب السادة الأحناف وهو «كتاب التوضيح في حلِّ غوامض التنقيح» للشيخ الإمام صدر الشريعة «الحفيد» ت٧٤٧هـ الذي وضَّح به كتابه «التنقيح» الذي نقح فيه أصول فخر الإسلام البزدوي، فاختار الشيخ أبو سنّة القسم الثاني منه، وكان يقوم بتدريسه لطلبته بالسنة الثانية بكلية الشريعة عام ١٩٥٥ فقرَّب صعبه وأوضح مشكله، واستدرك وزاد عليه وخالفه ووافقه؛ فجاءت عبارته سهلة واضحة ومبينة، وساعده على ذلك أنه كان رحمه الله يجمع منذ حداثته بين علوم الشريعة وعلوم الأدب واللغة فأفاد وأجاد، فجاء كتابه

وسيطاً بين الطلبة وبين علم باذخ حجبت أكثرهم منه صوارف العجز عن مواصلته وتفهمه.

ولأن طبعة هذا الكتاب الوسيط في أصول الحنفية الأولى كانت قد صدرت قبل ٤٥ عاماً ونفدت منذ زمن طويل فقد أعاد تلميذه د. محمد سالم أبو عاصي الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر إخراجه على صورته الأولى ليملأ مكاناً شاغراً في الدراسات الأصولية، ويبل غلة أهل العلم وتشوقهم إلى مطالعته.

أهمية تيسير علوم الدين:

وقد كان للشيخ أبو سنّة رؤية في إصلاح الأزهر، من ركائزها: أهمية تيسير علوم الدين للطلاب، وذلك بإعادة كتابتها بأسلوب جامع بين السهولة والتهذيب والتحقيق العلمي الكامل مع المحافظة على التراث الأول. وبهذه الروح كتب شيخنا بحوثه في أصول الفقه مقرِّباً البعيد من أساليب الأوائل ومصفياً الرحيق من شهد الأكابر؛ لتكون لبنة من بناء النهضة الحديثة بالأزهر الشريف الذي وضع أساسها الشيخ مصطفى المراغي والشيخ الأحمدي الظواهري.

صلته بكتب الإمام ابن الهمام:

وقد عرف عن الشيخ الجليل أبو سنّة ولعه بكلِّ ما يتعلق بالأصول علماً وثقافةً ومعايشةً، حتى إنه من فرط حبه وإجلاله للإمام الفحل علم الأصوليين الكمال ابن همام، كان يَعُده صديقاً شخصياً له فكان لا يذكره إلا ويقول: صديقي ابن الهمام، وكان عظيم الاهتمام بكتابيه «المسايرة» في العقائد و«التحرير» في الأصول، فنراه في هذه المحاضرات يتأثر بطريقة «صديقه» الكمال في كتابة الأصول.

جمعه في كتابته الأصولية بين طريقتي الحنفية والشافعية:

ورغم أنه كان حنفي المذهب أباً عن جد معتزاً بذلك فإنه في كتابته الأصولية كان يجمع بين طريقة كل من الأحناف والجمهور، ويرجِّح ما يراه

راجحاً في ميزان التحقيق من غير نظر إلى موافقته أو مخالفته مذهبه، فقد كان معروفاً بحبه للبحث والنظر، وتقليب وجوه الرأي، ورفضه التقليد والاتباع غير المستبصر لأقوال السابقين.

وهذا المنهج الذي سلكه شيخنا في كتبه ومحاضراته حصل له بعد زمن طويل قضاه في ممارسة علوم الشريعة واللغة، فقد كان والده قاضياً شرعياً ببلدته الصف وشاعراً ورئيساً للبعثة التي كان تخرج من مصر بأمر السلطان حسين كامل لمساعدة المجاهدين في ليبيا بقيادة الملك إدريس السنوسي.

في دمشق الفيحاء:

ومن الفترات التي كان الشيخ الجليل يعتزُّ بها في حياته: عام قضاه في دمشق الفيحاء ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ أثناء الوحدة بين مصر وسوريا؛ إذ كان يعتبرها أخصب سنوات حياته بركة في الوقت والجهد والنشاط، فقد درس فيها لطلاب كلية الشريعة بجامعة دمشق أصول الفقه بصفة أساسية وبعض المواد الأخرى الفرعية، ولاقى من تواصلهم ما بعث في نفسه الرغبة في المزيد من التجويد والإبداع فيما يلقيه عليهم، وقابل الطلبة ذلك بالحرص على كل ما يتلقَّونه من أستاذهم فعملوا على تجميع محاضراته وتنسيقها وكتبوها على الآلة الكاتبة وقابلوها على الشيخ الذي أعاد تحريرها وألَّف بينها على الوجه الذي نراه في كتابه: **«دراسات أصولية ـ محاضرات في أصول الفقه»**.

مكتبته الحافلة:

وكان للشيخ مكتبة تحتل دوراً بأكمله من منزله العامر بضاحية حلوان بالقاهرة على مساحة ١٦٠م تغطِّي حوائطها الآلاف من أمهات الكتب في الفقه والأصول والقانون والتفسير والحديث واللغة بفروعها من نحو وبلاغة وصرف وشعر وغيرها والاقتصاد والتاريخ الإسلامي القديم والحديث والمذاهب والاتجاهات الفكرية وغيرها من العلوم والمعارف التي وضعها بين

يدي تلاميذه ينهلون منها ما يشاؤون من المعرفة وقتما شاؤوا، وكان يستقبل تلامذته طوال اليوم في مكتبته الخاصة المنفصلة عن منزله حتى يرفع عنهم حرج الزيارة والمكوث طويلاً، بل كان يقوم رحمه الله على خدمتهم وضيافتهم بنفسه، خاصة الوافدين من خارج البلاد حتى بعد اعتلال صحته.

زهده في المناصب:

وقد عُرف عن الشيخ أبو سنّة زهده في المناصب وحرصه على الاقتصار على مهام العالم والمربّي فحسب، فرفض كل المناصب التي عُرضت عليه بما فيها المناصب الإدارية بالجامعة الأزهرية حتى إنه لم يقبل بعمادة كلية الشريعة، بل منصب وزير الأوقاف.

تفرغه للتعليم وتخريج الأجيال من طلاب العلم:

وتفرغ رحمه الله لتعليم الطلاب والباحثين فتخرجت على يديه أجيال كثيرة من شتى البلاد العربية والإسلامية بعضهم تولى أكبر المناصب العلمية في بلده. ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ صالح مرزوق، الأمين العام للمجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي بمكة، والشيخ صالح بن عبدالله بن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام، ود.عبدالله السميط عضو مجلس الشورى الكويتي.

طلابه الأتراك:

وكان له في تركيا أيضاً عدد من التلامذة، من أشهرهم: محمد أمين سراج القطب البارز بحزب السعادة الإسلامي بتركيا. والداعية المربّي والعالم العامل د.عبدالله أوزجان أستاذ الشريعة بجامعة سكاريا بتركيا، وكان من آخر تلامذته الذين كان يشرف على رسائلهم العلمية قبل وفاته «يشار أحمد شريف» ممثّل الإفتاء اليوناني في الخارج.

عطفه على تلاميذه:

وقد كان لتلاميذه الوالد العطوف الذي فتح لهم أبواب صدره وبيته

ومكتبته التي تحوي مخطوطات نادرة عرض عليه مبالغ باهظة لشرائها إلا أنه فضل أن يستفيد بها طلبة العلم مجاناً وزوّدهم بتوجيهاته القيمة غير مقتصر على وقت من ليل أو نهار حتى لو لم تكن ظروفه الصحية تسمح بذلك، فقد كانوا يملون وهو لا يمل، وكانت لقاءاته معهم حلقات علمية مثمرة وعبادة وقدوة، ولا ينسى تلاميذه مواقفه وصلاته الإنسانية التي تستمر بهم حتى بعد انتهاء إشرافه على رسائلهم.

صلته ببلدته وأعماله وآثاره:

ولم يكن ينسى أهل بلدته الريفية (الصف)، بل كانت له بصماته في كل مكان، فقد كان حريصاً على نشر الوعي الديني ومحاربة البدع من خلال دروسه وخطبه، فألغى مولد جده الشيخ أحمد أبو سنّة الذي اعتاد أهل البلدة إحياءه، وفي المعهد الديني الذي أنشأه تلقى ثلاثة أرباع شباب البلدة تعليمهم الأزهري، وفي مدرسته لتحفيظ القرآن الكريم يدرس سنوياً ٨٠٠ طالب من الأطفال والرجال والنساء يحمل منهم القرآن الكريم كل عام ١٣ تقريباً، وتجرى بينهم مسابقات حفظ القرآن الكريم التي توزع جوائزها في حفل إحياء ليلة القدر كل رمضان بمنزله بالبلدة، بالإضافة إلى المقابر الشرعية، والمستوصف الطبي، والوحدة الزراعية، ومبنى البريد، والمدرسة الابتدائية، وغيرها من المؤسسات التي أنشأها.

رابطة آل أبو سنة:

وقد كانت له تجربة فريدة في رعاية عائلته الكبيرة الممتدة فحرصاً على تضامنها أسس «رابطة آل أبو سنّة»، ووضع لائحة تحدد أهدافها، وهي تحقيق التواصل بين أفرادها ونبذ الخلاف وتذليل المصاعب أمام أفرادها لممارسة العمل العام، وحدّد اجتماعاً دورياً يوم الأربعاء الأول من كل شهر، وشكّل لجاناً مثل لجنة الصلح بين المتخاصمين، ولجنة المواريث لتوزيع الميراث حسب أحكام الشريعة لتحقيق هذه الأهداف ضمّت عُمداء العائلة الأكثر تعلماً ونشاطاً في خدمة الأسرة، وعُيّن مسجلاً لمحاضرات

الاجتماعات ورئيساً للرابطة ينوب عنه، ومسؤولاً مالياً يتولى الإنفاق في المساعدات وأمين الصندوق.

تعليمه وتربيته لأسرته:

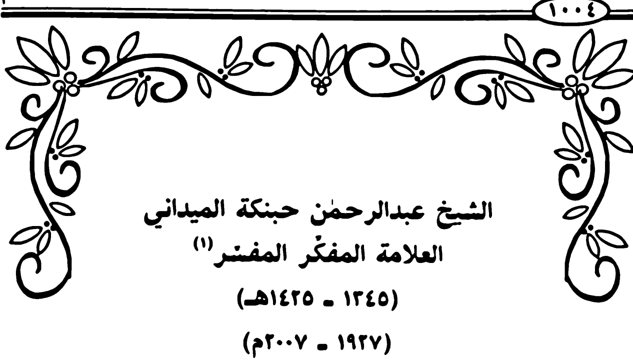
ورغم مسؤولياته العلمية والدعوية فإنه تحمَّل تبعته تجاه أسرته وفي بيته، فكان خير معلم ومُربٍّ للأولاد، له عظيم الأثر في حياتهم؛ إذ بثَّ فيهم روح الفضيلة والدين وحب العلم، ولم يحرمهم من أشعاره فخصهم بقصائده خاصَّة في المناسبات كأيام ميلادهم ونجاحهم وزواجهم، حتى إنه خصَّ إحدى بناته بخمس عشرة قصيدة.

مساعدة زوجته له:

وساعده في ذلك زوجته التي كانت خير معين له في رحلته العلمية والدعوية، فكانت العين التي يقرأ بها ويرى بها الحياة؛ إذ كان رحمه الله قد تعرض لحادث في طفولته تسبَّب في ضعف بصره إلى أن فقده عندما تقدَّم به العمر، فكانت رحمها الله تكتب بخط يدها كل ما يريد الشيخ تسجيله من تأليف كتب وبحوث ومحاضرات وفتاوى ودروس وخطب الجمعة والعيدين وتقرأ به، وتكتب تعليقاته على الهوامش، ثم تَسجِّل ما كتبه على شرائط كاسيت ليحمله الشيخ أينما يشاء ويسمعه، كما كانت تساعده على استقبال طلبة العلم وضيافتهم.

رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له العطاء.





الشيخ عبدالرحمٰن حبنكة الميداني
العلامة المفكِّر المفسِّر[1]
(١٣٤٥ ـ ١٤٢٥هـ)
(١٩٢٧ ـ ٢٠٠٧م)

بقلم تلميذه: مجد مكي

انتقل إلى رحمة الله تعالى ليلة الأربعاء ٢٥ من جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، الموافق ١١ آب ٢٠٠٤م فضيلة العلاَّمة المفكِّر المفسِّر الشيخ عبدالرحمٰن حبنكة الميداني رحمه الله تعالى عن عمر يناهز الثمانين عاماً بعد مرض عضال ألمَّ به منذ سنوات، لم يُقْعده عن إنتاجه العلمي الوفير الغزير، ولا عن تألُّقه الفكري المتميز المنير.



ولادته ونشأته:

ولد الشيخ رحمه الله تعالى في عام

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/١٢م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

١٣٤٥ الموافق لعام ١٩٢٧ في حي عريق من أحياء مدينة دمشق، وهو حيُّ الميدان الذي يتميز بالمحافظة على التقاليد العربية الأصيلة، ويعرف الكثير من رجاله بالشجاعة، والنخوة والسخاء والكرم.

ووالده هو العالم الربَّاني المُربِّي المجاهد الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمه الله تعالى، وترجع أصول أسرة الشيخ إلى عرب بني خالد الذين تمتد منازلهم إلى بادية حماة من أرض الشام.

وقد نشأ الشيخ في بيت دينٍ وعلم ودعوة وتربية، وترعرع في أكناف والده، يحوطه بعنايته ورعايته، ويُعدُّه ليكُون خليفة له في العلم والدعوة.

معهد التوجيه الإسلامي مؤسسة علميّة جامعة:

تلقى الشيخ دراسته في معهد التوجيه الإسلامي على المنهج العلمي الأصيل مع التربية العملية، حيث كان والده الشيخ حسن يكلِّف طلابه بإعداد الدروس وإلقاء الخطب في المساجد مما كان له أعظم الأثر في تمكنُّهم من الخطابة والوعظ والتعليم، وفي تكوين شخصياتهم العلمية والدعويَّة. . .

وبدأ الشيخ عبدالرحمٰن يُعلّم منذ كان عمره خمس عشرة سنة في معهد والده.

متابعة الدراسة والتحصيل:

ولما تخرَّج في المعهد سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) أسند إليه تدريس مواد مختلفة فيه، منها علوم الفقه، والأصول، والتوحيد، والمنطق، والبلاغة حتى سنة ١٣٧٠، إذ انتسب إلى كلية الشريعة في الأزهر الشريف، حتى حاز على الشهادة العالية (ليسانس في الشريعة)، من الكلية المذكورة، ثم حاز على شهادة العالمية مع إجازة في التدريس، (ماجستير في التربية وعلم النفس).

تدريسه في ثانويات دمشق، وتسلّمه مديريّة التعليم الشرعيّ:

وبعد تخرُّجه في الأزهر الشريف صار أستاذاً في ثانويات دمشق الشرعيّة والعامّة، إضافة إلى التدريس في معهد أبيه. وتسلّم مديرية التعليم الشرعي التابعة لوزارة الأوقاف، وكان في إدارته حكيماً رشيداً، يعمل بهمة وصمت، ومن أهم ما أنجزه في إبّان إدارته: تأسيس عدد من المدارس الشرعية في بعض المحافظات السورية، منها: ثانوية شرعيّة للإناث بدمشق وأخرى بحلب.

إقامته في المملكة العربية السعودية، وتدريسه الجامعي:

في سنة (١٣٨٧)هـ (١٩٦٧م) انتقل إلى العمل في المملكة العربية السعودية، وعمل أستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض لمدة سنتين، ثم انتقل عمله إلى مكة المكرمة، فعمل أستاذاً في جامعة أم القرى زهاء ثلاثين عاماً. وقد أسند إليه في هذه الجامعة تعليم مواد مختلفة، دينية ودعوية، ولما بلغ من عمره المبارك سبعين عاماً أُعفي من عمله الرسمي في الجامعة، واختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضواً في مجلس هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية.

نشاطاته العلميّة والدعويّة والإعلاميّة:

وكان له الكثير من المشاركات في المؤتمرات والندوات، منها: مؤتمر التعليم الإسلامي، ومؤتمر الاقتصاد الإسلامي، اللذان عُقدا في مكة المكرمة، ومؤتمر الأدب الإسلامي الذي عُقد في «الكهنو» الهند، ومؤتمر الدعوة والدعاة الذي عقد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم. وله مشاركات كثيرة في إلقاء المحاضرات العامة، والأمسيات، والندوات العلمية، ضمن الأنشطة الثقافية داخل جامعة أم القرى وخارجها.

وله إسهامات تلفازية وإذاعية، وقد استمر في تقديم أحاديث إذاعية يومية أو أسبوعية ما يزيد على ٣٠ عاماً.

إنتاجه العلمي:

كان الشيخ رحمه الله شديد الحرص على وقته، فلا يكاد يُرى إلا قارئاً أو كاتباً، أو محاضراً أو مناقشاً، وكان ذا دأب وجَلَد على العلم المتواصل، وكان موسوعي الثقافة، واسع الاطلاع.

تميَّز نتاجه العلمي بالغزارة مع العمق والشمول، وقد جمع في كتاباته بين القديم والحديث، وبين التخصص الشرعي الدقيق والعلوم الدنيويَّة العصرية.

من نتاجه المطبوع:

أولاً ـ سلسلة في طريق الإسلام، منها:

١ ـ العقيدة الإسلامية وأُسُسُها. ٢ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها. ٣ ـ الحضارة الإسلامية وأسسها ووسائلها. ٤ ـ الأمَّةُ الربانية الواحدة. ٥ ـ فقه الدعوة إلى الله، وفقه النصح والإرشاد.

ثانياً ـ دراسات قرآنية، منها:

١ ـ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ. ٢ ـ معارج التفكر ودقائق التدبر. ٣ ـ أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع.

ثالثاً ـ سلسلة أعداء الإسلام، منها:

١ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ. ٢ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم. ٣ ـ أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار). ٤ ـ الكيدُ الأحمر (دراسة واعية للشيوعية). ٥ ـ غزوٌ في الصميم. ٦ ـ كواشف زُيوفٍ في المذاهب الفكرية المعاصرة. ٧ ـ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ.

رابعاً ـ سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية، منها:

١ ـ مبادئ في الأدب والدعوة. ٢ ـ البلاغة العربية (أُسُسُها وعُلومها

وصور من تطبيقاتها). ٣ ـ ديوان ترنيمات إسلامية (شعر). ٤ ـ ديوان آمنت بالله (شعر).

خامساً ـ كتب متنوعة:

١ ـ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة. ٢ ـ بصائر للمسلم المعاصر. ٣ ـ الوالد الداعية المربِّي الشيخ حسن حبنكة الميداني (قصة عالم مجاهد حكيم شجاع).

ولزوجته الداعية المربية عائدة راغب الجراح الأستاذة بجامعة أم القرى سابقاً ـ رحمها الله تعالى ـ كتاب: عبدالرحمٰن حبنكة الميداني العالم المفكر المفسر (زوجي كما عرفته)، صدر عن دار القلم بدمشق، ضمن سلسلة: علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم.

ومن أهم آثاره العلمية النافعة:

تفسيره التدبُري النافع الذي طبع منه خمسة عشر مجلداً، إذ أنه اتَّجه في آخر عمره، بعد ممارسة طويلة، وتجربة ثرّة، وخبرة عميقة، وصلة مستمرة بكتاب الله عزَّ وجلَّ إلى كتابه تفسير تدبُري وَفْق المنهج الذي رسمه في كتابه: «قواعد التدبُر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ»، وقد انتهى ـ بفضل الله ـ من تفسير السُور المكية بكاملها، والتي تمثل ثلثي التفسير، وشرع في تفسير سورة البقرة، وهي أول ما نزل في المدينة، ولم يتوان ـ رحمه الله وأثابه رضاه ـ عن تدبره لكتاب الله تعالى، حتى وافاه الأجل المحتوم[1].

مدرسة علميّة متميزة:

والشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ يُعَدُّ بحق مدرسة علمية متميزة قائمة بذاتها... في عطائها وإنتاجها، وابتكارها واستنباطها، وتحليلها وربطها...

(١) أصدرت دراسة تعريفيّة موجزة بكتابه (معارج التفكر) نُشرت في دار القلم، عام ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

وقد وفقه الله سبحانه إلى ذلك الإنتاج العلمي الغزير، بما حباه الله من ذكاء وبصيرة نفاذة، وأُفق واسع، وأساس علميٍّ متين، وتمكُّن من علوم كثيرة، كعلم المنطق، والأصول، واللغة، والفقه... مع إخلاص عميق، وصلة قوية بالله عزَّ وجلَّ، واعتماد عليه سبحانه، واستشعار لفقره وحاجته الدائمة إلى عطائه عزَّ وجلَّ وعونه...

وكم كان يُردد ويقول ويؤكد: أنه ليس عنده شيء، وأن كل ما يكتبه هو من فيض عطاء الله عليه ومَدَده وتوفيقه.

وكان يؤكد في لقاءاته مع إخوانه وأبنائه من طلبة العلم على ضرورة التزام منهج الوسطية، والبعد عن الغلو والشطط في كل صوره وأشكاله... ويحذر من التبعية العمياء، والتعصب والانغلاق، ويدعو إلى دوام التفكر والتأمل والتبصر ومراجعة الأمور والنظر في عواقبها...

كما كان يرسِّخ في نفوس طلابه معاني الإخلاص والصدق، وابتغاء رضا الله سبحانه، وإيثار الدار الآخرة... ويحذر من حظوظ النفس وشهواتها وتزييناتها...

زهده في المناصب:

وكان من أشدِّ الناس زُهداً في المناصب، وقد عرض عليه أن يكون مفتياً للجمهورية السورية، وأغري بهذا المنصب، ففرَّ منه، واضطر أن يقيم بعيداً عن موطنه خمسة وعشرين عاماً، لم يزره خلال هذه المدة الطويلة إلا في الأشهر القليلة التي عاد فيها إلى دمشق قبيل وفاته... وسمعته يقول: لقد حاول بعضهم إلزامي باستلام منصب المفتي العام، لكنني فررت منه، وأكرمني الله بالإقامة بمكة المكرمة، والتفرغ لكتابة التفسير، وهذا من فضل الله عليَّ، ولو قبلت ذلك المنصب لكنت مطية ذلولاً، وعبداً مطواعاً ولركبت سيارة فخمة سوداء تنتهي بي إلى غضب الله تعالى، فآثرت الباقي على الفاني، والعلم النافع على الزغل والزيف.

كما كان يبتعد عن الشهرة والأضواء... ويكره النفاق والتملق، وهو خبير بدخائل المنافقين، ومسالك أعداء الإسلام...

بُعده عن الشهرة وحب العاجلة:

ومن مظاهر نفرته عن الشهرة وحُب العاجلة، أنه لم يتطلع إلى جائزة تقديرية من أي جهة علمية، وهو جدير بها، وأهل لها، بما قدم من دراسات قرآنية مبتكرة، وكتب فكرية عميقة... ولا يرضى أن ترشحه بعض الجهات لهذه الجوائز، ويعد ذلك منقصاً للأمر الذي ادخره الله سبحانه لعباده الصادقين المخلصين.

وقد رغب إليه بعض الوجهاء أن يكرمه في حفل كبير، يدعى إليه كبار العلماء والأدباء والمفكرين، يتناولون فيه عطاءه الفكري والدعوي والتربوي... ويشيدون بجهوده... ويمدحه بعضهم بقصائده فأبى وامتنع رغم الإلحاح الشديد... خوفاً من شوائب الرياء... وحب الثناء... والتفاخر.

حبه المناقشة والحوار العلمي:

ومن أخلاق الشيخ العلمية: حب المناقشة والحوار العلمي، وسعة الصدر والتحمل لأسئلة السائلين، وكم من مرة اتصلتُ به بالهاتف في بيته بمكة المكرمة، أسأله عن قضية علمية أستشكلها، أو استغلق عليَّ فهمها، أو عن رأي قد أخالفه فيه في بعض كتبه... فكان يُسرُّ جداً بتلك المناقشات، ويتّسع صدره لها، ويُبدي وجهة نظره التي ذهب إليها ورجحها...

كما كان يفرح بكل فائدة علمية جديدة أو تصويب... وقد قمت بقراءة تفسيره الأخير، واستعرضتُ جميع كتبه النافعة... وبيّنت له بعض الأخطاء المطبعية النادرة... وكتبت له بعض الآراء والأقوال التي ذهب إليها في كتبه السابقة، ممّا يخالف ما ذهب إليه ورجّحه في تفسيره التدبري الأخير... فذهب إلى ترجيح ما ذهب إليه في تفسيره، الذي وصل فيه إلى

ترجيحاته بعد دراسة متأنية لكل سورة، وسَبْر لكل كلمة قرآنية. . . ووعد بأن ينبه إلى ذكر ما خالف اجتهاده وترجيحه في كتبه السابقة لتفسيره، وشكرني على ما قمت به، ودعا لي بكل خير.

وقدمت إليه مرة كتاب: «غريب القرآن» للعلامة عبدالحميد الفراهي الهندي، وأطلعته على ما كتب حول كلمة «آلاء» ممّا يخالف ما ذهب إليه جمهور المفسرين بقصر معناها على النعم. . .

وقد ذهب الشيخ إلى ما ذهب إليه جمهور المفسرين عند تفسيره لسورة النجم الآية: ٥٥: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ وتفسيره لسورة الأعراف: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الآية: ٦٩، فأعجب الشيخ بما ذهب إليه الفراهي، وأيده من شواهد شعرية تفيد أن معنى «آلاء» هي: الفعال العجيبة والصفات العظيمة. . . ووعد بأن يذكر هذا المعنى عند تفسيره لسورة الرحمٰن، وهي من التنزيل المدني. . .

تعرّفي عليه وصلتي به:

لقد حظيتُ بالتعرُّف على فضيلة الشيخ منذ قدومي إلى مكة المكرمة سنة ١٤٠٠، وحضرت بعض دروسه ومحاضراته في الجامعة، وقرأت أكثر كتبه، وانتفعت بها انتفاعاً كبيراً، ثم كثُرت زياراتي له، واتصالي به، بعد تفرغه من عمله الجامعي، وتوجُّهه لتفسيره التدبري. . . فكنت أزوره في كل أسبوع بمنزله بمكة المكرمة. . . وقد زرته بصحبة الكثير من العلماء وطلبة العلم، ومنهم على سبيل المثال: الشيخ محمد عوامة، والشيخ عبدالله التليدي، والدكتور أنس الزرقا، والشيخ محمد نبيه سالم، والأستاذ محمد علي دولة، والأخ الشيخ حسن قاطرجي، والدكتور قاسم سعد، والأستاذ محمد الحسناوي، ورمزي دمشقية، ومحمد بن ناصر العجمي، ونظام يعقوبي، ومحمد بن عبدالله الرشيد. . . وغيرهم كثير.

وكنا نلقى منه كل حفاوة وتكريم، ونستفيد من توجيهاته التربوية، وفوائده العلمية.

عودته إلى دمشق:

وبعد عودته إلى دمشق استمرّت صلتي به... وكتبت دراسة تعريفية موجزة عن تفسيره التدبري، وقد أرسلت له تلك الدراسة لاطلاعه عليها قبل طباعتها، فاستحسنها، واتصل بي من دمشق يشكرني عليها. وكنت أتصل به إلى دمشق أطمئن عن صحته وعطائه... فأجده مستبشراً متفائلاً فرحاً.

إتمامه تفسير السور المكيّة:

وقد ذكر لي في آخر مكالمة هاتفية عن انتهائه من تفسير السور المكية، حيث أتمّ بعد عودته إلى دمشق، تفسير السور المكية التالية: المعارج (٧٩)، والنبأ (٨٠)، والنازعات (٨١)، والانفطار (٨٢)، والانشقاق (٨٣)، والروم (٨٤)، والعنكبوت (٨٥)، والمطففين (٨٦)، وحدثني عن اللمحات التدبرية التي استنبطها من سورة العنكبوت التي كانت تعدُّ المسلمين للهجرة إلى مكة المكرمة، وأفاض في حديثه عما يفتح الله عزَّ وجلَّ عليه من حسن تدبر لكتابه العظيم، وما وهبه من همّة وعزم ونشاط على متابعة الكتابة فيه وكنت أدعو الله سبحانه له بتمام العافية والتوفيق لإتمام تدبره لكتاب الله سبحانه.

ولكن حال الأجل دون تحقيق الأمل... ولئن لم يتم الشيخ تفسيره، فقد قدم بما كتب ثروة علمية ضخمة، وزاداً تدبرياً وفيراً... ورسم منهجاً فريداً لتذوق كلام الله وحسن تدبره...

وإن فيما كتب من كتب أخرى كثيرة تدور حول كتاب الله، لا سيما «ظاهرة النفاق» في مجلديه، حيث فسر قسماً مهماً من السور المدنية، وكذلك كتبه الأخرى: «فقه الدعوة إلى الله»، و«الأخلاق الإسلامية»، و«ابتلاء الإرادة»، و«أمثال القرآن» وفيها من المباحث القرآنية والفوائد التفسيرية الكثير الطيب المبارك.

جنازته:

شُيِّعت جنازة الشيخ عصر يوم الأربعاء، وكانت جنازة حافلة مشهودة، خرج فيها آلاف المشيِّعين من العلماء والكبراء والعامَّة، تملؤهم الحسرة وتَمُضُّهم الأحزان، وصلِّيَ عليه في جامع الأمير مَنجَك، في حي الميدان وأبَّنهُ عقب الصلاة شيخ قراء الشام فضيلة الشيخ محمد كريِّم راجح، وألقى ولده الدكتور وائل قصيدة في رثائه، ثم وُوري في مثواه الأخير من دار الدنيا بمقبرة الجورة في حي الميدان.

رحم الله شيخنا الجليل، رحمة واسعة، ونفع بعلمه الغزير، وتراثه القرآني الوفير، أخلف في الأمة أمثاله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون...

كتبه: مَجد مكي
الخميس ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٥

□ □ □ □ □



الشيخ الدكتور ناجي عَجَم[1]
(١٣٦٠ ـ ١٤٢٧هـ)
(١٩٤٢ ـ ٢٠٠٦م)

بقلم: مَجْد مكي



اسمه وولادته:

هو العالم الفاضل الداعية الفقيه الشيخ الأصولي الفَرَضي الأستاذ الجامعي الدكتور ناجي بن محمد شفيق عجم. من مواليد مدينة حلب بسورية عام ١٣٦٠هـ = ١٩٤٢م.

دراسته:

درس في مدارس حلب وفي الثانوية الشرعية، ثم حصل على الثانوية العلمية من ثانوية المأمون عام ١٩٦٢، والتحق بكلية الشريعة بجامعة دمشق، وحصل على الشهادة العالية (الليسانس) عام ١٩٦٦م. ثم انتقل للعمل بجامعات المملكة العربية السعودية، وخلالها كان يتعلَّم ويتربى على شيوخه.

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٩م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

شيوخه:

في حلب: الشيخ عبدالله سراج الدين، والشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والشيخ محمد إبراهيم السلقيني، والشيخ محمد الملاح، والشيخ أبو الخير زين العابدين، والشيخ عبدالرحمٰن زين العابدين، والشيخ محمد فوزي فيض الله.

وفي دمشق: الشيخ محمد ملا رمضان، والشيخ حسن حبنكة، والشيخ محمد سعيد البرهاني، والشيخ عبدالوهاب دبس وزيت، والشيخ مصطفى أحمد الزرقا، والشيخ وهبة الزحيلي، والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي.

وفي السعودية: الشيخ عبدالله بن حُميد، والشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ محمد زكريا البخاري، والشيخ عباس علوي المالكي، والشيخ وهبي سليمان الغاوجي، والشيخ محمد سعد المراد، والشيخ وصفي المسدي، والشيخ عبدالغفار الدروبي، والشيخ محمد علي المراد.

وفي مصر: الشيخ مصطفى عبدالخالق، والشيخ عبدالغني عبدالخالق، والشيخ محمد أبو النور زهير، والشيخ بدر متولي عبدالباسط، والشيخ أحمد فهمي أبو سُنّة، والشيخ مصطفى مجاهد، والشيخ أنيس عبادة، والشيخ محمد جاد الرب رمضان.

مؤهّلاته العلميّة:

حصل على الدكتوراه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر بالقاهرة ١٩٧٧م بمرتبة الشرف الأولى. وأمضى أكثر من خمس وعشرين سنة في تدريس مواد الأصول والفقه الإسلامي بجامعات الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الملك عبدالعزيز كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الدراسات الإسلامية بجدة.

أبرز أعماله العلميّة:

١ ـ أشرف وناقش عدداً من رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وغيرها. ٢ ـ تولى رئاسة قسم الدراسات الإسلامية

بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة. كما كان مرشداً في القسم نحو خمس عشرة سنة. ٣ ـ ترأس لجنة مناهج الدراسات العليا بالقسم. ٤ ـ إمام وخطيب مسجد الجامعة لأكثر من عشر سنين، كما خطب في كثير من مساجد جدة. ٥ ـ عضو خبير بمجمع الفقه الإسلامي الدولي، وشارك في دوراته لأكثر من عشر سنين. ٦ ـ عضو في لجنة التخطيط التابعة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي. ٧ ـ عضو في الموسوعة الفقهية الاقتصادية في مجمع الفقه الإسلامي الدولي. ٨ ـ شارك في عدة ندوات فقهية اقتصادية. ٩ ـ عضو في لجان تحكيم ترقيات الأساتذة المساعدين. ١٠ ـ عضو في لجان تحكيم لبيان صلاحية طباعة كتب علمية.

مؤلفاته ومقالاته:

١ ـ حروف المعاني وأثرها في علمي الأصول والفقه (رسالة الدكتوراه). ٢ ـ عموم البلوى وأثرها في تغيير الأحكام. ٣ ـ نظام العمل والعمال في الإسلام. ٤ ـ فقه المواريث وقسمة التركات في الإسلام. ٥ ـ أثر تغير قيمة العملة على الحقوق والالتزامات. ٦ ـ أحكام الشرط الجزائي في العقود. ٧ ـ الفقه الإسلامي الميسَّر مع تطبيقاته المعاصرة على المذاهب الأربعة (مشروع فقهي مدعم من جامعة الملك عبدالعزيز ولم يتمه).

أعماله ومؤلفاته فيما يخصُّ الأوقاف الإسلامية:

١ ـ كُلِّف بكتابة بحث عن الأوقاف (الأحباس) للدورة الثالثة عشرة للمجمع الفقهي التي عقدت في الكويت. ٢ ـ مستشار شرعي للأوقاف ونظم الاستثمار في مركز فقيه للأبحاث والتطوير. ٣ ـ محكِّم في أبحاث وقفية من المعهد الإسلامي للتدريب والبحوث التابع للبنك الإسلامي للتنمية. ٤ ـ ورقة عمل مقدمة إلى مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبدالعزيز في فقه أنواع الأوقاف وطرق الاستثمار. ٥ ـ خبير في صياغة الصكوك الوقفية وتفسيرها في المحاكم الشرعية.

اخلاقه وصفاته:

بذل الشيخ ناجي عجم ـ رحمه الله تعالى ـ حياته في الدعوة والعلم، فكان نموذجاً للعالم المعلِّم، والمربِّي الموجه، والفقيه الأصولي المتمكن.

كان رحمه الله في غاية التواضع والسماحة والرفق، والأدب الجمّ مع المحب والمخالف، ولم يبخل على أيِّ طالب جاءه للمشاورة أو الدراسة على يديه في علم الفقه وأصوله، وسعى العشرات من طلاب الدراسات العليا ليتشرفوا بإشرافه على رسائلهم ومن توجيهه لهم، وخدم الشيخ ناجي رحمه الله طلاب مدينة جدة في جامعة الملك عبدالعزيز من خلال التعليم الأكاديمي الطويل، والدروس العامة والخاصّة في منزله، وقد قرأ مع مجموعة من إخوانه الفضلاء كتاب «اللباب» في الفقه الحنفي كما درس مجموعات من إخوانه وأحبابه علم الفرائض الذي تخصّص فيه وأتقن حل عويص مسائله.

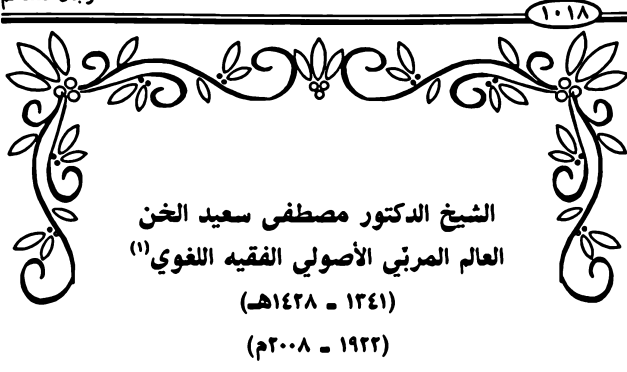
وكانت آراؤه واجتهاداته وفتاواه الفقهية محل اهتمام واحتفاء، بل ثقة وقبول.

وللشيخ رحمه الله هيبته ووقاره وسَمْته وأخلاقه وابتسامته التي يأسر بها كل زائر.

مرضه ووفاته:

عانى الشيخ من مرض عُضال ألمّ به، ومكث فترات طويلة في المصحّات يتلقى العلاج إلى أن تماثل للشفاء، وما إن شعر بتحسن في صحته، حتى طلب من أهله أن يأخذوه إلى المدينة المنورة، لزيارة المسجد النبويّ الشريف، والسلام على الرسول ﷺ، وفي مساء يوم الجمعة ١٥ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، الموافق ١٣ مايو ٢٠٠٦ وافته المنيَّة رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

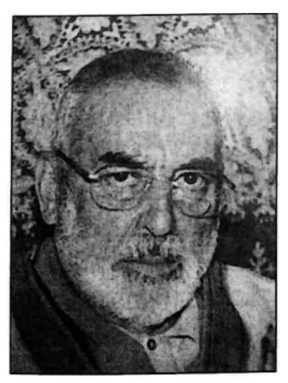
وهكذا طويت صفحة من صفحات العلماء، وذبلت وردة فوّاحة في رياض الصّالحين، وانتقل إلى جوار أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.



الشيخ الدكتور مصطفى سعيد الخن
العالم المربّي الأصولي الفقيه اللغوي[1]
(١٣٤١ ـ ١٤٢٨هـ)
(١٩٢٢ ـ ٢٠٠٨م)

اختصرها وحرّرها: مجد مكي

اسمه ونسبه ونشأته:



هو مصطفى بن سعيد بن محمود الخنّ، الشّافعيّ، المَيْدانيّ، الدِّمشقيّ، من أسرةٍ دمشقيّةٍ عريقةٍ، كان لها منذ عهود العمادة والمرجعية في الميدان كلّه.

كان والده (مختار حي الميدان الفوقاني)، ثم انتقلت المختارية بعد أبيه إلى أخيه محمد خير.

نشأ مصطفى الخن في كنف والديه ـ مع إخوته وأخواته ـ في جوٍّ أسري يسوده الصفاء والهيبة والاحترام، ولمّا

---

(١) نشرت بتاريخ ٢/٢/٢٠٠٨م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

بلغ الثّامنة من العمر؛ ألحقه والده بالكُتّاب، ثم ألحقه بعد ذلك بمدرسة الجمعيّة الغرّاء الابتدائية، فلازمها سنة كاملة، انتقل بعدها إلى المدرسة الرّسمية التي كانت تُدعى (أنموذج الميدان).

تعرفه على الشيخ حسن حبنكة الميداني:

وفي صيف (١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م)؛ اكتشف الشّيخ الخطّاط محمّد زرزور ـ والد الدكتور عدنان زرزور ـ علائم النّجابة والأهليّة عند مصطفى الخن، الذي كان أحد التّلاميذ المنتسبين إلى مكتبه لتعلُّم القرآن والخطّ والحساب؛ ومسك الدفاتر (الدوبيا)؛ فاستأذن والده أن يصطحبه معه إلى دروس الشّيخ حسن حبنكة في جامع مَنْجَك، فسمح الوالد ولم يمانع.

وكان الشّيخ الدّاعية حسن حبنكة ـ رحمه الله تعالى ـ قد أسّس في المسجد مدرسةً متكاملةً، تشتمل على تعليم الشّباب المنقطعين لطلب العلم صباحاً، من بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظُّهر، وتعليم الكبار ـ من التُّجار وأصحاب الحرف ـ بعد صلاة العشاء.

دراسته بالقسم المسائي ثم النهاري في جامع منجك:

التحق التّلميذ مصطفى الخن أوّل الأمر بالقسم المسائي، وأُعجب فيه شيخه حسين خطاب؛ لِمَا لمس عنده من مخايل الحفظ والذكاء، ونقل إعجابه إلى الشّيخ حسن، فأوصى به خيراً.

ولم تمضِ مدّة حتى حُبّب إلى التّلميذ النّجيب طلبُ العلم، فقرّر الانتقال إلى القسم النّهاري، وكانت تلك خطوةً جريئةً موفّقة، تخالف ما تعارف عليه الناس من الإشفاق على طالبْ العلم، وأنه محكوم عليه أن يعيش حياة العَوَز والكفاف.

أول طالب علم ينبغ في (آل الخن):

أُقيمت على إثرها حفلةٌ في بيت الأسرة احتفاءً بأوّل طالبِ علم ينبغ في (آل الخن)، وأُلبس الطّالب مصطفى العمامة بدلاً من الطّربوش، وقد لفّها له

الشيخ حسين خطاب رحمه الله تعالى، وألقى الطالب المعمم (مصطفى) كلمة بهذه المناسبة، وشهد هذا اليوم تحوُّلاً ظاهراً في اهتمام أفراد الأسرة بأول طالب علم ينبغ من (آل الخن) وأعلن الأب رعايته التامّة له.

سيرته العلمية:

شبَّ مصطفى الخن في جامع منجك، وغدا طالباً مُجِدًا نشيطاً، متعلِّماً في الصَّباح، ومعلِّماً في المساء، وشاء الله ـ سبحانه ـ للحلقات النَّهارية أن تصبح نواة لمعهد (التَّوجيه الإسلامي)، وانتقل الأستاذ مصطفى للتَّدريس في المدرسة النَّاشئة التَّابعة للمعهد.

صناعة الشخصية العلمية للشيخ مصطفى الخن:

وقد أسهم الجمع بين مهمَّتي التعلُّم والتَّعليم في صنع الشَّخصية العلميَّة للشَّيخ مصطفى الخن، وكان لتوجيه الشَّيخ حسن حبنكة الأبويّ التَّربويّ؛ أثرٌ كبيرٌ في التَّناغم والتَّآلف والتَّكامل بين المهمَّتين.

قال صديقه في طلب العلم الشيخ عبدالرحمٰن الميداني في كتابه عن والده ص١٢٢ وهو يذكر أعيان الدفعة الثانية من الذين انتظموا في حلقات الشيخ حسن حبنكة رحمه الله تعالى: «التحق الشيخ مصطفى الخن بمدرسة الوالد الإمام منذ أوائل فتوته، ولازم المدرسة ليلاً ونهاراً شاباً ذكياً ألمعياً، فيه أمارات النبوغ وسرعة التقدم.

وخطى في طلب العلم خطوات سريعات كان فيها من المتفوقين، حضر أول ما حضر على رجال الرعيل الأول (الشيخ صادق حبنكة، والشيخ حسين خطاب، ونعيم شقير، وخيرو ياسين).

ثم اندمج في حلقة هذا الرعيل يتلقى معهم على الوالد... وبرز بين أقرانه بعد ذلك علماً وتعليماً، وصار له نهم شديد في مطالعة كتب الأدب، وتصيُّد النوادر، والعيون الأدبية الشعرية والنثرية، وحفظها وروايتها بإتقان وجاذبية» اهـ.

العلماء الربانيون الذين زارهم وجلس إلى دروسهم:

وكان الشيخ العلامة الربّاني حسن حبنكة يرشد طلابه النابهين، أن يزوروا العلماء الكبار، وأن يجلسوا إلى دروسهم، فكان الشيخ مصطفى يحرص على ذلك كلَّ الحرص، ومن العلماء الربّانيين الذين زارهم، والتقى بهم، أثر على نفسه:

١ ـ الشيخ علي بن عبدالغني الدقر (١٣٦٢ ـ ١٩٤٣): وهو شيخ شيوخ معهد العلوم الشرعية، ورئيس الجمعية الغرّاء ومؤسّسها، عالمٌ ربانيٌّ، جمع بين التّعليم الشرعي، والتّربية الرُّوحية، وأوجد مدرسة تُحتذى في التّخلق بأخلاق الإسلام، وكان الشيخ مصطفى يزوره في مسجده (جامع السادات)، ويحضر بعض دروسه.

٢ ـ الشيخ محمّد أمين سويد (١٣٥٠ ـ ١٩٣١): وهو عالمٌ مشاركٌ، وأصوليٌّ بارعٌ، ومن كبار علماء دمشق، طلب العلم في الأزهر، وعمل مدرساً في معهد الحقوق، وفي مواقع علميةٍ عديدة، وقد التقى به الشيخ مصطفى وجلس إليه؛ عندما كان الشيخ محمّد يتردّد إلى جامع منجك.

٣ ـ الشيخ إبراهيم بن محمّد خير الغلاييني (١٣٧٧ ـ ١٩٥٨): وهو عالمٌ عابدٌ، له في نفوس الناس مهابةٌ ومحبّة، وَلِيَ قضاء وادي العجم، وإمامة وخطابة جامع مدينة (قَطَنا)، وكان الشيخ مصطفى يزوره دائماً، وربما قضى عنده سحابة اليوم.

٤ ـ الشيخ أبو الحسن علي الحسني النّدْوي (١٤٢١ ـ ٢٠٠٠): العالم المعروف، والمؤلف المبدع، والخطيب المفوّه، والعضو في العديد من المجامع اللُّغوية العربية، وقد لقيَه الشيخ مصطفى في القاهرة حين كان طالباً في الأزهر أول مرّة، والتقاه في دمشق، في جامعتها، ثمّ في بيت الشيخ حسن حبنكة، وكانت الأخيرة.

العلوم التي بَرَع فيها ودرَّسها:

وقد شارك الشيخ مصطفى ـ في أثناء تدريسه في (معهد التّوجيه

الإسلامي) - في مختلف العلوم الشرعية، ولكنّه تخصّص في النّهاية، وتميّز بعلم أصول الفقه، وبعلوم العربية.

السفر إلى مصر (الإجازة في الشريعة من الأزهر):

وفي مطلع عام (١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م)؛ وصل الشّيخ مصطفى إلى القاهرة، بغية الانتساب للأزهر، ومن ثَمّ الحصول على شهادة الإجازة التي تؤهّله للتّدريس في المدارس الحكومية السّورية، وأُجري للشّيخ اختبار القَبول، وقُبل في السّنة الثّالثة من كلّية الشّريعة، فأمضى مدّة الدّراسة المقرّرة - سنتان - قبل أن يستحق شهادة الإجازة بتقديرٍ ممتاز.

شيوخه في مصر:

وقد تعرّف الشّيخ أثناء دراسته تلك إلى علماء أفذاذ في الأصول واللّغة، وعلى رأسهم العلامة الشيخ عيسى منّون، والدكتور الأصولي عبدالله موسى، والدكتور مصطفى عبدالخالق، وأخوه الدكتور عبدالغني عبدالخالق، وأفاد منهم كثيراً في تخصّصه، كما تزوّد بثقافة إسلاميّة عالميّة، ومنهجيّة واضحة الطّريق والهدف، ومسلك تربويّ رصين الفكرة والتّطبيق.

العمل في وزارة التربية مدرساً:

عاد الشّيخ بعدها إلى دمشق؛ ليعمل مدرّساً لمادّة التّربية الإسلاميّة، في منطقة الباب من محافظة حلب، وبقي هناك سنتين دراسيتين، وعُيّن في دمشق مدرساً في دار المعلمين، مع إسهامه الفعّال في مجالات المناهج الدّراسية، والكتب المدرسية، ولجان الامتحانات، وبقي فيها حتى حصوله على شهادة الدكتوراه.

التدريس في جامعة دمشق:

وفي أثناء ذلك؛ اشتغل بالتّدريس في كلّية الشّريعة بجامعة دمشق محاضراً، بين عامي (١٣٧٥هـ - ١٣٨٢هـ)، (١٩٥٥م - ١٩٦٢م).

الإعارة إلى السعودية وصحبته لعدد من العلماء:

وأُعير للتدريس في إدارة (الكليات والمعاهد) في الرياض التي أصبحت تعرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ودرس النحو واللغة العربية في كلية الشريعة، وكلية اللغة العربية، بين عامي (١٣٨٢هـ ـ ١٣٨٦هـ)، (١٩٦٢م ـ ١٩٦٦م). وقد صادف سفره مع تعاقد عدد من الأساتذة والعلماء. وقد أضاف اجتماعه بهم في (الرياض) ولمدة أربع سنوات أنساً وتبادلاً في المعلومات والخبرات، ومن هؤلاء العلماء الأفاضل: الشيخ علي الطنطاوي، والشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والأستاذ عمر عودة الخطيب، والدكتور محمد علي الهاشمي، والدكتور عبدالقدوس أبو صالح.

حصوله على شهادة (الدكتوراه):

ولمّا أصدر الأزهر قراراً يقضي بالسّماح لخريجي الكلّيات الأزهريّة الذين أمضوا في التّدريس الجامعي أكثر من خمس سنوات أن يتقدّموا بتسجيل رسالة الدكتوراه مباشرة؛ أسرع الشّيخ مصطفى وسجّل موضوع (أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء) بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى عبدالخالق، ونال شهادة الدكتوراه عام (١٣٩١هـ = ١٩٧١م) مع مرتبة الشّرف الأولى.

ولا شك أنه ـ رحمه الله تعالى ـ كان فوق هذه الشهادة علماً ومكانة، ولكنها أعانته على التدريس في عدد من الجامعات.

التعيين في جامعة دمشق:

عُيِّن بعدها مدرِّساً ورئيساً لقسم العقائد والأديان في كلّية الشّريعة، بالإضافة إلى تعيينه مدرّساً في كلّية التّربية بجامعة دمشق، (التربية الإسلامية وطرق تدريسها) وبقي في الجامعة حتى سنة (١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م)، وأسهم إذ ذاك في تأليف الكتاب الجامعي؛ فأصدر ثلاثة كتب مهمّة، لا تزال تُدرَّس في كلّية الشّريعة إلى اليوم، وهي: التّفسير العام، وفقه المعاملات، ومبادئ العقيدة الإسلامية.

التعاقد مع السعودية:

وبعد إحالته إلى التّقاعد عام (١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م)؛ سافر الشّيخ إلى المملكة العربية السعودية للمرّة الثانية عام (١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م)، فعمل مدرّساً في كلّية الشّريعة بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بأبها، ثمّ عُيّن أستاذاً في كلّية التّربية للبنات، وعضواً في المجلس العلمي لجامعة الإمام بالرياض، وبقي حتى عام (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م)، وأشرف في هذه المدّة على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

قال العلامة الشيخ عبدالرحمٰن حبنكة في كتابه: «الوالد الداعية المربّي الشيخ حسن حبنكة» ص١٢٣: والدكتور الشيخ مصطفى سعيد الخن معروف في أوساط الجامعيين بألمعيّته، وبراعته في شرح المسائل العلمية، وحل المشكلات المعضلات، ومعروف بذوقه الأدبي الرفيع ورهافة حسه في النقد، ورغبته في العطاء العلمي.

لكنه عزوف ـ فيما أعلم ـ عن المشاركة في الأعمال الاجتماعية العامة، فنموذجه الفطري أستاذ معلم، وباحث متتبع، وله جاذبيته وتأثيره في تكوين حلقات طلاب علم، لا في استقطاب جماهير، وهو علم من أعلام العلم في دمشق نفّاع معطاء» اهـ.

العودة إلى دمشق:

وعاد الحنين بالشّيخ إلى دمشق مُجدّداً؛ ليصبح بيتُه مقصدَ طلاّب العلم والمحبّين.

تدريسه في قسم الدراسات العليا في مجمع أبي النور وقسم التخصّص في معهد الفتح:

ومنذ بداية العام الدّراسي (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م)؛ وافق الشّيخ على التّدريس في قسم الدّراسات العليا، التّابع لجامعة أم درمان، ومركزه مجمّع أبي النّور التّعليمي في دمشق، وعلى رئاسة كلّية الشّريعة بقسم التّخصّص، التّابع لمعهد الفتح الإسلامي، وتدريس مادّة أصول الفقه لطلاّب السّنوات

الثلاث في الكلّية. وقد أشرف الشيخ وناقش عدداً وفيراً من الرسائل الجامعية في الدراسات العليا، في دمشق ولبنان.

غرفته الخاصّة في جامع الدقاق:

وجديرٌ بالذّكر أنَّ للشّيخ مصطفى غرفةً خاصةً في جامع الدّقّاق (في الميدان الفوقاني)، شهدت تاريخاً حافلاً بنشاطٍ علميٍّ غزير، وتحتوي الغرفة على مكتبةٍ زاخرةٍ بأمّهات الكتب. وممن سجّل حضوراً بين جنباتها الأستاذ أحمد راتب النفاخ، الأستاذ أحمد عرابي الخن، الشيخ خير العلبي، الأستاذ سعيد الطنطاوي، الأستاذ سهيل البري، الأستاذ علي الشربجي، الأستاذ صالح الأخرس، الشيخ عبدالعزيز الرفاعي، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الأستاذ محمود المارديني، والدكتور موفق دعبول.

تعريف بمؤلّفاته:

بدأ الشّيخ مصطفى الخن الكتابة في وقتٍ مبكّرٍ من مسيرته العلمية، فكان تحصيله العلمي تأليفاً، وتأليفه تحصيلاً علمياً.

وكان يكتب لنفسه أولاً، ومما كتبه: «شرح الشواهد النحوية المختصر»، و«شرح الشواهد النحوية الكبير» وهذان الكتابان من جملة ما ضاع من أوراق الشيخ رحمه الله تعالى.

ثمّ ساهم في تأليف الكتب المدرسية، وأعدَّ الأمالي الجامعية، واتّجه إلى التّأليف العام والتّحقيق، وكان صدره يتّسع للمشاركة مع غيره، تأليفاً وتحقيقاً.

المؤلّفات الخاصّة:

١ ـ أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء. وهو بحث قدّم لنيل شهادة الدكتوراه في أصول الفقه من الأزهر عام (١٣٩١هـ = ١٩٧١م). ونال بكتابه الشهادة بدرجة الامتياز مع درجة الشرف الأولى. وقد طبعته مؤسسة الرسالة، عام (١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م)، وصدرت منه أكثر من سبع طبعات.

وقد حظي الكتاب بإعجاب أهل العلم من المتخصّصين في الفقه الإسلامي، ثم صار كتاباً مقرراً لهذه المادة يرجع إليه كثير من كبار أساتذة الدراسات العليا.

٢ ـ عبدالله بن عباس: حَبْر الأمة وترجمان القرآن. صدرت الطبعة الأولى عام (١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م) عن دار القلم بدمشق.

٣ ـ دراسة تاريخية للفقه، وأصوله، والاتّجاهات التي ظهرت فيهما. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م).

٤ ـ الحسن بن يسار البصري: الحكيم الواعظ والزّاهد العالم. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٦هـ = ١٩٩٥م) عن دار القلم بدمشق.

٥ ـ الأدلّة التّشريعية، وموقف الفقهاء من الاحتجاج بها. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م) عن مؤسسة الرسالة بدمشق.

٦ ـ أبحاثٌ حول أصول الفقه الإسلامي (تاريخ وتطوره). صدرت الطبعة الأولى عام (١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م) عن دار الكلم الطيب بدمشق.

٧ ـ الكافي الوافي في أصول الفقه الإسلامي. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م) عن مؤسسة الرسالة، ويحتوي هذا الكتاب على معظم موضوعات علم أصول الفقه التي كانت تدرس للسنوات الثلاث من كلية الشريعة قسم التخصص التابع لمعهد الفتح الإسلامي.

المؤلّفات المشتركة:

١ ـ (نزهة المتّقين شرح رياض الصّالحين من كلام سيّد المرسلين)، وقد شارك بالتّأليف: الدكتور مصطفى البغا، والأستاذ محيي الدين مستو، والأستاذ علي الشربجي، والأستاذ محمد أمين لطفي. في مجلدين، وصدرت الطبعة الأولى عام (١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م) عن مؤسسة الرسالة، وقد طبع أكثر من خمسة وثلاثين طبعة.

٢ ـ (الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي)، وقد شارك بالتأليف: الدكتور مصطفى البغا، والأستاذ علي الشربجي. ويقع في ثلاثة مجلدات، وصدرت طبعته الأولى عن دار القلم عام ١٤١٤هـ.

٣ ـ (العقيدة الإسلامية): أركانها ـ حقائقها ـ مفسداتها، وقد شارك بالتأليف: الأستاذ محيي الدين مستو. وصدرت طبعته الأولى عام (١٤١٧هـ) عن دار الكلم الطيب بدمشق.

٤ ـ (الإيضاح في علوم الحديث والاصطلاح)، وقد شارك بالتأليف: الدكتور بديع اللحام. وصدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٩هـ) عن دار الكلم الطيب بدمشق.

التحقيقات الخاصة:

١ ـ (المنهل الراوي من تقريب النواوي). صدر عن دار الملاح بدمشق في ٣١٤ صفحة.

٢ ـ (تسهيل الحصول على قواعد الأصول)، للعلامة محمد أمين سويد المتوفى سنة ١٣٥٥هـ. وصدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٢هـ) عن دار القلم بدمشق.

التحقيقات المشتركة:

١ ـ (حُسْن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة)، لجامعه محمد صديق القَنُّوجي البخاري المتوفى سنة ١٣٠٧هـ. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو. صدرت الطبعة الأولى عام (١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م) عن مؤسسة الرسالة.

٢ ـ (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول)، للإمام الشوكاني. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو.

٣ ـ (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، للبيضاوي. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو، وبديع اللحام.

٤ ـ (المنهاج القويم في مسائل التَّعليم)، لابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٣٤هـ. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو، والأستاذ علي الشربجي. وفي هذه الطبعة إعواز كبير، وقد صدر الكتاب بعد ذلك محققاً مُصحَّحاً عن دار المنهاج بجدة.

وفاته وحُسْن خاتمته:

توفي أثناء صلاة الجمعة ٢٤ محرم ١٤٢٩هـ الموافق ١ شباط ٢٠٠٨م في جامع سيدنا الحسن رضي الله عنه في الميدان، وكان الشيخ كريّم راجح يقرأ في كتاب «رياض الصالحين» ويشرح حديث أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ خرج من عندها بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسةٌ، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، فقال النبيّ ﷺ: **«لقد قلت بعدك أربع كلماتٍ ثلاث مراتٍ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»** رواه مسلم[١].

ثم توقف الشيخ عند كلمة «مسجدها» وقال: أرى أن تُقرأ بفتح الجيم لا بكسرها، وتردَّد في ذلك، ثم قال: ليت أستاذنا الخَن يضبطها لنا.

ومن عادة الدكتور مصطفى الخن، المواظبة على حضور خطبة الجمعة عند الشيخ كريّم، وكان يجلس على كرسي (أول المسجد يمين الداخل إليه) وبعد أربع دقائق تقريباً من كلمة الشيخ كريّم تلك؛ شهق شهقة فالتفت بعض المصلّين، وإذا بالشيخ أنس ابن الدكتور مصطفى يدلك له صدره. وبعد قليل مدَّده على الأرض.

كل ذلك والشيخ كريّم مسترسل في خطبته، إلى أن أرسلوا إليه أحد الإخوة ليُخبره، فلما صعد الأخ المنبر، وأخبر الشيخ كان وقع الخبر كالصاعقة. فقال له الشيخ: الآن؟ في المسجد؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦) في كتاب الذكر والدعاء.

وصار يتمتم بكلمات (عالم البلد عالم الأمة مات في المسجد. . .) وأنهى الخطبة، وطلب من الناس أن يمكثوا في أماكنهم وأن لا يزدحموا على الدكتور الخن. ثمّ صلى الشيخ كريّم وهو يبكي، وبعد السلام أسرع ليرى صديقه وأستاذه وحبيبه الخن.

لقد أسلم روحه لبارئها بعد ثمانية وثمانين سنة أمضاها في طلب العلم والتعليم والتأليف والنصح للمسلمين.

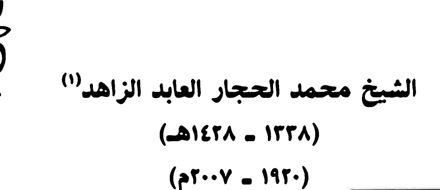
ثم قال الشيخ كريّم راجح لإخوانه: «هذا العالم الذي لم يتلوّث لا بحاكم ولا بغني».

إنا لله وإنا إليه راجعون وصلي عليه مساء الجمعة في جامع الحسن بالميدان ـ رحمه الله تعالى ـ وأثابه رضاه[١].

□ □ □ □ □

---

(١) المراجع:
١ ـ كتاب (مصطفى سعيد الخن، العالم المُربّي، وشيخ علم أصول الفقه في بلاد الشام)، تأليف: د.محيي الدين مستو، وهو الكتاب رقم (٨) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم)، التي تصدرها دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
٢ ـ كتاب (الوالد الداعية المربّي الشيخ حسن حبنكة الميداني) بقلم ولده عبدالرحمٰن حبنكة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.



الشيخ محمد الحجار العابد الزاهد[1]

(١٣٣٨ ـ ١٤٢٨هـ)

(١٩٢٠ ـ ٢٠٠٧م)



بقلم تلميذه ومحبّه: مَجْد مكي

هو العالم العامل، العابد الزاهد، الولي الصالح الشيخ محمد بن محمود الحجار.

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد رحمه الله تعالى في مدينة حلب الشهباء في حي ساحة بزة سنة ١٩٢٠م، ونشأ في رعاية والده الصالح محمود، ووالدته الصالحة السيدة فاطمة السبسبي، ودرس في (المدرسة الخسروية)، ثم انتقل في عام ١٩٤٨م، لمتابعة دراسته في (المدرسة الشعبانية) في معهد العلوم الشرعية، وأتمّ دراسته فيه، وكان معه في مراحل دراسته: الشيخ عبدالقادر عيسى، وأحمد شعبان، ومحمد طاووس، وقد جمع هؤلاء في دراستهم بين الدراسة الشرعية القديمة والجديدة.

المعهد الشرعيّ في المدرسة الشعبانية:

وقد أُنشئ هذا المعهد الشرعي في عهد مدير الأوقاف الأستاذ نعمان سخيطة، إذ قرّر أن يجمع طلاب المدارس الشرعية المتفرّقة (البهائية، والسيافية، والقرناصية، والإسماعيلية)، في هذا المعهد، وقسّم الشيخ عطا

الصابوني مدير المعهد الشرعي في (الشعبانية) الطلاب، حسب إمكانياتهم على ثلاثة أقسام: قسم في الدرس العام في قبلية المسجد، يحضره مَنْ تجاوز السن، ولم يعد يصلح للانتظام في الصفوف، وكان يدرسهم الشيخ علي العالم الكيالي، والفئة الثانية تمّ قبولها في الصف الأول، وبقية الطلاب وزّعوا على الصف الثاني، والثالث، وكانت الدراسة سبع سنوات، وقُبل الشيخ محمد الحجار في الصف الثالث.

مدير المعهد الشرعي الشيخ: عبدالله سلطان:

ثم استلم إدارة المعهد الشرعي الشيخ: عبدالله سلطان رحمه الله، ونقم عليه بعض الطلاب بإلزامهم بالانتماء إلى بعض المشايخ، وكان يضغط على الطلاب الذين لا ينطوون تحت لوائه، وعاقب عدداً من الطلاب، وأوقف ستة وعشرين منهم: الشيخ محمد في سجن باب النصر، فخرج الطلاب بمظاهرة تندّد بسجن الطلاب، وأرسلوا برقية للشيشكلي: «طلاب العلم الشرعي يقادون بعمائمهم إلى السجون. . .» فأطلق سراحهم مع رد الاعتبار والاعتذار.

شيوخه:

ومن أبرز شيوخه الذين لازمهم وانتفع بهم: الشيخ أبو النصر خلف الحمصي، وأخذ منه الطريقة النقشبندية، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ إبراهيم السلقيني (الجد)، والشيخ محمد نجيب سراج الدين، والشيخ أحمد الشماع، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ إبراهيم الغلاييني مفتي قطنا، ولازمه ملازمة تامّة في قطنا أكثر من أربعين يوماً. وقد تشرّف بخدمة هؤلاء المشايخ الكبار، وكان يحلق رؤوسهم ويُزيّن لهم لحاهم.

وممّن أجازه ببعض مروياته شيخه العلامة عيسى البيانوني جد زوجته، ويروي عنه الحديث المسلسل بيوم عاشوراء، وقد ذكر هذا الحديث في كتابه «من قصص التنزيل» ص٢٥٧ عند كلامه عن فضل صوم يوم عاشوراء في قصة موسى عليه السلام: «أقول: هذا الحديث من الأحاديث المسلسلة سندها، وقد أخذته عن شيخي الشيخ عيسى البيانوني، وكان أستاذنا في الثانوية الشرعية، فقال لنا رحمه الله تعالى: «لكم عندي جائزة، ولكن بشرط

أن تأتوا صائمين فجئنا، وسَرَد لنا سلسلة الحديث، وأجازنا به».

إمامته وخطابته في جامع الزكي بحلب وطلابه الذين قرؤوا عليه وصحبوه:

استلم الشيخ الإمامة والخطابة في جامع الزكي بحي باب النصر، وبقي إماماً وخطيباً أكثر من ثلاثين سنة.

وممَّن قرأ عليه في جامع الزكي فضيلة الشيخ محمود ميرة، قرأ عليه في الفقه الشافعي، مع الشيخ عمر عطار، ومحمد ربيع عطار، ومصطفى الإعزازي، وكذلك قرأ عليه ولازمه فترة الدكتور الشيخ عبدالستار أبو غدة، وقرأ عليه أيضاً عديله الشيخ حامد غريب، والدكتور الشيخ زهير ناصر، النحو في ألفية ابن مالك، والعهود المحمدية، وممَّن صحبه في حلب وانتفع بصلاحه وسمته: الأستاذ إسماعيل حقي ناشد، والأستاذ: عاطف بن محمد أسعد البيانوني.

صحبته للشيخ البيانوني ومصاهرته:

وصحب الأستاذ الحجار فضيلة الشيخ أحمد عز الدين البيانوني، واستفاد من منهجه في العلم والدعوة، وكان يخصُّه بالحب والرعاية، ويوليه عناية فائقة، ويذهب إلى زيارته في سرايا إسماعيل باشا، وزوَّجه ابنته التقيَّة الصالحة (بشرى) التي كانت من الداعيات المربيات المدرسات، وكانت نِعْم الزوجة لزوجها، تُعينه على طاعة الله عزَّ وجلَّ، وتربية الأولاد، وكان الشيخ شديد الوفاء لها، دائم اللهَج بذكرها، وتوفيت قبله بتسع سنوات، ودفنت ببقيع الغرقد في المدينة المنورة، وكان الشيخ يزور البقيع في كل يوم بعد صلاة العصر في المسجد النبويّ، ويخصُّ قبرها بزيارته. كما كان يزور الكثير من إخوانه وأصحابه وأساتذته في البقيع، ومنهم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وكان شديد الحب له، وثيق الصلة به، عظيم التقدير له.

أولاده:

وله منها ثمانية من الأولاد: خمسة من الذكور، وهم: صفوح من مواليد ١٩٤٩، ورضوان من مواليد ١٩٥٠، وأسامة ١٩٥٤، ويمان ١٩٦٤، وصهيب ١٩٧١، وله من البنات ثلاثة: أسماء، وميمونة، ورضوى.

محنته وهجرته إلى المدينة المنورة:

امتحن الشيخ في الأحداث التي وقعت في سورية في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وابتلي باستشهاد ابنه صفوح في عام ١٩٨٠، كما فقد الشيخ اثنين من أبنائه: أسامة الذي كان يعمل مدرساً وخطيباً، ويمان الذي كان طالباً في المرحلة الثانوية، حيث غرّر به أحد المسؤولين في أجهزة الأمن بتقديمهما للمساءلة وإعادتهما إليه، فوثق بقول ذلك المسؤول، لما جُبِلَ عليه الشيخ من الصدق والوضوح وتحسين الظن، وقدّمهما إليه ليعودا في اليوم نفسه، كما أكد له ذلك المسؤول؟!! واختفى أثرهما منذ سنة ١٩٨٠، مع الآلاف من المفقودين!!

وكان الشيخ مثالاً رائعاً في الصبر والاحتساب، والوفاء والأمل.

هاجر إلى المدينة المنورة مجاوراً، منذ سنة ١٤٠٠، إلى أن توفّاه الله تعالى في سنة ١٤٢٨هـ، كما امتحن في المدينة المنورة بإيذاء بعض الجهلة المتعصبين، ومحاولة إبعاده عن المدينة المنورة مع ثلّة من العلماء الفضلاء، فزاده الله عزَّ وجلَّ رضاً وسكينة وطمأنينة، وعزاً ومنزلة ورفعة في قلوب الصالحين من أهل المدينة المنورة.

ملازمته للمسجد النبويّ:

كان شديد الحرص على صلاة الجماعة في المسجد النبويّ، والقراءة والعلم والتعليم. وكان بحق حمامة المسجد النبويّ، وما من أحد من أصحاب الشيخ وعارفيه، زار المسجد النبويّ إلا ورآه في مجلسه المعروف عند باب السلام بعد صلاة الفجر، أو عند باب الرحمة بعد صلاة الظهر، أو عند أول التوسعة السعودية بعد باب الرحمة من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء.

لم ينقطع رحمه الله عن المسجد النبوي في يوم من الأيام، حتى في شدّة الزحام، في شهر رمضان، وأشهر الحج، فكان يحضر إلى المسجد عند الأذان الأول، ويبقى إلى صلاة الضحى، ثم يعود بعد استراحة قصيرة في منزله إلى المسجد قبل صلاة الظهر، ويأتي إلى الروضة المطهّرة كل

يوم، ويستمر في صلاته وعبادته فيها إلى ما بعد صلاة الظهر، ثم يمكث في المسجد إلى ما بعد صلاة العشاء.

وكان يخرج ماشياً إلى مسجد قباء كل يوم سبتٍ، ولم ينقطع عن هذه السنّة إلا بعد كسر حوضه قبيل ثلاث سنوات من وفاته.

حرصه على صلاة الجماعة:

ومن حرصه على صلاة الجماعة في المسجد النبويّ أنه كان إذا أراد السفر إلى مكة المكرمة للعمرة لا يخرج من المدينة إلا بعد صلاة العشاء، كي لا يضيع صلاة الجماعة في المسجد النبويّ، ويصل إلى مكة عند الأذان الأول للفجر، ويصلي الفجر في المسجد الحرام، ويكثر من الطواف بعد العمرة، ولا يقل طوافه عن عشرة أسابيع.

منهجه في العبادة:

وكان آية في العبادة، يذكِّر بالسلف الصالح، لا يفرغ من صلاة وصيام وذكر وتلاوة قرآن، وقراءة وإقراء.

من منهجه في العبادة: المداومة على اثنتي عشرة ركعة في صلاة الضحى، وعلى اثنتي عشرة ركعة بعد صلاة المغرب، وصلاة التسابيح، وقيام الليل، وصيام الدهر دون إفطار إلا في الأيام الخمسة التي لا يحل صومها، وهي: يوم الفطر ويوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة.

وكان يراجع مؤلفاته ويصححها في الحرم الشريف، وله دروس متنوعة في الفقه الشافعي والعربية والتفسير بعد صلاة الفجر والعصر والمغرب من كل يوم.

شجاعته وجهره بالحق:

ومع انقطاع الشيخ للعبادة وانهماكه بالذكر والمحافظة على سائر النوافل، والتزام الأدب، والتواضع الشديد، وإيثار السكوت والعزلة، فإنه كان رياضياً يعنى بصحته وجسده، ويمارس رياضة المشي، ويقل الطعام، وكان سباحاً ماهراً، ورامياً حاذقاً، كما كان يجهر بالحق، ويدعو إلى الجهاد، وفي أوائل الثمانينيات كان مع هيئة علماء حلب في معالجة الأحداث التي تتابعت، وصدع بكلمة الحق، من فوق منبره في جامع الزكي.

الدعوة إلى الجهاد والاستعداد:

ومن أقواله في الدعوة إلى الجهاد والاستعداد والتضحية والاستبسال... في خطبته عن الجندية في كتابه «صوت المنبر» ٩٠/١، التي افتتحها بقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، ثم تكلم حول معنى هذه الآية، وعن حكم الإسلام في الجندية، وأورد نماذج من جهاد السلف، ووحدة الصف، ويبيِّن مراده بهذه الدعوة، ثم قال: «ولكني أريد أن أنبه إخواني المسلمين: عرباً وعجماً، وأن أحضهم على الجندية، وأدعوهم إليها، ليكونوا على أهبة وحذر من العدو، وأن أبيِّن: بأن الإسلام ـ لا كما يزعم البعض ـ دين عبادة وزهادة، دين عزوف عن الحياة، وقمع في البيوت والزوايا فحسب، لا علاقة له بأمر السياسة، ولا حق له بإدارة دفة الحكم، فينبغي فصل الدين عن الدولة».

وقال في خطبته عن غزوة بدر ١٩٨/١: «يجب علينا أن نؤمن بأن الجهاد فريضة مُحتَّمة، أوجبه الله علينا بالعبادة التي أوجب بها الصوم، فكما قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، قال في السورة نفسها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ...﴾، وأن نؤمن أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، لا يبطله جَوْر جائر ولا حكم حاكم».

ويقول في خطبته عن الجهاد الأكبر ٣٧١/١: «إن الحرب آتية لا ريب فيها، فإذا لم تأت الحرب إلينا، فيجب أن نسعى إليها، لأن لنا رسالة لا بد وأن نؤديها، ولنا أخوَّة في العروبة والإسلام، لا بدَّ أن نحطم من أغلالها، ونحمي تربتها، ولنا بلاد في مشارق الأرض ومغاربها، لا بدَّ أن نطهرها من رجس المستعمرين، وأيدي الغاصبين... ولنعلم حقَّ العلم، بأن الجهاد ماض إلى يوم القيامة، فمن لم يَغْزُ، ولم يحدث نفسه بالغزو، ومات مات ميتة جاهلية...».

ويقول في خطبته «المحات عن البسالة والبواسل» ٥٠٨/١ ـ ٥١٤، بعد أن استعرض صوراً رائعة من بواسل الإيمان في غزوة أحد والأحزاب: «بهذه الروح يجب أن نتسلح ـ مَعشر الشباب ـ وبهذه الروح يجب أن نعمل ونجاهد... هذا هو الإسلام في جيوشه وقوته، في كفاحه وجهاده، هذا

هو الإسلام ـ أيها الشباب ـ منه استمد الأولون الروح الحية، وكانوا في انطلاقهم وجهادهم كالعاصفة، وفي ثباتهم وصبرهم كالرواسي».

اهتمامه بقضية فلسطين:

كما اهتمّ في خطبه بقضية فلسطين. ومن ذلك قوله ١/٩٩: «لقد وضع رسول الله ﷺ أمانةً في أعناق المسلمين، ولا سيما القائمين على الحكم، أن يحتفظوا بهذه الأرض المقدسة، وأن لا نسمح للغزاة المستبدين، بانتزاع شبر من أرضها ما دمنا أحياء، وأن ندافع عنها بكل ما نملك من قوة، وأن نعتبر الدفاع عنها واجباً يحتمه الدين، ويوجبه الإسلام، وتؤكده العقيدة، لا مفرَّ عنها ولا محيص».

ويقول في خطبة غزوة بدر ١/١٩٨: «تمرُّ علينا هذه الذكرى: والأرض المقدَّسة، ما زالت موطئ نعال الصهاينة من بني إسرائيل، الذين قتلوا الأنبياء بغير حق، وغضب الله عليهم ولعنهم، والمسلمون غارقون إلى أذقانهم بالترهات والأوهام والأباطيل... تمر علينا الذكرى والمسلمون على كثرة ملايينهم، مفككو العُرى، ممزقو الروابط، مختلفو الصفوف، كلٌ يسعى في محق أخيه وإبادته، والحرب طحون قائمة بينهم على قدم وساق، كلٌ يستمدُّ قوته من الشرق أو الغرب...».

تحذيره من الردة:

كما حذَّر من الردة وبيَّن أحكامها ١/٣٩٦ـ٤٠٧، في موضوع استوعب فيه أنواع الردة، وجمع أطرافه، وأحسن اختصاره، من مطوَّلات كتب الفقه.

تحذيره من الحزبيات المُشَتِّتة للأمة:

كما تحدث عن سبب انحطاط المسلمين ١/٥٠٤، في خطبته عن الحالة الحاضرة وأثرها في الناس، وحذَّر من أخطار الحزبيات المُشتِّتة للأمة ١/٥٠٥، وممَّا قال في ذلك: «كثرة الأحزاب والشِّيَع دليل واضح وبرهان ساطع على تفرقة الأمة، وتخاذلها وانحطاطها... وإنَّ التفرُّق والتحزب والتشيع كلُّ ذلك عده القرآن نوعاً من أنواع العذاب، يضرب الله به على أمةٍ سخط عليها وغضب...».

تحذيره من الدعوات الضالة الوافدة:

كما حذّر من الدعوات الضالة الوافدة، فحذّر من الشيوعية وغيرها من المذاهب الهدّامة التي تدّعي رحمة الفقير أو العطف على العامل ٥٠٦/١... كما حذّر من الدعوة إلى القوميّة، أو الوطنيّة، أو الاشتراكية، أو الشعبية، وقال عن هذه الدعوات ٥٠٦/١: «إنها وليدة أفكار سخيفة، لم تعِ الإسلام ولم تفهمه، ولم تُحط بسموّ ما جاء به من الأحكام»...

واستمع إلى دويّ كلماته ـ وهو المخبت الخاشع ـ وجَلْجَلة صوته في خطبته: «ردة ولا أبا بكر لها»، بعد أن تحدّث عن الشيوعية التي وضعت الناس في جحيم أحمر، وجعلت أبناءها يعيشون عيشة الأنعام... وعن الرأسمالية التي هي أسوأ وأشر، يبطش القوي بالضعيف، ويقضي الغني على الفقير، فانطلق الناس كالحيوانات الضارية، والذئاب الشاردة...

فبيّن السبيل الواحد الذي جاء في كتاب الله، وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام... ثم حذّر من الردة التي اكتسحت العالم الإسلامي، وغزت المجتمع المسلم...

وقال أيضاً ١٠٩/٢: «الإسلام لا يعرف محاكم التفتيش ولا التعنيف، ولا يعرف الاضطهاد، بل ولا يعرف المحاكم العرفية، التي أقامها عملاء الاستعمار للمحافظة على مناصبهم، فبنوا القلاع والسُدود، وجعلوا الحواجز والحصون فيما بينهم وبين شعوبهم، كي لا يسمعوا أنين المظلومين، ولا عويل المنكوبين!!».

تحذيره من انحراف الحكام والقيادات:

وتحدث عن مسؤولية الحاكم وانحراف القيادة في خطبته عن القيادات الرشيدة، وما جَنَتْهُ هذه القيادات على الأمة ١١٧/٢: «إن الحرمان الذي لاقته الأمة العربية، منذ أن انحرفت القيادات العربية عن مراكزها، منذ أن انحصرت هذه القيادات في الرؤوس المترفة، والأجسام الخائرة، إن الحرمان والكبْت والظلم والعَسْف الذي لاقته الأمة العربية من هذه القيادات المنحرفة، أضعف الروح المعنوية في كل فرد من أفراد الأمة، وجرى اليأس في عروقه ودمه، من أن يتقدم شبراً إلى الأمام...».

كما تحدث عن الأوضاع الأخلاقية للأمة ١٣٠/٢: من تفكك مكشوف، وتحلل خلقي، واندثار العدل، وانتشار الظلم...

تحذيره من دسائس الأعداء وإثارة عوامل الفرقة:

وحذَّر من دسائس الأعداء، وتألبهم على المسلمين، وإحداث عوامل الفرقة والتشتّت، فيقول في خطبته: «وحدة الصف» ٢١٣/٢: «نرى أعداء الإسلام ساعين بجِدّ ونشاط على إزالة المسلمين من الوجود بتسليط بعضهم على بعض، وهو جاثم على صدورهم، آخذ بقامتهم، حتى لا تقوم لدينهم قائمة، ولا يبقى لهم باقية...» وبعد أن استعرض موقف الأعداء من المسلمين وما أصابهم من تقتيل وتعذيب... قال: «تنبّهوا إلى ما يراد بكم، وبدينكم من خطر!! واذكروا دائماً أن الغرب وأعوانه لكم بالمرصاد، وأنهم يتربّصون بكم الدوائر، فوحّدوا جهودكم، وكونوا يداً واحداً على من عاداكم...

وإيّاكم أن يدخل الأعداء في صفوفكم، ويفرق بين طوائفكم، وحَسْبُكم ما وصلتم إليه من مهانة، وما لحق بكم من عار واضمحلال.

وحذار ثم حذار من انشقاق الصف، وإيقاع الخلاف في أمور جزئيّات تافهة، ومسائل فرعيّة أشد تفاهة، فهي لا تعطل واجباً، ولا تبيح حراماً، وإيّاكم من صرف الجهد لما اختلف فيه الأئمة التي ليست من أصول الدين، فإنّ العدو ينتظر مثل هذا الخلاف ليدخل قلب المسلمين، فيفرّق جمعهم، ويمزّق شملهم، ويطأ بقدمه أرضهم، ويحتقر مقدّساتهم، ويستولي على بلادهم...».

منهجه الإصلاحي والدعوي:

ومن قرأ كتابه «الصحوة القريبة» وجد فيه صدق اللهجة، ومَحْضَ النُّصح، وقوة العاطفة، كما وجد فيه معالم من منهجه الإصلاحي والدعوي، فقد حذر من كثير من المفاسد والمنكرات المنتشرة في المجتمع.

تحذيره من البدع والمنكرات:

مثل منكرات المآتم ومنكرات السماع من المذياع ١٧٣/١، وتكلم عن حال قُرّاء هذا العصر ١٧٢/١.

كما حذَّر من بعض البدع الشائعة، كتحذيره من بدعة الاستخارة بالنوم، فقال في كتابه «الإسلام وأركانه الأربعة» ص١٥٢:

«استخارة المنام ليست بواردة، ولا يجوز الاعتماد على المنامات، لأنه يغلب فيها التخليط، وحديث النفس. نعم؛ يستأنس بالمنام لا غير. وما يفعله بعض العوام ولا سيما النساء منهم، يقولون لبعض الأشياخ: بيِّت لي استخارة ليس بصحيح، فيجب تعليمهم وتذكيرهم وإرشادهم للسنَّة الصحيحة التي ليس عليها غبار، وقد نبهت على هذا في فتح العلام أثناء تعليقي عليه، فعد إليه».

دعوته لترك الإكثار من حج النافلة:

ومن ذلك دعوته: لترك الإكثار من الحج لتُعطى الفرصة لمن أراد أن يُؤدي الحج لأول مرة، لما تُسبِّبه ـ كما قال في كتابه «الصحوة القريبة» ١/ ٢١٢ـ الكثرة الكثيرة، من أزمات خطيرة: حسيَّة ومعنويَّة، دينية وأخلاقية، أزمات في السكن، وفي السعي، وفي رمي الجمار، وفي الصلاة والطواف، أزمات في المطاهر والمياه، في الفئة القليلة التي أرادت أن تؤدي فريضة الحج لأول مرة، وإذا بها قد اندلع أمامها هذا الحشد الكبير فجعلها في مضيعة! فلم يستطع الحاج أن ينهض بما وجب عليه من أداء الفرائض فضلاً عن النوافل... ولهذا أتقدم بكلمتي هذه لأهل الوعي من المسلمين ـ غير العاطفيين ـ أن ينتبهوا وينبِّهوا غيرهم لهذا، بإعطاء المجال لهؤلاء السذج الأغرار، ليتمكَّنوا من أداء المناسك، ويُعوِّضوا عن حَجِّهم بعمرة، رحمةً بإخوانهم، أو يجعلوا الحج في كل خمس سنوات تخفيفاً لهذا الضغط الشديد...». وينظر كلامه حول الازدحام عند الحجر الأسود في كتابه «الإسلام وأركانه الأربعة» ص٥٩٣ تحت عنوان: النداء العميق، وكلامه حول منكرات الحج، في كتابه السابق أيضاً ص٥٧٠ ـ ٥٧٢.

عنايته بشأن الأسرة والمرأة:

كما حذر في كتابه «الصحوة القريبة» من المغالاة في المهر ١/٢٩٣، ومن إحجام الشباب عن الزواج ١/٢٩٤، كما حذَّر من انحراف بعض

الرجال في معاملة نسائهم، وسلوكهم داخل البيت ٦٤/٢، وقال ناصحاً الأزواج بعدم التحكم والبغي على نسائهن، وقال ٧٣/٢: «فقد تكون المرأة عجينة صالحة للصلاح، والاستقامة، وإطاعة الزوج، ولكنْ سوء المعاملة، أو شدَّة المؤاخَذَة، تدفعها إلى الشَّطَطِ والعِناد. . . إنَّ المرأة ليست عند الرجل أثاثاً يُقْتنى، أو متاعاً يُباع ويشرى!!! ولكنها إنسانة لها حقوقها، وحرمتها، وحريتها، بحكم الإسلام، وحكم القرآن».

وحذَّر كذلك من الرشوة وبيَّن أخطارها وآثارها ٣٥٧/١.

مؤلفاته وتحقيقاته:

توجَّه الشيخ للكتابة والتأليف وهو في مدينة حلب، وهذه قائمة بأسماء مؤلفات الشيخ:

١ ـ سمير المؤمنين في المواعظ والحكم والقصص. ٢ ـ الصحوة القريبة بإذن الله. وهو مجموعة خطب توجيهيَّة نافعة. ٣ ـ الحب الخالد. ٤ ـ الإسلام وأركانه الأربعة. ٥ ـ من قصص التنزيل. ٦ ـ النصيحة الموجزة.

وأما الكتب التي نشرها، فقد عُني ببعض كتب الإمامين الغزالي والنووي، وكان يهتمُّ في نشر تلك الكتب بالتعليقات المفيدة للقارئ، دون اهتمام بالمقابلة على أصول خطيَّة أو تخريج للأحاديث أو توثيق للنقول.

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي عُني بنشرها وشرحها:

١ ـ فتاوى الإمام النووي. ٢ ـ التبيان في آداب حملة القرآن للنووي. ٣ ـ بستان العارفين للنووي. ٤ ـ شرح المقاصد النووية. ٥ ـ بداية الهداية للغزالي. ٦ ـ فتح العلام في فقه الشافعية للجرداني.

تلاميذه في المدينة المنورة:

ومن تلاميذه الذين صحبوه ولازموه، واستفادوا من علمه وصلاحه: فتح بن محمد عبدالله أبو الفتح البيانوني، وجذاع الصُّويلح، مدير إذاعة القرآن الكريم في الكويت، وعلي الحريري من نوى في حوران، وعمر

الكاف، ومحمود عبدالغني اليماني، وعبدالسلام بن محمد سعيد رمضان البوطي، ويوسف مرعشلي، وعبدالرحمن حجار، وعبدالمعين عرّوب، وغسان وتد، وتامر نجار، وسامح عطار، زوج حفيدة الشيخ.

وكان لي شرف الحضور عليه، وتقبيل يديه، وطلب الدعاء منه، في كل زيارة للمدينة المنورة، مع أولادي: أحمد وموفق، وقد أكرمني بإجازته العلمية عن شيوخه الذين أجازوه رحمهم الله تعالى.

وفاته:

مكث الشيخ في المدينة المنورة قرابة ثلث قرن مستقيماً على منهج ثابت في العبادة والعلم، معافًى في بدنه، مُمتَّعاً بحواسّه، آمناً في سربه، راضياً مطمئناً. وفي يوم الأربعاء ٥ محرم ١٤٢٨هـ حضر إلى المسجد صحيحاً معافى، وصلى الصلوات الخمس فيه، وبعد صلاة العشاء من ليلة الخميس ذهب إلى بيته ليتناول طعام إفطاره، وأخلد إلى النوم في تمام الساعة العاشرة، وتأخر في الاستيقاظ عن موعده المعروف للتهجد والسحور، والاستعداد للذهاب إلى الحرم في موعد الأذان الأول، فدخل عليه ابنه الكبير رضوان، ليطمئنّ عنه ويوقظه لتهجُّده وسحوره، فرآه في نومته التي تركه عليها، أول الليل، وقد توفاه الله الوفاة الكبرى، وأسلم الروح لبارئها، ليلة الخميس في حدود الساعة الواحدة ليلاً.

وقد صُلّي عليه في المسجد النبويّ بعد صلاة الظهر من يوم الخميس ٦ محرم ١٤٢٨هـ، وشيّعه المئات من مُحبّيه وتلامذته، ودفن في مقبرة البقيع بالمدينة المنورة.

تحقيق أمنيته:

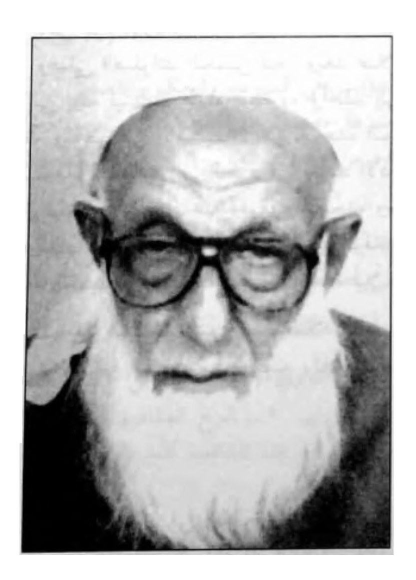
وقد قال رحمه الله تعالى في رسالة: «علّموني يا قوم كيف أحج» ص٥٩٦: «والموتُ في المدينة، لا يناله إلا السعيد، لأنه يستوجبُ شفاعة رسوله الحبيب، وقد أكرم الله زوجتي بهذه الكرامة، وأسأل الله تعالى أن يَخُصّني بها كما خَصّها: «اللهمّ إني أسألك شهادةً في سبيلك، والموت في

بلد نبيك». ثم قال رحمه الله تعالى: «وأضيف إلى هذا قائلاً وراجياً: اللهمَّ لا تقبضني إليك إلا وأنا صائم ساجد في بلد نبيّك، اللهمَّ لا تحجبني بذنوبي عن بلد رسولك صلوات الله وسلامه عليه. ولله درُّ القائل:

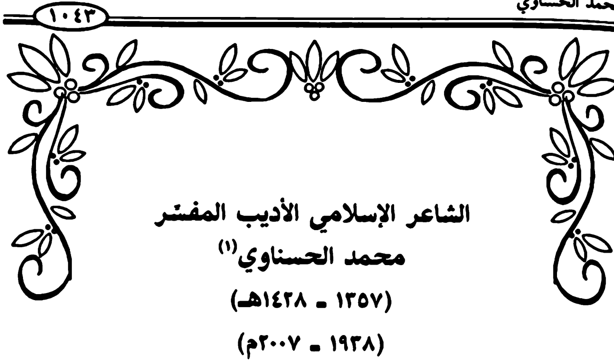
يا نزولاً بها هنيئاً فقد فزتم بها في حياتكم والمَمَاتِ
من جنان إلى جنان فأنتم في كلا الحالتَيْن في جنَّاتِ
ما غبطنا الملوك ولكن غبطنا كم على نَيْل أحسن الحالاتِ»

انتهى.





الشيخ محمد الحجار بعد هجرته إلى المدينة المنورة



الشاعر الإسلامي الأديب المفسّر محمد الحسناوي(١)

(١٣٥٧ - ١٤٢٨هـ)

(١٩٣٨ - ٢٠٠٧م)



بقلم: مَجْد مكي

تنعى رابطة علماء سورية إلى الأمة الإسلامية وفاة الأستاذ المربّي الداعية، المفسّر المتذوّق لبلاغة القرآن وإعجازه، الأستاذ محمد الحسناوي الذي تُوفي في عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، صباح هذا اليوم ١٤ صفر ١٤٢٨هـ، الموافق ٤ آذار ٢٠٠٧م، في تمام الساعة العاشرة صباحاً، عن عمر يناهز السبعين عاماً، وقد أنهى حياته الحافلة بالدعوة، والجهاد، بالانكباب على كتاب الله عزَّ وجلَّ في عدَّة دراسات، كان آخرها دراسة بلاغية لأربعة سور من القرآن الكريم، وهي: الإسراء، والكهف، ومريم، وطه.

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد الأستاذ الحسناوي في مدينة جسر الشغور عام ١٩٣٨م، وهي

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٤م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com وكنت أول من رثى الأستاذ بعدما بلغني نبأ وفاته رحمه الله تعالى.

مدينة تقع على نهر العاصي في منتصف الطريق بين حلب واللاذقية، وتخرج في كلية الآداب بجامعة دمشق عام ١٩٦١م. ونال شهادة الماجستير في موضوع «الفاصلة في القرآن» عام ١٩٧٢م.

أعماله العلميّة:

عمل مديراً لتحرير مجلة «حضارة الإسلام» لمدة عام ١٩٦١. كما عمل مدرساً للغة العربية في محافظة حلب ثمانية عشر عاماً من عام ١٩٦٢ - ١٩٨٠م. إلى أن اضطر إلى مغادرة القطر السوري بملابسات تتعلق بأوضاع البلاد العامة.

كتب في عدد من المجلات الأدبية والإسلامية المعروفة، وفي دراسته للفاصلة في القرآن وهي - كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر - اكتشف آثاراً مهمة للموسيقى القرآنية.

وشارك في عدد من المؤتمرات الأدبية، ونال عدداً من الجوائز في أدب الأطفال والقصة الإسلامية.

من دواوين شعره المنشورة: عودة الغائب، في غيابة الجب، ملحمة النور. وفي الدراسات الأدبية: في الأدب والأدب الإسلامي، وفي الأدب والحضارة، صفحات في الفكر والأدب. وفي التاريخ: ذكرياتي عن السباعي.

كلمته حول تفسيري «المُعين»:

وقد أرسلت إليه كتابي «المعين على تدبُّر الكتاب المبين» فكتب كلمة حَوْله، لعلَّها آخر ما كتبه رحمه الله تعالى، نقتطف منها ما يلي:

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اهتدى بهداه إلى يوم الدين. وبعد. . . فقد رغب إليّ من لا تُردُّ رغبته، الأخ الشيخ مَجْد مكي، أن أكتب له مقدمة لتفسيره (المعين على تدبر الكتاب المبين)، لظنه الحسن بي.

وأسأل الله تعالى أن يجعلني عند حُسْن ظنه، لأنَّ بضاعتي محدودة بعلوم اللغة العربية وبشيء يسير من علوم القرآن الكريم.

لقد سرّني أيما سرور أن يسدّ أحد الكتاب المعاصرين ثغرة في تأليف كتاب تفسير، يجمع بين السهولة والإيجاز والدقة في الفهم والتعبير، ويلائم أهل هذا العصر في الوقت نفسه.

من يطالع (المقدمة) التي حرَّرها المؤلف يجد ما يُطمئنه، ما وضع المؤلف نفسه من صُوىً ومعالم، عمل على تحقيقها في هذا التفسير: من استشعار عظمة هذا العمل وخطورته، والإفادة من جهود الجهابذة السابقين المعتمدين، والعناية بالجانب (التدبُري) من نصّ القرآن، ضمن (أربع عشرة قاعدة) ألزم نفسه الأخذ بها. إحداها: (ملاحظة العمق القرآني)، والقرآن الكريم (حمّال أوجه)، و(كتاب لا تنقضي عجائبه)، وفيه من (معنى المعنى) أو (اللوازم الفكرية، والكنايات البعيدة)، و(ظاهرة التضمين) ما بلغ حدّ الإعجاز، لذلك يتفاوت الناس، بما فيهم العلماء الأفذاذ، في مقدار فهمه وتذوُّق حلاوته، كما يتفاوتون في القدرة على التعبير عمّا فهموه وأحسُّوا به من كلمات هذا الكتاب المُحكم وآياته وسوره.

كنت أقول في نفسي، وما زلت: لقد حصل لي من علوم العربية والأدب والقرآن مثل ما حصل للمرحوم سيد قطب، فلماذا يقصر فهمي عن فهمه له، كما يقصر تعبيري عن تعبيره؟ هل هي (الذائقة الفنية) التي تمتَّع بها؟ أم ماذا؟ فيجيب سيد قطب عن إدراك النصوص القرآنية: (إنما تُدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوّها التاريخي الحركي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملها مع الواقع الحيّ... إنما هي استعداد النفس برصيد المشاعر والمُدْرَكات والتجارب تشابه المشاعر والمُدْرَكات والتجارب التي صاحبت نزوله، وصاحبت حياة الجماعة وهي تتلقَّاه في خِضَمّ المعترك... معترك الجهاد، جهاد النفس وجهاد الناس... جوّ مكة... جوّ المدينة... جوّ (بدر) و(الخندق) و(الحديبية)... في هذا الجو الذي تنزَّلت فيه آيات القرآن حية نابضة واقعية... كان للكلمات وللعبارات دلالاتها

وإيحاءاتها. . . وفي مثل هذا الجو الذي يصاحب محاولة استئناف الحياة الإسلامية من جديد، يفتح القرآن كنوزه للقلوب، ويمنح أسراره، ويُشيع عطره، ويكون فيه هدى ونور) (انظر: خصائص التصور الإسلامي، ص٧ و٨) وأين نحن من ذاك؟

لما عرضت جهد أخي الشيخ مجد على هذا المعيار، وجدته قد أفلح في تحقيق الكثير مما ألزم نفسه به، لكنه بالقياس إلى معيار سيد قطب ـ كما أجد نفسي ـ بحاجة إلى مزيد من الجهد والصقل والعيش في (جو القرآن).

إنَّ صاحب تفسير (المعين)، الذي أدمن الدراسة في كتب التراث، ولا سيما كتب الفقه، من متون وشروح، وشروح الشروح والمختصرات، انطبع أسلوبه بأسلوب كُتَّابها، والمعلوم أن أسلوب العلماء أولئك، وشعر العلماء دون الأساليب الرفيعة حين تفتقد الماء والرونق، نستثني منهم أسلوب الإمام الشافعي، والغزالي، وابن خلدون، وابن تيمية، وابن القيم، وابن الجوزي، وأمثالهم.

وحدة الآية وعلاقتها بما قبلها وما بعدها:

وبالمناسبة أوصي نفسي والمعنيين بدراسة القرآن الكريم وتفسيره بالتفطُّن إلى (معادلة) دقيقة تجمع بين وحدة الآية أو استقلالها من جهة، وبين علاقتها بما قبلها أو بعدها من الآيات من جهة ثانية، علاقة استكمال أو تكامل أو تقابل أو تعليق أو ختام.

دلالة التعقيب في آخر الآية:

فتفسير الآية يحتاج أولاً إلى إدراك العلاقة الواشجة بين أجزائها، ولا سيما علاقة كلمة الفاصلة التي هي ركن مهم فيها، وقد كشف العلماء عن أربعة أنواع من هذه العلاقة: (التمكين ـ الإيغال ـ التصدير ـ التوشيح)، ومثل ذلك: **علاقة التعليق أو التعقيب في آخر الآية**.

نضرب على ذلك مثلاً من سورة الروم، حيث يتردَّد تعقيب في ختام الآيات (٢١ ـ ٢٤) بصيغة واحدة مع تباين في كلمات الفاصلة:

﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾، ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

هذا التباين في كلمات الفاصلة (يتفكّرون ـ للعَالِمين ـ يسمعون ـ يعقلون) ذو صلة بمضمون الآية أو بالقرينة التي تشغل الشطر الأول من الآية، ويشغل التعليق الشطر الثاني منها؟ فالله تعالى خلق الأزواج والأنفس، وجَعَل المودة والرحمة بينهم ممَّا يدعو إلى تفكُّر المتفكرين، لما في ذلك من آيات عميقة لا يدركها إلا أصحاب العقول والألباب، أما تنوُّع الألسن واللغات وسِمَات الوجوه والأقوام والجماعات (البيض ـ السمر ـ الحُمر ـ الصُفر ـ السود) فيستدعي علم العالمين. ومن كرم الله وفضله الدالّ على قدرته: معجزة إنزال الماء من السماء، من خلال البرق والرعد المخيف المُطْمع في وقت واحد، الباعث للحياة في الأرض الموات، يروي البشر والشجر والدواب، وفي ذلك ما فيه من علامات وإشارات لأصحاب العقول الراجحة للاهتداء إليه سبحانه وإلى عظيم قدرته وخلقه. وأخيراً إن نظام النوم في الليل للراحة واليقظة في النهار للعمل في طلب الرزق... يدعو أصحاب العقول للتأمل والتفطن إلى الأسرار والنعم التي تترتب على هذا النظام.

وهكذا جمعت التعليقات الأربعة بين التناظر في الصيغة والتباين في الدلالة، مع ارتباط كل منها بآيتها ارتباطاً وثيقاً. وهذه بعض ملامح الجمال والإعجاز[١].

الاهتمام بأسلوب الالتفات في القرآن:

مما نُوصي به المعنيين: الاهتمام بأسلوب الالتفات في القرآن الذي هو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: (التكلم والخطاب والغيبة) مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وَفْقَ الطريقة المختارة أولاً دون التحول عنها.

---

(١) وقد أظهرت في تفسيري «المعين» دلالة التعقيب في آخر هذه الآيات التي أشار إليها الأستاذ الحسناوي رحمه الله تعالى، وفي سائر التفسير بفضل الله وعونه.

وهو فن من فنون القول يلقَّب بشجاعة العربية، وأحد نواحي الإعجاز في حيويته وروعة تنقله وفي تأثيره في الإعراض والإقبال أو المفاجأة أو الاستحضار، كما هو أحد الأساليب التي تندرج تحت مسمى الخروج عن الظاهر، لغرض فنيّ أو ديني أو للأمرين معاً، وما أكثر ذلك وما أروعه!!

جوانب التوفيق في تفسير (المعين):

أما جوانب التوفيق في هذا السِّفْر الجليل فكثيرة، نُمثّل لها بالوحدات التي يستنبطها المؤلف من سياق الآيات، بإبرازها متسلسلة رقمياً، مما (يعين) على تدبُّرها، ثم العمل بها بعد التدبر. ففي سورة (الإسراء) يستنبط ثلاث وظائف كبرى للقرآن الكريم:

(الوظيفة الأولى: يدلُّ ويرشد إلى الطريقة التي هي الأقرب إلى الاعتدال الكامل في كلّ سلوك بشريّ.

والوظيفة الثانية: يُبشّر القرآن المؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً، الذين يعملون الصالحات، بأنَّ لهم أجراً كبيراً ينالونه في الجنة.

والوظيفة الثالثة: ينذر الذين لا يؤمنون بالآخرة بأننا هيئنا لهم عذاباً مُؤلماً في النار).

كما يستنبط ثلاث عشرة وصيّة تكليفية، بقضاء مُبْرَم، مُوجَّهة إلى رسول الله ﷺ ولكلّ فرد من أمته، أولها: (لا تعبدوا إلا الله)، وآخرها: (اجتناب مشية البطر والتكبر والخُيلاء في الأرض). ومثل ذلك استنباطه عدد الخوارق الستة، التي طالب بها مشركو قريش لينقادوا للإيمان بالرسول محمد ﷺ، وهي من باب التعنت والتعجيز.

أُهنّئ أخي الشيخ مَجْد مكي على إنجازه هذا السفر النافع، وعلى رحابة صدره في تقبُّل النقد والسعي الدائب للصقل والتجويد، وأسأل المولى تعالى أن يتقبّل عمله، وأن يجزيه خير ما يجزي به العاملين في خدمة كتابه

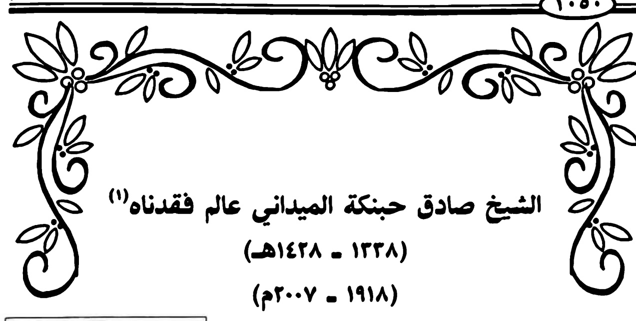
العظيم، إنه نعم السميع ونعم المجيب. والحمد لله ربّ العالمين[١]. انتهى.

مرضُه ووفاته:

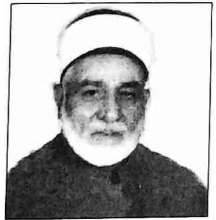
استمرَّ الأستاذ الحسناوي على عطائه رغم معاناته من الفشل الكلوي الذي نزل به منذ ثلاث سنوات، وكان آخر لقاء معه في زيارته لمكة المكرمة في شهر رمضان الفائت ١٤٢٧هـ. ونقدِّم العزاء بوفاته لأسرته الكريمة، ولجميع إخوانه ومحبيه وتلاميذه، ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُعوِّض المسلمين خيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) عرضتُ أكثر ما جاء في رسالته، وأعرضتُ عن بعض، وقد أجبتُه برسالة تفصيليّة، وناقشته عن بعض الاعتراضات التي ذكرها رحمه الله تعالى، ولعلّي أنشر الرسالتين المتبادلَتَين في مناسبة أخرى، بعون الله عزَّ وجلَّ.



الشيخ صادق حبنكة الميداني عالم فقدناه(١)
(١٣٣٨ - ١٤٢٨هـ)
(١٩١٨ - ٢٠٠٧م)



بقلم: مَجْد مكي

ولادته:

ولد فضيلة الشيخ صادق ابن مرزوق بن عرابي بن غنيم حبنكة الميداني حوالي سنة ١٣٣٨هـ، ١٩١٨م، في حي الميدان، وهو من أحياء دمشق العريقة، وهو حي معروف ببطولات رجاله وسخائهم ونخوتهم، ومحافظتهم على العادات العربية الكريمة.

ووالدته: خديجة المصري امرأة صالحة من قرية الكسوة جنوب دمشق، وقد توفيت سنة ١٣٥١ بعد عودتها من الحج.

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/١١/٦م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

زواجه ونشأته:

وقد تزوَّج قريبة له فلم تنجب له، ثم مرضت وتوفيت، وظل وفياً لها ومحافظاً على ذكراها عدة سنين، ثم رأت شقيقته زهرية في الرؤيا تطلب منها تزويجه، فتزوَّج أخرى من بيت الخطيب في حي الميدان، فأنجب منها ذكوراً وإناثاً، وقد اشتغل طوال عمره في التعلم والتعليم مع ممارسة بعض أعمال الكسب.

وهو شقيق الشيخ حسن حبنكة الميداني، وقد درس على أخيه العلوم العربية والإسلامية، وكان عضده ووزيره في مؤسساته التي أنشأها والمعلم الأول في مدرسته الشرعيَّة.

صفاته ومواهبه:

وعُرف ببرِّه وإخلاصه، وحكمته ورُشْده وحُسْن رأيه وتدبيره، وقد أسند إليه الشيخ حسن إدارة معهد التوجيه الإسلامي لثقته بحصافة عقله وحسن إدارته.

وقد أعطاه الله موهبة شعرية وأدبية رفيعة، ولكنه لم يستغلها في إنتاج كبير، لانشغاله لإدارة مشروع المدرسة، والعلم والتعليم، وبعض أعمال الكسب، للإنفاق على أسرته.

نماذج من أدبه:

كتب رسالة جوابية إلى ابن أخيه العالم المفسِّر الشيخ: عبدالرحمٰن حبنكة الميداني يقول فيها:

«سبق الشوق كتابي ... فأتاني بالجواب
فجلا عني غيوماً ... ساقها طول الغياب»

وكتب إليه أيضاً:

صبرت عن اللقاء فكنت جَلْداً ... وما أرسلت ـ معترفاً ـ كتابا
ولما استُنفدت طاقات صبري ... بعثت إليك ألتمس الجوابا

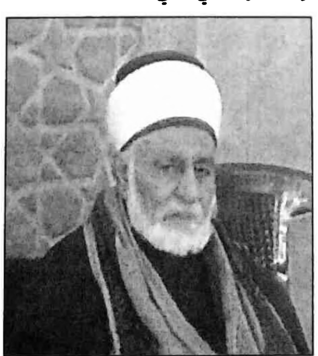
دراسته ومطالعاته ودروسه:

اهتمّ في دراسته ومطالعاته باللغة العربية والتخصُّص في فنونها وإتقانها. فكان في حلقات شقيقه الشيخ حسن المرجع اللغوي ضبطاً وفهماً، وله أيضاً بصيرة دقيقة في النحو والإعراب، وشرح كبريات كتب العلم، وفهم عويص عبارات المتون والشروح، وله فهم دقيق في العلوم العقلية، مع ما وهبه الله تعالى من ذكاء لَمَّاح ونكتة حاضرة مبتكرة ذكية، تثير ضحك الحزين.

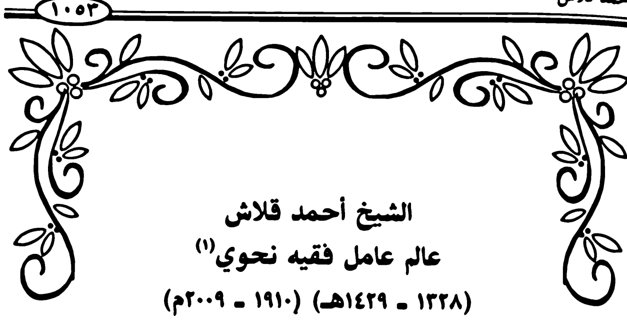
وله ـ رحمه الله تعالى ـ خطب ودروس رصينة المضامين الفكرية، يعتمد فيها على التحليل والمنطق العقلي المقنع، والروابط الفكرية الطبيعية المنطقية، ويبرز في أدائه الضبط اللغوي، واستعمال المفردات اللغوية الدقيقة في دلالتها على المعاني المرادة.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى بعد فجر يوم الثلاثاء ٢٦ شوال ١٤٢٨هـ، الموافق ٢٠٠٧/١١/٦م، وصلي عليه بعد صلاة الظهر في جامع الشيخ حسن، ودفن في مقبرة الجورة في حي الميدان[١].



(١) المرجع: كتاب الشيخ: حسن حبنكة الميداني، قصة عالم مجاهد، بقلم ولده: عبدالرحمن حبنكة الميداني.



الشيخ أحمد قلاش
عالم عامل فقيه نحوي[1]
(١٣٢٨ - ١٤٢٩هـ) (١٩١٠ - ٢٠٠٩م)



إعداد تلميذه: مجد مكي

هو العالم العامل، الفقيه، النَّحوي، الداعية المُربِّي المُعَمَّر الشيخ أحمد بن عبدالقادر قلاش الشافعي الحلبي.

ولادته ونشأته:

ولد ونشأ في كنف أسرة محافظة تُحبُّ العلم وتحترم العلماء، فوالد صاحب الترجمة رجل متواضع كان يعمل نسَّاجاً على النول العربي، ووالدته سيدة فاضلة من آل قنبر المشهورة نسبتهم إلى السيد عبدالقادر الجيلاني.

وتعلم القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره على يد الشيخ مصطفى عاشور، في مكتب جامع (علم الشرق) في حي (المشاطية)، ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية، ودرس بعض صفوفها، وفي هذه المرحلة تنبه والده إلى

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٨/٧/١٢م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

فطنة ولده وذكائه، فقرر إرساله إلى المدارس الشرعية ليطلب العلم الشرعي.

تلقِّيه العلوم الشرعية:

وبدأ يتلقى العلوم الشرعية والعربية في المدرسة العثمانية، على يد شيخه الشيخ محمد الناشد (ت١٣٦٥). وحفظ ألفية ابن مالك وعمره ١٣ سنة بالإضافة إلى بعض المنظومات الأخرى.

ثم انتقل إلى المدرسة الشعبانية، وتابع فيها تلقِّي العلم على يد شيوخه الشيخ طاهر الكيالي، والشيخ أحمد التيجي، والشيخ إبراهيم الدرعزاني، وحفظ في هذه المرحلة الكثير من المتون، والقصائد الطويلة، ثم عاد إلى المدرسة العثمانية، ليلتقي فيها شيخه الشيخ محمد الحنيفي (ت١٣٤٢)، ويأخذ عنه علم التوحيد، وقد قرأ عليه متن الباجوري، ثم أعاد قراءة النحو مرة ثانية على شيخه الشيخ محمد الناشد، قرأ عليه في النحو: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، وفي البلاغة: «التلخيص للقزويني». والفقه الشافعي على شيخه الشيخ محمد سعيد الإدلبي (ت١٣٧٠). وقرأ عليه متن التحرير في الفقه الشافعي.

ثم تحوَّل إلى المدرسة الإسماعيلية، وبدأ فيها حفظ القرآن الكريم، فحفظ ثمانية أجزاء، ثم انتسب إلى المدرسة الخسروية (الثانوية الشرعية) فأخذ الحديث النبويّ الشريف والسيرة العطرة وتاريخ الإسلام على يد شيخه محدث حلب ومؤرخها الشيخ محمد راغب الطباخ (ت١٣٧٠). ودرس عليه في الحديث: مختصر الزبيدي للبخاري، مع شرح الشرقاوي عليه، ومقدمة ابن الصلاح، وفي التاريخ: نور اليقين، وإتمام الوفاء. ودرس الفقه الشافعي على شيخه الشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ عمر المارتيني، حيث قرأ عليه كتاب: (الإقناع في شرح متن أبي شجاع). للشربيني، كما درس على العالم الأصولي المدقق الشيخ محمد أسعد العبجي (ت١٣٩٣)، وقرأ عليه: «غاية الوصول شرح لب الأصول».

وأخذ علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، على شيخه الشيخ أحمد الكردي مفتي حلب (ت١٣٧٣).

وأخذ علم الفرائض على شيخه الشيخ عبدالله المعطي (ت١٣٥٣)، وعلم المنطق والتوحيد على شيخه الشيخ فيض الله الكردي.

هذا بالإضافة إلى ما حصل المترجم له من العلوم الكونية كالحساب والجغرافية والعلوم الطبيعية وغيرها.

حصوله على الدرجة الأولى في المدرسة الخسروية:

وفي عام ١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م تخرج الشيخ في المدرسة الخسروية حائزاً على الدرجة الأولى بمرتبة نابغ ممتاز تخرج مع الشيخ في القافلة الرابعة من خريجي الثانوية الشرعية، كلٌ من المشايخ الآتية أسماؤهم حسب ترتيب نجاحهم: أحمد قلاش، برهان الدين الداغستاني، محمد الناصر، سعيد المسعود، محمد سلقيني، مصطفى مزراب، محمد خليلو التادفي، مصطفى المارعي، همام النعساني، عبدالرحمٰن حوت، عبدالله الأسود، محمد نور البلاط، عبدالله سلطان، عمر محو، حسن الحموي.

وقد التقى في هذه المرحلة الشيخ محمد أبا النصر خلف الحمصي (ت١٣٦٨)، وصحبه وأخذ عنه الطريقة النقشبندية، ورافقه في بعض جولاته على المدن والقرى.

في ميادين العمل والدعوة والتربية:

ثم انطلق إلى ميادين العمل والتربية، والدعوة إلى الله، ونشر العلم، فعمل إماماً وخطيباً في عدد من مساجد حلب، وأنشأ بالاشتراك مع أخيه الشيخ بكري رجب (ت١٣٩٩)، مكتباً لتعليم الطلاب القرآن الكريم، ما لبث هذا المكتب أن غدا مدرسة علمية مباركة، أطلق عليها الشيخ اسم: المدرسة الرضائية، وقد شاركهم في التعليم فيها الشيخ محمد أديب حسون (ت١٤٢٩).

وقام بالتدريس في المدرسة الشعبانية في سنة (١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥٩)، في الفترة التي كانت المدرسة تابعة للأوقاف، ودرس في تلك الفترة الفقه وأحكام البيع على المذهب الشافعي.

وعندما جدد افتتاح المدرسة الشعبانية بإشراف العلامة الشيخ عبدالله سراج الدين، انتدب الشيخ أحمد ليدرس فيها علوم اللغة العربية، نحوها وصرفها وبلاغتها. واستمرَّ في التدريس فيها أكثر من ثلاثين عاماً.

كما كانت له جولات على القرى المحيطة بحلب كل يوم اثنين بصحبة بعض إخوانه من العلماء يجمعون أهل القرية في المسجد، فيعظونهم، ويعلمونهم أمر دينهم ودنياهم، وكان يشاركه في هذه الجولات صديقه الشيخ بكري رجب، والشيخ مصطفى مزراب، والشيخ محمد الغشيم (ت١٣٩٨)، والشيخ عادل حمصي، والشيخ عبدالمجيد قطان، وغيرهم.

وربما قصد بعض المقاهي في مدينة حلب ووقف بمكان الحكواتي ليعظ الناس ويعلمهم، وقد تعرض لكثير من المضايقات حتى منع.

وكانت له دروس في اللغة العربية والفقه الشافعي والتفسير في المدرسة الخسروية، وكان ينتقل بين هذه المدارس، يلقي دروسه هنا وهناك، دون كلل أو ملل، إذ كان يجد متعته في نشر العلم، وإفادة الطلاب، وقد تخرج على يديه عدد كبير من طلاب العلم خلال أكثر من سبعين سنة أمضاها في نشر العلم، والدعوة إلى الله.

هجرته إلى المدينة المنورة:

وفي عام ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨١م، آثر الشيخ مجاورة النبيّ عليه الصلاة والسلام، فهاجر إلى المدينة المنورة، وعمل أستاذاً في الجامعة الإسلامية فيها، أكثر من سنتين، واختير خلالها عضواً في مجلس البحث العلمي في الجامعة المذكورة، وعندما أحيل إلى التقاعد نظراً لكبر سنّه، آثر البقاء في المدينة المنورة للمجاورة والعبادة.

وكان إذا حضر إلى مدينة حلب، أسرع إليه طلابه، فله معهم في كلّ يوم مجالس علم، يقرأ لهم فيها الحديث النبويّ الشريف، والنحو في جامع (قسطل الحرمي)، وجامع (قنبر) وجامع (سكر) في حي الكلاسة.

حبه للمطالعة:

كان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ محباً للمطالعة، شغوفاً بقراءة الكتب،

بمضي الساعات الطويلة في القراءة الواعية، واضعاً ملاحظاته وحواشيه وآراءه وتعليقاته على حواشي الكتب التي يقرؤها. وقد وقف مكتبته النادرة على ثانوية إعزاز الشرعية، ويقوم بعض الأساتذة بتصوير تعليقاته على حواشي الكتب التي قرأها.

وتميَّز ـ رحمه الله تعالى ـ بتدقيقه النادر في فهم العبارات والوقوف عندها وربطها ببعضها فلا تمر عبارة إلا يقف عندها، ويكشف غطاءها، ويفتح مقفلها ويوضِّح معناها. وقلما يمرُّ عليه كتاب من القدامى أو غيرهم ـ مع كثرة مطالعته ـ إلا وله عليه انتقادات لطيفة، وملاحظات مفيدة. وقد استفاد هذا المنهج النقدي الدقيق من أستاذه العلامة الشيخ محمد سعيد الإدلبي.

أسلوبه في التعليم:

وهو صاحب أسلوب مميَّز في التعليم، يقف بطلابه عند كل عبارة يدقق في ألفاظها ومعانيها، وما ترمي إليه، يوضح ذلك بذوقه العلمي الرفيع وأسلوبه النقدي المتَّزن البعيد عن التعالي، أو النيل من غيره، إذ الهدف عنده هو الوصول إلى الحقيقة العلمية، فحيثما وجدها التقطها، وهو لا يجد حرجاً إن راجعه أحد في مسألة علمية، وبان له صواب رأيه، أخذ به مباشرة ووضح ذلك لطلابه، مع تقديم الشكر لمن راجعه والثناء عليه.

كما امتاز بمقدرة فائقة على تقريب المعاني وتيسير العلم، بحيث يدخله إلى عقل الطالب من غير مانع أو حاجب، مع استعماله لوسائل التعليم وحسن التمثيل وجمال العرض.

وكان كثير التشجيع لطلابه ـ ولا سيما الصغار منهم ـ يرفع هممهم ويحضهم على الاستزادة من العلم ويثني على الطالب الذكي منهم، ويبذل المكافآت المادية لهم.

كتبه ورسائله:

ولقد رأى الشيخ من تأليف الرسائل التوجيهية، والقصص التربوية

والكتب العلمية، طريقاً آخر لنشر العلم، والدعوة إلى الله، فكان له جملة من الرسائل والكتب، نذكر منها:

أ ـ الكتب العلمية:

١ ـ تيسير البلاغة. أبرز فيه البلاغة في ثوب جديد يناسب هذا العصر. ٢ ـ أحكام البيع على المذهب الشافعي، مع الأدلة والعبارات الواضحة. ٣ ـ من كنوز الإسلام. ٤ ـ من ذخائر الإسلام. ٥ ـ من بدائع الحكم. ٦ ـ في ظلال الجنة. ٧ ـ تفسير جزء عمَّ.

ب ـ الرسائل التوجيهية:

١ ـ كيف تكون مسلماً؟ ٢ ـ الصلاة الخاشعة. ٣ ـ صوموا تصحوا. ٤ ـ كيف تحج؟ ٥ ـ أنفع الدروس في تهذيب النفوس. ٦ ـ سُلَّم الأطفال لبلوغ الكمال. ٧ ـ أزهار في تربية الصغار. ٨ ـ عجائب من الأخلاق الإسلامية. ٩ ـ محمد رسول الجهاد. ١٠ ـ حيَّ على الجهاد. ١١ ـ طريق النصر.

ج ـ القصص التربوية للأطفال والكبار:

١ ـ القصص النبويّ الصحيح. ٢ ـ معجزة الإسراء والمعراج. ٣ ـ أنبياء العرب. ٤ ـ عيسى ابن مريم. ٥ ـ يوسف الصدِّيق. ٦ ـ نوح عليه السلام. ٧ ـ جنة آدم.

كما قام بتصحيح بعض الكتب والإشراف على طباعتها، ومنها: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»، للعجلوني، وكتاب: «إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء» لمحمد الخضري. كما ضبط «متن البناء» و«متن المقصود» في علم الصرف.

وكان بعض الأدباء والشعراء يعرضون نتاجهم عليه قبل طبعه وإخراجه، ليقوم بتصحيحه، وإبداء ملاحظاته عليه.

أخلاقه وصفاته:

كان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ عظيمَ النفس، عالي الهمَّة، ذكياً لمّاحاً، رفيع الأخلاق، يتواضع لمن يعلِّمه، أو يتعلم منه، محباً لطلابه، رؤوفاً بهم.

وقد أُوتي مع ذلك روحاً مرحة، وظلاً خفيفاً، ودعابة مُحبَّبة، ونكتة حاضرة، ويظهر أثر ذلك كله في دروسه، فلا ترى فيها أثراً للسآمة أو الملل مهما طالت.

صفاته الخِلْقية:



أسمر اللون، منوَّر الوجه والشيبة، ضعيف الجسم، اضطربت خطاه لما كَبِر في السن، وقد أدركه طلابه شاباً قوي الجسم يسير وكأنه ينحط من جبل، وينتقل بين المدارس والصفوف بهمَّة ونشاط، مرتدياً جبته الطويلة، مزيناً رأسه بعمامة بيضاء فوق (طربوش أحمر).

مرضه ووفاته:

وما زال الشيخ مقيماً في المدينة المنورة، مجاوراً الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، مُستمراً على عطائه العلمي، حتى كُسر حوضه، ولزم الفراش، وكان يتردَّد عليه طلاب العلم، وهو حاضر البديهة، ولا يخلو مجلسه ـ حتى في أيام مرضه ـ من الفوائد العلمية، والنكات اللغوية، ويتعرف على زائريه، ويطلب القراءة عليه في كتاب من كتب العلم، حتى اشتدَّ به المرض قبيل وفاته بشهر. وتوفي عصر يوم السبت ١٠ رجب ١٤٢٩، وصُلِّيَ عليه في المسجد النبويّ بعد صلاة فجر يوم الأحد ١١ رجب ١٤٢٩، ووُوري في البقيع بجوار الرسول ﷺ، وصحابته الأكرمين والعلماء العاملين والشهداء والصَّالحين، وانطوت بموته صفحة من صفحات العلم الناصع، وتاريخه العبق الشذي، نسأل الله سبحانه أن يتغمَّد فقيد العلم بواسع رحمته وسوابغ إحسانه، وأن يخلف على المسلمين خيراً، وأن يعوِّضهم عن فَقْد علمائهم وصُلحائهم إنه أكرم مسؤول وخير مأمول[١].

---

(١) المصادر: علماء من حلب في القرن الرابع عشر للأستاذ: محمد عدنان كاتبي. ومقدمة تيسير البلاغة للأستاذ صفوان داودي.

العالم البحّاثة الداعية المفكّر هاني الطايع[1]

(١٣٥٥ ـ ١٤٣٠هـ) (١٩٣٦ ـ ٢٠٠٩م)



بقلم: مَجْد مكي

انتقل إلى رحمة الله تعالى في صباح يوم الثلاثاء ١٤٣٠/١/١٧ الأخ الكريم الداعية المُربّي الأستاذ هاني الطايع (أبو ربيع)، وهو من خيرة من عرفت من الدعاة الأوفياء والمفكرين الأدباء.

لمحات من حياته:

والأستاذ أبو ربيع من مواليد اللاذقية ١٩ تموز ١٩٣٦م، درس اللغة العربية في جامعة دمشق، وتتلمذ على كبار العلماء فيها وتعرف على الدكتور مصطفى السباعي، وأصبح من أقرب تلاميذه إليه، وكان له دور في إدارة مجلة «حضارة الإسلام». انتقل في أواخر الستينات الميلادية إلى دولة قطر فكان أحد رجالاتها المساهمين في نهضتها التعليمية من خلال اشتراكه في وضع المناهج الدراسية.

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٨م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

صلتي به:

وتعود صلتي به منذ أكثر من عشر سنوات في أول لقاء لي به في منزل الدكتور عبداللطيف الهاشمي، وكان حديثه عن ذكرياته بأستاذه السباعي ـ رحمه الله تعالى ـ.

وأُعجبت بوفرة المعلومات، ودقة التحليل، وروعة الأسلوب... وأسَرني بحُسن إلقائه وجميل مودته وكريم صلته.

لقاءات في جُدة وشدة حبه للكتب:

وتتابعت لقاءاتي به في زياراته المستمرّة لجدة، وتوثَّقت صلتي به، وكان دائم السؤال لكل جديد في عالم الكتب، ولا أعرف مثيلاً له في حُبِّه للكتاب، وحرصه على اقتنائه ومطالعته، ومتابعته المستمرة للثقافة بكل أفنانها ومختلف ألوانها.

إقامته في قطر وصلاته العلمية والدعوية:

أقام في قطر منذ أكثر من خمسة وأربعين سنة، وتربطه صلات وثيقة مع كبار الدعاة في العالم الإسلامي، فهو من خواصّ أصحاب الأستاذ السباعي، وقد أمد الدكتور عدنان زرزور، بأضابير مهمّة عند قيامه بكتابته الواسعة عن الشيخ السباعي، وذكره في مقدمة كتابه عن الأستاذ السباعي، وأثنى على جهده وما بذله له من معلومات ووثائق.

وللأستاذ ـ رحمه الله تعالى ـ صلات وثيقة مع الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والشاعر عمر بهاء الأميري رحمهما الله تعالى، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، والأستاذ المربي الداعية الفاضل عادل كنعان، والشيخ العالم الداعية مصطفى الصيرفي، وعشرات من كبار العلماء الأثبات والدعاة الثقات، وذكريات عطرة عنهم، تأسر المستمع إليه فلا يكاد يملُّ من حديثه وفوائده.

زيارتي له في بيته بقطر:

وزرته منذ أكثر من عام في بيته العامر في (الدوحة) عند حضوري لمؤتمر شيخنا القرضاوي في ٦/٢٩ ـ ١٤٢٨/٧/٢هـ، الموافق ١٤ ـ ٢٠٠٧/٧/١٦م، ودُهشت من مكتبته الواسعة التي تكتظُّ بها جدران بيته الواسع... ولديه ملفات ضخمة تتضمّن الكثير من مشاريعه العلميّة والتربوية والدعوية واللغوية.

آخر لقاء:

وكان آخر لقاء لي به في شعبان من السنة الفائتة ١٤٢٩، إذ حضر لشهود عقد ابنة ابنته وصهره الأخ الكريم الأستاذ مصطفى صباغ، وألقى كلمة رائعة جميلة، وتكرّرت زياراتنا له مع إخواننا الذين يتّصل بهم، حيث كان يجد أُنسه وسعادته مع أصفيائه وأصدقائه في جدة من أمثال: الأخ الدكتور عبداللطيف هاشمي، والأخ الشاعر سليم عبدالقادر، والأخ الأديب عبدالله زنجير، والأخ الإعلامي الأستاذ سداد عقاد... واجتمعنا في أمسية شعرية رائعة في بيت الأخ المفضال الكريم الأستاذ وليد الزعيم، وحضرها مجموعة من الشعراء منهم: الأستاذ أحمد البراء الأميري، والدكتور محمد نجيب مراد، والدكتور محمد وليد، والأستاذ سليم عبدالقادر، شارك فيها بتعليقاته الرائعة ونقداته الأدبية العميقة.

كنوز علمية وأدبية:

ألحّ الإخوة عليه بتسجيل ذكرياته، وتدوين تاريخ الدعوة، وإخراج ما لديه من كنوز علمية، وكان يعد... ولكن لم يخرج شيئاً من تلك الآثار المكنوزة في صدره ومكتبته... ولعل الله يُقيِّض من أبنائه؛ الأخوين الكريمين: ربيع ومرهف، أو من إخوانه: صبحي[١] وعثمان، أو من أصهاره من يحقق هذا الأمل المُرتجى، ويستفيد من مكتبته الضخمة، وأرشيفه

---

(١) توفي رحمه الله تعالى في ١٩ رمضان سنة ١٤٣٠، إثر جلطة دماغيّة مفاجئة، ودفن في جدة.

الواسع، نسأل الله سبحانه أن يتغمّد الفقيد الكريم بواسع رحمته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كلمة الدكتور القَرَضاوي في رثائه:

وقد صلى عليه فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي، وعقب مواراة جثمانه الطاهر ألقى كلمة عدّد فيها مناقبه قال فيها:

«علمتُ اليوم بالخبر، وكنت أتمنى أن أعوده، فقد كان بالمستشفى، لكنني لم أكن أعلم، وقد جئت مؤخَّراً من سفر... إنَّ من حقِّ المسلم على المسلم أن يعودَه إذا مرض، فما بالك إذا كان هذا صديقاً عزيزاً وأخاً حبيباً؟ عرفناه سنين طويلة مؤدياً لواجبه نحو أسرته، ونحو عمله، ونحو إخوانه، ونحو دينه ورسالته، لم يفرط في شيء... وتابع قائلاً:

كان أبو ربيع أحد الرجال الذين يتميَّزون بالعقل والفكر والقراءة والثقافة، فقد كان يقرأ كثيراً ويطالع كثيراً، وكنت أقول له: أود أن تكتب، وأحسبه كتب ولم ينشر، وأنصح أبناءه بأن يكلفوا بعض الشباب للبحث في مكتبته ونشره...

وذكر أنه كثيراً ما كان يستعير كتباً من مكتبة أبو ربيع، مشيراً إلى أنه:

كان رجلاً مثقفاً، بل من خيار المثقفين، فالثقافة وحدها لا تغني، فكم من مثقفين باعوا ضمائرهم وأقلامهم، أما أبو ربيع فقد كان مثقفاً ملتزماً وصاحب رسالة في هذه الدنيا يعيش بها ويموت بها، ويضحّي من أجلها، وهي رسالة الإسلام... وكان طاهر السريرة حَسَن السيرة، وقد أحبه كل مَنْ عرفه، فإذا ازداد معرفة به ازداد حباً له، وهذا دليل من دلائل حب الله... «ألسنة الخلق أقلام الحق».

واختتم القرضاوي كلمته بقوله: «لقد اختطف الموت منا رجلاً، والرجال قليل في هذا الوقت، الذي تُعاني فيه الأمة ما تعاني من حرب وحشية على غزة المرابطة المجاهدة، ودعا للمجاهدين دعاءً مؤثراً».

رثاء الأخ الشاعر الأستاذ سليم زنجير:

وكتب الأخ الشاعر الأستاذ سليم عبدالقادر كلمة رقيقة في رثائه قال فيها:

«رفَت الروح عائدةً إلى بارئها... لقد انتهت الرحلة... ورحل الأستاذ الأديب المفكر المربِّي الداعية هاني محمد طايع من دار الفناء إلى عالم الخلود...

رحل الأستاذ هاني (أبو ربيع) غريب الديار، وكان دائم الحنين إلى مراتع الصبا في اللاذقية، ولكنه حنين الكريم الأبيّ المؤمن، الذي يأبى أن يحني رأسه لغير ربه... رحل موفور الكرامة راضياً بقضاء ربه، فخسره أهل الأرض وربحه أهل السماء... وكأن أبا تمام كان يعنيه بقوله:

مضى طاهر الأنفاس، لم تَبْقَ روضة   غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

رحمك الله يا أبا ربيع، وأعلى مقامك في الخالدين» اهـ.

كتبه مجد مكي
قبيل ظهر الثلاثاء
١٤٣٠/٨/١٧هـ





وداعا... أبا ربيع[١]

بقلم: د.عدنان زرزور

ألحّ عليّ وأنا أقرأ اليوم خبر نعيك بعين دامعة: ما قاله شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

قد كنتُ أؤثر أن تقولَ رثائي ....

وما كان يقوله أول ملوك الإسلام معاوية رضي الله عنه إذا نُعي إليه أحد أقرانه: (أنا والله من زرع قد اسْتحصد)، أي: حان وقت حصاده!

من صفات أبي ربيع:

يا أبا ربيع، عرفتك في ربيع العمر ونحن لم نتجاوز الخامسة والعشرين، وصحبتك حتى بلغنا خريف العمر، فما عرفتك والله إلا أخاً صادقاً ودوداً، صاحب حماسة متّقدة في الدعوة إلى الله، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، وصاحب عاطفة جيّاشة تفيض بالأنس كما تفيض بالدمع، وصاحب قلم أديب بليغ، تهزُّه البلاغة والبيان، ويخشع لإعجاز القرآن...

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢١م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

أثره في مناهج اللغة والأدب:

ولسوف يذكر لك الإخوة في قطر وفي أصقاع العروبة والإسلام، ما تركته من أثر لا يمحى في مناهج اللغة والأدب وغيرها في مراحل التعليم الأساسي، ولقد قلت ذات يوم وأنا أطالع كتب النحو والأدب التي وضعت مناهجها وشاركت في تأليفها: لو كان الأمر بيدي لعمّمت هذه الكتب والمناهج في سائر بلدان الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولو تمّ هذا، مع سائر المناهج القطرية في ذلك الحين، وبخاصّة كتب ومناهج التاريخ، إذن لكان الجيل الذي خرج على الحياة العامة أحسن حالاً من هذا الذي نراه اليوم بكثير...

إدارته تحرير جريدة (اللواء) الدمشقية:

ذكريات ربيع العمر التي مضى عليها خمسة وأربعون عاماً أو تزيد، لا تمحى أبد الدهر، يوم عرفتك في جريدة (اللواء) الدمشقية، مديراً للتحرير، وكنت أتردّد على الجريدة، بحكم إشرافي على صفحة الجامعة، ولبعض المراجعات، وكنا نبقى حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي كثير من الأحيان كنا نغادر الجريدة مع أذان الفجر، وقد طلبت مني وزيّنت لي في إحدى الأمسيات أن أقوم بكتابة افتتاحية الجريدة، نظراً لسفر رئيس التحرير، ففعلت، وقد حملت هذه الافتتاحية ـ الأولى ـ عنوان (الإسلام أولاً). وكانت الرؤية الفكرية أو العقائدية تبرز في كل المقالات السياسيّة في ذلك الحين بحكم توجُهات تلك المرحلة من تاريخ العرب والمسلمين الحديث. أو على الأقل: لم تكن هذه الرؤية بعيدة عن المقالات والتحليلات السياسيّة؛ وأدركت في تلك الأمسية مدى عنايتك بالكتب ومواكبتك المبكرة لحركة التأليف حين قلت لي بعد أن قرأت تلك الافتتاحية المطوّلة: كأنك ترد على ساطع الحصري في كتابه (العروبة أولاً) فقلت لك: إنه لا علم لي بهذا الكتاب، وكنت لم أقرأ للحصري غير كتابيه: (ما هي القومية)، و(محاضرات في نشوء الفكرة القومية).

ثم توالت الكتابات أو (الافتتاحيات)، وكنت أدع لك في الغالب أن

تضع أو تقترح عناوينها، وأذكر من تلك العناوين الآن، هذا العنوان: (دور الأنظمة المتهالكة في الغزو العقائدي)، وقد أثنى على هذه المقالة، وسائر المقالات أو الافتتاحيات الأخرى، أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا ـ وكانت تكتب باسم الجريدة، ولا يذكر فيها اسم الكاتب ـ مشيراً إلى أن مقالات الجريدة أضحت تحمل طابعاً مميَّزاً منذ بعض الوقت، وشعرت بأن شيخنا الزرقا عليه رحمة الله كأنه أصيب بشيء من الإحباط حين قال له أحد الحضور ـ وكان ذلك في منزل أستاذنا السباعي رحمه الله ـ إن كاتب هذه الافتتاحيات فلان، وكنت حاضراً؛ فلم أجد سبيلاً للخروج من بعض هذا المأزق ـ إن صحَّ التعبير ـ إلا أن أقول، وقد خصَّ الأستاذ الزرقا الافتتاحية التي تحمل العنوان المشار إليه بالمدح والثناء! ولكن هذا العنوان من اقتراح أخي وزميلي الأستاذ هاني طايع، مدير تحرير الجريدة.

أثره في التربية والتعليم في قطر:

ثم انقطعتُ للدراسة في سائر عقد الستينيات في مصر، وعدت في عام ١٩٦٩ لأجد أخي هاني وقد ذهب للتعليم في دولة قطر، ثم اتصل ما بيننا حين عملت في جامعة قطر نحواً من خمسة عشر عاماً حتى عام ٢٠٠٠م ولن ينسى أحدٌ أثره في التربية والتعليم في المجتمع القطري، ومجالسه التي كانت تفيض بالبشر، وبالمتابعات الثقافية والدعوية الواسعة والمتشعبة، وقلما لقيته مرة في أحد بيتينا أو أحد بيوت الإخوة الآخرين، إلا وقد حمل إلينا كتاباً، أو صور له مقالة أو صفحات فيها الجديد، أو الذي يقدر أهمية الاطلاع عليه، لقد كانت شخصيته الأنيسة المُحبَّبة تحب الخير وإشاعة المعرفة عند الآخرين.

حياته لدينه ودعوته:

ولا ريب في أن أبا ربيع عاش لدعوته ودينه ومجتمعه فوق ما عاش لنفسه أو لأسرته، وكانت تخنقه العبرات أمام أنباء الكوارث التي تنزل بالمسلمين في كل مكان، أو أمام موقف لله تعالى يقفه واحد من الدعاة

والمصلحين في بقاع الأرض، يدافع فيه عن دين أو نفس أو عرض، وقد كتب الله تعالى له أن يقدم عليه في هذه الأيام، أيام مواكب الشهداء في غزة وفلسطين، رحمهم الله، ورحم أبا ربيع، وجعلهم جميعاً في عليين.

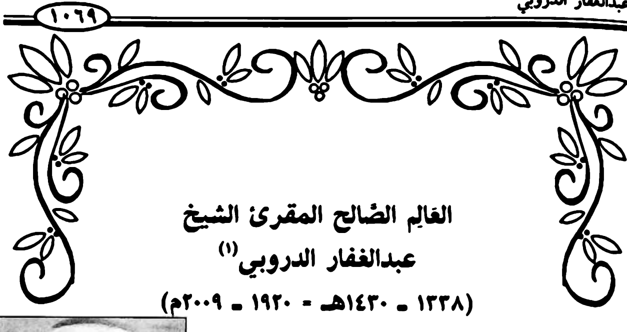
إمدادي بالمصادر عن الأستاذ مصطفى السباعي:

لن أنسى في قطر يوم حمل إليّ في بيتي الكتب والرسائل والمُصوَّرات التي كان قد جمعها عن شيخنا وإمام الدعوة الإسلامية في بلاد الشام: مصطفى السباعي... عندما علم بعزمي على الكتابة عن الشيخ رحمه الله... فقلت له: إن من يجمع هذا أحق بالكتابة عن الأستاذ السباعي، فقال: لا... اكتب أنت، وإذا جدَّت الحاجة لديك إلى مصادر أخرى فربما كانت عندي... وقد حصل ذلك بالنسبة لبعض أعداد مجلة (الفتح) التي كان يصدرها في مصر السيد محب الدين الخطيب، فاتَّصلت به عن طريق الهاتف ليعطيني بعض المعلومات عن أعداد بعينها أو بأرقامها، ولما لاحظ أن هذا تكرَّر مرتين؛ ما كان منه إلا أن حمل أعداد المجلة كلها ـ نحواً من عشرين مجلداً ـ وجاء بها بسيارته إلى بيتي... فأتاح لي فرصة مراجعة جميع الأعداد، جزاه الله عني وعن شيخنا الأستاذ السباعي، وعن العلم والدين، أفضل ما يجزي عباده الصالحين.

مكتبته الضخمة:

لقد كانت عناوين مكتبته تزيد على عشرين ألف عنوان فيما أقدِّر، مع ملاحظة أن العنوان الواحد قد تربو أعداد مجلداته على العشرين أو الثلاثين... وأعتقد أن وفاء قطر له ـ رحمه الله ـ وهي البلد التي فُطرت على الوفاء أن تقوم بعض الجهات الحكومية بشراء هذه المكتبة النفيسة، وتجعلها مكتبة عامة يرتادها الطلبة والعلماء والباحثون، على أن تحمل اسم الفقيد الراحل...

رحم الله الأخ العزيز الغالي... الداعية المُربِّي، والأديب الناقد، والعالم الباحث هاني طايع، وكتب له ثواب المجاهدين الصابرين، وعوَّض أهله والمسلمين خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



العَالِم الصَّالح المقرئ الشيخ عبدالغفار الدروبي[1]

(١٣٣٨ ـ ١٤٣٠هـ = ١٩٢٠ ـ ٢٠٠٩م)

بقلم: مجد مكي

انتقل قبيل ظهر أمس الجمعة ٢٠ محرم ١٤٣٠هـ العالم الصالح القارئ المتقن الفقيه الواعظ المُربِّي الفاضل الشيخ عبدالغفار الدروبي عن عمر ناهز التسعين عاماً، أمضاها في خدمة العلم والدين وتعليم القرآن الكريم. وقد صلى فضيلة الشيخ صلاة الفجر إماماً في مسجده بجدَّة الذي يؤمُّ فيه، وقنت في الصلاة، وأطال الدعاء لأهل غزّة المحاصرين. وبعد أن أفطر الشيخ واغتسل ليستعدَّ لصلاة الجمعة وافاه أجله المحتوم في تمام الساعة العاشرة، وهو على أحسن حال وإقبال على الطاعة.

ومن علامات حُسْن الختام: وفاته في يوم الجمعة، بعد صلاة الفجر جماعة، للحديث الذي رواه مسلم: «من صلى الصُّبح في جماعة فهو في

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٨م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

ذمّة الله»[١]، و«مَنْ مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وُقِيَ فتنة القبر»[٢].

تشييع جنازته:

وقد غُسِّل الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ في مغسلة جامع اللامي بجُدة، واجتمع ثلة من أحبابه وتلاميذه، وألقوا على مُحيَّاه الطاهر نظرة الوداع، ونُقل إلى مكة المكرمة، ووصل جثمانه الطاهر إلى المسجد الحرام بعد صلاة العصر، وكنت من جملة مشيعيه، من جدة إلى مكة، بصحبة الأخ الوفيّ الحفيّ الأستاذ عبدالرحمٰن حجار وفقه الله.

وقد اجتمع حول نعشه محبوه، وصُلي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة المغرب، وحُمل على الأكتاف إلى مقبرة المعلاة. وكان من العلماء الحاضرين والمحبين المشيعين: الشيخ ممدوح جنيد، والشيخ محمد علي الصابوني، والشيخ أبو النور قره علي، والدكتور منير الغضبان، والدكتور عبدالمهيمن طحان، والشيخ محمد ياسر المسدي، والشيخ عبدالنافع الرفاعي، والدكتور محمد بشير حداد، والقارئ الشيخ هيثم حبال، والقارئ الشيخ يحيى بلال، والقارئ الشيخ موسى بلال، والدكتور طاهر نور ولي، والدكتور الفقيه علي أحمد الندوي، ومن أحبابه وخواصّ تلاميذه: الأستاذ حسام السباعي، والدكتور عباس زغنون، والدكتور حسان شمسي باشا، والمهندس الأستاذ منيب رجوب، والدكتور نسيب رجوب، وأبناء فضيلة الشيخ عبدالعزيز عيون السود، وأبناء فضيلة الشيخ وصفي المسدي، وعدد كبير من فضلاء مكة وجدة نعتذر عن عدم استيفائنا لأسمائهم الكريمة، فما كان حضورهم ليذكروا وإنما كان لينالوا الأجر بتشييع شيخهم، ويُعلنوا عن حبهم وولائهم لعالم تقيّ ورع أفنى عمره في طاعة الله، وتعليم القرآن ونشر العلم وخدمة تلاميذه ومحبيه.

وقد صُلّي على الشيخ ـ رحمه الله ـ في مدينة حمص ظهر اليوم السبت صلاة الغائب في مسجده، وأمّ المصلّين نَجْلُه فضيلة الشيخ المقرئ فيصل الدروبي، وأقيم عزاء الشيخ في مكتبة جامع النوري الكبير بحمص.

---

(١) رواه مسلم (٦٥٧) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٦٦٤٦) وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف.

لمحات من حياته:

والشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ من مواليد حمص ١٣٣٨هـ = ١٩٢٠م ودرس فيها، وحفظ القرآن الكريم في الكتّاب على يد الشيخ مصطفى الحصني، وتعلم الكتابة والحساب على الشيخ أحمد الترك، ثم التحق بالمدرسة العلمية الوقفية فدرس فيها على العلامة زاهد الأتاسي الفقه الحنفي والعلوم الاجتماعية، والشيخ محمد الياسين بسمار، والشيخ أنيس الكلاليب، وأخذ عن الشيخ أحمد صافي، والشيخ سليم صافي، وأخذ أيضاً عن والده الشيخ عبدالفتاح الدروبي، درس عليه القراءات العشر، وعن الشيخ عبدالعزيز عيون السود، قرأ عليه القراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرة، ودرس على العلامة عبدالقادر الخوجة الفقه والحديث والتفسير، وأخذ الفقه الشافعي عن العلامة طاهر الرئيس الحمصي.

عُيِّن إماماً في المساجد بقرى حمص، ومدرساً للعلوم الدينية في المعهد العربي الإسلامي بحمص، ثم في المعهد العلمي الشرعي، وكان إماماً لمسجد (جورة الشياح)، وقد تميَّز مسجد الشيخ (جامع الدعوة) في مدينة حمص بمنطقة جورة الشياح الذي كان خطيبه وإمامه، بأنه كان منبراً لدعوته وعلمه وتخريج طلابه، وما من أحد من أهل حمص الذين عاصروا الشيخ إلا ويذكر كم كان لهذا المسجد من دور كبير في النهضة الإسلامية وقتما كان برعاية شيخنا رحمه الله، وبفضل الله تمَّ تجديد بنائه وتوسعته لتتضاعف مساحته حوالي ٣ مرات بعدما أصبح لا يتَّسع للمصلين في الصلوات العادية فضلاً عن صلاة الجمعة، ويعرف الآن بـ(جامع الشيخ عبدالفتاح الدروبي).

إقامته بمكة المكرمة وتدريسه بجامعة أم القرى:

انتقل إلى مكة المكرمة عام ١٤٠١هـ من الهجرة، وطفق يدرس القرآن والقراءات العشر بجامعة أم القرى حتى عام ١٤١٨. ومن الذين أخذوا عليه القراءات: محمد بن عبدالله الشنقيطي، ويحيى عبدالرزاق غوثاني، وهيثم الحبال، وراضي إسماعيل، وعبدالدائم المغربي، وعبدالرحيم المغربي،

وحفيده عبدالغفار الدروبي، وعلي السنوسي، وأحمد باتياه، وسعيد عبدالدائم، ويحيى بلال الهندي، وغانم المعصراني الحمصي.

أخلاقه وسماته:

كان الشيخ نموذجاً يقتدى به في الورع والزهد والصمت والرضا عن الله عزّ وجلّ والتوكّل عليه والصبر على البلاء والمحن. وكان مجلسه مجلس وقار وخشوع يعلّم الأدب والتواضع وعفّة القول وسلامة الصدر.

قال تلميذه الحفيّ الوفيّ بشيوخه الأخ الأستاذ حسام السباعي:

«رحمك الله يا شيخنا، يا قدوتنا، يا أستاذنا، يا معلّمنا، رحمك الله رحمة واسعة، فقد نزلت بضيافة الله وتلقّتك ملائكة الله، فقد قلت لي ليلة وفاتك ونحن عائدون إلى منزلك بابتسامتك المشرقة: «إنني أنتظر لقاء الله». وليس غريباً على أمثالك من أهل الصفاء والمعرفة أن يقول مثل هذه الكلمة عندما يستشعر بقرب اللقاء. فقد كان لك ما انتظرت، وفتحت لك السماء أبوابها لاستقبال روحك الطاهرة بعد أقلّ من عشر ساعات من قولك لي هذه الجملة.

فقد كان لقاء الله في يوم الجمعة بعد أن اغتسلت، وصلّيت، وقرأت تنتظر الصلاة، هذا اللقاء الذي تنتظره بكل شوق وحب واستعداد تام، فهنيئاً لك يا سيدي ما قدمت لهذا اللقاء، هنيئاً لك بلقاء الأحبة محمدٍ وصحبه.

هذا العالم الربّاني الجليل الذي اتصف بصفات السلف الصالح رضوان الله عليهم.

إنه الشيخ عبدالغفار بن عبدالفتاح الدروبي، المربّي الزاهد، الفقيه المحدث، القارئ المقرئ، النحْوي الشاعر، المجاهد الصابر، الأب الرحيم، الزوج العطوف، صاحب الفضائل والشمائل التي تندر أن تجتمع برجل واحد.

تجلّت بشخصيته أسمى معاني الصبر والثبات على المبدأ في زمن

الفتن والمحن وتبدل الثوابت، رأيت في شخصيته معاني التوكل والإيمان العميق الذي يزداد تألقاً يوماً بعد يوم، عالماً متواضعاً بكل معاني التواضع.

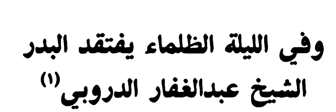
تجلّت شخصيته بمعاني الزهد الحقيقي، والرضا القلبي، والوقار، والحياء، والصمت والملاحظة، فقد كان قرآناً ناطقاً متحركاً، يهيمن القرآن الكريم بأخلاقه ومعانيه السامية على كل حركات الشيخ وسكناته. من رآه من بعيدٍ هابه، ومن رآه من قريب أحبه، ومن جالسه وعايشه عشقه، لما يرى فيه الناظر والجالس من صفات الهيبة والوقار والكمال والجلال.

كلامه مسك وعنبر، نظراته مختلفة عن باقي البشر، صمته يذكرك بصفة سيد البشر، حنانه وعطفه على كل البشر، الصغير والكبير، والقريب والبعيد، الزوجة والابن والأحفاد، يشهد بذلك كل من عرف وعايش الشيخ عبدالغفار.

رحمك الله يا سيدي يا أبا فيصل رحمةً واسعةً، وعوض الله الأمة الإسلامية من أمثالك ليكونوا كما كنت، ونسأل الله الذي أكرمنا بصحبتك في هذه الدنيا أن يحشرنا معك يوم القيامة تحت لواء النبيّ المصطفى ﷺ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين» انتهى.

رحم الله الشيخ رحمةً واسعةً، وجزاه خيراً عمّا قدّم من علم نافع وعمل صالح مبرور، وعوّض المسلمين خيراً عن فقد علمائهم وصلحائهم الذين قلّ نظيرهم في عصرنا هذا.





وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر
الشيخ عبدالغفار الدروبي[1]



بقلم: ياسر مسدي

في صبيحة خير يوم طلعت فيه الشمس، يوم الجمعة الموافق التاسع عشر من شهر الله المحرم ١٤٣٠هـ، اغتسل الشيخ عبدالغفار وتوضأ

---

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢١م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.
وجاء في مقدمة الترجمة كلمة المشرف الشيخ مجد مكي التالية:

أقيم ليلة أمس الثلاثاء ١٤٣٠/١/٢٤، الموافق ٢٠٠٩/١/٢٠ في منزل الشيخ الوجيه الفاضل يوسف بشناق اجتماع عامر لقراءة ختمة على روح فضيلة الشيخ عبدالغفار الدروبي، وقد حضره عدد كبير من العلماء وتلاميذ الشيخ ومحبيه، وقد تليت عدة ختمات على روحه، وألقى حفيده الشيخ عبدالغفار بن فيصل كلمة عن جده ومآثره، ثم ألقى الأستاذ الشيخ جمال سيروان كلمة رائعة عن فضل العلماء وأثر الشيخ وفضله، ثم تكلم الشيخ أبو النور قره علي كلمة خطابية مؤثرة عن منهج الشيخ وأهمية متابعة المنهج وتوارثه.

ثم ألقى فضيلة الشيخ ممدوح جنيد كلمة مختصرة عن صلته بالشيخ وأخلاقه الرفيعة العالية. ثم ختم المجلس بالدعاء، والعشاء، وقد تكرّم الأخ الدكتور ياسر مسدي بكتابة هذه الكلمة في رثاء الشيخ أحببنا أن نقدمها للقراء الكرام.

وصلى ما كتب الله له من صلاة الضحى، وجلس ينتظر الذهاب إلى صلاة الجمعة وهو على أحسن حال من الطهر والذكر وتلاوة القرآن، والصلاة على رسول الله ﷺ. وإذا بهذه الروح الطيبة المباركة تُلبّي أمر ربها في موعدها المحتوم، تخرج من الجسد الطيّب حميدةً مبشَّرةً ـ بإذن الله تعالى ـ برَوْح وريحان وربٍّ غير غضبان، ويسري هذا الخبر خلال لحظات إلى أهله وإخوانه وطلابه ومحبيه فيعزّي الجميع بعضهم بعضاً لأن المصاب بفقد العالم مصاب الجميع، وخاصّة في زمن قلّ فيه العلماء الربانيون الزاهدون في الدنيا الراغبون بما عند الله من نعيم مقيم.

المصاب بفقد العلماء:

إنَّ المصاب بفقد العلماء مُصَابٌ كبير، وخاصّة في هذه الأيام العصيبة التي يعيشها المسلمون، ورحم الله الإمام علي رضي الله عنه إذ يقول: «إذا مات العالم ثُلِمَ في الإسلام ثُلمة لا يسدُّها إلا خلف منه»[1]، كما أثر عن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ قوله: «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء»[2] كما روي مرفوعاً عن أبي الدرداء وأنس، ولعل الحسن سمع منه.

نعم العلماء هم المشاعل يضيئون الطريق للناس، ويُعرّفونهم السنّة من البدعة.

نعم العلماء العاملون المخلصون هم القادة، وهم الهداة، وهم الأدلة على الخير تُقْتفى آثارهم وترمق أفعالهم.

ثُلّةٌ مباركة من علماء حمص:

ولقد منَّ الله عليَّ أن عشتُ فترة من الزمن أستظل بظلِّ الثلة المباركة من علماء حمص في المعهد العلمي الشرعي، إذ كنت مشرفاً على الطلاب في المعهد، حيث كان والدي ـ رحمه الله تعالى ـ مديراً للمعهد يشاركه في التدريس السادة العلماء أمثال: الشيخ وصفي المسدي حفظه الله ورعاه،

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء، وعزاه العراقي إلى الخطيب في «تاريخه».
(٢) تقدم تخريجه ص٥١.

والشيخ عبدالغفار الدروبي، والشيخ أحمد الكعكة، والشيخ محمد جندل الرفاعي رحمهم الله رحمة واسعة، هذا بالإضافة إلى بقية العلماء الآخرين من خارج المعهد أمثال الشيخ: أبو السعود عبدالسلام، والشيخ محمود جنيد، والشيخ عبدالعزيز عيون السود، رحمهم الله جميعاً، وكذلك الشيخ محمد علي مشعل حفظه الله تعالى، والحديث عن خصال ومآثر كلِّ واحد ممن ذكرتُ يحتاج إلى سجلات يضيق الوقت عن تسجيلها الآن، ولكن لا بد لي من أن أسجل في هذه العجالة ـ وقد طلب إليَّ الأخ الشيخ مجد جزاه الله خيراً أن أكتب كلمة رثاء وتعريف بشيخنا الشيخ عبدالغفار الدروبي رحمه الله تعالى ـ رغم أني لست ممَّن لازم الشيخ فترة طويلة غير أني لم أنقطع عن الصلة به سواء في حمص أم في أرض المهجر.

بقية السلف الصالح:

كنت ـ منذ نعومة أظفاري ـ إذا نظرت إلى الشيخ شعرت بأني أمام عالم رباني من بقية السلف الصالح، يعلمك بلسان حاله قبل أن يعلمك بلسان مقاله، أتمثَّل في سَمْته ونظراته قول الرسول الكريم ﷺ عندما سئل: أيُّ جلسائنا خير؟ فقال: «**مَنْ ذكَّركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقُه، وذكَّركم بالآخرة عمله**»[1].

وفي هذا المقام يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «صيد الخاطر»: كان جماعة من السلف يقصدون العبدَ الصَّالحَ للنظر إلى سمته وهديه لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته.

في مسجد الدعوة:

لقد عرفت الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ إماماً ومدرساً ومربياً وداعيةً في مسجد جُورة الشّياح (الذي أطلق عليه فيما بعد مسجد الدعوة) نظراً للجهود الدعوية المباركة التي كانت تقام فيه، وخطيباً للجمعة في مسجد علاء الدين الحسامي.

---

(١) رواه عبد بن حُميد (٦٣١) وأبو يعلى (٢٤٣٧) في مسنديهما وتقدم تخريجه ص٦٠٥.

كانت دروسه متواصلة بعد الفجر وبعد العصر وبعد المغرب، بالإضافة إلى الدروس المتنقلة بعد العشاء.

عنايته بالشباب:

لقد كان الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ يعطي الشباب الناشئ من وقته، من علمه، من أخلاقه، من أسلوبه الدعوي الفذ، يرعاهم كما ترعى الأم الحنون أولادها.

في المعهد الشرعي:

هذا بالإضافة إلى تدريسه في المعهد الشرعي ما يقارب من عشرين سنة، حيث كان يفرض شخصيته على الطلاب، من خلال الهيبة التي حباه الله بها، وما عُرف عنه ـ رحمه الله تعالى ـ أنه ضرب طالباً أو وبخه بكلمات نابية، بل إنَّ مما أذكر في هذا المجال أنه ضرب طالباً مرة ضرباً خفيفاً، ولما ذهب إلى بيته أخذ يحاسب نفسه، وشعر ـ رحمه الله تعالى ـ كأنه اقترف ذنباً، فما كان منه إلا أن جاء إلى القسم الداخلي للطلاب، وسأل عن الطالب، وطلب منه العفو والسماح.

الجانب الدعوي والتربوي:

لقد غلب على الشيخ اهتمامه بالجانب الدعوي والتربوي رغم أنه المقرئ المتقن والفقيه الحاذق، وبالإضافة إلى اهتمام الشيخ بالدعوة في مدينة حمص، فقد كان يهتم بالدعوة في القرى اهتماماً كبيراً، حيث إن الدعوة في القرى في تلك الأيام كانت ضعيفة جداً. ولقد كان الشيخ في هذا الجانب يواصل مشوار والده العالم الزاهد الورع الشيخ عبدالفتاح الدروبي الذي لم يكتفِ بالدعوة في قرى حمص، فقد كان لقرى شمال لبنان (منطقة الضنية)، نصيب من ذلك، وله ولوالده رحمهما الله بصمات في الدعوة والتربية هناك.

وكثيراً ما كان الشيخ يأخذ طلابه معه إلى القرى يوماً في الأسبوع أو الشهر على حسب البرنامج، وفي هذه الرحلات الدعوية كان الشيخ يدرب طلابه على آداب السفر، وآداب الصحبة والخشونة في المعيشة، حيث كانوا ينزلون في مسجد القرية التي يذهبون إليها كما كان يدربهم على أصول الدعوة والصبر على طريقها الطويل.

العالم المعلم والصابر المحتسب:

لقد أمضى الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ حياته تعلُماً وتعليماً لأصول الدين، وقراءةً وإقراءً للقرآن الكريم، صابراً على كلِّ ما اعترض طريقه من مشاقَ وآلام. كان يعيش آلام أمته ففي أحداث ١٩٨٠ التي حدثت في سوريا فقد الشيخ كثيراً من طلابه واثنين من أبنائه وأحد أصهاره فصبر واحتسب، وكان مثالاً للصبر والرِّضا، رغم أن الشيخ لم يكن يحب المجابهة مع الحكام، ولكنه كان يوجِّه طلابه إلى الحكمة والاعتدال بهدوء فلا يشتد مع مَن خالف رأيه، بل يأخذه بالحِلْم والرويّة، ويلتمس له عذراً.

وأقول شهادة ألقى الله تعالى بها بأن الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ لم تفتنه الدنيا ولم تُغيِّر من حاله، فإذا نظرت إلى وجهه تشعر أنه يحمل هموم المسلمين وآلامهم، ويتابع أخبارهم، ويتابع طلابه وأحبابه، وينصحهم ويوجههم، ففي يوم وفاته صلى الصبح إماماً بالمسجد وقنت بالمصلين، ودعا لأهل غزة أن يفرج كربتهم. نعم هكذا ينبغي أن يكون أهل العلم. يعيشون مع الناس يحملون همومهم وآلامهم، ويتفقدون أحوالهم لأن مسؤولية العالم كبيرة جداً.

ويكفي أن نفهم مهمّة العالم بقول الرسول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ومهما كتبت عن شيخنا فلن أوفِّي نَزْراً يسيراً من حقه، وقد آثرت الحديث عن الجانب الدعوي والتربوي في حياة الشيخ لأترك المجال لطلابه، ومحبيه، أن يستوعبوا بقية الجوانب الأخرى.

اللهمَّ أؤجرنا في مصيبتنا بفقدنا للشيخ وعوضنا خيراً منها، وبارك في عقبه وتلامذته، واجعلهم خير خلف لخير سلف، وارحم الشيخ واجعله في عليين مع النبيين والشهداء والصالحين، واحشرنا يا ربي في زمرتهم، إنك سميع مجيب.

العالم الصالح الزاهد عبدالغفار الدروبي رحمه الله





الفهرس الإجمالي

الموضوع	الصفحة

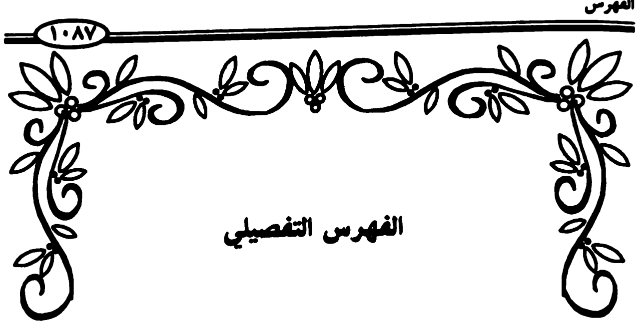
الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

□ □ □ □ □



الفهرس التفصيلي

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

□□□□□

هذا الكتاب

يضمُّ هذا الكتاب التراجم التي نُشرت في ركن «رجل فقدناه» من مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقيّة التي صدرت خلال عشرين عاماً (١٣٨٠ - ١٤٠٠)، وقدّم المحقِّق للكتاب بمقدمة وافية تُعرِّف بالمجلة، وتلقي الضوء على أهم موضوعاتها وأبرز كُتَّابها.

وقد استقصى جميع التراجم الواردة في ركن «رجل فقدناه»، التي تزيد على ستين ترجمة، وأضاف إليها عدداً ممَّن تقدَّمت وفاتهم عن تاريخ صدور المجلة الذين نُشرت تراجمهم فيها، كما أضاف عدداً وافياً من التراجم في النطاق الزمني لصدور المجلة وبعد توقُّفها حتى سنة ١٤٣٠، تقارب أربعين ترجمة أكثرها بقلم المحقق وتحريره، وعُني بتصحيح الكتاب وترقيمه، ووضع العناوين الجانبيّة الكثيرة التي تضيء الطريق للقارئ، ونثر الكثير من الفوائد في حواشي الكتاب، وحرص على نشر صور المترجَمين الذين نُشرت صورهم في المجلة، وأضاف عدداً من الصور النادرة والخطوط الجميلة، وقد بذل جهده في تقديم الكتاب بأحسن مضمون وأجمل صورة.

فشكر الله للمحقِّق جزاء ما قدّم من وقت في جمع هذه المادة النادرة، وأحسن إليه كفاء تعريفه بهؤلاء الرجال ونشره لمآثرهم، وإشادته بجهودهم، وجمعه لما تفرّق من أخبارهم، وأجزل له الأجر والمثوبة لخدماته المتنوّعة للكتاب، وتقديمه له بمقدمة وافية وإضافات كثيرة نافعة.